ريتشارد نورث باترسون

المنفى



رواية

ترجمة
حليم نسيب نصر

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

المنفى

ريتشارد نورث باترسون

المنفى

رواية

ترجمة
حليم نسيب نصر

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

المنفى

ISBN: 978-9953-27-798-1

Authorized Translation from the English Language Edition:

Exile

Dar Al Kitab Al Arabi دار الكتاب العربي

P.O.Box 11-5769 ص.ب.

Beirut 1107 2200 Lebanon بيروت، 1107 2200 لبنان

Tel (961 1) 800811-862905 هاتف

Fax (961 1) 805478 فاكس

E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني

Our Web site dar-alkitab-alarabi.com موقعنا على الوب

academiainternational.com

إلى...

آلان ديرشوفيتز وجيم الزغبي

في أيام المحن تغدو الحقيقة ثمينة لدرجة أنها تصبح بحاجة دائمة إلى ثلة من الأكاذيب تقوم على حراستها.

ونستون تشرشل

تقديم

عندما كلفني الناشرون أمرَ نقل هذه الرواية إلى اللغة العربية، لم أكن بعدُ قد قرأت شيئاً لمؤلفها، وحتى إنني لم أكن قد سمعت باسمه من قبل.

وعندما قمنا بتوقيع عقد الترجمة، كنت قد اطَّلعت على طبعة أوَّلية عن الرواية، مجرَّد اطلاع سطحي.

وعندما توكلت على الله، وشرعت في العمل، بدأ جلال المهمَّة ومسؤوليتها يتوضحان أمامي. فهذه الرواية لا ككلِّ رواية. إذ إلى جانب اكتمال عناصر الدراما، والمتعة، وعبقرية الحبكة، والسرد، والتشويق، والإثارة، والترقُّب: إلَّا أن فيها أيضاً رسالة تهدف إلى اجتراح حل لسلام عادل دائم بين شعب ضحية وآخر غدا ضحية الضحية. فالكاتب يعترف بانحيازه إلى الحل التاريخي الذي يقوم على دولتين: واحدة إسرائيلية، آمنة ضمن حدود معترف بها، والأخرى فلسطينية، قابلة للعيش والحياة. ويؤكد الكاتب على أن "إدراج رواية فريق ما لا يعني بالضرورة المصادقة على هذه الرواية، ولا ممارسة ذاك المعتقد."

كما أنه قد تنبَّه إلى أن الكثيرين من قرَّائه (ولعلَّ "اللغة الإنكليزية" هي ما كان يجول في ذهنه) "لا بد لهم من أن يجدوا شيئاً ما، لا يعجبهم في هذه الرواية." فالأصوليون اليمينيون اليهود لا يعترفون حتى بوجود شعب اسمه الشعب الفلسطيني، كما أن الضفة الغربية بالنسبة إليهم ما هي سوى "يهودا والسامرة"، وهي جزء من الأرض التوراتية التي منحها الله إلى "شعبه المختار"، كما أنهم لا يؤمنون بوضع حدودٍ ثابتة لهذه الدولة، ولا يؤمنون بإقامة السلام مع سواهم من "القوييم".

وما نخشاه نحن الآن هو ألَّا يعجب كلام هذه الرواية بعض الغلاة من قرَّاء اللغة العربية أيضاً، فالتطرف الأصولي الديني قد بات آفة لدى أبناء كل مذهب ودين، سواء في اليهودية، أم في النصرانية، أم في الإسلام. وهذه التيارات المتعصبة المتطرفة يعتاش بعضها على وجود البعض الآخر، ويستمد منه مبررات استمراره ووجوده. لذلك فإنه يوجد بينها ـ رغم الكراهية العمياء ـ تقاطع إيديولوجي واقعي، وهو الحرب الأبدية. وقد تجد البشرية يوماً دواءً ناجعاً لآفتي الإيدز والسرطان، لكنها لن تجد دواء لآفة التعصب.

وإذا كنا نتوقع لهذه الرواية أن تُحدث صدمة إيجابية، عابرة للحدود، في صميم

حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية العربية المعاصرة، لأنها تسلِّط الضوء على شيء من الزوايا التي نتغافل عنها تغافل النعامة التي تدسُّ رأسها في الرمال، إلا أننا نأمل أن تكون فرصة حقيقية لنا للوقوف، والتأمل، وأخذ العبر. فالمؤلف أميركيٌّ إلى آخر حدود الصراحة، وهذه أيضاً فطرة البداوة العربية الأصيلة، قبل أن تسربلنا ثقافة النفاق. وهو يضع الكلام صريحاً على لسان متطرفي اليهود، كما يضعه صريحاً على لسان متطرفي الفلسطينيين، كما على لسان صرحاء أميركا. ولكنه لا ينسى أن يُسمِعنا أيضاً أصوات المعتدلين، وأصوات الضحايا.

وغني عن القول إن الأحداث الرئيسية للرواية هي أحداث وهمية. كما أن شخصياتها الرئيسية هي وهمية أيضاً، وأسماءها أسماء وهمية تماماً. لكن هذه الأحداث وهذه الشخصيات شديدة العلاقة والرسوخ مع تاريخ أحداث هذا الشرق الأوسط الحقيقية، ومع بعض لاعبيه السياسيين الحقيقيين، من دولٍ، ومن أفراد. ولقد بلغ التصوُّر المرسوم لأحداث هذه الرواية حدَّ الاستقراء الشديد لمستقبل الأحداث.

وإذا كانت الرواية تُسمعنا رأي أعدائنا بنا، وتسليطهم الأضواء على عيوبنا، فكم حريٌّ بنا أن نستفيد من هذه الهدية! فنقوم على لمِّ الشمل، وسدِّ الثغرات والذرائع، وتقويم الاعوجاج، وتبيان الحقائق، ودحض الأكاذيب.

وإذا كنا نعترف بأننا قمنا، بقدر المستطاع، وبالتنسيق مع الناشر الذي قام بالمراجعة الأخيرة للرواية، على تدوير الزوايا الحادة في هذه الرواية لإيصال فكرة المؤلف بالأسلوب الملطَّف واللهجة المخفَّفة، إلَّا أن الحقيقة قد تبقى رغم ذلك جارحة، والرأي المخالف قاسياً على من لا يقبل سوى برأيه، ولا يعتنق سوى فلسفة إلغاء الآخر المختلِف.

ولكن، عزيزي القارىء، فإن الرواية في نهاية الأمر، ليست رواية الناشر ولا المترجم، لا شكلاً ولا مضموناً ولا أسلوباً (مع كل اعترافنا بعبقريتها ونفعها) ونحن بالتالي لسنا مسؤولين عنها ولا عن أي شيء منها، وهي بالتالي لا تعبِّر بالضرورة عن آرائنا الشخصية، لا شكلاً ولا مضموناً. ونحن لا نحاول أن نفرض على القارىء العربي موقفاً من الرواية أو من شخصياتها وأفكارها وأحداثها. لكننا نثق برصانة القارىء العربي ومناعته، وبقدرته على المحاكمة والتحليل والاستنتاج وأخذ النافع وترك النافل.

فالعاقل العاقل من البئر يستقي. والجاهل فيه يتردَّى. ولا ذنب في كل ذلك للبئر ولا لصاحبه.

بيروت: يوليو/أيلول 2007

المترجم

المنفى

فصل تمهيدي

الشــــهيــــدان

كان إبراهيم جعفر يحدق في قارورة المياه المعدنية "مايان ريفييرا"، ذات الغطاء الأبيض، ويجهد لكي يتخيل العمل الذي سينهي به حياته على هذه الأرض. القتل العادل في مكان بعيد عن بلاده للرجل الذي يتولى قيادة أعداء شعبه، بل للرجل الذي يشبه وجهه وجه النسر، والذي يتحمل المسؤولية المعنوية عن ضياع أخته وحزنها، وعما خلَّفه ذلك في نفسه من مشاعر الإحباط والغضب.

هكذا كان إبراهيم، ورفيقه إياد حسن المسؤول عن مهمتهما الانتحارية، يعيشان حالة معلقة بين الحياة والموت، في انتظار الأوامر التي ستحول شخصيتيهما المغمورتين إلى شعلتين من مشاعل الشهادة والبطولة. كان ملجأهما المؤقت ساعتئذٍ في قرية أكومال المعزولة في مكان ما من الشريط الساحلي الشرقي للمكسيك. لقد كانت هذه المنطقة في يوم من الأيام مأهولة بشعب المايا الذي خلَّف وراءه، قبل الانقراض، آثاراً شتى من أهرامات ومعابد. أما الآن، فهي مجرد منتجع للأجانب الأغنياء، ولهواة الصيد والغطس، المنجذبين إلى هذا الريف البحري ذي الشعاب المرجانية، والغني بالأسماك المدارية، المزركشة الألوان. أما مسكنهما المؤقت فلم يكن سوى فيلّا بيضاء مجصصة تقوم في وسط شريطٍ مكوَّنٍ من مثيلاتها، تظللها أشجار النارجيل (جوز الهند)، فيما هي تتربع على طنف صخري على حافة شاطىء الكاريبي. ولم يجد إبراهيم، المعتاد أصلاً على الوحشة والغربة في موطنه، في جمال هذه البيئة المعزولة سوى فصلٍ جديد من فصول الغربة والضياع. كان ذاهلاً كالمستيقظ من حلم مذهل.

لقد حطَّت بهما الرحال في هذا المكان منذ أسبوع مضى. ولم يخالف صباح يومه هذا، أي صباح سبقه، حيث شتتت نسائم الصباح السكرى غمائم الأفق، لتكشف النقاب عن سماء صافية عميقة الزرقة، يصافح لونها لون البحر عند منتهى الخط الذي يرسم حدود الأفق. وعند انتشار دفء الشمس، برزت الحسناوات النحيلات الجميلات من مخابئهن يسبحن ويغطسن ويتمايلن بملابس البيكيني الصارخة التي ملأته إثارة وخجلاً. فانكفأ عنهنّ وعن وهج الشمس الساطعة معاً.

لم يكن هؤلاء السواح، الساهون عنه في مرحهم ولهوهم، يمثلون لإبراهيم سوى نموذج عن الصهاينة الذين أذلوا شعبه، مستعملين الأسلحة الأميركية لاحتلال ما تبقى من أرض بلاده، ومن أجل تطويق أهله بشبكة من المستوطنات وحواجز الطرق التي تضرب حولهم طوقاً من العزلة الإسمنتية القاسية وتفرق حياتهم في ربقة لزجة من الفقر المذل. وفكّر إبراهيم بأخته، الجميلة، والمروَّعة، وهي ترتجف مرة، فيما القذائف تتساقط حولها. وقد كان ذلك قبل أن يضع الجنود الصهاينة أخيراً حداً لخوفها بسلبها كل طاقة على التفكير، وفكّر بوالده الكادح الذي لا يعود عليه دخله كمحاسب سوى بشروى نقير لا يكاد يسد لعائلته رمقاً. فكَّر في بيت أجداده في حيفا، وقد بات الآن مسكناً لليهود؛ هذا البيت الذي لم تكتحل عينا إبراهيم برؤية جمال حجارته سوى من صور فوتوغرافية قديمة العهد. فكَّر في صورة أخرى عائدة لكوخ في مخيم جنين للاجئين، حولته قنابل الطائرات الصهيونية إلى كومة من الأنقاض تتمدد تحتها جثة والده الممزقة التي لم يسهل التعرف على صاحبها لولا زوج نظارتيه المحاط بإطار مذهّب. ومع هذا، فإن كلمة "إرهابي" هي اللقب الذي يطلقه عليه الصهاينة.

لا، بل إني شهيد، رغم أنف الصهاينة، قال إبراهيم لنفسه. لكن سلوى، أخته، كانت السبب الأول الذي أوقد فيه العزم للاشتراك في هذه المهمة، ومن ثم ليجد نفسه في هذا المكان، بعيداً عن الوطن.

لقد ابتدأت مسيرتهما من رام الله في الضفة الغربية، استعملا جوازيهما الأصليين، وسافرا بطريق البر إلى عمان، ومنها طارا إلى باريس، ثم إلى "مكسيكو سيتي" ثم إلى "كانكون"، حيث استأجرا سيارة تحت اسم إياد الحقيقي، استقلّاها إلى حيث يقيمان الآن في الفيلا التي استأجرها لإقامتهما شخص مجهول يتولى تخطيط مهمتهما. لم يكن إبراهيم معتاداً على هذا النمط من حرية السفر والانتقال. لقد أدهشته أن تمتد أمامهما الطريق لأميال عديدة في خط مستقيم دون أن يشوبها حاجز تفتيش يقيمه جنود الاحتلال.

يا لفسحة الحرية، قال إبراهيم لنفسه بشيء من السخرية المريرة. فكلاهما ليس له سجل إجرامي، ويتكلم الإنكليزية بطلاقة تامة. إنهما في جزيرة "أكومال" لممارسة هواية الغطس، هذا ما صرَّحا به في مناسباتٍ قليلة، حيثما دعتهما الحاجة. وها هما لا يفعلان شيئاً سوى انتظار قدرهما ببذخ واعتزاز. فالتصور الذي يعطيه هذا المكان يبعدهما عن كل شكٍ وريبة. لأن من يختار ما اختاراه من مهمة، لا يُعقل أن يختار مثل هذا المحل لإقامته. ووجودهما يبدو متناغماً مع المحيط، ولا يكاد يثير شبهة، أو يجلب شكاً. كيف لا وهم في محيط من البشر، كلهم منصرف لنفسه، ساهٍ في متعته.

وهكذا انصرف الرجلان لنفسيهما، دون أن يستثيرا انتباه أحدٍ سوى مدبرة المنزل التي تتكلم لغة إنكليزية ركيكة، والتي اقتصرت علاقتها بهما على ما يحتاجانه منها من تنظيف خفيف، وطعام يسير. كان إبراهيم يعتقد أن مهمتهما تقع خلف تصور خيال هذه

السيدة البسيطة. فاليهود الوحيدون الذين ربما تسنى لها التعرف عليهم من قبل، لم يخرجوا، دون أي شك، عن نطاق دائرة الأميركيين الأثرياء، بدليل تقليبه للصور في الألبومات العائدة لأصحاب الفيلا الغائبين عنها، والذي لا يبدو أن مدبرة البيت تكاد تعرف عن مكان وجودهما شيئاً. لهذا، فإنه ورفيقه إياد في مكان آمن في الوقت الحاضر على الأقل.

ومع ذلك فقد كان إبراهيم خائفاً وحزيناً في آن معاً. فالحالة الحالمة لهذه الاستراحة جعلته ضئيلاً في عين نفسه؛ مجرد دمية تحركها قوةٌ خفيَّة. ومرة، حاول أن يتخيل افتخار رفاقه به، وإعجاب الآخرين بشجاعته، عندما سيدخله الموت إلى عظمة التاريخ. لكن هنا، في أكومال بدت صورة هذا الحلم بعيدة عن ذاك الرونق والحيوية اللذين تكتسبهما الشهادة في رام الله. لم تكن الصورة الآن، حيث هو، لتتعدى مشاهدة مراهق لفيلم عنيف يقتل بها الوقت في أصيل يومٍ ضجِر.

كانت صلتهما الوحيدة بعالم الواقع لا تتعدى جهاز الهاتف الخلوي الذي يحمله إياد. لم يكن مسموحاً لإبراهيم أن يجيب على الهاتف. أما إياد فكان يخلو بنفسه في زاوية ما، من زوايا الفيلا ليجيب على المكالمات باللغة العربية في صوت خفيض. وكانت شروحاته المقتضبة التي تليها كثيراً ما تُشعر إبراهيم بكونه يشبه طفلاً قاصراً يرعاه أهله الكبار، ويخاطبونه بعبارات مجتزأة من عالمهم، مدروسة، بحيث تقتصر على حاجاته، وتناسب مداركه، ليس إلا. فحديث البالغين مع الأطفال يختلف عن حديثهم الذي يدور مع سواهم من البالغين خلف الأبواب المغلقة. بل إن ما جعله يوغل في هذا الشعور هو كون إياد يتلقى تعليماته في الواقع من امرأة.

لكن هذه المرأة هي الأخرى لم تكن سوى حلقة اتصالٍ أخرى، بل آلة تحركها أيد أخرى، أيدي رجال آخرين يشاركونهم الهدف. إن شأنهم في نهاية الأمر، كما هو شأن قادتهم المخفيين، لا يتعدى كونهم مجاهدين في خدمة شعبهم، وفي سبيل الله.

نظر إبراهيم إلى ساعة يده، فعرف أن إياد قد صار في الداخل على وشك الانتهاء من صلاته المديدة. رأسٌ خفيضٌ، وعينان ساهمتان، تجعل الأخاديد المبكرة أكثر غوراً في وجه هذا الشاب المثقل بالشعور بالمسؤولية رغم عدم تجاوزه الرابعة والعشرين من عمره، أي ما يزيد بسنتين فقط عن عمر إبراهيم. كان يخيّل لإبراهيم أحياناً أن رفيقه إياد يعرف كل شيء سوى الشك. أما في أحيانٍ أخرى فقد كان يتمنى لو أن إياد هذا، لم يختره لهذه المهمة.

لم يكن إبراهيم يعرف خيالات محددة عن الجنة. كان يعرف فقط ما ستجلبه له الشهادة من خيالات دنيوية على أرض رام الله، ستدوم بعد موته. هذه الأرض المأهولة بمواطنين بسطاء سيستذكرون تضحياته بسعادة بينما هم يعيشون حياتهم اليومية على تلك الأرض التي لطالما سأل الله أن يجعل موته سبباً تتحول به عن حياتها الحالية. لن تكتحل عيناه برؤية أطفال لم يولدوا بعد، هؤلاء الأطفال الذين سيشعرون بالفخر عند ذكر اسمه، حسبما أكد له رفيقه إياد، كما أنهم سيتأملون صوره باعتبارها رمزاً من رموز البطولة والفداء. أما شظايا جسده فلن تجد لها قبراً في تربة الوطن.

لقد كان هذا المكان واحته وسجنه معاً، فهو الآن سجين الانتظار، سجين هذا الوقت الذي يزحف زحفاً متثاقلاً معذِّباً، إنهم في انتظار المكالمة الهاتفية التي تدق معها ساعة التنفيذ. وهكذا، جلس إبراهيم مرة جديدة على مقعد حجري منصوب فوق طنف صخري تصدمه الأمواج محدثة رغوة في الأسفل، ورذاذاً أبيض في العلاء، يرطب وجهه وصدره العاري بضباب بارد. كانت المسافة الرملية الممتدة بين الصخور وبين الفيلا مكتظة بالنخيل. أما الموج المتكسر على صخور الشاطىء فقد ملأ الجو بملاءة مستديمة من الرذاذ. وأما الفيلا نفسها، فقد كانت رحبة متجددة الهواء، وفي حديقتها الأمامية المسوَّرة تقوم بركة للسباحة. لم يكن باستطاعة إبراهيم أن يتصور أن أحداً يستطيع أن يعيش في مثل هذه الفيلا سوى المستوطنين الصهاينة الذين تشبه سقوف منازلهم ذات القرميد الأحمر، سقف هذه الفيلا، لكن فكرة عابرة مزدرية جعلته يعتقد أن زعماء السلطة الفلسطينية، الذين كانوا، يوماً ما، قادته الاسميين، ينعمون أيضاً بمثل هذه الحياة. لكن الصورة التي عثر عليها في هذا البيت بالذات تشير إلى صاحبه اليهودي الأميركي الملتحي، بينما زوجته النحيفة تبتسم للكاميرا كأنها عارضة أزياء في يوم إجازة. أما على طاولة القهوة فهناك كتاب مصور عنوانه: "يوم في حياة إسرائيل". وهو عبارة عن "كاتالوغ" للإنجازات الصهيونية من مدارس ومدن وصحاري تحولت إلى جنائن نابضة بالخضرة، والبساتين، والكروم، والثمار المتعددة الألوان، والخضار النضرة. أما ما قرأه إبراهيم في هذا الكتاب، رغم كل ذلك، فكان صورة جدّه وهو يحتضر في مخيم للاجئين. شيخ ضئيل حكيم ذو نظرة قريبة وبعيدة معاً، نظرة تختصر عقوداً من نزع الملكية والحرمان. وليس ثمة كتاب يضم بين دفتيه صورة ذلك الجد في الوقت الحاضر. لقد عاش ذاك الجد المسكين، ومات، دون أن يراه أحد، سوى الذين عاش معهم من أفراد أسرته.

تذكر إبراهيم ذلك، فأحس أن عينيه غائمتان بالحزن والغضب. وتذكر أن العالم بأسره يبكي لوفاة طفل يهودي. لكن ما من صحافة تهتم لتغطية أنباء موت الفلسطينيين إلا إذا ماتوا بينما هم يقتلون اليهود. لم تأتِ صحيفة واحدة على ذكر أخته هو، ولا على ذكر طفلتها التي لم تضمها أمها أبداً، بين هذه الصحف المهووسة بتضخيم أخبار اليهود الذين تقتلهم الانفجارات في المدن والمستعمرات المقامة على أرض أجداده. تلك الانفجارات التي ينفذها شجعان قلائل يختارون لأنفسهم الخروج من حمأة الممارسات السياسية القذرة داخل المخيمات، لكي يجعلوا عدوَّهم يتألم كما يتألم أبناء شعبهم. ورغم أن إبراهيم كان يقدّر بطولة هؤلاء الأفراد، ويتفهم أسباب عملياتهم، إلا أنه لم يكن قط ليسوِّغ لنفسه الاشتراك في قتل النساء والأطفال. إن عليه أن يشكر الله لأنه كان قد أُرسل لقتل رجل.

وهذا الرجل هو وجه إسرائيل، والرجل الأول فيها.

لقد عرف إبراهيم هذا الوجه منذ الطفولة، منذ أن أَبصرت عيناه جنود إسرائيل، وجموع الفلسطينيين المهانة. حتى إنه وإن سُمح للكلاب بأن تنبح فإنه لم يكن ليُسمح

للفلسطيني أن يفعل هذا. عرف إبراهيم أيضاً أن الإرهابي الحقيقي لم يكن الإسرائيلي وحده، بل الأميركي أيضاً. فما أن يُقتل إسرائيلي واحد حتى ينبري رئيس الولايات المتحدة لذرف دموع الحزن. لقد عرف كل ذلك، ولم يفعل شيئاً حتى الآن. حتى جاء ذلك اليوم الذي نظر فيه إلى عيني شقيقته، وهما الآن عينان غاربتان عن الحياة كما تغيب عيون الموتى. وهو يعرف الآن أن عليه المساهمة في الجهاد ضد المحتلين لتحرير وطنه المغتصب...

شيء ثقيل سقط مدوياً وراء ظهره. فأجفل منتظراً سماع صوت ارتطام قنبلة، وجمد في مكانه متوقعاً انفجاراً كان كفيلاً بتمزيق أضلاعه. لكن لدهشته، فإنه شاهدَ توقُّف تدحرج ثمرة جوز هندٍ نصف مهشمة بعد سقوطها من أعلى شجرة نارجيل قريبة.

سخر إبراهيم من نفسه ممتقعاً. فلسطيني شريد في حديقة خضراء في المكسيك يرتعش لقنبلة وهمية تسقط عليه من أعلى شجرة.

قبل أن يشهد مصيبته في سلوى، كان قد ضحك غير مرة، حتى في أوقات عصيبة. لقد تعجب في أمر ما قد وجده في وجه إياد، هذا الشعور الغامض الذي نفذ إلى أعماق كيانه، شعور الذي شهد الكثير وأحس بالكثير، شعور بإحباط قديم يتجاوز عمره عدد سنوات عمر صاحبه. فعلى شاشة التلفاز في الوطن، كان بإمكانه أن يشاهد أناساً جميلين من جميع أنحاء العالم، أناساً أحراراً سعداء، وفتيات فاتنات يضارعن في جمالهن جمال هاتيك الفتيات شبه العاريات على شاطىء أكومال. لكن إلى جانب جهاز التلفاز الذي امتلكه يوماً، إضافة إلى كمية قليلة من الكتب والملابس، وشهادة جامعية من جامعة بيرزيت، دون مستقبل يستطيع أن يراه، قد ملأته هذه الأشياء جميعاً بإحساس بالتفاهة. فقد كان يجلس في محاضرة العلاقات الدولية ليختلس نظرة إعجاب من رفيقته فاتن، ذات العينين العسليتين، والابتسامة المغرية، ليصطدم بحقيقة شعوره أنه أعجز من أن يقدم لها أيَّ شيء.

حتى إن إقامتهم المؤقتة في أكومال لم تكن سوى مداراة لقلة شأنهم. فها هم هنا في هذا المكان بدل أن يكونوا أصلاً في غربي المكسيك، بسبب تبدل طارىء في الخطة فرضته الإملاءات العرقية والقهرية، حسبما أفضى إليه إياد. فقد نصَّب بعض فتوّات الأميركيين المتبطلين أنفسهم، طوعاً، كحراس على حدود أريزونا ونيومكسيكو، وراحوا يقومون بأعمال الدورية، أملاً بإلقاء القبض على مكسيكيين يحاولون عبور الحدود بطريقة غير شرعية. لذا، فقد خشي منظمو العملية أمر وقوعهما بين أيدي حرس الحدود البيض المتطوعين الباحثين عن المكسيكيين الذين قد تشبه سمرتهم سمرة العرب.

"الأميركيون واليهود"، قال له إياد عند لقائهما الأول، مستعيداً عظة كان قد سمعها من إمام أصولي، "حيثما كنتم اقتلوا اليهود. وإن من يضع حزاماً ناسفاً على وسط أبنائه يباركه الله. ما من يهودي يؤمن بالسلام، كلهم منافقون كذبة. وحتى لو جرى التوقيع على ورقة سلام بين اليهود وخونتنا من الفلسطينيين، فإنه لا يمكننا أن ننسى حيفا ولا يافا

ولا الجليل، وكل أرض أو نفس سلبها الصهاينة منا يوماً بعد يوم: هي ذل في أعناقنا يطحن به الغاصب وجوهنا. لا تأخذنكم باليهود شفقة ولا رحمة. ولا تنسوا أن اليهود هم سيف بيد أميركا، عدوتنا التي تقوم بتسليح أعدائنا".

هذه العظة تركت إبراهيم دائخاً، مع أنه كان قد سمع مثلها كثيراً، في مرات كثيرة. أما عندما سمعها هذه المرة فإنه قد شعر بالحذر، شعور شخص يتلقى ضربات منتظمة على رأسه بكيس من الرمل. ثم ما لبث أن فكر بأخته سلوى...

ومرة جديدة أجفل إبراهيم..

أجفل متوتراً لسماع الرنة الثانية الناشزة للهاتف الخلوي تأتي من وراء الباب المشبَّك لغرفة إياد، عندما توقف الرنين فجأة ليبدأ صوت إياد.

أغمض إبراهيم عينيه.

بقي لعدة دقائق هادئاً صامتاً. ثم خالجه شعور متوجّس عندما سمع وقع خطوات إياد على الرمال خلفه، وأحسَّ بخياله يحجب الشمس.

رفع إبراهيم رأسه ليقع على وجه صديقه المنهك المضنى. وجال في نفسه، كما في كل مرة، أن الله لم يعطِ صديقه جِلداً كافياً لتغطية عظامه.

"لقد اتصلت بنا"، قال إياد، وكان في صوته الرتيب نغمة الاستهانة والكبرياء التي شعر إبراهيم أنها تنافر الدقة التي كان ينفذ بها توجيهاتها السابقة. "إنها ليلتنا الأخيرة على هذه الأرض، أما الآخرة فخير وأبقى".

* * *

بعد مرور يومين، كانا يركبان مع سائق نحيل بارد النظرات اكتفى بالتعريف عن نفسه تحت اسم بابلو. وسارت بهم الشاحنة باتجاه الحدود. "لن يكون ثمة مشكلة في عبور الحدود"، أكد لهم بابلو بلهجة إنكليزية مدهشة. "الألوف يفعلون ذلك كل يوم". مع أن هذا غير صحيح، افتكر إبراهيم في سبب هذا القول.

أنزلهم بابلو على مسافة ميل واحد من الحدود. وما إن وطئت أقدامهم الأرض الجافة حتى بدءا سيرهما تحت أشعة الشمس اللاهبة. والتفت إياد إلى الوراء ليرى أن شاحنة بابلو قد اختفت، ثم خاطب إبراهيم قائلاً: "هنا نتخلى عن الهاتف وعن جوازي سفرنا، وعن سائر الأوراق التي تدل علينا".

مع هذه الكلمات القليلة أقفل إبراهيم إحساسه بالتوجس.

أفرغ إبراهيم جيوبه. وطمر إياد جوازي السفر في مخبأ مؤقت تحت كومة من الحجارة، وقد فعل ذلك بعناية رجل يزرع أرض حديقته بكل إخلاص.

بعد ساعة من الزمن، وبينما كان وجهاهما يتصببان عرقاً من جهد المسير، لمح إبراهيم التماع شاحنة فضية اللون تتجه نحوهما عبر الحقل الرتيب فتجمد خوفاً. لكن إياد قال بهدوء خارق للطبيعة: "ها نحن في أميركا، حامية الصهيونية العالمية وإرهابها، والتي احتلت أرض العراق لاغتصاب ثرواته والهيمنة على دول الشرق الأوسط".

توقفت الشاحنة بالقرب منهما. وفتح سائقها، الشاب الأسود الشعر، الباب الخلفي لهم. وبلغة إنكليزية تضارع لغة بابلو، قال لهما: "انبطحا أرضاً، فإني لم أقبض أجرتي كي أفقدكما". لقد بدا الرجل لإبراهيم عربياً أكثر مما هو إسباني. لكنه أدرك بعد ذلك أنه إسباني مثل بابلو.

وعندما سمح لهما السائق بالجلوس، كان قد بلغ بهما براونسفيل في تكساس. هناك أنزلهما قرب محطة للباصات. ولم يكن لديهما أي شيء عدا مفتاح خزانة في داخل المحطة كان قد زودهما به السائق.

كانت المحطة شبه فارغة. فتح إياد الخزانة بعد أن ألقى نظرة خاطفة وراء كتفه. وقد احتوى الكيس البني الذي وجداه بداخلها على بطاقة ائتمان، ومبلغ ثلاثة آلاف دولار نقداً، ومفاتيح سيارة، وحافظة أوراق، وجوازي سفر أميركيين بأسماء مستعارة، ورخصتي قيادة من كاليفورنيا. وبشيء من الدهشة، حدق إبراهيم في صورته على وثيقة السفر الملفوفة بالنايلون، فاكتشف أن اسمه الجديد هو يوسف عقيل.

لنخرج من هنا؛ قال إياد متحدثاً بالعربية بصوت خفيض.

ثم قاد إبراهيم، بوجه خالٍ من أي تعبير، إلى سيارة فورد تصعب ملاحظتها، مركونة على مسافة شارعين من المحطة. فتح إياد باب السيارة لإبراهيم من جهة الراكب.

"لدينا سبعة أيام" قال إياد "وسنقود حتى حلول الظلام".

كان الموسم في أواخر الربيع من شهر حزيران حيث النهارات طويلة. استجمع إبراهيم ريقه الجاف بينما هو يدلف إلى الداخل متخيلاً أنه لن يستطيع أن يهجع إلى النوم لعدة ساعات، هذا إن استطاع النوم أصلاً.

قاد إياد السيارة بصمت، بينما أخذ إبراهيم يقلّب صفحات حافظة الأوراق. وكان بداخلها حزمة من الخرائط توضح الطريق من براونسفيل إلى سان فرانسيسكو. وعلى الخريطة الأخيرة لمدينة سان فرانسيسكو ظهرت نجمتان محاطتان بخط بارز. الأولى معينة على أنها "محطة الباصات"، والثانية لمكان يدعى: "فورت بوينت".

مغلقاً عينيه اتقاءً لأشعة الشمس القاسية، حاول إبراهيم أن يستحضر في ذهنه صورة سان فرانسيسكو، المحطة الأخيرة في رحلة حياته.

القسم الأول

الأمـــل

الفصل

1

كانت حياة دافيد وولف تسير في مسارها الذي خطط له بعناية منذ زمن طويل. إلى أن اتصلت به هناء عارف بعد ثلاث عشرة سنة من الصمت. وعندما أيقن من هي صاحبة الصوت، شعر أن الزمن قد توقف فجأة وبسرعة.

ففي ما عدا الربيع الذي سماه ربيع هناء، كان لدى دافيد على الدوام خطة جاهزة مرسومة. لقد خطط لكي يتفوق في مدرسته الإعدادية، في واجباته المدرسية، كما في الرياضة. وقد حقق حلمه فعلاً. وبعد أن أنهى دراسته في الثانوية خطط للذهاب إلى جامعة هارفارد لدراسة الحقوق، وقد نجح في ذلك أيضاً. ثم خطط لكي يتولى وظيفة وكيل نيابة لكي تكون تلك الوظيفة مدخله إلى عالم السياسة، وقد حقق هذا الحلم أيضاً، حيث تسلم هذه الوظيفة فعلاً ثم استقال منها.

وإذا كانت آخر حلقات أهدافه ما زالت تتقدم بشكل طبيعي في طريقها المرسوم، وبدرجة من السلاسة فاقت كل ما كان يعتقد، فإن بعض الفضل في ذلك يعود إلى خطيبته كارول شور، التي وإن دخلت إلى حياته دون تخطيط. فإن تأثيرها على سهولة مخططات دافيد، وإن يكن جزئياً على الأقل، يعود إلى أن مخططات حياتها الخاصة بها، قد تطابقت جيداً مع مخططات حياته. أما الآن، فإن مخططهما المشترك هو نفسه: الزواج، وإنجاب طفلين، وإيصال دافيد إلى الكونغرس. وقد استمرت هذه الخطة تسير، بشكل أو بآخر، في خط مستقيم في حياة دافيد منذ أن كان مراهقاً، ذلك أنه شعر بنفسه أن له طلَّة آسرة، وظرافة ساحرة، وسرعة خاطر لافتة، مقرونة جميعها بضبط نفس، وقوة إرادة فاقت في تأثيرها خصاله جميعاً. مرة واحدة فقط ـ مع هناء ـ لم يكن ليهمه شيء في الدنيا سوى الشخص الآخر الذي أمامه، وكانت تجربة مخيفة، ومنعشة، وفي نهاية الأمر منطوية على تضحية، حتى إنه ثبت فيها فقط بتمسكه بخططه حتى صار إلى ما صار إليه من حال. ثم تبين لدافيد: كم هي خطيئة أن يكون المرء محكوماً بخطة حياته الخاصة دون سواها.

وهذا الاستنتاج جنّبه أن يكون شخصاً متحجر الفؤاد، أو هازئاً بالآخرين. فعلاقته بهناء قد علمته الكثير عن إنسانيته الخاصة. كما أنه عرف أن قوة سيطرته على ذاته،

وموهبته في الاحتفاظ بتجرده، كانا جزءاً من نعمة ذات مصدرين. لعلها تعززت لديه بسبب هناء، وتسلسلت إليه من والديه، وهما طبيب نفساني، وأستاذة جامعية في الأدب الإنكليزي، جمعت بينهما صرامة التفكير. وكلاهما متحدر من أصل يهودي ألماني، ويتشابهان في مشاعرهما المخزونة التي ذكرته بالبروتستانتيين الأنكلوسكسون البيض المميّزين الذين صادفهم عندما أرسله والداه من سان فرانسيسكو إلى المدرسة الإعدادية في كونكتكت، فبان عليهما يومها شيء من العاطفة التي فاقت ما كان يتوقعه منهما.

كل هذا، جعله يثمن عالياً، لا بل يحسد، تلك العاطفة العميقة التي كانت تربط كارول بوالدها هارولد. وهارولد هذا، كان من الذين نجوا من المحرقة. ولذلك فإنه كان يعتبر مجرد وجودهما ـ هو وابنته ـ في الحياة مدعاة للاحتفال. لهذا فإنه في هذا الصباح، بعد أن توافق مع كارول على موعد زفافهما، عقب ممارستهما الحب، ولاحظ كيف فاضت عيناها بدموع التأثر، لقد عرف في الحال أن فرحها لم يكن عائداً لنفسها فحسب، بل من أجل أبيها أيضاً، ذلك الأب الذي كان يرغب في الاحتفال بزواج ابنته نيابة عن أرواح الموتى من الذين ماتوا في معتقلات هتلر، وهو أمر عميق الغور في نفس هارولد إلى درجة تكافىء نجاته الشخصية من الموت. لذلك فقد اقتضى ذلك منه أن يعطي قلبه وروحه من أجل كل الهبات التي وهبتها الحياة له، والتي كانت ابنته الوحيدة في رأس قائمتها.

لهذا فقد مارس دافيد وكارول الحب مرة جديدة على سبيل الاحتفال. بعد ذلك، استلقت بجانبه، ونهداها يلامسان صدره، بينما خصلات شعرها البني تمس كتفيه مساً رفيقاً. لقد نسي دافيد، للحظة سعيدة، تلك المرأة الأخرى، الأقصر قامة والأكثر سمرة، التي بقيت أبداً في خياله تحتفظ بصورة ابنة الثالثة والعشرين التي كانت تعني له ممارسة الحب معها فناء كاملاً في الآخر.

وهكذا، عندما أجاب دافيد وولف على هاتفه، فإنه كان حتى تلك اللحظة راسخ الجذور في حاضره، راضي النفس عن مستقبله. لقد كان مرة جديدة، كما حدَّث نفسه، رجلاً محظوظاً ذا مواهب موروثة جعلته يتميز دون جهود استثنائية بذكاء حاد، ومزاج رائق، وسحنة تتجلى في كل قسمة من قسماتها بوضوح قوة عظمتي الوجنتين، وأنف مستقيم، وذقن مفلوقة، بالإضافة إلى عينين زرقاوين رائقتين، يصعب نسيانهما، وتلاقيان إطراء عند كل ظهور على شاشة التلفزيون. أضف إلى ذلك قامة معتدلة، ولياقة بدنية جيدة عززتها الرياضة اليومية وتمارين الكمال الجسماني.

أما حياته اليومية فلم تكن هي الأخرى سوى مزيج من الحظ السعيد والانضباط الذاتي والتخطيط الدقيق. في ذلك الصباح، عقب وصوله إلى مكتب المحاماة العائد له، ذلك المكتب الشديد النظافة، المقتصد التنميق، تصفح دافيد أوراق روزنامة المكتب وهو ينظر إلى أبعد من مواعيد وملاحظات المحامي الواقف على أعقاب السياسة: الجلسات، والاستجوابات، والمرافعات، واللوائح، والمذكرات التي اقترن فيها العمل في القضايا المدنية

بالعمل في القضايا الجزائية، إضافة إلى المناسبات الاجتماعية، والولائم، والأمسيات، واللقاءات مع جماعات المجتمع المدني، كلها كانت تشير بوضوح إلى تقدمه في الطريق إلى الكونغرس كمرشح عن الحزب الديموقراطي، وتعطي لموعد الزواج الذي حدده مع كارول رونقاً خاصاً. لا شك أنها ستكون مناسبة لن يوفر في سبيلها والد العروس، هارولد شور، أي جهد أو نفقة، وهذا ما يناسب طموحات كارول تماماً، لأن يوم عرسها سيجمع إلى الاحتفال الرائع بالمناسبة ذاتها، فرصة أخرى لخطيبها كي يعمق علاقاته الاجتماعية مع الجالية اليهودية التي ستكون القاعدة الأساسية التي تموِّل حملته الانتخابية للوصول إلى الكونغرس.

كان هذا يناسب دافيد تماماً. وكان بيت كارول، القائم على "روف" أحد المباني، نقطة استقطاب مثالية للاجتماعات التي تهم الديموقراطيين، كما تهم مصالح الجالية اليهودية. كما أنه بات معتاداً على رؤية كارول وهي تخطط لإقامة المناسبات الاجتماعية الباذخة والمفيدة معاً، وكان آخرها دعوة للعشاء يحضرها رئيس الوزراء الإسرائيلي عاموس بن آرون. ومن بين جميع المناسبات التي رتبتها كارول: بدت هذه المناسبة بالذات مبيَّتة أكثر من سواها، ومربكة أكثر مما عداها. فبن آرون، صاحب التاريخ المتطرف والخط المتشدد، يصدم العقل الأميركي الآن في جولته الهادفة لكسب الدعم لخطة الورقة الأخيرة التي يلعبها، وهي خطة مثيرة للجدل، من أجل تحقيق السلام مع الفلسطينيين. هذا السلام الذي طالما بقي مسدود المسالك بفعل الصراعات العنيفة المضنية التي عاشها الشعبان. وكما حصلت الأمور، فإن دافيد كان يعرف عن هذه الخطة أكثر مما يستطيع أن يصرح به لكارول دون أن يكبدها بجروح لا لزوم لها، أو أن يفتح جروحه الخاصة.

لذلك فقد طرد دافيد فكرة ما، راودته. وحينما نظر إلى موعد زواجه هو وكارول، تساءل بابتسامة عما إذا كان بوسع رئيس الوزراء الإسرائيلي أن يكون إشبينهما يوم الزفاف. ولا شك، أن كارول نفسها كانت قد راودتها هذه الفكرة أيضاً، لكن عيب دافيد الوحيد، الذي يحول دون ذلك حسب اعتقادها، هو أنه ليس يهودياً متحمساً بما فيه الكفاية. ليس لأن ذلك يبدو حقيقة واضحة فحسب، إذ إن عشيقة سابقة غير يهودية كانت قد نظرت إلى وجهه مرة، بعد انتهائهما من ممارسة الحب معاً، وقالت: *"تبدو لي مثل بطل فيلم إسرائيلي، إذا كان هناك من بطل كهذا"*. ثم إن دافيد، حتى تلك اللحظة، لم يكن قد قام بعد بأي زيارة لإسرائيل. لهذا اعتقد أن كارول لا بد من أن تتحفظ على فكرته.

كان لا يزال في مزاجه المنتشي عندما ترك التقليب في صفحات روزنامته محوِّلاً نظره نحو خط الأفق في سماء سان فرانسيسكو عندما رن جرس هاتفه.

أمعن النظر في شاشة الهاتف التي تحدد هوية المتصل، لكن ما ظهر أمامه لم يتعدَّ أن يكون مزيجاً لا معنى له من الأرقام فحسب. إنه رقم هاتف خلوي، وقد يكون دولياً، قال دافيد لنفسه. وبشيء من الارتباك، قرر الإجابة.

"دافيد؟"

كان صوتها الحاسم والناعم في وقت معاً، سبباً لعدم الإبطاء في الإجابة.

"نعم؟"

"دافيد". كانت إعادتها لاسمه ثانية أكثر هدوءاً هذه المرة" أنا هناء."

"هناء" سبقه لسانه إلى القول. ثم هبَّ واقفاً، نصف ذلك بفعل منعكس لاإرادي، ونصفه الآخر بفعل المفاجأة. "ماذا بحق الله..."

"أعرف." قالت بتردد. "أعرف أنه قد مضى وقت طويل."

"إنها ثلاث عشرة سنة."

"أجل ثلاث عشرة سنة. أما الآن، فإنني موجودة هنا في زيارة إلى سان فرانسيسكو."

"هكذا، فجأة!"، قال دافيد متضاحكاً.

"ليس الأمر كذلك بالضبط. صائب يلاحق عاموس بن آرون دون هوادة لإيضاح عيوب وتناقضات خطته الأخيرة المزعومة للسلام، وربما بطريقة أكثر حدّة مما يمكن أن يطيقه مضيفونا الأميركيون".

قالت ذلك كما لو أن ما تفضي به هو مجرد حقيقة منطقية متوقعة.

"إذاً أنتما متزوجان".

"أجل. كما أننا ـ أو بالأحرى أنا ـ قررنا أنه قد حان الوقت لكي تزور منيرة الولايات المتحدة الأميركية." هذه المرة كانت هناء هي التي ضحكت. "لقد صرت أماً يا دافيد."

كان هناك لغزٌ ما، في رنة ضحكتها، لم يستطع دافيد أن يفهمه تماماً. ولعلها تقصد أن تفهمه ببساطة أنها لم تعد تلك الصبية اليافعة التي عرفها، ولا تلك الفتاة العاشقة التي ربما كان لا يزال يحفظ صورتها في ذهنه.

"هذا ما حصل إذاً. أو بالأحرى: هذا ما تقولينه لي"، أجابها.

"ألم تتزوج أنت؟"

"لا، ليس بعد. لكنني مقدم على الزواج بعد سبعة أشهر. وفقاً لتقاليد الزواج التي على الأبناء إطاعتها". وللحظة ما، أراد أن لا يتحدث عن نفسه. "إذاً كيف تجدين الأمومة؟"

هذه المرة وجدت هناء نفسها للحظة تتحول عما تريد قوله. "منيرة"، أجابت ببعض الجفاف، "هي ثأر أهلي مني. إنها ذكية، ومصمّمة، ومليئة بالحماسة لأفكارها الخاصة.

يخطر ببالي أحياناً أنها لن تتصور أنني كنت مثلها عندما كنت في عمرها. وأحياناً ينتابني ما ينتاب الأم من شعور بالرضا والفخر والغم معاً عندما أجد نفسي في صورتها."

"إذن هي جميلة أيضاً"... قال ذلك، بينما أخذ يتمشى في مكتبه.

"جميلة؟" يبدو أن سماع هذه الكلمة كان له وقعٌ مفاجىء على هناء. وتذكر دافيد الآن أنها لم تكن مدركة لمدى سطوة جمالها، على الأقل إلى أن نظرت إليه وقرأت تأثير جمالها في عينيه. "أجل"، أكملت قائلة بيسر، "بالطبع هي جميلة".

هنا لم يعد أيٌّ منهما يدري ما يقول. "هل أنا أزعجك؟"، أردفت قائلة.

"ماذا تقولين؟"

"أعني هل قاطعتك مكالمتي؟"

"بالعكس، إنني سعيد جداً لاتصالك".

ترددت قليلاً. "لأنني اعتقدت أننا ربما نتناول الغداء معاً."

أبطأ دافيد قليلاً ليسأل: "ثلاثتنا معاً؟"

بعد إبطاء قليل أيضاً من جهتها، قالت: "أو بالأحرى: أربعتنا معاً، إذا أحصينا حضور زوجتك المقبلة."

لقد أرادت أن تضمِّن نبرتها مسحة من كرم الخلق بجعل دعوتها تشمل امرأة لم يكن وجودها في الحسبان.

"وكيف هو حال صائب؟" استدرك دافيد قائلاً.

"مازال إلى حد كبير على الحالة التي تعرفه فيها. كلانا أستاذ محاضر في جامعة بيرزيت، قرب رام الله. لقد مرَّ بعض الوقت، كما تذكر، منذ أن أغلق الإسرائيليون جامعتنا. صائب ما زال على حاله ذكياً وساخطاً. وربما أصبح ساخطاً أكثر مني بكثير في الوقت الحاضر. إنه ما زال على إخلاصه للقضية الفلسطينية، لكنه بات أكثر راديكالية، بل على كثير من التشدد الإسلامي." وتوقفت عند هذا الحد. وكان بود دافيد لو يستطيع أن يسألها: هل هي فكرة صائبة أن تجمعيني مع صائب إلى مائدة واحدة مرة أخرى؟ لكنه خشي أن طرح مثل هذا التساؤل سوف يكون بمثابة تلميح إلى صائب، وربما إلى هناء أيضاً، لأن دافيد بات يضمر ضغينة ما، بسبب ما فعلته له هناء. ثم تكلمت هناء ثانية.

"ربما كنت على حق"، قالت بكل بساطة، مجيبة على سؤاله الذي لم يطرحه. "هل أنت على ما يرام يا دافيد؟"

"إنني في حالٍ، أجل، جيدة جداً". قال ذلك وهو يسترجع، بوخزة وجيزة، نكراه الأخيرة عن هناء. "وكيف حالكِ أنتِ؟"

"جيدة بما يكفي." مرة جديدة بدت كأنها مترددة، وربما حزينة، لأنها قامت بهذا الاتصال. "وأنت هل صرت محامياً جزائياً كما كنت تتمنى؟"

"صحيح."

"بل محام جيد، لا شك عندي."

"جيد إلى درجة كافية. لكنني مع هذا أخشى أنني مقبل على خسارة واحدة من قضاياي. والسبب الرئيسي لذلك هو أنني أمضيت معظم اشتغالي في القانون حتى السنة الماضية في وظيفة وكيل نيابة. ووكلاء النيابة لا يرافعون عادة سوى عن القضايا التي يستطيعون ربحها. لذلك فإنني الآن مقبل على خسارة إحدى قضاياي."

"أتمنى ألَّا يحدث ذلك، على الأقل من أجل موكلك التالي." ثم أخذ صوتها نبرة رقيقة من جديد. "وخطيبتك، هل لها اسم؟"

"كارول. كارول شور."

"وماذا تعمل في الحياة؟"

"تشغل نفسها بأشغال كبيرة على العموم. فهي تحمل شهادة ماجستير في الخدمة الاجتماعية. لكن والدها رجل ثري جداً، لهذا فإنها قد خطت طريقها نحو القضايا التي تهتم بها كثيراً، كحملات تمويل الحزب الديموقراطي، ورئاسة مجلس إدارة جماعة مناهضة للعنف ضد النساء والأطفال. كما أنها تصرف وقتاً طويلاً من أجل جمعيات الإحسان اليهودية، ومن أجل توطيد العلاقات بين دولتي إسرائيل والولايات المتحدة." وتوقف قليلاً. "ودون أن أقول أنها تستخف بحقوق الفلسطينيين، فإنها ترجو لإسرائيل سلاماً مستقراً تنتهي معه أعمال القتل."

بقيت هناء صامتة لبرهة. "إذن"، قالت بلطف. "فتاة لطيفة يهودية، واسعة الثراء، هذا ما لا بد من أن تنتهي إليه اهتماماتها، حسبما أعتقد."

كان ثمة وقت مضى لم تعمل فيه عبارة "*حسبما أعتقد*" بالنسبة لدافيد، كما يجب أن تعمل. ولو أنها عملت إيجابياً لكان الوضع بيني وبينك هو غير ذلك تماماً.. هذا ما كان يود لحظة أن يقوله. لكنه بعد برهة عاد ليسمع صوت صمته.

"إذن ها نحن هنا من جديد"، قال دافيد. "أسعدتني أخبار منيرة. وإذا كان ثمة خريج من كلية الحقوق في جامعة هارفرد تتحدر منه جينات الـ دي. أن. آي. العائدة لها، فإن هذا الشخص ينبغي أن يكون أنتِ."

بعد برهة ضحكت هناء ضحكة قصيرة وقالت: "إننا هنيئاً لنا معاً يا دافيد" ثم صار صوتها رصيناً فجأة. "مع أنني قلقة لأنها رأت الكثير في الضفة الغربية، كثيراً من الاضطهاد، كثيراً من الموت. أستطيع أن أتصورها تكبر قبل أوانها، ويستبد بها الخوف بسرعة. فالاحتلال الصهيوني كان إجرامياً جداً، جيلاً بعد جيل كانوا دائماً معنا، وكان بن آرون أشدهم علينا."

لم يعطِ دافيد أيَّ جواب.

توقفت هناء، قليلاً، غير متأكدة، حسبما يبدو، مما تريد أن تقوله لاحقاً. ثم استعادت دفء صوتها. "إني سعيدة إذ علمتُ أنك بحالة جيدة. اعتنِ بنفسك يا دافيد."

"وأنتِ أيضاً."

"أجل سأفعل." لحظة أخيرة من التردد ثم أردفت: "وداعاً يا دافيد."

"وداعاً يا هناء."

وضع دافيد الهاتف جانباً. لقد انقلب نهاره فجأة رأساً على عقب.

الفصل

2

منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها نظر دافيد وولف على هناء عارف، انطلقت تلك الشرارة المضيئة التي لم تزل مشتعلة لديه رغم جميع الجهود التي بذلها. لقد كان مصيرها مرتبطاً بمصير صائب خالد بطرق أعمق مما كان باستطاعة دافيد أن يتصور.

كان ذلك خلال شهر شباط (فبراير)، وكان دافيد يعد الأيام والساعات. ففي غضون ثلاثة أشهر سيتخرج من جامعة هارفرد ليبدأ مهنته في المحاماة التي كان يخطط لها منذ وقت طويل. فالعلامات العالية لم تعد أمراً يشغله كثيراً لأن وظيفة وكيل نيابة في مكتب النائب العام في المدينة وفي مقاطعة سان فرانسيسكو كانت تنتظره حينما يتخرج، لذلك فإنه كان ينعم بنعمة اللامبالاة التي يندر أن يتوفر مثلها لسواه. وهكذا، وفي ليلة قارسة البرد في هارفرد، وجد دافيد نفسه يسرع في الخروج بصحبة رفيقه نوح كلاين للاستماع إلى حلقة نقاش يديرها رئيس جلسة للحوار، بين أربعة طلاب، اثنان من العرب واثنان من اليهود، حول المشكلة الفلسطينية الإسرائيلية.

في العادة، لم تكن مثل هذه المناسبات لتشغل دافيد عن مشاهدة لعبة "اللغات السلتية" على شاشة التلفاز. لكن نوح أصر على مرافقته إلى العشاء من جهة أولى، ولأنه بعد ذلك قد يكون أمراً مسلياً مراقبة زميلهما في الصف، اليهودي المتدين ماركوس غودمان من بروكلن، وهو رجل ساذج الإيمان إلى درجة تلامس السخرية، بينما هو يأخذ على عاتقه رسالة الدفاع عن وطن اليهود الأم. وعندما دخل دافيد إلى قاعة المحاضرات ألفى ماركوس يجلس مع زميلتهما الأخرى في الصف، الإسرائيلية روث هار إلى جانب من الطاولة، بينما يجلس إلى الطرف الآخر منها طالبان فلسطينيان شابان فيما يجلس بين الفريقين مدير الحوار، وهو بروفسور ذو لحية، يدرِّس مادة القانون الدستوري. أمَّا ما استلفت انتباه دافيد. فهو امرأة فلسطينية تقاطع بسخرية تأكيدات ماركوس التي يقول فيها "إن ما تسميه هي دون شك وطنها على الضفة الغربية لنهر الأردن ليس هو في الحقيقة سوى أرض توراتية منحها الله بشكل لا يقبل التبديل للشعب اليهودي."

"منذ متى صار الله وكيلاً عقارياً؟" كانت تتساءل.

هنا تعالت ضحكات متفرقة من الحضور الذين امتلأت بهم القاعة. لم يكن قد وجد لنفسه مقعداً بعد، عندما سمع هذا التعليق. فلم يستطع أن يحبس ابتسامة ساخرة من خيبة زميله ماركوس. ثم شعر بعدئذٍ أن هذه المرأة تتأمله هو نفسه، ولعلها كانت تفكر في أمر وصوله المتأخر الغامض، وتقييمه المباشر، والمتأني، والساخر، للموقف. ولأنه لم يستغرب أن يكون ملفتاً للانتباه، فإنه رد إليها النظرة بمثلها سامحاً لنظرته المرحة أن تأخذ مداها. إلى متى تريدين أن تُبقي هذه النظرة قائمة؟ كانت هذه هي الرسالة الصامتة التي أرسلها إليها.

"دعنا نجلس"، أسرَّ نوح إليه، "هناك مقعدان شاغران هناك."

جلسا في مقعديهما بعيداً عن المنصة. وهناك بدأ دافيد يدرس المرأة ويتفحصها تفحصاً دقيقاً مخلصاً.

كانت تستحق هذا الوقت الذي يصرفه في دراستها. فهي هيفاء صاعقة الجمال. فم مكتمل التكوين، ووجه جليل التقاطيع، وشعر أسود مردود إلى ما وراء العنق، وعينان سوداوان عاطفيتان، وبشرة زيتونية ناعمة، وكانت تتزين بقرطين ذهبيين، وأحمر شفاه حرك في نفس دافيد، كعادته، تلك الجاذبية الكيميائية التي يستسيغ مذاقها ولا يثق بها معاً. ولكن بعد أن تقدم النقاش، فإن ما شدَّه إليها أكثر من أي شيء آخر كان حيويتها في النقاش، وسرعة تفكيرها الآسرة، ومنطقها البليغ الذي ترسل فيه الكلمات مفعمة بحيوية لها وقع معلَّقٌ رنان. لم يكن في هالتها ما هو غامضٌ أو ملغَّز. فمن ابتسامتها السريعة الساخرة التي تكشف عن أسنان بيضاء لا تعاب، إلى نظراتها المستاءة التي ترمق بها مخاصميها، إلى رأسها المائل، إلى حدقتي عينيها اللتين تتضيقان شكاً، إلى خط فمها الذي تزمُّه قليلاً في بعض الأحيان كأنها تخشى انفلات اعتراض لاذع. وهكذا تضاءلت صور جميع الحضور في عين دافيد إلى اللونين الأبيض والأسود، فيما بقيت صورة هذه المرأة، دون سواها، ترفل زاهية بالألوان الجميلة جميعاً.

كانت طالبة في السنة الأولى حقوق، اكتشف دافيد ذلك لاحقاً من جدول المحاضرة، اما اسمها: فهو هناء عارف.

"في العام 1947"، كانت هناء توجه الكلام إلى ماركوس غودمان، "أصدرت الأمم المتحدة قراراً توصي فيه بتقسيم بلادي فلسطين ـ التي ما لبثت أن وقعت، في ما بعد، تحت الإدارة البريطانية ـ إلى دولتين، واحدة فلسطينية، والأخرى يهودية.

"وكان أجدادي مزارعين في الجليل". وهنا صارت نغمة صوتها مخنوقة بالحزن. "هذا كل ما كانوا يعرفونه. ولم يدر في خلدهم أن عليهم أن يدفعوا ثمن جريمة المحرقة، التي ارتكبها الأوروبيون، بأن يتنازلوا عن بيوتهم بناء لخطة الاستيطان الصهيونية في بلادنا، تلك الخطة التي كانت موضوعة حتى قبل أن يولد هتلر. لقد فشلوا في أن يفهموا

كيف أنه من غير العدل أن يعيش اليهود كأقلية في دولة فلسطينية، لكنه ليس من غير العدل أبداً تحويل نصف أبناء الشعب الفلسطيني الآمنين في بيوتهم وقراهم، بين ليلة وضحاها، إلى أقلية عربية في دولة يهودية مصنوعة في الخارج."

"وما الذي كان سيتغير عليهم في حقيقة الأمر؟" قاطعتها روث هار. "كان عليهم أن يبقوا في بيوتهم، وأن يتعلموا كيف يتعايشون مع اليهود في سلام. أمّا وقد رحلوا: فإنهم قد صنعوا مأساتهم بأيديهم".

هنا قام الشاب الصغير القامة الجالس إلى جانب هناء ـ وهو صائب خالد، الطالب في سنة التخرج في قسم العلاقات الدولية، حسبما عرف دافيد أيضاً من البرنامج ـ بوضع يده قليلاً فوق ذراعها، إشارة منه إلى أنه يرغب في التدخل في الحديث. ولدهشة دافيد أن هناء أذعنت له. أدار صائب خالد وجهه صوب روث، فإذا بوجهه الشاعري يتحول إلى قناع من الغضب. وعندما نطق كلماته الأولى بدت مختنقة بالمشاعر. "إن حياة أجدادي كانت من صُنع أجدادكِ. جنودكم طردونا، ودمروا قرانا. في دير ياسين قامت منظمة الأراغون الإرهابية ـ التي أوجدها رئيس وزرائهم صانع السلام الكبير مناحيم بيغن ـ بقتل ما يزيد على مئتين وخمسين فلسطينياً بين رجل وامرأة وطفل، بعد تعريتهم من ثيابهم وتشويههم قبل رميهم في الآبار، أو قتلهم بكل بساطة.

"وكما قالت هناء، فإن أجدادنا كانوا أناساً بسطاء. لكنهم، مع ذلك، فهموا الموت فهماً كافياً."

"ونحن أيضاً نفهم الموت فهماً كافياً،" قالت روث ذلك وهي تقوم عن كرسيها، وكانت حيويتها تعكس حيوية هناء. "لا تقارن تاريخكم بتاريخنا. ولا تجعل اللاسامية مجرد تطرف أوروبي غريب، رغم أن محاكم التفتيش الأسبانية، وبرامج دموية كثيرة نفذها الروس، والبولنديون، وكفاءة هتلر الثيوتونية، تشكل جميعها سجلاً حافلاً. لقد قام شعبكم في الثلاثينيات من القرن الماضي بذبح اليهود ثلاث مرات في الخليل. وإن مفتيكم الأكبر في القدس كان بحق هتلر العرب، كما كان صديق هتلر وشريكه في الشغف المشترك بمحو اليهود."

هذا جيد، قال دافيد لنفسه.

"ولم يكن مفتي القدس الأكبر"، أكملت روث، "سوى نكرة لولا صوت الإسلام. وإلا كيف تفسر اشتراك الشعوب العربية في غزو 'إسرائيل' في العام 1948؟"

"كيف" استفسر صائب بتهذيب مخيف، "يمكن للمرء أن يغزو شيئاً لا وجود له؟ من جعل 'إسرائيل' دولة؟ إن غزوكم لم يكن في الحقيقة سوى حرب تحرير فاشلة. حرب تحرير الفلسطينيين من البرنامج الصهيوني الهادف إلى طردهم. لا يمكن أن يكون لكم 'ديمقراطية يهودية' بوجود فلسطينيين يزيد عددهم على اليهود. لذلك فقد أردتم أن تتخلصوا

منا بأي وسيلة توفرت لكم." توقف الشاب قليلاً وهو يلوك جملته الأخيرة. "لكنكم لن تستطيعوا التخلص منا جميعاً إلى الأبد. ليس منا جميعاً."

وهنا التمعت عيناه الغائرتان بالتحذير. وظن دافيد أن حول هذا الشاب غضب متوهّج أكثر مما هو حول هناء. فكر دافيد. ومع أن رائحة هذا الجدال كانت مثيرة للعواطف، فإن دافيد شعر باليأس والقنوط متسائلاً في نفسه عما إذا كان هذان الشعبان يستطيعان أن يضعا تاريخيهما... وراءهما يوماً من الأيام؟

وكأنها تجيب على تساؤلاته، تكلمت هناء بلهجة هادئة من جديد: "لقد نشأت أجيال كثيرة منذ أن هُجِّر أجدادي من الكيان الذي تسمونه دولة إسرائيل. لقد ماتوا في مخيمات اللاجئين القذرة في لبنان، حيث ما يزال أطفالهم - الذين هم أهلي - يعيشون. أما والدا صائب فقد ماتا هناك أيضاً. لقد قتلتهما الميليشيا المسيحية في مذبحة أغمض عنها مناحيم بيغن عينيه وغطاها آريل شارون. أما ما بقي الآن من أرضنا، بما فيها الضفة الغربية، فإنها تعيش تحت احتلال الجيش الإسرائيلي".

هنا استدار ماركوس غودمان نحوهما قائلاً: "إن الضفة الغربية هي مركز الإرهاب".

"أأنت تتكلم عن الإرهاب." كانت لهجة صائب مليئة بالمرارة والاتهام. "إن إسرائيل نشأت في أحشاء الإرهاب. إنها مشبعة بالإرهاب. عصابة الآراغون اليهودية هي التي أدخلت الإرهاب إلى الشرق الأوسط. فهي التي نسفت البريطانيين وقتلتهم حتى لم يطيقوا البقاء. وعند ذلك وسَّعوا دائرة الإرهاب لطردنا من أرضنا. ثم قام أتباعهم الأمناء بقتل المزيد منا في لبنان في الأحياء القذرة التي كانت تأوينا.

"إذا كنا إرهابيين، فذلك عائد إلى أننا يجب أن نكون كذلك. فربما كان القتل فقط هو الخيار الوحيد الذي تركه اليهود مفتوحاً أمامنا"

خيم الصمت فجأة على الحضور حتى صارت وطأته ثقيلة. لقد كان ماركوس، والسيدة روث، مدافعين متعصبين، فكَّر دافيد. لكن صائب خالد كان يتكلم عن خبرة غير مصطنعة. لقد كان كلامه آسراً، لكنه أكثر من ذلك، كان مرعباً.

"دعونا نأمل"، قال مدير الجلسة، "أن تمهّد محادثات أوسلو الطريق أمام عودة ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى الأرض التي تحتلها الآن إسرائيل، وهذا سيوفر بديلاً عن العنف. وعلى هذا الأمل يطيب لي أن أشكر حضوركم وأن أشكر المتكلمين..."

* * *

"اذهب لوحدك" همس دافيد إلى نوح. "أعتقد أني سوف أتلكأ هنا قليلاً".

بعد ذلك تباطأ دافيد فيما هو يراقب هناء من وراء الحاجز الذي ضربه الطلاب حول المتحاورين لمزيد من الأسئلة والنقاش. لقد وجد أنها أصغر حجماً من الهالة التي أضفاها حماسها على المنصة. ففي حديثها الخاص بدت طباعها أرق، وحدة نظراتها استبدلت بانتباه تخالطه ومضات من الدعابة. لقد بدت صنفاً مختلفاً عن صائب الذي تحيط به هالة تقيٍّ غارقٍ جداً في أفكاره الخاصة بحيث أنه لا يجد منها منفذاً إلى الآخرين. لم تكن لدى دافيد أي رغبة في التحدث إليه. كان اهتمامه كله منصبّاً على هناء.

أخيراً، انسلّ دافيد من بين الطلاب حتى وقف في مواجهة هناء. حول عنقها، لاحظ دافيد، بحشرية، سلسالاً بسيطاً يتدلى من وسطه ما يبدو كأنه مفتاحٌ نحاسيّ قديم. نظرتُها العالية حملت تلك الاستقامة المباشرة التي سدَّدَتها نحوه من قبل. "لقد وجدتَ أن كل ذلك لم يكن إلا أمراً مسلياً حسبما لاحظتُ."

مرة جديدة عزم دافيد علي التصدي لها. "ليس إلى درجة كبيرة"، أجابها إجابة مباشرة. "ليس الموت شيئاً مسلياً. لا شيء في تاريخكم يسليني. إنكِ بكل صراحة تنبهتِ إلى أنني معجب بمواهبك. ومع هذا، فإنني أبعد من أن أكون متعاطفاً مع أيٍّ منكم، حتى مع صديقي ماركوس الذي يعتقد أن الله قد ختم تذكرته."

كانت هذه الإجابة كافية لاستخلاص الابتسامة الأولى الضعيفة منها. "إن الله أعطانا الأرض أيضاً لكنه نسي أن يترك لنا صكوك التمليك."

نظر دافيد إلى المفتاح مرة أخرى وقال: "ما هذا المفتاح الذي تحملينه؟"

"إنه مفتاح منزل والدي في الجليل."

"في إسرائيل"، صححها دافيد بلطف. "هل سبق لك أن رأيته؟"

قالت دون أن تشيح بعينيها عن نظرته: "لا. حتى أبي لم يستطع ذلك، منذ أن كان في السابعة من عمره. كان ذلك عندما استعمل جدي عربة يجرها بغل وحمل عليها عائلته وكل ما استطاع تحميله من ذاك البيت الذي بناه بيديه. كما حمل معه هذا المفتاح."

دسَّ دافيد يديه في جيبَي بنطلونه الجينز قائلاً: "بينما كنت أصغي هذه الليلة، وجدت نفسي أتساءل عن الحدث الذي يعتقد كل فريق منكم أن تاريخه قد ابتدأ فيه. هل تعتقدين أن تاريخكم قد ابتدأ في العام 1947؟"

"لا تتلطف علي بالكلام من فوق"، أجابته باقتضاب "إنني عليمة بالروايات اليهودية إلى درجة كافية. لكن عليك ألّا تستخف أيضاً بتاريخنا. تاريخنا يبدأ منذ آلاف السنوات التي عمرنا فيها هذه الأرض التي تسمونها الآن إسرائيل."

ابتسم دافيد قائلاً: "يصادف الأمر أني يهودي، كما قد تكوني عرفتِ. لكن إذا استطعتُ أن أستحضر المقرر الدراسي الذي تعلمته عن تاريخ الشرق الأوسط، فإن ما

أسميه الآن إسرائيل هو شريط من الأرض على ساحل المتوسط، وكان محتلاً على الدوام ليس من العرب واليهود فقط بل من الفلسطينيين القدماء، والوثنيين. وباختصار، فإني أستطيع أن أعدَّ ملفاً عن ذلك إلى منظمة التحرير الفلسطينية." ثم رفع يده متّقياً الغضب اللامع في عينيها. "أريد أن أبسِّط لك الأمر كله. إن ما أحاول أن أقوله هو أن الماضي ثقب أسود. وليس ثمة وسيلة لاحتوائه."

"لكن هذا ليس سبباً كافياً لنسيان الماضي."

"أنا لا أقترح فقداناً للذاكرة. يكفينا السلام. يكفينا وقف سفك الدماء."

عند ذلك، التفتت هناء إلى صائب الذي كان يتكلم مع طالبين من طلاب الحقوق. لقد أحس دافيد أنها أحست مثله أن صائب كان يراقبهما خلسة، وهو في حالة من الحيرة والارتباك. واستدارت هناء نحو دافيد. "مع كل احترامي لك"، قالت مودعة، "أعتقد أنه ينقصك الكثير مما ينبغي عليك أن تتعلمه."

"وقد حان الوقتُ لكي أتعلمه." سحب دافيد نفسه ليقترح - وهذا ما لم يحتج إليه من قبل مع أي امرأة أخرى - أنه قد وجد الأمر شديد التعقيد. "أرغب في المزيد من الحديث معك."

للوهلة الأولى بدت هناء مندهشة حقاً. ثم نظرت إليه نظرة عميقة، حتى بدا لدافيد أنها تعتقد أنها قادرة على النظر إلى أعماق روحه. "ربما على الغداء،" همست إليه في نهاية الأمر. وبعد أن التفتت نحو صائب مجدداً، أضافت بهدوء: "وفي مكان أكثر هدوءاً."

شعر دافيد بمسحة من المفاجأة. ليس الأمر مهماً، حاول إقناع نفسه، إنه مجرد انحراف بسيط عن ضجر "الفصل الدراسي" الأخير. محطته التي لا بد منها إلى مستقبله المضمون.

"أراكِ على الغداء،" قال هذه الكلمة ليبدأ معها تاريخهما الخاص.

الفصل

3

لم تكن سان فرانسيسكو بالنسبة إلى إبراهيم سوى ذاك المظهر الرمادي البارد.

في اليوم السادس، وقف على شاطىء المحيط، عند حافة قارة أميركا مديراً ظهره نحو فندقهما القذر الواقع خلف الطريق السريع. كان يعتقد أن هذا الضباب الكثيف الذي يلف المكان حوله يمتد فوق المحيط بكامله حتى يصل إلى آسيا. أما الشاطىء الأسمر الغامض فقد بدا متداخلاً بشكل غريب مع مياه المحيط الرمادية التي تداخلت حدودها بحدود الضباب. تسللت كآبة باردة إلى عظامه كثيفة ككثافة الضباب الذي يدور حوله. ولم يستطع أن يصدق أن هذا الطقس التعيس هو الصيف.

لم يكن ثمة أحد سواهما في هذه اللحظة على الشاطىء. ومثل رفيقه إياد، كتّف إبراهيم ذراعيه على صدره اتقاء للبرد. كان يتابع تحديقه في اللاشيء؛ بينما كان إياد على بعد مئة متر منه يتكلم معها على هاتفه.

* * *

كان لها أسلوب في العمل، حسبما أوضح له إياد مرة. وهو يقوم على حصر الاتصالات بالهواتف الخلوية ذات الأرقام المحلية، وذلك تحاشياً لاعتراضها من وكالات التجسس الأميركية التي تتنصت على المكالمات الدولية والبعيدة. ففي كل يومين تقريباً كانت تأمره بإتلاف هاتفه الخلوي موجهة إياه إلى هاتف خلوي جديد يشتريه له نقداً شخص من مساعديها المجهولين. بينما تكتفي هي بمعرفة آخر أرقام إياد، لتستخدمه في توجيه أوامر جديدة إليه، ولتزويده برقمها الجديد غير المسجل. كان إبراهيم يعرف أن هذا الأسلوب يعرفه أيضاً مروجو المخدرات، وتجار السلاح. أما في إسرائيل: فتستخدمه المقاومة الفلسطينية أيضاً. وقد اعترف له إياد بذكائها، أو على الأقل بحسن تعليمها.

حاول إبراهيم أن يتصور في خياله محادثاتهما مستخدماً لعبة ذهنية تفترض أن أخته هي المرأة الجالسة على طرف المكالمة الآخر - أخته التي صار عقلها معتماً أكثر من

فيلم كاميرا محروق - لتعطي إياد تلك التعليمات الدقيقة الصارمة. ولا عجب، فلربما كان الضنك والإرهاق يدمران قوى المنطق الباقية لديه تدميراً.

كان إبراهيم يرتعش بتعاسة تحت وطأة البرد الذي لم يكن ليقيه منه قميصه البولو. وعلى مسافة منه كان إياد يقلّب بين يديه هاتفه الخلوي، بعد أن أقفله لكي يدسه في جيبه. وللحظة من اللحظات أخذ هو الآخر يحدّق في عمق المياه كأنه يشارك في استيعاب ما سمعه إياد من تعليمات جديدة قبل أن يتقدم إليه.

وقف إياد على مسافة قريبة منه متكلماً باللغة العربية بكلمات خافتة، كما لو أن الضباب يمكن أن يسمعها ويحملها إلى حيث لا يجب. سوف يقودان سيارتهما إلى محطة "غراي هاوند" المشار إليها على الخريطة. وخلف دورة المياه الأخيرة من المراحيض المخصصة للرجال سيكون هناك مفتاح آخر لخزانة أخرى. سوف يجدان بداخلها هاتفاً خلوياً جديداً، كتدبير وقائي أخير من الانكشاف، هذا الهاتف الجديد هو الذي سينقل إليهما آخر التعليمات التي ستسبق حتفهما.

"إذا شاء الله،" قال إياد بنغمة رصينة تشبه الصلاة، "غداً يموت عدونا معنا."

* * *

رن الهاتف في مكتب دافيد، ليعيده، مُجفلاً، من خيالات الماضي. كان الصوت صوت كارول هذه المرة. لقد أدرك الآن كيف أن مكالمة هاتفية واحدة قد هزت تراكمات ثلاث عشرة سنة عبرت منذ أواخر عهده بهارفرد.

"يرغب أبي في اصطحابنا إلى الغداء احتفالاً بنا". كان صوتها مزيجاً من العاطفة الدافئة والقلق على والدها هارولد شور، وكان دافيد يتفهم ذلك تماماً. "لقد أخبرتُه أنك ترحب بالفكرة. أليس كذلك؟"

لم يكن دافيد مرحباً بالفكرة تماماً في واقع الأمر. فباستثناء ما يخدم طموحه السياسي، كان يحاول اجتناب الدعوات إلى الغداء خشية التقصير في برنامج عمله اليومي. وعندما نظر إلى ساعة يده أيقن أنه قد أضاع ساعة كاملة بينما هو غارق في تأملات الماضي. كان لا يزال أمامه برنامج يوم كامل من الأعمال غير المنجزة: اجتماع مع النائب العام للولايات المتحدة الأميركية مارني شارب - التي لا تطيقه - ليتناقش معها في قضية جنائية تتعلق بجريمة سطوٍ على أحد المصارف يبدو أن موكله متورطٌ فيها بكل وضوح. ثم هناك جلسة مع خبير محلف في العلوم الطبية، بشأن دعوى جنائية معقدة، حادثة عن وفاة مريض، نتيجة سوء العناية الطبية. وكارول تعرف كل ذلك، مثلما تعرف أن نهاره هذا سيكون مبتوراً بسبب حضوره لمأدبة العشاء التي تقيمها في منزلها لرئيس الوزراء بن آرون، سيما وأنها كانت قد أصرت على ضرورة حضوره إلى جانبها قبل نصف ساعة من موعد العشاء.

لذلك فقد امتعض قليلاً من مغالاة كارول في مراعاة مشاعر والدها المندفعة، على حساب الضغوط اليومية التي عليه أن يواجهها هو في مكتبه. لكن خشيته من الظهور بمظهر الإنسان ذي الأفق الضيق في عين كارول منعه من الإفصاح عن ضيقه هذا. ومع علمه التام أن لا سبيل لديه لوضع حدٍ لشغف خطيبته بوالدها الأرمل، فإنه أيضاً كان يتفهم تلك العلاقة ويستوعبها. وبطريقته الخاصة الأكثر لجماً، كان دافيد يكنُّ بدوره لحميِّه المرتقب كل مشاعر المحبة والإعجاب، وكان يُسرُّ إلى نفسه: أن استغرابه للعلاقة اللصيقة بين خطيبته ووالدها، لا بد من أن تكون انعكاساً لنقصٍ دفينٍ يعانيه هو نتيجة ضمورٍ في علاقاته العاطفية مع والديه.

فمثلُ كارول، كان دافيد المولود الوحيد في أسرته. وعند هذا الحد: كانت التشابهات بينهما تتوقف. فهو قلما توقف لاسترجاع ماضيه الخاص مع والديه المتوفيين، كما أنه قلما يرغب في الكلام عن علاقته بهما. أما بالنسبة إلى كارول، فإن طفولتها تمازجت مع حبها العنيف لوالدها. هذا الحب الذي ما انفك حاضراً بقوة في جميع تفاصيل حياتها، وهو ما جعل دافيد يعتقد أنها تتعداه في ذلك بأشواط كثيرة.

بعض ذكريات طفولتها كانت قد صارت بالفعل أشياء يعرفها دافيد عن ظهر قلب. وعلى سبيل المثال: كل يوم أحد كان هارولد، الذي يحسن التزلج على الجليد، يصطحب ابنته لاحتساء الشوكولا الساخنة بعد قيامها بالتزلج. وأنه يستطيع إصلاح أيّ لعبة تقوم ابنته بكسرها؛ وإذا كانت ذراع الدمية بعد إصلاحها قد صارت مضحكة، فإنها على الأقل قد صارت صالحة لحك ظهر هذه الدمية. لقد تعلم الأب والابنة اللغة العبرية معاً. ولم يتجادل الزوجان بسبب كارول سوى مرة واحدة فقط، وقد استعملا حينها اللغة البولندية، أما سبب الجدال، فكان: هل يصحُّ لهما السماح لها بمشاهدة التلفاز بعد التاسعة مساء.

لكن إلى جانب هذه الذكريات التي يعرفها دافيد عن علاقة خطيبته بوالدها، فقد كان ثمة ذكريات أخرى قاتمة. فإذا انتابت هارولد نوبة سعال ارتعدت فرائصه لذكرى الأيام والليالي في مخيم أوشفيتز، حيث كان النازيون يعدمون النزيل لمجرد أنه مريض. ومن هذه الذكريات أن الوالد كان كثيراً ما ينطوي على نفسه صامتاً لساعات طويلة. وأن كارول كانت تحسُّ أن كل يوم جديد هو الآن مفاجأة سارة لأن ليس ثمة من يريد أن يقتل والدها.

لقد كان لهذا الخزين أعمق الأثر في إغراق هذه الذكريات بهذا الكم الهائل من الألوان والمعاني. لقد صار هاجس الوالد الذي لا يهدأ، هو أن يؤمِّن لوحيدته حياة أفضل من حياته، ملؤها الدفء والأمان. ولا شك أن زواجها سيكون تتويجاً لأهم أحلامه وأمانيه.

لهذا كله، استجاب دافيد لسؤالها بنغمة ملؤها التأثر الساخر. "تقولين الغداء؟ طبعاً إنني موافق. فأنت قد عرفتِ الجواب حتى قبل أن تسأليني."

وفيما أقفل دافيد سماعة الهاتف مبتسماً لنفسه، وجد نفسه مرة جديدة يفتكر أن

جراح هارولد، وإن تكن قد تعدت الأب إلى الابنة، فإنه استطاع في صراعه مع الرعب أن ينسج في نفسه تلك الشرنقة الدافئة من الطيبة التي كان لا بد لها من أن تبلور شخصية كارول كما هي. لكن فكره ما لبث أن تحول بحزن إلى امرأة أخرى، في الثالثة والعشرين من عمرها، سمراء وجميلة، ولها جراحها أيضاً. جراحها التي لن تقوى هي على تجاوزها ونسيانها، ولن يقوى هو (دافيد) أن يفيدها في ذلك بشيء.

الفصل

4

منذ لقائهما الأول على الغداء، لمس دافيد ضعف هناء الكامن خلف الشخصية الشرسة التي تحاول أن تظهر فيها على وجه هذه الدنيا.

فبناءً لاقتراحها، وقع خيارهما على مطعم صيني قليل الروّاد، يقع خارج نطاق الحرم الجامعي، كمكان لغدائهما الأول معاً. ومنذ أن جالت هناء بأنظارها في أرجاء المطعم الخالي سوى من رجل أعمال برفقة فتاة جميلة بدت متخفية مثل رفيقها، عرف دافيد أن هناء تخشى الظهور وحيدة في العلن برفقة رجل ما، خاصة عندما يكون هذا الرجل يهودياً. كان هذا شعوراً بالاختلاف عن الغير، الذي قلّما شعر به دافيد.

"لمَ كل هذا الارتباك؟" سألها بهدوء. "لماذا تُشعرينني كأنني عميل سري؟ هل من مشكلة في أن يكون أحدنا موجوداً في هذا المكان؟"

لكن السؤال لم يغيِّر في الموقف شيئاً سوى أنه زادها ارتباكاً. "ليس في الأمر شعوراً بأنني أسيرة عميل سري" قالت هناء. "لكنني فتاة مسلمة، وأنا وصائب مقبلان على الزواج."

وللحظة ما، شعر دافيد كما لو أنه أبلهُ محبطٌ. لكنه سألها بطريقة تبدو عارضة: "هل كان هذا هو اختيارك الخاص؟"

تصلَّبت قسماتها بطريقة تكاد لا تُلحظ. "لستُ أسيرة" قالتها مرة ثانية. "لكن هنالك عادات وتقاليد علينا أن نراعيها ضمن المعقول، وإني أحاول أن أحترمها جهد استطاعتي، فصائب لن يستطيع أن يفهم هذا الغداء، كما أنه لا يهمني أن أجعله يفهم."

حاول دافيد أن يغربل التلميحات التي تنطوي عليها هذه الإجابة، فتراءى له أنها تعني: أنه هو ذاته غير مهم بالنسبة إليها، وأنها تعتبر نفسها قد ارتكبت بمجيئها عملاً ينطوي على تحدٍّ. وهذا ما يسبب لها القلق والارتباك. "كيف تجدين الحياة هنا؟" سألها. "أعني في هارفرد."

راقبها وهي تتأمل في السؤال. ثم بدأت صورة هناء المرأة والإنسانة، تتراءى من وراء الغلالة البارزة لهناء الفلسطينية. "نشعر هنا أننا معزولون. هنالك خمسة عشر طالباً عربياً فقط في كلية الحقوق، وليسوا جميعهم مهتمين بالفلسطينيين، كما أن هنالك كثير من اليهود في الصف."

"أجل،" قال دافيد. "نحن موجودون في كل مكان."

رمقته بابتسامة لم تصل إلى عينيها. "لعلك تظنني لاساميَّة."

ردَّ على ابتسامتها بالمثل. "لست أدري."

بعد فترة هزت كتفيها لامبالية. "إنك على الأقل لا تفترض أنني كذلك. لكن إذا قلت إنني لا أحبذ الصهيونية، فإن الناس يعتقدون هنا أنني أمقت اليهود جميعاً."

"فأستاذي في مادة المسؤولية المدنية، وهو يهودي، يخصني بأصعب الأسئلة. وفي اليوم الذي تلا النقاش الذي كنت تحضره، جاء طالب آخر إلى الصف، وجلس إلى جانبي واضعاً نموذجاً مصغراً عن العلم الإسرائيلي أمامه." وهنا صارت نبرة صوتها قلقة وساخرة. "لعل الله قد جعل أيضاً ذاك المقعد الدراسي هبة إلى الشعب اليهودي. لكن في ذلك اليوم، كل ما أردتُ أن أفعله هو مجرد الجلوس في الصف واكتساب ما أستطيع أن أكتسبه." صمتت قليلاً، ثم هزت كتفيها من جديد، بينما اكتسب صوتها رنة هادئة. "لست أنا من ارتكب جريمة المحرقة، كما أنني لا أنكر حصولها. لكن اليهود الأميركيين الذين أقابلهم يجهلون جهلاً تاماً هذا التاريخ الذي تريدني أن أضعه جانباً. إنه ليبدو لي في مرات كثيرة أن اليهود باتوا أسرى عقيدة اللاسامية إلى درجة أنهم أصبحوا لا يرون سوى مأساتهم ولا يأبهون سوى لخسائرهم دون سواهم من الناس."

كبت دافيد رده الفوري الذي طرأ بباله على كلام هناء، والذي يقوم على أن حجتها يمكن أن تنقلب عليها حتى وإن كانت صحيحة. "طبعاً،" قال لها مدارياً. "ولهذا السبب انضم عدد كبير من اليهود إلى حركتنا المطالبة بتعزيز الحقوق المدنية. ولهذا السبب فإنني دعوتك إلى هذا الغداء."

ارتفع حاجبا هناء وهي ترمقه بنظرة ثاقبة. "ماذا،" قالت له، "لماذا فعلت ذلك؟"

"لأنني كنت مهتماً بمعرفة المزيد عنك، لماذا أتيتِ؟"

"لأنني كنت مهتمة بمعرفة سبب دعوتك لي. مع أنني توقعت أنك خلتني بدعة غريبة مستوردة، كمن يصادف شنشيللا في إحدى حدائق الحيوان عندكم."

وعلى الفور، أدرك دافيد الحقيقة العميقة الكامنة خلف ذكائها: فالسهولة التي تنقاد فيها الكلمات عندها، وتداعي الصور لديها، يغلِّفان عزلة عميقة لديها، أبعد غوراً مما تشاء أن تفصح عنه. وقرر في نفسه أنه ليس هناك من وسيلة سوى الصراحة التامة يمكن أن تخترق دفاعاتها.

"عندما قابلتك:" قال لها، "رأيت فيك امرأة مميزة، جميلة، لا يمكنها أن تؤذي أحداً. امرأة يمكن أن تأنف مني لما تجدني عليه؛ لكنها في الوقت نفسه لها حياة مختلفة تماماً عن حياتي؛ لهذا رغبتُ في معرفة المزيد عنها. إضافة إلى أنني وجدت نفسي أملك الوقت اللازم لذلك."

"نظرت إليه ملياً. "لمَ لم تسأل صائب إذاً؟"

"لأن صائب ليس امرأة جميلة."

ضحكت هناء ضحكة ممتعة جلية، خالية من كل عداء أو ضغينة، مما جعله يشعر بالدهشة. "وكذلك لأنني،" تابع دافيد، "مع كل احترامي لخطيبك، فإنني لا أعتقد أن عشرة غداءات متلاحقة يمكن أن تعني له أيَّ شيء."

اقترب منهما نادلٌ صينيّ في مقتبل العمر ليأخذ طلباتهما. وعندما ابتعد، كانت هناء تحدِّق في المائدة بنظرة خفية متأملة. "إذاً،" سألته بعد لأيٍ، "ماذا تريد أن تعرف عني؟"

"بدايةً، ما هي الصورة التي تتصورين بيتك بها؟"

"ليس ثمة بيت لنا،" قالت بمرارة. "فمخيم اللاجئين ليس أكثر من مجرورٍ مكشوفٍ، وتربةٍ تبتلع الموتى." توقفت قليلاً لتصرف نبرة الأنفة والازدراء عن صوتها. "بيتنا في عمق الجليل. يقع على سفح تلة من تلاله، تحيط به أشجار الزيتون التي زرعها جدي جاعلاً لها شبكة من أنابيب الري والمصارف التي تلتقط مياه الأمطار لتوجهها إلى محبس للمياه قرب البيت. أما البيت نفسه فمبني من الحجر الصلد، وسقفه محمولٌ على دعامات أفقية من الفولاذ. وهو يتألف من غرف أربعة. غرفة لمعيشة العائلة، والباقي: غرفة نوم واحدة لوالدي وأعمامي، وواحدة لعماتي، والغرفة الرابعة لجدي وجدتي. كما أنه ليس من مطبخ هناك، لذلك كانت جدتي تطهو الطعام في الخارج. وكانت العائلة جميعها تتناول الطعام من صحون مشتركة."

"وكيف لك أن تعرفي كل هذه التفاصيل؟"

أصبح وجه هناء أكثر رقة. "لقد قام جدي بوصفه لنا مرات لا تحصى قبل أن يفارق الحياة. كان يتكلم عن بيته حجراً حجراً، مثلما كان 'فلوبرت' يصف قريته في رواية 'مدام بوفاري'. لكن قرية أجدادي كانت قرية حقيقية، ليس كالقرى الوهمية التي تحكي عنها قصص الخيال".

فكر دافيد برهة في أن ما تزهو به الذاكرة يمحقه الزمان.

"وصائب، ماذا عنه؟"

"إنه ابن قريتي، وإن لم يكن بالضبط من القرية نفسها. في العام 1948 كان أهلنا أطفالاً. لكن ذاكرتهم كانت نشيطة كذاكرة جدي."

ربما كانت ذاكرتهم هي نفسها ذاكرة جدك، جالت الفكرة في رأس دافيد دون أن يفصح عنها. وبدلاً من ذلك سألها: "ما الذي جاء بكم إلى لبنان؟"

استحضرت هناء ابتسامةً تشير إلى أناتِها وحلمِها. "إنها واحدة أخرى من حوادث التاريخ التي لا تعني لك الكثير، مثلما لا نعني نحن - أصحابها - الكثير لمعظم الناس. فبعد أن انتشرت أخبار مذبحة دير ياسين: قرر جداي الهرب إلى الأردن، مثلما فعل مئات ألوفٍ آخرين من الفلسطينيين. أمَّا حرب 1948، فقد جلبت المزيد منهم. كذلك فعلَت حرب 1967. لكن هؤلاء الفلسطينيين جميعاً تحدوا سلطة الملك حسين. وهكذا، قصف الجيش الأردني مخيماتنا، وطرد مقاتلينا إلى لبنان." هنا حمل صوتها نبرةً من الغضب. "ومِن هناك، في عملية تنظيف، كما سماها صائب، أرغم الإسرائيليون عرفات ومقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية على الخروج من لبنان إلى تونس، بحجة أن أعمالهم الإرهابية باتت تشكل تهديداً لشمالي إسرائيل.

"أما الآن، فبعضهم يتجمعون في الضفة الغربية التي لا يزال يحتلها الجنود الإسرائيليون. أما بالنسبة لوالديَّ: فإنهما لا يزالان ينتظران في لبنان. أنا وصائب فقط تيسرَت لنا المغادرة إلى الضفة الغربية. ثم أقفل الصهاينة جامعة بيرزيت قبل أن تبدأ دراستنا فيها. وهكذا"، أكملت هناء بابتسامة لا تبدو كابتسامة، "وبمساعدةٍ من وكالة اللاجئين في هيئة الأمم المتحدة، وبفضل بعض الأموال المخصصة للمنح الجامعية، وجد كل منا نفسه على شاطىء الولايات المتحدة الأميركية، الراعي الذي يفتح قلبه وذراعيه لأولئك الذين كانوا سبباً لتشريدنا. وها أنا أحمل قضية كفاح شعبي بالانخراط هنا في الجدل مع أولئك الذين يأتي تصوُّرهم الأول عن العرب من 'سفر الخروج'، ويرون أن تاريخنا هو تاريخ غربي تكون فيه إسرائيل جيمي ستيوارت؛ وصائب وأنا هنوداً حمراً." هنا أمسكت هناء نفسها قليلاً مستدعية ابتسامة مُرَّة. "لقد طرحت سؤالك، لكنك ربما لم تشتهِ جواباً موسَّعاً هكذا."

"أنا كنتُ من سأل،" قال دافيد ببساطة. "أما أنتِ فقد أطنبتِ."

ولشدّ دهشته أن ابتسامتها صارت أقرب إلى الحزن منها إلى الامتعاض. "كنت أتمنى لو أن كلامي كان مجرد مبالغة. لكنني أيضاً تعلمت أن أعلِّق الآمال على اللاشيء."

"وماذا عن صائب؟"

"صائب له أيضاً تاريخه الخاص به." نظرت إليه نظرة أخرى قصيرة وكئيبة. "لست مستعدة للكلام عنه يا دافيد."

أدهشته الأُلفة المبطنة في كلامها، وكذلك مرور اسمه على شفتيها، فحاول أن يفك الألغاز التي ينطوي عليها جوابها. وعند ذلك أقبل النادل عليهما حاملاً طبقين ساخنين من الطعام الصيني الذي طلباه. وعندما استقر الطعام أمام كل منهما، تابعت هناء كلامها.

"وهكذا، صرت إلى ما صرت إليه من شخصية متناقضة. مسلمة، يسارية، نصف مراعية للعادات الإسلامية. ليس لأنني أحبذ الشيوعية. بل لأني أظن أن اليساريين هم وحدهم العازمون على إعطائنا ما نريد."

تذوّق دافيد طبق الـ :"تشومين" الذي أمامه فوجده لذيذ الطعم، بخلاف ما توحي به ندرة الزبائن في المطعم. "وهذا يعني؟"

"أن يصبح لنا دولة. أن تعود إلينا أرضنا. وإذا شاء اليهود أن يعيشوا بيننا فإن لهم ذلك. لكن ليس في غيتو يهودي يدعى إسرائيل. دولة تضطهدنا وتطردنا."

"هنالك مفاوضات دائرة الآن،" اعترض دافيد. "فعرفات ورئيس الوزراء رابين قد توافقا على السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية للإمساك بمقاليد سلطة مدنية في الضفة الغربية وغزة. وهي الخطوة الأولى نحو بناء دولتكم."

"سوف ننتظر ونرى،" أجابت هناء بإذعان حزين. "أخشى أن أطفالنا سيعيدون بحث هذا الموضوع نفسه يوماً ما. وسيراه أولادك 'أكاديمياً' مثلما تراه أنت."

لم يدر دافيد ماذا دهاه أخيراً. فقد عاش على الدوام الحياة المرسومة جيداً للنخبة الأميركية. والدان من أصحاب المهن الحرة، وأصدقاء مميزون، ومدارس راقية، والنساء اللواتي واعدهن في الماضي، اللواتي رغم اختلاف شخصياتهن، وأحياناً اضطراباتهن السلوكية، فقد كنَّ جميعاً على الدوام من بنات الطبقة الراقية ذاتها، وكنَّ يشابهنه في الطموحات، وفي كونهن ينتمين إلى أُسرٍ مرتاحةٍ وداعمةٍ مثل أسرته. أما هذه المرأة بالذات، فإن لديها من العاطفة والتجارب ما لم يعرفه أبداً في حياته. كما أنها تبدو وكأنها تسلبه كلَّ شرارةٍ عنده للاعتراض والتمرد.

ومهما يكن من أمر، فقد مدَّ يده ليغطي يدها. "لا ليس الأمر 'أكاديمياً'، ليس بالنسبة لي على الأقل."

لبرهةٍ طويلةٍ، أطرقت هناء بنظرها، بينما يده تغطي يدها، مع أنها لم تحاول أن تسحبها. "هذا أمر معقد." صار صوتها هادئاً ومكبوتاً. "أنتَ لا تدري إلى أيِّ درجة هو معقد."

"اشرحي لي إذن."

"إن حياتي مرهونة بحياة صائب." أخذت نفساً عميقاً فيما هي لا تزال مطرقة. "إنني مسلمة. ومهما كانت جنسية المرأة المسلمة: فإنها لا تتزوج رجلاً من غير دينها.

"هناك قواعد صارمة. والنساء يمثلن شرف عائلاتهن، مثلما أمثل أنا شرف عائلتي." ثم رفعت نظرها إليه بعينين غائمتين. "حتى أن أسمح لك بأن تلمسني هو شيء يلطخ شرفهم."

"لكنه لا يلطخ شرفك أنتِ يا هناء. نحن إنسانان أيضاً. أنتِ وأنا."

هزت رأسها دون أن تسحب يدها. "لا نستطيع أن نكون كذلك. أنت لا تستطيع أن تكون كذلك. ربما يكون الثمن غالياً جداً."

حدَّق دافيد في عينيها الشديدتي السواد، المليئتين بالشك، بل بالخوف أيضاً. ثم أعطى جواباً ما لبث أن بدا له عندما استذكره لاحقاً، جواباً أحمق متعامياً إلى أقصى ما يمكنها أن تتصوره من جواب يصدر عن أميركي ساذج. عبارة صدرت عن دافيد وولف، الذي لا يقبل الهزيمة، وهو في السنة الخامسة والعشرين من عمره، صدرت عنه في غفلة تامة عن الألم الذي قد تجره.

"أريد أن أراك يا هناء، بالقدر الذي تسمحين لي به. وسأقبل المجازفة في ما تبقَّى."

الفصل

5

برمية من تحت إبطه ألقى إياد هاتفه الخلوي القديم إلى التيار السريع في خليج سان فرانسيسكو. "ربما بعد سنوات من الآن،" قال بنغمة راجفة،" سيجدونه في هاواي. بعد أن يكون أهلنا قد استعادوا القدس بوقت طويل، وبعد أن يكونوا قد نبشوا قبره عما قد يبقى منه من أجزاء تصلح للدفن."

كانا واقفين ساعتئذٍ في "فورت بوينت" عند قاعدة أحد الأعمدة الإسمنتية العملاقة التي تحمل جسر "غولدن غيت"، الذي بدا امتداداً ذا لون برتقالي يمر فوقهما، عبر الضباب الزاحف، واصلاً ضفتي الخليج اللتين تفصل بينهما مياه المحيط في ممر ضيق. وهنا زاد إحساس إبراهيم أنه يعيش كابوساً سوريالياً مرعباً في عمقه وضراوته. لقد شعر أنه بات آلة آلية الحركة لا تنفك تُدفع قدماً إلى أماكن غريبة بيد خفية لا تكاد تعترف بوجوده. كيف وصلت به الأقدار إلى هذا المكان، مع هذا الإنسان عشية موتهما؟ تساءل في نفسه. إنه لا يدري شيئاً عما يدور حوله سوى ما يتفضّل به عليه إياد من معلومات مجزوءة مقتضبة. إنه يعرف الآن أن عدوَّهما آتٍ لحتفه، وأن المرأة الخفية ستضع بين أيديهما قريباً أسلحة التدمير اللازمة.

ولكن كيف؟ فكثيرون غيره قد كرهوا مثله هذا السجن الحديدي الذي يعيشون فيه تحت رقابة نخبة منتقاة من جنود الجيش الصهيوني القساة، الجاهزين أبداً للقتل. وبينما هو واقف في مكانه هذا، أعزل من كل سلاح، فإن كلّ صلته بالبشرية لم تعد تزيد عن حقدٍ مقتضب مشتعل بالغضب والحماسة...

إنه لا يزال يستطيع استرجاع صورة ذلك الحاجز، وكأن الحادثة قد جرت أمامه بالأمس فقط. إنه يستطيع أن يسترجع صورة طابور السيارات والشاحنات الطويل ممتداً لأميال عدة على طول الطريق ذي الإسفلت الملتهب تحت أشعة الشمس الحارقة. أخته تضطجع في المقعد الخلفي من السيارة، بطنها منتفخ، ووجهها منقبض بالألم. تنورتها الواسعة مرفوعة إلى ما فوق وسطها، كاشفة عمّا لا يجوز للأخ أن يرى من جسد أخته. "رحماك يا رب،" كانت لا تكف عن الضراعة والدعاء، "لا تتخلَّ عنا.. لا تتركنا نموت."

وإبراهيم يمسك يد أخته مقفلاً عينيه. أمَّا الآن فإن سلوى تعيش بعقلٍ فارغ مثل رحمها الفارغ أيضاً.

ثم سُمع رنين الهاتف، هاتف إياد الجديد.

* * *

"لا تتذاكى يا دافيد،" قالت مارني شارب بلسانها اللاذع. "لا تحاول أن تقنعني أن هذه الحيلة البائخة لا تحمل بصماتك الخاصة."

كانا يجلسان في مكتب النائب العام للولايات المتحدة الأميركية الواقع في زاوية المبنى الفدرالي. كانت شارب تجلس على كرسيها الضخم خلف مكتبها، أما دافيد فكان يجلس على الكرسي المقابل لها، الذي ليس فيه كثير من الراحة. إن ما بين دافيد وشارب تاريخ شخصي حافل وطويل، وفي هذه الجلسة كانت تدور حلقة من حلقاته.

فمنذ سنة خلت، طلبت شارب من دافيد أن يقدم استقالته من وظيفة وكيل نيابة في مكتبها. فحرر دافيد استقالته على الفور، ورماها لها دون تردد. وكانت المشاكل بينهما قد بدأت بكيمياء زنخة. كان دافيد يرى أحياناً ثغرات القانون مضحكة وممتعة، ولم يكن ثمة شيء ليُمتع مارني شارب أو ليضحكها. كانت قد اكتسبت وهي في منتصف الأربعينيات من عمرها عقلاً صارماً متفرداً مستقلاً، وجلَداً عظيماً، وانعدام شغفٍ إلا في ما يختص برأيها الشخصي في العدالة، الذي تحميه حماية الآخرين لأفراد عائلاتهم. عندما بدأ عمله تحت إمرتها تساءل في نفسه عما إذا كانت امرأة كهذه تستطيع أن تجد لنفسها شريكاً قطُّ يرضى أن تمارس الجنس معه، لكنه أجاب نفسه بالنفي. لذلك اعتبرها ضرباً من الحيوان 'المدرع'.

كانت مارني تمتلك عقلاً قانونياً جيداً، وفي ساعات انشراحه كان دافيد يستطيع أن يبني علاقات تعاطف حتى مع الأشخاص المنكمشين وراء دروعهم السلحفاتية السميكة. لكن مسألة واحدة فجرت الخلاف الحاسم بينهما، إنها اختلاف نظرتيهما حول عقوبة الإعدام.

كانت شارب تؤمن بعقوبة الإعدام، بينما كان دافيد يعارضها. وعندما رفض أن يطلب عقوبة الإعدام لمجرم يتحرش بالأطفال، لقتله طفلة في الثامنة من عمرها، وكان المجرم نفسه قد تعرض في طفولته للاعتداء الجنسي والتعذيب وسوء المعاملة من والده، حتى صارت قواه العقلية تقف عند حدود الخبل والإعاقة. أما بعد استقالة دافيد، فقد التزم خلَفه بتعليمات شارب، طالباً لهذا المجرم عقوبة الإعدام، ومتابعاً القضية حتى انتهاء آخر مراحل التنفيذ. أما بعد استقالته، ورداً على سؤال إحدى الصحف عن رأيه في الحكم المنفذ، فقد أجاب دافيد، دون تحفظ: "كان تنفيذ الحكم مأساة مقززة، ولو كنت مكان السيدة شارب

لوفرت عقوبة الإعدام للمجرمين الأنكياء الذين يفقهون معنى العقوبة، ويعرفون ماذا يعني القتل، ولماذا تنفذ فيهم أحكام الإعدام."

كانت هذه الحادثة بينهما ثالثة الأثافي، إذ ختمت بينهما بالعداوة إلى الأبد. فمارني شارب تتهم دافيد وولف بأنه يضع عواطفه الشخصية فوق القانون. أما بالنسبة إلى دافيد، فإن هذه النائب العام للولايات المتحدة، لا تعترف حتى أمام نفسها بأن شغفها بعقوبة الإعدام إنما ينبع في حقيقة الأمر من رغبتها في التقرب ممَّن بيدهم أمرُ ترقيتها إلى رتبة قاض فيدرالي. وبما أن دافيد قد صار محامياً جزائياً يقف في صف الدفاع، فإن دينامية النزاع بينه وبين شارب قد تعاظمت عما سبق. خصوصاً وأنه صار طليقاً في استخدام وسائل البراعة القانونية التي لا تملكها هي: مثل مخيلته التي تساعده في استنباط مسارب قانونية غامضة ومعقدة في جسد القانون، لا تكاد هي تفطن لوجودها. وكمحامي دفاع صار الآن دافيد وولف حراً طليقاً في غابة القانون الكثيفة، يعرف جيداً فنون المناورة والتخفي، كما يعرف مسارب الانسحاب والهرب.

هكذا، قادت كل هذه الأمور إلى هذه المنازلة الشطرنجية بينهما: فأمام دافيد فرصة لقهر شارب لمصلحة موكله، الذي لولا محاميه لما أفلت ربما من قضاء فترة حكم مديدة في السجن. لكن خلف هذا النزاع العنيد، يقف أيضاً سبب آخر خفي، هو اعتقاد دافيد أن شارب لن تتورع عن استعمال منصبها ونفوذها لمحاربة وصوله إلى مجلس الشيوخ الأميركي لاعتقادها أنه غير لائق لذلك.

"لست هنا أمامك كي تعنفيني،" قال لها بهدوء. "وأتساءل في الواقع عن سبب ضرورة حضوري إلى مكتبك من الأساس."

حدجته بنظرة غاضبة. "نحن هنا نتكلم عن سرقة ثمانية ملايين دولار. وكلُّ ما يدلي به موكلك المقبوض عليه هو: 'المافيا جعلتني أقوم بذلك'.؟

"أو أنهم سوف يقتلونني" صحح دافيد كلامها. "رايموند يعتقد أن ذلك الجزء من كلامه هام جداً. وأنا أشاركه الرأي". أفرَد هنا ذراعيه. "إنها المخالفة الأولى في سجله، ومع ذلك فأنت تتهمين راي سكالون بشتى الجرائم إلا ربما التخطيط لجريمة الحادي عشر من أيلول. إنه مجرد أداة."

"بل هو سفاح يهدد الناس، لقد هدد حارس أمن ببندقية صغيرة. وليس من الحكمة تركه سائباً في الشوارع."

هزَّ دافيد كتفيه قائلاً: "إذن لنتفاهم على صفقة، أو لندفع بالقضية إلى المحكمة."

"وما الذي يدعوني إلى عقد صفقة معك؟ أفترض أنك تقول هذا لأن شخصاً ما، ليس له علاقة بهذا المكتب، قد سرَّب خبراً إلى الصحافة أننا - ويعني الشرطة الفدرالية - نحاول

أن نتحقق مما إذا كان للمافيا ضلع في هذه السرقة. مع أننا لم نباشر أي تحقيقات من هذا النوع ـ"

"إذن عليكم أن تباشروا بها."

قاطعته قائلة: "ولكن بعد أن أذاعت القنال الخامسة هذه الأنباء عن الرابط المحتمل بالمافيا، ابتدأت الشرطة الفدرالية باستطلاع هذه الإمكانية. ثم يصادف الأمر أن تقوم أنت بالذات بالتقدم بطلب للوصول إلى سجلات التحقيق بحجة أن هذه السجلات حيوية جداً للدفاع عن سكالون."

"بل هي في صميم دفاعه،" قال دافيد. "في نهاية الأمر، لقد قبضتم عليه فيما الأموال في حوزته. لهذا، لمَ لا تسمحوا لنا بالاطلاع على التحقيقات؟"

"ليس هناك من تحقيقات تفيد سكالون في شيء،" ردت شارب." كما أنه ليس هناك من دليل على أن المافيا قد هددت أحداً. لكنكَ الآن قد تقدمتَ بمذكرة تطلب فيها شطب الدعوى بكاملها بحجة أنك لا تستطيع أن تقدم دفاعاً سليماً ما لم تطلع على السبب الذي دعا الشرطة الفدرالية إلى مباشرة هذا التحقيق الذي تبخرت نتيجته في الهواء، هذا إذا كنت لا تعرف حقيقة ما حصل." توقفتْ قليلاً لتحدجه بنظرة أخرى باردة. "إن أي قاض في كامل عقله وصوابه، لا بد له من أن يستعمل هذه المذكرة لإخراج القطة من الصندوق. أيُّ قاض لا يزال فيه بعض الحياة عليه أن يتساءل عن المصدر الذي سرَّب هذا الخبر العارض. لكن المسرِّب كان محظوظاً عندما اتجهت الأصابع عفواً نحو بروس مايرز، الشخص المعروف بتسريباته في سلك القضاء الفدرالي."

هز دافيد كتفيه من جديد. "الصحفي بيتس مشهور بتسريباته على كل حال." هذه الإشارة الضمنية إلى عقوبة الإعدام جعلت عيني شارب تضيقان. "أنت تعرف ماذا يدور هنا يا دافيد، كما أنني أعرف ذلك أيضاً."

"آمل ذلك،" أجابها برفق. "أرغب في مناقشة طلب استئناف إذا شئت."

تراجعت شارب في مقعدها مسندة ظهرها وهي تتطلع إليه بصمت. فسَّر دافيد هذا السلوك كما يجب أن يفسَّر فعلاً: فالتنازل الذي ينطوي عليه عقد صفقة معه، مهما بدا مراً، يبقى أسلم عاقبة مما قد يقرره القاضي مايرز بخصوص مذكرة دافيد. "هل يصح لي أن أسألك استناداً إلى ماذا؟ هل استناداً إلى ذريعتك المزيفة؟"

"لا، ليس كذلك، بل استناداً إلى احترامنا المتبادل، وتماشياً مع زهدنا المشترك في الدخول في محاكمات لا مبرر لها." قال بابتسامة فاترة. "ما عدا الدعاوى التي تتضمن عقوبة الإعدام طبعاً، وهذه نؤجل البحث في أمرها إلى وقت آخر."

* * *

بعد ساعة من الزمن غادر دافيد المبنى الفدرالي مسرعاً إلى مكتبه لملاقاة كارول.

كان عليه أن يرضى عن نفسه، إذ مهما كانت مارني شارب قد اختزنت من ضغائن جديدة، فإنه قد أدّى واجبه كمحامي دفاع. لكن هذه المواجهة قد تركت في نفسه في واقع الأمر أثراً مريراً، شكّل خليطاً ساماً مع المشاعر التي حركتها المكالمة الهاتفية التي كان قد تلقاها من هناء في الصباح. لعل سبب الأمر كله هو رجعُ الذكريات التي تشعره في ذاته بعدم العصمة، التي تعلمها أولاً من علاقته بهناء والتي يمكن لها أن تتفاعل مع سلسلة من الأفعال الأخرى قد تأخذه إلى مسافة بعيدة جداً عما أراد، أو عما خطر على باله.

إنها مجرد دعوى قضائية عابرة، أقنع نفسه، وليست علاقة غرام. أما العواقب، إذا كان هنالك من عواقب، فإنها سوف تظهر إلى السطح في القضية الجنائية التالية التي سيتخاصم فيها مع مارني شارب. وعندما يحصل ذلك سيتعاطى مع الأمر في حينه كما يجب.

الفصل 6

بعد لحظات من دخولها إلى المكتب، توقفت كارول عن الحديث مع دافيد عن مسألة زواجهما. وبعد أن بهتت قليلاً وهي تفكر في المزاج الذي يمر به دافيد، عاجلته قائلة: "كيف كان يومك؟ يبدو أنك شارد الفكر قليلاً."

أجبر دافيد نفسه على الابتسام. فكارول تحسن جيداً قراءة الآخرين، بمن فيهم دافيد. تقرؤهم من وجوه كثيرة، إن لم يكن من جميع الوجوه. لكن دافيد لم يرَ أن الوقت مناسب لبسط الحقائق عارية عن أي طلاء. "ولمَ أكون كذلك؟" أجابها بدماثة. "لقد حددنا للتوِّ موعد زفافنا، فأنا شخص مقبل على الزواج في سبعة أشهر، وأنا في عمر الثامنة والثلاثين. كما أن حفل الزفاف سيكون كبيراً ومميزاً. غير أني أجد نفسي الآن على الشريط الناقل الذي ينقل الناس من حياة العزوبية إلى الحياة الزوجية حيث سأصبح أباً، وهي مسؤولية تستدعي بعض الرهبة."

ابتسمت كارول مستعيدة الجو المرح. وكما لو أنه يراها للمرة الأولى منذ عدة أيام - مع أن أحداث الصباح لا تبدو بعيدة - حدَّق دافيد في المرأة التي سيقدم قريباً على الزواج منها. فوجد أن لها قامة مديدة حانية، وشعراً بنياً متموجاً، ووجهاً جميلاً كاملاً بسيطاً لولا عتمة محجرين، في قعرهما عينان عسليتان لهما شكل لوزيٌّ يعطي لصاحبتهما مسحة من الأصل الأوراسي، حتى أن دافيد ذات يوم مازحها قائلاً: إن إحدى جداتها لا بد أن يكون قد اغتصبها رجل تتري عابر سبيل. ومع أن ملامحها مرحة وطليقة في العادة، إلا أن محيَّاها يحمل أيضاً مسحة التصميم والعزم، التي تشي بشخصيتها الإدارية المحبّة للتنظيم. "مدرسة كارول شور للإدارة هو كل ما تحتاجه أميركا، بحق"، قال لها دافيد يوماً، بلهجة العابث الجاد.

"بل العالم بأسره،" أجابته بمرح. "لكن هيهات أن يسمح وقتي بذلك."

حقاً لقد أدارت كارول شور ما هو واقع في نصيبها من شؤون هذه الدنيا بكفاءة عملية بالغة. فهي ذكية وخبيرة في المجتمع. كما أنها تملك سحراً نافذاً على الآخرين

يجذبهم إليها، إن لم يجعلهم ينقادون لها. وكانت تغلف جديتها وتصميمها بغلالة من الدفء والغنج والدلال والعبث. وكل ذلك، بالإضافة إلى موهبة خاصة تمثلت في معرفة الأشخاص النافذين في الجالية اليهودية، وفي الحزب الديموقراطي على السواء. أما كتفاها العريضان، وحركتها النشيطة، فيجعلان منها مشروع بطلة رياضية، وهدفاً ممتازاً للحسد والغيرة، معاً.

كل هذه المزايا جعلت منها شخصاً لا يُستغنى عنه في عين دافيد. هذا إذا لم نقل أنه عرفها ليس كفتاة شديدة الإغراء فحسب، بل كشريكة شبقة في الفراش أيضاً. كما أنها كانت معه منفتحة وصريحة إلى درجة أصابته بالدهشة. أما نقطة الضعف الوحيدة عند كارول فكانت رغبتها العميقة في أن تشعر دائماً أنها مرغوبة ومدللة في رفقة شريك يحترمها ويتكافأ معها في وقت معاً.

"لقد فهمتُ الآن،" قالت له كارول. "إنه الدور الصعب للرجل في أن يكون رب عائلة،" نظرت إلى ساعة يدها، باحثة عن جزدانها قبل أن تنهض. "دع عنك كل غمٍ وقلق، سأقوم بنفسي بالاهتمام بكل شيء بما في ذلك شؤون الأولاد."

رفع دافيد معطفه الثقيل عن ظهر الكرسي قائلاً: "حسناً، يسعدني أن أفوِّض إليك كلَّ ذلك."

"شرط أن تقوم بواجبك. مثلما فعلنا هذا الصباح". وفجأة صارت عبارتها أكثر تدقيقاً. "ماذا حصل لك منذ الصباح إلى الآن؟ هل من خطب؟"

فتح دافيد باب غرفة مكتبه مشيراً عليها بالسير أمامه بجانب منضدة سكرتيرته الخالية. "هل قلتُ لكِ قبل الآن أنك امرأة شديدة الإدراك والملاحظة؟ إنك أبداً هكذا."

ضحكت كارول. "أعدك أن أغيِّر هذه العادة حالما يرتاح بالي أنني قد تزوجتك. أمَّا قبل ذلك فعليك أن تتحمل قلقي وحساسيتي كلما لمستُ تبدلاً في مزاجك."

توجها إلى المصعد الذي سيحملهما إلى المرآب. وفيما هو يضغط المفتاح استدار قائلاً: "تذكري أنني كنت خارجاً لتوي من اجتماع مع مارني شارب."

"يبدو أن الاجتماع لم ينته على خير؟"

انفتح الباب، فدخلت كارول إلى داخل المصعد قبل دافيد. "إذا أخذنا في الاعتبار أنها لا تطيقني،" أجابها، "وأنها لن تطيقني في المستقبل، فإنني حصلت على كل ما أريد. ولكن ليس قبل أن تتهمني بأنني أسرِّب إلى الصحافة أخباراً خيالية عن تحريات مكتب التحقيق الفيدرالي، ثم أقوم باستخدام هذه التحقيقات لشطب عدة سنوات من مسجونية موكلي."

"وهل صحيح أنك تسرِّب الأخبار المختَرَعة؟"

"هذا صحيح،" قال دافيد مبتسماً. "لكن اتهاماتها لي تؤذيني رغم كل ذلك."

رمقته كارول بنظرة شك. "أليست تلك ممارسة غير مهنية؟"

"أنا لا أعتبرها كذلك، خاصة وأنه ليس ثمة مخالفة للقانون." ثم صمت برهة ليتابع حديثه بنبرة أكثر جدية. "أولاً، إني أصدق رواية ريموند، رغم أن المحامي كثيراً ما يجازف عندما يصدق موكليه. ثانياً، كان من واجب مكتب التحقيقات الفيدرالي أن يتحرك للقيام بالتحريات اللازمة. ولأقول لك الحقيقة: إنني لم أكن متأكداً من تحرك الشرطة الفيدرالية. فقط كنت متأكداً مما ينبغي عليهم أن يعملوا. أما شارب فلم تشأ الإصغاء إلي. لذلك قررتُ أن أحثَّ الشرطة الفيدرالية بوسيلة أخرى." ابتسم دافيد ثانية. "كل محام يمكنه أن يربح دعوى موكله البريء. أما بشأن الموكل المذنب فلا بد من استعمال الخيال."

نظرت إليه بشيء من الارتباك. "بالنسبة لفتاة بسيطة مثلي، تبدو لي يا دافيد متساهلاً في أخلاقك في بعض الأحيان. إني أرى هذه الومضة في عينيك، فإخال نفسي للحظة عابرة أنني لا أفهمك."

انفتح باب المصعد ثانية على مرآب متكهِّف تحت الأرض. "لا تشعري أنكِ وحيدة في ذلك،" قال لها بلهجة مرحة. "أمي لم تفهمني مرة واحدة في حياتها. كما أنني لم أفهمها أيضاً.

"لكن شارب تستحق ما نالته اليوم على يديَّ بكل تأكيد. فهي تتطرف في ملاحقاتها للمشبوهين لأنها مولعة بالاتهام أكثر مما هي مهتمة بالحقيقة. يجب برأيي إخضاع المحامين إلى اختبارات الشخصية والذكاء النفسانية، قبل السماح لهم بالتقدم لوظيفة مدعي عام."

وصلا إلى سيارة كارول الجاكوار الخضراء ذات السقف المتحرك، التي تصر كارول على أنها بريطانية الصنع وليست ألمانية. أدخلت مفتاح التشغيل في مكانه ثم استدارت نحو دافيد قائلة: "أيمكننا أن نتحدث لدقيقة واحدة؟ إن والدي سيكون متفهماً لتأخرنا القليل عليه."

"ظننت أننا كنا نتحدث."

"التفوّه بالكلام لا يعني دائماً أننا نتحدث." ثم حدقت في لوحة قيادة السيارة وكأنها تستجمع أفكارها. "بعد أن استمعتُ إلى روايتك، أتساءل إذا كان الدفاع عن المجرمين ـ أو لنقُل المتهمين ـ قبل سنتين من معركة عضوية الكونغرس يعتبر عملاً صائباً."

"حتى وإن كنتُ أعتقد أنهم أبرياء؟"

"نعم حتى ولو، مع الأسف. فأغلب الظن أنك ستربح هذه الدعوى، على الأقل لأن

راي سكالون لم يقدِم على قتل ذاك الحارس. لكنك وضعت نفسك أصلاً في هذه الدعوى في الجانب الخطأ من قضية عقوبة الإعدام."

"لكن معظم الناخبين في ولايتي،" قال دافيد معترضاً، "لا يؤيدون حكم الإعدام."

"هذا صحيح، ربما. لكن البعض الآخر منهم يؤيدونه. وهذا البعض يشارك أيضاً في انتخاب الشيوخ."

"ألسنا نبالغ في تقدير حظوظنا بعض الشيء؟ لمَ لا تقولي إنهم يؤثّرون في انتخاب رئيس الولايات المتحدة أيضاً؟"

"رئيس أميركا اليهودي الأول؟" أجابته بلفظٍ رشيق. "هذه مسألة يلزمها بعض الوقت."

"ظننت أنكِ ستقولين عني 'نصف يهودي'، مع كل هذا، فإن القانون الجنائي هو هوايتي."

لمست كارول يده. "هذا الجزء من الموضوع أعرفه. أما الجزء المتعلق بيهوديتك، فسنشتغل عليه لاحقاً. لكنك تبدو لي أحياناً أنك تعتقد بأنك محصن من النكسات، أو حتى من الأذى، كأنما الله قد قطع لك بطاقة عبور آمن."

هذه المسألة كان يعرفها دافيد أكثر مما تعرفها هي عنه، فمجرد مكالمة هاتفية واحدة ذكّرته كيف صار عنده أشياء لا يجرؤ على بحثها. "لست أشعر بالحصانة، ولا بالأمان، أبداً،" قال لها. "بصرف النظر عما تعتقدينه عن مسيرة حياتي الساحرة."

"ليست الساحرة فقط،" عقبت على كلامه بهدوء. "بل المنطوية أيضاً."

"ألست تعنين العكس؟ فأنا أعلم أنك ما زلت قلقة كون والداي لم يكونا يهوديين سوى بالاسم تقريباً. فهما قلّما أتيا على ذكر المحرقة، أو حتى على ذكر إسرائيل. لقد كانا راعيين للسمفونيات، وحفلات الأوبرا، ورقصات الباليه. وكانا يفضِّلان حياة النخبة المفكرة الراقية على الحياة المنضوية تحت الهوية الجماعية."

"لكنهما كانا يحملان هوية يا دافيد. فهما يهوديان من أصل ألماني، كما أنهما أميركيان منذ ثلاثة أجيال. نحن كنا يهوداً بولنديين. تهجرنا إلى هنا بطريقة لا بد أن يعتبرها أهلك مزرية. ونحن نتحدث أيضاً عن الأداء الجسدي."

ابتسم دافيد لهذا. لكنه أيقن أن الفرق بينهما أعمق من أن يتوقف عند تذوّق أهله للموسيقى، أو أن ثلاجة أهلها مليئة بالشمندر أو بالصلصات البيتية، أو أن أيام الأعياد اليهودية تلقى مراعاة شديدة لدى أهلها ولا تلقى سوى اهتمام عابر عند أهله. لكن الفرق يكمن في أن عائلته لم تختبر شيئاً من أكوام الجثث في معتقَلات هتلر، وذكرياتها التي

ترغم كارول على تذكر رجال ونساء ـ بل حتى العيش على ذكرى رجال ونساء ـ لم يسبق لها أن رأتهم. وقد عبَّرت له مرة عن هذه الفكرة بصورة لاذعة بالقول: "إنني كمن يعاني من آثار التدخين الناتج عن تدخين المدخنين الآخرين." كل هذا كوَّن لديها إحساساً عميقاً بالولاء للجماعة مقروناً بشعور بتشاؤم غامض كامن خلف واجهة بارزة من الثقة والمرح. شعور وإحساس يقولان: إن المتاعب يجب أن تدارى وتُجتنب، لا أن تستثار وتغازَل.

"يا لنا من اثنين،" قال دافيد عند تلك اللحظة. "أنتِ وأنا."

ابتسمت كارول قليلاً. فخشي دافيد أن تكون عرفت مغزى كلامه. فهي مصممة على ترتيب شؤون العالم بأسره على طريقتها. وأفضل ما في هذه الطريقة درء الهلاك بالابتعاد عنه. لكنها مثل والدها هارولد تملك اعتقاداً متكتماً بأن القوة يجب أن تمارس في السر بطرق غير لافتة للنظر، لا أن يجاهر بها في العلن، كما ينطوي عليه مزاج دافيد. لهذا، فإن طموحاتها العامة كانت مجيَّرة إليه. إنه مزيجٌ من طباعهما وحاجاتهما.

ابتسم دافيد لها مقدراً مدى شعوره بالراحة معها. فهو مثل كارول، يحب أن يكون له أولاد. وكان من السهل عليه أن يتخيلها كأم. كانت هذه واحدة فقط من الصور التي يتصورها بها بثقة ودفء. وإذا كان دافيد أحياناً ينظر إلى كارول بعين الشريك أكثر مما ينظر إليها بعين العاشق، فلأنه بات يعرف أن هذا هو كل ما يستطيعه. أما عدا عن هناء وكارول، فما اقتحمت امرأة ثالثة وجدانه، ولا حوَّمت بجوار قلبه. كما أنه يئس من التفكير بأنه يستطيع أن يجد حباً جديداً يستطيع أن يمحو كل آثار تجربته الماضية. لقد أحب حباً جارفاً غير ملجوم لمرة واحدة فقط! وقد جرَّ عليه ذلك الحب من الألم والغصة ما يكفي للتوبة عن تجرُّع هذه الكأس مرة ثانية.

"نحن زوج رائع حقاً،" أكد دافيد لها هذه العبارة مرة ثانية بابتسامة عاجلة. "فابننا سيكون يهودياً مؤمناً، وابنتنا سوف تكون يهودية مؤمنة أيضاً. وسنرسلهما إلى مدرسة يهودية يتعلمان فيها حتى يكرهاننا معاً."

تقبلت كارول هذا الالتزام بنظرة راضية متفكهة، وقالت وهي تدير مفتاح المحرك: "لا أطيق صبراً لكي أخبر والدي عن خبر المدرسة اليهودية. لا شك أن ذلك سيشعره بالفتون."

خرجا من المرآب إلى نور الشمس. وخاطب دافيد نفسه فيما هو يراقب شعر كارول الذي تتلاعب بخصلاته أنسام الصيف الباردة. هكذا، قالت هناء: *فتاة يهودية لطيفة واسعة الثراء، هذا ما لا بد من أن تنتهي إليه اهتماماتها حسبما أعتقد.*

لقد حاولت هناء أن تقول له ذلك. هذا ما جال في ذهن دافيد.

الفصل 7

نظرت هناء حولها نظرة المتعثر في جحر أرنب.

فلقد استلزم الأمر عدة مكالمات هاتفية طويلة قبل أن توافق على موعد جديد. وكان اللقاء هذه المرة في المكان الوحيد الذي لا يمكن لأحد أن يراهما فيه. إنها شقته. لقد كانت عبارة عن جحر واقع خلف ميدان هارفارد، وتتألف من غرفة جلوس تحتوي على أريكة، وطاولة قهوة، وتلفاز، ومنضدة، وكومبيوتر، كما أنها تضم مطبخاً مركوماً فيه طاولة تُجلس شخصين فقط، وغرفة نوم فيها سرير كبير، وخزانة ثياب، ودرّاجة كان يستعملها دافيد للتريُّض أيام الربيع والخريف. وقفت هناء ببنطلونها الجينز الأزرق وكنزتها الصوفية وسط غرفة الجلوس وقفة الحائر بين الجلوس والانصراف.

"لا بأس عليك هنا،" قال دافيد. "أنتِ في أمان معي، أو بالأحرى في أمان مني، إذا كان هناك ما يقلقك."

"المسألة كلها تتعلق بأنه من الغريب لمثلي أن تكون هنا."

"كنت أتمنى من جهتي، بكل سرور، أن يكون غداؤنا في مكان ما، في الخارج. أنت تعلمين هذا."

"لا يمكن لي أن ألاقيك في العلن. أنت تعرف ذلك."

"هل تظنين فعلاً أنني كنت أعرف؟ فأنا لا أعرف سوى ما قلتِه لي."

ابتسمت هناء قليلاً لتقول له: "لو كنت عربياً لعرفت هذه الأشياء دون أن أخبرك عنها."

"هل تعنين مثل صائب؟"

مسحة من الشعور بالذنب - خُيِّل لدافيد - خيمت على محجريها، جاعلة إياه يندم على ملاحظته الأخيرة المتسرعة. "لكنني أستطيع أن أتعلم في الحقيقة يا هناء."

"وهل الأمر شديد الأهمية بالنسبة إليك؟"

"لست متأكداً بعد. لكنني أعرف الآن فقط أنه يهمني."

نظرت إليه نظرة استطلاع باردة. "ربما أنني شيء لا يمكنك الحصول عليه،" قالت مسترسلة. "وهكذا، فأنت الآن تواصل الاهتمام بي إلى أن تنال مبتغاك."

هزَّ دافيد رأسه بالإنكار. "كل ما أريده الآن: هو أن أطهو وجبة طعامنا. وكل ما أطلبه منك: هو أن تكوني بقربي."

تبعته إلى المطبخ. وكان دافيد قد رتب المائدة: طبقان أبيضان، كوبان لسكب الشراب، فوطتان من القماش زاهيتان، شمعة على قاعدة نحاسية. كما توجد تحويجة من شرائح لحم العجل، منقوعة في خلطة من ابتكاره الشخصي. قالت كأنها تفتش عن شيء تقوله: "هل تقوم بالطهي في البيت؟ أعني في بيت والديك؟"

"كلا، في الواقع. مدبرة المنزل تقوم بمعظم أعمال الطبخ. أمّا شغف والدتي فيتركز على الأدب الإنكليزي، وليس على الطبخ."

"وهل لديك إخوة وأخوات؟"

ذكَّره السؤال كم أن كلاهما لا يعرف سوى القليل عن الآخر، وبالفجوات بين إحساسه الغريزي بها، وبين تراكم الحقائق والتفاصيل التي يتعرف الناس بعضهم إلى بعض من خلالها - أو التي يخيل إليهم أنهم قد اكتشفوا بعضهم بعضاً من خلالها - ليعرفوا في النهاية من هو الشخص الماثل أمامهم. "لا، ليس لي إخوة ولا أخوات،" أجابها. "يبدو أنني استنزفتُ كل قدرة أبي وأمي على إنجاب المزيد من الأطفال." ثم أشار إليها في اتجاه زجاجة مفتوحة من الشراب. "إنني عادة أحتسي بعض الشراب فيما أعدُّ طعامي. هل تحبين مشاركتي في ذلك؟."

ترددت هناء قليلاً قبل أن تقول، "أشرب العصير فقط."

سكب لها شيئاً من العصير في كوبها." تذوقيه إذا شئت."

ترددت قليلاً قبل أن ترتشف رشفة من كوبها. "إنه عصير طيب المذاق؟"

ألقى دافيد نحوها نظرة جانبية. "إنه عصير ثمار مختلفة من كاليفورنيا، ينتجه مصنع خاص لأبنائها ولا يصدّر إلى الخارج."

ضحكت هناء كأنها تريد أن تقول إن ذلك أمر لا يصدَّق. "أنتم الأميركيون تجعلون حتى لنزواتكم أهمية كبيرة. وقلما يدور في أذهانكم أن ثمة أناساً جائعين، سواء هنا أم في الخارج." ارتشفت رشفة أخرى من كأسها. "هذا أحد الأسباب التي تجعل أميركا خطيرة في اعتقادي؛ هذا الانغماس في الذات الذي يبقي الكثيرين منكم على شعورهم الغريب

بالبراءة. أحياناً أرى أميركا مثل جروٍ ضخم له براثن كبيرة، وذيل شديد الحركة يجري ويلهو في غرفة جلوس مليئة بالتحف والأواني الزجاجية. فهو يوقع ما يوقعه من الآنية ويحطم ما يحطمه من الكؤوس، فرحاً مرحاً بما يقوم به من لهوٍ واكتشاف. أما غرفتكم أنتم الأميركيون: فهي العالم بأسره."

ضحك دافيد لهذا التشبيه. "إذاً لا بد أن عليَّ الكثير مما يتوجب التكفير عنه."

منحَته هناء ابتسامة ترفُّق وصفح. "يلزمك حياة مديدة لتفعل ذلك. عندكم يوم سنوي لطلب الغفران. تسمونه يوم كيبور، أليس كذلك؟ إن الندم بالتقسيط ليس كافياً."

"حتى وإن كنتُ أحسِن الطهي؟"

"هذا ما سنراه بعد قليل." صارت نغمة صوتها مداعِبة. "شيء آخر عن الأميركيين، هو إفراطهم في الثقة بأنفسهم. إنهم لا يطيقون أن يحكم الآخرون على أدائهم."

"تابعي، تابعي، إن أناي ليست هشة، ولا سريعة الانكسار."

"قد تكون كذلك في ما يتعلق بالطبخ فقط. فما من رجل إلا وتنكسر أناه بشكل أو بآخر."

ابتسم دافيد مصمماً على التركيز على شرائح اللحم. وعندما نظر إليها ثانية، كانت تحلُّ شعرها من عقدته التي تعقصه وراء رقبتها، لينداح على كتفيها أسود لامعاً غزيراً. لكن عندما لاحظت أنه ينظر إليها، شعرت بالارتباك والخجل كما لو أنه ضبطها متلبسة بعمل مشين.

"كنت أفكر في أن شعرك جميل جداً." صمت قليلاً وهو يفتش عن حديث يخرجه من المأزق. "في بلادكم هل تضعين غطاء عليه؟"

"نعم أحياناً، مراعاة للتقاليد الدينية، أو عندما أخالط نسوة أكبر مني." قلّب دافيد قطع الكستليتا. "يبدو أنني أتلفتها."

حركت هناء كتفيها قليلاً. "هذا ما تفعله البنات هناك. أمّا إذا فعلتُه أنا هنا، فإن ملاحظة الرجال لي لا بد من أن تتضاعف. لذلك فإن الحجاب هنا لا يفي بالغرض."

إلى أي درجة تُراها تحسُّ بسيطرة جمالها عليَّ؟ تساءل دافيد في نفسه. "الغداء جاهز،" قال لها. "ويمكنكِ تقدير العلامة التي أستحقُّها في وقت لاحق."

* * *

تناولا طعامهما دون استعجال، وهما يتداولان في شتى مواضيع هذه الدنيا حسبما يجدانها. "إذن أنتَ لا دِين لكَ؟" توجهت إليه بالسؤال.

"ليس بطريقتك أنتِ، مع أن لي ثقافة يهودية أفاخر بها بشكل أو بآخر. لم يكفُّوا يوماً عن قتلنا. ولكننا مع هذا نفعل أكثر من مجرد المحافظة على استمرار نسلنا. فنحن نخترع، ونكتب، ونكتسب، ونبني، ونجدد، مثلنا مثل بقية العالم. ومهما يكن اعتقادك عنا، فإن الديانة اليهودية تبقى في أفضل ما فيها ديانة حليمة متساهلة. فنحن لا نبشّر. كما أننا تعلّمنا بما فيه الكفاية معنى العذاب والظلم. حتى صرنا أقدر على تفهُّم عذابات الآخرين، وما يتعرضون له من اضطهاد.

"لكن تاريخ الأديان، في أسوأ ما فيه، هو قصة تحكي فصولها عن المذابح الجماعية. لماذا قام أتباع الديانات الأخرى بالتنكيل باليهود طيلة ألفي سنة؟ لماذا يكره العرب واليهود بعضهم بعضاً في الوقت الحالي؟ إنه من الصعب للمرء أن يفكر في جميع تلك الأسئلة ثم يرفع بعدها أنظاره إلى السماء. أحياناً يخيل إليَّ أن الإنسان قد خلق إلهه على شاكلة أفكاره الخاصة عن ذلك الإله. إله ضيِّق التفكير، متعطشُ لسفك الدماء."

نظرت هناء إليه نظرة طويلة متأملة. "إن الخلاف بين شعبكم وشعبنا،" قالت له في النهاية، "أكثر من أن يكون مسألة إلهٍ متعطشٍ لسفك الدماء، وأكثر من مسألة توراة وقرآن. إنه التاريخ والأرض. إنه الناس ومآسيهم الشخصية. والظاهر أنك لا تعرف من تاريخكم إلا ما كتبتموه أنتم عن أنفسكم، وأنصحك أن تطلع على ما كتبه الآخرون عنكم، لتكوّن رؤية واضحة."

"لكن ألا تعتقدين أن الأمور لو تُركت في يدي ويدك لأمكننا أن نجد طريقة معينة للخلاص؟"

"لا أعتقد أن الأمر بأيدينا، أو أنه سيكون بأيدينا يوماً. فالأمر أكبر بكثير من حجم شخصين اثنين."

وبينما هو يحدِّق في المائدة، تبسّم دافيد دون أن ينطق بكلمة. "ما الأمر؟" سألته.

"كنت أفكر في ما قاله بوغارت لإنغريد برغمان في نهاية فيلم كازابلانكا."

لم تكن ابتسامتها سوى ومضة قصيرة. "هذه القضية ليست فيلماً سينمائياً. ولذلك لن تستطيع أن تعيد كتابة نهاية القصة."

"إذن قد أكون أميركياً إلى درجة تجعلني أُشبه إلى حدٍّ كبير ذلك الجرو الذي كنتِ تتحدثين عنه. لكنني رغم ذلك ما زلت مؤمناً بالأفراد الذين يكتبون نهاية قصة حياتهم بأيديهم."

أجالت هناء نظرها في وجهه. كانت عيناها غائمتين بشعور لم يستطع دافيد أن يعرف كنهه. "كان العشاء طيباً،" قالت في النهاية. "وعلينا أن نكتفي بهذا القدر، وأن نكون سعداء به."

"بماذا كنت تفكرين؟" قال دافيد. "من قبل."

تحاشت النظر إليه قليلاً، ثم نظرت إليه نظرة مباشرة. "إنني أخشى ما قد أريده بعد، منك. وما قد تريده بعدُ، مني."

لم يجب بكلمة في بداية الأمر. ثم وقف بصورة عفوية آخذاً بيديها، ثم رفعها بلطف عن كرسيها حتى صار في وسعه أن ينظر في عينيها، "ماذا إذ لم تكوني مجرد شيء ليس باستطاعتي الحصول عليه؟ ماذا إذا انتهى الأمر بي بأنني صرت أريد الحصول على جميع ما فيك؟"

وللحظة طويلة وقفَت هادئةً صامتةً، فيما عيناها تراقب عينيه. ثم أسنَدت رأسها إلى كتفه. أحسَّ، أو ربما تخيل، بقشعريرةٍ تسري في جسدها. "أهذا فقط؟" قالت مهمهمة. "إن أكثر ما أستطيع أن أعطيك إياه الآن.. أو أن أعطيك إياه في المستقبل: هو ساعة واحدة في كل مرة حتى لا يعود باستطاعتي الاستمرار في ذلك."

اشتمَّ دافيد رائحة شعرها العطرة كأريج العشب الذي قُطع للتوّ. "تجعلين الأمر يبدو وكأنه العذاب. ألا تعتقدين أننا يجب أن نكشف عن السبب؟"

"إنه ليس مجرَّد عذاب..."

لم تكمل عبارتها حتى كانت شفتاه تقبلان عنقها. كان بوسعه أن يسمع بوضوح ضربات نبضها. ثم شعر بدفء جسدها الملتصق به.

قبلاتهما التي بدأت لطيفة ومترددة لم تتوقف عند هذا الحد!..

* * *

لم تنظر هناء إلى ساعة يدها فيما بعد إلا وهي ترتشف القهوة مع دافيد إلى طاولة المطبخ.

"هل أنت خائفة؟" سألها دافيد.

عبرت سحابة من الكآبة فوق وجهها. "ليس الأمر كما تعتقد." قالت له. "هناك أسطورة أخرى عن النساء العربيات تقول إنهن خانعات مذعنات. قد ينطبق هذا على بعض المناطق القليلة. أما في تقاليد منطقتي فإن هناك أمراً مفروضاً وحيداً، وهو أن تتقيد المرأة بآداب الشريعة الإسلامية."

"وماذا عن الرجال؟"

"وكذلك الرجال، ولكنهم أقلّ التزاماً من النساء."

وفيما هي تتحدث عن هذا الأمر الواقع أخذت نغمة صوتها دافيد بالدهشة. "شيء جميل أن يكون هناك تقنين لهذا المعيار المزدوج."

هزَّت هناء كتفيها. "صحيح أن الرجل العربي عليه مسحة من السلطة الأبوية، مثلما هو الحال مع كثير من الإسرائيليين أيضاً. ولكني آمل أن نصل يوماً ما، إلى تطور يتساوى مع حالة العلاقات الاجتماعية في أميركا، حيث الرجال يميلون إلى النفاق والمراوغة كلما تكشفت شوفينيتهم، بل إنهم قد يشعرون بالخجل قليلاً.

ومع أنه ابتسم لكلامها إلا أن دافيد لم ينحرف عمَّا هو ذاهب إليه. "وما هو الأمل الذي ترجينه من صائب؟"

"أرجو منه المزيد من الانفتاح،" قالت هناء بصراحة. "ليشمل هذا بناتنا، فيما لو رزقنا ببنات."

هذا الاعتراف العرضي الذي أشارت فيه هناء إلى مستقبلها أصاب دافيد بجرح. وكأنما أحست بذلك، فلمست وجهه قائلة. "آنا آسفة يا دافيد. لكن هذا هو المسار الواقعي للأمور."

"ربما يكون ذلك صحيحاً. لكنني أجهل لماذا."

"هل يهمك الأمر إلى هذا الحدّ؟"

"أجل أعتقد أنه يهمني."

أغلقت هناء عينيها. "هناك ذيول كثيرة لذلك،" قالت في نهاية الأمر. "أبوانا كانا ابني عم من الدرجة الأولى، أمَّا أُمَّانا فقد كانتا ابنتي عم من الدرجة الثانية. وعندما بلغنا الحادية عشرة، بدأ والدانا بالتشاور في أمر وجوب تزويجنا."

"هذا لا يمكن أن يكون خيارك الحقيقي."

"هل بسبب أنني موجودة معك هنا خفية؟" أخذت هناء نفساً عميقاً. "صحيح أن صائب سيفقد صوابه لفعلتي هذه. وخاصة أنني فعلتُها مع يهودي، رغم أني لم أفعلها معه"

أدهشه جوابها، فقال دافيد ببطء. "أن تنامي معي شيء،" ثم أكمل أخيراً. "أمَّا أن تتزوجي صائب فهو شيء آخر."

"وما الذي يهمك من كل ذلك؟"

أفرد دافيد راحتيه في دلالة على الدهشة والذهول والإحباط. "حقاً، عرفت الآن. ربما لأنه وفقاً لثقافتي المنافقة: على النساء أن يُلبسن العلاقة الجنسية أثواب العاطفة والغرام، وما على الرجال سوى تنفيذها في غرف النوم."

"قلما يعنيني ما تفهمه من هذا الأمر." قاطعته هناء. وهنا أخذ صوتها نغمة من التسليم الضجِر. "زواجي من صائب يتعدى أن يكون زواجاً مرتباً من الأهل، أو نابعاً من

تقاليد المجتمع القروي. فالتقاليد المغروسة فينا هي التي جعلتنا على ما نحن عليه. فمنها أننا فلسطينيون، وأن صائب كفءٌ لي في الذكاء والطموح، وكل ما يشبه ذلك، أجل، إنه التاريخ.

"والتاريخ لا يعني فقط أننا ولدنا في قرية واحدة. إن اغتصاب فلسطين واحتلالها من قبل الصهاينة هو الذي قولب روايات حياتنا. فلأنهم من أهل الجليل، اختار أجدادنا الهرب إلى لبنان. فوالدا صائب تزوجا في مخيم تل الزعتر. أما والداي فتزوجا في مخيم صبرا وشاتيلا. تلك البالوعة التي احتضنتهم مع ما فيها من قذارة وازدحام وأمراض." وهنا حمل صوتها رنّة الغضب الهادىء. "لقد ظن أهلي أولاً أننا أشخاص محظوظون، لأنه عندما اندلعت الحرب الأهلية في لبنان بين مسلميه ومسيحييه، حاصرت الميليشيات مخيم تل الزعتر وأمطرت أهله بالقذائف بينما هم داخل بيوتهم.

"لقد استغرق الأمر من رجال الميليشيا ستة عشر يوماً قبل أن يضجروا. وعندما اندفعوا إلى داخل المخيم، بدأوا بقتل الرجال. صائب، الولد البكر لوالديه، كان يومها في الثامنة من عمره. لهذا، فإنه مع أمه وأطفالها الأربعة الآخرين، من ذكور وإناث، قد نجوا من الموت، رغم أن منزلهم قد تحوَّل إلى أنقاض. لكنهم اعتقدوا أننا أوفر منهم حظاً. وعندما بدأ حصار تل الزعتر، كان والد صائب يفتش عن فرصة عمل في بيروت، لهذا فإنه لم يستطع العودة إلى المخيم لكي يموت فيه."

توقفت هناء عن الكلام فجأة. "عندما انتهى كل شيء"، قالت لدافيد، "طوَّق المسلحون الأطفال والنساء، وساقوهم في شاحنات إلى حدود بيروت الغربية، ثم طلبوا منهم النجاة بحياتهم سيراً.

"كان والد صائب يفتش عن أفراد عائلته، وعندما عثر عليهم، كما أخبرني صائب، انهمرت الدموع من عينيه." هنا اختنق صوتها. "كان ملاذهم الوحيد منزل أهلي في صبرا وشاتيلا. وكان هذان مخيمان متلاصقين تديرهما الأمم المتحدة - آلوف الفلسطينيين تجمعوا في أبنية مؤلفة من طابقٍ واحدٍ ولها أسقفٌ مضلَّعة تتدلى منها مصابيح كهربائية عارية. وجدَت عائلة صائب مكاناً قريباً من منزلنا، في زاوية قذرة سميت على اسم قريتنا، ولكن حيث شجرة الزيتون الوحيدة التي تنمو فيه مغروسة في برميلٍ مملوءٍ بترابٍ أخذه أهلي من حفرة في حديقة مجاورة.

"'*من لا يُدفن في أرضه الخاصة*'، كان جدي دائماً يقول لنا، '*لا يكون قد عاش أبداً*.' لكننا دفناه في المخيم مع عنزاته ودجاجاته وشجرة زيتونه المسكينة التي كانت أثر الحياة الوحيد الباقي الذي رآه. فلاحٌ ليس له أرضٌ يفلحها. جزءٌ من مساحةٍ لا شأن لها، قد لا تعني للأميركيين سوى شيء يصلح للسخرية والشفقة. كان هذا المكان هو الذي تعاهد فيه أهلنا على تزويجنا."

خرج المقطع الأخير من فمها بمرارة عابرة، عرف منها دافيد أنها تحكي عن غضب أشد عمقاً. "لربما،" أنهت كلامها بنغمة أكثر هدوءاً، "أنك قد بدأت تفهم. لكنكَ في الحقيقة لا تستطيع أن تفهمني حق الفهم قبل أن تعرف ماذا فعل بنا اليهود، والمآسي التي قاسيناها، وما زلنا، من جرّاء تهجيرنا عن أرضنا. وعندما يتزوجني صائب، فإنه يقوم في الحقيقة بالوفاء بأمنية رجل ميت."

سكب دافيد المزيد من القهوة له ولها. "أخبريني بما حصل في صبرا وشاتيلا."

ولبرهة ما، تابعتِ التحديق فيه من فوق حافة فنجانها. ثم بنبرة هادئة بدأت بالكلام.

الفصل

8

في صيف عام 1982، عندما كان صائب لا يزال في الرابعة عشرة من عمره، اجتاحت إسرائيل لبنان بحجة حماية حدودها الشمالية من هجمات ثوار عرفات الفلسطينيين المنضوين تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية.

لم يكن لدى عائلة صائب الكثير مما يبعد عنها الجوع والفاقة. لذلك حاولت والدة صائب أن تسعف عائلتها بالعمل في الخياطة وصنع الحلويات. وكان صائب يقوم ببيع الحلوى التي تصنعها والدته، بعد أن يعود من مدرسته. وكان منزلهم مؤلفاً من أربع غرف صغيرة. واحدة منها عبارة عن مطبخ وحمام معاً. وغرفة نوم لصائب وإخوته. والثالثة غرفة نوم لأخوات صائب. أما الرابعة، فلوالديه. لم يكن أحد ليهتم كثيراً لمراعاة الخصوصية، باعتبار أنها واحدة من المفاهيم الغربية. كان عالم صائب، كما هو حال عالم هناء، محدوداً مثلما هي آفاق أحلامهما محدودة أيضاً.

لكن العالم الخارجي لم يكن ليتركهما وشأنهما. ففي الساعة الخامسة من صباح أحد الأيام استيقظت هناء على الضجيج المرعب لطائرات أف ـ 16 الإسرائيلية تحلق فوق سطوح المنازل في بيروت. هذه الطائرات المخيفة لم تكن سوى هدية من الولايات المتحدة الأميركية. وقد كانت تطير على ارتفاعات تكفي لوقايتها من نيران مدافع الخردة الفلسطينية المضادة للطائرات، كما من نيران صواريخهم الإفرادية التي تطلق عن الكتف. لا تزال هناء تشعر بالهزات الارتجاجية التي كانت تحدثها القنابل المتفجرة، كما لا تزال تستطيع أن ترى السماء المشتعلة بلون البرتقال، وأن تسمع صرخات أمها وإخوتها عندما دفع والدها بهم على عجل إلى غرفة الجلوس وجعلهم ينامون على وجوههم فوق بساط الغرفة الممزق. وفيما كان يراقب هناء وهي تروي قصتها هذه في تلك اللحظة رأى أن عينيها قد امتلأتا رعباً.

"لم تكن هذه سوى البداية،" قالت له.

بقي الإسرائيليون يمطرون بيروت والمخيمات بالقنابل لمدة شهرين. وفي كل

يوم كان يشهد مخيم صبرا وشاتيلا أعمال دفن جديدة، بينما كان الأطفال يلعبون وسط الفجوات التي أحدثتها القنابل الصهيونية. أما الطريقة الوحيدة التي عُرضت على عرفات لوقف هذا التدمير فكانت الموافقة على الرحيل، هو ومقاتلي منظمة التحرير، إلى تونس.

وهكذا، رعى الأميركيون صفقة سلام، وعدوا بموجبها سكان صبرا وشاتيلا ـ الذين كانوا يخافون الإسرائيليين وحلفاءهم المتوحشين من الميليشيات اللبنانية ـ بأنهم يستطيعون البقاء والعيش في أمان، شرط نبذ العنف. وبعدما أخلي المخيم من المقاتلين، وبقي فيه النساء والأطفال والرجال العجّز والمدنيين. وكانت هناء فتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها بحيث لم تفقه ماذا كان يدور في خلد الإسرائيليين. إنها فرصتهم الأخيرة لقتل المزيد من الفلسطينيين. من أجل ذلك، وحسب ما أكدت هناء لدافيد. أما صائب، صديق هناء وزوجها المرتقب، والذي يكبرها بسنتين، فقد تنبأ بالمكيدة قبل حصولها.

"صائب لم يعد يؤمن بالسلام،" أوضحَت هناء لدافيد، فلقد رأى بنفسه الكتائب في تل الزعتر.

ثم ما لبث زعيم الكتائب بشير الجميّل أن قُتل في مقر قيادته في بيروت.

هنا، استغلّ الفرصة آريل شارون، الجنرال الإسرائيلي الشهير، صاحب العبور المضاد في سيناء، ودخل إلى بيروت، ثم أحاط الجيش الإسرائيلي بالمخيمات. "وبموجب قوانين الحرب." قالت هناء، "يكون الإسرائيليون هم المسؤولين عن سلامتنا. ولم نعرف سوى لاحقاً أن شارون أراد من الكتائب أن يقوموا نيابة عنه بتنفيذ ما يريد تنفيذه من عمل رهيب."

وفي ليلة السادس عشر من أيلول، تسلَّلت الميليشيات اللبنانية إلى داخل المخيم، وكان عناصرها مسلحين بالأسلحة الرشاشة والحراب والبنادق وبدأوا يتنقلون من بيت إلى آخر. أما الجنود الصهاينة فقد كانوا يراقبون ما يجري في المخيم ويشرفون عليه من السطوح المجاورة، كما أنهم أطلقوا القنابل البرتقالية المضيئة لإنارة المخيم. ثم سمعت هناء أصوات الطلقات.

هنا أمسك دافيد يدها.

"أطلقوا نيرانهم علينا في شوارعنا وفي داخل بيوتنا،" قالت هناء بلهجة رتيبة. خالتي المفضلة، سهى، شاهدَت المسلحين يسوقون النساء والأطفال في شاحنة، فجازفت بحياتها لتنقل الخبر إلى مركز للحراس الإسرائيليين على حافة المخيم. ولمدة أيام لم نعد نعرف عنها شيئاً.

لاحقاً، وبعد أن أخبرها صائب عن عثوره على سهى تحت كومة من الأنقاض، عرفت منه فقط ماذا حصل مع خالتها.

* * *

في الليلة الأولى للهجوم، حطَّم ثلاثة من رجال الميليشيا باب منزل عائلة صائب.

تقوقع أفراد العائلة معاً في عتمة غرفة الجلوس - والد صائب، ووالدته، وأخواه، وشقيقتاه. ومن خلال فتحة الباب سمع صائب صراخ جارتهم. أخته ذات الاثنتي عشرة ربيعاً تشبثَت بذراعه. أما والدته فبدأت بالصلاة.

وعندما وقف والده أمامها، أطلق قائد المجموعة النار عليه في صدره. "لا" صرخت الأم. "أرجوكم، دعوا لي أطفالي -"

رجل آخر أطلق النار عليها. وبعدما تكوَّمَت فوق زوجها، أصدر قاتلها أمره قائلاً بكل برودة، "أنتم جميعاً انبطحوا أرضاً."

انبطح صائب في الزاوية وهو جامد من الخوف ولا يزال ممسكاً بيد أخته. ثلاث طلقات، الواحدة تلو الأخرى، حطمت جماجم ثلاثة من الأطفال، أخته الصغرى وأخويه. وبينما كان ينتظر الطلقة الخاصة به تابع الإمساك بيد أخته عائشة وهو يحسُّ أن خوفها هو خوفه.

ومن فوقهما سمع صائب صوتاً هادئاً يقول: "لا بد أنكما عاشقان."

تسمرا في مكانهما في انتظار لحظة الموت. "انهضا،" قال الرجل.

وقف صائب مرتجفاً وهو يسحب أخته معه.

أشعل الرجل نور مصباح كهربائي يدوي في وجهه. لم يستطع صائب أن يرى من شدة النور. امتدت يد لتفحص القرط المتدلي من أذن أخته.

"هل هو ذهب أم زنك؟" سأل الصوت نفسه.

قالت الفتاة بصوت خفيض. وهي تميل نحو أخيها، "زنك،"

"دعها تعيش،" قال صائب مستعطفاً بصوت مسحوج. "اقتلوني أنا - لم يعد يهمني. لكن أرجوكم اتركوا أختي تعيش..."

"تعيش؟" قال الرجل بخشونة. "أنت تلهمني بفكرة."

وبوحشية انتزع عائشة من قبضة أخيها موجهاً إياها نحو الزاوية بإشارة من ضوء مصباحه. "اذهبي إلى هناك. وحاذري التعثر بجثة أمك."

وحالما انتقلت عائشة إلى الزاوية، وكما طُلب منها، كشفت دائرة نور المصباح الخارجية يد والدها الممدودة على الأرض. اندفع صائب غريزياً، فشعر بفوهة المسدس تضغط على رأسه.

مرَّر الرجلُ المصباح الكهربائي اليدوي إلى كف صائب. "سلِّط نور المصباح عليها،" قال له آمراً.

وبإذعان، فعل صائب ما طُلب منه. تحت ضوء المصباحِ كانت عينا أخته تشبهان عيني حيوان وقع فريسة لعدوه، دون أن يفهم في رعبه شيئاً.

"اخلعي ثيابك،" قال لها الرجل.

"لا،" قال صائب محتجّاً. "لا..."

"كلبة،" صرخ الرجل في وجه عائشة. "دعينا نتفرج على كل شيء وإلا سنطلق النار عليه."

لمحت عائشة وجه أخيها، فقالت له عيناها: "اهرب."

رمى صائب المصباح اليدوي الكهربائي من يده واندفع خارج الباب.

جرى المسلّح الآخر خلفه، ثم أزَّ الرصاص فوق كتف صائب، بينما هو يعدو في الظلام القاتل. جسده يرتجف، وقلبه يدقُّ بضراوة. وظل يجري في الأزقة المظلمة التي يعرفها بالغريزة، ولم يتوقف إلا لكي يتقيَّأ.

أخيراً وصل إلى مركز الصليب الأحمر. وهناك اختبأ مع لاجئين آخرين مدة ثلاثة أيام، لا يأكل شيئاً، ولا يكلم أحداً. وعندما طرق المسلحون باب المركز تصدى لهم طبيب مجازفاً بحياته، آمراً إياهم بالانصراف.

لم يكن صائب يتمنى شيئاً سوى الموت.

ولكن لدهشته، كان المسلحون قد انصرفوا.

"هنا كانت الأمور قد بلغت نهايتها." شرحت هناء لدافيد. "بدأ الأميركيون بالاحتجاج. وقرر الصهاينة أن رجال الميليشيات قد تجاوزوا حدودهم كثيراً. لذلك فقد أمروهم بالخروج. '*إن الموقف كله تحت السيطرة*'. صرح جنرال صهيوني لمبعوث أميركي خاص. كان جوابه بحد ذاته انتهاكاً صارخاً لا لزوم له. هذا أفضل ما حصلنا عليه من أميركا راعية الحريات في العالم."

* * *

وبعدما خرج المسلّح الأخير، تجوَّل صائب لوحده في المخيم.

وإذا به يشهد معجزة صغيرة. فمع أن جارة صائب، الحامل في شهرها التاسع، كانت قد قتلت بقذيفة، فإن طبيباً استطاع أن يستخرج الجنين من أحشائها حياً. لكن المخيم كان قد صار مركوماً بالجثث والأنقاض التي يستخرج المسعفون جثثاً أخرى من تحتها. شاهد صائب صفاً آخر من الجثث عند قاعدة حاجز خرساني ـ أحصى منها أربع عشرة جثة ـ مطروش بالدماء، ومنخور بالرصاص، تحت الأحرف: "PLO". ولعله كان عملاً رحيماً أن توجد جثة عائشة مدفونة تحت أنقاض منزلها.

"أستطيع أن أتخيل الآن، أنك كنت تلعب كرة القدم آنذاك،" قالت هناء لدافيد. "فموسم الكرة عندكم يبدأ في شهر أيلول، أليس كذلك؟ وإذا كان الأمر كذلك: فليس الذنب ذنبك. لكنك ربما صرت الآن تفهم السبب الذي يجب أن يجعل صائب لا يستسيغ تناول الغداء معك.

"صائب بات شخصاً مرعوباً إلى الأبد. ليس بسبب ما رآه، أو بسبب ما يشعر به تجاه الصهاينة، والميليشيات، وأميركا. بل بسبب ما يشعر به تجاه نفسه بسبب هربه. وبسبب بقائه حياً."

* * *

وجد صائب بعض خصلات شعر حمراء تحت كومة من الأنقاض، فتعرَّف من خلالها إلى جثة سُهى. شعرُ خالتها، تقول هناء، "كان أحمر بشكل مميز، وهذا ما ساعد صائب على التعرف إلى جثتها."

حاول دافيد أن يتخيل ذلك. "وماذا عن بقية عائلتك؟"

"عائلتي نجت. عائلة صائب هي التي ضاعت." حدقت هناء في فنجان قهوتها. "ألفا شخص قتلوا. بعضهم بقصف الصواريخ، وبعضهم بالرصاص، وبعضهم قُطعت رؤوسهم بالحراب. في إسرائيل سارت مظاهرات في الشوارع، احتجاجاً على تلك المذبحة. فتشكلت هناك لجنة تحقيق إثر ذلك، وجرى توبيخ شارون. لكنه بقي محتفظاً بمقعده في الوزارة رافضاً تقبُّل اللوم. ويبدو أن المغلوبين فقط هم الذين يحاكمون كمذنبين. أما المنتصرون فينالون الترقيات.

"ما تبقَّى لنا الآن، هو مخيم مبني فوق جثث الموتى، يغص باللاجئين الذين نسي العالم أمرهم." صار صوتها هادئاً وساخراً. "لكن صائب وأنا، كنا محظوظين ـ أميركا منحتنا مِنحتين دراسيتين لكي ندرس 'حكم القانون'. وها أنا الآن أجد نفسي جالسة معك." توقفت قليلاً عن الكلام فيما نظرتها ساهية في ما يتعدى وجود دافيد، وكأنها تخاطب نفسها. "ماذا دهاني، أخشى أن أكون قد أدخلت نفسي في مسالك مسدودة."

كان دافيد صامتاً. بعد قليل تلمَّس يدها من جديد بطريقة أكثر تردداً من المرة

الأولى. "أنت لم تحنثي عهداً يا هناء. كل ما في الأمر أنك لا تحبينه. إن شعورك تجاه صائب لا يتعدى أن يكون تعاطفاً وفريضة مفروضة عليك."

حتى بالنسبة إلى دافيد بدت الكلمات أتفه من أن تعبِّر عن الموقف. أغربت هناء أنظارها. "إنني عائلته الوحيدة." قالت بكلام شديد الانخفاض. "إنني المرأة الوحيدة التي تمناها[1] له والده، وأنا أيضاً كنت قد وافقت على هذه الرغبة."

تسلل الحزنُ إلى كيانِ دافيد، وكان مصدره قصة صائب وكلام هناء على السواء. "هل أستطيع أن أنام قليلاً هنا؟" سألته "على أريكتك هذه، لمدة ساعة تقريباً. إنني أضعف من أن أقوى على الانصراف الآن."

ولأنه عاجز عن فك ألغاز مشاعرها. لم يستطع سوى الإيماء بالموافقة. سوف أحضر لك لحافاً."

* * *

أطفأ دافيد مصباح غرفة الجلوس.

وجلس في المطبخ يحتسي القهوة ويراقب نوم هناء في الغرفة المعتمة. مرت نصف ساعة. ثم رأى الغطاء يتحرك فوقها وسمع صوت بكائها المخنوق بينما هي تصحو من نومها.

أسرع إليها. "ما الخطب يا هناء؟"

جلست منحنية الرأس إلى الأمام مسندة مرفقيها إلى ركبتيها، وملقية جبهتها على أصابع راحة يدها. "إنه حلم،" قالت بصوت رتيب. "إنه حلمٌ يعود إليَّ بعد كل حين."

جلس دافيد بقربها. "أخبريني عن هذا الحلم."

* * *

كانت تقف وسط بيت صائب. مع أن البيت لم يدمره المسلحون في الحلم. كانت غرف البيت فارغة. وعلى الجدران صور أفراد عائلة صائب. الوالدان، والإخوة، والأخوات.

كانت عينا هناء منجذبتين إلى وجه عائشة.

فلاحظت أن عائشة خرجت من الصورة، وتجسدت من لا شيء. كانت مثلما عرفتها هناء دائماً جميلة ومحتشمة اللباس.

"هل تجلبين لي كوباً من الماء؟" قالت الشابة الصغيرة بكل تهذيب. "ثم تأخذينني إلى أخي."

ذهبت هناء إلى المطبخ. وعندما رجعت: كانت عائشة قد اختفت. أما إطار صورتها فقد بقي فارغاً.

هزت هناء رأسها وهي تجلس صاحية تماماً بجانب دافيد. "إنه الحلم ذاته يتكرر دائماً. ولا أدري ما يمكن أن يكون تأويله."

سيكون الأمر على *ما يرام*، هذا ما كان على دافيد أن يقوله في مثل هذه الحالة لامرأة أخرى. '*أنتِ آمنة هنا معي*'. وكونه لا يستطيع أن يقول هذا الكلام لهناء هو نصف الحقيقة، أما نصفها الآخر الذي غفل عنه الآن، فهو أنه هو دافيد وولف قد دخل معها في دائرة عدم الأمان.

الفصل

9

صَعَقَ المشهد العام لمجمَّع "ستون تاون" التجاري إبراهيم بمظهره الباذخ الغني.

وقف هو وإياد في موقف السيارات الواسع، قرب سيارتهما المستأجرة التي سيتخليان عنها هناك. كان المبنى الحجري مؤلفاً من طابقين. ويبلغ طوله ربع ميل. وهو يضم سوبرماركت، ومخازن كبرى، وعدة مطاعم، وجميع أنواع المتاجر التي يمكن تصورها، من متاجر الأحذية، إلى الكتب، إلى الملابس، إلى السكاكر والحلويات، إلى أدوات التجميل، إلى التجهيزات الرياضية، إلى الأقراص المدمجة، إلى الأعمال الفنية. وكانت أرتال من السيارات تدخل وتخرج من باحة هذا المجمَّع. حاول إبراهيم أن يفتكر في مدى الإمكانيات والسَّعة لهؤلاء الناس الذين بدا عليهم البذخ كطبيعة ملازمة. شعر أنه شخص مهمل يعيش على هامش الحياة. فمسقط رأسه جنين ـ وهو عبارة عن مخيم للاجئين ـ بدا بعيداً عنه إلى درجة نائية كما لو أنه في كوكب آخر. فهو لا يعتقد أن هؤلاء الناس الذين يمرون به فيما هم يقودون سياراتهم، وهم في غالبيتهم من النساء، قد فكروا لحظة في مكان ولادته، أو أعاروا أدنى اهتمام بما أوقعه حلفاؤهم الصهاينة من مجازر في ذلك المخيم.

"إنه بالغ الضخامة،" قال مخاطباً إياد.

نصف الابتسامة، الساخرة، التي ظهرت على وجه إياد أكدت لإبراهيم سخافة ملاحظته الأخيرة. "صحيح،" أجابه إياد. "الأميركيون شديدو الاعتداد بأنفسهم، كما أنهم مغرورون، وحمقى. ليس عندهم قضية، ولا روح، ولا قيم. وجلُّ همهم: ماذا يستهلكون، وكيف يدفعون لشخص ما، ثمناً لرفاهيتهم ومتعتهم. فالدنيا بالنسبة إليهم تساوي لعبة من ألعاب الفيديو. لهذا، سوف ننتصر عليهم."

هذا قول سليم، اعتقد إبراهيم. فالغرب في نظره فاسد لا همَّ له سوى المحافظة على امتيازاته ونفوذه. كما أنه يعتقد أن اليهود هم الذين يسيطرون على وسائل الترفيه التي تستهلك أموال الغربيين وعقولهم.

أشار إياد إلى برج إنارة مرتفعٍ مصمَّم لإنارة قطاعٍ من باحة الوقوف، أثناء الظلام قائلاً، "يجب أن تكون هناك،".

كانت عبارة عن شاحنة بيضاء، لا تستلفت الأنظار، مركونة قرب قاعدة البرج. وكما خمَّن إبراهيم من قبل، فإن هذه الشبكة الخفية التي جعلت الهواتف المحمولة تظهر بسحر ساحر، وخزائن الأمتعة الشخصية التي تختزن بطاقات الائتمان وبطاقات الهوية المزورة؛ هي ذاتها الآن تجعل هذه الشاحنة تتجسد في هذا المكان، وهي كبيرة بما يكفي للاحتواء على دراجتين ناريتين. فتح إياد باب السائق ثم وجد مفتاح المحرك تحت سجادة الأرض لجهة مقعد السائق.

* * *

كان "نورث بيتش" مطعماً مشرقاً مقصوداً هادفاً إلى بعث الحياة في القسم الإيطالي، تاريخياً، من المدينة. وكان هذا المطعم هو المكان المفضَّل عند هارولد شور لعقد لقاءاته. قادهم كبير الخدم إلى زاوية تحتلها المائدة المحجوزة من أجلهم، بحفاوة احتفالية تليق بمناسبة عائدة إلى ابنة حاكم. وقف هارولد خلف ابنته حانياً عليها، مقبِّلاً وجنتيها، قبل أن يحيطها براحتي كفيه قائلاً: "وهكذا، تستمر عائلتنا،" وأتبَع ذلك بصوت يحمل لكنةً بولندية، "بعيداً جداً عن قريتنا التعيسة."

فكَّر دافيد كم أن زواجه من كارول يعني لهارولد. فمن بين ستة أطفال، وذويهما كان هارولد هو الناجي الوحيد بحياته من شر المحرقة، كما كانت كارول تمثل مستقبل عائلتها. إنها النموذج الوحيد الذي سيبقى لحفظ نوع هذه العائلة. استدار هارولد ضاغطاً بكفيه على كتفي دافيد وضاغطاً جبهته على جبهته. كان من الصعب على هارولد أن يعبِّر عن شعوره بالكلمات. فهو شخص أقدر على إظهار المشاعر منه على التعبير عنها. لكن لم يكن هناك شك أو صعوبة في قراءة اغتباط هارولد العظيم بهذه المناسبة. ففي معانقته الحميمة لدافيد، كان يتسرب منه دفء أبويّ لم يشهده دافيد من قبل، حتى من والده.

"سبعة أشهر!" قال لهما هارولد في غمٍّ ساخر. "لمَ هذا الانتظار الطويل؟"

ابتسم دافيد ابتسامة عريضة، متناسياً الأحداث التي خيمت على نهاره في الصباح. "هذا هو الوقت الذي تحتاجه ابنتك للانتهاء من إعداد لائحة المدعوين."

"إذن أنت تتذمر؟ إن هذا يعني المزيد من الهدايا التي ستحصل عليها." ثم جلسوا إلى مائدتهم فتناول هارولد يد ابنته الوحيدة في يده. "سيحصل زواج في عائلتنا في نهاية الأمر،" أضاف مبتسماً، "ستفرح أمك في رمسها بمقبرة إيمانويل."

قال هذه العبارة بهدوء، أمَّا خلف نغمته فكان ثمة حزن، وكان ثمة ذكريات لم تزل قريبة في الذاكرة. إذ توفيت والدة كارول في السنة الفائتة، بينما هو ما زال ملاحَقاً بأشباح

مخاوفٍ لا تُنسى لستين سنة عبرت. "يلزمنا وقت كافٍ لمناقشة عقد الزواج،" أجابت كارول بابتسامة ماكرة ألقتها في اتجاه دافيد. "كل الوعود التي يطلقها دافيد تبدو مُرضية وملائمة، وأنت تعرف ابنتك يا أبي، فأنا لا أدع شيئاً للصدف."

أفرد هارولد ذراعيه مع هزة من كتفيه تعني أن هذا الرجل وهذه المرأة يجب أن يصبر واحدهما على الآخر. "أملي أن تُقدِّمي أنتِ أيضاً بعض الوعود من جانبك،" قال مخاطباً ابنته. "كأن تسمحي له ربما بيومٍ واحد في كل شهر لا تقيده فيه مخططاتك."

لا بد أن هارولد يعرف ابنته جيداً، فكَّر دافيد. ثم جال بنظرة محبَّةٍ وإشفاقٍ في محيًّا حميِّه الذي كان منذ سنتين غريباً عنه، فصار الآن يحتل مكانة مركزية في حياته.

فهارولد شور، الذي هو الآن في السابعة والستين من عمره، له جبهة عالية تنتهي بفروة شعر رمادي حديدي، لا تنفك عن التراجع إلى الوراء؛ وفم تام التكوين؛ وذقن ذات ملامح قوية، وعينان غائرتان عسليتان تحت حاجبين تقوَّسا كعلامتي توكيد لملامح وجهه. وكان متين البنية من غير سمنة. وله كتفان كأنما صُمِّما لتحمُّل الأعباء الثقال. وعلى وجهه المتنبّه، والمعبِّر، كانت تعبُر دائماً ابتسامةٌ خفيفةٌ كان يخيَّل إلى دافيد أنها تنطوي على مسحةٍ من الكآبة.

وكان أيضاً في سيماء هارولد طيف من الخجل، حسبما بدا لدافيد، يشير إلى تحفُّظٍ أعمق. قسمٌ منه عائدٌ إلى نقصٍ في حصيلة التعليم، يمازجه شعور المهاجر بأن له لهجة لا تكاد تستقيم في أناقتها، رغم ما كان يملكه من سعة العبارة، ومن إلمام باللغة العامية، ترفدانهما ظرافةٌ وإحساسٌ بالنكتة. أما في عمق ذاته فكان يكمن ذاك الخوف الذي يدعوه إلى عدم الغلوِّ في جذب الانتباه إلى شخصه وحضوره، وهو خوفٌ مطبوعٌ منذ مدة غابرة، يقول له: أن تكون محجوباً عن الأنظار: يعني أنه يمكنك أن تستمر في العيش ليوم جديد. وهكذا، أن يكون لهارولد مثلُ هذه الابنة الراقية، الواثقة من نفسها، كان له مصدر عزة قائمة، وباعث افتخار دائم.

وهكذا، كانت الابتسامات التي تبادلها الأب والابنة تفصح عن أن كليهما جزء من مسيرة حياة الآخر، بطريقة لا يستطيع أن يدرك معناها سوى عدد قليل من العائلات. وكان دافيد يرمقهما بعين المتفهم لهذا الرابط الذي يتفردان به دون سواهما. فسِرُّ هذا الرابط يأتي من شيء داخلي كامنٍ في عمق أعماق هارولد، لم يسبق له أن أفضى به إلى دافيد أو لسواه. لذلك فإن كارول تكلمت نيابة عن أبيها؛ مدفوعة بدافع ضرورة أن يفهمهما دافيد معاً.

كانت كارول في الرابعة من عمرها، حسبما قالت لدافيد، عندما قرأت للمرة الأولى الأرقام على معصم يده.

كانا يجلسان إلى طاولة الفطور. قالت: ثمانية، في وعيها الطفولي المبكر وافتخارها بنفسها، فأكمل والدها: ثلاثة، خمسة، سبعة، واحد. مشجعاً.

أما أمها: فقد حوَّلت وجهها عنهما.

ومع أنها لا تدري لذلك سبباً، فإن كارول كانت تعتبر منذ أيام طفولتها أن ثمة قوَّة غامضة سحرية تكمن وراء الأرقام.

كان والداها كتومين لهذه الناحية. لكنها لاحظت أن البالغين الذين كانوا يأتون إليهم كانوا يحملون أرقاماً مثل أبيها، بينما لا يحمل مثلها سواهم. لذلك فسَّر عقلها هذه الظاهرة بأن الأشخاص المولودين خارج أميركا هم الذين يحملون مثل هذه الأرقام دون سواهم. لكن هؤلاء الناس كانوا كثيراً ما يتحولون من اللغة الإنكليزية إلى اللغة البيدية (لهجة ألمانية) للتحدث في ما بينهم بحضورها، فيتكلمون بأصوات حزينة عن أشياء لا يريدونها أن تعرفها. وعندما شاهدَت أجداد رفاقها في الصف، أيقنت أن ليس ثمة أهلاً كباراً للبالغين الذين يحملون أرقاماً. ثم حدث مرة أن ترك صديق لعائلتهم عندهم ألبوماً من الصور، في غرفة الجلوس بداعي قلة الاحتراز. وعندما فتحته كارول، وجدت صورة لرجلٍ ذي لحية، معلقاً على مشنقة في ساحة عامة، يحيط به رجال في ملابس عسكرية ينظرون إليه بعدم اهتمام، بل بنوع من الاكتفاء والرضا. ثم بدأَت تتساءل عما يربط عدم وجود الأجداد والجدات بالكلام باللغة البيدية، وما هو سبب امتناع والديها عن الكلام عن طفولتهما.

هذه الأسئلة باتت تتراكم في ذهن كارول بسرعة. ففي يوم من الأيام، بعد خروجهما من المعبد في طريقهما إلى المحل القائم على زاوية الشارع، بقصد شراء الحلوى لها، ارتعب والدها لرؤية كلب جارهما المحكم الوثاق. ومع أنه حاول أن يموِّه على هذه الحادثة بالضحك، فقد أيقنت كارول الذي لم يعترف مرة أمامها بالخوف من أي شيء، أن والدها إنما يخاف الكلاب، بطريقة لم تفهمها. ثم أتى يوم قائظ قرر فيه هارولد أن يصطحب كارول ورفيقة لها إلى منتجع "بايكر بيتش" الساحلي.

لم تكن قد شاهدت والدها قبل ذلك بثياب البحر. وعندما خلع عنه سترة الجري مظهراً جذعه العاري، لاحظت كارول بفزع أن صدره وذراعيه مخدَّدان بندوبٍ بارزةٍ بيضاء. ومع أن رفيقتها آرلين لم تلاحظ ذلك، فقد شعرت كارول بالذهول والخجل.

في تلك الليلة: أشارت كارول إلى الأرقام الموشومة على معصم والدها قائلة له: "ألا تستطيع محوها؟"

أجابها بصوت فيه العذاب الذي تخالطه مسحة من العتب واللوم: "لأكتسب ندوباً جديدة؟" ثم أكمل برفق ولطف. "كما شاهدتِ اليوم، فإن عندي من الندوب ما يكفي على جسدي."

عندئذٍ باتت كارول تعلم علم اليقين أن شيئاً رهيباً لا بد قد حصل لوالدها، لكنه يخفيه عنها.

* * *

كانت أمها هي التي كسرت الصمت.

لم تكن راشيل شور أماً مثل بقية الأمهات. ولم يكن الأمر يقتصر فقط على لهجتها، بل على الطريقة التي يعتني بها والد كارول بأمها، وبخوفها من مغادرة المنزل بدونه، وبالطريقة التي كانت تتجنب فيها الكلام مع الأمهات غير اليهوديات. كان مجرد معرفة كارول أن هذه الدنيا تخيف والدتها هو بحد ذاته مصدراً للمزيد من القلق.

وفي ليلة من الليالي، عندما كانت في السابعة، ذهبت كارول ووالداها للتسوق عشية حلول عيد الهانوكاه. كانوا يتجولون في ساحة يونيون سكوير فدهشت كارول للأنوار المتلألئة المتدلية من أشجار الميلاد، رغم أنها لا تعرف الكثير عن عيد الميلاد. وعندما التفتت ناحية والدتها رأت شفتاها ترتجفان، وسمعت صوتها وهي تكلم هارولد باللغة البيدية.

طوَّق هارولد كتفي زوجته بذراعه. "سنذهب،" قال بهدوء.

قاد هارولد السيارة عائداً بعائلته إلى البيت، لأن زوجته لم تجرب قط قيادة السيارة. ومن المقعد الخلفي، سألت كارول: "ما الخطب؟"

لم تكن تتوقع إجابة على سؤالها. لكن لدهشتها أجابت أمها بكلام يقارب الهمس: "إنهم النازيون."

كانت هذه الكلمة تحمل القوة الطوطمية المخيفة للأرقام. "كنا ما زلنا في غيتو وارسو،" تابعت راشيل كلامها بهدوء. "تسللتُ برفقة ليليان ابنة عمي التي تكبرني، خارج نطاق حيِّنا نبحث في القمامة عن طعام نسكت به جوعنا. لكن الشوارع كانت شديدة الإضاءة. كانت الأنوار كلها تفيض من شجيرات الميلاد المضاءة في الحفلات الصاخبة التي يقيمها المسيحيون. وعندما هربنا طلباً للنجاة أمسك النازيون بليليان في أحد الزواريب.

"كان ذلك في اليوم التالي لعيد ميلادها الحادي عشر. ومنذ ذلك اليوم لم أرَ ليليان ثانية."

لقد فهمت كارول في عتمة مقعد السيارة الخلفي أن النازيين قتلوا ابنة عم والدتها. ثم قالت لها أمها: "إذا زالت إسرائيل من الوجود فإن اليهود سيضمحلون منه أيضاً.

تلك الليلة، لم تستطع كارول أن تنام أبداً.

وفي تلك الليلة قالت لها والدتها: "إن 'إسرائيل' هي الوطن الأم لليهود". وتذكرت كيف كانت تلك المعلمة في المدرسة اليهودية تجمع الأموال من تلامذتها حتى يتمكنوا من زراعة شجرة في إسرائيل. تخيلت إسرائيل التي شاهدتها في الصور، مكاناً تزهر فيه الصحاري على أيدي الرجال والنساء المصممين. لكن لم تدرِ أن إسرائيل سترتبط يوماً بقدرها الشخصي.

إذا زالت إسرائيل من الوجود، فإن اليهود سيضمحلون منه أيضاً، كانت أمها تقول. وعند لحظةٍ ما، في ليلة من تلك الليالي المؤرّقة، عقدت كارول العزم على منع حدوث ذلك.

* * *

كانت كارول قد بلغت الثانية عشرة من عمرها عندما استأذنت معلمتها بكتابة بحثٍ عن المحرقة.

بعد العشاء، طلبت من والدها. بشيء من الرجاء. "هل ستساعدني؟"

هزَّ هارولد رأسه بالنفي. "لماذا؟" سألها. "فأنت تعرفين الآن كيف تبحثين في المكتبة. فأنتِ تقرأين أفضل وأسرع مني. صرتِ كبيرة جداً على طلب مثل هذه المساعدة."

كان جوابه لا يتفق مع أسلوبه معها. لذلك انهمرت الدموع من عينيها.

أطرق هارولد خجلاً. "أعرف عما أنت تسألين،" قال وهو يمد يده لتناول يدها. "ربما في يوم من الأيام سأتعلم كيف أكتبها لك."

بعد عدة أسابيع سجل هارولد نفسه في صفٍ دراسي في سان فرانسيسكو ليأخذ مقرَّراً دراسياً في أسلوب الكتابة.

في إحدى الليالي بدأ هارولد بالكتابة في غرفة مكتبه. ثم شاهدته كارول يخرج حاملاً في قبضته دفتر ملاحظات مربوطة أوراقه بضمامة حلزونية. كان وجهه ذابلاً ونظراته شاردة، ولا يكاد يلاحظ وجودها. كما أنه لم يقل شيئاً عن سعيه الجديد. ولاحقاً سمعته ينتحب في غرفة النوم التي تشاركه فيها زوجته.

وواظب هارولد على الكتابة.

وفي اليوم الأول الذي سمح لها فيه بالاطلاع على دفتره خلف باب غرفتها المغلق، بكت كارول من أجل كل ما قرأت.

وكان دافيد وولف هو الشخص الآخر الوحيد الذي قرأ في دفتر هارولد.

حتى بعد مرور نصف قرن على تلك الأحداث، استطاع هارولد شور أن يصفها ببساطة جعلت الرعب الكامن في هذه الأحداث يتكلم عن نفسه. لقد وجد دافيد هذه المذكرات صعبة التصديق، بقدر ما هي صعبة القراءة.

كان هارولد في الحادية عشرة من عمره عندما قدم الجيش الألماني إلى قريته البولندية التي شهدت ولادته. بولنديون كثر لم يصدقوا أن هذه هي عملية غزو. ففي أحيان كثيرة كان هارولد لا يكاد يفرق بين هؤلاء الجنود الألمان وبين جيرانه البولنديين. وفي ليلة كانوا فيها وسط جمعٍ ضاحك في هرج ومرج، طوَّق الجنود الجمهور اليهودي، طالبين

تضمين الحفل بعض المشاهد الهزلية، حيث أجبروا الحاخام على ذبح خنزير، كما أجبروا زوجته وأطفاله على الجري والصهيل مثل الخيول. لكن عندما التجأ إلى جيران والده مراهق نصف مخبول، جائع ومرتعب النظر، لم يصدق والد هارولد ما رواه الولد من أن الألمان قد أجبروه على دفن والديه أحياء.

وفي يوم الغفران من العام 1942، دخل ثلاثة جنود من البوليس السري إلى منزلهم. وفي حضور الزوجة المرعوبة وأطفالها: سدد الألمان مسدساً إلى رأس صاحب البيت. ثم اقتادوا أفراد العائلة إلى ساحة مرصوفة بالحجارة واقعة في وسط القرية. وبشعور طغى فيه الغضب على الخوف، تساءل هارولد ما هو نوع اللعبة التي سيتّسم بها 'حفل تهريج' هذه الليلة. وما هو الدور الذي سيخصُّ به النازيون والده إسحاق شور.

في وسط الساحة كان ثمة مشنقة.

الرجل الذي شاهدتِ صورته في الألبوم هو جدك. كتب هارولد. لم يجرؤ أحد على إنزاله عن المشنقة.

ثم وضعوا هارولد في شاحنة معدة لنقل المواشي مع أمه وأخيه وأخواته. أخته مريام أُجبرت على التبرز في سطل بينما هي تبكي خجلاً وذلاً فيما أفراد أسرتها يشيحون بوجوههم عنها. لكن عندما وصلت العربة إلى مقصدها كانت الرائحة التي سكنت منخريه آتية من جثة حاخامهم الذي قتلته نوبة قلبية.

متكأكئاً مع عائلته وجيرانه على قارعة الطريق، رمشت عينا هارولد من شدة سطوع ضوء الشمس.

ضابط ألماني، علت قبعته المرقّقةِ شارة الموت، تولّى توجيه كل يهودي في واحدٍ من مسارين اثنين. يمين أو يسار. عندما نظر إلى نفسه، رأى هارولد أنه هو وأخيه ياكوف، ذي الإحدى عشر سنة، يبدوان أمتن جثة من سواهما، رغم فرط الجوع الذي ينتابهما. متفحصاً إياهم بتكاسل ولا مبالاة، أمر الضابط الأم وبناتها بالاتجاه يساراً. أما هارولد وياكوف؛ فقد أُمرا بالتوجه إلى قِسم يقال له 'الكارنتينا'. هناك أجفل هارولد من الألم عندما وسمَه عريف متضاحك بميسمٍ، تاركاً على معصمه وشماً يمثل رقماً.

قارن الأخوان رقمي وشميهما بذهول، فيما وجدا نفسيهما واقفين خارج مجمَّع مسوَّرٍ بالشريط الشائك بين جمعٍ من الرجال والأولاد. بعضهم كان موجوداً هناك منذ مدة سابقة. "لو أنهم تركونا مع أمنا وأخواتنا،" تذمَّر ياكوف، "لماذا يفرقون بيننا؟"

ضحك سجين كان يقف بالقرب منهما ضحكة خشنة، ثم أشار إلى قسم متطرف من المخيم، حيث يُرى دخانٌ أسودُ يتصاعد من مدخنة تعود إلى بناء يصعب وصفه.

"هل ترى ذلك الدخان؟" قال الرجل. "إنه أمك وأخواتك. سيأتي يوم يستحيل فيه

الشعب اليهودي إلى دخان ورماد، حتى لا يبقى منه واحد يتلو الصلاة على موتانا."

أصيب هارولد بالصعقة إلى درجة جعلت من الصعب عليه حتى أن يبكي، أو أن يصلي. ولما كان عاجزاً عن النطق بأيِّ كلمة، فقد أمسك أخاه ياكوف بكلتا ذراعيه.

ثم وضعونا في مناجم الفحم، تابعت المذكرات تقول. وفي المناجم تعلمتُ أسماء الرجال الذين ماتوا، ثم أسماء الرجال الذين ماتوا بعدهم، مثل أجيال متعاقبة من الناس الذين لا يزيد معدل أعمارهم عن تسعة أشهر. لكن ياكوف وأنا، استمرينا في الحياة.

كان هناك سببٌ واحدٌ لاستمرارنا هذا. فقد كان لي وظيفة إضافية خلال الليل. هذه الوظيفة كانت عبارة عن قيامي بتنظيف المطبخ للألمان. من هذا المكان كنت أسرق الخبز لياكوف، ولي.

لم أكن أشرك الآخرين في هذا الخبز. لهذا فإن الشعور بالخزي لا يزال يعتريني في داخلي حتى الآن. كنت أراقب الآخرين يموتون في ثكناتنا التعيسة التي تتكدس فيها الجثث التي تنتظر دورها.

وفي ليلة من الليالي قام الأحياء بالتهام الأموات.

* * *

مرت بضعة أيام قبل أن يستأنف دافيد قراءة المذكرات.

تتعجبين لماذا أخشى الكلاب، كتب هارولد، دعيني أشرح لك الأمر.

حاولتُ ألَّا أسرق الكثير من الخبز. فقد كنت أخشى أن يكتشف الألمان أمري فيؤدي ذلك إلى موتي وموت ياكوف في المناجم. لهذا كنت أكتفي بسرقة ما يكفي لإبقائنا على قيد الحياة لمدة شهر واحد. ثم لشهر جديد.

لكن ياكوف كان يموت على مهل تحت نظري. فعيناه قد غارتا في محجريهما. وتقوسَت قامته كما يتقوس جسد رجل عجوز. وفي أحد الأيام جثا إلى الأرض على ركبتيه منتحباً. أنهضتُه قبل أن يلاحظ الألمان أمره، وقد أذهلتني خفة وزن جسده.

لقد أحببت ياكوف، أحببته لذاته. أحببته في طبيعته الطيبة، وفي عدم سؤاله. ولد يتبع أخاه الأكبر منه بغريزة جرو. كما أنني أحببته أيضاً لأنه الشخص الوحيد الذي بقي لي في هذه الدنيا بعد ذهاب أبي وأمي وأخواتي. كان هو الإشارة الوحيدة الباقية التي تؤكد لي أنه كان لي أهل حقيقيون. ولم أكن أطيق أن أدعه يموت.

أمسك الألمان بي بالجرم المشهود متلبساً بسرقة رغيف كامل من الخبز. أخذونا معاً

إلى باحة السجن ـ ياكوف وأنا. ثم أحاطونا بدائرة من الجنود، كل منهم يمسك بلجام كلبه النابح. ثم أطلقوا علينا أضواء المصابيح الكهربائية اليدوية.

كان الطقس بارداً، وكان ياكوف يرتجف أكثر مني. كان يبكي بكاء الطفل المروَّع، ذلك الطور الذي لم يفارقه يوماً. لاحظ الألمان بقع البول على ثياب ياكوف فبدأوا بالسخرية منه والتضاحك عليه.

تكلم أحد الحراس باللغة الألمانية فأُفلتت علينا الكلاب جميعها.

قفزتُ إلى ظهر ياكوف لكي أغطيه، لكن عدد الكلاب كان كبيراً. كانت أنياب تلك الكلاب تمزق لحمنا تمزيقاً. فبعد أن مزقت ثيابنا الرثة، وبعدما هشمَت صدري وأطرافي بينما كنت أقاتلها، كنت أسمع صراخ ياكوف تحت كومة الكلاب التي كانت تمزقه شرَّ تمزيق.

لقد أنقذني الجنود كي يفسحوا لي المجال لمشاهدة مصرع أخي. لن أستطيع نسيان سماع صوته المستغيث إلى أن تحوَّل إلى جثةٍ ليس لها وجه. ثم أمروني بتنظيف جثته.

بعد هذه الحادثة لم يعد لي من أرب سوى الموت.

لكن الألمان هربوا قبل أن يحققوا أمنية هارولد.

كان هارولد ذاهلاً عن السبب الذي دعا الألمان للهرب. لم يكن يعرف في أي سنة يعيش. كما أنه لم يكن يدري عن مسيرة الحرب شيئاً. كل ما عرفه أن جلاديه قد أدبروا إلى الفرار.

تجمَّع اليهود الناجون، بعضهم إلى بعض، في المخيم. رجلٌ منهم متشبث بالحياة، تولى قيادتهم إلى الغابة. وعندما عثر الأميركيون عليهم: كان هارولد في حالٍ من الهذيان.

فالطعام الرديء الذي كان يلقى به إليه قد سبَّب له الإسهال. ولم تعد معدته تقوى على هضم الطعام العادي. وفي المستشفى، أجبره الأطباء على استعمال الحفَّاضات. ولعدة أيام لم يكن قادراً على النطق.

وعندما استفاق من غيبوبته الطويلة، وجد هارولد نفسه في مخيم مخصص لاستيعاب المهجرين. لم يكن باستطاعته العودة إلى بولندا. لم يبق له عائلة ينضمُّ إليها، كما لم يبق له وطن. لم يعد له ماضٍ يسترجعه ولا مستقبل يرجوه. هويته الوحيدة الباقية وشمٌ يحمله على معصمه. رقم جاءه هدية من أدولف هتلر. لقد شهد أسوأ ما يمكن أن يشهده الإنسان من ظلم أخيه الإنسان.

* * *

"عندما انتهيت من قراءة هذه المذكرات"، قالت كارول وهي تخبر دافيد، "ذهبتُ إلى أبي فطوقتُ عنقه وقلت له إنني أحبه أكثر من حبي للحياة نفسها.

"أجابني والدمع يفيض من عينيه: *أرجوكِ، لا، ليس أكثر من الحياة نفسها*." قالت كارول.

"إنه لأمرٌ غريب،" تابعت كارول مخاطبة دافيد. "إن أفظع ما أخشاه أن يحدث لي، كان قد حدث لي قبل أن أولد."

* * *

رفع الآن هارولد كأسه لهما مليئة إلى حافتها، فتمكن دافيد من ملاحظة الرقم "8" يظهر من تحت ردن قميصه عند المعصم.

"إنه نخبكما،" قال هارولد.

رفع دافيد كأسه لهما، وهو يفكِّر بالمفتاح المعلق في نحر هناء.

أخذت الأفكار تدور في رأسه بأن كلاً من هارولد، وهناء، يحمل علامة فارقة من التاريخ، مثلما كانت كارول وصائب خالد. لم يهتم دافيد للتوقف للمقارنة بين هذه وتلك من الظلامات. فعذابات هارولد شور كانت معززةً بالإصرار المخيف لمرتكبيها على الإيقاع بالضحية إيقاعاً تكرَّر ستة ملايين مرة. لكن عذابات صائب لم تكن في نظره أقلّ هولاً وروعاً من عذابات هارولد. والسؤال الذي كان قد ألقاه على هناء لثلاث عشرة سنة خلَت كان ما يزال معلقاً في ذهنه.

أين تراه يبدأ التاريخ؟

فبالنسبة إلى هارولد شور، لا بد أن التاريخ قد بدأ يوم أعدم النازيون والده - وهو اليوم ذاته حسبما أعلمته كارول - الذي بدأ التاريخ سريانه بالنسبة إليها. أما بالنسبة إلى هناء، فقد بدأ التاريخ يوم فرار عائلتها في العام 1948. ومثلها مثل كارول، باتت تحمل علامات فارقة لأحداث لم تكن قد وُلدت بعد لكي تعيشها. لكن بالنسبة إلى صائب، وكما هو الحال مع هارولد، فلقد بدأ التاريخ حقيقة وفعلاً ليلة مقتل أفراد عائلته على يد الميليشيا، بغطاء فعلي من الجيش الإسرائيلي. ثم تذكّر دافيد الغداء الذي أمَّن له اللقاء الوحيد مع صائب خالد، بصحبة هناء، منذ ثلاث عشرة سنة، وألفى نفسه متمنياً لو يستطيع صائب أن يتعالى على جراح ماضيه من أجل هناء إن لم يكن من أجل صائب شخصياً.

الفصل

10

كانت هذه إحدى المرات التي تبدو فيها هناء وكأنها انزلقت بعيداً عنه عقب الانتهاء من ممارسة الحب معها. فقد بقيت ملتصقة به بشكل معذِّب، ظهرها يلامس صدره، ورقبتها رطبة وساخنة. ومع ذلك، فقد كان وجهها موارباً عنه. وكان دافيد يعلم رغم عدم رؤيته لعينيها، أنهما لا بد أن تكونا متعَبتين وشاردتين.

"ما الأمر؟" سألها دافيد.

أخذَت نفساً وقالت. "صائب يريد أن أتناول أنا وإياه الغداء معك."

ذُهل دافيد، وتجمد قليلاً، ثم وضع رأسه بين كفيه. "لا بد أنك تمزحين."

"لا، لست مازحة."

"كيف حصل هذا؟" فأنا لم أتحدث معه بكلمة واحدة حتى الآن. وما لم أكن مخطئاً فإنه لا يدري حتى بوجودي. هذا كله خلا عن العمل الذي انتهينا منه أنا وأنتِ للتَّو."

استدارت هناء نحوه، والشرشف ملتف حول وسطها، تاركاً جسدها شبه عار. كانت جميلة إلى درجة أذهلته.

"لقد أخبرتُه أنني بدأت بالتحدث معك في كلية الحقوق، في الكافتيريا، وبين المحاضرات. كما أخبرته أنك مهتمٌ بما حصل معي ومعه." ترددت هناء قليلاً لتتابع. "تصبح الكذبة أكثر قابلية للتصديق إذا جعلناها تتضمَّن قليلاً من الحقيقة."

إن غموض الحالة النفسية لهناء، في تذبذبها بين حضور الشعور بالذنب، وبين غيابه، قد أقلق دافيد إلى درجة أبعد. "كيف تجازفين بذكر اسمي أمامه من الأساس؟ إلا إذا كنتِ،" أكمل قوله بشيء من الأمل. "تمهدين لإخباره بالحقيقة العارية كاملة."

"لا،" قالتها بشكلٍ صريحٍ. "ليس الأمر كذلك."

أصابته سرعة جوابها وصراحتها، بالامتعاض. "إذاً ما هي الحقيقة الصغرى التي تودين الاكتفاء بإخباره بها؟"

"لا شيء. سوى أنني آنست بك أنك لستَ كباقي اليهود."

أذهله الجواب. "لا،" قال لها بقساوة. "بالكاد تستطيعين أن تسمينني يهودياً."

لامسَت هناء ذراعه قائلة، "لم أقصد أن يُفهم كلامي بالصورة التي بدا بها."

"تقصدين أنك لم ترغبي في أن يظهرَ كلامُك وكأنه عبارةٌ مألوفةٌ من العبارات المناهضة للسامية؟ أي أنني بخلاف معظم اليهود، لست رخيصاً، ولا مستحوَذاً بالمال. ولا عجب بعد ذلك أن يكون خطيبُك مستميتاً لتناول الغداء معي لأنني يهوديٌ نادر الوجود لا بد أن يعتزَّ كل عربي بمعرفته."

"أرجوك يا دافيد." قالت له وهي تجيل في وجهه نظرة مسترحمة. "أرجوك، إنني آسفة جداً."

انقلب دافيد إلى ظهره. "ليساعدني الله، إنني أبدو الآن كامرأة منبوذة. كامرأة تمارس معها علاقة جنسية عابرة. وأخشى ما أخشاه أن تكون هذه هي الحقيقة."

"لا، ليس الأمر كما تقولين، حتى دونما أيِّ علاقة جنسية، لقد أخبرتُك عن الطريقة التي أشعر بها نحوك، منذ لقائنا الأول الشبيه بهذا اللقاء."

تردَّدت قليلاً قبل أن تسأله بهدوء. "إذاً هل هذا هو اليوم الذي يجب أن أتوقف فيه عن الحضور إليك؟"

وجد دافيد أن الخوف الذي ينتابه من فقدانها يوازي الرغبة في جعلِها تستمرُّ في الحضور إليه حتى تجد نفسها عاجزة عن التوقف عن ذلك، بل إلى أن تجد نفسها مضطرةً إلى مجابهة الحقيقة، مهما تطلَّب الأمرُ لهذه المجابَهة أن تعني. "إن فكرة تناول الغداء مع صائب،" قال أخيراً. "ليست أبداً بفكرة صائبة."

كان هناك تبدُّل خفيٌ في تعبير صوتها. نعومةٌ كأنها تعني ارتياح بالها لأنه ارتدَّ عن مشارف الهاوية. "لكن، كيف أستطيع أن أرفض طلبه؟ على الأقل، دون أن أبدو كمن يتكتَّم على شيء مهم."

"أليست الحقيقة هكذا؟"

ولدقائق فيما بعد، أعاد التفكير في جوابه، وفي الطرق المخامرة المزعجة التي يمكن أن تلقيها حقيقة منقوصة تدلي بها هناء إلى صائب، وفي انعكاساتها على تعقيد علاقته معها؛ وفي حاجة هناء إلى تبرير علاقتها بدافيد أمام صائب، كما في إصرارها على منافقة الأخير ومداراته. ألصقت هناء وجهها إلى كتف دافيد.

* * *

كان من المقرر لهم أن يلتقوا في مطعم لبناني في هارفرد، من اختيار صائب. كان مطعماً بالياً، معتماً قليلاً، يقطع هدوءه صوت موسيقى شرق أوسطية آتية من أشرطة مسجلة. كانت الموسيقى والكلمات نافرة في أذن دافيد. شعر أنه يقف عند حافة أعصابه، وبأن نفسه متكدرة نظراً لاضطراره إلى لعب دور الصديق اليهودي المحتمل لشاب وشابة فلسطينيين خطيبين. أمَّا ما زاد الأمر تعقيداً، فهو رغبته نوعاً ما، في الخروج رابحاً من هذه التمثيلية على حساب صائب.

عندما وصلت هناء برفقة صائب كانت هادئة بقدر ما هي منسحبة.

لقد خُيِّل لدافيد أنه يراقبها من خلال زجاج كثيف. جلست قبالته عبر المائدة دون أن تصافحه. أما مصافحة صائب له فكانت روتينية وهادئة.

"نحن سعيدان لقدومك،" قالت هناء بلطف، كما لو أنها ترحب بضيف تعرفه معرفة سطحية.

خلال مداولاتهم القصيرة العاثرة التي بدأوا بها الحديث، كان دافيد يحاول التركيز على صائب خالد.

كان صائب شخصاً صغير الجثة جداً مقارنة مع دافيد، مع أن إيماءاته سلسة ورشيقة. لم يكن عليه أيّ سيماء تربطه بالحياة الرياضية. أما وجهه فمستدقٌ هزيل رقيق الملامح. أمَّا ما لفت انتباه دافيد فهو عينا صائب اللتان كانتا المصدر الأول للكاريزما التي تحيط بشخصيته. فهما فاحمتا السواد، صافيتان، برَّاقتان. وكانتا تشيران إلى أنهما بعيدتا الإنسانية، وعميقتا الأسى. تشيان بدماغ خلفهما، قلِق وسريع الإدراك. وحيث إن دافيد كان عارفاً بما حصل لصائب وعائلته، فقد شعر بتعاطف مرتبك معه. فهذا رجل قد أصابه من عطب الأذية ما لا يمكن جبره. والعيش مع ما يعقب الصدمة لا بدَّ له من أن ينفذ إلى أعماق روحه.

لكن حاسة الحدس عند صائب هي ما جعل دافيد يحسُّ بالوهن. فصائب ليس شخصاً مغفَّلاً في حالٍ من الأحوال، حسبما بدا له. لذلك، فقد بقي حذراً متيقظاً خشية التعرض للإساءة أو للمذلّة. لقد بدا أسلوب صائب متذبذباً بين التحفُّظ من جهة ـ معزَّزاً كما بدا لدافيد، بجفاء يكنُّه له ـ وبين رغبة في التحري عن المزايا التي يمكن أن تجذب هناء إلى مثل هذا اليهودي الأميركي، لتشكل هذه المزايا تهديداً لعلاقته بها من جهة ثانية. أمَّا الشيء الوحيد الذي لم يجد له دافيد أثراً في سلوك صائب، فهو الفضول الطبيعي عند شخص ما، لمعرفة حقيقة الآخر.

"إذن،" قال صائب، "أنت على وشك التخرّج، كما تقول هناء. وهذا لا يدع وقتاً طويلاً للتعرُّف عليك."

وسواء أكانت هذه العبارة المزدوجة المعنى قد وردت على لسان صائب بطريقة الصدفة أم بدافع مُغرضٍ: فإنها دفعته إلى المزيد من الوقوف عند حافة أعصابه. أما هناء فكانت تتحاشى النظر مباشرة إليه. أجاب دافيد بهدوء. "لعله الشيء الوحيد الذي سأكون آسفاً عليه بعد التخرُّج."

"وماذا ستعمل بعد التخرج؟"

"سأرجع إلى سان فرانسيسكو لأعمل وكيل نيابة. وأنت؟"

جاءت ابتسامة صائب موجزة. "هنا المسألة أكثر تعقيداً. فشهادة ماجستير في العلاقات الدولية يمكن أن تسمح لي بالتدريس. لكن السؤال هو: أين يمكنني أن أفعل ذلك؟ يبدو أن الصهاينة غير متحمسين للسماح لي بالعودة إلى بلدي الحقيقي."

"تعني إسرائيل؟"

التمع الغضب في عيني صائب، لكنه غطّاه بابتسامة وجيزة. "هكذا يسمونها. أعجب كيف أن شعبك يا دافيد قد قدِموا ليحلُّوا مكاننا في أرضنا، بينما نحن نعيش عيش اللاجئين في مخيمات، أو عيش المشردين في المنافي."

وعندما التفت دافيد نحو هناء، قامت بتحويل أنظارها عنه. "بالنسبة إلينا نحن اليهود،" أجاب، "فإن تاريخنا بكامله هو تاريخ التشرد والعيش في المنافي منذ ألفي سنة. لكن الأرض هي مجرد أرض. إن بلدي الأصلي هي مدينة ما، في ألمانيا، على ما أفترض، مع أن أجدادي كان من الممكن أن يُقتلوا لو غامروا بالبقاء فيها. لهذا فإني أؤمن الآن أن موطن أهلي الأصلي هو سان فرانسيسكو. التي يظهر أنهم أحبوها كثيراً."

هنا اتَّسعت حدقتا هناء في نذير صامت. "أليست إسرائيل؟" قال صائب متقحِّماً بدهشة ساخرة. "إذاً لماذا كنا متنافرين إلى هذه الدرجة؟"

"أنا لا أنفي ما حدث لك،" أجاب دافيد بهدوء. "فثمة شعب قد تشرد. لكن الأرض لا تصنع شعباً. إنما الشعب هو الذي يُوجِد الأرض، وهذه الأرض يمكن أن تقوم على الضفة الغربية ـ"

"تعني الضفة الغربية المحتلة هي الأخرى من الجيش الصهيوني. إذا كان اليهود لازالوا يتذكرون ألفي سنة، فإن خمساً وأربعين سنة ليست بالنسبة إلينا بالوقت الطويل لكي نتذكر. هل تتوقع مني أن أنسى كل ما قد حصل معنا؟" توقف صائب قليلاً ثم غدت نبرته ماكرة تماماً. "أم أنك تريد هناء أن تذكِّرك؟"

فجأة أحسَّ دافيد بالمفاجأة التالية المخبأة في جعبة صائب لهذه المناسبة، تحت هذا السؤال بالذات. طوت هناء ذراعيها مطرقة إلى المائدة. "بعد أن أتيت إلى هنا،" تابع صائب كأن الصفاء لم يعكره معكِّر، "فإنني أجريت بحثاً حول كيفية تغطية صحافتكم لمجزرة

صبرا وشاتيلا. فمجلة نيوزويك كانت نموذجاً لسواها. فهي قد استصرحت اليهود الأميركيين بشكل أساسي، مفسحة لهم المجال لكي يتألموا حول كيف أنه يمكن لليهود أن يؤيدوا مثل هذه الأعمال." بدا صوته الآن أكثر هدوءاً. "حتى موتنا لم يكن سوى مناسبة للتحدث عن موضوع مشاعر اليهود. إذ ما من أحد فكَّر في سؤالنا نحن عمًّا نشعر به تجاه قتل الأطفال واغتصاب النساء. كنا كما نحن دائماً مغيبين. لأن اليهود هم الذين يكتبون التاريخ."

ولما كان دافيد جالساً في مواجهة صائب، فقد حاول جاهداً أن يحقن أعصابه. إنَّ ما يلهب كراهية صائب، حدَّث نفسه، كان العار الذي لحق به جرَّاء مراقبته لأفراد عائلته يُقتلون، وهو ذل سوف يلاحقه إلى القبر. أما الآن، وفي حضور هناء، فإنه يواجه رجلاً لا يحمل جراحاً ولا ذلاًّ، تحبه هي، وربما تشتهيه أيضاً. وفجأة شعر بمزيج من الحسد والامتياز. هل تتعجب بعد ذلك إذا كنت أنام معها؟ أراد أن يسأل صائب. أم أن الازدراء بشخص مثلي هو مجرد نتيجة لبرنامج مغروس في نفسك يقوم على عدم الثقة باليهود؟"

كان من حسن الحظ، برأي دافيد، أن الغداء قد حضر.

سكبت هناء طبق لحم الضأن المتبل بالبهارات مع البصل والأرز إلى صائب أولاً، ثم إلى دافيد، ثم لنفسها. "إذاً ها نحن هنا،" جازفت بالقول بلهجة مرطِّبة. "أنت على حق يا دافيد في قولك إن لكلٍّ واحد منا تاريخه. لكن هذه الأيام، فإننا نحن الفلسطينيين هم من يتعذب ويعاني. فالمَصارع التي نتذكرها قد حدثت لعائلاتنا التي نعرف أفرادها. كما أن ذكرياتنا عن نزع ملكياتنا لا تزال طريَّة. عداك عن ذكريات جديدة تنبت كل يوم." انخفض صوتها للمرة الأولى. ولمح دافيد في عينيها ما يشبه الاعتذار، أو كأنها تتضرع إليه أن هذا الحديث هو أقرب إلى المشاعر الشخصية منه إلى الكلام السياسي. "وعليك أن تتفهم كم أن هذه الشؤون لصيقة بجلودنا."

نظر دافيد إليها نظرة مباشرة، وبازدواجية مقصودة في المعنى وجَّه السؤال إليها قائلاً: "وكيف تراه يكون خلاصنا من ذلك برأيك؟"

وضع صائب يده على يد هناء إشارة تملُّك ـ شعر بها دافيد ـ على أساس أنها رسالة مباشرة موجهة إليه، أكثر منها إشارة لإبداء الرغبة في الكلام. "ليس 'لنا' من 'خلاص' من ذلك يا دافيد. ففي نهاية الأمر، واحد منا فقط هو الذي ينبغي أن يبقى بعد الآخر."

وماذا عنا نحن الاثنين؟ أراد دافيد أن يسأل هناء. لكنه بدلاً عن ذلك، فضل أن يدفع ثمن الغداء وينصرف.

وكانت هي المرة الأخيرة التي التقى فيها صائب خالد.

الفصل

11

جلس إبراهيم إلى جانب إياد في الشاحنة. "وماذا علينا الآن أن نفعل؟" سأله قائلاً.

"علينا أن ننتظر."

لم يكن الانتظار أمراً غير مألوف في حياة إبراهيم. فهو ينتظر عرفات، وينتظر زوال الاحتلال الصهيوني، وينتظر ولادة الطفل الأول لأخته الكبرى لكي يستمتع بكونه خالاً، وينتظر من العسكري أن يتلطف بتضرعاتهم اليائسة لكي يسمح لهم بأخذ أخته إلى المستشفى. أما الآن، فهو ينتظر إذناً من امرأة لكي يصبح رجلاً.

ربما كانت هي الأخرى تقبع في مكان آخر من المدينة بانتظار أن يؤذن لها لكي تعطي إليهما تعليماتها الأخيرة. أمَّا من أين تأتي تلك الأذونات والتعليمات، فأمرٌ يجهله إبراهيم تماماً.

أخذ يراقب بقلق، المتسوقين، وهم يدخلون بسياراتهم إلى موقف السيارات ويخرجون. وكان لا يزال أمامهما عمل كثير. ومع أن ما تبقَّى أمامهما لا يكاد يزيد عن اثنتين وسبعين ساعة فقط، فإنهما لا يزالان عاطلَين عن أدوات القتل. كما أنهما ما يزالان جاهلَين أين، وكيف، ينبغي لهما قتل عدوِّهما. وكان يحاول جاهداً ألَّا يكثر التطلع إلى ساعة يده، لكنه لم يستطع. ففي مثل هذا الوقت غداً سوف يكون خلف نطاق القدرة على الإتيان بمثل هذه الأعمال.

الساعة الواحدة وسبع وثلاثين دقيقة.

رنَّ الهاتف الخلوي في جيب إياد.

* * *

تماهل هارولد وكارول في ارتشاف قهوتهما، مستمتعَين بالمناسبة السعيدة، بينما نظر دافيد بسرعة إلى ساعة يده.

ليس ثمة داعٍ للتعجُّل، حدَّث نفسه. إذ لا يزال لديه متسعُ ساعةٍ كاملةٍ من الوقت قبل أن يحين موعد اجتماعه مع الشاهد الخبير في قضيته المعقَّدة نوعاً ما، المتعلقة بالخطأ الطبي فليستمتع بوقته إذاً مع زوجة المستقبل ووالدها. أمَّا الآن، فهذا الوقت القصير الذي صرفَه معهما كان ذا أهمية في تذكير دافيد كم بات حماه هذا، شخصاً عزيزاً عليه، بعد أن توصَّل إلى فهمِه بشكلٍ جيد.

كانت الساعة من ماركة "بياجيه". ومنذ دقائق خلت كان دافيد قد أشار إليها. "خذها إذاً،" قال هارولد منتزعاً إياها من معصمه.

"بحق السماء، لا تفعل ذلك. إنها ساعتك الخاصة. وفوق ذلك، إنها باهظة الثمن"

ابتسمَ هارولد. "وهي بالنسبة لي إسرافٌ لا لزوم له. كنت سأحتفظ بها في خزانة حديدية. لأن حمْل ساعةٍ غاليةِ الثمن كهذه، في الحياة اليومية، يبدو عملاً خاطئاً. وكما أنني لا أستطيع أن أتخيل شخصاً نجا من المحرقة، ويزهو رغم ذلك، بامتلاك يختٍ طوله ثلاثون متراً.. أمَّا في ما يختص بالساعات، فإنني أتذكر تماماً ذلك الزمن الذي كنتُ أُحصي فيه الوقت بالأيام، وليس بالساعات." أمسكَ هارولد معصم دافيد بثباتٍ، وأدخلَ يده في تلك التحفة الذهبية الفنية القيِّمة. "إنها طبيعتي،" قال بهدوء، "التي أعطاها الألمان لي. أمَّا أنت، وأولادك، فليس لديكم مثل هذه الموانع. مرِّرْ هذه الساعة إلى ابنك البكر مع محبة جده."

توقف عن الكلام، خجِلاً من فرط إبداء عاطفته، مثلما ينتابه الخجل أحياناً بسبب فرط نجاحه في جمعِ ثروةٍ آتيةٍ من عمله الجاد كتاجر عقارات. لكن يده بقيت على معصم دافيد. وكالعادة، خالَ دافيد أن يدَي هارولد تتكلمانِ نيابة عنه. وكما لو أنه أراد أن يغطِّي مشاعره في هذه اللحظة، استدار نحو ابنته قائلاً بلهجةٍ عابثةٍ موبِّخةٍ، "وهكذا، سوف أراكما الليلة مرة ثانية معاً، عندما ستجبرينني على الإصغاء إلى ذاك الرجل بن آرون. ولعلكِ تريدينني أن أغني أغنية 'الحلم الجميل' بينما هو يتكلم."

أطلق دافيد ضحكةً في اتجاه كارول. فرغم أن هارولد شخصٌ ليبراليّ بالمفهوم الأميركي، فإنه يناصر أقصى المتشددين تجاه الفلسطينيين، ويؤيد أكثرهم تصلباً، عندما يتعلق الأمر بالسياسة الإسرائيلية، لأنه لا يرى في الفلسطينيين شركاء سلام حقيقيين. وقد كان عاموس بن آرون نفسه، من قبل، متصلِّباً متشدداً. لكن انتخابه كرئيس وزراءٍ ما لبث أن غيَّره. ورغم تعاظم نفوذ حماس، التي أخذت على نفسها عهداً بتحرير فلسطين، فإن بن آرون يجادل الآن: أن كثيراً من الفلسطينيين، مثل الكثير من الإسرائيليين، يرغبون في إحلال السلام، وأن على إسرائيل أن تضع يدها بيد أخصام حماس من أجل تأسيس دولة فلسطينية قابلة للحياة في المناطق التي يسيطر عليها الجنود الإسرائيليون.

"الأفكار التي تقوم على التمنيات لا يصحُّ أن تكون برنامج عمل،" تابع هارولد. "لقد بدأ بن آرون يتحدث عن الفلسطينيين مثلَ رجلٍ رهينةٍ بيدِ جماعةٍ إرهابية. وبما أنه لا

يتحمَّل الاعتقاد أن الخاطفين سوف يقتلونه، لذلك فهو يتخيَّل أنهم يعتقلونه لمجرد الاستمتاع بصحبته." ثم استدار نحو دافيد سائلاً: "وأنت هل توافقني الرأي؟"

"كلا،" قالها له دافيد بكل صراحة. "لا، حتى وإن سلَّمت معك بازدياد نفوذ حماس لأنك حذفتَ الفلسطينيين من جدول اعتبارك للبشر."

ألقى هارولد نحو دافيد بابتسامة طريفة. "وماذا تراك تعرف عن الفلسطينيين؟"

"أعرف بعض الشيء. فقد كان هناك شاب وشابة فلسطينيان خطيبان، في كلية الحقوق." توقف دافيد قليلاً، وهو يداعب بأنامله فنجان قهوته. "لنبدأ من النقطة التي لا خلاف حولها. وهي أن بقاء إسرائيل ضرورة أخلاقية. لكن من السذاجة بمكان القول عن إسرائيل: أنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ومع التسليم أيضاً بأن الفلسطينيين كانوا يقطنون أرضاً عزيزة جداً على قلوب اليهود، وأن الانتداب البريطاني قد ترك السكان العرب بدون حكومة ولا قوات خاصة بهم. لكن من الناحية الجيوسياسية كان ثمة جور بحق الفلسطينيين، مع كل ما يجره هذا الجور من غياب للعدالة، وما يستتبعه من جورٍ مضاد. وهكذا، يمسك الآن كل من الشعبين بخناق الآخر.

"دافيد،" قال هارولد محتجاً، "هؤلاء 'البشر' الذين تتكلم عنهم: يزنرون شبابهم بالعبوات الناسفة، ويرسلونهم لنسف اليهود. إنهم يكرهوننا. وخصوصاً حماس."

فكَّر دافيد للحظة في صائب خالد. "بعضهم يفعل هذا. لكن بعضهم الآخر يأباه. لكن أحفادهم، حسبما نتمنى، سيكون انحيازهم للحياة أكبر من رغبتهم في قتلنا. ومصلحتنا تقضي بأن نشجعهم على ذلك."

شبك هارولد يديه. "إنني رجل واقعي، يا دافيد. وقد علمتني الحياة أن هذه الدولة الفلسطينية التي ترجوها لن تكون حلاً ملطِّفاً للأزمة، بقدر ما ستكون ملاذاً لحماس. إنهم لا يريدوننا أن نبقى حيث نحن، ولن يسلِّموا بوجودنا في المستقبل.

"ولعلك تدري أن كارول بعد تخرجها من المعهد، رغبَت في العيش في إسرائيل. لقد وقعَت في غرام شابٍ إسرائيلي. لكنني أثنيتها عن عزمها محتجاً بصحة أمها، وعازفاً على وتر محبة الابنة لوالدتها، إلى أن ذبُلت تلك العلاقة وتلاشت." وبتمنُّع مستطابٍ التفتَ ناحيةَ ابنته. "آسف لأني قد استعملتُ تلك المناورة معك. لكنني كنت خائفاً عليكِ. ورغم كلّ كلامي عن التضحية، فقد كنتِ غاليةً عليَّ أكثر من إسرائيل."

تناولَت كارول يده. "ولقد كانت لعبتكَ واضحةً ومكشوفةً تماماً بالنسبة إليَّ، يا أبي،" قالت ذلك بصوت أبحّ. "لم يكن عدم ذهابي بسبب والدتي فقط، بل بسبب تعلُّقي بك." أمالت بعد ذلك رأسها ناحية دافيد لتضيف مع ابتسامة، "وقد آلت الأمور إلى خير مآل."

"أجل، هذا صحيح،" قال هارولد في اتجاه دافيد "أنت خير ما أتمنى لابنتي. وليس لأيٍّ منكما أن يجرَّ خلفه مخاوف رجلٍ عجوزٍ مثلي، كسندان الحدَّاد." ومستدعياً ابتسامةً قال، "أحبكَ يا دافيد بشدَّة تماثِل محبتي لابنتي كارول. ومحبتي لكما تكفي لإقناعي بالاشتراك في تناول الطعام مع عاموس بن آرون. أفضلُ آمالِنا الأخيرة في سبيل السلام."

الفصل

12

كانت الساعة تقارب الخامسة عندما وصل دافيد إلى شقة كارول الكائنة في الطابق العاشر (طابق الروف) الكائن على ظهر أحد المباني الكائنة في منطقة باسيفيك هايتس. وكان الخدم اللابسين ستراتهم البيضاء قد رتبوا ست طاولات مستديرة، تتسع كل واحدة منها لثمانية مدعوين حولها، وذلك في القاعة الفسيحة من هذا البيت، وهي قاعة كانت كارول تحتفظ بها خصيصاً للمناسبات الاجتماعية ذات الأهمية الخاصة.

فالحفلات الاجتماعية الهادفة كانت جزءاً أساسياً في حياة كارول، وكانت الشقة السكنية التي اختارتها تخدم هذا الغرض بشكل جيد. فهذا المبنى المشيد من الطوب، الذي مضى على بنائه ثلاثون عاماً، لا يزال يحمل أَلَقَ فنِّ العمارة العائد إلى ثلاثينيات القرن العشرين. مبنى يحرسه بوابٌ، وله ردهة فسيحة، ومصعد قديم الطراز بدا صالحاً لحمل دافيد إلى باب منزل كارول بكل هدوء وراحة، رغم أنه كان يُصدر بعض الأزيز. كانت أرضية المنزل مغطاة بفرشة من الخشب الصلب. وتزينه كرانيش تاجية، وله أسقف عالية تذكِّر بالطريقة الدارجة في تلك الأيام لبناء المباني الباذخة. أما الغرف ففسيحة رحبة مفروشة بالفرش المنتقى بعناية شديدة، والموزع بطريقة تترك مساحات واسعة لتحرُّك الضيوف وتمازُجهم، كما توفر مساحات حميمة لمن شاء منهم التجمُّع في حلقات صغيرة تعطيهم بعض الشعور بالخصوصية. أمَّا المساحات المخصصة للطعام والمعيشة فقد كانت تمتاز معاً بمجال رؤيا مكشوف من الأرض إلى السقف، يوفر إطلالة ليس على خليج سان فرانسيسكو فحسب، بل أيضاً على التلال البنية المذهبة لمقاطعة مارين. وحالما فرغ دافيد من مشاهدة غياب الوهج الأخير للشفق، بعد أن غطس قرص الشمس وراء خط المياه الداكنة الزرقة، بدأت القوارب الشراعية بتغيير اتجاهها واتخاذ سبيلها نحو مرافىء رسوِّها عند الشاطىء.

سمع وقعَ أقدام كارول قادمة من خلفه، قبل أن تطوِّق وسطه بذراعها. "هل كان الاجتماع على ما يرام؟" سألته.

"كان جيداً بما فيه الكفاية. فموكلتي الطبيبة عليها من المآخذ ما عليها. لكنَّ هذا ما يعطي للشهود الخبراء دورهم وقيمتهم."

"بعض الأحيان،" قالت له معنِّفة بابتسامتها. "تبدو لي ساخراً قليلاً من موكليك."

استدار دافيد نحوها. "بدل أن أكون متعاطفاً معهم. وهذا خطأ كبير يخطئه المحامي."

"كنتُ سأكرهك لو كنتَ متعاطفاً معهم،" أجابته كارول. وبعد أن قبَّلته قبلة عاجلة، عادت إلى غرفة الطعام للبدء في ترتيب أماكن البطاقات على الطاولات.

جلس دافيد قبالة التلفاز المثبت إلى محطة سي.أن.أن. "في هذه الساعة،" كان المذيع وولف بليتزر يقول، "يصل رئيس الوزراء الإسرائيلي عاموس بن آرون إلى سان فرانسيسكو في محطته الأخيرة من رحلته الهادفة إلى الترويج لمبادرته السلمية الشديدة الإثارة للجدل، آملاً كسبَ الدعم لها في أميركا..."

هنا ظهر بن آرون على الشاشة وهو يترجَّل من طائرة جمبوجت خاصة، محاطاً برجاله اللابسين ستراتٍ تُظهرهم بمظهر الحراس الأمنيين. ومع أن مجال الكاميرا كان بعيداً، إلا أن بن آرون كان تحت الضوء تماماً. فهو رجلٌ فضي الشعر، منتصب القامة. ومع أنه يبدو أنحفَ قليلاً من مرافقيه، إلَّا أن خطواته الهادفة النَّشِطة الرشيقة كانت تحكي حكاية الجنرالِ الذي كان عليه هذا الرجل في ماضيه العسكري في يوم من الأيام. شعر دافيد بتشوُّقٍ وتعجُّلٍ حادَّين نحو هذا الرجل الذي كان يتطلَّع إلى لقائه والتحدث معه على انفراد.

ثم ما لبثت الصورة أن تغيرت لتُظهِر جمعاً غاضباً من المتظاهرين الهاتفين. ثم شاهد دافيد واحداً منهم يحمل شارة عليها صورة بن آرون بشاربي هتلر. "في وقت سابق من صباح هذا اليوم في القدس،" تابع المذيع، "عبَّر تجمُّع من اليهود المتطرفين عن احتجاجه العنيف ضد مقترحات بن آرون الجديدة. لأن بعض اليهود يعتقدون أن مستقبل المستعمرات اليهودية في الضفة الغربية بات معلقاً، وعلى المحك، بسبب الدولة الفلسطينية التي يفترض بن آرون وجودها، ويدعو إلى إقامتها. وبالنسبة إلى بعض اليهود فإن إقامة الدولة الفلسطينية هي ضرورة أساسية لإقامة السلام الدائم. أما بالنسبة إلى بعضهم الآخر، مثل هؤلاء المتظاهرين، فإنها تعني خيانة المنحة الإلهية التي وهب بموجبها الله الضفة الغربية ـ يهودا والسامرة، اللتان جاء ذكرهما في التوراة ـ للشعب اليهودي..."

منذ متى، تذكَّرَ دافيد هناء وهي تتعجَّب، كان *الله* وكيلاً عقارياً؟ ولم يستطع أن يقاوم ابتسامة جاءت بها هذه الذكرى.

ثم ظهرت على الشاشة صورة رجل ملتحٍ، على خلفية من التلال القاحلة الصخرية، مصحوبة بصوت المراسل وولف بليتزر، "جمعٌ من المتطرفين من المستوطنين، مثل باراك

ليف، القائد الأميركيُّ المولِد، للحركة الاستيطانية، حركة مسعدة المثيرة للجدل، المتمركزة في مستعمرة إسرائيلية في باركوشبا: يطلقون أحكاماً مقلقة ضد المبادرة..."

توقف دافيد عن الابتسام. بدا ليف شاباً نحيلاً، له حدقتان سوداوان، ونظرة بطيئة، ويتكلم بنبرة تحمل إصرار نبي على النطق بحكم السماء على الباطل. "مثل أدولف هتلر،" قال ليف في مواجهة الكاميرا "يحاول بن آرون أن يجعل أرضنا التوراتية أرضاً خالية من اليهود. أمَّا حلفاؤه الفلسطينيون، الذين هم ورثة هتلر، فليس لهم أيّ شخصية أو صفة مميزة سوى بغضهم لليهود، كما أن لا ثقافة لهم سوى ثقافة قتل اليهود. هذا 'الوطن الأم' الذي يقترحه لهم سوف لن يكون سوى القاعدة التي سيستعملونها منطلقاً لهم لإبادة شعب إسرائيل..."

وفي صورة مأخوذة من كاميرا قريبة، رأى دافيد في عيني ليف نظرةً تشبه الفصال. كانت نظرته جادَّة تنمُّ عن رؤيته الداخلية. "هذا شيء لن نسمح به، ولن ندعه يمر"، تابع مرتِّلاً. "وكما أن الله قد أزهق روح هتلر.. كذلك فإنه سيزهق روح بن آرون."

قدمت كارول لتشاهد الشاشة معه. "كما أعلم،" أشار دافيد إليها، "أن هتلر أفرغ رصاصة في دماغه، لكن الله يعمل عمله بطرق غامضة."

"هذا الرجل مخبول،" قالت بلهجة صريحة. "إنه لا يمثِّل الإسرائيليين. إنه حثالة الحثالة، القليلة العدد، المسدودة الأفق." وفيما كان دافيد يراقب، ألقى ذراعه حول كتفها. "قرب باركوشبا،" تابع المذيع، "عشرات من المستوطنين رشقوا بالحجارة جنوداً إسرائيليين عندما حاولوا إزالة بيتين متنقلين مأهولين بالمحتلين. كما أن عضواً يمينياً في الكنيست كان يحتجّ على خطة رئيس الوزراء لإزالة المستعمرات ـ مثل باركوشبا ـ التي هي غير قانونية في زعمه، قارئاً أسماء المستوطنين المرشحين *للطرد من قِبل الخائن* بن آرون. أما في الخارج، فقد كان المتظاهرون المصحوبين بأكياس نومهم، يعلنون عن عزمهم على الإضراب عن الطعام إلى أن يتراجع بن آرون عن موقفه.

"إنَّ التحدي الذي يواجهه بن آرون هو في أن يُثبت، بالرغم من صعود حماس، وبالرغم من موجة الاضطراب التي تُقلق إسرائيل، أنه قادر بشكل أو بآخر، على تحقيق مطلب السلام الذي يطلبه معظم الإسرائيليين: سلام دائمٌ مع شعب لا يثق به كثير منهم، حتى إنهم يخشونه."

قبّل دافيد كارول في جبهتها. "تهانينا،" قال لها. "هذا سيكون عشاءً مثيراً بالفعل."

"لكن المناهَضة،" تابع صوت مذيع الأخبار،"لحقت برئيس الوزراء الإسرائيلي إلى أميركا. فاليوم في سان فرانسيسكو، وصف متحدث باسم جماعة فلسطينية معارِضة خطة بن آرون للسلام بأنها خُدعة زائفة."

ومع أن دافيد كان يتوقع ذلك، إلا أن نظرته الأولى إلى صائب خالد أذهلته.

كان صائب يقف أمام نادي الكومنولث، حيث من المقرر أن يلقي بن آرون خطاباً عند ظهر الغد. فإذا بتجاعيد بدت كأرجل الغراب تحيط بزاويتي محجريه، وإذا بزوايا وجهه الدقيقة مغطاة بلحية مستدِقَّةِ التشذيب، مما جعله يبدو أشدَّ قساوة من ذاك الرجل المعذَّب الذي اشترك معه دافيد منذ ثلاث عشرة سنة في ذاك الغداء المجبول بسمٍّ خفي. وبخلاف باراك ليف، فقد كان صائب خالد يتكلم بثقة الرجل المثقف. بدا متشبِّثاً برأيه الخاص حول الحقيقة.

"أولاً سلبوا أرضنا،" كان صائب يقول. "والآن يعرض علينا بن آرون 'وطناً' في الضفة الغربية التي لا تشكل سوى خُمس الأرض التي تعود إلينا. وهو لا يقدم شيئاً للاجئين الفلسطينيين في لبنان. هؤلاء اللاجئين الذين ذُبحوا بتوجيهٍ من إسرائيل. وبالتأكيد، لن يسمحوا لنا بالعودة إلى الأرض التي طردَنا منها الصهاينة..."

"لا يمكنهم أن يعودوا،" قالت كارول بعبارة صريحة.

راقب دافيد الشاشة باضطراب، معتكراً بمزيج من مشاعر الغيرة، والحنان، والتنافس الذكوري الضاري، الذي لا يزال صائب قادراً على جلبِهِ إليه. "منذ متى كان بن آرون صانع سلام،" تساءل صائب بحرارة. "هل عندما نبحونا في دير ياسين، أم في جنين، أم في صبرا وشاتيلا؟ والآن هو يعدُنا بإجلاء عددٍ قليلٍ من المستوطنين من بين عدد كبير منهم من الذين سيبقون في أرضنا لكي يقوموا بإحراق زرعِنا، وتدمير مزارعنا، واستعمال مياهنا في بُركِ السباحة لديهم." صار صوت صائب قاسياً. "سيبقى المستوطنون وسيبقى ظلمُهم لنا. وما مبادرة بن آرون السلمية سوى محاولة لإبقاء أصابع إسرائيل محيطةً بأعناقنا لتخنق شعبنا وتمنع عنه الحياة..."

"من هو هذا الرجل؟" تدخَّلت كارول. "إنه مرعب."

"إنه مصاب بالعطب."

استدارت كارول نحوه مستفسرة. "عرفتُه قليلاً،" أضاف دافيد، "في جامعة هارفارد."

"هل كنتما صديقين؟"

وكانت هناء قد أخبرته أن الكذبة تصبح أكثر قابلية للتصديق، عندما تحتوي على قليلٍ من الحقيقة. "أنا وصائب لم ولن نكون أصدقاء."

"هل لأنك يهودي؟"

"ولأنني أنا مَن أنا أيضاً." بسرعة ضغط دافيد على زر التحكّم، مغيِّراً المحطة.

طارداً صورة صائب من غرفة كارول، مثلما تمنى مرة لو يستطيع طرده من حياة هناء.

* * *

بعد أسبوع واحد من غدائه مع صائب، كان دافيد قد عاد إلى شقته مرة في كامبردج، فرمى بدفتره على الأريكة، ثم توقف فجأة.

بجانب الدفتر كان هناك جزدان هناء المصنوع من القماش الزاهي.

لم يكن قد رآها بعد منذ ذلك الغداء. كما أنها لم تكن قد ردَّت على اتصالاته الهاتفية. وبحالة من الاهتياج دخل غرفة النوم بسرعة. فوجدها نائمة في فراشه. فاندس إلى جانبها بسرعة...

مداعباً وجهها بكفه، كان دافيد أوَّل من تكلم. "كنت أحسب أنني لن أراكِ ثانية."

"نعم. أنا أيضاً اعتقدتُ ذلك."

"وما العمل إذاً؟"

تكلمت هناء بهدوء حزين، كما لو أنها قد استبطنت أعماق نفسها، وشهدَت ضعفها ورغباتها. "في بداية الأمر كنتَ نزوتي.. رجلٌ جذَّاب من مكان مختلف. كنت تمثِّل موضوعاً لتمرُّدي الصغير. أمَّا الآن فأنت تسكن في ذاتي.

"لقد تخيلتكَ ـ كيف تُراه سيكون شعورك ـ بل كيف سيكون شعوري، بعدما رفضتُك لأختارَ صائب. إن الأمر أشدُّ تعقيداً من ذلك كله. وليس لي من وسيلةٍ لكي أشرح لك، سوى بأن آتي إليك لأكون معك." لامسَت هناء وجهه. "أجل لقد تمنيتكَ. والوقت قصيرٌ لدينا على حدِّ قول صائب. مع أنني أصلِّي حتى يبقى صائب جاهلاً. كم هو ثمينٌ هذا الوقت الذي أقضيه معك، بالنسبة إليَّ."

مع أن كلماتها الأخيرة أصابته بالحزن، فقد حاول دافيد أن يبتسم. "تجعلين الأمر يبدو كما لو أن أحداً سيقوم بتنفيذ حكم الإعدام بي، وأن هذه هي زيارتك الحميمة الأخيرة لي."

لم تبادله ابتسامته. "عندما تكون متبلداً معي هكذا، أتذكر أننا آتيان من عالمين مختلفين. أنت لا تعرف شيئاً عن عالمي؛ كم هو معقَّدٌ وصعب حتى في علاقات أصحاب هذا العالم أنفسهم."

"أنتِ تتكلمين الآن عن السياسة،" قاطعها دافيد. "وهذا الكلام ليس عن أشخاصنا."

للحظةٍ هزَّت هناء رأسها وهي ترمقه بحزن وإعجاب. "إنك أميركي للغاية، يا دافيد. أحياناً كثيرة تكون أميركياً أكثر مما أنت يهودي. فرجلٌ إسرائيليٌّ لن يقول لي مثل هذا

القول. لكن بالنسبة للرجل الأميركي: العالم كلُّه يعني أميركا. إذا كانت تراودك أحلام عن حياتنا معاً، فهي أحلامٌ عن حياة أميركية، حيث أستطيع فيها أن أترك ماضيَّ المضطرب ورائي، وأحقق كل إمكانيات وجودي كامرأة." ارتفعت إحدى زاويتي فمها قليلاً لتكمل. "هذا ممكن بالطبع في أميركا فقط. أمَّا في غيرها، فهل تجد أن هذا كله ممكن الحدوث؟"

أجفله هذا الكلام. "لا تحسبي أن سبب ما أقوله هو أنني مجرد رجلٍ ساذج يا هناء. السبب هو أنني لست أعمى. لقد راقبتك جيداً أثناء الغداء - إن سلوكك مع صائب يختلف تماماً عن سلوكك معي. لست أنت الذي وقعَ اختيارها على صائب مرة. أهله اختاروكِ له، مصائبه هي التي اختارتك. قد تكون حكايتكِ قد ابتدأت معي كنوعٍ من عصيان صغير، نوع من التمرد العاطفي على قضبان السجن. لكن الدوافع الحقيقيةَ العميقة لعلاقتنا لم تكن بسيطة أو قليلة."

استدارت هناء مستلقية على ظهرها وهي تحدِّق في سقف الغرفة. "لا أريدك أن تكون طبيبي النفسي. إنني أعرف ما هي امتعاضاتي، كما أعرف ما هي مخاوفي وهواجسي. وكفتاة، قد لا أستطيع أن أحقق لنفسي كلَّ ما أتمنى. لكن ذلك ليس إلَّا سبباً إضافياً للنساء عندنا لكي يحاولن جهد استطاعتهن لتحقيق أنفسهن ضمن ثقافتنا الخاصة، وليس ضمن ثقافة سواها. ثمة تحديات كبيرة تواجه شعبنا. وهي تحديات تحتاج إلى جميع أفراده معاً."

"ولكن ماذا عنك؟" ماذا عن أيامكِ ولياليكِ؟ ربما كنت تستطيعين إعطاء صائب كل ما يريد - كرجل مجروح تحتاج جراحه إلى عناية لتلتئم، أو ربما كان الرجل العربي يحتاج إلى درجة من التوقير والاهتمام أكثر مما أحتاجه أنا. لكن من هو الرجل منا الذي تريدين أن تستيقظي لتجدي نفسك بجانبه؟" شعر دافيد أن غضبه وإحباطه يفلتان منه. "من هو؟ أنظري إليَّ وجهاً لوجهٍ بحق السماء."

وببطءٍ، أدارت هناء بوجهها على الوسادة مصوِّبةً نظرها إلى عينيه.

"إنني أراكِ كامرأةٍ،" قال دافيد بتحديد أكثر. "وكفلسطينيةٍ. لكنني لا أراك كسندٍ عاطفيٍّ لي. أُصغي إليكِ، وتصغين إليّ، وكلانا يحترم الآخر، ويشتهي الآخر بكل جوارحه، أكثر مما يشتهي أيَّ شخص آخر في الدنيا. إننا نستطيع أن نتجاوز الأشياء الواقفة في ما بيننا، لأن هذه الأشياء لا تتعلق بنا كشخصين بشريين. لكنني لا أعتقد أبداً أنك ستستطيعين يوماً أن تتجاوزي شعورك بأنك تنامين مع الشخص الخطأ."

"وكيف يكون بإمكانك معرفة القرار الصحيح؟" أجابته بحماس هادىء. "كيف يمكنك أن تعرف كل هذه الأمور وأن تحكم عليها دون أن تكون قد عشت حياتي، وعرفت الشعور الذي أشعر به. لم يتح لنا سوى ثلاثة أشهر من العلاقة فقط."

"إنني أعرفك الآن أفضل مما يستطيع صائب خالد أن يعرفك طيلة حياته."

"هل تعرفني حقاً يا دافيد، كيف يمكنك ذلك؟"

وضع دافيد أصابعه المتماوجة حول عنق هناء، واستطاع أن يشعر بالضربات الناعمة الخفيفة لنبضها. "أصدقيني القول يا هناء، هل ستشتهين صائب في يوم من الأيام بالطريقة التي تشتهينني بها؟"

بعد لحظة، أغلقت هناء عينيها. كان جوابها الوحيد، حسبما وجد دافيد، أنها لامسته، راغبة في مواقعته مرة جديدة.

أمَّا الآن، وبينما يقف دافيد في غرفة جلوس كارول، فإنه حاول أن يطهِّر هذه الصورة من ذهنه.

* * *

انتظر إبراهيم، متوتراً، ضوء إشارة المرور قبل أن يتبدَّل إلى الأخضر، سامحاً لإياد بقيادة الشاحنة إلى خارج موقف السيارات ليدخل إلى الشارع العريض المرقم تحت اسم 'الجادة التاسعة عشرة'، ومنه إلى حيث قد وجَّهته السيدة الغامضة.

كانت بينهما خريطتهما، ولائحة أرقام كتبها إياد، بينما هو يصغي إلى هاتفه الخلوي. كانت هذه الأرقام تبدو كالطلاسم بالنسبة إلى إبراهيم، إذ كان يجهل فك ألغازها، تماماً مثلما يجهل الوسائل التي سوف يستخدمانها للقيام بقتل عدوهما.

لماذا يبدو الشارع فارغاً تماماً، عجِب في نفسه، لكنه ما لبث أن سمع من بعيد صوت الصفارات يمزِّق السكون.

ارتعد إبراهيم دون إرادة منه ـ إذ شُبِّه له أن رجال الأمن لا شك قادمون في أثره وأثر إياد. تشبثَت أصابع إياد بعجلة القيادة. وبينما كان الصوت الصافر يعوي مقترباً، تكوَّم إبراهيم في مقعده.

ثُلةٌ من رجال الشرطة على دراجاتهم النارية ملأت الشارع فوراً. بينما رجالها يقودون دراجاتهم في تشكيلٍ محكمٍ. محفوفةٌ بالمزيد من رجال الأمن، مرَّت سيارة ليموزين سوداء، متقدمةً طابوراً من سيارات الليموزين الأخرى المماثلة لها، وجميعها معتَّمة النوافذ كنظارات العميان. وعلى الهوائي العائد لكلٍّ منها كان يرفرف نموذج مصغَّرٌ لعلَم إسرائيل الأبيض والأزرق.

"سبع سيارات،" قال إياد. "وكلها مصفحة، ومضادة للرصاص".

ثلاث سيارات إضافية تبعت الموكب. السيارة الثامنة فقط كان لها زجاج شفَّاف. وأثناء مرورها بين الدراجات، لمح إبراهيم وجه الرجل الذي يشبه وجه النسر، وهو يحدق بأنظاره إلى الأمام.

"إنه هو."

مرَّت السيارة الأخيرة في الموكب متبوعة بالمزيد من رجال البوليس على دراجاتهم.

راقبَ إبراهيم الموكب يتباعد عنهم، بخشيةٍ ورعبٍ. حتى صوتُ الصفارات البطيء والمتباعد كان يُشعره بالتضاؤل.

كيف يمكنهما إنجاز المهمة يا ترى؟ كان يتعجب في يأسٍ. مَن غير الله يستطيع أن يضعَ خطةً ناجحةً يمكن النفاذُ بها؟

الفصل

13

منذ اللحظة الأولى لوصول عاموس بن آرون إلى حفل العشاء الذي دعت إليه كارول، بدأ دافيد يراقبه بإعجاب شديد.

وكسياسي ناشىء، عرف دافيد جيداً كيف يتكيف مع هذه الجماعة الجديدة التي تضمها الغرفة. فاجتماع طلته البهية، مع ابتسامته السلسة، إضافة إلى ذكائه الحاد، قد ساعده على خلق انطباع أليف حول شخصه. لكن المهابة الصوّانية التي تميز بها بن آرون جعلت دافيد يبدو مجرد شخصية ثانوية زائفة. كان يتمتع بلياقة جسدية مذهلة بالنسبة لشخص في الخامسة والستين من عمره. كان بسيط الحجم لكنه وتَريُّ العضلات. له عينان زرقاوان ثاقبتا النظرات. كما أن له رأساً أصلع، وبشرة مشدودة على ملامحه الصارمة. ومع أنه نادراً ما يبتسم، إلا أن عيناه كانتا تلتحمان مع عيني أيّما شخص نظر إليه، مستدعيتان انتباهه التام، وتومضان في المناسبة بنوعٍ من الدعابة العاصفة. كان يملك إطلالة القائد القائمة بذاتها. إطلالة من اعتاد أن يُصغى إليه، ويُسمع لكلامه. ولم يكن قطُّ شخصاً يسهُل الوقوف أمامه موقف التحدي.

أفضى دافيد برأيه حول شخصية بن آرون إلى داني ناير، مرافقه الشاب والمتحدث الرسمي باسمه، بينما هما يراقبان رئيس الوزراء يقابل الشخصيات اليهودية المرموقة من مختلف الاتجاهات السياسية. "نعم،" قال ناير بابتسامة ساخرة. "لو نظرتَ إلى عاموس بن آرون من الخارج لاعتقدتَ أن هذا الرجل لا يعرف الشك. لكن لو عرفته من قريب لتبين لك أنه رجل تكتنفه المخاوف من جميع الجهات. وهو يعتقد أنه لن يستطيع النجاح في مبادرته للسلام لو نبَتْ منه ولو لمرةٍ واحدةٍ بادرةُ شكٍ أو ضعفٍ. وإن هذا يُثقِل على أعصابه ويُنهكُها".

ذُهل دافيد لمقارنته بين هموم رئيس الوزراء ومشاغله كقائد، وبين اضطراره إلى مخالطة ضيوف كارول ومؤانستهم ومجاراتهم. في تلك اللحظة كان بن آرون يتملّص بكياسةٍ من صحبة دوروتي كوشنر، وهي امرأة في بداية العقد الخامس من عمرها، لها شعر أشقر فاتح، وجلد شديد النعومة، وولعٌ شديد بالحياة الاجتماعية يشي بقلق سيدة

مجتمع كان يُحسب لجمالها ألف حساب في أيام صباها. لذلك تراها الآن تخشى أن تحدُث للعالم أحداثٌ عظيمةٌ ما لم تتداركه هي بحضورها الضروري. وكما لو أنَّ هدف ناير كان إرشاد رئيسه إلى شخص دافيد، فإن بن آرون بدأ يتَّخذُ سبيله باتجاههما قرب النافذة. وللحظةٍ قصيرةٍ اعترضَ طريقَ رئيس الوزراء بعض الحضور لكن دون أن يثنيه ذلك عن متابَعة عزمِه على ملاقاة دافيد وولف كمجاملةٍ يقوم بها الضيف تجاه مضيفه.

أخيراً صار الرجلان وجهاً لوجه. وعند النظر إلى وجهه عن قربٍ، بدا بن آرون أكبر عمراً من الانطباع الذي يعطيه من بعيد. فبشرته الباهتة تشبه الورق. لكن دافيد خبِرَ قوَّة شخصه على الفور، بمعنى أنه رغم أن غرفة الجلوس العائدة لكارول كانت تغصُّ بالشخصيات المتنافسة إلى التحدث، ولو بكلمة واحدة، على انفراد، مع بن آرون: إلَّا أن دافيد كان هو من استلفَت انتباهه التَّام دون سواه. "هكذا،" قال وهو يمدُّ يده لمصافحة يد دافيد بقبضةٍ جامدةٍ. "فهمتُ أن لديك ميلٌ إلى الخوض في معترك السياسة."

ابتسم له دافيد قائلاً. "هل تنصحني بذلك؟"

ظهرَت ابتسامةٌ مجدِبةٌ على عيني بن آرون. "الأمرُ يعتمد على ما تريد تحقيقه منها. أنا لا أنصح أحداً بالسياسة كمجرَّد ممارسةٍ. مع أن سياسيين كثيرين يعتاشون عليها.

"رئيسكم كلينتون كان واحداً من هؤلاء. هل تتذكرون المصافحة الشهيرة التي جرَت في البيت الأبيض بين رئيس الوزراء رابين، وبين عرفات؛ عندما اعتقد أهل الدنيا جميعاً أن كل الأمور باتت ممكنة؟"

"طبعاً."

"لقد كنت حاضراً في ذلك الحفل،" تابع بن آرون بلهجة رجل السياسة الذي يكشف عن قصة من بواطن الحياة السياسية. "وكان ثمة أشياء أخرى في تلك المصافحة في ما يتعدى الحقيقة المقتصِرة على أن رابين لم يستطع أن يجبر نفسه على الابتسام. عندما وصل إسحاق إلى البيت الأبيض انتحى به كلينتون جانباً وأخبره أن عليه أن يمدَّ يده لمصافحة عرفات. كان ذلك شيئاً مما يمكن توقُّعه. لكن عرفات كان بالنسبة إلى رابين قاتلاً، وإرهابياً، وكاذباً محترفاً. وهذه الخصال الثلاث تلخّص كل مواهبه. في نهاية الأمر دمدَم إسحاق قائلاً، "حسناً سوف أقبَلُ بأن أمدَّ يدي لمصافحة هذا الإرهابي. لكنني لن أسمح له بأن يقبِّلني."

"وكان كلينتون عبقرياً،" تابع بن آرون مبتسماً. "فقبْلَ أن يبدأ الاحتفال، كان قد درَّب نفسه على كيفية الوقوف بين خصمين فاصلاً بينهما بمسافةٍ كافيةٍ للسماح لعرفات بمصافحة يد إسحاق، لا بمعانقته وتقبيله. ولم يدُرْ في أذهان الحضور، ولا جمهور المشاهدين، أن رئيسكم كان في الحقيقة يتصرف كحكم مصارعةٍ يابانية. أو" أكملَ بن آرون حديثه ساخراً، "ربما نستطيع أن نسميها مصارعة يهودية."

ضحك دافيد. "لم أكن أعرف هذه الحكاية. لكن مرَّ وقتٌ اعتقدتُ فيه أن السلام بات ممكناً وسهلاً سهولة الطريقة التي بدَت عليها تلك المصافحة."

"لعلك لم تثق بعرفات أيضاً؟"

هزَّ دافيد رأسه. "إن الأمر يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك،" متابعاً كلامه باتِّزان. "لقد سبق لي أن تعرَّفت على بعض الطلبة الفلسطينيين في كلية الحقوق، بمن فيهم ذلك الذي ظهر على شاشة التلفزيون بعد ظهر هذا اليوم. إن مآسيه عميقة جداً، ليس فقط مسألة تهجير أهله في عام 1948 فحسب، لكن مصرعهم أيضاً في صبرا وشاتيلا. وهما فصلان من مأساته الشخصية التي لن ينساها. وقد أتى على ذِكر ذلك، اليوم أيضاً، أثناء ظهوره على الشاشة."

تفحَّصه بن آرون باهتمام حادٍّ. "صبرا وشاتيلا،" قال بصوت أكثر انخفاضاً، "مأساة بالغة التعقيد، لكنها في الوقت نفسه جريمة وحشية بدائية في أسلوبها. سلني أنا عنها، فلقد شهدتُ فصولها، كما أنني أكيدٌ أيضاً أن صديقك به جراحٌ جديرةٌ بأن يستذكِرها ويذكُرها."

"صحيح. هذا ما فعله الرجل."

بدا صدرُ بن آرون يعلو ويهبط في تنهيدة لا إرادية. قبل حدوث مجزرة صبرا وشاتيلا، كان لبنان منطلقاً للهجمات الإرهابية التي يشنُّها رجال منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل. وكان عرفات مصمِّماً على تحويل بيروت الغربية إلى وضعٍ يشبه بالنسبة له الوضع الذي كانت عليه مدينة ستالينغراد بالنسبة للروس في الحرب العالَمية الثانية. أي أن يجعل من المدينة ساحة يشنُّ فيها مقاتلوه حرب إنهاكٍ ضدنا. لهذا، فإن شارون صمَّم على سحق كلِّ المعاقل الفلسطينية من الجو.

"لقد قُتل في تلك الهجمات الجوية ما لا يقلُّ عن ثلاثمئة شخصٍ، كثيرون منهم مدنيون. لكن شارون استطاع الحصول على ما يريد. فقد وافق عرفات على المغادرة إلى تونس." صَمَتَ بن آرون للحظةٍ مكشِّراً، وأضاف بدهاء ملحوظ: "بالنسبة للبعض منَّا، كان هذا القدرُ كافياً. أمَّا البعض الآخر فقد كانت لديه وجهة نظرٍ أخرى. فقد كان لا يزال ما لا يقلُّ عن مئتي مقاتل فلسطيني في صبرا وشاتيلا. وكانت هذه فرصتنا لقتلِهم.

"وطِبقاً لقواعد التفكير البراغماتي، لم يكن لي أن أعترض ـ فرجال عرفات يمكن أن يعودوا يوماً ما، إلى قتلِنا ما لم نقم نحن الآن بقتلهم أولاً. لكن القصف الجويّ كان قد نال من سمعتنا الدولية، وكان لبنان تقليدياً ممزَّقاً بين الصراع المسيحي ـ المسلم. لهذا تقرَّر أن نعقد حلفاً مع إحدى الميليشيات المسلحة.

"كنت يومها برتبة كولونيل في الأركان العامة. وكنت أعرف من هُم هؤلاء المسلحين

ـ كانوا من نوع الناس الذين يقبِّلون يدَ زوجتك ثم يذبحونها. وكانوا ملتهبين حقداً لمصرع زعيمهم الجميّل." حركةُ كتِفَي بن آرون كانت تدلُّ على رغبته في الاستعفاء. "حتى هذا اليوم، لستُ أدري ما إذا كان شارون، وبعض الآخرين سواه، قد عرفوا مسبقاً ماذا سيحصل على وجه التأكيد. لكن من جهتي أنا، فإنني قمت بتحذير رؤسائي أن هؤلاء السفّاحين سوف لن يتورّعوا عن قتل الفلسطينيين دون أيِّ تمييزٍ بينهم."

هنا صار بن آرون يتكلم بصوتٍ شديد الهدوء، بحيث إنه صار على دافيد أن يَجهَد لالتقاط كلماته، مع أن نظراته بقيَت ثابتةً على حالِها. "لم يصغِ إليَّ أحدٌ." وبعدما قُضي الأمرُ، قمت بدخول المخيم. هناك شاهدتُ أطفالاً قد انتُزعت جلود رؤوسهم، ورجالاً قد انتزعت خِصيُّهم، ونسوةً قد تعرَّضن للاغتصاب قبْلَ ذبحِهنَّ من الوريد إلى الوريد. أمّا الناجون فقد كان من بينهم أطفالٌ مِن الذين فقدوا رِجلاً، أو ذراعاً. وبعضُهم فقدَ أكثرَ من ذلك كلِّه.. فَقَدَ عقلَه. وإذا كنتُ أنا لا أقوى على نسيان تلك المأساة، فكيف يستطيع الفلسطينيون نسيانَها؟

"إنما الشيء الذي ينساه صاحبُكَ: فهو ردَّة الفِعلِ على هذا الإجرام، التي كانت قد حصلَت في إسرائيل. أربعمئة ألف متظاهرٍ خرجوا إلى الشوارع مطالبين بتحقيقٍ علنيٍّ عن المسؤولية المترتبة على الجريمة. حاولَ رئيس وزرائنا بيغن أن يردَّ على هذه الحملة بالتذكير بالمليون طفل يهودي الذين كان قد أرسلهم النازيون إلى المحارق، وكأنه بطريقةٍ ما، يقول إنَّ إفلات الميليشيا على الفلسطينيين قد وفَّر علينا حدوث محرقة جديدة؛ لكن الشعب لم يسكت حتى تمَّت الموافقة على تشكيل لجنةٍ للتحقيق.

"ومع أنَّ شارون، وبعضاً مِن سواه، قد تعرَّضوا للَّوم والتوبيخ، فإنَّ البعضَ لا يزال حتى الآن يعتبرُ أن هذا الإجراءَ ما كان سوى مجرَّد تمويهٍ على الجريمة. ولكن دُلَّني على أمَّةٍ واحدةٍ ـ عدا عن إسرائيل ـ كانت قد تعرَّضَت في تاريخها لمثلِ هذا التهديد لبقاء جنسِها ونوعِها، ومع ذلك فإنها لم تتأخر عن العمل الجادِّ للمحافظة على حكم القانون؟ هل من وطنٍ تعرَّض من قبلُ لهذا القدْرِ الذي تعرَّضْنا له نحن من قِبَلِ أعدائنا من إدانةٍ وتشهيرٍ ووصْمٍ بالعِرقيَّةِ والقتل؟"

"أعرف هذا،" قال دافيد. "أعرفُه كلّه جيداً."

"إنني متأكد أنك تعرف. لكنَّ وجودَنا الآن في الضفة الغربية يضاعِف العداوة لنا بشكلٍ يوميٍّ." ولدهشةِ دافيد، فإنَّ يدَ رئيس الوزراء امتدَّت لتلامسه في ذراعه. "عندما كنتُ لا أزال ولداً صغيراً في القدس، أعيش تحت الحكم البريطاني، كان إعجابي بوالدي يقارب العبادة. وفي يومٍ من الأيام، بعد أن نسفَت الأراغون فندق الملك داود، أوقف الجنود البريطانيون والدي للاستجواب. ربما اعتقدوا أن والدي كان إرهابياً، وربما كان اعتقادهم صحيحاً، فأنا لستُ متأكداً تمام التأكُّدِ. لكنني لن أنسى أولئك الجنود بينما هم يصفعون والدي، ويقومون بإهانته. ومنذ ذلك اليوم، بدأتُ أكره البريطانيين." تراءى لدافيد أنَّ بن

آرون بدا فجأة مرهقاً ومتقدماً في السن. "وإنني الآن لأفكر في جميع تلك الأحقاد منذ أن غُرست فينا، وحولنا؛ بعمقٍ، تتربص بنا طيلة الوقت. بينما فرصُ السلام تمرُّ مروراً سريعاً عابراً."

عند هذا الحدِّ، استدار بن آرون، رافعاً قامته من جديد، استعداداً لتحية رجلٍ آخر غريب.

وقبْلَ أن يتمكن دافيد من الابتداء بالتحرُّك بين المدعوين، عاد داني ناير إلى الاقتراب منه. "وهكذا، ماذا تعتقد؟"

"أعتقد أنه شخصٌ مميَّز." لحظَ دافيد وهو يجيل بنظره في القاعة، وجود العديد من الشبان الذين لا يعرف وجوههم. "وأن لديكم وفرةٌ من الحراس الشخصيين."

عبرَ ظلٌّ وجهَ ناير. "ليس بالقَدْرِ الذي نحتاج إليه في الوطن. عندما كنت لا أزال طالباً في الجامعة، لم تكن مثلُ هذه الأشياء لتخطر في البال؛ أي أن يقتل اليهوديُّ يهودياً آخر. إلى أن برز ذاك الجناح اليميني الذي جعل رابين يدفع حياته ثمناً لتلك المصافحة الشهيرة." ثم أخذ ناير يتأمل كوباً في يده مليئاً بماء الصودا. "أمَّا الآن، فإن شعوراً يراودني أن المصيبة نفسها قد تتكرر مع بن آرون."

"هل هذا الاحتمال حقيقي؟"

"إن احتمال حدوث ذلك يتزايد يوماً بعد يوم، حسبما أعتقد. لقد صار بن آرون كالقضيب الجاذب للصواعق، فأقصى اليمين يعتبر أنه قد خان المستوطنين، والوعدَ الإلهيَّ معاً." توقَّفَ ناير عن الكلام قليلاً ليلقي نظرةً حولهما. "هل أقول لك سراً يبقى بيننا يا دافيد: إن جهاز الشرطة السرية عندنا، الشين بِيت - المكافىء للأف. بي. آي. - عندكم - يقول: إن هنالك الكثير من اليهود الذين يتمنون لو يستطيعون قتله بأيِّ ثمنٍ. لقد ذهب عاموس بن آرون إلى المطعم مرة واحدةً فقط منذ تسلُّمه وظيفته، ولم يكن ذهابُه لا برفقةِ أصدقائه، ولا برفقة أفراد عائلته. إنه دائم الخوف أن يقوم متعصبٌ ما، بقتل بعض الأبرياء معه. وهكذا، فإن ليلةً كهذه لا يمكن أن تكون قريبة مما هو طبيعي إلا بقدر ما تسمح الظروف بذلك."

"إذاً، كنتُ أودُّ لو أنني لم آخذ ذلك الشطرَ الكبير من وقته."

"لو لم يكن هو راغباً في التحدُّث معك لما فعل." ألقى نايَر في اتجاه دافيد ابتسامة وجيزة. "من بين القليل الذي أستطيع قوله، هو أنه قد يكون أحبَّك."

الفصل

14

عند الغسق، وصل إياد وإبراهيم إلى رقعة أرضٍ مسوَّرة في جنوب سان فرانسيسكو.

كان هناك لوحة منصوبة فوق بوابة المدخل، كُتب عليها: "سايف غارد، المكان الذي تحفظ فيه ما لا طاقة لك بخسارته." ومن غرفة الحارس القليلة الإضاءة، خرج شاب صيني يرتدي بزة حارس رسمية.

أبرز إياد وثيقة القيادة وهو يلفظ رقماً بكل اختصار: "أربعة وثلاثون." دخل الحارس إلى غرفته ليتأكد من شاشة الكومبيوتر لديه. ثم رجع إليهما معيداً وثيقة القيادة إلى إياد، قبل أن يشير إليهما بإدخال الشاحنة بضجرٍ وقلَّة اكتراث.

لم يكن هناك من شخص قطّ. وعندما ترجَّل من الشاحنة، رأى إبراهيم صفوفاً من الصناديق المعدنية بحجم شاحنات صغيرة. وكان الظلام الهابط يجعل أشكالها تشبه أشكال النواويس الفولاذية.

مشى إياد بين الحاويات العملاقة مستعيناً بضوءٍ كاشفٍ يدويٍ، حتى اهتدى إلى تلك التي تحمل الرقم "34" مدهوناً على بابها.

قُرب قبضة الباب، كان ثمة قفلٌ ضخم. أخرج إياد الورقة من أعماق جيبه. "أمسِك لي المصباح." قال آمراً. "واقرأ هذه الأرقام على مسمعي."

عندما فعل إبراهيم ما أُمر به، أدار إياد القرص العائد للقِفل، بعناية مع كل رقم، يميناً ثم يساراً، ثم يميناً مرة أخرى، إلى أن انتهى إبراهيم من تلاوة الرقم الأخير.

بحركةٍ سريعةٍ واحدةٍ فتح إياد المغلاق. ثم، بعد أن ألقى نظرة عاجلة خلف كتفيه، سحب قبضة الباب ببطء. انفتح الباب محدِثاً صريراً معدنياً خفيفاً. وعندها اخترق ضوء المصباح اليدوي في يد إبراهيم ظلمة جوف الحاوية.

وجد إبراهيم أنه لا يكاد يميِّز ما يراه. أسلاكٌ ملفوفةٌ، في إحدى الزوايا. وصناديقُ خشبيةٌ خاليةٌ من أي كتابة. وإلى جانب الحائط الخلفي للحاوية أُسندت دراجتان ناريتان عليهما الأحرف التالية: "SFPD" (دائرة شرطة سان فرانسيسكو).

بسرعة، أومأ إياد إلى إبراهيم بدخول الحاوية، مغلقاً بابها خلفهما. وتحت ضوء المصباح الخفيف، شعر إبراهيم كأنه في جوف مقبرة.

عند قدميه، كان ثمة حقيبة ضخمة. عندما فتح إياد إبزيمها المعدني، رأى إبراهيم خوذاً، وأحذية درَّاج، وملابس رسمية زرقاء عليها شارات فضِّية لامعة. أمَّا فوق الجيوب، فقد حيكت بخيوط ذهبية، الكلمات الأربعة التالية: "دائرة شرطة سان فرانسيسكو."

مَن الذي تُراه يستطيع أن يدبِّر كل هذا؟ تساءل إبراهيم في سرِّه متعجباً. لكنه تمتم بالسؤال، "وماذا يوجد في الصناديق؟"

بصوتٍ هادئٍ معادلٍ لصوت إبراهيم، أجاب إياد قائلاً، "متفجرات بلاستيكية. يبدو أنهم قد رتبوا الأمر جيداً."

لم يستطع إبراهيم أن يلجم فضوله أكثر مما فعل. "من هم؟" وجد نفسه يسأل إياد.

عاجله إياد بنظرة حادَّة. "غرباء. ليس لنا أن نعرفهم. ولن يعرفهم أحد. إنني متأكد أن الحاوية قد تمَّ استئجارها باسم رجل غير موجود. وكائناً من يكون ذلك الشخص الذي حضر قبلنا إلى هنا، فإنه لم يترك وراءه أية بصمةٍ أو دليل. وكل ما نراه هنا، قد تم دفع ثمنه نقداً..."

"حتى لوحتا دراجة الشرطة؟" تابع إبراهيم استفساراته.

"أعتقد أنهما مسروقتان. لن نعرف الجواب على ذلك أيضاً. وعندما ينتهي أمرُنا، فإن سلطات الولايات المتحدة لن تعثر على هذه الحاوية أيضاً. كل ما سيعثرون عليه: أسئلة غامضة إثر أخرى." نظر إليه إياد نظرة ضيقٍ شزِرةٍ مديدة. "هل من الضروري لك أن تلعب دور الطفل الفضولي؟ الأطفال وحدهم لا يتورعون عن طرح الأسئلة الكثيرة. إن ما يكفيك أن تعرفه هو أنك ستموت معه."

وأنت أيضاً ستموت معنا، فكر إبراهيم، في لحظة يأسٍ، بينما هو يضع قبضَتَه قريباً من قلبه.

* * *

سارت السهرة وفقاً لخطَّةِ كارول، إذ جلس بن آرون إلى جانبها، وكان طنين اللغط والثرثرة يطوف في فضاء الغرفة، كما يحوم فوق الموائد التي يحيط بكل منها ثمانية أشخاص. إنها الملاطفات الخفيفة الوديَّة. وبتدبيرٍ مسبق من كارول: جلس دافيد بين

ستانلي شارفمان وزوجته راي. لقد كان ذلك ترتيباً بارعاً من جانبها. كان ستانلي صاحبَ نفوذٍ قويٍّ بين أفراد الجالية. وهو جامعُ أموالٍ متحمِّسٍ لحملات مَن يختارهم من بين مرشحي الحزب الديموقراطي. أمَّا راي، زوجته السطحيّة، فقد كانت مأمونة الجانب لو حصل لها أن وقعَت أسيرةً لسحرِ دافيد. ومن وقتٍ لآخرِ، كان دافيد وكارول يتبادلان نظرات خاطفةٍ على طريقتهما الخاصة. فكلاهما منهمكٌ في عمله الجادّ، وهما لن يتبادلا الآراء في النتائج إلا بعد مغادرة آخر الضيوف، وبعد ابتداء طقطقةِ الصحونِ، وسواها من الأصوات، من المطبخ إيذاناً بشروع الخدم في أعمال التنظيف.

قبيل انتهاء العشاء، وقفَت كارول معلنة عن استعدادها للكلام. رأى دافيد حميَّه يحدِّقُ بإعجابٍ بابنته كارول التي بدت ذات حضور اجتماعيٍّ بارزٍ، دون جهدٍ استثنائي تبذله. "كما يعلَم معظمكم،" بدأت كلامها، "وبعضكم بات يعلم بعد ثمنٍ باهظٍ، أن هذه ليست الأمسية الأولى التي أدعو فيها أصدقائي إلى هذا المكان. لكنِ هذه المناسبة هي مناسَبة لا يترتَّب عليكم بسببها أيَّة أعباءٍ ماليةٍ، لأن رئيس الوزراء يؤكِّد لي أنه غير مرشحٍ لأيٍّ منصبٍ أقلَّ من منصبه الحالي."

أمّا دافيد، أمام هذا الموضوع المبطَّن لهذه الدعابة، فقد بدأ يضحك كالآخرين. "لكنها أمسيةٌ عظيمة." تابعت كارول، "لسببٍ مختلفٍ تماماً. إذ إن ضيفنا الليلة هو شخصية غير اعتيادية. فهو بطلٌ يحمل أوسمة ثلاثةَ حروب، وجَدٌّ لستة أحفادٍ، وقائدٌ لأمةٍ نبجِّلها جميعاً، وفوق ذلك، فهو باحثٌ عن السلام في وقتٍ يصعُب فيه العثور حتى على أيِّ أملٍ في السلام." رشقَت كارول بن آرون بابتسامة. "وفي الحقيقة إنني كنت قد طلبت منه ألّا يأمل منكم سلاماً كثيراً.

"لقد جاء الليلة ليخاطب اهتماماتكم وتساؤلاتكم، كائناً ما تكون. وهذه أيضاً فرصةٌ استثنائيةٌ أمامنا جميعاً نحن الذين نبالي ونهتمُّ. إنه شرف كبير لنا أن نرحِّب بكم جميعاً، وخصوصاً برئيس وزراء دولة إسرائيل".

وسط ترحيب الجمهور الحارِّ، وقف بن آرون، وعانَق كارول عناقاً وجيزاً، ثم انتظر بنصف ابتسامة إلى أن هدأ ترحيب الجمهور وهتافُه، لتحلَّ محلَّه نظراتُ الإصغاء. "شكراً لكِ، يا كارول ـ لأنك فتحت أبواب منزلك لي، ولهذا الجمع المحترم من أصدقاء إسرائيل. ربما، وبكلِّ أسفٍ، قد أكون كافأتك على ذلك سلباً بتشجيعي لخطيبك على ولوج الحياة السياسية. أمَّا بالنسبة إلى الباقين منكم،" أضاف مستثيراً موجةً من الضحك، "فقد يكون هذا العشاء هو الأخير، غير المدفوع الثمن، إلى أن يتمكَّن دافيد من دخول الكونغرس."

كانت مبادَرةً بارعةً، فكَّر دافيد، جمع فيها بن آرون جرعتين مدروستين من الدفء والظرافة. فقد كافأ كارول بمبارَكته لطموحات خطيبها السياسية. "لكنني أعلم أن كارول محقَّة،" تابع رئيس الوزراء. "فحياتي في السياسة قد علَّمتني أن الشيء الوحيد الذي يزيد

عن مقاتلة أعدائنا صعوبة هو الردُّ على أسئلة أصدقائي." وفي وسط الضحكات الخافتة، العارفة، وعَدَهم، "ورغم كل ذلك، سأبذل جهد استطاعتي للإجابة عن تساؤلاتكم".

"لكن، أولاً دعوني أقول لكم شيئاً ما. إنني أعرف أن هؤلاء الذين علينا أن نقيم السلام معهم متشرذمين بين قوى متحاربة. وبعضهم ممَّن أرسل أبناءه وبناته لقتلِ أبنائنا وبناتنا. لكنني أعتقِد أننا أقوياء بما فيه الكفاية لكي نبحث لنا عن طريقة أفضل. طريقة يعمل من خلالها الإسرائيليون، والغالبية العظمى من الفلسطينيين، من أجل الوصول إلى يومٍ يعيش فيه أحفادنا كجيران." ثم توقف بن آرون قليلاً وجال بنظره برصانةٍ حول الغرفة. "أمَّا الآن، فيسرُّني أن أجيب على أسئلتكم." رفع ستانلي شارفمان الجالس بجانب دافيد يده. قبلَ أن يتمكن بن آرون من الإشارة إلى أيِّ شخصٍ آخر سأل شارفمان: "مع كل هذا الإرهاب، كيف تستطيع أن تفكر في إرجاع الضفة الغربية إلى أعدائنا؟ إلى جماعةٍ مثل حماس؟"

"أنا لا أقترح أن نتخلّى عن الضفة الغربية." ردَّ بن آرون بشكلٍ حاسم. "لكن احتلالنا للضفة الغربية واهٍ، ويتعذَّر الدفاع عنه على المدى الطويل. فإذا ثابرنا على الاحتفاظ بما تضمُّه من سكانٍ تحت إدارتنا، فهذا سيعني أحد أمرين: إما أن نتوقف عن كوننا دولةً ديموقراطيةً، وإمَّا ـ إذا دمجنا ثلاثة ملايين فلسطيني معنا ـ أن نتوقف عن كوننا دولة يهودية."

طَرَفَ شارفمان بعينيه، منشغل الفكر بهذه الإجابة، فتبيَّن لدافيد أن هذه المعضلة لم تخطر له يوماً ببال. "الآن،" تابع بن آرون بقوَّة، "نحن نجد أنفسنا غارقين في أوحال الرعب الناتج عن استمرار الانتفاضة، حيث يقتلُنا الإرهابيون في الباصات والمقاهي. وهكذا، لكي نحارب التفجيرات الانتحارية: فنحن نقيِّد حركة الفلسطينيين أجمعين بنقاط التفتيش التي يقوم عليها جنودٌ صغارُ السِّن خائفون. ينتهي الأمرُ بهم في أحوالٍ كثيرةٍ إلى سوء معاملة الأبرياء، بل إلى قتلِهم أحياناً.

"أنا لا ألمِّح إلى أننا قد أصبحنا مثلَ الإرهابيين. فالانفجارات الانتحارية هي أبشع، بما لا يقارنُ، من الأعمال الهادفة إلى إحباطها. لكن ساعةً بعد ساعةٍ يقوم جنديٌّ يهوديٌّ على حاجز تفتيشٍ بخلقِ عدوٍّ جديد لنا." ثم ثبَّت بن آرون نظرة لا تحيد باتجاه شارفمان، وخلَص إلى القول، "إن الحلقة الجهنمية للانتفاضة تدمي أرواح اليهود والعرب معاً. لا حلَّ عسكرياً واضحاً لذلك، لا حلَّ صحيحاً وعادلاً، وما مِن معالَجةٍ في نهاية الأمر ستجعل إسرائيل أكثر أماناً."

"ولكن ماذا بشأن المستوطَنات؟" لاحظَ دافيد أن السائل هو ساندي رابابورت، سمسار تأمين متعاطفٍ مع أقصى الجناح اليميني للسياسة الإسرائيلية. "ابتداءً من العام 1967،" تابع رابابورت، "طلبَت إسرائيل من أشجع مواطنيها أن يخدموا كجماعات دفاعٍ

متقدمة ضد أيٍّ هجوم يُشنُّ عليها، وذلك عن طريق الاستيطان في الضفة الغربية. ثم عُدنا وسمحنا لعرفات ورجاله بالعيش هناك، أيضاً. أما الآن: فتبدو الأمور كأنك ذاهبٌ إلى التخلي عن الجيل الثاني من هؤلاء المستوطنين كي تسترضي الإرهابيين مثل منظمة حماس."

رفع بن آرون يده. "لستُ أنا مَن بدأ السماح بالاستيطان. كما أنني لا أتساهل مع أعمال القتل. إنني أتعامل فقط مع النتائج والعواقب.

"الآن، باتت المسألة واضحةً بما فيه الكفاية. المستوطنات تحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من الجنود الإسرائيليين من أجل حماية عددٍ قليلٍ نسبياً من المستوطنين. إنهم أبعد من أن يكونوا متاريس متقدمة، بل إنهم صاروا هاجساً أمنياً قومياً تدور حوله حياتنا السياسية، وبالوعةً تستنزف أموالنا العامة. هذه حقائقٌ. فالحدود المرسومه بطريقة عقلانية لا يمكنها أن تتضمَّن مواقع أمامية لا يمكن الدفاع عنها، مأهولة ببعض المتعصبين كما هو حال مستوطنة باركوشبا العائدة لحركة مَسعدة. هل يجب علينا الاستمرار في الدفاع عنهم؟" استنتجَ بن آرون بجفاف، "طبعاً لن نستطيع ذلك. حفنةٌ من المتعصِّبين دينياً لا يصحُّ أن تملي علينا قراراتنا."

"هذا لن نسمح به"، استرجع دافيد قول المستوطن. *"وكما أزهق الله روح هتلر، فإنه سيزهق أيضاً روح بن آرون"*.

بات الجوُّ الآن في غرفة طعام كارول متوتراً. "أنا لا أحبِّذ التنازلات من جانب واحد،" تابع بن آرون. "علينا أن نتخلى عن الأرض في مقابل السلام، لا أن نتخلى عن الأرض مقابل لا شيء. إنَّ حلَّ مسألة وضع بعض المستوطنات ليس سوى نقطة واحدة من أصل ثلاث نقاط خلاف أساسية. فالنقطة الثانية هي وضعية مدينة القدس، أما النقطة الثالثة فهي ما يسميه الفلسطينيون حق العودة إلى الأرض التي هي الآن دولة إسرائيل." توقف بن آرون برهةً وهو يجول بنظره في القاعة. "بالنسبة لتلك المسائل الثلاث." قال بلهجةٍ صريحة،" ربما كانت أعظم عقبةٍ في سبيل السلام هي الخرافات التي يحيا عليها كثيرٌ من اليهود والفلسطينيين معاً."

لمح دافيد من طرف عينه رجلاً ملتحياً ـ يهودياً أصولياً من معارف هارولد ـ يتجهَّم معترضاً. "خرافتنا العظمى،" تابع بن آرون، "هي أن الله قد وهبنا حقوقاً حصرية في القدس، وما وراء القدس، أي الضفة الغربية. أمَّا خرافتهم العظمى، فهي حقُّ العودة، هذا الحق الموقوف لجميع ورثة اللاجئين الذين نزحوا في العام 1948، من أجل العودة، وبالتالي من أجل اجتياحنا." نظر بن آرون مباشرة في اتجاه الأصولي المعترض. "وهاتان الخرافتان ستقتلاننا جميعاً.

"ففي ما يختصُّ أولاً بخرافتنا: إن الله لا يمكن أن يكون قد ألزمنا بأن نجعل من الأرض التي نحبها أرض معركةٍ، وحقلَ تذابحٍ، بين المتنافسِين دينياً عليها. هذه الخرافة

كان يجب أن تموت مع زوال الحملات الصليبية. وليس علينا أن نبقي هذه الخرافة قائمة، وعلى قيد الحياة. أمَّا في ما يختصُّ بخرافتهم،" أضاف بابتسامةٍ سريعةٍ ساخرة، "فإن علينا أن نساعدهم للتخلّي عنها. فنحن لا نستطيع أن نقبل بزوالنا ودمارنا، كما لا نستطيع أن نؤيد الفكرة القائلة أن إسرائيل هي دولة قد وُلدت من رحم الخطيئة.

"فمِن ناحيتنا، علينا أن نسلِّم بصحة بعض الحقائق القاسية عن وجودنا. ففي العام 1948 لم ينزح من نزح من العرب، بكل بساطة، لأنهم لم يستطيعوا أن يتخيلوا أن يكونوا محكومين بحكومة يهودية. كان هناك حرب وكان عربٌ كثيرون مرتعبين. فقد اجتاح اليهود بعض القرى العربية طاردين العائلات العربية التي تسكن فيها. هذه ليست حوادث تحدُث لأول مرة في تاريخ البشرية. لكنها حقيقة واقعة.

"وباختصار، علينا أن يسلِّم كلُّ فريقٍ منَّا بحقائق تاريخ الفريق الآخر، من أجل أن نتمكّن من التعالي على هذه الحقائق، وتجاوزها، والتسامي فوقها." ابتسَم بن آرون ابتسامة صغيرة. "غداً في مبنى نادي الكومنولث سوف أقدم اقتراحاتي المتواضعة حول كيفية البدء في المضيِّ في هذه المبادَرة."

ولأول مرة منذ ثلاث عشرة سنة بدأ دافيد يشعر بالأمل.

* * *

تحت بذلتَي الشرطة، وجد إياد خريطةً جديدةً لمدينة سان فرانسيسكو.

ركع إبراهيم، فرأى عليها ثلاثة خطوطٍ مرسومةٍ بعنايةٍ بالقلم، وهي تقود من وسط المدينة إلى المطار. قال إياد بهدوء. "لا بدَّ له من أن يسلك إحدى هذه الطرق الثلاث."

أيّ طريقٍ منها، أراد إبراهيم أن يتساءل، وكيف يمكنهما أن يعرفا؟ ومتى يستطيعان أن يعرفا؟ لكن النظرة القاسية لإياد منعَته من طرح السؤال.

وتحت الضوء المعتِم للمصباح الكشاف الكهربائي، خلعَ إبراهيم وإياد ملابسهما المدنية، لتجريب ملابسهما العسكرية الجديدة كرجلي بوليس في سان فرانسيسكو.

ولدهشة إبراهيم، فقد كانت بزته مناسِبة لقياسه تماماً. وكذلك بدت بزّة إياد عندما أثنى على حسن تدبير ثيابهما التنكرية بنوع من السلطة. ووجد إبراهيم نفسه قادراً على الاعتقاد، بطريقة أكثر وضوحاً هذه المرة، أنهما باتا قادرين على النجاح.

على الأقل، قال مخاطباً نفسه، صار يستطيع أن يموت وهو يناضل في خدمة قضيةٍ، في لحظة يختارها هو. أو يختارها الله.

* * *

عندما لامسَت كارول رِدنَ بن آرون مشيرة إليه برغبتها في إقفال باب الأسئلة، هزَّ بن آرونَ رأسه بعدم الموافقة.

"ولكن من ذا الذي سيكون شريككم في عملية صُنع السلام؟" سأل ساندي رابابورت. "لسنواتٍ خلت، كانت السلطة الفلسطينية محكومة من حركة فتح التي يقوم على رأس قيادتها عرفات، هذا الشخص الذي لم يستطع أن يتجاوز دوره المعروف كإرهابي. أمَّا الآن، وفي ظل القيادة الهرمة العاجزة لفتح، فلا بد لها من تقاسم السلطة مع حماس. فلو كانت السلطة الفلسطينية قادرة على لجم الإرهابيين، لكان الأمر مقبولاً. لكنها لا تستطيع ذلك. أو أنها لا تريد ذلك."

هذه نقطةٌ هامَّة، افتكر دافيد. أما بن آرون فقد بدا مسلِّماً بذلك بإيماءةٍ رشيقة قبل أن يجيب على السؤال. "هناك إرهابيون، وهناك إرهابيون سواهم. فكتيبة شهداء الأقصى، وهي الذراع العسكري لمنظمة فتح، قد ارتكبت بدورها أعمالاً إرهابية. لكن الأقصى يقاتلون من أجل أرضهم الخاصة، حيث إنهم يعتقدون أن من حقهم أن يقتلوا الإسرائيليين في الضفة الغربية، لكن فلسطينيين كثيرين لا يؤيِّدون قتْلَنا في تل أبيب." سمح بن آرون لنفسه بابتسامة باردة. "قد لا تعتقدون أن ذلك يكفي لمؤشرٍ إيجابيٍّ، أو أن كتائب الأقصى ستكون شريكاً ممكناً في مكافحة الإرهاب، لكن فكِّروا معي في البدائل الموجودة لدينا.

"فالبديل الأول، والأسوأ، هو حماس." وفجأة اختفت الابتسامة عن وجه بن آرون. "معظم الإرهابيين الذين شنُّوا عملياتٍ انتحارية في إسرائيل ينتمون إلى حماس. كل الذين يدورون في فلك حماس يؤمنون بضرورة تدميرنا، وهم عادة أناس ذوي صبر وأناة. وهم الآن يسيطرون على المجلس التشريعي الفلسطيني. أمَّا هدفُهم التالي فهو بسيط: الحلول تماماً محلَّ فتح في قيادة السلطة الفلسطينية."

لاحظ دافيد أن ساندي رابابورت قد بدا متجهِّم الوجه، مثلُه في ذلك مثل رئيس الوزراء. "تخيلْ،" قال له بن آرون، "دولة إسلامية أصولية عند عتبة بيتنا، على بعد 60 ميلاً من تل أبيب. إنه كابوس مرعبٌ أرغبُ في منعِ حصولِه."

"كيف؟"

"لن تستطيع إسرائيل أن تنجز ذلك بمفردها. فقائد السلطة الفلسطينية، مروان فاراس، رجل مناهضٌ للعنف. لكننا نطلب منه أكثر من توجيه العواطف النبيلة. نريد قيادةً فلسطينية عازمة، وقادرة، على سحقِ الإرهاب، واجتثاث الفساد، وتقديم الخدمات إلى شعبها، ووقفِ هذا السيل من الأحقاد التي تحوِّل الإرهابيين الانتحاريين إلى أبطال." هنا تكلم بن آرون ببطء وتأكيد. "إذا كان باستطاعة فاراس أن يَعد الفلسطينيين بما تريده غالبيتهم ـ وهو إنهاء الاحتلال ـ فربما يتحوَّل شعبه عن تأييد حماس. عندها من الممكن أن

يصبح أشدُّ رجال فريقه بأساً، أي كتائب شهداء الأقصى، الوسيلة التي يستطيع فاراس بواسطتها لجْمَ جنوح حماس.

"إنني أحتاج إليه مثلما هو يحتاج إليّ. إن إسرائيل والمعتدلين الفلسطينيين يحتاج بعضُهم إلى البعض الآخر." أجالَ بن آرون نظرةً عابسةً على وجوه كافّة مستمعيه. "إذا فشلنا في مهمتنا هذه، فإن البديل الوحيد هو حماس."

عندما رفع دافيد يده، بدا بن آرون وكأنه يلتقط أنفاسه. "نعم يا دافيد."

شعر دافيد أن الآخرين يستديرون للتحديق فيه، ليس فقط كصاحب سؤالٍ، بل أيضاً كخطيبٍ لكارول، وكعضوٍ محتمَلٍ في الكونغرس. "يبدو لي كأنك تريد القول،" قال دافيد. "إن الخطر الأكبر على عملية السلام يأتي من الأصولية الدينية، أو بالأحرى من التطرف الأصولي. هل لك في أن تتوسع في هذه النقطة؟"

استجاب بن آرون للسؤال بسرور. "لكن دعني أولاً أميِّز ما بين الأصولية والدين.

"فالأصولية اعتقادٌ ويقين - إنها إيديولوجيا. وليست ديناً. فحماس والمستوطنون المتطرفون عندنا، يشتركون في المنطق المشترك بينهما ذاته. غياب الشك. إنهم أيضاً أبناء عمومة مع الأصولية المسيحية الدينية في أميركا. هذه الأصولية التي تعتقد أن على اليهود والعرب إفناء بعضهم البعض كضرورة لازمة قبل الظهور الجديد للسيد المسيح.

"من جهتي أنا، أفضِّل ألا نلعب دورنا هذا."

ومع أن هذه العبارة الجافة قد استدرجت بعض الابتسامات، فإن بن آرون تابع كلامه دون توقف. "هذه مسألةٌ خطيرة للغاية. هناك أصوليون يهود في إسرائيل من الذين يقولون إنني أخون الله. إن هذا التفسير الأبله لله، هو الذي صوَّر صانع السلام إسحاق رابين وكأنه رجلٌ خائنٌ يستحق الإعدام. وقد ماتت بموته فرصة كانت متاحةً للسلام.

"لقد تعلَّم الأصوليون هذا الدرس جيداً. فإذا دمَّر الأصوليون اليهود موقعاً دينياً إسلامياً مقدساً بصاروخ، فإنهم يستطيعون بذلك أن يدمروا فرصة للسلام. والكلام نفسه صحيح إذا تمكن الأصوليون الدينيون الفلسطينيون من تدمير موقعٍ دينيّ يهودي. فالشرق الأوسط أشبه بقنبلةٍ لا ينفك المتعصبون، من الطرفين، من الدوران حولها بحثاً عن صاعق التفجير."

"وماذا عن الأنظمة السياسية المتطرفة؟" سأل دافيد. "أليس لسوريا وإيران ربما دور حقيقي في تبديد فرص السلام؟"

"نعم، هذا صحيح،" أجاب بن آرون على الفور. "وإن الفريق الأشد خطراً هم ملالي إيران." هنا وضع سبابته في وسط كفه المفتوحة مؤكداً على كل نقطة. "إنهم متطرفون

وأصوليون. وهم يساعدون حماس في انتقاء العناصر الجديدة، ويجندون بعض العرب الإسرائيليين ضدنا. إنهم يرغبون في قلبِ موازين القوى في الشرق الأوسط."

مثلما أمِل دافيد من وراء سؤاله - ومن جواب بن آرون عليه - فإنَّ الجوَّ العدائيَّ بدا وكأنه قد تبخَّر من جوِّ الغرفة. "في ضوء وجودِ كل هؤلاء الأعداء،" سألت دوروثي كوشنر بقلقٍ واضح، "ألا تخاف على سلامة حياتك؟"

"أخاف؟" أعطاها بن آرون ابتسامة باهتة. "إن الذين يتمنون الموت لي هم كُثرٌ بما يشبه كثرة الزبائن في أحد محلات بيع البوظة في يوم قائظٍ عندكم، بحيث يكون عليك أن تأخذي رقماً لكي تحجزي دورك.

"ليس عندي رغبة في الموت. لكنني لا أريد أن أضيف أياماً إضافية إلى أيام حياتي السائرة نحو نهايتها، عن طريق تحصين سلامتي الشخصية على حساب تهديد حياة العديد من الأشخاص. سيما أنها حياة غضَّةٌ فتيَّةٌ، بما لا يُقارَن مع عمري، سواءً أكان هؤلاء الشباب فلسطينيين أم إسرائيليين." وبهزة من كتفيه غير عابئة بالموت، أنهى بن آرون قوله. "لقد بذلتُ الكثير من سنيِّ حياتي لإنشاء إسرائيل وإبقائها حية موجودة. فما هو معنى جهود عمري الماضية كلها إذا كنتُ لا أستطيعُ أن أتركها من بعدي في حالةٍ أكثر سلاماً؟"

* * *

فتح إياد بسرعة صندوق المتفجرات الخشبي.

بدت المتفجرات، وهي ملفوفة بأوراق الجرائد، كأنها كتلٌ صغيرة خضراء. ألقى إياد بقطعةٍ منها إلى يد إبراهيم.

إنه لأمرٌ مرعبٌ، حدَّث إبراهيم نفسه، أن يحمل المرء وسيلة قتله بيده.

"إنها خفيفة الوزن جداً" قال إياد بلهجةٍ مسامِرة. "كما أنها سهلة الاستعمال".

مستعيداً القطعة منه، أشار إياد إلى الدراجتين الناريتين.

"هل ترى هذين الخُرْجَيْن فوق العجلة الخلفية لكلِّ درَّاجة؟ املأهما بهذه المتفجرات على جانبي الخُرْج، وسترى أن ذلك سيكون كافياً للقيام بالمهمة، حتى وإن كانت السيارة مصفحة. كل ما عليك أن تفعله: هو أن تثبت توصيلات الشريط بطريقة جيدة."

حاول إبراهيم أن يفكر في عذابات أهله.

انحنى إياد فوق صندوق المتفجرات، وألقى بطريقة عرَضية بإحدى القطع صوب كتف إبراهيم الذي فشل في التقاطها قبل أن تُحدث طقطقةً لدى وقوعها على الأرضية المعدنية للحاوية.

ضحك إياد قائلاً: إنها شديدة التماسك، وهي لا تنفجر لوحدها. من أجل ذلك ينبغي توصيلها إلى الأسلاك."

وفي غضون بضع دقائق، كان إياد قد جهَّز مفتاحاً قلّاباً موصولاً إلى كلٍّ مِن مقبضي الدراجتين. ثم مدَّد سلكاً من كلٍّ منهما إلى الخُرْج في الخلف. كان لون كلٍّ من الدراجتين غير واضح في الواقع.

"إنها في الواقع سهلة جداً،" قال إياد راضياً عن عمله. "كل واحد يستطيع أن يتعلم كيفية عملها."

* * *

قبل مغادرته، انتحى بن آرون جانباً بدافيد. "كان هذا شرفاً كبيراً لنا،" قال دافيد.

ابتسم بن آرون بظرفٍ "بل شرفٌ لي أيضاً. مع أنني كنت في بعض المرات أتذكر قصة رئيسكم لينكولن عن السياسي الذي طُرد من المدينة على متن قطارٍ، بعد أن أُشبع إهانة وانتقاداً. ‘لكن إكراماً للموقف‘، قال السياسي، ‘فقد قبلتُ التساهل في الأمر‘."

"إنهم خائفون على مصير بلادكم يا سيادة رئيس الوزراء."

"ألسنا جميعاً خائفين." لامَسَ بن آرون كتفه. "مع أنني لم أقل هذا في هذه الليلة، ولكننا نحتاج إلى المزيد من المشاركة من جانب حكومتكم. هنالك بعض المصالح التي تريد لأميركا أن تبقى عند الخطوط الجانبية من اللعبة، دون أن تتدخل بقوة في العملية السلمية. هذا قد يكون خطأً مميتاً." ثم اقترب خطوة إلى الأمام، وحدَّق بدافيد بحماسة جديدة. "يمكنك أن تكون جزءاً من هذا كله يا دافيد، عندما يحين الأوان. وآمل أن يكون بإمكانك مساعدتنا."

بعد أن ضغط على كتفي دافيد قليلاً، استدار بن آرون وقبَّل كارول في وجنتيها، ثم غادر محاطاً بالمجموعة الأمنية المرافقة له.

راقب دافيد الشارع من الشبَّاك. كانت أضواء سيارات الشرطة تدور. ثم بدأ الموكب يتحرك فيما مصابيح السيارات تشق بأشعتها نسيج الظلمة. وببطء، أخذ الموكب يدور حول زاوية الشارع كأنه أفعى عملاقة، قبل أن يختفي تماماً.

الفصل

15

في عتمة المكان، أرجع إياد الشاحنة المغلقة إلى محاذاة باب الحاوية.

فتح إبراهيم البابين الخلفيين للشاحنة. وبسرعة بدءا بشحنها.

تمَّ أولاً شحنُ الصناديق، بما احتوت عليه من بزَّات وخُوَذٍ عسكرية، ثم السلكين الاحتياطيين. بعد ذلك، وفيما هما يتصببان عرقاً، رغم برودة الليل: رفعا إليها الدراجتين المجهزتين بالمتفجرات وبشريطي التفجير.

وفيما هما يهمَّان بمغادرة أرض المجمَّع، نظر إليهما الحارس نظرة عابرة من فوق مجلته، قبل أن يلقي إليهما بإشارة مرورٍ لا مبالية. وبينما قلبُه يكاد يصل إلى فمه، ردَّ إبراهيم إشارة الحارس بإشارة مقابلة.

* * *

لدهشة دافيد، خرج هارولد شور من المطبخ بكأسٍ من الشراب، ثم جلس على الكرسيِّ الوثير الذي كان يعتبره كرسيَّه المفضَّل. لم يكن هذا تصرُّفاً اعتيادياً؛ لأن هارولد قلَّما كان يأخذ كأساً بعد العشاء. كما أنه كان من عادته أن ينسحب بعد السهرات الاجتماعية مخلياً ما بين كارول وخطيبها.

نظر دافيد نظرة خاطفة ناحية كارول. "ما قولك؟" تكلم في اتجاه حميِّه.

قطع هارولد نظرته المتأملة في الكأس المصنوعة من الكريستال. ورفع نظره صوب دافيد بابتسامة تحمل معاني الألم. "إذاً إنه يقول أن 'حق العودة' هو مجرَّد 'خرافة'، أليس كذلك؟ إنه شيء يمكن أن يرتجى كما ترتجى أحداث حكايات الجن التي تتلى على مسامع الأطفال. لكنهم ما زالوا يتعهدون تلك الخرافة لستين عاماً خلَت من طريق بقائهم في ما يزالون يطلقون عليه 'مخيمات اللاجئين'. إنها مجرد طريقة أخرى للقول أن 'اليهود غير مرغوب بهم في هذه المنطقة. تماماً مثلما لم يكن مرغوباً بنا في ألمانيا، أو روسيا، أو بولندا'." رفع هارولد رأسه ناحية كارول. "إلى أي مكان يمكننا أن نعود؟ هل إلى قريتنا البولندية التي جئت أنا منها والتي لم يعد فيها يهوديٌّ قط؟"

نظرة تفاهم عبرَت بين الوالد وبين ابنته، نظرة فيها شيء من الحزن، وفي ما يختص بهارولد، مسحة من الشعور بالمرارة أيضاً. "أنتِ ما زلتِ فتيَّة" قال لها بتعب "أما أنا فلست كذلك. وقد صرت تعِباً من التفرُّج على التاريخ بينما هو يعيد نفسه. لم يستطع أهلي أن يصدِّقوا أن الألمان سوف يقتلونهم إلى أن قاموا بقتلهم بالفعل. أمَّا الآن، فيأتي دور الفلسطينيين ـ خطواتٌ قليلةٌ إلى الأمام ثم نعود القهقرى إلى الوراء من جديد، مصافحَةٌ أخرى، فهدنةٌ جديدة، ثم يظهر فلسطينيٌ لينسف الإسرائيليين مؤكِّداً أن الأمور لازالت على حالها.

"هكذا إلى الأبد أملٌ يعطى لنا ليستعاد منَّا. أمَّا الآن، فإن لدينا حماس." استجمَعَ هارولد ابتسامة. "آسف إذا قلت لك يا دافيد إنني لا أجد أيَّ أملٍ يرجى من مشروع بن آرون."

* * *

بعدما انصرف هارولد، وقف دافيد إلى جانب نافذة كارول محدِّقاً في الأضواء الآتية من مارينا ديستركت، الحوض الخليجي الشكل، ذي البركة الداكنة الأعماق.

سمع خلْفَهُ وقْعَ خطواتِ كارول وهي تمشي حافية القدمين. "هل ستبقى الليلة هنا؟"

"طبعاً سأبقى."

في غرفة النوم خلعا ملابسهما في صمت تام، ثم نزلا في الفراش. ضمَّت كارول جسدها إلى جسده.

قبَّلها دافيد قبلة في جبينها، إشارة إلى أنه يريد أن ينام.

لكنه وجد أنه لا سبيل له إلى النوم. هل كانت ملاحظات هارولد الأخيرة، التي يؤكد فيها فقدان الثقة بأيِّ أمل على رجعِ ذكرياتٍ لم يقوَ دافيد أن يضعها في مكانها، هي التي أطارت النوم من عينَيه؟

أخيراً جاءه السبب، عندما مرَّ في ذهنه خيال عطلة نهاية أسبوع كان قد قضاها يوماً ما، مع هنا. وفي نهايتها قالت له: *"أنت حرٌّ في ما تحلم بشأننا نحن الاثنين، أمَّا أنا فلست حرة في أن أحلم بك."*

* * *

كان ذلك عندما طار صائب إلى شيكاغو في رحلة مدتها ثلاثة أيام لحضور مؤتمر للطلبة الفلسطينيين، الأمر الذي مكَّن هناء من الانسراق معه لبعض الوقت. لقد كان دافيد يعيشها نشوة بالفعل.

ركبا سيارة دافيد المستعملة المكشوفة قاصدين نيوهامشاير. كان شعرُ هناء الأسود يتطاير مع الهواء، وكان بروس سبرنغستين وتوم باتي يقدمان الموسيقى المرافقة لأحداث الرحلة. 'نورمال'، كان اسم الأغنية. "هذا ما يمكن أن تكون عليه حياتنا الطبيعية 'نورمال'." وحتى ضحكة هناء الملتبسة لم تستطع أن تنتقص من هنائه وسعادته.

عرَّجا إلى نزل صغير عند قدم جبل غرين ماونتن. وفي صباح السبت، أحضر لها دافيد فطوراً إلى السرير، مؤلفاً من الكرواسون، والقهوة، وعصير البرتقال. كانت ما تزال عارية وهي تلتهم كعكة الكرواسون الأولى وخُيِّل لدافيد أنه لم يرَ شيئاً جميلاً مثلها من قبل.

'نورمال' بدأ يغني.

كان فمها مليئاً وعيناها مغمضتين.

"أستطيع أن أفعل هذا كل يوم سبت،" قال دافيد.

انتهت هناء من ابتلاع لقمتها. "تفعل ماذا؟" سألته بابتسامة. وهكذا تضاجعا من جديد.

لاحقاً، غادرا المكان في نزهةٍ جبلية. لم تكن هناء قد اختلت برجلٍ لمثل هذه المدة. لهذا فإن دافيد الذي تعلَّم كيف يقرأ قلقها وخوفها شاء أن يشغلها بدلاً من أن يشرح لها أنهما في أمان. ففي النهاية كان تسلق الجبال أمراً طبيعياً، ويندرج بدوره تحت عنوان الأغنية أيضاً 'نورمال'.

كان الطريق في غرين ماونتن يتصاعد على درجةٍ حادةٍ من الانحدار خلال غابة كثيفة من الصنوبر، الأمر الذي جعل هناء تتوقف لالتقاط أنفاسها حيناً، وللتزوُّد بشربة ماءٍ من قارورة دافيد حيناً آخر. أخيراً وصلا إلى قِنَّةٍ صخرية نَحتت فيها الرياح والأمطار ما نحتت. وكان الجو في فترة ما بعد الظهر معتدلاً؛ فالأنسام رخيَّةٌ، والشمس لطيفةٌ في ربيع نيو إنغلاند. أما امتداد النظر فيذهب أميالاً تلو أميال.

"شيءٌ رائعٌ،" همسَت هناء.

كانت منحدرات التِلال شاسعة الامتداد إلى حدود خط الأفق البعيد. لم يكن في المدى الأخضر رقعة فارغة قطُّ سوى ما قامت عليه مزرعة، أو انزرعت فيه قرية صغيرة انتصب فيها برج كنيسة. "بعد انقضاء الحرب الأهلية استعادت الطبيعة اعتبارها، على حساب حضارة الإنسان، الذي انكفأت نشاطاته عن هذه المنطقة، نحو الغرب". شرح دافيد كل هذا لهناء.

"يا لها من أراضٍ شاسعة،" قالت معلِّقة. "من السهل عليك أن تتركها إلى سواها إذا اعتقدتَ أن ثمة المزيد منها. إنني أعتقد أن الأرض تشرح الكثير عن طباع الشعوب."

"هذا الكلام صحيح بالنسبة إلى الأميركيين،" أجابها. "إن لديك هنا دائماً مكان آخر تقصدينه، شعورٌ بأن الأشياء لا تنضب ولا تنتهي. وفي النهاية ليس هذا سوى وهم وخيال. لكن خيالات الناس وأوهامهم عندما تعيش معهم، وتمتدُّ، وتطول: فإنها في نهاية الأمر تطبعهم بما هم عليه، وبما سوف يصبحون عليه."

ألقت هناء باتجاهه نظرة تحمل نكهة من الابتسامة المتحدِّية في عينيها، كأنما أحسَّت في كلامه تلميحاً إلى أوهام الفلسطينيين وإلى خيالاتهم. لكنها لم تشأ أن تثير معه جدلاً. وبعد برهة قالت له ببساطة، "شكراً لك لأنك أحضرتني إلى هنا. هذه التلة، وهذا المكان، وذاك الفندق، وذاك الفطور معي في السرير. لن أنسى هذا أبداً."

وجد دافيد أن دافعه إلى الكلام يغلب على ميله إلى الصمت. "هذا نموذج عمّا يمكن أن تكون عليه حياتنا. أحرار في الذهاب إلى أينما شئنا، وفي فِعل كل ما نريد فعله، أحرارٌ في أن ننمو ونكبر معاً دون حاجة بنا إلى ترقُّب عقارب الساعة."

مستغرقة في التفكير، حدَّقت هناء في الغابة الممتدة أمامهما. "أحرار،" قالت وكأنها تصغي إلى صوت هذه الكلمة تخرج من بين شفتيها. "إنها كلمة سهلة بالنسبة إليك. فأنت فردٌ ليس عنده التزام تجاه أحد، وأنت لا تهتم لكونك يهودياً أكثر من اهتمامك لكونك أيمنَ، ولستَ أعسر. وإرضاء رغباتك الخاصة أسهل ما يكون عليك. فإذا رغبتَ في شيءٍ فلِمَ لا تناله وتحصل عليه." شدَّت على كفِّه شدّاً يسيراً، كأنها تريد أن تعوِّضه عن أيِّ لسعةٍ في كلامها. "أنت أميركيٌّ للغاية، كاملٌ بنفسك. وأنا أحياناً أحسُّ معك أنني تلك الفتاة السعيدة المرتاحة البال. ثم لا ألبث أن أنظر إليك من جديد فأراك بسيطاً بريئاً، وأرى نفسي أكبرُكَ بألف سنة."

كان شكلُ وجهها الجانبي يجعلها تبدو حزينة، أو ربما مذعنة. "أنتِ في الثالثة والعشرين فقط يا هناء. والوقت يهرب من قبضتينا. فأنا سوف أتخرَّج بعد شهرٍ من الآن."

"أرجوك لا تفعل يا دافيد."

أفلتت منه البقية الضئيلة من التحفُّظ. "لو كان هناك متَّسع من الوقت، لصبرتُ عليكِ إلى ما لا نهاية له، تاركاً الأمور تحلُّ نفسها بنفسها. إنني أملك القدرة على هذا. لكن المشكلة أنَّ لا مجال طويلاً لدينا. لذلك علينا أن نتعامل مع هذا الموضوع الآن. إنَّ ما سلَك بين قلبينا هو أبعدُ وأهمُّ من أن نتعاملَ معه كعلاقة غرام عابرة جرت في عطلة صيف بين مراهقين، ولا بد لها من أن تنتهي بعد عودة الصبية إلى مدرستها."

"لكن هذا هو كل ما يمكن لنا أن نصل إليه في علاقتنا من مدى." استدارت نحوه متكلمة بصوتٍ مُلِحٍّ. "ألا تلاحظ؟ كيف أنني أكون معك دائماً أتهادى ما بين يمينٍ وشمالٍ، وكلِّني أملٌ في الحصول على لحظة توازنٍ لا أكاد أهتدي إليها؟ إن ما يباعد بيننا هو أكبر بكثيرٍ من شخص كلٍّ منّا. فبالنسبة إلى عائلتي أنا أمثِّل دير ياسين وكل المجازر قبلها

وبعدها. أمَّا أنت فلا يبقى لك دورٌ في نظرهم سوى أن تكون قاتلي."

"أنا لستُ رمزاً، أرجوك بحق المسيح. أنا مجرَّد إنسان. هل أنا قاتلك حقاً؟"

"طبعاً لا،" توقفت هناء برهة ثم تابعت بهدوء. "لكنك الرجل الذي يقتلني من الداخل. فأنا أريد أن أكون معك. أن أتكلم معك. أن أصغي إليك. أن أتشاجر معك. ونعم أيضاً فإنني أحياناً أشتهيك بكلٍ ما قد أوجدتني الطبيعة لكي أكون له. وهذا هو الجنون بعينه. لأنني إنسانة ولدتُ لكي أكون أكثر من مجرد امرأة تريد لها رجلاً.

"ففي ثقافتنا، تضع العائلة تعريفاً لأشخاصنا. أنت لا تستطيع أن تفهم هذا. بالنسبة إليك، إن الأمر غاية في السهولة. فأنت هو مجرَّد أنت، وكفى. ليس لك ارتباطات عميقة بأهلك. وأهلك بدورهم لا يبدو أن لهم ارتباطات عميقة بالتاريخ أو بالدين. لكن عندما يسألك أطفالك عن عائلتك، وعن أصلك، وعن مسقط رأسك، فماذا عساك تقول لهم؟"

"لن أقول لهم شيئاً،" أجابها دافيد. "إنهم لن يسألوا أبداً. لأن السؤال لن يكون له داعٍ بالنسبة إليهم. فأنا لا يمكنني أن أتصور أن ابناً لي يقع في الغرام فيأتي ليسألني: ماذا يفعَل آل وولف؟"

هزَّت هناء رأسها هزَّة منَ فقدَ الأمل في أن الآخر قد يستطيع أن يفهمه. "بالنسبة إليك، هذه مجرد أسئلة حمقاء، بل إنها ليست أسئلة يمكن أن تُسأل من الأساس. فأنتَ لستَ في الحقيقة من آل وولف. إنك دافيد، وكفى. لكن هذا ليس حالي أنا. وقبل أن آتي إلى هنا قالت لي أمي: 'أرجوك يا ابنتي لا تحبي أحداً في أميركا. لأن ذلك لن يجديك سوى عذاب القلب'. وقد بات الوقت متأخراً للاستماع إلى نصيحة أمي. إنما ما كانت تقصده أمي أيضاً في كلامها: أنني بذلك سأتسبب لأهلي بعذاب القلب. وهذا ما لن أقدِم عليه."

مع هذه الكلمات الأخيرة، صارت آلام هناء آلامه هو. "إذاً كيف تستطيعين أن تشتركي معي في ما نفعله سوياً؟"

"إنني أكذب." قالت ذلك بنغمة حزينة ثم انسحبت بعيداً.

* * *

عندما رجعا إلى كامبريدج نزلَت من السيارة على مبعدة ثلاث عماراتٍ من مسكنها. فيما راقبها دافيد وهي تقطع هذه المسافة مشياً.

هذا جنون، فكَّر في نفسه.

مشى باتجاه يوم تخرجه كأنه مدفوع بقوة آلية لا إرادية، يَعُدُّ الأيام الهاربة بسرعة، يوماً تلو الآخر، في انتظار الوصول إلى اللحظة التي يخشاها. ففي بعض الليالي ـ التي كانا

يسترقانها من دراستهما ـ كانا يتمددان في السرير ينظر كل منهما في وجه الآخر، وفي جسده المعروق بعد الجماع. كانت دقائق تمضي قبل أن يتكلما، وبينما يمرِّر دافيد أنامله على فقارها، لم يكن ليستطيع أن يتخيل أنه يمكن أن يعيش بدونها.

في إحدى الليالي شاهدا معاً فيلم كازابلانكا، وقد وجد دافيد نفسه آملاً في أن تشاركه هناء عدم استساغته لقيام البطلة أنغريد برغمان باختيار زوجها في الفيلم بدافع التضحية والواجب، مفضلة إياه على الرجل الذي أحبته فعلاً. لكن عندما ناقش الأمر معها أجابته هناء بكل بساطة: "إن أنغريد برغمان لم تكن تعطي نفسها لزوجها كما يجب أمَّا أنا فسوف أفعل"

"هل أنتِ متأكدة من كلامك هذا؟" تحداها دافيد. "لقد قابلتُ صائب مرة واحدة. وكانت تلك المرة كافية لكي أعرف كم هو مصابٌ بالتلف. أنا لستُ متأكداً أنه يدري بوجودك."

"كلنا مصابٌ بالتلف،" أجابته هناء بهدوء. "قل لي يا دافيد، هل تقبل بالعيش في الضفة الغربية؟"

إن سؤالها له عن العيش معها سويَّة، قد أنعش آماله، بصرفِ النظر عن صيغته البلاغية الجدلية. "لا أظنُّ أنني سألقى أيَّ ترحيبٍ هناك. أمَّا أنتِ فتستطيعين أن تمارسي المحاماة أو التعليم هنا."

"أنا لا أشعر بالراحة هنا. ثم إن هذه ليست بلادي. إنها البلد الحليف القوي الرئيسي لإسرائيل، التي لولاها لكان جدي لا يزال يعيش في الأرض التي ورثها عن أبيه." سحبَت يدها من يده ببطءٍ. "أنت تعرف أنني أكنُّ لك ما أكنُّه من المشاعر. لكنك تنسى أيضاً كيف أنني أشعر تجاه بلادك وبلدي."

انصرفَت تلك الليلة دون أن تمارس الحب معه، بينما وجهها وجسدها يعبِّران عما يصعب وصفُه من الحزن والتعاسة.

* * *

عادت في الليلة التالية. ومارسا الجنس بسرعة وشبق كأنهما يمحوان بذلك كل ما قاله كلٌّ منهما في الليلة الماضية.

"لِمَ لا تمضين الليلة كلها معي؟" قال لها مسترحماً.

"لا أستطيع. فأنت تعرف ذلك."

"بسبب صائب؟" سألها بصريح العبارة.

"وبسببٍ مستقلٌ منّي أنا، أيضاً." جلسَت في السرير والدموع تنهال من عينيها. "أنتَ ما زلتَ تعتقد أنك تفهمني حقاً. لكنك لن تستطيع أن تفهم أنني عقدتُ عهداً مع نفسي قائلةً: سأمنح ذاتي لهذا الرجل لمدة أسابيع قليلة ثمينة. ثم أتوب عنه بعد ذلك لأعود إلى القواعد والقوانين ما بقي لي من أيامٍ في حياتي."

بات الآن صوتها مختنقاً بالغضب. "تتعجب عمّا إذا كنت أحبك؟ حسناً أنا أحبك يا دافيد. ولو كنتَ تحبني أكثر، لتمنيت لو أنني لم أقدِم على حبك.

"إنني أفكر في الحياة التي كنت ربما سأحياها معك، ولن أستطيع. فالسعادة التي أتذوقها معك تحمل في باطنها نقيع الأسى. ربما هذا هو السبب الذي يجعل اتصالنا الجنسي شبِقاً وعنيفاً. لكنَّ في قعر علاقتنا يقبع الألم."

"هناك ألمٌ في كل حال يا هناء،" قاطعها دافيد بلطف. "ألا تعتقدين أنك ستشعرين بالألم بعد أسبوعين من الآن إذا قررتِ ألّا تعودي لرؤيتي ثانية؟ لن تستطيعي الخروج الآن من ذلك دون أن تجرحي أحداً. خاصة نفسك."

تحوَّلَت عنه. وقالت بصوت مختنق: "لقد وعدتُ صائب."

"وعدتِه بماذا؟ بأن تكوني زوجة له لا تحبه؟" هزّها من كتفيها. "انظري في وجهي يا هناء."

للحظةٍ، شعر أنها ترتجف. وعندما نظرت إليه بدت كالمجروحة، كأن نظرتها إلى وجهه تجرحها.

صار صوت دافيد ثخيناً. "أريد أن أعيش حياتي معكِ. أريدكِ أن تأتي معي إلى سان فرانسيسكو."

كانت تعابير وجهها ذاهلة، وغير مقروءة.

قال لها بصوت أكثر هدوءاً، "أتتزوجينني يا هناء؟"

خفضت رأسها كالعاجز عن الكلام أو حتى عن الحركة. وكانت الدموع التي تسحُّ على وجنتيها هي جوابها الوحيد.

الفصل

16

قبل ظهر اليوم التالي بقليلٍ، كان دافيد وكارول يسيران من مكتب دافيد إلى نادي الكومنولث الواقع في شارع ماركت ستريت. كان هناك مسافة عشر بنايات على الأقل، من هذا الشارع، مقفلة أمام عبور السيارات. كما كان الشارع محاطاً بالحواجز، ورجال البوليس، وأفراد الشرطة السرية الذين يمكن تمييزهم من نظّاراتهم الشمسية السوداء التي تجعل أعينهم تراقِب ولا تراقَب.

تجمهر المتظاهرون العرب واليهود على حدٍّ سواء، خلف الحواجز، وكان القاسم المشترك الوحيد الذي يجمع بينهم جميعاً: كراهيةٌ واحدةٌ لعاموس بن آرون.

"إجراءاتٌ أمنيةٌ كثيفةٌ حقاً،" لاحظَت كارول في نغمةٍ قلِقة.

"إنهم يحتاجون لذلك." أومأ دافيد مؤكِّداً. "فلو أظهروا أدنى تراخٍ في الأمر، لقرَّر أشرار العالمِ قاطبةً أنَّ هذا هو اليوم الخاطيء لدخول التاريخ." أشار بيده إلى سطوح المباني المؤلَّفة من أربعة طوابق. "لا بدَّ أنَّ ثمة رماةٌ ماهرون فوق تلك السطوح، ورجال أمنٍ في جوانب قاعة المحاضرات. إذ لا يَسعُ الولايات المتحدة الأميركية أن تخسر بن آرون فيما هو تحت أنظارها."

"من المحزن أن يكون المرء خائفاً إلى هذه الدرجة،" علَّقت كارول. "لكن هذه الإجراءات ليست في الواقع شيئاً مقارَنة بما هي عليه الحال في إسرائيل. فمنذ أن ابتدأت التفجيرات هناك، صار من الممكن أن يتعرض المرء للتفتيش حتى في الأسواق."

ملاحظتها تلك، إضافة إلى منظر المتظاهرين، جاءا تذكرة بالحقد السامِّ الذي يجعل تحقيق السلام أمراً مستصعَب التصوُّر. لكن دافيد شعر بارتفاعٍ في معنوياته أكثر مما كان عليه حاله في أي وقت منذ أن تلقّى مكالمة هناء. كان النهار نهاراً ربيعياً صافياً. وبالنسبة لدافيد شكَّل هذا الطقس الجميل فألاً حسناً بابتداء فصلٍ جديدٍ من السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وعندما دخلا إلى نادي الكومنولث، أشار إلى كارول، "آمل أن يطابق ما يقوله بن آرون توقُّعَ الحاضرين، وأن يلاقي استحسانهم."

عند هذا الحد، أخذا مكانيهما في طابور المنتظرين دورهم للخضوع إلى التفتيش بواسطة أجهزة الكشف عن المعادن.

* * *

دخل إياد وإبراهيم بدراجتيهما إلى شارع ماركت ستريت، مخادِعِين سلطات البوليس المشرفة على الحواجز الأمنية، وتوقفا عند زاوية الشارع العاشر. هذا هو طريقه إلى المطار، شرح إياد، وهو الطريق المبيَّن على الخريطة. مرة جديدة تعجّب إبراهيم للمعرفة الواسعة التي يتمتع بها منظِّمو العملية، التي سمحَت لهما بالانضمام إلى فريق حراسة عدوِّهما. فلقد تمكَّنا من الدخول إلى منطقة الحماية الأمنية دون أيِّ إعاقةٍ. غير أنَّ أكثر ما جعل إبراهيم يشعر بالراحة، هو انشغال رجال البوليس بواجباتهم بشكلٍ روتيني.

لم تَغمض له عينٌ في الليلة الماضية، بينما هو يتقلَّب في فراشه تحت وطأة الألم والقلق الناتجين عن خيالات قذائف المدفعية والصاروخية التي كانت تدك أهله في جنين. أمَّا اليوم فقد وجد نفسه شديد التصميم، وإن كان يشعر بضياعٍ غريبٍ. وبوجهه المغطَّى بالخوذة والقناع البلاستيكي نظر إبراهيم إلى إياد فإذا به يبدو مثله شبيهاً بجنديٍّ صهيونيٍّ في بزَّة مكافَحة الشغب. وبين المتفرجين المحيطين بشارع ماركت ستريت، شاهد إبراهيم أيضاً متظاهرين يقومون بإدانة إسرائيل بوصفها دولة قاهرة لشعبه ومغتصبة لأرضه. بدت الطريق إلى الشهادة مفتوحةً على مصراعيها إلى درجةٍ أصابته بالذهول. وعندما مرَّ بهما أربعة من رجال الشرطة على دراجاتهم، وتمركزوا في مواضعهم بإزاء العمارة الأولى من الشارع العاشر، دمدم إياد، "تماماً مثلما وعدتنا."

تلا إبراهيم صلاةً صامتة. بعد أقلِّ من ساعة سينجحان في مهمَّتهما، ولن يعودا إلى المشي على وجه هذه الدنيا أبداً.

* * *

في غضون دقائق، عرف دافيد أنهما يصغيان إلى خطابٍ بالغ الأهمية.

فالجمع المحتشد في القاعة، المؤلَّف من خمس مئة من المستمعين، كلهم من نخبة وجوه المجتمع المدني في سان فرانسيسكو. كان الجميع يحسُّون ما أحسَّه دافيد. حتى التفكير في الترقُّب الذي قوبلَت به كلمة رئيس الوزراء، يعزِّزه هذا العدد الضَّخم من الكاميرات، وهذا الحضور الإعلامي الكثيف من كبرى وكالات الأنباء في العالم، كل ذلك، كان يشير إلى الأهمية الاستثنائية لهذه المناسبة.

"القصَّة الملحمية عن اليهود،" قال بن آرون بصوت جهوريٍّ مرسَلٍ بكلِّ أناةٍ. "التي تكرَّرت على ألسنة أنبيائنا وشعرائنا عبر القرون، كانت دائماً تدعونا لأن نطالب بأرض

إسرائيل، وأن نتعهدها بالعناية. والآن، يتكلم الفلسطينيون أيضاً عن قَدَرهم التاريخي بالمطالبة بأن هذه الأرض عائدةٌ لهم. والأجيال الجديدة لكلا الفريقين تردّد هذه المطالب على أعقاب الأجيال البائدة. فكِّروا مثلاً في القدس. لقد كان اليهود يعيشون فيها في وقتٍ لم يكن فيه الإنجيل قد كُتب بعد. كما عاش فيها المسلمون منذ فجر الإسلام. لكن غالباً ما يتجاهل كلٌّ منَّا حكاية الآخر وتاريخه..."

متى يبدأ *التاريخ بالنسبة إليكِ*؟ تذكَّر دافيد نفسه يسائل هناء. لقد بدا واضحاً أنَّ عاموس بن آرون يمهِّد إلى التسامي فوق هذا السؤال.

"هناك فئة من اليهود،" تابع بن آرون، "قد استحوذَت عليها مآسي ثلاثة آلاف سنة، حتى إنها لم تعد قادرةً على رؤية معاناة الفلسطينيين. كما أنَّ هناك فئة من الفلسطينيين أعماها عذاب ستين سنة مرَّت بحيث إنها باتت لا تستطيع أن تعترف بعذابات اليهود. ففي أيامنا هذه، يسمِّي الفلسطينيون تاريخ ولادة دولة إسرائيل: 'يوم النكبة.' وهم يُحيُونه بالوقوف دقيقة صمت، تماماً كما نفعل نحن في يوم ذكرى ضحايا المحرقة. وفي هذه الأيام يرزح الفلسطينيون تحت احتلال الجنود الإسرائيليين، بينما الإسرائيليون يخافون الموت على أيدي الانتحاريين الفلسطينيين.

"كفى." رفع بن آرون هامته مجيلاً الطَّرف في المستمعين. "فللشعب الفلسطيني أقول: إنني أعرف تاريخكم. فأنتم، مثلما نحن، قد تعرَّضتم للعذاب والموت. وأنتم، كما نحن، قد تعرضتم للتهجير وللتشرُّد. فتاريخكم هو تاريخنا. لكن أنتم، كما نحن، الضحايا. وقد دُفع بنا، بعضنا ضد البعض الآخر، في واحدةٍ من أقسى مساخرِ التاريخ..."

عندما استدار دافيد ناحية كارول، كانت عيناها تُشعَّان بالتوقُّع. "كفى،" كرَّر بن آرون من جديد. "لقد جاء الوقت كي نبني مستقبلاً لأطفالنا. فتاريخنا لا ينبغي أن يكون قدَرهم؛ ولا ينبغي أن يكون قدَرُهم المكتوب عليهم: المزيد والمزيد من القتل.."

* * *

سحب إياد هاتفه الخلوي من جيبه، وأصغى إليه بكلِّ اهتمام.

حاوَلَ إبراهيم ألَّا يتفاعل مع الحدث. لكن عندما أعاد إياد الهاتف إلى جيبه، كان خطُّ شفتي الأخير قد بات مزموماً، كما خانته تلك الثقة بالنفس التي كانت باديةً عليه. "كانت هي على الخط،" قال لإبراهيم. "لقد غيَّروا طريق هذا الصهيوني."

* * *

فقدَ دافيد الإحساس بمرور الزمن وهو يصغي. "بعد أربعين سنة من الحروب،" تابع بن آرون، "هذه هي الحقيقة التي أتمنى قولَها للفلسطينيين: إنني كشخصٍ يهودي، يؤلمني أن

أعيش في عالمٍ لا يحسُّ فيه أبناء شعبي بالأمان. أجل يؤلمني أيضاً أن أعيش في عالم تتساءل فيه الأمم الأخرى عن قِيَمنا وأخلاقنا كبشرٍ. أريد ألَّا أكون في خشيةٍ من أمري منَ الفلسطينيين الذين يفتِّشون عن المجد والشهادة عن طريق القيام بقتل اليهود. أريد ألَّا أكون في حيرةٍ من أمري عمًّا إذا كان هناك حقاً مكانٌ آمنٌ في هذه الدنيا لأحفادي..."

وهذا ما يتمناه أيضاً هارولد شور، فكَّر دافيد، وعندما التفت إلى كارول من جديد، عرف أنها لا بدَّ تفكر مثله في الشيء نفسه.

"هذا هو ما أريده وأتمناه،" قال بن آرون بصوتٍ أكثر هدوءاً. "وهذا هو ما أطلبه منكم. أطلب منكم أن تعترفوا بحقِّنا في الوجود. أطلب منكم أن تنبذوا العنف. أطلب منكم أن تساعدونا من أجل التمكُّن من مغادرةِ أراضيكم عن طريق إبعاد من هم من أمثال حماس، الذين يرغبون في قتلنا. أطلب منكم أن تقدِّموا لهؤلاء العازمين على نبذِ العنف، مثل كتيبة شهداء الأقصى، فرصةً للدخول إلى قوى الأمن لديكم، ليكونوا درعاً ضد الإرهاب."

هذه، اعتقدَ دافيد، مسألةٌ تنطوي على مجازَفةٍ ما، مع أنها بارعة جداً: فعن طريق اقتراح كتيبة شهداء الأقصى كنواةٍ لجهاز الأمن الفلسطيني، فإن بن آرون يأمل في وضعِهم في مواجهة حماس، وبذلك يكون قد زرع الفتنة بين فريقين أساسيين من المقاوِمين الفلسطينيين، مع المجازفَة في الوقت نفسه باستثارة المزيد من غضب اليمين الإسرائيلي. "إنني أسألكم العمل،" تابع بن آرون، "من أجل مجتمعٍ يؤمِّن حاجاتِ أفراده وأُناسِه بدلاً من أن يغذِّي فيهم الحقدَ والغضبَ على أيِّ شعبٍ آخر. بِناء مجتمع يكون، بكلِّ اختصارٍ، شريكاً لنا في صُنع السلام.

"وفي مقابل ذلك، فإنَّ هذا هو ما أعرضه عليكم:"

عندما صمت بن آرون برهة، شعر دافيد بأملٍ فيه يتجدَّد سريعاً.

"إنهاء حواجز التفتيش الخانقة." تابع بن آرون، "إنهاء أعمال التوقيف الاعتباطية، والإهانات المُذلَّة؛ المباشرة في محادثاتٍ لوضع حدودٍ عادلةٍ تضمَن لنا الأمان، وتضمن لكم الازدهار؛ وضعُ برنامجٍ للتعويضات على أحفاد اللاجئين الفلسطينيين؛ تفكيك المستوطنات غير القانونية؛ اتفاقٌ معكم بأن تبقى القدس مدينة مفتوحةً، وعاصمةً لكلا الشعبين؛ المساعَدة من أجل تمكينكم من بناء اقتصادٍ يضمن لأجيالكم الطالعة مستقبلاً أفضل من مجرَّدِ قبر شهيد. أمَّا آخِرُ ما أضمَنه لكم: فهو دولةٌ فلسطينية مستقلةٌ."

مرَّةً جديدةً، مرَّت نظرةُ بن آرون فوق وجوه مستمعيه. "كما أنني أقدِّم لكم هذه الحقائق،" تابع كلامه برصانةٍ. "إننا نحن كيهود نقبَل الاعتراف بمسؤوليتنا عن العنف الذي فرض على أجدادكم النزوح؛ وعن مسؤوليتنا عن المجزرة التي لا لزوم لها في صبرا وشاتيلا؛ وعن الضغط الذي يطحن الأرواح الذي فرضناه على حياتكم اليومية؛ وأننا نحن وأنتم، فلسطينيون ويهود، مسؤولون معاً عمَّا آل إليه وضعُ أطفالِنا، وعمَّا ينبغي لهم أن

يكونوا عليه مِن مآل. إنها مسؤوليتنا المشتركة أن نمنعهم من تحويل أرضنا إلى مقبرةٍ كبرى مشتركة. هذه المسؤولية تقع على عاتقنا جميعاً، يهودٌ وفلسطينيون، علينا أن نُبْدِلَ بثقافة الموت والانتحار، وعداً بالكرامة والسلام. وأنه يقع على عاتقكم أنتم الشعب الفلسطيني أن تقوموا بدوركم في نبذِ العنف الذي يمارسه المتطرفون من أمثال حماس."

في تلك اللحظة، تمنّى دافيد لو كان في وسعه أن ينظر في وجه هناء عارف قائلاً لها: بلى نستطيع أن نفعل ذلك. أو على الأقل، يستطيع أطفالنا أن يفعلوه.

"وهذا يعيدني،" تابع بن آرون. "مرة جديدة إلى الادعاءات التاريخية.

"لن يستطيع أحدٌ منّا أن يعيد النَّبشَ في الماضي. لن يستطيع أحدٌ منّا العودة بالتاريخ إلى زمان، أو مكان، مضى وتغيَّر، منذ ستين سنة. لكن بالنسبة لأولئك الذين يربطون حياتهم بالماضي أكثر منها بالمستقبل ـ وأعني بذلك الفلسطينيين الذين ولدوا في ما هو الآن إسرائيل ـ فإننا نستطيع أن نؤمِّن لهم العودة." هنا انخفض صوت رئيس الوزراء. "ليس حق العودة، بل فرصة للعودة، إذا رغبوا في ذلك، إلى المكان الذي عاشوا فيه قبل ولادة إسرائيل.."

في دهشته، حاول دافيد أن يتخيَّل مشاعر رجلٍ وامرأة لم يقابلهما قطُّ، إنهما والد هناء ووالدتها. قد تكون العودة مفجعة، لأنها تضع نهاية لحلم طويل. ومع ذلك فإن هذا الحلم قد التهم أعمارهم، وبن آرون عازمٌ على الاعتراف لهم بذلك.

"إنهم،" ختم بن آرون. "جماعة من المسنين مثلي. وأنا مثلهم أيضاً أملك حلم رجل كبير. وهو أن أجلس في ظل شجرة زيتون أراقب أحفادنا يلعبون، متحررين من أعباء التاريخ. دعوا هذا الحلم، وهو أفضل أحلامنا، يتكلم عن أفضل ما فينا جميعاً."

* * *

على الفور، أدار إياد دراجته النارية في اتجاه نادي الكومنولث، "الشارع الرابع،" قال لإبراهيم. "علينا أن نسرع."

ضاغطاً على دواسة الوقود، انطلق إياد عائداً إلى حيث كانا، متوقفاً فقط ليرمي هاتفه الخلوي في حاوية نفايات عند الزاوية. تبعه إبراهيم وهو يصلّي صلاةً مشوبةً بالذعر، كما بعصفِ دراجة إياد، وارتجاجات دراجته.

الفصل

17

خارج نادي الكومنولث توقَّف دافيد. ولأنه كان لا يزال أسيراً للحظةِ، فإنه لم يشأ العودة إلى مكتبه.

لذلك، وقف مع كارول بين الجموع، قرب زاوية تقاطع الشارع الرابع مع شارع ماركت ستريت. وقفَ يحدِّق في الحواجز التي أقامها رجال الشرطة، وفي الفراغ غير المألوف في حركة السير في الشارع نفسه، كما في الخط الطويل من سيارات الليموزين السوداء وهي تنتظر بن آرون. "أحبُّ أن أشاهده وهو يغادر،" قال لها. "لنفتش عن مكان أفضل للرؤية."

اقتادها بين الجموع إلى نقطة تقاطُع الشارعين، عند الزاوية بالذات. "عندما كنت لا أزال في مكتب النائب العام." شرحَ لها. "تعرفتُ على ضابط الشرطة المولج بتأمين خروج الشخصيات وحمايتها. وعرفتُ منه أن المسؤولين كانوا أحياناً يبدِّلون مسار الطريق المقرَّر. وإذا كانوا قلقين جداً فربما أرسلوا موكباً وهمياً كاذباً. لكن يبدو لي أنه لا يوجد من هنا سوى ثلاث طرقٍ مباشرة إلى المطار. هي: الشارع الرابع، والسادس، والعاشر، الموصلة جميعها إلى الطريق الرئيسي 101، المؤدي مباشرة إلى المطار. فلو وقفنا عند الشارع الرابع فأنا متأكدٌ من أننا لا بدَّ من أن نراه ماراً."

وجدا مكاناً خلف الحاجز، عند الزاوية. وبعينٍ خبيرةٍ أجال دافيد نظره في رجال البوليس على درَّاجاتهم النارية وهم ينتظرون على طول شارع ماركت ستريت في اتجاه الشارع العاشر. كان مدخل الشارع الرابع مغلقاً بحاجزٍ معدني. "أعتقِدُ أنهم سيسلكون الشارع العاشر."

أمسكت كارول بيده. أجال دافيد نظرة في جموع المشاهدين المصطفِّين على جانب شارع ماركت ستريت: مجموعةٌ من الشبان اليهود، يرتدون زيَّ اليرملِك، ومجموعة قليلة العدد من الطلاب العرب تحمل شعاراتٍ داعية إلى إنهاء الاحتلال؛ ومتشردٌ مُلتَحٍ له عربةٌ قذِرةٌ ونظرةٌ تائهة؛ نساء وأطفالهن ينتظرون آملين مشاهدة التاريخ؛ شابٌّ قصير الشعر

بنظّاراتٍ عاتمةٍ تدلُّ سيماؤه على أنه رجل بوليس سرِّي. وفوق سطح متجر الملابس الرياضية لمح دافيد رجلاً يحمل بندقية رماية. ثم لفت نظرَه رجلا بوليسٍ درَّاجين يسرعان في اتجاههما قادمين من الشارع العاشر.

وكأنهم في صفٍّ واحدٍ، قام فريقٌ من رجال البوليس بلباسهم الرسمي بإزالة الحاجز الذي يغلِق مدخل الشارع الرابع. وفوراً دخل الدرَّاجان إليه. توقَّفا على مبعَدة عشرات الأمتار من الحاجز المُزال بعد أن أحدثَت فراملهما صريراً وآثار عجلاتٍ في الشارع. وقفا على جانبي الشارع متقابلَين. شاهد دافيد وراءهما المزيد من رجال البوليس، ومن الحواجز المعدنية المحيطة بهذا الشارع ذي وجهة السير الواحدة، المؤدي إلى الطريق الرئيسي 101.

"هذان الدرَّاجان،" قال دافيد، "شيء ما يحدث.."

نظرت إليه كارول نظرة خوف. "هل من خطب؟"

"مجرَّد حذرٍ فقط، حسب اعتقادي."

مِن قرب نادي الكومنولث انطلق عواء أبواق دراجات البوليس. إنها الثُّلَّة التي ستواكب الموكب. خلف الشارع الرابع اندفع مزيد من رجال البوليس يغلقون مدخل شارع ماركت ستريت بالحواجز الفولاذية، مانعين الدخول إليه. هذا التساوق بين الصوت والحركة أرخى على دافيد شعوراً بجلالة اللحظة.

تقدَّم تشكيلُ الدرَّاجين الآن في اتجاههما، تبعَته ثُلَّةٌ أخرى من ستة دراجين، متبوعة بسيارات الليموزين، في تشكيلٍ لا تبعد فيه السيارة عن الأخرى أكثر من مترين اثنين.

"أيُّها سيارة بن آرون؟" تساءلت كارول.

وقَع نظر دافيد على رجلين يتربعان في مؤخرة الليموزين الرابعة وهما مسلحان ببندقيتين خفيفتين، في مواجهة الليموزين الخامسة. "هل تلاحظين هذين الجنديين من الرماة؟" قال دافيد. "أعتقد أنه موجودٌ في السيارة التي تليهما."

بشكلٍ ملتوٍ تقريباً تحوَّل الدرَّاجون في انتظامٍ إلى الشارع الرابع مارِّين تحت أنظارهما.

* * *

شاهد إبراهيم رجال البوليس ينزلقون من أمامه محدِّدين له اللحظات الأخيرة في حياته. وفي الجهة المقابلة من الشارع، تحدَّب إياد على دراجته مستعداً لإعطاء إشارة الانطلاق. "أنا أنطلق أولاً،" كان قد أعطى تعليماته. "تعُدُّ إلى الثلاثة ثم تنطلق في عقبي. فحتى لو أطلقوا النار عليَّ: تفجِّره أنت إلى جهنم مباشرة."

بفكين مطبَقين تمتم إبراهيم باسم الله وباسم فلسطين كنوعٍ من الصلاة.

* * *

انعطفت الليموزين الأولى وراء الزاوية. حدّقت كارول عبثاً في زجاجها الداكن مدمدمة، "أعتقد أننا لن نستطيع رؤيته."

ومرَّت الليموزين الثانية ببطء، ثم تلتها الثالثة. هاتان السيارتان من ذوات الزجاج المدخَّن لا بد أنهما تحويان، بحسب خبرة دافيد، بعض المساعدين، ورجال الشرطة السرية، إضافة إلى أعضاءٍ من فريق الحراسة الشخصية المرافق لبِن آرون. كان الراميان في مؤخرة السيارة الرابعة يفحصان بنظرهما كلاً من جانبي شارع ماركت ستريت.

"ها هو آتٍ على ما أعتقد."

عندما استدارت الليموزين التالية نحو الشارع الرابع، انهمك الراميان في التشبُّث بوضعهما، فيما انضمَّ دراجان كانا في الانتظار إلى الموكبِ. ركّز دافيد نظره على الليموزين التي تنعطف حول الزاوية.

كانت نوافذها غير مدخَّنة. اتكأ دافيد على الحاجز المعدني وحدّق في المقعد الخلفي فرأى رئيس الوزراء يرفع يده في نصف تحيةٍ ونصف تفضُّلٍ، في اللحظة القصيرة لمرور سيارته.

وكما لاحظت كارول ودافيد، فقد أبطأ الدرَّاجان في سيرهما إلى أن دخلت سيارة رئيس الوزراء بينهما.

* * *

إلى يمينه، لمح إبراهيم السائق ينظر إليه بدهشة. لكن الراميين في السيارة أمامهما بقيا يراقبان الجموع ترقُّباً لأية إشارة خطر. وبقلبٍ هاربٍ كان إبراهيم ينتظر إشارة إياد.

اقترب إياد كثيراً من الليموزين مبطئاً حتى صار في محاذاة شبَّاكها الخلفي. "أرجوك،" استرحَمه إبراهيم. "دعِ الأمر يحدث."

لكن إياد لم يكن قد أعطاه بعدُ أية إشارة. ومن المقعد الخلفي كان وجه بن آرون النِّسريُّ المعقوف يحدِّق إليه في العينين.

صدمةٌ سرَت في جسد إبراهيم كسلكٍ كهربائي. وفي ردَّة عكسية حملتِ التصميم والهلع، ضغط على مفتاح التفجير الذي سينهي حياته وحياة عدوِّه معاً.

وعندما لم يحدث أيُّ شيء، انقلب خوف إبراهيم إلى ذهول. في هذه اللحظة انحرف إياد في اتجاه الليموزين.

* * *

استدام عدم تصديق دافيد لجزءٍ من الثانية، الوقت الذي استلزمه انطلاق الرصاصة مخترقة جمجمة القاتل ناثرة قطرات الدم، وأجزاء الدماغ، في الهواء. ثم دوَّى انفجار هزَّ الرصيف تحت أقدامهما، وألقى بحطامِ الشبابيك خلفهما.

وتحولَت سيارة بن آرون إلى كتلة من اللهب، مبعثِرةً قِطع الزجاج، والمعدن، وأشلاء الأجساد، حولها في حركة بطيئة. ملأت صرخة كارول أذني دافيد الذي جذبها نحوه. مترنِّحاً تحت عصفِ الانفجار. كانت كاميرا عينيه تسجِّل مشاهد يعجز عقلُه عن فهمِها. كانت الصورة بمجملها فسيفساء من الرعب: ذراعٌ مقطوعة، وهيكل السيارة المنكوبة يذوب ويتقلص إلى مقبرة خرافية الشكل، وجسدُ أحد المهاجمين يطير ليتكوَّم في مِسرب الماء كأنه دميةٌ كبيرة بالية. كلُّ ما أيقنه دافيد: أنَّ بن آرون قد مات، وأن حلمه قد تمزق مثلما تمزق جسده.

* * *

بشعورٍ غائم ثقيلٍ، أحسَّ إبراهيم أن ثيابه الممزقة منقوعة بالدم، فيما طارت الخوذة عن رأسه الذي بات لاصقاً بإسمنت المِسرَب الذي كشَط وجهه.

هل هو حيٌّ أم ميت؟ إنه يجب أن يكون ميتاً.. لكنه لم يفهم شيئاً مما حدث له.

كلُّ ما سمعه من حوله من أصوات كان كناية عن العويل والولولة والندب والتقزُّز. لفَّته ظلمةٌ غامرةٌ قاهرة، فيما اختنقَت في حلقومه غصَّةُ بكاءٍ فيها رثاثةٌ وألم.

الفصل

18

عند الساعة الخامسة مساء، عاد دافيد وكارول في آخر الأمر إلى شقتها.

لقد أمضيا الساعات الماضية التي تلت التفجير كسجناء غير متطوعين يجيبان على أسئلة ضابطين من رجال الشرطة السرية الفدرالية. بينما كان رجال البوليس، وسواهم من الأمنيين، يضربون نطاقاً محكماً حول ساحة الحدث مانعين الدخول إليها، وملتقطين من بين الأنقاض قطعاً بشرية متفحِّمة. تبيَّن أن عدد قتلى الانفجار بلغ ثلاثة ضحايا عدا عن بن آرون نفسه. اثنان منهم كانا في داخل سيارته. أمَّا ثالثهما فقد كان قاتِلُهم الذي اضمحلَّت جثته بكل بساطة. أمَّا القاتل الثاني: فقد نجا من الموت، على الأقل حتى الآن، فوضَعَه رجال الإسعاف على حمَّالة، ونقلوه على جناح السرعة إلى أحد المستشفيات في سيارتهم التي لم تنقطع صفارتها عن الزعيق.

مخدَّر الذهن، حاول دافيد أن يهدِّىء من روع كارول، التي لم تقلْ عدا عن أجوبتها المتعثرة إلى رجال التحري، سوى القليل. ثم جلس معها على الأريكة. الأريكة نفسها التي جلس عليها بالأمس هارولد شور منتقصاً من قيمة أمل رجلٍ ميتٍ في حلول السلام.

ما من شيء كان يدعو لعودة المنطق إلى نصابه، فلا الهدوء اللَّاأرضي لشقة كارول في الطابق الروف كان قادراً على ذلك، ولا أشعة شمس نهارٍ شديد النقاء عند الأصيل كانت قادرة على ذلك ايضاً. فرجعُ صوت بن آرون في الغرفة المجاورة الكبيرة كان يكاد لا يزال حاضراً. شَعَر دافيد وكأنه معلَّقٌ بين الحقيقة وبين بقايا كابوسٍ مرعبٍ مشوَّش.

بدت كارول كأنها كبرت خمس سنواتٍ دفعة واحدة. "كنت أفكر في آن فرانك،" قالت متعَبَة. "إن ما كتَبَته في مفكرتها: رغم كل شيء ما زلت أعتقد أن الناس هم حقَّاً طيِّبون في أعماقهم. رغم كلِّ ما حدث لوالدي خلال المحرقة ـ له ولسواه ـ كنتُ أحاول أن أعتقد اعتقادها. أمَّا الآن فلا أستطيع ذلك."

عندما رنَّ جرس الهاتف، كان دافيد هو مَن قام بالإجابة. "هل كلاكما بخير؟" كان سؤال هارولد.

"نعم، بقدر ما نستطيع أن نكون."

"أعرف، أعرف،" نغمة هارولد الحزينة كانت تُفصِح عن تعبٍ لا يُحتمَل. "يبدو أن المسلسل لن ينتهي ـ تاريخنا تاريخ مَصارِع اليهود. مَن هم الجناة يا دافيد؟"

"لست أدري، لكن الرجل الذي جرى إخلاؤه يبدو عربياً."

"هؤلاء العرب،" كرَّر هارولد بهدوء. "هذا الجزء من الرواية نعرفه. وصلت العبوات الانتحارية الناسفة إلى أميركا، لتقتل هذه المرة يهودياً آمن بأنه قادر على إحلال السلام مع العرب."

مع أن دافيد كان يشعر أنه يحترق من الداخل بسبب ما رآه، فإن الاستكانة المريرة الآتية من جراح هارولد كانت تدلُّ أن تلك الجراح قد عولجت بالكيِّ لكن دون أن تلتئم. "أرجوك أن تأتي إلينا،" قال له دافيد. "فلعله من الأفضل لنا أن نكون مجتمِعين معاً."

* * *

راقبَ الثلاثة شاشة التلفاز بصمت.

تخيَّل دافيد الأثر المدوِّي للحادث تتردَّد أصداؤه في جميع أرجاء العالم. فموجات صدمة الانفجار الذي شهده ما زالت تتسع حلقاتها. ففي واشنطن عبَّر رئيس أميركا عن شعور بلاده بالعار والغضب والتصميم، متعهداً "أن أميركا عازمة على اكتشاف المسؤولين عن هذا العمل الشرير ومعاقبتهم مهما طال الزمن." ورئيس السلطة الفلسطينية أحمد فاراس، وهو يبدو في موقفٍ من الحرج والدفاع أدان "الجريمة الشائنة التي أودت بحياة هذا الرجل الساعي للسلام." أمَّا رئيس دولة إسرائيل: فقد انضمَّ إلى جموع اليهود المصلية عند الجدار الغربي؛ فيما تجمّع بشكل عفوي في تل أبيب أربعمئة ألف شخص. أمَّا عبر أميركا فقد تجمعت جموع المعزين خارج قنصليات إسرائيل. وعلى محطة سي.أن.أن. استعاد المعلِّقون ورجال السياسة حادثة مصرع الرئيس جون ف. كندي، كما عبَّروا عن هلع أميركا من حادثة التفجير الانتحاري الأولى التي تحدُث هنا لأول مرة، وعن مدى فتكِ هذا الأسلوب، الذي لا يمكن التنبؤ به، في الأرواح، وعن الرعب الذي تحدثه، وعن استذكاره لجريمة الحادي عشر من أيلول. أمَّا الغموض الذي يحيط بشخصية القتلة فلم يكن له سوى أن يعمِّق إحساس دافيد باضطراب العالم بأسره. إن التاريخ قد تغيَّر إلى الأبد.

"هل تعتقد أنهم كانوا يعرفون الطريق الذي سيسلكه الموكب؟" سأل هارولد.

"هكذا يبدو. والأكثر من ذلك، إني أعتقد أنهم عرفوا عن تبدُّل وجهة السير."

"وماذا يعني ذلك؟"

"يعني أن أحداً قد أخبرهم إمَّا بالخطأ وإمَّا بالقصد." رشف دافيد كأسه، شاعراً

بالأثر المهدِّىء الدافىء للشراب. "بطريقةٍ ما، تمكنوا من الحصول على بزّات رسمية، ودرّاجات نارية، ومتفجرات. كما أنهم تمكنوا من أن يندسُّوا بسهولة بين رجال البوليس، وتمكنوا من اختراق خطة سير بن آرون. كائناً مَن كان المخطِّط، فإنه أكثر من أن يكون محظوظاً فحسب. لقد كان القتلة محنَّكين ومصمِّمين."

رنَّ هاتف كارول الخلوي. تناولته من جزدانها بدون لهفة. "بِيرت؟" قالت، تاركة دافيد في حالة من العجب عن السبب الذي يحدو بمستشاره السياسي الأول إلى طلبه في مثل هذه الساعة. "نعم،" تابعت كارول، "إنه شيء فظيع. نعم إنه هنا."

ناولتِ الهاتف إلى دافيد. وتكلَّم نيومان بسرعة كما لو أنَّ الكلام له ضريبة تُحتسب بالدقائق. "آسف لإزعاجك في منزل كارول. لكن القناة الثانية تريدك لبرنامج 'أخبار الساعة العاشرة'."

"من أجل ماذا بحق السماء؟"

"الأمر يتعلق باغتيال بن آرون. المنتِج يبحث عن شخص لديه بصيرةٌ سياسيةٌ، وخبرة قانونية، يفضَّل أن تكون في حقل الادعاء العام، وذلك من أجل تنوير الرأي العام حول حقيقة ما يحدث هنا. وأنت الشخص المثالي للقيام بذلك."

"بِيرت،" قال دافيد بلهجةٍ مؤكِّدةٍ، "لقد قابلتُ الرجل. كما أنني شهدتُ ما حدث اليوم."

"شهِدتَ ما حدث؟ تعني أنك رأيته كما لو كنتَ في موقع الحدث؟"

"بالضبط."

"هذا أفضل إذاً. فأنت الآن أربعة أشخاصٍ في شخصٍ واحد: فأنت من معارف الرجل، كما أنك شاهد عيان، وسياسي، ووكيل نيابة سابق." توقف نيومان قليلاً ليتابع كلامه بنغمة أكثر رصانة. "أنا آسف يا دافيد لكنها ساعة من البثِّ المباشر على الهواء. على شخص ما، أن يملأها ـ إنها تعادل في قيمتها مئة ألف دولار، تُقدَّم إليك مجاناً. ولا يستطيع أحدٌ أن يتَّهمك بمحاولة استغلال المشاهدين ـ"

"لكن يمكنهم أن يتهمونني بسرقة القبور."

استدارت كارول لتراقبه. "أنت تستعد للترشُّح إلى الكونغرس،" أجاب نيومان. "ومقتل بن آرون حدثٌ إعلاميٌ كبير لن تشهد مثله هذه المدينة، وأنت ـ دافيد وولف ـ تستطيع أن تتكلم في جميع أبعاد الموضوع بالجدية والرصانة التي يستحقها. ثم لا تنسَ أن ربع مليون شخص على الأقل سيكونون في مشاهدتك. هل تريدهم أن يشاهدوا شخصاً أحمقَ بدلاً عنك، أم ماذا؟ أكثر من ذلك، هل تريد الوصول حقاً إلى الكونغرس؟ إذا كان رئيس الولايات المتحدة يستطيع أن يلتهم هذه المناسبة على التلفزيون فلماذا لا تنتهزها أنت؟"

هذا عملٌ سوريالي، اعتقد دافيد. نكتة ليس لها مغزى. فضلاً عن أنها تلامِس بشيء من عدم الارتياح وجهاً من وجوه طموحه الشخصي: حاجته لكي يكون مشهوراً، إنها المسافة الخالية بين عالم الحقيقة وبين العالم الاصطناعي؛ بينِ الصدق والإخلاص، وبين خدمة الذات. وعندما يصبح هو ذاته عاجزاً عن التعرُّف إلى الخطِّ الفاصل بين هذه الحقول، فإنه لا يعود يعرف حقيقة موقعه، وموطىء قدميه، ولا كيف يصنِّف نفسه. هذا ما قاله لكبير مستشاريه.

بعد أن أقفل الخط، شرح دافيد ما يريده نيومان منه. "كيف يمكن لي أن أفعل ذلك؟" تساءل.

كان هارولد يسند رأسه إلى ظهر الأريكة مغلقاً عينيه، غائباً عن الحديث. "إنَّ كلَّ ما قاله نيومان صحيح." أجابت كارول. "إذا حصل مكروه لوالدي ـ بصرف النظر عن درجة فداحته ـ ألا تجد ما تقوله إذا سألتك إحدى المحطات أن تقول شيئاً؟"

وضع دافيد كأسه جانباً. "أعطني الهاتف،" قال لها بعد شرحٍ طويل. "لكنني لن أتعرَّض لوصفِ ما شاهدته عياناً. فأنا لا أستطيع ذلك."

* * *

كانت ليلة انسلخ فيها عن ذاته.

كان استديو 'أخبار الساعة العاشرة' شديد النظافة، وغارقاً في الأنوار في آن معاً، مذكراً دافيد باستراحة مخصصة لرجال الأعمال المسافرين، لم يطِق صبراً حتى غادره. ومع أنه استلطف مقدِّمة البرنامج آمي شان، فإن حوارهما بدا وكأنه أشبه بتجربة يجري فيها الحوار من خارج الجسد، حوارٌ ذكَّره بلحظةٍ عاشها مرة بينما هو في حفلة كوكتيل، إذ وجد نفسه كالمنفصل عن العالم المحيط به، فإذا به يصغي إلى إجاباته وكأنها تصدر عن شخص آخر سواه.

"في سحابة حياتنا يا آمي، قادةٌ قليلون فقط ممَّن يمكن لنا أن نسميهم عظماء. أمثال مارتن لوثر كينغ، ونلسون مانديلا، وربما لِيش فاليسًا في بولندا. المأساة هي أنكِ في مدى عامٍ أو أكثر، صار بإمكانك إضافة اسم عاموس بن آرون إلى هذه القائمة. ونحن الآن لم يبقَ لنا سوى الأمل بألَّا يكون موته نهاية للأمل في السلام، وبداية لجولة جديدة من سفك الدماء."

وافقته آمي بإيماءة عميقة من الرأس، ذات معنى. "هذا يقودنا إلى الوجه القانوني الجنائي من وجوه هذا الحدث. فرجال الشرطة الفيدرالية لديهم شخصٌ واحدٌ رهن التحقيق. هل لك أن تشرح لنا ماذا قد يحصل لاحقاً؟"

"لنبدأ من لحظة وقوع الجريمة." هنا كان دافيد يتحدث في حقلٍ يملك فيه خبرة

أكيدة. لذلك وجد أن ردود أفعاله كوكيل نيابة سابق تندفع إلى العمل. "هذه جريمة قتلٍ ثلاثية. أكثر من ذلك: فإن قتل شخصية رسمية أجنبية، إضافة إلى قتلِ رجلي بوليس سري، هما جريمتان فيدراليتان. وهذا يعني أن سلطتي التحقيق والملاحقة تقعان تحت صلاحيات وزارة العدل الأميركية، أما محلياً: فتحتَ سلطة مكتب النائب العام. والسيدة مارني شارب هي نائبٌ عامٌ قديرة. إنني أعتقد أنها ستقوم بتوجيه التحقيق وتمثيل الادعاء بنفسها. وهي في هذه اللحظة تحت ضغط معنوي كبير، شأنها في ذلك شأن أيِّ مسؤولٍ رفيعٍ، ابتداءً من الرئيس ثم نزولاً. لأن نتيجة التحقيق يمكن لها أن تُحدِث تبدُّلاً تاريخياً في مصير مسيرة شعبين على الأقل، الشعب الإسرائيلي والشعب الفلسطيني."

"الرئيس،" علَّقت آمي شان، "خصَّص موارد هائلة."

شعر دافيد أن الكاميرا تحدِّق فيه من عمق الاستديو. "رئيس وزراءٍ إسرائيليٌّ موجودٌ تحت حمايتنا الأمنية، يُقتل على أرضٍ أميركية. هذا يعني أن مكتب التحقيقات الفيديرالي أف‌بي.آي. والشرطة السرية، ووكالة الاستخبارات المركزية السِّي.آي.إيه. سوف يعملون بالتعاون مع جهاز المخابرات الإسرائيلية الخارجية، ومع جهاز الموساد، وجهاز الشين بيت ـ المعادل لجهاز الأف‌بي. آي. عندنا ـ كما سيكون عليهم أيضاً أن يعملوا بالتعاون مع الوحدة الخاصة من الشين بيت المكلفة بالأمن الخاص، والحماية الشخصية لرئيس الوزراء الإسرائيلي.

"سوف يتولى جهاز الأف‌بي.آي. قيادة العملية. وسيكون هناك غرفة عمليات مشتركة في سان فرانسيسكو، يديرها دون شك، ضباط خبراء في مكافحة العمليات الإرهابية. وسيتولى هؤلاء التحقيق مع كل رجل أمن أو ضابط بوليس سري كان له دور في حماية رئيس الوزراء بن آرون ـ"

"حتى الضباط الإسرائيليون؟"

تردَّد دافيد قبل الإجابة. "هذه مسألة دقيقة. ولأكون صريحاً: هناك احتمال وجود خروقاتٍ أمنية عندنا أو عندهم. وفي أسوأ الاحتمالات تكون تلك الخروقات مقصودة. وإذا أخذنا الواقع السياسي في إسرائيل فإن البحث في هذا الموضوع ربما قد يصبح لاهباً. لذلك فربما يرغب الإسرائيليون في التعاطي المباشر مع عناصرهم عن طريق القيام بإجراء تحقيقٍ مستقلٍ خاصٍ بهم.

"ومهما يكن من أمر، فإن التحقيق لن يقتصر على الولايات المتحدة وحدها. فقائمة الأشخاص الذين يرغبون في قتلِ عاموس بن آرون تبدأ في الشرق الأوسط. وكلنا يعرف ذلك تماماً. وهكذا، فإن وكالات الاستخبارات التابعة لكلا الدولتين، سوف تعمل محركة جميع مصادرها في المنطقة." توقف دافيد مرة جديدة. "لكن من المحتمل أن يكون أفضل مصدر للمعلومات مضطجعٌ الآن على فراش العناية في المستشفى. إنه الانتحاري الثاني."

انعقَد حاجبا شان، إيماءة منها إلى مشاهديها، مشيرة إلى شعورها بالحيرة. "وما الذي يدعو شخصاً راغباً في تفجير نفسه إلى التعاون مع رجال الأف. بي. آي؟"

"سؤال جيد، ولكن هذا يستدعي سؤالاً آخر: لمَ لا يزال هذا الرجل على قيد الحياة؟ فالمكلفون بالتفجيرات الانتحارية لا يُفترض بهم البقاء على قيد الحياة." شعر دافيد أن حقل الإبصار أمامه يتّسع، كما تخيَّل نفسه في مكان مارني شارب. "في الوقت الحاضر، إن كلَّ ما لدينا. هو أنه الشخص الوحيد الذي ربما يعلم مِن أين كانت تأتيه الأوامر. فإذا أفضى بما عنده من معلومات: فإن ذلك قد ينسف المحاكمة، كما قد ينسف الشرق الأوسط.

"فهُم يريدون أولاً معرفة الآمر المباشر. ثم عليهم أن يتابعوا السلسلة صعوداً إلى القمة. لهذا فمهما كان بإمكانهم أن يفعلوه معه ـ عدا عن التعذيب ـ فإنهم سوف يفعلونه."

"مثل ماذا؟"

"وفقاً للقانون الفيدرالي، فإن الإقدام على قتل سياسي أجنبي جريمة يعاقب عليها الفاعل بعقوبة الإعدام، وهكذا، فإنهم سوف يلوِّحون بالادعاء عليه بارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى. كما أنهم قد يهددون بتسليمه إلى إسرائيل، لكن المشكلة التكتيكية الوحيدة التي يمكن أن تعترضهم هنا هو أن إسرائيل ليس في قوانينها الجزائية عقوبة إعدام. كما أنهم يمكن أن يلجأوا حتى إلى إخافته بما يسمونه بالتخلية غير الاعتيادية، كتسليمه إلى نظام أجنبي سياسي يجيز استعمال أساليب التعذيب."

"وهل يحصل مثل ذلك عادة ؟"

"بالتأكيد ـ وخصوصاً منذ الحادي عشر من أيلول. مع أننا نحن الأميركيون لا نستسيغ التحدث عن هذه المسألة. غير أنها ستكون مجرد لعبة شطارة. وهو سيعرف أنهم غير جادين في تهديداتهم، إذ إنه لا يسعنا تسليمه إلى أيِّ نظام سياسي يجيز التعذيب، تحت سمْع العالم وبصره. الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه، هو أنه لن يستطيع النوم كما يشاء. على افتراض أنه سوف يستعيد عافيته إلى درجة تسمح بمباشرة استجوابه."

"أو أن يختار هو أن يعترف."

"صحيح، لكنه لن يستطيع أن يخفي عنا هويته ولا من أين جاء إلينا. فهذا القدر من المعلومات سوف يكون متوفراً لدينا بجهودنا الخاصة."

"ومتى نفعل ذلك؟"

هنالك طرق عديدة للاستجابة إلى هذا السؤال. فكَّر دافيد. لكن الطريقة التي اختارها كانت تطفح على سطح أعماق ماضيه الخاص. "نأمل ألَّا يكون هذا الرجل فلسطينياً،" أجاب دافيد بكلِّ بساطة.

الفصل

19

سُرَّ المنتِج في القناة الثانية لأن مقدمة البرنامج قد استضافت دافيد من جديد. وهكذا، بدأت الإطلالات التلفزيونية اليومية لدافيد تتكرر. هذه الإطلالات التي وصفها لكارول بأنها "محطات تلفزيون الصليب."

في صبيحة اليوم الثالث بعد الاغتيال، دخل دافيد إلى الغرفة الخضراء في تلفزيون القناة الثانية حيث صادف هناك وجود بتسي شابيرو، السيناتورة القديمة الأنيقة المتغطرسة الآتية من كاليفورنيا، التي كانت من خلال صداقتها القديمة مع هارولد وكارول، تعتبر الراعية السياسية لدافيد. عندما شاهدت بتسي دافيد عانقته عناقاً آلياً ملقية نحوه ابتسامة روتينية. فكسيِّدة أعمال مشغولة دائماً، اعتادت بتسي أن تعطي عن نفسها انطباع الشخص الذي قوطع عن مهامِّه الكبيرة ببعض المفاجآت غير المرغوب فيها. في ذلك اليوم كانت ترتدي زيها الذي تضعه عليها كسيناتورة، بذلة من قطعتين، مع بلوز حريري، وعقد من اللؤلؤ، وكان تركيزها ينصبُّ كما يبدو على المقابلة التالية المتوقعة معها. كانت السيناتورة بتسي شابيرو مستعدة دائماً لكل شيء وتزنُ كلماتِها بميزانٍ دقيق.

"أعتقدُ أنك موجود هنا للتحدث عن بن آرون،" قالت بتسي باقتضاب. "كن حريصاً في كلامك يا دافيد. كنت جيداً في الليلة الفائتة. لكن إثارة مسألة احتمال وجود تواطؤ إسرائيلي في الجريمة، يقوم على خرق أمني، ليس هو الكلام الذي يجب أن يسمعه منك معظم اليهود هنا. وإذا كان هذا الكلام صحيحاً، فإنه كافٍ لتمزيق المجتمع الإسرائيلي وعليك أن تُخفيه."

اندفعت المخرجة الشابة لأخبار الصباح إلى داخل الغرفة الخضراء، وقالت وهي تدير مفتاح التلفزيون، "آسفة يا حضرة السيناتورة. ثمة نبأ هام على السِّي. أنْ. أنْ."

وقفَت مارني شارب على منصة يحفُّ بها الإعلاميون والميكروفونات والكاميرات. بالنسبة إلى دافيد، كان توترها واضحاً: فمع أنها تتكلم عادة بطريقة ارتجالية، فإنها تقرأ هذه المرة تصريحها من ورقة معدَّة سلفاً. كما أن صوتها كان

ضعيفاً وفاتراً أكثر من العادة. "اعتباراً من هذا الصباح،" بدأت كلامها. "صار بإمكاننا على وجهٍ دقيقٍ أن نحدِّد هوية القاتل الذي لا يزال على قيد الحياة، قاتِل رئيس الوزراء عاموس بن آرون. إنه المدعو إبراهيم جعفر. فلسطيني الجنسية، من أبناء مدينة جنين في الضفة الغربية، وطالب في جامعة بيرزيت في رام الله..."

"تبّاً،" دمدم دافيد.

"السيد جعفر وشريكه المتآمر إياد حسن سافرا من الضفة الغربية إلى المكسيك، مستعملين جوازيهما الخاصين بهما. ومن هناك تسللا إلى الولايات المتحدة بطريقة غير مشروعة حيث استأجر السيد حسن سيارة تحت اسم مستعار. ومن هناك قدم الرجلان إلى سان فرانسيسكو." توقفت شارب برهة وكأنها تتحسَّب لوطأة عباراتها القادمة. "عدا عن التصريح بأن السيد جعفر نفسُه هو في حالة صحية جيدة، فإنه لا يسعنا أن نؤكد عنه أية معلومات في الوقت الراهن. لكن معلوماتنا الاستخباراتية تعتقد أن السيد جعفر ينتسب إلى جماعة إرهابية فلسطينية هي كتيبة شهداء الأقصى..."

نفثت شابيرو نفسَاً من شفتيها. "هذه تقلُبُ الآية. لو كان هذا القاتل ينتسب إلى حماس: لكان في الأمر من السوء ما يكفي. لكن كتائب الأقصى هي فصيلٌ متفرِّعٌ من منظمة فتح. التي هي حزب فاراس. وهو الأمل الأخير لبِن آرون لكي يكون فريقاً قابلاً للشراكة معه في صنع السلام. حتى أن فاراس كان قد اقترح أن يضع عناصر كتيبة شهداء الأقصى الكفاح المسلح جانباً وأن ينضمُّوا إلى قوى الأمن الداخلي. أمَّا هذه المعلومة فتضعه في مواجهة كتائب الأقصى وإسرائيل معاً."

عادت أنظار دافيد إلى الشاشة. "هذا،" كان محلِّلٌ على شاشة السِّي.أن.أن. يقول، "قد يعطِّل أيَّ فرصة لسلامٍ قائمٍ على المفاوضات..."

"يقول: قد؟" أشارت بتسي شابيرو بيدها بهزءٍ نحو الشاشة. "أراهن على أن رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد سوف يكون متشدِّداً. لكن لا عجب، فإن كل قائد يريد أن يبقى حياً وفي القيادة، لا بد له من قطعِ العلاقات مع فاراس، وأن يردَّ بضربات عسكرية ضد كتائب شهداء الأقصى، وأن يسرِّع عملية بناء الجدار الفاصل، وأن يحمِّل السلطة الفلسطينية مسؤولية اغتيال بن آرون. وهذا سوف يزعزع سلطة فاراس ويؤدِّي إلى تعزيز نفوذ حماس. ولو أن أحدهم صمَّم خطة لتدمير كلِ أملٍ في خطة سلام، فإنه لن يستطيع أن ينجح في خطته أكثر من ذلك."

كانت هذه الفكرة بحرفيتها هي ما وجد طريقاً مباشراً إلى ذهن دافيد.

* * *

عند الساعة الخامسة من ذلك اليوم، ومع أن أحمد فاراس بدا وكأنه يستعد لمعركة مع

إسرائيل، إلّا أنه أعلن براءته من كتيبة شهداء الأقصى. ثم قامت قاذفات القنابل الإسرائيلية بطلعات جوية فوق مخيم جنين انتهت بتدمير عدّة منازل، منها منزل قالت إسرائيل إنه كان يشكل مخبأً يأوي إليه عناصر كتائب شهداء الأقصى. ثم تبِع تلك الغارة احتجاجات فلسطينية تشير إلى وقوع خسائر بشرية عديدة في أرواح المدنيين.

وبينما كان دافيد يشاهد التلفزيون بصحبة كارول، فإنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التفكير في ما قد يشعر به كلٌ من هناء عارف وصائب خالد، تجاه هذه الأحداث، وكيف تراها ستؤثر على مستقبلهما ومستقبل ابنتهما.

لقد تغيرت حياة ملايين الفلسطينيين، هذا ما بات يخشاه. إن جيلاً جديداً، وربما أكثر من جيل، سينضمُّ إلى الأجيال السابقة التي جُعِلت أسيرة ستين سنة من الحقد. "إننا نشهد مأساة حقيقية." قال مخاطباً كارول.

"وماذا بإمكان إسرائيل أن تفعل؟" سألته ببساطة.

كانت نغمة صوتها تقول ما لم تقلْه كلماتها من بقية: 'المأساة' تنحصر في المقتلة التي كانت قد شهِدتها هي مع دافيد لا في أعمال الانتقام التي تبعَتها. بعد برهةٍ قالت كارول: "هناك احتفال للصلاة عن نفس بن آرون في القدس. وعلينا أن نسافر لحضورها يا دافيد."

أحسَّ دافيد أن هذا التعليق قد حمَل معاني عديدة. إنه لم يكن مهماً من الناحية السياسية فقط، بل إنه كان يهم كارول بصورة شخصية أيضاً لأنه يصدِّق بشكل نهائي على علاقة دافيد مع إسرائيل.

"سأفعل ما بوسعي من أجل ذلك،" أجابها ثم أسرع ليلحق بموعده في القناة الثانية.

* * *

عند وصوله إلى محطة التلفزيون فقط، عرف دافيد من ليزا شان أن إبراهيم جعفر قد نُقل من المستشفى إلى مركز اعتقال، وأنه قد أوكل محامياً للدفاع عنه، مكلَّفاً من الصندوق الفيدرالي الشعبي للدفاع.

"مصادرنا الإخبارية،" قالت له ليزا على الهواء، "تقول: إن المحامي، بيتر بوردن، قد بدأ مباحثات مع النائب العام للولايات المتحدة. ماذا يمكن أن تنطوي عليه هذه المباحثات في رأيك؟"

استوى دافيد في مقعده. "بمعنى من المعاني، يملك جعفر جميع الأوراق. فهو الوحيد الذي يمكن أن يكون عارفاً على وجه التأكيد من هم الذين قاموا باختياره للمهمة،

ومن هو الذي ساعده، وساعد زميله فيها. ومن هو الذي كان يعطيهم التوجيهات المباشرة. كما أنه ربما يعرف كيف تم اختراق أمن بن آرون، وكيف استطاع هو ورفيقه القدوم إلى مدينة غريبة والحصول على ما يحتاجان إليه لتنفيذ عملية الاغتيال."

"يبدو أن هذا يجعل منه شاهداً لا يقدَّر بثمن،" قالت شان. "إنه الحيُّ الذي عاش رغم مشيئته."

"هذا صحيح. لكن هذا الرجل قد اشترك في قتل رئيس الوزراء الإسرائيلي. وليست مارني شارب مطلقة اليدين في عقد صفقة معه. ستصيبني صدمةٌ لو عرفتُ أن صفقة محتملة معه لم تُفحص أولاً بدقّة في البيت الأبيض. إن أقصى ما يمكن أن يحلم به جعفر هو حكمٌ مؤبدٌ في سجنٍ آمنٍ، ربما مع إمكانية إطلاق سراحٍ مشروطٍ، أي فسحة ضوءٍ قصيرة بين الشيخوخة والموت، في عالمٍ يكون قد نسي فعلتَه." كانت نغمة صوت دافيد ساخرة. "إن له ملء الحرية في أن يحلمَ حسبما يشاء. فهو في نهاية الأمر، لا يزال في الثانية والعشرين من عمره.

"أمَّا في ما يختصُّ بالنيابة العامة،" تابع دافيد، "فإن الأسلوب الهجومي الذي يمكن أن تتبعه مارني شارب هو أن تقول لوكيل السيد جعفر أن موكله يملك يوماً واحداً - ويوماً واحداً فقط - لكي يكشف للحكومة ما سيقوله في المحكمة دون أن يُستعمل هذا التصريح ضده. لكن لو عقدت شارب مع محامي جعفر صفقة ما، ثم جاءت شهادة جعفر عن المؤامرة مختلفة عن أساسيات الصفقة، فإن شارب تستطيع أن تستعمل اعترافاته من أجل المطالبة بتجريمه.

"هذا ما يُطلق عليه: 'ملكة لمدة يوم واحد.' وهذه اللعبة على وجه التحديد، لها قاعدة وحيدة: قُلِ الحقيقة أو اذهب إلى الموت." توقف دافيد لحظة لإضفاء التأكيد على كلامه. "ولن يكون هناك الكثير من الثقة المتبادلة في مثل هذه الحالة. لذلك فإن محامي الدفاع الحصيف يشترط أولاً أن تكون الصفقة مصاغة بصورة كتابية. شارب سوف تكون بحاجة إلى دليل قاطع، إلى دليل يثبت أن ما يقوله جعفر هو الحقيقة. فإذا ذهبت إلى المحكمة ثم ما لبث جعفر أن غيَّر أقواله فإنه سوف يخلِّدُ ذكرها كمغفَّلة حمقاء. وحتى وإن هي أرسلته بعد ذلك إلى غرفة الإعدام، فإن ذلك لن يكون كافياً لها لاستعادة اعتبارها المعنوي."

* * *

جلس إبراهيم في الغرفة النظيفة قبالة محاميه. رجلٌ نحيف ملتح تبدو عليه ملامح معلّم مدرسة أكثر مما تبدو عليه هيئة المحامي المخيف. "إنه أمرٌ ملفِتٌ،" قال له المحامي في لقائهما الأول. "ليس لأنك قد فشلتَ في أن تموت فحسب، بل لأنك لم

تخرج سوى ببعض الجروح والحروق أيضاً. لهذا، فإن عليك الآن أن تعود إلى الاختيار من جديد."

كان إبراهيم وحيداً، معزولاً عن كل ما كان قد عرفه من قبل، محروماً من شرف الموت شهيداً. شعر أن غمامة من بخارٍ عفن من مستنقعِ التفاهة قد تنزَّلت عليه. كان يتطلع نحو سديمية ما بعدَ الحياة التي لم يستطع أن يدركها خياله. لم يدُرْ في خلده يوماً أن يجلس في صحبة الغرباء، بمن فيهم هذا الرجل الذي يتكلم معه عن التعاون من أجل تحسين موقفه بما يكفل له الإبقاء على أنفاسه بدلاً من الموت. إنه ليشعر أن روحه تتمزق وتذهبُ شعاعاً.

"إنهم لا يعرفون شيئاً." كان المحامي يقول. "افترض، فقط على سبيل الجدل، أنك كنت قد جُنِّدت في الضفة الغربية. افترِض أنك قد بدأت القصة من هناك. إن كلَّ ما تقوله لي، لا يحقُّ لي أن أخبر به أحداً دون إذن منك."

فرك إبراهيم صدغيه. فهو لم يستطع أن يجبر نفسه على الطعام. فمعدته خاوية. والجوع قد سبَّب له صداعاً نابضاً، وشعوراً بالغثيان. "أنا لم أتكلم إليها مرة ـ إياد فقط هو الذي كان يكلمها."

"كيف كانا يتواصلان؟"

"بالهواتف المحمولة. دائماً هواتف جديدة. كان يرمي القديمة منها دائماً. مرة واحدة استعار هاتفي. قال يومها إن هاتفه معطَّل."

"متى كان ذلك؟"

"أظن في اليوم السابق لقيامنا بقتل الصهيوني. وكان من بين جملة الهواتف التي تخلَّص منها."

"ما هو الرقم الذي طلبه إياد؟"

حاول إبراهيم جاهداً أن يتذكر. "في الفندق كان هناك قصاصة من الورق مكتوب عليها رقم هاتف. وقد شاهدته يعمل على حفظه غيباً."

"ماذا حصل لقصاصة الورق؟"

"لست أعلم." كان إبراهيم يسمع صوته الخاص كأنه يأتي إليه من مسافة بعيدة. "رماها أيضاً حسبما أعتقد."

ابتسم محامي إبراهيم. "أنت محظوظ،" قال له. "لقد عثروا على قصاصة من الورق في القمامة. إذا عرضوها عليك هل يمكنك أن تتعرف إليها؟"

هزَّ إبراهيم رأسه إيجاباً بكلِّ ضعف. "أعتقد ذلك."

"وهذه الأماكن التي وصفتَها: محطة الباصات، السوق العامة، الحاوية، هل تستطيع أن تميِّزها؟"

هزَّ إبراهيم رأسه نافياً. "لست أدري مواقعها. فمثلاً بالنسبة إلى المستودع ـ كل ما أعرفه، هو أنه في مكان ما، خارج الطريق الرئيسي.."

"يعتقدون أنهم قد اهتدوا إليه." ابتسم المحامي مشجِّعاً. أستاذٌ يلقِّن تلميذاً. "هل تستطيع أن تتذكر الرقم على باب الحاوية؟"

أغمض إبراهيم عينيه. كانت الخيالات تأتي إليه كالشرائح المنزلقة، البوابة.. الحارس..

"أربعة وثلاثون." قال إبراهيم. "أعتقد أنه كان أربعة وثلاثين."

"حسناً." التقط المحامي نظارتيه المؤطَّرتين بسلكٍ، ماسحاً، زجاجتيهما بمنديل. سأل إبراهيم بصوت هادىء. "ما هي درجة رغبتك في الخروج من هذا المأزق سالماً بروحك يا إبراهيم؟"

الفصل

20

فجأة أخذت إطلالات دافيد التلفزيونية تتناقص، فوزارة العدل الأميركية، وكذلك مارني شارب، التزما الصمت التام. ولم يكن ثمة تسريبات عن التحقيق، أو أية إشارة في أي اتجاه. لم يكن دافيد متأكداً كيف يمكن أن يفسر هذا التعتيم. لكن ذلك سهَّل عليه التعامل مع باقي التزاماته الضرورية، مثل ضرورة حضور حفل الصلاة لراحة بن آرون. وهكذا، قبل ثلاثة أيام من موعد سفره، كان قد وصل إلى مكتبه عند السابعة والنصف آملاً في التعويض عمًا فاته من أعمال غير منجزة.

وعندما رنَّ جرس الهاتف، قبيل الساعة الثامنة، كان متأكداً أن المتكلم لا بدّ أن يكون كارول.

"دافيد؟"

شعر للحظة بالمفاجأة ـ كان الأمر كما لو أن هناء قد اجتاحت أفكاره حتى قبل أن تشرع بمكالمته. سألها بهدوء "كيف حالك؟"

"بخير. وأنت؟ كنتُ أشاهدك على التلفزيون. كنتَ جيداً، كما أنك تبدو في حالٍ طيبة. لكنك تبدو حزيناً بالنسبة إلي."

"لقد رأيتُه يموت يا هناء، هذا جزءٌ من السبب. كما أنني أفكر في حياتنا ـ فحياتك، وحتى حياتي ـ لن تعود بعد الآن إلى حالها."

"صحيح ـ ينتابني الشعور نفسه أحياناً."

"لماذا لم تعودوا حتى الآن؟ هل هنالك من خطر؟"

ترددت هناء قليلاً. "ليس هذا هو السبب. حكومتكم تحتجز جوازات سفرنا."

"لماذا؟"

"لست أدري. لكن لديهم ما يسمونه مذكرة الشاهد الحسِّي. يريدون استجوابنا عن اغتيال بن آرون."

اعتدل دافيد في جلسته. "أنتِ وصائب؟"

"حتى منيرة ايضاً." صمتت برهة ثانية، ثم قالت بلهجة متعجِّلة: "أعرف أنه أمرٌ غريب لكنني قد أحتاج إليك."

لامسَ دافيد جبهته. "كمحام؟"

"أجل، وكصديق أيضاً، آمل ذلك."

استقرَّ من جديد في كرسيه وهو يحسُّ بحراجة مرورِ الوقت بينما تنتظر هناء جوابه. "كنا أكثر من أصدقاء، كما أتذكر. أم أن الأمر كان أقلَّ من ذلك؟"

من خلال فترة الصمت، تخيلها وهي تأخذ أنفاسها. "أنا آسفة يا دافيد، لكنني لم أكذب عليك مرة."

"كلا، إنني أعتقد أنك لم تفعلي." نظر إلى ساعته، ثم سألها: "هل سيأتي صائب معك؟"

"ليس هذه المرة. فالوضع فيه من الضغط والإجهاد ما يكفي.."

تضاءل صوتها متباعداً. وقف دافيد محدِّقاً من خلال الشبَّاك. "لستُ متأكداً من أنني أستطيع مساعدتكم. لكنكم تحتاجون إلى مساعدة شخص ما، حسبما يبدو."

"شكراً لك يا دافيد." عاد الارتياح إلى صوتها. "لم أكن أدري ماذا ستقول."

عندما أقفلَت هناء الخط، كان دافيد لا يزال رافعاً السمَّاعة.

* * *

قبل ليلتين من تخرُّجه من كلية الحقوق. حضرت هناء إلى شقته.

لم تقل شيئاً في البداية، وكأنها مأخوذة بالعواطف التي لا تستطيع التعبير عنها بالكلمات، قبَّلته بحمية وعنف وبدأت تفك أزرار قميصه وتقبله بشغف، كما لم تفعل مرة من قبل.

رفعها إليه محدِّقاً في وجهها واقتادها إلى غرفة النوم.

فجأة منعَه الخوف من أن يسألها عن سبب مجيئها غير المتوقع، ذاك اليوم بالذات. أخذَت بيده، وجذبَته إليها تحت اللحاف البارد.

مرت شفتاه على صدرها ومواضع جسدها الحساسة إلى أن تمتمت باسمه.. أرجوك يا دافيد أرجوك.

ثم تحوَّلت تمتمتها إلى بكاء وانقلب بكاؤها إلى رِعدة راجفة كان يحسُّ بها تلامس جلده. "يا الله،" قالت بصوتٍ يخنقه الألم "يا للثمن الذي أدفعه من أجلك..."

لقد اختار أن يفسِّر كل هذا: على أساس أنها قد باتت على وشك العبور فوق جسرها السيكولوجي لتأخذ قرارها أخيراً بالبقاء إلى جانبه. "سيكون كل شيء على ما يرام،" قال لها بعد فترة. "والداي سيكونان هنا غداً. تستطيعين مقابلتهما. لن يطيقا سوى أن يحبانك.. أنا أعرف.."

تحوَّلت عنه دافنة وجهها في الوسادة. ثم أعطت هزة بسيطة من رأسها قائلة "لا أستطيع."

بقيت لمدة طويلة مستلقية على وجهها وصامتة. ولم يكن لدى دافيد سوى البقاء بجانبها منتظراً.. خائفاً من ردة فعلها. حسِب، لكنه لم يتأكد، أنها تبكي.

عندما استدارت نحوه أيقن أن ظنه كان في محله، لكن صوتها كان هادئاً وصافياً. "إنني راجعة إلى لبنان كي أتزوج من صائب."

لم يستطع دافيد أن يفهم كل هذا ـ علاقتها الجنسية المجنونة معه ـ ثم كلامها الذي تنزله به كحكم الإعدام. "لن تستطيعي ذلك يا هناء. هذا غير إنساني. لقد كنتِ في السجن منذ مدة طويلة. لا يمكنك أن تخدعي نفسك بأنك حرة"

"حرة،" قالت بغضب شديد. "أنت لا تكفّ عن استعمال هذه الكلمة. ألا ترى أنني فلسطينية وأنك أميركي ويهودي. زواجي منك سيعني تنكري التام لكل ما أنا عليه. في تقاليدنا لا تتزوج الفتاة رجلاً بل تتزوج عائلته وتاريخه، والعكس صحيح عندما يتزوج الشاب فتاة عندنا.

"هنا لا يسألك أحدٌ عن أهلك. إنما في مجتمعنا يكون السؤال الأول: ابنة من أنتِ. أنا لا أستطيع استبدال أهلي وعائلتي، ولا خيانتهم. سيكون الأمر كمن يقطع طرفاً من أطرافه." صار صوتها متسارعاً "سوف أكون خائنة في أعينهم، زوجة عدوّهم، سأجعلهم يحملون عاري إلى القبر. لقد كانوا على الدوام مصدراً لحبي."

"أيُّ نوع من الحب هو هذا الحب؟" صرخ بها. "الذي ينبذ الابنة عنه؟ لمَ لا يحبونك بقدر ما يحبون أنفسهم؟"

وقفت هناء فجأة محدقة فيه بغضب. بدأت ترتدي ملابسها. ثم، ربما لأنها رأت عمق حزنه، تكلمت بصوت أكثر هدوءاً. "هذه ليست دراما مونتاغو وكابوليه، قصة الأهل العميان وأطفالهم المبصرين الواقعين في الحب. إن أهلي فلسطينيون."

"لا يمكن أن يكون هذا هو كل ما يهمكِ."

"أنت أيضاً تهمُّني." انطلق صوتها. "أحبك يا دافيد. وأعتقد أنني سأبقى أحبك على الدوام. لكن هناك أشياء كثيرة تقول لي في أعمق أجزاء روحي أنه يجب عليَّ أن أكون مع صائب. أرجوك أن تحاول أن تفهم ذلك. ليس من رجل في هذه الدنيا

يستطيع لوحده أن يشفي ألمي إذا خسرتُ أهلي، حتى ولو كان هذا الرجل هو أنت بالذات."

استدارت عنه وهي تضع عليها كنزتها. وفي فورة عواطفه وغضبه وإحباطه وعدم قدرته على تصديق ما يجري ـ شعر دافيد أن آخر ذرة من قدرته على السيطرة على نفسه تفلت منه. "تقولين أنك تحبينني،" قال لها بصوت مجروح "بل هل تعرفين ما هو الأمر الأسوأ؟ إنها الحياة الفارغة التي تندفعين نحوها."

التفتت إليه بعينين تضيئان بالامتعاض والغضب. لكن كما يبدو كأن في داخلها شيء يشبه الخوف ساعدها في كبح غضبِها "وداعاً": قالت له بصوت أجوف.

اقترب دافيد في اتجاهها. "هناء.."

أفلتت منه مندفعة إلى غرفة الجلوس، ولم يأخذ الأمر منها لحظات حتى كانت قد أغلقت وراءها باب شقته الأمامي قبل أن تختفي من حياته.

* * *

تخرَّج دافيد من كلية الحقوق وكأنه في غيبوبة، يتكلف الفرح إرضاء لأمه وأبيه اللذين قدما لرؤيته. لم يذكر قصة هناء لأحد. لم يعد يعرف أنها لا تزال موجودة في هذه الحياة. لم يكن ليتحمل فكرة أن تكون هناء تسلم نفسها لرجل آخر مثلما كانت على الدوام حيوية معه.

طار دافيد ووالداه عائدين إلى سان فرانسيسكو. وفي وقت لاحق عندما شاهد الصورة التي التقطها له والده في حفل التخرج مبتسماً عند استلامه شهادة الدبلوم لم يكن قادراً على استعادة تلك اللحظة، أو حتى على تذكُّرها.

الفصل

21

في اليوم التالي جلس دافيد قبالة آمي شان يرتشف قهوة طازجة من باقول للقهوة نُقِشت عليه عبارة "القناة الثانية". إنها واحدة من مزايا الحياة في سان فرانسيسكو، فكّر دافيد، أن تكون القهوة الجيدة متوفرة حتى في محطات التلفزيون. لكن مزاجه كان، رغم ذلك، مغتمّاً. فالخيالات والصور عن مقتل بن آرون كانت تملأ ذهنه. كما أن الأنباء الجديدة حملت المزيد من أخبار الموت. وآخرها مقتل ثلاثة إسرائيليين قرب مستوطنة باركوشبا.

"لقد فهمنا،" قالت آمي شان لدافيد "أنك ستكون حاضراً في الاحتفال بالصلاة عن راحة نفس عاموس بن آرون."

فاجأه سؤالها - لا بد أن المعلومة قد تسربت من مستشاره السياسي بيرت نيومان - "أجل،" أجابها بكل بساطة.

كان من الواضح أن شان تأمل منه التوسع في الجواب. "وكنتما صديقين."

"الأصح أن تقولي أنني كنت معجباً به." مع هذا الجواب - الذي لا بد من أن يقرأه الآخرون كنوع من ضروب التواضع - عرف دافيد بإحساس عميق بعدم الراحة أنه قد جعل نفسه يبدو أكثر أهمية بالنسبة إلى رجلٍ ميت مما كان موقعه منه بالفعل أثناء حياته.

"لنعد مرة ثانية إلى حادثة الاغتيال المأساوية،" كانت شان تتحدث بنعومة "وفقاً لمصادر داخلية في التحقيق، إن إبراهيم جعفر بدأ يقدم بعض المعلومات من خلال محاميه. لو كنت في مكان مارني شارب كيف لك أن تقرر ما إذا كان عليك أن تصدِّقه أم لا؟"

"إلى جانب الدليل القاطع المتجانس؟ يمكنها أن تطلب منه الخضوع لاختبار كشف الكذب."

"لكن نتائج هذه الاختبارات ليست مسلَّماً بها قانونياً، صحيح؟"

"صحيح إنها ليست مقبولة كدليل في المحكمة. لكنها مقامرة بالنسبة للنيابة العامة.

فإذا سمى متآمراً ما، فإن محامي هذا الأخير يمكنه الحصول على إجابات جعفر." هزّ دافيد كتفيه. "أما ما سيجعل النوم يطير من جفني مارني فهو خوفها من أنه لم يقل الحقيقة كلها حتى الآن، أو حتى أنه ما يزال يكذب. وفي هذه الحالة يكون اختبار كشف الكذب أفضل من لا شيء."

* * *

بدأ إبراهيم يذرع الغرفة الصغيرة التي بدت خانقة، وهم لا يسمحون له بالتريُّض. وبلهجة مترددة قال له محاميه. "شارب تقول إنها تريد أن تخضعك إلى اختبار بواسطة جهاز كشف الكذب."

" لست كاذباً،" قال إبراهيم بحدَّة.

راقبه المحامي بعناية. "ربما أنها تقول هذا لتختبر مدى استعدادك للخضوع لهذا الاختبار. لكنني لا أستطيع ان أعدك بأنها غير جادّة."

التفت إليه إبراهيم قائلاً، "إذاً؟"

"إذاً" أجاب المحامي ببرودة، "ما لم تكن تعتقد أنك تستطيع أن تجتاز هذا الاختبار فإنني أنصحك بشِدة بأن ترفض الخضوع له."

طوى إبراهيم ذراعيه إلى صدره. "لقد حاولت أن أقتل عدوي وأن أقتل نفسي. وأنا لستُ خائفاً من الاختبار."

* * *

كانت الغرفة التي استعملوها أكبر من الغرفة التي يقابل فيها إبراهيم محاميه. وهي تحتوي على طاولة مكسوَّة بغشاء من الصفيح وتتسع لمحاميه ولمارني شارب، ولضابط من الأف. بي. آي. ولمشغِّل آلة كشف الكذب. لم يكن إبراهيم ليستسيغ أن يجري ربطه بالأسلاك إلى ماكينة تقوم أجهزتها بقياس شرفه كإنسان، أو بالطريقة التي يقوم بها مشغِّل الآلة في طرح الأسئلة. عامداً إلى جعلها أسئلة ملحّة، وخالية من النبرات، وجاهزة إلى كشف عدم التساوق.

"هل أنت عضو في كتائب الأقصى؟" سألته الفاحصة.

"نعم. سبق وأن قلت ذلك."

"هل كنت تأخذ تعليماتك من إياد حسن؟"

"نعم."

"هل ناقشت مؤامرة قتل بن آرون مع أعضاء آخرين في كتائب الأقصى؟"

"لا. كلا، مرة ثانية"

دون إبداء أيِّ تعبير كانت مارني شارب، والفاحص، يتابعان مراقبة الورقة التي يخطُّ عليها المرسام إشارات لا يستطيع إبراهيم أن يراها. "ولم تبحث في هذه المؤامرة مع أي شخص سوى إياد؟"

"لا، قلت لكَ إنها مسألة تتعلق بسلامة العملية."

"وإياد كان يعطيك التعليمات؟"

"نعم."

"وهل كان هو يتلقى تعليمات من شخص آخر؟"

"نعم."

"هل تكلمت مع هذا الشخص؟"

"كلا،" قال إبراهيم بضيق. "انتبه إلى إجاباتي."

لم يتفاعل الفاحص مع جوابه. "هل أخبرك إياد من هو هذا الشخص؟"

شعر إبراهيم أنه يعرق. وهنا عندما مضى وقت طويل. وجد نفسه غير راغب في الإجابة.

دققت فيه مارني شارب كأنها تفحص عيِّنة في مختبر. أمَّا إبراهيم فبقي صامتاً.

"دعني أعيد عليك السؤال،" قال الرجل "هل أخبرك إياد من هو ذلك الشخص؟"

أحنى إبراهيم رأسه. "نعم،" قال في النهاية. "إنها المرأة نفسها التي جنَّدته. الأستاذة في جامعة بيرزيت."

القسم الثاني

II

المتاهة

الفصل

1

بطرقة خفيفة على باب مكتبه، عادت هناء للدخول من جديد إلى حياة دافيد بالسرعة التي كانت قد خرجت منها.

توقفَت عند عتبة الباب. حتى في ثوبها الفضفاض كانت لا تزال تبدو رشيقة القوام. ففي وقفتها ومشيتها المنتصبة المعتدّة كانت تلك الطاقة الحيوية الكامنة لا تزال جاهزة وموجودة. عيناها لا تزالان بركتين عسليتين، رغم بعض ظهورٍ لأثر السنوات عليهما. أمّا وهجهما فقد خف قليلاً. لقد ظهرت سنوات العمر على وجهها لكن بطريقة خفيَّة. فبشرتها الآن باتت أقرب إلى العظام قليلاً، وعندما ابتسمَت له، بدت العلامات الأولى لتجعدات بدأت تتكوَّن عند زاويتي عينيها. أمّا بالنسبة لدافيد، فقد كان جمالها من النوع الذي نادراً ما يجود به الزمان. وقد بدَّل فيه ما بدَّل في غفلة منه، وها هو الآن لا يدري تماماً ما قد فعلَ الزمان بها، أو ما قد صار من أمرِها.

"إذن،" قالت بظرافة ساخرة. "لقد صرتَ الآن وكيلي."

وقف لها دافيد مبتسماً. "أنتِ حرة في أن تحلمي."

"لقد سبق لي وأن قلت لك هذه العبارة ذاتها، أليس كذلك؟"

اقتربَت منه بسرعة، ووقفَت على أطراف أصابع قدميها لتطبع قبلة محتشمة على وجنته، تاركة هزة كهربائية بسيطة على بشرته. "إنك تبدو رائعاً يا دافيد حتى إنك أجمل من صورتك على التلفزيون. يبدو أن الأيام تعاملك معاملة طيبة."

ابتسم لها دافيد من جديد. "إني أهتمُّ بلياقتي البدنية،" قال لها بهدوء.

حدَّقت هناء في اتجاهه بصمت، ثم أجالت النظر في نواحي مكتبه مفتشة عما تقوله. ثم مشت في اتجاه رفِّ الكتب، وتأملت في صورة مبرَزة في داخل إطار. "هل هذه كارول؟"

"نعم،"

أمالت رأسها تتأمل الصورة. "وجهٌ جميل، أعتقِد أنه دافىء وينم عن ذكاء. إنها أكثر من مجرد فتاة يهودية لطيفة."

"الفتيات اليهوديات اللطيفات،" أجاب دافيد. "لم يكنَّ يوماً موضع شغفي."

"هذا صحيح، حسبما أتذكر، لم تكن لديك شروط إثنية."

كان في رنة صوتها شيء من التهكُّم، وطيفٌ من الاعتذار. وعندما استدارت نحوه وهي بادية الحيرة، أشار دافيد إليها بالجلوس على أريكة. "أخبريني عن زيارتك إلى الأف.بي.آي."

جلسَت على مسافةٍ قريبة منه، مقفلة كعبيها على بعضهما، رامقةً إياه برصانةٍ هادئة. "قبل أن نبدأ،" قالت له. أنا ممتنَّة لك للموافقة على مقابلتي. كما أنه يطيب لي أن أراك يا دافيد." ثم حسَّنت من وقْعِ هذا الكلام بابتسامةٍ أكثر إشراقاً. "فمنذ أسبوع تقريباً ما انفكت حياتي تحفل بالأحداث."

لم يردَّ لها دافيد ابتسامتها. "هكذا يبدو. وكيف يرى صائب زيارتك لي؟"

سوَّت هناء قماش تنورتها بكآبة بادية. "إن له موقفاً مزدوجاً من هذه الزيارة، في أفضل تقديري. لكن لا يسعه أن يكون موقفه مزدوجاً حيال نزوات الملاحقة القضائية الأميركية تحت وطأة عملية اغتيال بن آرون." أدارت هناء رأسها، ناظرة من جديد في عيني دافيد.

"لقد شاهدناك معاً على شاشة التلفزيون. ويبدو أنك تعرف جيداً كيف تسير أمور القضاء هنا. ولا يبدو أن أمامنا لائحة اختيار واسعة من المحامين المحليين الراغبين في الدفاع عنا."

"أتصور ذلك. وفي ظل النزعات السياسية التي أطلق لها صائب العنان، فإنني أعجب كيف سمحت له حكومتنا بدخول البلاد."

هزت هناء كتفيها. "ليس لصائب سجلٌ إجراميٌّ، وتصريحاته العنيفة هي كل ما في الأمر. وهي في كل حال لا ترقى مثلاً إلى التصريح أنه صديقٌ لأسامة بن لادن." حوَّلت هناء نظرها لحظة. "نحن لسنا إرهابيين يا دافيد. كما أننا لسنا بأثرياء. وليس لدينا سوى قليل من المال الذي نستطيع أن نوفره لأتعاب المحامين."

"يمكننا أن نهتم بمثل هذه الأمور لاحقاً، لكنني أعجب من هي الجهة التي موَّلت رحلتكم إلى هنا."

"لسنا أيضاً معدمين،" قالت بلهجةٍ دفاعية. "لكن رحلتنا كانت مدعومة من تحالف عريض: الفلسطينيون المناوئون للاحتلال الإسرائيلي، وممثلو اللاجئين الفلسطينيين في

لبنان، وأساتذة الجامعة، وحتى الناشطون الأوروبيون في سبيل السلام. إنهم الناس الذين يعتقدون أن حكايتنا لم تصل بعد إلى سمع الأميركيين الذين ما زالوا ينظرون إلينا إما كإرهابيين وإما كضحايا، ولكن ليس أبداً كشعب."

"إن إبراهيم جعفر،" عقَّب دافيد. "قد تسبَّب في جعل مهمة صائب عسيرة. خصوصاً وأنه طالبٌ من جامعة بيرزيت، حيث يدرِّس كلاكما. هل سبق لكِ، أو لصائب، أن تعرفتما عليه، أو على إياد حسن؟"

سرعة جواب دافيد بدت مؤذية لها. "إن وجودهما معنا في الجامعة لا يعدو أن يكون صدفة فرضتها ظروف العمل،" قالت بصوت أكثر هدوءاً. "وفي ما يختصُّ بي، فقد دقَّقْتُ في الأمر لمعرفة ما إذا كان أياً منهما يوماً قد انتظم في عداد طلابي، فلم يتبين لي أيُّ شيء من ذلك. كما أن صائب لا يستطيع أن يتذكر أنه قد سبق له وأن شاهد أياً منهما يوماً. جامعة بيرزيت تضم بضعة آلاف من الطلبة، والمرء في العادة لا يتعرف على هؤلاء جميعاً." صارت لهجتها غاضبة بهدوء. "هذا يترك منيرة ـ 12 سنة ـ لتكون المتآمرة الوحيدة بيننا."

مشى دافيد إلى مكتبه. التقط ورقة وقلماً، ثم عاد إلى مقعده على الأريكة. "من الذي اتصل بكما من عناصر الأف-بي-آي.؟"

"رجل يدعى فيكتور فاليس، كان قد أتى إلينا في الفندق. هل تعرفه؟"

"لا، لا بد أنه آتٍ من واشنطن." دوَّن دافيد اسم الرجل. "ماذا قال لكما فاليس؟"

قال إنه يحمل لنا مذكرة شاهد حسِّي من المحكمة، وبأننا غير مسموحٍ لنا بموجبها مغادرة أميركا. كما أنه أراد استجوابنا مباشرة. وعندما قلنا له إننا نرغب أولاً في استشارة محام، جرَّدنا من جوازات سفرنا، وقال إنه يريد أن يقابلنا مع ابنتنا منيرة يوم الخميس.

ثلاثة أيام من الآن، فكَّر دافيد. "هل حدَّد فاليس لكما الأسباب التي تدعوه إلى استجوابكما؟ أو الأسباب الداعية إلى احتجازكما في سان فرانسيسكو؟"

"ليس بالضبط." تراجعت هناء في مقعدها شابكة كفيها. "نحن فلسطينيون، وندرِّس في بيرزيت، ونعارض الاحتلال، وقد تبعْنا بن آرون إلى سان فرانسيسكو. أليست هذه الأشياء كلها أسباباً كافية؟"

"ربما. لكن هل لكِ أن تخبريني أكثر عن النشاط السياسي الراهن لصائب، كما عن نشاطِك أنت؟"

حدَّقت هناء في يديها. وبعد برهة قالت بهدوء: "لنبدأ من النهار الذي افترقنا فيه يا دافيد. من ذلك اليوم الذي كان يخيم فيه الفأل الحسن لمحادثات أوسلو مبشِّراً بالسلام. كان اتفاق أوسلو يعدُنا بدولة، أتتذكر ذلك؟ وبدلاً من ذلك، ضاعف الإسرائيليون منذ ذلك الوقت

عدد مستوطناتهم، وصادروا المزيد من الأراضي، وقطّعوا أوصال بلادنا مجزِّئينها إلى مجموعة من المقاطعات المعزول بعضها عن البعض الآخر بالطرق الأمنية الإسرائيلية، وبحواجز التفتيش التي يمكنها أن تجعل مسافة ثلث ساعة بالسيارة أن تستغرق ثلاث ساعات مرعبة. كما كانت الحصيلة أن ارتفعت نسبة البطالة، وهبط معدل الدخل الفردي"

"وماذا عن الانتفاضة الأولى،" قاطعها دافيد. "فكل التفجيرات الانتحارية بدأت في العام 2000"

"بعد سنوات من الاحتلال الاسرائيلي،" ردّت هناء بسرعة. "التي كانت تخلق الانتحاريين الجدد يوماً بعد يوم، وتكذّب الادعاءات الأخلاقية للصهاينة." توقفت هناء قليلاً لتكمل كلامها بهدوء. "كان صائب يجادل بأن عرفات قد بات قليل النفع. فهو جاء بمقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية إلى الضفة لكي يصبحوا عبارة عن جماعة محظوظة يصيبون الثروات من الاحتكارات، والمحسوبيات، والفساد بدلاً من بناء دولة حقيقية تخدم شعبها. لقد حكم عرفات ـ ما استطاع، أو ما شاء أن يحكم ـ من وراء جيبه الخلفي. وهكذا ساهم عرفات، كما ساهمت إسرائيل بأعمالها الإرهابية ضد المدنيين، واغتيالاتها المتواصلة للزعماء الفلسطينيين، ومواجهاتها للأطفال الذين يرمون جنودها بالحجارة، بواسطة الرصاص وقذائف الدبابات، في خلق منظمة حماس. كما خلقت إسرائيل لنفسها جماعة متعصّبة تمثّلت في جماعة الاستيطان المتطرفة. واستناداً إلى أسطورتهم الجماعية، فإن أجيالنا الطالعة لم يبقَ أمامها أيَّ خيارٍ تختاره سوى المزيد من العنف.

"سأحكي لك حكاية يا دافيد. صديقة لي كانت تسجلُ فيلماً توثيقياً عن أطفال مخيمٍ للاجئين الفلسطينيين خارج رام الله. وفي اليوم الذي رافقتُها فيه، كانت منهمكة في تصويرِ أطفال صغار كانوا قد جمعوا ما معهم من خرجيَّة لكي يركبوا بها سيارة تنقلهم إلى حاجز تفتيش إسرائيلي، حيث يمكنهم رشق جنود الحاجز بالحجارة." مستذكرة ذلك، مدَّت هناء نظرها إلى مسافة ليست ببعيدة. وقبل أن يصل الأطفال إلى الحاجز كانت الأرض هناك مكشوفة، والإسفلت يكاد يلتهب تحت أشعة الشمس. سألتُ ولداً منهم بعمر منيرة: لماذا تريد رشق هؤلاء الجنود بالحجارة؟ فكان جوابه: لأنهم يحتلون أرضنا، ويقصفون قرانا ومنازلنا وأهلنا بطائراتهم ودباباتهم، وقد قتلو عدداً كبيراً من أصدقائي." عندها فهمتُ أن هذا الولد الذي لا يكاد يفقه شيئاً عن الموت، إنما جاء قاصداً أن يموت دفاعاً عن أهله وأرضه التي اغتصبها الصهاينة منهم بغير حق، أو بخرافات عمرها ثلاثة آلاف سنة."

بدا لدافيد أن نغمة صوتها تشي بتعبِ شخصٍ رأى مثل هذه الأشياء منذ فجرِ حياته. وها هو يشهدها الآن في عيون جيلٍ جديد من الأطفال الذين كواهم الجرح نفسه. "سألتُه،" تابعت هناء. "ماذا يريد أن يكون عندما يصبح كبيراً ـ طبيباً، أو ربما عالِماً؟ نظر إليَّ نظرة من يجهل عمَّا أتحدَّث ـ فهو إذا عاش بما يكفي ليصبح بالغاً، فإنه سيقتل

الصهاينة." نظرت هناء من خلال شباك دافيد المطلّ على جسر غولدن غايت دون أن يبدو عليها أنها قد شاهدت شيئاً.

"إنني لا أؤيد العمليات الانتحارية. لكن هذا الطفل كان مأساة قيد التشكُّل والتكوُّن. فحتى إبراهيم جعفر لا بد من أن تكون له حكاية."

"لا أعتقد أنني قادر على التعاطف للحظة واحدة مع جعفر."

"ربما لا. لكنني الآن أجد نفسي أتذكر كيف كنت أنت وأنا نتكلم عن محرقة اليهود، وعن اليهود الذين يعيشون بذاكرة جماعية عن العنف. إنني أقلق على أبناء شعبي بالطريقة عينها. فأن تكون هدفاً للعنف، أمرٌ يدمِّر الروح. وإلى الآن، لم يفقه الإسرائيليون مدى السمِّ الذي يسببه احتلالهم."

"هذا السمُّ،" قاطعها دافيد. "ما هي درجة تأثيره السيء على صائب؟"

عدَّلت هناء من جلستها، مختارة كلماتها بعناية. "أثَّرت عليه بطريقة تختلف عن تأثيرها علي." قالت متابِعة بإسهاب. "أنا أيضاً مشمئزةٌ حتى الموت من إسرائيل ومن الإسرائيليين. لكنني أقبلُ الحل الذي يقضي بإقامة دولتين شرط ـ وأنا بكل إخلاص، أشك في إمكانية تحقيق ذلك ـ أن يكون اليهود راغبين في إعطائنا دولة قابلة للحياة.

"صائب ليس لديه أيّ شكٍّ في عدم رغبتهم في ذلك. فبالنسبة إليه، اليهود هم من طرد أجداده من الجليل، وهم الذين خططوا لذبح والديه، وهم الآن الذين يحتلون الأرض التي يدَّعي الإسرائيليون أنها 'موطننا'، فهم يسجنوننا بسبب أو بدون سبب. ويهينون كراماتنا على حواجز التفتيش في مشهدٍ من أطفالنا، بينما يقتلون أطفالاً سواهم من الذين يرشقونهم بالحجارة." توقفت هناء لحظة وهي تتفحص راحتي يديها، بينما أحسَّ دافيد بحزنٍ هادئ يسكنها. "إن الصهاينة تسبَّبوا بخلق التعريف الذي أعطاه صائب لنفسه، حتى بات على هذه الشاكلة التي هو عليها الآن. فهو يشعر بالعار لأنه جاء للدراسة في أميركا بدلاً من الانخراط في أعمال المقاومة في الضفة الغربية، تماماً مثلما يشعر بالعار لأنه لم يمت وهو يحاول حماية أخته بالرغم من أنه لم يكن يومها أكثر من صبي قاصر. وقد كان يسخر من نفسه أحياناً بالقول إنه الخطيب البليغ المنظِّر للصراع."

وضع دافيد أوراقه جانباً. "لا أعلم شيئاً بشأن النائب العام للولايات المتحدة يا هناء. لكنني لو كنت مكان مارني شارب وعلمتُ بما حدثتني به الآن، فلربما طلبتُ من الأف‌بي‌آي. استجواب صائب."

نظرت هناء في عيني دافيد. "إنني زوجته،" قالت ببساطة. "كما أنني عرفته منذ كنا طفلين صغيرين. ونحن الآن أبوان لطفلة. ربما كان دائماً يتمنى الموت لبن آرون في دخيلة نفسه. لكن لو كان لصائب أية علاقة باغتياله لكنت قد عرفتُ ذلك."

نظر دافيد إليها نظرة فاحصة. "عندما هاتفتِني للمرة الأولى" قال مذكراً إياها. "أخبرتِني أن صائب صار إسلامياً أكثر مما مضى. ماذا كنت تعنين بهذا الكلام."

تفكَّرت هناء بصمتٍ في هذا السؤال. أما دافيد فأخذته الأفكار إلى الظروف التي أحاطت بزواجها. "هذا شيء،" قالت. "كنت قد فكَّرتُ فيه كثيراً. وقد توصلتُ إلى الاعتقاد أن معظم ما في هذا الأمر يتعلق بمنيرة."

"بأي معنى؟"

"لست متأكدة تمام التأكد. لكن سلطة الأب المتمثلة في أن يُطاعَ وأن يحترَم من جانب أطفاله، تقع في أساسيات تربيتنا وثقافتنا. ومع ذلك، فإن الأطفال الفلسطينيين يرون آباءهم يعامَلون معاملة الماشية من جانب جنود إسرائيليين مراهقين." رفعت هناء رأسها. "في أحد الأيام تمَّ إيقافنا على حاجز تفتيش، بينما نحن في طريقنا لحضور حفل زفاف. كنا ثلاثة في السيارة. صائب ومنيرة وأنا. ثم أنزل جنديان إسرائيليان مسلحان صائب من السيارة، وجعلاه ينزع قميصه وحزامه. ثم أوقفاه تحت أشعة الشمس. كان يبدو ضعيفاً إلى جانب هذين الجنديين المدججين، في لباسهما العسكري، بالسلاح، وكانا يتبادلان من النكات ضروباً لا يعلمها سوى الله.

"ألقيتُ نظرةً إلى المقعد الخلفي. كانت منيرة تحدِّق في الجنديين بحقدٍ لا حدود له، بحيث إنني كنت سعيدة لأن لا مسدس كان في متناول يدها، تلك الفتاة في الحادية عشرة من عمرها. ومع هذا، فإنني أعتقد أنَّ أعظم ما كرِهَته: ليس الجنود الصهاينة أنفسهم، بل حيرتها وهي تشاهِد أباها وهو في موقف الضعف والهوان." نغمة هناء جاءت محمَّلة بأوزار ذكرياتٍ عصبيةٍ خضعت للتصفية مرات عديدة. "عندما عاد صائب إلى السيارة،" تابعت هناء. "حاولتُ التظاهر بأن الأشياء ما تزال في حدودٍ طبيعية. لكن أحداً منهما لم ينبس بكلمة.

"لهذا، فإني أعتقِد أن ثمة اضطراباً في علاقتهما، وصائب ينظر الآن إلى الإسلام كطريقة تساعده على استعادة دوره الصحيح كأب. كما أنه من جهة أخرى بات يعتقد أن الإسلام، وليس غيره، هو ما سيعيد إلينا كرامتنا واعتبارنا كعرب. وهذه تمثِّل مشكلة في زواجنا لأنني أقف كنموذج نسويٍّ لابنتي. صائب يريدها أن تتحجب، وهو يطلب مني أن أفعل ذلك أيضاً. إنه يمنعها من مخالطة الصبيان، ويضغط عليَّ لكي لا أخالط الرجال." أطرقت هناء لحظة. "إنه يريد أن يرتب أمر زواجها كما فعل أهلي وأهله بالنسبة إلينا."

اختار دافيد ألَّا يعلِّق على هذا الكلام. "وأنتِ؟"

"أتمنى لها مجتمعاً أكثر ميلاً إلى العلمانية، ومنزلاً أكثر علمانية أيضاً." حدقت هناء في وجهه مباشرة. "أتمنى أن تنال منيرة أرقى تعليم ممكن، ومهنة جيدة - حتى إنني أتمنى لها لو تتابع دراستها في أميركا. كما أريدها أن تتمتع بدرجة معقولة من الاستقلال."

"أكثر مما تمتعت أنت؟"

لم تختلج نظرة هناء. "ربما،" أجابت بهدوء. "هناك أشياء هي لا تزال لا تعلم شيئاً بشأنها لكي تريدها."

ماذا يمكن أن تكون هذه الأشياء؟ لم يكن هناك في لهجة هناء ما يشير إلى أنها برسم الإفصاح أو النقاش. "منيرة،" تابعت هناء، "لديها شعورها الخاص بالازدواجية تجاهي. فلعدة سنوات كنت مستشارة لمفاوضينا من أجل السلام. وكنت بحكم هذه المهمة أقضي بعض الليالي خارج المنزل. امتعضت منيرة بسبب ذلك - حتى إنها أخبرتني أكثر من مرة، أنها عندما تكبر سوف لن تبتعد عن أطفالها أبداً.

"وفي ليلةٍ، وصل الحدُّ بها إلى درجة إلقاء اللوم عليّ بسبب الاحتلال. ففي الساعة الثالثة من فجر إحدى الليالي أقدم الجنود على اقتحام البوابة الخارجية لعمارتنا السكنية في رام الله. واحتجزونا في داخل المبنى. وقاموا بتفتيش جميع المساكن، شقة تلو أخرى، روِّعت منيرة في تلك الليلة. لكن بعدما غادر الجنود صرخَت في وجهي قائلة: ما دام أنكِ مفاوضة بارعة في سبيل السلام، فلماذا لا يزال اليهود هنا؟"

تأمَّل دافيد في المسافة التي باتت تفصل بينهما، وكيف أن شخصية هناء قد أعيد تشكيلها بعد الزواج والأمومة، وبعد مرور ثلاث عشرة سنة من العمر لا يمكنه أن يدري ما حملَت معها إليها من أثر. "تريدين القول إن منيرة قد روَّعها الاحتلال، أليس هذا ما تعنينه؟"

ردَّت عليه هناء بهزة سريعة من رأسها. "بل عنيت أكثر من ذلك بكثير،" أجابته. "في بداية طفولتها، كانت تستيقظ على هدير القاذفات الإسرائيلية بينما هي تقصف البيوت التي يعيش فيها الناس الذين تطلق عليهم إسرائيل لقب الإرهابيين. ولفترة قصيرة من الزمن باتت ترطب فراشها من جديد. ومنذ أن رأت مقرَّ عرفات قد تحوَّل إلى كومةِ أنقاضٍ، صار عندها صعوبة كبيرة في الخلود إلى النوم.

"إذا استطاعت أن تكبر بدرجة كافية من التَّماسُك، فإن ثمة أمل. فالنساء يمكنهن أن يتقدَّمن في مجتمعنا. فحتى في الوقت الحاضر، يتألف مجلسنا التشريعي من عشرين بالمئة من النساء. لكن على منيرة أن تجتاز العقبات، بشكلٍ أو بآخر. كما أن عليها أن تقرِّر بنفسها أيَّ نوع من النساء تريد لنفسها أن تكون." كانت ابتسامة هناء ابتسامةً مُحبَّة، لكنها متلاشيةٌ. "إن اسم منيرة يعني الإشراق بالحياة، والإشعاع بها. كان هذا الاسم هو تعبيري عن الأمل لمولودة أنثى. أمَّا أملي لها الآن، فهو أن تسير أمور حياتها في هذا الاتجاه."

"وماذا يعني اسم هناء؟" سألها. "فلم يسبق لي أن عرفتُ."

"الهدوء والصفاء." أجابت هناء. "المقرون بالطمأنينة والاكتفاء." تركا العبارة تتلبث قليلاً في الفضاء بينهما. "إذا كان في معاني الأسماء ما يبعث على تأكُّد الناسِ من حقيقة سواهم،" أضافت بابتسامة، "فإن اسم صائب يعني: الملتصق بالحقيقة دائماً، وهو اسم جيد لزبون محتمل."

"لا شك في ذلك، لكن هذا يدعوني للتساؤل عمَّا إذا كان قد سبق لصائب، أو لك أنتِ، أن كان لكما أية علاقة بما يدعوه الإسرائيليون: بالجماعات الإرهابية. ولنبدأ من علاقتكما بكتيبة شهداء الأقصى."

غابت الابتسامة عن وجه هناء. "ليس لي بطاقة عضوية في كتائب الأقصى، ولا في حماس، ولا في الجهاد الإسلامي. كما أنني لا أسأل الآخرين عمَّا إذا كانوا يحملون مثل هذه البطاقة. لكن من المستحيل للمرء أن يدرِّس في بيرزيت دون أن يتعرف على طلبة أو زملاءٍ من المنتمين إلى كتائب الأقصى أو حماس. حتى وإن لم يكن بإمكانك التأكد منهم بالذات. وهكذا، إذا تبيَّن أن هذين الطالبين ينتميان إلى الأقصى، فإنه لن يكون في الأمر أية غرابة.

"أمَّا في ما يختص بصائب، فليس عندي أيّ سبب يدعوني للاعتقاد أنه يلعب بالنار، أو أنه يتعاطى مع الأشخاص الذين ينفِّذون أعمال عنف. لكنني أستطيع القول إنه يتعاطف جداً مع حماس. فهم يعتنقون الإسلام، ويشددون على إسلاميتهم بشكل أساسي، ليؤكدوا للناس أنهم ليسوا بفاسدين، وأنهم لن ينحرفوا عن هدفهم القاضي بتخليصنا من الإسرائيليين."

"بما فيهم إسرائيليو الداخل، في عمق دولة إسرائيل؟"

"صحيح، وهذا سببٌ آخر يدعو صائب إلى الإعجاب بحماس."

"أمَّا أنتِ فلا؟"

"لا، لستُ أنا." نظرت هناء في وجهه. "لقد تعبتُ كثيراً من هذه الأمور يا دافيد. إني لا أنكر قلَّة ثقتي في عاموس بن آرون. لكنني أعرف أن موته سوف يعني المزيد من العذاب والمذابح التي ستطال الفلسطينيين أكثر مما سوف تطال الإسرائيليين، هذا ما أعتقده. أمَّا ما هو أكثر من ذلك، فإنني أعتقد أن موته سيؤذي الفلسطينيين والإسرائيليين معاً.

"لقد سألتَني مرة أين يبدأ التاريخ. إنني أعرف أنه لم يبدأ في العام 1948، ولا في تل الزعتر، ولا في صبرا وشاتيلا. أعرف الآن أن علينا أن نتحمل وجود إسرائيل كجارة لنا. لكن لن يكون لنا أي مستقبل حقيقي دون أن نتعامل مع الماضي. في هذه النقطة كان بن آرون محقاً. ليس هناك من معنى للقول لأهلي المهجَّرين إلى لبنان بأن الضفة الغربية

هي مسقط رأسهم وموطنهم. على إسرائيل أن تعطي والديَّ حقوقهما ليستعيدا شعورهما بالكرامة، وأن تعطي ابنتي دولة مستقلة. هذا ما أتمناه وأصبو إليه. وهو أملٌ بات أكثر استحالة وضياعاً، كما تبدو الصورة الآن."

فكَّر دافيد بصمت، ما إذا كانا سيكونان مرَّة أقرب إلى ذاك اليوم من اليوم الذي كانا فيه عاشقين. "هكذا،" قالت فجأة، "أعرف أنه يحق لنا أن نرفض الكلام مع الأف.بي.آي. هل علينا أن نتكلم معهم؟"

"القرار يتوقف على أمور أخرى. يجب أن يتصل شخصٌ ما، بالنيابة عنكما أولاً بالنائب العام لمعرفة ما تريد السيدة شارب قوله، وهو قد لا يكون شيئاً كثيراً."

تردَّدَت هناء. "أعرف،" قالت أخيراً، "أن قيامك بمساعدتنا سوف لن يكون سلوكاً يجلب لك الشعبية. حتى إنني كنت قلقة بشأن المجيء إلى مكتبك لعلمي أن رجال الأف.بي.آي. يقتفون أثري."

"أعرف هذا كله، لكنني لا أقوى على ردِّك عن بابي."

ظهرت هناء وكأنها تدرسه جيداً لمحاولة فهم ما يعنيه. "إذن هل تصدقني؟" سألته برجاء. "هل ستقوم بمساعدتنا؟"

كم *أريد أن أصدقك!* جال في ذهن دافيد. وكم كنت أتمنى *لو أنك لم تأت*. فكلُّ ما لديه من غرائز ونزعات شخصية أو مهنية كانت تملؤه بالشك والبلبلة والاضطراب.

"ربما أستطيع مساعدتكم في ما يختصُّ بالأف.بي.آي." أجابها. "لا إذا ذهبت الأمور إلى طورٍ أبعد من ذلك."

استحضرت هناء ابتسامة ضعيفة. "بفضل نصحك لنا،" قالت بثقة أكبر، "ليس هناك من سبب لكي تذهب الأمور إلى أبعد من ذلك."

رأى دافيد أن ارتياحها تسبَّب في مضاعفة شكِّه وحيرته. "وهل أنت شديدة الثقة بالنسبة إلى صائب؟"

"كما قلت لك، إنه زوجي."

"هذا القدْر أعرفه جيداً. ومع هذا، فإنني أقلُّ ثقة ما إذا كان هذا يُضيء الموضوع حول صائب خالد. يبدو أنني ما زلت أتذكر خلافاتي معك حول طباعه وشخصه حتى قبل أن تختاري الزواج منه."

ألقت إليه نظرة غامضة. "أجل أتذكر يا دافيد. أنا لم أنسَ من ذلك سوى القليل."

للحظة عابرة، لم يكن قادراً على أكثر من التحديق فيها. "كنت أتعجب دائماً،" قال في النهاية. "عن السبب الذي دعاك إلى الإسراع في الزواج منه."

أطرقت هناء. "كان عليَّ أن أفعل ذلك يا دافيد، فأنت وأنا كنتما تدمرانني."

وقفت فجأة، دمدمَت بكلماتٍ وداعيةٍ قصيرة، ملامِسةً إياه على معصمه بأنامل باردة. وبعد انصرافها فقط، أيقن دافيد أن موعد استجوابها يقع في اليوم التالي لاحتفال الصلاة عن روح بن آرون.

* * *

باتت وساوِسُ دافيد، القوية أصلاً، أكثر غزارة بعد جواب مارني شارب، "هل حقاً تضحي بوظيفتك الجديدة كمعلّق تلفزيوني،" قالت له عبر خط الهاتف، "مِن أجل مساعدة هؤلاء الفلسطينيين؟"

"هناء عارف صديقة لي."جَهِد دافيد لكي يعطي رنة صوته معنى الحقيقة الواقعية. "منذ أيام الدراسة في كلية الحقوق. هذا التزامٌ يحدث لمرة واحدة واستثنائية. رجال الأف-بي-آي. يقيدون سفرها مع زوجها وابنتهما، كشهودٍ حسيين. ولقد أتت إليَّ تطلب مشورتي. وقبل أن أتأكد، أو حتى أن أعرف، ما إذا كنت قادراً على مساعدتهم معاً، فإنني أجِد نفسي في حاجة لكي أعرف طبيعة اهتمامك بهم."

أمهلَت شارب نفسها قليلاً قبل أن تبادر إلى الجواب. "نحن مهتمون بأشياء كثيرة،" قالت بجفاف. "نريد أن نعرف ماذا فعلوا هنا، وإلى أين ذهبوا، ومع من التقوا، ومع من تكلموا على الهاتف، وماذا يعرفون عن إبراهيم جعفر وعن إياد حسن."

"وماذا يقول جعفر؟"

تجاهلَت شارب هذا السؤال. "وهكذا، إذا شئتَ أن تعرف عن هذا الزوج، وعن زوجته، فإنهما بلا شك شخصان مثيران للاهتمام. أمَّا في ما يختصُّ بمنيرة خالد، فهي ابنة شخصين مثيرين لاهتمامنا. وهذا يجعلها مثيرة لاهتمامنا بدورها. كما أنني لست مستعدة لكي أقول أكثر مما قلت،" أنهت شارب كلامها بتأدُّب. "حتى هذه اللحظة لم أنظر إليك مرة على أساس أنك غبي. أما أن تكون مثل هذه المرأة موضع هذا الاهتمام الكبير من شخصٍ طموحٍ مثلك: فهو أمرٌ لا أستطيع إدراكه."

بهذا أغلقت شارب الخط تاركة دافيد في حيرةٍ من أمره حول ما قد تكون قد احتفظت به ولم تقله.

الفصل

2

تعبير وجه كارول، الذي تجلَّى في نظرتها المستقيمة، وشفتيها المزمومتين قليلاً، فضحت ما تبذله من جهد لكي تضبط نفسها عن مباشرة جدال حاد. " لا أستطيع أن أفهم شيئاً من هذا،" قالت بلهجة قاطعة. "أبداً."

كانا يجلسان في شقتها، دافيد في سترته السوداء، وكارول في ثوب مسائي أسود، مستعدين لحضور الليلة الافتتاحية في دار الأوبرا، لإخراجٍ حديثٍ لمسرحية دون كارلو. ورغم أنهما كانا قد تأخرا بعض الشيء، إلا أن كارول كانت تشعر أن هذا البحث لا يمكن تأجيله. "لقد كانا صديقين لي،" حاول دافيد إقناعها مرة جديدة.

"بل هي التي كانت صديقتك،" صحَّحت كارول عبارته. "صديقتك التي لم ترَها، ولم تفكر بأمرها، على حدٍّ علمي لمدة ثلاث عشرة سنة. فإذا بها تصبح فجأة، أهمُّ في نظرك من بن آرون."

"بن آرون صار الآن في عداد الأموات،" قال لها بدون تحفظ.

"حصل ذلك على يد الفلسطينيين، وهي فلسطينية." توقفت كارول برهة لتكمل، "بين جميع القضايا، ما الذي يدعوك إلى التعاطي مع قضية على هذا القدر من الإزعاج لأكثرية الناس؟ ابتداءً من حلقتنا اليهودية والعائلية؟"

«إنهما أستاذان في الجامعة يا كارول، كما أن لهما طفلة في الثانية عشرة من عمرها. قد لا يكون ذنبهم سوى الوقوع تحت شبكة صيد مارني شارب الواسعة جداً. فكل الجهات الآن، ابتداءً من الصحافة، مروراً بوزارة العدل، وحتى البيت الأبيض نفسه، مستميتة لكي تعرف من هي الجهة التي خطَّطت لهذا الاغتيال." أفرد دافيد يديه. "فمكتب الأف‌بي‌آي. يريد أن يستجوبهم، هذا كلُّ ما في الأمر. والوالدان لا يملكان الكثير من المال، ويريدان العودة مع ابنتهما إلى بلادهم، وهما قلقان لمجرَّد كونهما فلسطينيان في أعقاب حادثة الحادي عشر من أيلول وما كوَّنت من ميلٍ عند الأميركيين للثأر لتلك الحادثة التي تذكِّرهم بها الآن حادثة اغتيال رجل دولة إسرائيلي في مدينة صادف وجود هؤلاء الفلسطينيِّين فيها."

"لم يكن وجودهم هنا مجرَّد مصادفة. فلقد شاهدتُ صائب خالد على شاشة التلفزيون، هل تتذكر؟" ثم أمسكت نفسها، وخفَّفت من لهجتها. "من بيننا نحن الاثنين، يبدو أنكَ أنت الوحيد الذي يتصرَّف بغرابة. بل إن هذه هي المرة الأولى التي تجعلني أعتقد فيها أنك شخص ساذج. كيف يمكنك أن تلغي حضورك لحفل الصلاة التذكاري هذا، بصفتك خطيبي، وبصفتك رجلاً طامحاً إلى دخول المعترك السياسي، وبصفتك إنساناً تعرَّف إلى بن آرون وأُعجب به؟ إنك تضحّي بكل ذلك فقط من أجل عربيين يحتقرانه."

وبينما كان يرقبها، انتابه شعورٌ بالجدل والتناقض يجري بين عقله وقلبه. فهناء عارف وكارول شور يسكنان في داخله في مكانين مختلفين. فالأولى تمثِّل ذاكرته اللافحة المحرقة، والثانية تشكِّل مستقبله المخطَّط له. والآن، وخلال ساعات، كان الماضي والمستقبل يتصادمان في داخله إلى درجة تكاد تهدد قدرته على التوازن النفسي. "إن ما قلتِه مهم،" قال دافيد محاولاً مسايرتها. "وأنتِ أيضاً مهمة بالنسبة لي. لكنني المحامي الوحيد الذي تعرفه هناء في سان فرانسيسكو. كما أنني أعرف أن هناء عارف لا تكره جميع اليهود."

نظرت إليه كارول نظرة ارتباك. "وقد عرفتَ عنها كل ذلك لمجرَّد معرفتك بها في معهد الحقوق."

شعر دافيد بوخزة ضمير. "هل في الأمر غرابة؟ انظري إلينا الآن. فكل بضعة أشهر نلتقي صديقين من أصدقائنا إلى الغداء، ويدور بيننا حوار رباعي، يقول خلاله كلٌّ منّا كلَّ ما عنده، وما يراه، على مسامع الثلاثة الباقين. وفي معهد الحقوق يكون لدينا بعض فسحات من الوقت."

"فسحات من الوقت من أجل ماذا يا دافيد؟" صارت نغمة كارول نفَّاذة. "لقد كنت تفضي إليَّ بكل شيء إلّا عن هناء عارف. قل لي الآن من فضلك، كيف عرفتَ هناء عارف إلى هذه الدرجة التي تدعوك الآن إلى إقحامها في حياتنا، بينما أنت تبدو واثقاً من أنه لا يمكن لها أن تكون ضالعة مع الذين اغتالوا بن آرون."

هذه هي كارول في طبعها وطبيعتها، فكَّر دافيد. دِقَّتها، وإصرارها، وإدراكها الهادئ. كنا عاشقين، ودَّ لو يستطيع أن يقول لها ذلك ولكنه عجز عن ذلك. "بين وقتٍ وآخر،" قال لها، "تقابلين شخصاً ما، من النوع الذي تستطيعين فهم شخصيته على الفور. فلقد شعرتُ بذلك في الليلة الأولى التي قابلتُك فيها."

"نحن حبيبان،" قالت محتجَّة. "ونحن عازمان على الزواج. وقد استغرق منك الأمر سنتين اثنتين قبل أن تتخذ قرارك بصوابية انطباعك الأول عني. كيف يمكنك مقارنة ذلك بواحدة عرفتها في معهد الحقوق؟"

إنه يتردّى من حفرة لأخرى، فكّر دافيد، فهو يضرب على وترٍ خاطىء مرَّة تلوَ مرّة. ومع ذلك كله، فإنه فكّر أن البوح بالحقيقة يبقى أصعب وأشدّ إيلاماً من هذا النفاق الذي ينقاد إليه عن حسن نية. "ليس هناك من مجال للمقارنة،" قال لها مطمئِناً. "كل ما في الأمر، هو أنني أدعوكِ إلى الثقة في قراراتي.

"لقد أمضيتُ لتوِّي ساعتين مع هناء. إنها أمٌّ الآن، وهي مشمئزة حتى الموت من أعمال القتل. وفي تقديرها أن مصرع بن آرون سيكون كارثة على الفلسطينيين أكثر منه على اليهود. كما يبدو لي أن هناء وأفراد عائلتها قد ذهبوا ضحية للطوفان."

"حتى زوجها؟" سألته كارول.

ومع أن سؤالها كان قد شقَّ طريقه مباشرة إلى أعماق شكوكه الخاصة، فإن دافيد قد وجد فيه منصرَفاً عن الحديث عن هناء عارف. "يا كارول"، قال دافيد بلهجة ثابتة، "لو كان لديَّ أدنى سبب للاعتقاد بأن علاقة ما، تربط صائب وهناء بما شهدناه معاً في ماركت ستريت، لما كنت قد سمحت لنفسي بالاقتراب من هذه القضية. وهذا الكلام سيبقى قائماً وصحيحاً غداً، كما في أيِّ يوم يليه. ليس بسبب أن هذه القضية ستكون ديناميتاً سياسياً ينفجر في وجهي فحسب، بل لأنني لن أقوى بعدها على النوم."

ألقت نحوه نظرة فاحصة - إنها لم تقتنع تماماً، لكنها كارهة للذهاب في هذا الجدال إلى ما هو أبعد من هذا الحد. "حسناً،" قالت له بنغمة من التسليم. "ربما يوافق والدي على الذهاب معي إلى إسرائيل."

وفي صباح اليوم التالي، أوصل دافيد خطيبته ووالدها إلى المطار، وقد كانا طيلة الطريق صامتين على غير عادة.

* * *

دخل صائب خالد إلى مكتب دافيد موجِّهاً زوجته أمامه إلى الأريكة، وكان أسلوبه رعائياً، بل حتى تملكيّاً. ومع أن الزوجان جلسا أحدهما إلى جانب الآخر، إلّا أن دافيد لاحظ - بل ربما تمنى - أن تبدو هناء متباعدة عن زوجها.

كانت مصافَحةُ صائب لدافيد آلية وباردة. وحين اقترب في جلسته من هناء، كانت نظرته إلى دافيد حذرة وعابسة. ثم، ولدهشة دافيد، قال صائب بهدوء: "كان ذلك كرماً منك أن تقبل مساعدتنا. خصوصاً أنا، حيث إنك لا تكاد تعرفني."

كان في هذه الملاحظة ما يكفي من اللطف، فكّر دافيد، رغم ما ذهب إليه تفكيره من أن هذا الكلام يحمل معنىً مزدوجاً. "بعد أن ننتهي من حديثنا،" قال دافيد لصائب، "أرغب في الحديث معك على انفراد، مثلما فعلتُ مع هناء. لكي أعرف على الأقل - بأقلِّ ما أستطيع - ما إذا كان هناك من تعارض في المصالح بينك وبينها."

"تعارض مصالح؟" تساءل صائب بابتسامة غامضة. "أعتقد أنني أفهمك. لكنني أستطيع أن أقول لك من البداية إنني لا أعرف شيئاً. وبعدما تفحصتُ صورة إياد حسن، صرتُ أعتقد أنني قد أكون التقيت به ذات مرة، مع أنني لا أذكر متى ولا أين. أمَّا بالنسبة إلى إبراهيم جعفر فإني لا أعرف عنه شيئاً من قبل، سوى ما قد تحصَّل لي بعد مقتل بن آرون."

كانت استجابته خالية، على الأقل، من الرياء. ولاحظ دافيد بسرعة كيف تتقلَّب شخصية صائب. ومثلما كانت ملامحه تبدو على التلفزيون، فإن ذقن صائب جعلت خط الكفاف المحيط بوجهه يبدو أكثر صرامة، أما عيناه فقد بقيتا حسَّاستين، وأمَّا بنيته، فقد بدت أكثر تضاؤلاً، وكأنها تُفصح عن ضعف شخصٍ واقعٍ في حربٍ لا تستكين مع روحه الشرسة. "لنعُد الآن إلى ما كنتَ تقوله." أجاب دافيد. "في اللحظة الحاضرة، لا أحد يدري أنَّ شارب، والأف‌بي‌آي. يجريان في إثركم. لكنهما واقعان ساعة بعد ساعة تحت وطأة الضغوط الهائلة لساعاتٍ من البث التلفزيوني، وصُورِ غلافات المجلات، والصفحات الأولى للصحف، إضافة إلى الضغط الآتي من البيت الأبيض، ومن وزارة العدل، ومن دولة إسرائيل، ومن الجالية اليهودية في أميركا، المضافة كلها إلى الضغوط الآتية من مختلف دول العالم ـ خاصة من دول العالم العربي ـ فيما الجميع يترقب وينتظر. هذه هي معضلتهما. كما أنها معضلتكما أيضاً. لأنها تلوِّن كلَّ ما تقومون باتخاذه من قرارات."

ومع أن هناء رشقَت زوجها بنظرة قلقٍ، فإن تعبيرات صائب بقيت صعبة التكهُّن. "لقد بدأ إبراهيم جعفر بالإدلاء بأقواله،" تابع دافيد كلامه. "هذا هو كل ما نعرفه، لأن شارب تضع ستاراً حديدياً مغلقاً على سير التحقيق. لا تصريحات، ولا تسريبات محسوبة. لذلك، لا يبقى لنا سوى التخمين حول ما قد يكون جعفر قد أدلى به من أقوال، وحول تصرفات الحكومة، المبنية على هذه الأقوال.

"إن شارب تريد التحدث معكم لسببٍ ما، ونحن لا دراية عندنا عن ذلك السبب. لكن لكي تنجح شارب في مهمتها، فإنها تحتاج إلى معلومات كثيرة تتجاوز ما يدلي به إبراهيم جعفر. إنها في حاجة إلى أدلَّة تقودها إلى الشخص الذي أعطى الأوامر إلى إبراهيم، وإلى الذين تآمروا لقتلِ رئيس الوزراء." مستمراً في التحديق في وجه صائب، حافظ دافيد على عباراتٍ مشذَّبة واقعية. "لهذا سوف أكون صريحاً معكما رغم المجازفة بأن كلامي قد يبدو فظّاً وجارحاً. فإذا كان جعفر يعرف أيَّ شيءٍ مما قد يستدعي توريط أيٍّ منكما. فإن على مَن قد ينطبق عليه ذلك أن يفكِّر في ملازمة الصمت، مع الأف‌بي‌آي. على الأقلّ. وبالطبع فإن موقفاً كهذا قد يجلب عليكما المزيد من المراقبة والتحريات. أمَّا إذا كان من الثابت عندهم أنكما، أو أن أحدكما متورِّط، فإن الكذب قد يعقِّد الأمور، ويفاقِم السوء. وما مِن معنى للتعاون، ما لم تكن الحقائق مفيدة ومؤديةٌ إلى شيء ما."

تضيَّقت حدقتا صائب. "هذا كلامٌ معجِبٌ في صراحته المباشَرة."

"وماذا أيضاً؟"

"ليس لديَّ ما أخفيه عن سُلطاتكم، كما أن هناء ليس عندها أيضاً ما تخفيه."

وقَعَ الشطرُ الأخير من عبارة صائب موقعاً غامضاً في أذن دافيد. فقد يؤخذ مأخذ عبارةٍ دالَّةٍ على الثقة، كما قد يؤخذ مأخذ عبارة آمرة يوجهها صائب إلى زوجته. لم تقل هناء شيئاً في حضرة زوجها، بل إنها بدت منسحبة من واجهة الحديث. ربما مجاراة لمركَّبات شعور زوجها تجاه دافيد. "إذن، لنتكلم قليلاً عن منيرة،" اقترح دافيد.

رفع صائب يده. "ما مِن سببٍ يدعونا للكلام عن منيرة. لن أقبل بتعريض ابنتي إلى الإساءة على يد حكومتكم."

"الأمر عائدٌ إليك،" قال دافيد ليستدرك كلامه مصحِّحاً بهدوء، "وإلى هناء أيضاً، بطبيعة الحال. لكننا رغم ذلك، ما زلنا بحاجة إلى مناقشة وضعِ منيرة. لقد سبق لهم وأن سحبوا منها جواز السفر، وهذا يعني أنهم قادرون على إبقائها هنا ما بقيتما. إنَّ ما لا يستطيعون عمله، هو إجبارها على الكلام." نقل دافيد نظره من وجه هناء إلى وجه صائب. "ومهما يكنِ الأمر، فإنني أرغب شخصياً في التحدث معها."

طوى صائب ذراعيه. "إذا كانت لن تتحدث إليهم،" أجاب، "فما هي الضرورة التي تدعو إلى لقائك بها؟"

لاحظ دافيد أن هناء ترقب زوجها بحذرٍ، كمن يحاول كبتَ اعتراضه. "ليس هناك من ضرورة،" أجاب دافيد. "لكن من الأفضل أن يحصل ذلك. لقد سألتماني النصح، وها أنا ناصحٌ لكما. فلو حصل وأن كان هنالك من حاجة لمثول أحدكما أمام المحكمة، لسببٍ أو لآخر، فإن الحكومة تستطيع أن تجبرها على أداء الشهادة. هذا مع العلم أن مسألة عدم سماحنا لها بالمثول أمام الأف‌بي.آي. قد تكون لها نتائج سلبية بقدر ما لها من نتائج إيجابية.

"فالسلبيات تتبدَّى في أنها قاصرٌ في الثانية عشرة من عمرها. أمَّا الإيجابيات فتبدو في الإشارة إلى أنكما لا تملكان خوفاً من أن تكون ثمة أسرار قد تسربت من أحدكما عن قلَّة احتراز إلى مسامع ابنتكما التي سوف يقوم أشخاص بالغون باستجوابها. كما أنَّ كل سؤالٍ يطرحه مكتب الأف‌بي.آي. قد يشير إلينا حول طريقة تفكيرهم واتجاهها. وقد يتبيَّن أن منيرة تعرف بعض الأشياء التي قد تفيد أحدكما، أو كلاكما معاً." نظر دافيد ناحية هناء. "إنني أرغب أيضاً في معرفة شيء عن مبلغ نضجها."

"إن منيرة،" أكدت هناء بنظرة سريعة إلى صائب، "شديدة الذكاء، وتامة النضج. وإني لا أرى مانعاً يمنع من لقائها بك."

لحظة من الاضطراب التمعت في عيني صائب، فوضع يده على ذراع هناء. "إذا كان

لا بد لك من الاجتماع بها،" قال لدافيد، "فإن اجتماعك بها يقتضي أن يتمَّ في حضور والدها."

"بصفتك والدها،" أجاب دافيد. "قد لا يسلم الأمر من تأثيرٍ لحضورك على أقوالها. إني آمل بتحقيق شيء من الثقة والألفة معها. على الأقل لكي أرى كيف يمكن أن تتفاعل منيرة مع الغرباء في غيابكما. كما أن ذلك سيساعدني في النصح لكما حول الأف.بي.آي.، وبعد ذلك كله تستطيعون ثلاثتكما معاً أن تقرروا ما شئتم"

هزَّت هناء رأسها ببطءٍ إيجاباً. ومع أن صائب بقي صامتاً، إلَّا أنه بدا أشد امتعاضاً ممَّا سبق. فهو الآن رجل عربي في أميركا، يتعاطى مع رجلٍ آخر يمقته، في مجالٍ غادرٍ غرَّارٍ يتقنه الأخير دونه. استدار دافيد ناحية هناء. "هل جمعتما لي الأدلَّة التي سألتكِ عنها؟"

"جلبنا لك ما نملك منها،" قالت مجيبة. "الوثائق المتعلقة بالهواتف المحمولة، فواتير بطاقات الائتمان، إيصالات الفنادق، ووثائق استئجار سيارتنا السياحية. بما فيها بيان الأميال التي قطعناها، وكميات الوقود التي أحرقناها." بدت خطوط الاهتمام على جبينها. "على أني آمل ألاَّ تكون كل هذه التفاصيل ضرورية."

"هذا ما آمله أنا أيضاً. لكن إذا شاء مكتب الأف.بي.آي. أن يعيد ترتيب أحداث أيِّ نهارٍ مرَّ عليكما هنا. فإن عليَّ أن أكون قد استبقتُهم إلى ذلك."

بقي صائب صامتاً وهو يخفض رأسه كأنه يدرس السجادة. "صائب،" قال دافيد بشيء من تكلُّف الظَّرف. "لنلتقِ لبعض الوقت بدون هناء. فإن بيننا كلام لا بد من قوله على حدة."

* * *

عندما وجد صائب نفسه وحيداً مع دافيد، لم يعد يجد داعياً للمجاملات الاجتماعية. "لنقُل ما نريد قوله إذاً." قال صائب.

"لمَ لا نبتدئ، بادئ ذي بدء، بسؤالك عمَّا إذا كنت فعلاً تريدني أن أمثلكما."

هزَّ صائب كتفيه بشيء من اللامبالاة. "لقد جاءت الفكرة من هناء. لكنني متأكد أنك محامٍ أكثر من قدير." صارت لهجة صوته كاوية. "مع أنه إذا كان للبراءة من أهمية في قضيَّة اغتيال هذا الرجل، فإن أيَّ محامٍ ينبغي له أن يبلي بلاءً حسناً."

اعتدل دافيد في جلسته. "لقد كنتُ معجباً بعاموس بن آرون،" قال باقتضاب. "وأخذُ ذلك في البال، يسهِّل الأمور علينا معاً."

"لا بأس." قال صائب مفرِداً ذراعيه، إشارة منه إلى الانفتاح والصراحة. "بالنسبة

إليك كان رجلاً عظيماً. أما بالنسبة لي الآن، فهو مجرَّد رجلٍ ميت، رغم أنه ليس لي أية علاقة بموته."

"ولكن، هل لك علاقة بكتيبة شهداء الأقصى؟"

"لا، أبداً. فهم يجاهرون بالاعتقاد بحلٍّ يقوم على وجود دولتين. أمَّا أنا فلا أعتقِد اعتقادهم. إنني متعاطف مع منظمة حماس."

"بمن فيهم الانتحاريون؟"

"أجل. لأنهم رجال وجدوا أنفسهم عُزّلاً أمام أقوى جيش في المنطقة مدجّجٍ بمختلف الأسلحة الفتاكة، وهم لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم وأهلهم وأطفالهم ضدّ إرهاب إسرائيل المتواصل يومياً ضدهم. إن حكومتكم هي التي دفعت بالفلسطينيين إلى سلوك هذا الاتجاه. لأنها لا تكف عن تسليح إسرائيل بأحدث أنواع الأسلحة الفتاكة، ورعاية إرهابها، والدفاع عن جرائمها اليومية بحق شعبنا وبلادنا."

شعر دافيد أن فكيه ينقبضان. "إنني أقدِّر لك صراحتك. لكن عليك أن تتخلى عن زيادات الكلام البلاغية عندما تتكلم مع المحقق إذا شئت أن تقنعه ببراءتك. فحماستك المندفعة قد تشوِّش ذهن المحقِّق."

منح صائب دافيد ابتسامة جليدية. "هل أنت متأكد من رغبتك في تمثيلي؟"

"إنني أفعل ذلك إكراماً لهناء - كلانا يعرف ذلك جيداً. كما أنني أفعل ذلك لمصلحة طفلة في الثانية عشرة من عمرها، لم ألتقِ بها مرَّة، لكن من المفترض أن هناء تحبها. وفي الوقت الحاضر، إنني ما زلت متمسكاً بموقفي هذا."

رمقه صائب بنظرة ملغَّزة. "حسناً،" قال بعد لأي. "إنني مدينٌ لك بهذا كله. فأنا لا أعرف شيئاً عن هذين الرجلين. ولا عن الذين ساعدوهما. إني لا أعرف شيئاً."

"من الذي اقترح زيارتكما إلى هنا؟"

"كنت أنا صاحب الفكرة، ومع هذا، فإن هناء كانت راغبة في المجيء معي وفي اصطحاب ابنتنا منيرة معنا. أما هدف رعاة زيارتي فقد كان بكل بساطة، تمكيني من كشفِ مبادرة بن آرون، كمبادرةٍ زائفةٍ، مغلَّفة بالشعارات النبيلة، مثلَ مِنحتِه الكريمة القائمة على السماح للعجزة المسنين بالعودة. أما أولادهم وأحفادهم الذين ولدوا بعد تهجيرهم خلال خمسين عاماً: فلا حق لهم في أرض آبائهم وأجدادهم. وأما أحفاد اليهود الذين ولدوا بعد ألفي سنة فلهم حق وراثة أجدادي والعودة إلى خرافتهم المزعومة، موطن أسلافهم، كما يدّعون." ثم تابع قائلاً: "هل يحق لليهودي بموجب عدالتكم التي تتغنون بها ما لا يحق لغيره من أبناء البشر؟" هزَّ صائب كتفه هزَّة تنمُّ عن الشعور بالعجز والازدراء في وقت واحد. "لعلَّ كشْفَ النفاق الصهيوني هو جريمة بحدِّ ذاتها في أميركا. أمَّا عدا عن ذلك، فإنني بريء براءة مطلقة. وهذا ينطبق على هناء أيضاً."

رفع دافيد رأسه. "وأنت تعرف عن هناء لأنك..."

"لأنها في الواقع تتأسف لموت بن آرون، إن لم تكن تأسفُ عليه هو بالذات." صمت صائب قليلاً لينظر في عيني دافيد. "لقد عرفْتَها أنت في يومٍ من الأيام معرفةً جيدة، هذا ما يمرُّ في خاطري أحياناً. هل يمكنك أن تتصورها كعقلٍ مدبِّرٍ لعملية تفجيرٍ انتحارية؟ أنا لا أستطيع أن أتصوَّر ذلك."

لاقى دافيد نظرته قائلاً. "إن ما أعرفه وما أتصوره مختلفان جداً."

"إنني لا أعرف سوى ما تعرفه أنت، وربما أنني أعرف ما هو أقلُّ مما تعرفه بكثير."

ومع أن تعليق صائب جاء بلهجة غير ذات غموض، إلَّا أنها حملت بعض الصدى السَّؤولِ في طياتها. كما حملَت ذاك التلميح إلى ازدواجية المعنى. "أين كنت،" سأله دافيد، "عندما قُتل بن آرون؟"

كنت في الفندق برفقة منيرة. كنت أستمع إلى خطابه على محطة سي.أنْ.أنْ. لقد كنت أعدُّ بعض الملاحظات لأقدِّم تصريحاً صحافياً من جهتي، عندما أوقفوا بث الخطاب ليعلنوا أنه قد قتل."

"وماذا عن هناء؟"

"كانت تتسوق حسبما أخبرتني ـ لم تكن لتهتمَّ لأمر الإصغاء إليه. أمَّا أنا فقد كنت أشاهده من أجل إفحامه فقط." هنا خضَّبت لحظة من الغضب وجه صائب وصوته. "لقد أوقع بنا بن آرون بموته، في هذا البلد التعيس. وإنني متشوِّق لكي أغادره مع أفراد عائلتي."

في تلك اللحظة شعر دافيد أنه قد سمع من هذا الرجل ما فيه الكفاية. "وأنا كذلك،" أجابه بهدوء. "فلربما كان ذلك في مصلحتنا جميعاً. لكن قبل كل شيء أريد أن أقابل منيرة."

الفصل

3

في الصباح التالي، وصل دافيد إلى الشقة البسيطة التأثيث التي يقطنها صائب وعائلته في فندق يبعد ثلاث عمارات من ساحة يونيون سكوير. ولدهشته، فإنه وجد أن صائب وهناء يشاهدان على شاشة التلفزيون وقائع الاحتفال التذكاري للصلاة على روح بن آرون.

جلس دافيد لبعض الوقت يشاركهم في مشاهدة هذا النقل المتلفز، حيث كانت الصلاة تقام على جبل هيرزل. ثم تكلم رئيس الولايات المتحدة الأميركية، وبعده رئيس إسرائيل، عن خدمات بن آرون في الحرب، كما عن سعيه إلى السلام. أما بالنسبة إلى دافيد، فإن حياة هذا الرجل وموته قد اختصرا مخاوف وآمال شعب عاش دائماً بشعور من هو على حافة هاوية المأساة. أخذ دافيد ينظر في صورة الجمع بحثاً عن وجه كارول وهارولد. لكن الكاميرا اتجهت بدلاً عن ذلك إلى وجه منافس بن آرون السياسي وخليفته المنتظر الذي هو اسحاق بنجامين. ولم يكن الأخير ليتردد في المجاهرة برأيه أن هذه الصلاة تقف برهاناً على عدم جدوى التسويات. أمَّا في شقَّة الفندق فلم يتكلم أحدٌ، إذ كان كلٌّ من دافيد وصائب وهناء منشغلاً بأفكاره الخاصة، إلى أن انكسر الصمت بضجيج هادرٍ قادمٍ من مسافة بعيدة.

رُعبت هناء فنظرت ناحية دافيد مستفسرة. "إنه أسبوع الأسطول،" شرح لهما دافيد. "وهو تقليد سنوي تحييه البحرية، وتقوم خلاله الطائرات الحربية المسماة "بلو آنجلز" بطلعات جوية من القاعدة البحرية في تشكيلات كثيفة تحلِّق فوق أسطح المباني، ويحبها الأطفال الصغار."

رفع صائب حاجبيه بينما ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه. إنها الطائرات الحربية ذاتها، خاله دافيد يفكر، التي تستعملها إسرائيل لقتل أطفالنا. لكنَّ كلَّ ما قاله كان: "يا لكم من أصحاب وطن محظوظ."

استدار دافيد عن الشاشة ملتفتاً إلى هناء. "أين منيرة؟" سألها.

أشارت هناء إلى باب غرفة مقفلة. "إنها في غرفتها. سأذهب لآتي بها."

فتحت هناء باب غرفة النوم، تاركة إياه مشرعاً وراءها. سمع دافيد حواراً يدور بين صوتين نسائيين، أحدهما أعلى من صوت هناء، يدمدمان بالعربية. ثم خرجت هناء تتبعها فتاة مراهقة.

وبعكس والدتها، كانت هناء تغطي شعرها بمنديل أسود. وكانت تحمل آلة تسجيل يصدر عنها صوت خافت لرجلٍ يغني باللغة العربية، ما يمكن أن يكون أغنية غرامية. قالت هناء، "هذه هي ابنتنا منيرة."

وبناء على إيماءة خفيفة من والدتها، مدَّت منيرة يدها مسلِّمة عليه بملامسة طفيفة ليده بأطراف أصابعها. كانت ملامح وجهها أقوى من ملامح وجه هناء. ولاحظ دافيد على الفور أنه رغم أن لها نمط العينين البراقتين نفسه الذي لأمها، إلا أن ذقنها كانت ذات فلقتين. أمَّا أنفها فقد كان بارزاً. ومع أنها لن تصبح آية في الجمال مثل أمها، لكن نظراتها كانت ساحرة، ويمكن لها مع مرور الوقت أن تصبح ملفتة للنظر بشكلٍ غير اعتيادي، بل بشكلٍ آسر مستبدٍ. أمَّا أنها ستكون أطول من أمها فهذا أمرٌ قد بدا واضحاً من الآن مع أنها تخفيه بانحناءة خفيفة. أمَّا نظراتها إلى دافيد فكانت مليئة بالاحتراز والاحتشام.

قال لها مبتسماً "كنت أتطلع إلى هذا اللقاء. ورغم معرفتي بأهلك، فإنني لم أكن أستطيع أن أتخيلك."

"ولا نحن استطعنا." مع أن هناء أقحمت هذه العبارة بخفة، إلَّا أن ذلك كان مجرد محاولة مرتبكة مكشوفة من جانبها لتسهيل الطريق أمام دافيد.

"إن منيرة هي ثروتنا الغالية."

لكن موضوع هذه المداولة لم يترك على وجه منيرة أثراً. نظر دافيد إلى صائب سائلاً: "هل يمكنني أن أتمشى قليلاً مع منيرة؟"

"إذا كان ذلك ضرورياً،" أجاب صائب على مضض، ناظراً في ساعة يده. "لا أعتقد أنكما تحتاجان إلى وقت طويل."

ودون أن يستجيب، استدار دافيد نحو منيرة. "هل نذهب إذاً؟"

التفتت الفتاة ناحية والدها كأنها تنتظر إيعازاً، فأومأ إليها بإشارة وجيزة. ثم وكأنها في تمثيلية صامتة، أعطت دافيد انحناءة من رأسها لا تكاد تُلحظ. نظر دافيد إلى هناء ليلتقط منها نظرة حزينة عابرة لم يستطع لها تفسيراً.

وبحذر شديدٍ اقتاد دافيد منيرة إلى خارج الباب.

* * *

بعد عشر دقائق، وبعدما وجد دافيد مقعداً مناسباً لهما في ساحة يونيون سكوير، كانت منيرة لا تزال صامتة.

حار دافيد بأمره كيف يبتدىء، وفي خلال ارتباكه، تذكَّر أن في هذه الساحة ذاتها كانت كارول الطفلة اليهودية قد تعرَّفت لأول مرة على موضوع الهولوكوست. وها هو الآن يأتي مع فتاة فلسطينية محجبة، وتصغي في الوقت نفسه إلى آلة تسجيل تصدح بأغانٍ عربية.

"من هو المغني؟" سألها دافيد.

حدَّقت منيرة بالمارة المتسوِّقين تحت شمس الظهيرة. رجال ونساء أثرياء في طريقهم إلى سوق 'ساكس فيفث أفينيو'، أو 'نيمان ماركوس'. "إنه مارسيل خليفة،" قالت أخيراً. "هل تعرفه؟"

"أخشى أنني لا أعرفه."

"إنه مشهور جداً،" أطنبت منيرة بشيء من قلة الصبر. "حتى إنه قد قدِم إلى أميركا."

فتش دافيد عن موضوعٍ للحديث. "عمَّ تتحدث هذه الأغنية؟" سألها. تجهمت منيرة. "إنها حكاية رجل فلسطيني أحبَّ امرأة إسرائيلية. وهو يقول فيها: 'بين عينيَّ وبينها تنتصب ماسورة مدفع'. ومع أنه يحبها ويغني لها، فإن الأحقاد تفرِّق بينهما. فالزواج إذاً بينهما مستحيل."

نظر دافيد إلى ابنة هناء، وأحسَّ بحزن لا يحيد. "هل تعتقدين ذلك؟"

"نعم،" قالت بحماسة هادئة. "فأنا لا يمكنني أن أكون مع رجل يهودي."

لا عجب لأن النوع الوحيد الذي رأته من اليهود، كما افترض دافيد، هم الجنود المدججين بالسلاح. "إنني رجل يهودي،" أجابها بلطف. "ومع هذا، فإنني أيضاً صديق والديك."

وللمرة الأولى، نظرت إليه، وفضولها يتدفق من بين رموشها الطويلة التي لم يلحظها من قبل. "ألهذا أنت تقوم بمساعدتهما؟"

"نعم، وأرجو أن أتمكن من مساعدتك أنتِ أيضاً. إذاً هل يضايقك أن أكون يهودياً؟"

تحوَّلت عنه منيرة وهي تفكر في سؤاله بنظرة تأملية عميقة، بينما سبابتها اليسرى مسنَدة إلى خدِّها. شيء ما، في هذه الإيماءة كان مألوفاً لديه. لا بد أن ذلك آتٍ من هناء، مع أنه لا يستطيع أن يسترجع ذكرى لمثلها. لكن غزارة تعبيراتها كانت شبيهة جداً بوالدتها، بحيث إنها أنعشت ذاكرته بعد مرِّ السنين. "لا،" أجابته أخيراً. "لا يضايقني ذلك ما دمت صديقاً لهما."

"إني لكذلك."

ومرة جديدة، ومع أن دافيد لم يستطع أن يحدِّد ذلك تماماً، كانت نظرات منيرة الجانبية المرتابة تستحضر ذكرى خافتة لديه، مع أن الوقوع على أصلها يعجزه. "كيف كانت تبدو؟" سألت البنت بسرعة.

"تقصدين والدتك؟"

"نعم."

صمت دافيد ليتفكر في المزايا التي عليه أن يختارها، وكم يجب أن تبدو مألوفة لديها. "كانت حادة الذكاء،" أجابها. "وشديدة الثقة بنفسها. وهي أحد أفضل المتحدثين الذين عرفتهم. وقد كان يصعب عليَّ أحياناً أن أجاريها في النقاش."

راقبت منيرة وجهه. ثم سألته بهدوء، "أكانت جميلة أيضاً حسب اعتقادك؟"

"ما رأيكِ أنتِ؟"

"إنها أمي،" أجابت منيرة بصوت خافت حذر "لم تكن تغطي رأسها، صحيح؟"

"لا."

"هل كانت تدخن، أو تشرب، أو تخالط الذكور؟"

هل كانت هذه حشرية طفلة في الثانية عشرة، تساءل دافيد، أم أنها كانت تجمع المعلومات كي تستعملها في الجدال عن نفسها؟ "عندما عرفتُ أمك يا منيرة، كانت مخطوبة إلى والدك."

وللحظة، استمرت نظرة منيرة الفاحصة: فهي لم تكن ذكية فحسب، خُيِّل لدافيد، لكنها بدت كذلك حسّاسة للفوارق، ربما بسبب تفسيرها لاستجابات والديها كلٌّ تجاه الآخر. وبشيء من الفجائية قالت: "لا يريدني والدي أن أخالط الصبيان إلى أن أتزوج."

هزَّ دافيد كتفيه. "أنا لست والداً لأحد، لذلك فإني لا أعرف ماذا أقول لك. لكنه ربما يحاول أن يجنبك بعض المتاعب، أو ربما الأذى."

"إذاً لماذا ترفض والدتي أن تتحجَّب؟"

بينما كان يفكر في اختيار جوابه، راقب دافيد فرخ حمام يقفز بين الأعشاب أمامه. نافخاً صدره كأنه شخص ثريٌّ متنفِّذٌ في منتصف عمره يتمشى على شاطئه الخاص. "لأنها كامرأة عصرية تفكر بطريقة مختلفة. وأنا أفعل ذلك، في الواقع. لكن ذلك ليس أمراً جيداً ولا قبيحاً. أعتقد أنه من أجل هذا تريد لك والدتك أن تأتي لكي تدرسي هنا، ولكي تتعلمي كيف يفكر الناس المختلفون."

"إنني أعرف منذ الآن كيف يفكر الأميركيون." أجابت منيرة بحدة. "يعتقدون أننا لا نساوي شيئاً. لهذا فإنهم يزوّدون الإسرائيليين بالسلاح لكي يقتلوننا. ففي جنين أتى الإسرائيليون بطائراتهم الحربية الأميركية الصنع الأف 16 ـ لإلقاء القنابل على النساء والأطفال. أمَّا الجنود على حواجز التفتيش فيسددون إلينا بنادق أميركية." كوَّرت الفتاة قبضتي يديها، وبات صوتها حاداً. "لن نسامح اليهود، ولن نسامح أميركا."

ومع أنها بدأت تختلج فجأة بالحياة إلى حدٍّ كبيرٍ من المشابهة مع والدتها، إلَّا أن دافيد لم يجد سعادة كبيرة في ذلك. لقد تذكر حكاية هناء عن حاجز التفتيش، عندما أهان جنديان إسرائيليان صائب تحت أنظار طفلته التي امتلأت بالحقد. "إذاً،" قال دافيد. "لماذا تعتقدين أن حكومتنا تريد أن تستجوبكم جميعاً؟"

طوت منيرة ذراعيها. "لأن والدي فلسطيني شديد الوطنية."

"كل ما أعرفه،" قال دافيد، "أنهم يحققون في حادث اغتيال رئيس وزراء إسرائيل."

"وهل يمكن توجيه مثل هذا اللوم إلى والديَّ، وهما أستاذان في جامعة بيرزيت؟"

"لا يبدو أن أحداً يتبنَّى هذا العمل." نظر دافيد إلى عيني الفتاة مستجدياً الثقة. "أرجوك أن تفهمي يا منيرة أن هذا العمل يبدو بالنسبة إلى الأميركيين، كما بالنسبة إلى أحمد فاراس، عملاً فظيعاً. لقد جاء بن آرون إلى هنا تحت حماية الحكومة الأميركية ليتحدث عن السلام بين اليهود والفلسطينيين. أمَّا الآن، فإن حكومتنا مسؤولة عن اكتشاف القتلة. وهي تفتش عن معلومات من أجل ذلك، حيثما استطاعت إيجادها."

حدَّقت عينا منيرة المتضيِّقتان بالمارة المتأنقي الملبس كما لو أنها تدرس أعداء والديها. وأثناء صمتها كانت دندنة المغني الحزينة تملأ الفراغ ما بينها وبين دافيد. "حسناً،" قالت باقتضاب "لقد شرحت والدتي لي كلَّ ذلك."

اختار دافيد أن يتبنى أسلوباً بسيطاً من الفضول، "إذاً نستطيع أن نتحدث قليلاً عن الوقت الذي أمضيته في سان فرانسيسكو قبل حصول حادثة الاغتيال. كيف كانت أوقاتك؟"

هزت كتفيها. "أحسب أنها كانت جيدة."

"ماذا فعلتِ؟"

"جعلتني أمي أزور أماكن كثيرة. زيارة إلى جامعة بركلي، وإلى مطعم شاهدت فيه حيوانات الفقمة، كما قمنا بجولة أشرفنا فيها على منظر السجن المهجور عند الخليج."

لم يتمالك دافيد نفسه عن الابتسام حيال السرد اللاحماسي الذي تقوم به الفتاة عن

جهود أمها التي أرادت أن تطوف بها على الأماكن الشائقة. "هل ذهبتما إلى ألكاتراز؟" سألها.

"نعم. كذلك ركبنا في رحلة بالباص حول المدينة، كما أخذنا نزهة بحرية على متن مركب."

"هل راق لك ذلك؟"

هزت منيرة كتفيها من جديد. "لقد اشتقت لأصدقائي، وليس هناك تقريباً أيّ وقت يعطى لي لكي أتكلم معهم حتى بواسطة الهاتف الخلوي. فوالدي فرض عليَّ قواعد صارمة حول ذلك."

سجَّل دافيد ملاحظة ذهنية تقضي بأن يكون متساهلاً في الرحلات العائلية عندما يصبح أباً في المستقبل. "أعتقد أنك لم تفترقي عن أهلك طوال الوقت، على الأقل عن أحدهما."

فكّرت منيرة في هذا. "أمضيت معظم أوقاتي برفقة أمي. فأحياناً كان والدي مشغولاً في التحدث عن الصهاينة."

"هل كنتما تذهبان للتفرج كل يوم؟"

"نعم، كانت تجبرني على ذلك."

كان يستطيع أن يجمع كثيراً من هذه الحقائق، بعضها إلى البعض الآخر، فكَّر دافيد، من خلال سجلات بطاقات الائتمان، وإيصالات مواقف السيارات، لكن الفترة الوحيدة المحدَّدة التي عرف أن عليه أن يجعل معظم تركيزه عليها بدأت بعد الساعة الواحدة من بعد الظهر عندما اندفع فدائيان انتحاريان متنكران في زي رجلي بوليس إلى الشارع الرابع، في ما يبدو أن أحداً نبههما إلى حقيقة تغيير خطة سير موكب بن آرون. "أين كنتِ عندما كان رئيس الوزراء الإسرائيلي يخطب؟"

"أجل،" قالت منيرة بوضوح. "كنت أشاهد التلفزيون إلى جانب أبي. لقد كنا نستمع إلى أكاذيب هذا الصهيوني."

"وأمك، هل كانت معكما؟"

"كلا، لقد خرجت للتسوّق."

"ولماذا لم تذهبي معها؟" سألها دافيد بلطف. "فالتسوق يبدو لي أكثر متعة من الاستماع إلى أكاذيب الصهيوني."

لم تبتسم منيرة. "إنها لم تقم بدعوتي إلى الذهاب. لذلك بقيتُ."

"هل كنت تودين مرافقتها؟"

فكرت منيرة معيدة خصلة شعر شاردة من تحت الغطاء إلى مكانها. "لم أعد أتذكر، لقد كانت في عجلة من أمرها على ما أعتقد."

تعقيدات هذا الجواب أقله بالنسبة لشخص أقلّ تعاطفاً، أربكت دافيد. "هل قالت لكِ إنها مستعجلة؟" سألها.

"كلا،" كانت معنا، وفجأة قررت أنها لا تريد متابعة مشاهدة التلفزيون معنا."

من الأفضل عدم التوسع في هذا السؤال، قرر دافيد. "هل تتذكرين ـ"

فجأة، وقفت منيرة، مع نظرة خائفة مفاجئة في عينيها. تنبه دافيد على الفور إلى الهواء العاصف حولهما، المقرون بالارتجاجات الآتية من هدير محرِّكات الطائرات المقاتلة. استدارت منيرة نحوه وهي تصرخ، "إنهم يقصفوننا..."

أمسك دافيد بها. فالرعب المستبد بها جعلها ترتجف بشكل لا يمكن السيطرة عليه، رغم إجفالها من ملامسة رجل لا تعرفه، لها. ثم صارت الطائرات فوقهما تماماً، كانت البطون الفولاذية لست طائرات، يتألف منها التشكيل الجوي، تلتمع فوق رأسيهما وهي تكاد تلامس أسطح المباني في هديرها الذي يصمُّ الآذان. انهارت منيرة الباكية بين ذراعيه فيما رأسها المحجَّب لاصق في وجهه.

"لا تخافي.. لا تخافي،" قال مهدِّئاً من روعها. "هؤلاء فقط مجموعة من طيارينا المقاتلين يستعرضون مواهبهم. كان المقصود من وراء ذلك إشعارنا بالأمان، وليس العكس."

* * *

مع أن كارول كانت تكلمه من القدس، فإن صوتها كان واضحاً. تراجع دافيد في مقعده. "كيف حالك؟" سألها.

"حزينة،" جاءه الجواب من صوت كئيب. "الناس هنا مجروحون. البلاد بأسرها ذاهلة. الوضع أشبه بوضع أوروبا عشية الحرب العالمية الثانية. إنها حالة من الترقب التي لا يتوقع أحد أن يأتي بعدها سوى السوء."

"وكيف كان احتفال الصلاة؟"

"كان مؤثراً جداً، خصوصاً كلمة آنات ابنة بن آرون، حين تكلمت عن حلم والدها في السلام. لكنني لم أكن أعرف ما إذا كان عليَّ أن أعتقد أنها نبيلة في مقاصدها أم يائسة."

إن كارول نفسها تبدو يائسة، حسِب دافيد. "وكيف هو والدك؟"

"مكتئب. كلانا مكتئبان."

أحسَّ دافيد أن في صوتها، رغم خلوِّه من أية نغمة، مسحة من العتاب والملامة. "هل هناك من كلام،" سألها، "عن خروقات أمنية في أمن بن آرون الشخصي؟"

"نعم هناك بعض الكلام،" أجابته كارول. "أنت تعرف كيف هي الصحافة هنا. أما الحكومة فمتكتمة جداً على ما تجريه من تحقيقات."

"أجل، أفترض أن هذا ليس مفاجأة لأحد."

سكتت كارول للحظة. "وكيف حال زبائنك الجدد؟"

"بخير." تردَّد دافيد. "بالنسبة لي، كان أهم ما في الموضوع كلامي مع منيرة، ابنتهما. ففي نهاية الأمر أريد لها الخلاص."

"الخلاص من ماذا؟ من أهلها؟"

فكَّر دافيد قليلاً في ذلك الجواب. "من كل شيء،" أجابها.

الفصل

4

في صباح اليوم التالي، صدر العدد الجديد من مجلة نيويورك تايمز، كان خبر الصلاة التذكارية عن روح بن آرون موضوع الغلاف. لكنه جاء منقَّطاً أيضاً بأخبار التداعيات المؤسفة للاغتيال، ومنها خبر تفجير انتحاري قاتل في سوق إسرائيلي لبيع الخضار في مدينة ساحلية إسرائيلية، وخبر إقدام الجنود الإسرائيليين على قتل شخصين فلسطينيين يشتبه بعلاقتهما بكتيبة شهداء الأقصى خارج مدينة رام الله. أمَّا على الصفحة الرابعة فقد لاحظ دافيد أن المجلة قد أوردت خبراً عن الصمت الذي تلتزمه وزارة العدل حول التحقيقات المكثفة التي تجريها بخصوص ظروف اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي بن آرون، مع أن الأف-بي-آي. والسي. آي. إي، والشرطة السرية يعملون على تتبع كل الخيوط التي قد تؤدي إلى معلومات في أميركا وفي الشرق الأوسط. أما بخصوص ما إذا كانت الترتيبات الأمنية لحماية بن آرون قد جرى اختراقها، فإن الأميركيين والإسرائيليين يباشرون تحقيقين مستقلين في هذا الموضوع. كما أن إسرائيل كانت قد استدعت عناصرها الأمنية المعنية بالموضوع من أميركا، بحيث لم يبق متروكاً أمام الأميركيين سوى القيام باستجواب رجال البوليس ورجال المباحث السرية الذين لهم علاقة بحماية بن آرون. في وسط كل ذلك، ودون وجود أي دليل واضح على كيفية ارتباطه، أو تأثيره، على عائلة خالد، عقد دافيد وموكليه ذوي الموقف المتأرجح اجتماعاً خاصاً مع مكتب الأف. بي. آي. في قاعة الاجتماعات الداخلية من المبنى الفدرالي في سان فرانسيسكو.

ولدهشة دافيد، فإن مكتب الأف. بي. آي. قد طلب استجواب صائب أولاً، ثم منيرة، تاركين هناء للنهاية. وعبر طاولة الاجتماع جلس دافيد وصائب في مقابلة فيكتور فاليس، وهو موظف خاص قادم من مكتب واشنطن، وآن كورنبلوث من مكتب سان فرانسيسكو. كان دافيد يعرف كورنبلوث من قبل، كسيدة ممتلئة الجسم، تضع نظارات، وهي معروفة بكونها محقِّقة دقيقة جداً، كما هي معروفة بذاكرتها البصرية الجيدة، واهتمامها بالتفاصيل. أمَّا فاليس الذي هو رجل ضخم أحمر الشعر، متغضِّن الوجه، فقد وصفه أحد أصدقاء دافيد في وزارة العدل، بأنه يعتبر خبير الأف-بي-آي. الأول لشؤون مكافحة الإرهاب. وهو بهذه

الصفة يتولى قيادة هذا التحقيق. ومجرد قيام شارب بتعيين هذا المحقق البارز لهذه المهمة، جعل دافيد يشعر أنه قد دخل إلى غرفةٍ مظلمة، أرضها مليئة بالفجوات. وكل ما صار يأمله هو حماية موكليه من أسئلة المحققين التي يمكن أن توقع بهم.

ابتدأت الجلسة بتلاوة فاليس للعقوبات الجزائية التي يفرضها القانون على من يدلي بإفادات كاذبة إلى موظف تحقيق فيدرالي. جلس صائب بإذعان وروية شابكاً يديه أمامه. أمَّا تأمله لسقف الغرفة، فقد كان يفصح بوضوح عن شعوره بالازدراء والكبرياء. وعندما بدأت الأسئلة، أصغى صائب إليها بعناية، حسب تعليمات دافيد كما تروَّى في إجاباته عنها. فالشيء المهم، حسب نصيحة دافيد له، ليس الحماسة للظهور بمظهر المتعاون، بل فحوى الإجابات التي يقدمها. اختر كلماتك جيداً، كان قد قال له دافيد. لا تخمِّن، ولا تتوقع. لا تستحضِر جواباً لمجرَّد ضرورة الإجابة. وكل هذا، جاء متوافقاً مع سلوك صائب الأساسي، المشمئزِّ من الاستجواب، كما من القائمين عليه.

لا، قال لهم صائب، إنه لا يعرف أياً من القاتلين. وفي أقصى الحالات، فإنه قد يكون التقى مرة بالقاتل الميت. كما أنه ليس منتسباً لأيٍّ من 'الجماعات التي تسمونها إرهابية.' كما أنه لا يعرف شيئاً عن عملية اغتيال بن آرون. ولا هدف له من زيارته إلى أميركا سوى إفحام رئيس الوزراء الإسرائيلي. برنامج رحلته كان كتاباً مفتوحاً. خطابات، ولقاءات مع الصحافة، ليس عنده مشكلة في تعدادها وتسميتها. قدَّم كل هذه المعلومات بلهجة لا غبار عليها، رغم إظهاره لضجره، ولفقدانه لأيِّ رغبة في تدخُّل المحققين في شؤونه الشخصية. قام فاليس بطرح معظم الأسئلة، بينما اهتمت كورنبلوث بتدوين ملاحظاتٍ دقيقة. وبعد مضي ساعة كاملة على جلسة الاستجواب كان دافيد لا يزال على حيرته الأولى حول المقاصد الحقيقية التي توجِّه أسئلة التحقيق.

"في مكالماتك، من وإلى الصحافة،" سأله فاليس بصوت واقعي، "هل كنت تستعمل هاتفاً خلوياً، أم كنت تستعمل هاتف الفندق؟"

"هاتف خلوي."

"هاتف واحد أم أكثر؟"

"واحد فقط."

نظر فاليس إلى الورقة أمامه. "هل هذا الرقم هو 0523 ـ 696 (59)972؟"

"نعم."

"هل لديك خط اتصال دولي؟"

"نعم."

"وهكذا، أي مكالمة هاتفية تجريها من سان فرانسيسكو يجب أن تظهر على السجلات العائدة لهذا الرقم بالذات."

"نعم."

ومع أن دافيد كان يسعى إلى إخفاء ردود فعله، بتدوين الملاحظات بعد كل سؤال، فإن هذا اللون من الأسئلة المركَّزة على استعمال الهاتف الخلوي بدأ يقلقه. "هل لديك كومبيوتر؟" سأل فاليس صائب.

"عندي اثنان."

"أين هما؟"

"واحد في مكتبي في بيرزيت. أما الآخر فهو كمبيوتر محمول أنقله معي."

"هل تستعملهما معاً لمعالجة النصوص؟"

نظر صائب في كفيه. "فقط الكومبيوتر الموجود في مكتبي."

"الذي هو حاسوبٌ مكتبيٌّ من نوع أتش بي؟"

لم يكن السؤال الأخير في واقع الأمر سؤالاً. التقت عينا صائب لحظة بعيني فاليس. فالذي أذهل دافيد ـ مثلما يجب أن يكون قد أذهل صائب ـ هو مدى ما قد يكون يعرفه مكتب الأف.بي.آي.

"نعم، إنه أتش. بي."

"هل لزوجتك أيضاً مكتب؟"

"نعم."

"وهل عندها أيضاً كومبيوتر أتش.بي. خاص بها؟"

"نعم."

ومن غير أن يبدِّل لهجته، ظهر أن فاليس يراقب صائب بشكلٍ أدقّ. "هل سبق لها أن استعملَت الكومبيوتر الخاص بك أو هل سبق لك أن استعملتَ أنت الكومبيوتر الخاص بها؟"

تردَّد صائب قليلاً. "أن تكون قد استعملَت جهازي، لا أستطيع أن أتذكَّر. إلا أنني لا أنكر أنني استعملتُ جهازها أبداً."

رفعت كورنبلوث رأسها عن الورقة التي أمامها. "ماذا كان هدف قدوم زوجتك معك إلى أميركا؟"

"لكي ترافقني، ولكي تزور منيرة بلادكم."

"فكرة مَن كانت هذه؟"

توقف صائب قليلاً. "بداية، كانت الفكرة فكرة هناء. لكن بعد أن اقترحَت الجماعات التي كنتُ قد حرَّكتها أن أقوم أنا بتعقُّب رحلة بن آرون، لم يعد لها أية علاقة بهذا الأمر."

كانت هذه هي أطول إجابة قدمها صائب. وقد حسِبَ دافيد أن سبب إسهابه في هذا الجواب راجع إلى رغبته في إفهام الأف.بي.آي. أنَّ وجود زوجته معه في أميركا هو أمرٌ عَرضيٌ ما أو على الأقل، مشتقٌّ من مهمته هو. كما أنه بدا كإشارة إلى أن صائب ـ مثله في ذلك، مثل دافيد ـ قد بدأ يعتقد أن اهتمام التحقيق متجهٌ إلى زوجته بالدرجة الأولى وليس إليه.

عدَّلت كورنبلوث وضع نظارتيها. "متى قررت زوجتك المجيء؟"

"نحن قررناه معاً"، صوَّب صائب كلامها. "قبل ثلاثة أيام من إعلان رغبة رئيس الوزراء بالقيام بجولة في الولايات المتحدة."

"متى عرفَت زوجتك أن برنامج رحلته يتضمَّن المجيء إلى سان فرانسيسكو؟"

التمعت عينا صائب لحظة. "كانت هذه معلومة عامة،" قال ذلك بنوع من اللهجة الدفاعية. "لقد عرفتُ أنا بذلك، كما عرف كل من يعنيه هذا الأمر."

نظر فاليس نظرة قصيرة نحو كورنبلوث. "خلال إقامتك في سان فرانسيسكو،" أكمل سؤاله، "هل كنت تعلم بتحركات زوجتك؟"

"كنت أعرف بشكل عام،" أجابه صائب. "لقد ناقشنا ما قد تقوم هي بعمله ـ لقد سبق وصولَنا وصولَ بن آرون بيومٍ واحد. لكن لي عملي الذي يشغلني."

"إلى أي درجة كنتما تفترقان في العادة؟"

أظهر صائب هزَّةً من كتفه إشارةً إلى انزعاجه. "معظم هذين اليومين. لم أكن لأحمل ورقةً أنظِّم عليها جدول أوقاتي."

"عندما كنتما تفترقان، أين كانت ابنتكما منيرة؟"

"مع هناء، أعتقد انها كانت تلازمها معظم الوقت."

"ماذا كنت تعتقد أنهما يفعلان؟"

"التفرّج على الأماكن." توقف صائب قليلاً. ثم أضاف بسخرية خفيفة، "إنني آسف لأنهما لم تخبراني ماذا تناولتا على الغداء."

لم يغيِّر هذا الجواب من أسلوب تعبير فاليس شيئاً. "ولا على العشاء؟"

"لقد تناولنا العشاء معاً في كلا الليلتين."

"وأنت وزوجتك نمتما أيضاً معاً؟"

التمعت عينا صائب. "طبعاً."

"وماذا عن منيرة؟"

"نامت في غرفتها."

"هل أجريت أو استقبلت في أي ليلة من هاتين الليلتين." تدخلت كورنبلوث، "بين منتصف الليل وبين الساعة الرابعة صباحاً، أية مكالمة هاتفية؟

مع هذا السؤال، فهم دافيد على الفور أن ثمة مشكلة، لقد أحسَّ وكأن مارني شارب قد صار لها وجود في الغرفة. "كلا،" أجاب صائب بوضوح.

"هل أنت متأكد؟"

"نعم. فهذا وقتٌ متأخر لمكالمة أي شخص، على الأقل في سان فرانسيسكو."

"وهل اتصل أحدٌ بك؟"

"قلتُ لكِ. لا."

انحنى فاليس إلى الأمام. "وهل اتصل أحدٌ بزوجتك؟"

"كلا."

"وكيف يمكنك أن تكون شديد التأكد؟"

اعتدل صائب في جلسته وكأنه قد شعر بالإهانة. "لأننا ننام معاً. فمكالمة تتلقاها هناء، لا بد من أن توقظني. كما ستوقظني مكالمة من هناء لأيٍّ كان. لم أسمع مثل هذه المكالمات."

"هل يمكن أن تكون منيرة قد اتصلت بأحد؟"

طوى صائب ذراعيه. "كلا أيضاً."

"طالما أنها ترقد في غرفة مستقلة، كيف يمكنك أن تعلم؟"

تراءى لدافيد أن هذا السؤال قد جعل صائب يضطرب. إذ تجمدت حدقتا عينيه، وصارت لهجته عجراء. "إنها لا تزال طفلة." أجاب بجفاف. "إنني والدها. ولدينا قواعد صارمة بخصوص استعمالها للهواتف الخلوية."

"هل تشترك زوجتك أيضاً في تطبيق هذه القواعد؟"

"نعم." صارت لهجة صائب متصلِّبة. "حول هذه المسألة، نحن متفقان."

"هل لدى زوجتك هاتف خلوي خاص بها؟" سألته كورنبلوث.

"نعم."

"هاتف واحد أم أكثر؟"

تردَّد صائب. "أعرف عن واحدٍ فقط."

"في عائلتكم يا سيد صائب. من يدفع الفواتير الشهرية؟"

"أنا هو من يقوم بدفعها."

"إذاً أنت تعرف عدد المكالمات الخلوية التي تجريها عائلتك."

"طبعاً."

"هل تملك منيرة هاتفاً خلوياً خاصاً بها؟"

"نعم. صحيح،" أضاف صائب بجفاء. "لديها هاتف. مع أنها فقدته بسبب قلة احترازها."

"أين فقدته؟"

"لست متأكداً، ربما في سان فرانسيسكو."

"هل اشتريتم لها سواه؟"

"لا. فالمرء لا يكافىء طفلاً بسبب قلة احترازه." ثم أخذ صائب ينقل نظره بين فاليس وكورنبلوث. "على الأقل أنا لا أفعل ذلك."

هل كان رقم منيرة 9726 ـ 696 (59) 972؟"

"نعم."

رفعت كورنبلوث نظرها عن الورقة التي أمامها. "أين تحتفظ زوجتك بهاتفها الخلوي؟"

فكَّر صائب في هذا السؤال. "في حقيبتها على حدّ علمي. ليس لي علم بوجود مكان مخصص لذلك."

"هل سبق لك أن استعملتَ هاتفها الخلوي؟"

مسَّد صائب لحيته. فقد بدأ يظهر عليه تعب يؤكد هشاشة محيَّاه. وبصرف النظر عن الإجهاد الذي يتعرض له، فإن دافيد اعتقد أن صائب لا يملك الكثير من القدرة على التحمّل.

"نحن زوج وزوجة،" قال بانزعاج. "فإذا فرغت بطارية هاتف أحدنا، أو كان أحدنا لا يحمل هاتفه معه، وهو أمرٌ قابل للحدوث، فهل يعني هذا أننا نصبح متآمرين؟"

بسرعة ألقى دافيد يده على ذراع صائب. "لقد صار السيد صائب متعَباً،" قال دافيد للمحققَين. "وقد جاء إلى هنا متطوعاً للإجابة على أسئلتكما. لكن قد يكون من المفيد لنا جميعاً لو شرحتم لنا سبب كل هذا التدقيق حول الهواتف الخلوية."

"لقد صرنا على وشك الانتهاء،" أجاب فاليس بلهجة مقتضبة. ثم مستديراً ناحية صائب، سأله، "هل تعرف رقم هاتف زوجتك الخلوي يا سيد خالد؟"

نظر صائب إلى دافيد، الذي استجاب بهزة من كتفيه. "طبعاً أعرف،" أجاب صائب.

"وما هو هذا الرقم؟"

بدقة صافرة أجاب صائب، "896 ـ 696(59) 972"

لاحظ دافيد أن كورنبلوث لم تكن بحاجة إلى تدوين هذا الرقم في ورقة الملاحظات أمامها. "هل أن رقم الهاتف الخلوي 3666 ـ 669(415) هو رقم مألوف لديك؟

تضيَّقت حدقتا صائب وهو يفكر. "رقم من هذا؟"

لم يجبه فاليس على سؤاله. "هل سبق لك وأن طلبتَ هذا الرقم يا سيد خالد؟"

حدَّق صائب به. "415" أجاب، "إنه رقم مفتاح مدينة سان فرانسيسكو. لقد اتصلتُ بمراسلين صحافيين، كما اتصل بي عدد منهم. أنا لم أحفظ أرقام هواتفهم غيباً. فإذا كنت قد سبق لي وأن طلبتُ هذا الرقم، يا سيدي، حتى وإن كان غير مسجَّلٍ على ذاكرة هاتفي نفسه. ففي الوقت المناسب سيكون هناك سجل. لا تطلب مني أن يكون لي ذاكرة فذَّة."

"هل هاتفك الخلوي موجود بحوزتك؟"

"نعم، إنه موجود في الفندق."

"يوم مقتل بن آرون،" سألت كورنبلوث، "هل تستطيع أن تتذكر تحركاتك؟"

نظر صائب إليها نظرة محسوبة. "لم يكن لي أية تحركات."

"هلَّا تفضلت بالشرح؟"

صار صوت صائب الآن رتيباً من شدة الإرهاق. "نهضتُ من نومي، طلبت فطوراً من خدمة الغرف، قرأت الجريدة، قمت ببعض الاتصالات الهاتفية مع زملائي في الضفة الغربية، ومع الصحافة، انتظرت خطاب رئيس الوزراء، راقبته وهو يخطب، بدأت أدوِّن ملاحظاتي على الخطاب، ثم سمعتُ الإعلان الذي يقول إنه قد قتل. كل ذلك حدث دون أن أبارح غرفتي في الفندق."

"وأين كانت زوجتك؟"

"تناولت إفطارها معي. ثم اصطحبت منيرة إلى رحلة في الزورق، حسبما أعتقد."

"كم استمرً غيابهما؟"

"لم أحاول التأكد من ذلك. لقد عادتا قبل الظهر."

"هل كنت تتوقع عودتهما؟

"لم يكن عندي توقعات محددة."

"هل شاهدا إلقاء الخطاب معك؟"

تردد صائب. "منيرة وحدها فعلَت ذلك."

"وزوجتك، ألم تفعل ذلك؟"

"كلا."

"وأين كانت موجودة؟"

دون تفكيرٍ منه، أراح صائب رؤوس أنامل كفه اليسرى على جبهته. "كانت تتسوّق."

"هل تعرف إلى أين ذهبَت؟"

"ليس بالتحديد."

"متى غادرَت الغرفة؟"

"لست متأكداً، لكن إذا كان خطاب بن آرون قد جرى عند الظهيرة، فهي تكون قد خرجت قبيل ذلك بقليل."

"قبل خروجها،" سأل فاليس، "هل قامت بإجراء، أو استقبال، أية اتصالات هاتفية؟"

أفرد صائب ذراعيه. "لست أدري. إن لديَّ أعمالاً كثيرة لأقوم بها سوى القيام بمراقبتها الدائمة."

"عند خروجها يا سيد خالد، هل أخذَت هاتفها الخلوي معها؟"

"يا سيد فاليس لم أفتش جزدانها، لذلك فإنني لا أستطيع أن أفيدك بشيء."

السؤالان الأخيران وضعا دافيد على حافة أعصابه. فهما ركّزا، كما ركّز دافيد نفسه، على الفترة الزمنية التي ربما أتيح فيها للقاتلين أخذَ العلم بالتبدُّل الطارىء على خطة سير بن آرون. لكن رغم ازدراء صائب للمحققين، فإنه برهن عن أنه شاهد حاذق. لقد أصغى إلى

الأسئلة، ولم يخمّن، وكانت أجوبته دقيقة ومدروسة بعناية. أمَّا أن التحقيق تضمَّن مجازفة غير معلومة ضد مصلحة هناء، فإن هذا بدا واضحاً له مثلما بدا واضحاً لدافيد.

"هل سألتَها،" استفسرت كورنبلوث، "عن سبب عدم بقائها للاستماع إلى خطاب بن آرون؟"

"نعم، إنها غير مهتمَّة بسماعه."

"هل أوضحت لك لماذا هي غير مهتمة؟"

"ليس عليها أن تشرح ذلك." خرج صوت صائب بارداً. "نحن فلسطينيون. اعتدنا طوال حياتنا على سماع مثل هذه الخُطب ـ دائماً خططٌ جديدة، ووعود جديدة، وسلام على وشك التفتح مثلما الأزهار في الصحراء. فالكلمات الجميلة التي تنضح بها تصريحات رجال السياسة التي تشبَّعت بها الدماء الجارية في عروق أبناء شعبنا لم تعد تترك عندنا أملاً."

"إذا حصلَت محاكمة" سأل فاليس فجأة، "هل تتنازل عن امتيازاتك الزوجية بخصوص الشهادة، في ما يتعلق بهناء عارف؟"

كتم دافيد شعوره بالمفاجأة. "في أيِّ سياق؟" سأل.

"بحقه في منعِ زوجته عن الشهادة. وهذا امتياز عائد له."

"هذا الكلام صحيح من زاوية قيام هناء عارف بالإدلاء بشهادة ضد صائب خالد." لاقاه دافيد في الكلام، "لكن في الموقف المقابل، يكون هذا الامتياز من حق السيدة عارف. وفي كلا الحالتين فإنني أنصحهما بعدم التنازل عن هذا الامتياز في فراغ."

استدار فاليس نحو صائب. "هل هذا هو موقفك يا سيد خالد؟"

"أودُّ أن أتبع نصيحة وكيلي." أجاب صائب بنبرة من التحدي. "لكنني أتوقع ألَّا نكون، لا أنا، ولا زوجتي، بحاجة لأية امتيازات. فجريمتنا الوحيدة هي قدومنا إلى أميركا."

نظر فاليس في اتجاه كورنبلوث، التي اكتفت بهزة من رأسها. "هذا هو كل ما عندنا لهذا اليوم،" قال فاليس بلطف. "لكن قبل أن تخرج، نريد أن تأخذ بصماتك."

متعجِّباً لهذا الطلب، سأل دافيد، "على أيِّ أساس تطلبون ذلك؟"

أخرج فاليس وثيقةً من ملفٍ أسمرٍ، ودفع بها فوق الطاولة. "إنها وثيقة جلبٍ من هيئة المحلفّين العليا الفدرالية."

قرأ دافيد وثيقة الجلب، فوجد أنها تتضمَّن أخْذَ بصمات هناء وصائب. "أريد أن أقابل النائب العام للولايات المتحدة،" طلب جازماً. "الآن، وفي هذا الوقت بالذات."

* * *

جلست مارني شارب خلف مكتبها مكتوفة اليدين. "أنت تعرف أن وثيقة الجلب قانونية."

"إنَّ ما لا أعرفه،" ردَّ دافيد بحدة، "هو شيءٌ يقع على عاتقك. فعندما يكون أحد موكليَّ، أو كلاهما، هدفاً لتحقيقاتك، فإنه يتوجب عليكِ إعلامي بذلك، عملاً بقوانين وزارة العدل، عند إحضارهم إليك."

"لقد سبق لي أن أخبرتُك." أجابته شارب برباطة جأش، "أن هذين الشخصين هما موضع اهتمامنا. أما أن يكون كلاهما، أو أحدهما فقط، هو هدف لنا، فهي مسألة علينا بعدُ أن نقرِّر أمرها."

"هذا هراء،" لقد جلستُ مدة ساعتين في عملية تحقيق. وإن أيَّ محامٍ في سنة ممارسته الأولى سيعرف أنكِ تكتمين شيئاً ما محدَّداً جداً وتستعملينه من أجل شدِّ الوثاق حول أحدهما، أو حولهما معاً. وهذا ما يجعل أحدهما على الأقل هدفاً لك." لم يبذل دافيد أيَّ جهدٍ لإخفاء غضبه. "إنك تسيرين على حافة القانون يا مارني. إنك في الواقع قد تجاوزتِ هذا الخط. ولو كنتِ صريحة معي، لكنتُ قد فكرتُ أكثر قليلاً قبل أن أحضِر لك خالد. أمَّا الآن فلست واثقاً أبداً مما إذا كنتُ سأسمح لكِ باستجواب زوجته."

"أنتَ أيضاً لست في طهارة عذراءٍ يا دافيد. ثم إن الخط الفاصل بين الأشخاص الذين نسعى خلفهم، وبين الأشخاص الذين نعتقد أننا قد نتهمهم، إنما هو خطٌّ رفيعٌ، وغير واضح، وهو يتبدَّل من لحظة لأخرى." رفعت شارب إصبعها. "أنا لست مستعدة لكي أفصح لك عما إذا كانت هناء عارف قد صارت هدفاً لنا أم لا، في قضية اغتيال عاموس بن آرون. لكن لدينا أسئلة نريدها أن تجيبنا عليها. وإن الخيار خيارها وخيارك في أن تتعاون معنا أم لا."

تأملها دافيد بصمت. فوراء تظاهر شارب بالبرودة، كان يستشرف شعوراً أكيداً أنَّ هذه النائب العام مستميتة إلى أبعد الحدود من أجل الوصول إلى اتهام. لقد اختارت طريق المنافَقة، ضاربة عرض الحائط بواجبها في مصارحة الشاهد، ومندفعة في المجازفة على أمل كسرِ قشرة القضية وحلِّ خيوطها بسرعة. "سوف أناقش ذلك مع السيدة عارف،" قال لها في نهاية الأمر، "وذلك في ضوء تأكيداتك، وفي ضوء تقييمي الأخير لقيمة هذه التأكيدات."

"وماذا عن منيرة خالد؟"

"إنها ابنتهما وليست ابنتي. إنني أعرف فقط ما هو عملي."

وقفت شارب، إشارة منها إلى انتهاء الاجتماع. "إذاً دعني أعرف عن موقف هناء عارف بأسرع ما يمكن، هذه مسألة لا تنتظر."

* * *

جلس صائب وهناء في مكتب دافيد. كانت نظرات صائب إلى دافيد كناية عن إدانة صامتة. أمَّا عينا هناء فقد كانتا مليئتين بالشك والقلق. وعلى أطراف أصابع صائب ظهرت آثار حبرِ الأف-بي-آي.

نقَّل دافيد أنظاره بين صائب وهناء، فيما كان لا يزال يحاول أن يستوعب أن الحقيقة قد تكون أسوأ بكثير مما تسنَّى له أن يعرف عنها. "شارب ضللتني،" قال لهما. "لديَّ إحساسٌ غير مطْمئِن. كل الأسئلة تدور حول الهواتف الخلوية واستعمال الكومبيوتر. ثم إن هناك مسألة البصمات. إنهم لا يستطيعون استصدار مذكرة الإحضار دون أن يبرزوا بعض الأسس المبرِّرة لها. لا شك أن تحت أيديهم أشياء محددة. ربما جاؤوا بها من إبراهيم جعفر، وربما من سواه. أمَّا نحن فعلينا أن نبذل الكثير من التفكير بسرعة."

رفع صائب يده. "بالنسبة إلى منيرة، لا أريد لها أن تخضع لسوء المعاملة تحت يد الغستابو الأميركي."

نظر دافيد إلى هناء. "إنني أفهم ذلك،" قال لصائب، "وأنا لا أريد أن أضع منيرة وسط شيء ما، يفزعها، أو يُشعرها بالمسؤولية يوماً، إذا ما ساءت الأمور بالنسبة لأيٍّ منكما. أمَّا كل ما يمكنني قوله من جهة أخرى: فهو أنهم كلَّما أكثروا من الأسئلة التي يطرحونها على منيرة، كلَّما ازددنا معرفة بما يمكن لهم أن يسألوا هناء."

"لا،" قال صائب بنزق. "إنَّ هذا شبيه بالحكاية الرمزية عن العميان الأربعة الذين كانوا يدورون حول جسد فيلٍ من عدة مواضع. فأنت تستطيع أن تخبر أن الفيل جدار إذا شئت، مثلما تستطيع أن تقول عنه أنه حبل. لكن لا، ليس على حساب منيرة."

تجاهل دافيد هذه الإهانة شبه المكشوفة.

أطرقت هناء. "إنني قلقة. وأريد أن أعرف إلى أين يتجه تفكيرهم. لكن منيرة يجب أن تأتي أولاً."

"إذاً هل أقول لشارب، لا؟"

"ليس مجرَّد لا،" قال صائب. "بل قل لها أن تذهب إلى الجحيم."

رفع دافيد حاجبيه إلى هناء. أومأت برأسها ببطء "يمكنك أن تستعير الكلام من زوجي، وتنسبه إليَّ."

حاول دافيد قراءة وجهها - ففي ساعات قليلة انقلب شبح الخوف من احتمال اعتبارها شريكة في الجريمة إلى حقيقةٍ تطرح ضوءاً جديداً مباشراً على قراره بتمثيلها. فالخوف الذي تسلل إلى عينيها قد يكون خوفاً من المجهول، أو شعوراً بالإثم. "هل تريدين أن تلتقي بهم يا هناء؟ إن شارب تلمِّح إلى أنك لستِ هدفاً للاعتقال. لكنني أعتقد بأنك كذلك."

نظرت إليه هناء نظرة طويلة مستمرة. "إذا كنتَ تعتقد ذلك، فإنَّ رفض المثول أمامهم قد يجعل الأمور تزداد صعوبة."

هزَّ دافيد كتفه. "فقط إن كنت بريئة."

مسحة من الألم طافت على عينيها. "إنني بريئة يا دافيد."

لعلَّ دافيد كان هو الشخص الوحيد الذي سمع ذبذبات صوتها، وكان فيها ضراعة أعمق وأكثر حميمية من أيِّ ادِّعاء بالبراءة يمكن أن يطلقه أي موكِلٍ. ومن طرف نظره، رأى دافيد زوجها ينقِّل نظراتٍ سريعةً بين زوجته وبينه.

"إذاً، لدينا عملٌ نعمله،" قال دافيد لهناء. "لوحدِنا."

الفصل

5

حاصرها دافيد بالأسئلة دون هوادة - المكالمات الهاتفية من الهاتف الخلوي، قسائم بطاقات الائتمان، إيصالات التاكسي - معيداً معها بذلك ترتيب أحداث اليومين اللذين قضتهما في سان فرانسيسكو، ساعة إثر ساعة. كانت أطول مدة قضتها لوحدها خلال هذين اليومين، تمتدُّ لساعةٍ واحدةٍ فقط، وهي تتطابق مع المدة التي استغرقها خطاب بن آرون.

"لِمَ لم تشاهدي الخطاب؟" سألها دافيد.

شبكت يديها أمامها، وهي حانية قليلاً إلى الأمام، فبدت هناء لدافيد أصغر حجماً وأكثر إحباطاً. "لأسبابٍ عديدةٍ، لعلَّ أوَّلها، عدم رغبتي في البقاء إلى جانب صائب."

"ولِمَ لا؟"

"لأنَني أعرف ما سأسمعه منه. كلمات يائسة وغاضبة." نظرَت إلى عيني دافيد. "أنا لست لائمةً له. لكن هذه الكلمات صارت كأنها الخلفية الدائمة الملازمة لحياتي. أمَّا يومَها: فلم أكن أستطع أن أتحمَّل المزيد منها."

نظر دافيد إليها بإمعانٍ دون أن يبتسم. "ذلك اليوم، مِن بين جميع الأيام. ولكن لِمَ لمْ تأخذي منيرة معك؟"

"لكي أتجنب شجاراً معه. كان سيصرُّ على بقائها معه، ليس لكي تسمع بن آرون. ولكن لكي تستمع إلى صائب نفسه، أي لكي تلعب دور الجمهور الذي يصغي إليه بينما هو ينفّس عن غضبه."

لم يعلِّق دافيد على جوابها. ولمدة عشرين دقيقة حاوَل أن يفصِّل جزئيات هذه الساعة من حياتها، دقيقةً بدقيقةٍ، وحركةً إثر حركة. في النهاية قال لها: "كلُّ ما سألتُك عنه، سيعيد مكتب الأف.بي.آي. سؤالك عنه ثانية. فإذا كان أيُّ شيء مما أخبرتِني به يحتوي على كذبةٍ واحدةٍ: فإنهم سيكتشفون ذلك."

تورَّد وجه هناء احتجاجاً. "عندما عرفتَني يا دافيد. هل اعتقدتَ أنني كنت كاذبة؟"

"نعم عرفت أنك كنت كاذبة. فإن لم تكوني قد كذبتِ على أحدٍ، فإنك قد كذبتِ على صائب على الأقل."

لم تستجب هناء لهذا. وبعد قليل، عدَّلت جلستها وقالت بصوت عازمٍ منفعل: "حسناً. إنني جاهزة للقاء هؤلاء الناس." ولم تعد تسأل دافيد مرة ثانية عمّا إذا كان يصدقها، كما أنها لم تستجدِ منه عطفاً.

* * *

بعد ساعة واحدة، وضعت كورنبلوث آلة التسجيل أمامها على الطاولة ثم ضغطت على زرِّ التشغيل. تحذيرات فاليس القانونية، رغم أنها رتيبة، بدت في تلك اللحظة خطيرة وذات رهبة: فهي تقول إنه وزميلته عملاء للأف. بي. آي،، وأن ما تدلي به هناء قد يستعمل ضدها في المحكمة، وأن التصريحات الكاذبة قد تكون أساساً لدعوى جزائية ضدها بتهمة الشهادة الكاذبة. هل فهمت هناء كلَّ ذلك؟

"نعم،" قالت دون إظهار عواطف. "إنني خريجة كلية الحقوق، في جامعة هارفارد."

راقب فاليس وجهها. "هل تؤيدين أعمال العنف ضد دولة إسرائيل؟"

"لا."

"هل لجأتِ مرة لذلك؟"

وضعت هناء إصبعاً على شفتيها. "أفترض أنني قد أكون قلت أشياء كهذه عندما كنت أصغر سناً. كما أنني قد أكون شعرتُ بتلك المشاعر. لكنني في الحقيقة لا أتذكر شيئاً من هذا."

أخرج العميل آلة تسجيلٍ أخرى من تحت الطاولة. "ما هذه؟" انطلق دافيد في السؤال.

كبَس فاليس على الزرِّ. فخرج من آلة التسجيل صوتٌ رفيعٌ شديد الغضب: "إذا كنا إرهابيين، فهو لأننا يجب أن نكون هكذا. *لعلَّ القتلَ هو كلُّ ما تركه اليهود لنا.*"

شعر دافيد برعشةٍ باردة في جلده. كان الصوت صوتَ صائب. وكانت الكلمات هي نفسها التي قيلت في هارفارد في الليلة الأولى التي تعرَّف فيها (دافيد) على هناء عارف.

"هل تتذكرين تلك الكلمات يا سيدة خالد؟"

"أجل، إنها كلمات قالها زوجي منذ سنوات عديدة."

بدت هناء لدافيد هادئة بما فيه الكفاية. أمَّا هو فلم يجد في نفسه هدوءاً. فالشريط كان كافياً لبعث الماضي، وللإضاءة على موقفه الدقيق، في الوقت الحاضر. "هل توافقين على هذه العبارة؟" وجَّه فاليس السؤال إليها.

"في الماضي، أم في الوقت الحاضر؟"

"في أيِّ وقت."

أجابته بصوتٍ سويٍّ. "ربما أنني أجد نفسي لا أوافق على هذا الكلام الآن، فلقد تعبتُ من فكرة القتل."

وضَع فاليس صورةً أمامها: رجلٌ ملتحٍ، ملامحه عربية واضحة، عيناه السوداوان القويتان تنظران من داخل وجهٍ نحيلٍ ينبىء بناسكٍ أو بمتشرِّد. "هل تعرفين هذا الرجل؟"

"نعم،"

"أين عرفته؟"

ابتسامة مريرة عبرت على شفاه هناء. "إنها الصفحة الأولى لمجلة نيوزويك تايمز. وأعتقد أنها تعود إلى إياد حسن، الذي لم يعد الآن يشبه صورته."

أيقن دافيد أنها غاضبة ـ ربما لأنها تحت المراقبة الدائمة، وربما لأنها غاضبة منه هو شخصياً. "هل سبق لكِ مرةً أن قابلتِ إياد حسن؟"

"كَوني بروفيسورة في الجامعة، فإنني ألتقي بالكثير من الناس. ولا أذكر على وجه التحديد أنني قد سبق لي أن التقيت هذا الرجل."

ركَّز دافيد انتباهه عليها ـ 'تبدين باردةً وقاسية'، حاول أن يُفهمها دون كلمات: 'تذكري أسباب حضورك *إلى هنا*.' وكأنها قد سمعت تقريعه لها، فإذا بها قد ليَّنت ملامحها، واعتدلت قليلاً.

"هل أنتِ متأكدة من أنك لم تلتقِ أبداً بالسيد حسن؟" استحثَّتها كورنبلوث.

"لا لست متأكدة. كلُّ ما أستطيع قوله إنني لا أتذكر أنني قد سبق لي وأن التقيت به."

"في أيِّ وقت؟"

"في أي وقت."

"ماذا عن المكالمات الهاتفية بالهاتف الخلوي. هل سبق لك وأن تحدثت معه على الهاتف الخلوي؟"

"لا أتذكر شيئاً من هذا القبيل. ولا أعرف ما هو السبب الذي يدعوني لفعل ذلك."

"على وجه التخصيص، خلال وجودك في سان فرانسيسكو، خلال هذا الشهر، هل تحدثتِ مرة مع حسن؟"

رفعت هناء حاجبيها، ناظرة نحو دافيد. "في سان فرانسيسكو؟" تساءلت بلهجة غير المصدِّق. "كلا، بالتأكيد كلا. لو حصل هذا الأمر لكنت سأتذكره." صار صوت هناء بارداً. "أنا لا أعرف هذا الرجل. كل ما قلته لكم كان نابعاً من حرصي على الدقة، وهو يعني فقط أنني لا أستطيع أن أقسم أنني لم ألتقِ به مرة."

"ما هو رقم هاتفك الخلوي الشخصي؟"

"972(59)696 ـ 0896".

"هل سبق لكِ وأن أعطيتِ هذا الرقم للسيد حسن؟"

بات دافيد مشدود الأعصاب متوتراً. فبالرغم مِن إنكارها، بدا من الأسئلة أن لدى الأف.بي.آي. أسبابٌ للاعتقاد أنها قد عرفَت إياد حسن. وأن دقَّة أسئلتهم ما هي إلَّا مقدمة لتأسيس دليلٍ على تحقُّق وقوع الشهادة الكاذبة. "لا،" أجابت هناء بلهجة ثابتة.

"مرة ثانية أكرر لك السؤال،" قال لها فاليس، "هل أنتِ متأكدة من ذلك؟"

"نعم."

"هل سبق لك وأن كتبتِ هذا الرقم الهاتفي لأحد؟"

بدت هناء قلقة ومرتبكة. "أعتقد أنني لم أفعل ذلك."

"حتى لزوجك، و/أو لابنتك؟"

"إنه هاتف جديد، اشتريتُه ربما منذ شهر. صائب ومنيرة قاما ببرمجة رقمه على ذاكرتي هاتفيهما. لذلك ليس من سبب يدعوني لكي أكتب الرقم لهما."

راقب دافيد شريط التسجيل يدور مسجِّلاً إجابات هناء. اختار فاليس كلماتِه بدقَّةٍ، وسألها: "هل سبق لكِ، في أيِّ وقتٍ، أن قمتِ بطباعة الرقم 896 ـ 972(59)696 على حاسوبك الشخصي الـ أتش.بي. الموجود في مكتبك في بيرزيت؟"

حدَّقت فيه هناء وكأنها تحاول استيعاب السؤال. فهو سؤالٌ بدا على وجه التحديد، أنه يقلقها ويربكها بقدر ما يقلق ويربك دافيد. "هل تقصد أن تسألني ما إذا كنتُ قد قمتُ بطباعة هذا الرقم على قطعة من الورق مستعمِلة من أجل ذلك: حاسوبي، وطابعتي، الموجودان في مكتبي؟"

"نعم."

رفعت هناء كفيها إلى الأعلى، إشارةً إلى ذهولها. "ولماذا أفعل ذلك؟ إن خط يدي واضح إلى درجة كافية."

"لطفاً أجيبي على السؤال. هل سبق لكِ في أيِّ وقت أن قمتِ بطباعة رقم هاتفكِ الخلوي، لأيٍّ كان، على قطعة من الورق، مستعملة الكومبيوتر والطابعة الموجودين في مكتبك؟"

"لقد أجبت على هذا السؤال. ولا أتذكر أنني قمت بهذا العمل. ولا أستطيع أن أتخيل سبباً يدعوني إلى فِعل ذلك."

لا بدَّ أن شخصاً ما، قد قام بهذا العمل. صار دافيد متأكداً. فلو كانت هناء هي التي فعلت ذلك، فإن دافعها الأوحد سيكون اجتناب كتابة الرقم بخط يدها لكي تستطيع أن تنكر لاحقاً أنها هي التي مرَّرت الورقة بنفسها، هذا على افتراض أنها لم تترك عليها أيَّة بصمات. والآن، تابعت كورنبلوث سلسلة أسئلتها هذه. "مَن هم الأشخاص، سوى أفراد عائلتك، الذين يمكنهم الوصول إلى هذا الرقم؟"

"فقط عدد قليل من أصدقائي وزملائي، الذين أعتقِد أن أسماءهم وأرقامهم مبرمجة على هاتفي الخلوي."

"وهل ما زلتِ تحتفظين بهذا الهاتف؟"

"نعم."

"هل استعملتِ هذا الهاتف في سان فرانسيسكو؟"

"نعم."

"من أجل، ماذا؟"

"لأكلم صائب ومنيرة، عندما نكون في أماكن مختلفة."

هذه الأسئلة، على الأقل، كانت الأسئلة التي حضَّرها دافيد لكي تجيب عليها. ومثلما كان دافيد قد سبق له وأن طرح هذا السؤال، إذا بفاليس يطرحه الآن عليها. "خلال وجودك في سان فرانسيسكو هل قمتِ بالاتصال بأيٍّ شخصٍ آخر سوى صائب ومنيرة؟"

"كنت قد اتصلت بالسيد وولف" قالت هناء بعفوية، "صديقنا منذ أيام كلية الحقوق. كذلك اتصلت بالمطاعم ومنظِّمي الرحلات. كما أعتقد أنني طلبتُ شركة سيارات تاكسي لينقلوني مع منيرة إلى زورق رحلات. وهذه الأرقام لا بد من أن تظهر على سجلات هاتفي." فكرَت لحظة ثم أضافت قائلة "لقد كلمت أيضاً والديَّ."

"أين يسكنان؟"

ضغطت هناء قليلاً على شفتها. "في مخيم للاجئين في لبنان. شاتيلا".

"ما هو رقم والديك؟"

استظهرته هناء لهما من الذاكرة. نظرت كورنبلوث نحو فاليس، ثم سألت: "خلال إقامتك في سان فرانسيسكو هل وضعتِ اتصالاً لأحدٍ، أو تلقيت اتصالاً من أحدٍ بين منتصف الليل وبين الساعة الرابعة صباحاً؟"

"كلا."

"هل فعلَ ذلك زوجك، أو ابنتك؟"

"لو ورَد إلى صائبٍ أو صدر عنه، أية مكالمة في مثل هذا الوقت، فإنني كنت لا بد لي من أن أصحو. أمَّا منيرة فليس لديها هاتف بعد أن فقدت هاتفها ولم نشترِ لها بعدُ بدلاً عنه."

"هل تقوم منيرة باستعارة هاتفك؟"

"لا. منيرة فقدَت هاتفها في سان فرانسيسكو دون أن أعرف أين أو كيف. إنني أحتاج إلى هاتفٍ، ولا أريدها أن تضيّع هاتفي أيضاً."

هذه المرة، كان فاليس هو الذي نظر إلى كورنبلوث، إشارة إلى أنه يرغب في التدخل. "هل الرقم الهاتفي (3666 ـ 669 ـ 415) مألوف لديك؟"

لقد كان هو السؤال المحدَّد نفسه الذي سبق أن طرحه فاليس على صائب. "لا،" أجابت هناء، مثلما كانت قد أجابت دافيد عن مثله. "ليس هذا الرقم مألوفاً لدينا فإذا كنت قد طلبت ذلك الرقم أو كان هذا الرقم عائداً لشخصٍ آخر قد طلبني، فأنا لا أتذكر شيئاً عنه."

انحنى فاليس إلى الأمام، وقال في نغمةٍ جديدةٍ، باردةٍ ومقتضَبة، "هل سبق لكِ وأن بحثتِ مع أيٍّ كان مسألة اغتيال بن آرون؟"

"نعم." "إذا كان السؤال يعني أنه قد يتعرض للقتل، فالجواب نعم، أعتقد أنني تكلمت في مثل هذا الاحتمال."

"مع من؟"

"مع الأصدقاء والزملاء في بيرزيت. فإمكانية مصرعه كانت مسألةً خاضعةً للتوقّعات منذ زمن."

"هل تناقشتِ مع أحدٍ في 'الوسيلة' التي قد يُقتل بها بن آرون؟"

"الوسيلة؟ نعم، بمعنى أنني اعتقدتُ أنه من الممكن أن يُقتل على أيدي أبناء شعبه من المتزمتين المتشددين، أو من المستوطنين الذين يخشون أن يقوم 'ببيعهم' حسب

طريقة تفكيرهم الملتوية." أسندت هناء ظهرها إلى ظهر مقعدها وهي تنظر إلى كلا العميلين بشعورٍ من الإرهاق والبرَم. "لماذا لا تسألونني إذا كنتُ أعرف شيئاً عن اغتيال بن آرون مما هو يتعدى ما يعرفه عامة الناس؟"

استدارت كورنبلوث نحو فاليس، ثم نحو هناء وسألتها، "هل كنتِ ضالعةً بأيِّ شكلٍ من الأشكال، في تخطيط، أو تنفيذ، عملية اغتيال عاموس بن آرون؟"

"لا،" أجابت هناء، "بالتأكيد لا."

"هل كنتِ مرة تؤيدين قتل بن آرون؟"

"كلا، لقد شعرتُ نحوه بقلَّة الثقة وليس بالكراهية." ارتفع صوت هناء قليلاً. "إنني لا أؤيد أعمال القتل ـ لا أؤيد قتل اليهود في أسواقهم، أو باصاتهم، أو مقاهيهم، كما أنني لا أؤيد قتل رئيس وزرائهم. منذ سنوات طويلة كنت قد توقفت عن الاعتقاد أن مثل هذه الأعمال العنيفة قد تخدم أيَّ قضية، سوى أنها تتسبب في استمرار هذه الدورة التي لا نهاية لها من الموت. وإن الأمر ليبدو الآن لي واضحاً، ما يجب أن يكون واضحاً لكل عاقلٍ، أن لا خير يرجى من كل هذه الأعمال."

"أين كنتِ خلال إلقاء بن آرون لخطابه؟"

رغم التدريب الذي كانت قد تلقته بخصوص هذا السؤال، على يد دافيد، فإن هناء تردَّدت. "كنت أتجوَّل وحيدة."

"أين؟"

"في محيط ساحة يونيون سكوير."

"لماذا لم تشاهدي الخطاب مع زوجك وابنتك؟"

حدَّقت هناء في الطاولة. "لم أشعر برغبة في ذلك. لقد سمعتُ كفايتي من الخطابات الكثيرة."

"هل أخبرتِ زوجك أنك خارجة للتسوّق؟"

"نعم؟"

"وهل تسوَّقتِ؟"

"كلا، لم أشعر أنني في مزاجٍ للتسوق أيضاً."

"هل دخلتِ أياً من المخازن؟"

"كلا، لست أذكر."

"ماذا فعلتِ إذاً؟"

"كما قلت لكم، كنت أتجوَّل. دون أن أدري إلى أين تقودني خطاي." حتى وإن كانت هذه هي الحقيقة، فكَّر دافيد، فإن الجواب يبقى مؤسفاً، لأنه يترك فراغاً في وقتٍ يعتبر دقيقاً وحسَّاساً.

"هل تحدثتِ مع أحد؟"

"لا. على الأقلّ، إنني لا أتذكَّر أنني قد فعلتُ شيئاً من هذا."

طوت كورنبلوث ذراعيها أمامها. "هل تحملين هاتفك الخلوي معك؟" سألَتها.

"نعم، أعتقد ذلك."

"هل تملكين أيَّ هاتف خلويٍّ عدا الهاتف الذي أبرزته لنا؟"

ارتعشت أجفان هناء. "لا."

"هل أنت متأكدة؟"

"نعم."

"هل تلقيتِ أية مكالمة هاتفية من أيٍّ كان، بينما كنتِ تتجوَّلين؟"

تضيَّقت حدقتا هناء في تفكير واضح. "لا أعتقد ذلك، لا. لا أستطيع أن أتذكر شيئاً كهذا."

"وهل قمتِ أنتِ بالاتصال بأحد؟"

"لا."

"هل أنت أكيدة من ذلك؟" تدخَّل فاليس.

"جداً."

"ما الذي يجعلك شديدة التأكُّد يا سيدة عارف؟"

"لأنه لم يكن لديَّ أية رغبة في التحدث مع أحد." كان صوتها خافتاً. "هل حدث لكَ وأن توقفتَ للتأمل في أحداث حياتِك، سيد فاليس؟ هذا ما كنتُ أفعله."

بدا أن العميل توقَّف عند هذا الجواب. "تتأملين حول ماذا بالتحديد؟"

"حول أشياء كثيرة، معظمها أشياء شخصية ولا تعنيكم بشيء."

"هل تأملتِ أيضاً بشأن عاموس بن آرون؟"

"فقط بمعنى أنني تعِبة."

"تعِبة من رئيس الوزراء بن آرون؟"

حدَّقت فيه هناء مباشرة. "أودُّ أن أقول إنني أشدُّ تعباً بسبب شعوري بالارتباط بدولة إسرائيل، منذ صرت 'كبيرة' إلى درجة كافية لكي أعلم أنني ولدتُ في مخيم للاجئين، وليس في وطني." صار صوتها أكثر هدوءاً. "لماذا أنا الآن هنا أتحدث معك؟ ولماذا تنتاب ابنتي كوابيس مرعبةٌ عن القنابل، وعن الجنود؟

"سوف أستمرُّ في الإجابة على أسئلتكم إلى القدر الذي تشاؤون. لكن ذلك قد يستمر حتى نهاية أعمارنا. ومن أجل ماذا؟" استدارت نحو دافيد، وعيناها تغرورقان بالدمع. "أنا لم أفعل شيئاً. هذا هو كل ما أستطيع أن أقوله لكم. فإذا كنتم تصدقون أو لا تصدقون، فإن ذلك أمرٌ لا أستطيع أن أفعل له شيئاً."

بعد ذلك، أخذ مكتب الأف‌بي.آي. بصمات هناء.

* * *

نقلها دافيد بسيارته إلى الفندق فيما الهواجس المنذرة تلازمها ملازمة الظلّ. وسوى إجاباتها الفاترة المختصرة على أسئلته، لم تكن هناء قد تكلمت قطُّ. وعندما أوقف دافيد سيارته كان قد مضى عدة دقائق لم تنبس خلالها هناء ببنت شفة.

"إذا سمعتِ شيئاً من الأف‌بي.آي." قال لها. "اتصلي بي."

فتحت هناء باب السيارة دونما استجابة. وعندما كانت عند منتصف ترجُّلها، توقفت، مستديرة نحوه بنظرة طويلة لم يستطع أن يجد لها تفسيراً. "وداعاً يا دافيد. شكراً لك على كل ما فعلتَه من أجلي."

وقبل أن يتمكن من الإجابة، كانت هناء قد ابتعدت.

الفصل 6

بعد برهة طويلة من انتهائهما من المضاجعة، كان دافيد لا يزال يضمُّ إليه جسد كارول عن قربٍ شديد. وجد نفسه ملتصقاً بها كمن يتمسَّك بحقيقة واقعيَّة تنبَّه إليها بعد غفلةٍ، وهو يخاف أن تفلت منه من جديد.

واستمرا مضطجعين في غرفة نوم دافيد في شقته الإسبانية الطراز، الواقعة في المارينا ديسترِكت. كان ذلك في أصيل يوم جمعةٍ، أي بعد انقضاء يومٍ على استجواب هناء عارف. ومع أن كارول لم تكن قد غابت عنه إلا منذ يوم الثلاثاء، فإنَّ دافيد شعر أنه عاش حياة أخرى خلال هذه الأيام الثلاثة. حياة فقد فيها الإحساس بأرضٍ صلبةٍ يقف عليها. فهو خائفٌ على هناء وخائفٌ مما قد تكون قد آلت إليه أحوالها، وها هو يعيد عيش ماضٍ كان قد حسِب أن الزمن قد ضرب دونه ستاراً إلى الأبد.. لكنه الآن لا يستطيع التوقف عن إعادة فحصِ الماضي. والأدهى من ذلك كله، أنه لم يعد يشعر أنه لا يزال كما هو، أي على ذاته التي يعرفها. فمنذ أقلِّ من أسبوعين، كانت كارول تجسِّد له سكينة العقل التي يصبو إليها. وهي تدرج على الأرض بمنطقٍ واضحٍ، وترنو إلى الأشياء بعينٍ بصيرةٍ صافية. كان يأمل أن يصير الشغفُ الذي شغِفه يوماً بهناء، رافداً له في نظرته إلى مستقبلٍ تضرِبُ جذورُه في تربة حبٍّ يتساوق مع طبعه الحقيقي. فما يشعر به الآن لم يكن سوى تعبيرٍ عن توقٍ شديدٍ لإعادة معانقة حياةٍ مستقرةٍ لا مجال بعدها للانجراف في تيارات مشاعر جامحة لا يتَّضح لها حدٌّ، ولا يُمسِك بها لجام. لهذا، وجد نفسه يتشبث بطيبة كارول الجوهرية - بما فيها من دفءٍ، وسلامة تفكيرٍ، وواقعيةٍ - تشبُّثَ العاشق الخائن التائب.

كان دافيد يدرك أنه لو حصل هذا مع امرأة أخرى. فلربما كانت ستستقبله منه كهديةٍ غير متوقَّعةٍ من خطيبٍ يعبِّر عن امتنانه لاكتشاف مزايا لها، لم تكن بعدُ قد عرفتها. لكن الوضع مع كارول كان يختلف. فقد أبعدَت وجهها عنه قليلاً، متأملة فيه ملياً بنظرة حملَت فضولَ امرأةٍ قد دوزنَت نفسها تماماً مع رجلٍ لها، بكل تفاصيله وتعقيداته: "هل صفيت علاقاتك الآن مع هؤلاء الفلسطينيين؟"

"نعم، لقد عملتُ ذاك الشيء القليل الذي يمكنني أن أعمله من أجلهم."

شيء ما، في نغمة صوته طرقَ سمْعَها المرهف. "هل هما متورِّطان؟"

"لا أستطيع إفشاء أسرار تحقيقٍ تقوم به الأف‌بي‌آي. لكنني الآن على الضفة الثانية من هذه القضية." لامَسَ دافيد وجهها. "منذ أحد عشر يوماً كنا قد حدَّدنا معاً موعد حفلِ زواجنا. كان ذلك في الليلة التي التقينا بها عاموس بن آرون. ثم في اليوم التالي شاهدناه يتحول إلى شظايا تتطاير في الهواء. ومنذ ذلك الحين ما زلنا بين اضطرابٍ أو فراق. أمَّا فكرتي العلاجية حول ذلك، فهو أن تنهضي غداً صباحاً، فتنتعلين حذاء الجري، وتهرولين على طول شاطىء الخليج إلى أن تصِلي إلى مقهى فورت بوينت، حيث تأكلين شيئاً ثم تعودين مشياً فتقرأين الجريدة وتختارين الفيلم الذي علينا أن نشاهده معاً. أمَّا أنا فسوف أطبخ عشاءنا بنفسي. ويوم الأحد، بعد انتهاء برامجنا، يمكننا أن نبدأ معاً بإعداد قائمة المدعوين إلى حفل زفافنا." قبَّل دافيد كارول وكأنه يستجرُّها إلى المزاج الذي رسمه. "طبيعي!" أنهى كلامه. "علينا أن نبدأ التصرُّف في هذه الحياة بطريقة عادية لعلها تصفو لنا بدورها وتجري بطريقة عادية."

"الحق معك." تخلَّت كارول عن نظراتها المتفحِّصة فيه، ملقية رأسها على كتفه. "لقد مرَّ علينا معاً أشياء كثيرة في المدة الأخيرة."

شعر دافيد بالامتنان لأن كارول لم تستطع أن تقرأ أفكاره، وحاول أن لا يقلق من أجل هناء - هناء المرتهَنة في الدهاليز الغامضة لزواجها، والعالقة قسراً في بلدٍ غريب - هناء التي باتت حتى في ذهنه هو تتأرجح بين الإثم والبراءة. لقد كانا صغيرين، جاء في باله، غافلين عن حقيقة أن حياة كل منهما، مثل حياة أهليهما، سيأتي يوم يضع فيه الزمن بصماته عليها. بصماتٌ تحدِّدها قراراتٌ اتُّخذت أو لم تُتَّخذ، بطُرقٍ تقعُ خلف حدود القدرة على التصوُّر. لهذا، فهو يجد أنه من المفهوم جداً أن تتنقَّل أفكاره بين هناء ومنيرة، بينما هو ينام مع كارول. بعد قليل، شعر بأنفاس كارول تصبح عميقة بعد أن غطت في النوم.

رنَّ جرس الهاتف. سألته كارول بجفنين ثقيلين، "هل تريد أن تجيب عليه؟"

كان الرقم الظاهر على الوجه المضاء لساعته المنبهة يشير إلى الساعة السادسة إلا الربع مساء. "هذا ما أحصل عليه من لعبة الهوكي" قال دافيد وهو يردُّ على الهاتف بتأفف.

بدأ شريط الرسالة الصوتية بالانزلاق إلى سمعه، فشتم دافيد سلطة التسويق الهاتفي القاهرة لراحة الناس. وكان على وشك إعادة السمَّاعة إلى مكانها. "آلو،" انطلق الصوت. "أنت تستقبل مكالمة من نزيل في السجن الفيديرالي. لكي تستقبل المكالمة، اضغط على الرقم واحد، أو قل: "نعم". ولكي ترفض المكالمة، يمكنك أن تضغط على الرقم اثنين، أو أن تغلق السمَّاعة."

عدَّل دافيد جلسته، محاولاً استجماع أفكاره. السجناء الموكِلون فقط يمكنهم طلب مكالماتٍ مدفوعة الأجر من المتلقِّي. "هل من خطبٍ؟" دمدمت كارول.

ضغط دافيد على الرقم واحد. "دافيد؟ آسفة لكن ليس لي أحدٌ سواك كي أتصل به." كان صوت هناء متوتراً خائفاً. "إنني الآن معتقلة بسبب حادثة قتل عاموس بن آرون."

"يا إلهي." جاهد دافيد نفسه لكي يستطيع أن يلجم مشاعره الخاصة. "أخبريني بما حصل معك خطوة فخطوة."

"حضر جماعة الأف.بي.آي. لاعتقالي. فاليس والمرأة العميلة، واثنان غيرهما. فتشوا شقتنا في الفندق، وصادروا جهازَي 'الكمبيوتر النوت بوك' العائدين إلينا، كما صادروا هاتفينا الخلويين، وقلبوا أغراض شقتنا رأساً على عقب. لقد أصيبت منيرة بذعرٍ شديد".

"هل اعتقلوا صائب؟"

"كلا ما زالوا يحتفظون به هنا كشاهدٍ حسِّي. أرجوك أن تصدّقني. لم أرتكب أيَّ ذنب. ولا أعرف ما هو السبب الذي يعتقلونني من أجله."

إن مارني شارب، فكّر دافيد، لا يمكنها أن تكون قد فعلَت كل ذلك دون أن يكون لديها سبب تستند إليه، ودون أن تكون واثقة من نفسها، ودون أن تكون قد أخذت موافقة مسبقة من المدعي العام الأول للولايات المتحدة. وربما بعد معرفة رئيس الولايات المتحدة ذاته. فهذه لم تكن مجرد ملاحقة جزائية عادية. إنها ملاحقة تحمل رسالة أميركا إلى العالم، التي تقول: إن جهازها القضائي ينبض. وأنها مصمِّمة على ملاحقة المسؤولين عن اغتيال عاموس بن آرون ومعاقبتهم. كما أن عدم قيام شارب بإخباره عن الدقائق والتفاصيل، وعدم إعطائه الفرصة لإحضار موكليه إليها، لا يجب تفسيرها فقط على محمل تجاهل المجاملات المعتادة فحسب، بل على محمل رغبة شارب في اللجوء إلى المفاجأة أملاً برغبتها في وضع اليد بسرعة على ما قد يكون تحت يد صائب وهناء من أدلَّة.

"أين أنتِ معتقلة؟" سألها دافيد.

"في مركز السجن الفيديرالي." صمتت هناء قليلاً، ثم سألت بقلق: "هل ستأتي؟"

كان دافيد هادئاً تماماً. "سأذهب إليكِ" سمع نفسه يقول. "حافظي على هدوئك. لا تتكلمي مع أيٍّ كان، عن أيِّ شيء مهم."

أنزل دافيد السمَّاعة. "مع من كنت تتكلم؟" سألته كارول.

لامسها دافيد من الكتف، ملامسة من يطلب الهدوء. أمسك جهاز التحكم في التلفزيون. ظهرت مارني شارب على الشاشة وهي تقف خلف منصة مرتفعة، وقد وقف فيكتور فاليس إلى جانبها. "إن قرار الاتهام الخماسي النقاط،" كانت شارب تقول، "يتحدث

عن ادعاء حكومة الولايات المتحدة على هناء عارف بأنها قد تدخلت في تخطيط وتنفيذ عملية اغتيال عاموس بن آرون، التي نتج عنها مقتل رئيس الوزراء، وآريل غليك من جنود حرسه الخاص، والعميل رودني دايفيس من البوليس السري للولايات المتحدة الأميركية."

تراجعت كارول إلى الوراء وهي تقول "يا إلهي.."

"أولاً،" تابعت شارب القراءة، "القرار الاتهامي يدَّعي أن هناء عارف منتسبة إلى كتيبة شهداء الأقصى، وهي جماعة فلسطينية إرهابية مناهضة لدولة إسرائيل." ومع أن صوت شارب جاء واضحاً، إلَّا أن وجهها كان شاحباً، وكانت تخالجها تأتأة متقطعة تشي بتوتر أعصابها تحت الوهج الإعلامي لهذه القضية، ونظراً لشدة التدقيق العالمي بما يصدر حولها. "ثانياً،" تابعت قراءتها، "إن السيدة عارف قامت بتجنيد القاتل إياد حسن، وهو طالب في جامعة بيرزيت، وعضو في الأقصى. وهو قد قام بدوره بتجنيد القاتل إبراهيم جعفر.

"ثالثاً، إن السيدة عارف أمَّنت إيصال التعليمات إلى المهاجمين بواسطة اتصالات بالهاتف الخلوي مع إياد حسن منذ ابتداء رحلتهما من بيرزيت وحتى وصولهما إلى سان فرانسيسكو، وانتهاء بتحركاتهما يوم تنفيذ الاغتيال. كما تناولت هذه التعليمات تأمين الوسائل ـ من ملابس عسكرية، ودراجات نارية، ومتفجرات، ومعلومات عن الطريق الذي سيسلكه الموكب الرسمي لرئيس الوزراء ـ اللازمة لتنفيذ العملية."

"كلُّ ذلك لوحدها؟" سأل دافيد بأعلى صوته.

"رابعاً،" تابعت شارب، "من أجل إنجاح عملية الاغتيال، كانت السيدة عارف قد تآمرت مع أشخاص آخرين، ما زالوا مجهولين حالياً، من داخل الولايات المتحدة ومن خارجها." رفعت شارب نظرها عن الورقة مكملة بثقة أكبر. "ومن أجل تسهيل اتهام هناء عارف فإن وزارة العدل اعتمدت على معلومات كان قد قدمها إبراهيم جعفر، كما استندت على أدلة حسيَّة تدعم معلومات جعفر. هذا ولم تُعط أية وعودٍ في المقابل، سوى أن وزارة العدل ستأخذ تعاوُن جعفر معها بعين الاعتبار، بعد محاكمة السيدة عارف، عند تقريرها للعقوبات التي سوف تطلُب إنزالها، في مقابل اعترافه بذنبه."

"لن يطلبوا له الحكم بالإعدام،" قال دافيد. "هذه هي الصفقة."

"إن التحقيقات،" ختمت شارب، "ما زالت مستمرة. ويبقى علينا الكثير من العمل قبل أن نتمكن من أن نعرف الأبعاد الكاملة لهذه المؤامرة. والوسائل التي توصل بواسطتها المتآمرون من أجل الحصول على المعلومات اللازمة لتنفيذها. لكن مع صدور هذا الاتهام نكون قد خطونا الخطوة الأولى نحو المحاسبة الكاملة. وعلى المجتمع العالمي أن يكون متأكداً أن حكومتنا عازمة على وضع جميع طاقاتها ومواردها في خدمة هدف كشف وملاحقة كل شخص ـ أينما وجد، أو حاول الاختباء ـ يتبين أنه مسؤولٌ عن هذه الجريمة

التي استهدفت حياة ثلاثة أشخاص، مثلما استهدفت دولة إسرائيل، وأمن الولايات المتحدة."

"لقد قتلَته،" قالت كارول بصوت ثقيل.

عندما استدار دافيد، كانت عينا كارول مليئتان بالخوف وعدم التصديق. "لم أكن أدري بذلك،" أجابها.

كان هذا كل ما وجده من كلامٍ، ومثل آلة مسيَّرة بدأ في ارتداء ملابسه. "إلى أين أنت ذاهب؟" سألته كارول.

"إلى مركز الاعتقال الفيديرالي."

"هل كانت المكالمة منها؟" قفزت كارول من السرير، غافلة عن كونها عارية. "ألا تفهم ما فعلَت؟"

زرَّر دافيد قميصه متخبِّطاً. "أنا لم أفهم شيئاً من كل هذا."

"إذاً كيف يمكنك الذهاب إلى هناك؟" كان صوتها يرتجف. "لا تنسَ أنك يهودي يا دافيد. وأنك تعرف عاموس بن آرون."

"وأنا أيضاً أعرف هناء عارف." ناضل دافيد لإيجاد كلماته. "لم أكن أعرف إلامَ سيتطور هذا الأمر يا كارول. لكنني لا أزال وكيلها. وقبل أن أسحب وكالتي عليَّ أن أجد لها وكيلاً جديداً."

"كان بإمكانك أن تخبرها بذلك بواسطة الهاتف."

"إنها خائفة." وجد نفسه يحاول أن يبرر ذهابه. "ابنتها خائفة، وليس لهم أحد. وأنا لا أستطيع أن أقلب اللحاف فوق رأسي قبل أن يتوفر شخص آخر ليكمل تمثيلهم."

بشفتين متباعدتين، حدَّقت كارول نحوه مجروحة وتائهة.

"كنت غبياً،" قال لها. "أمَّا الآن فإنني في حاجة إلى الخروج من هذا الوضع بدرهمٍ واحدٍ من احترام النفس."

قبَّل جبينها بسرعة ثم غادر على عجلٍ، بينما بقيَت هي واقفةً كالتمثال.

* * *

قاد سيارته عبر جسر الخليج الذي كانت أنواره تلتمع على خلفية من الغسق الأزرق الغامق، متجهاً إلى دانفيل. كان يعرف الطريق غيباً. قاد سيارته بحاسته اللاواعية. بينما كان عقله منشغلاً بطنين التعليق على هذا البلاغ الصحفي الذي جاء فيه أن الدليل الحسي قد

تضمَّن مكالماتٍ هاتفيةٍ، وبصماتِ أصابعٍ، وإن كان قرار الاتهام لم يشرح كيف أن هناء عارف استطاعت أن تعرف مسبقاً ما هيَ الطريق التي سوف يسلكها موكب بن آرون. ثم استخرج هاتفه الخلوي. وبينما هو مستمر في القيادة، مستعملاً إحدى يديه فقط، طلب رقم مكتب مارني شارب.

أجاب فيكتور فاليس على المكالمة. "فيكتور،" قال دافيد بجفاف، "هذا دافيد وولف. أعطني مارني."

كان هناك بعض التأخُّر. سمع فاليس يتكلم بصوت خفيض. ثم سمع شارب تقول: "نعم يا دافيد."

"إنني في طريقي إلى دانفيل. لن أتوقف الآن لمعاتبتك على عدم الاتصال بي. فقط قولي لي ما هي حقائق القرار الاتهامي وأمِّني لي إمكانية الوصول لرؤيتها."

كانت نغمة صوت شارب تتراوح بين البرودة وعدم التصديق. "هل أنت حقاً لا تزال موكلاً عنها؟"

"سأتابع ذلك فقط إلى أن أسلِّم دوري لسواي. لكنني أسألك عن ذلك الآن وليس بعد حين." خفف دافيد السرعة منحرفاً إلى خط السير الأيمن بينما كان يمرُّ بقربه تيار من الأضواء الأمامية للسيارات. "حسبما سمعتُ من تصريحكِ الصحفي، فأنتِ لا تدَّعين أن جعفر كان قد تحدَّث معها مباشرة."

"هذا صحيح."

"إذاً كيف بالضبط؟ من هو الشخص الذي يوجه إياد حسن؟"

"إياد حسن كان قد أخبره بذلك عدة مرات. ثم إن جعفر يعرف عارف من النظر إلى وجهها." تردَّدَت شارب قليلاً، ثم أضافت: "أنت تعرف القواعد المتعلقة بالإثبات الشخصي المستند إلى التواتر، مثلما أعرفها أنا يا دافيد. لذلك، فإن شهادة جعفر ضدها في المحكمة تعتبر مقبولة."

"ربما كان ذلك صحيحاً، وربما لا. لكنكِ لن تتهميها بناء على معلومة متواترة من قاتلٍ انتحاريٍّ فشل في أن يقتل نفسه. ما هو إسنادك؟"

"لقد عثرنا على قطعةٍ من الورق، تحمل رقم هاتفها الخلوي." أجابت شارب، "وهي تحمل بصماتها وبصمات إياد حسن. كما أن هاتف حسن الخلوي يظهر أنه قد صدرت عنه مكالمة إلى الرقم نفسه بعد قليل من منتصف ليل اليوم الذي حصل فيه الاغتيال."

شعر دافيد بطعنة من اليأس. "هذا يعني أنكم استعدتم هاتف إياد حسن؟"

"نعم. من وعاء للمهملات بجانب ماركت ستريت."

"دعيني أستوعب ذلك جيداً. عثرتم على مكالمة واحدة إلى هناء عارف آتية من إياد حسن. هل هذه هي مكالمته 'الوحيدة' إلى رقمها؟"

"نعم،"

"إنني أفترض أن حسن قد أجرى اتصالات، كما تسلَّم مكالمات أخرى من وإلى هاتفه، مع هواتف خلوية أخرى. بما في ذلك اليوم الذي تمَّ فيه تفجير بن آرون."

سمع دافيد صمْت التفكير، فيما شارب توازِنُ موجباتها. "هذا يتجاوز واجهة القرار الاتهامي يا دافيد. زميلك المحظوظ الذي سيخلفك في هذه القضية سيتقدم بمذكرة كشف معلومات، وسنزوده بكل ما نحن ملزمون بالكشف عنه. وفي ذلك الحين، إني أميل إلى الاعتقاد، أنك ستكون قد تابعتَ سعيك نحو منصبك المنتخَب."

لقد أخبرَته بكل ما هي ملزَمةٌ به. شكرها دافيد، وتابع طريقه لكن بسرعة أكبر، فيما التعليق على البيان الصحفي يتسلل إلى أطراف وعيه.

* * *

كان مركز التوقيف الفيديرالي عصرياً، ومطابقاً للشروط الدستورية. فهو مجمَّع هادىء، مؤلف من طابقين، أقيم على أرض قاعدةٍ قديمةٍ للجيش. بدا الأمر لدافيد شبيهاً بالدخول إلى مستشفى. فهو نظيف ومعقم ورحب. أمَّا الميزة الوحيدة الجديدة فقد كانت محنة مواجهة الصحافة في خارجه. حيث احتشد جمعٌ من المراسلين والمصورين والتقنيين من حملة الكاميرات الصغيرة. وبينما كان يقود سيارته في محاذاتهم، انتاب دافيد شعور غير مريح، هو شعور من لا يرغب في أن يلاحظه أحدٌ أو أن يتعرف عليه مخلوق.

أوقف دافيد سيارته وقدَّم أوراقه إلى حارس المحطة ثم مرَّ خلال جهاز كشف المعادن. وفي دقائق قليلة كان قيِّم فيديرالي على السجناء يرشده خلال حجرة كبيرة مخصصة للقاء العائلات مع المحتجَزين. خلف الحجرة كان ثمة أبواب عديدة لها شبابيك ذات زجاج مشبَّك بأسلاك معدنية بحيث يمكن مشاهدة المختلِين وراءها دون سماع أصواتهم. ومن خلال إحدى هذه الشبابيك، شاهد هناء عارف، وراء طاولة فورمايكا. كانت يداها مكتفتين أمامها، ورأسها منحنٍ، وكأنها تصلي.

كانت ترتدي سترة سجناءٍ حمراء اللون، من النوع المخصَّص للمتهمين بأسوأ الجرائم، والذين يتطلبون أقصى الاحتياطات الأمنية. كانت السترة فضفاضة جداً بالنسبة لها، بحيث إنها تكاد تختفي في داخلها الذي لا شكل له. فكّر في هناء التي شاهدها لأول مرة ـ تناقش في قضيتها الفلسطينية بفخرٍ، واقفة كإبرة قبَّانٍ، بين مستقبلها الخاص، وبين مستقبل أبناء شعبها ـ وجد دافيد أن المنظر كان مؤلماً بقدر ما كان يصعُب تصديقه.

فتح القيِّم الباب مفسحاً لدافيد بالدخول.

وقفت هناء على الفور، والأمل يترجرج في عينيها. شرعَت في السير نحوه ثم توقفت ـ ففي أقصى الأحوال لا يمكن أن يكون دافيد الآن أكثر من وكيلها. بدا أنها تذكرت ذلك، كما تذكرت أنها كانت قد تنازلت عن العلاقات الحميمية معه منذ أمدٍ بعيد.

وقف يحدِّق بها فيما الطاولة تفصل بينهما "هل أنت بخير؟"

استحضرَت ابتسامةً شاحبةً. "إنه سؤال سخيفٌ من جانبي. لكن المرء لا يستطيع أن يهيىء الكلام للحظاتٍ مثل هذه اللحظة، حيث يصعب إيجاد كلمة واحدة جيدة تقالُ. أنتِ وأنا، تعلمنا ذلك منذ ثلاث عشرة سنة."

جلس دافيد قبالتها. لم يستطع أن يزيح عن ذهنه هذا المشهد السوريالي حيث يجلس كلاهما وراء الأقفال في غرفة مبلَّطة الأرض، حجرية الجدران، يقوم على حراستهما فيها حارسٌ مسلح. "متى يمكنني ان أرى منيرة؟" سألته هناء.

هذا الاهتمام، كان على الأقل، مألوفاً. "كل يوم،" أكَّد لها. هناك ساعات مخصصة للزيارة العائلية وتستطيعين مقابلتها، ومقابلة صائب، في الغرفة الخارجية. ستكونون تحت رقابة حارس. ولا يحق لك ملامسة أحد. من الأفضل أيضاً أن يكون كلامكم بصوت خفيض لأن الحراس يميلون إلى التنصُّت. لكن على الأقل ستشاهدينها."

مسحَت هناء جفنيها. "من المفترض أنني لا أرغب في أن تراني على هذه الهيئة، لكن لا خيار لي. هذا أسوأ ما يمكن أن يحصل لي. أريد أن أقوم بدوري تجاهها كأم، ومع ذلك لا أجد عندي ما يصلح لكي يهدئها ويريحها."

صار ألمها صريحاً واضحاً لدرجة جعلت دافيد غير قادر على التصديق أن هذه المرأة يمكن أن تغامر بالقيام بعملٍ يمكن أن يؤدي بها إلى السجن. لكنه علم أيضاً، لأسفه الشديد، أن هناء مهما بلغت مشاعرها تجاه شخص ما، فإنها تبقى عرضة في الوقت نفسه للوقوع تحت وطأة عواطف وانفعالات تغلبها على حبها.

"في أي غرفة يعتقلونك؟" سألها.

"في حجرة تحتوي على سرير واحد، وطاولة صغيرة، وقليل من الضوء، إنها أسوا من غرفةٍ في مهجع الكلية. لكنهم يقولون إن باحة الرياضة جيدة التهوية." هزَّت رأسها طاردة تلك المحاولة السخيفة للمحافظة على الرشاقة. "ماذا سيحصل معي الآن؟"

تلفَّت دافيد في أرجاء الغرفة العارية تماماً من أي اعتبار للشخصية. "عليَّ أولاً أن أقول لكِ شيئاً. كلُّ ما أقوله أنا هنا، وتقولينه أنتِ، قد يكون عرضة للتنصُّت من شخصٍ ما، وعليك أن تتذكري ذلك دائماً. أعرف أن هناك حصانةً لعلاقة المحامي بموكله. ولكن في ظل الأحكام والتدابير الوقائية ضد الإرهاب: فإن الحكومة تستطيع أن تعيِّن فريقاً من الناس

لمراقبة أيِّ حديثٍ لا يتعلق بالتحقيق، يجري بيننا، بصرف النظر عن موضوعه. أمَّا تبريرهم لذلك، فيكون بأنهم يقومون بتحريات تتعلق بمتابعة تطورات عملٍ إرهابي.

"منذ هذه اللحظة يا هناء، أنتِ إرهابيةٌ مشبوهةٌ. شركاؤك المتآمرون غير معروفين، ولا يمكن التنبؤ بالضغوط التي يمكن أن تُبذل لكشفهم. وإني لا أثق في أن تكون الحكومة حريصةً كل الحرص على حقوقك الشخصية."

غامت عينا هناء. أجالت النظر في الغرفة كأنها ترى لأول مرة هذا السجن الذي قد يصبح مقراً لها، ما دامت على قيد الحياة. "تستطيعين إجراء مكالماتٍ هاتفيةٍ مع محاميك تكون مدفوعة الأجر من المتلقِّي." تابَع دافيد. "لكن المكالمات الهاتفية عرضةٌ للتنصُّت أيضاً، مثلما هو الحال مع مكالماتك مع منيرة وصائب وسواهما. لذلك عليك توخي الانتباه والحذر. لديك ثلاث مئة دقيقة كل شهر، خمس عشر دقيقة كحد أقصى لكل مكالمة. إذا استهلكتِ الخمسة عشر دقيقة بكاملها في كل مرة، فإن هذا يسمح لك بأربع إلى خمس مكالمات في الأسبوع. وتستطيع الحكومة التنصت على هذه المكالمات. وهذا أمرٌ مؤكَّد. أما بخصوص مكالمة والديك فإني أخشى ألاّ تكوني قادرة على ذلك." تكلم دافيد الآن بصوت أكثر انخفاضاً. "آسف جداً لأن أكون واضحاً ومباشراً معك إلى هذه الدرجة. ولكن من أجل حمايتك، وحتى من أجل سلامة تفكيرك، فإنك في حاجة لمعرفة القواعد."

"ألا تستطيع إخراجي من هنا قبل انعقاد المحاكمة؟ عليَّ أن أكون مع منيرة."

"يستطيع محاميك أن يتقدم عنك بطلب إخلاء سبيل بكفالة. لكن طلبه لن يُقبل." حافظ دافيد على لهجة مجانِبةٍ للعواطف. "هذه قضية قد تتضمن طلب عقوبة الإعدام. وليس هناك من مجال لإخلاء السبيل عندما يكون عاموس بن آرون هو الضحية. الطريقة الوحيدة السريعة للخروج من هنا: هو بتسليمكِ إلى إسرائيل."

"هل يمكن لهم أن يقوموا بذلك؟" سألته هناء في ذعر.

"هذا أمرٌ قد يحصل ولا سيطرة لكِ عليه، إنها لقْطةٌ مُحكمة." توقف دافيد متألماً لمشاهدتها وهي تنصت لعمق فداحة الورطة التي تكابدها. "هذا كثيرٌ عليكِ، أعرف ذلك. كم تريدين أن تعرفي عن ورطتك في الوقت الحاضر؟"

عدَّلت هناء كتفيها بتحدٍّ. "كلَّ شيء."

"حسناً،" قال دافيد ببطء. "في إسرائيل لا يوجد عقوبة إعدام، ما عدا الجرائم المقترفة ضد الشعب اليهودي - وهي في الجوهر جرائم القتل الجماعي المتعلقة بالهولوكوست. من جهة مقابلة فإن المتهم قد يملك حقوقاً أكثر هنا. وكمتهمة بأنك إرهابية فلسطينية، فإنني أختار لك محاكمة هنا في أميركا. حتى وإن كان هذا في أعقاب الحادي عشر من أيلول."

شبكت هناء ذراعيها كمن يتّقي البرد. "تابِع كلامك."

"إن أسوأ ما قد يحدث لك،" تابع دافيد "هو أن تتم محاكمتك في أميركا بسبب قتل عميل الشرطة السرية، ثم أن تتم محاكمتك في إسرائيل من أجل مقتل بن آرون، وغْلِيك، ثم أن تعودي إلى أميركا لتنفيذ الحكم." مجبراً نفسه على القيام بدوره كمحام، نظر دافيد في وجه هناء. "إنني لا أقول إنك مذنبة لكن شارب مقتنعة بأنك كذلك. أمّا ما أريد قوله فهو التالي: إذا كنت تعلمين أيَّ شيء عدا عمّا قلتِه لي، أيَّ شيء على الإطلاق، فإن عليكِ أن تفكري جيداً قبل الإفضاء به."

أغلقت هناء عينيها. "هل قلتَ كل ما عندك الآن؟"

"نعم."

"إذاً الآن جاء دوري. ليس عندي من شيء آخر 'أفضي به'. هذه هي المشكلة في أن يكون المرء بريئاً. أنا لا أبالي بما يقولون، ولا أبالي بمن قد يكون يقوم بالتنصُّت على كلامي." فتحت عينيها بشراسة وقالتها بملء الفم في اتجاه الجدران. "لذلك فليسمعني جيداً كلُّ من يريد أن يسمع. مَن هو الشخص الإرهابي الذي يدبِّر جريمة كهذه، وهو مع ذلك يسرِّب رقم هاتفه الخلوي الشخصي؟ من هو العقل المدبِّر لمكيدةٍ جرميَّةٍ يقوم باستقبال مكالماتٍ بعد منتصف الليل، من إرهابي انتحاري، مستعملاً هاتفه الخلوي الشخصي. ثم يوفِّر هذا الدليل لمكتب الأف. بي. آي.؟

"ليس لي أية علاقة مع كتائب الأقصى. وأنا لا أعرف هذين الرجلين." توقفت قليلاً ثم تابعت كلامها بطريقة أكثر هدوءاً. "أعرف أنك تقوم بوظيفتك يا دافيد. كما أنني أسألك أن تتابع القيام بها. لهذا دعني أخبرك عنّي وعمّا صرتُ إليه خلال السنوات الماضية التي تلت ذلك اليوم الذي اعتقدتَ فيه أنني قد أصلح لكي أكون زوجة لك. إنني أم. أمٌّ تحبُّ ابنتها منيرة إلى درجة أبعد بكثير من أن تسمح لصائب بأن يربيها وحده في غيابها. ومن أجل أن أبقى مع منيرة فإنني ربما أقدِم على قتل عاموس بن آرون. لكنني لن أجازف أبداً بالتخلي عن ابنتي."

حدَّق كلٌّ منهما بصاحبه عبر الطاولة. حدَّقا بالقوَّة التي اعتادا عليها عندما كانا عاشقين. قال لها دافيد بهدوء. "إذاً سأجد لكِ محامياً جيداً."

"محامٍ سواك؟"

كان السؤال يحمل تحدِّياً مثلما يحمل جرحاً، كما أن دافيد سمع فيه أيضاً قنوطاً ويأساً. شعر بالحاجة إلى جواب يتجاوز فيه خوفه من المتنصِّتين. "لا لستُ أنا" أجابها، "فأنا لا أصلح لأسبابٍ وجيهة عديدة يصعب تقديم أحدها على ما عداه. لكنني سأذكر لك القليل منها. فأنا لست شخصاً حيادياً في هذه القضية. فلقد كنت عشيقاً لكِ. كما تربطني

معرفةٌ بعاموس بن آرون، وقد شاهدتُ مصرعَه بنفسي. كما أنني قد سمعتُك تؤيدين استعمال العنف في أكثر من مناسبة. ثم إن النائب العام للولايات المتحدة تمقتني وتكرهني، كما يكرهني زوجك ويمقتني أيضاً ـ ومساعَدةُ زوجُك لا غنى عنها لكلٍّ من يتولى الدفاع عنكِ.

"لكنني سأقول لكِ الآن عن السبب الرئيسي الذي يدعوني شخصياً إلى التَّنحِّي: لقد جلستُ في السنة الماضية، عبر الطاولة، قبالة عشرة أشخاص خائفين مثلك. لكن نظرتي في أعينهم، خلا عن الدفاع عنهم، لم تكن كافية لكي تربط مصيري بمصيرهم. وإلى مثل هذا المحامي تحتاجين الآن ـ"

"محامٍ غير مكترث؟"

"لا،" أجابها دافيد. "محامٍ لا يهمه كثيراً أن تكوني بريئة بالفعل. ولقد خسرتُ أنا هذه الميزة منذ الليلة الأولى التي توحّد فيها جسدانا معاً."

لم تحوِّل هناء نظرتها عن وجهه. "هل هو شعور الليلة الأولى يا دافيد؟" صار صوتها خفيضاً مثل صوته. "أم هو شعور الليلة الأخيرة؟"

منَع دافيد نفسه من الإجابة. فهو كان يعلم تمام العلم أن السبب العميق لا يعود لا إلى الليلة الأولى ولا إلى الليلة الأخيرة. بل إلى الحياة التي بناها بعد أن صار أقصى ما يتمناه ليس أكثر من حياة يمضيها وهناء عارف معاً.

الفصل

7

بينما الهاتف الخلوي لاصقٌ بأذنه، وصل دافيد إلى قدم جسر الخليج المسوَّر في مقدمة واجهة خلفيَّةٍ متلألئةٍ في ليل منطقة سان فرانسيسكو المالية حيث البنايات والأبراج العالية ذات الخطوط الكفافية المتنوعة الأشكال والأحجام. "بأموال مَن؟" كان مارك ساتشر يسأله، "هل هناك مِن أحدٍ من المفترض به أن يدافع عن هذه المرأة؟"

تخيَّلَ دافيد مرشده الناصح في نقابة محامي الدفاع الجزائي ـ بشعره الفضِّي، وبكياسته المعهودة، وبرباطة جأشه البادية ـ يخاطبه بتعبيرٍ غريبٍ لا بدَّ أن يستدعي الدهشة عندما يتعلق الأمر بـ: ساتشر. "ليس من أموالٍ لأجلها،" أجاب دافيد.

"هذا مؤسف حقاً. فأنا لا أرى أيَّ جماعة عربية أميركية شرعية تجمع النقود من أجل الدفاع عنها. ويبدو أن ما من أحدٍ ينوي ذلك، ليس على الأقلّ بين مَن هم من الذين أريد أن يرتبط اسمي باسمهم. لكن هذه ليست المشكلة الأصعب في هذا الموضوع. هذا بالنسبة لي على الأقل." تمهَّل ساتشر قليلاً قبل أن يقرِّر اللجوء إلى الصراحة الكليَّة. "لو كانت عارف مهرِّبة مخدِّرات، لما كان في الأمر مشكلة. لكنها بدلاً من ذلك يبدو أنها جعلَت مِن عاموس بن آرون الضحية الأولى لأوَّل تفجيرٍ انتحاري إرهابي في أميركا، وذلك بعد أقلّ من ساعة واحدةٍ من انتهائه من إلقاءِ خطابٍ كنتُ قد انتظرتُ أنا، كيهودي، أن أسمعه منذ عقد من الزمان. ليس هناك من مجالٍ لي للدفاع عنها نظراً إلى الالتزام الذي يقتضي الأمر مني بذْلَه تجاهها.

"فهذه القضية ستكون ضخمه ودقيقة. وتقتضي أعلى مستوى من المهارة الدفاعية التي يتطلبها الدفاع عن امرأة متَّهمَةٍ بالإرهاب. وهذا هو السبب عينه الذي يجعل تولِّي هذه القضية مشكلة بالنسبة إليك أيضاً". فجأة، انقلبت لهجة ساتشر إلى لهجةٍ رعويَّة. "إنني أتفهَّم أنك قد تعرَّفت على هؤلاء الناس في كلية الحقوق، كما أقدِّر أننا كمحامين علينا أن نعتقد أنها يجب أن تحصل على أفضل دفاعٍ ممكن. لكن الكثيرين من سكان هذه الولاية ـ وخاصة جاليتنا ـ لا يأبهون كثيراً لهذه المسألة. كما أن أكثر هؤلاء الأقوام هم الناس الذين أنت في حاجة إليهم من أجل تمويل حملتك الانتخابية للدخول إلى عالم السياسة.

"وبكل صراحة، أنا لا أعرف مَن الذي يمكنه أن يقبل بتولي الدفاع عنها. وطالما أنه لم يتوفَّر أيُّ شخصٍ للقيام بذلك، فإنني في الحقيقة لن أبالي كثيراً. كما أنك يجب ألّا تبالي أنت أيضاً. ادفع بالقضية إلى مجلس الدفاع الشعبي الفيديرالي، إذا كان لا بدَّ لك من أن تفعل في الأمر شيئاً. لكن إياك يا دافيد أن تجعل حياتك تنحرف عن مجراها."

سمع دافيد صوت إشارةٍ منبهةٍ تنطلق من هاتفه الخلوي، مؤذنة أن هنالك مكالمة أخرى في الانتظار. "عليَّ أن أقفل الخط الآن،" قال لساتشر. "أرجوك أن تفكر معي في محامٍ. لأن مجلس الدفاع الشعبي الفيديرالي ليس على المستوى المطلوب لهذه القضية."

كبَس دافيد زراً آخر في لوحة المفاتيح قائلاً: "ألو؟"

"هل جُننتَ؟" كان كلام بيرت نيومان يجري حتى بسرعة أكثر مما اعتادت عليه. "لا تقل لي أن لك قريناً شريراً يقوم بالوسوسة لك كي تقوم بما تقوم به، أو أنك ربما نسيتَ أن تتناول جرعة الليثيوم التي تحفظ شخصيتك المزدوجة في قالبٍ واحد."

مليئاً بالقلق والهواجس، انحرف دافيد بسيارته إلى مسارٍ جانبيٍّ متابعاً رتلاً من السيارات، إلى أن أوقف سيارته عند أحد معابر الدخول، المدفوع الأجر، إلى الجسر. "ما الأمر؟"

"قبل نصف ساعةٍ كنتَ تقول لي إنني المستشارة السياسية للكنيست الفيديرالي اليهودي. ثم أفتح بعدها نشرة الأخبار، لأسمع عن تلك المرأة الإرهابية التي اعتقلوها، فيخبرني مراسلٌ منهكٌ أنك تقوم بتمثيلها. وهكذا، أطلبك في منزلك، فتردُّ كارول على المكالمة لتقول لي، وهي على حافة البكاء، إن هذا الكلام صحيح."

أنزل دافيد شبّاكه مناوِلاً القيِّم ثلاثة دولارات. "إنها شارب،" قال لها. "يجب أن تكون هي التي سرَّبت هذا الخبر إلى الصحافة."

"عجباً.. إذاً شارب وضعتك على الخازوق.. وأهلاً بك في نادي التعساء." وفيما عاد دافيد إلى الانطلاق بسرعةٍ عَبْرَ الجسر، كانت نيومان تتابع كلامها في أوج زخمه. "حتى الليلة، كان الجميع يقفون في صفك، من السيناتور الأكبر للولاية، إلى عضوة الكونغرس التي تتطلع أنت إلى مقعدها، والتي كانت على وشك الإعلان أنها ستكتفي بفترة ولاية واحدة عن الدورة التي هي على وشك خوضها. هارولد وكارول بساعتها الرولودوكس الذهبية. لقد اصطفَّ كبار المانحين لكي يساعدوك لامتلاك موطىء قدم سياسي في معركة أولية. وفي غضون سنتين كنتَ تنطلق بيسرٍ وسهولة إلى عضوية الكونغرس، المفتوحة على احتمالات غير محدودة."

"إنني في طريقي إلى الخروج من تمثيلها يا بيرت."

"رئيس أميركا اليهودي الأول،" تابعت بيرت غير مصغية إليه. "الرئيس الذي

سنفاخر به جميعاً. لم يكن هذا أمراً غير معقول يا دافيد طالما أن حكومة أكبر ولاية تقف وراءك، مع كل الأموال التي تحتاج إليها لتقلع عن الأرض. إنني على الأقل كنت أجرؤ على التفكير في كل هذا. أمَّا الذي لا يمكنني أن أفكر به، أو أن أتصوره، فهو الشيء الذي تقوم به أنت الآن."

وصل دافيد إلى المرحلة الأولى من الجسر، وبدت صورة المدينة ضخمة بارزة أمام زجاج سيارته الأمامي. "ماذا تقترحين عليَّ أن أفعل؟"

"هذا أمرٌ جيدٌ، أنك ما زلت تهتمّ. كنتُ آمل ذلك، لهذا، فقد وضعتُ لك مسوَّدة تصريحٍ. هل تريد أن تسمعه؟

"طبعاً."

"يقول التصريح: 'مثلُ كلِّ أميركي صالح، حزنتُ لخسارة عاموس بن آرون، الرجل الذي عرفتُه وأعجبتُ به كل الإعجاب. ومثل كل أميركي آخر، آمل من حكومتنا أن تقوم بتحقيق حيادي كامل في الظروف المؤسفة لاغتياله'، هذه هي مجرَّد مقدمة يا دافيد. هل ما زلتَ تسمعني؟"

"نعم أسمعكِ."

"هذه هي بوابة الخروج لك: 'هناء عارف فتاة عرفتُها في أيام الدراسة في كلية الحقوق، مثلما عرفتُ زوجها صائب خالد. وقبل أن يجري توجيه أية تهمة لأحد، وقبل أن تصل إلى علمي التفاصيل الواردة في القرار الاتهامي، كانت السيدة عارف وزوجها قد طلبا مني المشورة. أما الآن، وفي ضوء هذه الاتهامات، فإنني سوف أعمل على مساعدة السيدة عارف من أجل الحصول على خدمات محامٍ يؤمِّن لها حقوق الدفاع التي يمنحها نظامنا القضائي لكلِّ شخص، بصرف النظر عن الجريمة المنسوبة إليها. وحالما أتمكن من فِعل هذا، تكون التزاماتي وفقاً لنظامنا القضائي قد روعيت، ويكون ارتباطي بهذه الدعوى قد وصل إلى نهايته'." وبطريقةٍ صارمةٍ تابعَت نيومان، "هذا أفضل ما أستطيع عملَه من أجلك."

جالت في ذهن دافيد صورة هناء الجالسة في حجرةٍ عاريةٍ صغيرةٍ بيضاء، كيف ارتخى كتفاها عندما قال لها: سوف أجد لك محامياً جيداً. "تبدو لا بأس بها،" أجبر نفسه على القول.

"إذن سأسرِّب هذا التصريح هذه الليلة،" قالت نيومان بارتياحٍ واضحٍ. "وسأجعل مساعدك يحوِّل كل الاتصالات الصحفية إليَّ. دعنا نترك اسمك بعيداً عن التداول. اتفقنا؟"

"هذا يناسبني،" قال دافيد آخذاً بوابة الخروج من الجسر المؤدية إلى مارينا ديستركت.

* * *

كانت كارول تجلس إلى طاولة مطبخه ترتشف قهوة سوداء، وبيان نيومان الصحفي أمامها. وبدون مقدمات قالت له. "أعتقد أنك قد تكلمتَ مع بيرت."

جلس دافيد في مواجهتها ـ مفكراً أن حديثه مع بيرت نيومان لم يكن سوى صدى مرعبٍ لاجتماعه مع هناء عارف. "نعم، وكما وعدتُك، فإنني في طريقي إلى الخروج من هذه القضية."

عيناها السوداوان، وهما نافذتا شخصيتها الصادقتان، خانتا كارول عن مشاعر الشك والقلق الكامنين عميقاً خلف قناع الصبر والتجمُّل الذي تضعه على وجهها. "ليس الأمر مقتصراً على مجرد التخلي عن القضية. إنني أعرفك ـ أو هكذا يخيَّل إليّ ـ لكن شيئاً ما، هنا، لا أستطيع أن أفهمه."

بشعور المتعاطف، والمدافع عن نفسه، سألها دافيد، "ما هو هذا الشيء؟"

"اهتمامك بهذه المرأة، وحتى اهتمامك بطفلتها."

"لا يحتاج تفسير هذا الأمر إلى صعوبة"، راوغَها دافيد. فهناء على وشك أن تخسر حياتها، مثلما منيرة التي توشك أن تخسر أمها."

"ماذا تعني لك هذه المرأة يا دافيد؟"

أرسل دافيد زفرةً قصيرة. "لقد قلت لك."

"هل قلت لي الحقيقة حقاً؟ إذاً انظر في وجهي مباشرة وقلْ لي أنَّ هذا هو كلُّ شيء."

حدَّق دافيد في وجهها، الذي رآه مألوفاً بقدر ما رآه مضطرباً. "لا أستطيع،" قال لها في النهاية.

بدا أن جفلةً قد أصابت كارول. "هل كنتما حبيبان؟"

"نعم لأشهرٍ قليلةٍ فقط، قبيل تخرُّجي من كلية الحقوق بقليل." بدا دافيد غير شاعرٍ بالراحة جرَّاء هذا الاعتراف. "صائب لم يدرِ بالأمر، كما لم يطَّلع عليه أحد."

أشاحت بوجهها عنه. "لقد حاول والدي،" قالت في النهاية. "لكنه في بعض الأحيان لم يستطع البقاء مدارياً مواجهة الناس. لهذا، فإنني عندما التقيت بك كنت قد صرت معتادةً على هذا، بل ربما مروَّضةً على قبوله. كنت أقول لنفسي إن تلك المسافة التي تنأى بها بنفسك عني، وفي أحيانٍ ذلك الفتور في الشغف، لا يعنيان بالضرورة أنك لست دافئاً وحنوناً. تماماً مثلما والدي حنون رغم انسحابه إلى داخل ذاته." صار صوتها الآن جافاً ـ أمَّا نبرة التوبيخ التي يحملها، فكانت تبدو موجهة إلى ذاتها، وليس إليه. "كنتَ دائماً أليفاً وحلواً. وكنت أعرف ما أعرفه عن أهلك ـ وقد تركا عليك بصماتهما مثلما ترك أهلي

بصماتهما عليَّ. ليس أيُّ واحدٍ منَّا آدمَ أو حوَّاء، كنت أقول لنفسي. لكن لم يخطر ببالي يوماً أن امرأة أخرى تقف وراء سلوكك معي."

شعر دافيد بالاضطراب. "هل كنتُ سيِّئاً معك إلى هذه الدرجة؟"

"تقول سيئاً؟ ما كنت لأحبك لو لم أعتقد أن لك طاقة على محبتي. لكنني طيلة علاقتي بك، لم أرك تندفع مرة في تصرُّفٍ جامحٍ، أو حتى غير محسوب."

"لا، طبعاً." حاول دافيد أن يبتسم "فأنا لا أفعل ذلك حتى مع مارني شارب."

أدارت وجهها ناحيته. "قل لي، لو كان زوج هناء هو الملاحَق، هذا الرجل الذي خدعتماه معاً، هل كنتَ ستقف إلى جانبه؟"

"كلا."

أزاغت كارول بأبصارها عنه، وكأنما النظر إليه يؤذيها. "هل أحببتها إلى هذه الدرجة؟"

في البداية لم يستطع أن يجيبها بأيِّ كلام. "شيء حدث وانتهى أمره،" قال لها بهدوء. "وكيفما صنَّفتِه أو وصفتِه فإنه قد حدث وانتهى."

"هل انتهى فعلاً؟" وخزت الدموع عيني كارول. "مِن رؤية صورتها على الشاشة في نشرة الأخبار هذه الليلة، عرفتُ أنها مذهلة. كل ما أعرفه أنكما قد أعدتما كتابة رواية كاماسوترا بين فترات المحاضرات الدراسية."

"كفى يا كارول. هذا لا يؤدِّي بنا إلى أيِّ مكان."

"بل إنه أدَّى بنا إلى مكانٍ ما. إنه أوصلنا إلى الوضع الذي نحن عليه. أنت في السجن الفيديرالي وأنا هنا متروكة أتفحَّص جسدي القروي العاري. وأتساءل ماذا جرى لك؟ وأيُّ جزءٍ منك تُراه هو الجزء الضائع؟" وقفت كارول والحرقة تملأ صوتها. "تبّاً لك يا دافيد ألا ينكسر قلبك لرؤية ما فعلَته هذه المرأة؟"

"لستُ أدري ما الذي فعلَته فعلاً." انفجر دافيد. "كم كنت أتمنى لو أني أعرف الحقيقة، لعلني كنت أستطيع أن أتوقف عن التسبب لكِ بالمزيد من الألم، وعن الإمعان في كره نفسي بسبب ذلك."

راقبت كارول وجهه. "أنت تائهٌ في أمرك يا دافيد، ولا تستطيع تقبُّلَ الحقيقة، كما أنك لا تدري إلامَ تنتمي."

"هذا،" قال دافيد بغضب شديد، "ليس عدلاً. إنني أسلِّم معكِ أن هذا الأمر قد هزَّني هزّاً حتى الأعماق. فالمرء قد يحسب نفسه عرف جماعة حق المعرفة، ثم يحدث شيء ما، فجأة، ممَّا يسبب له أن يعيد السؤال في كل شيء اعتقده عنهم بما في ذلك تلك الأشياء

التي كان قد خبِرَها بنفسه. لكن من شان هذا أن يجعله إنساناً لا شخصاً تائهاً. وإنه لأمرٌ منافٍ للعقل أن يكون جوابه على كل ذلك بأن يحدِّث نفسه قائلاً: إنني يهودي ثم يتابع طريقه.

"صحيح أنكِ لستِ أوَّل امرأة قد أحبَّها قلبي. وآسف أن أقول لك إنني لست أوَّل رجلٍ في حياتك أيضاً. فهناك تصوُّرٌ لديك عن نموذجِ الرجولة الإسرائيلية هو الذي قادني إليك. والمفارَقة هنا، أن هناء عارف قد عادت لكي يطاردني شبحُها بطريقة مشهدية ليس لي فيها أيُّ اختيار. إنني أشدُّ أسفاً مِن أجلِ كلِّ ذلك، مما قد يمكنك أن تتصوَّري. لكن أعطِني فرصة على الأقل، لكي أستعيد توازني."

رنَّ جرس الهاتف المثبت على جدار المطبخ. نظر دافيد غريزياً في الشاشة مستقرئاً هوية المتصل. "عليَّ أن أردَّ عليه،" قال متعَباً. "إنه والدِك."

"دعني أتولَّى ذلك يا دافيد."

وقفت كارول مستهلكة فترة من الوقت قبل أن تجمع شتات نفسها، ثم أجابت بصوتٍ هادىء متروٍّ. "نعم يا بابا، أعرف ذلك."

أصغت كارول باهتمام فيما هي تحدِّق في أرض المطبخ. "أفهم ذلك،" قالت لوالدها في النهاية. "فأنا نفسي أشعر بالشيء نفسه. لكنك تعرف دافيد - إن لديه مبادئه الشخصية الخاصة به. وكلانا يحبه من أجلها. وفي الواقع، فإننا في وسط بحث هذه المسألة، في هذه اللحظة، لإيجاد مخرج لائقٍ لها. وإلا لكنت قد أعطيت سماعة الهاتف إليه لتبحث الأمر معه."

فيما كان يصغي إلى كلام كارول مع أبيها وهي تجهد على حفظ الوئام بين ثلاثتهم معاً، ولو على حساب الحقيقة، شعر دافيد بحزن عميق. قالت كارول لأبيها 'وداعاً' قبل أن تغلق السمّاعة. "لقد كنتِ في غاية اللباقة"، قال دافيد بلطف "أشكرك على ذلك."

هزَّت كارول رأسها. "ساعتان من الغمِّ،" قالت بحزن، كفيلتان بقتله، بل بقتلنا معاً، في الحقيقة.

"نحن يهوديان يا دافيد. أبي وأنا أميركيان لأننا أميركيان باختيارنا، لكننا يهوديان لأننا يهوديان بطبيعة وجودنا. هكذا اعتاد العالم أن ينظر إلينا، وهكذا سيستمر. ومهما حاول والدي أن يبذل من جهودٍ: فإنه لن يستطيع أن يتفهَّم علاقتك بهناء عارف."

تقدَّم دافيد منها وضمّها إليه. "وأنتِ هل تستطيعين؟"

ومع أن كارول لم تعانقه إلّا أنها سمَحت له بإسناد رأسها على كتفه. "سوف أحاول، لكن عليك أن تساعدني في ذلك يا دافيد. ويبدو لي كأنك لا تعرف طريقك للخروج من هذا."

"بلى هناك طريقة للخروج،" قال لها مؤكداً. "بيرت ستقوم بإطلاق التصريح الصحفي هذه الليلة."

"ثم ماذا بعد ذلك؟" سألت كارول بصوت خفيض.

بقي دافيد صامتاً لكنه شدَّها إلى صدره بقوة أكبر.

الفصل 8

صدر جرائد الصباح فتبين أن خطة نيومان تعمل جيداً. كانت الصورة الجانبية المنشورة لهناء هي أول ما يلفت النظر إلى جانب المعلومات المسرَّبة. وفي الوقت الذي ذكرت فيه كل من جريدة سان فرانسيسكو كرونيكل، وجريدة نيويورك تايمز أن علاقة دافيد بهذه القضية هي علاقة مؤقتة، فإنها خصصت بقية العمود لنشر التهم الموجهة إلى هناء عارف. وكان من آثار هذا البيان الصحفي أن ظهرت قائمة من أسماء المحامين الذين يرشحون أنفسهم كوكلاء يرغبون في الحلول محل دافيد في متابعة تمثيل هناء، وذلك على بريد مكتب دافيد الإلكتروني الصوتي. ومع هذا، فإن دافيد، في تقديراته القانطة للأسماء المرشحة، كان قد استبعد جميع الأسماء الواردة على لائحة المرشحين كمحامين مستقبليين لهناء باستثناء اسم واحد فقط. وكان استبعاده للأسماء الباقية راجعاً إلى اعتقاده بأن أصحابها إما حديثي الخبرة، وإما كباراً في السن، وإمَّا متهافتين، وإما كحوليين، وإما غير كفوئين، وإما متطرفين، وإما مهووسين بالشهرة التي قد تجلبها لهم قضية كهذه يكون فيها الدفاع على هذه الدرجة من الصعوبة والتطلب. أمَّا الاستثناء فكان ماكس سالييناس، وقد توقف دافيد أمام اسمه بحيرةٍ واهتمام. فهو محام يكرّس حياته لميوله اليسارية، وكثيراً ما يضع القضية ـ بحسب تعريفه لها، الذي يصل إليه في ضوء ما لديه من نزعات درامية ـ قبل موكله نفسه. ومع هذا، ومهما كان سالييناس موارباً في طريقته، إلا أنه كان خبيراً ومجرّباً. لذلك لم يشأ دافيد أن يستبعده. وهكذا، قاد سيارته إلى واشنطن سكوير حيث اعتاد سالييناس، الرجل الشعبي، أن يرتشف قهوته الإسبرسو على مقعدٍ خشبي مراقباً زوَّار الحديقة وهم يقرأون لورنس فرلنغيتي ويطرحون فتات الطعام لكلابهم، أو ينامون على المقاعد بجانب أكياس مشترياتهم من الطعام وسواه وهي تمثل كل ما لديهم من حطام هذه الدنيا.

كان التعرُّف إلى سالييناس نفسه بين هؤلاء الناس مسألة غير ذات صعوبة. فهو رجل قصيرٌ، بدين، بارز الكرش، له وجه أزتكي ذكي، وشعر فضيٌّ معقوص خلف رأسه. رمق سالييناس دافيد من فوق مقعده بنظرة فاحصة متعَبة لا ينظرها إلا رجلٌ بروليتاريٌّ

عتيق في اتجاه رجل آخر بورجوازي. لكن دافيد كان متأكداً أن ساليناس لا يمكن أن يكون بعد قد نسي تلك المواجهة بينهما في تلك المحاكمة الجزائية المنهكة للأعصاب التي تمكن خلالها دافيد، وكان لا يزال يومها محامياً عاماً في مكتب النائب العام، من تأمين إقامة مؤكدة طويلة الأمد في السجن لموكل ساليناس، الذي هو تاجر للكوكايين.

جلس دافيد بالقرب منه. "أجل." قال ساليناس بدون مقدمات. "أستطيع أن أعرف سبب عزوفك عن هذه القضية."

"دع نظرية الصراع الطبقي الآن جانباً يا ماكس. إنها تحتاج إلى محامٍ جيد. وهذا هو سبب وجودي معك الآن. لنتكلم في ما ينفع."

هزَّ ساليناس كتفه. "الأمر غاية في البساطة. هناك استراتيجيتان للدفاع عنها. الطريقة التقنية، والطريقة القرائنية."

"وماذا يعني هذا؟"

"الطريقة التقنية هي الأسلوب التقليدي للغناء والرقص - عبء الإثبات، الشكُّ المنطقي المعقول، قرينة البراءة حتى ثبوت التهمة، هدم القرار الاتهامي. وهي تسير هكذا: إن ما قاله إياد حسن إلى خالد جعفر هو إشاعة وتواتر. ومجرد العثور على قطعة من الورق عليها بصمات أصابع ورقم هاتف، مقرونة باتصال هاتفي وحيد إلى الهاتف الذي يحمل الرقم نفسه، كل ذلك لا يكفي لبناء برهان لا يقبل الشك المعقول على وجود مؤامرة للاغتيال. هذا هو الموطىء الذي تبدأ دفاعك منه. لكنه ليس كافياً".

"أوافق معك، وما هو دفاعك الثاني المبني على الطريقة القرائنية؟"

لاحظَ ساليناس رجلاً صينياً نحيلاً يقود جماعة من كبار السن في جولة تمرين علاجي للمفاصل يشبه رياضة ملاكمة الظل 'تاي كي'. "هذه المرأة الفاشيستية التي كنت تعمل معها، متعطشة للاتهام. كما أن أسيادها، ابتداء من الرئيس ونزولاً، في حاجة إلى جسدٍ يضحُّون به كقربان على مذبح دولة إسرائيل وعلى مذبح عاموس بن آرون. أما صديقتك في معهد الحقوق، فهي ضحية فلسطينية جاهزة ومناسبة لهذا الغرض. فهُم يدّعون أنها مرتبطة مع الإرهابيين، وهي بروفيسورة في جامعة تعجُّ بالراديكاليين من الأقصى وحماس.

"هل هذه العبارات تأتي في صميم دفاعك؟ أم أنك تتعمَّد الآن وضْعَها في صيغة مختلفة؟" وعندما نظر ماكس إليه نظرة غضب، أضاف دافيد، "إنني جادٌّ في سؤالي. كيف يمكنك أن تحوِّل هذا الكلام إلى دفاع قانوني؟"

"أحوِّله إلى دفاع قانوني عن طريق عدم الهرب من الحقائق. فهي فلسطينية. والناس لا يعرفون قصة الفلسطينيين. إذاً لتسمع هيئة المحلفين هذه القصة كاملة: التهجير،

والمجازر التي ارتكبت أثناءه، والمذابح في المخيّمات، والآن الاحتلال - فالإسرائيليون يسرقون أرض الفلسطينيين ومياههم، ويودعون أطفالهم في السجون الإسرائيلية بدون محاكمة، وعلى العموم يعتصرون الحياة من ثلاثة ملايين ونصف فلسطيني." بدأ جسد ساليناس يهتز بالحماس. "شارب تقدِّم للمحلفين رواية الإنسان الأبيض للتاريخ. وهي الرواية الحكومية، الموافَق عليها رسمياً. أمَّا نحن: فنقدّم لهم حكاية هناء."

تفحَّص دافيد العشب تحت أقدامهما. "ثم ماذا بعد ذلك؟ بعد إصغائي إليك، صرت أنا نفسي شبه مستعدٍ لقتلِ أحدهم. لكن كيف تحوِّل كلَّ ذلك إلى دليل براءة؟ ولو كنتُ في مكان مارني شارب لاعترضتُ على كل ذلك بكلِّ قوة. اللهم أن تنظر هي إلى أقوالك على أساس أنها تؤيد ادعاءها."

"ماذا تعني بهذا القول؟"

"أعني أنك بذلك تكون قد أقنعتَ اثنا عشر محلَّفاً بأن هناء عارف لديها دافع للإقدام على القتل." نظر دافيد نحو ماكس نظرةً سريعةً مواربة. "لو كانت هيئة المحلَّفين مقتصرة على سان فرانسيسكو - أي أن يكون أعضاؤها من غير البيض، من خارج طبقة الأثرياء، وكانوا ليبيراليين إلى درجةٍ تغري بتفوق حزب الخضر على الحزب الجمهوري في الانتخابات - فإنك تكون قد أصبت هدفك. فإذا كان هناك من محام يستطيع أن يحوِّل بن آرون إلى ظالم، وأن يجعل من هناء مجرد ضحية، فهو أنت.

"لكن ويا للأسف، فإن هذه القضية هي من اختصاص المحكمة الفيديرالية. وما لم تستطع الحصول على موافقةٍ بتبديل مكان المحاكمة، فإن أعضاء هيئة المحلفين سيأتون من مجموع سكان شمالي كاليفورنيا، بمن فيهم البيض، والمتقاعدين المحافظين، والعسكريين السابقين، ومن المواطنين الذين يعتقدون أن على الحكومة أن تُعدِم المذنبين."

"أستطيع أن أدير رؤوسهم. فلم يعد هناك الكثير من الناس المقفَلي الأدمغة."

"قد يكون ذلك صحيحاً، إنما ما سيتضمنه دفاعك، وإن لم تقل ذلك صراحة، هو أن الهجوم الانتحاري هو هجوم مبرَّر، أو أنَّ على هيئة المحلَّفين أن يعتبروا أن هناء عارف هي ضحية مثلها مثل بن آرون. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن بن آرون أعطي صورة صانع السلام، فإن هذا سوف يعتبر مبالغة بعيدة. تجاهلْ خسارة حياة حارسٍ أمني إسرائيلي، وحياة عميل شرطةٍ سرية أميركي، له ثلاثة أطفالٍ هم ما دون العاشرة من أعمارهم، وستجد نفسك أنك قد عرَّضت موكلتك إلى مجازفة خطيرة."

طوى سالبناس ذراعيه. "إذن،" قال، "أنت وأنا غير متفقين، ولا عجب في ذلك. فانتماءاتنا وأصولنا، مختلفة. لكن سلْ نفسك: ما هي الخيارات المتوفرة. فالمرأة لا مال لديها، ومجلس الدفاع الشعبي مشغول، ومعظم محاميه الجيدين لن يقبلوا قضية سيدة فلسطينية إرهابية فقيرة. أما من يقبلون بتمثيلها فسيستعملون سياستي دون أن تكون لهم

كفاءتي وأساليبي. أما أنت يا دافيد: فإنك تريد أن تبتعد عن هناء عارف في أسرع وقت ممكن."

اعتملَت الملاحظة الأخيرة في نفس دافيد، وأقلقته. "إذن ماذا تقترح يا ماكس؟"

"دعني أقابلها." ظهر من المظهر الجانبي لوجه ساليناس ابتسامة باردة على شفتيه. "هي الشخص الذي سيعدمونه وليس أنت. دعها تأخذ القرار بنفسها."

حاول دافيد أن يتخيل ساليناس وهناء جالسين وجهاً لوجه في الحجرة العارية البيضاء. "سوف أكلمها في الأمر،" قال له في النهاية.

أومأ ساليناس برأسه إيجاباً ثم أسند ظهره ناظراً عبر الشارع إلى كنيسة القديسَيْن بطرس وبُول الرخامية الجميلة البيضاء، وهي كنيسة فسيحة مزخرفة بالزجاج الملون، كانت قد بنيت بعرق المهاجرين الطليان الأوائل. "لقد قرأتُ أنك عازم على الزواج،" قال ساليناس. "فصحف المجتمع أفردت للخبر مساحات واسعة."

"لم أكن أعرف أنك تهتم بمثل هذه الأخبار."

"فقط عندما لا يكون لديَّ شيء سوى ذلك، مما لا أحبه،" أجاب ساليناس. ومشيراً إلى الكنيسة: "هل تعرف أن في هذه الكنيسة تزوج جُوْ ديماجيو مِن مارلين مونرو؟ ديماجيو بشحمه ولحمه."

وعَده دافيد بأن يعود إليه.

* * *

ظهرت الخمس عشرة دقيقة التي استغرقتها القيادة إلى منزل السيناتورة بتسي شابيرو تيودور في منطقة بريزيديو وكأنها تطوي أميالاً من المسافة السيكولوجية. وكونه يلبي هذه الزيارة استجابة إلى رسالتها العاجلة، بينما كان يقابل ساليناس، جعل دافيد يستشعر المزيد من قلة الاطمئنان.

جلست بتسي في غرفة جلوسها المزخرفة بالطراز الشيبندالي، العابق والمنكِّر بنيوإنغلاند، الشيء الذي كان يجده دافيد أمراً غريباً أيضاً في منزل والديه اليهوديين، صديقا بتسي. لكن بتسي كانت مثل والديه، تتمتع بذوق أرقى من أن يجعلها تزيِّن جدران منزلها بلوحات عن الخيول والكلاب الشرسة، وعن النخبة الإنكليزية في رحلات صيدٍ على ظهور الخيول. أما السيناتورة ذاتها، فقد كانت ترتدي بنطلوناً فضفاضاً، وبلوزة حريرية، جاعلة نفسها في مظهر غير رسمي إلى أبعد حدٍّ تستطيعه مع ضيوفها المقربين.

"غبي،" قالت لدافيد بعد أن أحضرت مدبرة المنزل لهما الشاي في أكواب من الخزف الصيني. "حقيقة إنك غبي كبير."

كانت العبارة تنم عن الحقيقة، أكثر مما تنم عن إدانة. "عليكِ أن تأخذي في الحسبان،" أجابها دافيد. "أنني لم أكن أعلم إلى أين أقحمتُ نفسي."

"هكذا ظننت من بيانك الصحفي الدقيق العبارة." صارت عبارة بتسي جافة. "مع العلم أنك كنت تعلم من هي الضحية، حسب علمي، إلا أنني آمل الآن أن تكون قد وجدتَ لها محامياً آخر."

"إنني ما زلت أعمل على ذلك."

"إذن، دعني أشجعك على الانتهاء من ذلك بسرعة." ارتشفت بتسي رشفة من الشاي. "الخسارة السياسية المباشرة كانت واضحة. لكن لا يزال هناك بعض المعاثر السياسية المخبَّأة التي ربما أنك لا تزال غافلاً عنها. هل ذهبتَ مرة إلى إسرائيل؟"

"كلا."

"أنا أقوم بزيارات متكررة إلى هناك لأسباب عديدة مهنية وشخصية. كما أنني أشارك أيضاً في لجان العلاقات الخارجية والاستخبارات. لا أستطيع الإفضاء بالمعلومات المصنفة كمعلومات سرية، ولا أدَّعي أنني مطَّلعة، على الأقل قبل القيام بالتحقيق الذي لا بد من أن يجريه الكونغرس ـ على تلك المعلومات المتعلقة بالقاتلين الانتحاريين، وبهناء عارف، وبسواها من المعلومات المتعلقة بما قد يكون السبب في مقتل عاموس بن آرون. لكن لديَّ تصوُّراً خاصاً عن الموضوع.

"فكون هذا الاغتيال يحرِّك أعمق المشاعر عند جاليتنا اليهودية، هو أمر واضح وصريح. وستصيبني الدهشة إذا لم تكن أنت قد واجهتَ هذا الأمر مع أفراد عائلتك المستقبلية. لكن المشاكل الأعمق إنما تبدأ هناك ولا تنتهي." قطَّبت السيناتورة حاجبيها مؤنِّبة. "منذ أسبوع أو سوى ذلك، في إطلالتك على الشاشة، كنتَ قد أطلقتَ إلى السطح فكرة عائمة عن احتمال وجود ثغرة أمنية في حرس رئيس الوزراء الشخصي. وكنت قد نبهتك إلى خطورة مثل هذه الملاحظات. ولسبب جوهري: تجدني الآن أعتقد أن هذا هو ما حصل بالفعل."

شعر دافيد على الفور أن غريزة المحامي عنده تطفو إلى السطح. "لماذا؟"

"لأنه حتى الآن ـ وهذا الكلام بيننا ـ فإن الأف‌بي‌آي، والشرطة السرية، لم يستطيعا إيجاد أي ثغرة في عملياتنا وإجراءاتنا. كما أنهما لم يجدا أيَّ شرطي أو عميل يشكو من وضعٍ مالي حرِج، أو أن له أية مظالم من إسرائيل أو من بن آرون. ومع ذلك، كما يبدو أنك قد لاحظت، فإن طريق سيره إلى المطار قد تغيرت في الدقائق الأخيرة، وأن القاتلين قد غيَّرا موقعهما قبل أن يتمكنا من ملاحظة أية تغييرات تحصل على الأرض، كما يستفاد من رواية إبراهيم جعفر." زمَّت شابيرو شفتيها، كأنها تتذوَّق شيئاً حامضاً. "ربما

أن الحظ قد خدمهما. لكن ذلك يخلق احتمالاً بوجود خرقٍ أمني ناتج عن إهمال - أو عن قصد - في الجانب الإسرائيلي."

"هل تستطيع وزارة العدل أن تتحرى عن ذلك؟"

"ليس الأمر سهلاً. على الأقل في الوقت الحاضر. فكل ما يعمله الإسرائيليون يجري تحت طي الكتمان التام لأسباب لديهم وجيهة." توقفت شابيرو ثم تابعت مستعملة العبارات المحدَّدة، واللهجة، التي تستعملها في استجواب الشهود المكرهين، والبيروقراط غير الآبهين. "إن ملاحظاتك تذهب إلى قلب النزاعات الإسرائيلية الداخلية. إن الجناح اليميني المتضمِّن حركة المستوطنين. ودعاة التشدُّد مع الفلسطينيين يستعملون عملية الاغتيال الآن من أجل تسلُّم السلطة وتشديد قبضتهم عليها. أمَّا الطريقة الوحيدة للردِّ على ذلك - من المعتدلين واليسار وحركة السلام - فهو في إيجاد وسيلة تمكنهم من وضع اللوم عن مقتل بن آرون على اليمين الإسرائيلي.

"فإذا حصل ذلك، فإن توجيه إصبع الاتهام وحده قد يشق إسرائيل على امتداد خطوط التصدُّع في المجتمع الإسرائيلي المتنافر - يمين ضد يسار، علمانيين ضد متدينين، مستوطنيين ضد مناوئين للاستيطان. وخطوط التصدّع هذه نفسها ستتسبب بانقسام أصدقاء إسرائيل في جاليتنا اليهودية هنا - أشخاص من أمثال هارولد شور من جهة، وأشخاص من أمثالي أنا من جهة أخرى. وسيكون الغضب مسيطراً على العقل والمنطق."

"إنني ألمس ذلك."

نظرت بتسي إليه. "جيد. لأنك لست في حاجة لكي تكون فريقاً في استثارة ذلك. الأمر الذي سيكون له تأثير سياسي سيء عليك فتخسر أصدقاءك الذين لن تستطيع بعد ذلك أن تسترجعهم. ومن أجل ماذا؟ من أجل هناء عارف؟ كما أنني لا أجد أن ذلك يفيدها أيضاً."

أخذ دافيد بعناية رشفة من فنجان شاي الأعشاب. "دعيني أقترح احتمالاً. إذا كان هناك من خرقٍ أمني مقصود في الجانب الإسرائيلي، فلا بد من أن يكون أحدٌ ممَّن هم في متناول اتصالنا، يمسك بالمفتاح لمعرفة حقيقة الذي حصل، ومن هو الذي وراءه."

"إما أن تكون عارف متآمرة لقتله،" تدخلت بتسي بأناقة، "وإما ألَّا تكون. ومن وجهة نظر الملاحقة الجزائية بحقها، فإن اكتشاف من ساعدها في ذلك لا يؤثر في الأمر شيئاً. على الأقل إلى أن تكشف عارف عنهم، على افتراض أنها تستطيع ذلك."

"هذا ما ستقوله شارب،" أجاب دافيد. "ولكن إذا كان في هذا ما هو أبعد من مؤامرة فلسطينية، فإنه سيكون فيه أيضاً ما يشبه قاعة مرايا هزلية، بالنظر إلى رواية شارب. فعلى الأقل على المرء أن يتساءل عن العلاقة المحتملة التي تربط هناء عارف مع فريق حراسة بن آرون."

"إنني أحاول أن أثنيك يا دافيد لا أن أستثير فضولك."

هزَّ دافيد كتفيه. "لا يمكنني أن أمنع نفسي عن التفكير كمحام."

أنزلت شابيرو فنجانها. "لقد جاء الوقت الذي ينبغي عليك فيه أن تبدأ بالتفكير كعضوٍ في الكونغرس. لهذا اسمح لي أن أوسِّع حقل رؤيتك. هذه القضية تؤثر على واحدة من أهم مصالح بلادنا الحيوية: إنها علاقاتنا مع إسرائيل وبقية بلدان الشرق الأوسط. فالبيت الأبيض، ووزارة الخارجية، ووزارة العدل، هم جميعاً واقعون تحت ضغط كبير جداً. هل يحاكمون هناء عارف هنا، أم يقومون بتسليمها إلى إسرائيل؟ وإذا عارض محاميها في أمر تسليمها إلى إسرائيل ونجح في ذلك، فهل يقوم بعض الإرهابيين، لنقُل في شيكاغو، باحتجاز بعض المدنيين بواسطة قنبلة قذرة ما لم نقم نحن بإطلاق سراحها؟ ثم ماذا ستفعل إسرائيل بعدئذٍ؟"

لم يكن دافيد قد فكَّر في شيء من هذا من قبل؛ أما الآن، فقد بدأ يفكر في كل ذلك. فإذا به خائف فزِع. تابعت شابيرو عرض أفكارها منحنية إلى الأمام. "وكيف يستطيع محام معارَضة التسليم إذا طلبته إسرائيل؟ هل يستطيع أن يكشف زيف العدالة وعنصريتها في إسرائيل؟ فإذا كنتَ لا تزال محاميها يا دافيد فإنك لا بدّ لك من أن تؤكد على ذلك." صارت لهجة شابيرو ساخرة بشكل واضح. "وإذا تمكنت من النجاح في جعلها تتلقى محاكمتها هنا، فإن شارب سوف تذهب إلى طلب عقوبة الإعدام لها. أو ربما ـ بسبب كونها سجينة خطيرة يشكل سَجنُها خطراً على أيٍّ كان ـ ستطلب إسرائيل من وزارة العدل أن تبقيها هنا وأن تعدمها. وستكون شارب سعيدة بالالتزام بذلك. فإذا سارت القضية بنجاح فإنها تكون كمن يكتب تذكرته الخاصة بنفسه.

"وفي أي سيناريو محتمل سيكون عليك معارضة عقوبة الإعدام. وهذه أيضاً مناورة ذات سمعة رديئة واسعة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالنشاط الإرهابي ـ في الوقت نفسه، سيكون جميع السياسيين في حزبنا، أي زملاؤك المستقبليين، منشغلين في استرضاء إسرائيل ومؤيديها. وبذلك سوف تكون منبوذاً ـ "

"بتسي،" قاطعها دافيد بهدوء. "إنني في صدد تسليم القضية."

"لمن؟" توقفت شابيرو لتعدِّل وتيرة صوتها. "أنا أعرف أنك تقول ذلك يا دافيد. وأنا أصدِّق أنك تعني ما تقول. لكنك لم تفعل ذلك حتى الآن، وأنا قلقة لأنني لم أستطع أن أفهم لماذا قبلتَ أن تقترب من هذه المسألة من الأساس. وهكذا، فإن واحدة من جملة آمالي الكثيرة منك هي دعوتك إلى مجانبةِ الحذَر. دعني أكمل.

"إنك تعيش الآن في أميركا. أميركا التي أعيدَ تعريفها في ظل خوفها من الإرهاب. أمَّا بالنسبة إليك، فسيكون دفاعك عن هناء عارف محنة لا تكفُّ عن استدراج المضاعفات

التي سيستمر تردُّد صداها في حياتك حتى بعد أن تحال على التقاعد، على افتراض أنه بقي لك تقاعد."

هذا المونولوج ترك دافيد في حالةٍ تقارب الصدمة العصبية. لكن تحت حماسة بتسي كان يعرف أن ثمة نية حسنة لديها تهدف إلى الحفاظ على مستقبله في السياسة، كما على مستقبل علاقته مع كارول. "أشكرك،" قال لها ببساطة "أقدِّر لكِ اهتمامكِ بي طيلة الوقت."

"اعتبره هديتي لك لمناسبة الزفاف،" أجابت بابتسامة خفيفة. "إنني متأكدة أن كارول تمتلك كل ما يلزمكما من الخزف الصيني والكريستال."

وبينما كان يقود سيارته إلى مكتبه، وجد دافيد أن هناك نقاشين طويلين يضجان في دماغه، واحد مع ساليناس، والثاني مع بتسي شابيرو. وهما يشكلان معاً فيضاً من النماذج المحيّرة. المنطق يتضارب مع المشاعر. أمَّا الصورة الدائمة المتكررة التي كانت في ذهنه، فهي صورة هناء الوحيدة في غرفة سجنها. وعندما وصل إلى مكتبه: وجد أمامه رسالتين من محاميين يحترمهما. وكلاهما يعتذر عن قبول التوكيل عن هناء. أما الرسالة الثالثة فهي رسالة متألمة من هارولد شور.

الفصل

9

عثر دافيد على هارولد في رأس الممر الترابي العريض الذي يتلوّى على امتداد شاطىء الخليج، الفاصل بين نادي ساينت فرانسيس لليخوت، وبين قاعدة جسر غولدن غايت. هناك اختار هارولد، كعادته، أن يأخذ نزهته الرياضية اليومية لأغراض صحية. كان هذا الأصيل نموذجياً في صيف سان فرانسيسكو. فالنسائم منعشة، والسماء صافية زرقاء، والدرَّاجون والعدَّاؤون، والشباب والصبايا المتعافون، يمرون من وراء دافيد وهارولد ومن أمامهما. لكن هارولد كان يضع على الأديم خطوات ثقيلة بطيئة. كان دافيد يعرف كم هو صعب على حميِّه أن يعبِّر عن مشاعره الصعبة، من ألم وغضب ويأس. لذلك فإن كل ما يشعر به الآن، من مثل هذه المشاعر، تكاد تعلق في حنجرته، وتحتقن فيها.

أخيراً سمح هارولد لنفسه بالكلام. "اعذرني،" قالها بهدوء، "فلقد كنت آليت على نفسي ألَّا أتدخَّل في شؤونك الخاصة، وألا أحشر نفسي بينك وبين كارول. لكنني الآن في خشية عليك وعليها."

استدار دافيد نحو هارولد. "سيكون كل شيء على ما يرام. حقاً إنه سيكون."

"هل تعتقد ذلك؟" نظر إليه هارولد نظرة استفسار جانبية. "كارول لم تخبرني شيئاً. لكنني أعتقد أن ما بينك وبين هذه المرأة الفلسطينية هو أكثر من أن يكون مقتصراً على زمالة عابرة في كلية الحقوق بجامعة هارفارد."

شعر دافيد بانزعاج عميق. "هذا كان في الماضي،" صحَّح لحميِّه. "إنني فقط أحاول أن أحتفظ بموقف عادل مستقيم مع نفسي، كرجل، وكمحام."

"وماذا عن كونك يهودياً أيضاً يا دافيد؟"

"ليس في علمي أن هناك أيَّ تعارض."

أخرج هارولد تنهيدة متعَبة. "كيهودي لا يحق لك أن تكون سليم النوايا إلى هذه الدرجة."

فضَّل دافيد عدم الإجابة. تسارعت خطوات هارولد، وكذلك كلماته المشحونة بالعواطف. "أراك قد اخترت كيهودي أن تساعد قاتلاً لليهود. تلك المرأة التي لا تختلف عن عرفات سوى في أن لها نهدين."

"إنني في صدد التفتيش عن محام آخر لها يا هارولد. هل يُفترض بي أن أكتفي برمي القضية من بين يديَّ وأن أهرب بجلدي؟"

"تهرب بجلدك؟" توقف هارولد لحظة ليخاطب التراب بين قدميه. "لا علمَ لك كيف هي هذه الدنيا مركَّبة. أنتم في أميركا لم تشهدوا شيئاً. لقد شنقوا والدي في الساحة العامة. أما أسوأ ما قد حصل مع والدك هنا فهو استبعاده من أحد النوادي الخاصة. والعالم الآمن الذي وُلدتَ فيه كان مليئاً بالكتب والموسيقى، وهو ذاته العالم الذي كان يعيشه اليهود الألمان إلى أن كسَر هتلر شبابيك بيوتهم - "

"وقتلهم قتل الكلاب" قطع عليه دافيد كلامه بحدَّة. "ذلك لأن النازيين ليس عندهم سلطة لحكم القانون." ثم تابع كلامه بلهجة أهدأ، "لا شك أن الناس الذين شهدتَ مصرعهم في أوشويتز كانوا يتذكرون جيداً أنهم يهود. لكن مجتمعاً عنده استعداد لكي يعترف بحقوقهم كبشر هو وحده الذي كان قادراً على منع سَوقهم إلى الأفران."

"هناء عارف،" قال هارولد بنبرة حادة، "ليست يهودية."

"إن نظرية سيادة حكم القانون هي نظرية تنطبق على جميع الناس. وفي جميع المناسبات والحقول الأخرى نجدك يا هارولد أوَّل من يرى ذلك. وإلا قل لي، ما هو الداعي الذي يدعو اليهود في هذه البلاد إلى أن يكونوا أوَّل من يحارب في سبيل حقوق الأقليات؟ الجواب لأنهم يعرفون الثمن، - ثمن إنكار حقوق الآخرين، كائناً من كانوا - أكثر من أيٍّ من سواهم. كما أنهم يعرفون جيداً أن الأمور تبقى على أحسن ما يكون إلى أن تبدأ الحكومات بتصنيف الناس وحشدهم وتجييشهم." توقف دافيد باحثاً عن شاهد تاريخي يدعم به وجهة نظرة. "ما الذي حدا بآلان ديرشويتز كي يدافع عن أُو جي. سيمسون؟" سأله. "لم يكن قصده أن يوجِّه ضربة إلى سوء معاملة الزوج لزوجه فحسب، بل من أجل تثبيت مبدأ حكم القانون. ومن المؤكد أنك لا تزال تعرف الفرق بين الأمرين."

"هل يعني هذا أنك تختار الآن أن تحاصرني في محتويات كتب القانون؟" نظر إليه هارولد في وجهه مباشرة. "أنت تجازف لا بمستقبلك فحسب، بل بمستقبل ابنتي أيضاً، عندما تنحرف في تلك الطرق الجانبية، وكل ذلك كرامة لعين امرأة تريد أن تغرز حربة في قلب إسرائيل. ثم تقول لي كيهودي أن عليَّ أن أكون فخوراً بك.

"أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك. كما أن الناس من غير اليهود سيحتقرونك بصفتك شخصاً لاهثاً وراء استلفات الأنظار، مستميتاً لرفع شأن نفسك إلى درجة تجعلك ترضى

الترافع في أيِّ قضية حتى ولو كانت تستدعي منك الدفاع عن سفَّاح يحتقرنا. أمَّا بالنسبة إلى جاليتنا اليهودية فإنهم سينظرون إليك كخائن."

"تبّاً، لقد قلت لك إنني لن أدافع عنها. لكنني لو أردت ذلك فلن أستفتي الآخرين مسبقاً كي أقف على آرائهم." جاهد نفسه ليبقي صوته خفيضاً. "أو من أجل أخذ الإذن من أحد، حتى منك أنت بالذات. هذه وظيفتي وشأني وليست شأناً لأحدٍ سواي. ولن يقرِّر أحدٌ عني أيَّ نوعٍ من الرجال أريد أن أكون."

توقفا متواجهين للحظةٍ كديكين تحت نظر العدَّائين الذين كانوا ينحرفون عنهما. كان وجه هارولد مخدَّداً بالألم. "دعنا نجلس،" قال أخيراً، "إن الشجار معك يرهقني."

هذه هي طريقة هارولد، عرف دافيد، في التراجع عندما تصل الأمور إلى حافة الهاوية. "كان نهاراً طويلاً مرهقاً،" أجابه دافيد. "وهذا ما يجعلني أتعب أنا أيضاً."

وجدا مقعداً في ظلٍّ جزئي لشجرتي صنوبر تحركهما الرياح. جلسا يحدِّقان بالمدى الأزرق الفسيح للخليج، الذي يعتمُّ بعمامة من الغيوم البيضاء، وتزنره التلال البنيَّة المذهَّبة التي تقع المارينا عند قدميها. أحنى هارولد جذعه إلى الأمام ملقياً مرفقيه فوق ركبتيه، وشابكاً كفيه أمامه. "ألا تدري حقاً،" سأل، "أن هذه المرأة هي سمٌّ علينا؟ فدفاعك عنها هو إلغاء لأنفسنا، كما لتاريخنا. فإسرائيل هي ملاذنا."

"إنها ليست ملاذ كارول،" أجاب دافيد بهدوء. "إن ملجأها هي أميركا."

"أميركا التي جلبت إليها الآن هناء عارف - هناؤك - أسلوب القتل بالتفجير الانتحاري. هذه الجريمة التي تهدد أميركا وتنذر بقتل المزيد من اليهود. فسواء بصفتك أميركياً أم يهودياً عليك الابتعاد عن هذه المرأة."

"أمَّا بصفتي كمحامٍ؟"

استدار هارولد نحوه. "وهل أنت المحامي الوحيد في أميركا؟ أنت لست بالتأكيد طبيباً في غرفة عمليات. بحيث تقف بين هناء عارف وبين الموت دون أن يكون لديك وقت للتفكير في الخيارات الأخلاقية. دع محامياً آخر يتولى عنك هذه القضية."

"سأفعل ذلك - لكن عليَّ أولاً أن أجد واحداً. فما هو المبرر للاستمرار في هذا النقاش؟"

تأمل هارولد في السؤال. "لأن هذه المسألة تتعدى حدود القانون،" قال في النهاية. "إنها ليست مجرد نزعة إلى الدخول في ترف قانوني ما يجذبك إلى هذه القضية. إن في صميم المسألة وجود امرأة بعينها، وإن ما قد تفعله في سبيل هذه المرأة هو شيء لا يمكن التنبؤ به سلفاً. مثلما لم نستطع أن نتنبَّأ مِن قبل أنك ستقدم على المجازفات التي أقدمتَ عليها حتى الآن من أجلها. عالماً بما يجب عليك أن تعلمه عمَّا قد يعني هذا كله

بالنسبة إليك، وبالنسبة إلى كارول." فاضت الدموع في عيني هارولد. "إنني والدها يا دافيد. وأنت تؤذيها. أنت دون البشر جميعاً، الشخص الذي ائتمنَته على قلبها."

فجأة تسلَّل كل أثرٍ للغضب إلى خارج كيان دافيد. "إنني آسف يا هارولد. أرجوك أن تصدِّق أن..."

"إنني أحب ابنتي أكثر من محبتي للحياة. ربما لن تستطع أن ترقى في حبك لها إلى هذه الدرجة. لكني أرجو أن تكون محبتك لها أقوى من محبتك لتلك المرأة التي تجرح مشاعر كارول من أجلها."

"وهل عندك شكٌّ في هذا؟"

استدار هارولد نحوه. "ما هو السبب الآخر الذي يدعوك لتجعلني أقلق على ابنتي؟ هل توقفت لحظة للتفكير أنه بسبب ما فعلتَه حتى الآن، فإن البعض قد يسعى ليؤذيكما؟"

"ماذا تعني؟"

"إن ما تجلبه إلى عتبة بابنا قد يكون أبلغ من الأذى، أو حتى من العار." صار صوت هارولد خشناً. "عندما تركت النازيين ورائي أقسمت ألَّا أدع أحداً يجعلني أجبن أمامه مرة ثانية. لكن بعدها صار لي ابنة فقد جعلتني أصلي من أجلها إلى الله بعد أن كان قد توقف إيماني به.

"إنني لا أخاف على نفسي من أيِّ شيء. لكنني لا أستطيع أن أتخطَّى مخاوفي من أجلها. وهذا هو السبب الذي جعلني لا أرغب في زواجها من شخص إسرائيلي. لكنك أنت الذي جعلني في أقصى خوفٍ عليها. وإنني لست خائفاً على قلبها فقط، بل على حياتها أيضاً." نظر هارولد في عيني دافيد. "يوجد في إسرائيل متعصبون ممَّن كان الواحد منهم يودُّ قتلَ بن آرون بكل سرور. وهنا أيضاً يوجد يهود متطرفون، غاضبون، إرهابيون، في بلد يحفظ حقوقهم بتسليح أنفسهم. هل تعتقد أنهم سوف يختارون قتلك بطريقة تحفظ سلامة حياة ابنتي؟"

محدِّقاً إلى هارولد، خال دافيد أن الخليج قد بات يفصل بينهما:

لقد بات الخوف الغريزي من عدوٍّ محتملٍ معشِّشاً في نفس هارولد مثلما عشَّش الخوف من الأفاعي في نفس الإنسان الأول. "إن كارول،" قال له دافيد، "غالية عليَّ جداً. وكلُّ ما كنت أسعى إليه هو الحصول على الشعور بالسلام مع نفسي، فإذا بي قد حطَّمتُ سلامكَ مع نفسك."

هزَّ هارولد رأسه قائلاً ببطء وحزن. "يوم زفافي، لم يكن قد بقي لي أحدٌ من أفراد عائلتي، أو أقران طفولتي، لكي يشاركني فرحتي. لهذا فإنني طالما تخيلتُ زفاف كارول وهي محاطة بالناس الذين شاهدوها وهي تنمو وتكبر. جاليتنا اليهودية التي أحبتنا وأحبتها.

لقد تخيلتُ أطفالها، أحفادي، تخيلتُهم يتمتعون بقوة ذكائها وقوة قلبها، ولا يخيفهم شيء مما شهدتُه أنا. تخيلت أنهم سيكونون مستقبلنا الذي يحفظ ماضينا ويعوِّض كل ما لقيناه فيه مِن أحداث.

كما تخيلتُ أنهم سيكونون أطفالك أنت أيضاً يا دافيد. أذكياء وسيمون مثلك، واثقون من أنفسهم مثلك.. لا يخيفهم شيء في الدنيا." فرك هارولد عينيه ثم أشاح بنظره عن دافيد. "لقد أحببتك كما أنت. أحببتك كابن وكشخص تستحقه كارول ويليق بها. أرجوك لا تسلب هذه الأحلام مني."

عندما حاول دافيد أن يجيبه، وجد أن الكلمات تختنق في حنجرته.

* * *

"مهلاً،" قال باري ليفين لدافيد عبر الهاتف الخلوي. "هل أنت تطلب من مكتبنا أن يتولى بدلاً منك الدفاع عن هناء عارف المفترض أنها الرأس المدبِّر لمؤامرة مجهولة الأبعاد أودت بحياة رئيس وزراء إسرائيل؟"

لقد بدا رئيس مجلس الدفاع الشعبي الفيدرالي منزعجاً لمكالمته في البيت بعد ظهر يوم السبت. "أليس من أجل هذا قد وُجد مكتبكم؟" سأله دافيد.

"نعم من حيث المبدأ. لكن ثمة مشكلات أخلاقية تأتي في المقدمة، إذ إن هناك تناقضاً في المصالح. فنحن الآن نمثل إبراهيم جعفر، الشاهد الرئيسي ضد هناء عارف، وهذا يعني أنه حتى وإن رضيت هناء بذلك، فإن المحكمة قد تمنعنا من تمثيلها،" كانت لهجة ليفين حاسمة. "وبكل صراحة يا دافيد، سيكون ذلك خدمة لنا ولها. إذ إننا مستغرَقون في القضايا. قضايا كثيرة ومحامون قليلون وميزانية صغيرة. إنني سأقبل هذه القضية إذا دفعَنا أحد لكي نتولَّاها. وما لم تعترف هناء بأنها مذنبة فإننا لن نستطع أن نوفِّر لها شيئاً مما ستحتاج إليه. سوف يتم استدعاؤها إلى المحكمة يوم الاثنين، أليس كذلك؟"

"صحيح."

"إذن إن أفضل ما أتمناه في سبيل مصلحتنا جميعاً أن يكون شخص ما سوانا واقفاً إلى جانبها."

بذلك، عاد كبير محامي مجلس الدفاع الشعبي الفيدرالي إلى اللعب مع أولاده.

الفصل

10

في ذلك المساء، وبعد ثلاثة اتصالاتٍ هاتفية قام بها دافيد إلى محامين من خارج المدينة، حفظ وعده لكارول في طهو العشاء. كان جوُّ العشاء مكبوتاً. شعر أن كارول تحاول أن تتجنب التعبير عن التوتر المكبوت لديها والبادي على محيَّاها. وقبل ذهابهما إلى الفراش كان المحامون من لاس فيغاس ولوس أنجلوس قد اعتذروا عن القبول بتمثيل هناء عارف. "في قضية مايكل جاكسون،" علق أحدهم. "كانت القضية قضية أولاد صغار. ولم يكن لمحامٍ جيد أن يتولى الدفاع فيها متبرِّعاً."

ومع أنهما مكثا في الفراش صامتين فإن أياً منهما لم يكن قادراً على النوم. في الصباح التالي، قبَّلها بلطف قبل أن ينسحب من الفراش. "إنني ذاهب لأتمشى قليلاً." قال لها. لم تسأله هي لا إلى أين، ولا لماذا.

قادته الطريق إلى فورت ماسون في نهاية الرصيف الممتد في عمق مياه الخليج. قبل وصوله إلى الرصيف، كان قد سمح لذهنه لكي يتجوَّل من شخصٍ إلى آخر - كارول، هارولد، هناء، منيرة، صائب، بتسي شابيرو، ماكس ساليناس، ولدهشته، حتى أمه وأبيه. كانت أسئلته في الوقت ذاته مصيرية وتافهة، مثل تلك المتعلقة بموانع التمثيل لأسباب أخلاقية، ولآلاف من حلقات المناقشة الجماعية غير الرسمية.

لم يكن ثمة شك عنده في أن إجاباته على هذه الأسئلة يمكن لها أن تحدد ليس مصير حياته فحسب، بل مصائر حياة بعض الآخرين أيضاً. ولأنه كان عليه أن يفكر في هذه التساؤلات جميعاً، فقد انتابه التشويش والوساوس. كما أنه وجد نفسه أحياناً يشعر بالامتعاض من هناء عارف كونه كان قد عرض عليها حياة سعيدة معه، فلم تكتف برفضها بل عادت إليه ثانية لتدمر حياته التي حاول بناءها بدونها. والأدلَّة ضدها وإن تكن متفرقة، إلا أنها مؤذية وقاصمة. ومع ذلك فإن دافيد وولف الذي أحبها خلافاً لكل منطق، لم يكن قادراً على القبول بأنها قادرة على القتل.

أمَّا أنها قادرة على الكذب، وربما لا مشكلة عندها بأن تكذب، فهو أمر كان يعرفه

جيداً. لكنه ما فتىء يستعيد ما قالته له منذ ليلتين: '*من أجل أن أبقى مع منيرة فإنني ربما أقدم على قتل عاموس بن آرون. لكنني لن أجازف أبداً بالتخلي عن ابنتي*'. ومع أن دافيد لم يكن في يومٍ من الأيام أباً، إلَّا أن هذا الكلام كان فيه صدى الصدق والحقيقة.

أنا أحب ابنتي، يقول له هارولد. *أكثر من محبتي للحياة. وربما أنك لن تستطيع أن ترقى في حبك لها إلى هذه الدرجة. لكنني أرجو أن تكون محبتك لها أقوى من محبتك لتلك المرأة التي تجرح مشاعر كارول من أجلها*.

جلس دافيد عند آخر الرصيف وأخذ يعيد التأمل في خياراته.

إن طبيعة الأدلَّة ضدها لا تنبىء أن سوء الحظ كان هو الذي قاد إلى وجودها. فإما أن تكون هناء مهندسة إرهاب، وإما أن يكون ثمة مهندسٌ آخر قد أحكم وضع هذه الخطة التي يمكن أن تدينها وترسلها إلى السجن كي تموت فيه إما بسبب تقدم السنِّ أو بسبب الحقنة المميتة.

ولنفترض أنه فاز بعضويَّة الكونغرس وذهبت هناء إلى الموت، فهل تراه سيكون قادراً على إقناع نفسه أنه قد تصرَّف تصرُّفاً صحيحاً؟

أن يسلم القضية إلى محام مقتدر، هذا أمرٌ قد يمنح فرصة لراحة الضمير. وحتى بصرف النظر عن كلفة الدفاع عنها بالنسبة إلى دافيد فإن المخاوف التي كان قد عبَّر عنها إلى هناء تبقى مخاوف مهلكة. فقد تأتي لحظة ينتكس فيها الدفاع انتكاسة مميتة بسبب تضليل مشاعره لصوابية تقديره. ولكن، ومن جهة أخرى، فإن ماكس ساليناس ليس هو الجواب الصحيح على هذا السؤال. وبغياب أي خيار آخر، كان دافيد على علم بقدراته الذاتية. ما دام أن البديل الأفضل غير موجود، فإن دافيد يعرف من جهة أخرى نقاط قوته. فهو محام جزائي موهوب وخلَّاق، مستعدٌ للتحدي، ويعرف سلوك شارْب وطريقة تفكيرها، ونمط عمل جهازها المساعد، أكثر من أي محامٍ آخر. أمَّا حقيقة أن البعض سيحتقره، فهذه مسألة لن يسمح لها بأن تكون عائقاً له بحدِّ ذاتها. ولو لم يكن الأمر متعلقاً بكارول وبطموحه فإنه ربما كان سيأخذ القضية.

هذا ما كان منها ومنه.. وأنَّى للزمان أن يصفو، وقد دفع ثمناً لمحبته لها غالياً.

هل تُراه لا يزال باقياً على حبه لها؟ ولكن هذا احتمال منافٍ للعقل، بل هو جنون ومحال. والأرجح أنه لا يزال يحب ذكرياته معها. ذكرياته مع فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها. فتاة حسِب يوماً أنه قد فهمها. أما المرأة القابعة الآن في السجن، بعد أن مرَّ عليها ثلاث عشرة سنة كزوجة وكأم، فإنه لم يبق له منها سوى أن تكون مقتلة وبلوى. '*دعني أخبرك عني، وعمَّا صرتُ إليه في السنوات الماضية التي تلت ذلك اليوم الذي اعتقدتُ فيه أنني قد أصلح لكي أكون زوجة لك. إنني أم. أمٌّ تحب ابنتها منيرة إلى درجة أبعد بكثير من أن تسمح لصائب بأن يربيها وحده في غيابي*'.

رفع دافيد القلِق هاتفه الخلوي من غمده أسفل زجاج السيارة الأمامي.

وعلى البريد الصوتي وجد رسالة من زميل قديم له يعيش في مانهاتن. يقول فيها إن لدى مكتبه من القضايا الجزائية عدداً يفوق طاقته. ثم إنه قد تزوج حديثاً، وكل ذلك يجعله في وضع لا يسمح له بأخذ قضية مجانية تعود إلى إرهابية فلسطينية متهمة بتدبير قتل رئيس وزراء إسرائيل.

وجد دافيد نفسه يحدِّق في الهاتف الخلوي الموجود في يده. *'من هو الشخص الإرهابي الذي يدبِّر جريمة كهذه'* سألته هناء مرة، *'ومع ذلك، يسرِّب رقم هاتفه الخلوي الشخصي؟'*

ومرَّة جديدة، تسارعت غرائزه كمحام إلى العمل، "إذا كان ثمة خرق أمني متعمّد في الجانب الإسرائيلي،" كان قد قال مرة إلى بتسي شابيرو، "فلا بد من أن يكون أحدٌ ممن هم في متناول اتصالنا، يمسك بالمفتاح لمعرفة حقيقة الذي حصل، ومن هو الذي وراءه".

أعاد دافيد هاتفه الخلوي إلى مكانه، وبدأ، في طريق عودته إلى البيت بمحاولة غربلة أفكاره، محاولاً الفصل ما بين المبادىء والمشاعر، بينما هو لا يزال غير متأكد ماذا يهيىء له الوقت من تطورات، وما ستفرض عليه المواقف من قرارات.

* * *

"قد يداهمنا موعد المثول أمام المحاكمة:" قال دافيد ببطء، "قبل أن أتمكن من العثور على محامٍ بديل يكون كفوءاً لتمثيلها."

"لن تجد أحداً." نظرت كارول في عينيه وهي جالسة في غرفة الجلوس، فهالتها مسحة الحزن واللاقرار التي تغشاهما. ثم تكلمت بهدوء. "هل ما زلت تحبني من الأساس يا دافيد؟ أو تحب أبي؟"

شعر دافيد بجفاف في حلقه. "طبعاً أحبكما. لكنني إذا قمت بما أقوم به من أجل هناء، فلن يموت أيٌّ منكما. أمَّا إذا لم أفعل فالأمر مختلف مع هناء. ربما لن أستطع متابعة العيش معكِ إذا أخذتُ هذه القضية. لكن كيف سأعيش مع نفسي إذا تخليت عنها؟ المسألة هنا ليست مسألة مَن يحب مَن بصورة أكبر."

"إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تدافع عنها؟"

"لأن هناك شيء ما يسير بطريقة خاطئة هنا. وهي تستحق محامياً جيداً -"

"أنتَ وهي، كنتما عاشقان، ولن تستطيع أن تختبىء من هذه الحقيقة خلف عباءة المحاماة. أنت خطيبي، ولنا حياة نعيشها معاً. أمَّا الآن فيبدو الأمر كما لو أن أحدهم قد أعطاك دوراً مكتوباً لكي تقرأه." وقفت كارول وصوتها مخنوقٌ بالمشاعر. "أعتقِد أنك ما

زلت تحبها، مثلما يحدث في أحد أفلام هيتشكوك عن الاستحواذ، تحت اسم: 'الانجذاب القاتل'، وأنت هنا على عكس قصة الفيلم تضيع حياتنا جزافاً من أجل إخراجها من السجن."

"هذا ليس عدلاً،" قاطعها دافيد بصوتٍ خفيض. "هذه لستِ أنتِ يا كارول."

جلسَت كارول وهي تقول بلهجة مستعطفة. "أرجوك أن تقول لي، ماذا عني أنا؟ ألست كافية لك؟ أشعر الآن كأنك قد وقعتَ على حبك الضائع القديم. وأنت الآن تبحث عن كيفية تسوية الوضع معي."

"أنا لم أذهب للبحث عمّا نحن فيه."

"لا. ولكنها جاءت تفتش عنكَ وعن عاموس بن آرون." ارتفع صوت كارول. "إنني خائفة عليك أيضاً ـ إنها ستدمرك. ستجعلك تغدو كميتٍ يمشي."

جلس بجانبها مطوِّقاً كتفيها بذراعه. "إنني ما زلتُ متمسكاً بحياتنا معاً..."

أفلتت منه. "حياتنا لا يمكن أن تتضمَّن هناء عارف، وإلَّا فإن الحياة التي سنحياها ستكون في الحياة التي ستبقيها لك. لا مستقبل سياسي. لا أهل تنتسب إليهم. لا إحساس بالانتماء، ولا بما يقتضيه الانتماء من حدود ومن مراعاة. سيكون الأمر على الشكل التالي: دافيد وولف يهودي تائه." هنا ملأت الغصة صوتها. "هل إن ما حدث لوالدي لا يعني لك شيئاً؟ هل تحسُّ أن لديك ضميراً؟"

شعر دافيد أن الألم ينشب في أوصاله. "بلى إن لي ضميراً، أأحببتِ ذلك أم كرهتِه. وضميري يقول لي إنني لست مجرَّد يهودي من الطراز التقليدي الذي يصلح لملء أيِّ ثغرة عادية تقتضيها السياقات."

"وأنا لي ضميري أيضاً،" ردَّت عليه كارول بغضب. "وإن أعمق جزء من ضميري هذا يذكرني أن أجمل أملٍ لإسرائيل قد جرى تفجيره إلى ألف قطعة دامية بواسطة هذه المرأة التي تتولَّى أنت الدفاع عنها." انهمرت الدموع من عيني كارول. "لن تستطيع أن تحبني وأن تفعل ما تفعله من أجلها معاً. لا يمكنك حتى أن تحب نفسك على هذه الشاكلة."

فجأة انصرفَت عنه، بينما وجهها مغطى بكفيها. وصل دافيد إليها. "لقد قال كلانا أكثر مما يجب أن يقول يا كارول. نريد بعض الوقت لكي نسوِّي هذه الأجواء."

"لم يعد ثمة وقت باق لتسوية هذه الأمور." استدارت كارول نحوه بينما عيناها لا تزالان رطبتان، وصوتها ناضب من أيِّ شعور. "إنني أحبك يا دافيد أكثر مما يمكنك أبداً أن تحبني. كنت أعتقد أنني أستطيع أن أتعايش مع هذا. لكنني أعرف الآن أن الأمر زاد عن حده بالنسبة لي. لطفاً دعني على الأقل أرحل محتفظة بكرامتي."

راقبها دافيد محزون الفؤاد وهي تغادر آخذة معها الحياة التي صنعاها معاً.

* * *

في الغرفة البيضاء جلس دافيد مقابل هناء. كان الأمر غريباً، وشعر أنه ضائع بقدر ما يجب أن تكون هي ضائعة. قالت له بهدوء، "ظننتُ أني لن أراك مرة ثانية."

"هكذا ظننت أنا أيضاً."

"وخطيبتك كيف تُراها تشعر؟" قالت هناء بعد تردُّد.

"ما الذي يجعلك تسألين؟"

"منذ ليلتين، عندما شرحتَ لي الأسباب التي تمنعك من القيام بالدفاع عني، فإن اسمها لم يمرَّ على شفتيك. حتى يومها لم أستطع إلاَّ أن ألاحظ هذا التعامي."

أسند دافيد ظهره. "كارول ليس لها صلة بهذا الحديث."

نظرت إليه هناء نظرة فاحصة. "أعتقِدُ أن لها بعض الشأن. هل تحبها؟"

"نعم." ورغم رغبته العميقة في التحفظ، شعر دافيد فجأة بالحاجة إلى الكلام. "إنها شديدة الذكاء وشديدة الدفء. إني أثق بها. أحياناً أشعر أنها تهتم بما يحصل معي في نهاري أكثر من اهتمامها بما يحصل معها."

كبح دافيد نفسه شاعراً بموجة من الندم. إنه لا يزال يتكلم بصيغة الزمن الحاضر عن شخصٍ كان قد فقده. إنه لا يكاد يدري أنه قد فقدها، وهو الآن غير قادرٍ على فهم كيفية التغير الذي سوف يصيب حياته. تمعَّنت هناء في وجهه كأنها تراه للمرة الأولى. "وقبل عثورك على كارول، ألم تكن قطُّ راغباً في الزواج؟"

"كلا. فلقد بقيت أنشد شعوراً لم أستطع بلوغه."

بقيت هناء صامتة لبرهة. ثم سألته بصوتٍ متردد: "هل تسبَّبتُ أنا لك بكلِّ هذا؟ هل سبَّبتُ لك فعلاً كل هذا الأذى؟"

أبعدت هناء نظرها عنه. وعندما نظرت إليه ثانية كان صوتها رائقاً. "لقد تطلَّبتُ منك الشيء الكثير، إني متأكدة الآن مِن هذا. لقد كنت خائفة، ولم يكن لي شخص سواك كي أثق به." أنصتت قليلاً ثم أكملت بهدوء: "دع القضية عنك يا دافيد. إنهم يستطيعون إيجاد محامٍ لي سواك."

"لن يجدوا لكِ محامياً مثلي، هذا ما أخشاه ـ ليس بدون نقود. لم أجد واحداً من الذين حاولتُ معهم، يقبل بذلك."

استجمعت هناء هزة بسيطة من كتفيها. "كل ما يحتاجه النظام هو محام جيد إلى درجة كافية تمكنه من خسارة القضية دون إحراج. لقد تعلمنا هذا جيداً في هارفارد. وأنا سمعتُك في الليلة الماضية بما يكفي لأعرف أنك تعتقد أنك غير قادر على ربحها."

نظر دافيد داخل عينيها. "هل فعلتِ هذه الفعلة يا هناء؟"

للحظة طويلة بقيت تحدق فيه في صمت. "جزء مني،" قالت أخيراً، "يريد أن يقول لك نعم إني مذنبة. ثم تستطيع بعد ذلك على الأقل، أن تخرج من هنا ربما لكي تستعيد حياتك التي أشعر أنها تفلت من يديك. لكن لا يا دافيد. إنني لم أتآمر مع أحد من أجل اغتيال بن آرون."

فكَّر دافيد مرة جديدة. كان في خطر من أن يخسر نفسه مع هناء عارف ـ كمحامٍ هذه المرة. فكَّر في الثواني القليلة الأخيرة من عمر بن آرون، وفي كل ما كان يريد أنْ يعطيه من أجل مساعدة المرأة التي ربما تكون قد قتلته.

"لنتحدث الآن عن جلسة المحاكمة الأولى." قال لها.

الفصل

11

بالنسبة إلى دافيد، كان صباح جلسة المحاكمة الأولى لهناء صباحاً مربكاً ومشوَّشاً، الأمر الذي جعله يعمل جاهداً لإعفاء نفسه، ولو مؤقتاً، من ذلك الشعور بقلَّة الثقة.

ارتقى سلَّم الدرج المؤدي إلى المبنى الفيدرالي تحت وابلٍ من أضواء الكاميرات وأسئلة الصحافيين. لكنه تابع النظر أمامه متجاهلاً صيحاتهم وأسئلتهم عن السبب الذي دعاه إلى القبول بالدفاع عن هناء عارف. كما أن الجلَبَة الناشزة الصادرة عن جمهور المتظاهرين ـ وأغلبهم من المؤيدين لإسرائيل، رغم وجود قلة من المؤيدين للفلسطينيين أيضاً ـ كانت تأتي هادرة من وراء الحاجز البشري الذي نشره رجال الأمن. والشيء الإيجابي الوحيد هو أنه لم يكن على هناء أن تمر بينهم. فقد كانت السلطات الأمنية قد عملَت على ترتيب صعودها من المرآب إلى قاعة المحكمة عبر مصعد داخلي. وذلك عقب وصولها إلى بداية مرتقى المصعد، في موكب أمني يرافق الشاحنة التي أقلتها، مؤلف من دراجات نارية، وسيارات بوليس، وسيارات صحافة، وطائرات مروحية، وقد كان لهذا الموكب الأمني وقعٌ مهيب يذكِّر بالموكب الأمني الذي رافق عاموس بن آرون سابقاً.

دخل دافيد إلى الردهة الرخامية المتكهِّفة. وهي واحة نسبية أقرب إلى الحياة المدنية من جحيم الخارج. كانت مسالكها المؤدية إلى الطوابق العليا التي تأوي قاعات المحاكمات تمرُّ عبر أجهزة كشف المعادن التي يشرف عليها الحراس الأمنيون. وعندما أخذ دافيد مكانه في نهاية صف المراسلين الذين يتقدمون ببطء لإتمام الإجراءات الأمنية حاولت صحافية من القناة الخامسة أن تستصرحه. لكن رجل أمن كان يعرف دافيد منذ أيام خدمته كمحامٍ عام في مكتب النيابة العامة الفيديرالية، خفَّ به بين رجال الأمن الآخرين، إلى مصعدٍ شاغر. ومع وصوله إلى الطابق التاسع عشر، أيقن أكثر من أي وقت مضى، وبكل وضوح، أنه لم يعد دافيد وولف بحسب التعريف الذي يعلمه عن نفسه. بل إنه قد صار الآن المحامي الذي لا يدري كيف اختار لنفسه أن يكون محامي دفاع عن سيدة إرهابية.

مجموعة كبرى أخرى من الصحافيين كانت تنتظر خروجه من المصعد متربصة. ولو

كان الخيار عائداً له، فإنه كان يرجو في أن يكون كلٌّ من صائب ومنيرة في صحبته ساعة دخوله إلى قاعة المحكمة وفقاً لوجهة نظره التي شرحها لصائب، لأن من شأن ذلك أن يذكِّر قرَّاء الصحف ومشاهدي الأخبار أن لهناء عائلة مؤلفة من زوج وطفلة. لكن صائب أصرَّ على أن يؤمِّن لهما دافيد دخولاً خاصاً من خلال المرآب، بحجة أنه يريد أن يوفر على ابنته التعرض لتحرُّشات رجال الصحافة. أليس كافياً، كان قد جادل، إصرار دافيد على حضورها إلى المحكمة لكي تشهد بعينيها كيف تُوجَّه الاتهامات إلى والدتها بارتكاب جريمة قتل؟

هكذا، ومكتفياً بالاستجابة لجميع الأسئلة بابتسامة مصطنعة، شق دافيد طريقه عبر الممر المبلط فيما نعال الصحافيين تخفق في إثره إلى أن دخل إلى الحجرة البهيجة النظيفة للقاضي التي ـ وعلى افتراض أن هناء لن تُرحَّل إلى إسرائيل ـ إمَّا ستتقبل اعتراف هناء بأنها مذنبة في التهم المنسوبة إليها، وإمَّا أن ترأس محاكمة لها يودُّ معظم القضاة لو يستطيعون اجتناب مُرِّ كأسها.

كانت قاعة المحكمة مليئة بالناس. وكان رجال الأمن يحيطون بجميع جوانب جوفها الذي يستوعب خمسة صفوف من المقاعد الخشبية المطلية بالورنيش. وفي الصف الأمامي جلس صائب ومنيرة يحيط بهما رجلا أمن.

توجَّه دافيد إليهما راشقاً صائب بنظرة سريعة صارمة أعادها إليه صائب بمثلها، ثم أحنى رأسه صوب منيرة. كان الهلع البادي في عينيها يحمل صبغة سخام قلّة النوم وطول الأرق. "هل ستأتي أمي؟" سألته.

هزَّ دافيد رأسه بالإيجاب. "ستأتي حالاً. ولقد رتبتُ لكِ الأمر لكي تجتمعي بها بعد انتهاء الجلسة لبضع دقائق على الأقل."

حاولت منيرة الصامتة أن تتفهم حقيقة أن أيَّ لقاء لها مع أمها سوف يكون مقنَّناً، وعلى حساب تصبُّر الآخرين على ذلك. ورغم شدَّة قلق دافيد، فإنه شعر بأسف شديد نحوها؛ ففي الوقت الذي تشكل له الإجراءات القانونية طبيعة ثانية، فإنها لا شك إجراءات غريبة مقلقة لمنيرة سيما وهي تشاهد أمها تقف وقفة المتهم المدان. ومتذكراً خوفها من طلعات البلو آنجلز، وما أعقب ذلك من شعورها بالخجل لأنها احتمت به، فقد وجد دافيد أن لا سبيل أمامه لكي يقنع الفتاة في حضور والدها. لذلك قال في اتجاههما معاً "سنتكلم في وقتٍ لاحق." ثم تقدَّم ليحتويه بطن القاعة.

إلى جانب الطاولة المخصصة للادعاء وقفت مارني شارب ومساعدها الأحمر الشعر بول ماكينيس ـ وهو محام عام مكرَّس، لا يستطيع أن يرى نفسه في موقف الدفاع عن هناء عارف إلَّا بقدر ما يرى نفسه يلبس تنورة قصيرة في قاعة المحاكمة ـ يتشاوران سراً مع كلٍّ من فيكتور فاليس ورجل ضئيل أصلع قصير لم يكن دافيد قد شاهده من قبل.

عندما اقترب دافيد قطعت شارب حديثها مع الرجال الثلاثة بهزة رشيقة من رأسها في اتجاهه. "إنني لا أكاد أصدِّق يا دافيد. لم يدر بخلدي مرة أنك مثاليٌّ إلى هذه الدرجة".

حمل صوتها مسحة من جنون الارتياب. الارتياب بأن باعثاً ما "خفياً" غريباً لا بدَّ من أن يكون هو الذي حدا بدافيد للقبول بالدفاع عن هذه المرأة، ولا بدَّ لها من البحث عن هذا السبب، وعن اكتشافه. وعندما اكتفى دافيد بهزة من كتفيه لأن أعصابه مشحونة إلى درجة لا تطيق الظرف والممازحة، استدارت شارب لتلامس كتف الرجل الغريب قائلة: "هذا هو السيد آفي هيرتز يا دافيد، وهو يهتم من بين أشياء أخرى بتمثيل حكومة إسرائيل كمراقب في هذه المحاكمة."

ما هي تلك "الأشياء الأخرى"، أمرٌ بقي لدافيد أن يخمنه تخميناً. وعندما مدَّ يده لمصافحة الرجل، سأله دافيد بتأدُّب، "هل حضرتك من مكتب النيابة العامة في إسرائيل؟"

"نعم." جاء جواب هرتز الرشيق المتخابث المقرون بنظرة من عينين لونهما أزرق رمادي، لهما نظرة باردة تضارع نظرة وكيل تأمينٍ يخمِّن عدد الأيام الباقية في عمر دافيد. "في الوقت الحاضر".

لا بد أنه من رجال الشين بيت أو ربما من رجال الموساد، اعتقد دافيد، "قد أتقدم ببعض الأسئلة إلى الحكومة الإسرائيلية،" قال له دافيد. "هل تريدني أن أقدمها بواسطتك؟"

لم تظهر على وجه هيرتز أي علامات للدهشة. أمَّا نبرة صوته فلم تكن ودودة ولا دفاعية. "يمكنك ذلك، بلا ريب،" أجابه. "السيدة شارب تعرف كيف تصل إليَّ."

وقبل أن يستطيع دافيد الاستجابة، رفع هرتز أنظاره بسرعة نحو المنصَّة العالية التي ستعتليها القاضي تايلور. ولكن بدلاً من دخول القاضي، فإن هناء عارف كانت هي التي برزت من الباب الواقع خلف قوس المحكمة، بينما وقف إلى جانبها شرطي حارس.

كانت هذه إطلالتها الأولى في مواجهة الجمهور. وبناء على طلب من دافيد كان مكتب حرس المحكمة قد سمح لها بأن ترتدي في قاعة المحاكمة تنورة فضفاضة تحت بلوزة عادية. توقفت تفتيشاً عن ابنتها وعن زوجها. كان تركيزها ينصبُّ على وجه منيرة. أمَّا ابتسامتها فكانت تعني بث الثقة في قلب الفتاة بأنها متماسكة وليست خائفة. وفقط، بعد أن ألقت بنظرة سريعة رصينة ومعتمة نحو صائب، جالت بأنظارها في وجوه الحضور في القاعة ليستقرَّ نظرها أخيراً على دافيد نفسه.

اقتادها رجال الحراسة إلى طاولة الدفاع. وعندما اقترب دافيد إلى جانبها، لم تبادر إلى النظر إليه. "إنني آسفة" تمتمت له.

"آسفة بسبب ماذا؟"

بقي رأس هناء خفيضاً دون أن تجيب على سؤاله. "لينهض الجميع،" صرخ مباشِر المحكمة. انتصب المشاهدون على أقدامهم، فيما تقدمت القاضي كاتلين تايلور برشاقة ونشاط نحو القوس.

وعلى الرغم من وقوع الاختيار عليها هي بالذات، من بين أربعة عشر من بين القضاة المؤهلين، فإن كاتلين كانت جديدة على هذه المحكمة. ولم يكن قد سبق لدافيد أن مثُل أمامها. كانت شهرتها المبكرة تتناسب مع إطلالتها المميزة. فهي نحيلة الجسم، نبيلة الطلعة، ولها شعر بنيٌّ مرسَل طويل ووجه ناحلٌ بارز المعالم، محدَّدٌ بنظّارتين سلكيّتي الإطار تضفيان على وجهها مسحة الشخص الفاهم الدقيق. ومع أن خلفيتها السابقة كمحام عضوٍ في مكتبٍ متحدٍ للمحاماة، لها فكرٌ ثاقبٌ، وسلوكٌ قاطع، جعلَها معروفةً من قبل، إلّا أنها كانت مع ذلك لا تزال تمثل غموضاً ساحراً. فهي لا تمتلك سوى تجربة قليلة في القضايا الجنائية، وكان من غير المعروف سلفاً كيف ستصمد وتتصرف تحت مجهر التركيز العالمي عليها؛ وذلك بصفتها "القاضي التي تنظر في جريمة هناء عارف. الجريمة التي تحظى باهتمام العالم. وكذلك كيف ستكون استجابتها إلى خطة الدفاع المعقَّدة التي لم يُخرجها بعدُ عقلُ دافيد وولف إلى الملأ.

فأداء تايلور في هذه المحاكمة سيكون في الوقت عينه محاكمة لشخصيتها ولذكائها. فالقضايا السيئة، والغزيرة السمعة، كما يعرف دافيد جيداً، تضخِّم نقاط القوَّة، كما نقاط الضعف، في شخصية القاضي. فهي تُظهر إلى العلن عجرفته، وغروره، وضعف مقدرته على التدقيق والحسم؛ كما أنها تظهر مقدار هدوء تفكيره، ومبلغ تعقُّله وأصالة رأيه، ومدى ثبات موقفه على اتجاهٍ واحد للبوصلة. والشيء الوحيد الذي بات يعرفه دافيد عنها الآن، هو أنها عازمة على قبول التحدي منذ بداية الطريق. فهي قد أشاحت النظر عن الروتين المعتاد القاضي بأن تكون مثل هذه الجلسة الابتدائية تحت رئاسة قاض صغير، بدليل أنها اختارت أن ترأسها بنفسها.

"يمكنكم التفضل بالجلوس"، بدأت القاضي كلامها بصوت هادئ واضح. "القضية التي أمامنا الآن مرفوعة من الولايات المتحدة الأميركية ضد هناء عارف. هلاً يتفضل وكلاء الادّعاء والدفاع بالتقدم إلى القوس والإعلان عن أنفسهم؟"

وقفت شارب ممتثلة للطلب، ومقدمة مساعدها بول ماكينيس. وعندما قال دافيد بطريقة بسيطة. "دافيد وولف الحاضر من أجل الدفاع عن هناء عارف،" فإن القاضي تايلور رفعت حاجبيها ـ فهي غير بعيدة عن أخبار السياسة، وقد بدت حائرة في أمر حضوره إلى هذه المحكمة بهذه الصفة بقدر حيرة شارب ذاتها، وإن كان عجبها هذا قد ظهر بصيغة أكثر حيادية.

"قبل أن نتقدم في عملنا،" تقحّمت شارب قائلة. "هل أستطيع أن أتقدم بملاحظة لي بخصوص دور السيد وولف في هذه المحاكمة؟"

بدت الدهشة على وجه القاضي مثلما بدت على وجه دافيد. لكنها اتجهت نحو شارب قائلة بلهجة سريعة متيقظة. "يمكنك ذلك."

هنا تكلمت شارب بكلماتٍ سريعة متقطعة، وهذه علامة العصبية حسب عهد دافيد بها. "عند حصول حادث الاغتيال يا صاحبة الاحترام فإن السيد وولف كان يقف عند زاوية التقاطع بين شارع ماركت ستريت والشارع الرابع. ولم تقتصر المسألة على مشاهدته الحادثة مشاهدة العيان، بل إنه أدلى بإفادته عنها إلى الأف.بي.آي." وبعد نظرة وجيزة إلى دافيد. تابعت شارب كلامها. "ولهذا السبب، فإنه قد يكون شاهداً مدرِكاً في أية محاكمة، وهذا يجعله غير صالح لكي يكون وكيلاً للسيدة عارف."

نظرت القاضي إليه، وكان دافيد للحظة تحت لطمة المشاعر المتضاربة، ومنها: وضوح رغبة شارب في التخلص منه؛ الفرصة غير المرحَّب بها، ولكنها في كل حال السانحة، التي تعطيها له شارب للخروج من ورطة لم يحسن إخراج نفسه منها؛ الشعور المخيف بأن تنكشف علاقته القديمة العميقة بموكلته، كلها، إلى العلن؛ كما أنه كان يحسُّ بشدَّة أن هناء ترقب ردَّة فعله عن كثب. "يا سيد وولف؟" استحثته القاضي. "هل ترغب في الانسحاب؟ أم أنك ستذهب أمام هذا الطلب مذهباً مختلفاً؟"

حاول دافيد أن يصفِّي أفكاره. "يا صاحبة الاحترام، إن لدى السيدة شارب ما لا يقلُّ عن ثلاث مئة شاهد غيري، كما أن لديها اعتراف مزعوم من إبراهيم جعفر، ولا أستبعد أن يكون تحت يدها أيضاً شريط فيديو مسجلاً لحادثة الاغتيال نفسها. فهل تقصد السيدة شارب بطلبها هذا أنها تحتاج إلى مساعدتي لكي تثبت أن عاموس بن آرون قد تمَّ اغتياله فعلاً؟"

ومع أن طريقة كلامها لم تتبدَّل، فإن زاوية نظرتها إلى شارب كانت تحمل تعبير التحدي. "بالطبع لا،" أجابت شارب بخشونة. "لكن هذه قضية ذات أهمية عالمية ولا تزال لها أسئلة عدة لم تلق بعد جواباً. فتحقيقاتنا لا زالت مستمرة في نطاقاتٍ ما زالت تتسع. ولا أحد يدري كم مِن معلومة تفصيلية قد تُثبت أنها ذات دلالة قصوى، ولا مَن هو الشخص الذي قد يكون قادراً على أن يقودنا إليها."

لقد وصلت شارب، حسِب دافيد، إلى حافة موضوعٍ ودّت لو تستطيع التطرُّق إليه لولا أنه يجافي حضور آفي هرتز في هذه المحكمة. هذا الموضوع يتعلق بمعرفة القاتلين، الواضحة والمسبقة، بواقعة قرار تغيير مسار موكب بن آرون إلى المطار في اللحظة الأخيرة. "إن ما نحن بصدده في هذه المحكمة،" أجاب دافيد، "ليس حقيقة أن ثلاث ضحايا قد سقطوا فحسب، بل أن السؤال المطروح هو: من الذي دبَّر قتل هؤلاء الضحايا،

وهل أن السيدة عارف كان لها في الحقيقة والواقع أيّ دور بالمطلق في حصول ذلك. وحول هذه المسألة، فإنني لا أملك أية معلوماتٍ شخصية تتعدى ما تملكه السيدة شارب من معلومات.

"وفي الوقت نفسه، يجب ألّا ننسى أن السيدة عارف لها ملء الحق في اختيار المحامي الذي يمثلها. وليس في ما يقدمه الادعاء من اقتراحات ما هو كافٍ لحرمان السيدة عارف من حقها في اختيار وكيلها."

رفعت القاضي تايلور أنامل كفها المضمومة مريحة أطراف أصابعها عند حافة ذقنها. "إنني أوافق،" قالت بعد برهةٍ. "فإذا قررتِ أن تذكري السيد وولف في لائحة شهودك يا سيدة شارب، فعليك أن تعودي إليَّ بأسباب تتعدى هذه الأسباب التي لا تكاد تبدو حريَّة بالقبول. وإلى أن يتحقق ذلك، فإنني أقرر أن أسمح له بالاستمرار في مهمته كوكيل في هذه الدعوى." ثم استدارت القاضي إلى هناء قائلة. "يا سيدة عارف هل تفهمين طبيعة الاتهامات الموجهة إليك؟"

رفعت هناء قامتها. "نعم أفهم."

"وهل أنتِ فعلاً راغبة في أن يقوم السيد وولف بتمثيلك؟"

ظهر التردُّد على وجه هناء لحظة. "نعم،" قالت بصوتٍ أهدأ من ذي قبل. "إنني أرغب في ذلك."

تفحَّصتها القاضي مليّاً. "حسناً،" قالت لدافيد. "إن موكلتك متهمة بين أشياء أخرى بانتهاك المادة 18USC1116 من قانون العقوبات الفيديرالي الأميركي، بتهمة قتل مسؤول رسمي أجنبي على أرض الولايات المتحدة الأميركية. هل تريد أن يُقرأ القرار الاتهامي على موكلتك؟"

"لا، لا حاجة لذلك يا صاحبة الاحترام"

"هل المدعى عليها جاهزة لتقديم أي دفع؟"

"نعم ندفع بعدم صحة كل الاتهامات الواردة في القرار الاتهامي،" أجاب دافيد. "فالسيدة عارف تدلي بأنها بريئة تماماً من جميع التهم الموجهة إليها."

حصل بعض الهرج خلفهم، إنه الاهتياج الأولي لرجال الصحافة الذي يسبق ولادة رواية صحفية جديدة، محاكمةٌ يجب أن تغطّى أخبارها، بما تَعِد به من أحداث درامية ومفاجآت. وفيما هو يستشعر هواجسه وشكوكه الخاصة، نظر دافيد لحظة ناحية هناء التي كانت لمدة وجيزة تغلق عينيها.

"حسناً،" قالت القاضي بهدوء. "هل عندكَ أية إدلاءات تريد أن تقدمها بخصوص

إخلاء السبيل يا سيد وولف؟"

"نعم" أجاب دافيد. "إلى أن تنتهي هذه المحاكمة، فإن زوج السيدة عارف، وابنتهما، لا يملكان جوازات سفر. لذلك فإنهما لن يغادرا إلى أي مكان، والسيدة عارف ترغب في أن تكون معهما." استدار دافيد مشيراً إلى منيرة. "ابنة السيدة عارف هي في الثانية عشرة من عمرها. ويكفيها قلقاً وخوفاً أن ترى والدتها رهن الاعتقال. أما العيش بدونها فهو شيء أسوأ بكثير. وأخذاً في الاعتبار أن السيدة عارف لم تعد تملك أيَّ جواز سفر، وأن عائلتها ممنوعة من السفر، فلن يعود ثمة حاجة للحكومة للتفريق بينهم."

"سيدة شارب؟"

"إنَّ القتلَة،" قالت شارب بجفاء، "لم يكونوا بحاجة إلى جواز سفر من أجل الدخول إلى الولايات المتحدة. وهذه المدعى عليها سوف لن تحتاج أيضاً إلى جواز لمغادرتها. أمَّا الدوافع التي تدفعها إلى تجاهل تساهلات قانون الهجرة عندنا، فهي ليست خافية على أحد.

"فحسب نص القرار الاتهامي، كان السيد جعفر قد سمَّاها بالاسم على أساس أنها مدبِّرة مؤامرة اغتيال عاموس بن آرون التي خططت لها كتيبة شهداء الأقصى، تلك المؤامرة التي كان من ضحاياها العرَضيَّين رجلان لهما عائلتين ـ أحدهما أميركي، والثاني إسرائيلي ـ أما الضحية القصوى فقد كانت مبادرة السلام المحتمل بين إسرائيل والفلسطينيين." الآن بدأت شارب تتكلم بمزيد من الثقة وهي تتنقل خطوة خطوة كما كانت قد خططت هذا الأداء سلفاً أمام الصحافة.

"إن قرننا الحالي لا يزال فتيّاً. لكننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الجريمة هي أشنع جريمة تألمت لها هذه الأمة منذ جريمة اغتيال الرئيس جون كنيدي. وهي تمثل جريمة لا تزال أبعادها غير مكشوفة. أكثر من ذلك، فإننا نعتقد أن السيدة عارف تمسك مفتاح كشف المتآمرين الآخرين المجهولين ـ وربما يكونون كثر ـ المسؤولين عن هذه الجريمة الشنعاء.

"وإن حكومة الولايات المتحدة لن تستطيع أن تقبل بإخلاء سبيل هذه المدعى عليها التي تملك الكثير من المعلومات المحتملة التي يمكن لها أن تعطيها، والكثير من الدوافع التي يمكن أن تدفعها إلى الهرب، خصوصاً وأننا ربما سنطلب إنزال عقوبة الإعدام بها. ومع كل احترامنا للمحكمة الكريمة فإن إخلاء السبيل سيكون أمراً غير مسبوق."

"إنني أوافق،" قالت القاضي على الفور. "فطلب السيدة عارف لإخلاء السبيل مردود."

إلى جانبه، شاهد دافيد هناء ترخي كتفيها تحت تخيلها لوطأة الأيام والليالي التي ستمضيها بعيداً عن منيرة إذا ما أرخى هذا المسار المشؤوم سدوله على حكم يفرِّق بينها وبين ابنتها إلى الأبد. وبعد نظرة ألقاها صائب على منيرة جعلته يتمنى لو أنها لم تأت أبداً إلى هذه المحكمة. "سترفع المحكمة جلستها الأولى السابقة للمحاكمة لمدة ثلاثين يوماً،"

تابعت تايلور. "أمًّا خلال هذه المدة فإنني أتوقع من هيئة الدفاع أن تتقدم بطلباتها لاستجلاء الوقائع من الحكومة وأن يكون محامو الفريقين جاهزين للبحث في موضوع تحديد موعد المحاكمة.

"يا صاحبة الاحترام" قال دافيد، هل لي أن أتقدم من المحكمة الكريمة، وبكل احترام، باقتراح أن تكون جلسات المحاكمة منعقدة بعيداً عن حضور الصحافة والجمهور."

"ما السبب؟" سألته تايلور في دهشة. "إذا كان هناك من قضية تستوجب من المحكمة أن تكون شفّافة، فهذه هي."

هيّأ دافيد نفسه لإيفاء الجدل حقه. "في الظروف العادية، يا سيادة القاضي، إني أوافقك هذا الرأي تماماً. لكن طلبي لاستجلاء المعلومات من الحكومة يمكن أن يلامس مسائل حساسة يحمي القانون سريتها. وإن إفشاءها إلى الجمهور لن يكون في مصلحة أحد."

للمرة الأولى ظهر القلق على وجه تايلور. "السيدة شارب؟"

ألقت شارب نظرة قلق في اتجاه آفي هرتز. "نظراً للأسباب التي شرحتها محكمتكم الكريمة،" قالت للقاضي، "فإنني أجد نفسي كارهة إسدالَ حجابٍ بين هذه المحاكمة وبين العالم الخارجي. لكنني لست أدري عن طبيعة التكتيكات التي يسير فيها السيد وولف، ولا إلى أين يرغب في الذهاب بنا. وإلى أن ينكشف لي ذلك، فإني لا أستطيع الاستجابة."

"ولن أستطيع أنا أيضاً." قالت القاضي بتردد، ثم مستفتية غرائزها الخاصة. "في الوقت الحاضر يا مستر وولف،" قالت موجهة الكلام. "سوف نتقدم في الدعوى وفقاً لاقتراحك. دع كل طلباتك لاستجلاء الوقائع تحت الحفظ إلى سبعة أيام قبل الجلسة وسوف ترد السيدة شارب عليها خلال ثلاثة أيام. ثم أقرر أنا في الأمر من تلك النقطة فصاعداً." ثم نقلت نظرها بين شارب ودافيد، وأنهت كلامها بالقول: "شكراً لكلٍّ منكما، سوف أراكما بعد ثلاثين يوماً."

حالما وقفت تايلور مغادرةً بالسرعة التي دخلت إليها، امتلأت القاعة من جديد بأصوات الاستثارة المكبوتة: فوقف الجمهور، وبدأ المراسلون الصحفيون يتبادلون التنظيرات حول القضية، وأُغلقت أجهزة النوت بوك. جمعت شارب أوراقها ووضعت على وجهها قناعاً من الغموض الذي يبدو مدروساً. وفي هذه الشرنقة الوجيزة من الخصوصية، التفتت هناء نحو دافيد، وبنظرة حزينة حملت شيئاً من الوجدانية. "شكراً لك،" قالت له بهدوء.

حاول دافيد أن يبتسم. "في البداية كنتِ آسفة، والآن، ها أنت ممتنة. من أجل ماذا؟"

"من أجل الشيء نفسه، يا دافيد. فأنت.." وقبل أن تكمل كلامها وصل إليها رجال الأمن واقتادوها، تاركين دافيد يفكر في الأمر وحيداً.

الفصل 12

بدأ الحشد يتسرّب إلى الخارج، وبدأ التوتر في قاعة المحكمة بالتناقص. وقع نظره على نظر مارني شارب وهي تتأهب للذهاب، فابتدرها دافيد بالسؤال، "لمَ لم تجربي الاتصال بي قبل أن تحاولي أن تركليني خارجاً؟"

رمقَته بنظرة نفّاذة. "لأنني لا أثِق بكَ. لماذا هذه الرغبة التي تمتلكك للانتحار، هذا ما يحيِّرني. متى كنتَ تخفي مثل هذه الأشياء عني؟"

"لا تتملقي نفسك كثيراً يا مارني."

"ربما لسببٍ يتعلق بالأمن القومي." رمقَته مرَّة أخرى، ثم هزَّت كتفيها. "على كل حال، إن وجودك في هذه القضية هو معاناة لتايلور، في الوقت الحاضر على الأقل. لهذا، لنجرِّب أن نكون حضاريين في تعاملنا." وبهذا، خرجت النائب العام من القاعة.

كانت هناء تنتظر في حجرة صغيرة، في حراسة رجلي أمن. ومع أن الغرفة كانت خافتة بشكلٍ أو بآخر، إلا أنها ودافيد، كانا خارج نطاق التنصت والرقابة، كما أنهما كانا خارج وصول رجال الصحافة المصرين على استصراحه قبل أن يصبح جاهزاً لترتيب جدول خطواته. "تبدو لي قلِقاً،" قالت له.

"ليس الأمر بذي بال - إنه جدال بسيط مع شارب فهي تتمنى أن تجدني خارج هذه القضية."

نظرت هناء إليه بتأمُّل ثم فاجأته باستحضار ابتسامة ناحلة. "لقد كنت في يوم مضى شاهداً على أكثر مما تستطيع شارب أن تتصور، ومع أخذ باقي ما حصل هذا الصباح بعين الاعتبار، أعتقدُ أنَّ عليَّ أن أكون ممتنَّة لطبيعة اعتراضها."

ولعل هناء، بما هي فيه من محنة، كانت تفتش في هذا الذي تقوله عن شيء يسرِّي عنها. لكن دافيد لم يجبها ولم يبتسم. كان اضطراب نفسه عميقاً لسببين: أولهما، لانشغال

باله بتأثير ماضيهما معاً على حاضره. وثانيهما، لشكوكٍ تنتابُه في غير ترحيبٍ منه، لكنها لا تنثني، وهي توسوس له أن هناء عارف تعرف كيف تحرِّك خيوطه العاطفية، وكيف تتلاعب بها.

ذبلت الابتسامة على شفتيها واضمحلَّت. "إني آسفة جداً. هل مِن شيءٍ آخر يُثقِل عليك؟"

"إنها 'حومةٌ من الأشياء الأخرى'. ولعلَّ صائب هو مجرَّد واحدٍ منها."

تفحَّصت وجهه لتفهم حقيقة ما يعنيه. "إذا كنت تسأل عن كيفية شعوره تجاه قيامك بتمثيلي،" قالت في النهاية، "فأيُّ خيارٍ قد بقي له في هذا الأمر؟ إنَّ معظم انشغالي ينصبُّ على منيرة." صار صوتها خفيضاً. "ليس لي الحق في طلب المزيد من الخدمات، حتى لمصلحة ابنتي، فوق كلِّ هذا الذي تعمله من أجلي. لكنني آمل منك أن تقف إلى جانبها في هذه المحنة، فقد تستطيع مثلاً أن تشرح لها كيف تجري الأمور، وأن تطمئن قلبها قدر استطاعتك.

"إنها ستشعر بعجز والدها بشكلٍ مرير يضارع شعورها وهي تشهده يُهان عند حاجز التفتيش الإسرائيلي. فأنت، على الأقل، قادرٌ على أن تنفخ في نفسها بعض الأمل."

هزَّ دافيد رأسه هزة بطيئة بالإيجاب. "سوف أحاول. لكن مع منيرة، قد أبدو بعيداً عن حقيقة شعوري."

استجمعت هناء ابتسامة ضعيفة. "إنني، بشكل ما، أشكُّ في صحة تقديرك." وفجأة صارت لهجتها جديَّة. "طلبٌ أخيرٌ لي عندك إذاً - هل تستطيع إشغال صائب قليلاً؟ إني أريد أن أتكلم مع منيرة على انفراد."

شعر دافيد ببعض التحفظ العاطفي إزاء هذا الانحراف العميق الذي يجرُّه، خلافاً لنزعاته، باتجاه ديناميَّات معتادة لم يستطع فهمها تماماً. "سأفعل ذلك،" قال أخيراً "سيكون حديثٌ بيني وبين صائب خارج وجود منيرة."

بدا الارتياح على وجهها واضحاً. "إنني شديدة الاعتراف بالفضل يا دافيد. ولست أدري كيف أستطيع أن أكافئك. إنني فعلاً لا أدري."

* * *

إنه أمرٌ نافرٌ يبعث على الضيق، حسِب دافيد، أن يجد صائب جالساً في المكان ذاته الذي كانت تحتله هناء منذ قليل.

ففي الوقت الذي كانت هي هادئة وناعمة الحديث؛ كان زوجها يبدو قلقاً ومتوتراً، لا ينفك ينقر بأصابعه على سطح طاولة الفورمايكا. "إذا كان هنالك من محاكمة،" بدأ دافيد

حديثه بفتور متعمَّد، " فسيكون علينا أن نتعايش بعضنا مع بعضٍ لمدة طويلة. سيكون الضغط على درجة عالية ـ ولن يكون أحدنا قادراً على التنبؤ عند كل خطوة بما سيحدث بعدها. وسوف أكون مجبراً على اتخاذ قراراتٍ قد ينتج عنها نتائج لا يستطيع أحدٌ أن يتنبَّأ بعواقبها.

"إنني أحترم مشاعرك ـ فهناء زوجتك، ومنيرة ابنتك. لكنني وكيل هناء: فأي أملٍ لها بالبراءة سيكون معتمداً علي. لذلك علينا أنا وأنت أن نتعايش معاً."

توقفت أصابع صائب عن الحركات العصبية. "لعلك تعتقد أنني غير شاكرٍ لك اهتمامك بنا."

"هذا شيء قد يكون مرَّ في بالي."

"إذن، عليَّ أن أعبِّر لك عن موقفي بصريح العبارة،" قال صائب بتأنٍّ. "إنني شاكرٌ ومقدِّر، كما أنني مدينٌ وخجول. إذ ليس لنا مال ندفعه لك."

هل يصدر مثل هذا الكلام عن قلبٍ مبغضٍ؟ تساءل دافيد. فخلا عن الوقت الذي يكون فيه صائب غاضباً، كان دافيد يرى أن محيَّاه عصيٌّ على القراءة والفهم. "آمل،" تابع صائب كلامه، "أن أستطيع جمْعَ بعض المال من الجماعات التي تبنت رحلتي إلى هنا."

هزَّ دافيد رأسه. "ليست النقود هي ما يقلقني يا صائب ـ فظروفي المادية مرتاحة." وعند قوله ذلك، أيقن دافيد أن الإضاءة على الهبة والتسامح قد ينثر الملح على جراح صائب. "بالنسبة إلى الجماعات التي أرسلتك،" أضاف قائلاً، "فإن قلت لك إن هذا سيكوِّن لنا مشكلة علاقات عامة ضخمة، فإن قولي هذا سيكون مجرَّد تعبيرٍ مخففٍ عن حقيقة الأمر. فجزء من مهمتي في هذه القضية هي أن أقدِّم قضية هناء في الصحافة. فالأميركيون باتوا في معظمهم على ألفة شديدة بالأدلَّة المدلى بها ضد هناء، بحيث أن تغيير مكان المحاكمة لم يعد يجدي نفعاً. وأخذُ المال من أيِّ شخص يُعتبر مناهضاً لإسرائيل، ناهيك عن الجماعات التي تعتنق العنف، سيجعل الأمور تسوء إلى درجة مطلقة."

"إذاً أنا المشكلة،" قال صائب بشيء من الحماوة المفاجئة. "إنني الشخص الذي لا ينكص عن تبني العنف. لذلك فإن حكومتكم تريد أن تجعلها مذنبة لارتباطها بي." وقف صائب متوتراً كأنما تحدوه رغبة في المشي ذهاباً وإياباً. "إن هناء بريئه ـ لقد دفنَت كل روحها النضالية في هارفارد. إن التفسير الوحيد الذي أستطيع أن أعطيه لك هو أن أعداءنا قد لفَّقوا لها هذه التهمة حتى أوقعوا بها في مكيدتهم."

نظر إليه دافيد بدهشة. "أيُّ أعداء هم هؤلاء؟ ولماذا؟"

طوى صائب ذراعيه كأنه منزعج لهذا التحدي. "أمَّا لماذا؟ فهذا أمرٌ بيِّنٌ: لكي ينتقموا

مني، ومن أجل توجيه الشكوك إلى امرأة لا تستطيع أن تقايض حياتها بمعلومات عن أيِّ شخص آخر قد يكون متورِّطاً."

"إذن لماذا لم يدبِّروا المكيدة لكَ مباشرة؟"

"لا أستطيع أن أفهم كل شيء." أجاب صائب بشيء من الضِّيق. "لكن هناء لم تخلق تلك الدراجات والمتفجرات خلقاً. كيف يمكن لها أن تكون الرأس المدبر لهذه المؤامرة ما دمت أنا ومنيرة بقربها معظم الوقت تقريباً؟"

"هذا القدْر نحن متفقان عليه." سكت دافيد قليلاً معطياً صائب فرصة لكي يستجمع هدوءه. "وهذا هو سبب من الأسباب،" تابع يقول، "التي تجعل هناء في حاجة إليك كشاهد الأمر الذي يجعلك مديناً لها، إن كشاهد أو كزوج، بالامتناع عن قول المزيد عن أيِّ شيء، ولأيٍّ كان، عن عاموس بن آرون، وعن دولة إسرائيل، وعن التفجير الانتحاري، وعن التشرد الفلسطيني، وعن دير ياسين، وعن جنين، وعن صبرا وشاتيلا، وعن هذه المحاكمة، وعن أي شيء آخر من شأنه أن يلهب مشاعر وحساسيات الأميركيين المتعلقة بحوادث 11 سبتمبر. فإذا كان هذا يشعرك بأنك رجلٌ مخصيٌّ، فسيبقى أمامك متسع من المجال للتعبير عن آرائك الحرة بعد أن يقول المحلفون كلمتهم." هنا اتخذت كلمات دافيد لهجة باردة. "إنني كمحامٍ لهناء أعطي نظريتك كل احترام واعتبار. وأنا لا أريد لها أن تموت بسبب جريمة شخصٍ آخر. ودورك الأساسي هو أن تحاذر من أن تتركها تموت من أجلك."

جلس صائب مرة ثانية، ذراعاه مطويتان أمامه، وناظراً في عيني دافيد. "ليكن لك ما تشاء إذن،" قالها دون أي شعور. "إنني كفلسطيني، معتاد على قيام الآخرين بإدارة شؤون حياتي"

"اما أنا كأميركي،" رد دافيد، "فإنني لست معتاداً على ذلك. لذلك فإنني غير مستمتع بهذا الوضع الذي نحن عليه الآن. لكن يبدو أن هناك اهتماماً مشتركاً بيني وبينك يتعلق بزوجتك."

"نعم. هكذا تبدو الأمور." ترك صائب تعقيبه معلقاً في الهواء قليلاً، ثم أردفه بسؤال. "هذا الموضوع الذي كنتَ قد أثرته حول الأمن القومي. إلامَ تهدف منه بالضبط؟"

"لا أستطيع أن أفيدك عن ذلك. من الواضح أنك لم تعد موكلي. وأنا لا أستطيع أن أُمثِّل شاهداً محتملاً، أو أيَّ شخصٍ آخر سوى هناء".

"لكنني زوجها." قال صائب محتجاً.

"أعتقد أننا متفقين في ذلك. لكن شارب تستطيع أن تقوم باستجوابك عن أيِّ شيء تكون قد عرفته مني. وهكذا عليك أن تبدأ في وضع ثقتك بي ابتداءً من هذه النقطة."

فكَّر صائب في هذا الكلام، ثم هزَّ كتفيه. "كما تشاء."

نظر دافيد إلى ساعته. "لم يبق لدينا الكثير من الوقت. تريد هناء أن تكلمك على انفراد قبل أن يأخذوها. سأحاول إشغال منيرة في هذا الوقت."

تردد صائب. "للحظة قصيرة فقط،" قال بشيء من المِنَّة. "لا أريدك أن تشغل بال منيرة. لقد كان في إجبارها على المجيء إلى هنا ما فيه الكفاية من الضرر لها."

* * *

جلست منيرة قبالة دافيد كأنها في حزنها لوحة تجسِّد اليأس، وكان ثوبها الأسود وغطاء رأسها يجعلان صورتها حادَّة على خلفية من الجدران البيضاء العارية. "هل سيقتلونها؟" سألته.

حار في أمره كيف يجيب، عبر حواجز الجنس والعمر والثقافة والدين، عن هذا السؤال الذي توجهه إليه هذه الفتاة المجروحة، الخائفة من فَقد أمٍ لها كانت في الماضي تنتقدها، وهي تشعر لذلك الآن بالخطيئة. إن عزاءها الوحيد في غياب أمها لا يمكن أن يأتيها سوى من والدها الذي ختم على جروحه الخاصة منذ وقت طويل. ومعرفتها الوحيدة عن العملية القانونية مقتصرة على ما يقوم دافيد بإخبارها عنه.

"لا لن يقتلوها،" أجابها دافيد بلطف، "ففي أميركا، أن يكون المرء متهماً بجريمة لا يعني أنه مذنب. نحن هنا لا نقوم بقتل الأبرياء."

"الصهاينة يفعلون ذلك،" قالت منيرة بحميَّة. "كما أنهم يعتقلون الناس دون سبب، ويزجون بهم في السجون بدون محاكمة. إنهم أيضاً يقولون أن لنا 'حقوقاً'. لكنها أكاذيب بأكاذيب."

ومع أن كلامها كان مشحوناً بالشعور، إلا أنه بدا كأنه نضجٌ مبكرٌ غريبٌ يشي بمعاناة قاسية. "مهما كان رأيكِ في الصهاينة،" قال لها دافيد، "فأنا أدعوكِ إلى أن تثقي بي، مثلما تثق بي والدتك. هل تعتقدين أنك قادرةٌ على ذلك؟"

أطرقَت منيرة أمامها غير قادرة على الاستجابة. "إنني لا أكذب،" قال دافيد بلهجة صريحة. "سوف يكون هناك محاكمة ـ ومن أجل هذا كانت جلسة الاستماع هذه. هل شعرتِ أن القاضي تبدو عادلة؟"

ومضَت عينا الفتاة، بينما هي تنظر بدهشة في اتجاه دافيد. ربما لأن أحداً سألها الآن عن رأيها. ثم هزت رأسها هزّة تحمل معنى الاعتراض أكثر مما تدل على الارتباك. "الأميركيون يكرهون أمي. وهم يطلقون عليها لقب الإرهابية على التلفزيون،". ترددت الفتاة لحظة ثم سألته: "هل تصدقها أنت؟"

متجاوزاً حدَّ التزامه الصارم بالصدق، وجد نفسه يقول لها: "نعم، يا منيرة. إنني أصدِّقها."

نظرت إليه لمدة وجيزة، نظرة أكثر قرباً. فأدرك دافيد إحساسٌ صادق بأن الفتاة تتخاطب بالحدس أكثر منها بالكلام، وأنها قد عرفَته أكثر مما كان ممكناً له أن يتوقع. لقد ذكَّره هذا بذكاء أمها الحاد، وبسرعة إدراكها التي لا تزال عند منيرة طرية العود. "من أجل اقتناع هيئة المحلفين بأنها مذنبة،" تابع دافيد، "على النائب العام أن تثبت ادعاءها بما لا يقبل الشك المعقول. فإذا فشلَت في ذلك، فإن المحكمة ستطلق سراح والدتك. وإنني مصمم على جعلِ هذا الأمر يحدث."

ومع أن رموش منيرة الطويلة غطّت عينيها نصف المغمضتين، فقد خُيّل لدافيد أنه يلمح لمعةً وجيزةً من الأمل. "كم سيستغرق الأمر؟" سألته.

"لستُ واثقاً بعد. ربما ستة أشهر."

ومع أن هذا التقدير كان متفائلاً، فإن منيرة بدت مكتئبة. "ستة أشهر" ردَّدت على الفور.

حاول دافيد أن يتخيل ما يمكن أن تكون عليه الأفكار التي تخالج هذه الفتاة. أفكار عن غرفة غريبة في فندق غريب في مدينة غريبة. أفكار عن والد هاجع في سكوته، متقوقع في صمته. أفكار عن أم لها، تُنْزع منها لأسباب لا زالت تجهلها. "سيكون بإمكانك زيارتها،" وعدها دافيد. "إن والدتك لم ترحل عنك."

لا ليس بعد، رأى منيرة تفكر. فلقد اغرورقت عيناها بالدموع.

"إذا شئتِ،" قال دافيد بلطف، "عندما يكون والدك مشغولاً، سوف أصطحبك إليها بنفسي."

ارتعش المنديل الأسود حول عنقها، ربما في محاولة منها لكبتِ حزنها. "هل أستطيع أن أراها لوحدها مرة جديدة؟"

"نعم،" وعدَها دافيد. "سأعمل جاهداً من أجل ذلك."

* * *

بينما كان يقود سيارته في طريق عودته من المحكمة لمح دافيد خلال مرآته الخلفية مجموعة من المتظاهرين يسعون في أثره. "يهودي كاره لذاته!" صاح به رجل ذو لحية. "لن تتورع عن بيع أمك إلى هانيريش هيملر!" كانت هذه مجرد سلفةٍ مدفوعةٍ بشكلٍ مقدَّم، فكَّر دافيد، أما الحساب الكامل فلا بد من أن يأتي.

فكَّر للحظةٍ في قراراتٍ اتخذها أو لم يتخذها، وفي حياته التي أرادها يوماً مع هناء، وفي حياته التي خسرها مع كارول، وفي الندم الذي لم يسمح لنفسه لا بالشعور به، ولا بتقاسمه مع أيِّ امرأة.

كفى، قال لنفسه. إن أمامه الآن كثيرٌ من العمل. كما أن ثمة رجل عليه أن يقابله حول موضوع يتعلق بالأمن القومي.

الفصل

13

في يوم صيف كثيف الضباب، خجول الشمس، كان لقاء بين دافيد وبين بروس مارتل في صدر الطريق الريفي في تنسي فالي تريل. كانت الطريق الترابية تتلوى في الوادي الضيق في منطقة مارين كاونتي الجنوبية لتنتهي عند شاطىء تتكسر عليه أمواج مياه لازوردية متحشِّدة في ممرٍ لها ضيق يمتد بين انحدارين صخريين مسننين.

ورغم كونه رجلاً أرستوقراطياً يتحدَّر من نسب رفيع، فإن مارتل، رفيق دراسة والد دافيد في كولومبيا، كان يشارك فيليب وولف اهتماماته الفنية والموسيقية. أما في ما عدا ذلك، فإن حياة الرجلين افترقتا ليصبح فيليب وولف طبيباً نفسانياً، بينما شغل بروس مارتل سلسلة من الوظائف الحكومية الغامضة، حتى أنهى حياته الوظيفية كمحلل بارز للأعمال الإرهابية. ولعله كان من أقسى منتقدي جهاز الاستخبارات، حتى إنه كان لا يتورع عن وصف الجهاز المذكور بأنه "جهاز غير ذي نفع لغير مستخدميه، ولا يفوقه عجزاً سوى طاقم السياسيين الذين يسيئون استخدامه."

هذا الجحود لنعمة الوظيفة أودى بمارتل إلى منفاه الفخري في مؤسسة هوفر في ستانفورد. وكانت ذكريات الطفولة، الباهتة عن زيارات مارتل لوالد دافيد، التي اعتاد أن يصرفها الرجلان في نقاشات حول مسائل مثل واقع حال الموسيقى السيمفونية في القرن العشرين، قد انتعشت بالزيارات الوفية التي كان مارتل يعود فيها صديقه فيليب وولف، بينما كان الأخير يودع أيامه الأخيرة ببطء على فراش الموت بعد إصابته بسرطان دماغي لا تنفع فيه الجراحة. كان دافيد على درجة كافية من الواقعية ليدرك أنه في أحسن الحالات لم يكن ليستطيع النفاذ إلى فهم ما وراء الدرع الذي كان والده يخفي مشاعره خلفه.

لذلك، فإنه كان شديد الامتنان للقبول الهادىء الذي واجه به والده الموت، مثلما كان ممتناً للفرصة غير المتوقعة التي أتاحها له وجود مارتل لكي يفهم المزيد عن حياة أبيه. كان يبدو أن مارتل عارف بكل هذه الأمور. ففي كل بضعة أشهر كان دافيد يلتقي مارتل على وجبة فاخرة في أحد المطاعم التي تضع على لوائح مشروباتها أنواعاً تكفي لإشباع خيال الرجل، وإرضاء ذوقه، وكان حديثهما حول المائدة يطوف على الماضي ويشمل

الحاضر. "إن والدك قد صار طبيباً نفسانياً،" قال له مارتل، "لأنه، مثل سواه من الأطباء النفسانيين، أراد أن يفهم نفسه. لكن ما اكتشفه عن نفسه قد أبقاه لنفسه فقط، وهذا يشمل أيضاً طريقة شعوره بكونه يهودياً."

أما الآن، فها هو دافيد يدهَش لحاجته إلى هذا الرجل لسبب آخر جديد، ألا وهو لمساعدته في حلِّ ألغاز قضية تنذر لا بأن تكون شديدة الغموض فقط، بل لكي تكون أيضاً قضية بيزنطية من الدرجة الأولى.

ومع أنه كان قد بلغ منتهى الستينيات من عمره، إلا أن مارتل بقي محافظاً على أناقته، بشعره البني الذي وخَطَه الشيب، وبوجهه الصارم الذكيِّ، الأسفع من شدّة تعرضه للشمس، وبعينيه الخضراوين البرّاقتين اللتين لا تزالان، نظراً لحدَّة إبصارهما، في غير حاجةٍ إلى نظارتين. كان مارتل يحب الإقامة في الخلاء، كما يدلُّ على ذلك زيُّ ثياب التسلّق العتيقة الخيوط التي يرتديها ـ سترة كاملة من طراز نيوإنغلند، بنعليها العتيقين، وسروالها الكاكي الباهت، وقميصها الفانيلا البالي. هذا بالإضافة إلى سببٍ آخر حتَّم أن يكون هذا اللقاء في الخلاء، كان مارتل قد أفضى به إلى دافيد بطريقة عرضية، وهو يشير إلى أن حديثهما يحسُن أن يجري في مكان يصعب فيه على الآخرين استراق السمع.

"لقد تعبوا من التنصُّت عليَّ،" قال مارتل بإذعانٍ تعِبٍ، "أمَّا أنت فسوف يحومون حولك ـ مفتشين عن روابط جذرية، وعن أدلة تقودهم لمعرفة بقية المشاركين في التخطيط لاغتيال بن آرون، وعلى العموم، عن أيِّ شيء قد يشرح لهم سبب إقدامك على قبول هذه القضية. إنها أحجيتهم يا دافيد. وهي في هذا الوقت المحفوف بالخطر، تجعلك هدفاً لهم."

كان في نغمة صوت مارتل ما يشير إلى أن القضية تشكل لغزاً حتى بالنسبة إليه أيضاً. لكنه كان من حسن التأدب، ومن شدة الاحترام لغموض الدوافع الإنسانية، إلى درجة تمنعه من مبادرة دافيد بالسؤال "تجعلني هدفاً لمن؟" سأله دافيد.

"هناك بالدرجة الأولى حكومتك. هذا إذا لم نرد ذكر الموساد. تستطيع أن تتوقع بكل منطقية أن تكون هواتف بيتك ومكتبك مراقبة، كما تستطيع أن تتوقع الشيء نفسه بالنسبة إلى هواتف هارولد وكارول، وكل شخص آخر يتعاون معك في مسألة الدفاع عن هناء عارف. وبالطبع، عليك أن تتوقع أن تكون الهواتف الخلوية لكل من مرَّ نذكرهم عرضة للتنصت."

"تنصت من الموساد؟"

"بلحظة، يكون للإسرائيليين عيون وآذان في كل السفارات الموجودة في أميركا تقريباً. إنهم يجندون الأشخاص الذين يستطيعون أن يجلبوا لهم المعلومات الحساسة، أو أنهم ينقِّبون عنها بأنفسهم." دسَّ مارتل يديه في جيبيه وهو يضرب الأرض بقدميه بثبات على أديم الطريق. "قد تكون لا تزال تحسب نفسك دافيد وولف الذي يتطلع إلى عضوية

مجلس الشيوخ، مثلما كان حالك في الأسبوع الماضي. لكن بالنسبة إلى حكومتك، كما هو الحال بالنسبة إلى إسرائيل، فإنك المحامي الذي يتولى الدفاع عن إرهابية روّعت الأفئدة في كلا البلدين. إنهم يريدون أن يعرفوا كل ما تعرفه، ومن الذي يقف وراء اغتيال بن آرون. وفي مثل هذا الوقت لا بد لك من أن تكون موضوعاً تحت المراقبة.

"إن ميزتك الوحيدة عليهم هي في أنهم قد يعتقدون أنك ساذج إلى درجة تجعلك لا تدرك ذلك. وهكذا يمكنك أن تلهو معهم قليلاً فتقوم ببعض المحادثات المسرحية لتضليل من قد يكون يتنصت عليك، بحيث إنهم لا يعودون يعلمون الخطأ من الصواب." ابتسم مارتل قليلاً بينما نظره معلق على الأفق. "أعلم أن هذا يشبه قصة مأخوذة من كتب الأطفال. لكنه شيء خطير كما سيتبين لك، ويجري تنفيذه على أيدي أشخاص خطرين. لذلك لا تقل شيئاً لا تريد تدوينه."

من بين كل ما قاله مارتل كانت عبارته الأخيرة هي التي أقلقت دافيد في أعماقه. "أشعر أنني كمن دخل إلى قلب المرآة."

"يجب ألا يكون عندك شك في ذلك، خصوصاً وأنك أعربت عن اعتقادك أن اختراق أمن بن آرون قد جاء من الداخل. وهذا سبب آخر كفيل بإثارة الضجيج من حولك. فحكومتنا أيضاً تعتقد ما تعتقده أنت. وجماعتنا يريدون أن يعرفوا ما تعرفه هناء عارف، وأنت تريد أن تعرف ماذا يعرفون."

"هناء تقسم أنها لا تعرف شيئاً."

استدار مارتل نحوه بوجه لا ينم عن أيٍّ شعور. "سنصل إلى هذا في نهاية الأمر. إن مشكلتك الأولى الآن، هي أن تتوصل إلى معرفة ما نقوم به نحن - والإسرائيليون - لمعرفة الحقيقة.

"فعلى الجانب الأميركي، فإن السي.آي.إيه. تقتفي آثار القاتلين، كما تقتفي آثار عارف، وزوجها، وكل من ينبت له أثر خلال التحقيق. إنهم يفحصون كل ما لديهم، ويسائلون كل وكالة استخبارات أجنبية تستطيع أن تفيدهم بأية معلومة. لكن الأف.بي.آي. والبوليس السري لم يخرجا بأية معلومات تؤيد الشك في أن الجانب الأميركي هو مصدر التسريب."

"لا يبقى إذن سوى الإسرائيليين."

"هذا صحيح، وهم لا يفصحون عن شيء. ولكن هنالك سابقة لهذا الأمر، بكل تأكيد، وهي لا تقتصر على اغتيال رابين وحده. هل تتذكر حادثة اغتيال كولوسيو؟"

"لا أذكرها بتفاصيلها." أخرج دافيد زوج نظارتيه الشمسيتين، إذ إن محاولته للتحديق من خلال الضباب قد أجهدت عينيه. "ألم يكن مرشحاً لمنصب الرئاسة في المكسيك؟"

هزَّ مارتل رأسه بالإيجاب. "بعض الناس في حزبه الخاص كانوا لا يريدونه. ومهما كانت الأسباب، فقد أردي الرجل قتيلاً في وسط حملة انتخابية، وبين جمع من الناس يربو على ألف شخص. لقد أظهر شريط فيديو مصوّر أن أحد حرّاسه، الذي كان تقريباً خلفه تماماً، قد انتحى عنه جانباً قبل لحظات فقط من اللحظة التي ضغط فيها قاتله على الزناد. وقد تمكن هذا القاتل من الفرار، بشكل أو بآخر، وسط الاضطراب الحاصل. ولم تجرِ بعد ذلك ملاحقة أحد بالجرم - لا القاتل، ولا أيٍّ من فريق حراسة كولوسيو.

"وصحيح أن إسرائيل ليست المكسيك. فجهاز الشين بيت، وجهاز الموساد، يضعان أيديهما على هذه القضية. ولكن احتمال وجود خيانة من الداخل هو أمر يصيب من إسرائيل مقتلاً، وإعلانه، هو أمرٌ في غاية الخطورة عليها، على الأقل إلى أن يتأكد الإسرائيليون من حقيقة ما حدث بالضبط." مسَّد مارتل إلى الوراء خصلة من شعره عبثت بها الريح. "ومهما كان الجواب، فإن نظرية السيد خالد صحيحة في شيء واحد. فحتى لو كانت هناء عارف مذنبة، فهي تبقى مجرد قطعة واحدة بين مجموعة قطع في أحجية بالغة الصعوبة والتعقيد. إنها مؤامرة دقيقة جداً، وجيدة الحبك والتخطيط، حبلت بها عقول مدبرة خبيرة جداً بالأسباب والنتائج الجيوبوليتيكية. أناس يفهمون تأثير ليس قتل بن آرون فقط، بل قتله على أرض أميركية أيضاً: هذا سيدفع أميركا إلى الكف عن الضغط في سبيل دفع عملية السلام إلى الأمام، وذلك تعويضاً عن شعورها بمسؤولية ما حدث تجاه إسرائيل."

كان دافيد كلما ازداد مارتل شرحاً، يزداد شعوراً برهبة مهمته، وبدرجة كونها محبِطة، وواقعة خلف متناول الوسائل القضائية والقانونية العادية. "ومن تعتقد أن هؤلاء الناس يكونون؟"

ضحك مارتل بهدوء. "كتيبة شهداء الأقصى، بالطبع. ألا يبدو ذلك بديهياً؟"

"ليس بالنسبة إليك حسبما أعتقد."

"وليس بالنسبة إلى كتائب الأقصى ذاتهم أيضاً. إن اثنين من قادتهم قد أنكرا علاقة كتائب الأقصى بالاغتيال على صفحات الإنترنت. مع أن الإسرائيليين كانوا قد قتلوا عدداً منهم وأجبروا الآخرين على التخفّي تحت الأرض بحيث إن أحدهم لم يعد قادراً على الظهور علناً، الأمر الذي يصعب معه معرفة من هو المتحدث الحقيقي باسمهم. وهكذا، لا يبقى أمامنا سوى التخمين: ما الذي يدفع بجماعة متحالفة مع منظمة فتح، التي هي مرتبطة بصراحة برئاسة السلطة الفلسطينية، للقيام بمثل هذا العمل الذي يحتمل أن يكون مميتاً بالنسبة لكتائب الأقصى وللسلطة الفلسطينية معاً." توقف مارتل لحظة، ليأخذ نفساً عميقاً من الهواء العابق برائحة البحر، بينما هو يجيل النظر في التلال المحيطة بهما. "إن اسم الأقصى مشتق من اسم الجامع الشهير في مدينة القدس القديمة، وهو اسم يرمز إلى الأصولية الإسلامية، وهكذا، فإن اسم كتائب هذه المجموعة كفيل بأن يبعث الرعب والغضب في نفوس معظم الأميركيين، مع أن سبب هذا الاسم، في الحقيقة، ضيِّق ومحدودٌ

جداً. ذلك أن عرفات كان أوّل من موّل هذا التنظيم، قاصداً إلى إيجاد حلف عسكري منافس لحماس التي كانت تهدد سلطته." توقف مارتل قليلاً رافعاً حاجبيه. "ليست المسألة أن كتائب الأقصى منظمة غير أمينة لمبادئها، فهي قد نفّذت، من قبل، بكل تأكيد، عمليات تفجير انتحارية. لكن أن تأخذ كتائب الأقصى على عاتقها أول عملية تفجير انتحاري في أميركا؟ فهذا شيء آخر. وإذا لم أكن مخطئاً، فليس لكتائب الأقصى هنا أيّة بنى تحتية تساعدها على تنفيذ ذلك."

"وماذا تعني بذلك؟"

"أعني أن جعفر وحسن قد يكونان من أعضاء كتائب الأقصى. وربما تكون عارف هي أيضاً كذلك." مستديراً ناحية دافيد، توقف مارتل عن متابعة المشي. "لكن إذا كانوا أعضاء في كتائب الأقصى فعلاً، فإنهم ما زالوا في حاجة إلى مساعدة من الآخرين. مساعدة من الداخل، تتعلق باختراق جهاز أمن بن آرون؛ ومساعدة من الخارج، تتعلق بتأمين الدعم والتجهيز للقاتلين. وكلا الأمرين يقع خارج نطاق قدرات كتائب الأقصى."

"إذاً مَن سوى كتائب الأقصى؟"

التمعت عينا مارتل. "حسناً، إنه الشرق الأوسط، والضحية هي عاموس بن آرون. وهناك مسلمون، ويهود، وحتى مسيحيون يتمنون له الموت. إنه تحالف أطياف من ألوان يعقد قنطرة قوس قزح من الحقد. فعلى سبيل المثال، هل تعرف شيئاً عن مستوطن يهودي من بروكلن يدعى باراك ليف، وعن شيء يسمى حركة مسعدة؟"

هزَّ دافيد رأسه بالإيجاب. "لقد شاهدته على شاشة السي.أن.أن.، وهو يتنبأ بأن الله نفسه قد يقرر قتل بن آرون."

"أناسٌ مِن أمثال باراك ليف مستعدّون دائماً لمدِّ يد المساعدة إلى الله. الأمر الذي يذكرني بالأصولية المسيحية أيضاً. هل سمعتَ بجماعة 'رابتشر'؟"

"معلوماتي عنها قليلة وغامضة."

"تم تكوين هذه الجماعة على يد اثنين من الوعَّاظ السلفيين المسيحيين اللذين استندا إلى بعض المقاطع المأخوذة من الإنجيل لحياكة رواية استحوذت على خيال الملايين في عصرنا المجنون هذا." هزَّ مارتل رأسه عجباً. "الخطوط العريضة لهذه الرواية بسيطة، إذا لم نرِد أن نقول سوقية. فهي تقول: حينما تحتل إسرائيل 'أراضيها التوراتية' - وهذه عبارة تعني بين أشياء أخرى، موطن موكلتك السابق - فإن فيالق 'الدجَّال' - ونحن نفترض أنهم يعنون المسلمين بهذه التسمية - سوف تهاجم اليهود بادئة معهم معركة فاصلة كبرى في وادي آرمائيدون، وهو مكان حقيقي يقع في الضفة الغربية. وعندها، فإن اليهود الذين لم 'يعرفوا' المسيح سيحترقون؛ أما المؤمنون الصادقون فسوف

يرفعهم الله من ثيابهم إلى جنته حيث يجلسهم إلى يمينه، وسوف يشهدون عذاب الله لأعدائهم بالطاعون، والقروح، والبثور، والجراد، والضفادع طيلة سنوات من المحنة."

"هل أنت واثق من أن هذه الرواية ليست سوى سرد لواقع السياسة الأميركية المعاصرة؟"

ضحك مارتل. "بطريقة ما، هي كذلك. فجماعة 'رابتشر' هي سبب من الأسباب التي جعلت الأصوليين لدينا يتخذون لهم قضية مشتركة مع المستوطنين اليهود. فبالنسبة لأكثرهم جهلاً وتعصباً إن نشوب حربٍ مع الإسلام في الشرق الأوسط هو أمر يجب ألَّا يُخشى منه، بل ينبغي استقباله بكل ترحاب، لأن إسرائيل ستكون هي كناري منجم الله، المبشِّر بقرب قيام قيامته. وهذه نبوءة لم تثلج صدر رئيس وزراء إسرائيل الراحل."

أخلد دافيد إلى الصمت، مسترجعاً كلمات بن آرون، بما فيها من رؤية واضحة، ومفكراً في الوقت نفسه بالاضطراب الذي يخالجه كونه يتولى الدفاع عن امرأة متهمة بقتل الرجل الذي أعجب به وأحبه. "هذا مع العلم،" قال مارتل متابعاً. "أنه من الصعب على المرء أن يتخيل أن هذه الفئة المطبِّلة بالإنجيل يمكن أن تكون هي الجهة التي تقف وراء مصرع الرجل. لكن هذه الرواية تعطي فكرة واضحة عن عمق تردِّي التفكير وغياب المنطق عند جميع الأطراف الذين يجمعهم الاهتمام بالشرق الأوسط، بما فيه الصراع بين الفلسطينيين واليهود.

"لنعد الآن إلى الإسلاميين." تابعا سيرهما من جديد، بينما نظرات مارتل تسافر في المدى إلى الأمواج المتلألئة البعيدة. "فكما قلت لك: إنني أشك في أن يكون هناك أية علاقة لكتائب الأقصى في هذا الحدث، لكنني أقلُّ تشككاً عندما يتعلق الأمر بمنافِستهم منظمة حماس، التي تسيطر الآن على قواعد السلطة الفلسطينية. فإن لها بعض الوجود في الولايات المتحدة ـ متمثلاً في ما يسمى بصناديق الإحسان، التي يعتقد أكثر عقلائنا أنها تسرِّب الأموال إلى إرهابييهم في الوطن.

"أمَّا ما قد تستفيده حماس من هذا الحدث، فإننا نشهد حدوثه الآن. فخطة السلام التي يعارضونها نرى أنها الآن قد نسفت. ومنافسوهم في السيطرة على السلطة الفلسطينية، مثل أحمد فاراس، ومنظمة فتح، يتضعضعون ويتلقون الإدانة. أمَّا منافسوهم في الشارع، من الفصائل الأخرى 'المقاوِمة' المسلحة، وبالتحديد كتائب الأقصى ـ وهي الفريق المسلح الذي كان يراهن عليه كلٌّ من عاموس بن آرون، وأحمد فاراس ـ فإننا نرى الآن كيف يجري اجتثاثهم من قِبل الجيش الإسرائيلي".

"رويدك،" قاطعه دافيد. "هل تريد أن تقول لي أن جعفر قد يكون عضواً في حماس؟"

"إنني أضع ذلك كمجرَّد احتمال يا دافيد، وحادثة اغتيال بن آرون، بحد ذاتها، قلَّما

تؤكد لي ذلك. لذلك دعني أوسِّع دائرة الموضوع قليلاً. فمن الناحية النظرية، لا تستطيع حماس تأمين البنى التحتية الأساسية التي تدعم تنفيذ تفجير انتحاري هنا". عاد مارتل إلى الالتفات إليه. "فكِّر معي في الأمور التي يشير قرار الاتهام إلى أن القاتلين كانا في حاجة إليها: بطاقات هوية مزوَّرة، بطاقات ائتمان، متفجِّرات، دراجتين ناريتين مسروقتين، شاحنة تمَّ شراؤها تحت اسم مستعار. فالمرء يتساءل عمَّا إذا لم يكن كل ذلك أمراً معجزاً حتى لألمع الطلبة في بيركلي. هذا الأمر يقودني شخصياً إلى التفكير مباشرة في جهاز مدرّب، وله خبرة ووجود في أميركا، ويستطيع أن يخترق جهاز أمن بن آرون."

"كيف يمكن ذلك؟"

"إن وصف المتاهة،" قال مارتل. "هو الجزء السهل من المهمة. دعنا نحاول التفكير أين أنت تقف الآن. إن أشياء كثيرة تتوقف على ذلك، وهي قد تتعدى مصير هناء عارف."

الفصل 14

على رمال الشاطىء، كان جذع شجرة عتيق، ذو خشب أحمر عارٍ عن اللحاء، قذفت به الأمواج فوق الرمال السنجابية اللون، وقد أحاطت به إلى المستوى الذي يحدد ذروة ارتفاع المدِّ العالي. جلس الرجلان عليه يرتشفان شرابهما فيما هما يرقبان المياه التي تتلاشى أمواجها بهدوء على مسافة خطواتٍ منهما.

"إذا أردنا أن نبدأ بالخرق الأمني في جهاز حماية بن آرون،" قال مارتل. "فإننا نجد أن فكرة أن يكون الاختراق خارجياً هي فكرة أبعد من أن تكون جديرة بالتصديق. ذلك أنه من المستبعد أن يكون أحد العاملين مع الجناة قد تمكن من التقاط المكالمة المتعلقة بتغيير مسار الموكب، لأن هذا يحتاج إلى الكثير من الحظ، كما إلى التجهيزات الشديدة التعقيد. وليس ثمة دليل على مثل ذلك. لذا لا يبقى أمامنا سوى الاحتمال الثاني، الذي يفترض وجود تسريب للمعلومة من داخل الجانب الإسرائيلي.

"وهذا يعني أكثر من مجرد وجود متطرفين غاضبين مثل جماعة مسعدة. فالمتآمرون في حاجة إلى شخصٍ ما، من داخل فريق الحماية يكون الإسرائيليون، وهم أناس معروفون بحرصهم البالغ، قد أخطأوا الثقة به. لكن الانتحاريين لم يكونا سوى فلسطينيين عاديين." توقف مارتل ليأخذ رشفة من كأسه مستمتعاً بمعالجة هذه الأحجية. "وهكذا، كيف يمكنك التوفيق بين هذه العوامل المتباعدة؟ ومن هو الذي يستطيع ذلك؟"

"سواء أكانت مذنبة أم بريئة،" أجاب دافيد. "فإن هناء لا تشكل جواباً على سؤالك. فكائناً من كان هذا الشخص الذي رتب العمل، فإنه قد بقي يراقب العملية من خلف الستارة. وفي الوقت الحاضر، إنني أبتدىء من خيطين اثنين: تسرُّب محتملٌ من الجانب الإسرائيلي، وتأكدٌ من أن القاتلين فلسطينيان. وكل ما أستطيع فعله، هو جذبُ كل خيط منهما لأرى ما سيكشف تحريكه أمامي."

هزَّ مارتل رأسه بالإيجاب. "خيطٌ واحدٌ في كلٍّ مرة، يا دافيد. ففريق حراسة بن آرون له دائرة داخلية - فهناك قائد ثلَّة الحرس، وهو من رجال شرطتنا السرية، وقائد

الفريق الإسرائيلي. ويفترض أنهما قد اجتمعا مسبقاً لتبادل المعلومات عن المخاطر التي تهدد سلامة بن آرون، ولرسم خطة سير الزيارة مدينة فمدينة، الأمر الذي سيسمح لهما أن يقررا نقاط تموضع رجال الأمن في زمن يسبق وصوله إلى كل نقطة. إلا أنهما سيتركان بعض المرونة في الخطة للسماح بتبديلات في الطريق عند اللحظة الأخيرة."

"ومن هو الذي يتخذ مثل هذا القرار؟"

"يقوم قائد مفرزة الحراسة الأميركي، قبل أن يحصل ذلك بدقائق، بإعلام قائد فريق الإسرائيليين، وبإعلام رئيس جهاز حماية الشخصيات، ويقوم كل منهما بإعلام من يلزم من مجموعته. وهذا يعني أن أحداً من داخل مجموعة الحراسة لا بد أن يكون قد أخبر مدبِّر أمر القاتلين، الذي أخبر بذلك إياد حسن في وقت قصير قياسي، وكل ذلك دون أن يرصده أحد." استدار مارتل نحو دافيد. "وهذا هو السبب الذي دعا الأف‌بي‌آي. إلى استجواب هناء عارف بهذه الدقة حول أماكن تواجدها، كما أن هذا هو السبب الذي جعل إجاباتها تبدو مريبة."

كان دافيد يتأمل في صدَفة من نوع أذن البحر، بطيف ألوانها اللؤلؤية المرقَّشة. "إذن إن قرار تغيير المسار كان قد نُقل إلى مجموعة أميركية وإسرائيلية صغيرة. وكل أفرادها كانوا موجودين في سان فرانسيسكو. ولم يكن أحدهم يعرف أيَّ شيء عن ذلك مسبقاً."

"صحيح. وبهذا يكون في أيدينا في الواقع خيطين. الخيط الأميركي والخيط الإسرائيلي. لكن ثمة تضارب في المصالح بيننا وبينهم. فالإسرائيليون يريدون أن يظهر أيُّ خرقٍ أمني وكأنه خطؤُنا؛ بينما نحن نريده أن يظهر وكأنه خطؤهم. وبينما يقع لوم واضح علينا للسماح لرجلي شرطة مزيفين بالانضمام إلى فوج المواكبة، فإن اللوم يقع على الجانب الإسرائيلي بسبب تمكينهما من اغتيال رئيس الوزراء بن آرون."

"إلى أي مدى سنذهب نحن والإسرائيليون للتحري عن حقيقة الذي حدث؟"

فكَّر مارتل في السؤال. "في العادة، تفكر مخابراتنا في اللجوء إلى ثلّة من الحيل والمناورات المضادة للإرهاب. فإذا أُطلقت يدنا فإننا نحيل المشبوهين بالإرهاب إلى بلدان صديقة لنا لكي يجري تعذيبهم فيها. كما أننا أحياناً قد نضع شخصاً مشبوهاً بأنه من نشطاء القاعدة على متن طائرة في غوانتانامو ونحلِّق به لمدة معينة في الأجواء مهدِّدين إياه بالنزول في أحد مطارات الشرق الأوسط، حتى يبدأ بالكلام. كما أننا قد نستعمل 'المواقع السوداء' التي يقوم عليها رجال السي‌آي‌إيه. في أماكن مثل الاتحاد السوفييتي السابق، حيث يختفي المشبوهون بكل بساطة.

"لكن ليس أي من هذه الأشياء يمكن اللجوء إليه في القضية الحاضرة. 'فالمشبوهون' سيُحتجزون في مكان جيد، يحرسه ضباط أمن أميركيون وإسرائيليون. إذ لا يسعنا في هذه الحالة لا إخفاؤهم، ولا تعذيبهم. وإذا قامت حكومتنا علانية باستعمال أيٍّ

أسلوب مَعيب لانتزاع اعتراف لم يعجبك مضمونه، فإنك ستقوم بالاشتكاء أن الاعتراف كان..." توقف مارتل، ثم هزَّ كتفيه. "ما هو التعبير الذي تستعملونه؟"

"ثمرة الشجرة السامة."

"بالضبط. بسبب ذلك كله، ولأن العالم كله يراقب هذا الحدث بالذات، فإن حكومتنا سوف تتعامل معه بحذر. مع أن جعفر قد لا يكون صدَّق ذلك، في ما يختص به. الأمر الذي قد يفسر إقدامه على الاعتراف."

"وماذا عن الإسرائيليين؟"

"قد يكونون أكثر قسوة. وهم يلتزمون حدوداً معينة، فإسرائيل لديها صحافة قوية الشكيمة. أما مشكلة النائب العام، ومشكلتك أيضاً، فهي أن الإسرائيليين سيعملون في السر. وستجري التحقيقات، يوماً فيوماً، بواسطة نيابتهم العامة، وهي تضم مجموعة من كبار الممتهنين. فهم سيستخدمون جهاز الشين بيت، وكذلك الموساد بطبيعة الحال. ولن يشركوا حكومتنا في الخيوط التي يمسكون بها، ولا في المعلومات الاستخباراتية التي يتوصلون إليها. كما أنهم لن يشركوك أيضاً، بكل تأكيد. خصوصاً إذا كانت هذه المعلومات تشير إلى ضلوع أحد رجالهم في عملية الاغتيال..."

"وما هو السبب؟"

"هنالك أكثر من سبب: سلامة التحقيق، الخوف من المساس بالسلامة الداخلية، واللهب السياسي لهذه المسألة. فالقوى الإسرائيلية السياسية شديدة الانقسام. واستناداً إلى نتيجة التحقيق، فإن حكومة قد تقوم، وأخرى قد تسقط. فبإثارتك لهذا الأمر ستكون كمن يلقي عود ثقاب فوق برميل من الكيروسين." هدَّأ مارتل من لهجته. "ولأنني قد صرت أنا نفسي منبوذاً، فإنني لا أستطيع أن أقول إنني أحسدك. فقرارك الدفاع عن هذه المرأة، ربما تكون له عواقب قد لا يمكن التنبؤ بها، كما أنها قد تكون غير سارة."

لاذ دافيد بالصمت وهو يفكر ملياً في عزلته المفاجئة. "إذن هذه هي الطريقة التي ستجري بها الأمور التي حدثتني عنها،" قال بعد طول تفكير. "أذهب إلى القاضي وأطلب الوصول إلى نتائج التحقيقات التي توصلت إليها حكومتنا، وكذلك التي توصلت إليها تحقيقات حكومة إسرائيل. قد يكون من المتوجب على شارب أن تطلعني على ما توفر لحكومتنا. لكنها لا تملك سلطة لجعل الإسرائيليين يعطونني أيَّ شيء. فإذا رفضوا يصبح موقفها عالقاً بيني وبين الإسرائيليين. عندها سأدَّعي أنني في حاجة إلى معرفة نتائج التحقيق الإسرائيلي من أجل أن أتمكن من تأمين دفاع عادل عن موكلتي، وستردُّ شارب بأنها لا تستطيع أن تلبي لي هذا الطلب."

"وماذا سينفعك ذلك؟"

"عدا عن الكثير من السخط؟ إذا كنت محظوظاً جداً، سوف تُفتح أمامي الطريق إلى نتائج التحقيقات الإسرائيلية، أو سأحصل على مخرج محتمل لهناء من ورطتها."

"مذنبة أم لا."

هزَّ دافيد كتفيه. "مذنبة أم غير مذنبة. كل ما أستطيع عمله، حسب قولك، هو أن أرمي عود الثقاب."

ابتسم مارتل قليلاً. "من أجل هذا أستمتِع بالحديث معك. فالمحامون والجواسيس، على السواء، تتطور لديهم المواهب نفسها. نزعة فضول عميقة، وشغفٌ بكشف الحقيقة، وفهمٌ للغدر والخيانة، واحترامٌ للغموض الأخلاقي. وهذه عناصر الطبيعة البشرية."

حتى قبل الوصول إلى هذا الوضع، فكَّر دافيد، لم يكن ليستطيع التخيُّل أن يقوم ببسطِ مثل هذا الحديث مع كارول. "وفي أيٍّ حال." تابع مارتل، "آفي هرتز، موجودٌ هنا من أجل مراقبتك، لا من أجل مساعدتك. ومثلما خالجك الاعتقاد، فإنه ضابطٌ سابقٌ في الموساد، جلفٌ وداهيةٌ إلى القدر الذي يحتاج إليه من يكون مثله. سيكون كل اهتمامه منصبّاً على حماية إسرائيل، وعلى حماية أسرارها إذا لزم الأمر. كما ستتضمن مهمته مساعدة شارب في الضغط على موكلتك إلى أن تعترف."

"ولكن ماذا لو لم تعترف،" أجاب دافيد، "ألا يمكن أن تفترق اهتماماته عن اهتمامات شارب عندئذٍ."

"الجزء المتعلق بحفظ الأسرار لعلَّ هذا ما تقصده. أفترِض أن لديك بعض الأفكار لاستخدام طرفٍ منهما في وجه الآخر؟"

"نعم."

بابتسامة أخرى، فكَّر دافيد في هذا. "لننتقل بكلامنا إلى الفلسطينيين." قال بعد لأيٍ. "ماذا تعرف عن كلٍّ من حسن وجعفر؟"

"لا أعرف عنهما سوى القليل."

"إنهما النقطة التي تنطلق منها، بالطبع، تمشياً مع السياق الذي يستطيع أن يحوِّل شخصاً يبدو أنه طبيعي وعادي ليصبح قنبلة بشرية.

"تعميم الأحكام أمرٌ خطير. لكن من المؤكد تقريباً أن أحد الرجلين، إن لم يكن كلاهما، لديه قصة يكون الإسرائيليون سببها."

فكَّر دافيد بحزن في شعور منيرة عندما كانت تشهد إهانة الجنود الإسرائيليين لوالدها عند حاجز التفتيش. "وفي العادة،" تابع مارتل، "يكون هناك عناصر تتعدى إلحاق

الأذى البسيط، في الرواية. إذ عادة ما يكون هناك مأساة. مأساة قد تتمثل في مقتل شخصٍ عزيزٍ فشلوا في إنقاذ حياته."

رفع دافيد رأسه مستفهماً. "وما هو السبب الذي يدفعهم إلى سلوك هذا الطريق؟"

بالنسبة لي، إن فكرتي الأساسية هي أن القتلة الانتحاريين إنما يقودهم مزيج من مشاعر اليأس والغضب والرغبة في تحرير أوطانهم من نوعٍ ما، من الاحتلال الواقعي، أو المحسوس. وباختصار، عليك أن تفتش عمّا حصل سابقاً في حياة كلٍّ من حسن، وجعفر، أو ماذا كانا يريدان أن يحصل فيها، هنا على الأرض، وليس في السماء."

"وماذا عن مدبِّريهما؟"

"لا بد من أن يكونوا من نسلٍ مختلف." ألقى مارتل على دافيد نظرة فاحصة. "أعتقد أنك في مرحلةٍ ما، من حياتك، كنت قد عرفتَ هناء عارف معرفة حقة، أو على الأقل، قد حسبتَ نفسك أنك قد عرفتها. ومن الواضح أنني لا أستطيع تقييم مواهبها. لكن المدبِّر المثالي يجب أن تكون لديه قدرة متميزة على طرحِ إيديولوجيته، كما ينبغي أن تكون له دراية عميقة في أساليب تحفيز الآخرين للإقدام على التضحية بأرواحهم لتحقيق أهدافه النهائية. لا بد له من مزايا تتلخص بكلمات ثلاث: فصاحة، كاريزما، دهاء."

"اثنتان منهما فقط تنطبقان على هناء، الفصاحة، والكاريزما."

"أليست داهية؟"

هزَّ دافيد كتفيه. "كلا، إلَّا إذا كنت أنا نفسي واقعاً تحت سحر دهائها."

بحاجبين مرتفعين، استدار مارتل نحو المياه. "لا بد أنها موهبةٌ خاصة يا دافيد، أن يجعل المرء عملاً للتدمير الذاتي يبدو منطقياً، وحتى مرغوباً. على المرء أن يكون ماهراً في انتقاء الأشخاص القابلين لذلك، ثم اصطيادهم. لكن كما قلت لك، أنا لا أعرف هناء عارف."

ولفترة ما، حدَّق دافيد أيضاً في اتجاه مياه الباسيفيكي. "يقول زوجها إنها قد تعرضت إلى مكيدة مدبَّرة."

"هل هذا هو ما يقوله فعلاً؟ هذا شيء ملفت للنظر. هل سبق لك وأن قرأت كتاب 'حارس الأكاذيب'؟"

"لا."

"إذن كان عليك أن تقرأه. فموضوع الكتاب المذكور يدور حول مجموعة منتقاة من النخبة يطلقها ونستون تشرشل، والمخابرات البريطانية، قبيل المباشرة بهجوم النورماندي. كان الهدف النهائي لهذه المجموعة جعل هتلر والألمان يقتنعون بأن غزو الحلفاء لأوروبا سينطلق من كاليه وليس من النورماندي.

"لقد كانت الحيل التي لجأوا إليها شديدة الابتكار، فقد سرقوا مثلاً جثة شاب من المشرحة، حيث ألبسوها لباساً عسكرياً، ودسُّوا في جيوب اللباس أوراقاً مزيفة يفترض أنها تحتوي على معلومات سرية حول هجوم كاليه المزعوم. ثم قاموا بتعويم الجثة قرب الشاطىء الفرنسي المحتل. وبكل اختصار، لقد قاموا بفبركة موزاييك من الأكاذيب المختلفة المتقَنة الصنع، وتركوا للألمان مهمة تجميعها لتكوين فكرة مخدوعة عن خطة هجوم زائفة دقيقة التفاصيل." تغيرت لهجة مارتل هنا حتى صارت أقرب إلى التأمُّل. "بين أبشع أوجه هذه الخديعة كان أن البريطانيين زوَّدوا حلفاءهم أيضاً من رجال المقاومة الفرنسية بهذه المعلومات الكاذبة نفسها، بحيث إن بعض من وقع منهم أسيراً بأيدي الألمان قد مات تحت التعذيب رافضاً إفشاء هذه المعلومة، بينما البعض الآخر انهار واعترف، وهذا ما كان يأمله البريطانيون. لقد كان هؤلاء الجنود المخدوعين يدلون بأكاذيب يعتقدون أنها صحيحة أملاً في النجاة بأرواحهم."

أبطأ دافيد قليلاً قبل أن يدرك مغزى الحكاية ليقول. "إبراهيم جعفر."

"أجل. لماذا بقي جعفر حياً؟ إنني ما زلت أتساءل." أنصت مارتل قليلاً. "لربما يكون الحظ قد حالفه، أو لم يحالفه. أو لعل الدور الغبي المتروك له قد رُتب بطريقة تؤدي به أخيراً إلى قول 'الحقيقة' بطريقة تشابه دور الجنود الفرنسيين. فهو بذلك يستطيع اجتياز اختبار كشف الكذب، أو أن يسمي موكلتك إذا حقنه أحدهم بمحلول الصوديوم بانتوثال. فكل ما يعرفه هو ما أخبره به إياد حسن."

فكَّر دافيد في هذا الكلام ملياً. "لكن هذا يتركنا مع بصمات الأصابع، ومع مكالمة الهاتف الخلوي."

"هذا صحيح." تفحَّص مارتل وجه دافيد بدقةٍ عن قرب. "إنك تسعى وراء الزوج حسبما أعتقد."

"بالطبع. مَن أفضل منه للحصول على ورقة تحمل بصمات هناء، أو على استعارة هاتفها الخلوي بينما هي نائمة؟"

"هل تساوره شكوك أنك ترتاب بأمره؟"

"لست متأكداً من ذلك."

ضحك مارتل بهدوء. "يا لها من حبكةٍ معقدة نقوم بنسجها عندما نبدأ بالتمرن على الخداع،" قال مارتل مستشهداً. "السؤال المطروح، مَن الذي يخدع مَن؛ أو يخدع نفسه؟" وفجأة تلاشت الدعابة من صوته. "إلى أي درجة يا دافيد، أنت محتاج إلى أن يكون هو المتهم؟"

لم يجفل دافيد للسؤال المفاجىء؛ لكنه لم يجب أيضاً. "لقد قلتَ سابقاً أن هذا هو

الشرق الأوسط. فواجهة هذه الرواية مرتبة جداً والثغرة الواضحة الوحيدة في هذه الحبكة المحكمة هي أن جعفر يستطيع أن يذكر لهم اسم هناء، ومع قليل من الأدلة يصبح الأمر كافياً لإرسالها إلى الموت بالحقنة المميتة. وبما أن هناء لا تعرف شيئاً، فإنها تكون نهاية الطريق، ويسدل الستار."

"إذن أنت قد فكرت في التفسير الآخر أيضاً."

"نعم. التفسير الذي يقول إن صائب مذنب وهي أيضاً مذنبة. والإيحاءات إلى النفور بين الزوجين، هي مجرد مسرحية."

هزَّ مارتل رأسه بالإيجاب. "ولكن مع إضافة عنصر وحيد،" أضاف بهدوء. "الشك الذي يخالجه، أو يخالجها، بأنك سوف تصدِّق هذه الرواية."

"لكن ثمة ثغرة في هذه الفرضية يا بروس. إذ لكي يصحَّ أن تكون هناء مذنبة، فإن عليها أيضاً أن تكون لا مبالية. وهذا يعيدنا من جديد إلى صائب."

حدَّق مارتل في اتجاه الشمس المحتجبة ممسكاً عن الكلام لفترة طويلة. وعندما نطق من جديد، كان في صوته نغمةُ إنسانٍ يكمل حديثاً قديماً مختلفاً. "كان والدك،" قال لدافيد، "حسن المعشر، نظراً للمتعة التي تضفيها طريقة تفكيره. لذلك فقد صرت معجباً به. لكنه صرف العمر مراقباً للآخرين، إلى أن صار مراقباً حتى لنفسه.

"فبحكم عملي الخاص، كنت قد تعلمت كيف أحافظ على مسافة بيني وبين الآخرين. لكن المسافة التي كان يحتفظ بها والدك، كانت تبدو مسافة أصيلة مطبوعة. إن ما أقوله الآن ليس له علاقة بمسألة ما إذا كنتَ، كولدٍ له، بحاجة إلى قربٍ أكبر بينه وبينك. لقد كان والدك رجلاً بارداً لأنه كان رجلاً خائفاً. كان خائفاً من نفسه، كنت أعتقد، وخائفاً من مشاعره الخاصة." ثم استدار نحو دافيد وعلى وجهه علامات قلقٍ واهتمامٍ لم يسمح لنفسه بإبدائها إلى هذه الدرجة من قبل. "يبدو لي أن لك شجاعة كافية. لكنني ما آمنتُ مرة تماماً بالحياة التي رأيتك تحياها. والأمر لا يعود إلى أنك كنت سيئاً في عيشها.

"فأنا لا أعرف ما الذي يدعوك إلى فِعل ما تفعله. لكن عليك ألَّا تتعامل مع هذه القضية وكأنها مجرَّد مناورةٍ في لعبة ورق تلعبها تعبيراً عن كبريائك، أو مجازفة تُظهر فيها ذكاءك وإبداعك. لتكن أسبابك أعمق من هذا القدر." ثم توقف وأرخى يده على كتف دافيد. "مهما تكن الدوافع والأحداث، يا دافيد، فإن عليك أن تتعلم منها. فقد يكون هذا هو كل ما ستخرج به من هذه التجربة القاسية".

الفصل

15

لم ينم دافيد في تلك الليلة.

فالعالم الذي بناه لنفسه بكل عناية صار يتفسَّخ. فلقد تلقى مكالمة هاتفية جافة من بيرت نيومان يستغني فيها عنه، كزبون، ويتنبأ له بأن مستقبله السياسي قد صار "ميتاً مثل جثة أدولف هتلر". وقد كانت هذه المكالمة غير مفاجئة لدافيد. أمَّا الأصعب من ذلك، فكان سيل الاتصالات والرسائل التي وردت إليه في الأيام القليلة الماضية من أصدقائه، ومن أصدقاء كارول، والتي تراوحت من كلمات التعاطف - "هل أنت حقاً بخير؟" - إلى كلمات التعطُّف - "هل خطر في بالك أن تفكر بأمر كارول؟" - إلى الكلمات العاتبة - "كيف يحق لك أن تفعل ذلك بنا؟" - مكالمة أخرى قابضة للنفس، كانت تلك التي تلقاها من زميل دراسته في كلية الحقوق نوح كلاين الذي تكلم عن قرار دافيد بالدفاع عن هناء عارف، محاولاً أن يكون لبقاً في كلامه. لكنه، مع ذلك، كان يخاطب دافيد كمن يخاطب رجلاً مُسَّ في عقله أو خولِط في عواطفه. لقد كان شاغل دافيد الوحيد عن الهاتف، الحملة الصحفية والإعلامية المستعرة التي يوقد نارها كل من البيت الأبيض، وإسرائيل، واللوبي الصهيوني في أميركا، والتداعيات الأليمة التي أعقبت الاغتيال نفسه، ممثلة بالحرب المنهجية التي شنتها إسرائيل على كتائب شهداء الأقصى. والمجلات الأسبوعية أعطت مثلاً نموذجياً عن الحملة الصحفية، فثلاثٌ منها أبرزت صورة هناء عارف على الغلاف. واحدة منها كتبت عنواناً بالخط العريض تحت الصورة يقول: "بروفيسورة الإرهاب." وجميع المجلات اشتركت في نخل تاريخ حياتها بالتفصيل - ابتداءً من عباراتها المتطرفة في هارفارد، وانتهاء بمجريات حياتها الدنيوية الحاضرة - على أمل العثور على مفتاح اللغز الذي جعلها تصبح إرهابية. عمود جانبي في مجلة نيوزويك تتبع تاريخ حياة القاتلات الانتحاريات؛ بينما مجلة التايمز ركزت على قرار دافيد 'الصعب التفسير'، بالدفاع عنها مستشهدة بأقوال 'أصدقاء' له، و'معارف' يرفضون الإفصاح عن أسمائهم، وكلهم يعتبرون أن الخطيئة التي وقع فيها دافيد تبعث فيهم الذهول، خصوصاً وأنها تصدر عن شخص في مثل طموحه وتطلعاته.

يقظاناً في سريره، عجِب دافيد ما إذا كان يستطيع أن يحسب مارني شارب بين الأصدقاء، أم بين المعارف. مرَّ الوقت ببطء شديد لا يرحم - مرَّت الدقائق، ثم مرَّت ساعة كاملة دلَّ على مرورها الرقم الأحمر المضيء على ميناء ساعته المنبِّهة. فكَّر مرة تلو مرة في كارول. لكن غياب أيِّ حسٍّ لها في غرفة نومه قد أكَّد له أنها قد غابت عن حياته واختفت.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كان فريق المؤسسة الخاصة التي استخدمها دافيد يعمل على تحصين مكتبه ضد وسائل التجسس واستراق السمع، كان هو يلتقي كلاً من آنجِل غاريكوس، ومارشا كير في حديقة عامة قرب قصر الفنون الجميلة.

كان الصباح بارداً لكنه نقي. جلس الثلاثة على العشب يتناولون الكرواسّان وإلى جانبهم قربة (ترموس) من القهوة. وقبالتهم، عَبْر بركة يعوم فيها البط، انتصبت قبة المتحف المزركشة التي ذكَّرت دافيد بمنصَّة مصدَّفة بناها الرومان في ذروة عصر فنونهم العمرانية. كان آنجل محامياً شاباً عمِل سابقاً مع مجلس الدفاع الشعبي. وكان دافيد قد خبِر ذكاءه الحاد، ونظرته السريعة، عندما استعان به في مرة سابقة منذ ثلاث سنوات. بينما كانت مارشا بروفيسورة جامعية في العقد الرابع من عمرها في جامعة سان فرانسيسكو. وهي كانت زميلة سابقة لدافيد في النيابة العامة، وهي خبيرة متخصصة في المرافعات والقضايا ذات العنصر الدولي والمعلومات السرية. ولأنه صديق دافيد الوحيد، وأب لطفلين توأمين حديثي الولادة، لم يجد آنجل بداً من القبول بالانضمام إلى دافيد للدفاع عن هناء عارف. أمَّا مارشا، فقد كانت تعشق تعقيدات استخلاص المعلومات الحسَّاسة من بين حكومتين، كما أنها أحبَّت الأجر المجزي الذي عرضه عليها دافيد والذي سيجري الحساب عليه بالساعة. فكَّر دافيد في أخلاقيات المحامين، وفي مدى تناقض مفهومها مع المفهوم العام للناس، ليجد في ذلك عنصراً مساعداً: فمهما يكن الموكل مذنباً أم بريئاً، ومهما كان الجرم الذي ارتكبه شنيعاً.. تبقى هذه الأمور جانبية الأهمية والتأثير ما دام النظام يعمل من أجل الجميع. كما أن دافيد لاحظ، من تجربته، أن هذا النظام الأخلاقي ذاته يعمل كغلاف لأنانيات رجال القانون ولاأخلاقية بعضهم، غير أنه لاحظ أن ذلك ينطبق بدرجة أقلّ على محامي الحق العام.

جلسوا لمدة يشرِّحون القضية المرفوعة ضد هناء. مسَّد آنجِل لحيته السوداء التي أطلقها ليحيط عينيه العسليتين، ووجهه الخالي من أية غضون، ببعض مظاهر الوقار والكبر لأنه كان يجد في شبابه، وفتوته، ونضارة وجهه، نقيصة له، لا تنمُّ عن محامي دفاعٍ عتيق متمرِّس. "ليس لدينا مجال كبير نناور به،" قال مستنتجاً. "فالدفاع التقليدي هو أن نبني على أن الأدلة التي قدمتها النيابة العامة، هي أدلة ناقصة. لكن مثل هذا الدفاع لا يبدو كافياً في حالتنا الحاضرة. وإذا لم نأتِ بما هو أكثر من ذلك، مثل البرهان على مَن هو الفاعل الحقيقي للأعمال الجرمية المنسوبة حالياً إلى هناء، فإننا سنكون في موقف حرج."

"لكننا إذا فشلنا في تقديم الاسم،" قال دافيد. "مدعوماً بالبرهان والدليل، فإننا سوف نخسر ثقة هيئة المحلفين. وبذلك تخسر هناء حياتها."

"إنني أفترض،" قالت مارشا. أن الأف.بي.آي. قد استجوبوا خالد حول جميع هذه الأمور."

"بالطبع. لكن كل ما حصلوا عليه من إجابات كان: 'لا أعلم شيئاً عن قصاصة الورق'؛ 'لم يسبق لي أن لامستُ هاتفها الخلويّ'؛ 'كنت أشاهد السي.أن.أن. مع طفلتي'؛ وكل هذه الإجابات، حتى وإن كانت صحيحة، لا تبرهن على أنه ليس متآمراً مع هناء. لكن هذه الفرضية لا تخدم موكلتنا."

مسَّدت مارشا خصلة شعرٍ، بدأ يغزوها الشيب، إلى الوراء. "ما الذي يدعو هناء إلى إخفاء خطّ يدها حتى تقوم بطباعة رقم هاتفها الخلوي بدلَ كتابته؟ وما الذي يدعوها إلى تسليم رقم خطّها الدولي إلى الغير؟"

"إذا كان الدليل مزيَّفاً،" أضاف آنجل. "فمن هو الذي قام بزرعه؟"

"هل تحدثتَ إلى منيرة؟" سألت مارشا دافيد.

مفكراً في السؤال، شعر دافيد بجرعة القهوة الأخيرة تشحن أعصابه. "لم أكلمها منذ اعتقال والدتها. والمسألة دقيقة. فصائب أكثر حماية لها حتى من هناء، والطفلة ضائعة بينهما. ثم إنها لا تزال في الثانية عشرة من عمرها. كيف لي أن أسألها عمَّا إذا كان والدها قد قام بمحادثة هاتفية مريبة بينما كانا يشاهدان السي. أن. أن."

"لنفترض أن جوابها أعجبك،" قالت مارشا. "إن عارف هي موكلتك وليس ابنتها."

"ليس الأمر بهذه البساطة،" أجاب دافيد. "فأنا لا أستطيع أن أضع فتاة في الثانية عشرة من عمرها على منصّة الشهود بينما نصف الدنيا تنظر إليها، آملاً منها أن تجرِّم أبيها. ثم هل سأشرح لها مسبقاً، قبل أن تقسم اليمين، أنني أهدف من عملي هذا، إلى إقامة الدليل ضد والدها؟ أم تراني سأستغلُّ مراهقة قد نالت حتى الآن من الترويع ما يكفي، ثم آمل بعد ذلك أن تنجح خطتي؟

"ففي كلا الحالتين، سيمقتني المحلفون. وإذا ذهبَت شهادتها بأحد والديها، أو بكليهما معاً، فكيف سيمكنها العيش مع هذه الحقيقة بعد ذلك؟" خفّف دافيد من اندفاعه في الحديث ليتكلم بلهجة أكثر انخفاضاً. "إذا تفوهت منيرة بكلام يجرّم هناء بدلاً عن صائب فسأسقط من منزلة قاسي الفؤاد إلى منزلة مغفّلٍ غبي."

أنزلت مارشا كوب قهوتها. "لا أهتمُّ أن يقال عني قاسية،" قالت ببرودة. "خاصة عندما يكون البديل الوحيد أن يقال عني غبية."

كان دافيد يعرف أنه في حاجة إلى رأيها، وإلى خبرتها، كما يعرف أن صراعاته النفسية تفسد عليه صفاء قراره. "إن ما تقولينه صحيح،" وافقها دافيد. "إن هناء هي الموكلة. لكنني لا أتصور أنها ترضى معي في أن أدعو ابنتها إلى أداء الشهادة."

"ما الذي تحتاج إليه إذا شئنا التركيز على جعفر؟" وجه آنجل السؤال إلى دافيد. "فإذا كانت هناء بريئة، فمعنى ذلك أنه يكذب."

"ما لم يكن يكتفي بترداد ما ذكره حسن أمامه. أمَّا ما نعرفه عن كليهما، فليس بالكثير. ففي نهاية الأمر، ربما سيكون عليَّ الذهاب إلى الضفة الغربية لمحاولة استقصاء المعلومات." ارتشف دافيد رشفة أخرى من قهوته. "إن جزءاً من قضيتنا يجب أن يكون الجزء الذي لا تعتبره شارب أهم ما فيها: من الذي خطط لعملية الاغتيال؟ من الذي أمَّن الأدوات؟ وعلى وجه الخصوص، من الذي سرَّب الخبر عن تغيير مسار الموكب؟"

"كلها أسئلة جميلة،" أجابت مارشا. "لكننا لا نستطيع الاكتفاء بسؤال الحكومة عن كل ما لديها. كل ما يحق لنا معرفته هو ما يمكن أن يبرّىء هناء عارف، أو على الأقل، ما يكون مادة للدفاع. فإذا كانت المعلومات التي نطلبها مصنفة كأسرار، فيمكن لهم أن يمنعوها عنا، كما يمكنهم الامتناع عن ذكر مصادرها، حتى وإن قرروا التعاون معنا. فقد تكون إجاباتهم أن محامين مثلنا يمكن لهم أن يتسببوا بجفاف مصادر معلومات الحكومة أو ربما التسبب بقتل بعض العملاء الأميركيين. أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، فإن أيَّ شيء يعطوننا إياه سيكون تطوّعاً. وهم بالطبع لن يتطوعوا بشيء."

"بكلمات أخرى،" قال آنجل، "نحن في موقف لا نحسد عليه."

التفت دافيد إلى مارشا. "إن البعض منا يا آنجل قد يرى الأمر مجرد فرصة."

ضحكت مارشا ضحكة هادئة. "إنك تخطط لابتزاز النائب العام للولايات المتحدة، أليس كذلك؟ أو على الأقل، أن تفعل شيئاً من هذا القبيل."

رمى دافيد تلك العبارة وراء كتفيه. "هناء تستحق محاكمة عادلة. على الأقل نظرياً، وهذا يعني أن علينا الحصول على أيِّ معلومة قد تساعدنا على تأمين هذا الدفاع. فإذا رفضت الولايات المتحدة، أو إسرائيل - لأي سبب من الأسباب - فإنهم بذلك يؤكدون أن محاكمة هناء لن تكون عادلة. هذا هو فصل الخطاب: محاكمة عادلة، أو لا محاكمة."

انتقل آنجل بنظره بين دافيد ومارشا. "إن لم تعطنا شارب كلَّ ما هو في حوزتها؟ فإن امتناعها سيكون مخالفاً لواجباتها الوظيفية."

"هذا بالتأكيد هو السبب الذي يدعوها للتعاون." أجابت مارشا. "لكن اهتمام شارب قد يختلف عن اهتمامات وكالات الاستخبارات في كلا الدولتين. وحتى مصالح واهتمامات استخبارات كل من الدولتين قد تكون متناقضة. فالنقاش حول مسألة من هو المسؤول عن

تضييع بن آرون هو نقاش أساسي بالنسبة إلى قادة إسرائيل، كما هو بالنسبة إلى قادتنا. وعلى الأقل حتى الآن، فإن إسرائيل لا تريد أن تكشف عن أن مجموعة حماية بن آرون قد تكون تضمّنت فرداً خائناً. وهكذا فلعل الأميركيين يراقبون، أو بعبارة أوضح، يتجسسون، على التحقيق الإسرائيلي." أنصتت مارشا وهي ترمي بفضلة من الكرواسّان إلى البطة التي تعوم بقربها. "إن الولايات المتحدة تريد أن تبرىء نفسها في أعين الإسرائيليين، خلا عن العالم بأسره، عن طريق اتهام هناء عارف. ومن خلال عارف، عن طريق كشف المؤامرة بكاملها. لكن لرئيسنا ومخابراتنا اهتمام آخر مختلف عمًّا لإسرائيل. فإذا استطاع دافيد أن يبرهن أن ثمة اختراق أمني لدى إسرائيل أدى إلى مقتل بن آرون، فإن البيت الأبيض، بخلاف شارب، سوف يعتبر ذلك خدمة له. وهذا ما لا يريده الإسرائيليون."

شعر دافيد بفداحة ورطته وهو يراقب آنجل محاولاً استيعاب كل ذلك: فمنذ أسبوع واحد تحوَّل من عضو كونغرس محتمل إلى محامٍ موكلته إرهابية مزعومة، وفوق ذلك، فهو يحرّض حكومته ضد حكومة دولة حليفة خسرت قائدها في عملية تفجير وقعت تحت سمعه وبصره. استدار مرة ثانية نحو مارشا. "أخبري آنجل حكاية آشيل لارور."

ابتسمت مارشا بلطف فبانت تغضُّناتٌ ساخرةٌ حول عينيها. "آشيل لارور،" بدأت حديثها، "هي سفينة فاخرة لنقل الركاب استولت عليها مجموعة إرهابية. كانت وكالة الاستخبارات الأميركية متأكدة أن قائد المجموعة مختبىء في بلد شرق أوسطي. ومع أن رئيس هذا البلد، وهو صديق لنا، قد أكد لهم أنه يفتش الأرض والسماء عنه لكي يجده. فإن مخابراتنا كانت تساورها الشكوك. وهكذا فإن إسرائيل والسي. آي. إيه. أعادوا توجيه أجهزة تنصتهم فتسمعوا على مساعدي صديقنا الرئيس يخططون لمغادرة قائد المجموعة. وبدلاً من أن تعبِّر حكومتنا عن استيائها، فإنها أجبرت طائرة قائد المجموعة على الهبوط في صقلية." ارتشفت مارشا جرعة أخيرة من كوبها قبل أن تسكب ما تبقى فيه من قهوة على العشب. "والآن قد يكون رجال استخباراتنا يفعلون الشيء نفسه مع إسرائيل، على أمل التأكد مما إذا كان أحد أعضاء فريق حرس بن آرون قد ساعد على قتله.

"فإذا نجح رجال مخابراتنا، فإنه سيكون من حق دافيد أن يعرف. وعندها تصبح المشكلة مشكلة الأميركيين. لذلك فإنهم قد لا يرغبون في أن يعرف الإسرائيليون لا بمعرفتهم بهذه المعلومة، ولا بطريقة حصولهم عليها. أمًّا كيف تُحل هذه المشكلة، فهو أمر يقع خلف مقدرة شارب."

بدا آنجل حائراً. "وكيف ستتحرك كل هذه اللعبة؟" سأل مارشا.

"من الصعب أن نقول. ففي العام 1988 مرر الكونغرس قانوناً يتطلب من وكالة الاستخبارات المركزية أن تسمي النازيين السابقين الذين جندتهم في خدمتها. ولكن بعد فترة ليست بقليلة فسَّرت وكالة الاستخبارات القانون بطريقة تمكّنها من استثناء إفشاء حقيقة أن خمسة من كبار مساعدي أدولف إيغمان الذي خطط لمجازر هتلر، إنما كانت

أسماؤهم على جدول رواتب هذه الوكالة. وأعتقد أنهم وجدوا أن هذه المعلومة مثيرة للحساسية ويصعب على الجمهور ابتلاعها. وقد يكون هناك أسباب عديدة تجعل وكالات الاستخبارات عازفة عن رمي معلوماتها في أحضان دافيد."

"ولكن في الإعلام،" جادل آنجل، "هناء عارف تمثل الوجه الجديد للإرهاب. ولو كنت مكان شارب؛ فسأدّعي أن الحكومة لا تتستر على أية معلومات تتناقض مع ادعائها على هناء عارف. ثم سأقوم باتهام فريق الدفاع بأنه يعرض الأمن القومي للخطر من أجل إفلات قاتلة إرهابية من العقاب. وأن دافيد هو محاميها اليساري الرخيص. وبذلك تكون قد استعدَت القاضي علينا، وأثارت الصحافة ضدنا، وسمَّمت أجواء هيئة المحلفين."

رأى دافيد أن آنجل قد بدأ في تصوُّر الأثمان المخفية التي يتطلبها الدفاع عن هناء عارف. أمَّا ما جعل توقعاته مغمَّة إلى هذا القدر، فهو بعد النظر الذي اتسمت به. "من أجل هذا، فإنني أريد جلسات المحاكمة مغلقة. ولكن على سبيل التمرين فقط، حاوِل أن تفترض أن هناء بريئة."

"إنني أفترض ذلك،" قال آنجل بلهجة دفاعية.

"حسناً،" قال دافيد. "إذن هي ضحية تهمة ملفقة. إنها ضحية مؤامرة يحتمل أن تكون كل من الحكومتين الأميركية والإسرائيلية مالكتين لمعلومات ليس للدفاع وصول إليها. وأن لكلا الحكومتين مجموعة مربكة من المصالح التي من شأنها طمس المخاوف العميقة بأن هناء عارف قد تواجه حكم الإعدام لسبب واحد محدد هو أنها لا تعرف من هو الذي دبَّر مؤامرة الاغتيال." نظر دافيد بتصميم نحو آنجل. "إننا محامو هناء. ولهذا ليس أمامنا خيار سوى أن نجعل حكومتنا ـ وحكومة إسرائيل ـ أمام الخيار التالي: أمِّنوا لهناء ما تحتاج إليه من أجل الحصول على محاكمة عادلة، مهما كانت المجازفات، أو تحمَّلوا المجازفة بأن القاضي تايلور سوف تردُّ قضيتكم."

"كيف لها أن تفعل ذلك؟" قال آنجل. "والضحية هي رئيس الوزراء الإسرائيلي."

شعر دافيد بأن الإرهاق يبلي اتزانه. "إنه رهان جزافي، إنني أوافق معك." صمت فترة، وعندما تكلم من جديد إلى آنجل، كان كمن يكلم نفسه. "وإنه من المؤكد أن يكون أمراً مسلياً للناس أن نجعل شارب تحارب للدفاع عن حقوق هناء، وإلا المجازفة بجعلها تستمتع بسهولة سوقها إلى الإعدام. لكننا إذا خسرنا القضية فإن هناء هي التي سوف تذوق طعم الموت. أمَّا نحن فسوف نتعايش مع النتيجة."

الفصل

16

عندما وصل دافيد إلى مكتبه، كانت سكرتيرته آنا تشو تحيل اتصالات الصحافة إلى مكتب العلاقات العامة الذي استأجر دافيد خدماته حتى انتهاء القضية. وآنا هذه، التي هي امرأة صارمة في منتصف عمرها، وتعرف دافيد جيداً، سألته عما تفعله برسائل البريد العدائية التي لا بد من بدء ورودها يومياً. فمن الناحية النظرية، قد تكون هذه الرسائل لا تخلو من فائدة للدفاع، في عملية انتقاء المحلفين. لهذا فقد قرر دافيد قراءة هذه الرسائل. ثم أقفل عليه باب مكتبه وجلس يستمع إلى رسائل بريده الإلكتروني الصوتي التي وردت إليه منذ ليلة البارحة.

كان بين الرسائل عدد وارد من أناس يعرفهم، لكن أياً من هذه الرسائل لم يكن مشجعاً. فالطبيبة التي وكلته في دعوى الجرم المهني قد وجدت لنفسها محامياً سواه؛ وستان شارفمان الذي جلس إلى جانبه في المأدبة التي أقامتها كارول لعاموس بن آرون، سحب دعمه المالي والسياسي؛ أما السيناتورة شابيرو فقد تركت بكل بساطة رقم هاتفها الشخصي الخلوي مع أن نبرة صوتها في الرسالة كانت جليدية بحيث إن دافيد بات لا يملك جرأة كافية لرد مكالمتها. أما غياب أية رسالة من جانب هارولد شور، فقد ذكّر دافيد بواجبه للقيام بإجراء مكالمة ليس له ميلٌ لإجرائها.

بعد حذف آخر رسالة، استلقى دافيد إلى الوراء على كرسيه مغمضاً عينيه.

هذه هي حياته الآن. عليه أن يسدّ الأبواب على عواطفه ويرعى إمكانياته الشخصية وإلا فلن يكون نافعاً لهناء، ولا لنفسه. وهذا يعني الاعتماد على عادات رافقته طيلة حياته: التمارين الرياضية الكثيرة، والنوم الكافي، واجتياز البلبلة والاضطراب عن طريق تحديد الأولويات ثم تلبيتها بحيوية تستذكر على الأقل حلم السيطرة. كان الشيء الأول الذي قرر البدء به هو مجابهة انفلاشه الذهني الذي يبدد تركيزه إلى أن يكون قد كلّم بتسي، وهارولد بشكل خاص.

* * *

كان الكلام مع بتسي شابيرو قصيراً لحسن الحظ.

"يجب أن تعرف سبب اتصالي بك،" قالت له. "لن أستطيع دعم وصولك إلى الكونغرس بعد الآن. ولن يستطيع رئيس البلدية ذلك أيضاً." كان صوتها مهذباً لكن بارداً، وغير مكترث لأعذاره. "إني آسفة يا دافيد، لكنك لم تتوقف عن تمثيل قاتلة عاموس بن آرون. إن أي جهدٍ تبذله الآن لتصحيح الوضع سيجلب عليك المزيد من الإدانة."

أمّا هارولد فقد جعل الأمور أسهل من ذلك، إذ إنه رفض استقبال مكالمة دافيد، تاركاً إياه حائراً في ما إذا كان هذا الرفض نابعاً من الشعور بالغضب أم من الشعور بالألم، وعمّا إذا كان الأذى الذي حصل قد نال هارولد أكثر مما نال ابنته. لكن انعدام الجواب من شأنه أن يقلل شعور دافيد بالذنب.

* * *

وعندما وصل البريد، فإنه أعطاه دافعاً جديداً للمحافظة على نفسه.

فبعد توجيه آنجل إلى البحث عن مسألة دفاعهم ضد تسليم هناء إلى إسرائيل، قرأ دافيد الرسائل التي وضعتها آنّا على مكتبه، وكان بعضها موقعاً وبعضها الآخر لا يحمل توقيعاً. كان أهون شرور هذه الرسائل هو تشابهها:

عزيزي *اليهودي الكذّاب* (تذكر أنني يهودي): *لمَ تحاول إطلاق سراح قاتلة اليهود؟ أتمنى لك أن تجامع هذه القاتلة ثم تموتا معاً بمرض الإيدز...*

رسالة أخرى قالت بألم أكبر:

إن يداك تقطران بدم رجل نشدَ السلام للشعب اليهودي، ومن أجل جميع هؤلاء الذين سيموتون بسبب اغتياله... أتمنى لك أن تعاني موتاً قاسياً بطيئاً بمرض السرطان.

ورسالة أخرى أيضاً:

كل من ينحاز إلى جانب قاتلة عربية ساقطة، أقدمت على قتل من يدافع عن إسرائيل، هو يهودي كاره لنفسه، سيء مثل هتلر...

كان موضوع بعض الرسائل يدور حول جشع دافيد: *بصفتي يهودياً، فإني أخجل من كونك يهودياً يبيع سواه من اليهود من أجل المال. فأنت تصادق على المقولة الشائعة عن اليهودي الطماع. لذلك أنا أتبرّأ منك وأعتبرك غير يهودي.*

وأخرى تقول: *إنك محامٍ ملتوٍ مستعد لإرسال أمّه إلى غرفة الإعدام بالغاز من أجل أتعاب مادية.*

وأخرى تقول: *إنني يهودي من أصل ألماني، وإنك تذكرني باليهود المتعاونين مع*

النازي في غيتو مدينتي الأصلية في لودز. الفرق الوحيد بينكم هو أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل المال، أما أنت فتفعله من أجل الشهرة.

لم يكمل دافيد قراءة الرسائل القليلة الباقية. "اطرحي هذه الرسائل". قال لِ ـ آنًا، وكلَّ رسالة تشبهها. ولا تدَعي آنجل يرى مثل هذه الرسائل ـ إن لدينا أشياء أخرى كثيرة نصرف عليها تفكيرنا."

ثم قاد سيارته إلى مركز السجن الفيديرالي.

* * *

بدأ حديثه مع هناء على النسق ذاته الذي صارت تتخذه أحاديثهما: تحفُّظ عاطفي، منقَّط بفترات غامضة من الصمت. وكلاهما من الممكن نسبتهما إلى الخوف من أن يكون أحدهم يتنصت عليهما. كان يخالج دافيد شعور أنه بات كمن يرقب هناء من خلال لوح من الزجاج؛ لقد كانت تبدو له منبوذة ومثيرة للعاطفة، ما عدا عندما يجول في باله أنها قد تكون كاذبة وقاتلة.

كان موضوع حديثهما لهذا اللقاء إمكانية تسليمها إلى إسرائيل. "لست أدري عن نوايا الإسرائيليين بهذا الخصوص." قال لها دافيد. "لكن ما لم تكوني راغبة في أن تحاكَمي في إسرائيل، فإننا نحتاج إلى استراتيجية تجنبنا ذلك. أنت تعرفين الاعتبارات. فهنا لدينا إمكانية وصول أفضل إلى الملفات الحكومية. لكن من ناحية ثانية، ليس في إسرائيل عقوبة إعدام."

طوت هناء ذراعيها أمامها. "سيكون ذلك مهزلة من مهازل القدر،" قالت له. "أن أعلِّق آمالي على الصهاينة لإنقاذ حياتي عن طريق قيامهم بسجني في الأرض التي سلبوها منا إلى أن يوافيني الأجل في النهاية لسبب من أسباب الموت الطبيعي. إنها قمة الإهانة، إهانة لا مثيل لها."

تمعَّن فيها دافيد جيداً. "هل هي أسوأ من الموت؟"

"بالتأكيد، إنها أسوأ بكثير." رفعت هناء أبصارها إليه. "لا يمكنني أن أصدِّق ولو للحظة واحدة أن الإسرائيليين سيؤمِّنون لي محاكمة عادلة."

"لكنني لست واثقاً من أنك ستنالين محاكمة عادلة هنا أيضاً." أجابها.

"وأنا كذلك لست واثقة من ذلك. لكن على الأقل، هنا أجدك بقربي، يا دافيد، أجد اليهودي الوحيد ربما، الذي لا يكرهني."

تمكن دافيد من إخراج ابتسامة. "آمل ألَّا تكون هذه هي فضيلتي الوحيدة."

"كلا،" أجابته بهدوء. "هناك أشياء كثيرة أخرى. مثل الشجاعة. فمع أنني معزولة هنا داخل السجن، فإنني أعرف ماذا كلفك الدفاع عني."

قرر دافيد عدم الرد. فمناقشة مآسيه الشخصية مع هناء، مع الإنسانة التي تسببت بهذه المآسي أصلاً، قد يجعل الأمر يفلت عن الحدود العاطفية التي رسمها لنفسه. وكأنما استشعرت هناء ذلك، فأشاحت بوجهها عنه.

"بالنسبة إلى إمكانية تسليمكِ،" قال لها بعد وقتٍ، "فالقرار قرارك. لكنني لا يمكن لي أن أنصحك بأن تجازفي بتعريض نفسك إلى عقوبة الإعدام. ليس من أجلك فقط، ولكن من أجل منيرة أيضاً."

استدارت هناء لتلاقي نظرته بنظرتها. "لقد انتهى أمري كوالدة لمنيرة، وسواء كنتُ في القبر، أم في السجن، فالأمر سيَّان. لن أستطيع أن أكون والدة لها. والمحاكمة في أميركا هي فرصتي الوحيدة لكي أؤثر في مستقبل ابنتي، أو حتى لكي أضمها بين ذراعيَّ."

خُيِّل لدافيد أن مشاعرها حول تربية صائب لابنتها كانت واضحة من خلال جوابها. "حسناً،" قال دافيد أخيراً. "سأعمل كلَّ ما أستطيع عمله من أجلكما."

* * *

"بالنسبة لموضوع التسليم،" قالت له شارب بعد أسبوع، "ما زلت لا أعلم نوايا الإسرائيليين. كما أنني أعتقد أنهم لم يستطيعوا بعد أن يحسموا أمرهم. أما في ما يختصُّ بي، فإنني أرغب في الاحتفاظ بموكلتك هنا."

كانا يجلسان في مكتبها. هذه المهمة بالذات، قرر دافيد، يمكن أداؤها على أحسن ما يمكن بصورة شخصية. وبقدر ما يستطيع استجماعه من برودٍ، سألها، "هل لأننا هنا نملك عقوبة الإعدام؟"

"هذا هو أحد الأسباب،" قالت له بصوت باردٍ يشبه صوته. "ما سأقوله لك لن يدهشك. إذا كانت عارف حريصة على استنقاذ حياتها، فأنت تدري ماذا يمكنها أن تفعل."

حافظ دافيد على وجهٍ خالٍ من التعابير. "إن هناء مصرَّة على أنها لا تعرف شيئاً يمكنها أن تقدمه لك."

"هذا شيء مؤسف." ظهر الانزعاج في صوت شارب. "واحدة في مكانها، يجب أن تكون أكثر استعداداً للتعاون."

"كون هناء بريئة،" أجاب دافيد، "يمنعها من الاعتقاد أن حكماً بالسجن المؤبَّد هو أمنية مغرية كما تعتقدين. كما أن الأمر يتعلق بعدم استطاعتها مساعدتك فعلاً."

"على كل حال، ما زال أمامها وقت لتفكر بإعادة النظر في موقفها،" قالت شارب. "وكما تعرف، فلست أنا الذي يقرِّر ما إذا كنا سنلجأ إلى طلب إنزال عقوبة الإعدام بها. إنني أكتفي فقط برفع اقتراحي. وفي حالتنا الحاضرة فإن ما ستوصي به نيابتنا العامة هو طلب عقوبة الموت لها. فإذا كان لديك سبب خطير فوق العادة، سوى عن التذرع بأنها أمّ، وبأنها لم تقدم على قتل أيِّ رئيس وزراء من قبل - فعليك بالتقدم به إلى مكتب النائب العام (الأول) للولايات المتحدة، طالباً المثول أمام اللجنة الخاصة التابعة لوزارة العدل، التي تتخذ القرار النهائي في هذا الأمر." صارت نغمة شارب مجدبة. "هناك قد تستطيع أن تشرح لماذا يمكنك أن تعتبر أن الإشراف على عمل إرهابي عنيف، من المؤكد أنه سيجرُّ وراءه عقداً كاملاً آخر من أعمال العنف، وربما سيحصد أرواح آلاف جديدة من الفلسطينيين واليهود، لا يكافيء موت السيدة عارف نفسها. أمَّا أن تقول هذا الكلام لي، فهو مجرَّد مضيعة للوقت."

"إذن، لن أزعجك بمثل هذا الكلام،" أجابها دافيد. "لكن لكِ معي شيء آخر."

هنا أخرج دافيد من حقيبته طلباً باسم هناء عن المعلومات المتوفرة للحكومة، دافعاً إياه عبر المكتب، في اتجاه شارب. بعد أن قرأته قراءة سطحية سريعة ارتسم على وجهها تعبير غامض باردٌ يشي بشعورها الداخلي بالغضب. ألقت بالطلب جانباً بتأنقٍ غريب، كأنما تتخلص من منديلٍ ورقي قذر. "إنه شديد التفصيل. والمعلومات التي تطلبها فيه قد يروق الاطِّلاع عليها أيضاً للصينيين، أو ربما لأسامة بن لادن."

أقفل دافيد حقيبته. "آمل ألَّا تبدئي بقول مثل هذا الكلام في العلن. لأنني سأطلب إصدار قرار قضائي بعدم نشر المعلومات. أو ربما سأتقدم بطلب من أجل نقل مكان المحاكمة."

"لا ينشغلنَّ بالك يا دافيد، سوف أوفِّر ما عندي من كلام لأقوله أمام القاضي."

* * *

في الأسبوعين الأوَّلين اللذين أعقبا الجلسة التمهيدية، قصَر دافيد تعليقاته العلنية على عبارات روتينية مكرَّرة حول براءة هناء، وحول القول إنها أمّ، وأن لا علاقة أبداً تربطها بالإرهابيين، وأن الأدلة المقدمة ضدها هي أدلَّة غير مألوفة، وذلك على أمل أن يتراجع طوفان الإعلام من حوله بعد أن يبلغ حده. لكن ذلك قلَّما تحقق. وفي أحد الأيام، وافق دافيد على الإدلاء بحديث متلفز إلى ماريديث فاييرا في برنامج اسمه 'توداي'، أي 'اليوم'.

كانت التجربة أصعب مما بدت للوهلة الأولى. اشترط دافيد أن يجلس وحيداً في استديو التلفزيون مخاطباً عين الكاميرا، بينما يأتيه صوت مضيفته عبر سمَّاعة في أذنه من غرفة مجاورة. كانت فاييرا قد هيَّأت نفسها جيداً لهذه المناسبة. بدأ حديثها معه باستعادة

أقواله السابقة التي أدلى بها باسم هناء، وبتفنيد هذه الأقوال. "إن صفوف الإرهابيين،" قالت له، "تتضمن الأمهات والآباء والإخوة والأخوات. لذلك ليس من الصعب أن نستنتج أن موكلتك قد وافقت على الدخول في هذه المؤامرة لأنها لم تتوقع أبداً بقاء جعفر على قيد الحياة، ولأن حياتها بالذات غير مهدَّدة."

كانت الفكرة ذاتها قد خطرت لدافيد، عدة مرات من قبل. "إذن لماذا،" ردَّ عليها، "ليس هناك أيُّ دليلٍ على الإطلاق على ارتباط عارف بكتائب الأقصى، أو بأية جماعة أخرى من الجماعات التي تقوم بتنفيذ أعمال إرهابية؟ فأنت لا تستطيعين يا ماريديت أن تخرجي فجأة من كرسي المحاضر في قاعة المحاضرات في الجامعة، وتضعي نفسك مدبِّرة لإرهابيِّين انتحاريِّين."

"لعلَّ هذا ما يفسِّر السبب ـ فيما لو كان القرار الاتهامي صحيحاً ـ في قيام موكلتك بارتكاب ما ارتكبته من أخطاء فادحة في التنفيذ."

"إذن سيكون من الخطأ الفادح أيضاً،" أجاب دافيد بسرعة، "إسناد مثل هذا الدور المحوري إليها في مؤامرة اغتيال كبيرة مثل هذه. أليس كذلك؟ إنه من الصعب على المرء أن يصدِّق أن أناساً من الذكاء بما يكفي لحبك هذه المؤامرة الكبيرة المعقدة بشكل يجعل مكوِّناتها تختفي تماماً دون أيِّ خيطٍ أو دليل، ومع ذلك يقومون بوضع ثقتهم في هاوٍ غير محترف."

فجأة، غيَّرت فاييرا مجرى الحديث. "إنك تعارض تسليم موكلتك إلى إسرائيل. هل تعتقد أن النظام القضائي الإسرائيلي أعجز من أن يؤمِّن حقوق موكلتك؟"

فكَّر دافيد في انتقاء كلماته. "إنني أشعر باحترام عميق لدولة إسرائيل، كما أحترم نظامها القضائي. لكن هناء عارف فلسطينية متهمة بالتآمر من أجل قتل رئيس وزراء إسرائيل. والاتهام المساق ضدها تدوِّي أصداؤه عبر ستين سنة من الأحداث التاريخية المريرة. وعلينا ألَّا ننسى القتلى الكثر الذين سقطوا من الجانبين. تحت هذه الظروف، ليس لنا أن نتوقع من أيِّ شعب، في أيِّ مكان، أن يعامل هناء بموضوعية وتجرُّد.

"إذن لماذا علينا أن نحاكمها في إسرائيل، بينما لا يوجد نظام قضائي أكثر عدالة من أميركا في أيِّ مكان من العالم؟ هنا هو المكان المناسب لمحاكمة هناء عارف."

في ما وراء الكاميرا، لمح دافيد صورة فاييرا وهي تبدو على شاشة مجزوءة، بجانب شاشته. وكانت عيناها تفيضان بالفضول والتعاطف. "سؤال أخير،" قالت له. "أناس كثيرون من مختلف أنحاء هذه البلاد يتعجبون يا دافيد كيف أنك رضيت بالدفاع عن هناء عارف. فأنت على ما يبدو قد ضيَّعت مستقبلاً سياسياً واعداً، مع العلم أنه لم يُعرف عنك من قبل أي تعاطف مع القضية الفلسطينية، كما أنك معجب برئيس الوزراء الإسرائيلي بن

آرون، فضلاً عن كونك يهودياً أيضاً. هل السبب يعود بكل بساطة إلى أنك كنت قد عرفت السيدة عارف أثناء دراستكما للحقوق؟"

صمت دافيد لحظة للتفكير في الجواب الذي كان قد درَّب نفسه عليه مسبقاً بإتقان. "ليس الأمر بكل بساطة هو أنني قد عرفتُ مرة هناء عارف. إن السبب هو أنني أصدقها، تماماً مثلما أصدق أن الدعوى المساقة ضدها ليس لها أيّ أساس.

"ولأنني مؤمن بهذه الأشياء، فماذا تريدينني أن أفعل؟ إن جوهر القانون الأميركي يقوم على افتراض البراءة. وبين الضحايا التاريخيين للظلم والتفرقة العنصرية يقع اليهود في المقدمة. لذلك فإن اليهود يعرفون الإحساس بالظلم أكثر من غيرهم."

سكت دافيد لحظة يحدِّق في عين الكاميرا وكأنها عين أحد أعضاء هيئة المحلفين. "تحضرني هنا كلمات لكاهن ألماني مات في إحدى معتقلات هتلر: *'سعوا أولاً وراء الشيوعيين، فبقيتُ صامتاً لأنني لست شيوعياً. ثم 'سعوا' وراء اليهود، فبقيت صامتاً لأنني لست يهودياً. ثم 'سعوا' وراء الكاثوليك، فبقيت صامتاً لأنني كنت بروتستانتياً. ثم 'سعوا' آخر الأمر ورائي بعد أن لم يبقَ أحدٌ يتكلم من أجلي'*.

"إنني لستُ بطلاً ولا شهيداً، بل مجرد محام. وإنني أعامل هناء وفق المبدأ نفسه. وبعكس ما كانت عليه الحال في ألمانيا النازية، فإن هناء تجد في أميركا محامياً يدافع عن براءتها."

أومأت فاييرا على شاشتها إيماءة برأسها، وقامت بشكره عبر سمَّاعة الأذن.

* * *

جلبت هذه المقابلة لهناء بعض التحسن في شعبيتها، على الأقل، كما جلبت لدافيد بعض الاتصالات الهاتفية المستحسِنة، هذا عدا عن فيض من الشتائم والسباب التي ملأت بريده الإلكتروني الصوتي. لكن أكثر ما أثّر في نفسه كانت رسالة صوتية من كارول تنتظره في البيت.

ولم يكن قد تكلم معها منذ اليوم الذي غادرت فيه منزله غاضبة. وعندما سمع صوتها من جديد شعر دافيد بلحظة أملٍ عابرة. لكن هدوء نبرتها لم يكن بشيراً بالسلام. بل كان نذيراً بخيبة أملها العميقة وبتعاستها بسبب علاقة مؤلمة أقامتها مع رجل لن تستطيع العيش معه مع أنها لم تتحرر منه بعد. "إنك تجعلني حزينة من أجلك،" قالت رسالتها. "حتى إنني حزينة لسبب قلّة حيلتي من أجل إنقاذك. لكن مقارنتك لهذه المرأة بضحايا هتلر كان عملاً عدوانياً. أمّا ادِّعاؤك أن إسرائيل لن تستطيع أن تعاملها بعدل فهو عمل أكثر عدوانية.

"أرجوك يا دافيد، حوِّل تفكيرك قليلاً عن هناء عارف بما يكفي لكي تنظر إلى نفسك في المرآة. ليس من أجلي أنا ـ فقد فات كلُّ أوان. ولكن من أجل مصلحتك الخاصة."

بعد أن محا رسالتها الصوتية، نازعته رغبة في مكالمتها. لكنه لم يجد نفسه قادراً على ذلك أكثر من قدرته على الإفصاح عن شعوره بالوحدة إلى هناء. لقد تقطّعت الأسباب بينه وبين كارول، وانتهى الأمر.

الفصل

17

الاتساع الإعلامي الضخم للقضية، الذي استمرَّ يتكرر يومياً كالانهيارات الثلجية، زاد من صعوبة عيش دافيد، خصوصاً وأن هذه الحملة تعزز الافتراض العام بأن هناء عارف مذنبة.

بعد مرور مهلة الشهر، اجتمع دافيد ومارني شارب مرة جديدة أمام القاضي تايلور في مكتبها لعقد جلسة مغلقة، كما كان قد طلب سابقاً. جلس المحاميان والقاضي حول طاولة اجتماعات بيضاوية الشكل في غرفة تايلور. أما الشاهد الوحيد فقد كان كاتبة المحكمة التي كانت تدون محضر الجلسة. وبناء على توجيهات القاضي، فإن الأوراق التي هي من مثل الطلبات المقدمة من دافيد، واستجابات شارب لها، كانت تُحفظ في ملف سرِّي لا يسمح لأحدٍ بالاطلاع عليه. جلست تايلور عند رأس الطاولة في بذلتها الرسمية السوداء، فيما جديَّة الاهتمام بادية على محيَّاها إلى درجة تضاهي التوتر الذي يسود ما بين شارب ودافيد.

"قبل أن نبدأ بمناقشة المعلومات التي يطلبها السيد وولف،" قالت القاضي موجهة السؤال إلى شارب، "هل هناك أيُّ مساعٍ تبذل لتسليم موكلته؟"

"لا،" أجابت شارب بجفاف. "سوف تتحقق رغبة السيد وولف. فالحكومة الإسرائيلية قررت ترك المحاكمة في أيدي القضاء الأميركي."

حاول دافيد أن يدرس الديناميات المعقدة التي أملت الوصول إلى هذا القرار: أيكون وراء ذلك رغبة إسرائيل في عدم الاحتفاظ بسجينة خطيرة مثل هناء عارف؟ أم رغبة هذه الحكومة في اجتناب ما سيتقدم به دافيد إليها من طلبات لكشف المعلومات؟ أم إنها نيَّة شارب في استخدام إمكانية طلب عقوبة الإعدام كورقة للضغط على هناء من أجل الاعتراف؟ "حسناً،" قالت تايلور لدافيد. "لقد سألتَ حكومة الولايات المتحدة عن الكثير الكثير من المعلومات، وهي في جزء كبير منها، معلومات حسَّاسة جداً، والسيدة شارب تقف من سؤالك موقفاً شديد الاعتراض. دعنا الآن نسمع ما لديك من حجج."

حاول دافيد أن يُرجع طلبه إلى الأساسيات. "جوهر الطلب واضح تماماً. إننا لسنا فقط في حاجة إلى المعلومات التي تبرىء هناء عارف، بل إلى أيِّ معلومة تكون ذات صلة جوهرية بالدفاع عنها." سكت دافيد برهة ليجعل كلامه راسخاً في المسامع. "فدفاعنا يا صاحبة الاحترام يقوم على أن السيدة عارف قد أُلصقت بها تهمة مفبركة نتيجة لمؤامرة عليها، مدبرة من الجهة التي تآمرت فعلاً لقتل رئيس الوزراء بن آرون. وكل ما تملكه الحكومة من معلومات حول عملية الاغتيال يمكن أن يكون مفيداً لنا من أجل برهان هذه الفرضية. ولهذا، فإن على السيدة شارب أن تضع هذه المعلومات بتصرفنا."

"هذا التسبيب موجز جداً،" قالت تايلور بنبرة جازمة. "خصوصاً وأنك قد توسعت في طلباتك حتى طالت النجوم والشمس والقمر. ماذا تقولين يا سيدة شارب؟"

تكلمت شارب بلهجة سريعة مع بعض حدَّة في صوتها. "المحكمة على حق. فمن الواضح أن السيد وولف لا يكتفي بمجرد السؤال عن المعلومات المتوفرة للأف‌بي.آي. التي من شأنها أن تؤيد قضيته. لكنه أيضاً يطلب من السي. آي. إيه. ومن البوليس السري، الملفات التي تحتوي على استقصاءات حكومتنا حول عملية الاغتيال؛ كما أنه يطلب إعلامه عن أيِّ اتصالات جرت في هذا الخصوص بين حكومتنا وبين الحكومة الإسرائيلية. كما أنه يذهب إلى حدٍّ طلب إعلامه بخلاصة المعلومات الناتجة عما يتخيله من تحريات سرية تجريها حكومتنا في قلب دولة إسرائيل ذاتها. إن مثل هذه الطلبات ليست منفلشة إلى درجة مضحكة فقط، بل إنها تتناول معلومات حكومية سرية عالية الخطورة - بما فيها الكشف عن مصادر هذه المعلومات، وعن الطرق التي لجأت، وتلجأ إليها حكومتنا من أجل استخلاص هذه المعلومات الهامة لأمننا القومي، وعن كيفية الوصول إليها.

"وباختصار، فإن السيد وولف يحيك استراتيجية دفاع عن موكلته تقوم على محاولة ابتزاز حكومتنا. فإذا سمحنا لكل محامٍ أن يفعل ذلك ويفلش أسرارنا القومية في قاعات المحاكم، فإن هذا كفيل بإقفال جميع مؤسساتنا الاستخباراتية وإنهاء خدماتها."

"نحن بالطبع لا نريد ذلك،" قالت القاضي بشيء من السخرية. "خاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول. لهذا، ما هي الأشياء التي يستطيع السيد وولف أن يطلبها؟"

"يستطيع أن يطلب الأدلة المتوفرة لدينا ضد السيدة عارف،" قالت شارب على الفور. "نقطة على السطر. وكائناً من يكون قد تآمر على قتل رئيس الوزراء سواها، فإن القضية المقامة ضد السيدة عارف تبقى شديدة الوضوح."

"إنها تقول شديدة الوضوح،" أجاب دافيد. "إن السؤال المتعلق بمن هم الذين تآمروا لاغتيال عاموس بن آرون يتناول بصورة مباشرة ما إذا كانت السيدة عارف مشتركة فعلاً في المؤامرة، أم أن المتآمرين قد دبَّروا لها هذه المكيدة. إن حضرة النائب العام

تتجاهل ضرورة الكشف عن هوية المتآمرين الفعليين، كما عن الكشف عن الجهة التي أمَّنت أدوات الجريمة، ووسائل الدعم لتنفيذها، كما عن الكشف عمَّا إذا كان بين المتآمرين عنصرٌ أو أكثر من الإسرائيليين المسؤولين عن أمن بن آرون."

"هذه المحكمة ليست لجنة وارن،" أجابت شارب محتجَّة. "كما أنها ليست ساحة للنقاش العريض حول الأوجه المحتملة لهذا الاغتيال، مهما كانت غير ذات صلة بالسيدة عارف. إن السيد وولف مهتمٌّ بكل شيء، عدا عن قضية موكلته."

"التي تريد النيابة العامة حصرها بأقوال إبراهيم جعفر،" قال دافيد ساخراً. "آخذة أقواله على وجهها، تلك الأقوال التي لا تستند إلى معرفة مباشرة بأيٍ من هذه المسائل، ولا إلى أيِّ معرفة، أو صلة، بالسيدة عارف. إنني قد أمضي نهاراً كاملاً في استجوابه دون أن يكون قادراً على مساعدتي بشيء. ومع ذلك، ومن وجهة نظر السيدة شارب، فإن رواية السيد جعفر تسمح للنيابة العامة بحجب أي شيء يكون ذا قيمة للدفاع في قضية السيدة عارف." هنا شعر دافيد بفورة حقيقية من الغضب. "إذا كانت جهات حكومية أخرى ـ بما فيها السي.آي.إيه. ـ تملك في حوزتها ما تحتاج إليه السيدة عارف من معلومات للقيام بدفاعها، فإن على هذه الجهات أن تزودنا بهذه المعلومات. وإن ما تسميه النائب العام بالابتزاز، ليس في الحقيقة أكثر من إصرار على إحقاق الحق."

رفعت القاضي حاجبيها ثم سألت شارب فجأة، "هل هناك من حلٍّ وسط بين الالتزامات المحدودة التي تلتزمين بها، وبين طلبات السيد وولف، التي تذهب بعيداً، والتي قد تنسف أجهزة استخباراتنا؟"

بدت العبارات المستخدمة في صياغة السؤال، وكأنها تصيب شارب بالتضعضع. "إنني مستعدة للطلب إلى الأف.بي.آي.، وبقية أجهزة استخباراتنا، تسهيل إطلاع الدفاع على أيِّ معلومات متوفرة قد تكون مبرئة لعارف، باستثناء الكشف عن مصادر تلك المعلومات، وعن طريقة التوصل إليها. وهذا هو أقصى ما يتطلبه القانون منا." قالت بنبرة ممتعضة.

"'مبرئة' بالنسبة لمن؟" سألها دافيد. "هل هذا يتضمَّن المعلومات المتعلقة بالثغرة الأمنية الإسرائيلية في جهاز حماية رئيس الوزراء الإسرائيلي؟"

"كلا، ما لم تكن هذه المعلومات تتعلق بالسيدة عارف."

"وكيف يمكنك أن تتأكدي أنها لا تتعلق بها يا مارني؟"

رفعت القاضي تايلور يدها طالبة الصمت من الجميع. "عليكِ أن تقلقي لهذا الأمر يا سيدة شارب، لأنه يقلقني. إني أقدِّر حساسية ما يطلب السيد وولف معرفته. وقد لا يصبُّ معظمه في نهاية الأمر، في مصلحة موكلته.

"لكن هذه قضية لا أكون مبالغة في كلامي إذا قلت أن نصف الدنيا تراقب أداءنا فيها. فإذا قمتِ بحجب معلومات قد تكون جوهرية في الدفاع عن السيدة عارف، ثم لا يتبين هذا الأمر إلّا في ما بعد، فإن أي إدانة لها يمكن نقضها، ما لم تكن السيدة عارف قد صارت في غير عالمنا. الأمر الذي يخلق مشكلة أكبر من هذه بكثير." منحنية إلى الأمام، خاطبت تايلور شارب بلهجة مؤنّبة. "إن تهديد الأمن القومي لا يقتصر على تسريب الأسرار. فحكم جائر، أو حكم يمكن أن يعتبر جائراً، يصدر عن هذه المحكمة لن يتوقف صدوره عند تلطيخ سمعة هذا البلد فحسب، بل إنه قد يثير عنفاً جديداً هنا أو في مكان آخر من العالم. إنني غير مستعدة لكي أكون بين الفرقاء المسبّبين لمثل هذا الأمر. ولن أدعك لتكوني كذلك أيضاً."

أخذ دافيد العجب عندما أيقن أن الثقل المعنوي لمسؤولية تايلور يعمل في صالح هناء. "وعليه، هذا هو قراري،" تابعت تايلور، وهي تتكلم ببطء ووضوح. "ستضع الحكومة في تصرُّف الدفاع كل المعلومات التي تملكها، والتي من شأنها تبرئة السيدة عارف، أو كلّ ما يتعلق باغتيال عاموس بن آرون. أما بالنسبة إلى المعلومات المصنفة كمعلومات سرية، أو تلك التي لها تأثير على الأمن القومي، فإن على السيد وولف أن يطّلع عليها تحت الشروط التالية:

"أولاً، تُحفظ الوثائق والأوراق في غرفة آمنة موضوعة تحت إشراف الأف. بي. آي.

"ثانياً، يستطيع السيد وولف وحده الاطلاع على هذه الأوراق بعد أن يأخذ تصريح مرور من سلطات الأف-بي-آي." التفتت إلى دافيد قائلة، "لن يحق لك نقل هذه الأوراق من مقرها ولا استنساخها، ولا تدوين خلاصات عنها، ولا كشف مضمونها لأيٍّ كان، حتى لموظفيك، والمحامين المساعدين لك، وسواهم من أعضاء هيئة الدفاع. كما لا يمكنك الكشف عنها، لا للصحافة، ولا لموكلتك بشكل خاص." توقفت قليلاً، لتضيف بشكل جازم، "إن أيَّ خرقٍ لهذه الشروط يا سيد وولف، سوف يُعامل على أساس أنه إهانة إجرامية لهذه المحكمة - بل أسوأ من ذلك.

"ثالثاً، إذا شئت أن تستعمل هذه الوثائق في المحكمة، أو أن تناقشها مع موكلتك، فإن عليك أن تتقدم بطلب يبقى سرياً، ما لم، أو حتى تعطيك هذه المحكمة إذناً بذلك. أما قبل ذلك، فسيبقى هذا القرار سارياً." ثم استدارت نحو شارب قائلة، "تستطيعين حذف البيانات المتعلقة بمصادر المعلومات وطرق الوصول إليها. وإلّا فإن المسؤولية تقع على عاتقكِ - وعليك أن تكوني على بيِّنة تامة من هذا الأمر - لكي تتأكدي من أن حكومتنا لن ترتكب أيَّ خطأ من أجل حماية أسرارها."

شاعراً بالنشوة، حاول دافيد أن يحافظ على انضباط تعابيره، حتى وهو يرى مارني شارب تجاهد نفسها لكظم شعورها بالخيبة والاندهاش. "الأمر الثاني،" قالت تايلور لدافيد، "لديك طلب مماثلٌ إلى حكومة إسرائيل. لطفاً اشرح لهذه المحكمة كيف يمكنها مساعدتك بخصوصه."

الهدوء المفاجىء الذي استولى على نبرة صوت تايلور، كشف أنها قدَّمت لهناء عارف كل الخدمات التي توقعها دافيد. "ما تستطيع أن تفعله هذه المحكمة،" أجابها، "هو أن تأمر حكومتنا بأن تتقدم بهذا الطلب باسم السيدة عارف."

"يا صاحبة الاحترام" قالت شارب مقاطعة، "لقد سبق وأن أعطيتِ السيد وولف طريقاً إلى معلومات يمكنها أن تهدد علاقاتنا مع إسرائيل. أمَّا الآن، فهو ينوي مضاعفة الأذى بإجبارنا على أن نتصيَّد له كل ما يملكه الإسرائيليون من معلومات، مهما تكن هذه المعلومات خطيرة على أمنهم الداخلي. وهذه المحكمة قادرة على الحؤول دون هذا الطيش."

مستديرة نحو دافيد، سألته القاضي تايلور: "ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟"

شدَّد دافيد عزائمه. "الوصول إلى المعلومات الناتجة عن التحقيقات الإسرائيلية الداخلية في هذا الموضوع، وتقارير الإسرائيليين المولجين بحماية بن آرون."

"على أي أساس؟" سألته تايلور.

"لدينا شكوك أن بن آرون قد دُسَّ عليه شخص من بين أعضاء المجموعة المسؤولة عن أمنه الشخصي. إذا كان ذلك كذلك، فلا بد أن هذا الشخص يعرف أكثر بكثير مما يعرفه إبراهيم جعفر من معلومات، مثل المعلومة المتعلقة بهوية الشخص الحقيقي الذي كان يدير العملية."

"هل أنت متأكد فعلاً أنك تريد جواباً يا وكيل الدفاع؟ "هذا السؤال، المقلق بحدٍّ ذاته، كشف النقاب عن افتراضات تايلور الدفينة أن هناء عارف مذنبة. متداركة نفسها، أضافت قائلة بسرعة، "وكما قالت السيدة شارب إنك تدوس على أرض تختص بدور وزارة الخارجية، لا بدور وكيل دفاع."

"إنني كوكيل دفاع،" أجاب دافيد، "أتعهد بأن أسير في هذه القضية بموجب الشروط التي اشترطتها محكمتكم منذ قليل، من أجل السبب ذاته، ألا وهو تأمين محاكمة عادلة للسيدة عارف."

"إنه لأمرٌ مؤسفٌ حقاً،" قالت شارب معترضة. "فتحتَ ستار تأمين محاكمة عادلة، يبيِّت السيد وولف أمراً ما، يهدف إلى جعلِ هذه المحاكمة باهظة الثمن على مصالحنا القومية بحيث إننا نعجز عن متابعتها حتى النهاية. فتكتيكاته ليست أبداً بخافية على أحد: إمَّا إجبار الحكومة على التخلي عن هذه القضية من ذاتها، وإمَّا أن يتقدم هو بطلب لشطبها."

"سيحصل ذلك فقط فيما لو توفر له أساس قانوني،" أجاب دافيد بهدوء. "وهذا الأساس سوف يكون متوفراً فعلاً لو أن حكومتي الولايات المتحدة وإسرائيل نامتا على

معلوماتٍ يمكنها أن تكشف براءة هناء. وأنا ليس لي أيُّ أملٍ في الحصول على أيِّ معلوماتٍ من إسرائيل. أمَّا أنتِ فتستطيعين الحصول عليها عملاً بمعاهدة التعاون القضائي الثنائي المعقودة بين البلدين. سلي عن هذه المعلومات يا مارني، وعندها تكوني قد عملتِ كل ما تستطيعين عمله."

"وعندما يرفض الإسرائيليون ذلك، حسبما تتوقع، فإنني أكون بذلك قد هيأتُ لك الأسباب كي تتقدم بطلب شطب هذه الدعوى." استدارت شارب نحو القاضي. "لقد صارت لعبة السيد وولف مكشوفة تماماً."

ملاحظاً تعبير وجه تايلور، أمسك دافيد لسانه. "كفى،" تدخلت القاضي بصوتٍ مغضب. "لقد بلغ الأمر بي منكما حدّه." استدارت نحو دافيد فيما كان وجهها لا يزال عابساً. "كل ما يمكن أن تقدمه إسرائيل، يبقى نظرياً. لقد أعطيتك مدخلاً عريضاً إلى كل ما قد تكون حكومتنا قد حصلت عليه من معلومات. وقبل أن أجبر السيدة شارب على الوصول إلى شرانق الحكومة الإسرائيلية، المغلقة، حاول أن تجد ما إذا كان ما أعطيتك إياه يمهد لأسباب أفضل لطلبك هذا." ومع أن الكلمات التي ختمت بها تايلور كلامها هادئة وخفيضة إلَّا أنها كانت حاسمة. "بعد ستة أسابيع من اغتيال بن آرون على أرض مدينتنا، ليس بي رغبة في توتير علاقتنا مع إسرائيل."

ومهما بدت تايلور منزعجة، فإنها أعطته أساساً لتجديد طلبه. أما أن يكون هذا الأمر قد خطر في ذهن شارب، فقد كان بادياً على وجهها من طريقة نظرتها التأملية، وتضيُّق حدقتي عينيها. شاعراً بالرضى، قال دافيد، "شكراً سيدتي الرئيسة."

"أهلاً بك،" أجابته تايلور. "ثمة شيء جديد يحق لك أن تعرفه: ستكون المحاكمة ضمن مهلة ستين يوماً. وعلينا أن نجتمع في جلسة ثانية مغلقة هنا قبل ذلك، أي بعد أربعة أسابيع." ثم بتعبير أكثر عمقاً وحزناً، التفتت تايلور إلى شارب. "سؤال أخير، في حال ثبوت الإدانة، هل ستطلب الحكومة عقوبة الإعدام للسيدة عارف؟"

"هذا ما ستوصي به النيابة العامة يا سيدتي الرئيسة."

اكتفت تايلور بهزة من رأسها. "كنت أظن ذلك."

* * *

في الممر الخارجي، مشى دافيد وشارب جنباً لجنب، تربطهما، رغم عداوتهما، علاقتهما الواحدة مع تايلور. "يوماً طيباً." قالت له بأقصى ما عندها من فتور.

"بعض الأيام تكون طيبة، لكنها ليست كثيرة جداً."

حدقت شارب بنظرة مستقيمة إلى الأمام. "هل تعرف يا دافيد، كنت أعتقد أن اللعبة

التي لعبتَها بوكالتك عن راي سكالون تحدِّد الحد الأدنى لمستواك كمحام. لكن أداءك اليوم كان فيه بهرج الكبرياء والعظمة. إن إغراءات هذه اللحظة التي تحيط بك على مسرح العالم هي قضية بحدٍّ ذاتها تستحق الاهتمام، مثل هناء عارف."

"إن الهاجس الوحيد الذي يحدوني الآن، هو أن أتمكن من اجتياز هذا الأمر." أجابها دافيد." لكن ثمة تاريخ بيني وبينك. وهو مرشح للامتداد طويلاً. لذلك دعينا نضع هذا الموضوع في موقعه."

توقفت شارب عن النظر إليه مواجَهة. "هات ما لديك،" مع أن نغمة صوتها لم تكن مشجعة.

"أنتِ وأنا لا يجمعنا ودٌّ كثير،" قال لها دافيد، "كما أنني أعارض عقوبة الإعدام. لكنني لا أشك في أنك تؤمنين بما تفعلين.

"لا شيء من هذا يأخذ طابعاً شخصياً، وأنا لم أستمتع بصباحنا هذا بالضبط، معاً. لكنني حصلت على ما أبتغيه في الوقت الحاضر." توقف دافيد ناظراً إليها نظرة مقصودة. "أن يكون إعدامٌ بعد محاكمة عادلة، فهذا هو القانون. فإن ربحتِ فهذا ما هو من حقكِ أن تطلبي. أمّا بدون محاكمة عادلة، فلن يكون الأمر تنفيذ حكم إعدام. بل سيكون جريمة قتل. وأنا لا أريد لحكومتنا أن تقتل هناء عارف."

بعد لحظة، ابتسمت له شارب ابتسامة مشبوهة. "إنك تصوِّر الأمر وكأنه بهذه البساطة، مع أنك تعلم أنه ليس كذلك. فأنت أذكى من أن تخفى عليك مثل هذه الأمور."

"إذن ماذا؟"

"سنجد لنا طريقة للتعايش بعضنا مع البعض الآخر إلى أن يكون أحدنا قد وجد طريقه إلى الأعلى. عدا عن البراءة التي تطلبها الآن، أليس كذلك؟ هذا في حال احتجت إليَّ."

ودون أن تنتظر منه جواباً، قامت بالانصراف عنه.

الفصل 18

"من الناحية النظرية،" قال بروس مارتل لدافيد، عبر الهاتف، "إن قبول، أو عدم قبول، وزارة العدل لاقتراحات شارب حول العقوبة التي ستُطلب لهناء عارف، لن يتدخل فيه العنصر السياسي. لكن على أرض الواقع، تبقى كل هذه النظرية كلاماً فارغاً. إذا أراد البيت الأبيض أن يضع أصابعه على إحدى كفتي الميزان، سوف يجد طريقة ما."

"وكيف يحدث ذلك؟"

قد يطلب الرئيس من النائب العام الأول للولايات المتحدة الأميركية تزويده بخلاصة عن القضية. وما من شك في أن مدير مجلس الأمن القومي هو على صلة دائمة مع الإسرائيليين. ثم إن مشاغل مثل السياسة الخارجية والأمن القومي، وأمن الولايات، ستلقي بكل تأكيد بثقلها على القرار. ففي نهاية الأمر لن يكون الموضوع موضوع حياة هناء عارف أو موتها. بل إنه موضوع العلاقة مع إسرائيل، وحماية الشخصيات الأجنبية عندما تكون هذه الشخصيات على التراب الأميركي، ومعاقبة أعمال الإرهاب ووضع حدٍ لها. وكلُّ هذه العناوين لا تخدم موكلتك."

ولم يجد دافيد سبباً للاعتراض على صحة هذا الكلام.

* * *

بعد ذلك بيومين طار دافيد إلى واشنطن. ولكن في نتيجة الأمر، لم يكن مثوله أمام لجنة وزارة العدل ليبدو أكثر من شعائر شكلية تشبه مسرحية كابوكية يابانية خالية من أي معنى.

كان اللقاء في قاعة مزخرفة في الجناح المخصص للدائرة الجنائية، وهي أثر قديم يعود إلى العهد الذي كانت فيه المباني الحكومية توحي بالجلالة والعظمة. تلا دافيد ما عنده من حجج ضد طلب إنزال حكم الإعدام بحق هناء عارف بينما أصغى إليه أعضاء الجمعية بأدب واحترام. ثم طرح عليه رئيس اللجنة، وهو موظف مدني أشيب الشعر، بعض الأسئلة

من دون حماسة، وكأنما الأمر يتعلق بمسألة روتينية عادية. وقد فهم دافيد أن حالة الفصال عن الواقع هذه لا تعني سوى أن القرار سوف يتخذ في مكان آخر خارج اللجنة، إن لم يكن قد اتخذ فعلاً.

ومن السيارة التي كانت تقله في طريق عودته إلى المطار، أجرى دافيد مكالمة هاتفية بصائب. "أريد أن أرى منيرة."

"لأي سبب؟"

"لكي أقوم بتهيئتها." انتظر دافيد لحظة. "إنهم متجهون إلى طلب عقوبة الإعدام، لا شك في ذلك."

كان صوت صائب ناضباً من المشاعر. "وما علاقة بيروقراطيي الموت هؤلاء بابنتي منيرة؟"

"كنت قد وعدتُ هناء،" قال دافيد. "أنه كلما حصلت تطورات في الدعوى فإنني سأشرح الأمر لمنيرة، على الأقل إلى القدر الذي أستطيعه."

"لا حاجة بك لذلك، تستطيع أن تشرح ما تريد شرحه لي، أنا والدها، ثم أقوم أنا بالتحدث معها بما أجده مناسباً."

صمت دافيد قليلاً يستجمع هدوءه. "يا صائب، إنني لم أطلب منك الكثير. لكن هذا الوعد الوحيد، علي أن أحافظ عليه. اعتبِر أن ذلك بمثابة أتعاب لي."

لم يدرِ دافيد كم ستلهب هذه العبارة الأخيرة صائب إلا بعدما أفلتت منه.

بصوت سريع الانفعال، قال صائب، "إذن هذه هي الطريقة التي تقوم باختيارها لكي تذكِّرني."

"لا تجعلنا نتخاصم حول هذه المسألة،" أجابه دافيد ببرود. "أستطيع أن أكون في الفندق الذي تنزلون فيه عند الساعة السادسة."

أقفل صائب الخط دون أي جواب.

* * *

عندما وصل إلى جناحهما، فتح له صائب الباب. كانت منيرة، المغطاة من جديد باللون الأسود، تجلس على أريكة، وترمق دافيد بشيء من التوقع.

"لقد قمتُ بإخبار منيرة،" قال صائب ببرود، "إنني أرغب إليك في التحدث إليها. لكنها متعبة. لذلك أرجوك أن تنهي الأمر باختصار."

بدا تظاهر صائب بالاحتفاظ بالإمرة ملفتاً. "شكراً لك،" قال له دافيد بكل تأدُّب.

* * *

جلس دافيد ومنيرة في مطعم الفندق المتواضع يشربان الشاي.

"إنك لا تحب والدي، ووالدي لا يحبكَ." قالت منيرة.

حاول دافيد أن يبتسم. "وما الذي يدعوكِ إلى الاعتقاد بذلك؟"

"إنني أراقبكما."

"في جامعة هارفارد" قال دافيد بحذر، "كنت قد عرفت والدتك بشكل أفضل. والآن ها هو والدك الذي يحميك."

نظرت إليه نظرة فاحصة. "وهل يحمي أمي أيضاً؟"

كان في غموض سؤال منيرة، الذي يمكن سماعه على أساس أنه ينطوي على إشارة إلى علاقة ما، بين هناء وبينه، ما جعل دافيد يزداد تردداً. فلعلها لا تعني شيئاً من هذا القبيل، ولعله بالغ في تقدير درجة الإدراك الحسي لفتاة مراهقة. أو هل تكون هذه الفتاة بعض الأحيان بمثل حدة تفكير أمها. "بالطبع إنه قلِق عليها،" أجابها دافيد. "نحن جميعنا قلقون. وهذا أحياناً يؤثر علينا بطرق مختلفة."

فكرت منيرة في جوابه، فيما أهدابها الطويلة تحجب نصف إطراقتها نحو الطاولة. "لماذا يريدني والدي أن أراك؟"

"أنا أردت ذلك أيضاً. هل يزعجك هذا؟"

ترددت منيرة قليلاً ثم هزت برأسها. سألها دافيد بلطف، "كيف تسير الأمور معك في غياب والدتك عنكِ؟"

كانت نظرة منيرة ما زالت مطرقة، هزت رأسها مرة ثانية، لكن ببطء أكثر بكثير، وكانت إشارة أكثر بلاغة من الكلام. "كيف تمضين وقتك يا منيرة؟"

"لقد أرسلوا لي كتباً لأدرس فيها من مدرستي في رام الله. هناك دروس وفروض. وعندما أنتهي من دروسي يطلب مني والدي أن أتعلم القرآن." صار صوت منيرة أكثر خفوتاً. "ما عدا الأوقات التي أرى فيها أمي، فهذا هو كل شيء."

الشعور بالوحدة القاسية التي كانت تبدو عليها، وأخيلته عن هذه الطفلة في غرفتها الخاصة، حيث مرور الزمن البطيء هو عقوبة بحدٍّ ذاتها، أثار أعمق عواطف الشفقة في قلب دافيد، بل إنه استحضر صورة والدتها. "عندما تقومين بزيارتها، كيف تجدينها؟"

أغمضت منيرة عينيها. "أنا لا أستطيع في الحقيقة أن أتحدث معها ـ فوالدي يبقى

دائماً بقربنا. ثم إنهم لا يسمحون لي حتى بملامستها." صار صوت الفتاة أبحّ. "تبدو لي أحياناً وكأنها قد ماتت فعلاً."

للحظة عابرة، تذكر دافيد والده في أيام مرضه الأخيرة: حيث كان فيليب وولف منسحباً إلى داخل نفسه. هيكلٌ ليس فيه قدرةٌ على النطق، أما موته فأمر مؤكد، وأما السؤال فهو فقط في أي يوم، أو في أي ساعة، يكون ذلك. استطاع دافيد حتى أن يستعيد ذكرياته عن إحدى زياراته التي كان فيها يعود أباه، يوم جعله شعوره بالعجز التام يتمنى لساعةِ موت أبيه أن تقترب.

"لن أدع والدتك تموت." هكذا وعد منيرة.

* * *

بعد مرور أسبوعين، عقدت مارني شارب مؤتمراً صحفياً.

شاهدها دافيد على الشاشة من مكتبه. "إن وزارة العدل،" بدأت كلامها، "قد قررت أن تطلب عقوبة الإعدام في قضية محاكمة هناء عارف..."

وفي أصيل ذلك اليوم، وبناء على دعوة من شارب، عاد دافيد إلى مكتبها. "أحسب أنك ستسألينني كيف ستستطيع هناء أن تخادع الموت."

"لِمَ لا نبدأ بداية متواضعة." أجابت شارب. "ببحث قضية زوجها."

ضحك دافيد عالياً من فرط دهشته. "هذا هو ما تفكر به أنتَ بالتأكيد،" تابعت كلامها بهدوء. "مَن سواه يستطيع تدبير مكيدة لها - هل هم خدم الفندق؟ إننا متفقان على شيء واحد يا دافيد. هناك إمكانية كبيرة أن يكون صائب متورطاً - فإذا كان ذلك صحيحاً، لِمَ لا ندع زوجها يأخذ مكانها؟"

"عن طريق جعل ابنتها تصبح يتيمة؟ تريدين من هناء أن تبادل حياة صائب، بحياة تمضيها هي في السجن المؤبد. ثم لا يبقى سوى سؤال واحد، من تدفن منيرة من والديها أولاً، ومن تدفنه أخيراً." هزَّ دافيد رأسه. "حتى بمجرد افتراضك أن هناء مذنبة، فإنك تفهمين علاقاتهم العائلية فهماً فاسداً."

لم تبتسم شارب. "أريد الوصول إلى الذي خطط هذا الأمر، كائناً من يكون. على شخص ما، أن يخبرنا بذلك. وخالد قد يكون الفرصة الوحيدة الباقية لموكلتك كي تحافظ على حياتها. بعد ذلك، سيكون هو بدوره قادراً على اتخاذ القرار الخاص به."

"أكرر لك من جديد يا مارني: إن هناء لا تعرف شيئاً. فحتى وإن كان صائب متورطاً فإنها لن تستطيع مساعدتك."

تراجعت شارب في مقعدها، وكأنها تشعر بالإحباط لوجود هذه الهوَّة بينها وبينه. ثم مدت يدها إلى مكتبها واستخرجت وثيقة مطبوعة مؤلفة من بضع صفحات. "اقرأ هذه،" قالت له.

"ما هي؟"

"إنه تقرير عن اختبار كشف الكذب الذي أجريناه على إبراهيم جعفر." قالت له عبر المكتب. "وكما تعرف فإنني لا أضع ثقة كبيرة في هذه الاختبارات. لكن المستجوِب الذي استخدمناه هو بكفاءة المستجوِبين الذين تستخدمهم الأف. بي. آي. نفسها. وقد قام بإعطاء جعفر علامات تقع جميعها في الدرجة الأولى. ولقد قمت بمراقبة هذا الاختبار بنفسي. فإما أن يكون جعفر كاذباً موهوباً، وإما أن يصدق اعتقادي الثابت بأنه شاب معذَّب ومشوّش، لم يتوقع أن يعيش ليخضع إلى اختبارٍ لكشف الكذب، لذلك فإنه اختار قول الحقيقة."

قرأ دافيد التقرير أولاً قراءة سطحية سريعة ثم أعاد قراءة بعض المقاطع المنتقاة، بعناية أكثر. واعتبر أن من حسن الحظ أن تكون شارب لا تستطيع استعماله كدليل. لكن دافيد عرف أنها تشعر بما كان سيشعر به هو لو كان في مكانها: أن الشخص الذي يتهم هناء إنما يقول الحقيقة.

"تكلم مع موكلتك من جديد." قالت شارب.

الفصل

19

"إذن إنهم يرغبون في قتلي." قالت هناء بصوت خفيض. "كيف يقومون بتنفيذ هذا العمل؟ إن بي رغبة في معرفة ذلك."

ماذا تراها تريد منه بهذا السؤال؟ تعجب دافيد. لكنه قرَّر أن يكون جامد العواطف إلى القدر الذي يستطيعه. "ثمة غرفة للإعدام في سان كوانتين. إنهم يقيدون المحكوم إلى سرير ثم يدخلون إبرتي حقنتين إلى عروق ذراعه الأيسر استعداداً لحقنه بمحلول كلوريد البوتاسيوم. هذا هو كل ما في الأمر."

"إنها طريقة سريرية جداً." قالت هناء "طريقة نظيفة تعطي نتيجة التفجير نفسها." صمتت قليلاً ثم سألت، "أفترض أن هناك حضوراً."

"نعم. يحضر العملية مسؤولو الولاية. كما أن هناك مقاعد لأفراد من أهل الضحية، لو شاؤوا الحضور. وأماكن أخرى لعائلة السجين."

"لن أدع منيرة وصائب يشاهدان ذلك. أمَّا في ما يختص بالآخرين..." وهنا اختفى صوتها، ثم نظرت إلى دافيد. "لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن حديثاً مثل هذا يمكن أن يدور بيننا."

صبر دافيد مدة حتى آنس من نفسه قدرة على معاودة الكلام "شارب تريد عقد صفقة معك. حياتك في مقابل معلومات تدلين بها، تتضمن أسماء الضالعين الآخرين، في مقتل بن آرون. ربما صائب."

"لماذا لا يتوقعون مني أن أتهم بعض الأنبياء أنفسهم أيضاً؟ سألته هناء بلهجة ساخرة. ثم لوت رأسها تراقب دافيد، وتقول، "ماذا تعتقد شارب أنني يجب أن أعرف عن صائب؟"

"ماذا تعرفين يا هناء؟"

التقت عيونهما، فتحولت هناء بأنظارها عنه. "كنتُ قد فكرتُ في هذا الأمر." قالت بهدوء. "لساعاتٍ طويلة. من الذي فعل بي كلَّ هذا، إنني محتارة في أمري."

"هل هو صائب؟"

"إذن لقد خالجتكَ هذه الفكرة." أغلقت هناء عينيها. "إنه يستطيع أن يفعل ذلك. أعرف هذا الأمر. لكنه كان يملك وسائل أسهل من ذلك لإخفاء دوره، ثم إنني في نهاية الأمر، زوجته. فلمَ يفعل بي ذلك؟"

"الجواب عندكِ."

بعد لحظة، فتحت عينيها. "هل تريدني أن أختلق الأكاذيب؟ من أجل أن أتسبب لصائب، أو لسواه، بمثل ما أصابني؟" صار صوتها مليئاً بالإذعان والاستسلام. "إنني بريئة يا دافيد. وليس لدي مَن أوقِع به وأخونه."

"وليس لديكِ شيء تقولينه لي؟ إن شارب تبحث في تاريخك، في عباراتك التي تحرِّض على ارتكاب العنف. كما أنها تبحث في إمكانية أن يفعل صائب ذلك."

"ثمة فرق بيننا يا دافيد. كما أن هنالك فرقاً بين ما كنتُه أنا أوَّل ما عرفتني، وبين ما صرتُ إليه الآن. ففي سنوات قليلة فقط، وُلد في إسرائيل ثلاثة أجيال من اليهود الجدد الذين يتكلمون اللغة العبرية مثل آبائهم وأجدادهم. وهذا هو كل ما يعرفونه. تماماً مثلما كان أهلي وأجدادي لا يعرفون سوى الجليل. ماذا نفعل بهم الآن؟ هل نجتثُّهم عن بكرة أبيهم، أم نحوِّلهم بكل بساطة إلى لاجئين مثلنا؟ خاصة وأن أوطان آبائهم الحقيقية ربما لن يسمحوا لهم بالعودة إليها. وأين تراها ستنتهي بنا هذه الحكاية؟" هزَّت هناء رأسها في تعبير عن الأسى. "كنت أتمنى لو لم يكن هناك من إسرائيل. لكن إذا لم أسائل نفسي هذه الأسئلة الآن، فأيُّ نوعٍ من الناس سوف أصبح؟"

"وماذا عن صائب؟"

"لقد حدَّدوا مصير صائب عندما كان في الرابعة عشرة من عمره. لقد فقد جميع من له. أمَّا أنا فلم أفقد سوى عمةٍ فحسب. انطلاقاً من ذلك، أستطيع أن أتخيله مرشحاً لكي يكون انتحارياً. إن جيل الصغار عندنا قد شهد الكثير، والأمل الذي يشعرون به شحيحٌ جداً. أمَّا أن نستغلَّ هذا الجيل؟ فهي عملية إفلاسٍ أخلاقي."

"هل هذا ما يعتقده صائب أيضاً؟"

طوت هناء ذراعيها. "لقد قلت لك يا دافيد. إذا كان صائب يخالط الذين تسمونهم بالإرهابيين. فإن هذا أمرٌ أجهله. ومثلما قلتُ لجماعة الأف.بي.آي. عندكم، إنني لا أعرف شيئاً عن إبراهيم جعفر. عداك عن عدم معرفتي بالسبب الذي يدعوه لكي يكذب."

"أنا لست متأكداً أبداً أنه يكذب." سكت دافيد قليلاً. "لقد أخضعوه لاختبار كشف الكذب يا هناء، وقد اجتاز هذا الاختبار."

كانت ردَّة فعلها لا تكاد تكون ملموسة، هزة صغيرة فقط من كتفيها، الأمر الذي جعلها تبدو أكثر صغراً. "هكذا إذن."

"إن شارب تصدِّقه، كما أنها ترفض نظريتي القائلة أنك قد وقعتِ ضحية تهمة ملفقة، جاءت بها مكيدة مدبرة ضدك. وهي ترى في نظريتي هذه مجرد ذريعة لي لكي أتطفَّل على أجهزة استخباراتنا، وعلى استخبارات الحكومة الإسرائيلية. وهذا هو سبب شعورها براحة البال وهي تطلب لك عقوبة الإعدام."

خفضت هناء رأسها دون أن تنبس بكلمة.

هذا هو الوقت الملائم لوضعها أمام التحدي، ظن دافيد. "هناك شيء آخر تستطيعين فعله."

"وماذا عساه يكون؟"

"أن تخضعي لاختبارٍ لكشف الكذب. تماماً مثلما فعل جعفر." بقيت ساكتة مدة من الوقت.

"وما هي المجازفات؟"

"هنالك مجازفة واحدة. وهي أن تفشلي في اجتياز الاختبار."

عندما أبطأت عليه في الإجابة، شعر دافيد بالتوتر يمزِّق صدره. "يجب أن يجري الاختبار هنا،" تابع كلامه. "بحيث تعلم شارب أننا أخضعناكِ لهذا الاختبار. وسوف تقوم هي بتسريب ذلك إلى الصحافة. إذا لم يكن باستطاعتي القول إنك قد اجتزتِ الاختبار بنجاح..."

كانت هناء لا تزال مطرقة. وبهدوء لم يشعر به، أكمل دافيد قائلاً. "لكن هذا قد يجعلها تهدِّىء اندفاعتها قليلاً. كما أنني قد أستعمل النتيجة مع القاضي تايلور لتبرير مطالبتي بما يتوافر لدى إسرائيل من معلومات، كما من أجل إعلام الصحافة أن تايلور تحاكم امرأة بريئة."

لقد سكت دافيد عن البقية ـ بقية ما قد ينتج عن عدم اجتياز هناء للاختبار. ذلك أن استعمالاً آخر لهذا الاختبار، يكون بإجبار الموكل المذنب على مواجهة الحقيقة. ومع أن هذا كان آخر ما يتمناه دافيد، فإن جواب هناء على هذا الطلب كان يهمه كثيراً. ومثلما كان حال دافيد نفسه، فإن هناء كانت تكاد لا تستطيع التنفس.

"في كلية الحقوق،" أجابته أخيراً، "كانوا قد علَّمونا أن هذه الاختبارات ليست أكثر صدقاً من أعمال الشعوذة والتنجيم إلَّا بقليل. فالمذنب قد يجتاز هذا الامتحان مثلما قد يفشل البريء في اجتيازه. وعند ذلك لن تكون هذه الحقيقة مهمة في نظر هذه النائب العام."

"إذن إنك لن تخضعي لهذا الاختبار."

"لا، يا دافيد، بل سأخضع." رفعت أبصارها إليه وعيناها مغرورقتان بالدموع. "سأقبل بهذا الأمر لأنه مهم بالنسبة إليك أنت."

* * *

لم يخبرها دافيد بأيٍّ شيء عن كيفية إجراء هذا الاختبار، ولا عمًّا سيقوم به المختبِر من عملٍ لاستثارة مخاوفها. وأن الخوف هو العنصر الذي يجعل هذا الاختبار مفيداً. لقد اعتبر ذلك شكلاً من أشكال القسوة في نفسه، قسوة عائدة في أقلِّها إلى كونه محامياً، بينما يعود أكثرها إلى رغبته كرجل في معرفة ما إذا كانت هناء تخدعه. أما أن يكون هو نفسه يخدع هناء في هذا، فقد كان أمراً مفهوماً بالنسبة إليه.

لقد التقيا مع خبير كشف الكذب وهو عميل سابق ممتلىء الجسم من عملاء الأف.بي.آي. وله سلوك يشبه سلوك الأعمام. التقيا معه في غرفة، وإن تكن أوسع من الغرفة التي تلتقي فيها دافيد، إلا أنها كانت تشبهها بياضاً ناصعاً وخلوّاً من الأثاث. جلس المختبر جين ماير قبالتهما فيما جهازه يقف بينهما وبينه على الطاولة. بدأ معها محاوِلاً إدخالها في حديث يبدو عرَضياً عابراً، بينما كان هو يقوم بتقييم ردود أفعالها، التي بدت روتينية ولا مبالية. سألها، "هل نلتِ قسطاً كافياً من النوم يا سيدة عارف؟"

"بالنظر للظروف المتوفرة، الجواب نعم."

"إذن دعيني أشرح لك طريقة عمل هذا الاختبار. عندما أوجه إليك سؤالاً، ستقوم ثلاث إبرٍ بتسجيل ردة فعلك عليه، بينما تجري لفافةٌ من الورق في داخل الماكينة، بطريقة تشبه طريقة الأطباء في قياس نبضات قلبنا. وهكذا لا تكون هذه الآلة هي التي تكشف الكذب، بل تكونين أنتِ من يقوم بذلك."

"وكيف يتمُّ هذا الأمر؟"

تكلمت هناء بسيماء من الملل، كأنما لا تملك مسابر تحسُّسٍ في معصميها وإبهامي يديها وتحت سترة السجين التي ترتديها، في مكان قريب من قلبها. "عندما نكذب،" تابع ماير، فإن أجسادنا تتفاعل بطرقٍ تشي بنا. مثل حدوث تغيرات في حركة التنفس، ومعدل ضربات القلب، وحتى درجة تعرُّق أجسادنا. أمًّا أنت فلا ترغبين في أن تكذبي. هل هذا صحيح؟"

"هذا يتوقف على بعض الأمور،" أجابته هناء. "لكنني عادة لا أكذب."

نظر ماير نحو دافيد. فدافيد وحده كان يعلم، ومنذ مدة طويلة، أن ما بدا عليها من برودة وعدم اكتراث، قد يعني غضباً تكبته هناء في جهدٍ جهيد. "إذن دعينا نجرِّب أمراً."

أخرج ماير مجموعة من ورق الشدَّة من جيبه ثم بسط الأوراق فوق الطاولة. "اختاري ورقة."

تناولت هناء ورقة حسبما طُلب منها. وعندما فعلت ذلك، لمح دافيد صورة ملكة البستوني في يدها. "الآن سوف أذكر لك أسماء جميع الأوراق في مجموعة الورق الكاملة،" قال لها ماير. 'من ورقة الأسِّ حتى آخر ورقة. وسوف أسألك في كل مرة عمًا إذا كانت هذه هي الورقة الموجودة بين يديك. أما المطلوب منك، فهو الإجابة بالنفي على كل سؤال، حتى وإن كان الجواب الصحيح هو بالإيجاب. هل فهمتِ؟"

"سأقول الحقيقة كاملة سوى في إجابة واحدة أكذب عليك فيها. وعند ذلك سترى كم أنا بارعة في الكذب."

كان تظاهر ماير بالدعابة قد بدأ بالتبخُّر. أدار ماكينته وقال لها باقتضاب، "هذه هي الفكرة يا سيدة عارف. هل الورقة التي في يديك هي ورقة الأسِّ؟"

بدأت لفافة الورق بالدوران. "كلا،" أجابته هناء.

"هل هي ورقة الملك؟"

"كلا،"

"هل هي ورقة الملكة؟"

سكتت هناء قليلاً، "كلا."

لم تغيِّر من تعبيرها، لا في هذه الإجابة، ولا في الإجابة التي تلتها. تابع ماير مشاهدة الرسم البياني بدون اكتراث.

"هل اسمك هناء عارف؟" سألها،

"نعم."

"هل لك ابنة تدعى منيرة؟"

"نعم. وإنني أريد أن أعود إليها يوماً. إذن لماذا لا تسألني عما أحبُّ أن أفعله."

تضيقت حدقتا ماير. "هل تذكرين اجتماعاً لك مع رجل يدعى إياد حسن؟"

"كلا."

"في الأشهر الستة الأخيرة، هل تحدثتِ عبر الهاتف مع إياد حسن؟"

"كلا." انحنت هناء إلى الأمام. "دعني أقترح عليك سؤالاً يا سيد ماير: هل أنتِ متورطة في مؤامرة اغتيال بن آرون؟"

شعر دافيد بشدَّة التوتر. حدَّق بها ماير، ثم أعاد طرح السؤال عليها.

"كلا." أجابت هناء بهدوء. "ولكن من أجل اكتمال الإجابة، لعله كان عليك أن تسألني أيضاً عما إذا كنت عارفة أن هناك مؤامرة معدَّة لقتله."

عندما نظر ماير نحوه، هزَّ دافيد رأسه. لقد تطلَّب الأمر منه كلَّ ما عنده من انضباط حتى يمنع نفسه من مراقبة الإبرة. "قبل وفاة بن آرون،" سأل ماير هناء. "هل كان لديك معرفة أن ثمة مؤامرة قد أُعدت لاغتياله؟"

"لا،" قالتها بقلَّة الاكتراث ذاتها. اعتدلت هناء في جلستها. "الآن سأجيبك على بقية الأسئلة."

كانت الأسئلة كثيرة ومتشعبة ـ هل قامت هناء بطباعة رقم هاتفها على قصاصة من الورق؛ هل تلقَّت مكالمة من هاتف خلوي في الليلة التي سبقت مقتل بن آرون؛ هل سبق لها مرة أن تكلمت مع إبراهيم جعفر؛ هل سبق لها أن أجرت أية مكالمة هاتفية في الفترة الواقعة بين ابتداء خطاب بن آرون وبين انفجار موكبه؛ ثم انحدر النسق إلى روتين شعر دافيد معه بما يشبه التنويم المغناطيسي. كان ثمة صوتان. صوت يسأل أسئلة آمرة، والثاني يجيب بكلمة "لا"؛ بالإضافة إلى صرير ثلاث إبرٍ على الورق. وعندما شاهد دافيد لفافة الورق تكفُّ عن الدوران، كان العرق يتصبَّب من جبينه.

أمَّا هناء فلم تنظر إليه، بل تصرفت كأنها لا تشعر بوجوده.

عندما فرغ ماير من عمله، بقي صامتاً لبرهة من الزمن وهو يدرس لفافة الورق. "كيف تعتقدين أن أداءك قد كان؟" وجه سؤاله إلى هناء.

هزت هناء كتفيها. "أعتقد أن ذلك متوقف على جودة الماكينة أو على جودتك أنت."

رفع ماير رأسه عن الورقة. "هل تستطيعين أن تجدي سبباً لعدم اجتيازك الاختبار؟"

"آسفة، لأن هذا السؤال لا أستطيع الإجابة عليه بنعم أم لا"

ابتسم ماير ببطء. "لقد اجتزت الاختبار بنجاح يا سيدة عارف. إنك لم ترتجفي إلا مع ملكة البستوني."

تنفس دافيد الصعداء. استدارت هناء نحوه لتتكلم بهدوء يشي بعواطف داخلية. "وهكذا، تكون قد تمت الإجابة عن أسئلتك يا دافيد. باستثناء سؤال واحد بالطبع، وهو ما إذا كنت أملك ضميراً أم لا. والماكينة أعجز من أن تسعفك في أمر التحقق من صحة الجواب على هذا السؤال."

الفصل

20

كانت حدقتا عينيها متضيقتين من شدة التركيز عندما شرعت مارني شارب بقراءة التقرير المتعلق باختبار كشف الكذب الذي أجري لهناء عارف. وعندما انتهت من قراءته، كانت رنة صوتها تعبة. "بعض النساء يغرقن أولادهن في مغطس الحمَّام ثم يستطعن بعد ذلك اجتياز هذا الاختبار. وهذه المرأة قد تكون مضطربة العقل أيضاً."

"مقارنة بمن؟" سألها دافيد. "هل مقارنة بذلك المضطرب العقل، الذي هو عبارة عن قنبلة بشرية، الذي اخترتِ أن تصدّقيه؟"

"جعفر أراد أن يموت. وروايته منطقية. وهناك أدلة تدعم روايته، مثلما تورِّط هناء عارف." صارت لهجتها ساخرة. "لكن هذا الاختبار يوحي بأنكَ قد تريد دعوتها إلى أداء الشهادة في صالح نفسها. فقد يكون لها سحر نفَّاذ على هيئة المحلفين مثلما كان لها من أثرٍ على ماكينة مكشاف الكذب. كما أن سِحرها عليك بادٍ أيضاً".

"والمعنى؟"

"أفضَلُ أدائك يكون عندما لا تكون مؤمناً". قالت له بهدوء. "فعندما تكون اللعبة بالنسبة إليك مبارزة شطرنجية، فإن هناء عارف تذهب باتزانك."

شعر دافيد أنه كالملدوغ، لكنه لجم غضبه. "هذا النوع من التعامل لن يجدينا نفعاً. إنني أستطيع بالسهولة نفسها أن أقول إنكِ نائب عام تحركك طموحات كبيرة. وأنت الآن أمام قضية لا تملكين أن تخسريها، كما أنك واقعة تحت ضغط كبير بحيث صار تجريم شخص بريء أهون عليك من عدم تجريم أحد."

"إنك سوف تقول هذا الكلام يوماً. هذا ما أتوقعه منك، عاجلاً أم آجلاً."

"سأقوله فقط إذا أجبرتني على قوله"، أجابها دافيد. "منذ اليوم الأول الذي التحقتُ فيه بمكتبك، كان سلَفُك الورِع، بيل كاين قد شدّد عليَّ أن من واجبي المطلق أن أتأكد من

الحقيقة، وأن أقوم بعملي بعدالة ونزاهة، وألّا أترك شيئاً للصدف، وألّا أسوق الاتهامات ضد من لا أعتقد جازماً أنه مذنب. هل هذه المعايير لا تزال هي ذاتها عندك يا مارني؟ أم أن كلمة 'شِبهَ متأكدٍ'، صارت تكفي عندما يكون رئيس وزراء إسرائيل هو الضحية؟"

ارتشفت شارب رشفة من فنجان الشاي، محدِّقة في دافيد من فوق إطار نظارتيها. "ما هو المقصود بكلامك؟"

"أقصد أن كلينا قد نكون على صواب. فهناء تنطق بالحقيقة، وكذلك جعفر. أمًا الفرق بينهما فهو أن هناء تعرف الحقيقة، أمًا جعفر فيعرف فقط ما قاله له حسن."

هزَّت شارب برأسها. "هذا لا يتفق مع المنطق. لماذا يكذب حسن على شخص مقبلٍ على قتل نفسه؟"

هزَّ دافيد كتفيه، "ولماذا لم تنفجر دراجة جعفر؟"

"إنها مجرد صدفة،" أجابت شارب بلهجة فاصلة. "إن نظريتكَ تُراكم الصدفة فوق اللاممكن، لنستنتج أن عارف وقعت ضحية تهمة مفبركة، ودون سبب، من رجل يستعد للموت. أعطني على الأقل دافعاً إنسانياً وجيهاً واحداً يعطي مصداقيةً لمثل هذه الفرضية."

وهكذا، وبتسديدٍ محكم، استطاعت شارب تسليط الضوء على عيوب نظرية دافيد. "لا أستطيع في الوقت الحاضر،" قال لها معترفاً.

كان الشك يمازج ابتسامة شارب وهي تقول: "وبالطبع، فإن السيدة عارف لا تعرف شيئاً."

"لا، ولا أنتِ تعرفين، حسب علمي. فأنتِ تلاحقين هناء دون أن يكون لديك أيُّ علم أو دليل كيف تم تنظيم مؤامرة الاغتيال ومَن الذي قام بها. ألا يجب أن تقلقي قليلاً بسببٍ ذلك؟"

للحظة بدت شارب وكأنها تتأمل بقعة من ضوء شمس الصباح التي انعكست على زاوية من ظهر مكتبها. "إن تحقيقاتنا لمَّا تُختتم بعد. وفي الوقت نفسه، ماذا تريدني أن أفعل؟ هل أُصدِر بيان اعتذارٍ عمومي، وأعيد ترحيل عارف إلى رام الله؟"

"ليس قبل أن تخضعيها لاختبار كشف كذبٍ تحت إشرافك." قال دافيد بهدوء. "جرِّبي أن تفعلي ذلك يا مارني، إن هناء مستعدة حتى للمثول أمام المختبِر نفسه الذي استعملتِ خدماته لاختبار جعفر."

رفعت شارب حاجبيها في حركة تخالطها الدهشة وقلة الثقة. "لديك شروط بالطبع."

"شرطٌ واحدٌ فقط: إذا اجتازت هناء الاختبار تقومين بإسقاط ادعاءك ضدها. وإذا وقعتِ على أدلة جديدة، يكون بإمكانك الادعاء عليها مجدداً، في أيِّ وقت."

هزّت شارب رأسها توكيداً على كلامها. "هل أُطلق سراحها لمجرد قدرتها على النجاح في اجتياز اختبار كشف الكذب؟ هذا غير ممكن. وإنني لن أوافق على إخضاعها لهذا الاختبار بصرف النظر عن كون اقتراحك عديم الجدوى." أشارت بإصبعها إلى التقرير الموجود أمامها. "لأي سبب من الأسباب ـ التي قد يكون بينها: تدريب مسبق مكثّف، أو قلبٌ شديد القساوة ـ فإننا الآن أصبحنا على معرفة من أمرنا أن عارف تستطيع المرور في اختبار كشف الكذب. فإذا كانت قد اجتازت اختبارك، فإنني الآن أستطيع أن أتخيَّل كيفية أدائك على شاشة التلفزيون في برنامج 'توداي'".

فجأة طغى القنوط على صبر دافيد. "إن في هذا ما يتجاوز رواية كافكا." قال بغضب. "تقولين لي إن جعفر قد اجتاز اختبار كشف الكذب، ثم تقولين إن اجتياز هناء لمثله لا يعني لكِ شيئاً. وبهذا نكون الآن على السير الناقل في طريقنا إلى محاكمة امرأة لستِ متأكدة من أنها مذنبة." صار كلامه متقطعاً. "قد تنجحين في إدانتها، وقد تنجحين حتى في استصدار حكم بالإعدام بحقها. ولكن استناداً إلى الدلائل المتوفرة حالياً، هل ستحملك أعصابك على الظهور بين الناس بعد أن يكون قد تم تنفيذ الحكم بها؟"

صارت مقلتا شارب غائمتين كأنهما تنظران في زجاج محطَّم. "يبدو أننا قد وصلنا إلى طريق مسدود. واستناداً إلى الدليل المتوفر، فإنك ستحتاج إلى أكثر من اجتياز موكلتك لاختبار كشف الكذب، وإلقاء بعض الكلام البلاغي، حتى تتمكن من أن تقضَّ مضجعي في المنام. قلْ لموكلتك أن تُنعش ذاكرتها أكثر من ذلك."

* * *

في ذاك الأصيل بدأ دافيد، في غرفة داخلية قليلة التهوية، جَهَّزتها الأف.بي.آي. بمراجعة صناديق من الوثائق التي وفرتها له سلطة الادعاء العام.

كانت الصناديق محشوّة بأوراق كثيرة لا قيمة لها، مما يعكس رغبة الحكومة في ألَّا تكون المعلومات دقيقة وحصرية، أو ربما لمجرد إجباره على هدر ساعات طويلة من وقته، في الوقت الذي تتم فيه الاستجابة لأوامر تايلور، لكن أيَّ مفاتيح تؤدي إلى الكشف عن مؤامرة أوسع، لم تكن قطُّ متوفرة. وقد كان ثمة كمٌّ هائلٌ من أقوال الشهود، التي مع أنها تدقق في التفاصيل المرعبة لحادث الاغتيال، إلا أنها مع ذلك لم تضف شيئاً كثيراً جديداً إلى ما يعرفه دافيد. أمَّا تقرير الطبيب الشرعي، فقد كان يبعث على تقزز الأمعاء لكنه لا ينير القضية. وعندما أشار دافيد إلى ذلك في حديثه مع شارب، أجابته، وهذا إنتاج سوف يتعاظم ويستمر كل يوم." لقد طلبتَ الوصول إلى معلومات موسَّعة. ولا نستطيع أن نعطيك كل شيء دفعة واحدة. خصوصاً استناداً إلى خطة دفاعك التي وضعت الإسرائيليين والفلسطينيين في مزيج واحد."

ولمدة بضعة أيام، بقي دافيد سجيناً، يأكل أطعمة سريعة جاهزة، ويغربل حثالة المعلومات حتى ساعة متأخرة من الليل، ليذهب إلى بيته فيستحمَّ ويرتاح قليلاً قبل أن يعود إلى يومٍ جديد من الأسر. وعندما كانت تهيأ له الظروف لتناول وجبة حقيقية مع آنجل، أو سواه من الأصدقاء القلائل الذين استطاع الاحتفاظ بهم بعد قبوله الدفاع عن هناء، وبعد انفصاله عن كارول، فإنه كان يشعر بنفسه وكأنه سنجابٌ يبهره الضوء بعد خروجه من ظلمة جحره التي امتدت شتاء طويلاً.

بعد واحدةٍ من مثل هذه الوجبات، جاءه اتصال من شارب عبر هاتفه الخلوي. "لقد حصلنا للتوِّ على شيء يهمك الاطِّلاع عليه،" قالت له. "إنني لا أرى أنه يساعد موكلتك. ولكن إذا أخذنا في الاعتبار ما لديك من طاقة على الخيال، فإنني متأكدة من أنك سوف تخرج منه بشيء ما."

وجد دافيد أن الوثيقة كانت عبارة عن تقرير أولي أعدته الأف‌بي.آي. عن نتيجة تحقيقاتها في الظروف المحيطة بمقتل بن آرون. كان الأسلوب الإنشائي للتقرير مألوفاً لدى دافيد: فهو مزيج من التعابير البيروقراطية، والجمل المعقدة الصياغة، ومبالغة في استعمال صيغة المجهول. حلَّ دافيد ربطة عنقه ماراً بنظره على سطور التقرير مروراً سريعاً لمدة دقائق قبل أن يستوقفه المقطع التالي:

> *أما فيما يتعلق ببصائب خالد فليس ثمة دليل على أي علاقة له بالأحداث التي هي موضوع هذا التحقيق الجاري، مع أنه قد ثبتت عنه عبارات تفيد أنه يحبّذ الأعمال العنيفة ضد إسرائيل.*

بعد ذلك بصفحتين، وجد دافيد جردة بتحقيقات الأف‌بي.آي. حول خلفيات الاغتيال. وقد كانت عبارة عن قائمة بالإحباطات، رغم بلاغة صياغتها:

> *تبدو العملية على درجة عالية من الكفاءة والاحتراف. المتفجرات المستخدمة مسروقة، ربما من قاعدة عسكرية. مصدر البزَّات العسكرية بقي مجهولاً حتى الآن، مع أنه يمكن الحصول عليها بواسطة الإنترنت. الدراجتان تم شراؤهما بواسطة أشخاص مجهولين، يبدو أنهم من أصول شرق أوسطية غير محددة. الحاوية لم تحمل بصمات أيٍّ مشبوه سوى تلك التي تعود إلى حسن وجعفر، ومثلها في ذلك الدراجة الباقية. رخصتا سوق حسن وجعفر مزورتان بطريقة عالية الكفاءة. بطاقتا ائتمانهما تم الحصول عليهما تحت أسماء مستعارة، وقد أرسلتا إلى صندوقي بريد. لم يُعرف عن دخول أيٍّ أشخاص آخرين مشبوهين إلى البلاد قبل التورط في هذا الجرم.*
>
> *إن غياب خيوط الأدلة يشير إلى مؤامرة محكمة التخطيط تم "تحريك خيوطها" من قبل منفذين ذوي كفاءة عالية لم يجر بعد تحديد أصولهم، ولا معرفة عددهم.*

توقف دافيد قليلاً ليستذكر تخمينات بروس مارتل، ثم تابع القراءة:

حتى الوقت الحاضر، لم تتبين أية أدلة جديدة تربط هناء عارف بالأحداث الجاري فيها التحقيق. المكالمات الهاتفية الجارية من الهواتف الخلوية التي استعملها حسن كانت توجه إلى هواتف خلوية أخرى جرى شراؤها نقداً بواسطة رجال يحملون ملامح ذات أصل شرق أوسطي.

وهذه الهواتف لم يجرِ العثور عليها ولا تتبُّع مكالماتها إلى أي شخص متلقٍ. كذلك فإن السيدة عارف التي كانت قد خالطت أشخاصاً يُعتقد أنهم أعضاء في كتيبة شهداء الأقصى، وفي حماس، وفي مرة واحدة مع الجهاد الإسلامي. فإنه من غير المعروف ما إذا كانت تنتمي إلى أيٍّ من هذه الجماعات.

وماذا عن كتائب الأقصى نفسها؟ تساءل دافيد. ولدى متابعة القراءة تمكَّن من الوصول إلى إجابة مجزوءة:

منذ حصول الاغتيال، تكبدت كتائب الأقصى خسائر فادحة بسبب العمليات العسكرية الإسرائيلية، بما فيها الإغارة على السيّارات، وتدمير البيوت السكنية الآمنة التي أوى إليها الجناة المزعومون. وبينما نفت عناصر من كتائب الأقصى أن يكون للتنظيم علاقة بعملية الاغتيال، فإن هذا يمكن أن يكون راجعاً إلى الخوف من تلقي المزيد من الضربات التي حصلت حتى الآن. ومع هذا فإن مصادر معلوماتنا تشك في أن يكون لكتائب الأقصى حضور حقيقي في الولايات المتحدة.

لم يجد دافيد أيَّ توقعات عن هوية المتآمرين. لكن الصفحة ما قبل الأخيرة جعلته يعدِّل من جلسته متنبهاً.

عند الساعة الواحدة وعشر دقائق، أمر قائد المفرزة بتغيير الطريق إلى المطار، إلى الشارع الرابع، بدلاً من الشارع العاشر. وقد برر ذلك بقوله، أنه كان تدبيراً احترازياً روتينياً. أرسل أمره عبر هاتف مأمون إلى أعضاء مفرزته، وكذلك إلى قائد الكتيبة الإسرائيلية الأمنية، وإلى رئيس وحدة حماية الشخصيات، الذي نقل بعد ذلك المعلومات ذاتها للعناصر التي هي تحت إمرته.

هذه التعليمات الجديدة اكتملت بكاملها عند الساعة الواحدة والدقيقة السادسة عشرة. وعند الساعة الواحدة والدقيقة الثانية والعشرين، وفقاً لشريط كاميرا أمنية مركَّزة في مخزن، في سوقٍ قرب الشارع العاشر، فإن حسن قد ظهر على الشريط وهو يتلقى مكالمة على هاتفه الخلوي، ثم يسرع بعدها إلى مغادرة موقعه.

إنه من الممكن الاعتقاد أن هذا الاتصال الهاتفي قد نبّه حسن إلى التغيير الحاصل في الطريق الذي كان قد أمر به قائد المفرزة. أكثر من ذلك، فإن رقم الهاتف الذي يظهر على هاتف حسن الخلوي، هو رقم الهاتف المجهول نفسه العائد إلى الشخص الذي كلم حسن في اليومين الأخيرين اللذين سبقا الاغتيال. جعفر يفيد أن خريطة كانت قد تُركت لهما في الحاوية، لكنها دُمرت في الانفجار، كان عليها تحديد بالقلم الحبر لمسار الطريق الأساسي في الشارع العاشر، حسبما كان مقرراً قبل ذلك بثلاثة أيام، كما كان ثمة تحديد لطريقين بديلين.

وإذا أخذنا هذه الحقائق مجتمعة، فإننا نجد أنها تشير إلى أن الطريق الأساسي، وكذلك الطريقين البديلين، كانت قد أوصلت إلى حسن في اختراق أمني مقصود تضمن شخصاً أو أكثر من العارفين بالخطة. إن تحرياتنا تفيد أن هذه المعلومات كانت مقصورة على أعضاء الخدمة السرية المسؤولين عن حماية رئيس الوزراء بن آرون، وكذلك إلى رجال الأمن والبوليس الإسرائيلي المكلفين بمهمة مماثلة.

إن تحقيقاً ابتدائياً يشير إلى تواطؤٍ محتملٍ لعناصر في البوليس السري، أو بوليس سان فرانسيسكو. وقد تضمن هذا التحقيق توجيه أسئلة وافيةً لكل شخص ذي علاقة، كما تضمنت اختبارات كشف كذبٍ، ومراجعة للبيانات المتعلقة بالوضع المادي، وبالهاتف الثابت، وبالهاتف الخلوي، وبطاقات الائتمان، وسواها من الخطوات التحقيقية، بما فيها أشرطة تسجيل، ورصد إلكتروني. ومع ذلك، لم يتم اكتشاف أي حقائق تشير إلى ضلوع أي شخص أو مجموعة أشخاص من المذكورين.

أمَّا الصفحة الأخيرة، وهي موجزة ومحكمة، فقد أخبرت دافيد بما كان يريد أن يعرفه:

بعد يومين من عملية الاغتيال، أمرت الحكومة الإسرائيلية جميع رجالها الأمنيين المعنيين بالعودة إلى إسرائيل. وقد تم تعيين ضابط ارتباط إسرائيلي لتسهيل الاتصالات المتعلقة بهذه الأحداث. وفي هذا الوقت، فإننا بسبب ذلك، غير قادرين على متابعة إمكانية حصول الخرق بواسطة أحد أعضاء الفريق الأمني لرئيس الوزراء الإسرائيلي الذي قد يكون أفشى الترتيبات الأمنية الموضوعة من قبل البوليس السري من أجل حمايته.

* * *

جلس دافيد مع بروس مارتل على مقعد خشبي قرب لعبة أحصنة خشبية في حديقة

الحيوان في سان فرانسيسكو، يراقبان الأطفال وهم يمتطون ظهور الحيوانات الخشبية المحفورة يدوياً، التي كانت تعلو وتهبط في جو من أنغام الآلات الموسيقية. وبينما شمس الصيف تلفح وجنتيه، أطلق مارتل نظره ليرقب مرح الصغار، بينما علت على وجهه ابتسامة فيها مزيج من الفرح والندم. "إن عمر بعض هذه الحيوانات الخشبية،" قال مارتل، "يقارب عمري. وفي المناسبات النادرة التي حضر فيها أحفادي إلى زيارتي فإنهم أحبوا هذه الألعاب، أمّا أنا فما من شك أنني أحبها."

متيقناً أن علاقة مارتل مع ابنته الوحيدة قد جنى عليها الطلاق والتكتُّم، ترك دافيد لصديق والده مجالاً لاسترجاع ذكريات شجية. ثم استدار مارتل نحوه قائلاً، "أنت تريد أن تعرف المزيد عن الإسرائيليين، خاصة عن مسؤوليهم الأمنيين. وإني أعتقد أن لديك المزيد مما يدعوك للتفكير في أن تسريباً قد جرى من جانبهم."

"هذا صحيح."

"حسناً. إن المجموعة المخصصة لحماية بن آرون هي مجموعة حماية خاصة. وأفرادها نخبة منتقاة مؤلفة من عسكريين سابقين في غالبيتهم. ففي إسرائيل، يختلف الوضع عما هو عندنا. فالخدمة العسكرية عندهم مسألة كلية وشاملة وجوهرية لأنها مسألة تتعلق ببقائهم الوطني. لهذا فإن المتقدمين إلى الخدمة العسكرية يكونون من نوعية جيدة جداً. والتحريات هناك دقيقة جداً، لذلك فإنك حينما تنال وظيفة هناك تفقد كل توقُّع لبقاء أيِّ سرٍّ من أسرارك خافياً عن الأمنيين، كما أنك تصبح عرضة للمراقبة الدائمة والخضوع لاختبارات كشف الكذب.

"لا يترك الإسرائيليون شيئاً للصدف: فهم يجعلون قادتهم يسافرون في طائرات خاصة حتى يتمكن رجال حراستهم من حمل مسدساتهم، بينما تكون هذه الطائرات ذاتها مجهزة بأنظمة دفاع ضد الصواريخ." نزع مارتل نظارتيه ومسحهما بمنديل أبيض مجعَّد. "لهذا، فإن احتواء مجموعة حراسة بن آرون لعنصر فاسد هو أمر مستبعد تقريباً. وهو مستبعد الآن أكثر مما كان مستبعداً قبل اغتيال رابين على يد متطرف يهودي."

"لكن هل الأمر مستحيل؟"

"من الصعب أن نتخيل أن مجموعة الحماية الخاصة تأوي خائناً." ثبَّت مارتل نظارتيه على عينيه من جديد وهو يداعب مشبكيهما لفترة وجيزة. "إن ما يبدو منطقياً إلى حدٍّ ما، هو أن يكون عضو حاليٌّ في هذه المجموعة قد خرج عن خطها المستقيم - إن بسبب إغراءات مالية، أو ربما لأسباب دينية أو سياسية جعلته يعتقد أنه يقوم على حماية عدوٍّ لليهود. وحتى في مثل هذه الحالة، فإنني لا أعلم إلى متى يمكن أن يبقى مثل هذا العنصر غير مكشوف."

"هل يمكن أن يكون قد تسرَّب متطرفٌ إلى داخل هذه المجموعة؟"

"هل يمكن أن يكون بعض أعضاء المجموعة على علاقة مع متطرفين؟ هذا أمر ممكن، فكما قلت لك، جميعهم عسكريون قدامى. والجيش الإسرائيلي له قسطه أيضاً من المتورِّعين. أما تجنيد أحدهم؟" عاد مارتل إلى مراقبة الأرجوحة. "هل ما زلت على يقين ثابت أن المسألة ليست عند الأميركان؟"

"لا."

فكَّر مارتل في هذا. "حتى في داخل هذه المجموعة المنتقاة،" قال في النهاية، "يمكن للمرء أن يمايز بين العناصر. فبن آرون لديه ثلاث طبقات من أطر الحماية. النطاق الأول الداخلي وهؤلاء هم تحديداً من أقرب المقربين إليه ولذلك فإنهم الأرفع مرتبة. تليهم في ذلك الحلقة الوسطى، ثم الحلقة الخارجية. فالحلقة الداخلية تتضمن فقط هؤلاء الذين يضع بن آرون - وهو ذو حكمٍ ذكي على أخلاق الأفراد - فيهم ثقة لا تتزعزع، فهم يصبحون أشبه بامتدادٍ لعائلته الخَاصة. أمَّا حينما تبتعد الحلقة قليلاً، فإنك تبدأ مما لا يمكن تخيله وصولاً إلى ما يصعب تصديقه."

"إذن بماذا تنصحني؟"

"إذا كنت تفكر في هذه الفرضية، فإنه من المؤكد أن الإسرائيليين قد فكروا بها أيضاً. ومن أجل هذا، فإنهم كانوا قد سحبوا عناصرهم من الولايات المتحدة، ومن الواضح أنك تفكر في اقتحام شرنقتهم." ابتسم مارتل مصعِّراً وجهه. "آسف أن أقول لك أن شعوري الخاص هو أن فرصتك في مقابلة هؤلاء الناس هي الآن أضعف من احتمالات دخولك إلى الكونغرس. لكن إذا وضع لك الإسرائيليون هؤلاء الرجال في صف واحد لتختار واحداً منهم فإنني شخصياً سأختار أحد شبابهم."

"هذا يعني بكلام آخر أنك تختاره من الحلقة الثالثة الأبعد."

"بالضبط." مستديراً نحو دافيد، ختم مارتل، "لكي تتمكن من قتل بن آرون، عليك أن تكون قريباً منه. أما لكي تخونه، فإن كلَّ ما تحتاج إليه هو معرفتك بأن مسار الطريق قد تغير. ومن هناك يصبح كل ما هو لازم لك، جهاز هاتفٍ خلوي، وعدم اكتراثٍ مطلقٍ بمستقبلك، وطبعاً يجب أن يكون لديك سببٌ يدعوك إلى فِعل ذلك."

الفصل 21

كانت القنصلية الإسرائيلية تشغل قصراً أعيد ترميمه، يقع على مسافة غير بعيدة من منزل كارول. وكانت أسقف القصر العالية مزخرفة بزخارف بقيت من آثار آخر عهد سان فرانسيسكو بالبذخ، في الأيام التي لم يكن فيها ثمة ضرائب اتحادية. لكن المكتب الذي خُصص للسيد آفي هرتز كان لا يكاد يزيد اتساعه عن ارتفاع سقفه، أمّا أثاثه، فقد اقتصر على مكتبٍ، وكرسيين، وهاتف. أشار إلى دافيد بالجلوس على أحد الكرسيين دون جهد منه للمبالغة في الحفاوة، ما أعاد إلى ذهن دافيد توقعات مارتل حين قال: "آفي هرتز قد كرس حياته لشيء وحيد هو بقاء إسرائيل. وما يتصرفه معك تُقرره هذه القناعة، ولا شيء سواها." ومع أن وجهه الفاتن يحمل مسحة من المرح، فإن كلامه الوجيز، واقتصاده في الحركة، ونظرته التي لا تُخرق، كانت توحي بتربية ذاتية صارمة جعلت منه ما يشبه المُعادل البشريّ لمرآةٍ، تمر فيها الأخيلة في اتجاه واحد، دون أن تنعكس من جديد.

بإشارةٍ طفيفةٍ من يده اليسرى، دلَّ هرتز على رسالةٍ منضَّدةٍ على مكتبه. "لقد قرأتُ رسالتك يا سيد وولف. ولو أرجعتها إلى جوهرها، لوجدت أنك تطلب الوصول إلى ما لدى حكومتنا من معلوماتٍ حول هناء عارف، وصائب خالد، وعن قاتلي رئيس وزرائنا. بما في ذلك أيَّ ثغرات محتملة في عملية حمايته، حتى تصل إلى طلب معرفة خلاصة الشهادات المعطاة، تحت القَسَم، لكل عنصرٍ من عناصر حمايته الشخصية، الذين كانوا حاضرين عند حصول الحادث. أم تراني أغفلتُ شيئاً؟"

هذه اللهجة التي لا تلين، التي تكلم بها هرتز، جعلت لائحة الطلبات هذه تبدو منافية للطبيعة حتى في نظر دافيد نفسه. ولأنه قرر أن يكون غامضاً مثل هرتز، فإنه أجاب "ولا شيء سوى ذلك."

"لكنك تفهم الصعوبات بالطبع."

هزَّ دافيد كتفيه. "إنني أفهم صعوبات موكلتي. واستناداً إلى واجباتي نحوها، سوف أحاول أن أراعي واجباتِك."

نصب هرتز أصابع كفيه على شكل خيمة. "إن الصعوبة الأساسية،" قال أخيراً، "هي أنك ترى أن اهتماماتك تقع في الموقع الأول، بينما مصالح إسرائيل تأتي في خدمتها. وحسب مفهومك للبحث عن الحقيقة نصبح نحن ذراعاً من أذرع التحقيق الذي تحتاج أنت إليه، مثلما يصبح كذلك أيضاً كلٌّ من نيابتنا العامة، وجهاز الشين بيت، وحتى جهاز الموساد. فأنت تريدهم جميعاً أن يعملوا لمصلحتك."

"إنني لا أطلب منكم سوى ما يساعد في إيضاح قضية موكلتي،" أجاب دافيد، "وبما يتفق مع الشروط ذاتها التي اشترطتها المحكمة لحماية مصالح حكومة الولايات المتحدة. هناك مكان ما، تتقاطع فيه مصالحنا: فحكومتك أكثر اهتماماً بمؤامرة الاغتيال ذاتها من اهتمامها بالقضية المقامة ضد السيدة عارف. ومن أجل أن أتمكن من الدفاع عنها، فإنني محتاج إلى معرفة المزيد من المعلومات."

"سواء أكان هذا الطلب يشكل لازمة، أو بالأحرى مفارقة،" قال هرتز، "ففي كلا الحالتين إن تحرياتنا حول مقتل رئيس وزرائنا تتضمن أدقَّ المسائل حساسية. لهذا، فإن التحقيق يجب أن يبنى ببطء، وعناية شديدة. وما ينتظرنا هو أكبر بكثير، وأقسى واقعية من نظرياتك التي تفترضها باسم موكلتك ولمصلحتها"

"قلْ لي شيئاً واحداً،" قاطعه دافيد بخشونة. "هل تعتقد حكومة إسرائيل، أو على الأقل تشكّ، أن أحد عناصر فريق أمن بن آرون هو شريك في جريمة الاغتيال؟"

لم تتبدل سحنة هرتز. "إنني مخوَّل في أن أقول لك،" قال مجيباً. "إننا لم نجد أية معلومة من شأنها أن تبرىء السيدة عارف."

"أو أن تدلَّ على تورُّطها؟"

للمرة الأولى، وشت نبرة هرتز بضيق صدره. "لو كان لدينا معلومة مثل هذه، لكنا نقلناها على الفور إلى حكومتك التي هي، حسبما أفهمه عن نظامكم القضائي، تكون مسؤولة عن تزويدك بها.

"وهذا لا ينطبق على موقفنا، فنحن لا نملك دليلاً أن عارف لم تفعل بالضبط ما هو منسوب إليها من اتهام بالتآمر من أجل اغتيال عاموس بن آرون. كما أنه ليس لدينا ما يدلُّ على أنها فعلت ما هو أكثر مما هو معروف لديك."

"لا شيء أكثر من ذلك؟" حافظ دافيد على لهجة مؤدبة. "فهي على سبيل المثال، لم تقم بشراء الدراجات، ولا بسرقة المتفجرات؟"

كانت إشارة هرتز المتمثلة بفتح راحتيه تدلُّ على أن السؤال غامض بحيث لا يجاب.

"إذن من الذي فعل ذلك؟" استحثه دافيد. "ليس جماعة كتائب الأقصى، بكل تأكيد."

مسَّدَ هرتز هُلْب شعره القصير الخفيف ثم حدَّق إلى دافيد بصمت. "إنك تدخل في ما لا قدرة لك على فهمه،" قال في النهاية. "كما أنك صرت بعيداً عن مجال دفاعك."

"هذا الأمر ليس متروكاً لحكمك أنت،" أجابه دافيد. "ومن أجل هذا إنَّ عندنا قاضٍ."

"ومن أجل هذا أنت هنا،" رد عليه هرتز. "من أجل أن تجد سنداً منطقياً لدفاعك القانوني الذي تنشده." كان الازدراء بادياً خلف كلماته. "إني لا أحسدك على أولوياتك، فلست في نهاية الأمر سوى محام. لكنك محام عن امرأة متهمة بالمساعدة على التسبب في أذى جسيم لإسرائيل. لدينا الكثير من الأعداء الذين يشبهونها، كما أن لدينا أشياء أهم من ذلك. أشياء يبدو أنك لا تهتم بها. كل ما أستطيع قوله هو أن أسألك أن تحاول أن تفهمها."

سمح دافيد لانزعاجه بالظهور. "لقد سمعتُ هذا الحديث قبل ذلك من شارب ـ التلطُّف والتفضُّل ذاته، الإشارات المتغطرسة ذاتها عن الأمن القومي، الادعاءات ذاتها عن الأولويات الكبرى. إن واجبي هو أن أرى أن هناء عارف لا تجرفها سيول أولويات أيٍّ كان، سواء أكانت جيوبوليتيكة، أو أقلُّ من ذلك، أو مجرد طموحات سياسية فردية.

"إن إجابة السؤال عمَّا إذا كان عنصرٌ أمنيٌ إسرائيليّ قد اختير كعضوٍ في جهاز حماية بن آرون، قد قام بالتآمر على قتله، قد تُسبب لحكومتكم متاعب كبيرة. بل قد تقرِّر من الذي يكون في السلطة ومن الذي يكون خارجها في إسرائيل. ولكنه أيضاً يؤثر في الكشف عمَّا إذا كانت هناء عارف جزءاً من مخطط أكبر، أم أنها مجرد ضحية. إنها مسألة يساورني شك فيها، أن حكومتكم تعرف عنها أكثر مما تُفصح." تمهَّل دافيد لانتقاء كلماته بدقة. "إنني أعرف أنها مسألة حساسة جداً، أن يكون شخص ما في جهاز حماية بن آرون قد قام بتسهيل تفجير انتحاري خطط له أناس يريدون التخلّص منه. وربما يأتي وقت تقع فيه تسوية بين أولوياتك وأولوياتي."

أخذ هرتز وقتة الكافي ليزنَ أقوال دافيد، مستوعباً ليس معناها فقط، بل ما تضمنته كلماته من تهديدٍ خفي، "إن رسالتك تقول أنك تنوي زيارة إسرائيل،" قال له ببساطة. "ومع مراعاة مصالح إسرائيل، سوف نقوم بمساعدتك في حدود استطاعتنا.

"وإنني أكرر لك، إننا لا نملك شيئاً من شأنه تبرئة هناء عارف." ومع أن صوته غدا ناعماً إلا أنه كان يشي بغضب دفين. "إننا نريد أن تتذكر يا مستر وولف. ليس شاغلنا قتل بريء لأنه ليس منا. ولا حماية مذنب لأنه ينتمي إلينا."

* * *

"إذن،" قالت هناء بلطف، "الآن صرتَ على خصامٍ مع الإسرائيليين. وأنت حتى الآن، تتحاشى ذكر خطيبتك."

كانت هذه زيارة دافيد الأولى لها منذ اختبار كشف الكذب، وهو الآن يشعر أنه في وسط خضمٍّ هائج أكثر من ذي قبل. فإلى جانب شكوكه حول براءتها، وخوفه من أن يكون ألعوبة تسير إلى نهاية كارثية، جاءت نتيجة الاختبار الآن لتزيد على مشاعره شعوراً جديداً هو الشعور بالذنب لأنه لم يثق بها. لم يكن يملك الجرأة ليتكلم في هذا الأمر، ولا لكي يشغل عواطفها بإعلامها عمَّا تكبّده من أجل مساعدتها. "كم من مرة خلال علاقتنا،" سألها، "كنتِ قد بدأتِ جملتكِ بكلمة 'إذن؟' وما هي نسبة ما سبَّبَته لي هذه الجمل من متاعب؟"

ارتسمت على شفتيها معالم ابتسامة، أما عيناها فلم تبتسما. "إذن،" قالت مصرَّة، "كارول لم تعد خطيبة لك؟"

"تلك الجملة بالذات،" أجابها دافيد، "هي برهان على ما قلتُه منذ قليل."

التقت عينا هناء بعينيه. "إنني آسفة،" قالتها بهدوء. "وخجِلةٌ. لقد اكتشفتُ أن اتهامي بجريمة قتل قد أوجد في نفسي شعوراً أنانياً نرجسياً، 'هل تراه يساعدني؟' 'هل سيتفهم كم أنا في حاجة إليه؟' ثم، نعم، أيضاً، 'هل تراه سيصدقني؟'"

توقفت قليلاً وهي مُطرقة إلى الأرض. "كنت غاضبة منك يا دافيد. ثم عرفتُ كم يجب أن يكون قد كلفك الدفاع عني. لمدة ثلاث عشرة سنة بقيتَ تسكن قلبي وعقلي. دافيد الذي عرفتُه في هارفارد. لقد كان لك الحق في أن تتوقع آمالاً أكبر مما فعلتُه لك في حياتك كما هي الآن، أو بالأحرى، كما كانت."

ومع أنه شعر بالتأثر، إلَّا أنه تمالك نفسه في مواجهة جيَشان مشاعره الخاصة. وفي النهاية، قال لها: "إن لكِ عائلة، وأنتِ متهمةٌ بجنايةٍ من الدرجة الأولى، ووجهُك منشور على غلاف مجلة نيوزويك، ولديكِ بضع مخاوف عمَّن سيقوم بتربية ابنتك. وبالتالي: ليس لي ما أتوقعه منكِ."

"ربما يجب أن يكون لديكَ توقعات." ولدهشته مدت هناء يدها عبر الطاولة لتلقيها على معصمه. "أريد أن أكون صديقتك إن لم يكن الوقت قد تأخر كثيراً."

نظر دافيد إلى شبّاك الغرفة بدافع الغريزة، ليرى ما إذا كان الحارس يشاهدهما. وعندما رأت هناء ذلك منه، قامت بسحب يدها.

"ومشكلتك مع خطيبتك،" سألته مسهِبة، "هل هي مستحيلة الإصلاح؟"

"لا بد أنها تبدو هكذا."

"كان ذلك بسببي،" قالت له، "وها هم الإسرائيليون يصبحون الآن منزعجين منك أيضاً."

"نعم، ولكن هذا، على الأقل، سببه دفاعك."

بعينين كسيفتين استوعبت هناء هذا الصدَّ الضمني. "إذن قل لي."

"هناك تناقض مصالح،" بدأ دافيد كلامه، "بين حقوقك وبين ما تعتبره كل من الولايات المتحدة وإسرائيل مصالح أمن قومي. أما كيف تعرِّف كلٌّ من الدولتين هذه المصالح: فهذا أمرٌ قد يتضارب أيضاً. ولكي تقام هذه المحاكمة فإن حكومتنا قد تطلب من حكومة إسرائيل أن تتعاون معي إلى درجة أكبر مما يرغب الإسرائيليون في التعاون فعلاً."

"وهل هذا يجعل موقف شارب أكثر صعوبة؟"

لقد اكتشف دافيد أنه من الأسهل عليه أن يتكلم مع هناء كسيدة كانت يوماً ما، محامية. "قد يكون الأمر هكذا." أجابها. "إن خيارها الأول هو أن تقول إن قضيتها ضدك هي قضية محاكمة بسبب جريمة قتل واضحة، وقد باتت قضية هامة بالنظر إلى هوية الضحية، ليس إلّا. وأنني في جوهر المسألة استخدم اسم بن آرون كي أوسِّع آفاق القضية بطريقة تهدد مصالح البلدين دون أن يكون لها علاقة بكونِك مذنبة أم بريئة. هذا، وإنني أمتلك ورقتين فقط للضغط على الإسرائيليين أنفسهم. إما الضغط عليهم من خلال الإعلام والصحافة، وإما من خلال شارب، وبمساعدة القاضي تايلور."

"وهل لديكَ أساس تستند عليه من أجل ذلك؟"

"أظن ذلك." فكَّر دافيد كيف يمكن له أن يشرح لها أين تقف الأمور الآن. "الأميركيون، والإسرائيليون، وأنتِ: فرقاء في منازلة ثلاثية مُحكمة. وإن لدينا فرصة لوضع الإسرائيليين أمام الخيار. إمّا أن يخبروني بما توصلوا إليه حول اغتيال بن آرون - مهما كان ذلك مؤلماً لهم، وبصرف النظر عن النتائج التي تتطور إليها الأمور - أو أنهم يجازفون بقدرة شارب على سوق دعواها ضدك."

أمالت هناء بعنقها وهي تنظر إلى وجهه. "ما هي كلفة كل ذلك عليك يا دافيد؟"

"ماذا تقصدين؟"

تمهّلت لتتمكن من اختيار كلماتها. "إنك تعيش الآن في بلدٍ خائفٍ - بلد يختلف عن ذاك الذي كان يوجد عندما التقينا فيه لأول مرة. لقد شاهدتُ صورتي في المجلات: إنني مخلوق غريب، مثل بن لادن، وما أنا متهمة به، يجعل الأميركيين يخافون على أولادهم، وعلى العالم الذي سيعيشون فيه. تماماً مثلما خفتُ أنا لسنواتٍ طويلة من أجل منيرة.

"والآن أنتم، اليهود، تتلاعبون بالمخاوف الوجودية نفسها، الموجودة عند الإسرائيليين، والأسوأ من ذلك، أنكم توحون لهم أن أعداءهم ليس الفلسطينيين فحسب، بل ربما بعض اليهود أيضاً. وهذا يجب أن يكون جزءاً مما حصل بينك وبين كارول." صار صوتها رقيقاً." إذن، أنا لا أستطيع سوى أن أتعجب كيف تعيش حياتك."

غضَب دافيد ابتسامةً زائفةً. "أعيش على الطعام الجاهز الصيني، معظم الوقت."

"على الأقل، قل لي": ســألَته هناء بهدوء. "هل تعرف كارول ماذا كان كلٌّ منا بالنسبة للآخر؟"

"نعم،" أجاب دافيد. "وهل صائب يعرف؟"

أطرقت هناء، ثم هزَّت برأسها. "لم يعرف ذلك بالكلام الصريح."

ران عليهما الصمت لمدة طويلة. ثم نظرت هناء إليه. "أريد أن أشاهد منيرة يا دافيد. بدون والدها إذا كان ذلك ممكناً. لم أجلس معها منذ مدة طويلة."

مضت دقيقة ثانية من الصمت، ثم هزَّ دافيد برأسه "سأحاول أن أرتب لك ذلك،" قال لها.

الفصل

22

"في مواجهة اتهامات حكومتنا،" سأله لاري كينغ، "ما الذي يجعلك واثقاً إلى هذه الدرجة من براءة هناء عارف؟"

ولمدة أسابيع، كان دافيد يوازن بين الحاجة إلى الضغط على الإسرائيليين وبين رغبته في عدم استعداء القاضي تايلور. أمَّا الآن، فهو يجلس في غرفة شبه معتمة في مكاتب السي.أن.أن. في سان فرانسيسكو، محاولاً أن يفيض براءة وصدقاً في اتجاه عين الكاميرا. على شاشة تلفزيونية جانبية، ظهرت صورة كينغ وقد توقفت شفتاه عن الحركة، فيما استمرَّ صوته في سمَّاعة أذن دافيد، بفارق ثلاث ثوان. "لقد اجتازت السيدة عارف اختباراً لكشف الكذب،" أجاب دافيد. "لقد أنكرَت أيَّ معرفة لها بخطة اغتيال بن آرون، أو بالقاتلَين، أو بالأعمال التي تم اتهامها بارتكابها. وقد أظهر الاختبار أن إجاباتها كانت صادقة.

"وعندما حملتُ هذه النتائج إلى مارني شارب النائب العام للولايات المتحدة الأميركية، عارضاً عليها إخضاع السيدة عارف إلى اختبار جديد يتولاه الأف.بي.آي. رفضت السيدة شارب عرضي هذا." توقف دافيد لحظة ليكمل بلهجة ثانية. "إن هناء عارف تُقدِّم ضحيةً على مذبح الظرف السياسي الراهن، إنها ستكون ضحية بكل معنى الكلمة إذا كان ثمة إصرار على المضيِّ في محاكمتها رغم ظهور هذا الدليل الجديد على أنها تواجه تهمة مفبركة جاءت نتيجة خطة مدبَّرة للإيقاع بها. فيما أميركا والإسرائيليون والعالم أجمع لا يزالون لا يعلمون شيئاً عن مؤامرة اغتيال عاموس بن آرون."

كانت شفتا دافيد لا تزالان تتحركان في الصورة عندما سمع كينغ يسأله، "هل لديك رأي حول هويَّة الجهة التي خططت لهذا الجرم الشنيع؟"

كان دافيد قد حضَّر جوابه لهذا السؤال بعناية. "إنني في هذا الوقت يا لاري لست حراً لكي أخبرك بكل ما أعتقده، أو أشكُّ به. لكنني أعتقد أن مقتل رئيس الوزراء قد نتج عن تسريب متعمَّد، لمعلومات، إلى القاتلين، تفيد أن الموكب قد تغيَّر مسارُه. وهذا هو السبب

الذي جعلهما ينتقلان إلى الشارع الرابع، وهذا أيضاً، هو السبب الذي مكّنهما مِن قتلِ رئيس الوزراء.

"إنني مطّلع على أنه ما مِن تسريب قد جاء من جانب الشرطة السرية، ولا من جانب بوليس سان فرانسيسكو." تردد دافيد لحظة. "يبقى الإسرائيليون، مع الأسف، فإسرائيل رفضت كشف ما توصلت إليه تحقيقاتها من معلومات، لا إلى هيئة الدفاع، ولا حتى إلى حكومة الولايات المتحدة ذاتها.

"وباختصار، فإن حكومة الولايات المتحدة تحاكم السيدة عارف، بينما هي تتجاهل أنها قد اجتازت اختباراً لكشف الكذب. أمّا إسرائيل، فترفض الإفصاح عمّا إذا كان أحد تابعيها قد يكون سهّل أمر قتلِ رئيس وزرائها ـ "

"هل تريد أن تقول،" قاطعه كينغ، "إن إسرائيل والولايات المتحدة تتستران على الحقيقة؟"

"إن ما أقوله،" قال دافيد معترضاً، "هو أن ثبوت براءة موكلتي، أم ثبوت ذنبها، قد يأتي في وقتٍ لن يعود له فيه لمعرفة ذلك أيُّ جدوى. هذه المسألة قد لا تقتل موكلتي فحسب، بل قد تسدّ الطريق على إمكانية تحديد هوية القاتل."

"الأمر الذي تحمِّل فيه أنت إسرائيل جُزءاً من المسؤولية."

"لقد عاني الشعب الإسرائيلي فيما مضى من مأساة كبيرة،" أجاب دافيد بلهجة مشذَّبة. "وآمل ألّا تقوم حكومته بمفاقمتها. إن القتل القضائي لامرأة بريئة يناهض جميع المبادىء الإنسانية، وإسرائيل تقول إنها قامت على هذه المبادىء، لا لكي تكون ملجأً للناس المضطهدين فحسب، بل كي تكون منارة للعدالة في منطقة لا تعرف سوى القليل من العدل." تمهّل دافيد ليختار كلماته التالية بعناية. "إن شبح مقتل جون أف. كنيدي ما زال يلاحقنا. والآن تأتي مؤامرة مجهولة المصدر لتغتال عاموس بن آرون، كما أنها من المحتمل أن تغتال فرصةً لحلول سلامٍ دائم. هذه هي المسائل التي يجب أن تركِّز عليها هذه المحاكمة. أما أن تقوم الولايات المتحدة بإعدام هناء عارف، بسبب يستند في جزء منه إلى سكوت إسرائيل، فإنه عمل سيستمر شبحُه في ملاحقة ثلاثة شعوب على الأقل: الأميركيون، والإسرائيليون، والفلسطينيون."

بدا وجه كينغ على الشاشة، حزيناً. "هذا تحذيرٌ عادل جريء يا دافيد وولف. ما هو الحل بنظرك؟"

حافظ دافيد على اتِّزانِ مظهره، وكان صوته أهدأ مما يحسب. "ما لم تتعاون الحكومة الإسرائيلية مع هيئة الدفاع،" أجاب، "فإننا سنلتمس من القاضي تايلور أن ترد ادعاء نيابتنا العامة ضد هناء عارف."

* * *

بينما كان يقود سيارته عائداً إلى بيته، استمع دافيد إلى رسالة شارب له، المسجلة على هاتفه الخلوي. وكانت لهجتها جليدية. "لقد تجاوزتَ الحدود،" قالت له. "وقبل أن تقرِّر القاضي تايلور ما إذا كانت سترِدُّ الادعاء ضد هناء عارف، فإنها ستقرر، ما إذا كنتَ قد أقدمتَ على تحدِّي قرارها."

هذه الرسالة لم تفاجئه. لكن كلمات شارب كانت تنكرةً محزنة بالجدل والحقد الذي ستثيره تكتيكاته هذه.

وعندما اتجه نحو مدخل منزله، رأى النور يتدفق من شبابيك غرفة جلوسه.

راجع دافيد ذاكرته. إنه لم يذكر مرة أن نسي إطفاء المصابيح قبل خروجه من المنزل. وقد رأى أن استعمال مفتاح باب المرآب الأوتوماتي يمكن أن يلفت النظر إلى قدومه. لذلك أوقف سيارته بجانب الشارع.

تسلّق الدرج المظلم إلى باب شقته بخفة وتؤدة. ثم أدار المفتاح في قفل الباب الرئيسي بهدوء ونعومة وتسلل إلى المدخل.

وقع نور المصباح العمودي على وجه كارول المرتعِب.

كانت تنتظره على أريكته. ما لبث دافيد أن شعر بقشعريرة في جلده، أعقبتها ولادة ضعيفة للأمل. "هل يحق لي أن أكون سعيداً بوجودكِ هنا؟" سألها.

"شاهدتُك الليلة على الشاشة." كان صوت كارول مخنوقاً. "آمل أن يكونوا قد سمحوا لها بمشاهدتك. لقد كنتَ شديد العاطفة والحماسة، وشديد الإقناع. إنك أفضل بكثير من ذلك الرجل الذي كانت قد أخطأَت في الزواج منه."

منقبضَ النفس، سمع دافيد عُمق عذاب كارول؛ كانت غير قادرة على البقاء معه؛ ومع هذا، فهي غير قادرة أيضاً على الانصراف عنه. وهي الآن قد شهدت دافيد يسخِّر مواهبه من أجل امرأة تأنف منها وتحسدها معاً، من أجل تحدِّي بلدٍ تعشقه.

"لم يكن لدي من خيار،" قال دافيد. "كانت الصحافة تريد منفَذاً، وكان ما قلتُه صحيحاً. ومهما يكن شعوري، فإن المحامين محرومون من ترف الولاء المزدوج."

"كيف تشعر يا دافيد؟"

جلس دافيد على ذراع أريكته، على مسافة أقدام من المرأة التي كان يخطط لإشراكها في حياته. "ما عدا في ساعات الليل، حينما أكون وحيداً، فإنني أحاول دائماً أن أنأى بنفسي. بذلك أستطيع التفكير بعيداً عن مشاعري."

"لعلَّ هذه هي الطريقة التي شئت أن تختارها لحياتك." ومع أنها متماسكة، أشاحت كارول بأنظارها عنه. "إنني أسائل نفسي الآن ما إذا كنتَ يا دافيد شخصاً عصيّاً على أن يفهمك الناس، أو حتى أن تفهم أنت نفسك."

صدمتّه العبارة في الصميم، حتى إنه شعر بأن فهمه يساء دائماً، ويُحشر في خانة الدفاع. "هذا صعب عليَّ يا كارول. هل تعتقدين فعلاً أنني لست على تماسٍّ مع ذلك؟ إنني أتابع المحاولة للحاق بضميري الشخصي كمحامٍ وكإنسان. متسائلاً أبداً أين ومتى سيصطدمان."

"وماذا عن هناء؟"

"ليتني ما عرفتها،" قال بصوتٍ خفيضٍ، ثم متسائلاً في الوقت نفسه عمَّا إذا كان يصدق هذه العبارة تماماً. "أتمنى لو أنها لم تحتج إلى مساعدتي. أتمنى لو كنتِ أنت وأنا لا نزال نعيش حياتنا التي كنا نعيشها. أتمنى لو أنني لا أجد نفسي نائماً صاحياً مقلِّباً في دوافعي وقراراتي". صارت نبرته تميل إلى الانخفاض. "أكثر من أيِّ شيء آخر، أتمنى لو أنني لم أسبب لكِ الأذى، أو لو أنني كنت قادراً على أن أستجلي كلَّ ما كنتِ تحاولين أن تقولينه لي ـ أو تفكرينه بي ـ عندما انتهكتُ إحساسكِ بما يعنيه لك أن تكوني يهودية."

هزت كارول رأسها. "هذا ليس عدلاً يا دافيد،"

"أليس ما أقوله صحيحاً؟" سألها دافيد، "إنه لأمر يستدعي السخرية، ففي الواقع كانت هناء قد قالت لي منذ سنوات عديدة: *'إنك أميركيٌّ للغاية، والفرد يعني لك كل شيء'*.

"وقد يكون كلاكما مصيباً. فبالنسبة لي: إنكما امرأتان مدموغتان بتاريخ جماعيٍّ لشعبِ كلٍّ منكما، بحيث إن كلَّ واحدة منكما قد انسلخ عنها جزء من نفسها. لكن واحدة منكما فقط هي المتهمة بجريمة قتل. وهناك فرصة طيبة في أن تكون بريئة ـ "

"وهل يسمح لك ذلك بإهانة إسرائيل؟" قاطعته كارول. "ففي نهاية الأمر، يشكل كل من الشعب اليهودي والفلسطيني، مرآة الآخر، تماماً مثلما هو الحال بيني وبين هناء. أليس هذا هو ما تعتقده يا دافيد؟ المآسي نفسها، الخسائر نفسها، والعمى نفسه."

"لا أريد أن أذكر المآسي التي تعرّض لها اليهود في الماضي، والتي يتعرض لها الفلسطينيون في هذا العصر. وبرأيي ما كان لأيٍّ من هذه المآسي أن يحدث. ولو كان ستة ملايين فلسطيني قد قُتلوا بدلاً عن اليهود، لما كان ذلك ليخفف عن صائب خالد شيئاً في اللحظة التي كان فيها يقف مجبراً على مشاهدة إعدام أهله أمام ناظريه، كما أن ذلك ما كان ليزيد ما أصاب صائب من الأذى النفسي أذىً، ولا أن يجعل هناء أكثر استحقاقاً لوجود محامٍ يتولى قضيتها."

"إذن ماذا يا دافيد عن كون هناء حبيبتك السابقة؟ أليس كذلك؟"

"هذا صحيح،" أجابها دافيد ببساطة. "لقد أحببتُها مرة. وبعد سنوات عدة، أحببتُكِ أنتِ. لكنني لم أستطع أن أقايض حياتها بنيل رضاكِ. فحياة كلٍّ منا تحمل بصمات شخص ما عليها. فإذا كنتُ قد أحببتها يوماً، فإن ذلك لا يعني أنني لا أستطيع أن أحبك. كما أن

قيامي بالدفاع عنها لا يجعل مني يهودياً خائناً." صار صوته أكثر قساوة. "إن ما كنت سأمقت نفسي من أجله هو أن أتعامل مع هناء كما لو أن حياتها لا تعني لي شيئاً. وإن ما كنت سأمقتك من أجله هو أن تريدي لي أن أفعل ذلك."

هزّت كارول رأسها ببطء. "إن بعض البصمات صعب محوُه،" أجابته. "إن ما أردته، كان ألّا تحبَّها الآن، بهذه الطريقة ربما، كنت أتمنى لو أنك كنت أكثر غموضاً بالنسبة لي." سكتت كما لو أنها قانطة من الكلام. "إذا تبين لك يا دافيد أنها قد كذبت عليك، فماذا ستفعل بعد ذلك؟"

لم يكن ثمة جواب عند دافيد. قبل أن تغادر، لمسَته كارول برفق على ذراعه، في ردة فعلٍ عكسية أخيرة. وبعد ذلك فقط وقع نظر دافيد على مفتاح منزله الفضي ملقى على طاولة القهوة.

الفصل

23

برأس مرفوع وعينين متضيقتين، تذوّق بروس مارتل شرابه قبل أن يهز رأسه علامة للاستحسان إلى النادل، وهي شابة ذات شعرٍ مضفورٍ، متعدد الألوانِ. وعندما انصرفت النادل، قال لدافيد "يبدو أنك قد أقلقت راحتهم."

كانا يتناولان غداءهما في مطعم ياكار، وهو يقوم في مبنى كان يستعمل في الأصل مستودعاً، ويقع في جنوبي ماركت ستريت، وله أسقف عالية، وجدران من الآجر. أمَّا قائمة طعامه وشرابه، فوافية بجميع الأغراض، وبخاصة ما يرضي منها ذوق الرعيل القديم. "بأيِّ معنى؟" سأله دافيد.

"إن إسرائيل بلد رائع،" أجاب مارتل. "لكنه ممزَّق بالأحزاب والتناقضات ـ المتدينون في مقابل العلمانيين، الحمائم في مقابل الصقور، البراغماتيون المؤيدون لـ بن آرون في مقابل الحاخامات الذين يزدرونه ـ وكلُّ هؤلاء، ولأسبابٍ مفهومة، ينظرون إلى السياسة على أنها قضية حياة أو موت. وإن ما أشرت إليه البارحةَ في حديثك إلى لاري كينغ ـ من أن مقتل بن آرون قد يكون، بطريقة أو بأخرى، عملاً مدبَّراً داخلياً ـ هو كلام، لو صحَّ، سينقلب ضد أيِّ حزب يمكن أن يجد مختلفُ الفرقاء الإسرائيليين مجالاً لإلقاء اللوم عليه بسبب كلامك." وضَع مارتل كوبه على الطاولة. "ليلةٌ واحدة على السي. أن.أن. لن تكفي لتغيير موقف الحكومة. لكنك قد تجد الآن، بعض الحلفاء المساعدين، المعاضدين لك، بدلاً من أن يكون لك أصدقاء فقط، حينما تقوم بزيارتك إلى إسرائيل."

"مثلاً؟"

"صحافيون موالون للزعيم بن آرون، أخصامٌ لخليفته، وربما هؤلاء الذين يأملون في مرابح سياسية وانتخابية عن طريق محاولة ربط مؤامرة الاغتيال باليمين المتطرف." توقف مارتل ليفحص قائمة الطعام. "لكنك ستجد أن تلك المياه معتمة وضبابية وصعبة المخاض. فإسرائيل ليست بتلك البلاد التي تُسلِس قيادَها للباحث عن الحقيقة. لذلك، لا بدَّ لك من دليلٍ مرشد."

أخذ دافيد رشفة من الشراب الذي انتقاه مارتل. "كنتُ أطمع في أن يكون لديك مرشحٌ أو مرشَّحان."

"بل لديَّ على الأخصّ زيف إيرنهيت، وهو مؤرِّخ وعالم آثارٍ بالممارسة، وضابط استخباراتٍ متقاعد بالاحتراف. وهو الآن يعمل لنفسه. وليس هناك من قُرنةٍ، أو زاوية مظلمة في المجتمع الإسرائيلي، إلا وله فيها شخص يعرفه. كما أنه رجل يسمع أصداء الماضي منذ أيام الملك داود، وأبعد من ذلك.

"فإسرائيل، في نهاية المطاف، تتربع على أرضٍ سحيقة القِدم، ولها ذاكرة تاريخية مشفَّرةٌ في جينات اليهود والعرب على السواء. وإنك ما لم تفهم طبيعة المظالم والانقسامات في كلٍّ من المجتمعين، فإنك لن تستطيع أن تفهم جيداً طبيعة الدفاع الذي عليك إعداده نيابة عن هناء عارف."

"وماذا عن الحكومة،" سأله دافيد. "هل يستطيع صاحبك أن يساعدني معها؟"

"سوف تساعدك الحكومة إلى حدودٍ معينة. ليس بإعطائك ما أنت تسأل عنه، بل بإعطائك بعض الأنباء السارة هنا وهناك، كما بإعطائك شعوراً بأن الأبواب غير مغلقة أمامك، إن لم يكن لسبب، فمن أجل اقتفاء أثرك، وتتبُّع خطواتك، لمعرفة ما أنت فاعلٌ، على الأقل. وهذا أمرٌ قد لا يلومهم أحدٌ عليه، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار الجِمار المدفونة بالرماد. تلك الجمار التي ستدسُّ قريباً عصاك فيها." صمت مارتل برهة وهو يجيل النظر حوله، متأملاً في جيل المحترفين الشباب، وما لديهم من شحٍّ الروافد، وضحالة المجرى. "العيش في إسرائيل يتطلب يقظة لا يبدو أن معظم الأميركيين قادرون على اكتسابها. فإذا اصطحبك صديق إسرائيلي إلى مطعم كهذا، فمن المرجَّح أنه لا يكون قد اختاره بسبب لائحة طعامه، بقدر ما هو بسبب الاحتياطات الأمنية المتوفرة فيه، وإلا فإنك قد تطير إلى أشلاء قبل أن يأتي أوان تناول الحلوى." مسح مارتل شفتيه بالفوطة. "مثل هذه الأمور تريد أن تبقيها الحكومة خافية عنك. أجل إن صديقي زيف قادرٌ على مساعدتك."

"سيكون هذا موضع امتناني،" قال دافيد. "وماذا عن الضفة الغربية؟"

"إنها مكان مختلف. كما أن أسبابَ ذهابك إليها مختلفة أيضاً."

هزَّ دافيد رأسه بالإيجاب. "أريد أن أكتشف حياة كل من هناء وصائب ـ رفاقهما، وأسرارهما، وكل ما يسعى وراءه رجال استخباراتنا. والشيء نفسه ينطبق على القاتلين حسن وجعفر."

"تحتاج إلى سياق،" لاحظ مارتل. "من أين أتى هؤلاء الرجلان، ما الذي قادهما إلى فِعل ذلك، من الذي عرف كيف يستخدمهما، ولمصلحة من يعملان، وأين هو المكان الملائم لكل معلومة في هذه الأحجية التي تتقاطع فيها العلاقات والصراعات بين القوى مثل

حماس؛ وفتح، التي هي حزب فاراس؛ وكتائب الأقصى، التي هي الذراع العسكري لفتح؛ ففهمُ التيارات المتقاطعة للسياسة الفلسطينية هو الطريق الأوحد لمعرفة من هو الذي خطط لهذا الاغتيال، ولماذا؟"

وجد دافيد أن هذا الجدول موهن للعزيمة أكثر من برنامجه في إسرائيل. "أي شيء آخر؟" سأل بجفاف.

"أجل. فلكي يكون عندك أيُّ حظٍّ في النجاح، فإن عليك أن تخترق كتائب الأقصى بالذات. وقد صارت هذه الجماعة الآن متوارية تحت الأرض أكثر من ذي قبل، بسبب الإسرائيليين. أما أخيراً، فيجب أن تجد لك صلة إلى داخل حماس."

هز دافيد رأسه. "أتعرف أيَّ طريقة لعمل ذلك؟"

ابتسم مارتل. "بالطبع. كما أنني أعرف الأشخاص الذين سوف يساعدونك على ذلك. فأنت من أجل هذا تدفع ثمن هذا الغداء."

* * *

لم يعرف دافيد ما الذي كانت قد قالته هناء لزوجها. ولكن بينما كانت سيماء قلة الاكتراث التي أظهرها صائب أعجز من أن تخفي امتعاضه، فإنه سمح لمنيرة أن تغادر بصحبة دافيد. لكنه حافظ على سلطته من خلال إصراره على وقت عودتها، ومن خلال ثوبها الأسود المعتاد الذي يغطي رأسها وبقية جسدها.

وكان صائب قد انتقل بابنته إلى شقة مفروشة في باسيفيك هايتس. وهي بناية إسمنتية من تسعة طوابق تستعمل كمأوى للمنفصلين، كما تستعمل للمطلقين الجدد، أو لرجال الأعمال الموجودين في زيارة عاجلة. كان دافيد يعرف هذا المبنى. إذ إنه كان قد ساعد، من قبل، صديقاً انهارَ زواجُه، على نقلِ ثيابه، وكتبه. وقد وجد أن البيئة المعقمة، رغم أثاث الأجنحة الرخيص، تبعث السأمة في النفس. أما الآن، فعندما جاء لاصطحاب منيرة بسيارته إلى سِجن أمها فقد بدا المبنى أشدّ قتامة ووحشة.

تقوقعت الفتاة على المقعد المحاذي لمقعد السائق، منحنية قليلاً إلى الأمام في جثمةٍ تشبه جثمة الصلاة. حاول أن يتصوَّر مدى إحساسها بالوحدة والضياع.

"كيف حالك يا منيرة؟" سألها.

ألقت إليه بالتفاتةٍ جانبيةٍ خجولةٍ، بل ربما حذِرة. أخيراً قالت: "لقد شاهدك والدي على التلفاز في إحدى الليالي الماضية."

"حقاً؟ وماذا قال بعد ذلك؟"

"ظن أنني نائمة. لهذا، فإنني خفَّضت الصوت وشاهدتك من غرفة نومي."

صُعق دافيد لهذه الصورة ـ والد وطفلته، منعزلان عن بعضهما البعض، يشاهدان التلفاز في غرفتين منفصلتين. "لقد كنتَ جيداً." قالت له منيرة. "إني أعتقد أنك محامٍ جيد."

لم يستطع دافيد منع نفسه عن الابتسام. "شكراً لك يا منيرة، من أجل ذلك اختارني والداك."

نظرت إليه الفتاة شزراً. "والدتي هي التي اختارتك."

هذا جزء من شخصية هذه الفتاة، حسب دافيد. فمثل والدتها، تتكلم منيرةُ كلامَ المصدِّق، عمَّا تشكُّ بوجوده، مجرَّد شكٍّ فقط. استدار بسيارته نحو شارع غوف. متجهاً قُدماً نحو مدخل التحويلة الموصلة إلى ظهر الجسر.

"لقد تصدَّيت للصهاينة" قالت منيرة. "رغم أنك يهودي."

"نعم." توقف دافيد حائراً في ما يقول. "أنتِ تفكرين في اليهود على أساس أنهم صهاينة، كما تفكرين في إسرائيل على أنها عدو. لعل في نطاق معرفتك، هكذا تبدو الصورة ولكني أريد أن أبين براءة والدتك من قتل بن آرون، ولا أريد أن تؤذى بسبب ذلك."

تقطبت جبهة الفتاة في ما يشبه الشكّ. أخيراً قالت في تأمُّلٍ وتفكير، "لقد كنتُ مخطئة."

"مخطئة بماذا؟"

"لقد كنتُ لئيمة معها، وها أنذا أعاقَب في ذنبي." تجهّمت منيرة من جديد، وكأنها تحار في إيجاد كلماتها. "لن أستطيع أن أكون معها،" أردفت. "لكي أكون لطيفة بالطريقة التي كان عليَّ أن أعاملها بها."

"هناء تعرف حقيقة شعورك،" أجابها دافيد. "لقد كانت مرة في مثل عمرك، كما أنها كانت ابنة، أعتقد أنها دون مستوى الكمال. لكن إذا كانت تلك المشاعر تقلقك فلعلَّ هذا اليوم مناسب لكي تشرحي الأمر لها."

ألصقت منيرة كفيها معاً. "لست أدري، إنها أحياناً تحيِّرني."

ابتسم دافيد. "وأنا ايضاً." أجابها قبل أن يخشى أن تذهب منيرة في هذه النكتة الخفيفة مذهباً بعيداً. "أما الأمر الذي لا لبس فيه،" أضاف قائلاً، "فهو أن أمك تحبك محبة كبيرة."

أطرقت منيرة مفكرة في هذا الكلام. "أعتقِد أنني السبب في خصاماتهما الكثيرة."

أدهشت دافيد صراحة الفتاة. ثم صعقه، أكثر من ذي قبل، يقينُه أن منيرة تعيش في عزلة عن أي شخصٍ يمكن لها أنٍ تفضي له بشجونها، إذ ليس معها سوى والدها. كما أن ليس لها حتى هاتف خلوي تكلِّم به أصدقاءها. "لست أدري لماذا يتخاصمان." أجابها دافيد. "أو ما هو سبب ذلك. لكن ما أعرفه هو أن والدتك تؤمن بك وبما يمكن لكِ أن تحققيه في هذه الحياة."

فكَّرت منيرة في هذا الكلام بجديَّة. وفي ما تبقَّى من الطريق بقي كلاهما مطرقاً دون اشتراك بأيِّ حديث، سوى شعورهما بالصحبة الصامتة. لكن لدى وصولهما إلى السجن، راقب دافيد لقاءهما من خلال الزجاج المشبَّك. لامسَت منيرة بجبهتها جبهة والدتها بينما كانت عينا هناء مغمضتين.

الفصل

24

في ساعات الصباح الباكر، قبيل الجلسة الثانية، جلس دافيد إلى طاولة مطبخه واضعاً أمامه ورقة ملاحظاته، بعدما جفاه النوم.

كان يكتب ويشطب بإمعان، ثم يعيد صياغة إجاباته على أسئلة تايلور المحتملة. شاحذاً كلَّ استجابة حتى تصبح على أدقِّ ما يمكن لها أن تكون. وبمعنى من المعاني، فقد كانت هذه المراجعة ملهاة له عن القلق الداخلي الذي ينتابه كلما كان على وشك حضور جلسة حاسمة. من ناحية ثانية، كانت هذه الممارسة تنفعه في استهلاك التوتر في قضية مثل هذه القضية المحفوفة كل خطوة فيها بخطر خسارة حياة موكلته. فائدة أخيرة كان يأتي بها هذا الانغماس، ألا وهي إبقاء أمواج العواطف المتضاربة، خارج نطاق الخليج، وإلا فإنها ستكون كفيلة بالفيضان فوق رأسه، وبإغراقه.

بقاؤه في حضرة هناء، كان أمراً متعباً، لأنه يتطلب منه جهداً دائماً لكبت عواطفه وظنونه وامتعاضاته، وكذلك خوفه من الوقوع في أوهام تقوده إليها تصرفاتها الغامضة. لقد كانت على التوالي تبدو باردة، وعاطفية، وغاضبة، وخائفة. أحياناً كانت توحي إليه ببعض المشاعر التي قد تكون صادقة، كما قد تكون مدبَّرة. حتى إن تصوراته عن هناء كانت تبدو كمشكاة فيها ألف من الألوان المتناقضة. فالابتعاد الجليدي الذي اجتازت فيه اختبار كشف الكذب؛ والإشارات الخفيَّة إلى علاقتهما عندما كانا حبيبين؛ وشعورها الملموس بجرح الإحساس حينما لا يصدِّقها. حتى إنه فكَّر في شأن اللحظة التي رآها فيها تسند جبينها إلى جبين منيرة فيما عيناها مغمضتان. صورة تستحضر محبّة الأمهات وحنينهن. هل كان هذا المشهد موجَّهاً إليه؟

أمّا دوافعه للدفاع عنها فقد بقيت غامضة، فها هو حتى الآن لا يستطيع تفريق المبدأ عن الكبرياء؛ ولا ذكريات الشغف المستعادة عن الخوف من حياة يدفع راحته ثمناً لها، بعد موت هناء: ومهما تكن الحقيقة، فإن حياته الماضية لا يمكن استعادتها. كما أنه لا يملك تصوُّراً عن حياته المستقبلية التي تقف عند حافة نهاية هذه المحاكمة، وما سيليها من غموض بعيد. شيء واحد فقط بدا واضحاً أمام ناظريه. إن ما سيشعر به حول هذه الحياة،

لا بد أن يتوقف على ما سيكتشفه في الطريق. أمَّا ماذا صارت هناء بعد غيابها عنه، وما إذا كانت فعلاً بريئة من جريمة القتل، فكلها مسائل بالغة الأهمية.

حدق دافيد في شبَّاك مطبخه، إنه مربَّع أسود. لم يرَ خلاله سوى انعكاس صورته التي تنظر إليه. بعد خمس ساعاتٍ، عليه أن يقف أمام القاضي كمحامٍ، عليه أن يُظهر حضوراً وتضلُّعاً هما بأهمية المنطق ذاته في ترجيح الكفة لمصلحته. فالمحامون لا يملكون أن يتعرَّقوا خوفاً في ضحى النهار.

بعد ابتعاده عن النافذة كانت عبارة جديدة قد أخذت شكلها النهائي المهذب في ذهن دافيد.

* * *

أثناء جلوسه إلى طاولة الاجتماعات إلى جانب مارني شارب في مكتب القاضي تايلور، شعر دافيد بشدة اليقظة التي جاءته من جرعات كبيرة من القهوة، ومن هروب النوم منه. بدأت تايلور كلامها بمخاطبة شارب. "أعتقد أن لديك ما تشتكينه من ظهور السيد وولف في برنامج لاري كينج."

"نعم،" أجابت شارب. "خصوصاً في ما يختصُّ بتلميحات السيد وولف عن إسرائيل بأنها تخفي معلومات تتعلق بمصرع بن آرون. إن هذه التلميحات إنما تستند إلى معلومات شديدة السرية كانت وفرتها الحكومة له بناء على طلب محكمتكم، على شرط ألَّا يعمد إلى استعمالها إلا بعد استئذانكم مسبقاً." توقفت شارب لحظة في ما يبدو استطلاعاً لتأثير كلامها على وجه تايلور. "أكثر من ذلك، فإن تأكيدات السيد وولف تهدِّد بتسميم أجواء هيئة المحلفين بأفكار عن مؤامرة، ليست في أحسن حال سوى مجرد تخمينات. لذلك فإننا نسأل هذه المحكمة بأن تمنعَه عن الإدلاء بالتصريحات العمومية عن هذه القضية، وعن نظرياته المختلفة التي يخطط لاستعمالها في دفاعه."

أدارت القاضي تايلور وجهاً غامضاً في اتجاه دافيد. أفرد دافيد ذراعيه بمسحة من الارتباك. "كان لدينا فترة شهرين من الطوفان الإعلامي في غير مصلحة السيدة عارف ـ غلافات المجلات؛ عناوين الصحف الرئيسية؛ أخبار وتقارير إعلامية عبر الكابل على مدار الساعة؛ وتصريحات لكبار قادة العالم ـ ملايين من الكلمات، وآلاف من ساعات البث، وكلها تضجُّ بما من شأنه أن يخلط في أذهان الناس كلَّ فرقٍ بين الاتهام والإدانة. أمَّا الآن، وبعد ساعة واحدة على شاشة السي.أن.أن. فإنني قد سمَّمتُ عملية تدَّعي السيدة شارب أنها لم تكن مسمَّمة من قبلُ برفضها إخضاع السيدة عارف لاختبارٍ لكشف الكذب إسوة بإخضاعها الشاهد الوحيد ضد السيدة عارف لمثله. إن المشكلة التي تريد السيدة شارب

من محكمتكم أن تستنتجها ليست في سلوكها غير العادل تجاه موكلتي، بل في قيامي بالكشف عن هذا السلوك.

"هناك ما يكفي من الانحياز ضد موكلتي، دون حاجة إلى تكميم فم وكيلها، أملاً في جعل هذه المحاكمة تبدو في شكل هو أفضل من حقيقتها." دفع دافيد بوثيقة منضَّدة عبر الطاولة. "أمَّا في ما يتعلق بمخالفتي المزعومة لتعليمات المحكمة، فإننا أعددنا استكتاباً للمقابلة التي جرت معي. ويجدر التذكير إلى أنني لم أُشِر في حديثي إشارة واحدة إلى وثائق سرية تذكُر بحقيقة تقضُّ مضجع السيدة شارب، وهي أن إسرائيل ترفض تزويدنا بمعلوماتٍ يُحتمل أن يكون لها تأثير حيوي على الدفاع."

"وهذه 'الحقيقة'، ما هو أساسها؟ هل هي تستند إلى التنجيم؟" جاء تعبير وجه القاضي صارماً مثل رنة صوتها. "لستُ بحاجةٍ إلى قراءة هذه الأوراق ـ فلقد أخذتُ وقتي في مشاهدتك. كانت رسالتك واضحة بما يكفي: إنك تملك سبباً يدعوك للاعتقاد أن واحداً أو أكثر من مجموعة الحراسة الشخصية لبِن آرون قد يكون متورطاً في عملية قتله. وهذا السبب قد يكون فقط عبارة عن المعلومات التي زودتك بها السيدة شارب بناء على أوامري."

تقبَّل دافيد هذا التوبيخ بصمت، آملاً في أن يهدأ غضب القاضي قبل أن تفسد إجراءات المحاكمة. "إن أوامري،" تابعت تايلور، "لا تسمح لك بأداء رقصة السبع أقنعة على شاشة السي.أن.أن.، غمزة من هنا، ولمزة من هناك، وإشارة مرعبة إلى المباهج المنتظَرة." صار صوت القاضي أكثر هدوءاً. "ومع هذا، فإنني أقدر مشكلة الدعاية السلبية التي واجهتها موكلتك. لذلك لن أمنعك من التعبير عن شكوكك في هذه القضية ما دمت تستند في كلامك إلى معلومات يعرفها جميع الناس. أمَّا إذا بلغ بك الأمر حدَّ التلميح إلى وثيقة تحت نطاق أوامري، فإنك ستجد نفسك تعود إلى هنا لكي تحاول إقناعي بالسبب الذي يجعلك تسكن في غرفة مجاورة لغرفة السيدة عارف." حدَّقت القاضي في وجه دافيد للحظة إضافية. "حسناً، والآن دعنا نسمع عن مذكرتك التي تطلب فيها إلزام النيابة العامة على القيام بطلب معلوماتٍ من الحكومة الإسرائيلية."

تمهَّل دافيد لترتيب أفكاره. "بعد تقديم اعتذاري لمحكمتكم، سأبدأ من حيث توقفتُ: أي من استناد السيدة شارب على أقوال شاهدٍ واحدٍ، أدلى بها تحت اختبار كشف الكذب من أجل الادعاء على سيدة اجتازت اختبار كشف للكذب مماثلاً، بملء اختيارها ـ "

"نعم،" قاطعته القاضي. "ماذا عن هذه المسألة يا سيدة شارب؟"

بدت شارب ذاهلة لبعض الوقت. "لقد كان الاختبار الذي أُخضع له إبراهيم جعفر يهدف إلى اكتشاف ما إذا كان يوافق أصلاً على الخضوع له، أكثر مما كان يهدف إلى اختبار قدرته على اجتيازه."

"وماذا لو فشل في اجتيازه يا حضرة الوكيلة؟"

استجمعت شارب نفسها. "كنا سنقيِّم النتيجة في ضوء الأدلَّة المساندة التي تشير إلى أنه صادق. أما وقد وافق على الاختبار، وتمكن من اجتيازه، فقد صرنا أكثر ارتياحاً."

"وهل نتيجة الاختبار الذي اجتازته السيدة عارف يدعوك لكي تصبحي أقلُّ ارتياحاً؟ أم أن بعض الاختبارات أكثر كفاية من كفيآتها؟"

"من وجهة نظر القانون،" أجابت شارب "يكون الاختباران غير مقبولين على حدٍّ سواء. مما يعني أننا نعود في مسألة الدليل، في ما يتعلق بالسيدة عارف، إلى الوضع الذي كان عليه قبل الاختبار، حيث تتضافر أقوال السيد جعفر مع كل الدلائل الحسية، لتشير إلى أنها مذنبة."

عقدت تايلور قوسي حاجبيها. "تعنين كل الدلائل المتوفرة، أليس كذلك." ثم استدارت نحو دافيد لتسأله: "أليست هذه وجهة نظرك في هذه المسألة يا سيد وولف؟"

"بالضبط. ما دامت إسرائيل ترفض إعطاء معلومات قد تساعد السيدة عارف على إقامة البرهان على أنها قد خضعت لمكيدة اتهامٍ مركَّب مدبَّر، كجزء من مؤامرة قد تصل أبعادها إلى فريق حراسة رئيس وزراء إسرائيل، فإن الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بهذه المحاكمة في ظل الرفض الذي قد يجعل نتائجها باطلة."

"كُفَّ تلك العبارات عني،" قالت تايلور. "لنفترض أن إسرائيلياً أغرى باغتيالٍ، نفذه فلسطينيان: هل يجعل هذا، بحدِّ ذاته، السيدة عارف أقلّ ذنباً من الراحل إياد حسن؟"

"دعيني أجيبك بسيناريو يكون فيه عنصر الافتراض أبسط من ذلك،" قال دافيد. "كائناً من كان الشخص الذي سرَّب الخبر، فإنه لن يعدو أن يكون قد نقله إلى حسن مباشرة أو لنكن أقرب إلى المنطق ونقول، إلى الشخص الذي يدير حسن. الآن، افترضي مثلي أن هذا الشخص الأخير هو شخص غير هناء عارف.

"في الوقت الحاضر، إن الشاهد الحقيقي الوحيد ضد هناء عارف هو شخص ميت. لكن خرقاً أمنياً قد يعني أن شخصاً ما، في إسرائيل، قد يعرف أكثر بكثير مما يعرفه إبراهيم جعفر عن تورُّط موكلتي أو عن براءتها. أو على الأقل إنه يعرف من الذي يعرف. كيف يمكننا أن نقوم بمحاكمة عادلة دون أن نحاول أن نحلَّ هذه النقطة؟"

استدارت القاضي نحو شارب. "ما هو جوابك يا سيدة شارب؟"

"نحلّ هذه النقطة،" ردَّدت شارب العبارة. "ولكن كيف؟ هل يكون ذلك بتكليفنا استدعاء كل عضو في مجموعة حماية بن آرون لأداء الشهادة، مهما كانت تكاليف ذلك على الأمن القومي لدولة ذات سيادة؟ إن إسرائيل لن تسمح بمثل هذا التدبير."

"لقد كان رئيس وزراء إسرائيل هو الذي مات اغتيالاً يا سيدة شارب. والحكومة الإسرائيلية تعوِّل الآن على الولايات المتحدة من أجل محاكمة المسؤولين. بينما الولايات المتحدة لا تستطيع أن تقوم بذلك دون تزويد السيد وولف بكل ما يحق له الحصول عليه من معلومات."

"هذا يقتصر على ما تملكه الولايات المتحدة يا صاحبة الاحترام، لا على ما تملكه إسرائيل."

"وعلى ما تقرر إسرائيل تقديمه أو عدم تقديمه." صارت لهجة القاضي نافذة الاصطبار. "أنت تقومين بادعاء مبني على شهادةٍ متواترةٍ أدلى بها جعفر ضد المدعى عليها التي اجتازت اختبار كشف الكذب، وهي التي تنوين رغم ذلك أن تقاضيها إذا سُمح لكِ بذلك. أنت لا تستطيعين السيطرة على إرادة الإسرائيليين. لكن لا شيء يمنعك من وضعهم أمام الخيار. قدِّموا للولايات المتحدة أيَّ معلومات تملكونها تكون وثيقة الصلة بالسيدة عارف: أو أنكم تعرِّضون عملية المحاكمة بأكملها إلى مجازفة."

أدى تخشُّب جسدِ شارب، مثل تصلُّب تعابير وجهها، إلى الإفصاح عن مقاومتها لما اعتبرته فخاً نصبه دافيد. "يا صاحبة الاحترام،" قالت محتجة، "يجب أن تكون هذه المحكمة على اطلاع - كما يجب أن يكون السيد وولف على بيِّنة أيضاً - على قضية جوناثان بولارد. فهذا الأخير كان أميركياً يهودياً تحوَّل إلى مواطن إسرائيلي وقد أدين بجريمة سرقة أسرار من حكومتنا. وعندما ادَّعت حكومتنا على بولارد رفضت إسرائيل الإفصاح عن مدبِّريه بناء على طلب الدفاع. وهذه هي بالضبط الاستجابة التي يتمناها السيد وولف ويتوقعها في حالتنا الحاضرة." صارت لهجة شارب أكثر هدوءاً. "ورغم ذلك، فإنه قد تم السماح للحكومة الأميركية بمتابعة مقاضاة بولارد. فإذا كان الدفاع يتوقع أن يرد الإسرائيليون طلبنا الذي يطلب منا أن نتقدم به بالنيابة عن السيدة عارف، فيجب ألَّا يؤثر ذلك على قدرتنا على متابعة محاكمتها."

"بناء على قرار مَن؟" رنَّت تايلور. "لقد قضيتُ في هذه الوظيفة جلَّ عمري. ومهما كان مصير السيدة عارف، فإن ما يعنيني هو أن أكون قادرة على النوم ليلاً. وعليه، فإن قراري هو:

"أولاً، على الولايات المتحدة أن تطلب من الإسرائيليين تزويدها بأي معلومة من الممكن أن تساهم في تبرئة السيدة عارف أو تكون ذات صلة بالدفاع عنها. بما في ذلك،" أضافت تايلور بلهجة تأكيدية، "ما يتعلق بتأكيدات السيد وولف أن السيدة عارف قد تعرضت لتهمة مركبة مدبرة".

"ثانياً، إذا تبين أن هذه المعلومات تقتضي استجواباً تحت القسم لموظفين إسرائيليين فإن للسيد وولف الحق في التقدم بمذكرة إضافية يطلب فيها الاستماع إلى

هؤلاء الموظفين تحت القسم، على أن يوضح هوية كل مستجوَب، والأسباب المبررة لاستجوابه".

منذهلاً لهذا النجاح، نظر دافيد نحو شارب التي بدت شديدة الذهول بحيث لم تستطع إخفاء شعورها بالخيبة. "ثالثاً،" تابعت القاضي، "سوف أقوم بتأجيل تحديد موعد المحاكمة من أجل إعطاء الحكومة الإسرائيلية مهلة لتهيئة المعلومات، وللسيد وولف مهلة للبحث عن أي معلومة وثيقة الصلة بالدفاع." وختمت القاضي بينما هي تواجه شارب، "فيما لو رفضت إسرائيل ذلك، فإن هذه المحكمة سوف تدرس إمكانية اتخاذ قرارات أكثر جذرية قد تتعدى بكثير تأجيل تحديد موعد للبدء بالمحاكمة. لطفاً انقلي هذا بأي وسيلة قد تراها حكومتنا مناسبة."

كان من الواضح أن شارب قد فشلت حتى في النطق بكلمات المجاملة الشكلية التقليدية.

"هل هناك من شيء لم تستوعبيه يا سيدة شارب؟"

"لا يا صاحبة الاحترام. شكراً لك."

استدارت تايلور نحو دافيد وهي تهز برأسها. "فهمتُ من أوراقك أنك تنوي السفر إلى إسرائيل. وبصرف النظر عن استجابة حكومتها لقراري، فإني أقترح عليك أن تبادر إلى القيام برحلتك في أقرب فرصة ممكنة." صارت لهجتها باردة. "لا أريدك أن تعود إليَّ وأنت لم تعمل شيئاً سوى تقديم هذه المذكرة التي بكل حال أنت تتوقع أنها سوف لن تعطيك شيئاً سوى ما أنت تريده فعلاً: أي أن تجعله أساساً لمذكرة أخرى تطلب فيها رد الدعوى. وهذه قد تنذر بموجة جديدة من الانتقاد، بل قد تتسبب في إثارتها فعلاً. تماماً مثلما فعلَت مقابلتك على السي.أن.أن."

لقد كان هذا تحذيراً لدافيد، لو كان دافيد يحتاج إلى تحذير، أن دربه الخاص سوف يكون شاقاً، أما نتيجته فلن تكون مضمونة. "شكراً لكِ يا صاحبة الاحترام. سوف أحفظ نصيحتك بكل إخلاص."

* * *

"إذن، أنت ذاهب إلى إسرائيل، "قالت هناء بلطف. "البلد الذي لم تره بعد."

"نعم. وإلى الضفة الغربية أيضاً."

هزَّت هناء رأسها، ثم أعطته رقعة مكتوبة. "هذه هي الأسماء التي طلبتها مني، الأصدقاء والزملاء الذين يعرفونني جيداً." ومع أن ابتسامتها كانت ساخرة، فإنها بدت شجية. "إنها مغربَلَةٌ بعناية، طبعاً، لحذف اسم كل من يَعتقد أنني قادرة على القتل."

لم يعرف دافيد ماذا يقول لها. وضعت هناء إصبعاً جميلاً على الاسم الأخير الذي دوَّنته. في الجليل، هنالك ابنة عمي سوزان. لقد قابلتُها مرة واحدة في حياتي. لكنها امرأة شابة، ذات تناقضات ممتعة. فهي مسلمة، لها أمٌّ مسيحية، وجدّة يهودية. ولا عجب في أن تكون بعدُ لم تتزوج. وهي الآن تدير مدرسة في إسرائيل. هذا بالإضافة إلى أنها أيضاً، ذكية وجميلة جداً."

ابتسم دافيد. "هل هذا هو السبب الذي يحتِّم عليَّ لقاءها؟"

"إذا شئت ذلك." صار وجه هناء رصيناً الآن. "لكن لي سبب آخر لطلبي هذا. فسوزان تستطيع أن تدلَّك على قرية أهلي. كما أعتقد أنها قادرة حتى على أن تدلَّك على المنزل الذي عاشوا فيه. إن والدها يعرف موقعه."

دهش دافيد. فعمق عباراتها كان يشي بأهمية هذا الأمر بالنسبة إليها. "هل تريدينني أن أقوم بزيارة أحد نيابة عنكِ؟"

"نعم، أتمنى أن تزور أهلي،" تكلمت بسرعة أكبر، فيما عيناها شائحتان. "لقد كتبت لك كيف تصل إليهما في المخيم. وهذه ستكون خدمة أخرى تقدمها لي يا دافيد، رحلة فرعية إلى لبنان. إذ ليس لديَّ طريقة حقيقية كي أطمئنهم. كما أن لا سبيل لهم لمعرفة ما حصل في قريتهم. وربما كان باستطاعتك أن تقضي المهمتين معاً."

تردد دافيد: إذ إن جزءاً منه لم يتقبل فكرة لقاء الرجل والمرأة اللذين كانا مؤثرين في قرار هناء عدم الزواج منه، واللذين لو علِما أنه كان حبيباً لها فسوف يقومان بطرده دون أيِّ شك. "إني أعلم،" قالت هناء بصوتٍ أكثر انخفاضاً، "هذه مسافة تذهب إليها في حياتي، أبعد مما أنت تريد أن تذهب إليه. أو أكثر مما أردت أنا لك، من قبلُ، أن تذهب إليه. لكن رحلتنا قد صارت أكثر تعقيداً ممَّا قد جرى يوماً ببالي. ولهذا، فإني أطلب منك ما أطلب."

بعد لحظة، هزَّ دافيد رأسه بالموافقة. وضع الورقة في جيبه. ثم وقف.

"دافيد؟" نظرت إليه هناء في تردد. "هذه ستكون زيارة جيدة، آمل ذلك، ليس بالنسبة لي فحسب، بل بالنسبة إليك أيضاً. لكن مهما حصل معك، أرجوك أن تعود سالماً."

التقت عيونهما للحظة، ثم صرفت نظرها عنه. "سوف أحاول،" قال دافيد مغادراً. وعندما استدار بدافع الغريزة نحو غرفة الشهود. كانت هناء تشيعه بأنظارها عبر الزجاج المضبَّب.

وهكذا، ذهب دافيد إلى منزله وحزم حقيبته استعداداً للسفر إلى إسرائيل.

القسم الثالث

III

المحـــاصـــر

الفصل

1

اتخذ دافيد له رحلة على متن طائرة المساء.

كان تحويل مقعده على درجة رجال الأعمال، إلى سرير مريح أمراً ممكناً. وقبل أن يسوِّي وسادته تحت رأسه، جال بنظره على زملائه المسافرين في درجة رجال الأعمال. فإذا بهم في غالبيتهم من رجال الأعمال الإسرائيليين الكهول، أو من اليهود الأسيديين، حيث النساء محتشمات اللباس، والرجال من ذوي الجعود الجانبية، والقبعات، والمعاطف السوداء. كان الرجال يميلون إلى شحوب البشرة. ويتراوحون ما بين مفرطٍ في البدانة، أو شديدٍ في النحول. وكان في تقدير دافيد أن أيّاً منهم ليس له عهد كبير، لا بحجرات الرياضة، ولا بأشعة الشمس المباشرة. كما لم يشعر أن رابطاً يربطه قطُّ برفاق السفر اليهود هؤلاء، أكثر مما لو كانوا مسلمين.

لذلك، فإنه سرعان ما استسلم للرقاد بُعيد إغماضه لعينيه.

وعندما استيقظ من رقاده قبيل الفجر، وجد أن الرجال الأسيديين يتجلببون كلٌّ في لفاع الصلاة، ويتجهون نحو زاوية في حجرة الطائرة، فيما يبدو كأنهم يلتمسون إشراقة الصباح الأولى. حمل الرجال كتب صلاتهم، فيما حزموا أذرعهم بأسورة جلدية، كما ربط كل منهم إلى جبينه علبة جلدية صغيرة، وقد اكتشف دافيد لاحقاً، من كتابٍ سياحيٍّ مرشدٍ، أن كلاً من هذه العلب كان يحتوي على رقٍّ كُتبت عليه بعض نصوص التوراة.

من بين المقاعد الأمامية كان طفل أسيديٌّ يلبس مثلما يلبس أبوه، يختلس النظر إلى دافيد بعينين براقتين فضوليتين، وكأنما هو يحدِّق في وجه مخلوق غريب. لكن عندما ابتسم له دافيد فإن الطفل ردَّ الابتسامة بتكشيرة تدل على سروره لهذا التجاوب. وعلى الفور، جالت في ذهن دافيد صورة منيرة المتلفعة بالسواد، وهي تذاكر القرآن تحت رقابة عين والدها الساهرة. لم يعرف دافيد في طفولته كيف أن كل ثقافة اجتماعية تفرض على صغارها نظامها وإيمانها الديني، بدلاً من أن تترك لهم حريَّة البحث والتفكير والخيار. لكنه كان قد خبِر أثر ذلك من الدرس القاسي الذي تعلَّمه من هناء.

لم تمضِ ساعة أخرى حتى حطت بهم الطائرة على أرض المطار. وها هو دافيد يحط في مطارٍ إسرائيلي في نهاية المطاف.

❋ ❋ ❋

غادر الطائرة متتبعاً اللوحات الإرشادية في اتجاه باحة الأمتعة، وهو المكان المتفق عليه للقاء زيف آرنهيت، صديق صديقه بروس مارتل.

كان آرنهيت هذا، رجلاً عريض المنكبين، في بداية العقد الرابع من عمره، وله شعرٌ أشيبُ قصير الجُمَّة، وملامح بارزة، وعينان عسليتان فهيمتان أحاطتا دافيد بنظرات تتراوح بين الشك والاستخفاف، وكأنهما تقولان باسم صاحبهما، أيُّ بضاعة هذه قد وردت إلينا؟ لكن دافيد كان يرى في ذلك نموذجاً عن الاستجابة المتوقعة من رجل موساد متقاعد نحو محامٍ يهودي يتولى الدفاع عن فلسطينية متهمة باغتيال عاموس بن آرون.

صافح آرنهيت ضيفه بيدٍ ثابتة، أمَّا سلوكه فقد كان صريحاً ومباشراً. "إذا لم تكن مرهقاً جداً،" قال لدافيد، "فإن علينا التوقف لدرسٍ في التاريخ بينما نحن في طريقنا إلى القدس. لأن مارتل يؤكِّد لي أنَّ أيَّ شيءٍ سأحدِّثك به سيكون أمراً جديداً بالنسبة إليك."

لاحظ دافيد أن دليله هذا شديد الحذر والانتباه حتى وهو يرسل كلامه، بينما نظراته السريعة الحادة، تمسح المحيط دائماً من حولهما. أما القميص الفضفاض القصير الكمَّين، فقد أخفى تحته مسدساً، كما تراءى لدافيد. "أجل أيَّ شيء" أجاب دافيد مبتسماً. "على أن يتضمن ذلك كل شيء عن القاتل الحقيقي لعاموس بن آرون."

اكتفى آرنهيت بهزِّ كتفيه. أمَّا نظرة الاستخفاف فسرعان ما تبخَّرت.

❋ ❋ ❋

كانت الطريق المعبدة حديثاً بين تل أبيب والقدس، تمر عبر مشاهد طبيعية من تلال صخرية مغروسة بأشجار الصنوبر. وقد قيل له: إن رعيل الصهاينة الأول قد استصلح هذه الأراضي عن طريق تشجيرها، وأن ما يراه دافيد الآن بحسب آرنهيت، هو نتاج أعوام من الغرس الذي وصل إلى مئتي مليون شجرة، ليكوِّن هذا العمل، بذلك، أعجوبة صغيرة تنمُّ عن قدرة الإنسان على إعادة تكييف المناخ الطبيعي نحو الأفضل.

"كل هذه الأشجار،" أشار آرنهيت، "لها معنى مجازي. فدولة إسرائيل ليست ممتدة الجذور في تاريخنا اليهوديِّ فحسب، بل في عَرَق مليون يهودي أيضاً. والأرض التي يدَّعيها الفلسطينيون، ويطالبون باستعادتها، هي غير الأرض التي كانوا قد تركوها."

والبيوت الحديثة الإنشاء والطراز، العائدة لليهود، حسبما لاحظ دافيد، كان يغلب عليها أن تكون مجصَّصة باللون الأبيض، ولها أسقف قرميدية حمراء، كما أنها تبدو كما لو

أنها قد نبتت فوق الأرض من لا شيء. وهي في تعنقدها وتكتُّلها معاً، ذكَّرت دافيد بضاحية نموذجية من ضواحي جنوب كاليفورنيا. إذ إن لها ذات حسِّ الفجاءة، والحيوية، والعزيمة الإنسانية التي لا تقاوَم. وعلى تلة مجاورة، لاحظ دافيد وجود تجمُّع ممتدٍّ من البيوت التي تعلو بينها قبة مسجد، يرسم خطَّ كفافٍ على خلفية من السماء الزرقاء. "إنّها قرية عربية،" قال آرنهيت موضحاً.

أومأ دافيد موافقاً. "إن طراز العمارة مختلف."

أبقى آرنهيت نظره على الطريق. "والثقافة مختلفة أيضاً،" أجاب باقتضاب. "فبينما أبناء اليهود يهجرون بيوت ذويهم، فإن أبناء العرب يحضرون زوجاتهم للعيش مع أهلهم، وهكذا، فإن البيوت نفسها لا تنفكُّ عن النموِّ والتكاثر."

وبصمتٍ فكَّر دافيد في هناء ووالديها. "وبخصوص مسألة بن آرون،" قال آرنهيت فجأة، "فإن أحاديثنا الجادة حولها يجب أن تجري في العراء. فأنت هنا دخيل، وضيف غير مرحَّب به. وليكن من الأمور المسلم بها لديك، أن اتصالاتك الهاتفية ستكون خاضعة للمراقبة، وأن غرف إقامتك في الفنادق ستكون مزروعة بأجهزة التنصت. كما أن آثارك سوف تكون متَّبَعة."

"ولأيِّ سبب هذا؟"

مغمضاً عينيه نصف إغماضةٍ في وضح الظهيرة الباهرة، لم يرَ آرنهيت بداً من اللجوء إلى نظارتيه الشمسيتين. "دعنا نفترض،" قال لدافيد، "أن حكومتنا تعتقد اعتقادك بأن ثمة مؤامرة لقتل رئيس وزرائنا تضمُّ متآمرين يهوداً. ثم دعنا نطوِّر افتراضنا بأن هذه الحكومة لا تعرف حتى الآن من هم هؤلاء الأشخاص الضالعون في المؤامرة، ولا ما هي أبعادها. وفي كل حال، ستكون حكومتنا قلقة مثلك لمعرفة الحقيقة، إن لم يكن أكثر."

"وما الداعي إلى إضاعة الوقت عليَّ؟"

"ولِمَ لا؟ فقد تعثرُ أنت على شيء ما، يريدون معرفته. كما أن ثمة أناس في إسرائيل، ولأسباب تختصُّ بهم، قد يودُّون مساعدتك."

وأنت تُراك في أي صفٍّ تقف؟ جال سؤال صامت في ذهن دافيد، بعد أن زيَّن له ارتباكه تساؤلاً حول ما إذا كان آرنهيت ذاته جاسوساً يسجل عليه كلامه. "سأجعل ذلك في حسباني،" أجاب دافيد.

توقَّفا على تلة تشرف من بعيد على مدينة القدس. في أعلى التلة كان ثمة بناء حجري قديم تكاد تظلله أشجار خضراء عريضة الأوراق، ولولا كتابات إسلامية بدت على مدخله، لكان يمكن اعتباره كنيسة. وحالما اقتربا من البناء، مشياً على الأقدام، سأل دافيد رفيقه، "ما هو هذا المكان؟"

"إنه مكان مناسب ليكون منطلقاً لجولتنا،" أجاب آرنهيت. "إنه الكنيسة التي تحولت إلى جامع. وهو المكان الذي احتوى على قبر إسماعيل، الذي هو ربما أعظم أنبياء اليهود. وهو واحد من ثلاثة أشخاص ـ الاثنان الآخران هما، هارون، وموسى ـ اختصَّهم الله بالكلام معهم."

"ومن ذا الذي شيد البناء القديم؟"

"شيده الصليبيون، حثالة أوروبا. لقد أتوا لاستخراج الكنوز المقدسة، لكنهم بدلاً من ذلك طعنوا الإسلام في الصميم، جاعلينه بذلك، يبدأ صراعاً لا يتوقف مع الغرب." أنصت آرنهيت مشيراً إلى الكلام المنقوش. "هذا النقش أثرٌ تركه صلاح الدين، القائد الكبير الذي استرجع القدس واستعاد شرف الإسلام في العالم. وعليه، فقد بات هذا المكان مكاناً مقدساً للأديان الثلاثة."

تبِع دافيد خطى آرنهيت خلال المدخل. كان جوف البناء الحجري مقسوماً إلى جناحين. مسجد يمكن للمسلمين إقامة الصلاة فيه، بينما حُفظ قسمٌ من الكنيسة القديمة للمسيحيين، أما في الوسط، فدرجان ممتدان، أحدهما للنساء والآخر للرجال. تبع دافيد رفيقه على الدرج الحجري فرأى قبر إسماعيل مجلَّلاً بالقماش، وبجانب القبر جثا ثلاثة من اليهود الأسيديين يرتلون الصلوات برؤوس منحنية، بينما تترنح أجسادهم بين أمام ووراء.

بعد خروجهما، جلسا على جانب تلة تواجه القدس. "ذاك هو المكان الذي بنى فيه شاوول، ملك إسرائيل، قصره." قال آرنهيت مشيراً إلى تلة مجاورة. "لكن البناء غير المكتمل الذي تشاهده هو القصر الذي بدأ ببنائه ملك الأردن البدوي، وقد هجره بعدما هزمناه في حرب 1967. إخال أنك قد بدأت تفهم ما أقوله لك."

تمثَّل دافيد خلال إحساسه بتبدُّل الحدود، قيام المواقع الدينية بعضها فوق هام الآخر، كما تمثَّل تداخل التواريخ، تواريخ الشعوب المتحاربة. "تعني أن تقول أن كل شيء هنا صعب ومعقَّد،" أجاب على تساؤل آرنهيت.

ضحك آرنهيت بهدوء. "حتى الحقيقة الواحدة في الشرق الأوسط، لها أربع روايات. فالمؤمنون، جميعاً، لهم نظرية لاهوتية، وهي كلمة الله المكتوبة المنزهة عن الخطأ. لكن حقيقة الله تختلف ما بين اليهود والمسلمين، بل تتناقض أيضاً". عقف آرنهيت إبهامه مشيراً إلى بناء خلفهما. "هنا كما أنت ترى، حقيقة أثرية، إنها سجلٌ لأثر خطوات البشر، رغم أنه لا ينطبق دائماً مع الحقيقة اللاهوتية. ثم هناك الحقيقة التاريخية التي تجمع بين الواقع والخرافة، وهي بذلك رواية لأحداث الماضي كما يشتهيها الناس أن تكون.

"وأخيراً، هناك حقيقة سياسية، وهي الطبعة الأولى، غير المنقحة، من التاريخ. وهي حكاية عن الزمن الجاري يتقولب فيها الدين، والآثار، والتاريخ وفقاً لحاجة الراوي. لأجل هذا فإن عرفات أصرَّ، بخلاف الحقيقة اليهودية، أن قبة مسجد الصخرة لم تُبنَ على الموقع

الذي أتى إليه إبراهيم ليضحّي بولده المفضل إسحاق. وهو بحسب الرواية الإسلامية: إسماعيل، بشير المسلمين."

ابتسم دافيد. "إنه صراع الأنسباء."

"يعود تاريخ هذه الحكاية إلى ثلاثة آلاف عام فقط. وهي في جوهرها صراع بين المسلمين واليهود على من يكون شعب الله المختار، وكل من الشعبين يدّعي أن الله قد أعطاه الأرض ذاتها التي يريد العودة إليها." تكلم آرنهيت بلهجة مذعنة. "ففي زعم هناء عارف أنها تعيش في الأراضي المحتلة التي يحيط بها اليهود الغاصبون. لكن في زعم يهودٍ كثرٍ أنها هي التي تعيش على أرض يهودا والسامرة، التوراتية، التي يحتلها الآن العرب الإرهابيون، المعادون للسامية، وهم الذين يطلقون على يوم الاستقلال عندنا اسم يوم النكبة."

"وبالنسبة إليك؟" سأله دافيد. "أين يبدأ التاريخ، وأين ينتهي؟" فكّر آرنهيت في السؤال، ثم أشار إلى خط الأفق البعيد وراء القدس. "بالنسبة إليّ، وفيما أنا أجلس في هذا المكان، فإن التاريخ قد بدأ منذ ثلاثة آلاف سنة." استدار نحو دافيد ناظراً إليه نظرة صارمة. "هذا هو المكان الذي ولد فيه الشعب اليهودي، وليس في الأرجنتين ولا في أوغنده، ولا في سواهما من المنافي التي يقترح العالم دفعنا إليها بعد أن ذهبت الهولوكوست بحياة ستة ملايين منا، ليس لسبب سوى لعدم وجود مكان آخر يلجؤون إليه. إن أميركا الجنوبية لا تعني لنا شيئاً، وكذلك إفريقيا لا تعني لنا شيئاً. فجذورنا وميراثنا هي هنا. لهذا، فإن هذا هو المكان الذي يبدأ فيه تاريخنا، وهذا هو المكان الذي فيه ينتهي."

أحياء أو موتى، جال في ذهن دافيد، ليس هنالك من شك في اللغة المصمِّمة التي يتكلمها آرنهيت. "أريدك أن تعرف شيئاً،" قال دافيد. "عن هذه الرحلة، وعني. قد أكون يهودياً سيئاً بالنسبة للبعض. لكن هذه هي مشكلتهم وليست مشكلتي. ليس لي دخلٌ بالانتحاريين، ولا بالإرهابيين، ولا بأي شخص تعنيه إزالة هذه الدولة من الوجود. ولو كنت أعتقد أن هناء هي واحدة من هذه الفئات، لما كنت موجوداً هنا. وليس لي من هذه القضية سوى تعب القلب. وسوى ربما الحاجة إلى معرفة ما يجب معرفته عن الحقيقة، سارّة كانت أم محزنة."

نظر آرنهيت إلى دافيد نظرة فاحصة. "سارّة كانت أم محزنة." كرَّر العبارة. "إنها مؤهِّلات في غاية الأهمية.

"ثم أضاف قائلاً: "لا تعتقدنَّ أنك قد فهمتَ هذه المنطقة، ولا تثق كثيراً بأنك قد فهمتَ موكلتك. أو ما قد يكون لديها من دوافع لقتل رئيس وزرائنا. لأنك لن تستطيع ذلك."

الفصل

2

في الطريق المتلوية إلى القدس، مرَّ دافيد وآرنهيت بقرى يهودية، وبأخرى عربية، كما مرًّا بالقرب من مقبرة بريطانية من بقايا الاستعمار الإنكليزي، وكذلك بالمباني الجديدة للجامعة العبرية، التي تمكن مؤسسوها، حسب آرنهيت، من إعادة اختراع لغة كانت موجودة قبل ثلاثة آلاف سنة، وذلك في جهدٍ مصمِّمٍ لنبش حضارة بائدة. ثم توقفا مرَّة جديدة عند جبل المكبِّر الذي يطلُّ على مدينة القدس.

أسند دافيد جذعه إلى حاجز المِطلِّ. وعلى التلة المنحدرة تحتهما، كان ثمة مقبرة يهودية. وقد شرح آرنهيت أن العادة كانت تقضي بدفن الموتى في شرقي القدس حيث تهب الرياح السائدة من اتجاه المدينة. وأن هذه الرياح ذاتها باتت تحمل معها صوتاً ملازماً لها، هو صوت آذان المؤذِّن الآتي من القدس القديمة، تلك المدينة التي بنيت جدرانها من الحجر الرمليِّ في أيام الرومان، لتحيط بالمواقع المقدسة للحضارات الثلاث.

كان مشهد المدينة مشهداً شرق أوسطي. فهو قديمٌ، كما أنه بدا بالنسبة إلى دافيد آمراً، بل آسراً، بجماله الروحاني. فالجوامع بقبابها العالية ومآذنها الشاهقة فوق الجدران، بين أشجار الصنوبر والنخيل، المغروسة على إطار جوارها، والمباني التي تحيط بها، كلها أمورٌ جعلت المدينة القديمة تبدو مدينة من أثير. حتى من هذه المسافة البعيدة استطاع دافيد أن يتفهم رغبة الناس في الاستئثار بهذه المدينة. أشار آرنهيت إلى القبة المذهَّبة لمسجد الصخرة، الموقع الإسلامي المقدس، كما أشار إلى كنيسة سيدة البشارة، المبنية على الموقع الذي يُفترض أنه شهد عملية صلب السيد المسيح. كما أشار إلى القبة السوداء للمسجد الأقصى. "بالنسبة إلى المسلمين،" قال آرنهيت، "فإن المسجد الأقصى كان المحجة التي يمكن الحج إليها إذا نأت مكة. وأن هذا المسجد قد استُقي منه مؤخراً اسم الجماعة الإرهابية التي يدَّعي القتلة أنها قد خططت لاغتيال عاموس بن آرون."

"وهل تعتقد أنت ذلك الاعتقاد؟"

اتكأ آرنهيت إلى الدرابزين فيما وجهه الناب متجه نحو المدينة. "ولِمَ تعتقد أنني أمدُّ

لك يد المساعدة؟ إذا كانت هناء عارف مذنبة إلى درجة يتوفر عليها ما يكفي من دليل، فليقم الأميركيون بإعدامها. لكنها لم تكن لتستطيع أن تضع كل هذا المخطط لوحدها، أمَّا الناس الذين قاموا بمساعدتها فلا ينتمون إلى كتائب الأقصى."

قال آرنهيت جملته الأخيرة بنبرة واثقة جعلت دافيد يستدير نحوه محدِّقاً. بعد برهة أشار آرنهيت إلى الأرض المتحدِّرة تحت المدينة. "هل ترى ذاك الشريط من الأشجار تحت الجدار؟"

حدَّق دافيد فرأى خطَّ الأشجار المذكور. كان خطاً مستقيماً كثيفاً بالأشجار الممتدة على طول الأفق. "إنه يشبه خط الحدود،" قال.

"إنه في الواقع خطُّ حدود. إنه الخط الأخضر، كما ندعوه، إنه حدود الزرع الصهيوني. فبعد عام 1948، تحوَّل هذا الخط إلى خطٍّ واقعيٍّ للحدود. وقد بقي كذلك حتى العام 1967. وكما ترى، فإنه لا يحتوي على الجزء القديم من مدينة القدس. وهو خطٌّ من الصعوبة الدفاع عنه بمكان." مستديراً نحو اليسار، رفع آرنهيت ذراعه ليدُلَّ على جدارٍ أخضر ارتفاعه عشرون قدماً، يتلوَّى على امتداد جانب التلال، وهو غير تامِّ البناء. "وهذا هو خطّ حدودنا الواقعي الجديد، على الأقل للوقت الحاضر. إن هذا الجدار الأمني قد قُصد به حمايتنا ضد هجمات كتائب الأقصى، وحماس، والجهاد الإسلامي، وسواهم من الجهات في الضفة الغربية، التي قد ترسل إلينا إياد حسن الجديد لكي يقوم بقتلنا في القدس وحيفا وتل أبيب.

"وبين خطي الحدود هذين، تقع منطقة الخوف المعزولة. وبعض معارضي بن آرون، بما فيهم المتدينون الذين اعتقدوا أنه سيقدم على إعطاء فاراس والفلسطينيين، الأرض المقدسة العائدة للمدينة القديمة. بينما اعتقد آخرون أنه سيقوم بالتخلي عن مستوطناتنا في الضفة الغربية. وكلُّ ما تحتاج إليه لكي يجتاحك الخوف هو الاكتفاء بالنظر إلى خط الحدود الأخضر. وهو دليلٌ تاريخي على عدم استقرار وجودنا في هذه الأرض، كما كان، وكما لا يزال حتى الآن. وعند ذلك، ربما، سوف تبدأ في الاعتقاد أن بن آرون خائن. وأن بعض القادة قد ماتوا جزاء لما هو أقلُّ من هذا بكثير."

"إذن، أنت تعتقد أن يهوداً قد ساعدوا على قتله؟"

"إنني أعتقد أن هذا احتمالٌ لا يمكن استبعاده. لكن الإجابة على السؤال المتعلق بمن قام بقتله، يمكن إيجاده أيضاً في الفشل البارز لقائدٍ آخر، هو ياسر عرفات. كما في عملية اغتيالٍ أخرى لقائد آخر، هو إسحاق رابين."

فكَّر دافيد في هذا الكلام. "قادة موتى،" قال. "وفرص مهدورة."

"لم يترك عرفات فرصة واحدة تمكِّنه من تفويت الفرص. لكنه في بعض الأحيان

كان يتلقى مساعدة خارجية." مسح آرنهيت نظارتيه الشمسيتين بعناية معيداً إياهما إلى جيب قميصه. "بعد عودة عرفات إلى الضفة الغربية من منفاه في تونس، قرَّر رابين أن الأراضي المحتلة لم تكن سوى مستنقع يتورط فيه اليهود. وأن عليه أن يجد مخرجاً عملياً من خلال ياسر عرفات لإعطاء الفلسطينيين بلادهم الخاصة بهم في مقابل السلام الدائم. وهذا ما أكسب رابين رصاصة على يد يهودي يميني متطرف.

"ولعلك تعتقد أن مقتله كان سيثير ردَّة فعلٍ ضد اليمين الإسرائيلي، أي انتفاضة سياسية مطالبة بالسلام. لكن بعض المنظمات، التي لا تريد السلام ولا ترغب فيه، اختارت هذه اللحظة بالذات لتشن موجة من التفجيرات الانتحارية ضد إسرائيل. أمَّا النتيجة فكانت انتخاب ألدِّ أعداء عرفات، وهو بنيامين ناتانياهو، مرشح اليمين الإسرائيلي، مستفيداً من ردّة الفعل تجاه تلك التفجيرات. وهكذا، فإن تعاوناً منسقاً بين المتطرفين من كلا الجانبين قد أدَّى إلى اغتيال فرصة السلام."

ومن خلفهما، طرحت شمس الأصيل أشعتها الخافتة عبر المدينة القديمة متسببة في جعل درجة اللون الذهبي لقُبَّة المسجد، تميل نحو القتامة والانقباض. "مهما تكن إخفاقاتنا الخاصة،" تابع آرنهيت كلامه بشيء من المرارة، "فإن هذه الأزمة الراهنة هي إلى درجة كبيرة، إرث عرفاتيٌّ لنا جميعاً. فناتانياهو كان قد سبقه في مقعد رئاسة الوزراء إيهود باراك، الذي كان مستعداً لمحادثات سلام دائم، مع الرئيس كلينتون كوسيط في هذه المحادثات. لكن عرفات كانت تنقصه الشجاعة، وقبل ذلك، الرغبة، في التخلي عن حق العودة الذي جرى التغني به على لسان الراديكاليين، من أمثال زوج موكلتك. وحتى تزداد الأمور تعقيداً، فإن خصم باراك الأساسي، آريل شارون، اختار هذا المنعطف الخطير لكي يقوم بزيارته للجامع الأقصى، التي يفترض منها: تأكيد سيادة إسرائيل على المدن الإسلاميه المقدسة." ابتسم آرنهيت ابتسامة متجهمة. "إذا كان الأمر كذلك، فيندر أن يكون ثمة أسوأ من هذا الرسول لإيصال هذه الرسالة. فالفلسطينيون يعتبرون شارون مهندس مذبحتي صبرا وشاتيلا. وزيارته صارت بمثابة ضوء الانطلاق لمزيد من التفجيرات الانتحارية التي شنها الفلسطينيون، وهي ما أدّى في ما بعد إلى الانتفاضة الثانية."

توقف دافيد عند حرفية عبارة آرنهيت الأخيرة. "هل هذا هو ما تعتقده؟" طرح عليه السؤال.

"ليس بالضبط. إن اعتقادي الخاص هو أن عرفات كان قد استعمل زيارة شارون ذريعة له. لقد اعتقد أن تشجيع الرعب قد يعطيه زيادة في النفوذ والتأثير في مفاوضات السلام مع باراك. ولقد كان عرفات في هذه المسألة، كما في كثير من سواها، ساذجاً. وما حصل عليه بدلاً من ذلك، كان تسع مئة قتيل يهودي، وثلاثة آلاف قتيل فلسطيني، إضافة إلى هزيمة باراك في وجه شارون، عدو عرفات اللدود. الذي صار رئيساً لوزراء إسرائيل.

"إن فَهمَ هذه الحصيلة هو أمرٌ ضروريٌّ لمعرفة من الذي قد يكون هو المخطِط

لعملية اغتيال بن آرون. فبعد ستين حادث تفجير انتحاري، على مدى سبعة أشهر، طوَّق شارون مقرَّ عرفات في رام الله، مدمِّراً كلَّ شيء تقريباً من حول هذا المقر. تاركاً عرفات يشجب الصهاينة عبر هاتفه الخلوي إلى أن نضبت بطارية هاتفه. عند ذلك، تثاءبت الصحافة، ونضب الطعام مع حاشيته." هزَّ آرنهيت كتفيه، ثم أضاف "ولآخر ثلاث سنوات من عمره، عاش عرفات محاصراً في معتقله بقرار إسرائيلي أميركي، مجبراً على التفرُّج على شارون، دون أي حيلة له، وهو يبني الجدار الأمني ويشن هجوماً مُدَمِّراً استمر لمدة اثني عشر يوماً على مخيم جنين للاجئين، وهو معقل للإرهابيين يقع فيه منزل إبراهيم جعفر، وقد أسفر الهجوم عن مقتل الكثير من سكانه، لم يستطع عرفات أن يعمل حيالهم شيئاً سوى ضمِّهم إلى لوائح "شهدائه"، لقد مات الرجل قبل أن توافيه المنية. ولم يترك لشعبه شيئاً سوى الاحتلال، والعنف، والدمار الاقتصادي، وشريط من المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية - وبعضها غير قانوني - مع شبكة طرقات محفوظة للإسرائيليين تصل بين المستوطنات كشبكة عنكبوت، كل ذلك إضافة إلى هذا الجدار الحاجز. ولأن هذه الأرض باتت أرضاً خصبة لظهور حركات التطرف، لذلك فقد تعزَّز نفوذ حماس."

"ومات السلام؟" سأل دافيد.

"أظن ذلك. فبالنسبة لي، إن آخر أملٍ في السلام كان في التعاون بين فاراس وبن آرون. أما الآن، فقد تمَّ اغتيال بن آرون، مثلما اغتيل من قبله رابين. أمَّا فاراس فقد خسر كل مصداقيته، كما خسرها عرفات من قبله. ومثلما فعل ناتانياهو، فإن رئيس وزرائنا الجديد قد شن هجمات جديدة على الإرهابيين. وبات حلم بن آرون بالسلام ميتاً موتة بن آرون نفسه. وما الذي بقي في الضفة الغربية." ختم آرنهيت كلامه بنبرة من القَدَرية الهادئة، "سوى الجنود الإسرائيليين المنهمكين في الوقت الحاضر في اجتثاث كتائب شهداء الأقصى، أمَّا سوى ذلك، فلم يبق سوى الفراغ الذي خلَّفه عرفات وراءه، وهو مجرد الصراع على السلطة بين فاراس وفتح، الذي ربما أطفأت جذوته حادثة الاغتيال، وردود الفعل الإسرائيلية عليها - كما بقي متطرفو منظمة حماس. والسؤال: من هو المستفيد من مثل هذا الفراغ، ومن موت بن آرون"

"الجواب سهل، إنه كل من لا يرغب في السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين."

"إنها لائحة طويلة متناقضة،" قال آرنهيت موافقاً. "ومع الأسف، عندما تأتي الأمور إلى من الذي تآمر على قتلِ بن آرون، فإن هذه هي لائحتك بالمشبوهين."

"وما من شك أن حكومتكم تعمل ليل نهار للوصول إلى تحديدهم."

"جهاز الشين بيت، على وجه الخصوص يفعل ذلك، إنه يجمع المعلومات عن الفلسطينيين، وعن سواهم، من المجموعات الإرهابية، كما عن نشاطات التجسس للدول

الشرق أوسطية في إسرائيل وفي الضفة الغربية. وكذلك عن المتطرفين اليمينيين مثل أنصار حركة مسعدة."

"لقد شاهدتُ قائدهم على التلفاز،" قال دافيد. "إنه يدعى باراك ليف. وهو مجنون."

"ربما. لكن جنون أحدهم يجعله المنقذ المخلِّص بحسب الحقيقة الدينية. وربما يكون ذلك هو السبب الذي يجعل الشين بيت تستعمل ساعة الشيطان ذاتها لتفكيك حركة مسعدة. هؤلاء الرجال لا يتكلمون سوى إلى بعضهم بعضاً، وسوى مع الله."

"لكن الله لا يتكلم سوى مع إسماعيل، وموسى، وهارون." أجاب دافيد.

ضحك آرنهيت ضحكة مقتصدة. "أنت لمَّا تعرف اليهود بعد. لكن إذا أعطيت أوامر إلى الله مثلما يفعل باراك ليف، فربما يستجيب لها الله بطريقته الخاصة. لقد كان طلب ليف الأخير إلى الله، كما تذكر، أن يصرع بن آرون كما صرع هتلر من قبل."

"هل هناك من فرصة،" سأل دافيد دون كبير أمل، "أن يزودني الشين بيت، على الأقل، ببعض ما يعرفونه؟"

"ليس هناك من فرصة لذلك. لكن يوجد هناك سواهم، كما قلت لك، من الذين قد يرغبون في مساعدتك ـ لكن بطريقة هادئة وغير مباشرة ـ من أجل أن يضعوك على طريق سِفر الأمثال، المتعرِّج الطويل." نظر آرنهيت إلى ساعة يده. "وفي الواقع، فإننا سنلتقي واحداً من هؤلاء في فندق الملك داود لنجري معه حديثاً عابراً على مائدة شراب.

"اسم الرجل، موشي هاوارد. وهو بالتحديد: سيكون مستشارك القانوني في إسرائيل، وقد تم استئجار خدماته من أجل مساعدتك في ما يتعلق بطلبك للمعلومات. وانطلاقاً من كون هذا الطلب لا أمل منه يرجى، فإنها ستكون مضيعة حمقاء للمال، على افتراض أنه قام لاحقاً بإرسال فاتورة أتعابه إليك. مع أنه من المعلوم أن امتعاضه الشديد من موكلتك سيمنعه من فِعل ذلك."

"إذن، ما هو الداعي إلى اللقاء به؟"

"في غضون أربعة أشهر سوف نقوم بانتخاب رئيسٍ للوزراء، وما لم تحدث أحداث درامية، فإن إسحاق بنيامين سيكون هو من يتولى هذا المنصب، وهو شخص مدعوم من المستوطنين والمتدينين، ويلقى نقمة أتباع بن آرون." أنصت آرنهيت لحظة للتفكير في كلماته. "موشي هاوارد له أرب في تغيير ديناميكية الاقتراع، وقد تكون أنت نافعاً لأربه هذا. وفي الوقت الحاضر، لنتوقف عن الكلام في هذا الموضوع، عند هذا الحدِّ، آملين أن الرجل سيجدك موضعاً لثقته."

الفصل

3

كان فندق الملك داود ملوكياً حقاً، فهو المقر الرئيسي السابق لقائد الفيلق البريطاني. وهو بناء من الحجر الرملي، مؤلف من ستة طوابق. بني على طرازٍ باذخٍ فخم. أمَّا باحته المظللة بأشجار النخيل، فيطوف عليها النُّدُل في جاكيتاتهم البيضاء. وهو يشرف على المدينة القديمة، وله خط كفافٍ شبحيٍّ يتراءى على خلفية غاسقة، عند بدء دغشة الظلام. وهكذا، بعد أن أخذ دافيد حمَّاماً له منذ مدة وجيزة، وارتدى سترة وبنطالاً رياضيين مكويين، جلس يرتشف عصيراً لذيذاً مع آرنهيت، وموشي هاوارد.

كان هاوارد في عمر دافيد، نحيلاً ودقيق الملامح، وله شعر كستنائي قصير، وعينان زرقاوان سؤولتان. "إن ظروف زيارتك غير مريحة،" قال لدافيد بعد فترة قصيرة من بدء النقاش. "لكن من الضروري لك أن ترى الجغرافية التي نشترك فيها، فهذه ليست أميركا الوسطى."

هزَّ دافيد رأسه موافقاً. "نظرة واحدة إلى الخط الأخضر، تجعل معرفة سبب شعور الناس بالخطر، أمراً هو من السهولة بمكان."

ابتسم هاوارد ابتسامة مقتصدة. "كان والدي،" قال، "ضابطاً يهودياً في الجيش البريطاني عندما ساعدوا على تحرير بيرغن بلسِن. وقد كان من شأن تلك الحادثة أن غيَّرته. بعد مجيئه إلى هنا، كان كثيراً ما يتحدث عما يسميه: متلازمة الهولوكوست (Holocaust syndrome). وهي رضَّة عميقة في العقل الباطني الإسرائيلي، بحيث إن أي خطرٍ يأتي، سواء أكان من الداخل أم من الخارج، يكون له من الصدى ما يثير عقدة الخوف من الإبادة الجماعية.

"إنه من غير الممكن لنا ألَّا نخشى الفلسطينيين الذين يرسلون صغارهم لرشقنا بالحجارة، ورجالهم لقتلنا ولقتل أنفسهم، ومن ذا الذي يستطيع أن يأمن مثل هؤلاء الناس المستخفين بالحياة وبقيمة الإنسان؟ لكننا كثيراً ما يخشى بعضنا بعضاً كذلك. فهناك الإسرائيليون اليهود في مواجهة الإسرائيليين العرب؛ وهؤلاء يعتقد الكثيرون منا أنهم

عملاء محتملون لأعدائنا الخارجيين العرب والإيرانيين وغيرهم؛ وهناك الإسرائيليون العلمانيون، بمن فيهم أنصار بن آرون، في مواجهة الإسرائيليين المستوطنين والمتدينين، وهؤلاء الأخيرون يخشون خيانة مواطنيهم اليهود لهم."

بينما كان يصغي، أومأ آرنهيت برأسه في اتجاه دافيد، "تحدثت معه قليلاً بشأن حق العودة،" قال مخاطباً هاوارد، "إنه التوق الذي يسكن زوج موكلته وأمثاله، وهم يضربون على هذا الوتر دون توقف."

"دُلني على سياسي فلسطيني واحد يصارح شعبه بأن ليس ثمة عودة ممكنة،" أجاب هاوارد، "وسأقول لك: إنه سياسي لا مستقبل له. ولو صحَّ أن عاد أربع مئة ألف فلسطيني من المتحدرين من أصلاب اللاجئين الفلسطينيين الموجودين في لبنان، ونصف مليون من أمثالهم من الضفة الغربية، فسيكون لا مستقبل لنا نحن أنفسنا."

نقل دافيد نظره من هاوارد إلى آرنهيت. "أليس العكس كذلك صحيحاً؟" سأل. "هنالك ثلاثة ملايين من الفلسطينيين تقريباً في الضفة الغربية. وأنت لا تستطيع أن تجعلهم جزءاً من إسرائيل. كما أنك لا تستطيع الاستمرار في احتلال أرضهم إلى الأبد. وبن آرون كان يتطلع إلى مخرج من هذا المأزق."

"في العام 1967،" أجاب هاوارد بلهجة جافة، "عندما طاردت قواتنا الأردنيين إلى خارج الضفة الغربية، فقد كان الأمر يشبه إقدام حواء على قضم التفاحة. فحتى في ذلك الوقت، فإن معظم قادتنا فهموا ذلك. لكن يهوداً متدينين كثراً كانوا في نشوة الفرح ـ أخيراً تمَّ لنا أمر استعادة الأرض التي وهبها الله لنا. وباختصار، فإننا لن نستطيع أن نتخلص من هؤلاء الناس.

"كذلك فقد قمنا مع امتداد الزمن، ببناء المستوطنات فوق الأرض التي اكتسبناها، لتكون متاريس لنا في مواجهة الغزو. إذ إن الكثير من الكيبوتزات المقامة بالقرب من القدس، ستكون درعاً لنا للاحتفاظ بالقدس. لكنه كان من الأجدر بنا أن ننشر جنودنا هناك بدلاً من ذلك. فالجنود يمكن دائماً سحبهم عندما تقتضي إقامة السلام ذلك. أما طرد ربع مليون مستوطن يهودي، بنى كل واحد منهم حياته في هذه المستوطنات، فإنه أمر ليس بهذه السهولة."

"أما طرد مليون فلسطيني فمسألة فيها نظر!!" هذا ما خطر في ذهن دافيد.

"سوف أصطحبك إلى المستوطنات،" قال آرنهيت لدافيد."وسوف ترى فيها المساكن، والمعابد، والمقابر، وسوى ذلك من جهد ثلاثة أجيال من البشر. ولسوف تفهم السبب الذي أنجب حفنة من المتطرفين الشرسين من أمثال باراك ليف."

مضت برهة قصيرة من الزمن، والرجال الثلاثة يرتشفون كؤوسهم بصمت، كان

الفناء مضاءً بأنوار خافتة، وكان شبح المدينة القديمة ماثلاً تحت ضوء القمر، والنُّدُل من ذوي السترات البيض يتحركون بين الموائد المحاطة بالزبائن. "الجو ساكن هادىء،" قال دافيد مسهباً.

هزَّ هاوارد رأسه بالموافقة. "وجميلٌ أيضاً. لكن القدس محاطة بالمقابر. والموتى يكونون أحياناً أشدُّ سطوة من الأحياء. فالملك داود، والأمبراطور صلاح الدين ما يزالان يتابعان تنفيذ رؤاهما حول هذه الأرض. ومع كل ذلك، فإن هذا المكان، هو المكان الوحيد في الشرق الأوسط، الذي تتوفر فيه الفرصة لليهود والمسيحيين والمسلمين للعيش معاً في سلام، ولصياغة حلمٍ واحدٍ للمستقبل. أما إذا امتلكها شعب واحد منهم دون سواه، فسيكون الأمر كارثياً."

فجأة دوَّى صوت انفجارٍ، ممزِّقاً كل هدوء. صرخت امرأة من على الشرفة. وقف آرنهيت على قدميه فجأة، ويده تتلمَّس المسدس.

أصغى بهدوءٍ إلى صدى الدويِّ المكبوت، وإلى أصوات الصراخ الرفيعة البعيدة. "إن مصدر الانفجار في المدينة القديمة،" قال مهمهماً.

مستعيداً لحظة اغتيال بن آرون، شعر دافيد أن يداه ترتعشان. لقد رأى بعض المحيطين بهم يلتمسون الحماية تحت الطاولات. لكن هاوارد لم يتزحزح. وبتمهُّلٍ وتؤدةٍ يزعزعهما القلق، ويمليهما القصد معاً، استخرج هاتفه الخلويَّ وبدأ بالترقيم. بدأت الهواتف الخلوية ترنُّ فجأة من حولهم في نغمات متنافرة مرهقة للأعصاب.

أصغى هاوارد إلى هاتفه بلهفة. بعد لحظة تكلم قائلاً: "هل الأطفال معكِ؟"

كان دافيد يكتفي بمجرد الملاحظة. فإذا بوجه هاوارد يعود إلى انبساطه، وإذا بآرنهيت يجلس من جديد.

"إنهم إذن بخير جميعاً،" سأل دافيد هاوارد.

هزَّ هاوارد رأسه إيجاباً ثم أسند ظهره إلى ظهر مقعده وأرخى ذراعيه إلى جانبيه. ثم مضى وقت طويل قبل أن يتابع كلامه. "إن كثيراً من الإسرائيليين لديهم قتلى،" قال مخاطباً دافيد، "قضوا في انفجار انتحاري، فإن لم يكونوا من أقاربهم، فعلى الأقل من بين معارفهم. لقد اعتادت زوجتي ركوب الحافلة للعودة إلى البيت من عملها. وبعد ظهر أحد الأيام، قبل وصول الحافلة إليها بمسافة يسيرة، فإنها قد انفجرت فجأة. أما ذراع السائق فقد رماها الإنفجار تحت قدميها.

"إنها الآن تمتنع عن ركوب الحافلات. كما أنها تحاول إبعاد أطفالنا عن أمكنة التجمع. وعندما تسمع عن أي انفجار، في أي مكان، فإنها تستدعيهم إلى جانبها." صمت هاوارد قليلاً ليقول بلهجة تعبة، "هذا العمل قد لا يعني سوى موتنا جميعاً."

"لكن كيف لنا أن نفكَّ أنفسنا من المستوطنات الموجودة في الضفة الغربية، وهي

مستوطنات يلقى وجودها رفضاً شديداً من الفلسطينيين؟ فإزالة ربع مليون مستوطن عن مستوطناتهم بالقوة، وفيهم أناس من أمثال ليف باراك، وجماعة مسعدة، قد يعني انقسام جيشنا ذاته على نفسه." نظر هاوارد إلى دافيد بقلق. "أنت تصرِّح أنك تعتقد أن مؤامرة اغتيال بن آرون لها امتداد يصل إلى مجموعة حرسه. فإن كنت محقاً في زعمك، فإن اليهود الذين ساعدوا على وضع خطة قتله كانوا يعرفون مسبقاً أن إيصال إسحاق بنيامين إلى السلطة سوف يعني قتل كل فرصة للسلام."

هزَّ دافيد رأسه بالإيجاب. "في الليلة التي قابلتُ فيها بن آرون، قال لي واحد من مساعديه: إن هنالك الكثيرين من اليهود يعملون جاهدين لإيجاد طريقة ممكنة لقتله."

"حفنة من المتعصبين،" أجاب هاوارد. "إن هؤلاء الذين يهددهم مشروع بن آرون أكثر من سواهم، إمَّا يعيشون في المستوطنات التي هي الأكثر عرضة ـ من أمثال باراك ليف ـ لأنها تقع خارج حدود المناطق المرخص بها من الحكومة. إن بينهم الكثيرين من اليهود الأميركيين الآتين من مناطق مثل بروكلين، وهم لا يعترفون بسلطة سوى سلطة الله عليهم، الله الذي يحكي عنه العهد القديم. وبالنسبة إلى هؤلاء، فإن الطريقة الوحيدة للمحافظة على استمرار حلمهم في بقاء فكرة إسرائيل الكبرى حية، إنما يكون بمنع حدوث السلام."

وصل النادل حاملاً إليهم العشاء مضيئاً بينهم شمعة ثانية. راقب الرجال الثلاثة ذؤابة الشمعة تخبو ثم يثبت نورها، طارحاً دائرة من الضوء على مِفرش المائدة الأبيض. نظر هاوارد إلى الخادم الذي قفل راجعاً، قبل أن يتساءل، "هل سمعتَ بمبدأ الدفاع الاستباقي (rodef principle) من قبل؟"

"كلا."

"إنه يعني في معناه العام، أن القانون التوراتي يجيز لليهودي قتل أيِّ شخص يعارض مبادئه. وهي قاعدة لا استثناء عليها. ولكن إذا أدخلتَ هذا المبدأ إلى عقل يهوديٍّ متعصب آلى على نفسه أن يتَّخِذ له سكناً خارج حدود دولة إسرائيل ـ وهو رجلٌ يتقبَّل فكرة الموت قبل أن يتقبَّل فكرة التخلِّي عن المنزل الذي أراده الله له مسكناً ـ فإن اغتيال بن آرون يصبح أيضاً مسألة دفاعٍ عن النفس."

نظر دافيد في وجه آرنهيت. "ما الذي تعرفه عن باراك ليف؟"

"أعرف عنه القليل." وضع آرنهيت كأس شرابه على المائدة. "المعروف عنه أنه قد اختار أن يخلق حدوده الخاصة لإسرائيل، مستعمرة غير قانونية واقعة خارج نطاق أي حدود مسموح بها. فمنذ أربع سنوات مضت، قاد اثنان من رجاله عربة مقطورة، تحت جنح الظلام، وأوقفاها في قرية مسلمة بالقرب من مدرسة يتعلم فيها أطفال فلسطينيون. وكانت العربة مشحونة بشحنة ناسفةٍ، مؤقتةٍ لكي تنفجر عند اجتماع الأطفال في المدرسة.

"ألقى رجال الأمن الإسرائيليون القبض على الرجلين بينما كانا منهمكين في إفراغ عجلة من عجلات العربة من الهواء. وكان هدفهم من وراء ذلك، في ما يبدو، هو جعل وجود العربة في هذا المكان، أقلَّ عرضة للشكّ. كان هذا الإجراء هو السبب الوحيد الذي منع حصول كارثة كان من شأنها أن تلهب الانتفاضة أكثر فأكثر."

فكَّر دافيد في هذا، برهة، بينما هو يلوك مضغة من المعكرونة. "عندما قُتل رابين على يد شخصٍ يهودي،" قال مسهباً، "قامت مجموعة من الفلسطينيين بشنٍّ موجة من التفجيرات الانتحارية التي كان من شأنها التأثير تأثيراً قوياً على تغيير الديناميات الانتخابية في إسرائيل، الأمر الذي أدى إلى انتقال السلطة إلى أخصام رابين. ولنفترض أن اغتيال بن آرون اشتمل على مساعدة قام بعض اليهود بتقديمها، لكن اللوم عنها سوف يقع بكامله على عاتق الفلسطينيين. وإن هذا من شأنه أن يؤول إلى النتيجة ذاتها: نزع المصداقية عن فاراس، كما أنه سوف يجلب إسحاق بنيامين إلى السلطة، وسوف يقوِّي موقف المتشددين بين الطرفين كلاهما."

"هناك مشكلتان،" أجاب آرنهيت "في طرحك هذا. الأول أن نظريتك تستلزم تعاوناً من شخص ما، من المقرَّبين إلى بن آرون. شخص يكون متعصِّباً من بين الذين يعيشون في مقطورة في الضفة الغربية، ولا يطيق سحب مقطورته من مكانها. أمَّا المشكلة الثانية، فهي أن نظريتك تستلزم تعاوناً عملانياً وثيقاً بين هذا الشخص وبين الفلسطينييَّن اللذين قاما بتنفيذ عملية الاغتيال.

"وقد يكون من المعقول وجود مؤامرتين متوازيتين لاغتيال بن آرون. واحدة يقوم بها فلسطينيون، وأخرى تقوم بها جماعة من اليهود. لكن يبقى من الصعب أن نتقبَّل فكرة اشتراك جماعتين كارهتين إحداهما للأخرى في مؤامرة واحدة لا يربط بينها رابط." كانت ابتسامة آرنهيت تخبو. "عندما وقع تلفيق التهمة بصورة عارضة إلى السيدة عارف التعيسة الحظ."

تراجع دافيد في مقعده ناظراً إلى كلا الرجلين. "إن حكومتكما قد باشرت تحقيقاً واسعاً،" قال لهما. "لكنه تحقيق سري لا يرشح منه شيء. فإذا كان الجناح اليميني الإسرائيلي ضالعاً في اغتيال بن آرون، وصارت هذه الحقيقة معلومة شائعة، فإن شيوع هذه الحقيقة سوف لن يعمل في صالح إسحاق بنيامين."

هزَّ هاوارد رأسه معترضاً. "إذا كنت تفترض أن أولئك القائمين على مجريات التحقيق يتجاهلون الأمر عن عمدٍ، للتغطية على مثل هذا الاحتمال، فإن عليك أن تعيد النظر بشكل أفضل في مسؤولية كل المتورِّطين في القضية. وإسحاق بنيامين، مهما تكن عيوبه، فإنه ما زال يرغب في تسليم الفاعلين إلى يد العدالة.

"ولكن هل يريد أن يتم ذلك قبل إجراء الانتخابات؟ فهذه التحقيقات ستتقدم بتؤدة،

وعناية، وسرية. ومهما كانت دوافع بنيامين، فإنه لن يستطيع وقفها، وهذا يعني فعلياً، أنه سوف يبقى في السلطة."

نظر إليه دافيد جيداً. "ما لم؟"

"ما لم تكن أنت تعمل على جدول عملٍ أكثر سرعة،" أجاب هاوارد بهدوء. "فأنت لديك موكلة تحتاج إلى الدفاع عنها. والآخرون مهتمون بشدة بنتائج الاقتراع لدينا، وقد يشتركون معك في الإحساس بالعجلة الماسة. والبعض منهم قد تكون له مصادره في داخل الحكومة، كما قد تكون له أولويات مماثلة.

"وربما أنك مع مرور الزمن سيصل إليك طرف من العلم بما لديهم."

الفصل

4

في صباح اليوم التالي، وبناء على دعوة من حكومة إسرائيل، قاد دافيد سيارة إلى تل أبيب من أجل لقاء الجنرال إيهود بيريتز رئيس شعبة الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي.

كان ترتيب هذا الموعد، بحسب زيف آرنهيت، كناية عن استجابة من الحكومة الإسرائيلية لطلب دافيد الحصول على المعلومات. كان بيريتز شخصية وطنية بارزة، برز كضابط صغير بطلٍ في معارك 1973، وكمستشار لرئيس الوزراء لشؤون الاستخبارات ضد الإرهاب، وهو الآن مولج بقيادة النشاطات المتعلقة بمكافحة الإرهاب في الضفة الغربية، بما في ذلك الهجمات الانتقامية السريعة الشاملة الهادفة إلى اجتثاث كتائب شهداء الأقصى.

كان ذلك فقط خلال حرب 1973، قال بيريتز، عندما أخبرته أمه أنها كانت من بين الناجين من الموت في مخيم اعتقال نازيٍّ في ميدانيك. وعندما انتهت الحرب، ذهب بيريتز إلى هناك وشاهد بعينيه عظام، ورماد أجساد الموتى، محفوظة. وقد آلى على نفسه منذ ذلك اليوم أن يكرس حياته بأكملها لقضية الدفاع عن إسرائيل.

وبينما كان دافيد يشق طريقه خلال الإجراءات الأمنية من أجل الدخول إلى المبنى الضخم المشيد من إسمنت وزجاج، وهو مبنى وزارة الحرب الإسرائيلية، أو البنتاغون الإسرائيلي، فإنه فكَّر في تلك الحكاية. وكان الشباب بين داخل إلى المبنى وبين خارج منه، وجلُّهم لا يكاد أن يكون قد تجاوز العشرين من عمره. كان منظرهم هذا، يحدِّث عن أن التزامهم بالخدمة العسكرية أمرٌ يختلف عما هو عليه الحال في الولايات المتحدة: فمع أن هذه المدينة واقعة على شاطىء البحر المتوسط، فإنها لم تكن تبعد عن حدود إسرائيل مع الضفة الغربية سوى سفر ساعة واحدة فقط. فبالنسبة إلى الإسرائيليين لم يكن التغافل خياراً موجوداً، كما أن الدفاع عن الوطن لم يكن عملاً متروكاً لاختيار الفرد. أما دافيد وولف اليهودي الأميركي فهو مجرَّد رجلٍ غريب عن كلٍّ هذا.

بدا إيهود بيريتز شخصاً أنيقاً ذكياً بما هو خلف كلّ شك. فهو قصير الجُمَّة، ساهم العينين العسليتين، رصين الوجه، صارم القسمات، له صدر أسطواني وساعدان عضليان، تبرز عضلاتهما من تحت قميص كاكي قصير الكمَّين. ورغم أنه رحَّب بدافيد مصافحاً إياه بيد ثابتةٍ، فإن سيماءه الباردة كانت تشي بقلّة ترحيبه بزيارة دافيد. وبعد أن دعا دافيد إلى الجلوس بإشارة إلى أحد الكراسي، قال له بلهجة جافة: "إنني على معرفة مسبقة بنظريتك. لكن أداء فريق حراسة عاموس بن آرون هو الآن جزء من مهمة سوانا. مما يجعل هذه المسألة خارج نطاق بحثنا. لهذا، لا يبقى أمامنا سوى بحث موضوع الشعب الخرافي الذي يدعى بالشعب الفلسطيني."

فكَّر دافيد أن الكلام الصريح المباشر قد يكون أفضل وأجدى. "إن موكلتي لا تعتبر نفسها متعلقة بالأساطير والخرافات."

"ربما أنها كذلك. لكن زوجها هو المرتكب الأول لفِعل التلبُّس بالخرافة". ورغم وضوح وصراحة لهجة بيريتز، إلا أنها كانت تشي بسخرية مريرة. "هل تعرف من أين أتى كلٌّ من إياد حسن وإبراهيم جعفر؟ لقد جاء كلٌّ منهما من مخيم للاجئين. جاء حسن من مخيم عايدة، كما جاء جعفر من البالوعة القذرة التي اسمها مخيم جنين. لماذا لا تزال هذه المخيمات قائمة بعد مرور ما يقارب من ستة عقود من الزمن على إقامتها؟ ذلك لأن الدول العربية ترفض استيعاب هؤلاء الناس، ولأن السلطة الفلسطينية لا تفعل شيئاً للتخفيف من معاناتهم. فالمخيمات تظهرنا بشكلٍ دراميٍّ كشعب محتلٍّ، وتحفظ وهمَ حق العودة في الأذهان. وهي فوق ذلك كله تحبل بالحقد على اليهود، وتُنجِبُه على الدوام. ولهذا لا يكون خروج الانتحاريين منها أمراً يأتي بمحض المصادفة.

"دعني الآن أريك شيئاً." استدار بيريتز من وراء مكتبه ليجلس إلى جانب دافيد مديراً وجه شاشة حاسوبه إلى زاوية تمكنهما من مشاهدتها معاً. بدأ فيلم مصوَّر بالورود على وجه الشاشة. كان المشهدُ مشهداً لجامعٍ محتشدٍ برجالٍ ينصتون إلى إمام المسجد. وكانت كلمات مترجمة باللغة الإنكليزية لما يقوله الإمام، تظهر في أسفل الشاشة. "لقد كان هذا بثاً مباشراً من التلفزيون الرسمي للسلطة الفلسطينية، من رام الله، قبل يومين فقط من مغادرة مغتالَي بن آرون إلى أميركا. أمَّا الإمام الذي يظهر في الصورة، فهو مقرَّب جداً من حماس."

كان الصوت صوتاً صارخاً حادّاً، وكان الإمام الشاب الملتحي يتكلم باندفاعٍ محموم بالغضب الذي كان يصغي إليه سامعوه إصغاءً منتشياً. أمَّا كلماته المحرِّضة فقد كانت تردُ بأساليب داهيةٍ ذكية: "إسرائيل وجود سرطاني"، قرأ دافيد، "واليهود فيروسٌ أخطر مِن فيروس الإيدز".

"لقد قمنا بالاحتجاج على هذا الكلام، لدى فاراس،" قال بيريتز، "وهكذا، فقد توقف بث خطب هذا الإمام على الشاشة. لكنه بقي رغم ذلك موظفاً لدى السلطة الفلسطينية في وزارة الشؤون الدينية."

كانت وجوه السامعين البادية على الشاشة، تبدو في غاية الإنصات والانتباه. بعض الرجال كانوا يهزُّون الرؤوس موافقة على كلام الإمام الخطيب. وقليلٌ من السامعين من كان لا يبدو متوقفاً عند كل كلمة من كلماته. "في تاريخ العالم، كان اليهود دائماً يقفون خلف كل مصيبة. لذلك فإن البريطانيين والفرنسيين لم يجدوا بداً من طرد اليهود. وهذا ما فعله الإسبانيون أيضاً.

"لقد أثار اليهود النازية. كما شجعوا الأحقاد ضد ألمانيا. كما دعوا إلى مقاطعة البضائع الألمانية. وهكذا، شدَّد المصرفيون اليهود قبضتهم على خناق الشعب الألماني حتى نهض هذا الشعب للدفاع عن نفسه. سبحان الله في ملكه كيف أنه قد ابتلانا بأسوأ عدوٍّ، ذي أسوأ معتقَدٍ، إنهم اليهود القذرون".

شعر دافيد بالغضب يغلي في أحشائه. "هل كان هذا بثاً ملتقطاً من التلفزيون الفلسطيني؟"

نقرَ بيريتز على زرِّ التحكُّم فتجمَّدت الصورة على الشاشة. وفي إحدى زواياها، لاحظ دافيد وجود أسهم سوداء مرسومة للإشارة إلى رأس كلٍّ من رجلين اثنين. كان أحدهما حاني الرأس، أمَّا الآخر فقد كان ذا نظرة محدِّقة مباشرة. كان هذا هو وجه الرجل الذي عرف فيه دافيد صورة إياد حسن. أمَّا الرجل الحاني الرأس، فقد كان يبدو أنه إبراهيم جعفر. "يستطيع فاراس أن يتكلم بما يشاء من لطفٍ وكياسة،" قال بيريتز ببرود. "لكن هذا الإمام قد غدا هو الوجه الحقيقي الممثل للسلطة الفلسطينية، أمَّا هؤلاء القتلة فهم أولاده، ونتاجه، وثمراته. وأيُّ خيارٍ يتركه لنا هذا الرجل عدا عن خيار قتلِ هؤلاء؟"

فتَّش دافيد في وجوه الرجال الذين يعبُّون خطاب الإمام عبّاً. كان وجه إياد حسن يبدو مشرقاً بالحماسة، بينما بدا إبراهيم جعفر مطرقاً وكأنه منتبذ بنفسه عن الجمع المحيط به، غارق في التفكير في شأنٍ آخر. رجل ثالث استرعى انتباه دافيد، فالوجه كان مظللاً، لكن شكل الصورة الجانبية كان يشير إلى أنه كان مشغولاً عن الإمام بمراقبة جعفر.

وجد دافيد نفسه فجأة يدنو من الشاشة وهو على حافة أعصابه. فهذا الرجل كان يبدو أقلَّ حجماً من سواه. إلَّا أن شيئاً ما، في زاوية التفاتة وجهه كان يبدو مألوفاً إلى درجة مقلقة.

دلَّ دافيد بإصبعه إلى الشاشة قائلاً. "هل تعرف من هو هذا الرجل؟"

"لا." ابتسم بيريتز قليلاً. "لكنك تتساءل عما إذا كان هذا الرجل هو صائب خالد، أليس كذلك؟"

"بلى."

"ونحن نظنه كذلك أيضاً. ولكنه كائناً من يكون، فإنه يبدو أشدَّ اهتماماً بجعفر مما

هو مهتمٌّ بالإمام. لقد قمنا بتكبير هذه الصورة دون أن نتمكن من الجزم بهوية صاحبها. فهو قبل هذه الصورة وبعدها لم يظهر أبداً." حدَّق بيريتز في الصورة. "وفي كل حال، هذا الفيلم يعطي فكرة عن السبب الذي يجعل من الضفة الغربية جنة عدنٍ بالنسبة إلى الإرهابيين. إن حسن وجعفر لا يمتازان عن سواهما إلّا باسم الشخص الذي أقدما على قتله، وبالمكان الذي أقدما فيه على ذلك، وبالثمن الذي سندفعه جميعاً نتيجة لما أقدما عليه."

"ومن ذا الذي قام بإرسالهما؟"

"نظرياً، قد يكون ذلك أيّاً كان. فهناك عدد غير محدَّدٍ من الجهات في الضفة الغربية ممَّن يجدون الإرهاب سلاحهم الأوحد، وممن يعتقدون أن اليهود لا تاريخ لهم سوى كونهم طغاة محتلين. ففي مدارس الضفة، وحتى في دفاتر الأطفال، تجد صوراً للفدائيين الانتحاريين. والرجال من أمثال حسن وجعفر يكبرون ويشبُّون على الاعتقاد أنهم بالقتل والموت يجلبون الفخر والشرف إلى عائلاتهم. ويعوِّضون عن شعورهم بالظلم. ويمهِّدون الطريق لاستعادة الأرض "السليبة". وهذا هو السبب في وجود هذا المخزون الذي لا نهاية له من 'الشهداء'."

"في بداية التسعينيات،" قال دافيد، "فهمتُ أن الاستخبارات الإسرائيلية قد وفَّرت دعماً مستتراً لمنظمة حماس، على أمل جعلِها تنجح في إنضاب تفوق عرفات."

رشقه بيريتز بنظرة دهشة، وكأنه يعيد النظر في تقييمه لما يعرفه دافيد من معلومات. "كان ذلك خطأً فظيعاً. لكن بعد ذلك، فإن قانون تراكم وتداعي الأحداث اللامقصودة قد وجد له مولداً في الشرق الأوسط، يترعرع فيه."

"وهكذا، فقد شجع عرفات ولادة كتائب شهداء الأقصى،" تابع دافيد كلامه، "من أجل حفظ التوازن مع 'المقاومة المسلحة' التي تقوم بها حماس. وقد آمن كل من بن آرون وفاراس بأنه من الممكن تحويل كتائب الأقصى عن العنف، ربما بدمجها في قوات الأمن الفلسطينية التي تستطيع أن تنجز إحدى متطلبات إسرائيل من أجل إقامة السلام، وهي قيام السلطة الفلسطينية بلجم منظمة حماس وسواها. لكنك تشرف الآن شخصياً على عملية استئصال كتائب شهداء الأقصى من الضفة الغربية."

أفرد بيريتز ذراعيه. "وما هو الخيار الآخر المتوفر لدينا؟ إننا على ثقة من أن إبراهيم جعفر له صلة بكتائب الأقصى. وفاراس لا يفعل شيئاً من أجل لجم الإرهابيين. وحكومته الآن صارت تقع تحت سيطرة حماس. وهي سلطة لا تفترق كثيراً عن عصابة مسلحة تتخذ لها لباساً ديموقراطياً."

"وعندما تنتهي إسرائيل من إزالة كتائب شهداء الأقصى من الوجود،" سأل دافيد، "ويصبح فاراس في رتبة الخصيِّ، فمن تراها ستكون الجهة الرابحة؟"

وبينما هو جالس إلى جانب دافيد، طاوياً ذراعيه، محدِّقاً من خلال النافذة إلى خطِّ الأفق الذي يحيط بتل أبيب، أجاب بيريتز: "إنه كل من لا يرغب في السلام في الضفة الغربية، إنه كل من يستطيع بعد ذلك جمع الأشلاء، إنها حماس على وجه الخصوص."

"وماذا عن الإيرانيين؟"

هنا أطلق بيريتز في اتجاه دافيد نظرة إعادة تقييم أخرى. "نعم، الإيرانيون. هناك تاريخ قائم بيننا وبينهم. ففي العام 2002 أمسكنا بهم متلبسين بمحاولة تهريب أحدث صواريخهم المتفجرة والطويلة المدى، لمصلحة عرفات، على متن قارب يدعى كارينا ألِف.

"إن حجر الزاوية في السياسة الإيرانية هو القيام بتدميرنا. فهم يسرِّبون الأموال إلى حماس، وإلى الجهاد الإسلامي، وإلى حزب الله، وإلى الأقصى، وهم لا يحبون فاراس بسبب انفتاحه على بن آرون."

"انطلاقاً من هذه المعطيات،" سأل دافيد، "هل تقوم إيران بأية أنشطة في داخل إسرائيل؟"

صارت سحنة بيريتز غامضة. "أجل،" أجاب باقتضاب. "كذلك إن لدينا الكثير من المتطرفين، ونحن نأخذ على عاتقنا مسؤولية السيطرة على متطرفينا. وعندما لم يستطيعوا قتل رئيس وزرائنا، فإنهم فكروا في تفجير مدرسة عربية.

"نحن لسنا قتلة، يا سيد وولف. لكننا محتجَزين في دورة من العنف. إننا نقاتل من أجل استمرار وجودنا في الحياة. هل بلغك خبر انفجار عيد الفصح؟"

"عرفتُ عنه ما كتبته الصحف فقط."

"في كل سنة يقوم جماعة من المسنين الناجين من المحرقة في أوشويتز بإحضار أحفادهم إلى مطعم في حيفا للاحتفال بما بقي لهم من حياة، وبما صار لهم من عائلات. ومنذ سنتين التقى أفراد هذه الجماعة، كما في كل سنة، وسط جوٍّ من الفرح والمرح والسرور بحظهم الجميل الذي قدَّر لهم البقاء على قيد الحياة. ثم عند الساعة السابعة، دخلت سيدة فلسطينية إلى داخل الغرفة وفجَّرت معها ثلاثين شخصاً. ذكرت الإذاعة الفلسطينية أنها أرملة، قُتل زوجها وأطفالها تحت أنقاض منزلهم من جراء صاروخ طائرة مروحية؛ ولكن لا تصدّقهم."

كان دافيد يصغي إلى هذه الرواية متخيلاً وجود هارولد شور في مثل هذه المجموعة، وأيقن أن المنطق الذي يقود إليه مثل هذا الخيال، هو أن يجتمع هو وكارول وأطفالهما إلى جانب هارولد في مجموعة كهذه. لكن بيريتز تابع كلامه بهدوء: "إنني متأكد من أن عارف وزوجها يدينان عملياتنا في مخيم جنين للاجئين. إنهما يدينان موت الأطفال والأبرياء الذين قمنا بقتلهم. لقد كنت أنا الذي أعطى الأوامر بتنفيذ هذه الغارات." وقف

وهو ينظر إلى دافيد. "لقد انطلق الانتحاريُّ الذي فجَّر قنبلة الفصح من مخيَّم جنين. والجماعة التي استهدفناها كانت هي المسؤولة عن التخطيط لهذا الانفجار. وكرجلٍ، ثم كيهودي: أيُّ خيارات يبقى أمامك لو كان الأمر يعود لك؟ وهل أنت كمحامٍ تتولى الدفاع عن امرأة متهمة بالقتل ستكون في موقف أفضل لو أنك كنت تستبدل مكانَك بمكاني؟"

شعر دافيد بمرارة الكلمات التي يسمعها من فم جندي تبدو أقسى قراراته أمراً لا مفرَّ منه. "لا أستطيع الردَّ على سؤالك،" أجاب.

"حسناً. لأنك أمسيت الآن جزءاً من هذا كله." كان بيريتز لا يزال يتكلم بهدوء. "إنك تبحث عن المتآمرين كي تُقنع نفسك أن موكلتك بريئة. لقد قرأتُ تصريحاتك التي تقول فيها، كيف يمكن لهذه المرأة التي هي محامية أن تكون في الوقت نفسه قاتلة؟ إن تجربتي المريرة تجعلني قادراً على إجابة سؤالك هذا. لقد كان الفدائي الانتحاري الذي فجَّر قنبلة الفصح كناية عن أمٍّ شابة، وقد كانت محامية مثل موكلتك.

"أما موكلتك فلم يكن من المطلوب منها أن تموت. ولو لم يبق جعفر حياً، فإنه ما كان لها حتى أن تضحِّي بحريتها. وهكذا، ما الذي يدفع امرأة إلى الإقدام على مثل هذا العمل؟" صارت نبرة بيريتز فولاذية قاسية. "إنه الحقد. حقد زوجها، وحقدها هي، تغذيه مذبحة صبرا وشاتيلا، وخبرتهما الخاصة عن أحداث جنين. لا تظنَّن أن موكلتك قد تكون حصينة عن الحقد والكراهية. لقد قرأتُ تقارير عن محاضراتها في طلاب صفوفها. فأنت، بحسب موكلتك، الآن تحلُّ ضيفاً على أسوأ منتهكٍ لحقوق الإنسان في الشرق الأوسط، أنت الآن ضيف على 'إمبرياليين يلبسون ثياب الضحايا'، أمَّا عاموس بن آرون فلم يكن بالنسبة إليها سوى رجل آخر ممن 'يسرقون أرضنا ويسورون الجدران حول أمانينا.' ولربما، من وجهة نظر موكلتك، فإن رجلاً كهذا يستحق الموت."

حافظ دافيد على هدوئه ورويَّته. "إذا كان لديك أيُّ دليلٍ ضدها فائتني به."

"ليس لدينا أكثر مما أنت تعرفه. كما أن لا دليل واضحاً عندنا ضد زوجها، مع أنني أشتمُّ أنك أكثر تقبلاً لذلك. ومع كل ذلك، فها أنا قد أمضيت ساعة من وقتي معك، مع أنك تلعب ألعاباً مع الأمن القومي لإسرائيل، بوكالتك عن امرأة، ما لم يتبين أن نظريتك اللامعقولة عن وجود تهمة مدبَّرة ضدها صحيحة، فإنها تكون قاتلة عاموس بن آرون." فجأة هدأت لجهة بيريتز "وفي الجيش، كان هذا الرجل مرشدي الخاص وأعزُّ الأصدقاء عليَّ."

لم يكن ثمة جواب لدى دافيد على هذا. " لهذا، فإنني أسالك الآن أن تؤدي خدمة لي،" قال بيريتز بلهجة فظة. "أريدك أن تلتقي بالناجين من قنبلة عيد الفصح. على الأقل مع أولئك الذين يستطيعون الجلوس معك في غرفة واحدة. لا أريد لك أن تغادرنا وأنت غير متأثرٍ، كما جئت إلينا."

"أنا لست بغير متأثرٍ تماماً،" أجاب دافيد. "لكنني رغم ذلك، أريد مقابلتهم بالطبع. فما من أحدٍ من أحبائي كان قد قُتل قطُّ."

عاد دافيد إلى الفندق بينما هو يشعر بتعب يفوق التعب الناتج عن فوات رحلة الطائرة عليه.

وعلى سريره، وجد مظروفاً مختوماً، وكانت الرسالة المحفوظة بداخله تقول: "عليك بزيارة متحف تاريخ الهولوكوست في ياد ڤاشيم. وستجد هناك الكثير مما تستطيع أن تعرفه."

وكان قد مضى على وصول دافيد إلى إسرائيل ثلاث وعشرون ساعة فقط.

الفصل

5

استسلم دافيد للنوم بعدما ضبط ساعة منبه الإيقاظ.

ثم انتابه حلم، صوَّر له أنه يقود سيارته في يوم ماطرٍ، على طريقٍ رئيسي، سريعٍ، زلقٍ، وكثيف المرور. وكانت تجلس إلى جانبه امرأة لم يتبين وجهها جيداً. وفجأة أيقن أن عليه أن يجتاز مسارَيْن لكي يصل إلى مخرج على يمين الطريق. كان الطريق يغصُّ بالعربات، وكان لديه ثوانٍ قليلة فقط. ضغط على الفرامل فجأة فانحرف مساراً واحداً إلى اليمين، ثم زاد سرعته محاولاً المرور بين شاحنتين صغيرتين لينفذ إلى معبَر الخروج. ندَّت صرخة خفيضة عن المرأة التي هي إلى جانبه، بينما مسَّت الشاحنة التي تسير خلفه مؤخرة عربته، وهنا فقد دافيد السيطرة...

وعندما أزعجه جرس المنبِّه عن نومه، استيقظ دافيد فيما كان يضطجع على سريره وسط المفارش المجعَّدة. لقد اقتضاه الأمر بضع ثوانٍ من الوقت لكي يفطن إلى أنه موجود في مدينة القدس لوحده، وأن إطار شباك غرفته في الطابق الخامس يشكل إطاراً لمنظر المسجد الأقصى. لم يسبق له أن شعر بمثل هذه العزلة، أو بمثلِ هذا الوقوع في مهبِّ الرياح تحت مشيئة الآخرين المطلقة.

لبس ثيابه على مهل، كما لو أنه ما يزال تحت وطأة الحلم، ثم بدأ يستعد لزيارة ياد ڤاشيم.

* * *

كان المتحف الصارخ الجِدَّة مبنياً فوق تلة، وقد أحاطت به أشجار الصنوبر من كل جانب. أمَّا النهار فكان رائقاً صافياً. وكان الشباب والشابات ـ وجلهم من الجنود ـ حول دافيد بين رائح وغادٍ. فالمغادرون منهم كانوا من أمرهم في جناح خفيض، وكأنهم باتوا الآن يفهمون خدمتهم جيداً، حسبما أوضح له آرنهيت، فقد عنى الجيش الإسرائيلي ما عناه من ترتيب زيارة هؤلاء المجندين إلى ياد ڤاشيم. أما الزيارة المؤثرة الأخرى فيجري تنظيمها عادة إلى قلعة مسعدة القائمة في الصحراء، حيث قضى المتمردون اليهود في انتحارٍ جماعيٍّ،

مفضِّلين الموت على الاستسلام للرومان. "عندما تنتهي من زيارة ياد ڤاشيم،" قال آرنهيت "سوف تكون قادراً على استيعاب رواية مسعدة."

دخل دافيد ليلاقي، أوَّل ما يلاقي، لوحة تلصيقية من فيلم بالأبيض والأسود، تصوِّر الحياة اليومية العادية لليهود الأوروبيين قبل حصول الهولوكوست. متسوقون في الشوارع. أطفال طافحو الوجوه في المدارس، مختلفون، يحيون مناسبة الفصح. وكلٌّ منهم غافل عمَّا ينتظره من مصير. ثم انحدر في دهليز يؤدي إلى صالات المتحف الموجودة في الأسفل.

في أسفل الدهليز كان ثمة صورة فوتوغرافية مكبَّرة لمخيم اعتقال بدا مليئاً بجثث البالغين، والأطفال، التي تكدست فوق حزمٍ من الحطب. كانت بعض أعين الجثث مفتوحة، وبعضها الآخر مغلقاً، وكان بعضها ينظرُ نظرة الموتى التي لا رؤية فيها. أما الأذرع والأرجل، فكانت تتقاطع في زوايا نادراً ما يمكن رؤيتها في الحياة. في نهاية الحرب، حاول الألمان القيمون على المخيم إحراق الدليل على جرائمهم. لكن كثرة الجثث أجبرت الحراس على العمل المتعجِّل، لذلك فإنهم لم يتمكنوا من الفراغ من إحراق الجثث جميعها. وبجانب هذه الصورة كان هناك عرضٌ لصورٍ أصغر تمَّت استعادتها من بين أكوام الجثث نصف المحترقة. صورة عائلة على شاطىء البحر؛ أقران مبتسمون؛ أطفال في الملابس الرياضية. الأدلة الوحيدة الباقية في حوزة الموتى، التي من شأنها الدلالة على أن حياة لهم قد سلفت كانت تختلف عمَّا آلت إليه في المخيم.

بقي دافيد متسمِّراً لبعض الوقت.

* * *

في الغرفة الثانية، بدأت الطريق الفاصلة بين صورتي الحياة والموت. فيلم يصوِّر ألماناً سعداء برمي كتب اليهود إلى نارٍ موقَدةٍ، وكأنهم يرمزون بذلك، إلى رمي اليهود أنفسهم في النار. لوحة تمثل لعبة أطفال قوامها طرد اليهود من ألمانيا. أكواز لشرب البيرة نقشت عليها شعارات معادية للسامية فوق رسومها. صور لأطباء ألمان يقيسون محيط رؤوس اليهود أملاً في الوصول إلى معرفة الملامح التي تميزهم عن سواهم كجنس أدنى من بقية أجناس البشر. ثم، ودون حذرٍ مسبقٍ، وجد دافيد نفسه داخل غرفة معيشة والديه.

كانت الغرفة غرفة جلوس عائلة يهودية تعيش في برلين، وقد تمت المحافظة عليها تماماً. كان أثاث الغرفة شديد البساطة، ومدنيٌّ بالكامل، بما فيه من كراسٍ خشبية وطاولات ومرايا قديمة. كان دافيد يعتقد على الدوام أن الديكور الذي اختاره والداه ليس سوى مجرد حذلقة زوجين، قلَّما نظرا إلى نفسيهما كيهوديين، في محاولة منهما لمحاكاة الذوق البروتستانتي السائد في نيوإنغلاند. أما الآن، فقد أدرك أنهما قاما بذلك، بوعي منهما، أو دون وعي، لمحاكاة الحياة التي كان يمكن لهما عيشها لو كانا يقيمان في ألمانيا. أمَّا عدا عن ذلك، وفي أيام 'كريستالناخت'، عندما قام النازيون بنهب وتدمير بيوت اليهود في

ألمانيا، فإن والدي دافيد، وقد كانا يومها طفلين، يعيشان في أمان من الأذى في مدينة أميركية جميلة اختارها أجدادهما للعيش فيها.

لقد صار والدك طبيباً نفسانياً! قال بروس مارتل لدافيد مرة، *لأنه، مثله في ذلك مثل كثير من أطباء النفس، أراد أن يفهم نفسه. لكنه لم يشأ إشراك أحدٍ في فهم ما عرفه عنها. بما في ذلك كيف يرى نفسه كيهودي.*

وكما كان شأنه مع الجنس والموت، فإن فيليب وولف كان يجتنب أيَّ ذكرٍ للمحرقة.

* * *

وعلى مسافة تتجاوز الكومة المنتشرة للأحذية المنتزعة من اليهود الذين كانوا ينتظرون دورهم في المحرقة، كان ثمة استعراض نصف دائري لسجلات عن بعضٍ من الستة ملايين يهودي الذين قضوا.

أمَّا خلف هذا، فكان ثمة غرفة مليئة بأجهزة الكومبيوتر. وفي كل محطة طرفيَّة، كان بإمكان الزُوَّار إدخال أسماء أقربائهم علَّ وعسى أن يعرفوا المزيد عن مصائرهم. لكن دافيد لم يكن يعرف عن أسماء العائلات ما يتجاوز أسماء أجداده. كما أنه لم يكن ليعرف من أيِّ مكانٍ أتوا من ألمانيا. أمَّا إذا كانت الهولوكوست قد مسَّت أحداً من أسلافه، فإنه لم يكن ليدري أيَّ شيء عن ذلك.

تردَّد قليلاً قبل أن يقرر دخول تجربة حول الماضي.

ضرب دافيد على لوحة المفاتيح أحرف كلمة "وولف"، متبوعة بأحرف كلمة "ألمانيا."

وجد واحداً وعشرين اسماً. كما وجد بعض الصور لرجالٍ ونساءٍ لم يرَ فيهم إشارة تدل على أيِّ رابطة دم بينه وبينهم. لم تكن كلمة "وولف" لقباً قليل الشيوع. وكل ما كان دافيد يعرفه أنه اسم تمَّ تحويله إلى اللغة الإنكليزية عن أصلٍ لاسم عائلة أقلّ سائغية.

جرَّب اسم عائلة أمه "شنيدر" ليصل إلى نتيجة مشابهة للأولى. ثم استنبش من قعر ذاكرة قديمة اسماً كان قد وجده مرة مكتوباً على كتاب مجلَّدٍ. ثم أتى إليه اسم عائلة آخر هو: "ولفنسون".

ضرب المفاتيح العائدة لأحرف الاسم الأخير، ثم ضرب مفتاح الإدخال.

ظهرت أمامه على الشاشه عدة أسماء وصور. الصورة الثانية جعلته يتسمَّر في مكانه. هانس وولفنسون، طبيب جراح، قتل مع أفراد عائلته في بيركينو. كان الوجه وجهاً يتذكره دافيد منذ طفولته. أمَّا في الذاكرة التي كانت قريبة إلى ذهنه بشكل مذهل فكانت صورة جده لأبيه محام متخصص بشؤون العقار والودائع. وكان هذا الجد قد اصطحب

دافيد إلى حديقة الحيوان، وذهب به إلى فراشه بعد أن قص عليه القصص. لكنها لم تكن أبداً قصصاً عن الماضي.

أصيب دافيد بالذهول، حدّق في وجه الطبيب، في صورة شبح جده القتيل. فكّر في زملاء دراسته في المدرسة الإعدادية، في بيوت أجدادهم، في أسلافهم العظام، أعضاء مجالس الشيوخ، ورجال الاقتصاد، حيواتهم محفوظة في صورٍ، أو في ترجماتٍ. لكن مثل هانس وولفنسون، فإن ماضي دافيد كان قد انمحى واندثر.

* * *

في خارج الغرفة، كان ثمة شخص في انتظاره، أصلع ورشيق القوام، وله سلوكٌ عارضٌ. قال الرجل لدافيد دون مقدمات: "عندما مات اليهودي الأول في حرب الاستقلال، فإننا لم نبدأ الإحصاء من الرقم واحد، بل من الرقم ستة ملايين وواحد. لكن إذا كنت تؤمن أن دولة إسرائيل هي استجابة الله على الهولوكوست، فقد غدا لنا مقبرة في هذه الأرض، على الأقل."

حار دافيد في لباقة الرجل، وفي مغازي كلامه. "من تكون؟" سأله.

"إنني أدعى آري ماسور."

عرفه دافيد على الفور. ومع أنه لا يزال محافظاً على شبابه، فإن الجنرال السابق قد تحدَّر من عائلةٍ مؤسِّسةٍ لإسرائيل. وكان والده بطلاً من أبطال حرب الاستقلال. مدركاً معرفة دافيد له، أضاف ماسور قائلاً بابتسامة ساخرة، "يعتقد البعض أنني أرغب في أن أصبح رئيساً للوزراء في إسرائيل. لكنني اليوم لست سوى سائقك، بكل بساطة. وإني أعدك بأن تكون رحلتك أقلَّ مشقة من الرحلة التي انتهيت منها الآن."

* * *

انطلقت سيارتهما، فيما هما صامتان، إلى القدس، متخذين لهما طريقاً بدت لدافيد أنها خطأ إهليليجياً متعرِّجاً، فيما كان ماسور لا ينفك عن النظر إلى خلفه عبر المرآة. "لقد كنت مرة رئيساً لجهاز الشين بيت،" قال موضحاً. "وإنني ألجأ أحياناً، على سبيل المتعة، إلى فن المخادعة والتخفي."

ومع أن غرائز دافيد كانت نابضةً بالفضول، إلا أنه لم يتوجَّه إليه بأي سؤال. فالساعات القليلة الماضية كانت لا تزال طاغية في مثولها على ذهنه.

أوقف ماسور سيارته في ساحة عامة، ثم مشى الرجلان في شارع جانبي مرصوف ثم دخلا منزلاً مبنياً بالصخر الرملي، ذا ثلاثة أدوار. كان عمر البناء خمس مئة سنة، كما شرح ماسور. لكنه كان يحظى بصيانة تامة. ومن خلال كوَّة في الجدار لاحظ دافيد وجود

فناء مظللٍ بالأشجار، وتحيط به حديقة مسوَّرة. ارتقيا الدرج مروراً بغرفٍ مدروسة الموقع بعناية بحيث أن كلاً منها ينال نصيبه من نور الشمس، ومن فيء الظِّلال، كما أنها عابقة بحسٍّ التاريخ. أما الحديقة على سطح المبنى، التي تظللها أشجار الزيتون، فقد كانت لها إطلالة على مناظر القدس.

كان هناك امرأة فاحمة الشعر تسرِّح أنظارها في اتجاه المدينة، لكنها ما لبثت أن استدارت بوجهها مستجيبة لوقع الأقدام خلفها. كانت في العقد الرابع من عمرها، أو ما يقارب ذلك. ولها مشية مستقيمة وملامح عقاب، الأمر الذي جعل دافيد يتسمَّر في مكانه.

"إنني آنات بن آرون،" قالت معرِّفة بنفسها. "وأعتقد أنك قد عرفتَ والدي."

نظر دافيد إلى وجهها في ذهول. وجه شديد الشبه بوجه عاموس بن آرون. "لطالما شعرتُ بالإجلال نحو أبيك،" قال لها في النهاية. "لذلك فإنني أجد اللقاء بك صعباً."

"أجل، إنني أستطيع أن أتصور ذلك."

الواقعية الهادئة في رنة صوتها، وفي سلوكها، لم يتركا أمام دافيد مساحة للمداهنة المهذبة. "كائناً من يكون قاتل والدك،" قال لها، "فإنني أعتقد أنه لا بد من أن يكون شخصاً ما، غير هناء عارف."

استجابت لكلامه بهزة مقتضبة من رأسها. "أستطيع أن أتفهم ذلك أيضاً، لذلك دعنا نجلس."

جلس الثلاثة تحت شجرة زيتون في زاوية الحديقة. كانت مكعبات الثلج والماء المعبَّأ في القوارير، في انتظارهم على الطاولة. فكلُّ ما أراد ماسور وبن آرون بحثه مع دافيد، لم يكونا يريدانه أن يجري تحت سمع النُّدُلِ. سكب ماسور الماء في الأكواب بحصافة صيدلي. "أعتقد أننا نتكلم هنا في سريَّة تامة،" قال لدافيد.

"طبعاً،"

"حسناً، إذن. آنات وأنا، جزء من محاربين ما فتئوا على اعتقادهم أن السلام لا يزال ممكناً. والصدف الغريبة قد تجعل منك حليفاً لنا."

انحنت بن آرون إلى الأمام فوق الطاولة. كان تفحُّصها لوجه دافيد جريئاً وحادّاً. "سواء أعاشت هناء عارف أم ماتت،" قالت له، "فإن هذا الأمر قلما يعنيني. يهمني شيئان فقط: معرفة من الذي خطَّط لاغتيال والدي، والتأكد أن دماء أبي لن تذهب هدراً دون أيِّ مقابل. وابتداءً من الآن، فقد بات موت أبي سلاحاً يستخدمه من كان لا يطيقهم في حياته. وهم الإرهابيون من بين العرب، كما من المستوطنين المتعصبين من أشباه باراك ليف."

حاول دافيد أن يستجمع أفكاره، فتشاغل بأخذ رشفة من الماء. "إن الفكرة ذاتها تسكُنني،" أجابها.

"ستكون لدينا انتخابات في وقت قريب،" قال ماسور. "وكما تبدو الصورة الآن، فإنها ستنتهي بإكمال نقل السلطة إلى إسحاق بنيامين، وإلى أولئك الذين يفهمون السلام على أساس أنه جدار فاصلٌ. كما ستنتهي أيضاً بتعزيز نفوذ حماس، وبترك الضفة الغربية جرحاً متقرِّحاً مليئاً بالغضب المتفجِّر والفاقة." ومرة جديدة نظر ماسور إلى بن آرون. "إننا نقصفهم مرة جديدة. لكن هذه المرة نقصفهم بهدف إزالة كتائب الأقصى من الوجود. ومرة جديدة، نجد أن لا خيار متروكاً أمامنا.

"لكن ما الذي سنجنيه من كل ذلك؟ سوى ازدياد نفوذ حماس؟ ودون أيِّ أملٍ في السلام، فإن الشعب الفلسطيني سوف يلتفُّ حول حماس نهائياً. وسيكون المتطرفون والحاقدون في كلا الجانبين هما الفريقان الوحيدان الرابحان نتيجة لهذه الحواجز التي نقوم ببنائها بين الشعبين."

"إن هذه أمورٌ محض جيوسياسية،" قال دافيد. "أما اهتماماتي فمختلفة عن كل ذلك. فأنا مجرَّد محامٍ عليَّ أن أقوم بالدفاع عن موكلتي التي قد تواجه عقوبة الإعدام."

"بلى، عن طريق الإيحاء إلى أن اليهود قد ساعدوا على قتل والدي،" قاطعته بن آرون بفظاظة. "أنت تتذكر مصرع إسحاق رابين. فالمستوطنون المتطرفون حقدوا عليه أيضاً. وكان في اعتقادهم أنهم إنما يدخلون في حرب غير معلنة مع اليهود العلمانيين، حرب كان عليهم حسمها لمصلحتهم قبل الانصراف إلى التعاطي مع العرب." تكوَّرت شفتاها امتعاضاً. "وعندما تمَّ اغتيال رابين على يد شخصٍ يهودي، فإن بعض اليهود قد غنى ورقص بكل حرفية الكلمة. لكن الأكثرية الساحقة من شعبنا كانت مشمئزة من هذا الفعل، ساخطة عليه، وكانت تأمل في أن تستمر سياسة رابين."

"إلى أن،" أضاف دافيد، "قام الإرهابيون الفلسطينيون بتنفيذ موجة من التفجيرات الانتحارية."

"ليس الفلسطينيون فقط،" قال ماسور. "بل الإيرانيون أيضاً."

"هل تعني،" انتهز دافيد فرصة السؤال، "أن الإيرانيين كانوا وراء عملية اغتيال رابين؟"

"لا. بل إنني أقول إنهم قاموا باستغلال الاغتيال عن طريق إثارة، وتمويلِ موجةٍ من الهجمات الانتحارية التي نفذها الفلسطينيون. وقد تسببت تلك العمليات بتدمير فرصة السلام، كما قادت إلى فوز الجناح اليميني في إسرائيل في الانتخابات. وعندما فعل الإيرانيون ذلك، فإنهم تعلَّموا درساً ثميناً للمستقبل.

"وما كان لهم القيام بقتل رابين بأنفسهم. لكن الجناح الإسرائيلي اليميني المتطرف كان يستطيع ذلك. لهذا، فإنهم أيقنوا أن هؤلاء الذين يحقدون عليهم وعلى الفلسطينيين من المستوطنين المهاويس، لن يكونوا في واقع الحال، سوى أعداءٍ لدولة إسرائيل كذلك."

حدَّقت بن آرون نحو المائدة. كانت ملامحها الأنيقة تشي بأنها تكظم مشاعر مكبوتة لا تريد إطلاقها. "بالنسبة لأشد المستوطنين سوءاً،" قالت بحرارة هادئة، "ليست إسرائيل مكاناً للديموقراطية، ولا للأمل، بل هي مجرَّد مكانٍ للمقابر والمواقع المقدَّسة. وهذا ليس من اليهودية في شيء، إنه مجرَّد وثنية عمياء، وقد صارت هذه الوثنية الآن، مجنونة تماماً. ويعلمنا التاريخ أن المجانين كثيراً ما يلجؤون إلى القتل تحقيقاً لأحلامهم."

"كان على فريق حراسة والدِك،" أجابها دافيد بلطف، "أن يردع مثل هذا الجنون."

هذه العبارة، بما انطوت عليه من تحدٍّ، استدرجت نظرة سريعة من بن آرون في اتجاه ماسور. "إنه مجتمع ضيِّقٌ،" قال ماسور مسهباً. "وله طبقات نفوذ مختلفة متراكبة، كما أن له حلقات التقاء كثيرة. وإحدى هذه النقاط تجمع بين معظم اليهود."

استحضر دافيد ما لديه من معلومات. "تعني حلقة الجيش؟"

"أعني حلقة الخدمة العسكرية،" أجاب ماسور مصحِّحاً. "معظمنا تقريباً يؤدي الخدمة العسكرية، حتى أولئك المهاويس الجبليون من أمثال باراك ليف. فالجيش هو المكان الذي يصنع فيه مختلف الرجال صداقاتهم لمدى الحياة."

لاحظ دافيد أن بن آرون كانت لا تزال مستغرقة في تأمل المائدة. "وهو المكان ذاته،" قاطعه دافيد، "الذي انتُخِبت منه عناصر فريق حماية رئيس وزرائكم. بما في ذلك أخفَضُ الرتب العسكرية، وربما أقلُّ العناصر جدارة بالثقة. لكننا نتكلم بالألغاز. دعونا نفسر لأنفسنا من هم هؤلاء الناس 'المختلفون'؟ وكيف يمكن أن يكون لهم ارتباط بإيران؟"

"لو كان هناك من ارتباط،" أجاب ماسور بحذر، "فإنه قد يتسبب في رضِّ الشعب الإسرائيلي رضّاً. لكن في نهاية الأمر، قد تعني هذه المعلومة إنقاذنا، وإنقاذ خطة والد آنات. فعاجلاً أم آجلاً يا سيد وولف، ما من سرٍ إلا ويتسرَّب في إسرائيل. فلمَ لا يتسرَّب في خدمة هدفٍ جديرٍ بذلك؟" ومرة جديدة رسم ماسور ابتسامة مخادعة على فمه.

"سواء أكان هذا الهدف يتعلق بإنقاذ خطة سلام، أم بالدفاع عن حبيبة قديمة."

أيقن دافيد في دهشته أن آنات بن آرون كانت تتفحصه جيداً. "في الوقت الحاضر،" قالت بهدوء، "نكون قد قلنا ما عندنا. لكن عليك بعدم التعجُّل بمغادرة إسرائيل. فبشيء من الحنكة والاصطبار، لربما ستبدأ بالعثور على بعض الأجوبة عن ما لديك من أسئلة وأحجيات صعبة."

الفصل

6

جلس دافيد على فناء في مدينة حيفا الساحلية الساحرة، مشرف على البحر الأبيض المتوسط. كان بصحبته ثلاثة من الإسرائيليين المتوسطي الأعمار ـ أرملة، وزوج، وزوجة ـ تمزقت عائلاتهم إرباً على يد امرأة انتحارية آتية من مخيم اللاجئين في جنين.

كانت الحادثة قد وقعت، حسبما روى له إيهود بيريتز، ليلة سبت عيد الفصح، يوم اجتمع أشخاص من أجيالٍ أربعة ـ أكبرهم جيل الناجين من أوشويتز ـ للاحتفال في مطعم، باستمرار نسل عائلاتهم، كان المطعم مملوكاً للعرب، حيث أن حيفا مدينة تجمع الإسرائيليين بأحفاد العرب الذين قرروا عدم الفرار، بنوع من الوئام النسبي. لحظة وقوع الانفجار، كان كلٌّ من هؤلاء الباقين على قيد الحياة قد انتهى لتوِّه من تناول وجبة لذيذة من الطعام، وشعر بالسعادة الغامرة لدفء العائلة ومحبتها.

ومن طريق زيف آرنهيت، الذي كان قد أوصله إلى هذا المكان، عرف دافيد قصة كلٍّ من هؤلاء. فشوشانا رافيث، المرأة السمراء النحيفة التي هي في العقد الخامس من عمرها، ذكّرت دافيد، في حزنها الرصين، بلوحة للفنان دافيد فالازكاز. وكانت قد قدِمت، ليلة الحادثة، إلى المطعم بصحبة زوجها إسحاق، وهو كولونيل متقاعد في الجيش، تحوَّل إلى رجل أعمال. كما قدم معهما ولدهما دافيد، وهو لاعب كرة قدم حاذق، وطالب في الهندسة المعمارية. كذلك قدمت ابنتهما راشيل، وهي معلمة شابة لذوي الحاجات الخاصة. أمَّا سار مانديل فكانت قد قدِمت بصحبة زوجها ميكي وولدها دوف. وفي تلك الليلة كانوا يحتفلون بتسريح دوف من الخدمة العسكرية. أمَّا إيلي وميرا لاندو، فقد حضرا الاحتفال مع ابنتهما نوريت، وهي طالبة في سنة التخرج من مدرسة ثانوية، لها شعر فاحم وابتسامة مرحة يبدوان في صورة فوتوغرافية كانت تحدِّق في دافيد من على منضدة خشبية تحلّق حولها الأربعة في دغشة الظلام.

حاول دافيد جاهداً، التفتيش عن كلمات تصلح لردم فجوة الأسى، وعدم الثقة، القائمة بينه وبين هؤلاء الأهالي الثكالى، بينما كان يعجب في نفسه عن سبب إقدام الجنرال بيريتز

على ترتيب هذا اللقاء له. "آسف لخسارتكم،" قال لهم. "لا أستطيع الادعاء بأنني أعرف كيف يمكن أن يكون ما تشعرون به. لكنني أريدكم أن تعلموا، خاصة في ظل السبب الذي قادني إلى إسرائيل، أنني كاره لما قُدِّر عليكم أن تتحملوه من معاناة".

رمقته شوشانا رافيت في صمت. كانت تجلس في كرسيِّها المتحرك، الذي يتدلى من حافته طرفا بنطالها، حيث كان يفترض وجود ساقيها في داخلهما. أمَّا صوتها فقد كان ناضباً من الحياة. "أخبرنا الجنرال بيريتز أنك آتٍ لتتعرف على الحقائق،" قالت له. "لكن ليس لك أن تنقِّب بنفسك، ولا أن تنتقي. أمَّا من جهتنا نحن، فقد صرنا معتادين على الكلام عن عائلاتنا من أجل جعلِ ذكراهم محفوظة في الأذهان، وعلى أمل أن يفهم الموجودون خارج إسرائيل ما نحن فيه من ظروف علينا مواجهتها."

هزَّ دافيد برأسه.

"لذا، هل تريد أن تسمع ما عندي من تذكارات مؤلمة؟" سألته.

***

في ضوء الشمعة، نظرت شوشانا في وجه ابنتها. كان الجو صاخباً، ملؤه الكلام والضحِك، وفي وسط الخصوصية التي أتاحتها لهما هذه الأجواء، انحنت راشيل مقتربة من أمها لتفضي لها في سرِّها، "لقد قابلتُ هذا الشاب منذ أسبوعين.."

ومن طرف عينها، لاحظت شوشانا حركة استرعت انتباهها: شابة عربية سوداء العينين، عاطفيتهما، تقترب من مائدة يحيط بها أفراد عائلة إسرائيلية مؤلفةٍ من أجيال أربعة وثَّابة بالحياة. اثنان من أفراد العائلة يلبسان ثياباً عسكرية، والظاهر أن أحدهما طيار. وعندما وصلت قربهما انفجرت في هزّة راعدة قذفت شوشانا عن كرسيها.

وعندما استعادت وعيها، كانت تستلقي في بركة من الدماء لا تكاد تسمع الأصوات الحادة الصارخة بقربها. كان يعوزها الإحساس بقدميها. أما إلى جانبها فقد كان يستلقي زوجها وهو ينفث الدم من فمه. إلى أن أيقنت ببطء أنه قد بات ميتاً.

انقلبت شوشانا على بطنها لتواجه الغرفة. ولم يكن قد بقي فيها أيُّ شيء على طبيعته السابقة. فالمكان الذي كان عامراً بالعائلات، باتت تملؤه الطاولات المحطَّمة والجثث، أو أشلاء الجثث، بينما الدماء كانت متناثرة على الجدار.

أغمضت شوشانا عينيها، عليها أن تكون قويَّة من أجل أطفالها، قالت مؤنبة نفسها، لكن الظلام ما لبث أن احتواها.

ولم تستفق من غيبوبتها سوى في عربة الإسعاف بينما كان مسعف طبي يحقنها بحقنة طبية. "لماذا هذه الحقنة؟" سألته وهي سكرى.

"إنها حقنة مضادة للتيتانوس، ولالتهاب الكبد الوبائي."

أنهت كلامها إلى دافيد، "كنت أحب المشي على حافة الشاطىء بصحبة عائلتي، وأستسيغ الشعور بالماء البارد يلطم قدميَّ وكاحليَّ. وعندما استفقتُ من خدري، وجدت أن لا قدمين قد بقيا لديَّ، ولا كاحلين. كما أيقنتُ أنني قد فقدتُ أيضاً عائلتي."

* * *

وخلافاً لشوشانا رافيت، فإن الألم قد بارح سار مانديل التي صار لها نظرة ذاهلة مستسلمة حتى بدت كأنها حائرة في مسألة لا تجد لها جواباً.

كانت قد التقت شوشانا في اجتماع قام بترتيبه إيلي لاندو، مدفوعاً باعتقاده أن الناس الطبيعيين يخشون صحبتهما. "لقد تبادلنا أسرارنا معاً" أوضحت سار، "أن الشيء الذي لا تزال تلاحقنا أشباحه في الليل، إنما هو خوفنا من أن يكون أولادنا قد عانوا الكثير من الآلام."

وبعد ستة أشهر على تاريخ الانفجار، ذهبتا إلى محطة البوليس، وهما في حالة من التسليم والخوف، لرؤية الصور الفوتوغرافية لأولئك الذين كانوا مرة أحبابهما.

لقد بدا زوج شوشانا وابنتها وأحفادها في الصور الفوتوغرافية يشبهون كثيراً ذاكرتها عنهم عندما كانوا على قيد الحياة. أمَّا سار، فلم تستطع أن تتبين البقايا التي أثبت العلم الطبيُّ أنها هي كلُّ ما تبقَّى من ميكي ودوف؛ لقد استطاعت أن تتعرف على دوف فقط، وقد تمكنت من ذلك بسبب القلادة الذهبية التي كان يضعها حول عنقه لتتلاءم مع لون بشرته البرونزية. لكن الصور هذه أعطتها من جهة أخرى عزاءً مرّاً، هو يقينها الآن، أن أفراد عائلتها لا يمكن لهم أن يكونوا قد عانوا من الألم لما هو أكثر من جزء من الثانية. "لو أن الله أعطاني خياراً،" قالت لدافيد بعينين دامعتين، "لرجوته أن يحوِّلني إلى صورة أخرى مثلهما. لكنه بدلاً من ذلك حكم عليَّ بلعنة القيام بدور الشاهد على مصرعهما."

* * *

وفي مقارنة ذلك، فإن ميرا لاندو أوضحت أن وفاة طفلتهما الوحيدة قد كانت رمية من غير رام. "فالمسمار ذاته الذي اصطدم بمرفقي، ثقبَ وتينَ قلب نوريت. كان وجهها هادئاً، لم يتغير، كأنها في منام. لكن عندما وضعتُ وجنتي قرب شفتيها، فإنني لم أشعر أن لها أنفاساً."

استدارت نحو زوجها إيلي الذي كانت تقع خلفه حديقة نضرة، ويمتد أمامه منظر البحر المتوسط عند الغسق، بينما أشعة الشمس المتضائلة عند الغروب تتحول إلى اللون الأرجوانيِّ الغامق على صفحة الماء، في أوَّل حلول الظلام. لقد كان منظر الغروب مذهلاً، لكنه قلَّما عنى دافيد، خلا عن تساؤله عما إذا كان إيلي لاندو يستطيع أن يرى في هذا المنظر أيما شيء يدعوه إلى الشعور بالفرح.

"ما الذي يدعوك للدفاع عن هذه المرأة؟" سأله إيلي.

وكانت إشارة آري ماسور الضمنية السالفة، إلى علاقة دافيد الحقيقية بهناء، ما زالت ماثلة في ذهن دافيد. لكنه أيقن أن هذه المعرفة لم تكن سوى بسبب وقوع صائب وهناء تحت المراقبة أثناء دراستهما في هارفارد. "لأنني لا أعتقد أنها هي الفاعلة،" أجاب. "ثم لأنني أريد أن أعرف من هو الفاعل الحقيقي. ثمة أشخاص في إسرائيل لا يهتمون كثيراً لحياة عاموس بن آرون."

نظر إيلي إليه. "الفلسطينيون، لا اليهود، هم الذين قتلوا عاموس بن آرون، كما قتلوا بقتله، أوهامنا. كلُّ ما على حكومتنا الآن أن تفعله، هو القيام ببناء هذا الجدار الحاجز، ومحاولة إبعاد الانتحاريين عنا. ومما عرفناه عن هذه المرأة، وعن المكان الذي انطلقت منه، فإنه لو كان الجدار موجوداً، فلربما كانت ابنتنا أيضاً لا تزال موجودة بيننا. لكن بدلاً من ذلك، فإن جيشنا قد ذهب إلى جنين. وبعد ذلك، أخبرنا إيهود أنه لم يكن ثمة أحد لا يزال موجوداً هناك لإيقاع العقاب به."

لكن الصحف العالمية قالت غير ذلك، فكَّر دافيد، ومبعوث الأمم المتحدة لارسون وصف ما حدث في جنين أنه مجزرة ضد الإنسانية. راقبت ميرا لاندو وجه دافيد وهي تقول، "يحاسبنا الأميركيون، كما يحاسبنا سائر العالم. لكن لا أحد يستطيع أن يفهمنا. نحن أناسٌ عاديون عانينا بفعلِ الصدفِ. والشيء اللاعتيادي الوحيد الذي يميزنا كضحايا للإرهاب، هو أننا نقف شاهداً على انعدام الأمن والأمان اللذين يعتبرهما الأميركيون أشياء من المسلَّمات، على الأقل إلى أن قامت هناء عارف بمساعدة انتحاريٍّ على قتل يهودي في سان فرانسيسكو." أرغمت ابتسامة على فمها لم يكن لها التماعٌ في عينيها. "متى تقيمون السلام؟ يلحُّ علينا العالم بالسؤال؟ لقد تعوَّدتُ على التعلّق بآمال السلام في الماضي. أمَّا الآن، فلا. لهذا فأنت تسأل نفسك، هل كنتُ أحلم بوجود تلك الابنة مجرَّد حلمٍ فقط؟ إن كلَّ ما بقي لك كي تبقى بعيداً عن الجنون، هو مجرد الكلام عنها." توقفتْ عن الكلام لحظة، قبل أن تضيف بهدوء، "حتى مع شخصٍ مثلك."

وفي ضوء الشموع، تطلَّع دافيد في أوجه الأهل الأربعة، دون أن يجد شيئاً يقوله. "بحكم المحتد"، قال له إيلي لاندو، "نحن أوروبيون، لكننا نعيش وسط أناس يختلف معنى الحياة بالنسبة إليهم عما تعنيه إلينا. فالعائلات العربية ترسل شبابها لقتل أنفسهم مع أنفسنا على السواء."

كان دافيد يصغي إلى هذا الكلام، لكنه لم يشأ أن يذكر حادثة محاولة أتباع باراك ليف تفجير مدرسة عربية مليئة بالأطفال الفلسطينيين. "وهذه الانتحارية،" سأله، "ماذا تعرفون عنها؟"

"قال إيهود بيريتز لنا أنك ستسأل هذا السؤال. كان اسمها فرح عبُّود." رمقه إيلي لاندو بنظرة سافرة. "كانت عضواً في حماس."

* * *

كان زيف آرنهيت قد أوقف سيارته في الخارج. امتطى دافيد المقعد المجانب للسائق بعد أن استنزفته المشاعر التي واجهته في تلك العشية، وفي هذا الوقت فقط، كان قد فهم جيداً، ما هي الغاية من وراء جلبه إلى هذا اللقاء. ففي مقابل موافقته على الخضوع لتجربة الاستماع إلى مثل هذه القصص، فإن إيهود بيريتز يريد مني أن أفكر بأن هناك علاقة محتملة لقتلة بن آرون مع منظمة حماس.

"كيف كان لقاؤك؟" سأله آرنهيت.

"كان اللقاء مؤلماً." ارتمى دافيد إلى الوراء في مقعده. "لكنني كنت ممن قد شهدوا تفجيراً انتحارياً، في نهاية الأمر، لذلك فإن خيالي قد يعمل بطريقة أفضل مما يعتقدون."

أخرج آرنهيت هاتفاً خلوياً من جيب قميصه ودفعه إلى يد دافيد. "طُلب مني أن أسلِّمه إليك. وعندما تختلي بنفسك، عليك بالاستماع إلى الرسائل المرسلة إليك."

* * *

وفي غرفته في الفندق، شغَّل دافيد جهاز الهاتف الخلوي وضغط على المفتاح الذي يحمل الرقم واحد.

كان صوت الرجل إسرائيلياً، وكانت لكنته الإنكليزية مفخَّمة الحروف قليلاً. كان على دافيد أن يذهب في الغد إلى المدينة القديمة، وأن يتجوَّل تجوال سائح فيها. لكن عند الساعة الرابعة، فإن عليه أن يجد نفسه، وكأن ذلك يحدث بفعل الصدقة المحضة، في الكنيسة الأشورية. بل في عمق الكنيسة، عند المذبح المقدس، في المكان الذي صُلب فيه السيد المسيح.

الفصل

7

حوالي الساعة الثانية دخل دافيد إلى المدينة القديمة سيراً على قدميه فيما برزت من الجيب الخلفي لسرواله الكاكي خريطة سياحية.

توقف عند أسفل الجدار الذي بناه الرومان قبل ألفين من السنوات، وهو الجدار الذي بات يحمل آثار قذائف حربي عام 1948 و1967. ماراً تحت قنطرة بناها المسلمون، تابع دافيد الطريق ذاتها التي سلكها الصليبيون يوماً. فإذا به وسط عالم حاشدٍ بالسُّياح، والعرب، واليهود الأصوليين، والطلبة، والرجال الذين تبدو عليهم سيماء رجال الأعمال والمهن الحرة، والنساء من مختلف الأصول. أمَّا ما يعكس تاريخ هذه المدينة، فهو انقسامها إلى أربعة أحياء: يهودية، وإسلامية، ومسيحية، وأرمنية. وهذا الحي الأخير يقطنه أحفاد أبناء الطائفة الأرمنية الفارين من مذبحة جماعية تعرضوا لها على أيدي الأتراك. لكن أبناء هذه الطوائف الأربع كانوا يتداخلون ويتمازجون في غير مكان من هذه المدينة. اتخذ دافيد له طريقاً ضيقاً مرصوفاً بالحجارة يمر بين أبنية حجرية متلاصقة. مرَّ أمام بيت عائلة أرمنية، ثم أمام مسجد، ثم بالقرب من يهوديٍّ يافعٍ يطالع كتاباً في فناء منزل عائلته الذي تظلله أشجار النخيل. كان من الصعب عليه أن يتّخيل دولة واحدة بعينها تجازف بالادعاء بالملكية الحصرية المطلقة لهذه المدينة، رغم أن أمماً كثيرة قد حاولت من قبل، أن تفعل ذلك. فكَّر دافيد في القنبلة التي انفجرت بينما كان يأكل في فندق الملك داود، تلك القنبلة التي انضاف ضحاياها إلى آلاف الناس الذين قُتلوا في هذه المدينة عبر آلاف السنوات.

متظاهراً بقراءة الخريطة في يده، بينما هو في الحقيقة يتفحَّص الوجوه المحيطة به: سار دافيد في طريق كان قد قصده بعينه بعد أن درسه جيداً عن ظهر قلب، مع أن سلوكه له بدا عرضياً ولا هدف له. مرَّ بالقرب من منطقة متباينة أخرى: ساحة عامة رومانية تمَّ التنقيب عنها في العام 1967، بنت يهودية تتحدث عبر هاتف خلوي، مذكرة إياه بمنيرة. قسم يهوديٌّ أفضى به فجأة إلى منطقة تسوق إسلامية. كان عرض الزقاق لا يتجاوز بضعة أقدام، وعلى جانبيه حوانيت لها لوحات إعلان عربية، تباع فيها الشموع، والتوابل، والوسائد، والسجاجيد الزاهية الألوان، والحبوب، والمعكرونات، وزيت الزيتون؛ كان البائع

في أحدها رجلٌ عربي يدخن نارجيلة. أجال دافيد نظره إلى الأعلى، فلاحظ عدسات المراقبة. لم يكن ثمة أوعية للنفايات مسموح بها في هذا المكان، كتدبير احتياطي ضد الإرهابيين الذين قد يحلو لهم استعمالها كمخبأ للقنابل الموقوتة. وفي كل يوم، عند الخامسة مساء يدخل المدينة جيش من عمَّال التنظيفات.

ألقى دافيد نظرة إلى ساعة يده.

* * *

عند الساعة الثالثة إلَّا الربع، وقف دافيد على أعلى درج فوق ساحة الجدار الغربي. كان يستطيع أن يرى القبة الذهبية لمسجد الصخرة، قائمة خلف الجدار. كذلك كان يستطيع أن يرى القبة السوداء للمسجد الأقصى. وهو محجة الجماعة التي فرَّخت إبراهيم جعفر. كان الدخول إلى مثل هذه الأماكن محظوراً عليه. لكن قبة مسجد الصخرة كانت في أي حال تحتل المكان الذي بنى عليه إبراهيم المذبح الذي أراد أن يضحي عليه بولده إسحاق، أو إسماعيل، وفقاً لما تكون عليه الرواية يهودية أو إسلامية. لقد ذكَّره هذا بالهوَّة الفاصلة بينه وبين هناء، كما ذكَّره بجميع الطرق والمسالك التي يختلف الناس حولها ويقتلون من أجلها، وكلها تنبع من مفاهيمهم واعتقاداتهم الخاصة عن الله.

نظر دافيد حوله فرأى على الجدران الحجرية صوراً دعائية انتخابية تعود إلى حملة إسحاق بنيامين، ملصقة إلى جانب صور أقدم منها، عائدة إلى عاموس بن آرون يظهر منها شنب هتلر الشهير فوق شفة الأخير العليا. التقط دافيد عدة صور عشوائية للمكان دون أن يكون متأكداً مما إذا كان ثمة شخص ما، يتتبع خطاه. انحدر إلى أسفل الدرج المؤدي إلى الحائط الغربي، فرأى يهودياً أصولياً يوزع قلنسواتٍ ورقية على الرجال الراغبين في الصلاة في ذلك المكان. تردّد قليلاً قبل أن يتقبَّل واحدة من هذه القلنسوات، ويتخذ له مكاناً بين الرجال الملتحين الذين كانوا يتمايلون ويترنحون عند الجدار.

أغمض دافيد عينيه ليبعد عن أفكاره أيَّ تشتُّتٍ. ثم جهِدَ لكي يستجمع ذهنه بقدر ما يستطيع، لكي يكون أقرب ما يمكنه من ذهنية الصلاة. طرأت له ذكرى والده ووالدته، ثم ذكرى هانس وولفنسون وعائلته. وأخيراً فكَّر في جميع الذين ماتوا أو سيموتون في سبيل قضية حيازة هذا المكان التراجيدي الرائع.

وعندما فرغ دافيد من صلاته كان الوقت قد تجاوز الساعة الثالثة بقليل.

* * *

مستفتياً الخريطة، مرة جديدة، وكأنه يسائل نفسه عن المكان الجديد الذي ينوي الانتقال إليه، سلك دافيد درب الآلام التي كان قد سلكها ابن مريم في اتجاه الكنيسة التي تحتوي على قبر المسيح، وعلى الذخائر المقدسة.

كان تسلُّق الدرج إلى الأعلى طويلاً، وكان ثمة محطات فيها لوحات إرشادية معدنية حُفر عليها الصليب، إضافة إلى بعض الأرقام الرومانية. مرَّ دافيد بالقرب من حفل عرسٍ تألقت فيه الصبايا والنساء العربيات الضاحكات العابثات بفساتينهن وجلابيبهن المرصَّعة بالذهب. تطلَّع دافيد في اتجاههن دون أن يرى بينهن وجهاً واحداً كان قد صادفه من قبل.

وفي آخر الأمر، خرج دافيد من الزقاق الضيق، ثم وقف في ساحة كنيسة القيامة. لم يعد يلتفت نحو ساعة يده لأنه كان قد وصل إلى حيث يقصد، ولم يشأ الإيحاء أن الوقت يعني له شيئاً.

كانت هذه الكنيسة هي أقدم المباني ذات الطُّرز المعمارية الرومانية في العالم. إذ إنها كانت قد بنيت في العام 330 ميلادية، بتوجيهات من والدة أحد الأباطرة الرومان بعد أن اعتنقت الدين المسيحي. أما في داخل الكنيسة هذه، فإن الصراعات المذهبية السائدة في مدينة القدس كانت تصل إلى ذروتها. فباطن الكنيسة المعتم الفسيح كان ينقسم بين المذاهب المختلفة، وفي تلك اللحظة، فقد كان كلُّ فريق منهمكاً في أداء طقوسه الخاصة به. وجد دافيد في هذه التناقضات التي تتعايش في وقت واحد، ومعبدٍ واحدٍ، شيئاً ظريفاً جميلاً، بقدر ما هو مقلق، ومربك، وراسخ في الذاكرة العامة. فالكهنة الفرنسيسكان كانوا يرفلون في أثوابهم السود بينما هم يقرؤون الكتاب المقدس بصوت مرتفع، باللغة اللاتينية، وتتقدمهم شموعٌ مضاءة أثناء ارتقائهم لسلَّم الدرج الحجري؛ وبالقرب منهم، كانت جماعة من المسيحيين الأميركيين ترفع أصواتها المنافسة وهي تنشد تراتيلَ خاصة بها؛ بينما كان فريقانِ آخران، أحدهما كاثوليكيٌ، والآخر أرثونكسيٌّ إغريقيٌّ: يشرحان حكاية صلب المخلِّص في ضوء معتقد كل منهما الخاص، وشموعه الخاصة. وعندما هبط دافيد إلى الدور الأسفل، المضاء بالشموع، العابق بالغموض الديني، فإنه رأى جماعة منشقَّة من الكاثوليك تتلو قدَّاساً لاتينياً. وفجأة وجد أن طريقه مسدودٌ بجمعٍ من الكهنة الإغريق الأرثونوكس، وكلٌّ منهم راكع في صلاة منفصلة.

بات دافيد الآن قلِقاً على موعده. لكنه عندما نظر حوله مفتشاً عن طريق بديل، فإنه لم يعثر على مسلكٍ آخر مألوف. وبينما كان الوقت يمرُّ بتثاقل مرهقٍ، اكتفى دافيد بالمراقبة حتى انتهى الإنشاد في نهاية الأمر، ثم تابع سيره بقلة اهتمام ما عاد يتنبَّه إليها.

مضت دقائق أخرى، في أحشاء الكنيسة، قبل أن يدخل دافيد إلى المعبد الأشوري الذي كان صغيراً ومعتماً ودائرياً. وكان يوجد فيه لحظة ذاك، خمس نساءٍ إثيوبيات بحجُبهنَّ، وبأقنعتهن البيضاء. كنَّ يرسمن شارة الصليب ويسجدن بطريقة تشابه طريقة المسلمين. وعندما فحص دافيد ساعة معصمه، كان الوقت قد تجاوز الساعة الرابعة بنحو إحدى عشرة دقيقة.

ولم يكن في يده أن يعمل شيئاً آخر سوى الانتظار.

رأى دافيد من ثقب في الجدار الحجري إلى يساره، كهفاً. وبينما هو يدقق النظر في داخل الكهف، إذا به يسمع وقع خطواتٍ خلفه. "بعضهم يعتقد،" قال صوت خفيض، "أن السيد المسيح كان قد دُفن في هذا الكهف. وهذا الاعتقاد يتلاءم مع التقاليد التي كانت سائدة يومذاك."

استدار دافيد ليرى رجلاً قصير القامة، يصعب البتُّ في عمره وأصله، له شعر كستنائي أملس، خلف جبهة عالية، كما أن له وجهاً حليقاً بارز القسمات مكتنز الشفتين، وعينين شهلاوين داهيتين. ثم أضاف الرجل بصوت أكثر انخفاضاً. "يبدو أن لا أحد يتبعك."

"ربما في ما عداك أنت،" أجابه دافيد. "وليس عندي أيُّ علمٍ، أو دليلٍ على من قد تكون."

هزَّ الرجل كتفيه، كما لو أن كل هذا تفاصيل تافهة لا قيمة لها.

"دعنا نجلس معاً في مغارة المسيح،" قال. "فوجود حفنة قليلة من اليهود معنا لن تكون مؤذية."

تعجب دافيد من معنى هذا الكلام. كما تساءل هلَّا يكون هذا الرجل يهودياً حقاً. وللحظة مرَّت، انتابته أفكار عشوائية غير مستقرة: ترى هل يلقى حتفه داخل المغارة، خاصة وأن لا أمل له بقيامة تكون بعد موته. "تقدَّم أمامي، وسأدخل وراءك،" قال للرجل.

* * *

كان الكهف مدعاة لرهاب الاحتجاز، ففضاؤه لم يكن ليسمح لدافيد بالوقوف. لذا، فإنه ركع إلى جانب رفيقه الغريب، كانا أشبه بسائحين يتأملان المكان المفترض لقبر المسيح.

"إذن، دعني أقصُّ عليك رواية،" قال الرجل بلهجة عرَضية، كما لو أنه دليل سياحي. "منذ عدة سنوات، انضمَّ رجلان إلى الجيش، واحد من تل أبيب، والثاني مهاجر من أميركا. كان كلاهما متشدِّداً في إيمانه الديني، بارّاً به؛ وكان كلاهما انضباطياً متَّقداً بالحميَّة؛ وهكذا، اختير كلاهما للالتحاق بفرقة النخبة، فرقة المظليين. وصار كلاهما ضابطاً. واعتاد كلاهما أن ينظر إلى صاحبه نظرة الأخ." ارتسمت ابتسامة على شفتي الرجل، كما لو أن فكرة صداقتهما قد استدعتها. "كانا يأخذان إجازاتهما معاً، ويزوران الأماكن المقدسة معاً. كما تكوَّن لديهما اهتمام مشترك بعلم الآثار. لكن عندما انتهت مدة خدمتهما. استمرَّ واحد منهما فقط في الجيش. بينما غادر الثاني لأنه كان قد قرَّ قراره على تأسيس مستوطَنة إنفاذاً لقدَر اليهود بأن يعمِّروا أرض إسرائيل الكبرى. ومع أنه شعر بخيبة أملٍ لأن صديقه اختار عدم الانضمام إليه، فإن المستوطن والجنديَّ بقيا لصيقين في صداقتهما، تجمع بينهما روابط التجارب المشتركة والاعتقادات الموحَّدة."

ألقى دافيد نظرة وراء ظهره. كان المعبد الأشوريُّ خالياً، أما رفيقه فما زال يتابع كلامه في نغمة تحادثية لكنها خفيضة مكبوتة. "تعرف الجنديُّ على امرأة متشددة في إيمانها في تل أبيب، اعتقد أنها ترغب في أن تكون جزءاً من حركة الروَّاد هذه. سافرت المرأة إلى المستوطنة حيث التقت صديقه. ولفرحة الثلاثة معاً أن المرأة والمستوطن قد وقعا في الحب وقررا الزواج.

"لكن المرأة ما لبثت أن وقعت ضحية لحادثٍ إرهابيٍّ ساقها الحظُّ إليه. فقد استقلَّت حافلة إلى مكان عملها في صباح أحد الأيام، وقد صادف جلوسها إلى جانب انتحاري مفخَّخ." هزَّ الرجل رأسه. "ومع أن الانفجار قد قتل الكثيرين، إلا أن المرأة اختفت من الوجود، بكل بساطة. وهكذا، لم يكن ممكناً أن يتمَّ العثور على أيٍّ من أشلائها القابلة للدفن."

فكر دافيد في أوتوغراف إيلي، وفي ابنة ميرا. فكَّر في ابتسامتها المشرقة ونظرتها الدافئة. "مصعوقاً بالحزن،" تابع رفيق دافيد حديثه، "بات عقل الرجل مستحوَذاً بالحقد على الفلسطينيين. أمَّا صديقه الجندي الذي أصابه الحزن أيضاً، فإنه تقدَّم إلى وظيفة قوامها حماية حياة رجلٍ يجله بوصفه حامي إسرائيل، إنه آريل شارون." استدار المتحدث معايراً درجة تفاعل دافيد مع الحديث. "أحسبُ أنك قد بدأت في التقاط مغزى روايتي الحزينة."

"ليس قبل أن تفرغ من روايتها."

"لقد أخبروني أنك شخص بارد، هادىء الطبع،" قال الرجل مجيباً. "سوف أصل بك إلى زبدة الحديث. مع أن المستوطن كان قد وجد له زوجة بعد ذلك، وقد أنجب منها ابنة، إلَّا أن لا شيء قد استطاع تبريد قلبه. وبعد عدة سنوات صار الجندي حارساً شخصياً للرجل الذي اعتقد صديقه المستوطن أنه أشدُّ سوءاً من ياسر عرفات ذاته. وكان هذا الرجل هو رئيس الوزراء الجديد عاموس بن آرون. أمَّا اسم المستوطن: فكان باراك ليف، الذي ما لبث أن أصبح قائداً لحركة مسعدة المتهمة بالتآمر من أجل تفجير مدرسة الأطفال الفلسطينية، كما أن هذا الرجل أصبح أيضاً أباً لطفلة قتيلة في السادسة من عمرها."

حدَّق دافيد في محدِّثه. "دعني أفهمك جيداً. هل أنت تعني أن هذين الرجلين قد باتا متورِّطين في عملية اغتيال عاموس بن آرون؟"

التقط الرجل حصاة كانت بالقرب من قدميه. "إن ما أريد قوله، هو أن باراك ليف كان يتمنى لو أنه يستطيع أن يقوم بخنق عاموس بن آرون بقبضتي يديه العاريتين، لكنه لم يكن ليستطيع الاقتراب من بن آرون إلى هذه الدرجة. أمَّا صديقه الجندي، فقد كان يستطيع تنفيذ رغبته هذه بوسائل أكثر فناً وذكاءً بكثير."

"وهكذا، بعد اغتيال بن آرون، فإنني أفترض أن الجندي قد عومل معاملة فظَّة."

"على العكس تماماً. فإنك تستطيع أن تتوقع أن كلَ عنصرٍ من عناصر حماية بن آرون كان يُفترض أن تُفحص علاقاته جيداً مع أيِّ شخص من أمثال باراك ليف. وفي حال وجود أية شكوكٍ تحوم حول أيِّ عنصرٍ، فإن مثل هذا العنصر قد يصبح عرضة للحرمان من النوم، وللخضوع إلى جلسات اختبار كشف الكذب، أو للحقن بمحلول الصوديوم بانتوثال. لكن رجلنا هذا لم يمسَّه أحد."

"ألا تعتقد أن صداقة الرجلين كانت معلومةً مكشوفةً؟"

"نحن نعرف أن أمرها كان معلوماً. لكن هذه الجريمة تبدو شديدة التعقيد. ولربما كان محققو حكومتنا، بكل بساطة، يتقدمون في هذه المسألة بالحيطة التي تستحقها. وبكل تأكيد، فإن الناس الموجودين في السلطة لا رغبة لهم في اتخاذ خطوات يمكن أن تنكشف أمام الصحافة، كما يمكن لها أن توحي سلفاً بالاتجاهات التي سينحو التحقيق نحوها، قبل أن يتضح أنه من الحكمة الإقدام على ذلك." صارت لهجة الرجل ساخرة. "وفي مثل هذه الحال، فإن المصلحة السياسية الخاصة قد تكون الناتج العرضي للقرار الحصيف الحكيم. ومهما تكن الأسباب، فإن هذه الحقيقة ـ لو كان ما نعتقده هو الحقيقة فعلاً ـ قد لا تتضح للعيان في وقتٍ يمكنه أن يكون ذا أيَّة فائدة ترجى لموكلتك. لكن هذه المسألة ليست هي موضع اهتمامي."

"وما هو موضع اهتمامك إذن؟"

"إنه مستقبل إسرائيل. ومن هي الجهة التي عليها أن تقوم بتقرير هذا المستقبل."

بدأت ركبتا دافيد تؤلمانه. "إن اهتماماتنا قد تتطابق،" قال بنفاد اصطبار متعمَّدٍ. "لكن حتى هذه اللحظة، فإن روايتك لا تنفعني بشيء. إنني أريد معرفة اسم صديق باراك ليف ورفيق سلاحه."

"نحن متفهمون لمتطلبات المحاكمة عندكم يا سيد وولف. ونعرف أن قاضي محكمتكم سيسأل عن اسم الرجل. أكثر من ذلك، هل ترغب في اللقاء مع الشخص الذي هو موضع شكوكنا؟"

أصاب هذا الجواب دافيد بالدهشة "لا بد أنك تمزح." قال ضاحكاً.

"لا يبدو أنك ما زلت الآن محافظاً على برودة أعصابك." أخرج الرجل هاتفاً خلوياً من جيبه. "هذا هو هاتفك الخلوي الجديد. آسف إذا كان ذلك سيجعلك تشعر شعوراً يشابه شعور القتلة. لكنك تحتاج إلى إبقاء هذا الهاتف معك. كما أن عليك أن تكون صبوراً. فقد يقتصر الانتظار على ساعات فقط، كما أنه قد يمتدُّ إلى أيام. لكنك ستتلقى مكالمة في نهاية الأمر. 'شابات شالوم'."

غادر الرجل المكان دون أن يضيف على ما قاله كلمة واحدة.

الفصل 8

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كان الهاتف موجوداً بجانبه، قاد دافيد سيارة من القدس إلى مسعدة.

كان المكان حصيناً منيعاً، فهو عبارة عن جرف صخري شاهق الارتفاع، تحيط به الصحراء من كل جانب. ركب دافيد عربة التلفريك إلى السهل الواسع المسوَّر المرتفع الذي يحتضن القلعة القديمة، ومن العربة استطاع أن يرى أميالاً شاسعة من الأراضي التوراتية القاحلة، إلى جانب امتداد زرقة البحر الميت. أمَّا القلعة نفسها فهي حصن عبقري بارع: فمن غرف المؤونة، وأماكن المعيشة، إلى برك الاستحمام، التي ما زالت آثارها قائمة، بعدما كانت قد استُعملت يوماً، كقصر للملك هيرود. كما أن هذا المكان ذاته، كان هو الذي قد أوى إليه المتمردون اليهود عندما قام الرومان بتطويقهم من كل جانب. لكنهم آثروا قتل أفراد عائلاتهم، ثم قتل أنفسهم، تاركين للمنتصرين أكواماً من الجثث بدلاً من طوابير العبيد.

حدَّق دافيد في الصحراء مفكراً في علاقته الشخصية بهذه المأساة التاريخية. فالمتمردون كانوا نحلة دينية متطرفة، من المتحمسين الذين لا يتورَّعون عن قتل اليهود الآخرين الذين لا يرون رأيهم، ولا يمارسون طقوسهم. كانت مقاومتهم هذه، هي ما عجَّل في الحملة العسكرية الرومانية التي ضاعفت من استعباد الرومان لليهود، وعمَّقته. في الأسطورة، كما في الأفلام، كان دافيد قد شاهد يهود مسعدة يتم تصويرهم كشهداء. ولا شك أن هذه الرمزية البطولية قد كانت وراء السبب الذي دعا باراك ليف إلى إطلاق اسم قلعة مسعدة على حركته الاستيطانية القائمة في قاعدة متقدمة في أراضي الضفة الغربية. لكن ما صعق دافيد الآن، هو أن هؤلاء الشهداء، كانوا قد ابتدؤوا بقتل زملائهم من اليهود، وتسببوا باستدراج الغزاة القاهرين، أعمق فأعمق، داخل أراضي إسرائيل، إلى أن انتهى الأمر بهم إلى الفناء الذاتي، في عملية انتحار جماعية. لقد أمِل دافيد ألَّا تتكرر دورة المأساة هذه مرة جديدة.

ثم انحدر دافيد، بعد ذلك، إلى مواقف السيارات، ليتجه بسيارته نحو الجليل

الأسفل؛ ذاك المكان الذي هُجِّر منه أهل هناء عارف، منذ ستين سنة، من قبل العصابات الصهيونية في ذلك الوقت.

* * *

كانت الرسالة التي وصلت إلى دافيد عبر البريد الإلكتروني من ابنة عم هناء الصغرى، سوزان، قد زوَّدَت دافيد بتوجيهات دقيقة صاغتها بعباراتٍ مداعِبة. "عندما يطغى عدد الخضار على أعداد البشر،" كتبت تقول له، "ستعلم أنك قد صرت على مقربة من المكان الذي أنت قاصده."

وبعد مرور ساعتين، بدا الأمر كذلك فعلاً. فالأراضي الممتدة في الجليل كانت يانعة بالقمح، ودُوَّار الشمس، والزيتون، والحمضيات، والطماطم، والثوم، والحمّص. وهذه الخصوبة كانت بسبب وفرة المياه، وشبكات الري، التي أنشأها السكان لاستصلاح الأراضي، وذلك لسنوات سبقت ولادة دولة إسرائيل. هنا، وهناك، شاهد دافيد بقايا الحضارة العربية: جامع، وقرية على سفح تلة بعيدة، حيث عاش سكانها مثلما عاش أبوا هناء، مرة، من تربية أشجار الزيتون. لكنهم بخلاف أهل هناء، كانوا قد قرروا البقاء في أرضهم. وكان من بين أفراد ذريتهم سوزان عارف؛ هذه المرأة المسلمة ذات الأم المسيحية، والجدة اليهودية.

كانت قرية المقيبل هذه، حيث تعمل سوزان مديرة للمدرسة المتوسطة فيها، تحاذي الضفة الغربية، وعلى مسافة قصيرة جداً، قبل الدخول في الطريق الجانبي، كان ثمة حاجز تفتيش يحيط بنقطة حراسته زجاج مضاد للرصاص، يقوم الجيش الإسرائيلي ببناء تحصينات خلفها، تتألف من مخابىء للجند، وبرجٍ للمراقبة. كما ارتفع جدار من الشريط الشائك، بعلو عشرين قدماً على الأقل، بين قرية المقيبل، وبين الحقول المعشبة التي تقع خلفها، وتمتد، حسبما بدا لعيني دافيد، إلى تخوم جنين، التي يقوم فيها منزل إبراهيم جعفر.

قرب مدخل المدرسة، جلست امرأة شابة نحيلة على أحد المقاعد، جلسة المنتظر. وكان بُعد المسافة كافياً لكي يجعلها تبدو كأنها هناء عارف بالذات، الأمر الذي جعل دافيد يشعر وكأن قلبه قد توقف.

لكن عندما اقترب دافيد من المرأة إلى مسافة كافية، فإن هذا الوهم قد زال عن عينيه. كانت المرأة التي هبت لتحيته، لها خفة الحركة ذاتها، حسبما جال في ذهنه. أما بشرتها الزيتونية، وشعرها المنسرح، مع أنه مصطبغ بشذراتٍ من الحنّاء، فقد كانا يذكّرانه بشدةٍ، بهناء. أمّا عيناها فقد كانتا خضراوين إلى درجة صاعقة؛ وعندما تبتسم، فإنهما تتخذان معاً شكل هلال، مما يعطي محيّاها شكلاً طريفاً يشير إلى الرائي إليها أنه إذا كان محظوظاً إلى درجة كافية، فلربما كان له أملٌ في أن تشركه هذه المرأة في النكتة

الجارية. "لا بد أنك دافيد،" قالت سوزان، مادة إليه يداً مصافِحة. "إذ لو أن رجلاً غريباً دخل هذه القرية، فلا بد لي من أن أعرف بقدومه."

"وهل أنا الغريم؟" جال دافيد بناظريه على القرية الرابضة فوق تلة تقع خلف تخوم المدرسة، كثير من بيوت القرية كان مستحدثاً، وبعض هذه البيوت يشهق علواً بما يكفي لاستيعاب فروع العائلات. "لقد اخترتِ مكاناً حلواً للعيش فيه."

"إنه لا يكاد يشابه تل أبيب." أجابت هناء. "لكنه ذو نكهة متميزة في هذا الجزء من الدنيا، كما ستعرف. وهذا هو السبب الذي يجعلني أفضِّل العيش فيه."

"وما قصة هذا الحاجز الشائك؟ لا بد أن مشاكل كانت قد وقعت حسبما أستطيع أن أتخيل."

"أجل، كان هناك بعض المشاكل في بداية الأمر، وهذا الشريط الشائك هو معضلة لأهل قريتنا، إذ إن الكثيرين منهم لهم أقارب في جنين." تجهمت سوزان. "لكن، قبل أن يتم بناء هذا الحاجز، كان الإرهابيون يأتون إلينا طلباً للاحتماء في منازلنا. فبلدتنا بلدة يشترك فيها المسيحيون واليهود والمسلمون، وكلٌّ يعيش مع الآخرين في أمان، ولنا مدارس مشتركة، ومجلس حكم محلي مشترك. لا أحد يرغب في إثارة المشاكل. ومع أن إقامة الشريط الشائك قد أغضب البعض، فإننا عدنا للتعايش معاً في هدوء وسلام. تماماً مثلما يخبرني والدي، أننا كنا نفعل قبل العام 1948. وهذا هو جزء من تاريخنا."

حملت العبارة الأخيرة مسحة من الأسى، كما من الرضى. إنها الكارثة التي غيرت حياة الكثيرين، بما فيهم حياة هناء، كما تركت بصماتها على عائلتها بالذات، بشكل ما. دنت منه سوزان في وقفتها رافعة بصرها إليه. "هل تعتقد أن هناء سوف تُعدم؟"

وخزته هذه الطريقة المباشرة في السؤال. "آمل ألَّا يحدث ذلك."

تنهدت سوزان. "كم كنت أتمنى لو أنهم بقوا معنا،" قالت مستفيضة. "إن والدي ما زال يتساءل عن حياتهم، كيف تراها تكون، وهم محجورون في كومة من الركام، في مخيمات المنفى؟"

"لقد كانوا خائفين، تقول هناء، بعدما حدثت مجزرة دير ياسين."

"كان ذلك جزءاً من سبب مأساتهم، أنا أعرف ذلك. هذا ما أراده الإسرائيليون، لقد أرادوا للعرب أن يهربوا، لذلك كانوا يفتعلون مجزرة في كل قرية استطاعوا الدخول إليها، وإنها لخرافة كبرى، تلك التي تقول أن القادة العرب كانوا قد طلبوا منهم المغادرة." صار صوتها كئيباً. "لكن الصحيح، أن هؤلاء القادة ذاتهم كانوا قد رفضوا قبول قرار التقسيم، الصادر عن هيئة الأمم المتحدة، الذي كان يقضي بإعطاء اليهود دولة في أماكن تواجدهم،

رغم أنهم قلّة، مختارين اللجوء إلى الحرب بدلاً من القبول بالقرار المذكور. لهذا فإن الملامة لا تنقطع."

راقب دافيد وجهها الذي لا تنفكُّ ملامحه تعكس مزاجاتها السريعة التبدُّل. ولم تكن ملاحظة ذلك أمراً صعباً على دافيد، فقد ألف ذلك في وجه هناء من قبل. فجأة قالت له، "أترغب في إلقاء نظرة على مدرستي؟"

بدت غرف التدريس من داخلها جيدة التجهيز، والكتب المقررة جديدة، وكان ثمة معروضات على الجدران. أما في غرفة الفنون الجميلة، فقد شاهد دافيد لوحة يظهر فيها شمعدان يهوديٌّ، وبابانويل، وهلال رمضان. "كيف يجري التعامل بين تلاميذك؟"

"لا يخلو الأمر من بعض التعقيد. فقبل إقامة الشريط الشائك العازل كان الفلسطينيون المسيحيون والمسلمون يستطيعون الإقامة بيننا أحياناً. لكن أطفال جنين كانوا أشد فقراً من أطفالنا، وكانوا قد تشرَّبوا العنف المفرِّخ تحت وطأة الاحتلال." عدَّلت سوزان من وقفتها ورسمت على وجهها نظرة مصمِّمة. "لهذا، فإننا نشتغل عليهم. وبدون استثناء أحدٍ، فإن الأطفال الذين هربوا من جنين يفضلون البقاء هنا. ومع الوقت يبدأ غضبهم بالتلاشي. وهذا أيضاً، هو جزء من السبب الذي يدعوني إلى البقاء هنا."

* * *

أخذته سوزان في جولة بسيارتها خلال القرية. "كيف تبدو الحياة هنا؟" سألها.

"بالنسبة لي؟" أطلقت سوزان ابتسامة هازئة. "إنني عزباء ووحيدة، ومع هذا فإنني أجمع في شخصي جمعاً من الشعوب. وإن هذا ليجعل حياتي صعبة معقَّدة." عدَّلت من زاوية مظلة زجاج سيارتها الأمامي لتحجب تدفق أشعة شمس الأصيل. "إن والدي، الذي هو عمُّ هناء، عربي. لذلك فإني مسلمة. أما والدتي فهي يهودية الميلاد، ولقد جاءت أمها من بولندة، فتزوجَت من عربي مسيحي. وهكذا، وخلافاً لهناء، إنني غارقة في أوحال الغموض."

إن حياة سوزان، فكَّر دافيد، لا يمكن أن تكون سهلة هيِّنة. وكأنها تقرأ في أفكاره، قالت: "بعد شهرين أكملُ الثلاثين من عمري، ككلبة هجينة تحمل درجة الماجيستير. وهذه الدرجة العلمية تهيئني، على الأقل، لكي أكون نافعة في بعض الأعمال الذهنية، لكنها لا تجعل مني جائزة ذات قيمة في نظر الرجال المسلمين." أطلقت ابتسامة عريضة ثانية. "وأنا لا أستطيع المبالغة في لومهم، لأنني أعترف بنقص لين عريكتي."

ابتسم دافيد. "لكنك تبدين لي مسالمة إلى درجة كافية."

"أشكُّ في أنه يمكن إحباطك بسهولة. لكن في السياق العام لمجتمع المقيبل فإنني أُعتبر مثيرة للمشاكل."

"كيف هذا؟"

"عندما قدمتُ إلى هنا، قمت بتنظيم حلقة نقاش للنساء العربيات واليهوديات، يلتقين فيها معاً، وهذا ما وضع بعض الأزواج القلائل، على أعصابهم. والأسوأ من ذلك، هو أنني قمت بتنظيم سباق سيارات نسائي أسميناه 'سباق ملكة الجليل'،" ابتسمت سوزان ثانية. "وفي الحقيقة، إن سائقتك الآن، هي الملكة المتوجة ذاتها.

"لقد كنت قادرة على الاستمرار مع هذا القدر من النشاط. لكن عندما حاولتُ أن أنظم ندوة تجمعنا مع النساء الفلسطينيات من جنين. إذ إنه قبل حصول الانتفاضة، كان هناك تقاليد من التعاون. أمَّا الآن، فإن السلطة الفلسطينية تتهاوى. واغتيال بن آرون، الجريمة التي يفترض أن تكون هناء قد قامت بارتكابها، قد قضى على هذا التحرك إلى الأبد. لقد فقدنا الفرصة التي تسمح لنا بالتعرف، بعضنا إلى البعض الآخر."

* * *

عبرت السيارة على امتداد البيوت المترامية، والقرى الزاهرة، إلى أن أبطأت عند منعطف في طريق ترابي متعرِّج يفصل بين مقبرتين، إحداهما للمسلمين، والأخرى للمسيحيين. "في المدة الأخيرة،" قالت سوزان، "توفيت امرأة مسيحية مسنة. جرت الصلاة عليها أولاً في المسجد، ثم في كنيسة بلدتنا الجديدة.

"بعد ذلك، تعاون الرجال المسيحيون والمسلمون معاً على تنظيف وترتيب المقبرة المسيحية القديمة، التي صارت مثوى هذه المرأة الأخير. لماذا، وجدتُ نفسي أتساءل، لا يزال الناس يختارون الحقد، بعضهم على البعض الآخر؟ ومن أجل ماذا يبتلع الحقد فتاةً مثل هناء؟"

استدار دافيد نحوها. "حقد من يا سوزان؟"

تجهَّم وجه سوزان وهي ترقب الطريق. "كنت أنا نفسي محتارة في أمر الإجابة على هذا السؤال."

توقفا عند الكنيسة، وهي بناء من حجرٍ رمليٍّ، له أبواب خشبية مطليَّة بالورنيش. "كانت كنيسة كاثوليكية لاتينية"، قالت هناء شارحة، "مطيعة لروما، لكن القداديس فيها تقام باللغة العربية. أما الترخيص ببنائها فقد صدر بموافقة إسرائيلية، وأما التمويل فقد جاء من العرب المسيحيين المقيمين في إنكلترا وأمريكا. ومن أصل ثلاثة آلاف نسمة، مجموع عدد سكان بلدة المقيبل،" قالت سوزان، "لربما لا يزيد عدد السكان المسيحيين فيها عن مئة وخمسين. لكن في غضون مئة سنة، فإن ثمة عدداً قليلاً من الكنائس كان قد بني في الشرق الأوسط. وهذه الكنيسة واحدة منها."

كان باطن الكنيسة رحباً فسيحاً، يميزه مذبح مطرَّزٌ بأحرفٍ عربية. وكان ثمة حجرة

للاعتراف ذات مقعدين تفصل بينهما ستارة خشبية. "لو شئت أن تعترف،" قالت له سوزان في ظرفٍ، "فلسوف يسعدني الاستماع إلى اعترافاتك. إذ ليس ثمة أشياء كثيرة تبعث على التسلية هنا."

ابتسم دافيد. "قصتي طويلة." قال لها، "ومعقدة جداً. وعلى كل حال، فإنني شخص يهودي."

ألقت إليه نظرة. "ليس السبب كامناً في يهوديتك، حسبما أعتقد. إنه راجع إلى التعقيد."

* * *

في خارج الكنيسة، تفقَّد دافيد هاتفه الخلوي، دون أن يجد على شاشته أيَّ رسالة. ومرة جديدة شعر أنه تائه، وأنه دمية تتلاعب بها قوى يعجز عن الإحاطة بها.

كانت سوزان تحدق في مدينة جنين التي لم تكن شديدة البعد. "أنا لا أعرف هناء جيداً،" قالت بعد لأي. "وإنني لا أزال معجبة بها. لكن حتى قبل أن يحدث لها هذا. فإن مجرَّد التفكير بها، كأن يبعث الحزن في قلبي."

استدار دافيد نحوها. "ولماذا؟"

هزَّت سوزان رأسها. "منذ سنتين، قمت بزيارتها في رام الله. بدت لي ذكية، ومحببة، وهي متيمة بابنتها. لكنها غير شغوفة بزوجها، حسبما بدا لي. وبين الزوجين يقع نزاع على منيرة، وربما يكون هناك أيضاً مشكلة أعمق من ذلك."

"مشكلة من أيِّ نوع؟"

نظرت إليه نظرة قريبة فاحصة. "أعتقد أنك أكثر من مجرد محامٍ لها، أليس ذلك صحيحاً؟"

"هذا صحيح،" أجاب دافيد بحذر. "لقد عرفتها منذ عدة سنوات في كلية الحقوق."

"حسناً. أما الملاحظة الثانية فقد كانت تخصني شخصياً، عرفتها بغريزتي النسوية. لسبب أو لآخر، فإن صائب لم يكن منشرحاً لزيارتي لهم. ربما أزعجته استقلاليتي؛ وربما أزعجه شخصي، كوني حفيدة يهودية، لعلَّ هذا قد أغاظه. ومع أنه قد كان دافئاً مع منيرة، إلا أنه بدا قاضياً لها أكثر مما هو أب. وعندما غادَرنا إلى الأردن، أثناء زيارتي، فإننا نحن الثلاثة، الأم، والابنة، وأنا، قد شعرنا بأننا صرنا أكثر حرية. كما أنني أعتقد أنها لا تحب هذا الرجل، وأنه لا يحب أياً منهما. وبما أن هناء رهينة ابنتها، لذلك فإنها قد باتت رهينة زوجها أيضاً."

بين عواطفه المختلفة، اختار دافيد طريقة المحامي في السؤال. "هل تعرفين السبب الذي دعاه للسفر إلى الأردن؟"

"ليرى طبيباً. إن لديه نوعاً من مشكلة قلبية. مع أن طبيعتها لم تتضح لي. كما أنني لست أدري عن سبب مكوثه في عمان لمدة أسبوع." تطلعت سوزان إلى الأرض، وقد بدا عليها التردد، قبل أن تضيف بهدوء، "لو لم يكن على هذه الدرجة من التشدد في إسلامه، لتخيلته يمضي هذا الوقت مع خليلة له. هناء أيضاً. إن معظمنا يحتاج إلى ما هو أكثر مما لمسته هنا."

مكثا برهة في صمت. راقب دافيد الشمس المائلة نحو الغروب، ثم قال: "هل لا يزال متسع من الوقت للقيام برؤية المكان الذي عاش فيه أهل هناء؟"

"أظن ذلك." ثم وكأنها تستجيب لدافع خفي، تابعت سوزان كلامها، "أو لربما أمكننا أن نقوم بذلك غداً، فنأخذ وقتاً أطول. إنني أعرف فندقاً قريباً نستطيع أن نبيت فيه." ولأنها شعرت فجأة بالخجل، فقد أضافت مبتسمة، "في غرفتين منفصلتين، بالطبع، فأنا امرأة مسلمة، في نهاية الأمر."

"بالطبع،" أجابها دافيد بابتسامة من عنده. "فأنا يهودي في نهاية الأمر."

الفصل

9

شرحت له سوزان بينما هي تقود السيارة أن منطقة الجليل الأعلى هي الأخرى منطقة خضراء متطورة. لكن الاخضرار ينتهي عند الحدود بين إسرائيل وبين لبنان وسورية، حيث تشرف مرتفعات الجولان، مطلَّة بوقار بتاريخها الذي يذكر بالحرب التي دمرت يوماً هذه الأرض، وحيث لا حدود بدت دائمة. وفي ضاحية بلدة مستكينة في جانب وادٍ يمتد من إسرائيل إلى لبنان، أشارت سوزان إلى قاعدة إسرائيلية أمامية، وإلى برج مراقبة تابع لقوات الأمم المتحدة، وعلى حافة الحدود اللبنانية مربض مدفعية تابع لحزب الله، "إن المجيء إلى هنا،" قالت سوزان، "يجعلني أفكر في صائب خالد، وفي السبب الذي جعله رجلاً مريراً إلى هذا الحد."

"أعتقد أن أحداث صبرا وشاتيلا هي السبب."

"هذا حدثٌ من أحداث التاريخ المتأخرة. لكن التاريخ كان دائماً هنا حاضراً. فقبل أن يولد صائب نشأت منظمة التحرير، وتعاظم شأنها ونفوذها في الأردن. وقد قلق الملك حسين من هذه المنظمة التي باتت تتصرف في مملكته وكأنها حكومة ظل. وهكذا، قام الملك حسين بإلقاء منظمة التحرير الفلسطينية إلى حضن لبنان بقضِّها وقضيضها." استدارت سوزان نحوه. "وربما أنت تعرف بقية الحكاية. فعرفات بدأ باستعمال لبنان كقاعدة له. وهذا زاد من استعجال حدوث الحرب الأهلية بين مسلمي لبنان وبين المسيحيين الموارنة الذين كان حزب الكتائب هو الميليشيا التابعة لهم. وقد سمح انهيار سلطة القانون للفلسطينيين بشن هجمات ضد إسرائيل، هنا في منطقة الجليل. وهكذا دخل الجيش الإسرائيلي إلى لبنان لإسقاط عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية.

"عقب ذلك صارت الميليشيا المذكورة، حليفة لإسرائيل. وهكذا، فإن ما حصل لصائب وعائلته في صبرا، بما فيه من بشاعة، لم يكن سوى مجرَّد مثلٍ دموي آخر عن مبدأ السبب والنتيجة الذي تقوم عليه أحداث التاريخ. إنها اللعنة التي حلَّت بنا: كثير من التاريخ وقليل من الجغرافيا. هذا هو السبب الذي أنتج صائب خالد."

فكَّر دافيد في دخيلته، بينما تابعت السيارة سيرها، أنّ سوزان امرأة عميقة التفكير. ومع أنها شديدة الميل إلى التحليل، فإن ثمة حسٌّ شاعريٌّ لديها. وفي ما يبدو: فإن تناقضات محتدها، والمكان الذي اختارته مكاناً لعيشها، قد سمحت لها جميعاً أن ترى الهول والجمال، معاً، في حياة هذه الشعوب المتناحرة.

وفي القرية الأخيرة التي سبقت وصولهما إلى الفندق، سألها دافيد عن أَسقف بعض البيوت التي عُزِّزت بالإسمنت المسلح. "هذه المنازل كانت قد بنيت قبل عام 1982،" شرحت له سوزان، "وهي السنة التي جرت فيها مذبحة صبرا وشاتيلا، عقب دخول الإسرائيليين في تلك السنة إلى لبنان. وقبل ذلك كان رجال منظمة التحرير الفلسطينية يقصفون هذه المدينة. أمَّا بعد أن غادر عرفات إلى تونس فإن القصف قد توقف. لهذا، فإن الأسقف التي بنيت بعد ذلك، بُنيت بطريقة طبيعية. أما الآن، وبعد الذي حدث مع حزب الله، فلربما سيعاد استعمال الإسمنت المسلح في بناء أسقف البيوت الجديدة." بات صوتها أكثر انخفاضاً. "هناك حكايات شتى يا دافيد، وهناك طرق متعددة للنظر إلى الشيء الواحد. وإنني في بعض الأحيان أحسد أولئك الذين لا يملكون سوى حقيقة واحدة، مثل صائب أو هناء. لكن هذه هي مشكلة العيش في هذا المكان. إن سكانه لا يصغون إلى حكايات بعضهم بعضاً. أمَّا أنا فلا أستطيع سوى أن أستمع إليها جميعاً."

وكان هاتف دافيد المدسوس في جيب قميصه، لا يزال صامتاً.

* * *

كان فندق أوبيرج شولاميت عبارة عن بناء صخري قديم معشش في كنف تلة. كان البناء في أصله مخصصاً كحصنٍ عسكري في العام 1948، ثم ما لبث أن شهد ولادة جديدة كفندق فاخر. ومع أن موقعه يشعر المرء كأنه في ملجأ حصين، إلَّا أن إطلالته المشرفة على مرتفعات الجولان وعلى الداخل اللبناني والسوري، قد ذكَّرته بالسبب الذي جعل هذا الجزء من العالم على هذه الدرجة من الفرادة.

"هل فكرتِ يوماً في العيش في مكان آخر؟" وجّه سؤاله إلى سوزان.

جلسا إلى جانب إحدى النوافذ في مطعم الفندق، المضاء بالشموع عند الغسق، والمجهز بموائد خشبية، عليها مفارش بيضاء. كانت سوزان قد طلبت كوباً من العصير، وبينما هي تتذوقه بطرفي شفتيها، كانت تُزين إجابتها على سؤال دافيد. "أفكر هكذا من وقت لآخر،" قالت أخيراً. "فالمدينة لا بد من أن تكون مثيرة. ويبدو المكان هنا موحشاً في بعض الأحيان." ضحكت هنا. "وربما أنني أقدمتُ الآن على اختطافك لهذا السبب."

ابتسم لها دافيد. "إنني لست شديد التأكد من أن هذا مجرد إطراء."

"آه،" قالت في دعابة حزينة، "بل هو كذلك. إن السبب في ذلك هو أن ممازحة الرجال لا تتناسب جيداً مع مزاجي. كما أنني شديدة قلّة الاعتياد على هذا الأمر."

بعد فترة من جلوسهما معاً، أيقن دافيد كم أنه قد بات وحيداً، وكم أنه مستمتع في صحبة سوزان، ولربما، أنذر نفسه، أن هذه المرأة تذكره كثيراً بهناء. "لا بأس لديَّ،" أجابها، "سأغلِّب الصدق على المجاملة." صمت قليلاً ثم قال معترفاً، "لقد كان هذا وقتاً صعباً بالنسبة لي. فالرهانات في هذه القضية مرتفعة جداً. وكثير من الناس لا يروق لهم ما أنا فاعله. وفي أحيان كثيرة أشعر بالوحشة."

تأملته سوزان جيداً. "تقول أحياناً؟ لعلك تستعمل بذلك تعبيراً مخفَّفاً."

"ربما."

"وربما أنك أيضاً تخشى من خسارة شخصٍ حبيب لك."

نظر دافيد في عينيها نظرة حائرٍ مرتبك. "قبل أن أتولى هذه القضية، كان لي خطيبة. لكنني قد خسرتُ كارول منذ أسابيع خلت."

هزَّت سوزان رأسها. وبصراحة لا ترف لها جفن قالت له: "أمَّا أنا فلقد عنيت هناء."

حاول دافيد أن يبتسم ابتسامة مستنكِرة. "إن ابنة عمك مجرَّد صديقة قديمة صارت الآن موكلة لي. هذا بالإضافة إلى كونها متزوجة، بصرف النظر عن سعادتها أو شقائها في هذا الزواج، ولا داع لكي ننكر أنها أمٌّ. وإذا لم يكن كلُّ ذلك كافياً لك، فإنني أذكِّرك أنها فلسطينية إلى درجة مخيفة."

صارت ابتسامة سوزان على الفور ابتسامة فيها من الشكِّ بقدر ما فيها من المعرفة. "لأسباب عديدة، أُجملها بسرعة. إنني آمل فقط أن تكون أكثر براعة في الخداع بينما أنت واقف في قاعة المحكمة. وإلَّا فالويل لهناء." صارت نظرة عينيها جادة. "عصر هذا اليوم، بينما كنت أحدِّثك عن صائب وهناء، كنت أراقب وجهك. إنني لاحظت أن ما رويته لك عن زواجهما قد كان له انطباع كبير عليك. ليس كمجرَّد محامٍ. وقد أيقنتُ فجأة أن هذه المسألة تهمك قبل كل شيء كرجل."

أيقن دافيد أن ثمة راحة له في ترك التصنُّع جانباً. "هل أنني في واقع الأمر شفيفٌ إلى هذه الدرجة؟"

"لعلك شفاف فقط بالنسبة لي. فها أنا ألتقيك بعد أن كنتُ قد قابلتُ هناء. ثم إنني امرأة بعد كل شيء. وهذا ما لا أحتاج فيه إلى تمرُّسٍ أو مران. يجب أن يكون قد حصل هذا بينكما أثناء سنيِّ الدراسة في كلية الحقوق، دون أن يعلم صائب بذلك. أو على الأقل أنكما قد اعتقدتما أنه لم يعلم."

زادت هذه العبارة من شدة ارتباكه. "إنني متأكد من أن صائب يجهل ذلك." قال لها. "ولو كان يعلم لما تزوّجها."

نظرت سوزان نظرة مطرقة، وهي تخفي عينيها. "أما زلتَ تحبها؟" سألته.

استدار دافيد نحو النافذة. محدِّقاً في الأنوار المبعثرة في أنحاء الجليل. "منذ سنوات عديدة علَّمتُ نفسي ألَّا أفكر في هذا الموضوع. وأنا الآن لم أعد أطيق ذلك. وكما تشيرين أنتِ، فقد يكون هذا الأمر قاتلاً في مهمة المحامي. وكيف للمرء أن يُغرم بامرأة ليس متأكداً من أنه يعرف سرَّها الآن، خاصة وأنه قد لا يكون عرَف سرَّها مرة من قبل؟"

رفعت سوزان أنظارها إليه، وقالت بلطف، "خصوصاً إذا كان خيالك يذهب إلى ما قد تكون قد قامت به من عمل."

افترض أن صمته إزاء السؤال قد يكون أبلغ من الإجابة عليه.

"كما قلت لكَ،" قالت سوزان مستفيضة، "أنا لا أعرف هناء معرفة جيدة. لكن بعض الأشياء التي لمستُها. من كونها أماً لمنيرة: فإنني أستطيع الجزم أن ابنتها هي الشخص الأغلى على قلبها في الدنيا قاطبة. إنها تحبها أكثر من زوجها. وحتى أكثر من محبتها لك، لو كان الظرف قد سمح لها بأن تكون أنت زوجها." تأملت سوزان كأسها قليلاً. "إنني لا أفقه تماماً معنى ما أقوله لك. لكن لو كانت هناء حقاً متورطة في عملية اغتيال بن آرون، فلا بد من أن يكون الأمر بالنسبة لها دفاعاً عن ابنتها، وليس في سبيل أي قضية أخرى. مع أن هذا التصوُّر ليس فيه ذرَّة من المنطق."

تفكر دافيد في ذلك ملياً. "لا ليس في هذا التصوّر أيّ منطق بالفعل."

هزَّت سوزان كتفيها، تاركة عبارته تمرُّ.

* * *

وبتوافقٍ صامتٍ، انصرفا عن الحديث في موضوع هناء. وبينما هما يتناولان دفعتيهما من الوجبة ـ لحم ضأن لها، ولحم أرنب له ـ تكلَّما في شأن الحياة الخاصة لكل منهما. "مِن هنا،" قالت له، "إنني لا أعرف في الحقيقة، ماذا سيحصل في اليوم التالي. ففي بعض الأحيان يساورني شعور أنني جاهزة لمغامرة تجلب تغييراً درامياً في حياتي التي تبدو ثابتة مستقرة؛ وفي أحيان أخرى أفكر في أنني أفعل بالضبط، الشيء الوحيد الذي ينبغي لي أن أفعله، فأنا هنا قريبة من عائلتي ومن الناس الذين أحببتهم." أمالت برأسها. "ماذا كنتَ لتفعلَ لو كنتَ مكاني؟"

"كنتُ سأُدخل التبديل على حياتي." أجابها دافيد بابتسامة. "لكنني أميركي، كما لا تتعب ابنة عمك من القول. ونصيحتي لكِ قد تكون محلَّ اشتباه في كل حال: وقد كنت حتى الآن أداري التغيير مداراتي لوباء مميت. لهذا فإنني قد أكون الآن في شدة من الحيرة التي لا تسمح لي بالجواب عن سؤالك."

"ولكن عندما تكون قد فرغت من دفاعك عن هناء؟ كيف سيكون حالك بعد ذلك؟"

أقلقه السؤال؛ إذ إن تصميمه على الدفاع عن هناء كان قد حجب لديه أيَّ تفكير في

ما قد يحدث له بعد ذلك. "لست أدري،" اعترف لها. "إن أقصى ما أستطيع قوله: هو أنني سأكون حراً في اختيار مصيري، في ضوء خطوبة مفسوخة، وانتحار سياسي." ابتسم ابتسامة ساخرة. "إن الأمر ليشبه بيتاً قاله الشاعر القديم جانيس جوبلين: *"ليست الحرية سوى كلمة أخرى تعني أنَّ لا شيء تخسره"*.

نظرت سوزان في داخل عينيه، رادَّة له الابتسامة. "إذن عليك أن تفاجىء نفسك يا دافيد. وبعد ذلك تخبرني كيف يبدو شعورك."

* * *

رافق سوزان إلى باب غرفتها، الذي يقع على مبعدة أقدام قليلة من باب غرفته. "لم تقومي باختطافي،" قال لها. "لقد كنتِ أفضل رفيق سعدتُ بصحبته منذ أشهرٍ خلت."

شعرت سوزان بالجدية فجأة، فنظرت في وجهه "شكراً لك،" قالت له. "لكنني أعرف أن هذه الأشهر قد كانت قاسيةٍ عليك. إنني فقط ابنة عم هناء التي تشبهها قليلاً. ولست باهرة الجمال ولا شديدة التضلُّع والكياسة."

حاول دافيد أن يبتسم. "أنتِ شديدة التواضع."

"بل مجرد صريحة ومخلصة." توقفت سوزان برهة، ثم أضافت بهدوء، "لقد سعدتُ بصحبتك أيضاً يا دافيد. وآمل أن يكون هذا حدُنا الكافي من الإطراء."

راقبها وهي تفتح باب غرفتها وتختفي وراءه.

وحيداً في غرفته، اضطجع دافيد صاحياً، وهو يفكر في المرأة التي تضطجع على المقلب الآخر لجدار غرفته، وفي المرأة التي تنتظر المحاكمة في أميركا، والهاتف الخلوي الذي لمَّا يرنُّ جرسه بعد.

الفصل 10

عندما لقي دافيد سوزان في الصباح على مائدة الإفطار، كانت تبدو له أهدأ مما كانت عليه في الليلة الفائتة، وكانت أحياناً ترمقه من فوق حافة فنجانها بنظرة فضولية غريبة. لعل سبب ذلك، حدَّث دافيد نفسه، يعكس حيرتها حول ما إذا كان انسجامهما يشكِّل وهماً، في جزء منه، كونه جاء حادثة فرضَتها ظروف الزمان، والمكان، والغموض الذي يلف حياتيهما معاً. "لقد استمتعتُ برفقتِك في الليلة الماضية،" قال لها في النهاية. "لقد نعمتُ بها جداً في الحقيقة."

التمسَت عيناها الخضراوان عينيه، ثم خانتهما ظِلال ابتسامة. "نعم،" أجابته. "لقد سعدتُ أنا بذلك أيضاً."

بعد ذلك، كان الصمت الذي تشاركا به خلال رحلتهما بسيارتهما إلى بلدة هنّاء، أميَلُ إلى قلّة الارتباك مما هو إلى الصحبة الطليقة.

قبْلَ أميالٍ قليلة من بلوغ القرية، توقفا قرب مقبرة يهودية. بعض الذين دُفنوا هنا، كما لاحظ دافيد من شواهد القبور، كانوا قد سقطوا في معارك 1948 و1956 و 1967 و1973 و1982 ثم معارك الـ 2006 في لبنان، هنا كان تاريخ استمرار إسرائيل منقَّطاً بالحروب والدماء. "لعله في أميركا فقط،" قالت له سوزان، "يعتقد الناس أنهم يستطيعون محوَ الماضي. أمَّا هنا فنحن نعلم أن ذلك هو أمر ليس من السهولة بمكان."

* * *

عندما اقتربا من المكان الذي كان يوماً ما وطناً وسكناً لوالديّ هنّاء، حاولت سوزان أن تستحضر عالمهما. فهما، مثل بقية جيرانهما، كانا من مزارعي الزيتون. ومع قدوم شهر تشرين الأول/أوكتوبر من كل سنة، كانوا يقومون بجني كل حبة زيتون عن أشجار الكروم، ثم يحملون الغلة إلى المعصرة على ظهور الدواب، وهناك كانت تأتي فرصة لزيارة بعض المزارعين الآخرين. بعد ذلك كانوا يعمدون إلى بذرِ الحقول ببذار الحنطة الشتوية. فإذا كان موسم الأمطار جيداً، وارتفعت سيقان القمح ارتفاعاً جيداً، استعانوا بموسمه على إطعام

عيالهم ودوابهم. أمَّا إذا تقزَّمتِ السيقانُ، فقد كان فيها ما يكفي من العلف للأغنام والماعز التي تزودهم بالحليب والجبن ولحوم الاحتفالات والأعياد.

"إن مثل هذه الحياة،" قالت سوزان، "قد زالت بزوال هذه القرى. فالإسرائيليون قد قاموا بتدمير بعضها؛ بينما بعضها الآخر قد تهدَّم من تلقاء نفسه. لكن الذكريات قد برهنت أنها أقلّ عرضة للزوال."

عندما وصلا إلى غايتهما، جلس دافيد برهة، يحدِّق من خلال زجاج السيارة الأمامي إلى مشهد الأرض التي كان يحرثها أجداد هناء، وهي الآن تبدو كبقايا الأحلام.

قادت سوزان دربه بين ركام الخرائب والأشجار المهملة، إلى بقايا منزلٍ يقع على حافة ما كان يدعى قرية في يوم من الأيام. كان علو الجدران الآن لا يكاد يزيد عن ثلاثة أقدام؛ أمَّا الأسقف فكانت قد انهارت، تاركة الحجارة مبعثرة في أكوام لا نسق لها، داخل مساحة المنزل وخارجها. أما عوارض السقف الفولاذية التي كانت تحمله يوماً، فقد سطا عليها السارقون منذ وقت بعيد. أما الإسمنت الذي كانت تتراصُّ عليه الحجارة فقد غدا نثاراً من الغبار.

"ها نحن في غرفة الجلوس،" تابعت كلامها، "التي كان يستعملها جد هناء وضيفانُه فقط. النساء كنَّ يطهين الطعام على مواقد الحطب خارج المنزل. أما الماء فقد كان يُجلب من بئرٍ تردُ إليه القرية بكاملها، تلك القرية التي ربما كانت تتألف من عشرين عائلة، يبلغ عدد سكانها مئتين وخمسين شخصاً، في مجموعِهِ الذي يتكوَّن معظمُه من أبناء العمومة على مختلف الدرجات. وفي ما عدا مغادرة القرية إلى معصرة الزيتون، فقلما كان يجد أحد أبنائها داعياً لمغادرتها. لقد كانت حياتهم حياة قانعة، وكانوا يجدون في هذه الدرجة من العيش، ما يكفي."

نظر دافيد إلى منظر منحدرات الجليل. كان للمكان حاسة لا يمرُّ عليها الزمن، تشير إلى طريقة في العيش تداوَلَها جيلٌ بعد جيل. وبين الأنقاض، وقَعَ دافيد على قطعٍ من الطين المشويِّ الصقيل، وهي شظايا آنيَةٍ محطَّمة كانت تُستعمل كطبقٍ كبير تتناول منه العائلة طعامها المشترك، حسبما شرحت له سوزان. "تقول هناء: إن جدَّها قد دفن نقوده في التراب بعد أن أودعها باطن صندوق معدني،" قال لها. "من أجل استخراجها بعد عودتهم."

"لم يعد للأمر قيمة، إذ لا بد أن تكون تلك النقود عائدة لعهد الانتداب البريطاني، ولم تعد لها أيُّ فائدة في الوقت الحاضر. تماماً مثل خرائب هذا البيت."

شعر دافيد بحزن عميق. فكَّر في منيرة التي لن يكون لها حظٌّ من العودة يتعدى حظها في الارتحال في ذاكرة الزمان. وكان من المستحيل تخيُّل هناء تعيش هنا عيش المرأة القروية البسيطة. وكان من شكاسة طبع الزمان في تاريخه المبني على السبب والنتيجة، تلك الأسباب التي اشترك فيها مؤسسو إسرائيل، بقدر ما اشترك فيها قتلة صبرا

وشاتيلا، قد جعلت، جميعها، هناء على ما هي عليه من حال، محامية منادية بحقوق جنسها، مقتلَعة من تقاليد عائلتها، الزراعية، حالمة بمستقبل متحرر لابنتها التي هي حفيدة مزارع زيتون مازالت هناء تحتفظ بمفتاح باب بيته قلادة معلقة حول عنقها. لقد كان هذا المفتاح أشبه بمفتاحٍ إلى عالمٍ أسطوري. إنه المفتاح إلى حياتها نفسها. لكن هذا المفتاح الرمز: كان قد خدم أهدافه منذ وقت طويل. إذ إنه قد فولذ فيها العزم على مغادرة المخيم الذي شهد ولادتَها. لقد آن الأوان الذي لو استطاع فيه دافيد أن يستعيد لها حريتها، لكي تلقي هناء بهذا المفتاح جانباً، وأن تحرِّر منيرة من الخرافة التي نسجها صائب حولها بفِعل مرارته، عازماً على جعلها مجرد فراشة عالقة وسط صمغٍ من العنبر.

وربما كان باستطاعته قول هذا الكلام إلى هناء. لكنْ ماذا عساه يقول لوالديها حينما يلقاهما عندما يأتي الأوان، فهو أمرٌ يجهله حتى الآن. "عندما قمت بزيارة هناء،" قالت سوزان في هذه اللحظة، "لم تقم بسؤالي عن هذا المكان. ولهذا، فإنني لم أخبرها عنه بدوري."

هزَّ دافيد رأسه. "كل هذه التعاسة،" دمدم كأنه يخاطب هناء، ومنيرة، ونفسه، وأخيراً سوزان رفيقته في هذه اللحظة.

"أعرف،" أجابته بكل بساطة.

* * *

خيَّم عليهما الصمت بينما كانت سوزان تقود السيارة قافلة في طريق العودة إلى بلدة المقيبل. وللمرة الأولى في حياته، لم يكن دافيد يدري إلى أين سيذهب لاحقاً. فالساعات القادمة، وهي قد تكون أياماً، وليس مجرد ساعات: كانت غير قابلة للتقدير ولا للحساب، إلى أن يهتف به مجهول، أو إلى أن يكلمه زيف آرنهيت من خلال كيمياء سحرية لا يمكن شرحها قادرة على تحويل المعادن إلى ذهب رنان. ولكنها لم تنتِج حتى الآن سوى المزيد من معدن الرصاص الخسيس. فدافيد الآن يستطيع البقاء في الجليل، مثلما يستطيع أن يقود سيارته قافلاً من جديد إلى القدس. والأمر سيَّان.

ولكن حال وصولهما إلى بلدة المقيبل، فإن جرس الهاتف الخلوي المركون في جيبه قد صدح فجأة.

استفاق دافيد كالمذهول من أحلام يقظته ليضغط على زر الإجابة. "ثمة غرفة محجوزة لك في فندق دان في تل أبيب،" قال الصوت. "وهناك ستعرف أين وكيف تلتقي الشخص الذي أنت تبحث عنه."

لقد كان الصوت صوت الرجل الذي لقيه في المعبد الآشوري. وقبل أن يتسنّى لدافيد أية إجابة، كان الرجل قد قطع الاتصال.

"ما الأمر؟" سألته سوزان.

صار دافيد على الفور عابقاً بالحيرة، كما بالحدس والانتظار. "إنه شيء له علاقة بقضية هناء،" أجابها. "أخشى أن عليَّ مغادرتك الآن."

عندما أوقفت سوزان سيارتها، كانت هادئة للحظة ما. "لقد كانت زيارتكَ ممتعة،" قالت له بابتسامة ظريفة. "رغم كونها خاطفة."

"خاطفة جداً،" أجابها. "لكنني أشكركِ."

نظرت إليه سوزان نظرة مصمِّمة. "أتمنى لك حظاً سعيداً، يا دافيد. وأرجوك أن تبلغ هناء أنني أفكر فيها."

لامسته في يده، ثم غادرته، وهي تمشي برشاقة في اتجاه المدرسة. راقَبتها عينا دافيد، فالتمعت في ذهنه ذكرى هناء في كامبريدج وهي تغادر سيارته بعد رحلة استجمامهما في نيوهامشاير. ومثلما تفعل هناء، فإن سوزان لم تعد إلى الالتفات ثانية.

مستعيداً التركيز على ما يتوجب عليه الآن أن يعمله، قاد دافيد سيارته في اتجاه تل أبيب.

الفصل

11

كانت تل أبيب على سفر أقلّ من ساعة من الحدود الواقعة عند بلدة المقيبل، وهو دليل آخر على حساسية وضع إسرائيل الأمني. ومع ذلك، فقد كان من الممكن هنا الاستمتاع بأضلولة السلامة أكثر مما هو عليه الوضع في مدينة القدس. فهنا، على الأقل، لا يشاهد المرء جداراً عازلاً، كما لا يشاهد الكثير من العرب، كما أن القرى العربية ليست هنا محيطة بالتلال. أما المدينة نفسها، فقد كانت أكثر علمانية، وعالمية. فهنا زحمة سيارات، وشواهق، وأمكنة أنيقة للتسوُّق، ونساء أنيقات الملبس على طول الشارع. وفي هذه المدينة بالذات، ركّزت إسرائيل مركز قيادة جيشها، رغم إصرارها على أن القدس هي عاصمتها. وقد كان السبب ذاته ـ الأمن ـ في جزء منه على الأقل، السبب الذي دعا أيضاً الولايات المتحدة الأميركية إلى تركيز سفارتها في مدينة تل أبيب.

مجرياً اتصاله الهاتفي من سيارته، استفسر دافيد عن الأوقات التي قد يسمح فيها الظرف للسفير الأميركي بمقابلته. وهي مجاملة يجري تقديمها كي تعطي على الأقل، مظهراً للتعاون من جانب الولايات المتحدة التي عليها بموجب أمر من القاضي تايلور أن تدعم قضيته مع الإسرائيليين. وقد وعدته مساعِدة السفير بالاتصال به لاحقاً. قائلة إنه مع أن السفارة كانت تتوقع اتصالاً منه، إلا أن مواعيد السفير قد بقيت بين مدٍّ وجزر. فردَّ دافيد بأنه يعتقد أن مواعيده هو الآخر تشكو من الأمر نفسه.

وصل إلى فندق دان في آخر النهار. كان فندقاً حديثاً على مرتفع قرب الماء، وهو يختلف بذلك عن فندق الملك داود، اختلاف تل أبيب عن القدس. طلب وجبة خفيفة من خدمة الغرف، ثم حدَّق بأنظاره في مياه البحر الأبيض المتوسط عند الغسق، بينما كان الهاتف الخلوي يرقد على مقربة منه. وعندما استجاب لطرقة على باب غرفته، متوقعاً وجبته التي أوصى عليها، فإنه وجد الخادم الذي يستجيب للجرس يحمل إليه سلة من الجبن والفاكهة والمكسَّرات، تحمل مظروفاً كتب عليه بخط اليد: إلى السيد دافيد وولف. وقد شرح الخادم أنها هدية ترحيبية به من الفندق. منح دافيد بقشيشاً للخادم، ثم فتح المظروف.

كانت الرسالة بداخله مطبوعة، وهي تقول: عند الساعة العاشرة قبل ظهر اليوم

التالي، على دافيد أن يقابل تاكسي في مرآب الفندق، الأسفل. وأن سائق التاكسي سينزله على مبعدة بنايتين عن مقهى كافيه كاريه، وأن على دافيد أن يقطع هذه المسافة مشياً على القدمين إلى المقهى المذكور، ثم إن عليه أن يفتش عن رجل يشرب القهوة إلى جانب الطاولة الأخيرة في عمق المقهى. وهذا الرجل كان عنصراً من عناصر مجموعة حماية بن آرون الشخصية؛ أما اسمه: فهو هلال ماركيس، الذي يتوقع اللقاء مع رجلٍ من الشين بيت في هذا الوقت، وفي هذا المكان، وقد انتهت الرسالة بالقول إن على دافيد أن يعرف ما يستطيع معرفته بطريقته الخاصة قبل أن تتنبه فريسته أنها قد استُدرجت إلى هذه الخديعة.

أنهى دافيد قراءة الرسالة، بينما حواسه في يقظة عالية، إذ إنه أدرك أن ماركيس هذا، لا بد من أن يكون هو الجندي الصديق لـ: باراك ليف، منذ أيام خدمة ليف العسكرية. وأنه إذا اقترن اسم ماركيس، علناً، باسم ليف: فإن المعادلة القانونية في قضية هناء ـ كما المعادلة السياسية في إسرائيل ـ سوف تنقلب كلياً.

ومثلما طلبت منه الرسالة أن يفعل: مزَّق دافيد المظروف والرسالة إلى قطع صغيرة وقام بإفاضة الماء عليها في مرحاض حمام غرفته. وبعد ذلك بلحظة وجيزة، رنَّ جرس الهاتف. كانت المكالمة من السفارة تقول إن السفير يستطيع مقابلته على الفطور عند الساعة الثامنة في قاعة الطعام بالفندق ذاته. أما نهار الأحد الذي صرفه في الجليل، فقد صار يبدو بعيداً عنه بعد سنة ضوئية.

* * *

نام دافيد نوماً مسهَّداً. وعندما استفاق، فإنه أفاق على بلبال حبيس. وقبيل الثامنة بدقيقتين كان يحتسي قهوته في المطعم بينما هو يراقب حركة جرَّار يتحرك ذهاباً وإياباً على رمال الشاطىء.

"سيد وولف؟"

وقف دافيد ليلقى رجلاً أصلع مكتنزاً، له وجه عريض بشوش، وعينان زرقاوان ذكيتان. وكان خلفه جماعة من الحراس الحذرين الذين ما لبثوا أن توزَّعوا في نقاطٍ مختلفة من المطعم. صافح الرجل دافيد بثبات. "أنا راي ستاين. رجُلكم في تل أبيب." أضاء وجهه بابتسامة خفيفة "أو ما يشبه ذلك على الأقل."

"هذا كل ما يحق لي طلبه."

جلس ستاين قبالته. "ما شأن هذا الجرَّار؟" سأله دافيد.

"إنه جرار مصمَّمٌ بطريقة خاصة. وظيفته غربلة الشاطىء من العلب وأعقاب السجائر. فالرمال هي المكان الأمثل لزرع القنابل. وصناديق القمامة غير مسموح بها هنا.

لكن بعد أن ينتصف النهار يكون الشاطىء قد صار مليئاً بالنفايات. لذلك فإن هذا هو الحلُّ الذي وجدوه."

"إنها طريقة قاسية للعيش."

"إنَّ هذا ما تفعله أنت أيضاً،" أجابه ستاين بجفاف. "في يوم قريب مضى، التقيت محرراً في مجلة نيوزويك تايمز. كل ما يفعلونه هو محاولة تغطية ما يحصل عندنا. لكنهم إذا نشروا صورة أم ثكلى، فإن ذلك يعتبر تحريضاً متعمّداً من قبل هذه الجهة أو تلك. وهكذا، فإن الموضوعية تعتبر عدواناً: فاليهود يقولون أن التايمز معادية للسامية؛ والفلسطينيون يريدون منها أن تأخذ السبق الصحفي على الصحافيين اليهود. ومع كل حادثة قتل جديدة يتعين على التايمز أن تقدم درساً في التاريخ، شارحة كيف أن فريقاً أو آخر، يرى أن هذا الفعل العنيف بالذات له ما يبرره." ألقى ستاين نحوه نظرة ثاقبة. "إن الدفاع عن هناء عارف هو أسوأ من ذلك بما لا يقدَّر. فإما أن تكون شخصاً مثالياً بالكامل، وإما أن تكون مجرَّد مجنون. مثل نصف أبناء الشرق الأوسط، حسبما يتراءى لي أحياناً."

"لقد صرت مخبولاً في الآونة الأخيرة فقط،" أجابه دافيد. "قبل هذه القضية كان لا بأس بأمري."

"هذا ما قد سمعته. وهكذا، كيف كانت رحلتك؟ هل كانت مثيرة؟"

نافراً من شرح الأحداث التي حدت به إلى الحضور إلى تل أبيب، شرح دافيد زيارته إلى قرية عائلة هناء. "ما من أحدٍ سوف يعود أبداً،" قال في اتجاه ستاين. "وهذا هو الشيء المحزن. ليس العنف والحقد فحسب، لكن العبثية المطلقة للأمر كله. إن 'حق العودة' بات مسألة سيكولوجية، لا حقيقة واقعية."

"لقد فهمَ بن آرون هذا،" أجاب ستاين. "من المؤسف جداً أنه صار ميتاً. ومع أنني لست متأكداً إلى أيِّ مدىً كان قد وصل. فإن القادة الفلسطينيين عندما يلمِّحون خلف الكواليس أنهم قد يقبلون المساومة على فكرة العودة، فإنني لا أصدق كلامهم لحظة واحدة. ولن أصدق هذا الكلام قبل أن يبدأوا بقوله في العلن. وعندما يحدث ذلك، فمن المعقول أن أكون أنا وأنت قد غادرنا هذه الحياة."

"هل تعتقد أن هناك أيّ بقية أمل؟"

رافعاً نظره إلى الأعلى، أومأ ستاين إلى الفتاة الخادمة. "يجب أن يكون هناك ثمة أمل." أجاب، "وإلا ما هو جدوى الأمر كله؟ إن اليمين المتطرف في هذا البلد، أي الجهة التي أبغضت بن آرون، لا يرى شيئاً سوى الحرب الأبدية؛ أو التهديد بالحرب. إذن لماذا يكون ثمة وطن من الأساس؟ لمَ لا يذهب المرء إلى مكان آخر ما، يكون أكثر أماناً، يقنع فيه بكونه واحداً من أقلية تتمتع بالحماية، كما هو حالنا نحن اليهود في أميركا؟

"أنا لا أؤمن بوجود مؤامرة عربية شاملة ضد إسرائيل، إذ إن كثيراً من هذه الدول، مثل مصر والأردن، لديها أشياء أخرى أهمُّ للقلق بشأنها. إنني أؤمن فقط بتهديدات محدَّدة، مثل حماس، أو القاعدة، أو إيران. وهذه التهديدات أكثر من كافية للتعاطي معها، لكن قد يكون من الممكن فِعلُ ذلك." باتت نبرة ستاين هادئة. "إن هذا البلد بلد رائع من معظم الوجوه، إنه شيء يمكن الافتخار به. وإنني لأكره أن أراه ينجرُّ نحو الهاوية."

قدِمت الخادم لتأخذ طلباتهما. وعند انصرافها عنهما، فكَّر دافيد ملياً إلى أيِّ درجة يستطيع أن يتبسَّط مع هذا الرجل في الحديث. وإلى أيِّ مدى يمكنه الثقة به، رغم وضوح كلامه.

ابتعدت الخادم فسأله ستاين، "إذن كيف أستطيع أن أساعدك؟"

غريزة دافيد قادته إلى اللجوء للصراحة. "لنفترض أنني قد توصلت إلى معلومات شاقة تربط اغتيال بن آرون مع باراك ليف. هل ستقوم حكومتنا بمساعدتي في حشر الإسرائيليين في اتجاه الجدار؟"

نظر السفير إليه محدِّقاً. "من أين جئت بهذا بحق جهنم؟ وكيف تتوقع مني جواباً؟"

"أراك الآن مثل رجلٍ يريدني أن أطلق بيلتي خارج الخيمة لا في داخلها."

"أعتقد أن الأمر لم يخفَ عليك،" قال ستاين مستفيضاً، "إننا قد نتبادل المسؤولية عن حدوث الاغتيال. وما إخاله هو أنك تلمِّح إلى شيء دون أن تفصح عنه تماماً. وهذا الشيء هو أن ليف له علاقة بالاختراق الأمني الذي كنت تتحدث عنه. وهو أمر يعتقد جماعتنا بأنه قد يكون حدث فعلاً."

"هذا صحيح."

زمَّ ستاين شفتيه. "حسناً، هذا سوف يخلط الأمور، بالتأكيد، ويقلبها رأساً على عقب، هنا. بما في ذلك الحكومة الإسرائيلية. وهذا، إن صحَّ، فإن أيَّ احتمال لوجود حلول بين الإسرائيليين والفلسطينيين سيخدم مصالحنا في المنطقة." بحدقتين ضيقتين، تأمَّل ستاين فنجان قهوته ثم رفع نظره إلى دافيد مرة ثانية. "قلْ لي ما دمت تبدو عارفاً بالأمور، والنواحي الغامضة في هذه القضية: من الذي أوجدَ الشبكة في الولايات المتحدة؟ إنني أوافق معك أنها لا يمكن أن تكون كتائب شهداء الأقصى. فليس لهؤلاء طاقة على ذلك. كما أنني لا أؤمن لذرَّة واحدة من الثانية أن يكون الموساد مشاركاً في مؤامرة ضد رئيس وزراء دولته. وهذا يتركنا مع مَن؟"

مع هذا السؤال أيقن دافيد أنه بات يقف فوق الرمل المتحرك. "ومن أيضاً، يستطيع العمل في الولايات المتحدة وإسرائيل؟"

"إنها إيران." أخرج ستاين أنفاسه بشكل مسموع. "لكن الناس من أمثال ليف

والمخابرات الإيرانية لا يمكنهما التعايش على كوكب واحد. فإن لحركة مسعدة أنصار عديدون في الولايات المتحدة. ويتحركون بحرية دون أية عوائق. ولكن على الإيرانيين استعمال حلقة فاصلة. أي أشخاص لا يمكن لك أن تربطهم بوزارة الأمن في طهران."

"تعني مثلما فعلوا حينما حاولوا شحن الأسلحة إلى عرفات على ظهر السفينة كارينا ألف؟ لماذا يتراءى لي أن لا شيء أقوله يأتيك بأي مفاجأة؟"

ضحك ستاين بهدوء. "خذ هذه: لقد قمتَ بعملٍ أمثولتك جيداً. لكن المشكلة هي في أنك تلاحق عدواً، أو أعداء، لا تستطيع أن تراهم. إن الشكوك شيء، أما البرهان فهو شيء آخر."

"ماذا لو أعطيتك شيئاً يقع في الوسط بين الظن والحقيقة؟" تراجع ستاين في مقعده. "سوف أروي لك المعلومة التي تعرضها عليَّ يا سيد وولف. فكلٌّ من تقوم بالتعامل معه، لديه اهتماماته الخاصة. لكنني أقول لك إن لحكومتنا مصالح تتعدى تجريم موكلتك."

* * *

ومنذ اليوم الأول الذي وطىء فيه دافيد أرض المطار في إسرائيل، شعر بلحظة من الأمل للمرة الأولى. "إنني سعيد أن ثمة جهة تملك مثل هذا الاهتمام." قال مجيباً جليسه.

وقبيل العاشرة بدقائق قليلة، ركب دافيد المصعد نحو المرآب.

كان سائق عربة الأجرة رجلاً قصيراً بديناً، ذا نظرة مواربة، وذقن لم تعرف الموسى منذ يومين. كان يوقف سيارته على مقربة من المصعد. وعندما انحنى دافيد من خلال زجاج الباب المحاذي لمقعد الراكب قائلاً، "دافيد وولف،" فإن السائق طلب إليه دخول العربة.

خرج السائق من المرآب متلفتاً إلى مختلف مرايا سيارته. سارت بهما السيارة مدة عشرين دقيقة فيما هما في صمت. كانت السيارة تأخذ منعطفاً تلو الآخر وكان الأمر يشبه عملية اختطاف. لكن دافيد لم يسأل سؤالاً قط. ولم يكن لديه أي فكرة أين هو في تلك اللحظة.

وبعد انعطاف سريع أخير، توقف السائق على مقربة من بعض الحوانيت والمطاعم. أشار الرجل في اتجاه الشارع ثم قال بلكنة روسية ثخينة، "المكان على مبعدة بنايتين من هنا. عليك الآن بالنزول، أمّا أجرتي فقد وصلتني."

كان النهار مشمساً، لكنه بارد. واضعاً يديه في جيبيه، وقف دافيد لحظة في الشارع

مأخوذاً بأهمية اللحظة وبتناقضاتها معاً. فها هو محامٍ في قضية قتل، قُذف به إلى بلادٍ أخرى، وهو يتصرف الآن تصرف الجواسيس.

دويٌّ انفجار راعد كبير قطع عليه أفكاره. وفي الشارع الممتد أمامه تعالى صراخ عجلات السيارات المفرملة بما يشبه صراخ الإوزّ، فيما حاول السائقون تجنب المارة الذين هرعوا يتراكضون من اتجاه الانفجار. وفجأة عرف دافيد ما الذي حدث. لقد حصل الانفجار في مقهى كافيه كاريه. كما عرف أن عليه ألَّا يكون موجوداً على مقربة من هذا المكان.

وللحظة أخرى وقف في مكانه بكل بساطة مستمعاً إلى عويل سيارات الإسعاف، وسيارات البوليس التي كانت في طريقها الآن إلى المكان. ثم استدار ومشى بعكس الاتجاه الذي قدِم منه.

وعندما وصل إلى غرفته بالفندق، فإن النشرة الأولى جاءت من محطة السي.أن.أن. وكان النبأ يقول إن انفجاراً قد وقع في مقهى بجانب رصيف جانبي في تل أبيب.

الفصل 12

وفي غضون ثلاثين دقيقة، كان دافيد قد غادر الفندق، وكلَّم زيف آرنهيت عبر هاتفه الخلوي. كانت مكالمتهما وجيزة جداً. طلب دافيد لقاءً فورياً، وأعطاه زيف توجيهات إلى مكان قرب بلدة قلقيلية. قاد سيارته بينما هو ينظر في مرآته الخلفية، ولم يلحظ أن ثمة من يتعقبه.

وعندما لمح سيارة آرنهيت، أيقن دافيد سبب تحديد هذا المكان للقائهما. لقد كانت البقعة مساحة كبيرة من الإسفلت قريبة من الخط السريع تحيط بها حقول مكشوفة لا تؤمِّن غطاء لمن يريد التخفي بقصد المراقبة. كان أقرب المباني جداراً من الإسمنت المسلح، علوه ثلاثون قدماً. وكان الجدار يمتد أميالاً وأميالاً مشكِّلاً ما يسمى بالجدار الحاجز وهو يتلوى خلال الأراضي المفتوحة كما فوق التلال، مصمَّماً من أجل أن يحتوي في داخله على كل المستوطنات الإسرائيلية ذات الأسقف الحمراء. فالجدار الحاجز أعطى المنطقة سيماء منطقة حرب.

استند آرنهيت إلى هيكل السيارة. وبينما لا يزال دافيد على حافة أعصابه، سأل: "ما هو هذا المكان؟"

"نحن الآن عند نقطة حدود الأمر الواقع بين إسرائيل والضفة الغربية،" أجاب آرنهيت. "فقبل الانتفاضة، كان المكان حيث نحن نقف الآن مكاناً لسوقٍ مزدهر قائم في العراء. وكان المزارعون الفلسطينيون يُحضرون إنتاجهم إلى هنا من أجل بيعه من المشترين الإسرائيليين. وكانت فنادق تل أبيب تشتري الخضار والفاكهة بالأحمال. لكنه بعد ذلك صار مكاناً يتلقى فيه الانتحاريون العبوات الناسفة من أيدي مدبِّري العمليات.

"والآن بات لدينا مئة وخمسين ميلاً من البنية التحتية الأمنية: حاجز إلكتروني، خندق، وجدار جديد. وحيثما يكون الإسرائيليون في سياراتهم أو منازلهم ضمن مجال رصاص بندقية يدوية، فإن الحاجز ينقلب إلى جدار." أشار آرنهيت إلى الحاجز الذي يتلوى مثل أفعى على طول التلال البعيدة. "إنه مصمم بحيث يحيط بالمستوطنات اليهودية،

ويعزل القرى الفلسطينية. لكن الفلسطينيين الذين كان باستطاعتهم يوماً أن ينتقلوا من قرية لأخرى في عشرين دقيقة، صار عليهم الآن أن يسافروا مدة خمس ساعات. وهكذا، بدأنا نبني لهم أنفاقاً تحت الأرض تسهل لهم عبورهم كما تسمح لنا بتفتيشهم بحثاً عن المتفجرات والأسلحة. أمّا التجارة التي كانت بيننا وبينهم: فقد باتت في خبر كان."

"هذا يشبه حكاية أليس في أرض العجائب،" قال دافيد. "أسوار، وجدران، وخنادق، وأنفاق."

"إنه عالم حقيقي محسوس بما فيه الكفاية بالنسبة للمستوطنين." قال آرنهيت مستديراً نحوه. "فالحاجز يستثني المواقع المتقدمة الخارجية مثل باركوشبا حيث يتمركز باراك ليف وحركة مسعدة. وهذا سبب آخر استدعى من باراك ليف أن يطلب من الله أن يصرع بن آرون. فبالنسبة إليهم، إن هذا الحاجز يدمر مستقبلهم مثلما يدمر مستقبل إسرائيل الكبرى."

حاول دافيد أن يتخيَّل كمية اليأس التي قد يشعر بها مثل هؤلاء الرجال. "فمنذ ساعات قليلة مضت،" قال لآرنهيت، "كان ثمة تفجير في تل أبيب. ماذا تعرف عنه؟"

لم يبدِ آرنهيت عجباً. "أعرف عنه ما يكفي. لم يكن هناك سوى وفاة واحدة. وهو إسرائيلي يشرب القهوة وحيداً في هذا المقهى. إنه شيء غير اعتيادي إلى درجة كبيرة. فواضعو العبوات الناسفة يحاولون أن يقتلوا أكبر قدر ممكن من الأنفس. أمّا الشيء الغريب الآخر في هذا الانفجار، فهو أن أحداً لم يتبنَّ المسؤولية عنه."

ملاحظة خطرت في بال دافيد، وكان قد سمعها من موشيه هاوارد: أنه بعد ابتداء الانتفاضة الثانية، بات يقصد المطاعم غير المشهورة معتقداً أن قلة الزبائن لا تجتذب هجمات القنابل الانتحارية. "لن يتبنى أحد هذا الانفجار،" قال دافيد. "لقد كانت عملية اغتيال. فالضحية هو هلال ماركيس، وهو عضو في مجموعة الحراسة الأمنية لـ: بن آرون، والصديق الحميم لـ: باراك ليف. وكان من المقرر لي أن ألتقي به."

حدَّق آرنهيت به. "دعنا نبتعد عن الطريق،" قال له. "هذا ليس يوماً مناسباً كي أكون معك."

* * *

قاد دافيد سيارته خلف سيارة آرنهيت على محاذاة الجدار الأمني مرتقياً تلة إلى تجمُّع أنيق التموضع، من البيوت الرحبة. وعند رأس التلة كان ثمة باحة معشبة لألعاب الأطفال، حيث كانت طفلتان تلهوان على الأراجيح. وعند حافة الملعب كان ثمة مقاعد خشبية لها إطلالة على منظر يذهب في امتداده إلى تل أبيب. غادر دافيد سيارته لينضمَّ إلى آرنهيت على المقعد. "من هنا،" أخبره آرنهيت، "إن البيوت والأراضي التي تراها تحتضن أربعة ملايين

وسبعمائة وخمسين ألف مواطن في إسرائيل. وقبل العام 1967. كان هذا مربض مدفعية لبطارية أردنية. أما المستوطنة التي تقع وراءنا، واسمها آلفي موناش، فقد تم تأسيسها بقصد الادعاء أن هذه النقطة الاستراتيجية تابعة لنا. وبعد أربعين عاماً فإنها لا تكاد تكون نقطة الحدود المتقدمة التي يتخيلها معظم الأميركيين." مشيراً إلى يساره، قال آرنهيت، "تلك القرية على الجانب الآخر من الحاجز، على مبعدة أقلّ من ميل واحد من جانب التلة هي قرية عربية. ليف ورفاقه من المستوطنين يعيشون أيضاً خارج هذا الجدار. وهم يعتقدون أنه الخط الفاصل بين الحياة والموت."

صوتُ مؤذّنٍ يدعو للصلاة تناءى من القرية العربية. صرخة رفيعة في الهواء الحار الشديد الجفاف. "هل كان أحد يقوم باقتفاء آثارك قبل الانفجار أو بعده؟"

"لا أظن ذلك."

"كان أمراً فطِناً منك أن تقوم بمغادرة المكان في الحال. فأنت لا ترغب في استثارة الأسئلة حول كيفية مصادفة وجودك في ذاك المكان بالذات، ساعة وقوع الانفجار، وحول من هي الجهة التي قد أرسلتك. مع أن الذي يبدو هو أن جهة ما، كانت تعلم بعزمك على الذهاب إلى هناك."

"أنا لست عميلاً من عملاء السي.آي.إيه. لكن الجهة التي رتبت اللقاء، كائنة من تكون، هي شديدة الحرص."

"ليست حريصة إلى درجة كافية." غضون التركيز القلِق، حفرت أخاديدها حول عيني آرنهيت. "دعنا ننظر في نظريتك،" تابع كلامه. "في سان فرانسيسكو كانت شبكة الاغتيال قد اختفت تاركة الأميركيين مع لا أحد سوى هناء عارف. وفي إسرائيل، يُقتل عنصر من رجال الحماية الشخصية لـ: بن آرون، وذلك في 'حادث تفجير'، وهذا قد يتركك مع لا شيء سوى التخمين حول باراك ليف، وبذلك تكون الحلقة الإسرائيلية في نظريتك عن المؤامرة، قد انقطعت."

سمح دافيد للمشاعر المؤجَّلة أن تنساب خلال كيانه.. مشاعر العجز، والضعف، والرعب، والارتباك، والخوف، وفوق كل ذلك: اليأس من أن يكون مصير هناء قد تقرر سلفاً على أيدي جهة ما، جهة لا يعرفها ولا يراها، لكنه يحسُّ بوجودها فقط. "من الذي يقوم بتدبير كل هذا، يا زيف؟"

"سوف أخبرك عن الذي لا يقوم بذلك،" قال آرنهيت بلهجة جافة. "إن الحكومة الإسرائيلية تبث عيونها حولك، دون أيِّ شك. لكن الإسرائيليين يؤمنون بحكم القانون. على الأقل،" أضاف آرنهيت ساخراً، "مثل الأميركيين، ضمن حدود بلادنا الخاصة. فلو كان الموساد يريدون التخلص من ماركيس، لكانوا قد استدرجوه إلى مونتي كارلو.

"وحكومتنا قد لا تكون شديدة الحرص على تبادل معلوماتها معك. وذلك لأسباب وجيهة، خصوصاً إذا عرفنا أن اهتماماتك ربما هي التي تسببت بموت ماركيس. لكن جماعتنا لا يقلّون عنك قلقاً من أجل معرفة كيفية انهيار جهاز حماية بن آرون. ولو كانوا يعتقدون أن هذا الرجل يعرف شيئاً على الإطلاق، لكان من مصلحتهم الإبقاء عليه حيّاً."

"وهناك جهة أخرى تريد أن تراه ميتاً."

"إذن ابدأ من السيارة المفخخة، إنها مستأجرة من مكتب لتأجير السيارات، والمستأجِر استعمل بطاقة مزورة. ورغم كل الحسابات؛ ومع أنك محقٌّ في اعتقادك أن ليس من جهة ستتحمل مسؤولية هذا الحادث؛ فإن المشكلة في نظريتك عن المؤامرة، هي أنها حتى الآن أعجز من أن تتماسك." ابتسم آرنهيت ابتسامة اشمئزاز. "أتذكر ذلك الفيلم الجنوني الذي عمله أوليفر ستون عن اغتيال كنيدي؟ فوفقاً لحمَّى جنون ذلك الفيلم لم يجرِ اغتيال جون ف. كنيدي على يد لي هارفي أُوسوالد، بل على يد كل من: ليندون جونسون، والسي.آي.إيه.، وفيدال كاسترو، والجناح اليميني لرجال صناعة النفط، والمتخنثين الخلعاء في نيوأورليانز. أمَّا الرابط بين كل هؤلاء، فلم يكن فيه أيُّ منطق يجمعه، وكان المرء في حاجة إلى استئجار قاعة فندق كبرى لو أنه اراد جمعَ كلٍّ هؤلاء المتآمرين المزعومين في مكان واحد."

"أوسوالد،" قال دافيد، "كان بوسعه تنفيذ جريمته بمفرده. إذ إن جون كنيدي كان يركب سيارة مكشوفة، وكانت رحلته معلومة للجميع. لذلك فإن كل ما كان يحتاج إليه أوسوالد كان عبارة عن بندقية وفتحة شباك. أمَّا حسن وجعفر، فقد كانا في حاجة إلى الكثير من المساعدة في سان فرانسيسكو حتى تتأمن لهما البزتين العسكريتين، والدراجتين الناريتين، والمتفجرات. وحتى هذه الأشياء ليست بحدٍّ ذاتها كافية: فكان عليهما أيضاً أن يعرفا أن طريق مغادرة بن آرون قد تبدَّلت.

"إن اللائحة بالجماعات التي قد تكون أمَّنت هذا النوع من الشبكة داخل الولايات المتحدة هي لائحة ليست بطويلة. وهذا ينطبق أيضاً على اللائحة بالجهات التي تستطيع أن تسرِّب خبر تغيير مسار الموكب. لكنني أحتاج إلى معرفة كيفية ارتباطهما معاً، وما هي الدوافع التي تجمع بينهما. والجواب موجود في مكانٍ ما."

انحنى آرنهيت إلى الأمام، كان يمسك ذقنه براحتيه، فيما عيناه سارحتان في مرمى النظر الممتد أمامهما. "لكن في إسرائيل؟ شخص ما، منذ قليل، قام بنسف شاهِدِك، والوقت ينفد أمامك بسرعة. وعاجلاً أم آجلاً، ستضعك حكومتنا بالقرب من مقهى كافيه كاريه. وسيكونون شديدي الفضول. أما مساعدوك اللامرئيون فسوف يكونون بدورهم أكثر تخفياً وحذَراً."

"إذن عليَّ أن أُسرع، أليس كذلك؟"

"تسرع بماذا؟"

"بمقابلة باراك ليف."

ضحك آرنهيت ضحكة عالية. "ربما على الغداء؟ إذا ماشيتك في منطقك المعقَّد، فإن أحدهم قد يكون فرغ لتوِّه من اغتيال الشخص المتآمر لديه، لأنه جعله شديد القلق. أو قد يكون ليف هو الذي دبر قتل ماركيس؟"

"ليس لقاء على غداء،" أصرَّ دافيد. "مجرَّد لقاء فقط. وأعتقد أنك لست خلواً من الأفكار لترتيب مثل هذا اللقاء."

هزَّ آرنهيت رأسه. "هل إنني حقاً بحاجة إلى التورّط في هذا الأمر، إني أعجب لذلك؟ ألا تعجب أنت أيضاً؟ وما هو ذا الذي تتوقعه من لقائك مع ليف؟ هل تتوقع أن تسمع منه اعترافاً؟"

"مجرد حديث. يكفي لنقله إلى المحكمة." صارت نبرة صوت دافيد ملحَّة. "أنا لا أستطيع انتظار حكومتكم. هل أنت متأكد حقاً، بعد اليوم، أن من كان لديه القسوة الكافية للأمر بقتل هلال ماركيس سوف يُبقي على حياة هناء عارف إذا لم تتمكن من إثبات براءتها؟"

بعد لحظة استدار آرنهيت نحوه. وقال بهدوء. "أنت على حق، بالطبع. إنني لست خالياً من الأفكار."

الفصل 13

بعد عودته إلى القدس كان دافيد قلِقاً مرهقاً، لذلك فإنه لم يغادر غرفته في فندق الملك داود.

وجد نفسه خلال الليل جالساً مفكراً في معنى معلوماته القليلة التي يلفها الغموض. فلم يرَ حقيقة ثابتة لديه خلا عن أن تعقيدات دفاعه عن هناء عارف قد تجاوزت كل ما لديه من طاقات. لم يتصل به أحد. وبسبب خوفه من أن يكون خطه تحت المراقبة، فإنه لم يحاول الاتصال بالناس القلائل الذين كان يعرفهم أمثال موشي هاوارد، وآفي ماسور، وآنات بن آرون، هؤلاء الناس الذين قد يكونون هم الذين وضعوا قدميه على الرصيف المؤدي إلى مقهى كافيه كاريه.

لقد مشى في تلك الطريق، وها هو الأمر قد أسفر عن موت رجل. أشعره هذا بالإثم - مهما يكن هلال ماركيس قد فعل - شعوراً عمَّقه الخوف من أن يكون ثمة شخص ما، يتعقب خطاه، قد رتب جريمة القتل هذه من أجل منع اكتشاف خطة كبرى كانت قد أودت بحياة عاموس بن آرون. كما أنه بات يخشى أنه بمحاولته الدفاع عن حياة هناء فإنه قد يكون قد ختم على مصيرها.

لم يبق معه من رفيق سوى التلفزيون. بقيت السلطات كتومة متحفظة، ولم يعمد أحد إلى ربط مقتل ماركيس بمقتل بن آرون. كم من الوقت، تساءل دافيد، يمكن أن يمرَّ قبل أن يظهر رجال الحكومة على باب غرفته لكي يستفسروه عن رحلته إلى تل أبيب؟

وبعد وفاة ماركيس لم يبق من خيط أمام دافيد سوى باراك ليف. وكان همه الوحيد الباقي هو أن يتمكن من إقناع القاضية تايلور: أنَّ باراك ليف: هو جزء من المؤامرة التي لم يتمكن بعدُ من كشف جوانبها. كان ليف محتبِساً نافراً من الغرباء. وفي ما عدا واسطة آرنهيت، فلربما أنه لم يكن أمام دافيد ثمة سبيل آخر يمكِّنه من الوصول إليه. أمّا بعد مقتل ماركيس، فإن دافيد لم يعد واثقاً من أن عليه الاستمرار في محاولة الاتصال بهذا الرجل.

بعيد الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، ظهر آرنهيت على عتبة دافيد. وكان هو

أيضاً لا يبدو مرتاحاً. "لم يبارحني التفكير بأمر ماركيس،" قال آرنهيت. "لقد نظرتُ إلى مقتله من وجوهٍ ستةٍ مختلفة. والوجه الوحيد الذي وجدتُ فيه بعضَ منطقٍ، هو أن تكون أنت على حق. لكن ما أحبُّ أن أعرفَه فقط، هو: ما هو هذا الشيء الذي أنت محقٌّ فيه."

* * *

شأنها شأن باركوشبا، شرح له آرنهيت بينما هما منطلقان في السيارة، كلُّ المستوطنات التي كانا يزورانها واقعة جميعاً خارج نطاق الحاجز الأمني، وهذا ما يثير خوفاً عميقاً في صفوف سكانها. خوفاً من أن يتم التخلّي عنهم. ولكن المثل الذي لقيه في مستوطنة آلفِ ميناش، لم تنطبق صورته التي رآها، على تصوُّره المسبق عن نقطةٍ متقدمة، لروَّادٍ أوائلَ، تقطُنها قِلَّة من اليهود الأصوليين والمتعصبين، يعيشون على أعصابهم. بل إن ما رآه بدلاً من ذلك: كان بلدة قائمة على تلة خضراء مدرَّجة بالشوارع، ولها حدائق متدرجة الألوان، تزدهر بين أشجار النخيل والجكرندة. كانت الأرصفة مرصوفة بالطوب، أمَّا الشوارع فجيِّدة الإشارات، وأما المدارس فحديثة، وكذا الملاعب مليئة بالصغار. والبيوت الرحبة كانت بيوت مزارعين تحمل طابع حوض البحر المتوسط في طُرُزها، بينما الأسطح المبلطة بالبلاط الأحمر كانت تعطي الطابع المميز لإسرائيل الحديثة. وكانت هذه المستوطنة تدعى شاري يتكفا، أي بوابة الأمل.

أمَّا الرجل الذي كانا قد قدِما لزيارته، فكان يدعى آكيفا إيلون، المنارة الفكرية لحركة المستوطنين. فهو محرر مجلة ناطقة باسم اليمين الإسرائيلي، وهي مجلة لا تساوِم على نقائها ولا على تشدُّدها. كما أنه كان معروفاً لأعضاء حركة مسعدة بعلاقاته الواسعة، إن لم يكن بولائه الذي لا جدال حوله لدولة إسرائيل. ولكن الرجل بدا أبعد ما يكون عن قلة الترحيب والتزمُّت. فالرجل الأشيب الذي اقتادهم إلى حديقته، كان غاية في اللطف، بعينيه الزرقاوين الشبابيتين، ومحيَّاه الذي يميل إلى الظرف والبشاشة. وما من شكٍّ في أن الطريقة التي قدَّم بها آرنهيت دافيد إلى الرجل كانت قد لعبت دورها. فحسب الوصف الغامض الذي ساقه آرنهيت، كان دافيد محامياً أميركياً واسع العلاقات، يهمه الوقوف على وجهة نظر المستوطنين. أما دفاعه عن هناء عارف فلم تجر إشارة إليه.

شأن رب البيت المضياف قدَّم إيلون القهوة في فناجين خزفية مصراً على ضيفيه أن يتذوقا فطائره الطازجة. أسف دافيد لمخادعة الرجل عن كامل الحقيقة، لكنه ذكَّر نفسه بواجباته تجاه هناء. "لقد جعلتَ هذا المكان مكاناً جميلاً،" قال. "كيف اتفق لك الأمر حتى جئت للعيش هنا؟"

"أنا شخصياً؟" قال إيلون بابتسامة ساخرة. "مثلما هو الحال مع قصصٍ كثيرة، لقد ابتدأت قصتي مع النازيين. إذ عندما كنت طفلاً في الشهر الرابع عشر من عمري في أوكرانيا، جاء النازيون إلى قريتنا يحملون دعوة إلى جميع اليهود. كان علينا أن نتجمع في

ساحة عند الفجر من أجل أن يعطى لنا رغيف من الخبز، وحصة من السكر ورحلة إلى ’مخيم صديق‘. كانت والدتي تخدم في الجيش الألماني وعندما اكتشفت أنني أعاني من الحمى، فإنها رفضت أن تجعلني عرضة للبرد. وهكذا، فإن جميع اليهود، عدانا، من أبناء قريتنا قد أُطلقت عليهم النار. أما الذي تلا ذلك فقد كان مثلاً في إنكار الذات اليهودية. لقد هربت أمي مع طفلها، الذي هو أنا، لكي تنقل الخبر إلى بقية القرى. لكنهم رفضوا تصديقها. وعندما وصل الألمان إليهم تبع اليهود الأوامر ممتثلين لطلب الانتقال إلى ’المخيم الصديق‘. ولا بد أن أولئك النازيين قد ضحكوا لذلك كثيراً."

فهم دافيد أن هذه القصة قد قُصد بها التعريف بأكيفا إيلون. "وكيف تمكنتما من النجاة؟" سأله.

"كانت أمي تتكلم الألمانية بكل طلاقة، وكنت أنا طفلاً أزرق العينين، أشقر. نسخة واقعية عن صورة الطفل الألماني التي نشرها روزنبرغ الحكَم الهتلري على كمال العرق الآري. وهكذا، استقرينا في قرية أخرى، حيث لم يكن أحد يعرفنا، متنكرين بزيٍّ المسيحيين. ولحسن الحظ لم يرني أحدٌ سواها، عارياً من ثيابي." صار صوت إيلون خافتاً. "بعد انتهاء الحرب، قالت لي أمي: ’في كل يوم كنت أظن أنك سوف تكون سبباً لإعدامي‘. لكنها تشبثت بي، وأنا طفلها الوحيد، في انتظار عودة والدي الذي لم يعد أبداً. وهكذا، فإن الوكالة اليهودية في أوروبا أرسلتنا إلى هنا، إلى إسرائيل التي هي ملجؤنا."

سمع دافيد مرارة تامة في كلمات إيلون الأخيرة. "وبعد ذلك؟"

"منذ البداية، كنت قد وهبتُ نفسي لبلدنا الجديد. جسداً وروحاً. لقد عملتُ في أحد الكيبوتزات، وقاتلت في حربي 1967 و1973، ثم انتقلتُ إلى هذا المكان لكي أساعد في استقرار أمتنا وشعبنا. أما الآن، فإن دولة إسرائيل ليس لها حاجة بنا."

نظر آرنهيت إلى دافيد. "قل لدافيد كيف جاءت شاري تيكفا إلى الوجود،" أشار إلى إيلون.

بسط إيلون يديه في إشارة رشيقة حملت الحزن والشجب للذات. "إنها قصة نموذجية بالفعل. فالكثيرون منا مزارعون كيبوتزيون. وبالنسبة إلينا كان الاستقرار في هذه الأرض، أرض السامرة التوراتية، جزءاً طبيعياً من إعادة إعمار أرض إسرائيل. ونحن لم نسرق سطح هذه التلة. فبعد حرب 1967، وجدنا أن هذه التلة قد هرب أصحابها، فأتينا إلى هنا لكي نعيش في بيوت متحركة. كنا ثماني عائلات، وكنا نخلو من الطرق والمدارس والكهرباء. أما الآن فقد صرنا ثمان مئة عائلة، وصار عديدنا جميعاً خمسة آلاف شخص. وكلنا ليس له مكان آخر في واقع الحال،" ثم أضاف بهدوء. "أمَّا والدتي فهي مدفونة هنا."

صمت دافيد قليلاً منقِّلاً النظر في الحديقة الظليلة، وفي فيللا إيلون الحديثة الطلاء. "تقول الحكومة، حسبما يخبرني زيف، أن الدفاع عن شاري تيكفا سيكون أمراً صعباً."

"دفاع؟" شيء من الغضب أخذ طريقه إلى نغمة صوت إيلون. "إن الدفاع عن إسرائيل كان هو السبب الذي دعا الحكومة إلى تشجيعنا على القدوم إلى هنا. لقد كنا أبطالاً، وروّاداً جُدُداً، كما كنّا موضع تبجيل السياسيين من كل جهة. وها نحن لم نتغير. لكن رجالاً من أمثال بن آرون، كانوا قد تغيَّروا، يتبادلون عبارات تشبه عبارات أورويل من أمثال: 'الشعب الفلسطيني' كما لو أن هناك ثمة شعب فلسطيني قد وُجد يوماً." هزَّ إيلون رأسه عجباً. "وماذا عن شعبنا نحن؟ فنحن آباء وأمهات نحبُّ أطفالنا ونحب جيراننا، وإننا لا نريد شيئاً سوى أن نعيش على الأرض الوحيدة التي وهبها الله إلينا، جاعلين إياها وطناً لنا بفضل جهودنا الخاصة. ومع كل ذلك، فقد تتم الآن التضحية بنا، لأن العرب يريدون نقاء إثنياً. ولربما تقوم حماس، أو تقوم كتائب الأقصى بإزالتنا إلى 'مخيم صديق!'."

فكرة خطرت لدافيد. فمع أنهما كانا قد قادا سيارتهما بمحاذاة القرى العربية، فإنه لم يرَ أيَّ عربي قطّ. فالطريق المحوَّلة التي سلكاها كانت مخصصة للإسرائيليين، جاعلة العرب خارج إمكانية الرؤية. "إذن ماذا أنتم فاعلون،" سأله دافيد. "بالسكان العرب في الضفة الغربية؟ فأنتم لا تزيدون عن ربع مليون، بينما عددهم يساوي اثنتي عشر ضعف عددكم."

هزَّ إيلون كتفيه. "سوف نعيدهم إلى الأردن، على ما أعتقد، إن ذلك المكان هو المكان الذي ينتمون إليه إثنياً، إنهم أردنيون. لن يكون الأمر بهذه البساطة. إنني أعرف ذلك. لكن التاريخ لم يسمح يوماً لليهود بالاختيار ما بين حسن وسيِّيء. لقد كان خيار اليهود على الدوام، ما بين سيىء وأسوأ. أمَّا أسوأ الخيارات، فسيكون التخلي عن هذه الأرض." حريص على دوره كمضيف، انتصب إيلون واقفاً ليعيد ملء فنجان القهوة العائد إلى دافيد. "لقد كان بن آرون كارثة. بدأ حياته جندياً محارباً لكنه ما لبث أن أنهاها جباناً بطريقة أشبه بالرسم الكاريكاتوري لليهودي الخنوع. لقد جعل من نفسه أخطر رجل على إسرائيل بسبب خطاباته الساحرة.

"لماذا هذا التحول؟ فمثل الكثيرين سواه، تزعزع عقله تحت ثقل التاريخ اليهودي." جلس ثانية وهو ينظر إلى دافيد بإمعان. "لم يكن هناك من شعب آخر قد تعرَّض مثلنا للإبادة خلال التاريخ. وليس هناك من بلد آخر، مثلنا، يعجب ويتساءل كم تراه يستطيع البقاء مستمراً على ظهر الوجود. وهكذا كيف يتفاعل الإسرائيليون مع حقيقة لا تسلم من الانهيار تحتها سوى أصلب العقول؟ هل باختراع 'سلام' حيث لن يكون ثمة أمل بالسلام؟ هل بإنكار حقيقة أن هؤلاء الذين يرسلون إلينا المفجِّرين الانتحاريين لكي يقتلوننا، لن يتورَّعوا عن قتلنا جميعاً لو سمحنا لهم بذلك؟ هل يكون ذلك بإدارة ظهورهم إلينا، ونحن إخوتهم وأخواتهم؟ أجل، لو سمحنا لهم بذلك، لكنا نحن المستوطنين سنغدو الأُضحية الأولى على مذبح الجحود."

رأى دافيد أن يقين هذا الرجل بأن أقرانه اليهود قد سقطوا تحت قبضة وهمٍ جماعي،

إنما يجب أن يكون قريباً من اللامحتمل. "وكيف تستطيع التعايش مع كل هذا؟" سأله.

ابتسم إيلون ابتسامة كآبة. "بواسطة كتابة الشعر، وترجمة أبيات شكسبير ورواياته. كلها ما عدا تاجر البندقية."

طار طائر فوق أزهار إيلون طيراناً هادئاً. "لكن بن آرون قد ذهب الآن." جازف دافيد بالقول.

نظر إليه إيلون بدقَّة. "إنها نجاة مؤقتة،" قال في النهاية. "لكن أشباهاً له سوف يظهرون. ففي داخل إسرائيل، ما زال المرض اليهودي حديث العهد. إنهم السياسيون الذين يعتقدون أن العرب الذين يكرهوننا يمكن إغواءهم باللطف، إنهم اليهود الذهنيون الذين يعتقدون أن الشعب المعذَّب هو الشعب الفلسطيني وليس اليهودي. منذ سنتين أطلق قناص عربي النار على ابنة أحد قادتنا باراك ليف، وكانت في السادسة من عمرها. لم يتكلم سياسي عنها، ولم يخلد ذكرها شاعر في بيت شعر واحد. لقد صارت مجرَّد شيء لا يثير أهمية ولا انتباهاً، إنها مجرَّد يهودية قتيلة. وأنا الآن أنظر إلى هذا الجدار الحاجز، وأتعجب كم من الأفراد من بيننا سينضمون إليها في عالم الموتى المنسيين."

"إذا كان هذا ما يواجهه أولادك ففيمَ بقاؤك هنا؟"

"وإلى أين كنا طوال هذا التاريخ نستطيع أن نذهب في هذا العالم؟ أين كنا لنذهب دون أن يحصل لنا هذا؟" صارت نبرة إيلون عالية. "هذه هي أرضنا. ومن أجل هذا على بعضنا أن يمتشق السلاح بدلاً من تركه جانباً. ولو كنت أصغر سناً، لكنت انضممت إلى هؤلاء، ولكنت قمت بمحاربة عدوِّنا حتى النهاية. سواء إذا كان عربياً أو، وقانا الله، يهودياً."

شعر دافيد بقشعريرة. في ساعة واحدة، في هذه الحديقة الجميلة العائدة إلى هذا الرجل المهووس المعذَّب. بات أقرب بكثير لمعرفة السبب الذي ربما أودى بحياة بن آرون. "ربما أن دافيد يجب أن يلتقي باراك ليف،" اقترح آرنهيت، "وأن يرى أيضاً باركوشبا."

فكَّر إيلون في ذلك بينما عيناه مظللتان. ثم نظر إلى دافيد نظرة مستوية، ورغم شعور دافيد بالغدر، إلا أنه استطاع ردَّها بالمثل.

"أستأذِن منكما،" قال إيلون بلطف. "سوف أقوم بإجراء مكالمة هاتفية."

الفصل

14

بينما هما يقودان سيارتهما باتجاه باركوشبا، الموقع المتقدِّم الذي يقيم فيه باراك ليف، كان على دافيد وآرنهيت أن يتوغلا عميقاً في الأراضي المحتلة. لاحظ دافيد أنقاض بيت عربي هدمته القذائف. كان ثمة سخام قذيفة أسود على أحد الجدران بينما الغرف الواقعة فوقه قد تهاوت. كانت المشاهد كالحة تحت شمس حارقة. وفوق سفوح التلال المستوية كان ثمة قرى عربية؛ أما على الطريق الذي يشرف عليه الإسرائيليون، فإن دافيد لم يرَ بعدُ، أيَّ عربي.

وبينما كانت الطريق ترتقي بهما، باتت المناظر الطبيعية أكثر قتامة وقفراً. وبعدما استدارا عند منعطف، شاهدا بعض آثار الحضارة اليهودية: عربات سكنية مقطورة، ماعز، معصرة خمر، وكنيس متواضع. وبالنسبة إلى دافيد، بدت مستوطنة بات عين أشبه بساحة عربات سكنية مقطورة في صحراء موجاف، ما خلا أن الأولى تجثم فوق موقع طبيعي مسنن التضاريس، وله تاريخ قاس، حافل بالنزاع. متَّبعَيْن التوجيهات التي كانت قد أعطيت إليهما من آلون، فإنهما قد تجاوزا مدرسة مهدَّمة وتوقفا إلى جانب كرم عنبٍ له مشهد مثير على تلال يهودا. وعلى امتداد المسافة، استطاع دافيد أن يرى الخط الأخضر المشجَّر، كان ذلك مقياساً للمسافة التي ابتعدا بها عمَّا كان يوماً حدوداً لإسرائيل.

وما بين العرائش، انحنى رجل ضخم أحمر اللحية على جرار زراعي. وعندما اقتربا منه مشياً على الأقدام، لاحظ دافيد أنه يعتمر قلنسوة اليرملك فوق رأسه، وأن لفاعاً للصلاة كان مطويّاً تحت معطف العمل. كانت عيناه الرماديتان حادتان، أما وجهه فقد صبغته الشمس، وتركت في قسماته الريح والغبائر آثارها. أما جبهته العالية فكان عليها غلالة من وهج الشمس والعرق. مدَّ يده مصافحاً دافيد بابتسامة. "إنني ناعوم بارتوك. أمَّا أنت فيجب أن تكون الأميركي الذي يبحث عن باراك."

"هذا صحيح."

"إنني المتحدث باسمه عندما تدعو الحاجة. وإنني أيضاً أميركي، أو بالأحرى كنت

أميركياً." استدار بارتوك مشيراً إلى المنظر الطبيعي العام. "هذه هي بلادي الآن. إنها بعيدة جداً عن نووارك. وليس لأولادي الاثني عشر أيُّ موطن سوى هذا الموطن."

"إنها بكل تأكيد تختلف عن نووارك،" قال دافيد. "كما أنها تختلف عن أيِّ مكانٍ آخر سبق لي أن زرته قبل الآن."

ابتسم بارتوك ثانية. "لمَ لا نجلس فإنكما قدِمتما من مسافة بعيدة أيضاً،"

قاد دافيد وآرنهيت إلى جذع عارٍ لشجرة صنوبر مقطوعة. جلس الجميع معاً يحدِّقون في كرم العنب بينما مرَّر بارتوك إليهما قِرْبة من الماء البارد. "في معظم الأماسي،" قال بارتوك "قبيل عودتي إلى البيت أجلس هنا لأرقب هذه التلال. فعندما قررتُ أنا وزوجتي، لياه، أن نساعد في إحياء الأرض التي هي حقاً أرض إسرائيل، فإننا قد جئنا إلى هذا المكان الذي هو لنا. ليس كما تحدده لنا الحكومة، بل كما يحدده لنا الله."

كان يتكلم بفصاحة واقتناع رجل وقع على الحقيقة. "لقد شاهدتُ الجدار الحاجز،" قال دافيد بعد وقت. "وإنه يبتعد عدة أميالٍ عن هذا المكان."

"أمَّا الخطُّ الأخضر، فهو أكثر منه بعداً." حدَّق دافيد نزولاً في الأرض الحمراء. "رجال من أمثال بن آرون يشوِّهون أرضنا بخطوط من اختراعاتهم الخاصة، فهم يرسمون 'حدوداً' ويقولون لنا ما هي الأماكن التي يحق لنا بالعيش فيها عيشاً 'قانونياً'، وما هي الأماكن التي تكون عكس ذلك. وكأن تحديد مثل هذه الأمور شيء متروك للبشر.

"إن الله هو الذي منح هذه الأرض لأبناء شعبنا، منحها لأطفالنا، ولأحفادنا، ولأحفاد أحفادنا حتى نهاية الزمان. مسألة الأرض ليست مسألة مكتب وحكومة." منحنياً إلى الأمام، خفض بارتوك كتفيه كأنه يحمل فوقهما أعباء التاريخ. "إن الوسيلة الوحيدة لقيام إسرائيل بإنقاذ نفسها، هي في العودة إلى الله. أمَّا أولئك الذين يساومون على أرض الله من أجل السلام، فلن يفعلوا سوى أن يغرقوها بالدماء."

كان آرنهيت يراقب وجه المستوطن، عندما قال له بلطف، "إنني إسرائيلي، ومع كل ذلك فإنني ما زلت أعجبُ ما الذي سيحصل لو قدِم الجيش يوماً لإخلائكم عن هذه الأرض."

"عندها سأرسل زوجتي وأطفالي." وأغمض بارتوك عينيه لحظة. "وإذا كان الله يريد ذلك. فإنني مستعد للموت هنا."

شاركه دافيد وآرنهيت صمته. ودون أن يلتفت نحو دافيد، زفر بارتوك ببطء. "أستطيع أن أدلَّكما على مكان باراك،" قال في النهاية. "لكنني لست واثقاً من أنه سيرضى بالكلام معكما. فهو كان قد فقد صديقاً حميماً له منذ مدة وجيزة، حسبما أخبرني، صديق له، كان بمثابة الأخ. وهذا اليوم هو يومه للصلاة."

* * *

كانت الرحلة إلى باركوشبا أشبه برحلة إلى حافة الأرض.

لقد استحالت الطرقات إلى ترابية، وصارت الأراضي صخرية قاحلة لا ماء فيها ولا حياة سوى لشجرات السنديان المتقزِّمة. ومن مكان لآخر، كان المرء يقع على بقعة مروية هنا أو هناك غرست بالأعناب، أو بالدراقن، أو بالكرز. أما التلال التي تربَّعت عليها باركوشبا، وهي محاطة كالسوار بالقرى العربية، فقد كانت تبدو من البعيد مقفرة، خلا عن علامة الإنس الوحيدة فيها المتمثلة في شريط مبعثر من العربات السكنية المتنقلة.

وعند ذروة التلة الأولى، وجد دافيد وآرنهيت مشهداً مدهشاً في اعتياديته: على بقعة معشبة مشرفة على الصحراء، جلست أمهات أربع يراقبن أطفالهن وهم يلعبون على مزلقة بلاستيكية وأرجوحة. لكن ما يتعلق بهذا الوضع، وبكون كل من النسوة تغطي رأسها بمنديل، فإن هذا ما كان يمكن تصوُّر حدوثه في أي مكان من العالم. "لنتأكد من صحة اتجاهنا،" اقترح آرنهيت.

أوقفا سيارتهما ثم اقتربا من جماعة النسوة. نظرت امرأة شابة ذات وجه مستدير، فوقه نظارتين، في اتجاههما نظرة فضولية، أقعى آرنهيت بالقرب منها ناظراً في اتجاه الصحراء. "إنه مكان رائع،" قال لها.

هزَّت المرأة كتفيها. "إنه موطننا."

لم يظهر على وجه أيٍّ من النسوة الأخريات أية علامة تنم عن فهمهن لكلامه. وعند ذلك أيقن دافيد أنهن يعرفن اللغة العبرية فقط. مومئاً برأسه للأطفال، سألها آرنهيت: "أيُّهم أطفالك؟"

للحظة أطرقت المرأة. "ليس لدينا سوى طفل واحد فقط،" قالت له بهدوء. "الولد ذو الشعر الفاحم، الذي يضع عليه نظارتين. لكنني أعتقد أنك تفتش عن شخص آخر."

"أفتش عن باراك ليف."

عبَر حزن فوق وجهها. "إنني زوجته،" قالت بعد برهة.

تأمَّلَ دافيد فيها من جديد، إنها أم لطفلة قتيلة، كانت قد قُتلت في هذا المكان. كما أنها الزوجة الجميلة الوجه، للرجل المتعصب الذي يرجِّح أنه أهَّل عملية قتل بن آرون. لم تسأله أيَّ سؤال؛ ولربما أنها كانت قد تعلمت ألَّا تقوم بطرح الكثير من الأسئلة. "ما عليك سوى باتِّباع هذا الطريق،" قالت. "وفي نهايته ستلقى رجلاً. وهو سيدلُّك إلى أين تذهب."

* * *

استمرت الطريق على حافة جرفٍ مسننٍ ارتفع ارتفاعاً شاقولياً شاهقاً ليشكلَّ جداراً لفجٍّ ضيقٍ عميقٍ، له في امتداده المتعرِّج أطياف متداخلة من اللون الأسمر. وعلى الجانب الآخر،

جثم شريط من المقطورات فوق أرض متخلِّجة. وفي البعيد فوق الجهة الأخرى من الوادي تواجدت مقطورات أخرى وكأنها تقف موقف الحارس. "إنها أرض قاحلة قاسية،" قال آرنهيت. "لكن مستوطنة سارى تيكفا كانت قد بدأت في بداية أمرها على هذه الشاكلة."

محدِّقاً في جوانب الجُرف الصخري الذي نحتته الرياح، وقع نظر دافيد على ثقوب سوداء تتخلَّلُ تلك الصخور البنية الضاربة إلى اللون البرتقالي. "هل هذه كهوف؟" سأل رفيقه.

"نعم، فمنذ قرون خلت، انقطع الرهبان البنديكتينيون عن العالم في هذه الكهوف. إنه مكان جيد للتنسك."

شعر دافيد بتعاظم الخشية التي باتت تساوره. "أتعتقد أن ليف سوف يرضى بالتحدث إلينا؟"

"ربما، فمما رأيته منه على شاشة التلفاز، فإن للرجل مزاجاته الحاخامية."

في نهاية الدرب وقف رجل يحمل رشيشاً هجومياً بقرب سيارة جيب. وبعد اقترابهما من الرجل، أنزل آرنهيت زجاج شباكه. "إننا نفتش عن باراك ليف."

حدَّق الرجل في داخل السيارة. "ترجَّلا،" قال بلهجة آمرة.

في مواجهة الوادي وقف دافيد وآرنهيت قرب السيارة، بينما كان الرجل يطوف حولهما. وإلى الأمام، امتدت طريق ضيقة خلال دغل من الأشجار المقزومة قدُماً إلى حافة الجُرف. "خذا ذلك الممر،" قال الرجل موجِّهاً. "وسوف أكون في إثركما. لكن قبل ذلك أعطياني مسدسيكما."

بوجه خالٍ من أيِّ تعبير، قام آرنهيت بتسليم مسدسه وبدأ بالمشي، بينما مشى دافيد وراءه. وكل ما كان يعرفه هو أنهم يسيرون في اتجاه حافة الجرف.

على مبعدة قدمين فقط من حافة الهاوية. توقف آرنهيت عن المسير.

وقف دافيد إلى جانبه، فشاهد سقيفة خشبية تبرز من حافة الجرف. وفي نهاية الممر كان ثمة درجات حُفرت في الصخر نزولاً في داخل ضلع الجرف. سَلَك آرنهيت تلك الأدراج بحذر شديد، بينما يتبعه دافيد من خلفه، وهو على يقين من أن خطوة عاثرة واحدة، أو دفعة واحدة من الخلف، كفيلان بإرسالهما إلى الهلاك. وإلى جانب من الدرجة الأخيرة، رأى دافيد مصطبة خشبية ملتصقة إلى جانب الجرف، تظللها السقيفة. وفي كنف المصطبة كان ثمة كتب، وتموينات غذائية، وسرير، ومصباح زيت، وعدة صناديق من الذخيرة. بدا المكان في أنظار دافيد مكاناً للموت أكثر منه مكاناً للزهد والتنسك.

برز باراك ليف من عمق الظِّلال، يحمل في يده رشيشاً نصف أوتوماتيكي. كان رجلاً

طويلاً ملتحياً. خطوط ملامح وجهه بدت قاتمة وصارمة صرامة الجرف نفسه. ومع أن عمره لم يكن ليجاوز الأربعين، إلّا أن سيماءه كانت سيماء بطريركٍ قديم، مؤسِّس، مخيف. أمّا نظرته فقد كانت براقة بشكل غير اعتيادي.

"إنني أعرفك،" قال مخاطباً دافيد. "لقد جئت إلينا بخصوص هناء عارف."

تمهَّل دافيد دون أن يتفوه بكلمة. ناظراً نحو آرنهيت، أشار ليف بفوهة سلاحه إلى الجدار الحجري المنخفض الواقع إلى أحد جوانب الحصن. "اجلسا،" قال لهما آمراً، "هناك حيث أستطيع مراقبتكما جيداً معاً."

جلس دافيد بجانب آرنهيت. وعلى المدى القريب، بدت عينا ليف تنمان عن روحٍ قلقة أكثر مما هي غاضبة. "ما الذي تريده مني؟" وجه السؤال إلى دافيد.

"أريد أن أعرف من الذي قتل صديقك."

أومضت عينا ليف. جلس إلى طرف الدَّكة التي يتَّخذها سريراً، على بعد خطوات قليلة من دافيد. أمّا الرشيش فبقي لِصقَ ذراعه الأيمن، فيما فوهته متجهة صوب آرنهيت. "وهل تعتقد أنني أعرف ذلك؟"

"حدَّق دافيد بشدَّة في عينيِ الرجل. "إذا كانوا قد جاؤوا مرة في إثر هِلال ماركيس، فقد يجيؤون يوماً في إثرك أيضاً."

لم يبدُ أن جفناً رفَّ للرجل. "أنت من جاء في طلب هلال،" قال بلهجة اتهام باردة قاسية. "ثم جاء الموت في إثر قدومك. أمّا الآن، فأنت موجودٌ هنا."

"بل الموت جاء في إثر عاموس بن آرون،" ردَّ عليه دافيد. "فكائناً من يكون ذاك الذي خطَّط لموت بن آرون فإنه هو الذي قام بقتل ماركيس. وأعتقد أنهم لم يخبروك بما سوف يحدث."

بالقرب منه، شعر دافيد بآرنهيت يرقبه بتوترٍ شديدٍ. ثم أجاب ليف "إنك تريدني أن أموت في سجن إسرائيلي."

شعر دافيد بتوقُّعٍ شديد النذير - ففي نهاية الأمر، وعلى شيء من المهارة، قد يستطيع كشْفَ جانبٍ، على الأقل، من الحقيقة. "أنت لا تستطيع السيطرة على هؤلاء الناس،" قال دافيد. "لم تستطع أن تسيطر عليهم في السابق. وها أنت تعي الآن تكلفة ذلك، كما أنك تعي أنهم لن يترددوا أبداً في قتلك. والأفضل لك أن تموت في السجن بعد أن تكشف أسماء الذين أقدموا على قتل صديقك."

كانت ابتسامة ليف مشمئزَّة. "كما أقدموا على قتل بن آرون، حسب اعتقادك. هذا هو الجانب الذي يهمك من هذه المسألة - إنقاذ أنثاك العربية من مؤامرة تعتقد أنني أحد أطرافها."

"هذا ما يهمني أنا. أما ما يهمُّك أنت فهو الثأر لصديقك هلال ماركيس."

انفجار ليف بالضحك، جعل دافيد يُحجم مجفلاً. "إنَّ ما يهمني هو إسرائيل الكبرى. وهذا الاعتراف الذي تريدني أن أقدمه إليك، يمكن له أن يدمر مستقبلها.

"ففي كل تشرين أول/نوفمبر تقوم هذه الدولة الشبيهة بـ 'المَقعدة'، التي تسمي نفسها بإسرائيل، بجعل اليهود ينتحبون لموت إسحاق رابين. بينما أقوم أنا بالاحتفال لهذه المناسبة، كما أنني أبجِّل الرجل الذي قام بقتله. لكن، حتى الآن، ما يزال أمثالنا قلائل، وأمثالهم كثُر. لذلك دع موت بن آرون يبقى صنيعة طالبين فلسطينيين، بالإضافة إلى عاهرتك، أستاذة القانون." فضحت ابتسامة ليف مسحة من احتقار الذات. "كل ما أعرفه هو أنها مذنبة أو بريئة بالقدر الذي يشبه حالي. إنها بيدق يعتقد أنه ملك."

شعر دافيد أن الحقيقة باتت أشبه بشيء ملموس لكنه جاثم وراء الظِّلال، خلف حدود اللمس والنظر مباشرة. "بيدق بيد من؟"

"حتى لو كنت أعلم لما أخبرتك. حتى ولو كان الأمر يختصُّ بهلال." صارت نبرة صوته هادئة. "لقد خسرتُ حبيبة وطفلاً، والآن خسرتُ صديقاً. وإني آمل أن نكون نحن جميعاً بيادق تحركها مشيئة الله.

"إن أقدارنا أكبر من أيٍّ واحدٍ منا، حتى إنها أكبر منا جميعاً. إن الله يريد تدمير هذه الدولة الدنيوية اليهودية الفاسدة بأي وسيلة كانت، سواء على يد العدو أم على يد الصديق. بعدها تستطيع إسرائيل التوراة أن تنهض كمكان خالٍ من العرب، وطاهر من هذا الذي يدعى ديموقراطية." أبرقت عيناه من جديد، بعدما التمعتا بعودة الرؤيا. "ومقارنة بذلك، فإن هلال لا يساوي شيئاً، وأنا لا أساوي شيئاً، أما عارف فهي أقل من لا شيء. لقد أضعت وقتك بالمجيء إلى هنا."

لكن دافيد اعتقد أن وقته لم يذهب هدراً: فهذا الحوار مع ليف، بشهادة آرنهيت قد يشكل أساساً كافياً من أجل طلب المزيد من المعلومات من الإسرائيليين، وربما من أجل إجبارهم على إحضار ليف من أجل القيام بأداء الشهادة. واعتباراً من هناك، فإن الرواية الإجمالية عن وجود مؤامرة تضم فلسطينيين ويهوداً معاً، مهما تكن غامضة ومعقدة، قد تكون كافية لإثارة شكوكٍ تكون أكثر دقة، عن كون هناء مذنبة. وقف دافيد وهو يقول لـ: ليف "احرص على أن تبقى حياً. ففي الوقت الحاضر، هذا هو كلُّ ما أطلبه منك."

وقف آرنهيت أيضاً، كما وقف ليف، وهو يحملق في وجه دافيد. "فقط أخبرني،" قال له ليف. "ما الذي يدعو يهودياً إلى جرِّ المتاعب إلى حياته من أجل عربية ساقطة؟"

"هناك يهود،" أجاب دافيد، "كما أن هناك يهوداً آخرين. وليس جميع اليهود لديهم إله مخبَّلٌ يأمرنا بقتل من نريد قتله." تجعَّد الجلد المحيط بعيني ليف. وبابتسامة هازئة

أشار بفوّهة رشاشه إلى الدرج. "اخرج الآن،" قال آمراً، بينما طارت الابتسامة عن وجهه. "قبل أن يكلمني الله مرة جديدة."

ناظراً نحو آرنهيت، استدار دافيد وهو يشعر بوخز كوخز الإبر في مؤخرة رقبته. وعندما اتجه الرجلان نحو الدرجات. كان هناك طلقة بندقية ناقرة سريعة، تلاها صوتُ طشَاشٍ مقزِّزٍ. أجفل دافيد مطأطئاً رأسه بصورة غريزية ثم نظر من جانبيه إلى الوراء نحو ليف.

كانت قبة جمجمة ليف قد اختفت. وكانت الدماء، وبقايا الدماغ، وخصلات الشعر، لاصقة بالصخر. وبينما كانت عينا ليف تنقلبان رأساً على عقب، هوى الرجل إلى الأرض. أمسك آرنهيت ذراع دافيد وجذبه أرضاً.

"لا تتحرك،" قال آرنهيت في صوت خفيض.

وجد دافيد وجهه على بعد إنشات قليلة من عيني ليف النافرتين، فأدار رأسه عنهما بسرعة. ومثل قطٍّ، تسلل آرنهيت نحو فم المتراس. شعر دافيد أن ارتياعه وخوفه أشبه بنوبة غثيان ساكنة تمرُّ مرَّ الصقيع على جلده، وتقبض كجلمود على حنجرته، وقاع معدته. وكل ما استطاع أن يراه كان الحائط البعيد للفجِّ، المليء بالكهوف المتفغِّرة.

شهق دافيد، ثم زفر، بينما لا يزال وجهه منضغطاً نحو الأرض. واستمرَّ هو وآرنهيت على هذا الوضع دقائق خيِّل لهما أنها لا نهاية لها، بينما تكوَّم ليف على نفسه جثة ملقاة على الأرض بالقرب منهما.

أخيراً، استخرج آرنهيت هاتفه الخلوي من جيبه وبدأ بالترقيم.

* * *

وصل الشين بيت في طائرات عمودية - إنهم المحققون في مسرح الجريمة. كان ثمة ضباط مسلحون وعميلان قياديان، وقد اقتادوا آرنهيت ودافيد إلى عربة مقطورة فارغة.

كان العميلان هادئين، لا تبدو على وجهيهما أيَّة مشاعر، كما كانا فاهمين. لقد كان القناص محترفاً، قال لهما آرنهيت، قول الواثق المتأكد، وقد أطلق النار من مسافة بعيدة. أمَّا هدفه الأوحد فقد كان ليف بالذات؛ هذا ولم يكن لدى دافيد أو آرنهيت أية معلومات يعرفانها عن المتورطين في هذه العملية.

استجوب العميلان دافيد على انفراد. وقام بإخبارهما بما يمكنه أن يخبرهما به. إن ماركيس وليف كانا صديقين؛ وأنه كان يشك في أمر تورطهما معاً في المساهمة في قتل بن آرون. وأنه لا يعرف الرجل الذي التقاه في المعبد الآشوري. وكان وصفه للرجل الغريب غامضاً هزيلاً. ولم يذكر لهما شيئاً عن آري ماسور، ولا عن آنات بن آرون.

وعند قرب نهاية الاستجواب، ولدهشة دافيد، فإنه رأى آفي هيرتز ضابط ارتباط إسرائيل مع النائب العام الأميركي، يدخل العربة المقطورة. ضجِراً، قال له دافيد، "كنت أظن أنك موجود في أميركا."

"حيث كان يجب أن تكون أنت أيضاً،" أجابه هيرتز بهدوء مميت. "لقد قمت بإنجاز الكثير في اليومين الأخيرين. قتيلٌ في باركوشبا، وقتيل آخر حسبما أشك، في تل أبيب.

"لقد لعبتَ معنا لعبة خطرة. والآن كل ما يعرفه هذان الرجلان قد مات بموتهما. هل كنت تعتقد أننا كنا على تلك الدرجة من الهدوء والحذر لمجرَّد إحباط دفاعك فقط؟ أم لعلك قد تصورتَ أننا كان لنا هدف أكبر في أذهاننا؟"

"لقد أبقيتني على هامش الأمور،" ردَّ عليه دافيد. "إن لديَّ موكلة، وعليَّ إنقاذها من الإعدام. لقد كان بوسعك التوفيق بين مصلحتينا."

"اذهب الآن إلى بلادك،" قال له هيرتز بهدوء. "لقد أنهيت عملك الآن في إسرائيل."

الفصل 15

في صباح اليوم التالي، وبعد نهوضه من هدأة النوم العميق. ذهب دافيد إلى الحائط الغربي.

كان هذا فِعل إرادة خالصة. فهو لم يستطع مداراة صورة الرجل الميت ذي الجمجمة المتناثرة، ولا هو استطاع تجاهل خوفه الغريزي من أن يكون هو ذاته الرجل القتيل المقبل. لكنه استنتج أنه ليس من اللازم له أن يجبن في غرفته، مسكوناً بالمخاوف، وذاهلاً مستوحداً. قرب الجدار، رأى دافيد ثلّةً من المتظاهرين الغاضبين. إنهم أتباع ليف، شرح له رجل عنهم. وهم يحتجُّون على عجز الحكومة عن حماية اليهود في أرض التوراة. ومع ذلك، فإن الجدار الغربي بدا مكاناً صالحاً للتأمُّل مثل أيِّ مكان آخر.

لابساً قلنسوة اليرملك المصنوعة من الورق، خفض دافيد رأسه. قبل ثلاثة أشهر، قبل أن تأتيه مكالمة هناء. كان يعيش حياة من هندسته الخاصة. والوفيات التي علم بها كانت وفيات طبيعية أو ناتجة عن حوادث عارضة. كان الحدث الوحيد الذي لم يحالفه فيه الحظ: علاقته بهناء. وكان ذلك هو العائق الوحيد الذي وقف بينه وبين النجاح. أمَّا طموحات الآخرين المتضاربة مع طموحه، فكانت احتمالات يمكن له أن يخطط لها، وأن يتغلب عليها. لكنه ما لبث أن رمى كل النجاحات الشخصية المرتقبة، بجانب كارول وهارولد. وكل ذلك، بسبب خليط من المبادىء، والشغف، لم يستطع منهما حتى اللحظة، فكاكاً. فهو حتى بعد ذلك، قد كان ساذجاً حينما بالغ في الثقة بقدرته، وبطاقة أعصابه. فهو قد أساء فهم الخطر والصعوبة، الكامنين في الاستراتيجية التي صمَّمها. أمَّا الآن، فهناك شخصان قد ماتا، أحدهما مات أمام عينيه. وكان من الصعب عليه ألَّا يرى نفسه بصورة الرجل الذي أحبط بطريقة مميتة ـ جلبت الأذى أيضاً على هناء ـ اكتشاف: كيف تمَّت، ومن الذي دبر، عملية اغتيال بن آرون.

وكل ذلك من أجل ماذا؟ فهو حتى هذه اللحظة، ليس متأكداً من براءتها. فغموض وتعقيدات علاقتها مع صائب؛ إضافة إلى الأدلة المقدمة بحقها، تبقى صعبة الحل. واعتقادات دافيد الوحيدة كانت متناقضة حتى الآن، وبعيدة عن البرهان، من أمثال: أن كتائب

الأقصى لا تستطيع لوحدها أن تهندس اغتيال بن آرون في أميركا؛ وأن إياد حسن يمكن أن يكون مرتبطاً بحماس؛ وأن باراك ليف وهلال ماركيس قد سهّلا عملية اغتيال بن آرون، رئيس وزرائهما الخاص؛ وأن الأشخاص ذوي العقول المدبِّرة لمؤامرة غير معروفة الأبعاد، قد قاموا بقتلهما معاً بعد ذلك؛ وأن ثمة جهة كانت تتبع دوماً خطاه.

وبسبب هذا، لم يعد أمامه من مزيد يمكن عمله هنا. وهو لم يعد يسمع من أولئك الذين حاولوا مساعدته لأسباب تختصُّ بهم. فقتلة ليف وماركيس كانوا دون شك قد تسببوا في دفعِ هؤلاء إلى المزيد من التحفظ والاختباء، غير راغبين في التعاطي مع رجل صار أشبه بطائر القطرس. ملتفتاً ناحية الرجال المصلّين حوله، تساءل دافيد من تُراه الذي يكون من بينهم مكلفاً بمراقبته.

لقد فرغت يداه من الخيارات الآن. ولكن مهما يكن قد بلغ مقتُه لنفسه، بسبب إفراطه في الثقة بها: فإنه رغم ذلك، ما عاد يملك سبيلاً إلى التخلي عن القضية، ولا نسيان ما بات يعرفه الآن عنها. وكل ذلك يقوم على أن مفتاح تجريم هناء، أو تبرئتها، إنما يكمن في مؤامرة ليست أبعادها بعدُ بمعروفة. أما التذرع 'بالشك المعقول' فلن يكون كافياً لإنقاذها. لذلك فهو سيذهب، مثلما كان مخطَّطاً، إلى الضفة الغربية.

مستديراً، تتبع دافيد الشوارع المرصوفة بالحجارة، إلى حافة المدينة القديمة. لم يبذل أيَّ جهد للتخفي، حتى إنه لم يأبه لأمر الالتفات إلى ورائه.

* * *

في ذلك المساء، بينما كان يحزم أمتعته، راقب دافيد شاشة السي. أن.أن، فشاهد رجال حركة مسعدة يشيعون ليف على محفَّة، بينما بدا رأسه المحطَّم معروضاً للأنظار. كانت زوجته تبكيه علناً، أمَّا ولده الذي لم يكد يتجاوز الخامسة من عمره فقد مشى برصانة إلى جانبها. لقد قاموا بدفن ليف في المكان الذي سقط فيه.

بعد انتهاء عرض هذا الشريط، أتبعته السي. أن. أن. بتقرير إخباري آخر. فبعد ساعات فقط من الانتهاء من تشييع ليف، وفي قرية تقع تحت باركوشبا، قام شخص ما، بإطلاق النار على فتاة عربية مراهقة فأرداها قتيلة. وكانت إصابتها القاتلة شبيهة إلى حدٍّ ما، بإصابة باراك ليف.

* * *

في صبيحة اليوم التالي، غادر دافيد الفندق. سألته المرأة الشابة العاملة عن مكتب الخروج، بكل أدب، "إلى أين تنوي السفر بعد الآن؟"

"رام الله."

رمشت عيناها كالمضطربة. "كم تبعد من هنا؟" سألته.

"عشرة أميال."

يبدو أن جوابه قد أدهشها. وكما لو أنها تروي إشاعة، قالت له: "أسمعُ أن المكان غير آمن هناك."

دُهش دافيد لهذه السخرية الثنائية الوجه. فهو لم يعجل فقط بحادثتي قتل في إسرائيل، لكن رام الله التي كان يمكن مشاهدتها من عدة مواقع مطلة في القدس. ومع هذا، فإن هذه المرأة الشابة عرفت أنه قد كان بإمكانه السفر إلى زيمبابوي. فالانطباع الوحيد الذي تعرفه عن ذلك المكان وأهله: يجب الابتعاد عنهما.

"سوف أكون حذراً،" وعدها دافيد.

الفصل

16

التقى دافيد الشخص الباحث عنه أمام الفندق. كان نبيل عشوي عضواً سابقاً في قوات الأمن الفلسطينية؛ مناقب عشوي تضمنت وفقاً لـ: بروس مارتل: التبصر، وحسن التقدير، والانتباه إلى مكامن الأذى، وفي أحيان، وجود علاقات غامضة له يستطيع استعمالها لمساعدة دافيد على سبر حياة كل من حسن وجعفر، وحتى صائب خالد. لقد وجده دافيد هادئاً متحفظاً. فهو شخص ضئيل الجسد، خفيف الشعر، ناعم الصوت، مميِّز، مدرِكٌ، له عينان عسليتان حزينتان. أما ميزته الأخرى التي يندر وجودها بين الفلسطينيين، فهو أنه كان يملك إذناً بالدخول إلى مدينة القدس.

مستقراً في شاحنة عشوي المقفلة، قصَّ عليه دافيد ما قالته له موظفة الفندق الشابة. أطلق عشوي ضحكة ممتعضة. "الفضل يعود لنقاط التفتيش،" أجاب، "رام الله قد تكون تشبه زيمبابوي في النهاية. وسوف ترى بنفسك."

بعد عشرين دقيقة، كان بوسع دافيد أن يشعر بوطأة نقاط التفتيش عند حاجز قلندية.

انتظرا في صفٍ واحدٍ من السيارات، قبالة جدارٍ أمنيٍّ يعلو ثلاثين قدماً، من جانبه الأول. وعلى جانبه الثاني صف من الفلسطينيين يتقدمون بجهد، خلف شريطٍ مشبَّكٍ في اتجاه نقطة تفتيش أبعدُ من أن يستطيع نظر دافيد أن يراها. وقد أوجد التأخير فرصة لعشوي من أجل أن يشرح الفروقات في السفر إلى الضفة الغربية، ما بين الفلسطينيين والإسرائيليين. كان هناك طريق يشكل تحويلة سير إسرائيلية ممنوعة على العرب. أما الطرق الأخرى فقد كانت محمية بأكثر من ستّ مئة حاجز جعلتها معزولة عن المدن العربية، تاركة الطرق التي يستعملها الإسرائيليون لا تعيقها الحواجز، وهي خالية إلى حدٍّ كبير من الفلسطينيين.

لقد كان هذا هو السبب، أيقن دافيد الآن، الذي جعل العرب مختفين حتى عندما كان آرنهيت يقود سيارتهما بالقرب من قراهم.

نظر دافيد في ساعة يده. "كم يلزمنا من الوقت لبلوغ رام الله؟"

"ينبغي أن يأخذ منا ذلك نصف ساعة على أبعد تقدير. أمًّا اليوم؟ فستحتاج من ساعة إلى ساعتين، لا أحد يعلم في الحقيقة." وبينما مرفقُه مستندٌ إلى الشباك، حدَّق عشوي في الطريق بتكاسلٍ وفتور. "إن ما يفوت فهمُه على الكثيرين، هو أن نقاط التفتيش هذه، لا تفصل بين إسرائيل وبين الضفة الغربية، ولكن بين جزء من الضفة الغربية وبين جزئها الآخر. ويقول الإسرائيليون إن سبب هذه الحواجز هو منع مرور الإرهابيين والأسلحة. لكن هذه النقاط لا تفرِّق بين الناس. ولأننا جميعاً فلسطينيون، فإننا جميعنا مشتبه بهم. ولذلك علينا الانتظار."

"كم هو مبلغ انتشار نقاط التفتيش؟"

"إنها كثيرة، وغير متوقعة. هناك نقاط تفتيش دائمة مثل هذه النقطة. كما أن هناك حواجز مؤقتة وهي ما يسمونه بالحواجز الطيارة، والأخيرة تُنصب لتخلق عنصر المفاجأة للإرهابيين. وبالنسبة إلى معظمنا، فإننا قد نجد أنه من المستحيل علينا الوصول إلى منازلنا لتناول وجبة العشاء، أو لعيادة أبٍ مريض، أو أمٍ مريضة." وبينما كان عشوي يتكلم، كان طابور السيارات الذي لم يتحرك بعد، لعدة دقائق، قد بدأ بالزحف البطيء إلى الأمام. "يقسِّمنا الإسرائيليون إلى ثلاثة أنواعٍ من المناطق. فالمدن هي المنطقة "أ"، وهي من الناحية النظرية تحت إشراف السلطة الفلسطينية. مع أن الجيش الإسرائيلي يستطيع الدخول إليها في أي وقت، لمطاردة من يريد الإسرائيليون مطاردته، مثلما فعلوا في جنين. أمَّا المنطقة "ب"، فهي عبارة عن المناطق التي تحيط بالمدن مباشرة، وهي تُحكم من السلطة الفلسطينية ومن الجيش الإسرائيلي معاً. أما المنطقة "ج" فهي الأراضي الريفية المحيطة بالمنطقتين الأوليين وهي تحكم كلياً بواسطة الجيش الإسرائيلي. وهكذا تكون مدننا مقاطعات مبتورة محاطة بسلطة أجنبية. وبالنسبة لشخص مثل هناء عارف، فإن عليها من أجل الوصول من رام الله إلى جامعة بيرزيت، أن تجتاز من نقاط التفتيش ما طاب للجيش الإسرائيلي أن ينصب من هذه النقاط." هزَّ عشوي كتفيه هزة المستسلم للقدر. "وفي بعض الأيام تتمكن هناء عارف من إعطاء جميع محاضراتها، أمَّا في أيام أخرى فهي قد لا تستطيع ذلك. وهي لن تستطيع أن تعلم سلفاً ما هي هذه الأيام. والأمر نفسه ينطبق على الطلبة أمثال القتلة في قضيتك: جعفر وحسن."

"وماذا تريدون من الإسرائيليين أن يفعلوا؟" سأل دافيد. "مِن الذي عرفته، فإن الأمر ليحيرني مثلما هو مثل الدجاجة والبيضة: هل هناك تفجيرات انتحارية بسبب استمرار الاحتلال، أم أن الاحتلال يستمر بسبب وجود التفجيرات الانتحارية؟"

"سيبقى هناك تفجيرات انتحارية،" أجاب عشوي، "ما دام أن هناك حقداً ويأساً. وسيبقى هناك حقد ويأسٌ ما دام الاحتلال قائماً."

"حتى انتهاء الاحتلال فقط؟" سأله دافيد. "فبالنسبة لشخص ما، مثل صائب خالد، سيكون هناك حقد ويأس بين الفلسطينيين إلى أن يعود الفلسطينيون إلى بيوتهم وممتلكاتهم في الأرض التي تسمى الآن إسرائيل، وحتى تصبح إسرائيل غير موجودة."

منقبض الوجه. هزَّ عشوي كتفيه من جديد. وخلف الشريط رأى دافيد امرأة فلسطينية متلفعة بوشاحها، تمشي مُطرقة الرأس وكأنها تسير على روتين طاحونة الزمن إلى الأبدية، فخطواتها الوئيدة الثابتة المتثاقلة تنم عن تعبٍ يقيم في العظام والدماغ معاً. فالأيام بالنسبة إليها باتت سواء بسواء إلى ما لا نهاية له. وبعد طول صمت قال عشوي: "أردتني أن أكتشف ما إذا كان جعفر ينتمي إلى كتائب الأقصى أو إلى حماس. لم أستطع أن أعرف الحقيقة حول ذلك بعد. لكنني تعلمت شيئاً عنه، وثيق الصلة بتأملاتك حول مقولة البيضة والدجاجة.

"فالأخت الكبرى لإبراهيم جعفر تعيش مع زوجها في قرية خارج تخوم جرش، وقد باتت قريتهما مغلقة عن العالم بحاجز. فمنذ سنة، وبينما هي حامل بطفلها البكر، بدأت أخت جعفر تنزف. اتصل زوجها بخدمات الطوارئ فقيل له أن سيارة إسعاف ستكون جاهزة بانتظارهم عند الطرف الآخر من الحاجز." بقيت نبرة صوت عشوي واقعية وكأنه يدلي بوقائع يومية تعاش كل يوم. "كان جعفر يقوم بزيارة لأخته. وهكذا انطلق الثلاثة في سيارة واحدة. لكن حاجز التفتيش كان قد أغلق السير جملة. ومع أنه كان من الجليِّ أن المرأة تقاسي آلاماً مبرِّحة منذ حوالي ساعة، فإن زوجها وأخاها استرحما جنود الحاجز الإسرائيليين علَّهم يستعجلون مرورها. أخيراً قال زوجها للجنود أنهم قد يتحملون المسؤولية عن وفاة امرأة في مخاضها، كما قد يتحملون المسؤولية عن طفلها. وعند ذلك فقط، سمح الجنود للزوج والأخ بالترجُّل من السيارة واقتياد السيدة مشياً إلى ما بعد الحاجز.

"وقبيل وصولهم إلى سيارة الإسعاف،" قال متابعاً "انهارت المرأة. وعندما استعادت وعيها في المستشفى، كان المولود قد مات، وكانت هي قد احتاجت إلى عملية استئصال للرحم. ومنذ ذلك الوقت لم تنبس المرأة بكلمة واحدة." استدار نحو دافيد. "إن حكايتها تشرح عن جعفر أكثر من أيِّ انتماء يمكن لك أن تنسبه إليه. إن هؤلاء الجنود وأمثالهم، وليس كتائب الأقصى، ولا منظمة حماس، هم الذين صنعوا إبراهيم جعفر الذي ظهر في حادثة اغتيال بن آرون. فالسبب والنتيجة في الاحتلال أبعد من أن تكون معادلة رياضية."

* * *

وبعد مرور ساعة، وصلا إلى عتبة الحاجز. وبوجه صوَّاني من اللامبالاة، تناولت جندية شابة إسرائيلية، مسلحة بسلاح هجومي، أوراق عشوي، وجواز سفر دافيد، ومشت الهوينى

باسترخاء متباهٍ إلى محرَسٍ محاطٍ بالزجاج المضادّ للرصاص. بينما قام جنديان آخران، في عمر زميلتهما المذكورة، بتفتيش داخل السيارة وصندوقها بصورة متطرفة، وهما ينظران في عيني عشوي، بينما هما يفعلان ذلك. لم ينبس أحدٌ بكلمة. بالنسبة إلى دافيد، كانت اللحظة تجيش بالتوتر وقلة الثقة.

بعد مرور عشر دقائق، أعادت المرأة جواز السفر إلى دافيد وبدأت تنطق بعبارات عبرية لاذعة في وجه عشوي قبل أن تعكفَ إبهامَها إلى الخلف، آمرة إياه بالنزول من شاحنته. وعندما استدار عشوي باتجاه دافيد، كان فكّاه يتحركان، أمّا صوته فقد كان متوتراً. "إنها تقول إنني لا أستطيع أن أقود بك السيارة، لأن أوراقي ليست قانونية."

شعر دافيد بالذعر وقلة الحيلة. "وما هي المشكلة؟"

"ربما تكون المشكلة في أن أميركياً يأتي لزيارة الضفة الغربية. وربما تكون الفتاة تريد مجرد استلفات أنظار أصدقائها. فأوراقي كانت لا تشكو شاكية بالأمس فقط، وهي قد تكون جيدة ولا بأس بها في الغد. إن الأمر يقتصر على أن هذه الجندية الكلبة الصغيرة تستطيع أن تفعل بي ما تريد." وعندما استمرت الجندية بالنباح عليه، أضاف عشوي بصوت أكثر انخفاضاً، "عندما لا تكون منتبهة إليك، قم بقيادة الشاحنة، واعبر بها، ثم توقفْ قرب سوق الخضار. وسأحاول اللحاق بك."

قادت المرأة عشوي بعيداً عن سيارته. ملتفتاً خلف كتفه تقدَّم دافيد بالشاحنة إلى ما بعد غرفة الحارس، مبقياً نظره في اتجاه الأمام، لاحظ أن أحداً لم يحاول إيقافه.

وعند الطرف الآخر من نقطة التفتيش، وقع نظره على سوق للخضار حيث تجمَّع كثير من العرب، ـ بعض النساء محجبات، وبعض الرجال يعتمرون الكوفية ـ بقصد التسوّق.

أمّا وقد ساقته الريح إلى العالم العربي، فقد توقف دافيد إلى جانب الطريق.

انتظر مدة تزيد عن عشرين دقيقة وهو في شكٍّ وترقُّب. ثم صعد عشوي إلى الشاحنة خلف المقود، بعدما كان قد أضاع نفسه وسط جمع من المشاة الذين يمرون وراء الشريط. "أهلاً وسهلاً بك في الأرض المحتلة،" قال بتهذيب. "لقد قمتَ الآن بانتهاك القانون الإسرائيلي."

نظر دافيد في ساعته مرة جديدة، لقد مضى عليه الآن، أقلّ من ساعتين في الضفة الغربية، ومع ذلك فإنه قد بات غاضباً ومتوتراً. أمّا عشوي فقد لاذ بالصمت.

* * *

كانت رام الله مدينة مليئة بالتناقضات: فالنسوة الشابات في الأزياء الحديثة، يختلطن بأخواتهن العربيات المحجَّبات؛ والشوارع القديمة المزدحمة تعاد إليها حياة جديدة بأكشاك

الفاكهة المعروضة، ومحالّ السندويتش التي تحمل فوقها شارات ملوَّنة ذات كتابة عربية؛ وبين عدد من الجوامع كان ثمة كنيسة أيضاً. فبين خمسين ألف نسمة من سكان أريحا، شرَح عشوي، فإن ربعهم من المسيحيين. ولكن بصرف النظر عن دين أيٍّ من سكانها، فإن طابع المدينة كان طابعاً عربياً أصيلاً. فأيُّ متعصب يهودي يمكنه أن يتخيَّل وجود 'إسرائيل كبرى' يكون باستطاعتها بصورة أو بأخرى، استيعاب، أو طرد، هؤلاء الناس: إنما هو يهرب تماماً من الحقيقة والواقع، كما تراءى لدافيد.

كانت رام الله بلدة هناء وصائب. كما أنها تضم الموقع الذي دفن فيه عرفات. وقد كانت قبل ذلك مقر قيادته الذي تحوَّل إلى أنقاض بفعل الغارات الجوية التي أرعبت منيرة. إنها المكان، شرح عشوي، الذي سيلتقيان فيه صديقاً. رجلاً قد تكون المعلومات التي يملكها، ذات فائدة بالنسبة إلى دافيد. ثم سيتقدمون إلى بيرزيت، حيث يعقد دافيد هناك، لقاء مع رئيسة الجامعة، صديقة هناء.

* * *

مغلَّفاً بغلاف زجاجي، كان قبر عرفات المبني برخام أسود: موضوعاً في ساحة مكشوفة، تحيط به الأبنية نصف المهدمة، كان القبر مغطًّى بالأزهار، وبالصور الفوتوغرافية الباسمة لعرفات. وعند أسفل القبر كان ثمة لوحة تذكارية مهداة من أطفال مخيمي صبرا وشاتيلا. وقف إلى كلٍّ من جانبي القبر جنديٌّ فلسطيني وقفة تأهُّب إكراماً لأب الوطن الذي لم يتمكن من استعادته.

وقف دافيد وعشوي أمام الضريح. "إنه إنسان رمز،" قال عشوي. "صحيح أنه لم يبنِ مجتمعاً مدنياً، كما أنه قلَّل من تقدير قوة اليهود، كما أن البعض يقولون أنه قد سمح للسلطة الفلسطينية بالغرق في مستنقع الفساد، غير مبالٍ بحاجات الناس، وأنه هو الذي تسبب بوجود منظمة حماس. ولكن أين كان يمكن أن يكون حالنا بدونه؟"

"الآن؟ يقول البعض أنه يجب أن يكون لكم وطن بدلاً من أن يكون لديكم أرض محتلة."

"إذن إنهم يبالغون في التقوُّل،" أجاب عشوي باقتضاب. "فاليهود قد أخذوا فعلاً ثلاثة أرباع أراضي بلادنا، ومع ذلك فإنهم يرفضون حتى الكلام في مسألة حقنا بالعودة. هل كان يُفترض في عرفات أن يقبل بكلِّ ذلك، وأن يقبل بوجود المستوطنات أيضاً؟ هل كانوا يتوقعون منه أن يشتري السلام على حساب تشردنا وكرامتنا؟"

لم يفه دافيد بجواب. "هل تتذكر عندما أُحضِر جثمان عرفات إلى هنا؟" سأل عشوي بصوت أكثر انخفاضاً. "لقد كان مقرَّراً أن تقام للرجل جنازة صحيحة، لكن الجماهير سرعان ما استولت على جنازته وقامت بدفنه دفناً تلقائياً.

"أما البقية فقليلٌ من يعرفها. عند الساعة الثالثة صباحاً قام بعض جنود السلطة الفلسطينية بنبش قبره واستخراج جثمانه وتجهيزه لدفنٍ إسلامي صحيح." صار صوت عشوي مليئاً بالخشوع والوقار. "أما الشيء الملفت، كما يقول الجنود، فهو أن الجثمان قد بدا على حاله، ولم يتغير. كما لو أنه مازال على قيد الحياة. فالموت لم يمسَّ وجهه بشيء."

بدا عشوي وكأنه نصف مصدِّق لهذه الرواية. وبهدوء تعجب دافيد ما إذا كان خلفاء عرفات من أمثال مروان فاراس قد حُكِم عليهم بموت بن آرون، وبما تبعه من أعمال عنف؛ ألَّا يجدوا أبداً طريقهم نحو السلام مع إسرائيل. لقد بات يشكُّ في أن القائد الفلسطيني القادم، سوف يستطيع حتى في الخيال، أن يتحدى الحاجة إلى 'التحنيط' إذا ما هو جاهر بالتخلي عن حق العودة.

وهكذا، وبطريقتها الخاصة، كانت المرأة في فندق الملك داود على حق. فإن دافيد قد دخل عالماً مختلفاً.. إنه وطن هناء عارف، وصائب خالد.

الفصل

17

تبين أن صديق عشوي، أمجد مجدي، ناشط سلام كثير العلاقات، ليِّنُ الحديث، في العقد الثالث من عمره، ويدرِّس مقرَّراً في جامعة بيرزيت عن حقوق الإنسان. وكان من بين تلامذته السابقين، حسبما رشح، كل من إياد حسن، وإبراهيم جعفر.

"رجلان مختلفان كل الاختلاف،" قال مجدي بعد قليل من انضمامه إليهما. "عندما قابلته للمرة الأولى، كان إبراهيم لا يزال يفتش عن هوية. وكان لا يزال من الممكن تعليمه. لقد اعتقدتُ يومها أنه من الممكن تحويله عن العنف. أمَّا إياد حسن فلم يكن كذلك أبداً. لقد كان شخصاً قد بات مغلقاً تماماً، صاروخاً ينتظر أوانَ توجيهه إلى هدفٍ ما."

وبينما كان عشوي يقود السيارة بهما من ضريح عرفات، استدار دافيد ليواجه مجدي قائلاً، "توجيهه بواسطة من؟"

مع أن سلوكه كان واثقاً، إلَّا أن مجدي كان يتحدث بهدوء حصيف يوحي بطبيعة متحفظة لطَّفتها التجربة. "ليس جميع كتائب الأقصى،" أجاب. "وعلى الأقل لو كنت قاضياً في هذا الأمر، فلربما رأيت أن قتلَ بن آرون قد يستلزم من إياد أن يتعاون مع كتائب الأقصى. لكن عائلة إياد، تميل إلى حماس حسبما أعتقد. كما أن حماس تتناسب مع طباعه التي كنتُ قد قدَّرتها كما يلي: رجلٌ متزمِّت، ومتعصِّب يرى الإسلام ليس سوى وسيلة للحقد على اليهود، وعلى إسرائيل. وكتائب الأقصى قد تكون صالحة لخدمة أغراضه، لكنها لا تعبِّر عن حاجاته. أمَّا بالنسبة لي فلم يكن لي عليه من سبيل على الإطلاق." وبهزة كتفٍ تدلُّ على الإذعان للأمر، قال، "إن الأنفس التي هي في مثل نفسية حسن إنما هي أرض جافية لا يمكنها أن تتقبَّل فكرة اللاعنف."

كما هو حال الضفة الغربية بأجمعها، خشي دافيد أن يعلن. مرجئاً أسئلته عن حسن وجعفر، سأل، "كيف حصل لك وأن صرت مؤمناً باللاعنف؟"

"بسبب اعتناقي التراث العظيم لغاندي ومانديللا،" أجاب مجدي باقتضاب، "فقد جعلت نفسي معتقلاً.

"إن الأمر أسهل مما يعتقده الناس، وأقل متعة مما يسمح سكان إسرائيل لأنفسهم بالاعتقاد. إن العدالة في الأراضي التي تديرها إسرائيل هي أشبه بمسرحية جيلبرت وسوليفانٍ الإيمائية عن القانون، إنها مجرَّد صدَفَةٍ فارغة من المحتوى. هل وجدتَ مرةً وقتاً كافياً لتعلُّم القواعد الإسرائيلية للاعتقال؟"

"ليس بعد."

"هذا سيِّء جداً،" استجاب مجدي بابتسامة ساخرة. "مما قرأته عن الحرب الخاصة التي تشنُّها أميركا ضد الإرهاب، فإنك قد تجد في يوم من الأيام أن هذا شيء من المفيد لك أن تعرفه.

"فهنا عندنا نوعان من الاعتقال، وكلاهما يسمح للجيش الإسرائيلي بأن يقوم باعتقالك لمدة قد تصل إلى ستة أشهر، دون سبب محدَّد. فالاعتقال الاعتياديُّ يبنى على تهمة يطلقها عليك شخص آخر، سواء أكانت صحيحة أم كاذبة. فلمدة الثمانية عشر يوماً الأولى، يجوز الاستمرار في احتجازك دون محام، إذا ما أصرَّ الادعاء العام أنك حالة استثنائية - وكثيراً ما تكون القضايا استثنائيةً تماماً - . فإذا فشلت في أن تعترف: حق للمدعي العام أن يطلب تمديد التوقيف لفترة مماثلة، ثم لأخرى، وذلك استناداً لدليل سريٍّ ليس للسجين أن يراه." هنا صارت ابتسامة مجدي متألمة. "والهدف من ذلك، هو بالطبع، استخراج اعتراف.

"أمَّا المشاكل فتنشأ عندما لا يكون لدى المرء شيء يعترف به."

وعلى الفور، فكَّر دافيد في هناء. 'ليس لدي شيءٌ أُقرُّ به'، كانت قد قالت له. 'هذه هي مشكلة *الإنسان البريء*...'

"وبالمقارنة،" كانِ مجدي يقول. "إن الاعتقال 'الإداريَّ' محفوظ للأشخاص المشتَبَه بهم بأمور هي حتى أقلُّ تحديداً، وهي أمور لا حقَّ للمشتبَه به بالاطِّلاع عليها. وهذا هو ما كان حالي أنا بالذات."

كانت حركة المرور بطيئة. وأمامهم، في البعيد، لاحظ دافيد وجود جنود ينصبون حاجزاً في منتصف الطريق. مستديراً نحو مجدي وجد أن حدقتا الرجل تتضيَّقان، أثارت فضوله. التماعة غريزية من القلق "أحبُّ أن أسمع حكايتك هذه،" قال دافيد.

* * *

كان مجدي قد عاد من كلية ستانفورد للحقوق منذ أقل من ثلاثين يوماً، عندما أوقفه جندي على حاجزٍ طيارٍ بين رام الله وبيرزيت.

"حصل ذلك في العام 1996، خلال الفترة التي كانت فيها الهجمات الانتحارية بالقنابل

قد مزّقت أمن إسرائيل وحوّلت نتائج الانتخابات فيها". قال مجدي "ثمة 'خطأ' في تحديد هويتك، قال لي الجندي، تابع "وعليك أن ترافقني." "وبهذا،" أنهى مجدي كلامه بصوت خفيض،" رافقته إلى مجمّع يديره الجيش الإسرائيلي. ففقدتُ صلتي بالعالم الذي عرفتُه."

* * *

كانت الغرفة التي سجنوه فيها مظلمة حسب اعتقاده. لكنه لم يستطع التأكد من ذلك. فالكيس الذي كان على رأسه، كان يمنعه من الرؤية. بينما الحبل الذي أوثقوا به معصميه إلى خلف ظهره، كان يمنعه من إزاحة الكيس. أما كاحلَي رجليه، فقد كانتا موثقتان بالسلاسل إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه.

مرتين في اليوم، كانوا يحضرون له الطعام، ويسمحون له بإفراغ أمعائه. لكنه كان يتعرف على سجانيه في الأكثر، بواسطة أصواتهم، خصوصاً أولئك الذين كانوا ينتهرونه عندما يلمُّ به النعاس وهو على كرسيِّه. لم يكن بوسعه أن يتصل بأحد ـ حتى بأهله أو بمحامٍ. صار ألم العضلات المنقبضة مبرِّحاً. تقيَّأ معظم الطعام الذي تناوله حتى صارت معدته خاوية. وصارت زنزانته نتنة برائحة البول والقيء.

وبعد زمن ـ لا يستطيع تحديد مدته ـ بدأ إدراكه للواقع يضيع منه. كان بودِّه لو يستطيع أن يعترف بأيِّ شيء، بأن يسمي أيَّ شخص يشتبه أنه قد ارتكب جريمة. لكنه كان قد قضى زمناً طويلاً في أميركا. وكانت المعلومات التي عنده أقلُّ من أن تساعده على اختلاق اعتراف.

والإلماحة الوحيدة إلى مشكلته، كانت اسماً ما انفكَّ يتكرر على لسان المحققين هو: "رابطة المساعدة الفلسطينية الأميركية". لكنهم عندما أزالوا عن وجهه الجراب، وعرضوا عليه استمارة طلب المنحة التي كان قد كتبها، انفلتت ذاكرته من عقالها. "PAAL" كانت جماعة من العرب الأميركيين التي تقدِّم الدعم الماليَّ للفلسطينيين الذين يدرسون في الولايات المتحدة. "إنهم يموِّلون الإرهاب،" كان المحقِّق مصرّاً على القول.

"لست أعرف عنهم شيئاً،" قال مجدي بشكل بائس. "لقد رفضوا الموافقة على طلبي."

أعادوا وضعَ رأسه في الجراب من جديد، فعاد الظلام مستمراً.

وجد مجدي نفسه يتضاءل جسداً وروحاً. وكلما جاؤوا لاستجوابه كان يبكي أكثر مما كان يتكلم.

وفي أحد الأيام، ومثل كلِّ يوم، سمع باب زنزانته ينفتح، وكعادته دائماً، فإنه قد أجفل. أمَّا عضلاته الضامرة فقد تقلصت من شدة الخوف.

وبلطفٍ، أزال أحدهم الكيس عن رأسه. وركع رجل إسرائيلي لم يرَه أبداً من قبل، أمام كرسيِّه، فأزال الأصفاد من كاحليه. ثم حرَّر يديه. كان رجلاً ضئيلاً له وجه عالِم، وقد بدا تعيساً مثل مجدي. "نحن آسفون،" قال بكل بساطة، "إن الرجل الذي نبحث عنه هو رجل غيرك." واضعاً يده على يد مجدي التي أحرق الحبل معصمها، أعطى مجدي ابتسامة تشجيع. "سوف نقوم بتنظيفك، ثم تصبح حراً في المغادرة."

"كم من الوقت قد مرَّ عليَّ هنا؟" سأله مجدي.

هزَّ الرجل رأسه هزة المؤاسي. "اثنان وأربعون يوماً."

عندما خرج مجدي، كان قد خسر ثلاثين رطلاً من وزنه. أما ما فعله الجيش الإسرائيلي معه، فقد كان يمكن المجادلة عنه على أساس أنه عمل قانوني. وحتى ظروف اعتقاله، قد يستطيع المرء أن يتذرع بأنها لم تكن تعذيباً في الحقيقة، بل هي مجرد "قوة فيزيولوجية معتدلة"، وهي مسموح بها من أجل استخلاص الاعترافات. "ربما،" قال لدافيد الآن، "أن الآخرين المحتجزين في المجمع نفسه قد أعطوا مستجوبيهم معلوماتٍ سمحَت لهم بإحباط عملٍ عنيف. ربما كنتُ بالنسبة إلى الإسرائيليين مجرَّد غلطة مؤسفة، مجرَّد ناتجٍ جانبي مؤسفٍ نتج عن قيامهم بواجبهم في سبيل إنقاذ الأرواح. لكنهم مع ذلك، قد غيَّروا حياتي إلى الأبد."

حدَّق مجدي في نقطة التفتيش عَبْر المسافة، كان وجهُه مسكوناً بأشباح الخوف. "لازمتُ شقتي عدة أيام، وعدتُ أسترجع ذاك الذي حصل معي. مرة تلو مرة فكَّرت في الإسرائيليين الذين يبدو أنهم قد شعروا بالدنس والقذارة مثلما شعرتُ أنا. لقد كان الإسرائيليون مستعدين للاستجابة للعنف، وقد أيقنتُ أنهم عرفوا كيف يقاتلونه، وهذا برَّر في أنظارهم كلَّ تجاوزاتهم، لكنه ما لبث أن فرَّخ المزيد من الكراهية والعنف. لكن لعلَّ حركة سلام، ذات قاعدة عريضة، مزروعة في مقاومة تنبذ العنف، تضم في صفوفها النساء، قد ترغمهم على مجابهة أنفسهم. فضمير اليهود الخاص، هو عدوُّ اليهود، وعلينا مجابهته."

كان دافيد متأثراً، وعميق الشك، في وقتٍ معاً. "وما هو الوقت الذي سوف يحتاجه ذلك؟"

"أخشى أنه سوف يحتاج إلى بعض الوقت. فجماعتي الخاصة 'فلسطينيون من أجل السلام،' ما زالت في مهدها. وما زال يُنظر إلى اللاعنف على أساس أنه ضعفٌ، لا مقاوَمةٌ. لكن مزيداً من الفلسطينيين قد بدأوا يفهمون أن العنف لم يجلب لنا العودة، ولا ضمِن لنا حتى إقامة دولتنا الخاصة." استخرج مجدي سيجارة من جيبه بحركات متعمَّدة لشخص يكبت رغبة عميقة في التدخين. "السؤال هو مَنْ، في كل جهةٍ، سيكون رابحاً. فالإسرائيليون يشعرون بالخوف؛ والفلسطينيون يشعرون بالإذلال. وسيكولوجية

المتطرفين، في كلا الطرفين، متشابهة إلى حدٍ كبير. فإذا استمرَّ حادث اغتيال بن آرون يسير في هذه الحلقة الجهنمية المفرغة، فإنهما سيكونان الفريقين الرابحين." ناظراً نظرة صارمة في وجه دافيد، قال مجدي، "لكن من أجل هذا أنت هنا الآن. لكي تتعلم من هي الجهات التي تأمل الكسب من هذا، ومن أجل الصلاة ألَّا تشتمل إحدى تلك الجهات على موكلتك."

"باختصار شديد، نعم."

فتح مجدي باب سيارته. "لمدَّة من الزمن، لن يتقدم السير بنا. لذا، اخرجا معي من السيارة ريثما أدخِّن سيجارتي. فمنذ بدأتُ أوقاتي مع الإسرائيليين، وجدتُ أن السيجارة تساعدني على التفكير."

* * *

مستنداً إلى السيارة، أخذ مجدي نفَساً طويلاً من سيجارته، "*إن تقييمي لجعفر هو أنه يقول الحقيقة. أو لنقلُها بعبارة أخرى: إنه، مثلي أنا، سيكون منهاراً تحت وطأة السجن والخوف. لكن هذا الاعتراف يترك الكثير من الغموض.*"

"بأيِّ معنى؟"

سحب مجدي نفسَاً جديداً من سيجارته. "من السهل جداً أن تجد جماعات 'مقاومة' ترغب في أن ترى بن آرون ميتاً، مثل: حماس، والجهاد الإسلامي. وربما بعض كتائب الأقصى يرغب في أن يراه ميتاً أيضاً. أما المساهمة الفعَّالة في حبكِ مؤامرة لاغتياله؟

"انظر إلى النتيجة. فكتائب الأقصى قد تمزقت. والسبب الأساسي في إحداثه (تنظيم الأقصى) - وهو قلبُ الدعم الراديكالي من حماس إلى فتح، حزب فاراس - قد ارتدَّ عكسياً على أصحابه. والآن، بما ان إسرائيل تحتقر فاراس، وتستخف به لعجزه عن إقامة السلام، فإن حماس ستقوم بالقفز إلى المناسبة، ململمةً القِطَع المتناثرةَ. وبالتالي: سوف يكون خليفة فاراس عضواً في منظمة حماس."

نظر دافيد في اتجاه الحاجز الطيار. بدأت السيارات بالتقدم البطيء إلى الأمام في هذا الوقت. ماشياً بجانب شاحنة عشوي باتجاه الحاجز، بدأ مجدي في استهلاك سيجارته بسرعة، أمَّا نظرته فقد كانت تتحرك بين المجال الطبيعي الوعر الصخري وبين الحاجز المنصوب في منتصف الطريق، وكأنه يفتش عن طريق بديل. "ربما،" فكَّر دافيد بصوت عالٍ، "أن كتائب الأقصى لم يخطر لها أن المسألة ستصبح معقّدة. هل كان أحدٌ يتوقع أن يبقى جعفر حياً؟ إذ لم يبقَ شيء مما يدلُّ على هوية حسن."

انقطع حبل أفكاره، فبدا مجدي وكأنه يحصي خطواته. "من السهل جداً تتبُّع جعفر

إلى كتائب الأقصى،" قال. "لقد كان بين مجموعة من عناصرهم التي تكلمت معها عن اللاعنف، دون الوصول إلى نتيجة، هذا شيء واضح. عقِب ذلك، وبعد الذي حلَّ بأخته، فإنه ترك الكلية. ولم أره بعد ذلك أبداً."

حملت نبرة صوته قدَريَّة مرهَقة. "وماذا عن حسن؟" سأله دافيد. "هل تعرف المزيد عمَّا قد يكون دليلاً على ارتباطه بحماس؟"

"لا. لكن ما يذهلني هو أنه حسبما بدا لعقلي، أن حسن شاب حيي. ففي الصف كان لا يكاد يتطلع إلى أيٍّ من زميلاته، خاصة اللواتي لا يتحجَّبن منهنَّ. كان يتصرف تجاههن بارتباك ظاهر." توقف مجدي بينما كان يسحب النفس الأخير من سيجارته. "ومثلما أفهم من إعتراف جعفر، فإن حسن قال إن هناء عارف لم تكتفِ فقط بتوجيه التعليمات إليه، بل إنها قد قامت بتجنيده أصلاً. فمن الصعب قليلاً أن نتخيل علاقة بين عارف وحسن تجعل مثل هذه المحادثة أمراً ممكناً." توقف، مراجعاً عبارته الأخيرة. "ورغم ذلك، مثلما قلت، إنني أميل إلى تصديق اعتراف إبراهيم. ولكن ما الذي يدعو حسن إلى الكذب عليه؟"

"كلها أسئلة جيدة. هل عرفتَ هناء، أو زوجها؟"

"فقط عن طريق الشهرة، كنت قد عرفت أنهما أستاذان ينددِّان علناً بالاحتلال. أما عدا ذلك، فإنني لا أعرف شيئاً."

نظر دافيد إلى ساعته. كانت الساعة تقارب الثالثة، ومع أن رئيسة جامعة بيرزيت كانت تتوقع حضوره في أية دقيقة، فإنه قد افترض أنها تعرف كيف تنتظر. وكانت شمس الأصيل، مع أنها غير حادَّة، قد تركت غلالة لامعة من العرق على جبهة مجدي. "وهكذا،" قال دافيد، "هل تعتقد أنه إذا تمَّ تدمير كتائب شهداء الأقصى، وفقد فاراس بالتالي مصداقيته، أن حماس سوف تنتزع السلطة بكاملها؟"

"نعم. لقد كانت حماس على الدوام هي المنتقد الأساسي لفتح وفاراس؛ على أساس أنهما فاسدان، وأنهما يساومان مع إسرائيل، وأنهما قد خدعا الجيل الفلسطيني الجديد، الأكثر تنوُّراً وإخلاصاً. ولقد كانت حماس هي التي أنشأت شبكة من جمعيات البرِّ، ومن المدارس، والمنشآت الصحية، والمخيمات الصيفية، والنوادي الرياضية، للفلسطينيين كباراً وصغاراً، وهذا ما زاد من شعبيتها." رمى مجدي عقب سيجارته، وبينما هو يقوم بسحقها بمقدَّم حذائه الأسود. "في داخل فتح، كانت كتائب الأقصى ملجأً للشباب الصغار الذين اعتقدوا أن عرفات وجماعته كانوا غشاشين ومحتالين. أما من وجهة النظر الإسرائيلية، فكانت كتائب الأقصى شيئاً يجب أن يُخشى منه بكل تأكيد، وجعفر مثلٌ على ذلك. لكن بواسطة تدمير كتائب الأقصى، تكون إسرائيل تساعد بشكل فعَّال حماس وأمثالها."

"ألم تكن استراتيجية فاراس عند وصوله إلى قيادة السلطة الفلسطينية تقوم على إغواء حماس من أجل المشاركة في العملية السياسية؟"

أشعل مجدي سيجارة جديدة، جاعلاً عينه على نقطة التفتيش في الوقت عينه. لقد صاروا الآن على مبعدة ثلاثين ياردة، من الحاجز تقريباً. أما السيارات التي كانوا يماشونها فقد كانت تزحف ببطء إلى الأمام. "إن الانضمام إلى العملية السياسية هي شيء،" أجاب مجدي. "أما أن تربح حماس الانتخابات، فذاك شيء آخر بالنسبة إليها. وهذا قد يضع إسرائيل الآن، أمام خيار رهيب؛ فهي إمَّا أن تترك السلطة الفلسطينية في أيدي الإسلاميين الأصوليين؛ وإما أن تلغي العملية الانتخابية ـ وفي حقيقة الأمر أيَّ ادِّعاء بوجود حكم ذاتي للفلسطينيين ـ ممدِّدة الاحتلال لعدة سنوات. إن شخصاً يشبه إياد حسن فقط هو من تروق له مثل هذه اللحظة." توقف مجدي مديراً رأسه ببطء نحو دافيد. "هذا هو الشيء الآخر الذي يحيرني. إنه من الممكن بكل تأكيد تصوُّر وجود عملية مشتركة بين كتائب الأقصى وحماس. فلقد حدث مثل هذا في الماضي. فلو كان لدى حماس عبوة ناسفة وكان لدى كتائب الأقصى انتحاري، فإن هذا ما يمكن أن ينتج عنه ما يمكنك أن تسميه 'بالقسمة'. أمَّا مؤامرة لاغتيال بن آرون؟ فالعواقب المحتملة بالنسبة إلى كتائب الأقصى، وإلى فاراس، تبدو شديدة الوضوح. إن إعادة تركيب هذه الأشياء كلها تحتاج إلى ذهن أشدَّ مضاءً من ذهني".

"أو ربما إلى المزيد من المعلومات." اقترح دافيد. "هل من الممكن لشخص من حماس أن يقوم باختراق كتائب الأقصى؟"

"هل تقصد شخصاً مثل جعفر؟ بالطبع. ولكن إلى أي درجة، وبناء على أوامر من؟ هناء عارف؟" هزَّ مجدي رأسه. "هناك الكثير هنا مما لا أقوى على فهمه، أو لعلَّ الأمر كما تقول، إننا نحن الاثنين لا نملك من المعلومات إلا قليلاً جداً."

مغمِضاً، وضع دافيد نظارتيه الشمسيتين على عينيه. "قل لي،" سأل، "ماذا يحصل للفلسطينيين عندما تقول لهم إنهم لن يعودوا إلى الأماكن التي عاش فيها أهلوهم؟"

تصلَّب وجه مجدي. "أنا لا أقول لهم ذلك." أجاب. "فأنا شخصياً، لست مهتماً بالعودة إلى يافا، حيث عاش جدي قبل أن تقتله عصابات الآراغون. لكنني لا أستطيع أن أواجه شخصاً يعيش في مخيم لاجئين لكي أخبره أن لا حق له في العودة."

'إذن لن يكون لكم سلام'، جالت الفكرة في ذهن دافيد، لكنه لم يتلفظ بها. فحتى بين عاموس بن آرون وبين مروان فاراس، كانت الثغرة تقاس بما اختار أمجد ألَّا يصرِّح به.

* * *

بعد ربع ساعة، وبينما هما لا يزالان يمشيان بالقرب من شاحنة عشوي، وصل دافيد ومجدي إلى نقطة التفتيش.

كان مجدي يتنفس براحة أكثر في هذه اللحظة، عندما تناول الجندي الإسرائيليُّ

الفتيُّ الضخم أوراقه الثبوتية، متراجعاً خطوات قليلة ليكلِّم أحدهم بواسطة جهاز هاتفه الخلوي، بينما هو ما يزال يستطلع الأوراق من جديد. بدأ مجدي يخطو خطوات في دوائر صغيرة، بينما سيجارة غير مشتعلة ترتعش بين إصبعيه "هم دائماً يفعلون هكذا،" قال. "إنها حركات شكلية فقط. فلأننا نعارض الاحتلال، يعتقد الإسرائيليون أن حركتنا للسلام عدوَّةٌ لهم."

كان يحاول إقناع نفسه، شعر دافيد أن لا شيء ناقص. لكن مجدي لن يقوم باجتياز حاجز تفتيش، دون أن يتذكر آلام عضلاته، ورائحة بوله، وقيئه. وكونه بات الآن أضأل حجماً من السابق.

عندما أعاد الجندي أوراق مجدي إليه، آخذاً جواز سفر دافيد، أسرع مجدي إلى إشعال سيجارته. سأل الجندي دافيد بجفاء، "ماذا أنت تفعل هنا؟"

"أقوم بتأدية زيارة،" عاجله دافيد بالجواب دون رويَّة. "ماذا أنت تفعل هنا؟"

استبقاهم الجندي مدة ربع ساعة أخرى.

الفصل

18

وقف دافيد في مكتب هناء، وإلى جانبه وقفت رئيسة جامعة بيرزيت. ومثلما توقع، كان المكتب أنيقاً، والصورة الوحيدة التي احتواها، كانت صورة عائدة لمنيرة وهي في عمر أقلّ من عمرها الحالي. أظهرت الصورة وجه طفلة باسمة ما زالت صغيرة جداً لكي يطلب منها وضع غطاء على شعرها الأسود اللامع. ومن شباك مكتب هناء في الطابق الثاني من مبنى كلية الحقوق استطاع دافيد أن يرى معظم أنحاء الحرم الجامعي. متربعة على تلة تحيط بها أشجار الصنوبر، بدت مباني الجامعة بيضاء وحديثة، أما الطلاب فبدوا مثل طلاب أي جامعة أخرى في أيِّ مكان من العالم، خليط من الشبان والشابات يدخنون ويتحدثون ويتسارعون من مكان لآخر. ما عدا أن بعض النساء كنَّ من المحجَّبات. على سطح الحياة في هذه الجامعة، كان هناك القليل مما يوحي بأنها حقل خصب للراديكالية التي أنجبت جعفر وحسن. ولكن على امتداد تاريخها الحديث، كانت جامعة بيرزيت قد تعرضت مراراً للإقفال أو لتطويق الجيش الإسرائيلي لها.

قالت فاطمة خليل، رئيسة الجامعة، وهي سيدة بدينة، أنيقة، في العقد الخامس من عمرها، شارحة لدافيد، "إن القصة ابتدأت بين العام 1987 و 1991، عندما رغب كل من هناء وصائب في الدراسة هنا، لكن الجيش الإسرائيلي كان قد أقفل الجامعة برمتها. وعندما حاول أساتذتنا عقد دروسهم في بيوتهم، داهم الجيش الإسرائيلي هذه البيوت. وبحلول العام 2000 كانت جامعة بيرزيت قد تعرضت للإقفال أربع عشرة مرة.

"أمَّا ما حصل منذ العام 2000 فلم يكن أفضل من السابق، لكنه مختلف. فلوقتٍ قصيرٍ، في العام 2002، فرض الجيش الإسرائيلي حظراً على التجوال في معظم مدننا. حيث لا يُسمح لكَ بمغادرة منزلك لأكثر من ثلاثٍ إلى أربع ساعاتٍ في الأسبوع. فالأطفال لم يعد باستطاعتهم الذهاب إلى مدارسهم، ولا البالغون إلى أعمالهم." ومع أن سلوك خليل بقي هادئاً، إلا أن صوتها صار أكثر قساوة. "خلال هذا الوقت، قتل الجيش الإسرائيلي سبعة عشر شخصاً من رام الله. ولقد أُجبر موظفو المستشفى على حفظ القتلى في

الثلاجات، ثم أخيراً على حفر حفرة في أرض موقف السيارات ومواراتهم فيها. فحتى الموتى، كما يبدو، خضعوا أيضاً إلى منع التجول."

"ماذا حصل هنا؟"

"طوَّق الجيش الإسرائيلي حرمنا الجامعي بنقاط التفتيش، وسدَّ طرق الدخول بمكعبات الإسمنت وتلال التراب. ففي إحدى النقاط قطعوا إمدادات الطعام، كما قطعوا عنا المياه والاتصالات الهاتفية. لقد كنا أشبه بوكر زنابيرٍ من الراديكاليين، حسبما قالوا عنا، لكنهم أوغلوا في تحويل المزيد منَّا نحو الراديكالية." كانت عينا خليل حزينتين وغاضبتين في وقت واحد. "أمَّا ابنتي، فيا لها من إنسانة، لقد كانت هي الأخرى طالبة هنا. فتاة ناعمة لطيفة تدرس الأدب، وتكتب القصص. ومرة اشتركَت في تظاهرة سلمية ضد الجيش الإسرائيلي. فرماها الجنود الإسرائيليون في سيارة جيب، وبدأوا يدوسون على ذراعيها ورجليها حتى جعلوها تفقد الوعي من شدة الألم. ثم قاموا بإلقائها إلى جانب الطريق مثل كيس نفايات."

"وهل هي الآن على ما يرام؟"

"لقد صار لديها تلفٌ دائم،" أجابت خليل ببساطة. "ما عدا في قلبها. فبعد هذه الحادثة، لم تعد تستطيع أن تصادف نقطة تفتيش دون أن تصرخ في وجه الجنود بكراهية لم أكن أعرف أنها تمتلكها. لذلك، قررتُ ووالدها أن نرسلها لكي تتابع دراستها في تركيا، لمجرَّد منعها من تعريض نفسها للسجن." مشت خليل نحو النافذة محدِّقة في الطلبة المتجوِّلين عبر الحرم أثناء الفترات الفاصلة بين صفوفهم. "من المؤكَّد أن بين طلبتنا أفراد من حماس، وكذلك من الجهاد الإسلامي، ومن الأقصى. والآن صرنا مشهورين بارتباط اسمنا بحسن وجعفر. لكن عندما أنظر إلى هؤلاء الشبان والشابات، فإنني لا أرى سوى التلف والضياع.

"عندما يكونون هنا، نقوم بمساعدتهم مالياً بكل وسيلة نستطيعها. فالتربية هي الدم في جسد الأمة التي نحاول بنيانها. لكن بعد يوم التخرُّج، أين تُرى يذهب هؤلاء الشباب؟ فاقتصادنا خرِبٌ. أما بالنسبة إلى نُخبنا المثقفة ـ حيث يُجبر المهندسون والمحامون على ممارسة العمالة اليدوية، أو على الخدمة في المطاعم ـ فإن قائمة اليأس تصبح أكثر خطورة. وفي أحيان كثيرة تأخذني الأفكار حول هؤلاء الشباب ـ طلابنا من جهة، والشباب الإسرائيليون الذين يرسَلون لكي يكونوا سجَّانين لشبابنا من جهة أخرى، وكلا الفئتين تخشى الثانية ـ ثم لا ألبث أن أتخيلهم جميعاً في ساحة صدام لا يجد أيٌّ منهم سبيلاً إلى الخروج منها. ولكن عدا عن الجنود الذين يموتون هنا، فإن الشباب الإسرائيلي يستطيع ترك هذا الكابوس المرعب وراءه. أمَّا كابوسنا المرعب فلا نهاية له."

مصغياً، استطاع دافيد أن يشتمَّ ما وجده الجيش الإسرائيلي مادة شديدة الالتهاب

في بيرزيت: أساتذة من ذوي الشخصيات الآسرة، يلهبهم الشعور بالعجز والتقوقع؛ طلاب مسحوقون يتّقد امتعاضهم وغضبهم بنسبة مضاء أذهانهم. "لكنك لم تأتِ إلى هنا،" قالت له خليل بابتسامة شاجبة للنفس، "لتبحث في مشاكل لها هذا البعد العالمي. فقد عرفتُ من رسالتك بالبريد الإلكتروني أنك ترغب في معرفة المزيد عن هناء وصائب خالد. مثلما فعل جماعة الشين بيت، والجيش الإسرائيلي، قبلك عندما أمضوا نهاراً كاملاً في هذه الغرفة بالذات."

استدار دافيد نحوها. "وماذا أرادوا أن يعرفوا؟"

"أرادوا تقريباً معرفة الأشياء ذاتها التي تريد معرفتها أنت. فعلى سبيل المثال: أن أجهزة الكومبيوتر والطابعات التي يستعملها أساتذتنا هي موحَّدة الطراز مثل هذه التي تراها الآن في مكتب هناء."

"وماذا عن الورق؟"

"الورق أيضاً من طراز واحد ـ فكل أستاذ، أو طالب، يمكنه نظرياً أن يكون قد طبعَ رقم الهاتف، وقام بسحبه على الورقة التي أعطيت إلى إياد حسن" ابتسمت خليل بظرف. "إنني محامية بالدراسة، لهذا وجدتُني أفكر معك. لكن ما قلته لتوِّي لا يفسِّر مع الأسف وجود بصمات هناء على الورقة."

"كلا، إن ذلك لا يفسِّر هذه المسألة. ومن الذي يملك الدخول إلى هذا المكتب؟"

"قبل اعتقال هناء؟ أيٌّ كان، يستطيع ذلك، من الناحية النظرية." جلست خليل على كرسي هناء تنظر إليه بفضول. "هل تعرف ما إذا كان من عادتها إقفال مكتبها؟"

شعر دافيد أنهما قد صارا يداوران موضوع صائب خالد. "فقط أثناء الليل،" أجابها. "لا أحد سواها يملك مفتاحاً للغرفة حسبما أخبرتني."

هزَّت خليل رأسها. "أعرف من سجلاتنا أننا كنا قد سلَّمنا صائب وهناء جهاز كومبيوتر وطابعة من الطراز نفسه، من أجل استعمالهما في البيت، أمَّا نوع الورق الذي يستعملانه هناك فهو أمرٌ لست على ثقةٍ منه."

وللحظة درس دافيد صورة منيرة، متعجباً ما إذا كان يعني شيئاً غياب صورة صائب، أو صورةٍ تجمع منيرة مع والديها معاً. "إن بصمات الأصابع مشكلة محيِّرة،" قال مستفيضاً. "فمن أجل أن يقوم شخص ما، بتدبير مكيدة لها، عليه أن يستعمل طبقاً من الورق كان يعرف سلفاً أنه يحمل بصمات أصابعها." القى يده على طابعة هناء. "هذه تتسع لحوالي خمسين طبق من الورق. وعندما تقوم هناء بإعادة ملئِها، فإنها قد تترك بصماتها على الورقة الأولى، أو الأخيرة، ولكن ليس على بقية الأوراق الموجودة في الوسط

ما بينهما. لذلك فإذا دخل أحدهم إلى داخل هذه الغرفة كي يسرق ورقة، فإنه لا يستطيع الافتراض أن البصمات موجودة على الورقة العليا. بل على الورقة السفلى فقط."

"لهذا، فإنهم يُفترض أن يكونوا أذكياء."

"أو أن يكونوا محظوظين." *ما لم يكونوا يعيشون معها* فكَّر دافيد، لكنه لم يصرِّح بفكرته.

طوت خليل يديها متأملة. "لقد طلب الإسرائيليون أيضاً ملفَّ كلٍّ منهما الشخصي. ومثلما فعلتَ أنت في رسالتك في البريد الإلكتروني، فقد سألوا عن غياب صائب عن محاضراته."

حافظ دافيد على نبرة صوت حيادية. "لقد كان يشكو من حالة قلبية، حسبما قيل لي. وأحسَب أنه كان يراجع طبيباً اختصاصياً في عمَّان."

ابتسمت خليل ابتسامة رفيعة. "لا بد أن تكون حالته القلبية خطيرة. فشخص يغادر الضفة الغربية في أوج المحنة، دون أن يكون على ثقة من أن الجيش الإسرائيلي سيسمح له بالعودة إلى الدخول ثانية. إن هذا هو السبب الذي يدعوني للتوقف عن أخذ إجازات خارج الضفة." هنا اختفت ابتسامتها. "فخلال حرب 1967، هرب أخي إلى عمَّان، فلم يسمحوا له بالعودة. وحتى بعد مرور خمس وثلاثين سنة لم يُسمح له بحضور مأتم والدنا. قالوا: إنه شديد التطرُّف."

"كيف تمكن صائب وهناء من العودة إلى هنا بعد مجيئهما من هارفارد؟"

"سؤال جيد، لربما أن الجهات الخيرية الدولية كانت قد لعبت دورها، مثلما فعلت الشيء نفسه بتعليمهما في أميركا،" نضَّدت خليل ثنيات فستانها. "والسؤال الذي هو أفضل منه هو: لماذا سمحوا لصائب بالعودة من الأردن، مع الأخذ بعين الاعتبار كم أنه بات شهيراً منذ قدومه إلى هنا. وأفترِض أنهم قد قاموا بمراجعة سجلاته الطبية، فلم يرغبوا في أن يجعلوا أنفسهم موضع اتهامٍ بقتل رجلٍ مريضٍ، بسبب منعِه من الحصول على العناية الطبية التي يحتاج إليها."

"هل سبق لكِ الاطلاع على ملفه الطبي؟"

هزَّت خليل رأسها بالنفي. "لقد أخذنا كلامه أخذَ المصدِّق. هل يبدو لك بصحة جيدة؟"

"لم يبدُ لي بصحة جيدة،" قال دافيد ساخراً، "ولا بسعادة جيدة."

ضحكت خليل بهدوء. "لا أعتقد أن السعادة شيء يدخل من طبيعته. كما أنه ليس ينبوعاً من البوح بالذات.

"لقد سألتَني عن معلومات محدَّدة عن فترات غيابه. لهذا، فإنني قد راجعت سجلاته. لقد قام بستٍّ رحلاتٍ إلى عمَّان، كل رحلة تمتد إلى أسبوع على الأكثر. أما الأخيرة منها، فقد تمت منذ ثلاثة أشهرٍ مضت، أي قبل أسبوعين من مغادرته مع هناء ومنيرة إلى أميركا." صارت تعابيرها تأمليَّة. "ومرة ثانية، فإن قيام السلطات الإسرائيلية بالسماح لهم بالسفر، هو أمرٌ مثير للدهشة قليلاً. وأحسب أن لديهم أشخاصاً أشدُّ عنفاً ليقلقوا بشأنهم.. أو ربما هكذا اعتقدوا. فحتى الأشخاص الوسواسيون يكون لديهم أعداء حقيقيون وكلٌّ يوم يمضونه هنا، يكسبهم المزيد من هؤلاء الأعداء."

تأملها دافيد جيداً ثم قرَّر أن يكون شديد الصراحة. "هل كان صائب مع حماس؟"

تضيَّقت حدقتا خليل. "لقد آليت على نفسي ألَّا أستعلم عن هذه الشؤون. ولهذا، فإنني لست أدري. في ما يتعلق بصائب وهناء، أنا لا أعرف شيئاً من هذا القبيل."

"وماذا عن جعفر وحسن؟"

"أعرف الخلفية التي جاءا منها فقط. كلاهما جاء من مخيَّم لاجئين. جعفر جاء من جنين، وحسن جاء من عايدة، وهذا المخيم نسخة أخرى عن جهنم. أمَّا بخصوص ما إذا كانا عضوين في كتائب الأقصى، فإن عليك أن توجِّه هذا السؤال على من قد تجد أنه لا يزال حياً من جماعة كتائب الأقصى. ولن تستطيع الوصول إليهم لأن إسرائيل تتابع البحث عنهم لتصيُّد ما قد تبقَّى منهم. وإن اللقاء معك يعتبر مجازفة كبيرة لمن يرضى بذلك، من كتائب الأقصى."

"وماذا عن الصفوف؟ هل يعرف أيٌّ من حسن وجعفر، صائب أو هناء؟"

"أعرف أن إياد حسن قد جمعه صف واحد مع صائب. لكن هذا لا يعني سوى القليل. كما أنه قد لا يعني شيئاً البتة. فصائب مشهور جداً. والصفوف كبيرة العدد بالنسبة إليه كي يلتقي كل طالب، أو لكي يتذكره."

ومع هذا، فكَّر دافيد، إنَّ أمجد مجدي قد استطاع أن يتذكر إياد حسن الذي جعل نفسه مميزاً بطبعه الغضوب، وبخجله من النساء. التقطت خليل صورة منيرة. "يا لها من ابتسامة مشرقة،" قالت معلِّقة. "يبدو أنها أقلُّ ابتساماً الآن، مثل الكثيرين من أطفالنا.

"إن إحدى أساتذتنا كانت قد تتبعت خمسة أطفال منذ مرحلة الدراسة التكميلية حتى عمر الثامنة عشرة. فحينما كانوا صغاراً كانوا يريدون أن يكونوا فنانين، أو أدباء، أو موسيقيين. أما عند وصولهم إلى المرحلة الثانوية، فإن ولداً منهم قد شاهد صديقته تموت عندما أقدم الجيش الإسرائيلي على نسف بيتها بحجة أنه يأوي إرهابيين. وبنت تعرَّض أخوها للضرب على نقطة تفتيش، وأخرى قد تم سجنُ والدها. وهكذا، فإن رؤية هؤلاء الأطفال للحياة قد تقلصت حتى باتت تقتصر على كراهية الإسرائيليين." أعادت خليل

الصورة إلى مكانها. وهي ما تزال تدقق في وجه منيرة. "لقد تكلمتُ مع هناء بهذا الخصوص. كانت منيرة هي رجاؤها الوحيد، كما كان يخيَّل إليَّ أحياناً. لقد أرادت هناء حياة أفضل لابنتها في فلسطين، ولم ترد لها حرباً أبدية مع إسرائيل."

"إذن، أنتِ لا تنظرين إليها كقاتلة؟"

زمقته خليل بنظرة مستوية. "إن هناء مثلي أنا. فهي أم. ونحن قد نقوم بأيٍّ شيء من أجل حماية أطفالنا. من أجل هذا توجد ابنتي الآن في تركيا.

"نحن لا نتخلّى عن بناتنا، كما أننا لا نريدهن شهيدات. فإذا استطاع أحدهم إقامة البرهان على أن هناء قد سمحت لنفسها بالتورُّط في هذا الاغتيال من أجل حماية منيرة من الأذى: عند ذلك من الممكن لي أن أقول نعم إنني قد أصدق ذلك. وحتى يقوم هذا الدليل، فإنني أقول لك إن هذا الاحتمال هو أمر مستحيل."

الفصل

19

في ذلك المساء، التقى دافيد، نسرين عوض، صديقة هناء الحميمة، في مقهى الحجارة في رام الله.

لم يكن مقهى الحجارة مثلما توقع دافيد أن يجده. فإذا به يقوم على مبنى ذي طابقين من زجاج وفولاذ، وكان يغصُّ بجيل الشباب يأكلون ويدخنون ويشربون عند المقصفِ، بينما تنبض الموسيقى المنوَّعة المصادر العالمية من شتى أرجائه حسب منافذ جهاز توزيع الصوت. وما كانت نسرين ذاتها أيضاً لتطابق توقعاته عنها. فها هي فتاة ذات شكل طويل ممتلىء صاعق. جلست نسرين مع دافيد تدخن من نارجيلتها وتتكلم في لامبالاة تنم عن سيدة بوهيمية أكثر مما تنمُّ عن صفة المحامية الرصينة التي تناهت إلى دافيد عنها، إذ إن نسرين كانت زميلة هناء في المحادثات مع إسرائيل قبل أن تستقيل هناء من هذه المهمة بدافع الغضب. "إذن أنت تريدني أن ألعب دور شاهد السلوك؟" قالت نسرين. "لذا، سأحاول أن أحسِّن سلوكي الخاص من آنٍ لآخر. كنوع من تنظيف الاسطبلات القذرة، كما يقول بعضهم." ساحبة نفَساً من أنفاس نارجيلتها، تطلعت نسرين إلى دافيد باستئناس واضح. "هل كنت تتوقع أن ترى فيَّ فتاة أخرى؟"

"ربما أنني كنت أتوقع أن أرى فيكِ سيدة مكبوحة إلى حدٍّ ما."

"إنني أشتغل على نفسي جاهدة حتى لا تحصل لي هذه النتيجة. ولربما أن كوني مسيحية قد سهَّل الأمرَ علي، كما أن كوني لست متزوجة من صائب خالد، قد ساعدني في ذلك أيضاً." أشاحت بيدها في اتجاه الجمع الذي يحتشد به المقهى؛ كان ثمة كثيرون في المكان ممن يرتدون ملابس الجينز الزرقاء مثلما هي تفعل. "إنكَ لتجد في رام الله كل نقيض. فالكثير من هؤلاء الناس مسيحيون، وهم تقليدياً، أنعم حياة، وأفضل ثقافة من سواهم. ولكن في خارج هذه المدينة تماماً، يقع مخيم للاجئين، مليء بالناس الذين لا يعرفون لهذا المقهى وجوداً. إنهم مسلمون، ويسحقهم الفقر. ولا حاجة بي لأذكرك أن نساءهم لا يأتين إلى هذا المكان."

"وكيف يتعامل الفلسطينيون مع هذه التناقضات؟"

"ليس بتلك السهولة. فنحن مجتمع أكثر انفتاحاً من معظم المجتمعات العربية الأخرى. فهنا نسبة الثقافة أعلى، وصوت النساء أقوى من بقية المجتمعات. ولكن مع ذلك، فإن الكثيرين من المسيحيين قد غادروا إلى الولايات المتحدة، أو أوروبا. وثمة مسلمون كثيرون لا يؤمنون بحكومة ديموقراطية علمانية." أخذت نسرين نفساً عميقاً من أنبوب نارجيلتها، ثم زافرة الدخان في سحابة تتلوَّى كأفعوان، ما لبثت أن تلاشت في الظلام، أضافت. "هل تشفى هذه المعضلات، أم تنفجر قروحها؛ إنه أمرٌ يعتمد إلى حدٍّ كبير على ما إذا كان الإسرائيليون يؤمنون حقاً بكلامهم البلاغي الخاص عن السلام، أم لا. فهناء تعتقد أنهم لا يؤمنون، ومن أجل هذا، فإنها ما زالت تحتقرهم."

سبَّبَت الملاحظة الأخيرة قلقاً لدافيد، كان بوسعه أن يتخيل مارني شارب وهي تستغلُّ هذه الصورة التي رسمتها نسرين عن هناء، من أجل المكر بها على أساس جعلِ كرهها لإسرائيل نقطة مركزية في شخصيتها، ووصفها باللاسامية، وربطِ هذه النقطة بآخر أحداث حياتها. "وبسبب منيرة،" تابعت نسرين كلامها، "من الصعب على المرء أن يعتقد أن هناء يمكن لها أن تتورَّط في قتلِ بن آرون. لكن كثير من الناس كانوا قد سمعوها تنعت الإسرائيليين بالإمبرياليين، كما تنعت بن آرون بأنه منافق ورع." صار صوتها يحمل نبرة التوكيد. "ولهذا، فإنني أحذِّرك من تقديم هناء على أساس أنها تملك شخصية الأم تيريزا، لأن النائب العام قد تدكُّ هذا الكلام في حنجرتك دكّاً."

أسند دافيد ظهره فيما كان يرشف القهوة التي كانت نسرين قد طلبتها لكليهما. "أظنُّ أنَّ من الأفضلِ أن تخبريني عن السبب الذي دعا هناء إلى اعتزال المحادثات."

سحبت نسرين نفَساً طويلاً آخر من أنبوب نارجيلتها. "علينا باديء ذي بدء أن نفهم السياق الذي يقع فيه غضب هناء. هذه المستوطنات، وهذا السلب الهزليُّ للأراضي، عَبْر الشيء الذي يسميه الإسرائيليون الجدار الأمني.

"ففي العام 1993، جاء في جزء من اتفاقات أوسلو ان إسرائيل تَعِدُ بتجميد إقامة المستوطنات، إلا أنهم بدلاً من ذلك، تابعوا أعمال التوسُّع بها، مضيفين إليها المزيد من الأراضي المسلوبة، ومن السكان، مستهلكين بذلك المزيد من مصادر مياهنا." وضعت نسرين خرطوم النارجيلة جانباً. "ومنذ العام 1993، فإن عدد سكان المستوطنات قد تضاعف تقريباً، وباتت هذه المستوطنات ضاربة العمق في أراضي الضفة الغربية. لكن ما يضارع التوسُّع الإسرائيلي السكاني في أراضي الضفة الغربية سوءاً، هو الانكماش السيكولوجي الإسرائيلي الذي واكبه.

"فالمستوطنون يعيشون في شرنقة. والطرق التحويلية التي يستخدمونها لربط مستوطناتهم بعضها بالبعض الآخر، مجزِّئةً الضفةَ الغربية، وسامحة للإسرائيليين بالسفر

بين المستوطنات دون مشاهدة العرب: تجعلهم بذلك يخلقون وهمهم الخاص." أبرقت عينا نسرين بابتسامة سريعة ساخرة. "مرة قابلنا نظراءنا الإسرائيليين في مستوطنة يهودية. فأشارت هناء إلى لوحة على الجدار تمثل المطلّ الطبيعي للمنطقة المجاورة. لقد كانت اللوحة دقيقة التفاصيل سوى اختفاء القرى العربية من هذا المنظر العام. 'لقد قمتم بمحونا'، قالت لهم هناء، 'تماماً مثلما محوتم أهلي من تاريخ بقعة الأرض التي تسمونها الآن إسرائيل'.

"هذه الملاحظة فتحت جدالاً سخيناً. وعندما قامت هناء باتهام الإسرائيليين بالحنث بوعودهم بتجميد المستوطنات، ردَّ عليها رجلٌ بالقول أن لا بد لهم من فِعل ذلك لترضية الجناح اليميني الإسرائيلي. 'إذن فإن الصدق لديكم هو رهين المصلحة"، قالت لهم هناء. "وعليَّ بعد الآن ألّا أصدِّق شيئاً مما تقولون لي'." كان دافيد يستطيع أن يتخيَّل عيني هناء تلتمعان بينما هي تقوم بتوبيخ الإسرائيليين.

"الغضب شيء مختلف،" قال دافيد. "هل سمعتِها مرة تحضُّ على العنف ضد إسرائيل، أو ضد بن آرون؟"

فكرت نسرين في السؤال. "لقد قالت للإسرائيليين أكثر من مرة أنهم إنما يصنعون الانتحاريين بالعشرات. لكننا نحن جميعاً نقول هذه الأشياء." صمتت نسرين برهة ثم أضافت على كرهٍ واضحٍ منها، "مرة قالت لي هناء أن بن آرون سوف يُقتل بكل تأكيد، أمّا المسألة التي تهمُّ، فهي من هي الجهة التي سوف تقوم بقتله. لقد فهمتُ قصدها حينذاك: الأفضل أن يقوم متطرفوهم بذلك، وليس متطرفونا. وعندما يأتي موعد المحاكمة، فإني آمل أن يكون ذاك الحديث قد امَّحى تماماً من ذاكرتي، لكن ما أرجوه هو أن لا تكون هناء قد تطرفت في كلامها مع سواي، إلى هذه الدرجة."

مع أن اعترافها الصريح بأنها ستقوم بحماية صديقتها عن طريق الكذب، لم يفاجئه، إلّا أن هذا قد جعل دافيد يشعر بالاضطراب. "ما الأمر الذي دفع هناء لتقديم استقالتها؟" سألها.

"إنه الجدار الأمني. فمعظم الإسرائيليين والفلسطينيين يعلمون أنه لا بد من حلٍّ يقوم على دولتين، تقوم بينهما حدود معقولة. لهذا، كيف يسوغ لهم تسميتها (الحدود) بالجدار الأمني، وجهت هناء سؤالها إلى الإسرائيليين، خصوصاً عندما يتلوَّى هذا الجدار كالأفعى ليلتقط المستوطنات، ونقاط استخراج المياه؛ وحينما يلتفُّ لاحتواء المزيد من أراضي الفلسطينيين؟ إنَّ الحق معها، بالطبع، فإذا أكملوا بناء هذا الجدار حسب خططهم، فإنه سيقفل طرقاتنا، ويحيط بمدننا، ويفصل بعضنا عن البعض الآخر. فالفكرة الأساسية هي خلق حدود الأمر الواقع التي تقتطع من أراضينا أكبر مساحة يمكن اقتطاعها. تاركة أهلنا يعيشون في جزرٍ معزولة بعضها عن البعض الآخر، ومحاطةٍ بالإسرائيليين من كل جانب." نظرت نسرين إلى دافيد نظرة ذات دلالة. "إن هناء جاءت من مخيَّم صبرا

وشاتيلا. وعندما وجدَتنا مسيَّجين بهذا الجدار، فإن الأمر قد جعلها محزونة الفؤاد، ومحبطة. وهكذا، عندما رفض بن آرون أن يتخلى عن فكرة بناء الجدار، أو عن إعادة النظر في خريطته، فإنها استقالت. *'ليس ثمة أملٌ'*، ذاك ما قالته لي. *'فأنا لا أستطيع الاشتراك في هذه المسرحية الهزلية المحزنة'*؛ وهكذا، مرة تلو أخرى، أثبت الإسرائيليون أنهم لا يستطيعون مقاومة شهيتهم للحصول على قطعة أخرى من الكعكة.

"أما بعد استقالتها، فقد صارت تبدو لي أشدّ إحباطاً من أيّ وقت مضى. لقد اعتقدَت أنها تستطيع المساهمة في بناء وطن، لكنها وجدت نفسها محاصرة بالقتل والقهر، كما وجدت حولها الحقد يتصاعد من الجانبين." انحنت نسرين إلى الأمام، وقد صار صوتها وسلوكها أكثر حميَّة من ذي قبل. "إن الاحتلال يعطي الجنود الإسرائيليين الأغرار سلطة تقرير الحياة والموت، معرِّضاً إياهم في الوقت نفسه إلى تجرُّع الخوف الدائم، الأمر الذي يجعلهم متشائمين، ساخرين بالحياة، مرضوضي الشعور، وبشكل أو بآخر ناقصي الإنسانية. أمَّا الضغط المستديم لهذا الواقع، على الواقِعين تحت الاحتلال من الفلسطينيين، فلا ينفكُّ يُنتج الحقد والكراهية في شبابهم، والصدمة النفسية الدائمة في أطفالهم. وعندما رأت هناء هذا في ابنتها منيرة، فإنها شعرت بأنها تصاب بطعنة في الصميم." محدِّقة في وجه دافيد، تابعت نسرين كلامها في نغمة من الخذلان العميق. "إن معظم الإسرائيليين يرفضون القدوم إلى هنا. قسمٌ من سبب ذلك عائدٌ إلى الخوف، لكن في ذلك أيضاً شكلٌ من أشكال إنكار الآخر. وهذا أمرٌ مثيرٌ للسخرية في الحقيقة. إن الإسرائيليين يجتذبون خطايا الآخرين اجتذاب المغناطيس بسبب الهولوكوست التي لا دخل للعرب فيها، لكنهم لن يستطيعوا تسوية مآسيهم بالحقيقة التي تقول: إن تحت وطأة احتلالهم، فإننا نحن فقط الذين نعاني من الظلم والاضطهاد. في كلية الحقوق في جامعة نيويورك، كان من أقرب الأصدقاء إليَّ فتاة يهودية من تل أبيب. لكنها لا تأتي إلى زيارتي هنا في رام الله، وعندما أتحدث معها عبر الهاتف، فإن معظم حديثها معي يكون عن الانتحاريين وليس عن الاحتلال. إنها لا يبدو أنها تصغي إليَّ. ومع ذلك فإنها، حسبما يبدو، تمسك بمفتاح مستقبلنا أكثر مما أمسك به أنا.

"وبالنسبة إلى هناء، فقد صار مستقبل منيرة هو مستقبلها. وما أدراك ما هو هذا المستقبل المنتظر، هنا بالضبط؟" أجالت نسرين أبصارها في الجمع حولها، في نظرة شاملة عاجلة. "إن ما تراه الآن هنا، هو نحن.. نحن الذين ننفق ما لدينا الآن في يومنا، بدلاً من أن نخطط ليوم غدنا الذي لا سيطرة لنا عليه. نحن شعب مغيَّب الصوت، فمهما نرفع صوتنا عالياً فإن العالم بأسره لا يسمعنا."

خلال هذا المونولوج اللافت، كان دافيد يراقب وجه نسرين الذي يفيض بالمشاعر.. مشاعر الغضب، والحزن، والإذعان، والحاجة العميقة للتعبير عن الذات لشخص غير فلسطيني. "لست ناضب المعرفة عن هناء،" قال لها. "أخبريني شيئاً عن نفسك."

منحته نسرين ابتسامة تنطوي على شجب للذات. "لقد كنت في حقيقة الأمر أتكلم عن نفسي طيلة الوقت. فالاحتلال هو كل ما أعرفه. لكن إذا شئت أن تسمع عني، فسأروي لك بعض الحكايا القليلة عن حياتي. فإنني سأكون إحدى شهودك، في نهاية الأمر.

"خلافاً لحال هناء، إنني من أهالي الضفة الغربية الأصليين. كانت أمي عضواً في منظمة التحرير الفلسطينية في العام 1967، لذلك فإنها قد تعرَّضت للاعتقال. كما أن والدي، الذي كان آنئذٍ خطيبها السياسي، قد تعرض للاعتقال أيضاً. قال الإسرائيليون لها أن سراحه يمكن أن يطلق لو أنها وافقت على كشف أسماء زملائها في منظمة التحرير، لهم. لكنها رفضت أن تتعاون." صوت نسرين جمع هنا الفخار والغضب في حزمة واحدة. "وبعد ذلك بثلاث سنوات، قاموا بإطلاق سراحها. لقد باتت أذنُها اليسرى طرشاء بسبب ما نالته من الصفع على رأسها. وفي حفل عقدِ قرانها على والدي، كان عليها أن تقف إلى يساره من أجل أن تستطيع أن تسمع نذرهما على نفسيهما.

"هذا عن والديَّ. كما أن أحد أبناء عمي قد أمضى تسع سنوات في السجن بسبب كونه ينتمي إلى حماس. هذا، وقضى أخي سنة واحدة في السجن أيضاً بسبب انتمائه إلى كتائب الأقصى. أمَّا خطيب أختي فقد ذهب إلى مجمَّع عرفات ليستجلي خبر صديق له ـ وهو أيضاً عضو في كتائب الأقصى، مع أن خطيب أختي لم يكن كذلك ـ فقتل الاثنان معاً على أيدي الإسرائيليين الذين كانوا يتعقبون ذلك الصديق". جفَّ صوت نسرين. "قد يخيَّل إليك أننا عائلة منكوبة الحظ بشكل غير اعتيادي. لكننا لسنا كذلك.

"فبسبب التقاليد، كما بسبب الأوضاع الاقتصادية، فإنني ما زلت أعيش في منزل أهلي. والمرأة التي كانت تقوم بتنظيفه إلى وقت قريب، لها ثمانية أطفال، وزواج تعيس. فزوجها لم يكن ليستطيع أن يجد له عملاً حيث تعيش عائلته، وبسبب نقاط التفتيش، فقد كان يجبر على البقاء معظم أيام الأسبوع في قرية أخرى.

"وفي ليلة جاء إلى منزلنا لكي يبحث عن زوجته. وما كنت، ولا كان والداي، بقادرين على معرفة مكان وجودها. ثم، وبينما نحن نتحدث سمعنا اسمها يرد على التلفزيون. وعندما التفتنا للتطلع إلى الشاشة رأيناها تقف بين جنديين إسرائيليين عند نقطة تفتيش. لقد تم اعتقالها لأنها كانت تقوم بنقل متفجرات." هزَّت نسرين رأسها. "لقد أصابتنا الدهشة جميعاً، فهذه العائلة لم تكن حتى مسلمة، عدا عن أن يكون أفرادها من ذوي النشاط السياسي. لقد كانوا مجرَّد عائلة فقيرة لها ثمانية أطفال يحتاجون إلى إطعام، وكان هذا حسبُهم."

"وقد تبيَّن أن أحدهم كان قد دفع لها في مقابل نقل المتفجرات عبر نقطة التفتيش تلك. وهي عبارة عن مواد أوَّلية لصنع قنبلة. والأمر الأشد غرابة وتناقضاً، هو أنها كانت قد ذهبت في الصباح إلى السوق حيث قامت بشراء ثياب لأطفالها. ثم قامت بتنظيف منزلنا

قبل ذهابها إلى نقطة التفتيش. ففي تفكيرها أنها كانت فقط تلتقط فرصة لكسب بعض النقود. وانا أعتقد أنها قد أرادت أيضاً أن تعبِّر عن عدائها لزوجها بسبب فشله في تدبير إعاشة عائلته.

"إن هذا جنون كامل، بكل تأكيد، إن من الناحية العملية، أم من الناحية الأخلاقية. لكنه يُدخل مزيداً من التعقيد على تصور المرء حول من هو الذي يقوم بالأعمال الإرهابية، وحول كيفية قيام الاحتلال بتمزيق حياتنا وتشويهها."

مصغياً، جاس دافيد ردود فعله. "عندما يتكلم الفلسطينيون عن التفجيرات الانتحارية،" قال لها. "يبدو الأمر عادة كأنه واقعٌ ألقاه عليهم الإسرائيليون فحسب. لكن عندما كنت في إسرائيل، فإنني قد شاهدت شريطاً مسجلاً لإمامٍ يتكلم إلى جماعة من الرجال، كان بينهم حسن وجعفر، ولقد سمعت في الشريط أسوأ لغة يمكن أن تقال من المفردات اللاسامية، حيث كان الإمام يقول إن اليهود لا قيمة لهم أكثر من الصراصير. والأسوأ من كل هذا، هو أن خطبة ذلك الإمام كانت تُبث مباشرة على التلفزيون الفلسطيني."

حركت نسرين يداً لا مبالية. "إن هذا مؤسف حقاً، أؤكد لك. لكن لا أحد يكترث لهذا الكلام. إنه مجرَّد إعلام حكومي، وهو مجرَّد ردٍّ فعل انعكاسي لحقيقة أن الجماعات الضاغطة الصهيونية والمتعاطفين معها تسيطر على الإعلام العالمي."

"إنني كيهودي،" قاطعها دافيد، "لا أستطيع أن آخذ الأمر بهذه السهولة. كما أن حسن لم يأخذه أخذاً عابراً أيضاً." ثم هدأ صوته. "في هذا 'العالم الأفضل' *الذي تحلمين به، هل تستطيع منيرة أن تقترن بشاب يهودي؟ بل هل تستطيعين أنت ذلك؟ أم أن الكراهية لليهود هو أمرٌ يتعدى الاحتلال بحدٍّ ذاته؟*"

للمرة الأولى لم تجبْ نظرةُ نسرين نظرتَه. أخذت نفَساً من خرطوم نارجيلتها، ثم تراجعت إلى عمق أفكارها الخاصة. "في العمل،" قالت في النهاية، "كان رجل عربي يواعد امرأة يهودية في مدينة القدس. وهذا أمر صعب، ليس فقط بسبب نقاط التفتيش. فبالنسبة إلى بعضنا يعتبر عمله هذا عملاً عدوانياً لأنه لم يكن يواعد امرأة فلسطينية عوضاً عن اليهودية. هذه هي الحقيقة الأمينة." نظرت إلى دافيد من جديد. "إن أسبابي محضُ سياسيةٍ. أمَّا ما يشعر به الآخرون، فلا أستطيع التعبير عنه.

"في ما يختص بي، تعود الأسباب كلها إلى الاحتلال. وكلنا جميعاً، يهود وعرب، نحتاج أن ينتهي هذا الأمر كله. لهذا تجدني ما زلت مستمرة في العمل على المفاوضات. ومن أجل ذلك، لم أحتقر بن آرون كما فعلت هناء." تكلمت هُنا بصوت يحمل مسحة من الأسف. "لو كان الرجل حياً، لكان لشعبنا على الأقل، بعض الأمل. أمَّا الآن، فلم يبق سوى الحقد والانتقام. فمع تفتُّتِ السلطة الفلسطينية أمام أعيننا، سيكون الرابحون الوحيدون هم

المتطرفون في كلا الجانبين. وإذا كان هذا هو مستقبل منيرة، فإنه ليبدو مستقبلاً كئيباً.

"فبالنسبة إلى هناء يبدو الاحتلال أسوأ مما هو بالنسبة لي. فعلى الأقل، إن لي أهلي الموجودين معي. أمَّا أهلها ففي مخيم في لبنان؛ فالإسرائيليون لن يسمحوا لأهلها بالمجيء للسكن هنا. والآن يمكن أن تصبح ابنتها محتجَزة أيضاً. ليس فقط بواسطة الإسرائيليين، بل بواسطة إصرار والدها على ما يجب للمرأة العربية أن تكون عليه."

فكَّر دافيد في هذا الكلام. "في هارفارد،" قال معلِّقاً، "لم يبدُ لي صائب إسلامياً أصولياً بصورة فاقعة."

"تقول هناء إنه لم يكن كذلك آنذاك. وإلَّا لما كانت ستقبل بالزواج منه."

ارتشفت نسرين قهوتها متأملة. "أعتقد أن توجهه للإسلام هو مزيج من السياسة والسيكولوجيا. فسياسياً، حماس هي أكثر من سواها عداءً لإسرائيل. أما من الناحية السيكولوجية ـ وهنا قد يختلط الأمر ـ فإني أعتقد أنه كلما زاد الاحتكاك بين صائب وهناء، خاصة حول منيرة، كلما وجد نفسه مدفوعاً نحو الدين الذي يصرُّ بعضهم على اتباع شرائعه وأخلاقياته.

"إنني أميل إلى اعتبار خلاف صائب وهناء حول ابنتهما مسألة رمزية. فمن جهة أولى لديك هناء، نموذج جيد للمرأة العربية التقدمية التي يمكن أن تشكل قاعدة دعم لبنت مثل منيرة." ابتسمت نسرين ابتسامة عابرة. "ليس الأمر أنني أعتبر نفسي فتاة نموذجية في دورها، لكن هناء تريد لابنتها منيرة أن تعيش حياتها مثلما أعيش أنا حياتي. فأنا حرة في قول ما أريد قوله، وأن أواعد من أشاء مواعدته، وأن أذهب إلى حيث يطيب لي أن أذهب، وأن أصرف أوقاتي بصحبة من يروق لي أن أمضي صحبتي معهم، وأن أرضي طموحاتي، وأن أمدَّ حشريتي بالطريقة التي تروق لي. إن هذه قد تكون حياة صعبة: فأنا امرأة تلوكني الألسن. وكثيرون من مواطنيَّ الفلسطينيين يجدون أن سلوكي لا يمكن التسامح به. لكن هناك المزيد والمزيد من النساء اللواتي يشبهنني. وفي اعتقاد هناء أننا نمثل المستقبل الذي تريده لابنتها منيرة."

لمعت في ذهن دافيد صورة منيرة المحجَّبة وهي تسرد له بصوت روتيني كيف يقوم والدها بتوجيهها إلى دراسة القرآن. وفي تلك اللحظة، شعر بشكل أكثر وضوحاً من السابق، كيف أن الصراع العميق بين الزوج والزوجة يرسم قدر طفلتهما الوحيدة. "ومن جهة أخرى،" كانت نسرين تقول، "هناك الحياة المرسومة للمرأة، وفق الإسلام الأصولي، حيث يجب ألا يكون لها علاقات مع الرجال خلا من أجل الزواج."

أطرقت نسرين تتأمَّل حضنها. ثم قالت بكلٍّ هدوء. "أنت صديق لهناء منذ أيام الدراسة في كلية الحقوق. أليس هذا صحيحاً؟"

"نعم."

زفرت نسرين زفرة عميقة. "إن هناء امرأة شديدة التعاسة. وأعني بذلك: ليس أنها غير سعيدة بزواجها فقط، بل في قلبها أيضاً، وفي روحها. فإن خلف ذكائها، وامتلاكها لأمر نفسها، ثمة وحدة رهيبة كامنة في مخبئها."

"هل أن ذلك بسبب زواجها؟"

"بسبب زواجها، وبسبب ما تشعر به من التندم." رفعت نسرين نظرتها إلى وجهه. "سوف أفضي إليك بسرٍّ خاص عن هناء، هل هذا ممكن؟"

"تفضلي."

"في كلية الحقوق كان لهناء علاقة ما؛ لم يدرِ صائب. وبالطبع، لو أنه عرف فلربما أنه لم يُقدم على الزواج منها، واحتقرها إلى الأبد.

لكن هذا العشيق كان قد ترك بصمته."

شعر دافيد بقشعريرة تسري في جسده. "وماذا أخبرتك عنه؟"

"لم تقل عنه الكثير. قالت فقط إنه أميركي. وأن الأمر برمَّته كان مستحيلاً. لكنها لم تستطع بعد ذلك أبداً أن تنساه." بدت نسرين متأملة. "لقد تكلمنا في هذا الموضوع في مناسبتين فقط. وكانت المرة الأخيرة قبل أن تسافر هناء إلى أميركا مباشرة.

"كانت تعجب ما إذا كان عليها أن تحاول رؤيته. كان النازع لديها قوياً جداً، لكنها كانت تخشى انفلات عواطفها. ثم قالت لي: 'هل تعلمين ما هي حقيقة شعوري؟ أعتقد أنه كان يمكن أن يكون والداً أفضل لابنتي'." ابتسمت نسرين بحزن. "لقد كان ذلك لا يشبه تفكير هناء. فالأفكار السحرية مستحيلة في واقع الحياة. فلو أنها اختارت ذلك الرجل لما كان لها أن تلد منيرة. ومنيرة هي كل شيء في حياتها.

"إن ما قالته لي يدلُّ على أن إحساسها بالخسارة كان بالغ العمق، وأن مخاوفها على ابنتها كانت شديدة القسوة، الأمر الذي دعاها إلى السماح لنفسها بالانغماس في الأفكار الحالمة. وهذا ما جعلني أحزن من أجلها أكثر من أيِّ شيء سواه قد تكون أفضت به إليَّ."

لم يجد دافيد كلمات يقولها. جلس هناك بينما قافلة من المدارك تتوالى عليه لتغلبه على أمره محوِّلة طريقة فهمه لكل كلمة كانت قد قالتها هناء له، وكل شيء فعلته أمامه، منذ اليوم الأول الذي كلمته فيه بعد عودتها إلى أميركا. نظرت إليه نسرين نظرة مرتابة قبل أن تسأله، "لعلك عرفتَ ذلك الرجل؟"

تمكن دافيد من رسم ابتسامة. "أنت صديقتها المفضلة يا نسرين، وأنت تعرفين كم أنها يمكن أن تكون متكتمة، خصوصاً حول مسألة مثل هذه."

هزت نسرين برأسها هزة المكتفي بالجواب. وفي تلك اللحظة فهم دافيد كيف أنه قد فات عليها - وهي المرأة الشديدة الإدراك - ما قد يبدو واضحاً، لولا أن سبباً تسبب في تحويلها عن رؤية الأمر الجليّ. إن نسرين لم تستطع أن تتصور أن يكون دافيد هو عشيق هناء لسبب وحيد، هو أن دافيد شخص يهودي.

الفصل 20

كان دافيد مشتت الفكر، عندما دخل إلى فندق بارك مقفلاً عليه باب غرفته.

تمدد على سريره لساعات، ما تحرك خلالها سوى لماماً، لكنه لم يكن قادراً على أن يستجلب النوم. فمنذ أن استنجدته هناء لم يكن ليثق بها، ليس فقط بسبب شكوكه في براءتها، بل أيضاً بسبب وساوسه حول ما قد آلت إليه أحوالها من مآل. كان يجادل نفسه بأنه من المنافي للمنطق أن يهتم بشأن هذه المرأة بعد مرور ثلاث عشرة سنة، كما أن منطقه سيكون منطقاً طفولياً لو ساوره الاعتقاد لحظة أنها ربما لا يزال يعنيها أمره بعد انصرام هذه المدة، هذا لو كانت بالفعل قد اهتمت لأمره أصلاً بقدر ما اهتمَّ هو لأمرها. كان دافيد متشبثاً برأيه الخاطىء، متنائياً، وممتعضاً من التأثير الذي تركته هناء على حياته. كما أنه كان أبعد ما يكون عن اليقين في حكمه عليها، إن كمحام، أو كرجل. وها هي ذي الآن، أقرب صديقاتها إليها تقلِب فهمه عنها رأساً على عقب.

عبثاً تمنى في تلك اللحظة لو كان له من وصول إليها لمجرد سماع صوتها وسؤالها عن اعترافاتها إلى نسرين. وبدلاً عن ذلك، فإنه اكتفى بإعادة استعراض ذاك الشريط في رأسه. الشريط الذي كان فيه تسجيل لكلٍّ لقاء كان قد جرى بينه وبينها، بما في ذلك كلماتها، وتعابيرها ورنة صوتها. والآن باتت أسئلتها المتعلقة بكارول، وحتى تردُّدها في طرح تلك الأسئلة، تلتمع في رأسه من جديد. لقد أحبته في هارفارد، ولا زالت تهتم به حتى الآن؛ وهي رغم أنها الآن أمٌّ وزوجةٌ تواجه مصير السجن المؤبد، أو الإعدام: فإنها على الأقلّ، مبلبلة المشاعر نحوه مثلما هو حاله تجاهها.

لكن فهمه الجديد هذا، لم يكن ليستطيع إزاحة شكوكه في أمر براءتها. ومع أن من البديهي أن مشاعرها نحوه قد منحتها القدرة على اجتياز اختبار كشف الكذب بخفَّة أفضل: إلَّا أن الدليل القائم في غير مصلحتها ما زال على حاله قائماً من غير دحض. أمَّا أقوى نقطة دفع متوفرة له في دفاعه عنها، وهي أنها أمٌّ لا يمكن لها أن تجازف بتوريط نفسها، على افتراض أن محبتها لابنتها تعادل بالضرورة براءتها؛ إلَّا أن حقيقة واحدة تستطيع أن تقلب هذه المعادلة بين ليلة وضحاها.

ومرة بعد مرة دارت رحى تفكيره حول مصرع كلٍّ من ماركيس، وليف، وحول دوره الخاص في موت هذين الرجلين، وإن كان لا يتعدى أن يشبه دور الحفَّاز (Catalyst) في التفاعل الكيماوي. لقد كانت الشكوك لا تزال تساوره حول متانة كتفيه للقيام بأعباء هذا الحِمل. كما أنه كان لا يزال جاهلاً بأبعاد، وحبكة، تلك المؤامرة التي تصوَّر وجودها. كما أنه كان خائفاً أيضاً من أنه ما إن يستطع الاقتراب من الحقيقة حتى يُقتل شخص آخر جديد؛ وربما يكون هو نفسه المرشح للقتل هذه المرة. وعندما أطفأ نور المصباح، لم يكن على يقين سوى من أمر واحد، هو أنه عندما يستيقظ من جديد فإنه سيكون أكثر تشوشاً كونه الآن عالقٌ بين شكوكه في براءة هناء، وبين يقينه التام حول أمرٍ وحيد بشأنها، هو أنها قد أخفت عنه مشاعرها التي لا تزال تكنُّها تجاهه.

* * *

جلس زاهي فرحات، المستشار الأول لمروان فاراس مع دافيد في الحديقة النضرة العائدة لدارته المشرفة على رام الله، عاكسة بذلك الثراء الذي هبط على قادة منظمة فتح، والذي قد أثار الكثير من الامتعاض في صفوف الفلسطينيين العاديين، خاصة الرجال منهم من أمثال صائب خالد. "إنهم ليِّنون فاسدون،" هذا ما كان قد صرَّح به صائب ساخراً. "لقد غاب عن أذهانهم العمل الذي جئنا بهم من أجل القيام بعمله." أما كون ما عناه صائب في الحقيقة، فهو لا يتوقف عند تأسيس حكومة فاعلة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى ضرورة محو دولة إسرائيل من الوجود، وهذا أمر لم يغب فهمه عن دافيد.

وكونُه رجلاً كيِّساً ذا شعرٍ أشيب، ونظارتين فوق عينيه، بالإضافة إلى سيماء الأستاذية التي تحيط به، فإن ذلك كله جعل فرحات أمتع صحبة من صائب. سيَّما وأن أهمية الرجل بالنسبة إلى دافيد كانت أمراً سبق أن أكده له نبيل عشوي كما يلي: إذا شاء فرحات، فإنه قد يستطيع ترتيب اتصال لك مع قادة كتائب شهداء الأقصى. وفيما هو يسكب الشاي لدافيد من إبريق من الخزف الصيني كان فرحات يتكلم عن قتلة بن آرون. "هذه المخيمات العائدة للاجئين،" قال بتعبير حزين، "هي مشكلةٌ، وأيُّ مشكلة. والآن، فإن هذين الخريجين قد يكونا قلبَا بالفعل كلَّ ما يحيط بهما رأساً على عقب؛ ليس فقط بن آرون، بل فتح أيضاً، وكتائب الأقصى بالطبع، وكل أمل يتصل بالسلام. وبينما تستفيد حماس من هذا، فإن مروان فاراس والبقية الباقية منا نبقى نتشبث بوجودنا بأظافر أصابعنا."

"هل لك أن تُشبع فضولي،" قال دافيد. "إن لديكم مليون لاجىء في هذه المخيمات، كما أن لديكم ما هو أكثر من هؤلاء حول العالم. بعضهم يعود تاريخ لجوئهم إلى تاريخ إنشاء دولة إسرائيل نفسها. ويقول الإسرائيليون عادة إن السلطة الفلسطينية

تحافظ على هذه المخيمات لسبب تتأسفون له، وهو توليد العنف والامتعاض ضد إسرائيل، وفي الوقت نفسه حجب الانتباه عن إخفاقاتكم الخاصة، وهذا يعني باختصار، أن جعفر وحسن هما من إنتاجكم أنتم، وليس من إنتاجهم."

ابتسم فرحات ابتسامة خفيفة. "إنني أعترف بأننا إذا قمنا بتفكيك المخيمات، فلن يبقى في أعين العالم مشكلة لاجئين، وبالتالي لن يبقى ما يذكّر بقلّة العدالة التي عانى منها الكثيرون. إننا في واقع الأمر مغيَّبون بما فيه الكفاية. لكن الحقيقة الأساسية هي أن المخيمات تحفظ الإحساس بالشخصية، حيث يقسم اللاجئون أنفسهم عادة على مجتمعات تحفظ ذكرى القرى التي رحلوا عنها."

"وحيث يعيشون أيضاً في كنف ماضٍ مثالي ذهني،" قاطعه دافيد، "متعلقين برموز طردهم من الجنة، بينما يبقى أطفالهم يلعبون في المجارير المفتوحة. وهذه هي عناصر وصفة الأذى الذي تتخبطون فيه. إذا كان لي أن أكون متأكداً من شيء: فهو أن لا اليهود، ولا الفلسطينيين، سوف يتمكنون من الوصول إلى أي نتيجة. وكل جهة تعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث، على الأقل، دون حصول تهجير وسواه من الأعمال الوحشية، فهي جهة غير عاقلة، لذا ما الذي يمنعكم جميعاً من التصريح بهذه الحقيقة كاملة؟"

تمعَّن فرحات بأظافر أصابعه المقلَّمة. "إن قائداً يقول للفلسطينيين إنكم لن تستطيعوا العودة، قد لا يبقى بعد ذلك قائداً. إن فتح جاهزة للمساومة. لكن كيف يسوغ لنا الاعتراف بحق إسرائيل بطرد الفلسطينيين من ديار أجدادهم بسبب انتمائهم الديني فقط؟

"إن المفهوم ذاته، الذي قامت عليه دولة إسرائيل، هو مفهوم عرقي. فما من دولة أخرى على وجه الأرض تعد بإقامة ديموقراطية تقتصر على المنتمين إلى إثنية واحدة أو دين معيَّن، حتى في الوقت الذي يمنعوننا فيه من إقامة دولتنا. إن الإسرائيليين يعيشون في حالة من الحصار معتقدين أن اللاسامية هي حالة دائمة ستلازم الجنس البشري. لذلك فإنهم يقومون ببناء الجدران العازلة في وقت تتساقط فيه الجدران العازلة حول العالم. ثم إنهم يقومون بتصويرنا وكأننا إرهابيون لا صلة لنا بالبشر. وهم يستوردون اليهود الروس بالملايين في سعي يائسٍ منهم لكسب ما يخشون خسارته ـ إنها الحرب الديموغرافية." لطم فرحات الطاولة. "ثمة جنرال إسرائيلي أطلق مرة تعليقاً هو أكثر التعليقات دلالة على التفكير الجنسي والعرقي عندما قال: 'إن أسوأ القنابل التي ينتظر انفجارها شراً هي أرحام النساء الفلسطينيات'. ومع هذا، فإنهم يتظلمون بسبب *هذا الكلام الذي ألقاه إمامٌ ما*. يا له من نفاق."

فجأة، شعر دافيد أنه قد سمع ما فيه الكفاية. "حقاً،" استجاب بشيء من السخرية والغضب. "أنا لا أستطيع أن أتصور لماذا يقوم شعب قاسى مدة ثلاثة آلاف سنة من الإبادة الجماعية والنبذ، بلغت ذروتها في الهولوكوست، بطلب إقامة وطن خاص به يكون له

ملجأً آمناً. ففي نهاية الأمر، ليس هناك سوى الفلسطينيين يطردون من بلدٍ لآخر، وليس هناك سوى اليهود ممن يرفضون التسليم برواية سواهم عن المعاناة.

"عدا عن القاتلين الاثنين، هل تعرف من أعتقدُ أنا أنهم ساهموا في قتل بن آرون؟ إنكم أنتم جميعاً قد ساهمتم بقتله لأنكم ما زلتم تعيشون في كواكب مختلفة، وأن كوكبكم سوف يصبح مباركاً نقياً من الصهاينة. إنه هراء. وهو أشبه ما يكون بفكرة الإسرائيليين، أو الذين لست أدري ماذا تسمونهم، التي تقول أن الفلسطينيين ليسوا شعباً، لكن التاريخ جعلهم كذلك." أبطأ دافيد الآن في كلامه. "إنني موجود هنا منذ أسبوعين فقط، وكلُّ ما صار بوسعي أن أعتقده هو: 'ليكن الله بعون هذه البلاد.' هذا إذا افترضنا أن الجميع يمكن أن يتفقوا على فكرة موحدة عن الله. وكلُّ ما أرجوه هو أن أستطيع إخراج موكلتي حيَّة من هذه البلبلة اللعينة."

حدق فرحات به ثم أطلق ضحكة قصيرة. "هناك حقيقة في ما تقوله، مهما يكن قد جاء بلغة فظة. وإنني أسلِّم بخوف الإسرائيليين المشروع من المفجِّرين الانتحاريين. لكنك لا تستطيع أن تقمع، وتعيق تطور شعب بأكمله، ثم تكتفي ببناء جدار عازل بينك وبين المشاكل التي تسببت أنت بخلقها. عندما ينتهي الاحتلال، فقط، نستطيع أن نبني مجتمعاً مدنياً، وعند ذلك ينعدم وجود الانتحاريين الذين يأسف جميعنا لوجودهم."

هزّ دافيد رأسه. "كيف يمكنكم أن تتوقعوا انتهاء الاحتلال قبل أن يتوقف العنف؟"

"نتوقعه بمغادرة الإسرائيليين أرضنا، وبسرعة، وذلك قبل أن تسيطر حماس على كلِّ شيء. هل تريد أن تعرف كيف تتم صناعة الإرهابيين؟ فكِّر في أخت جعفر الحبلى. أو كن فلسطينياً لمدة يوم واحدٍ فقط. قُدْ سيارتك في اتجاه نقطة تفتيش إلى أن يتوقف السير أمامك، ثم انزل من سيارتك وامشِ مسافة نصف ميل إلى نقطة الحاجز. هناك ستجد جندياً إسرائيلياً شاباً يحمل سيجارة في فمه وفي يده بندقية مصوَّبة نحو مئتي شخص مصطفين أمامك.

"وربما أنك طالب غير قادرٍ على الوصول إلى مدرستك. ولربما كنتَ واحدة من مئات النساء اللواتي وضعن أطفالاً عسى أن يكونوا أحياء، ولربما كنت أنت زوجاً جرت إهانتك في حضور أفراد عائلتك على يد جندي في عمر ابنك." صار صوت فرحات حزيناً. "ولربما أنك قد تأخرتَ في العودة إلى بيتك. وما الذي ينتظرك؟ فقرٌ منتشرٌ، وبطالة متفشية. وقريتك معزولة عن القرية المجاورة لها، وأطفالك محرومون من مستقبل يعد بما هو أفضل من حياتك. وعلى سطح التلة التي تشرف عليك، ثمة مستوطنة يسكنها يهودٌ يحتقرونك، أو ربما يطلُّ عليك هذا الجدار دون سواه.

"أمَّا بالنسبة إلى هؤلاء 'الشهداء'، فعليك أن تنسى أنهم يلاقون تبجيلاً عالمياً. فإن معظمنا ينكمش خوفاً عندما يُقتل أيُّ إسرائيلي. لا تلقِ لومك على الدين أو على

الأيديولوجيات وحدها. فإلى التحريض الذي تنكر أن الإمام قد قام به، عليك أن تضيف أيضاً اليأس، والإذلال، وتدمير المنازل، وتخريب المزارع، والرغبة في الانتقام. إنه الاحتلال وليس التعصب هو الذي فرَّخ إبراهيم جعفر."

"عداك،" أجاب دافيد، "عن الشبكات الإرهابية التي تقدم المال لعائلات 'الشهداء'. الذين يحسبكم الإسرائيليون مسؤولين عن وجودهم، ويجب أن تكونوا. ولكن دعنا من المداورة. إن مصلحتك تقضي بأن تتعاون معي قبل أن تصبح حماس متجذرة."

أسند فرحات مرفقيه إلى الطاولة، محدِّقاً في الحديقة المتعددة الألوان، التي تحيط بهما. "قبل أن يُقتل بن آرون،" قال في النهاية. "سيطرت حماس على المجلس التشريعي. وكانت استراتيجيتنا تقوم على متابعة استدراجهم إلى العملية السياسية، حتى على حساب المجازفة بخسارة مواقعنا كلها. ذلك أن لا خيار أمامنا. فكل محاولة نقوم بها لتجريدهم من السلاح ستقود إلى حرب أهلية غير محصورة النطاق بيننا. حرب لا تملك السلطة الفلسطينية المصادر الكفيلة بتأمين كسبها.

"لكن كل هذا يبقى أيضاً دقيقاً وحسَّاساً. فلكي نربح انتخابات المجلس التشريعي من جديد، فإننا نحتاج إلى السلام مع إسرائيل. وبكلام آخر، كنا في حاجة إلى بن آرون." صارت رنة صوته رثائية. "الآن، يلقي الإسرائيليون اللوم علينا من أجل الإخفاق في السيطرة على قاتليه. وشعبنا يلقي اللوم علينا لأننا جلبنا له انتقام الإسرائيليين منه بدلاً من أن نجلب إليه إقامة السلام معهم. ولأن جعفر ينتمي إلى كتائب الأقصى، فإن هذا قد يعني ختم مصير فتح. وبالتأكيد فإنه قد ختم تماماً على إمكانيتنا لاجتذاب قوات الأقصى إلى صفوف قوانا الأمنية، الأمر الذي كان سوف يعزز قبضة يدنا في وجه حماس.

"هذا يجعل حماس تخرج أشدّ قوة من ذي قبل. وقريباً سيباشرون هجماتهم الانتقامية ضد إسرائيل. فقط إذا أعطتنا إسرائيل كياناً وطنياً، نستطيع استعادة قوتنا، ونزع سلاح حماس، ووقف عمليات التفجير الانتحارية هذه. وإلَّا فإن حماس هي ما سيمثل مستقبل الشعب الفلسطيني."

"وماذا لو صار ذلك واقعاً؟"

"عندئذٍ سيكون لدينا دولة إسلامية أصولية تكرِّس نفسها لتدمير إسرائيل. ومن الواضح أن هذا الأمر شيء سيِّئ لإسرائيل. لكنه سيِّئ أيضاً لطبقتنا المثقفة. وهو سيِّئ بشكل خاص لنسائنا من أمثال هناء عارف، ونسرين عوض، أولئك النساء اللواتي سيجري فصلهن عن الرجال في المناسبات العامة، وسوف يجري إلزامهن بوضع الحجاب. كثير من الفلسطينيين العلمانيين سيهاجرون بالطبع. أمَّا الديموقراطية فسوف تلقى نهايتها."

"كل ذلك بسبب موت بن آرون،" أجاب دافيد، "أمَّا قاتلاه فمن المفترض أنهما من

كتائب الأقصى. انطلاقاً من كون جعفر ينتمي إليها. لكنه قد جرى تجنيده من قبل حسن. وهناك أفراد من عائلة حسن ينتسبون إلى حماس."

بدا الحذر كأنه يغشِّي عيني فرحات. "لقد فكرنا في ذلك كله. لكننا لا نملك برهاناً على ارتباطه بحماس. ومثل هذه الاتهامات تتسبب أحياناً بقتل الناس." متوقفاً عن الكلام، نظر فرحات إلى الطاولة محدِّقاً. "منذ مقتل بن آرون، خسرنا كل ما تبقى لدينا من سيطرة قليلة."

"وكيف يقع ذلك في مصلحة كتائب الأقصى؟"

"إنه لا يخدم كتائب الأقصى في شيء. وهذا ما أجده لغزاً محيِّراً. لكن ليس جميع أعضاء كتائب الأقصى منطقيون، حتى قياداته."

انتظر دافيد إلى أن رفع فرحات أنظاره من جديد." أريد أن ألتقي بهم،" قال.

هزَّ فرحات رأسه. "هم الآن إمَّا أموات،" أجاب بهدوء. "وإمَّا مختفون تحت الأرض. بحيث إن إسرائيل ذاتها لن تعرف كيف تصل إليهم."

"حتى أنت لا تستطيع؟ إنني سأرضى بمقابلة من كان لا يزال على قيد الحياة منهم، ويملك الشجاعة الكافية لأخذ المجازفة،"

رفع فرحات جفنيه. "مثلما فعل باراك ليف؟ فأنت لا تعلم حتى من هي الجهة التي قامت بقتله. هل أنت تدري حقيقة؟"

شعر دافيد بثقته تخور. "هذا صحيح،" قال معترفاً. "لكننا لسنا في إسرائيل الآن. وقادة كتائب الأقصى يجب أن يكونوا خبراء في حماية أنفسهم، وإلَّا لكان الإسرائيليون قد أجهزوا عليهم جميعاً منذ وقتٍ بعيد."

"حتى ولو كان الأمر كذلك، ما الذي يدعوهم إلى المجازفة باللقاء بك؟"

"لأن هذا قد يصبح وسيلة أفضل من البقاء تحت الأرض من أجل الدفاع عن النفس. فقادة كتائب الأقصى أنكروا أية علاقة لهم بحسن، أو بالمؤامرة المدبرة لقتل بن آرون. ومعظم الناس لا يصدقون ذلك ويعتبرونه مجرَّد تكتيك يهدف إلى التماس السلامة. لكن يصدف أن أكون أنا مصدِّقاً لهم. وبكلام أوضح، أرى أن لا شيء في عملية الاغتيال هذه ينطبق على ظاهر الأمور؛ وأن هذه العملية ليست من صنع كتائب الأقصى، وأن هناء عارف ليست مدبِّرة القتلة. وأن الجهة التي رتبت هذه الأشياء كلها معاً قد درست العواقب بعناية شديدة، هنا كما في داخل إسرائيل.

"إنني محقٌّ في اعتقادي أن دفاعي عن هناء عارف قد يكون أفضل آمالكم في النجاة. إنني أحتاج إلى مساعدة كتائب الأقصى لي، كما أحتاج إلى مساعدتكم، في أمرِ ربط

حسن بحماس. ومن هناك فصاعداً فلربما أستطيع أن أجد من هو المدبِّر الحقيقي، ولمصلحة من كان هذا المدبِّر يعمل. ومثلما تبدو الأمور الآن، فإنه لم يعد لديكم ما تخسرونه في القريب العاجل."

نظر إليه فرحات نظرة تقييم مدقِّقة. "حسناً،" قال في النهاية. "سوف أفكر في ما قلته لي."

"جيد، لأن هناك شيء آخر إضافي أريده: الملف الطبي لصائب خالد."

مع أن حدقتا فرحات قد توسعتا، فإن دافيد أدرك أن دهشته كانت خادعة. "ولأيٍّ غرض؟"

في السنوات القليلة الماضية، سافر خالد إلى عمّان في ما يفترض أنه لاستشارة طبيب أخصّائي حول حالة قلبية خطيرة. وربما يكون ذلك صحيحاً. لكن رحلته الأخيرة كانت قد تمت قبيل مغادرته إلى أميركا، وهذه استغرقت عدة أيام، مما يترك له وقتاً كافياً لعمل أشياء أخرى. وإنني قلِق لمعرفة ما هي هذه الأمور الأخرى، ومن تراه قد قابل من الناس؟"

راقبه فرحات باهتمام واضح. "إذن أنت تريد استبدال الزوج بالزوجة؟"

فقط إذا كان ذلك مبرَّراً. لكن إذا لم يكن لديه مرض في القلب، أو أنه رأى طبيباً لمدة قصيرة فقط، فإن ذلك سوف يثير فضولي."

فتح فرحات كفيه. "ولكن لماذا تسألنا نحن عن ملفات خالد السرية؟ لمَ لا تسأل الإسرائيليين؟ فلربما هم أيضاً أخذهم الاهتمام به."

"أنت تعرف أنهم مهتمون بذلك،" ردَّ عليه دافيد. "لكن الإسرائيليين لن يساعدوني. لهذا فإنني أسألكم ذلك. صائب خالد قد يكون فلسطينياً، لكنه ليس صديقاً لفتح. وأريد الحصول على سجلاته دون أن يدري، لا هو، ولا أيّ شخصٍ آخر بذلك، سوانا." سكت دافيد برهة ثم عاود الكلام بطريقة أكثر هدوءاً. "لا أحد يعرف ما الذي حصل هنا. وما لم نعلم، فإن الشرق الأوسط برمته قد يتفجر، وقد تنفجر معه كل الآمال بالدولة الفلسطينية. وربما قد يكون باستطاعتي أن أعيش مع هذه الحقيقة. لكنني لا أريد أن يجري إعدام هناء في هذه الصفقة."

ابتسم فرحات ابتسامة فاترة. "مثلما قلت لك من قبل يا سيد وولف، إنني أقدِّر صراحتك. وبالنسبة ليومنا هذا، لنعتبر ما جرى كافياً."

الفصل
21

في صباح يوم تلا، سافر دافيد إلى مدينة الخليل برفقة رجل غريب. "عليك أن ترى الأحوال بنفسك في مدينة الخليل،" هذا ما قاله له نبيل عشوي، "وهذا الرجل قد يكون قادراً على مساعدتك بوسائل لا أستطيعها أنا، وسوف ترى بنفسك."

كان دليله أبو جمال رجلاً ضئيلاً يضع نظارتين، وهو أستاذ رياضيات سابق في العقد الرابع من عمره، تعرض للسجن مرتين في شبابه بسبب ما نُسب إليه من عضوية لمنظمة التحرير الفلسطينية. في المقعد الخلفي من سيارته الجيب كان ثمة درع واق وبعض العطر الذي شرح عنه جمال أنه قد يدفع آثار الغاز المسيل للدموع عندما تُغمس به كريات قطنية تُحشر في الأنف.

وعند حاجز قلندية توقفا ثانية، بادئين عملية لم تعد جديدة على دافيد. نصف ساعة من التأخير بينما جنود متوترون يدققون في أوراقهما، ويفتشون في صندوق السيارة، وفي حقائبهما، بحثاً عن متفجرات. ومرة جديدة شعر دافيد وكأنه يدخل في حالة حلم يمكن لها، لو فجَّرها حدث عارض، أن تتحول بسهولة إلى كابوس مرعب. لكنه افترض أن جمال هذا قد أرسله فرحات، وكان يأمل أن تكون هذه الرحلة حلقة تؤدي إلى لقائه بقائد كتائب الأقصى.

جالساً في مقعد السائق، حدَّق جمال في الحائط الإسمنتي الذي يرتفع ثلاثين قدماً، ليفصل بين قلندية وبين القدس. "إن هؤلاء اليهود،" قال، "قد سرقوا أرض بلادنا، وها هم الآن يسرقون المزيد منها. وإذا استطعنا اجتياز هذا الحاجز، فسوف أجعلك ترى قرية عطوانه."

* * *

ومع أن المحيط الطبيعي لقرية عطوانه كان صخرياً قاحلاً، إلا أن تلالها كانت تلطفها أشجار التين والزيتون والحقول التي ترعى الأغنام فيها. وفي أعلى تلّة من هذه التلال، تغطيها أشجار الصنوبر، كان ثمة مستوطنة تسيطر عليها حركة مسعدة. "هؤلاء المستوطنون،" قال جمال، "يتمتعون بحصانة من العقوبة فيما هم يقومون بمضايقة هؤلاء

القرويين، فيقتلون أغنامهم، ويسرقون محاصيلهم، ويرشقون أولادهم بالحجارة بينما هم في الطريق إلى المدرسة. إنهم أسوأ أنواع اليهود، وهم يفتعلون المشاكل حتى لا يكون ثمة سلام."

تكرار جمال لعبارة 'اليهود'، بدأت تسحج أعصاب دافيد. "باراك ليف،" قال جمال، لافظاً الاسم كما لو أنه لعنة. "كائناً من يكون ذلك الذي طيَّر جمجمته، فإن قاتله قد فعل حسناً."

وعند أسفل التلة، حيث كان ثلاثة فلسطينيين يسرِّحون أغنامهم، وصلا إلى عيادة يديرها فريق من دعاة السلام المسيحيين. شاب وشابة كانا أمام العيادة في الخارج. رجلٌ كندي كستنائي الشعر، وامرأة شقراء نضرة الوجه، من مينوسوتا. أمَّا رئيستهما، فمعلمة مدرسة من نيويورك، تجعل شعرها الفضي على شكل كعكة. كانت الشقراء تحمل يدها في معلاق يتدلى من رقبتها، وقد لاحظ دافيد وجود كدمات حول عظم تُرقُوَتها.

"هذه الإصابة لا تبدو إصابة بسبب رياضة التزلج،" قال لها.

استجمعت الشابة شانون هيث ابتسامةً، ما لبثت أن انطفأت بسرعة. "منذ أسابيع قليلة،" قالت له، "بدأ بعض المستوطنين يقطعون قمح القرويين. وحيث ان مُجمل دورِنا هنا، يقوم على تخفيف العنف والاحتكاك، وذلك عن طريق طلب تدخل السلطات الإسرائيلية عند الحاجة. وحيث أن زميليَّ،" وهنا أشارت برأسها إلى زميلها الشاب ورئيستها، "لم يكونا موجودين هنا. لهذا فإنني ابتدأتُ بتصوير المستوطنين بواسطة كاميرا فيديو، بنفسي ـ"

"لقد ضربوها بالسلاسل،" قالت رئيستها بإيجاز. "أمَّا الشيء الذي لا يمكنكَ رؤيته، فهو التمزُّقات في رئة شانون." بينما يداه مكتوفتان، وقف جمال جانباً، يبتسم بعبوس. "إنهم اليهود،" قالها مرة جديدة، كما لو أن مجرَّد لفظ هذه الكلمة يشكل تعليقاً كافياً بحدٍّ ذاته.

تجاهله دافيد. "هل من أحدٍ يقدِّم لكم الحماية؟" سأل الرئيسة.

"نظرياً، تؤمِّن السلطات الإسرائيلية حمايتنا. لكن المستوطنين سرقوا كاميرا الفيديو العائدة إلى شانون، وهي لا تستطيع معرفة الرجال الذين هاجموها." عضَّت المرأة على شفتها. "قبل بضعة أسابيع، قال الجيش الإسرائيلي للمستوطنين أن تقاريرنا إلى الصحافة تسبب 'الأذى'، وأن هذا الجيش سوف يتولى حماية القرويين بنفسه. وقد أجاب وجهاء القرية بأن السبب الذي جعل الإسرائيليين يهتمون، هو وجودنا نحن هنا، فقط."

"ولهذا، فإننا لن نغادر"، قال الكندي.

راقب دافيد، وجه شانون المتعب. "لا، لن نستطيع ذلك،" قالت مؤكدة. "في السنة الماضية قام المستوطنون بتسميم الماشية. أما هذه السنة: فإنهم قاموا بسرقة القمح.

وقبيل شروعه بضربي، كنت قد سألتُ أحد المستوطنين ـ الذي هو مراهق في الحقيقة ـ بأيِّ حقٍّ يأخذ القمح من أرض القرويين. 'إنني أحمل صكاً'، قال لي. 'إنه يدعى الإنجيل'. ولولا وجودنا هنا، إني أقسم لكم. فإنهم ما كانوا ليتورَّعوا عن قتل الأغنام."

أشارت الرئيسة إلى تلة قريبة. "هل تحبّ مشاهدة القرية؟" سألته. "إن أحد الوجهاء يتكلم الإنكليزية. وهو يستطيع أن يخبرك بالمزيد."

* * *

عند قمة التلة، دخل دافيد إلى مكانٍ جديدٍ، وزمنٍ جديدٍ؛ حيث الرعاة، والمزارعون، الذين يعيشون حياة الكفاف، مازالوا على حياتهم الفطرية التي توارثوها منذ قرون. فالنساء من ذوات الرؤوس المغطاة، والملابس الطويلة، يمشين بين الرجال النحلاء الذين أكسبتهم أشعة الشمس حكمةً وسُمرةً؛ وهن يحملن أغماراً من السنابل إلى داخل كوخ مظلم يستعمل كمستودع. وكان الكوخ يرجع بتاريخه إلى عهد الرومان حسبما اكتشف دافيد من وجود بقايا عمود روماني في الداخل.

ألقى خضر محفوظ، وجيه القرية الذي هو معلم مدرسة، التحية على دافيد بلطف واحترام. مصطحباً دافيد إلى منزله، أشار محفوظ إلى آثار جامعٍ مهدَّم. "منذ حوالي عشرين سنة، قمنا ببناء هذا الجامع. وما أن انتهينا من بنائه، حتى قام الجيش الإسرائيلي بهدمه." توقف مُسنداً يديه إلى وركيه، ماراً بأنظاره على المباني الإسمنتية التي تتشكل منها القرية. "لا يعطينا الإسرائيليون تراخيص للبناء. وعليه، فإن الجامع كان بناءً 'غير قانوني'، مثلما هو حال مدرستنا. فمهما نقم بتشييده من بناء، يستطيعون تدميره في أيِّ وقت. والآن، صار لدينا هذا الجدار."

شاهد دافيد شاحنة مليئة بجند الجيش الإسرائيلي ترتقي الطريق في اتجاه المستوطَنة، بينما هي تثير الغبار. "الجدار" تابع محفوظ كلامه، "سوف يحيط بمعظم الأراضي التي هي حولنا. نحن نقول إنها لنا؛ وهم يقولون هاتوا 'برهانكم'. لكننا لا نملك صكوكاً بين أيدينا. لهذا فإننا نعود الآن إلى المقابر محاولين البرهان على أننا قد عشنا في هذا المكان منذ قرون."

يأسٌ هادئٌ في نبرة صوته، كان يشي بأن مهمته لا أمل فيها. "مرة كان أبناءُ شعبنا يعيشون في الكهوف،" قال لدافيد. "وأحياناً يخيَّل إليَّ أننا سوف نُجبر على العودة إلى سكنى الكهوف من جديد. لكننا لا نريد لأطفالنا أن يشردهم هؤلاء المستوطنون، ولا أن يُجبَروا على الانقطاع عن أرضهم. إنها معضلة كبيرة. فأن نباشر العنف ضدهم يعتبر مجازفة كبيرة العواقب. وبدلاً عن ذلك، وبفضل مساعدة إخواننا المسيحيين: فإننا نصابر."

دخلوا إلى جوف منزله المؤلف من بناء إسمنتي. كانت أرضية الغرفة الرئيسية

مفروشة بسجاجيد أبلاها الزمن. جلس دافيد على سجادة بجانب صاحب البيت الذي جلس القرفصاء محافظاً على توازنه دون ظهور جهدٍ عليه. وبينما كانوا يرتشفون الشاي، كان محفوظ يطرد الذباب الذي يقوم بالطنين حولهم. "إني آسف،" كان يقول: "هذا الذباب يأتينا من المستوطنين." أشار إلى المستوطنة التي كان يمكن النظر إليها من خلال الفُرجة المفتوحة، التي هي باب بيته. "إنهم يجلبون نفاياتهم إلى أسفل التلة، جاعلين من قريتنا مزبلة."

استدار دافيد نحوه، مفكراً في طرح سؤال عليه. لكن محفوظ بقي شارد النظر نحو التلة. "لو كان بمستطاعي،" قال بهدوء، "لكنت تمنيت طردهم من هذا المكان. وإذا رفضوا الجلاء عنه، سأقوم بقتلهم جميعاً. فعندما يأتي أحدٌ مثلما أتوا، لسلبك أرضك، فإن مقاومتك لهم ليست إرهاباً. إنها كفاح من أجل البقاء."

* * *

بينما هما في طريقهما بالسيارة إلى الخليل، مرَّ جمال ودافيد بالقرب من مخيم لاجئين قذر. كان المخيَّم مسوَّراً بسياجٍ من الشريط يعلو عشرين قدماً، وكان يليه قرية عربية يطلُّ من فوقها برج مراقبة تابع للجيش الإسرائيلي. وكان جمال يروي لدافيد فصولاً من تاريخ الخليل المليء بالصراعات. فهي قد كانت مرة موطن النبي إبراهيم وعائلته، ثم صارت المكان الذي حكم منه الملك داود، كما توالى عليها المحتلون بالتوالي من رومان، إلى صليبيين، إلى أن حرّرها العرب بقيادة صلاح الدين. والمسجد الإبراهيمي كان قد بناه صلاح الدين هذا. وهذا المسجد يُعتبر رابع أقدس موقع للإسلام. ولأن هذا المكان مقدس في أعين اليهود والمسلمين، فإن هذا يسهِّل شرح السبب في كون العقود الثمانية الأخيرة من تاريخه كانت حافلة بالدماء. ففي العام 1929، تم قتل سبعة وستين يهودياً على أيدي الفلسطينيين، لكن جمال تردَّد في إضافة السبب في هذه المذبحة، وهي إقدام اليهود على ذبح الفلسطينيين في مدينة القدس في اليوم السابق. "إن ما يتكتم عليه اليهود،" قال جمال، "هو أن الفلسطينيين استنقذوا حياة بضعة مئات من اليهود الآخرين من الموت."

"وفي العام 1967،" تابع جمال، "عندما بدأ الاحتلال، فإن المستوطنين من اليهود المتصلبين قد جعلوا لهم وجوداً في مدينة الخليل مُقدِمين على إيذاء جيرانهم العرب تحت حماية الجيش الإسرائيلي.

"والآن، فإن أربع مئة وخمسين من هؤلاء، يقوم على حمايتهم ثلاثة آلاف جندي من الجيش الإسرائيلي، يسيطرون على قلب هذه العاصمة التي يسكنها مئة وخمسون ألف فلسطيني." ابتسم جمال بمرارة. "إنه ترتيب خاص أُعدَّ من أجل هؤلاء المستوطنين يدعى بروتوكول الخليل. وسوف ترى بنفسك الآن كيف يقومون بتشريف توقيعهم عليه".

* * *

بدت الخليل لدافيد كأنها قلب الشرق الأوسط. وبين فينة وأخرى، كان يرى لمحاتٍ واضحة من الحداثة. فهنا محلٌ راقٍ لبيع العطور وأدوات التجميل، وهناك سوقٌ لبيع الأقراص المدمجة، وألعاب الفيديو، وأقراص الفيديو الرقمية. لكن الشوارع المفضية إلى المدينة القديمة، كانت تغص بالبائعين المتجولين، وبالمشاة الذين يجبرون السيارات الخاصة، وسيارات التاكسي الصفراء، إلى حركة بطيئة تكاد تقارب التوقف. وفي الواقع، إن كل النساء اللواتي رآهنَّ دافيد كنَّ من المحجّبات، وبعضهن كنَّ يتغطّين إلى درجة لا تترك من الواحدة منهن شيئاً مرئياً سوى عينيها. وكانت هذه الظاهرة بخلاف ما رآه في رام الله، ولم يدهش دافيد أن يعلم من جمال أن الخليل التي طالما كانت دائماً تقليدية النظرة إلى الإسلام، قد باتت الآن، معقلاً لحماس. "المستوطنون،" قال جمال بلغة مباشرة "حصدوا كل ما كانوا قد زرعوه."

الشيء الأكيد الوحيد الذي تحصّل لدافيد، هو أن ثمة متّسع قليل سيبقى لسيدات من أمثال فاطمة خليل ونسرين عوض، لو ثبت أن الخليل سوف تكون نموذجاً عن مستقبل الضفة الغربية. فأمثالهن من السيدات يملكن من نواحي التعليم، والتطلع إلى الحياة، روابط مشتركة مع السيدات العلمانيات في إسرائيل، من أمثال: آنات بن آرون، وسوزان عارف، أكثر مما يملكن من الروابط مع أولئك النسوة اللواتي يلتقي دافيد بهنَّ الآن في شوارع الخليل. فخيار سيداتٍ من أمثال خليل، وعوض، الوحيد: إنما سيكون الهجرة. والسبب الوحيد لذلك سوف يكون: أن المستبدِّين في كلا الديانتين، قد كبحوا النساء في كلا المجتمعَين عن أن يكون لهنَّ قضيةٌ واحدةٌ مشتركة.

"دُلَّني على الحيِّ الذي يسكنه المستوطنون،" قال دافيد.

عند حافة المدينة القديمة، ترك الرجلان سيارتهما وراءهما. منذ ثمان مئة سنةٍ مضت، عندما بنى صلاح الدين المسجد الإبراهيمي، فإن الأزقّة المزدحمة الضيِّقة، والشوارع المرصوفة، قد حجبت شخصية هذا المكان، وحجبت كذلك، أسلوبَ الحياة، الذي شعر دافيد أنه يُطبِقُ حوله. وبشيء من الصعوبة شق دافيد ورفيقه لنفسيهما طريقاً متلوية خلال السوق المزدحمة التي تحتشد فيها أكشاك الباعة المتجوِّلين، والحوانيت التي تزوِّد المدينة بالفواكه، وأنواع الخبز، ولحوم الإبل، والسندويتشات، والألبسة، والأحذية، والألعاب. لقد كانت الأسواق محاصرة بالمشترين، بحيث أن دافيد كان يشعر في بعض الأحايين أنه عاجز عن متابعة سيره. ومن وقت لآخر، كان بعض الرجال يدفعون عربات خشبية مليئة بالمزيد من الفاكهة والبضائع من أجل ملء الأكشاك من جديد. ومع أن دافيد قد أخذه سحر سوق الخليل، فإنه وجد وجود شخص يهوديٍّ في هذا المكان، هو أمرٌ غريبٌ حقاً. فهو مكان واضح الهويَّة والسلوك العربيين. أمَّا الأمر الأكثر غرابة من ذلك، فهو أن يخطر في بال اليهود أن يختاروا هذا المكان، مكاناً للاستيطان.

لقد أفضى السوق العام إلى زقاق تجاريٍّ ضيِّق، يقوم فيه سوقٌ ليس يفترق عن نظيره في مدينة القدس القديمة. فهو محتشدٌ بالتجار والمتسوِّقين. ولكن بعد اجتياز بضعة مبانٍ، فإن شخصيَّة السوق النابضة تلاشت فجأة.

كان طراز البناء لا يختلف. لكن المشترين هنا بات عددهم ضئيلاً، فالبائعون المتجولون هنا، أفراد قليلون جلسوا إلى جانب الجدار محبَطين مثل زبائنهم. "هذا هو مكان المستوطنين،" قال جمال.

كان الإحساس بالفراغ ينذر بالشؤم. "وأين هم؟" سأل دافيد.

"إنه يوم السبت، إنهم معتكفون في الداخل على كتب صلاتهم، كما على مدافعهم الرشاشة." توقف جمال مشيراً إلى شبابيك الطابق الثاني. "ذاك هو المكان الذي يعيشون فيه."

محدِّقاً إلى الأعلى، وجد دافيد أن نظره معاقٌ بشبكةِ شريطٍ تتجمَّع فوقها أكوامٌ من النفايات، وبقايا الطعام الفاسد، التي تخالطها العلب والزجاجات الفارغة، وفي حالة من الحالات، حفائض الأطفال. ومن خلال فجوة بين النفايات، رأى دافيد علم إسرائيل. وبغضبٍ هادئٍ، قال جمال، "لقد شاؤوا المجيء إلى هنا لأنه قبل الإسلام، كان المكان الذي بُني عليه المسجد الإبراهيمي مكاناً مقدَّساً عند اليهود. أمَّا الآن، فإن هؤلاء الذين يدّعون أنهم الورثة الروحيون لليهود القدامى قد عادوا من أجل رمي نفاياتهم على باعتنا المتجولين. أمَّا الشريط المشبَّك، فهو طريقة دفاع هؤلاء الباعة الوحيدة."

امتدَّ السوق على هذا المنوال، لمسافة ربع ميلٍ تقريباً. وكان الهدوء هو الدليل الوحيد على وجود المستوطنين، خلا عن عبارات الشتيمة المكتوبة على الجدران باللغة العبرية، وخلا أيضاً عن روائح القمامة الكريهة، وخلا عن الحواجز المصنوعة من الشريط المعدني المشبَّك، وقضبان الفولاذ التي كانت تسدُّ الأزقَّة الجانبية، تلك هي الحواجز التي أقامها المستوطنون. وإلى الأمام، شاهد دافيد بوابة معدنية دوَّارة، تدار بواسطة جهاز للتحكُّم عن بعد من بيت كبيرٍ يحرسه جنود من الجيش الإسرائيلي. وعندما اقترب، صوَّب جنديان إسرائيليان السلاح نحوه، كان وجهاهما ناضبين من التعبير. "هؤلاء هم حرَّاس المستوطِنين،" أشار جمال ساخراً. "وبالطبع، فإنهم يدَّعون أنهم موجودون هنا من أجل حمايتنا. من المستوطنين ربما، أو ربما من باروخ غولدستاين آخر.

"لقد سبق لك وأن سمعتَ بهذا الاسم، دون شك، غولدستاين كان طبيباً في الجيش الإسرائيلي، كما أنه كان صديقاً لباراك ليف. وفي العام 1994، في يوم جمعة يشبه هذا اليوم كثيراً، دخل غولدستاين إلى داخل المسجد الإبراهيمي مع مدفعه الرشَّاش وبدأ بإطلاق النار على الفلسطينيين الساجدين جنباً إلى جنب للصلاة، وكانت ظهور المصلين توفر للرجل هدفاً مثالياً للرماية. لهذا، فإنه تمكن من قتل تسعة وعشرين عربياً، ومن جرح مئة آخرين، قبل أن يتمكن الناجون من ضربه حتى الموت."

وبينما جمال يتكلم، كان قد اجتاز هو ودافيد البوابة الأولى، متجهين نحو الثانية، التي يقوم بحراستها أيضاً جنود من الجيش الإسرائيلي. "الحكومة الإسرائيلية،" تابع جمال، "أدانت عمل غولدستاين، وقامت بدفع تعويضات لأهالي ضحاياه. لكن إيغال آمير يقول إن فكرة إطلاق النار على إسحاق رابين كانت أوّل ما خطرت في باله عندما رأى مئاتٍ من المشيعين في مأتم غولدستاين. وقد كان ليف، كما قيل لي، هو الذي ساعد على نقشِ عبارات التأبين على حجر ضريح غولدستاين." وعند وصولهما إلى البوابة الثانية استظهر جمال الكلمات المنقوشة على ضريح غولدستاين، من ذاكرته، عن ظهر قلب: "هنا يرقد القديس الدكتور باروخ غولدستاين. لتكن مباركة ذكرى هذا الرجل التقيّ الجليل. لينتقمنَّ الله لدماء الرجل الذي كرّس روحه لليهود، وللدين اليهودي، وللأرض اليهودية. فيداه بريئتان، وقلبُه طاهر. فلقد قُتل كشهيدٍ في سبيل الله." وبلهجة مزدرية أضاف جمال إلى العبارة الآنفة تفعيلة اللحن الخاصة به "اليهود أيضاً لهم شهداؤهم. والآن ينضمُّ إليهم باراك ليف."

لم يكن دافيد يفكر في باراك ليف، إنما في عاموس بن آرون. "بعد تلك المذبحة." قال. "ما الذي حصل في الخليل؟"

"حصل الكثير من حوادث الشغب. مات فيها ستة وعشرون فلسطينياً، كما مات إسرائيليان اثنان. بعد ذلك، قدِم المزيد من المستوطنين لتمجيد ذكرى غولدستاين، وكان ذلك بحماية المزيد من الجنود."

وعند نقطة التفتيش الثالثة، نظر دافيد في الوجه الحجري لأقرب جندي إسرائيلي. وبقلّة اصطبارٍ، أشار الجندي إلى دافيد بالتقدم إلى الأمام. "سوف أفترق عنك هنا،" قال جمال على الفور. "اذهب إلى الجامع، وانتظِر."

وصل دافيد وحيداً إلى نقطة التفتيش الأخيرة، وعند أسفل الدرج المؤدي إلى الجامع، وبوقاحة عرَضيَّة، طلب جنديٌّ إسرائيلي الاطِّلاع على أوراق دافيد الثبوتية. وفيما هو يتفحَّص جواز سفر دافيد، سأله بجفاف: "ما الذي يجعلك موجوداً في هذا المكان؟"

نظر دافيد إلى الجندي ببرودة. "اريد أن أرى الجامع. هل هناك من مشكلة في ذلك؟"

حدَّق الجنديُّ به. ثم أعاد جواز السفر إليه. مشيراً إليه بالتقدم. لم يكن الجندي في أفضل إطارات تفكيره، شعر دافيد وهو يرتقي سلَّم الدرج. لكن في النهاية، ليس كل موقع مقدس، له عند عتباته جندٌ وجهازٌ كاشفٌ للمعادن؛ أشياء من بقايا المذبحة. وإن آخر زيارة له لمثل هذا المكان، أي إلى المعبد الآشوري، قد قادت إلى مقتل رجلين. وكانت الصور المتلاحقة عن مصرع كلٍ منهما، تخيِّم على أفكار دافيد، عند بلوغه المدخل، تخييماً.

* * *

مروراً تحت قنطرة الجهاز الكاشف للمعادن، اجتاز دافيد العتبة إلى داخل المسجد. كان هذا هو موقع المغارة التي دُفن فيها إبراهيم، كما دفنت فيها زوجته سارة، وولداه اللذان يجسِّدان الادِّعاءات المتضاربة للمسلمين واليهود، إنهما، إسماعيل، وإسحاق. ومع أن الجامع كان قد بُني فوق المغارة، فإن المسلمين والعرب مارسوا طقوس العبادة هنا، لعدة قرونٍ بعد ذلك، بسلامٍ نسبيٍّ. ثم جاء تدفُّق اليهود الأوروبيين المستلهمين لمبادىء الصهيونية؛ ونفذوا مذابح ضد المسلمين، وكان طردهم من المدينة؛ ثم كان قدوم المستوطنين والجنود؛ ثم قدوم غولدستاين. وكلُّ هذه الأحداث قد سيقت تحت شعار التوقير المفترض لهذا المكان، والإجلال المقدَّم إلى الإله المفترض إجلاله.

لم يتقدم إليه أحد. بقلقٍ، تجوَّل في قاعة رحبة، بهيجة، ركعت فيها المصلِّيات على سجاجيد؛ ثم ماراً بالقرب من قبر إبراهيم، المحاط بغلافٍ زجاجيٍّ: دخل دافيد إلى مزارٍ مزخرفٍ فسيح، حملت جدرانه نقوشاً سخيَّة، حيث كان رجلٌ أعمى يصلِّي، كان بياض عينيه، الذي لا نور فيه، مفتوحاً لكنه لا يتحرك. وفي الخلف، كان ثمة جدار، إنه ميراث غولدستاين، يفصل الجناح اليهودي من الجامع عن ذاك الذي بقي للعرب. أمَّا في المقدمة، فكان ثمة مذبحٌ مزخرفٌ كان قد أمر به صلاح الدين. وكان المذبح مخدَّداً بثقوب الطلقات، مثلما هو حال جدران مدينة القدس القديمة.

مكث هناك لوحده، ثم ظهر رجلٌ بقربه. "هذه آثار غولدستاين،" قال الرجل مشيراً إلى الثقوب. بالنسبة إلى البعض، إنها تقف شاهداً على الخسارة، بل على الفرصة الضائعة. ولو كان لديه هدف أفضل من هذا لما أسِفنا على موت المزيد منَّا."

استدار دافيد نحو الرجل، كان شاباً ذا عارضَين، وكان وسيماً. أمَّا توتُّره، فقد وشَت به نظرتُه التي امتدَّت إلى خلف رأس دافيد. "لن أستطيع المكوث هنا طويلاً." قال بصوتٍ خفيضٍ. "إنك تبحث عن رجال لا يمكن العثور عليهم بسهولة.

"هل أنت على استعداد لقبول المجازفة بالموت معهم، لو اختار الإسرائيليون لحظة زيارتك لهم، من أجل القضاء على أرواحهم بالرصاص، أو بقنابل المدفعية، أو بصواريخ الطائرات الأميركية؟"

تردَّدَ دافيد قليلاً. "نعم، إذا كان ذلك هو خياري الوحيد."

إذن، اذهب إلى مخيم اللاجئين في جنين واطلب مقابلة علاء جبريل. وهو سيبدأ بإطلاعك على طريقة عيش شعبنا." ألقى الرجل يده على كتف دافيد. "حظاً سعيداً. امنح نفسك بعض الوقت والاصطبار. فهؤلاء الرجال يبدِّلون أماكنهم من ساعة لساعة. وأفضلُ الأوقات لرؤيتهم تكون في الليالي."

الفصل

22

في ذلك المساء، نزل دافيد في فندق بارادايز في بيت لحم. مضى في روتينياته الاعتيادية، من استخراج ثيابه وترتيبها، ومن استحمام، وتخطيط ليومه التالي. كانت أفكاره تتحرك بين هناء - كيف صار حالها، ماذا عساهما يتبادلان من كلام وقد تغيَّر ما تغيَّر - وبين المجازفات التي يتحملها من أجلها. ومع أن جنين هي بحدٍّ ذاتها منطقة خطرة، إلَّا أن عقد أيِّ لقاء فيها مع أي مسؤول في كتائب الأقصى هو أمرٌ أبعدُ، وأشدُّ خطراً. والخبرة الإسرائيلية في القتل، الدقيقِ تحديدِ الأهدافِ، لا يستحق أن يسمى فعلاً بالجراحي، بالمعنى الذي تتضمنه هذه العبارة. فالعيارات التي يتم إطلاقها إلى داخل منزل آمن مخصَّص لضمِّ اجتماع سري لن تكون قادرة على انتقاء مشارك في الاجتماع دون آخر. أمَّا القنابل والصواريخ، فهي عمياء عن كل تمييز. ولكن، مع هذا، ليس لديه سوى خيار محدود. فعلى من يلتقي بكتائب الأقصى أن يأخذ على عاتقه ما يترتب على ذلك من مخاطر.

شارد الذهن، تصفَّح دافيد جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون: قرب جنين، قضى عضوان من كتائب شهداء الأقصى احتراقاً في داخل سيارتهما التي أصيبت بصاروخ إسرائيلي؛ اعتقل الجنود الإسرائيليون عضواً في منظمة الجهاد الإسلامي عند معبر قلندية كان مكلفاً بالقيام بعملية تفجير انتحارية في محطة باصات للجنود الإسرائيليين.

غارقاً في تفكيره، ذهب دافيد إلى لقائه مع أبي جمال، الرجل الذي قد يأخذه إلى جنين، وهو الرجل ذاته الذي سبق له وأن أثار فيه شتى الهواجس والرِّيب. وكل ذلك في ظلِّ تساؤل دافيد عن الحكمة في ارتهان حياته، وربما حياة هناء على ترتيبات هذا الرجل الغامضة.

* * *

كان مطعم ديوان الراعي يقوم وسط خيمة بدوية الطراز يبلغ طولها نصف طول ملعب لكرة القدم، أمَّا عَرضها فبقدرِ عَرضه. أمَّا أرضيته فكانت مفروشة بالسجَّاد

المزركش. جلس أبو جمال ودافيد إلى واحدة من الطاولات الكثيرة التي تحيط بها الأرائك التي يتكاسل عليها الأهل والأصدقاء بينما هم يقبلون معاً على الطعام المطيَّب بالأفاويه، من أطباق للحم الضأن، أو البقر، أو الدجاج، أو الخضار؛ إلى جانب أطباق من الخبز والحمص. كان الجو صاخباً واجتماعياً. فالأصدقاء يتعانقون ويضحكون ويصخبون، والأطفال يتراكضون من طاولة لأخرى. ومع أن الروَّاد كانوا في معظمهم، المسلمون منهم والمسيحيون، من غير المتدينين، إلَّا أن المرء كان لا يزال يلحظ وجود امرأة محجَّبة، أو حتى متنقِبة، هنا أو هناك. وبعد القِدر الفائر الذي شهِده دافيد في مدينة الخليل القديمة، إذا به الآن يرى التمازج الاجتماعي السلس الذي يشهده بين الناس المتباينين، وكأنه مبعَثٌ على الراحة والانشراح. لكنه لم يستطع أن ينسى أنه اليهودي الوحيد وسط هذا الجمع.

"عدد كبير من العوائل،" قدَّم دافيد ملاحظته إلى جمال.

"إنها طريقتنا في الحياة،" أجابه أبو جمال. "الطلاق هنا صعب جداً، وعائلاتنا هي عائلات ممتدَّة ـ أبناء الأعمام والعمَّات، وأبناء الأخوال والخالات، أبناء الإخوة والأخوات، بنات الإخوة والأخوات، العمات والأعمام، الأخوال والخالات؛ وكل واحد من هؤلاء مع شبكته من الأصدقاء. هذا هو الحال مع عائلتي." وبعد أن ألقى نظرة شاملة على أرجاء المطعم، أضاف أبو جمال، "أستطيع أن أسمِّي لك أكثر من ثلاثين شخصاً من الموجودين هنا، مع أن بيت لحم ليست بلدتي. والطريقة التي باتت بها مدننا معزولة عن سواها، بسبب حواجز التفتيش اليهودية، هي مشقَّة كبيرة بالنسبة إلينا جميعاً. لكن هذه المشقَّة ليست كبيرة جداً، قياساً بما تلاقيه هناء عارف، حسب اعتقادي، وهي التي هُجِّرت عائلتها الكبيرة إلى مخيم شاتيلا."

هذه الملاحظة ذكَّرت دافيد بمبلغ الفرق بين البيئة الثقافية التي أتت منها هناء، وبين تلك التي ينتسب هو إليها. وكم هي ضيقة دائرته العائلية الصغيرة المتحفِّظة، قياساً بالمجتمع الذي يحيط الآن به. فها هو يرقب اجتماع ثلاثة أجيال مختلفة حول طاولة واحدة ـ من جدَّين، إلى أبوين، إلى عمات وأعمام وخالات وأخوال، إلى أبناءٍ وبنات من مختلف الأعمار ـ لقد أدرك الآن، ما لم يدركه في هارفارد، كيف أن الثقافة الاجتماعية قد فرَّقت بينه وبين هناء، وجعلت نظرته لمستقبلهما غريبة على تفكيرها.

فكَّر في كل هذا، لكنه لا يستطيع الإفصاح عنه. لقد بات الآن متأكداً من هذه الأمور إلى هذا القَدْر: إن علاقته مع هناء، وكذلك مشاعرها نحوه الآن، لا بدَّ من أن تكون بغيضة إلى نفس أبي جمال. "إن عائلاتكم،" قال دافيد، "تعمل أفضل من حكوماتكم، حسبما يبدو. على الأقلِّ بدليل سلطتكم الفلسطينية."

هزَّ أبو جمال كتفيه، في موافقة ضمنية. "وهذا هو سبب وجود حماس. فبالطبع، إن

الاحتلال هو أكبر تقاليدنا ـ فالضفة الغربية شهدت على التوالي: حكماً رومانياً، وبيزنطياً، وإسلامياً، وتركياً، وبريطانياً، وأردنياً، والآن: يهودياً. أمّا في ما يختصُّ بالسلطة الفلسطينية، فإنني أعترف أنها فاسدة."

"إنها في حالةٍ من العجز الكلّي،" قال دافيد مصارحاً. "ولا عجب أن يكون كثير من الإسرائيليين لا يشعرون بأنه يمكن الثقة بها، وذلك منذ ما قبل بروز حماس، ومقتل بن آرون. فقواتكم الأمنية ضعيفة ومنقسمة على نفسها، والمفجِّرون الانتحاريون ما يزالون يفجرون المستوطنين في كل مكان."

"لعلنا نفلح في المقاومة أكثر مما نصلح للحكم،" أجاب أبو جمال. "فتجربتنا في الحكم الذاتي هي أقلّ من المطلوب. وبناء المجتمع المدني، مسألة تستوجب وقتاً طويلاً. فأولاً، علينا أن نتحرّر من اليهود، ومن بطشهم."

كان من المستحيل على أبي جمال، فكّر دافيد، ألّا يكون عالِماً أنه يهودي؛ أو أن نقاشاتهما كانت تلعب دور البديل عن الأحاديث التي كان يمكن أن تكون أكثر اتصالاً بالشخصية. "إذن، فإسرائيل هي عذركم؟" سأله. "هل الفلسطينيون إلى هذه الدرجة من الضعف، بحيث أن لا قوة لهم على الإطلاق؟"

بشفتين مزمومتين، قال أبو جمال. "أنت تتكلم عن القوة. إن أميركا هي التي تمتلك القوة، جماعتك اليهود هم الذين يمتلكون القوة، بسبب الصحافة اليهودية، والمال اليهودي. إن حكومة الولايات المتحدة الأميركية قد أوجدت دولة لليهود، وهي تستمر في تسليح وتمويل دولة إسرائيل العنصرية من أجل ضمان استمرارها، واستمرار احتلالها لأرضنا. لهذا، عليك ألّا تكلمني عن القوة. فالقوة مُلكية مخصوصة لليهود."

"اليهود،" أجاب دافيد بهدوء، "قد يكونون شعباً بهذا الذكاء الذي تنكره. لكنهم لم يكونوا يوماً أذكياء بما يكفي لتجنيب أنفسهم المذابح خلال العصور، إنْ في أوشويتز، أو في غيرها. ولو حصل مثل ذلك للعرب، فإن مثل هذا المطعم سوف يكون خالياً. ولربما عليك أن تتحرَّر أيٌّ من هذه العائلات سيكون لا يزال موجوداً على قيد الحياة."

"آه،" تقحّم أبو جمال الجواب وإنْ بنغمةٍ من التعطُّف، "أخيراً ورقة اليهود الرابحة، الهولوكوست. يا لها من مبالغة كبيرة."

خال دافيد أن أعصابه تكاد تنفلت منه. "هل تعني بذلك الستة ملايين قتيل يهودي. كم تعتقد هو العدد الحقيقي ـ عددٌ مؤسف في حدود المليونين؟ عدد تافه لا يتجاوز المليون؟" أبقى على صوته خفيضاً. "إلى وقت قريب، كنتُ مرتبطاً بخطوبة إلى امرأة كان والدها من الناجين من مذبحة أوشويتز. لقد شاهدت آثار الجروح على صدره، وشعرت

بآثار الجراح في روحه. إن أحداً قد وضع تلك الندوب هناك ـ "

"إنهم الألمان،" قال جمال مقاطعاً، "إذن، لماذا لا يعطى اليهود دولة خاصة بهم في بافاريا؟"

استطاع دافيد أن يرسم ابتسامة عارضة "أعتقد أن بافاريا مكتظة بالسكان، ثم إن اليهود والألمان يتقاسمون تاريخاً معيناً."

"نحن أيضاً كنا نتقاسم تاريخاً معيناً مع اليهود، وإلى أن سلبوا أرضنا، كنا نعيش معهم في وئام وتسامح لم يشهده اليهود ولا المسيحيون في كل تاريخهم. هم يتذمرون أن الألمان أرادوا أن يجعلوا بلادهم نقية من اليهود." لكَز جمال ذراع دافيد بإصبعه. "إن اليهود هم الذين أحضروا النازية إلى فلسطين ـ عندما أرادوا أن تكون دولتهم الخاصة خالية من العرب. يا للنفاق. والآن جاء دور المستوطنات، وهي غير قانونية في شرع القانون الدولي. لكن بالنسبة لليهود، القانون لا يعنيهم بشيء." فاركاً بنان يديه معاً، انتهى أبو جمال إلى القول،" بالنسبة إلى اليهود، الأمر كله يتعلق بالنقود، وينبع منها. من هنا يأتي مصدر قوَّتكم."

انحنى دافيد إلى الأمام حتى صار وجهه على مبعدة إنشات قليلة فقط من وجه أبي جمال. "لو عرفتُ الاحتلال،" قال له بصوت خفيض صارم. "لفقدتُ صوابي. أمَّا أنت، فمن الواضح أنك قد فقدته فعلاً. ومع كل ذلك، فإنني أتمنى أن يصبح لك وطن مثلما صار لليهود وطن، على أملٍ أن لا يلتهمَ بعضكم بعضاً." وبقصدٍ مسبَقٍ، دسَّ دافيد سبابته في معصم أبي جمال، ردَّ فعلٍ على بادرة الأخير العدوانية. "هذا الكمُّ أعرفه. لو كان لديكم القوة المطلقة، لقتلتم كل يهودي في إسرائيل؛ أو على الأقلّ، لقمتم على الأقل بالترتيبات اللازمة 'لعودة' كافية لجعل اليهود يفقدون دولتهم. وعند ذلك، قد يقرِّر واحدٌ منهم أن يقوم بتفجير عائلتك، تماماً مثلما قتلت عصابات الآراغون كثيراً منكم. أمَّا الـ : باروخ غولدستاين التالي، فسيكون من إنتاجكم الخاص." أنهى دافيد كلامه بهدوء: "متى سينتهي كل هذا، إني أتساءل. وعندما أستمع إلى كلامك. يبدو لي أن الجواب هو: أنه 'من المستحيل له أن ينتهي'."

تراجع أبو جمال في مقعده، بحيث يتحرر معصمه من تحت سبَّابة دافيد. وبلهجة هشة مليئة بالانفعال قال له. "ما الذي تريده مني؟"

ولفترة وجيزة عجِب دافيد ما إذا كان غضبه الخاص على أبي جمال يغطي خوفه في حقيقة الأمر. لعله الأمل الصادر عن العقل الباطني، هو الذي يدعوه لإغضاب الرجل تحت ستار الثأر للكرامة الشخصية، لعله يجنِّب نفسه بذلك شر المجازفة. "أن تذهب بي إلى جنين،" قال، "مثلما اتفقنا."

"كما أن هناك شيئاً آخر تريده مني، أليس كذلك؟"

عند ذلك، أيقن دافيد أن لحظة اللاعودة قد بلغت نهايتها. "نعم. السجلات الطبية العائدة إلى صائب خالد."

"ليس هذا هو كل شيء." صار لابتسامة أبي جمال الخفيفة مسحة ساخرة. "تريد تلك السجلات في غير علمٍ من أحد، وبأيٍّ وسيلة كانت. تريدها أن تقع بين يديك بطريقة غامضة."

"بالضبط،" أجابه دافيد. "وعاجلاً بدلاً من آجلاً، فإن المسألة حسبما تقول، هي مسألة المال اليهودي. ومن أجل هذه الخدمة، فإن 'اليهودي' مستعد لدفع الثمن بكل سرور."

الفصل 23

بعد الفجر بقليل، توجه دافيد وأبو جمال إلى جنين في صمت.

وكانت الرحلة محفوفة بالمعوِّقات التي فرضها الاحتلال: تمديدة للجدار الأمني الذي طوق بيت لحم نفسها؛ حاجز تفتيش وقف عنده العمال العرب الذين لا يحملون تصاريح قانونية للعمل في إسرائيل، وهم ينتظرون في جماعات محبَطة؛ قرية عربية مدمَّرة في حرب 1948 يحتلُّها الآن المستوطنون؛ شبكة من المستوطَنات، وأبراج المراقبة على جانبي الطريق؛ مستوطن يمشي حاملاً مدفعه الرشاش وبجانبه كلبه الدوبرمان. باتت الآن المناظر الطبيعية أشدّ اخضراراً ونضارة. الوادي تجلِّله مصاطب الزيتون، وبطاحه السفلية غنية بالخيار، والذرة، والحمص، والقمح، والأعناب. لقد ذكَّره هذا بمنظر الجليل الذي جاءت منه مرة عائلة هناء، والذي لا يزال موطناً لعائلة سوزان عارف. لكن هذه المناظر كانت قد نتجت عن سلوكهما لتحويلة في الطريق؛ إذ بسبب حالة الحصار الجاري، فإن الجيش الإسرائيلي قد قام بإقفال الطريق الأساسي إلى نابلس، وبالتالي إلى جنين أيضاً.

لقد أعطى هذا التأخير لدافيد وقتاً وافراً من أجل التأمل في المأزق الذي هو فيه. فها هو مجبر على الاعتماد على رجلٍ لا يرغب في الثقة به، من أجل التماس اجتماع له مخاطر لا يمكن التنبُّؤ بها. لقد ضاع منه حتى كلُّ وهم في أنه قادر على الإمساك بالأمور.

* * *

بعد ثلاث ساعات، وصلا إلى مشارف جنين.

كانت المدينة ذاتها مثلَّمة الشوارع، منزوعة الأشجار، تحكي نواحيها وأبنيتها المهدَّمة حكاية الفقر المدقع. وعند مدخل مخيم اللاجئين، كان ثمة حصان معدني هائل متعدد الألوان، تمَّ استنقاذه من بين حطام السيارات، والشاحنات، وسيارات الإسعاف التي تمَّ تدميرها بالصواريخ الإسرائيلية. أمَّا الشوارع التي تقع وراءه، فقد كانت ضيِّقة، وبالية، ومكتظة بالسيارات المحطمة. وكان طفل أسود الشعر، يركب دراجة محطمة، قد شق طريقه الملتوية بمحاذاة بنايتين اسمنتيتين تتألف كل منهما من طابقين يتراكم عليهما الغبار

الكثيف، وتغطيهما الشعارات المكتوبة بالأصباغ. هذا لم يكن 'مخيَّماً'، جال في ذهن دافيد، بل هو أشبه بحيٍّ فقيرٍ من أحياء دولة من دول العالم الثالث، قائمٍ في منطقة حرب. وهو بذلك: ملجأ مثاليٌّ لكتائب الأقصى وحماس.

التقيا علاء جبريل خارج مركز الخدمات الاجتماعية المحلية. وهذا المركز، هو عبارة عن مبنى مؤلف من طابقين مجصَّصين، رابض في جانب زقاق ضيِّق. كان جبريل رجلاً ضخم الجثة، يكاد لا يتحرك سوى بتثاقل، وله عينان تختفيان تحت قلنسوة، كما أن له طلعة كئيبة قلَّما تتبدَّلُ؛ أما الصوت، فقد كان خفيضاً عميقاً. وكان جبريل يتولى إدارة المركز. وقد شرح لدافيد في صورة غامضة، أن مهمته تقتضي منه أن يُطلع الأخير على حالة العيش التي يُجبر أبناء شعبه على عيشها. قال هذا، كما لو أن دافيد هو مجرَّد سائح أو عامل اجتماعي، لا محام يهوديٌّ أميركي باحث عن لقاء مع قيادة كتائب الأقصى.

وبينما كان أبو جمال ينتظر في الخارج، دخل جبريل ودافيد إلى عيادة تأهيل الأطفال. تبع دافيد جبريل في ممرٍ، فشاهد صوراً معلقة تمثل 'دونالد دَكّ' و'ويني ذا بُووه'، مصفوفة إلى جانب صور المقاتلين الملوِّحين بالسلاح. وكان في نهاية الممر غرفة فيها ثلاثة أطفال ممدَّدين على مناضد، فيما أرجلهم الضامرة مكشوفة. وكان الأطفال تحت المعالجة التي يتلقونها من المعالجين لآثار مرض الشلل المخِّيِّ.

"لدينا هنا سبعة أخصائيين،" قال جبريل لدافيد "لكننا في حاجة إلى المزيد منهم."

"ولماذا هذا العدد الكبير من إصابات الشلل المخِّي؟"

حدَّق جبريل في الأطفال. "إنه الاحتلال، فالأطفال الذين يولدون عند نقاط التفتيش، أو الذين يولدون لأمهات لا يستطعن الذهاب للوضع في المستشفيات، قد لا يأخذون الأوكسيجين الكافي، وقد تتعاطى الأمهات الحوامل أدوية دون استشارة طبية سليمة؛ وقد تبقى نوبات الحمَّى التي تنتاب الأطفال، دون علاج. أمَّا ما تراه الآن، فهو النتيجة الناتجة عن ذلك".

ومن فوق منضدة من المناضد، تلقَّى دافيد ابتسامة من طفلة ذكية العينين. لكن ساقيها الرخوتين لم يبدُ فيهما علامة للعافية.

* * *

وعند المدرسة، قادت ريم - وهي معلمة نشيطة، سوداء الشعر - دافيد إلى غرفة اللعب المفروشة بسجَّادة مزينة بصور أفراس النهر، ووحيدي القرن، والفيلة؛ وبالمناضد التي يرسم عليها التلاميذ؛ وبأرفف صفِّفت عليها الألعاب والدمى. كان كل شيء يبدو طبيعياً خلا عن أن ولداً صغيراً يرسم إلى منضدة كان يضع طرفاً صناعياً مكان ساقه اليسرى التي كانت في يوم ما، غير مفقودة.

تتبعت ريم نظرة دافيد. "إنه عمل الجيش الإسرائيلي،" قالت ببساطة، "لكن الحرب لا يمكن الإحاطة بها بسهولة.

"بالنسبة إلينا، نجد الأمر موجعاً أن نرى الأطفال تُبتر أطرافهم بالألغام الأرضية، والقنابل التي يخلفها الإسرائيليون وراءهم، كما أننا نقلق لدى مراقبتهم وهم يستعملون حطام دبابة في لعبة قتال، أو أن يقوموا تكراراً برسم الصواريخ والقنابل والجنود الذين يتقاتلون." أشارت إلى رفوف الألعاب. "كما ترى، ليس بين الألعاب بنادق ولا سيوف. إن غايتنا الآن هي العلاج باللعب من أجل الترويح عن الضغوط النفسية للأطفال المروَّعين بالعنف. وإن رسالتنا التي نريد تعليمهم إياها، هي أن العنف لا يلد سوى المزيد من العنف."

فكَّر دافيد بسوزان عارف وهي تصارع نزعات الأطفال الذين يأتون إلى مدرستها من جنين. كان غريباً أن يفكر بها في هذه اللحظة، وهي التي تفصلها عن جنين مسافة خمسين ميلاً، وسياج من الشريط الشائك. أومأ برأسه في اتجاه الولد الجالس إلى المرسم. "هل تمانعين في أن ألقي نظرة على رسمتِه؟" قال دافيد.

مشت ريم صوب الطفل، متكلمة بهدوء. وعندما هزَّ الولد كتفيه، أشارت إلى دافيد بالاقتراب. كانت رسمته مفرحة، فهي تمثل أماً وأباً وطفلهما واقفين عند حافة محيط، ولا شك أنه لم يرَ المحيط قطّ. لكن دافيد ما لبث أن تنكّر أن والد هذا الطفل بالذات، كان قد قُتل. أمّا الطفل نفسه فلم يلتفت إلى دافيد.

مشت ريم مع الرجلين حالما غادرا المدرسة. كان الدهليز الذي يؤدي إلى الشارع مليئاً بصور فوتوغرافية للأطفال. لكنها تعود لأطفالٍ قتلى: طفلة في السادسة أو السابعة، تسبح في بركة من دمائها؛ طفلة أخرى قتيلة تسقط بالقرب من أخويها القتيلين، ملامحها شديدة التشويه؛ ولد فاحم الشعر في نعش. كان المقصود بالصور إثارة الرعب والشفقة في وقت واحد. لكن في حالة دافيد فإن هذه الصور قد أثارت القلق أيضاً. ماذا يتعلم طفلٌ خارجٌ من غرفة ألعاب خالية من الألعاب العنيفة، من هذه اللوحات العابقة بالعنف والانتقام؟ كان الجواب كامناً في الصورة الأخيرة: شاب فلسطيني يرفع مدفعاً رشاشاً، شعار المقاومة والتصميم. مستديراً نحو ريم، قال دافيد، "ألا يسألك أطفالك عن هذه الصور؟"

يبدو أنها لم تكن لتستطيع رفع أنظارها إليه. "عندما يغادرنا الإسرائيليون بسلام،" قالت له متمتمة، "لن يكون هناك من صورٍ."

وعلى الطريق إلى مقبرة الشهداء، كان رفيق دافيد يشير إلى الخراب الناتج عن غارات الجيش الإسرائيلي. فإلى جانب صف من البيوت التي كان قد أعيد بناؤها بعد أن باتت أنقاضاً، كان هناك بعض هيكلٍ خارجي لبيت مهدَّم بالقنابل. "هذا هو المكان الذي عاش فيه زكريا عبيد،" قال جبريل لجمال ودافيد. "مرة كان يشرف على مخيم يضم

أطفالنا وأطفال اليهود، لقد كانت هذه فكرة أحد نشطاء السلام من إسرائيل. لكن عندما اقترب من البلوغ، وكان السلام بعد لم يتحقق، فإنه ما لبث أن انضمَّ إلى كتائب الأقصى. وفي سعي الجيش الإسرائيلي إلى اغتياله، فإن هذا الجيش قد قتل والديه بدلاً من أن يقتله.

"والآن، يلعب أطفالنا في خرائب منزله، ويجدون بينها بقايا الصواريخ التي أطلقتها طائرات أف ستة عشر التي أرسلتها حكومتكم إلى إسرائيل. أمَّا الكبار فيتذكرون كيف قدِم الجيش الإسرائيلي إليهم بوابل من الصواريخ ونيران الدبابات والقذائف." محدِّقاً نحو الأنقاض، قال بصوت أكثر هدوءاً، "يدَّعي الإسرائيليون أنهم لا يقتلون سوى الإرهابيين". وفي المقبرة يرقد رجلان متخلِّفان عقلياً، قُتلا بينما كانا يهرعان في الشوارع لأنهما لا يعرفان أن يتصرفا بأحسن من هذا. وفي حالتهما، فإن الإرهابيين هم اليهود الذين سلبوهما الحق بالحياة."

"أهلاً بك في جهنم،" قال أبو جمال لدافيد. "إنه تعاونٌ بين اليهود والأميركيين. وهما في العادة سواء."

قرب المقبرة، مروا ببيتٍ مدمَّرٍ آخرَ، من ثلاثة أدوارٍ، جوَّفته القنابل من أعلى سقفٍ له حتى أسفل أساساته. وفي فسحة الخلاء الموجودة بقربه، كان ثمة سيارة قد نخر هيكلها الرصاص، ومزَّق زجاجها، أمَّا غطاء محرِّكها فقد غاص في الأزهار النابتة. "إنها سيارة ابن عمي،" أوضح جبريل بلا مبالاة. "كان عضواً في كتائب الأقصى، وقد قام باغتياله الجيش الإسرائيلي."

مقامة على أرض مكشوفة حمراء التربة، بالقرب من هذه الخرائب، كانت مقبرة الشهداء قد ضمت في مبدأ أمرها ثمانية وخمسين قبراً تمَّ حفرها بعد غارة شنها الجيش الإسرائيلي؛ أمَّا الآن، فإنها قد صارت تضمُّ الكثير من الموتى. دخل الرجال الثلاثة متوقفين بين المستطيلات الإسمنتية التي تحمل كتابات منقوشة عربية، ومعظمها محاط بمساكب من الأزهار. "إلى يسارنا يرقد أخوان،" قال جبريل لدافيد، "اغتالهما الجيش الإسرائيلي. وإلى يميننا يرقد صاحب البيت الذي كنت قد رأيته منذ قليل، وقد تمَّ دفنه بدون رأسه، أما القبر الذي يليه فعائدٌ لابن عمي."

"أما الأضرحة الصغرى فإنها تعود للأطفال والرضَّع. وتستطيع تقدير عمر الدفين من حجم ضريحه." أشار جبريل إلى قبر في وسط المقبرة. "ذاك القبر يعود إلى عمي. كان عمره سبعين سنة عندما انتشلنا جثته من تحت أنقاض بيته. كان قبل موته بمدة طويلة مُقعداً. أما بالنسبة للأطفال فإن أعمارهم تدل على عدم استطاعتهم إيذاء أحد."

"وهناك آخرون ممَّن كان يجب أن يكونوا في هذا المكان أيضاً،" أضاف أبو جمال بمرارة. "شهداؤنا الذين قضوا في إسرائيل. لكن اليهود يرفضون إعادة جثامينهم." بلادة الرجل كادت تُفقد دافيد السيطرة على نفسه. "ربما،" قال معلِّقاً، "كان من الصعب تمييز

أشلائهم عن أشلاء ضحاياهم. فأجزاء الأبدان تبدو متشابهة." ثم مستديراً نحو جبريل قال، "في إسرائيل، كنت قد قابلت ثلاثة من الناجين من تفجير مطعم في حيفا. والجيش الإسرائيلي يدَّعي أن هذه الغارة كانت عقوبة من أجل تلك."

"هذا ليس صحيحاً أبداً،" أجاب جبريل جاداً في كلامه. "إنَّ هذا هو ما تفوت على العالم معرفته. لقد كانت متفجرة حيفا هي ردُّنا ضد الجيش الإسرائيلي الذي حاول أربع مرات قبل ذلك، دخول مخيمنا، وانتقاماً لشهدائنا الذين استشهدوا وهم يقاومون. لا تصدِّقوا أننا قتلة ومحاربون بطبيعتنا. وإذا صرنا يوماً كذلك، فإن الإسرائيليين هم الذين يكونون قد أجبرونا على ذلك."

فكَّر دافيد في شوشانا رافيت، وفي إيلي، وميرا لاندو؛ وفي حزنهم وخسارتهم العميقة. لكن بالنسبة إلى الذين خسروا وعانوا في هذه الأرض، فليس ثمة خسارة في رأيهم سوى خسارتهم هم. فهنا الناس يموتون ليس بسبب القنابل والعيارات النارية فقط، بل بسبب موت التعاطف مع الآخرين أيضاً.

"ما هو قولك في ما رأيت؟" سأل جبريل دافيد.

حدَّق دافيد في المقبرة. "أعتقد أنه ليس هناك من قيمة للكلمات بحدِّ ذاتها."

بكتفين مرتخيتين، بدا جبريل مطرقاً يتدبَّرُ هذه الإجابة الغامضة قبل أن يهزَّ برأسه. "هذه الليلة سوف تكون ضيفي على العشاء. وبعد ذلك إذا كنت محظوظاً، ستتمكن من مقابلة أحدهم، وقد تكون لديه المعرفة بالأشياء التي ترغب في معرفتها."

* * *

في تلك الليلة، بعد العشاء في مطعم متواضع عند ضواحي جنين، قاد جبريل دافيد وأبا جمال إلى غرفة خلفية في مؤخرة المطعم. ثم بعد استقباله لمكالمة هاتفية عبر هاتفه الخلوي، انتقل بهما إلى داخل عتمة المخيم.

بعدها قادهم جبريل ثانية إلى مقبرة الشهداء. وبصمت، انتظر الجميع في هواء الليل البارد. كان قمرٌ في طور المحاق يضيء شواهد المقابر إضاءة ضئيلة، صانعاً خطوطاً كفافية لمختلف الأشكال والأحجام. شعر دافيد بقشعريرة في مؤخرة عنقه؛ وبحذر، تطلع جبريل نحو السماء كما لو أنه يتوقع ظهور المقاتلات الإسرائيلية. هذا ولم ينبس أحد بكلمة قطّ.

وبينما كان دافيد يتلفَّت حوله، إذا بظلٍّ شكل أحد المقابر يتغيَّر ويستطيل إلى شبحٍ مخيف. ثم كان ثمة شبح آخر ينهض، ثم سمع دافيد خفق خطوات هادئة عندما حوَّلت أشعة القمر شكل الشبحين إلى رجلين في ملابس قاتمة وأقنعة من الجوارب. وكان كلٌّ من الرجلين يحتضن مدفعاً رشاشاً في أحد ذراعيه.

تكلم المسلَّح الأول إلى جبريل بالعربية في صوت خفيض. سائراً في أثر الرجلين المسلَّحين، أشار جبريل إلى دافيد وجمال بالتقدُّم. مرَّ الجميع بقرب هيكل السيارة المثقوب بالرصاص. ثم تحوَّلوا إلى قطار أحاديٍّ سالكين زقاقاً ضيقاً شديد العتمة بحيث إن دافيد لم يستطع أن يهتدي إلى طريقه سوى بجهدٍ جهيد. فجأة انفتح بابٌ بزغ منه نور ضئيل؛ وامتثالاً لإشارة عاجلة من مسلح ثالث مقنَّعٍ بجورب، دخل الجميع إلى الداخل. "علينا جميعاً أن نلبث هنا،" أسرَّ جبريل إلى دافيد. "إنهم لا يرغبون في ارتكاب أيَّة أخطاء."

قادهم المسلح الثالث خلال دهليز إلى غرفة شبه عارية في الوسط، ليس بها شبابيك، ويضيئها مصباح واحد. لعله مسكن أحدهم، اعتقد دافيد. كان ثمة بساط، وأريكة، وكراسٍ. جلس الرجل الثالث على الكرسي يحاذيه المسلَّحان القادمان من المقبرة. وبإيماءة مقتضبة، أشار إلى دافيد وجبريل للجلوس قبالته على الأريكة. واضعاً بندقية الـ : M16 على ركبتيه، *نزع الرجل ببطء الجورب الذي يتقنع به*، كاشفاً عن وجه *رجلٍ في العقد الثالث من عمره، وعن لحية لم ترَ الموسى منذ يومين، وعن عينين سوداوين برَّاقتين،* لاحظ دافيد خطوط شحوب تحتهما، *دليل قلَّة النوم.*

"أنا محمد ناصر،" قال الرجل، "قائد كتائب شهداء الأقصى في جنين." وكأنه شعر بتوتر دافيد، فأعطاه ابتسامة ساخرة. "عليك أن تعذرنا لهذه الدراما، لكن الجيش الإسرائيلي جادٌّ حقاً في الرغبة بقتلي، لذلك فإنني لا ألازم مكاناً لمدة تزيد عن ساعة واحدة، وربما أقل. أما سجلُّك في إسرائيل فليس مشجِّعاً."

كان يتكلم بإذعانٍ تعِبٍ. فالتعب لم يترك له مجالاً للتظاهر بالشجاعة، أو حتى بالحيوية، ما سوى أن عيناه كانتا تتابعان التحديق في اتجاه الممر. وللمرة الثانية في حياته، شعر دافيد أنه كان يرقب رجلاً بات موته محسوماً؛ فمثل والد دافيد، كان الموت يخيم على وجه الرجل. الفرق الوحيد بينهما، أن ناصر كان صاحياً لكي يرى الموت قادماً. "لقد كانت جنين مرة، بلدتي،" قال لدافيد، "كما شاءت الأمور. وبعد انفجار حيفا، جاء الإسرائيليون بقاذفاتهم الحربية، ودباباتهم، وجندهم، يدمرون منازلنا، وحتى يتبولون في القدور التي تطهو أمهاتنا بها طعامنا. والآن إنهم يلوموننا من أجل موت بن آرون."

رجل ضئيل أحضر الشاي في فناجين. إنه صاحب البيت، حسبما ظن دافيد، منجزاً دوره كمضيفٍ، في قلق بادٍ، عاد صاحب البيت إلى الاختفاء من جديد. وبعد قبوله الشاي بإيماءة مهذبة، توجه ناصر من جديد نحو دافيد قائلاً بصراحة فظَّة: "أنت تريد الحقيقة حول هناء عارف، بخيرها أو شرِّها."

أومأ دافيد براسه إيجاباً، فيما هو يحتضن فنجان الشاي براحتيه. وبمسحة من الابتسام، قال ناصر: "لطول تعاسة حظِّها أنها ليست منا."

شعر دافيد بزوال عبء ثقيل عنه، وبنبضات قلبه أيضاً. "أمتأكد أنت."

"بالطبع، فلقد سألتُ جماعتنا في بيرزيت. وعلى حدِّ علمهم، إن مجمل مساهمتها في تحرير فلسطين، تقتصر على الكلمات الغاضبة. تلك البضاعة الرخيصة." صار صوته يأخذ نبرة انفعالية. "من الصعب أن يعرف المرء أيهما أشدُّ إهانة لنا: أن نكون من الغباء بمكان لنقدم على اغتيال بن آرون، أم لنكلِّف هذه المرأة أمر القيام بذلك. لكن إبراهيم جعفر كان منَّا. وهذا يكفي الجيش الإسرائيلي. وهكذا، فإننا نموت الآن بسبب كذبة."

"أخبرني عن جعفر."

أشعل ناصر سيجارة، نافثاً دخانها في حالة من الحيرة والذهول. "ولدٌ،" قال بخليطٍ من التعاطف والازدراء، "اعتقدَ أنه يستطيع أن يثأر لأخته عن طريق الاستشهاد.

"بعض من في كتائب الأقصى يجدون قيمة في ذلك. أما أنا فلا. وعندما جاءني جعفر آملاً الانتقام، حاولت أن أقنعه أن يوفِّر حياته، من أجل أن نرى ما إذا كان قائدنا مروان فاراس يستطيع أن يجلب السلام إلى دولتنا الخاصة بنا." أخذ ناصر نفَساً آخر سريعاً من سيجارته، فكانت كلماته التالية تخرج وسط سحابة من الدخان. "إذا فشل فاراس، قلت له، فمن الأفضل قتلُ جنود الجيش الإسرائيلي بدلاً من عملية استشهادية لا نعرف نتائجها."

"وكيف تفاعلَ مع هذا الكلام؟"

"لقد رأينا الآن كيف تفاعلَ معه. تفاعلَ بقتل اليهودي الخطأ، في الموعد الخطأ. لعل تفجير بن آرون كان شيئاً تاريخياً إلى درجة يصعب معها تفويته، مع أن الثمن هو تدمير كتائب الأقصى." صار صوت ناصر هادئاً، ولكن فولاذياً. "كائناً من كان ذاك الذي استخدم جعفر، فإنه قد أراد حدوث الذي حدث. والعقل يرفض قراءة ذلك على غير هذه الطريقة."

"يبدو أن جعفر مصدِّقٌ أنه كان يعمل من أجل كتائب الأقصى."

"كان من المفترض أن يموت جعفر،" أجاب ناصر بحرارة مفاجئة. "فلماذا بقي حياً؟ ها هي إجابتي على هذا السؤال: من أجل أن يخبر الرواية التي يعتقد أنها صحيحة."

"وماذا إذا كان يروي الحقيقة كما عرفها؟"

"عندها يكون حسن قد كذب عليه. وحسن ليس عضواً في كتائب الأقصى."

لمح دافيد أحدَ الحرَّاس المقنَّعين ينظر إلى ساعته بقلق ثم يتكلم إلى ناصر باللغة العربية بصوت مبتور. قال ناصر لدافيد، "صديقي يعتقد أن علينا ألَّا نمضي المزيد من الوقت هنا ـ "

"إلى من ينتمي حسن؟" استفهم دافيد بإلحاح.

"سلْ نفسك، من الذي يربح من كل هذا؟ إنها حركة مسعدة من اليهود، وحركة

حماس من الفلسطينيين. فإن كتائب الأقصى تؤيد فتح ومروان فاراس. وثمة مسيحيون في صفوفنا، وعلمانيون، وكثيرون منا يفضلون مقاتلة الإسرائيليين هنا وليس في داخل إسرائيل. حتى إننا نقبل أن نعيش مع دولة يهودية إذا قاموا بإنهاء الاحتلال، وبتفكيك مستوطناتهم، وإطلاق سراح أسرانا، والتعويض علينا بسبب طرد آبائنا من أراضيهم. فهذا يعتبر كافياً بالنسبة إلينا." صارت عينا ناصر تشتعلان بضوء أكثر. "لكن هذا ليس كافياً لحماس. إنهم لا يريدون شيئاً يكون أقلّ من استرجاع كل فلسطين، وتأسيس دولة إسلامية فيها، تمتد من المتوسط إلى نهر الأردن. فما بين حماس وكتائب الأقصى خلاف جوهري؛ ثم هم يريدون تسلُّم مقاليد السلطة الفلسطينية؛ ثم يريدون بعد ذلك مطاردة الصهاينة."

شاهد دافيد صبياً صغيراً يقف عند العتبة محدِّقاً نحو ناصر بخجل، لكن بإعجاب واضح. جاء والده بعصبية لطرده إلى خارج الغرفة.

"إذا كان كل ذلك صحيحاً،" قال دافيد، "فلا بد من أن يكون حسن منتسباً إلى حماس."

فرقعة عالية قاطعت كلامه، قد تكون طلقة بندقية، أو انفجارٌ غازيٌّ في عادم سيارة. دون أيّ كلام توجه أحد حرَّاس ناصر الشخصيين نحو الباب، بينما وضع ناصر إصبعه على زناد بندقيته. "حسن من مخيم عايدة،" قال ناصر بعجل. "أخوه كان في حماس؛ إن أمه ما زالت تعيش هناك. وإذا أرادت، فإنها ربما تستطيع أن تخبرك بالحقيقة." دسَّ ناصر سيجارته النصف مستهلكة في صحن خزفي للسجائر ساحقاً إياها إلى عقبها. "هذا كل ما أعرفه، كائناً من يكون هذا الذي اختار جعفر، سواء أكان هو حسن أو سواه، فإنه اختار ساذجاً يمكن خداعه، كما يمكن له أن ينهار تحت وطأة الضغط. وهذا جزء من مخططهم."

بجانب دافيد، بدأ تململ جبريل يشي بقلقه. "سؤال واحد إضافي،" قال دافيد. "هل صائب خالد مع حماس؟"

نظر ناصر من فوق العقب المشتعل. "البعض في بيرزيت يعتقدون ذلك،" أجاب. "لكنهم يقولون إنه شخص عميق، يصعب الحكم عليه. له معارف كثُر. هل تناوُلِ وجبةٍ مع شخص ما مؤامرة، أو نقاش مع الأصدقاء؟ من الصعب للمرء أن يعلم. وربما يكون مثلَ زوجته، لا شيء سوى كلمات. وربما لا يكون الأمر كذلك."

رجع الحارس الشخصي، فتكلم مع ناصر كلمات عربية عجولة. "آن لي أن أنصرف،" قال ناصر لدافيد. "لكن هناك شيء ما، عليَّ أن أقوله لك.

"درجتُ على مقاومة الاحتلال منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، وقد أمضيت أربع سنوات في السجن بسبب قيامي بإلقاء زجاجة مولوتوف على دبابة إسرائيلية. والآن أنا لا أعرف حياة أخرى. لكنني متعب، وما زلنا غير قريبين من قيام وطن لنا. كثيرون منا

آخرون سوف يسقطون؛ إسرائيليون آخرون كثيرون سيموتون أيضاً بطريق معاقبة اليهود جرّاء تجاهلهم للمآسي التي تنتج عن ترك جنودهم دون روادع." التقت عيناه بعيني دافيد "إذا وجدتَ الحقيقة، فعليك أن تقولها للعالم بأسره. من أجل هذا قبلتُ مجازفة اللقاء بك. ففي عالم لا يستمع لا إلى معاناتنا، ولا إلى إنكارات كتائب الأقصى المتعلقة بـ: بن آرون، قد تكون أنت أملنا الوحيد الباقي. فبعد زوالنا لن يبقى سوى حماس."

"إذا جاء السلام بدلاً عن ذلك، فماذا ستفعلون؟"

بدا السؤال مفاجئاً لناصر، مما جعله يتردّد. "سوف أقوم بتأسيس عائلة،" أجاب، "وسأراقب أطفالي يكبرون بطريقة اعتيادية." لكن هذا التأكيد كان ينقصه الاعتقاد؛ لم يكن ليبدو أنه يتخيل أنه سيحيا حياة تختلف عن تلك التي يحياها الآن. أو ربما أن تمتد حياته وراء الساعات أو الأيام القليلة القادمة.

وقف فجأة. "إنه مساء غير اعتيادي بالنسبة إليك،" قال لدافيد. "إنها حكاية يمكن أن ترويها لأطفالك عندما تُرقدِهم في الفراش."

استدار ناصر ناحية جبريل، معانقاً إياه، ثم وضع يده على كتف أبي جمال، متكلماً بكلمات من الواضح أنها حارة، باللغة العربية. وقف أبو جمال بقامة أكثر استقامة بينما جسده الضئيل يكاد يرتجف من فرط سروره بمباركة هذا القائد له. إن ألف غاندي لم يكونوا ليجعلوا هذا الرجل أكثر فخراً، خالَ دافيد.

وفي ثوانٍ، اختفى محمد ناصر في جوف الظلام. متحسساً العرق الذي ندّى جبينه، أصغى دافيد إلى طلقات بندقية. وللحظة ما، لم يكن هناك سوى الصمت.

الفصل

24

بعد جنين، لم يُبقِ مخيم عايدة سوى مفاجآت قليلة لدافيد. فبعد وصوله إلى هذا المخيم برفقة نبيل عشوي، طالَعه المحيط العام الكئيب التالي: بناءٌ عليه جدارية غير متقنة الرسم، تمثل صورة التهجير الفلسطيني من فلسطين؛ برج المراقبة التابع للجيش الإسرائيلي، القابع عند مدخل المخيم؛ ولدان صغيران يلعبان لعبة العسكر في شارع يعجُّ بالغبار. وعلى بعد ثلاثين ياردة، وقف الجدار الأمني ذاته، يلوحُ منذراً فوقَ المخيم. هذا الجدار الذي كان قد مُدِّد خصيصاً من أجل حجبِ منظر سكان المخيم عن أعلى التلة التي تتربع فوقها مستوطنة جيلو.

"خلال الانتفاضة،" قال عشوي، بقي مخيم عايدة خاضعاً لمنع التجوُّل لمدة ثلاثة وسبعين يوماً. اثنا عشر شخصاً قتلوا هنا، بعضهم كان عضواً في المقاومة، والبعض الآخر كان في عداد المتفرجين." أشار إلى الطابق الثاني من مدرسة. "اثنان منهم، معلم وتلميذ، ماتا بسبب القصف الإسرائيلي. بعد هذه الحادثة تمَّ سدُّ نوافذ المدرسة بالإسمنت.

"سبعة آلاف شخص يعيشون هنا، دون خدمات صحية بالمرة. نسبة البطالة بين الرجال، تصل إلى 85%. ولا عجب بعد ذلك أن تزدهر حماس. كان ظهور إياد حسن أمراً محتوماً، أمَّا اسم ضحيته فقط، فهو ما يميزه عن سواه."

حدَّق دافيد في الجدار الأمني. "هل قام الإسرائيليون باستجواب والدته؟"

"لقد حاولوا ذلك، ولكنها في فترة عزاء، وهي تحتقرهم. أما ابنتها فتقول إنها قد رفضت إخبارهم بشيء. أنت على الأقل تمثل سيدة فلسطينية، وأنت تأتي معي بصفتي ترجمانك. إننا لن نخسر شيئاً، بل لعلنا نكتسب شيئاً." ألقى عشوي نحو دافيد نظرة مواربة. "كيف سارت أمورك مع أبي جمال، بالمناسبة؟"

"لقد تعاقدنا."

ولدهشة دافيد، فإن عشوي ابتسم ابتسامة عريضة. "إن لديه وجهة نظر معينة. لكنني أعتقد أنه يساعدك الآن، حتى في هذه اللحظة التي نتكلم فيها."

ثلاثة أطفال فلسطينيين بين العاشرة، والحادية عشرة من أعمارهم، تراكضوا بسرعة إلى داخل الزقاق. سيارة جيب مليئة برجال مسلحين، عليهم ثياب موحَّدة، ونظارات شمسية، جاؤوا في إثرهم في مطاردة حامية. قفزوا من عربتهم فيما أسلحتهم مشرعة. نبح قائدهم، الذي هو رجل عضليٌّ فظٌّ، له سحنةٌ بهيمية، في وجه دافيد وعشوي، بكلام عبري. أجابه عشوي بجفاف وهو يهزُّ رأسه. اندفع الرجال إلى داخل الزقاق يفتشون ذات اليمين وذات الشمال.

"الروس،" بصق عشوي الكلمة بصقاً. "إنهم من رجال الحرس الخاص للمستوطنة. لا شك في أن هؤلاء 'المجرمين' الصغار كانوا قد قاموا برشقهم بالحجارة.

"إن إسرائيل تدَّعي أن لا أحد في هذا المخيَّم يستطيع العودة إلى المكان الذي عاش فيه أجداده. لكنهم يرحبون بمليون من أغبى وأخرق الناس الذين تقيأتهم روسيا لأن هؤلاء يدَّعون بكل بساطة أنهم يهود. والآن ها هم في مخيم عايدة. لنصلِّ إلى الله ألَّا يقتلوا أحداً سوى أنفسهم، إلى أن نكون قد خرجنا من هذا المكان، على الأقلّ."

بعدها ذهبا قاصدَين والدة حسن.

* * *

رحبت بهما في الغرفة الأساسية من مسكنها البالي، امرأة ضئيلة ملفَّعةٌ بالسواد الذي يغطي جسدها بكامله، سوى عينيها ويديها. كانت عيناها النصف محجوبتين، المحاطتان بجفنين مجعَّدين تحدِّقان خلف دافيد إلى بقعة قد تكون غير موجودة في هذا الكوكب. مثلها متشحة بالسواد، جلست بقربها ابنتها، أخت إياد، امرأة شابة عليها سيماء الاحتراس والتكتُّم. بالنسبة إلى دافيد، فإن مجرَّد معاينته هذه الغرفة التي لا نوافذ لها، كان كافياً له لتكوين فكرة عن الآفاق التي أعطتها الحياة لهذه العائلة.

جلس دافيد وعشوي على البساط في مواجهة المرأتين. بلينٍ وتؤدة قدَّم لهما عشوي كلاماً من نوع المؤاساة، بينما كان دافيد يحاول أن يتخيل إياد حسن، القاتل القاسي الفؤاد لـ: بن آرون وهو يترعرع في مثل هذا المكان. ومع أن وجه أمه كان محجوب التعابير، إلَّا أنَّ الدموع طفت في مقلتيها.

وبعد أن أنهى عشوي كلامه، تمتمت المرأة ببضع كلمات. "إنها تتشكرنا،" قال عشوي دون أن يلتفت إليها. "وهي تنوح على ولدها."

"هل هي تعرف لماذا قد فعل ما فعله؟

توقف عشوي مفكراً في طريقةٍ لصياغة السؤال. ثم نطق بكلمات قليلة هادئة. بجواب مقتضب هزت المرأة رأسها. "لا،" ترجم عشوي، "لقد اختار إياد مصيره بنفسه."

"ماذا تقصد بذلك؟"

تكلم عشوي من جديد. خفضت المرأة أبصارها ثم بدأت بالإجابة البطيئة في بداية الأمر، ثم بمزيد من الحرارة. شاهد دافيد يد الفتاة تشدُّ على معصم والدتها. "أخته لا تحبِّذ كلام والدته،" أوضح عشوي. "لكن الأم تقول إن مسيرته قد بدأت في الحادية عشرة من عمره عندما ذهب إلى مدرسة إسلامية. وفي يوم من الأيام جاءت لاصطحابه إلى البيت. وكانت شارةٌ على الجدار تقول: 'إسرائيل تملك قنابل نووية، لكننا نملك قنابل بشرية'. ثم سمعَت إياد يستظهر: 'وسأجعل من جسدي قنبلة بشرية تفجِّر لحوم الصهاينة أبناء الخنازير والقِردة.' وقد أفزعتها حماسته يومها."

فجأة، تكلمت المرأة ثانية، كان صوتها مشوباً بالحزن. "بدأ إياد يصلِّي باستمرار،" ترجم عشوي. "كان يتواجد دائماً في المسجد، في آخر الليل، كما في باكورة الصباح.

"حاولت أن تعتقد أن هذا سلوك طبيعي. لكنه صار أكثر هدوءاً بعد ذلك، فهو لا يكاد يتحدث إليها. وفي وقت متأخر كانت قد علمت أنه كان يشاهد أفلاماً عن الشهداء الذين سقطوا وهم يقتلون اليهود."

"من هم الذين كانوا أصدقاءه؟" سأل دافيد.

عندما طرح عشوي السؤال، تضيَّقت حدقتا الأخت. ترددت الأم قليلاً ثم أجابت. "كانوا من الجامع،" نقل عشوي كلامها. "كذلك من نادي إياد لكرة القدم. في العام 1988 ذهب فريق الكرة حتى إلى الأردنّ، ثم إلى بلد آخر لم يصرِّح به."

صار دافيد شديد التيقُّظ فجأة. "مدرسة للأصوليين، جامع للشهداء، ناد لكرة القدم يزور بلداً مجهولاً، ماذا يعني ذلك كله لك؟"

"أعرف." حاول عشوي أن يحافظ على نبرة صوت تشير إلى أنه يتحدث عن أمور واقعية من أجل عدم إقلاق المرأتين. "لكنني إذا طرحتُ مثل هذا السؤال، فقد تتدخل الفتاة لتقطع الحديث."

"لنحاول الالتفاف على ذلك إذن، سلِ الابنة عن شعورها حول وفاة إياد."

مستديراً إلى المرأة الشابة، تكلَّم عشوي، فتوترت ثم أخرجت كلمات قليلة حادَّة. "إنها فخورة بإياد،" قال عشوي. "كان رجلاً مؤمناً، وليس مثل ابناء جماعة كتائب الأقصى الذين يدعمون فساد منظمة فتح."

راقب دافيد وجه الابنة. "لا تستطيع أن تكظم غرضيتها، أليس كذلك."

"يبدو أنها لا تستطيع." قال عشوي. "لكن ما يدهشني هو عدم وجود مهتمين هنا لمنعهما من التحدث إلينا. ويعلم الله أيَّ نوع من الرجال يمكن أن يظهر علينا."

"إذن الأفضل أن نصل إلى النقطة الأساسية. سلها من الذي تولّى قيادة إياد حتى صار شهيداً."

تكلم عشوي باختصار، فهزّت الفتاة رأسها رافضة الإجابة. وبحرارة مفاجئة قالت الأم، "حماس."

استدارت الابنة نحوها تضغط على معصمها بصورة أشدّ. وبطريقة متحدِّية، كررت الأم إجابتها، "حماس،" ثم تابعت في لهجة اتهامية. "إنها حماس،" ترجم عشوي بسرعة. "إن حماس تدير الجامع والمدرسة والنادي ـ "

تدخلت الأخت مقاطِعة، ومتكلمة بسرعة. "إنهم لا يعرفون شيئاً عن المدة التي أمضاها إياد في بيرزيت،" قام عشوي بصياغة الجواب، "ولا عن الذين اشتركوا معه في قتل بن آرون."

"اسأل الأم عمّا إذا كان هناك أي شيء آخر تستطيع قوله لنا عن ولدها."

مصغية، حدقت المرأة في الأرض، ثم مفلتة من قبضة يد ابنتها، ذهبت إلى الغرفة الأخرى وأحضرت معها دفتر مذكرات ذا شريط لولبي، وضعته بين يدي عشوي. "إنها مفكرة إياد،" قال عشوي لدافيد أنها قامت بإخفائها عن اليهود.

وعندما بدأ عشوي يقرأ، خاطبته الأخت بلهجة حازمة. "لن تستطيع الاحتفاظ بالمفكرة،" أخبر عشوي دافيد. "ومع كل هذا، فإن المضمون أجلى من دمع العيون، كثير من الحميَّة الدينية دون ذكر أسماء أو تفاصيل. ما عدا النهاية حيث يوجد رقم هاتف."

"حاوِلْ أن تحفظه غيباً إن استطعت."

حدَّق عشوي في الصفحة. ثم تكلم بهدوء، معيداً المفكرة إلى والدة حسن التي أجابته بكلمات قليلة متعَبة.

"إننا مكان ترحيبهما، هي تقول، لكن آن لنا أن ننصرف."

مومئاً برأسه إلى المرأتين، تبع دافيد: عشوي إلى خارج الباب، تاركين وراءهما أماً حزينة، وشقيقة مغضبة، وتمزُّقاً بينهما حول وفاة شهيد.

في سيارة الجيب، قام عشوي بتدوين الرقم الهاتفي معطياً إياه لدافيد. رقَّم دافيد الأرقام على جهاز هاتفه الخلوي، وكان يصغي بانتباه عندما أجاب أحدهم بتهذيب. "هنا بيرزيت، مدرسة العلاقات الدولية."

"هل هذه هي مدرسة صائب خالد،" أجاب دافيد.

* * *

في الفندق، دوَّن دافيد ملاحظاته، مصنفاً الحقائق التي باتت واضحة له. علاقة بين هلال

ماركيس، وباراك ليف؛ تعاسة زواج هناء؛ قدرة صائب على الوصول إلى كومبيوتر هناء في البيت وفي المكتب؛ إنكار محمد ناصر أي علاقة لكتائب شهداء الأقصى مع هناء أو في مؤامرة اغتيال بن آرون؛ رحلة صائب المديدة إلى الأردن؛ علاقات إياد حسن بحماس؛ حضور حسن لمقرر دراسي عند صائب. وهذه الحقائق هي حقائق مذهلة بحدِّ ذاتها. لكن المعلومات اللازمة لنسج هذه الخيوط المتباينة معاً في مخطط واحد، إذا كان هناك من مخطط، قد بقيت خارج متناول حوزته وإدراكه.

مرهَق الذهن، بدأ دافيد بتوضيب حاجياته. كان عليه السفر إلى لبنان، حسبما وعد هناء، من أجل زيارة أمها وأبيها. ومع أنه كان يشعر بالفضول نحو هذه الزيارة، إلَّا أنه لم يكن ليتوقع أنها سوف تكون منتجة. لكنه في أي حال، لن يكون آسفاً لمغادرة الضفة الغربية، وذلك ليس بسبب ما ينتابه من شعور فقط، فلقد كان غريباً قبل الآن؛ بل لأنه كيهودي يمكن أن يقع هدفاً للمقت الذي لا يفرِّق بين يهوديٍّ وآخر. كما أنه شعر بثقل وطأة الاحتلال المتلف للروح، وبكونه صار عضواً عارضاً في مجموعة سكان لا يرى المحتلُّ شيئاً في أيٍّ منهم سوى أنه قد يكون مشروعَ مفجِّرٍ انتحاري. والأرض الموعودة التي يعتقد كثيرون في كل جهة أنها وعدٌ يختصُّ بهم دون سواهم. قد تستنزفها ليس نزعات العنف والحقد فقط، بل أيضاً أتفه النقائص البشرية وأبسطها، ألا وهي: فشلُ المرء في أن يتخيلَ حياة الآخر. والقاسم المشترَك الوحيد بين كل احتلال وسواه، هو أنه دائماً يغضُّ من قيمة الإنسان، ويحطُّ مِن قدره، كائناً من يكون.

إن أكثر ما يحتاجه في هذه اللحظة، ذكَّر دافيد نفسه، هو الإخلاد إلى النوم.

وبينما هو يخلع قميصه: لاحظ وجود غلاف منزلِقٍ من تحت الباب. فضَّ الغلاف بأملٍ. فوجد بداخله ترجمة مرتبكة لملاحظات طبيب صائب في رام الله، إلى اللغة الإنكليزية.

وبعدما قرأ المضمون، أخرج دافيد نفساً طويلاً. إذا كانت هذه الملفات صادقة، فإن صائب خالد كان يعاني فعلاً من حالة عدم اتِّساق في نبضات القلب، وهذه يمكن لها تحت ظروف معينة أن تتحول إلى نبحة قلبية قاتلة. كما كان هناك إحالة إلى طبيب قلب اختصاصي في عمَّان، وهناك ملاحظات عن المعاينات تتطابق مع زياراته. كل الدلالات إذن تشير إلى أن صائب خالد كان فعلاً رجلاً مريضاً جداً.

لكن دافيد لاحظ، رغم ذلك، أن حالة صائب الصحية لا تقتضي منه أكثر من يوم واحد لكل زيارة إلى عمان. ثم لاحظ شيئاً آخر غريباً أثار فضوله" لقد طلب صائب من طبيبه في رام الله إرسال عيِّنات معيَّنة، لم توصف بالتحديد، إلى المختبر المتطور الوحيد الذي يعرف عنه الطبيب، والذي يستطيع إجراء هذا التحليل المطلوب. وهذا المختبر الأوحد يقع في تل أبيب.

مكلِّماً زيف آرنهيت بالهاتف، استطاع دافيد أن يرتب له لقاءً مع الرجل في تل أبيب. لكن كان عليه أولاً الوفاء بوعده بزيارة لبنان.

الفصل

25

في صباح ثلاثاء حار في بيروت، أوفى دافيد بوعده إلى هناء.

وفي هذا الوقت، بدا مخيم اللاجئين في شاتيلا مألوفاً له. فحتى الركام الذي حُفظ على حاله طيلة ربع قرن، أثار في نفسه ذكرى ركام جنين. سوى أن ركام شاتيلا كان أوسع نطاقاً، كما أنه كان يطوف به المزيد من الأشباح، ومن خيالات رعب الذبح المنهجي. لم يجد مفراً من التفكير في صائب خالد. ولدٌ في الرابعة عشرة من عمره يُجبر على مشاهدة مقتل أفراد عائلته.

وفي مركز الخدمة الاجتماعية، استدلَّ دافيد إلى الاتجاهات المؤدية إلى مسكن والدي هناء، الموجود في ناحية تحمل اسم القرية التي هربا منها حينما كانا لا يزالان طفلين. كان المسكن عبارة عن مستطيل من الاسمنت بين مستطيلات أخرى تشبهه وتتصل بجانبي زقاق ضيِّق تعبق فيه روائح المجارير. وبكثير من الخشية، قرع دافيد على الباب الخشبي.

وعندما استجابت لطرقاته امرأة بيضاء الشعر، عرف دافيد على الفور، مَن عساها تكون. كانت والدة هناء امرأة ضئيلة الحجم، نحيلة الشكل، ولها عينان عسليتان صافيتان، تغايران وجهها الذي خدَّده العمر، والهمُّ، وشدة بساطة العيش. كانت مها عارف تشبه ومضة عن مستقبل هناء، لو لم تكن هناء قد غادرت مثل هذا المستقبل تماماً. نظرت مها إليه نظرة مرتابة، بينما استوعب دافيد صدمة الحقيقة في أن تكون هذه المرأة العربية الضئيلة ليست سوى والدة هناء.

"إنني دافيد وولف،" قال لها. "إنني محامي هناء. وقد طلبت مني أن آتي لزيارتكم."

اسم هناء استلفت نظرة مستفهمة، فيها الخوف وفيها الأمل. أدرك دافيد أنه كان قد أغفل الفجوة البعيدة بين هناء وبين والديها. "إنني أميركي،" قال دافيد. "هل تعرفين أحداً يتكلم الإنكليزية؟"

رفعت المرأة يدها وغابت في داخل البيت تاركة الباب منفرجاً. سمع دافيد أصواتاً تتحدث العربية. ثم قدِم رجلٌ قصيرٌ ممتلىء، في متوسط العمر، وله شاربان أسودان، لتحيته. "أنا باسم،" قال له، "عمٌّ هناء."

قام دافيد بالتعريف بنفسه مرة ثانية. "تفضَّل،" قال باسم وهو يفتح الباب إلى أوسع مداه.

تبعه دافيد إلى غرفة جلوس صغيرة لا تختلف عن تلك العائدة إلى والدة إياد حسن سوى بأن هذه لها نافذة تفتح على الزقاق، موفِّرة بقعة من الضوء الطبيعي التي سقطت على شجرة زيتون مقزومة مغروسة في وعاء. رجلٌ أكبر سناً من الأوَّل، له وجه هزيل وشعر أشيب، حدَّق نحو دافيد بحذرٍ من وراء نظارتين سميكتين تدلَّان على ابتلاء صاحبهما بشحِّ نظرٍ مستحكم. "هذا يوسف،" شرح باسم، "إنه والد هناء."

نطق باسم ببعض العبارات إلى يوسف ومها، بينما كان يوسف ينظر بعينين طارفتين في وجه دافيد، وكأنه رجلٌ قد هبط عليهم لتوِّه من القمر. طرأت على دافيد صورة متباينة لوالدي هناء ووالديه هو - وهما طبيب نفساني وبروفيسورة في اللغة الإنكليزية، كلاهما يهودي - وهم يحاولون التحدث مع بعضهم، فيما تقوم هناء بمهمة الترجمة بينهم. بينما أنظارها منصبَّة على دافيد، فاهت مها عارف بكلمات عربية متلاحقة.

"تريد أن تعرف،" ترجم باسم كلامها، "ما إذا كانت ابنتها سوف تنجو."

مواجهاً والدة هناء، أجاب دافيد، "إنها في أمان في الوقت الحاضر، وإني أعدُ بأن أبذل أقصى مستطاعي لإعادتها إلى الحرية."

ترجم باسم هذا الجواب، قبل أن يترجم الجملة الاستنطاقية الثانية الصادرة عن مها: "هل ذهبت مع هناء إلى مدرسة المحامين؟"

في الحياة التي تقاسمتها هناء مع أهلها، أيقن دافيد، أنه لم يكن له أيُّ وجود. "نعم،" أجاب ببساطة. "لقد تعرفتُ عليها في جامعة هارفارد." غلالة من الدمع غطت عينا المرأة. "منذ ذهاب هناء إلى أميركا،" أوضح باسم، "لم ترها أمها سوى نادراً. أمَّا طفلة هناء، فلا يعرفونها إلَّا من خلال الصور."

بعد تأخُّرٍ، طلبت مها منه أن يجلس معهم على أحد المتكآت البالية الموزَّعة فوق البساط، ثم قدَّمت له الشاي. وفجأة تكلم يوسف عارف بلهجة تحمل الحزن والقساوة. "إنه يصلي لكي تجد ابنته عدالة في أميركا." ترجم باسمٌ الكلام. "إذ لا عدالة هنا."

منذ أن كان والد هناء لا يزال طفلاً، فكَّر دافيد، فإنه لم يبرح هذا المكان. كما فكَّر في شقيقة أمها - خالة هناء - المدفونة تحت أنقاض منزلها. "في أميركا،" قال دافيد، "هناك عدالة."

"حتى من أجل الفلسطينيين؟"، سأل باسم بحدَّة.

"نعم،"

عندما قام باسم بالترجمة، تكلم يوسف بمزيد من الحمية. "هنا،" قال له باسم. "نحن هنا ليس لدينا ما نعمله. ولا نريد الحصول على جنسية أي بلد، نريد العودة إلى وطننا الحقيقي، إلى أرضنا وأرض أجدادنا. شجرة الزيتون الحزينة هذه، هي كلُّ ما تبقَّى من وطننا الحقيقي. والآن قد يزهقون حياة ابنتنا."

تكلمت مها من جديد، وكان ثمة تعجُّل في صوتها. "هل أنت محام قدير؟" ترجم باسم.

"نعم،" أجاب دافيد ببساطة، "إنني محامٍ قدير جداً."

عندما ترجم باسم كلامه، ظهرت أول إشارة ارتياح في عيني مها. وهكذا، باتت تتكلم الآن بصوتٍ أكثر هدوءاً. "هذا ما تستحقه ابنتها،" أوضح باسم. "هناء متزوجة من زوج رائع، ينتمي إلى عائلة جيدة. لكن صائب ليس محامياً. والآن لا يستطيع إنقاذها سوى محامٍ."

سمِع دافيد هذه الكلمات، فتذكر هناء تستعيد تحذيرات أمها: "أتمنى عليك ألَّا تحبي أحداً في أميركا." وكان يتمنى لو كان بوسعه أن يقول الآن لهذه الوالدة: "لو أن هناء كانت حرة في أن تحبني. لكانت الآن سالمة". ولكنه اكتفى بدلاً من ذلك بهزِّ رأسه.

"وكيف حال حفيدتي؟" سألت مها عبر باسم. "هل هي مروَّعة؟"

تردَّد دافيد. "إن لديها والدها،" أجابها، "وهي مثل والدتها، قوية وشديدة الذكاء."

عندما تمت ترجمة الإجابة الأخيرة، نظر يوسف في وجه زوجته، ثم استجاب من خلال باسم. "هل هي أيضاً تردُّ الكلام مثل والدتها؟"

"نعم، لقد أخبرتني هناء أن منيرة تأخذ بثأرك منها."

أصدر يوسف بلسانه صوتاً مقرقِعاً، ثم اختفت ابتسامته الخفيفة. خرج الكلام هذه المرة من حلقومه. "هي لم تقم بقتل اليهودي،" نقل باسم الكلام.

لم يكن دافيد واثقاً ما إذا كان هذا سؤالاً أم تعبيراً. "لا،" أجاب أخيراً. "ليست هي من قتل عاموس بن آرون."

"إذن هي كلها أكاذيب صهيونية،" قال باسم بإصرار.

"إنها أكاذيب جهة ما،" أجاب دافيد. "وأنا معنيٌّ بمعرفة أكاذيب من هي."

عندما ترجم باسم هذا الكلام، نظرت إليه أم هناء بِحيرة. أمَّا ما ذهب دون كلام،

حسبما افترض، فهو اعتقادها الضمني بالغدر الصهيوني، وبازدراء الصهاينة الذي لا حدود له بالحقوق الفلسطينية. مختاراً اللجوء إلى تغيير دفّة الحديث، انتقل دافيد إلى نقلِ تحيات سوزان. "كان جدها،" أجاب يوسف عبر باسم، "شقيقاً لوالدي. لكنه بقي هناك. لقد كان متزوجاً من يهودية."

كان هذا هو الجواب الوحيد. بعد لأيٍ، قالت مها، "نحن لا نعرف سوزان. إنه يتذكر والدها عندما كان طفلاً فقط."

تكلم يوسف ثانية. "إنه شيء غير طبيعي،" ترجم باسم العبارة ناقلاً الحزن في كلمات يوسف. "العائلات مسلوخة عن أرضها، وبعضها منقسم عن البعض الآخر. يوسف يقوم ببيع الحلويات التي تصنعها مها، على عربة يدوية، في الشارع، رجل بعيد عن ابنته وحفيدته. هذه ليست بحياة؛ إنها شبه حياة".

جالسة بقرب زوجها، أمسكته مها من كمِّه متكلمة معه بهدوء. تردد باسم قبل أن يقول لدافيد، "إن أحوالهم مستورة، هي تقول."

يظهر أن يوسف لم يصغ لهذا الكلام. "عندما هُجّرنا،" قال عبر باسم، "ترك والداي أكواب الشاي على الطاولة تعبيراً على أننا سنقوم بإعادة ملء هذه الأكواب بعد عودتنا. لم يدُرْ بخلدِهما أنهما سيموتان هنا في هذا المكان."

وكأنها أرادت أن تؤكِّد على ذاكرة زوجها، تكلمت مها إلى باسم. "وكان هناك أشجار زيتون،" نقل باسم الكلام إلى دافيد. "وأشجار ليمون أيضاً. هي تقول إنها لا تزال تشتمُّ رائحتها."

"هل تستطيعين فعلاً؟" سأل دافيد.

كانت ابتسامة باسم مُرَّة تقريباً. "بعض الأيام أصدِّق أنني أستطيع ذلك. لكنني كنت قد ولدتُ هنا. فذكرياتي الخاصة تتعلق بالميليشيات وصواريخ الطائرات الصهيونية التي كانت تقصفنا هنا كلما حدثت عملية فدائية في فلسطين."

عند ذكر كلمة "الميليشيات" تجهمت قسمات مها. واقفاً بفخر، وصل يوسف إلى دُرج عائد لطاولة محطَّمة. وبأصابع متورِّمة أخرج منه ورقة مجعَّدة، حالت ألوانها بفِعل مرور الزمن. ناولَ الورقة إلى دافيد.

ولشدِّ دهشته، وجد دافيد أن الوثيقة مكتوبة باللغة الإنكليزية. "إنها وثيقة بأرض مسجَّلة،" أوضح باسم، "صادرة عن الحكومة البريطانية في فلسطين. وهي تثبت حقَّ يوسف في منزل والده."

فكَّر دافيد بجدران ذلك البيت المهدَّمة، وبصحونه الخزفية المحطمة، ومع ذلك، فبالنسبة لوالدي هناء لا يزال موجوداً، ينتظر عودتهم إليه في زمن لا يزال موجوداً. وكان

هذا شيئاً مستحيلاً أن يتخيله دافيد. إذ إنه لم يكن يستطيع أن يتصور هناء ومنيرة، تعيشان في مثل ذاك المكان. ومع ذلك، فإن هناء كانت تحمل في عنقها مفتاح بيت جدِّها، كما أن منيرة تروي ذكرياته.

مراقِبةً وجه دافيد بعناية، تكلمت مها إليه. "عندما رأيتَ سوزان،" سأل باسمُ بالنيابة عنها، "هل اصطحبتكَ إلى قريتنا؟"

نظر دافيد في عيني والدة هناء. "كلا،" قال لها بهدوء. "لكنها تبدو جميلة. وآمل أن تتمكنوا من مشاهدتها في يوم من الأيام."

وعندما ترجم باسمُ كلماته إلى اللغة العربية، ترغرغت عينا مها. بدت كأنها لا تزال تأمل بالعودة، مدَّت يدها لتلامس معصم دافيد. خِفَّة وطأةِ يدها تُشكِّل طيفاً ليد هناء. "أتمنى لك النجاح في مهنتك،" قالت. "أرجوك أن تستنقذ ابنتي من أيدي الأعداء."

الفصل

26

في ليلته الأخيرة قبل العودة إلى وطنه، تقابل دافيد مع زيف آرنهيت في مطعم كاتي في القدس.

كان المطعم صغيراً وحميم الأجواء، له طاولات تضيئها الشموع، ومديرة من يهود المغرب، ذربة اللسان، كانت تمازح آرنهيت قبل أن تحضر لهما شرابهما. "وهكذا،" قال آرنهيت سائلاً دافيد عن الوقت الذي أمضاه في الضفة الغربية، "ما هي الانطباعات التي خرجت بها؟"

"أنَّ الاحتلال كارثة،" أجاب دافيد بلا رتوش. "كارثة على الجميع."

أفرد آرنهيت يديه. "وما هو الخيار المتوفر لنا؟ منذ بضع ساعات، وعلى حاجز تفتيش في رام الله، أمسك الجيش الإسرائيلي شاباً من حماس، في العشرين من عمره، يحمل قنبلة وسترة جنديٍّ في الجيش الإسرائيلي. هذه هي حصيلة اليوم: ألوف من العرب المتضايقين، وأرواح إسرائيلية غير معلومة قد تم إنقاذها من إرهابيٍّ آخر. هل كنت تفضِّل أن يموت هؤلاء؟"

"إن ما أفضِّله، هو أن يجد العقلاء بين الجانبين طريقة للخروج من هذا." وضع دافيد كأسه على المائدة. "وماذا بحق الجحيم يفعل المستوطنون في الخليل؟"

"إن الخليل مدينة في صميم التراث اليهودي،" ردَّ آرنهيت. "ومن حق اليهود أن يمارسوا طقوس عبادتهم هناك."

"ولكن بأيِّ ثمن؟" تساءل دافيد بغضب أصيل. "هل يكون ذلك بنشر الجيش الإسرائيلي لتمكين زمرة من اليهود المتعصبين، من رمي نفاياتهم على باعة المفرَّق المسلمين؟ "هل تعرف ما الذي يذهلني زيف؟ إن الكثيرين من اليهود ومن الفلسطينيين، على السواء، لا يأبه فريق منهم مرة لقصص الفريق الآخر. فكثير من الفلسطينيين لا يعي لماذا تجعل ثلاثة آلاف سنة من الموت والاضطهاد، اليهود راغبين في بناء دولة لهم، أو كيف أن التفجيرات الانتحارية تنفِّر اليهود، وتتسبب في إطالة أمد الاحتلال. هناك يهود

كثيرون يرفضون الاعتراف بدورهم الذي يلعبونه في تخلّف الفلسطينيين وفي غضبهم منذ العام 1948، أو أن الفاتورة اليومية للاحتلال، تشعل المزيد من الحقد والعنف. وهكذا، تحوَّل الطرفان إلى مجرد كلاشِيهات. فاليهود ضحايا ظالمون، والفلسطينيون ضحايا مظلومون دفعوا إلى ممارسة العنف. بينما دائرة الموت تدور دورتها. أما الشيئان المشترَكان بين المتطرفين في صفوف الفريقين: فهما مبلغ كرههما لـ: عاموس بن آرون من جهة، ومواهبهما في حفظِ الأحقاد القديمة مضطرمة وحيَّة في النفوس، من جهة ثانية." أمسك دافيد لحظة، قبل أن يتابع كلامه على وتيرة واحدة: "في مدة ثلاثة أسابيع، قصيرة، لمستُ جميع أنواع المعاناة، ابتداء من عائلات حيفا، وسكان جنين، والخليل، وصولاً إلى معاناة والدي هناء. لكنهم يعيشون في عوالم مختلفة. وهناء قد أصبحت نوعاً ما، لاعباً في مأساة لا يبدو أن ثمة نهاية لها. لا بالنسبة إليها، ولا بالنسبة إلى ابنتها، ولا بالنسبة لأيٍّ من سكان هذه المنطقة."

درَسَه آرنهيت ببرودة. "وفي نهاية الأمر يا دافيد، ما هو الفريق الذي ستختاره؟"

لم يرفَّ جفن لدافيد. "إنني يهودي، وإنني أكثر شعوراً هنا أنني بين أهلي؛ ففي الضفة الغربية، سمعتُ ما فيه الكفاية من الكلام المضاد للسامية لكي يذكِّرني أن عشرة من اليهود حين يجتمعون، لا يبقى أمامهم سوى القتال أو الهرب. وهكذا، إذا كان لا بدَّ لي من أن أختار، فإنني سأرفض الخيارين معاً.

"إن المشكلة القائمة هي أنه لا يمضي يومٌ إلَّا ويُفرض على سكان هذه المنطقة مزيد من الخيارات، فرضاً. ففي كل يوم يقاتل فيه هؤلاء اليهود لبناء مزيد من المستوطنات، ويلعب فيه بعض القادة العرب على وتر حلم العودة، فإن الحصيلة تكون ضمان استمرار قتل بعض الناس. وهكذا، فإن الكراهية المتأصلة في جينات الناس في هذه المنطقة تستمر في الاستشراء.

"ومع رحيل بن آرون، فإنني لم أعد أرى السلام آتياً في وقت قريب، بل إنه قد لا يأتي أبداً. فإذا لم يأتِ السلام فليس لكم بدٌّ في أيِّ حال من إنهاء الاحتلال بالانسحاب إلى ما وراء جداركم الأمني الذي يلتف على قلاع ومستوطنات ما كان لها أن توجد أساساً. أمَّا على الجانب الآخر، فبدلاً من أن تجدوا شعباً متنوعاً مرناً، فإنكم ستجدون كثيراً من المثقفين الفلسطينيين يهربون إلى لوس أنجلوس تاركين وراءهم شعباً جريحاً غاضباً، يعيش على شريط أرضٍ متقيِّح، يصغي إلى أصوات الأصوليين، وإلى الكلام البلاغي في خطابات العودة. وستجدون أن حماس قد صارت وضعاً راهناً دائماً."

ألقى إليه آرنهيت بابتسامة كئيبة. "وماذا بعد ذلك؟"

"لن يكون هذا المكان مكاناً صالحاً لتنشئة الأطفال."

شبك آرنهيت أصابع كفيه أمامه. "إن هناك أشياء كثيرة ما زلتَ تجهلها. إن ما تريده

أنت، ربما يريده معظم الإسرائيليين. وربما معظم الفلسطينيين أيضاً. لكن مستوطنينا المتطرفين لا يحددون مستقبلنا بقتل الفلسطينيين. إن وجود المتعصبين من أمثال حماس وكتائب الأقصى هو ما يجلب إلى المستوطنين ما لديهم من القوة والنفوذ. إن الذين قاموا بقتل بن آرون هم فلسطينيون."

"لم يفعلوا ذلك لوحدهم،" أجاب دافيد بهدوء.

نظر آرنهيت حولهما نحو زبائن المطعم الآخرين الذين تلتمع على وجوههم أضواء الشموع. "هل سيمكننا يوماً معرفة ذلك؟" أجابه مستفسراً. "لربما أنك قد تتأسف بسبب تكتيكاتك هنا."

أخذ دافيد نفساً عميقاً. "إنني متأسِّف بسبب الوفيات، وبسبب العواقب التي تتركها الوفيات."

"على موكلتك؟"

"على كل من يستفيد من جلاء الحقيقة." عندما قال هذا، شعر دافيد باستيلاء التعب عليه، تعب يضاعفه إحساسه بأن الوصول إلى الحقيقة خاضع لسيطرة الآخرين. "هناك مغزى في كل ذلك. فإذا استطعت الوصول إلى المفتاح، فإن ذلك قد يؤدي إلى فرق كبير بما يتعدى هذه المحاكمة ذاتها. إن أحدهم قد قتل ليف وماركيس، مع أنهما تحت المراقبة الإسرائيلية كما فهمت، لكي يمنعنا من الوصول إلى حقيقة هذا الأمر."

"ولم تسمع شيئاً عن حوادث القتل هذه عندما كنت في الضفة الغربية."

"أن أكون حقاً قد سمعت شيئاً، هذا أمرٌ لست أدري به بعد. أما ما أنا واثق منه، فهو أن كتائب الأقصى لا مسؤولية لها. كما أنني لا أعتقد أنها قد نفذت اغتيال بن آرون في أميركا." ارتشف دافيد شرابه. إن الشيء اللافت هو أن جعفر كان ساذجاً، وأن حسن ينتمي إلى حماس. وأن كلَّ من خطط لهذه المؤامرة إنما استهدف إحباط مبادرة بن آرون للسلام؛ وجعل إسرائيل تنهي كتائب الأقصى من الوجود؛ وأن يمكِّن المتطرفين مِن تسلُّم السلطة في إسرائيل والضفة الغربية."

"لماذا يريد ليف وماركيس أن تصل حماس إلى السلطة؟"

توقف دافيد. "حسب منطق المتطرفين،" أجاب، "كلا الطرفين يمكنه أن يعطي الطرف الآخر ما يرغب به: الصراع الأبدي بين الإسرائيليين والفلسطينيين. إنهما مختلفان على شيء واحد فقط، هو من يربح المعركة."

محتضناً وجهه بيده، راقب آرنهيت دافيد عبر الطاولة. "عدا عن السلام الدائم، ما الذي تريده من حكومتنا؟"

"أريد أن أعرف ماذا كان صائب خالد يعمل في عمَّان. إن جُلَّ وقته لم يذهب لرؤية الأطباء. ولعلَّ الموساد يعرف."

"ربما أنهم يعرفون، أما أن يخبروك بما يعرفون، فهذه مسألة مختلفة تماماً." للحظة، بدا آرنهيت مرتبكاً. "لكن هناك أيضاً مسألة المختبر في تل أبيب، حيث كان صائب خالد قد أرسل هذه العيِّنات غير المحددة التي أخبرتني عنها."

"نعم، ربما أنها لا تعني شيئاً، وربما أنها تتعلق بحالة قلبه. لكن ملاحظات طبيبه غامضة إلى درجة محيِّرة."

هزَّ آرنهيت رأسه موافقاً. "إنها محيرة بالنسبة لي أيضاً. فالمختبر المشار إليه ليس في عداد المؤسسات الصحية، إنه مختبر جنائي، وموظفوه من علماء الجريمة، وهو يُستخدم عادة لحل قضايا القتل."

تجمدت يد دافيد فيما كأسه على مبعدة إنش واحد من شفتيه. "يستخدم لماذا؟"

"ماذا تتوقع؟ بصمات أصابع، تقييم مسرح الجريمة، الحمض النووي، دراسات حول الجراح الناتجة عن الإصابة بالرصاص. لكن ليس علم أمراض القلب بالتأكيد."

فكَّر دافيد في كل هذا. "لعلَّ حكومتكم ترغب في الحصول على السجلات المتعلقة بكل ما قد يكون خالد طلب من المختبر فحصه."

"بأية ذريعة؟ وكيف يمكنك أن تربط ذلك بقضية الدفاع عن عارف؟"

"لست أدري حتى الآن. لكنني أجد أن الزيارات المديدة لصائب إلى عمَّان غريبة، إن لم يكن لشيء، فلعله لعدم وجود تفسير لها."

ابتسم آرنهيت ابتسامة خافتة. "سأرى ما يمكنني عمله،" أجاب. "على الأقل فإننا لن نكون نقوم بقتل أحد."

كانت هذه هي الروحية التي أمضيا بها الساعتين الأخيرتين اللتين انتهت بهما وجبتهما الأخيرة معاً. بعد أن صافح آرنهيت دافيد، لامس كتفه قائلاً. "رغم كل شيء أتمنى لك التوفيق. وعلى الأقل أنت تغادر إسرائيل حياً."

* * *

عندما عاد إلى فندق الملك داود، جلس دافيد إلى المقصف يرتشف كأساً من الكالفادوس. وبينما هو يغربل أفكاره كان ثمة جهاز تلفزيون يطنُّ في عمق القاعة. لقد غيرته هذه الرحلة، لقد كان متأكداً من ذلك. لكنه لم يكن بعد قد امتلك الوقت الكافي لكي يفهم كيف تمَّ له ذلك. تمنى لو يستطيع الكلام مع كارول، ومع هارولد،

وكان يتمنى الكلام مع هناء قبل كل إنسان آخر. ففي قلبه وعقله، كانت الرحلة قد غيَّرت صورته عنها أيضاً.

تساءل كيف ستكون هذه الصورة عندما يجلس في مواجهتها في المرة القادمة؟ هذا ما سيعرفه في اليومين القادمين.

اسم مألوف طرق مسمع دافيد، وقاطع أفكاره: محمد ناصر.

عندما رفع أبصاره، ذُهل ليشاهد صورة فوتوغرافية من سجلات البوليس تظهر على شاشة السي.أن.أن.

"أعلن مصدر إخباري للجيش الإسرائيلي،" قال مذيع الأخبار، "أنه قد تمَّ قتل محمد ناصر، أحد قادة كتائب الأقصى البارزين، وذلك في هجوم بصواريخ الطائرات على منزل يقع في مخيم جنين للاجئين. وقد أعلنت كتائب الأقصى على شبكة الإنترنت أن مدنيين بريئين، هما رجل وولده البالغ ثماني سنوات من العمر قد قتلا في هذا الهجوم أيضاً، كما توعدت برد انتقامي ضد ما أسمته "بالبربرية الإسرائيلية."

"إذا جاء السلام"، كان دافيد قد سأل ناصر، "ماذا ستفعل؟" يا له من سؤال غبي.

ما من نهاية لهذا، بات الآن دافيد يعتقد. كآبة عميقة ملأت كيانه. أنهى شرب كأسه من البراندي، ثم توجه إلى فناء الفندق محدِّقاً للمرة الأخيرة في خط الأفق لمدينة القدس القديمة. بعدها ذهب إلى غرفته وحزم أمتعته.

القسم الرابع

IV

السِّـــــــر

الفصل
1

رغم أن الغرفة البيضاء ذات الجدران العارية، والطاولة المصفَّحة، كانت لا تزال هي هي، ورغم أن منظر الحارس المراقب للمحامي وموكلته، عبر النافذة التي لا يخترق الرصاص زجاجها المسلح بالشريط المشبَّك، بدا هو الآخر على حاله؛ إلَّا أن دافيد كان يشعر أن هذا اللقاء مختلف عمَّا سبقه من لقاءات. إن ما عرفه عن هناء منذ اجتماعه الأخير بها، قد جعله يتمنى الوصول إليها بيده، رغم أنه كان قد وعد نفسه أن عليه أن يقاوم هذه النزعات.

وللحظة عبرت، حدَّقت فيه هناء، وكأنها تتبيَّن حقيقة أمره. *"لقد افتقدتُك يا دافيد."*

عالقاً بين الحنان والشك، أيقن دافيد أن المخرج الوحيد له، هو في أن يكون سلوكه مهنياً، وأن يكون ساكن العواطف بارداً قدر ما يستطيع ذلك. "آسف لأنني ابتعدتُ مدة طويلة،" أجابها "لقد كانت الرحلة أكثر تعقيداً بقليل، مما تصوَّرت."

أمالت هناء برأسها مستوضحة. *"وماذا تبيَّن لك؟"*

"أشياء كثيرة، من أشخاص كثر. بمن فيهم نسرين."

أطرقت هناء للحظة، ثم نظرت إليه نظرة مباشرة من جديد. "نعم؟"

"أخبريني عن حياتك الزوجية يا هناء." ومع أن صوت دافيد كان هادئاً. إلَّا أنَّ هذا لم يكن مجرَّد طلب. "لا تكتمي عني شيئاً هذه المرة. بما في ذلك منيرة."

راقبت هناء عينيه. "من أين عليَّ أن أبدأ؟"

"من المكان الذي توقفَت عنده الأمورُ بينك وبين صائب عندما جئتم أنتم الثلاثة معاً إلى هنا."

هزة كتف هناء كانت تشبه الاختلاج. "لم تكن الأمور جيدة."

"معنى ذلك؟"

"كان هنالك ابتعاد، ما لبثَت أن ازدادت مسافته مع الأيام."

"إن أمي وأبي كان يمكنهما أن يقولا الكلام ذاته. حدِّدي ما هي المسافة."

"ما عدنا ننام في سرير واحد." صار صوت هناء جافاً. "هل هذا ما أردتَ أن تصل إليه؟"

"إنَّ هذه هي البداية. متى توقفَت تلك العلاقة؟"

تراجعت هناء في مقعدها بينما هي تطوي ذراعيها. "هذه حماقةٌ وضلال."

"سايريني،" قال دافيد بهدوء. "إن لي أسباباً تجعلني أطرح هذه الأسئلة."

بينما ذراعاها ما زالا مطويين، أطرقت هناء أرضاً. "بدأ ذلك منذ ستة أشهر تقريباً، قبل مجيئنا إلى هنا."

"هل كان هناك من سبب؟"

"أليس وجود التباعد كافياً؟ هو لم يعد راغباً بي. وأنا لم أشكُ من أجل ذلك."

"ولمَ لا."

"لأنني لم أعد أجد رغبة به منذ قبل ذلك بوقت طويل." التمعت عيناها. "هل هذه طريقتك في الثأر مني يا دافيد؟ هل يجعلك استخراج هذه الإجابات مني تشعر بالراحة؟"

تمهَّل دافيد إلى أن ذاب الغضب الذي في وجهها متحوِّلاً إلى ذهول. "كلا،" أجابها. "بل يجعلني هذا الوضع الذي وصلنا إليه حزيناً. لكنني لا يمكنني الانجراف خلف مشاعري الخاصة. أو حتى مشاعرك كائنة ما تكون.

"صائب له صلة إلى مكتبك، كما إلى هاتفك الخلوي، كما إلى جهاز الكومبيوتر العائد لك، كما إلى الورق الذي تستعملينه. إن زوجك ربما يكون هو الذي ركَّب لك التهمة؛ إنَّ الرجل الذي عرفتُه في هارفارد لم يكن ليفعل هذا. وهكذا، إذا كان هو قد فعل هذا بك، فلا بدَّ أن أمراً ما قد حدث بينكما، شيئاً شديد العمق بحيث أنه قلبَ المحبَّة إلى كراهية." صار صوته أكثر هدوءاً. "أحتاجُ إلى معرفة هذا الأمر يا هناء. مهما يكن ذلك صعباً عليكِ وعليَّ."

أغمضت عيناها. "إن المسألة واضحة وغير معقدة. إنني لم أعد أحبه."

"لماذا؟"

"كان لي أسبابي. وكان يمكن لنا تجاوز بعضها. لكن أكثر فأكثر، صار صائب ذلك الرجل الذي لا أريد أن أكون معه ـ صار رجلاً يحتقر النساء." نظرت هناء إليه مرة ثانية، وصارت لهجتها أكثر اعتيادية، وكأنها كانت تحاول أن تعيد تقويم مجرى الحديث. "مع

الوقت، صارت علاقتنا علاقة خصام على منيرة. لقد بدا الأمر كأنها صارت بديلاً عني."

"عندما تقولين بديلاً..."

حدَّقت هناء نحو الطاولة. كأنها تجهد نفسها لسكب ما هي مشحونة به في كلمات. "عندما قُتل أفراد عائلة صائب، صرتُ أنا الإنسان الوحيد الذي يتطلع إليه صائب من أجل جميع الأشياء التي يبدو أن معظمنا يريدها من الآخرين. وهكذا كان الأمر لا يزال، عندما تزوجنا. فبالنسبة لصائب، كان مجرد اعتقاده أنه لم يكن الإنسان الذي أردته ـ أو الذي أردت مشاركته الفراش ـ كافياً لكي يقتله قتلاً داخلياً."

وهل كان صائب قد اعتقد ذلك فعلاً؟ دار في ذهن دافيد. لكنه بدلاً عن ذلك سأل هناء: "وما هي علاقة ذلك بمنيرة؟"

"لم يجرِ الإفصاح عن ذلك بالكلمات. ربما أن صائب كان قد وضع اللوم على أفكاري حول ما يجب أن تكون عليه المرأة، معتبراً إياها سبباً لموقفي منه. ولعل إصراره على تنشئة منيرة تنشئة كفيلة بجعلها امرأة مختلفة عني كان شكلاً من أشكال الانتقام مني. ومن المؤكد أنه كلما صار أكثر راديكالية، وكلما صار متطرفاً في الدين، كانت تشتد محاولاته لتشديد القبضة على كل ناحية من نواحي حياتها.

"في منتصف السنة الماضية، بعد بلوغ منيرة الثانية عشرة من عمرها، زاد تطرُّفه سوءاً." وبصوت مليء بغضب أبكم أضافت هناء تقول، "فجأة صار هناك: 'الأشياء التي نبَّهتُكِ إليها': صار عليها أن تتحجَّب، وأن تقرأ القرآن، وأن تصلِّي خمس مرات كل يوم؛ كما صار هناك الأشياء التي "نهيتُكِ عنها": صار عليها ألَّا تتزيَّن، وألَّا تلبس بنطال جينزٍ أزرق، وألَّا تخالط الأولاد الذكور. وبسبب هذه الأشياء، كانت تنشب بيننا خصامات حادة، إلَّا أن أسوأها كان خصامنا حول كيفية زواج منيرة."

"بأي معنى؟"

"أراد صائب أن يرتِّب أمر زواجها." وبينما هي تتكلم، كانت أصابع يديها متشابكتين بشدَّة. "يكفي أن أكون أنا قد التزمت بتقاليدنا. ولْيَنْتَهِ هذا الأمر معي. لكن حتى الآن، فعندما تقوم منيرة بزيارتي، فإنني أشعر أنها تذبل وتذوي." ارتجف صوتها. "في ما يختصُّ بي، ما عدتُ آبه كثيراً بما يُصيبني. أما في ما يختصُّ بمنيرة، فإن عليَّ أن أخرج من هذا المكان. فسواء أكنت ميتة أم سجينة مؤبدة، فإن صائب سيتحكَّم بمصير مستقبلها. وأنا لا أستطيع أن أتحمَّل فكرة أن يحصل لها ذلك."

صارت أقرب إلى البكاء الآن، رأى دافيد أن قدرته على السيطرة على مشاعره تكاد تهتز أمام غزارة مشاعرها. سألها بهدوء، "أمِن أجل هذا كنتِ قد أخبرتِ نسرين بأن ثمة رجلاً عرفتِه في كلية الحقوق قد يكون والداً أصلح لابنتك منيرة؟"

هنا لم تجد هناء استطاعة لها على رفع أبصارها نحوه. "كانت سخافة مني أن أقول ذلك. لكنني أردت لمنيرة حياة 'مختلفة'." صار صوتها أكثر هدوءاً وانخفاضاً. "لم أتحدث عنك مع صائب مطلقاً. ولربما أنه لم يكن لي من داعٍ لأفعل ذلك."

كان ثمة أشياء كثيرة يستطيع قولها. لكن دافيد سأل بدلاً عن ذلك، "ماذا تعرفين عن قيام صائب بإرسال عيِّنات إلى مختبر جنائي في تل أبيب؟"

بدت هناء مذهولة. "متى حصل ذلك؟"

"منذ تسعة أشهر. إنني أتساءل عمَّا إذا كان قد أرسل إليهم ورقاً من آلتك الطابعة، من أجل أن يتأكد من أن ورقة تحمل بصماتك عليها وليس بصماته."

خفضت هناء رأسها. "هذه أشياء من الخطير جداً مجرد التفكير فيها يا دافيد."

"لكن علينا أن نفعل ذلك. هل تعرفين لماذا كانت زياراته إلى الأردن تمتد إلى عدة أيام؟"

"من أجل الفحوصات الطبية، كنت أعتقد."

"هذه ليست الحقيقة."

رفعت هناء نظرها من جديد. "وهل أنت تعرف هذا؟"

"أجل. وهو أيضاً له وصولٌ إلى هاتفك الخلوي. أليس كذلك؟"

"بالطبع. ولكن عند منتصف الليل؟" هزَّت هناء رأسها. "كائناً من يكون المدبِّر فإنه/إنها كان يملك هاتفاً خلوياً آخر."

"وهذا يعني أنك وقعت ضحية تهمة مركَّبة ملفَّقة." انحنى دافيد إلى الأمام، ووجهه على مبعدة أقدام قليلة من وجهها. "هذه مسألة معقَّدة يا هناء، وإني أعتقد أن إسرائيليَّين على الأقل متورطان فيها. لكن كلاهما قد قُتِل قبل أن أتمكن من معرفة المزيد عنها."

افترَّت شفتا هناء. "أرجوك أن تحيطني علماً بكل الذي حصل."

شرح لها ما استطاع شرحه. "محمد ناصر،" قال مختتماً، "أقسم أن كتائب الأقصى لم تخطط لهذا الاغتيال. وأنك لم تكوني مرة عضواً فيها. وهو الآن في عداد الأموات أيضاً."

استوعبت هناء كل هذا، فيما عيناها مليئتين بيأس دفين. أخيراً سألته، "هل ذهبتَ لزيارة والديَّ؟"

"نعم. وهما قلقان جداً عليك. لا شكَّ أنهما قد حسباني قادماً من المرِّيخ، وكان من

الصعب جداً عليهما فهمَ ما يحدث، سوى على أساس أنه عملٌ صهيوني. أمَّا عدا عن ذلك فهما في حالة جيدة. على الأقل نسبة إلى الظروف التي يعيشان فيها."

أومأت هناء برأسها. "في هارفارد، كان ثمة أشياء في حياتي يصعب عليَّ إخبارك بها. شاتيلا كان واحداً منها، وعائلتي كانت شيئاً آخراً أيضاً. والآن، أراك قد فهمتَ أكثر مما خطر في بالي أنك ستفهم يوماً." بهتت قليلاً ثم سألت، "أعتقد أنك قد قابلت سوزان أيضاً؟"

"أجل، ولقد أحببتها كثيراً في الحقيقة."

"لقد اعتقدت ذلك. وهل أخذَتك لترى قريتنا؟"

"أجل، لكي أرى ما تبقَّى منها." صحَّح دافيد عبارة هناء بلطف. "أطلال وخرائب بين أشجار زيتون. إن كلَّ ما تبقى من منزل جدِّيك إنما هو أساس البيت، وبعض حطام الصحون الفخارية. والقرية التي تتخيلينها، لم تعد موجودة سوى في ذاكرة والديك."

استحال وجه هناء إلى لوحة حزينة. "وهل أخبرتهما بذلك؟"

"لم أقوَ على إخبارهما. خاصة بعدما رأيت الصكَّ العائد إلى جدِّك."

"كان هذا رفقاً منك." فارت الدموع فجأة في مقلتيها. "أتمنى لو كنتَ تستطيع الإمساك بي للحظة يا دافيد."

لكنه لم يكن ليستطيع ذلك. ولشدّ ما كان يرجو لها أن تكون حقاً بريئة، فإنه لم يكن ليستطيع بعد أن يكون واثقاً من ذلك. ولم يكن له أمام ما ينتظره من محاكمة وتجربة، أن يفقد زمام أمره.

"آسف أشد الأسف يا هناء. لقد صار واجبي الآن إعادتك إلى أحضان الحرية وليس إلى أحضاني أنا."

تشبَّث بقوله هذا، متحاملاً على نفسه، بينما هو يغادر هناء وهي تراقب مغادرته من خلال الزجاج.

الفصل

2

كانت خطوة دافيد التالية، هي استخدام مستشار لشؤون المحلّفين، وقد وقع اختياره على آيلين كاستيل، وهي مديرة مبيعات أنيقة ناعمة دمثة، تُوحي غرّتها الشقراء، وزيُّها الأنيق، وعملياتها الجراحية التجميلية، بمعرفتها الشديدة بديناميات المحاكمات الجزائية.

جلسا معاً في مكتبه، بُعيد إشراقة الشمس بنصف ساعة، يرتشفان القهوة بينما كان دافيد يوجز لها معضلته التكتيكية. "إن أمامي استراتيجيتان للدفاع محتملتان،" قال ملخِّصاً. "أما التي أودُّ أن أعتمدها من بينهما، فهي الكلام عن مؤامرة يندرج فيها: إسرائيليون، وحماس، وربما زوج هناء. لكن القاضي لن تسمح لي بالذهاب هذا المذهب ما لم يكن لديَّ برهان.

"إن الدفع الذي تأمل أن تحشرني به مارني شارب، يقتصر على افتقاري لتبيان مقوِّمات شكوكي المشروعة: بأن جعفر شخص كاذب أو مخدوع؛ وأن الأدلّة ضد هناء، إنما هي أدلّة مدسوسة عليها من جهة ما. ومشكلتي هي في أنني لا أملك شرحاً بديلاً يشير إلى براءة هناء، أو يوحي على الأقلّ، بوجود مؤامرة شديدة التعقيد، بحيث أن المحلَّف العاديَّ، الميَّال إلى الشكِّ بطبيعته، يشعر بما يكفي من الشك لمصلحة هناء."

لامست كاستيل شعرها ممسِّدة خصلاته إلى الوراء. "إذا كان عليك أن تمضي بالمحاكمة على طريقة شارب. هل تستطيع أن تجعل القاضي تردُّ شهادة جعفر لعلة كونها شهادة سماع؟ فالأمر يبدو أن روايته بكاملها تقوم على ما قد سمعه من حسن.

"فإذا أبعدته القاضي تايلور عن منصة الشهادة،" أجاب دافيد، "فعندئذٍ ينهار ادّعاء شارب بكامله. لقد كنت قد فكّرت بهذا. لكنه يحتاج إلى جرأة غير اعتيادية من تايلور، لإطلاق سراح هناء دون إجراء محاكمة."

فكرت كاستيل في هذه النقطة. "إذا سُمح لجعفر بأداء الشهادة،" قالت بعد طول أناة، "وكلُّ ما أبقته لك تايلور، هو العزف على وتر الشكِّ المعقول، فإن موكلتك ستكون في خطر عظيم."

ومع أن دافيد كان يعرف هذه الحقيقة من الأصل، فإن سماعها من لسانٍ خبيرٍ كان مدعاة للانقباض. "حتى الآن،" قال لها، "ترفض الحكومة الإسرائيلية أن تطلعني على ما تعرفه. إن شهودي المحتملين على وجود مؤامرة قد باتوا الآن تحت التراب. وفي ما عدا حالة محمد ناصر، فإنني لا أستطيع حتى الادعاء بمعرفة الجهة التي تقف وراء مقتلهم. إن كلّ ما هو الآن في جعبتي، مجرَّد أسئلة لم تلقَ بعدُ لها جواباً."

تجهمَت كاستيل أمام المأزق الذي يستدعيه هذا الواقع، قبل أن تسأل، "أفترِضُ أنك تريد مني أن أجمع لك فريقاً تمثيلياً من المحلَّفين يتعاون أعضاؤه من أجل تقديم قضيتك، ثم من أجل استبيان رأي جماعيٍّ بشأن ردود أفعالهم بشأنها. أمَّا السؤال فهو: أيّ قضيَّة ستعرض أمامهم؟"

استنفد دافيد كلَّ قهوته فاحصاً قاع فنجانه. "ليس لي سوى القضية المتقلقلة،" أجابها. "نظرية الشكِّ المبرَّر. هذا هو الدفاع الوحيد الذي أنا متأكد من أنني أملكه."

* * *

عندما استمع دافيد إلى بريده الإلكتروني الصوتي، كان ثمة رسالة من زيف آرنهيت.

كان الوقت مساء في إسرائيل؛ التقط دافيد زيف في مقهى مزدحم في تل أبيب، حيث كان الأخير يتعشى مع زوجته، وبعض أصدقائه. "يعلم الله من هي الجهة الأخرى التي قد تكون تُنصت أيضاً إلى هذه المحادثة،" قال زيف عِبر اللغو المحيط به. "لكن دعني أجد مكاناً هادئاً على الرصيف الجانبي، حتى لا يتضمَّن الصوت أصوات الناس الموجودين في هذه القاعة."

انتظر دافيد مصغياً إلى أن صارت الضجة الواقعة في خلفية الصوت تمثِّل ضجة السير في المدينة. "حتى الآن،" قال آرنهيت بصوت أكثر هدوءاً، "لم أجد لك شيئاً يتعلق بمختبر الأدلة الجنائية. لكن لك عندي شيء عن زيارات خالد إلى الأردن، مع أنني لا أستطيع أن أكشف لك عن مصدر معلوماتي. ما قولك في قيام خالد بزيارة فرعية إلى إيران؟"

هب دافيد واقفاً. "متى؟"

"منذ حوالي ثلاث سنوات. فالفلسطيني لا يستطيع السفر مباشرة من إسرائيل إلى طهران، لكن الطيران من الأردن إلى هناك لا يواجه أية مشكلة."

"كم مكث هناك؟"

"يومان فقط، ونحن لا نعلم ماذا فعل، ولا من التقى هناك. لكنه عندما رجع إلى الضفة الغربية خلال نقطة مراقبة الحدود الإسرائيلية، فإن كلَّ ما أظهره جواز سفره هو

مجرَّد ختم من سلطات المطار الأردني يشير إلى عودة جديدة له إلى الأردن. أمَّا دخوله إلى إيران فلم يكن موثَّقاً."

فكَّر دافيد بعدة تساؤلات، ثم سأل سؤاله البديهي.

"إذن كيف عرفوا أن صائب كان هناك؟"

"كان هو الذي أخبرهم بذلك. فمن خلال تصفُّح أوراق جوازه، لاحظ أحد رجالنا أن صائب قد قام بدخول الأراضي الأردنية مرتين، لا تفصل بينهما سوى مدة ثلاثة أيام. مع عدم وجود أيِّ توثيق لخروجه. وهكذا اعترف خالد بسرعة أنه قد ذهب إلى إيران، مضيفاً أن ليس له علمٌ عن سبب إغفال السلطات الإيرانية ختْمَ جوازه. إنه لم ينتبه إلى ذلك من قبل، قال مدَّعياً، لكن من هو الذي يستطيع التنبُّؤ بالإجراءات البيروقراطية؟"

"هل شرح سبب وجوده هناك؟"

"قال إنها كانت مجرَّد نزوة. ولأنه مقيم في الضفة الغربية، تمنعه إسرائيل من السفر إلى إيران؛ فإنه كأستاذ جامعي للعلاقات الدولية؛ قد أراد أن يرى إيران بنفسه. لقد قيل لي إنه كان جريئاً إلى حدٍّ الوقاحة في أجوبته."

"وهل صدَّقة رجال استخباراتكم؟ ربما ذهب إلى دولة أخرى؟"

ضحك آرنهيت ضحكة عابرة. "ربما ذهب إلى دولة أخرى، ولكن ليس باستطاعة استخباراتنا استفسار المخابرات الإيرانية عن حقيقة هذا الأمر. وهكذا، فإن كلَّ ما بقي لديهم هو إبقاء أعينهم على خالد.

"إلى أيِّ نتيجة انتهى ذلك؟ هذا ما لا أعلمه. سوى أن لا أدلة إضافية عن زيارات أخرى إلى أية دولة. وبالطبع، إننا لا نملك العنصر البشري الكافي لمراقبة كل من يكرهنا، أو يتصل بمن يكرهنا، مراقبة كافية."

"هل من معلومات عمَّا فعله في عمان في رحلاته التالية، عدا عن زيارة الأطباء؟"

"إن أصدقائي الذين يرفضون ذكر أسمائهم قد يعرفون ذلك." قال آرنهيت، "لكنهم يرفضون الإفصاح عمَّا فعله هناك، ولم يقم أحد باعتقاله من أجل ذلك. حتى إن حكومتنا قد سمحت له بالسفر إلى أميركا."

"شكراً لك يا زيف. عُد إلى الاستمتاع بعشائك."

* * *

بعد ثلاثة أيام، قدِمت مجموعة من الغرباء باستدعاء من قبل آيلين كاستيل.

ففي غرفة الاجتماعات في مكتب دافيد، اجتمع اثنا عشر شخصاً كانت قد

استخدمتهم آيلين كاستيل، ومعظمهم من الطلبة والمتقاعدين، من أجل البحث في قضية هناء عارف بجوانبها السلبية والإيجابية. أصغى الفريق إلى المداخلة الافتتاحية التي قدمها كل من آنجل غاريغوس شريك دافيد، الذي أخذ دور مارني شارب، ودافيد الذي أخذ دور الدفاع عن هناء. ثم استمعوا إلى الشهادات الشخصية المتوقعة، خصوصاً شهادة إبراهيم جعفر. ثم استمعوا إلى خلاصة قدمها آنجل لتلك الشهادات، وبعد ذلك إلى استجابات دافيد المحدَّدة على هذه الخلاصات، وقد قام خلالها بتشريح هذه الخلاصات الموجهة ضد هناء، بكلٍ دقة. وبعد ساعتين من ذلك، خرج المحلَّفون الصوريون بقرار إدانة.

بعد ذلك، قام دافيد بمقابلة المحلَّفين. وقد قامت الشابة التي تمَّ اختيارها كرئيسة لهيئة المحلفين، وهي طالبة متخرجة كان دافيد يأنس فيها تعاطفاً، بتوضيح أسباب هذه النتيجة.

"إنك توحي لنا بأن جهة ما، قد قامت بتلفيق تهمة مدبَّرة لموكلتك." قالت لدافيد. "لكنك لم تسمِّ لنا شخصاً قام بذلك، كما أنك لم تعطنا سبباً لذلك. فإذا كنت أنت لا تعلم هذا، فمن ذا الذي يعلم؟"

الفصل

3

انتصف الليل، وبات دافيد تفصله تسع ساعات فقط عن جلسة الاستماع في مكتب القاضي تايلور، لكن الرقاد كان ما يزال عصيّاً عليه.

كان مستعداً لأقصى ما يمكنه الاستعداد. لكن ذلك لم يكن كافياً لمنحه السلام الداخلي، أو لأن يستجلب النوم. أخيراً، وضع عليه سترة، وجاكيتة من الجلد وغادر شقته ماشياً في اتجاه حوض القوارب ثم إلى الرصيف الذي يقع على امتداد الخليج. كانت نتف من الغمام ترطّب وجهه. أما الصوت الوحيد المسموع حوله، فكان صوت همس الأمواج على الشاطيء. لقد كان التعرُّض لمثل هذه الوحدة، في مثل هذه الظلمة، أمراً غريباً بالنسبة إليه حقاً. لكن ذلك لم يكن أكثر غرابة من إمكانية استيعاب التغيُّر الذي طرأ على حياته. وعندما اختار مكاناً لجلوسه، فإنه جلس على المقعد ذاته الذي كان قد جلس عليه منذ أشهرٍ عندما استرحمه هارولد شور ألّا يدافع عن المرأة التي أحبها منذ ثلاث عشرة سنة، كما لم يحب أحداً قبلها، ولا بعدها.

علِقت به ذكرى نقاشه مع هارولد، أكثر من أيِّ وقت مضى. كما أيقن أنه كان قد أحب والد كارول، وبالمعنى الواسع العميق الذي يحب فيه الإنسان الراحة والهناء والإحساس بالوجود في بيت وعائلة، إذ إنه كان قد أحبَّ كارول نفسها أيضاً. والآن، وأخيراً، فإنه قد فهم لماذا تكون هويتهم كيهود شديدة التحديد إلى هذه الدرجة. فلقد كانت إسرائيل وفلسطين قد علمتاه الآن ذلك.

وكان منذ عودته قد انغمس في الواجب الراهن أمامه: ألا وهو الإعداد للمحاكمة التي لو أخفق في إيقافها، فإنها قد تكلِّف هناء حياتها. لكنه لم يعد يستطيع أن ينكر تأثير رحلته العميق إلى الشرق الأوسط، ولا تأثير ما قد عرفه. وهكذا، ولمدة ساعة قضاها في مراقبة لمسات ضوء القمر على صفحة الخليج السوداء، فإنه استطاع أن يسمح لنفسه أن تهدأ وأن تتصالح مع جسده.

فالرهان لم يكن يقتصر على حياة هناء، أو على حريتها فحسب، بل على مستقبل

ابنة بدا أن هناء تضعها في مكانة هي أعزُّ عليها من *الحياة ذاتها*. وهكذا تجلَّت أمام دافيد محبة الأهل للطفل، تلك *المحبة التي تتجاوز كل حدود العقل وأقاليم المنطق*. كما تجلَّت أمامه *المرأة الشابة التي أحبها في هارفارد*، وهو حتى الآن لا يعرف تماماً كيف سيكون طعم وقعِ هذا *الرهان على ذاك الحب*. هذه *المشاعر التي* بدأ دافيد بفهمها، بسبب صائب في جزء منها، وبسبب قيامه بالاهتمام بمنيره في جزء آخر.

وماذا عن هناء نفسها؟ فلو أنها كانت إلى جانبه الآن، فلربما أنه كان سيقول لها أكثر من ذلك بكثير. سيقول لها إنه يَعجب ما إذا كان ما تشعر به نحوه، ناتج عن الحزن الذي تواجهه في حياتها، والذي خلَّف لديها مساحة للذكريات. وسيقول لها إنه لولا ضرورات هذه المحاكمة، فلربما أنه كان سيعطيها جميع العواطف التي يبدو أنها في حاجة إليها، وسيستجليها عن حقيقة مشاعرها تجاه علاقتهما معاً. وسيقول لها أنه ما زال عندما ينظر إليها يخالجه شعور عميق. وأنه إن لم يكن منطقياً أن مشاعر لا تزال قائمة بينهما في ما يتعدى المنابت التي جاء كلٌّ منهما منها. لكنه الآن وقد رأى المكان الذي جاءت منه هناء، فإنه لن يستطيع بعدُ أن يقول لها شيئاً من هذه الأشياء. كما أنه كمحامٍ لها، لا يحق له حتى ملامستها. وفوق ذلك كله فإنه ليس واثقاً حتى الآن من براءتها من قتل عاموس بن آرون.

شعر دافيد بفورة من الغضب. كرِه الخيارات التي قاد نفسه إلى اختيارها: فأن يقرن نفسه بكارول ووالدها، ثم تنقطع علاقته بهما بهذه الطريقة القاسية، كان أشقّ على نفسه من خسارته لمستقبله السياسي. منذ أيام الجامعة كان قد قرر حماية نفسه من الأذى. لكنه ها قد تسبب لنفسه بالأذى رغم ذلك. لقد جعل من نفسه نسخة عن والده أكثر تعمُّداً وأكثر انكشافاً. وإن هناء ليست مسؤولة أبداً عن كل ذلك بل إنه هو نفسه المسؤول. ولكن، هل من أحد يستطيع أن يفضي إليه بكل ذلك؟

لا أحد. ويكفيه في الوقت الحاضر معرفة هذه الحقيقة. كما أنه أيقن الآن أن مجرَّد خسارته لهناء طيلة هذه السنين قد جعلت منه شخصاً عاطفياً يسير سير النائم، أمَّا عودتها فقد جعلته يصحو من هذا السبات، مرغمة إياه على إعادة تحديد نفسه استناداً إلى فطرته الغريزية، لا إلى الحسابات المنطقية. ولم يكن بعد واثقاً من كونه ممتنّاً لها فعلاً من أجل ذلك، لقد كانت صحوته على مثالبه، وضياعه، وجفاف شِفار مشاعره، وحتى اصطدامه بالحقيقة البسيطة، التي قوامها أن الحياة لا تسهل السيطرة عليها، ولا على إدارتها.. لقد كانت صحوته المفاجئة على كل ذلك، أمراً لا يبعث على الهدوء، ولا على السكينة.

وها هي الآن قد عادت إليه إلى أجلٍ، أو إلى آخر. أمَّا حدود هذا الأجل، فهي مسألة يقع جزء منها الآن بينَ يديه، أما الجزء الآخر، فيقع تحت أيدي أناس مجهولين يقدِمون على القتل دون أن يرفَّ لهم جفن.

عند وصوله إلى هذه الفكرة انتبه حوله متيقظاً فجأة. لكن لم يكن حوله ثمة صوت سوى شقشقة الأمواج في الخليج، وحفيف أغصان الصنوبر فوق مقعده. ولم يكن له حق في أن يقلق بشأن نفسه، لأن الأسابيع القليلة القادمة سوف تقتضي منه كل ما حباه الله به من قدرات.

واقفاً، قفل عائداً إلى شقته، فيما نظرته مركَّزة على الطريق الوحيد المرسوم أمامه. أمَّا أفكاره فمركَّزة من جديد على المحاكمة. وفي الساعات الأخيرة التي سبقت الفجر، كانت أجفان دافيد قد عرفت شيئاً من النوم.

* * *

من أجل جلسة الاستماع هذه، كما من أجل سواها، دأَب كل من دافيد وشارب على تقديم منكراتهما تحت الحفظ بعيداً عن إطلاع أيٍّ كان، سوى العاملين في مكتب القاضي تايلور. وقد احتوت منكرات دافيد على سردٍ للأحداث التي حصلت في إسرائيل والضفة الغربية؛ العلاقة بين ليف وماركيس؛ مقتلهما ومقتل محمد ناصر؛ اجتماعاته مع ناصر ومع والدة إياد حسن، كما تضمنت أيضاً شهادات بالتسامع؛ خيوط محتملة تنير القضية ولكنها لا تشكل حقائق حاسمة، وسواها من النظريات والشكوك التي لم يتوصل دافيد بعد إلى إثباتها، مثل احتمال ارتباط حسن مع حماس ومع صائب خالد؛ رحلة صائب الغامضة إلى إيران؛ إمكانية وصول صائب إلى هاتف هناء الخلوي وإلى جهاز الكومبيوتر والطابعة العائدين لها. وكرابط عام، أكَّد دافيد أمام تايلور على استمرار الحكومة الإسرائيلية في رفضها الكشف عن نتائج تحقيقاتها الخاصة في هذه القضية. وكل هذا، ما كان أثره إلَّا ليقتصر على إرباك القاضي تايلور بدل أن يقنعها بما يتوجب عليها أن تفعل.

وعندما أفصحت القاضي بذلك، أجاب دافيد بكل بساطة: "إن بإمكان المحكمة أن تقوم بردِّ الدعوى."

صارت عيناها نصف مغمضتين، أمَّا مارني شارب فقد بدَّدت توترها بالخربشة على ورقة أمامها. ومن رأس طاولة المؤتمرات تكلمت تايلور بحرارة لا تجري على سجيتها، علامة على حالة أعصابها هي أيضاً. "استناداً إلى أيِّ وقائع يا سيِّد وولف؟ فأنا لا أستطيع أن أردَّ هذه الدعوى استناداً إلى مجموعة من تخميناتك وظنونك، مهما تكن مقلقة ومثيرة في بعض الأحيان."

كان دافيد مستعداً لمثل ردَّة الفعل هذه. "إن هذا هو الأساس الدقيق الذي أبني عليه طلبي الرامي إلى ردِّ الدعوى،" أجابها. "إن السيدة عارف لا ينبغي لها أن تعاقَب بسبب قلة استطاعتي الذهاب إلى ما هو أبعد من التخمينات والظنون. فالسيدة شارب الآن، تسلِّم بأرجحية أن يكون بن آرون قد قُتل بسبب اختراقٍ لجهاز أمنه الشخصي. لكن كيفية

حصول هذا الاختراق الأمني قد لا يكون معروفاً بعد حتى للإسرائيليين أنفسهم. كما أن جهة ما، لا نعرفها حتى الآن، قد أقدمت بعد ذلك على قتل الرجلين اللذين كانا متورطين على الأرجح."

"واحدٌ قُتل في تفجير سيارة،" قاطعته تايلور، "والثاني على يد قناص. لكن كيف لي أن أجعل الادعاء مسؤولاً عن ذلك؟"

"إن الادعاء ليس مسؤولاً عن ذلك. ولكنه مسؤول عن استخلاص المعلومات التي تختص بالدفاع عن السيدة عارف من الإسرائيليين، أو أن تواجه ردَّ ادعائها عليها."

"بعبارة أخرى،" ردَّت عليه تايلور، "على إسرائيل أن تُعلِمك بما تعرف عن الاختراق الأمني - وإلّا. حتى وإن كانت تحرياتك قد استثارت حوادث القتل التي تسردها الآن كسبب لرد القضية."

"هذه المحكمة كانت أرسلتني إلى إسرائيل،" أجاب دافيد بثبات، "مع تعليمات لي لأن أذهب إلى أبعد من مجرد انتظار الحكومة الإسرائيلية لكي تقوم بمساعدتي. ولم يكن لدي خيار سوى أن أقوم بذلك. أنا لم أقم بقتل هؤلاء الرجال، يا صاحبة الاحترام. شخصٌ ما، غيري، قد فعلَ ذلك. وإن هويات هؤلاء القتلة ودوافعهم هي مواد جوهرية في مسألة الدفاع عن السيدة عارف."

تراجعت القاضي تايلور في مقعدها تحدِّق ناحية دافيد، بينما هي تفتش عن استجابة. أمَّا نظرات شارب فقد كانت تنتقل بالتناوب بين القاضي وبين دافيد. "وأين يترك هذا ظنونك بحَسَن؟" سألته تايلور بصوتٍ أكثر استواءً. "وكذلك الدكتور خالد؟" هل تتوقع مني أيضاً أن أطلب من السيدة شارب أن تؤمِّن تعاون حماس وكتائب الأقصى مع المحكمة أيضاً؟ وإذا رفضوا الاعتراف بما يُفترض أنهم يعرفونه، فهل تريدني أن أترك السيدة عارف تذهب في حال سبيلها؟ قل لي إلى أي مدى تريد أن تذهب في خطِّك الجدلي هذا؟"

"أذهب فيه إلى الحدِّ الذي يتعلق بالإسرائيليين على الأقل."

"وإذا هُم تعاونوا؟" قاطعته تايلور. "لنفترض أن باستطاعة الإسرائيليين التأكيد على أن ليف وماركيس قد ساعدا على هندسة هذا الاغتيال. فإن اشتراكهما في الجريمة، بحدِّ ذاته، لن يعفي السيدة عارف من مسؤوليتها."

شعر دافيد وكأن ثقته بنفسه تتبخر في الهواء. "لنذهب في افتراضنا أبعد من ذلك،" قال مستدركاً، "إن هلال ماركيس قد هاتفَ مدبِّر حسن وجعفر من أجل تسريب نبأ تغيُّر مسار الموكب. فإن هناء عارف إمَّا أن تكون هي المدبِّر، أو ألَّا تكون. الأمر الذي يعني أن ماركيس كان يعرف إذا كانت هناء بريئة أم لا."

"ليس بالضرورة، ففي أفضل الحالات، قد يكون ماركيس عالماً أن ثمة شخصاً آخر

متورِّط." صارت لهجة تايلور ملحَّة. "ولكي أكرر، أقول: إن ماركيس هو الآن ميت. ولعل الإسرائيليين هم الذين قاموا بقتله. وإن مقتله لا يؤثر في الدليل المساق في وجه هناء عارف."

"إذا كان الحال كذلك، فثمة نهايات أخرى كثيرة لا تزال سائبة هنا. إن كلَّ ما أعرفه،" قال دافيد قانطاً، "هو أن الإسرائيليين يعرفون عن ذلك أيضاً. ولو وضعنا ماركيس جانباً، كيف تستطيع الولايات المتحدة أن تحاكم هناء دون أن تعرف المزيد عمَّا يبدو بوضوح أنه مؤامرة كبيرة معقَّدة؟"

"كم شهراً يمكن أن يستغرق ذلك يا سيد وولف؟ وكيف يمكن لك أن تقول بثقة أن كل شيء سنكتشفه سيصبُّ حتماً في مصلحة السيدة عارف؟ "انحنت تايلور في اتجاه دافيد. "لقد قُتل جون ف. كنيدي منذ أكثر من أربعين سنة. والشيء الوحيد الذي بدا واضحاً هو أن هارفي أوسوالد كان قد قام بإطلاق النار عليه. هل علينا الآن أن نبرِّىء أوسوالد لمجرّد أن في أذهان بعض الناس أن الوقائع المحيطة بالحقيقة الأساسية ما تزال غامضة؟"

ولكن السيدة عارف لم تضبط وهي تطلق النار على بن آرون!!"

"لكَ طلبات كثيرة يا حضرة الوكيل. لكن عليَّ أن أتيح مجالاً للسيدة شارب من أجل أن تقول ما تريد أن تقوله أيضاً."

لاحظ دافيد أن شارب متبسطة في لباسها ـ بذلة سوداء، بلوزة بيضاء ـ حتى بدت ثيابها أشبه بدرعٍ تتدرَّعه، وكان سلوكها خالٍ من العاطفة، وهذا لا بد له من أن يكون قد نال منها جهداً غير اعتيادي. "إن المحكمة قد قالت ما كنت أودُّ أن أقوله،" قالت مستجيبة. "إن طلب السيدة عارف بردِّ القضية يقع على أرضية مظلَّلة بالتكهنات والنظريات عن المؤامرة. بينما نجد أن هذا الادعاء مؤسَّسٌ على الحقائق.

"فالحقيقة الأولى، إن جعفر يقول أن حسن قال له أن عارف هي المدبِّرة.

"والحقيقة الثانية، أن حسن كان يحمل ورقة عليها بصمات عارف ورقم هاتفها الخلوي.

"والحقيقة الثالثة، أن جهاز الهاتف الخلوي لحسن يُظهر صدور مكالمة هاتفية عنه إلى رقم هاتف السيدة عارف، الخلوي.

"والحقيقة الرابعة، أن السيدة عارف قد فشلت في شرح مكان وجودها وتحركاتها في الساعة الحاسمة التي حصل فيها الاغتيال، كما في الساعة التي سبقتها."

"وماذا عن الدكتور خالد؟" قاطعتها تايلور. "يبدو أنه البديل المفضَّل بالنسبة إلى السيد وولف".

"استناداً إلى ماذا؟" مع أن شارب كانت مستكبرة، فقد كانت تبدو عليها رصانة المحامي الذي درس الموضوع من كل زواياه. "لا ينازع أحد في مسألة مكان وجود خالد لحظة وقوع الاغتيال. لقد كان مع ابنته التي هي ابنة عارف أيضاً. ورغم كل ذلك، فقد قمنا باستجواب جعفر مطوَّلاً حول خالد؛ كما أننا كنا قد قمنا بتمشيط سجلّات خالد الهاتفية، وكذلك سجلات بطاقة الائتمان العائدة له، ونظَّمنا خريطة بتحركاته حتى ساعة الاغتيال؛ وقمنا بتحرياتنا مع الإسرائيليين عن علاقته بحسن؛ وفحصنا عن أسباب مجيئه إلى أميركا."

"إذن ماذا عن عارف؟" سألت تايلور. "فوفقاً للسيد وولف، فإن المبادرة الواضحة لزيارة أميركا لم تأتِ منها."

"المبادرة الواضحة،" شدَّدت شارب على العبارة. "من الذي يستطيع أن يعرف حقيقة الذي حدث؟ لعلَّ اقتراح منتقدي بن آرون بأن يقوم خالد بتغطية لقاءاته في الولايات المتحدة، لم تكن سوى مجرَّد غطاء لدور عارف في هذه المؤامرة الغامضة التي يتكلم عنها السيد وولف ـ "

"ربما،" قاطعتها تايلور بومضة ابتسامة، "أنها كانت ممولة من إيران."

بسطت شارب ذراعيها في إظهارٍ لقلَّة الحيلة. "أو القَتَلة اليمينيون المستوطنون. ولكن ما الذي يدعو خالد إلى تلفيق تهمة مركَّبة لزوجته بالذات؟ إن هذه الفكرة لتصعقني كفكرة خطيرة لكي يُقدِمَ إنسانٌ عليها."

هذا قول صحيح، دار في خَلَد دافيد، وقد كانت هذه عقبة طالما توقف عندها هو نفسه، معالجاً ومداوراً. "لكن ليكن لنا جلسة أخرى،" تابعت شارب كلامها. "إن جوهر طلب السيد وولف هو أن السيدة عارف يجب أن يطلق سراحها ما لم تقم حكومة إسرائيل بإعلامه بكلٍّ ما تعرفه، رغم الحقيقة التي تقول إن مقتل إسرائيليَّين توضح أن قيام إسرائيل بذلك قد يهدد سلامة التحقيق الذي تقوم به، وحتى إنه قد يهدد الأمن الوطني الإسرائيلي ذاته.

"إنني أقرُّ بأنني قد لا أعرف كل المعلومات التي تملكها دولة إسرائيل. كما إنني أعترف أن الإسرائيليين قد رفضوا أن يضعوا ملفاتهم الأمنية، أو الملفات الشخصية لتابعيهم تحت تصرُّف الدفاع. لكنني واثقة من أنه لو كان لدى الإسرائيليين أية معلومات، أو حتى خيوط تشير إلى تورُّط خالد، لكانوا قد قاموا بتقديمها إلينا." كانت اللفتة السريعة التي أطلقتها شارب في اتجاه دافيد تحمل مسحة من الزهو. "ومنذ ساعات قليلة،" تابعت كلامها، "فإن وزير خارجية إسرائيل قد أكد لوزير خارجيتنا أن إسرائيل لا تمتلك مثل هذه المعلومات، وإننا سوف نقوم قريباً بضم رسالة من وزير الخارجية تؤكد ذلك، إلى ملف هذه الدعوى، وإنني لست أدري ما الذي نستطيع بعد أن نطلبه من الإسرائيليين قبل الشروع أولاً في نظر القضية المتعلقة بمقتل رئيس وزرائهم."

هذه المجاهرة الأخيرة، عرف دافيد، قد تتسبب في الختم على طلبه. "إن التحقيق الإسرائيلي ما يزال مستمراً،" قال مقاطعاً بسرعة، "ومن الواضح أن حقائق أخرى جديدة سوف تتكشف. ووزير الخارجية ليس هو الواسع العليم".

"ولا نحن أيضاً،" ردَّت القاضي بسرعة. "وكما هو حال هذه الدنيا البعيدة عن الكمال، فإننا ملزمون بالتزام ما يجيزه القانون.

"إنني أتعاطف مع الصعوبات التي يواجهها الدفاع. فهذه القضية ليست مجرَّد جريمة قتل محلية، لكنها قضية عابرة للحدود، ولها تعقيدات جمة. ومع كل ذلك، وبعد الأخذ في عين الاعتبار الأدلَّة المقدَّمة ضد السيدة عارف، فإن التعقيد وحده لا يشكل سبباً كافياً لمنع المحاكمة عنها." عدَّلت تايلور من نبرة صوتها، إشارة إلى تعاطفها مع محام على وشك أن يستمع إلى حكم قد يؤدي إلى خسارته لدعواه. "إذا استطعت أن تعود بمعلومات أكثر تماسكاً، فإنني لا شك سأعيد النظر في الأمر. وما دام أن هذا لم يحدث، فإن المحاكمة ستتابع سيرها. وطلب رد الدعوى مردود."

تبع ذلك لحظة صمت قصيرة، ربما كانت هي الطريقة التي اختارتها القاضي للسماح لدافيد باستيعاب خيبته. "حسناً،" قالت له، "إن طلبك الآخر هو أقلُّ أهمية، فأنت تطلب فيه منع السيد جعفر عن أداء الشهادة، دعنا نسمع عن ذلك."

"إن ما لا يقبل الجدل،" قال دافيد بلهجة جازمة، "أن الإفادة التي أدلى بها جعفر هي إفادة سماعية. فهو لم يسبق له أن التقى السيدة عارف، كما أنه لم يسبق له أن تحدث معها على الهاتف.

"وهو لا علمَ له كيف وصلت هذه القصاصة من الورق إلى حوزة حسن. وحسب روايته الخاصة ذاتها، فإن كلَّ ما يعرفه هو ما كان قد أخبره به رجل ميت.

"فإذا كان جعفر كاذباً في ما يقوله، فلا يجب أن يقوم المحلَّفون بالاستماع إليه. وإذا كان ينطق بالحقيقة، فهو لا يعدو كونه يعيد رواية حكاية عن لسان شخصٍ إرهابيٍّ لا يوثق بكلامه وقد يكون اعتاد الكذب حول جميع أنواع الأشياء، وأوَّلها بدعة انتمائه إلى كتائب الأقصى، أمَّا آخرها ما يتعلق بهناء عارف. وكيف لي أن أتأكد من صدق رواية جعفر ما دمت غير قادرٍ على استجواب حسن؟

"فإذا كانت هذه مكيدة مفبركة مدبرة، فإنها مضادَّة للاختراق. وقد قامت المحكمة لتوِّها بردِّ طلبي من أجل ردِّ الدعوى المقامة ضد موكلتي لعلة عدم كفاية الأدلَّة. فإذا اعتبر الواحد منا بالنتيجة، فإنها ظلامة توازي ظلامة فرانز كافكا: فها هي السيدة شارب تلتمس محاكمة السيدة عارف دون أن تقدِّم إلى المحكمة شاهداً واحداً يستطيع حتى الادعاء أن السيدة عارف بريئة أم مذنبة."

لفترة ما، أبقت القاضي تايلور كلمات دافيد معلَّقة في الهواء، معطية نفسها وقتاً كافياً للتبصُّر. "ماذا تقولين يا سيدة شارب؟"

"أقول إن كلَّ قضية تتضمَّن شهاداتٍ سماعية تلقي بصعوباتها التي استشهد بها السيد وولف. ومن أجل هذا السبب كانت الشهادات السماعية غير مقبولة في المبدأ العام. فمصداقية مثل هذه الشهادة لا يمكن فحصها في ضوء استجواب الشاهد. ومن أجل هذا أيضاً يوجد ثمة استثناءات على مبدأ الشهادة كما هو الحال مع شهادة السيد جعفر." باتت نبرة صوت شارب أكثر ثقة. "فشهادة جعفر ضد السيدة عارف قد تضمنت أيضاً اعترافه على نفسه. وهذا دليلٌ تقليديٌّ على صدق شهادته. فما يجعل شهادته هذه مقبولة رغم تعارضها مع مبدأ عدم قبول شهادة السماع: هو اعتراف الرجل بما يخالف مصلحته، ويعرِّضه للعقوبة."

"أيَّ مصلحة هذه؟" سأل دافيد بلهجةٍ مرتابة. "إن جعفر قد تمَّ اعتقاله بينما كان في حوزته دراجة نارية مشحونة بالمتفجرات. إنَّ أكثر من مئة شاهدٍ رأوه يحاول القيام بتفجير بن آرون. إن التأثير الوحيد لاعترافه على نفسه يتلخص في تخفيف العقوبة ضده بتجنيبه الإعدام."

"إن إفادة جعفر،" أجابت شارب، "لا تحتاج إلى أن تؤخذ بمفردها، إنما تساندها أدلة أخرى مثل المكالمة الهاتفية من حسن إلى الهاتف الخلوي للسيدة عارف. كما يسندها الدليل القائم على الورقة التي تحمل بصمات السيدة عارف ورقم هاتفها الخلوي، في حوزة حسن. وهي لم تكن موجودة معه بسحر ساحر."

"هل تستطيعين التقدم في المحاكمة من دونه؟" سألتها تايلور.

"كلا لا أستطيع،" قالت شارب معترفة. "لكن هذا ليس هو السؤال. إن كلَّ ما هو أمام المحكمة هو أن تقرر ما إذا كانت القواعد القانونية المتعلقة بالإثبات، تسمح لجعفر بأداء الشهادة، أم لا. وهي بالطبع تسمح".

نبرة تايلور الممسكة بالزمام بدت ذاوية؛ كان دافيد يراها غير مسرورة، بل مأزومة. "عليَّ أن أخبركِ،" قالت لشارب، "أن هذه أبعد ما تكون عن قضايا الادِّعاء القويِّ التي شهدتُها حتى الآن. وإن هذا ليقلقني. وأعتقد أن ذلك يجب أن يثير قلقك أنتِ أيضاً. ولكن في ما يختصُّ بطلبات السيد وولف، فإن القانون يقع في صفِّك أنتِ. إن لديك ما يكفي للتقدُّم بادِّعاء، وهذا هو ما سوف تحصلين عليه." مستديرة نحو دافيد، قالت مضيفة، "سوف تبدأ المحاكمة بعد أسبوعين من الآن، ما لم يحدث مفاجآت. لقد حصلتَ على كلِّ إمكانيات التثبُّت التي أستطيع منحها لك."

ولأوَّل مرة يمكن أن تعود إليه ذاكرته، لم يستطع دافيد أن يتقدم بعبارات الشكر الشكلية. "شكراً لك يا صاحبة الاحترام،" قالت شارب موجهة كلامها إلى القاضي، كما إلى دافيد.

* * *

مستمعة إلى رواية دافيد عن جلسة الاستماع، افترَّت شفتا هناء.

"إنني آسف لهذا،" ختم روايته.

"أستطيع أن أرى الأسف بادياً على وجهك." أطرقت هناء لتستوعب الكلام الذي قاله لها. "إنني متعبة كثيراً لكي أقوى على الأمل. لكنني لم أتوقع لك الربح. وإن عزائي الآن، هو أن ما من محامٍ يستطيع أن يكون أداؤه أفضل من أدائك."

حاول دافيد أن يبتسم. "لكنك لم تشهدي محامياً سواي."

"لستُ بحاجة إلى ذلك." كان وجه هناء جادّاً. "مهما يحدث في قاعة هذه المحكمة، فلسوف أشعر أنني في حال أفضل بكثير، لمجرَّد معرفتي أنك موجودٌ هناك أيضاً."

ولكن ماذا عن منيرة؟ أراد دافيد أن يسأل. لكنه بدلاً من ذلك، فإنه استوعب مرة جديدة حقيقة أنه كان مرغماً على الدفاع عن هذه المرأة بينما هو مقيَّد بقواعد ستقود على الأرجح إلى تجريمها.

"تبدو لي كأنك في حاجة إلى من يعانقكَ،" قالت هناء بمسحة من الابتسام. "لكن الآن قد جاء دوري لكي أحررك، لا لكي أعانقك. إلى أن تنتهي المحاكمة على الأقل."

واجداً نفسه وهو يجابَه بكلماته، لم يستطع دافيد سوى أن يبتسم، حتى وهو يتعجب ماذا عساه يكون معنى كلامها.

الفصل

4

لعدَّة أيامٍ، انهمك دافيد وشارب بأمر اختيار المحلَّفين في قاعة المحكمة المليئة بالصِّحفيين الضجرين، تحت رقابة القاضي تايلور الدقيقة.

كانت خطوط الاختيار كافية الوضوح: شارب تريد محلَّفين مطواعين للحكومة، ويؤمنون بثبات، بعقوبة الإعدام، ولديهم استعداد لقبول رواية الادِّعاء على وجهها، ودون الولوج في ثغراتها. أمَّا دافيد، فيفتش عن أولئك المتشككين في أعمال السلطات، والمهتمين بقضايا المحاكمات الجائرة، والمستعدين للاستماع إلى أوجه تفسير متعددة للحدث الواحد. لكن هذه القاعدة في التقسيم كانت في الوقت نفسه تثير لدافيد إشكالاً سببُه وجود أشخاص عديدين على جدول المحلَّفين، من اليهود المتقاعدين الذين وإن كانوا يملكون ميلاً إلى الانفتاح الذهني إلَّا أن انفتاحهم هذا يقابله غضب بسبب مقتل بن آرون، كما يقابله ولوعٌ شديد بديمومة إسرائيل. وعلى كرهٍ منه، استعمل دافيد آخر فرصة له في الحق بالطعن القاطع، من أجل استبعاد إداريٍّ تنفيديٍّ يهوديٍّ متقاعدٍ، من الذين يصرفون عدة ساعات في الأسبوع لمتابعة المواقع الإلكترونية التي تنافح عن إسرائيل، وتشجب الفلسطينيين. أمَّا شارب فقد استعملت فرصتها الأخيرة ذاتها، ضد معلمة مُقعَدة سابقة، يهودية أيضاً، كانت قد شاركت في الاحتجاج ضد برنامج ناسا للرصد المحلي. ثمة عنصر حاسم كان يلعب في مصلحة شارب: وهو أن طلبها إنزال عقوبة الإعدام كان يسمح لها باستبعاد أيِّ محلَّف قد يعلن عن عدم استعداده على التصويت لمصلحة أيِّ إنزالٍ لعقوبة الإعدام. كان هذا بالنسبة إلى دافيد، شكلاً معقَّداً من أشكال تحويج المحلفين؛ إذ إن سبعة من المحلَّفين، بينهم ستة من الذين يحبِّذهم دافيد، قد تمَّ استبعادهم لمجرَّد إبدائهم ريبة في عقوبة الإعدام بحدِّ ذاتها.

استغرقت هذه العملية ثمانية أيام. أمَّا الاثنا عشر شخصاً الذين أسفرت عنهم هذه العملية، فقد كان بينهم خمسة نساء، جميعهن يتمتعن برضى دافيد، نظراً لأنهن أمهاتٌ، أو جدَّات. أمَّا القائد الأوضح بين المحلفين فكان على ما يبدو: بوب كلير، وهي مديرة تنفيذية سابقة في حقل التأمين، وأدريل واشنطون، وهي مكتبية في العقد الرابع من عمرها، وقد

وقفت إلى جانب دافيد في وجه أصلب أربعة أعضاء من الأقلية. اثنان منهما أميركيان زنجيان، وإسبانيٌّ، وكمبوديٌّ كان قد نال مؤخراً درجة الدكتوراه في علم الإناسة. أمَّا كلير، وواشنطون، فقد كانتا الأهم. فعندما قامت آيلين كاستيل ودافيد بتقسيم هيئة المحلَّفين، فإن رأيهما قد اتفق أن إحداهما ستكون هي رئيسة الهيئة وهذا ما سيساعد على بلورة شكل إدارة المداولات. فالأمر لم يكن مختلفاً عن بيانات حاسوب، قد لا تقتصر رهاناتها على إتلاف أمسية، بل قد تصل إلى إضاعة حياة هناء.

"عليكَ بإحضار ابنتها إلى قاعة المحاكمة،" قالت كاستيل لدافيد."

"أعرِف هذا."

* * *

"سوف أكون أنا حاضراً،" قال صائب باقتضاب. "وهذا يكفي. فليست هذه المحاكمة هي مكان مناسب لمنيرة."

كان دافيد نادراً ما التقى صائب، بعد عودته. أمَّا الآن، وبينما هو يجلس قبالته في شقة تكاد تخلو من الأثاث، كان يسكنها مع منيرة، فإن دافيد كاد يُصعق لدقَّة حركات صائب، ولدقَّة انتباهه إلى مفردات الكلام. كان يجمع النقيضين في عينيه: الحيوية الشديدة، إلى جانب الهشاشة الأكثر شِدَّة. إنه لأمرٌ صحيح، خطرَ لدافيد، أن هذا الرجل قد يخرُّ ميتاً في أيِّ وقت؛ لكن ربما ليس قبل أن يسعِف عنادُه الحكومة - وقد يكون الأسوأ من ذلك، خطته المدبرة - في قتل زوجته.

بذل دافيد أقصى جهده للسيطرة على نبرته. "قد يقدِمون على إعدامها يا صائب. فمسألة الدفاع عنها مسألةٌ تتعلق بالمشاعر بقدر ما تتعلق بالحقائق. إذ لماذا تقوم امرأة تحب ابنتها بالمخاطرة بخسارتها إلى الأبد؟ لكن على المحلفين ان يشهدوا تفاعلهما. إن هذه أشياء لا أستطيع التعبير عنها بالكلمات."

"إن منيرة طفلة في الثانية عشرة من عمرها،" ردَّ صائب.

"وهي الآن، من المحتمل أن تفقد والدتها. وهي لا تحتاج منك إلى كل هذا الجهد."

تصلَّب صائب، ثم استفسر بهدوء، "ماذا تعني بالضبط؟"

"إن هذا الأمر يتعلق بهناء، وليس بك أنت. فالمحلفون لا يعلمون شيئاً، ولا يهتمون، بامتيازاتك الأبوية."

"وهكذا، وبالنسبة إليهم، على منيرة أن تلعب دور باربي المسلمة؟" ناظراً في اتجاه المدخل، تكلم صائب بلهجة شديدة الهدوء بحيث لا تكاد تُسمع. "إن حضورها السابق لجلسة اتهام أمها كان مؤذياً لها. فمنيرة أكثر من أن تكون عكازاً تستند حضرتك إليه في قاعة المحكمة."

"وهي أكثر من أن تكون من ممتلكاتك الشخصية أيضاً. فإن والدتها تحتاج الآن إليها."

"إن والدتها في السجن،" صار صوت صائب أكثر ذهاباً في الانخفاض. "يبدو أنك تعرف الكثير عن شؤون زوجتي. قل لي هل تريد هناء أن تقوم منيرة بالاختيار بين أمها وأبيها؟ أو هي ربما لا تأبه على تأثيرات هذا الأمر على ابنتها؟"

نظر دافيد إليه نظرة طويلة. "طيلة السنوات الماضية،" قال له في النهاية، "كنت أفكر بأشياء كثيرة عنك. لكنني ما تخيلت هذا مرة. ما الذي جعلك تُبقي على زواجك من امرأة ترغب في موتها إلى هذه الدرجة؟"

ابتسامة صائب الخاطفة لم تكن ابتسامة على الإطلاق. "لقد بتنا قريبين جداً من ذروة الأشياء، ألسنا كذلك؟"

شعر دافيد وكأن أعصابه تنسحج. "ماذا يعني كلامك هذا بالضبط؟"

"في هذا السياق، يعني أنك قد نسيت موقعك، بأنك محامٍ فقط. أنا هو زوج هناء، ولهذا، فإني أملك حقوق الأب." جلس صائب مسنِداً ظهره يرمُق دافيد، بينما بدت عليه سيماء رجل متعجرف يزهو على طالب حاجة. "سوف أبحث هذا الأمر مع زوجتي. أما في الوقت الحاضر، فإن المحلفين سيشاهدونني أثناء المحاكمة. فلربما كان بإمكانك ان تؤكد لهم أن هناء لن تجازف بالافتراق عن زوجها من أجل قتلِ بن آرون."

هذه العبارة الأخيرة خرجت بنبرة خالية من المشاعر إلى درجة أن دافيد لم يستطع حلَّ شيفرتها. "أريد على الأقل أن أرى منيرة،" قال أخيراً، "على الأقل لأقف على أحوالها."

"هذا ليس ضرورياً،" قال صائب بلهجة صارفة. "أنا آخذها لترى أمها؛ وأنا أخبر هناء عن أحوالها. ولعلَّ منيرة الآن نائمة..."

أنهى صائب جملته بهزة من كتفه. وبقي دافيد يعجب ما إذا كانت منيرة تقف منصتةٍ وراء باب غرفة النوم التي لاحظ أن ضوءاً يتسرب من تحت بابها. "إن الساعة لا تزال الثامنة مساء،" قال معترضاً. "وليس الوقت متأخراً لإيقاظها."

"ربما يكون ذلك صحيحاً،" أجاب صائب. "لكن لا شك أنك صرتَ الآن تشعر بالتعب، وما زال أمامك الكثير مما عليك أن تفعله. فجلسات المرافعة تبتدىء غداً."

غادر دافيد. لكنه نادراً ما شعر من قبل بهذه الدرجة من الهوان. أما كيانه، فقد كان يغلي غضباً.

* * *

رغم أن الصباح الأول في محاكمة جنائية متعلقة بجريمة قتل يجيشُ عادة بالتوقع. إلَّا أن دافيد لم يشعر بأيِّ شيء من هذا القبيل. ضاقت قاعة المحكمة برجال الصحافة من جميع أرجاء الأرض. أما مبنى المحكمة فقد بات مسوَّراً بعربات التلفزة العائدة لشبكات تلفزيونية مثل سي.أن.أن، والجزيرة وسواهما. كما تجمَّع حول المحكمة حشد من المتظاهرين المؤيدين لإسرائيل، وآخرُ مؤيِّدٌ للفلسطينيين، يتبادلان الشتائم فيما تفصل بينهما قوة من البوليس. أما في منصة المحلفين فقد جلس اثنا عشر مواطناً ومواطنة جزعين. أمَّا المرأتان اللتان كانتا بعد لم تحضرا إلى قاعة المحكمة، فكانتا: القاضي، والمدعى عليها.

وصلت هناء أولاً، مخفورةً بواسطة قيِّمَينِ على السجناء. كانت تلبس تنورة فضفاضة، وبلوزة وردية اللون؛ وقد بدت متماسكة بقدر استطاعتها على التماسك. نظرت إلى المحلَّفين بقلقٍ دفينٍ، ثم نظرت إلى زوجها الجالس خلف طاولة المدعى عليها. وبعد أن احتلَّت الكرسيَّ المحاذي لكرسي دافيد، سألَته، "ألم تأتِ منيرة؟"

هزَّ دافيد رأسه. أقفلت هناء عينيها لفترةٍ وجيزةٍ ثم تمتمت، "لعلَّ ذلك أفضل."

ناظراً في اتجاه منصَّة المحلفين، رأى دافيد آرديل واشنطن تنقِّل أنظارها بين هناء وصائب. لكن هناء لم تكن لتصطنع ابتسامةً ترسلُها في اتجاه زوجها، كما كان يرجو دافيد. شاعراً بالاضطراب، جال دافيد بنظره على قاعة المحاكمة، فرأى آنجل غاريغوس جالساً بالقرب من صائب؛ كما رأى مارني شارب منكبَّة على أفكارها الخاصة، حتى بدت كأنها ساهمةٌ عمَّا يحيط بها. كما رأى آفي هيرتز، الذي لم يكن قد رآه بعد مقتل باراك ليف. ثم نادى مباشِرُ المحكمة: "الجميع وقوف،" ثم احتلت القاضي كاتلين تايلور كرسيَّها وراء القوس، وكان روبُها الأسود قشيباً مثلَ طلعتها.

"يا سيدة شارب،" استفسرت. "هل أنتِ جاهزة عن الولايات المتحدة؟"

* * *

بدأت شارب كلامها بشيء من التصلب، فالسحر لم يكن شيئاً من اختصاصها. أمَّا المنطق فنعم. لقد بدت منطقية ودقيقة، كما بدت شخصية قادرة على التعاطي الجيد مع معظم المحلَّفين.

"هذه القضية بسيطة جداً." أكدت لهم. "إننا نلتمس إحلال العدالة في قضية قتل قائد من القادة العالميين، كان يكافح في سبيل إحلال السلام حيث لا يوجد سلام. ولكنها في نهاية الأمر، قضية تتعلق بجريمة قتل. وعليكم الحكم على المدَّعى عليها وفقاً للمعايير ذاتها التي تنطبق على ما لا يحصى من سواها من قضايا جرائم القتل التي تم النظر فيها في جميع أنحاء أميركا. أما الفرق الوحيد في هذه القضية، فهو أن دافع المدعى عليها للقتل كان من أجل قتل الأمل في السلام."

عندما أمالت رأسها في اتجاه هناء، باتت نغمة شارب أكثر صلابة. "ومن أجل تنفيذ هذه الجريمة، قام رجلان بقيادة دراجتين ناريتين مشحونتين بالمتفجرات لكي تصطدما بسيارة الليموزين التي تقلُّ عاموس بن آرون. وقد قتِل أحد المهاجمين، إياد حسن، على الفور. وبانحراف غريب لمجاري القدر، بقي إبراهيم جعفر على قيد الحياة ليتمكن من كشف اسم المرأة التي كانت توجِّه هذه الجريمة النكراء. وهذه المرأة هي التي تجدونها ماثلة أمامكم: هناء عارف.

"كيف استطاع جعفر أن يعرف هذا؟" طرحت شارب السؤال على نفسها بطريقة بلاغية. "لأن إياد حسن كان قد أخبره بذلك. فوفقاً لحسن، فإن عارف هي التي كانت من قام بتجنيده في جامعة بيرزيت، حيث هي تدرِّس. كما أنها هي التي كانت تقوم بتوجيه الأوامر القاتلة إليه في سان فرانسيسكو. وفي يوم القتلِ الأخير، كانت هي التي أصدرت إليه توجيهاتها من أجل الشروع بتنفيذ الجريمة الشنعاء." صار صوتها الآن خفيضاً. "إنها جريمة التفجير الانتحاري الأولى في أميركا. جريمة قاسية وعمياء بحيث إنها لم تقتصر على قتل الرجل المستهدف بها فحسب، بل إنها حصدت أيضاً حياة إسرائيلي آخر، وأميركي ـ وكلا الرجلين زوج وأب ـ كانا مولجين بحماية بن آرون."

بالقرب منه، رأى دافيد هناء تراقب، بينما شارب تنقِّل نظرها من محلَّفٍ إلى آخر. "إن عاموس بن آرون،" قالت بهدوء، "أمكن التعرُّف على جثمانه اعتماداً على سجله الطبي لعلاج أسنانه، فقط. لكن السِّمة الخاصة لهذا التفجير الانتحاري: هو أن الانتحاريَّين كانا يتوقعان أن يحلَّ بهما مصير بن آرون نفسه، ألا وهو الاضمحلال. وهذا ما فعله انفجار فورث ستريت بإياد حسن بالفعل، وهو ما اعتقد إبراهيم جعفر أنه سوف يصيبه أيضاً."

عدة محلَّفين بدوا مذعورين خائفين، وكأنهم يجهَدون لكي يتخيَّلوا أيَّ عقلٍ بشري يمكنه أن يتبنى ويعتنق مثل هذا الرعب. " إن اتهام جعفر المقدَّم ضد السيدة عارف،" قالت لهم شارب، "هو اتهامٌ مدعَّمٌ بدليلٍ آخر كان في حوزة إياد حسن. قصاصة من الورق عليها بصمات أصابع السيدة عارف ورقم خط هاتفها الخلوي؛ كما أن مكالمة هاتفية إلى رقم الهاتف ذاته كانت قد ضُبطت مسجَّلة على ذاكرة الهاتف الخلوي العائد لجعفر. لكن أن يكون جعفر قد شاء التضحية بحياته هي مسألة ذات أهمية دقيقة. لقد جاء الرجل لكي يموت لا لكي يكذب."

على ورقة الملاحظات الموجودة أمامه، كتب دافيد "الانتحار = المصداقية." رأت هناء الملاحظة فتنهدَت. "السيد وولف،" تابعت شارب، "سيحاول أن يستحضر لكم مؤامرة غامضة تتضمن أشخاصاً مجهولين. هؤلاء المتآمرون قد يكونون موجودين فعلاً. وفي الحقيقة، فإنه من بين الحاضرين الآن في هذه القاعة، فإن هناء عارف وحدها هي القادرة على معرفة من هم المتآمرون."

كانت هذه هجمة موفقة، اعتقد دافيد، تهدف إلى إجباره على وضع هناء على دكة

الشهود. "ولعجزه عن تقديم دفاع أفضل،" أضافت شارب بلهجة ساخرة، "فإن السيد وولف وجد نفسه مضطراً للمجادلة بالقول إن ثمة متآمرين مجهولين قد فبركوا تهمة مُلفّقة ومدبَّرة للسيدة عارف لأسباب غير معروفة لديه. فكِّروا بما تقتضي منكم هذه النظرية في أن تصدِّقوا: تحت تعليمات من عقلٍ مدبِّرٍ غامضٍ لهذه المؤامرة، فإن إياد حسن، الذي كان يتوقع لنفسه الموت، قام بالكذب على إبراهيم جعفر الذي كان يتوقع أيضاً الموت لنفسه. لماذا؟ هذا ما لا يقدر أن يجيبنا عليه السيد وولف. من هو هذا العقل المدبِّر؟ السيد وولف لا يستطيع أن يخبركم أيضاً."

كانت شارب، حسبما بدا لدافيد، تحاول جرَّه إلى تسمية صائب خالد كشخص مشبوه. لكن دافيد لا يملك دليلاً؛ وقيامه باتهام صائب قد يتسبب بإدانة زوجته وبتعريض مصداقية دافيد للخطر. ناظراً في اتجاه صائب، وجده دافيد هادئاً كما كان من قبل. "إن سبب هذا التكتم بسيط جداً،" تابعت شارب كلامها. "إنَّ العقل المدبِّر المفترض لهذه المؤامرة، هو في الحقيقة غير موجود.

"بعد قيامكم بما يمكنكم القيام به من تبصُّر، عليكم أن تعتمدوا على الأدلة المتوفرة لكم، والتي نضعها بين أيديكم والتي لا بد لها من أن تقودكم إلى استنتاج واحد وحيد." مشيرة إلى هناء عبر القاعة، تكلمت شارب بلهجة ثابتة. "لقد دبرت هناء عارف مؤامرة اغتيال عاموس بن آرون. والآن، وقد انتهى عملها، فإن عملكم أنتم قد بدأ. وهو يقوم على إحقاق العدالة جزاء مقتل ثلاثة رجال، وعندما تفعلون هذا، تستردون شرف بلادنا واعتبارها."

كانت المرافعة الافتتاحية بسيطة، رأى دافيد، كما أنها كانت مؤثِّرة إلى الدرجة التي كان يخشاها. محلَّفتاه الأثيرتان بوب كلير، وآرديل واشنطون كانتا تنظران نحو شارب باحترام عميق.

* * *

واقفاً، وضع دافيد يده على كتف هناء.

أخذ برهة من الوقت قبل أن يبدأ الكلام. جزء من هذا كان تكتيكاً لجذب انتباه المحلَّفين إليه. لكنه ساعد دافيد أيضاً لإعادة ترتيب أفكاره، وكبح مشاعره الشخصية. فملامَستُه لكتفِ هناء، التي قصد بها إجراءً مسرحياً في قاعة المحكمة، أشعرته بما هو أكثر من ذلك.

جالت نظرته على جميع المحلفين، مضيئة على آرديل واشنطون. "جريمة مروِّعة قد حصلت،" قال مخاطباً إياها. "وهناك رجلان مسؤولان عنها بكلِّ وضوح، وأحدهما ما يزال على قيد الحياة. إنه إبراهيم جعفر. لكنه في سعيٍ منه لاجتناب دفعِ الثمنِ الذي لا مناص منه، فإنه أعطى إلى الحكومة اسماً آخر، هو اسم هناء عارف.

"ففي وجهٍ من الوجوه، إن السيدة شارب محقة. فمِن الملامح المعتادة في الكثير من المحاكمات الجنائية المتعلقة بجرائم القتل؛ وجودُ واشٍ. وجعفر هو نموذجٌ عن الواشي النمَّام، إنه شخص غير ذي ثقةٍ، ولا يعوَّل على كلامه لأنه كلامٌ مَصلحيّ. وفوق ذلك، فإنه مذنبٌ مدانٌ في جريمةٍ كريهةٍ تعافُها النفس. أمَّا في ما عدا ذلك. فإنه أتفه من أن يثير أيَّ اهتمام."

بهذه الافتتاحية، بدا لدافيد أنه ابتدأ يثير انتباه المحلَّفين. "إن السيدة شارب تسعى إلى التأثير عليكم بالقول إن جعفر رجلٌ مستعدٌّ للموت، وقد جاء لكي يموت. وإذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا يصرُّ على اتّهام السيدة عارف طمعاً في البقاء على قيد الحياة؟ ولا يمكن أن يكون دافِعُه لذلك ثأراً لخلافٍ بينه وبينها، لأن السيد جعفر ذاته يخبركم أنه لم يسبق له مرة أن التقى عارف أو تكلم معها. فكلُّ ما يدَّعي جعفر معرفته: يقتصر على ما سمعه من لسان رجلٍ ميتٍ.

"ما هي صدقية مثل هذا الكلام، ما دمتم لن تستطيعوا أن تسمعوه من متَّهِمها المفترَض إياد حسن، أو حتى أن تنظروا في عينيه. لكن هذه هي مجرَّد بداية لقاعة المرايا التي تدعوكم الحكومة إلى دخولها في هذه القضية. فمن أجل التمكُّن مِن قتلِ بن آرون، احتاج حسن وجعفر إلى دراجتين ناريتين؛ ومتفجرات؛ وملابس عسكرية؛ وهواتف خلوية؛ وبطاقات هوية مزوَّرة؛ وإلى أموالٍ نقدية. وكلُّ هذه الأشياء قد قُدِّمت لهما في أميركا. ومع ذلك كله، فليس هناك شبه دليلٍ يربط بين هناء عارف وبين أيٍّ من هذه الأشياء".

ومن زاوية حقل نظر عيني دافيد، كان صائب يحدِّق في الأرض مستغرقاً. "كم هو أمرٌ مستغرَب،" تابع دافيد. "كم أنه أمرٌ شاذٌّ وعجيب أن تكون مؤامرة استلزمَت عدداً من المكالمات الهاتفية من هواتف خلوية، تتكشف عن تسجيلٍ لمكالمة واحدة وحيدة. كم هو غريبٌ أن تكون هذه الأستاذة في القانون قد قامت بتسليم قطعة من الورق تجرِّمها إلى مجرمٍ قاتلٍ. كم هو غير قابلٍ للتصديق أن تكون هذه المرأة، التي هي العقل المدبِّر المفترَض لهذه الجريمة المعقَّدة، أن تكون على هذه الدرجة من الغفلة والسذاجة. كم هو من المربك للعقل: التصديق بأن تكون كتائب شهداء الأقصى، وهي الجماعة المقاومة التي ينتمي إليها إبراهيم جعفر، تعهد بتدبير أمر هذا الاغتيال إلى امرأة تعجز السيدة شارب أن تثبت أيَّ علاقة لها مع هذا التنظيم." مستديراً نحو هناء، دعا دافيد هيئة المحلفين لكي ينظروا إليها نظرة تقييم. "وكم هو عصيٌّ على التصديق أن تكون هذه الزوجة المسؤولة، والأم المكرِّسة نفسها بشدة إلى ابنتها، التي هي في الثانية عشرة من عمرها، مستعدةً للمجازفة بحياتها في مثل هذه المؤامرة الخطرة."

وكما كان دافيد قد أعطى تعليماته سابقاً إليها، استدارت هناء لتحدِّق في أفراد هيئة المحلفين آملة أن تنشىء معهم بعض العلاقات الإنسانية. "لكن هذا،" قال لهم دافيد فجأة،" هو أفضل ما عند الادعاء من قضية يمكن له أن يقدمها: واشٍ لا يعرف شيئاً عمَّا

إذا كانت المدعى عليها بريئة أم مذنبة، ونبذتين من الدليل ليس لهما طعم أو معنى. فالدعوى التي تسوقها السيدة شارب ضد المدعى عليها، هي دعوى مهلهلة، ليس لأنها لم تَبذُل فيها جهداً كافياً، بل لأن السبب كله عائد إلى أن هذا هو كل ما استطاعت الجهة التي أرادت أن تفبرك تهمةً مدبَّرةً لهناء عارف، أن تنسجه ضدها. لكن خطة هذه الجهة كان لها ميزةٌ طاغيةٌ: فإذا كانت المرأة التي لُفِّقت لها التهمة، لا تعرف شيئاً، فمعنى ذلك، أن لا أحد سيعلم من هو الذي خطَّط بالفعل لاغتيال بن آرون.

"كم هو رائعٌ،" قال دافيد بنبرة ساخرة. "أن تقوم السيدة شارب بإلقاء اللوم على السيدة عارف بسبب صمتها البريء، وعلى وكيلها بسبب عدم مقدرته على تحديد هوية الجاني. لكن الجاني وحده هو من يستطيع الإفصاح عن هذه الجريمة. والأخطر من ذلك كله، أن السيدة شارب نفسها صامتة. إنها صامتة عن الإجابة على الأسئلة التي تأمل ألَّا تقوموا أنتم بطرحها؛ صامتةٌ عن الإجابات التي لن تستطيع تقديمها إليكم.

"الأمر عائد لكم لكي تسألوا هذه الأسئلة وتطلبوا تلك الإجابات. فإذا كانت لا تزال عاجزة عن الإجابة، فإن عليكم أن تقولوا لها، كما للعالم بأسره، إننا لا نقوم باتهام امرأة بجريمة قتلٍ، لمجرَّد أنها هي كل ما تملكه الحكومة."

متوقفاً، درس دافيد تعابير المحلفين الذين باتوا حائرين متشككين، بل منتظرين من يقوم بإقناعهم. لكنه كان قد فعل كلَّ ما يقوى عليه. كان ثمة شيئان لا يستطيعهما: أن يسمِّي بديلاً عن هناء، وأن يغيِّر حقيقة أن كل ما تحتاج شارب أن تعمله هو أن تعرضَ الدورَ المفترَض لهناء في الاغتيال. لقد بدأتِ المحاكمة على الشاكلة التي كان يخشى من قبلُ أن تبدأ عليها.

"شكراً لكم،" قالها بهدوء، قبل أن يعاود الجلوسَ إلى جانب موكلته.

الفصل

5

بحثاً عن بداية دراماتيكية، استدعت شارب شاهدها الأول جايمس إيمونز، قائد مجموعة الشرطة السرية المكلفة بحماية رئيس الوزراء بن آرون.

كانت شهادته، وكما توقع دافيد، سرداً عن مجريات التفجير، وما أعقبه. وكان يؤديها بمسحة من يحاول تلطيف الخبر، فيما بدا كأنه محاولة يبذلها الادعاء لتأكيد الرعب الكامن في ما وراء ما كان إيمونز يقوم بوصفه إلى المحلَّفين. لكن شارب لم تشأ أن تترك شيئاً لخيالهم. فرغم احتجاجات دافيد الحامية، جلبَت إلى القاعة شريط فيديو مصوَّر بطريقة غير احترافية عن لحظات حياة بن آرون الأخيرة.

وفي القاعة المعتمة للمحكمة، أدار محامٍ متدرِّب في مكتب شارب، شريط الفيديو الذي جرى تصويره في شارع فورث ستريت. وقد عرف دافيد أن مكان التصوير كان على مبعدة بضع خطوات عن المكان الذي كان يقف فيه هو وكارول. صورٌ صامتةٌ ملأتِ الشاشة العملاقة: بن آرون يلوِّحُ بيده من النافذة؛ السيارات السوداء تنسابُ محروسةً بدراجات رجال البوليس، مستعرضةً مشهداً من المنعة والقوة. ثم انحرفت دراجةٌ ناريةٌ نحو السيارة، دراجةُ إياد حسن. شعر دافيد بالتوتر لرؤية ما كان قد شاهده قَبلاً.

دراجةٌ ناريةٌ ثانيةٌ، إبراهيم جعفر، انزلقت إلى مسافة قريبة من شباك بن آرون. التفت جعفر نحو حسن، كما لو أنه ينتظر منه إشارة. ودون أن ينظر حسن إلى جعفر، انحرف بدراجته نحو سيارة بن آرون.

بالحركة البطيئة للصورة، كان حسن على مبعدة ثلاثة أقدام من الليموزين، ثم قدمين. ثم ارتفع رشاشٌ من دماء حسن، ودماغه، في الهواء، قُبيل انفجار السيارة التي اختفت خلف كتلة اللهب والدخان التي كانت تنفث قِطعاً من المعدن في جميع الاتجاهات.

شهقت هناء بصوت خفيض، ممسكةً ذراع دافيد. وبين الحطام المتناثر، شوهدت أطراف لجسدٍ بشريٍّ تطير في الهواء. أمَّا إبراهيم جعفر فقد شوهد يتطوَّح إلى الجانبين، بينما دراجته تنحرف ثم تهوي. هذا، وقد تبخَّر إياد حسن في الجو.

عادت الشاشة سوداء من جديد، وكان دافيد لا يزال ساهماً. لقد تذكَّر كارول وهي ترتجف بين ذراعيه. "عليكِ أن تتركي يدي،" همَسَ دافيد لهناء، فانسحبت أصابعها عن معصمه.

أشعل حاجب المحكمة المصابيح من جديد. رامشين، وذاهلين، حدَّق المحلَّفون في الشاشة الفارغة. وجه بوب كلير الأهيف النحيل بدا مخطوف اللون.

عادت شارب إلى مكانها الذي كانت تقف فيه من قبل، على مبعدة أقدام قليلة من الشاهد. رمقها إيمونز بألم رصين. "هل هذا الفيلم،" سألته "يصوِّر التفجير بدقَّةٍ على الوجه الذي كنت قد شاهدته بنفسك؟"

"نعم."

"إذن، فإن سيارة الليموزين العائدة لرئيس الوزراء قد دُمِّرت تماماً؟"

"نعم، صحيح، كما دُمِّر كل من كان بداخلها ـ رئيس الوزراء؛ رودني دايفيس؛ وآريل إليك. لم يكن ثمة جثث، بل أشلاء بشرية فقط."

"ما هي درجة معرفتك بـ : رودني دايفيس؟"

مع أن إيمونز كان لا يزال ينظر في اتجاه شارب، إلا أن عينيه بدتا غائمتين. "إنني عرَّاب ولديه كلاي، وآمي. كما أنني كنت الشخص الذي اتصل بزوجته."

كان هذا هو المكان الذي سينتهي عنده دافيد، وهو المكان الذي اختارت شارب أن تُنهي كلامها عنده. وبشعورٍ قاسٍ بالاكتفاء، خاطبت تايلور قائلة، "لا مزيد عندي من الأسئلة."

راقبت تايلور المحلفين بصمت. رأى دافيد روزيللا سواريز أصغر المحلَّفين سناً، وهي تجفف عينيها بمنديلٍ ورقيٍّ. "لنرفع الجلسة مدة عشر دقائق،" قالت القاضي.

* * *

جلس دافيد وهناء في غرفة الشهود العارية يشربان القهوة. "إن شهادة إيمونز كانت كافيةً بحدِّ ذاتها لكي تفعل فِعلها،" قال. "لكن شارب أرادت أن ترعب المحلَّفين."

بدت هناء شاحبة. "هل لأن ذلك يجعل الحصول على عقوبة الإعدام أكثر سهولة؟ أم أنه لمجرَّد جعلِ المحلَّفين أكثر تعطُّشاً لتجريمي؟"

لم يُجب دافيد على تساؤلاتها. "سوف أحاول أن أجعل شارب تدفع الثمن،" وعدَها.

* * *

تقدَّم دافيد في اتجاه إيمونز، بينما يداه في جيبه، ثم توقف عند مسافةٍ معقولةٍ منه. وبلهجة

من الفضول المعتدل، سأل دافيد الشاهد، "هل حدث لك وأن عرفتَ، يا حضرة العميل إيمونز، كيف حصل وأن حضر القاتلان إلى شارع فورث ستريت؟"

هزَّ إيمونز رأسه. "كلا."

"إذن لنرَ ما إذا كنتُ أنا قد فهمتُ إجراءاتكم: قبل يومين من وصول رئيس الوزراء، مجموعةٌ صغيرة مشكَّلة من الشرطة السرية، الإسرائيليين، ومن قسم قوة الحماية الخاصة؛ تعمل تحت قيادتك، كانت قد اختارت الطريق التي سوف يسلكها الموكب إلى المطار."

"هذا صحيح."

"والطريق التي اخترتموها كانت ستمر في شارع ماركت ستريت إلى شارع تنث ستريت، وليس إلى شارع فورث ستريت."

"وهذا أيضاً صحيح."

رفع دافيد رأسه. "ومتى تمَّ تغيير مسار الطريق؟"

تململ إيمونز في كرسي الشهادة. "كان ذلك قبل عشرين دقيقة من مغادرة بن آرون لمبنى نادي الكومنولث. لقد كان ذلك الإجراء مجرَّد احتياطات إضافية."

"من هم الذين كان يُفترض بهم معرفة التبدُّل الطارىء على خطة السير؟"

"فقط أعضاء مجموعتنا المشتركة المخصَّصة للحماية الخاصة."

مجيلاً نظرةً سريعةً على المحلَّفين، وجد دافيد أنهم جميعاً منتبهين، ويبدو أنهم باتوا مصعوقين أقلَّ من ذي قبل. "هل قمتَ شخصياً بإبلاغ قرار التعديل في خارطة الطريق؟"

"نعم، وقد استعملتُ من أجل إبلاغ هذه المعلومة هاتفاً خلوياً مأموناً. وقد قمتُ بإبلاغ ذلك إلى: عميل الشرطة السرية الذي يتولى قيادة السيارة التي تتصدَّر الموكب؛ وإلى رئيس المجموعة الإسرائيلية المدعو شلومو آفنز؛ وإلى جون روسُّو، مسؤول حماية الشخصيات البارزة في قسم قوة الحماية الخاصة. وكان كلٌّ من هؤلاء الثلاثة مكلفاً بإعلام من يجب إعلامه من مرؤوسيه."

"وهل فعلوا ذلك؟"

شبك إيمونز ذراعيه. "يبدو أنهم فعلوا ذلك. فالموكب انحرف فعلاً نحو شارع فورث ستريث."

"حيث كان حسن وجعفر في الانتظار."

"صحيح."

استحضر دافيد نظرةً حائرةً. "إذن من الذي اتصل بهما؟"

"ليس لي معرفةٌ بذلك."

"أعتقدُ أنهما لم يكونا على قائمة الأشخاص الذين يتوجب الاتصال بهما، أليس كذلك؟"

"بالطبع لم يكونا."

"ومع كلٍّ هذا، فإن شخصاً ما، من أفراد فرقة الحماية الخاصة المشتركة - إمَّا أن يكون عميلاً في الشرطة السرية، وإما أن يكون عميلاً إسرائيلياً، وإما أن يكون رجلاً من رجال البوليس - لا بدَّ من أن يكون هو الذي اتصل بهما."

انتصبَت شارب واقفةً على الفور. "إنني أعترض،" قالت منادية. "إن السؤال يستدعي استدراج استنتاجات."

وعندما استدارت تايلور نحو دافيد، ردَّ قائلاً، "هناك فقط كثيرٌ من الاحتمالات، يا صاحبة الاحترام. وأعتقد أنه بإمكاننا أن نثق بهذا الشاهد من أجل القيام بتصنيف هذه الاحتمالات."

"موافقةٌ، بإمكانك الإجابة على السؤال يا حضرة العميل إيمونز."

"هذا مجرَّد احتمالٍ واحدٍ من الاحتمالات،" قال إيمونز لدافيد. "أما الاحتمال الآخر، فهو أن حسن وجعفر قد التقطا اتصالاتنا بطريقة أو بأخرى - "

"وفي هذه الحالة،" قاطعه دافيد، "فإنهما لن يكونا في حاجة إلى مدبِّرٍ - الذي هو السيدة عارف بحسب الزعم السائد - من أجل أن يخبرهما عن التبدُّل الطارىء على خطة الطريق."

بدا إيمونز منذهلاً للحظة ما. "أعتقد أنهما لن يكونا بحاجة إلى مدبِّر."

ابتسم دافيد ابتسامة خافتة. "وفي هذه الحالة، نستطيع جميعاً أن نذهب إلى بيوتنا."

"اعتراض،" رفعت شارب عقيرتها بحميَّة. "نحن ندَّعي أن السيدة عارف هي التي جنَّدَت إياد حسن. كما يحق لي أن أسأل: مَن هو ذا الذي قد سهَّل للرجلين الحصول على المتفجرات؟"

"بالفعل، من هو الذي قام بذلك؟" سأل دافيد القاضي. "لكن اسمحوا لي أن أسحب هذا السؤال، وأن أوجِّه بدلاً منه، سؤالاً إلى الشاهد عمَّا إذا كان يملك أية معلومات تربط السيدة عارف مع أيٍّ من الأدوات والمعدَّات التي قام القاتلين باستعمالها."

وفيما يبدو أنه بات مشدوهاً للتبدل المفاجىء لمسار الأسئلة، فإن إيمونز بهتَ قليلاً قبل أن يجيب. "كلا لا تتوفر لديَّ أية معلومات."

"حسناً. بالإضافة إلى الاحتمال القائم على مقاطعة المكالمة الهاتفية والتقاطها، هل قامت شرطة مكتب التحقيقات الفيديرالي، والشرطة السرية - وبشكل خاص أنتم - بالتحقيق حول إمكانية أن يكون شخص ما، من الوحدة الأمنية التابعة للشرطة السرية، أو من القوة الخاصة لحماية الشخصيات قد أرشد القاتلَين إلى تحوير الطريق؟"

"أجل لقد فعلنا ذلك،" أجاب إيمونز. "لقد قمنا باستجواب كل فردٍ من عناصرنا، ومن أفراد البوليس من ذوي الشأن. حتى أننا قمنا بإخضاع البعض منهم لاختبار كشف الكذب، وراجعنا سجلاتهم الهاتفية، والمالية، تفتيشاً عن أي شيء يمكن الارتياب به. حتى إننا أعدنا النظر كذلك، من جديد، في التحريات الخاصة بخلفية كل واحد منهم. لكننا لم نجد أيَّ شيء مما يثير الشبهة."

"وماذا عن الجانب الإسرائيلي؟"

تردَّد إيمونز، فمن الواضح أنه كان ممزَّقاً بين رغبته كإنسان في أن يزيغ عن اللوم، وبين واجباته الوظيفية التي تقتضي منه مساعدة الادِّعاء، ضمن حدود الحقيقة. "لم نُجرِ أية تحرياتٍ على عناصر قوة الحماية الإسرائيلية. وحسبما فهمتُ، فإن الإسرائيليين يقومون بإجراء تحقيقاتهم الخاصة بهم."

"هل عرفتَ شيئاً عن النتائج التي قد توصلوا إليها؟"

"لم نعلم شيئاً من هذا القبيل."

"عدا عن معرفتكم بالطبع، أنهم لم يتوصلوا إلى أي شيء يورِّط السيدة عارف."

"أعترض،" قالت شارب بسرعة. "السؤال لا يستند إلى أي أساس. فإذا كان العميل إيمونز لا يعرف شيئاً عن هذا السؤال برمَّته، فإنه لا يمكنه أن يعلم شيئاً عن هذا الأمر أيضاً."

"ألا يستطيع؟" سأل دافيد القاضي بلهجة مستهجنة. "ألا تستطيع السيدة شارب؟ إن ما يصعب تصديقه، هو أن تقوم الحكومة الإسرائيلية بلفلفة المعلومات التي تربط السيدة عارف بجريمة قتل رئيس وزرائها بالذات، وإخفائها."

مسحة من الاستهجان بدت على عيني القاضي أيضاً. "إن جدالك ينطوي على شيء من المنطق،"قالت لدافيد. "لكن السيدة شارب تستطيع أن تعطينا ما يتوفر لديها فقط. فإذا كانت دعواها لا تتضمَّن أيَّ شاهد من إسرائيل. فإن هذا الأمر يتكلم عن نفسه. لطفاً التحوُّل إلى سؤال آخر."

مكتفياً، نظر دافيد عَبْرَ المحلَّفين نحو آفي هيرتز الذي بدا غامضاً مبهماً كتمثالٍ من الشمع. وبطريقة عرضية وجَّه دافيد سؤالاً جديداً إلى الشاهد، "هل سبق لك أن سمعتَ عن رجل يدعى باراك ليف؟"

تضيَّقت حدقتا إيمونز. "نعم. إنه، أو بالأحرى كان، مستوطِناً في الضفة الغربية. وكان قائداً لمجموعة من المتطرفين تدعى حركة مسعدة. وهدف الحركة هو طرد الفلسطينيين من الضفة الغربية التي يعتقد أعضاء الحركة أن الله قد وهبها إلى شعب إسرائيل."

"كان لا يحب عاموس بن آرون كثيراً، هل هذا صحيح؟ وفي الواقع، ألم يقم ليف باراك بالتنبُّؤ علناً: بأن الله سيقصف عمرَ بن آرون؟"

شابكاً يديه أمامه، فكَّر إيمونز بجوابٍ يقوله. "مِن تصريحات ليف وسواه في حركة مسعدة، يبدو أنهم اعتقدوا أن بن آرون سوف يتخلَّى عنهم لمصلحة الفلسطينيين. ولهذا فإنهم اعتقدوا أن على الله أن يصرع بن آرون."

واضعاً كفيه على خصره، نظر دافيد نحو إيمونز نظرة شزراء. "قبل وصول بن آرون هل قامت الشرطة السرية بإعداد ما يسمى 'لائحة' الذين تنبغي مراقبتهم، لأشخاصٍ في أميركا من الذين يمكن أن يشكلوا تهديداً محتملاً خطيراً على حياة بن آرون؟"

مدركةً فجأة الوجهةَ التي تتجه إليها أسئلة دافيد، وقفت شارب بطريقة انعكاسية، كمن يريد الاعتراض، ثم بدت وكأنها تعيد التفكير في موقفها. "نعم،" أجاب إيمونز باقتضاب.

"وهل تضمنت تلك اللائحة يهوداً أميركيين من المتعاطفين مع حركة مسعدة؟"

"نعم لقد تضمَّنت ذلك،" أجاب إيمونز بشكلٍ محدَّد. "لكن بشكل أساسي من بروكلِن."

قرَّر دافيد أن يدعَ تلك الملاحظة تمرُّ في حال سبيلها. "هل أنت تعرف شيئاً عن شخصٍ يدعى هلال ماركيس؟"

"نعم،" مرة جديدة تردَّد إيمونز. "لقد كان عنصراً من عناصر قوَّة الحماية الإسرائيلية الخاصة المكلفة بحماية بن آرون في سان فرانسيسكو."

"هل أنت مدركٌ أيضاً أن هلال ماركيس، وليف باراك، لم يكونا يوماً رفيقي سلاح في الجيش فحسب، بل إنهما كانا في واقع الأمر صديقين حميمين؟"

هزَّ إيمونز رأسه. "ليس لي معرفةٌ مباشَرةٌ بهذا الأمر."

توقف دافيد برهةً. "لقد لاحظت أنك قد تكلمت عن ماركيس بصيغة الماضي."

"نعم، لقد فعلتُ ذلك،" أجاب إيمونز. "لأن الرجل قد مات."

"وكيف حصل ذلك؟"

عارفاً بكلِّ وضوحٍ بدورِ دافيد في مقتل ماركيس، رشقه إيمونز بنظرةٍ تُخفي بعض العدائية. "لقد قُتل في حادث تفجير سيارة في تل أبيب."

"هل عرفتَ عن أيِّ شخصٍ آخر كان قد قُتل، أو جُرح، في ذلك التفجير؟"

"لا، لأن ماركيس كان لوحده."

"ومتى حصل ذلك؟"

"منذ حوالي شهرين."

"هل أعلنَت أيُّ جهَّة مسؤوليتها عن هذا التفجير؟"

"كلا."

فجأة، انتصبت مارني شارب واقفة. "يا صاحبة الاحترام، هل لي أن أقترب من قوس المحكمة؟"

لاحقاً بشارب، انضم دافيد إليها عند حافة القوس متسارَّين مع القاضي. "يا صاحبة الاحترام،" قالت شارب بدرجة لا بأس بها من الحماس، "إن الأسئلة الأربعة الأخيرة من شأنها أن تجرِّد السيد وولف من أهليته لمتابعة مهمته كمحامٍ صالحٍ عن السيدة عارف. فبمسحة من البراءة يقوم بتوجيه أسئلة إلى هذا الشاهد عنْ معرفته غير المباشرة عن جريمتي قتلٍ كان قد شهدهما، أو شبه شهدهما السيد وولف بنفسه. وهو لا يجوز له أن يكون في الوقت ذاته شاهداً ومحامياً."

"أنا لا أنوي أن أكون شاهداً،" أجاب دافيد بهدوء. "لقد تجاوزنا هذا الموضوع في ما سلف. ليس هناك من ينازع أن ليف وماركيس قد قُتلا، مثلما قُتل رئيس الوزراء. كنت أتمنى ألَّا يكون لي أيّ نوعٍ من الصلة بأيٍ مِن جرائم القتل هذه. لكن هناك شهود غيري لكلٍّ من الجرائم الثلاث. ثم إن السيدة عارف لا تزال تريدني وكيلاً عنها في هذه القضية."

استدارت تايلور نحو شارب. "لن أستبِقَ الحكمَ على طلبك بتجريد السيد وولف من أهليته، فإذا كان هذا ما تريدين الذهاب إليه. نستطيع عندئذ رفع الجلسة كي ننظر في هذا الأمر خارجها. لكن النتيجة لن تكون معروفة، ورغبة السيدة عارف في الاحتفاظ بتوكيلها إلى السيد وولف، تلقي بثقلها عليَّ. دعوني أطرح سؤالاً عملياً: إذا قررتُ تجريد السيد وولف من أهليته للمرافعة في هذه الدعوى، فهل ستكونين راغبة في التقدُّم بدعوى جديدة، يكون فيها محامٍ جديد، ربما بعد أشهرٍ، أو حتى بعد سنواتٍ من الآن؟ أم أنك قانعةٌ بمتابعة هذه القضية ضد السيد وولف؟"

عرف دافيد أن حاله هو، كما هو حال شارب أيضاً، حال المحدِّق في بؤرة سوداء من الغموض: فمع أن شارب تودُّ التخلُّص من دافيد، إلَّا أن التأخُّر الذي سيقتضيه ذلك، قد يفيد

قضية هناء أكثر مما يفيد قضيَّة الادِّعاء. وللحظةٍ، فقد تمنى دافيد نفسه، لو يحصل هذا فعلاً. متجهِّمةً، ردَّت شارب سائلةً، "هل لي بالتروِّي في الإجابة عن هذا السؤال؟"

"فقط حتى الساعة التاسعة من صباح غدٍ،" قالت القاضي باقتضاب. "وفي الوقت الحاضر، فسوف أسمح للسيد وولف بمتابعة استجواب الشاهد."

عندما عاد دافيد إلى مكانه الأول، فإنه رأى في وجه هناء نظرةً، فيها تتراكب الصور، صورة الامتنان، وصورة القلق. أما صائب الذي كان يجلس خلفها، فكانت عيناه على وجه دافيد. مستديراً من جديدٍ نحو الشاهد، قال دافيد، "كنا نناقش مقتل هلال ماركيس. هل كان ليف باراك قد قُتِل أيضاً؟"

"نعم. لقد قُتل برصاص قناصٍ بعد يومٍ واحدٍ من مقتل ماركيس."

"إذن، دعنا نلخِّص: هلال ماركيس، العضو في مجموعة الحماية الخاصة لعاموس بن آرون، كان صديقاً حميماً لرئيس حركة مسعدة ليف باراك الذي أراد علناً أن يقصف الله عمر بن آرون. وقد قُتل ماركيس، ثم قُتل بعده ليف. هل هذا صحيح؟"

"نعم صحيح، حسب فهمي للأمور."

"هل تعرف من الذي قتل ماركيس وليف؟"

"لا لستُ أعرف. كل ما أعرفه أن الاثنين قد قُتلا في إسرائيل."

راجعاً إلى طاولة المدعى عليها، وقف دافيد بجانب هناء. "هل لديكَ أدنى علمٍ بأدنى علاقةٍ بين السيدة عارف وبين أيٍّ من ماركيس، أو ليف؟"

"كلا ليس لديّ."

"إذن لنعد إلى لائحتك المتعلقة بالأشخاص الذين ينبغي مراقبتهم لأنهم كانوا يومها، قد يشكلون خطراً على حياة رئيس الوزراء بن آرون. فلِحدِّ عِلمِك، هل تضمنت هذه اللائحة أيَّ اسمٍ من المرتبطين بكتائب شهداء الأقصى؟"

"أطلق إيمونز أسرع نظراته في اتجاه مارني شارب. "ليس لحدِّ علمي."

"ومع هذا، فإن إبراهيم جعفر يدَّعي أنه يعمل لمصلحة كتائب الأقصى."

"هكذا عَلِمنا."

زاد دافيد منه اقتراباً. "بحسب تقديركَ يا حضرة العميل إيمونز، هل كان اغتيال عاموس بن آرون عملاً احترافياً متقَناً؟"

"لقد كان عملاً عالي الاحتراف، أجل."

"هل تعتقد أنه في استطاعة كتائب الأقصى القيام بمثل هذه العملية في الولايات المتحدة؟"

"كلا. لأن كتائب الأقصى لا تملك البنى التحتية اللازمة هنا، من أجل ذلك."

ناظراً نحو المحلَّفين، التقط دافيد نظرة بوب كلير الحائرة المرتبكة. "هل لديكَ أيُّ علمٍ عن أيِّ علاقةٍ تربط بين كتائب الأقصى وبين هناء عارف؟" سأل دافيد.

"لا، ليس لي علمٌ بأيِّ علاقةٍ لها بكتائب الأقصى،" أجاب إيمونز بلهجة مؤكِّدة.

"شكراً لك،" قال دافيد. "ليس عندي أي أسئلة أخرى."

الفصل
6

حلمٌ حلِمَه دافيد. امرأة مستوحدة متلفعة بعباءة سوداء، فوقه نقاب، دخلت زقاقاً مظلماً يشبه صورة سوريالية لمخيَّم لاجئين. كانت حركاتها متردِّدة وخائفة. أمَّا رأسها فكان يدور يمنة ويسرة. فيما كان بينها وبين دافيد يفصل سورٌ من الشريط الشائك المشبَّك. كلُّ ما كان يتبيَّنه من المرأة، هو أن حجم جسدها يقارب حجم جسد هناء، وأن حركتها كانت مألوفة لديه. ومع أنه تمنى مساعدتها، فإن شكلها الشبحي الذي اقترب منه كان قد ملأه خوفاً وارتياباً.

وعندما وقفَت خلال الزقاق، ظهرت خلفها شواهد قبورٍ. ولمَّا انحنى دافيد على الشريط الشائك، وخزت أشواكه جبهته.

ومن مسافة قدمٍ واحدةٍ منه، وصلت المرأة إليه بذراعٍ رقيقة، تلامس بأناملها اللطيفة أنامله قائلة. "أنقذني،" أما لهجتها فكانت لهجة إنكليزية سليمة.

"ومن تكونين؟"

لم تجبهُ المرأة. وعندما جهِدَ دافيد لكي يتبيَّن ملامحها في شبه ضوءٍ؛ فإنها أزاحَت عنها النقاب محررة شعرها الأسود الطويل.

ولم تك المرأة سوى فتاة قاصرة.. لقد كانت منيرة.

مُجفلاً من نومه، مفيقاً، نظر دافيد في الأرقام المضيئة الحمراء، على ميناء ساعته المنبِّهة.

وبفمٍ جفَّ منه الريق. شعر دافيد أن المنام يتسرَّب إلى قعر عقله الباطني، تاركاً منه فقط بِضعَ شذراتٍ يمكن استذكارها. وشأنه مع هذا الحلم شأن بقية أحلامه، لم يُقم له وزناً، خلا عن فوران مشاعرٍ طالما كان يجاهد النفس لكبحها ومغالبتها، وإبقائها هامدة.

أغمض دافيد عينيه من جديد، محاولاً التركيز على نهار غد.

* * *

كان شاهدُ النهار الأول، الدكتورة اليزابيت شيلتون، وهي باحثة طبية خبيرة ليس في مدينة سان فرانسيسكو فحسب، بل في مقاطعة سان فرانسيسكو كلها. امرأةٌ نحيلةٌ شقراء، ولها طبعٌ أنيق. كانت ليز شيلتون التي تكاد تجتاز العقد الرابع من عمرها، خبيرة ذات وزن واحترام على مستوى الوطن كله. وكانت شهادتها، في رأي دافيد، لا تخدم أيَّ غرضٍ سوى قَلبِ أمعاء هيئة المحلَّفين.

وكان دافيد قد قال مثل هذا الكلام مِن قبلُ للقاضي تايلور عارضاً التوافق على الوقائع المتعلقة بثبوت حصول الوفيات. لكن شارب أصرَّت على حقها بإقامة البرهان على هذه الوفيات بأي وسيلة تراها هي مناسِبة لها. فالعنصر الأوَّلي الأهمُّ في قضايا القتل، هو أنَّ ضحايا جرائم القتل قد قُتلوا فعلاً. وهكذا، وقف دافيد إلى جانب هناء يحدِّقان إلى الطاولة، حيث قادت شارب الدكتورة شيلتون في عملية تفاصيل مضنية خلال الطرق التي حوَّلت فيها القنبلة المحمولة مع إياد حسن، ضحاياها إلى قتلى. هذه التفسيرات قد جرى إيضاحها بواسطة شرائح منزلقة تحتوي على صورٍ لأجزاء من أعضاء البدن، ولأسنانٍ، وعظامٍ، وكلُّها تُعكس على شاشةٍ لكي يراها المحلَّفون. إن سبب الوفاة، شرحت شيلتون، للمحلفين، هو انفجار كبير، وأن البقايا المتفحمة، على الهيئة التي وُجدت عليها، لم تسمح للفاحصين بأن يميزوا بين ضحية وأخرى لولا سجلات طب الأسنان، ودراسة الحمض النووي. أغلقت هناء عينيها حتى تتجنب النظر إلى الصور المنعكسة على الشاشة.

استغرق الأمر كله، بعضه على بعض، من شارب وشيلتون مدة ساعة كاملة لإثبات أن عاموس بن آرون كان قد مات، كما استغرق منهما مدة ساعة أخرى لإثبات وفاة إياد حسن. وعندما قضي هذا الأمر، ودعت تايلور إلى استراحة، شعر دافيد بوقعِ يدٍ خفيفة على كتفه. "إذن،" تساءل صائب بهدوء، "هل كنتَ تعتقد أن على منيرة أن تسمع هذه الأشياء أو أن تراها؟"

اكتفى دافيد بالنظر إليه. حدَّق صائب في زوجته فالتقت أعينهما، لكن هناء حوَّلت أنظارها عنه محدِّقة في لا مكان.

* * *

بعد اقترابه من الشاهد، توقف دافيد فجأة، وكأن فكرة مفاجئة قد صعقته. "أخبريني يا دكتورة شيلتون: من أجل ماذا قد جيء بكِ إلى هنا؟"

متمالكة نفسها، نظرت شيلتون نحو شارب. "أعترِض،" صاحت النائب العام.

"ليس السؤال غامضاً فحسب، بل هو يستدعي أيضاً استنتاجاً قانونياً. فمن الواضح أن الولايات المتحدة قد استدعت الدكتورة شيلتون لإثبات سبب الوفيات."

"وهل هناك من شك حول سبب الوفيات؟" سأل دافيد القاضي تايلور.

"أنا لم أكن أعتقد ذلك." قالت تايلور بلهجة جافة. "لكنني أقرُّ السيدة شارب على اعتراضها. وعليك أن تبرهن أية نقطة تشاء، بطريقة أخرى."

"شكراً لك يا صاحبة الاحترام." ثم مواجهاً شيلتون سألها، "هل لحدِّ علمك يا دكتورة شيلتون أن الدفاع يجادل في أن سبب الوفاة هو الانفجار الذي عرضته السيدة شارب على الشاشة أمام المحلفين بالأمس فقط؟"

زمَّت شيلتون شفتيها؛ أحسَّ دافيد أنها لم تحبذ أن تكون عكازاً بيد شارب، كما أنها لم تستسِغ أن تصبح عكازاً بيد دافيد أيضاً. أجابت بهدوء.

"كلا، ليس لحدِّ علمي."

"هل تملكين أيَّ دليلٍ على الإطلاق، عمَّا إذا كانت هناء عارف مسؤولة بأي شكل من الأشكال عن هذا الانفجار؟"

طوت شيلتون يديها. "كلا، ليس عندي أيُّ دليلٍ على ذلك."

"عدا عمَّا كنتِ قد سمعتِه مزعوماً عن إياد حسن، هل لديك أيَّ معرفة شخصية من أيِّ نوعٍ كان، حول مَن قد يكون مسؤولاً؟"

"كلا."

"إذن دعيني أكرر سؤالي لكِ مرة ثانية: مِن أجلِ ماذا أنت موجودة هنا"؟

"أعترِض،" قادت شارب وهي تبدو منزعجة إلى الدرجة التي هدف إليها دافيد. "إنني أكرر الاعتراض السابق ذاته. هذه مضيعة للوقت."

"يا صاحبة الاحترام،" ردَّ دافيد بهدوء، "إن ما يذهلني هو أن السيدة شارب تتهمني بإضاعة الوقت. مع أنه منذ وقوف الدكتورة شيلتون على منصة الشهود فقد صرفنا ساعة وربع الساعة، صرنا خلالها أقرب إلى الموتى، دون أن نصبح ولو لدقيقة واحدة أرشدُ معرفةً حول ما إذا كانت السيدة عارف مذنبة أم بريئة. وإن ما يبدو عادلاً، هو فقط أن أقوم بإيضاح هذه النقطة."

"يبدو أنك قد فعلتَ،" أجابت تايلور. "لهذا، فإنني سأطلب من كليكما ألَّا تهدرا المزيد من الوقت في إلقاء الخُطب."

ناظراً إلى المحلفين، رأى دافيد آرديل واشنطن تتأمَّل مارني شارب بنظرة تأفُّف،

فشعر أنه قد أوضح نقطته الثانية التي لم يُفصح عنها بالكلام، ألا وهي أن شارب تحاول استغلال مشاعر المحلَّفين.

"في هذه الحالة،" قال لتايلور، "سوف لن أستبقي هذه الشاهدة لأكثر مِن هذا."

* * *

خلال استراحة الظهر، لجأ دافيد إلى مكتبه برفقة آنجِل غاريغوس؛ كانا يلتهمان سندويتشاتهما بينما هما يناقشان أحداث الصباح. مستجيباً لتشجيع آنجِل قال له دافيد، "لقد قمتُ بتسجيل النقاط التي استطعتُ تسجيلها. لكنني قد أحصل أيضاً على كلمة 'الشك المنطقي' منقوشة على جبيني، ومع ذلك كلّه، يبقى دفاعنا بمجمله عبارة عن أسئلة محضةٍ، وليس من أجوبة.

"إن الدليل المتماسك الوحيد في القضية بكاملها يشير إلى أن هناء مذنبة. وعندما تقوم شارب باستدعاء إبراهيم جعفر إلى منصة الشهود، فإن كل خثار تلك الدماء سوف يرتدُّ صداه على المحلَّفين. ولا حاجة بنا لذكر الحجج التي ستقدمها شارب لمصلحة عقوبة الإعدام. ومن أجل ذلك هي تقوم الآن بعملِ كلٍّ هذا."

رنَّ جرس الهاتف. تردَّد دافيد قبل أن يلتقطه.

كان المتكلم زيف آرنهيت. "ما زلت أنتظر مختبر الأدلَّة الجنائية،" قال له آرنهيت دون مقدمات. "وصحيح أن المختبر قد تلقى عيِّنات من صائب خالد، الذي طلب إجراء بعض الاختبارات عليها. لكن جميع مصادري مصممة على القول إن سبب التحاليل لم يكن يهدف لفحص بصمات الأصابع، لا لهناء، ولا لسواها."

"تباً."

"إن ما قاموا بفحصه،" تابع آرنهيت، "هو شيء ما زلت لا أعرفه. ولن أستطيع الحصول على الوثائق."

نظر دافيد نحو آنجِل، الذي كان يتابع طرف دافيد من المكالمة باهتمامٍ واضح. "تابع محاولاتك،" قال لآرنهيت. "أعتقدُ أن ذلك قد يفيدنا."

"إذا كان التحليل لا يتعلق ببصمات الأصابع يا دافيد، فكيف يمكنه أن يكون مفيداً لك؟"

"لست واثقاً بعد من هذا. لكننا في مأزقٍ هنا. ونحن في حاجة إلى كلٍّ ما قد يفيدنا."

كان آرنهيت صامتاً. ووجد دافيد نفسه يتساءل مرة جديدة، تُرى ما هو الدور الذي تلعبه الحكومة الإسرائيلية في جهود آرنهيت. "حسناً،" أجاب آرنهيت في نهاية الأمر. "سوف أجرِّب."

* * *

بعد الظهر، دعت شارب العميل الخاص دانتي ألِيغريا، وهو خبير متفجراتٍ من مكتب التحقيقات الفيديرالي، إلى منصة الشهود. بشعره الأسود المجعَّد، ووجهه المشرق، وسلوكه المستقيم، ذكَّر ألِيغريا دافيد بذلك النوع من المقاولين الذي قد يعيد تصميم مطبخك، وينهي عمله في الوقت المحدَّد له، ثم يرسل لك فاتورة عادلة. ولقد كان إلى جانب ذلك شاهداً حاذقاً خبيراً. فعندما أدَّى شهادته، تكلَّم ألِيغريا مباشرة إلى المحلَّفين بانياً علاقة ودودة معهم. "القاتل،" قال لهم ألِيغريا، "قام باستعمال متفجرات بلاستيكية تدعى C-4. وهي النسخة الأميركية عن *المتفجرات البلاستيكية الشرق أوروبية التي تدعى سيمتكس. وهي التي يختار الإرهابيون استعمالها في المقام الأول*."

وقفت شارب جانباً، كلاعب صغير على مسرح ألِيغريا. "لماذا في رأيك أقدم حسن على اختيار C-4؟"

"أعترِض،" قال دافيد، دون أن يقف. "السؤال لا أساس له. فنحن لا نعلم من الذي اختار نوع المتفجرات هذا، لكننا متأكدين جداً أن هذا الشخص ليس حسن. فوفقاً لقرار الاتهام، إنه كان قد وجده وسط حاويةٍ، في جنوبي سان فرانسيسكو. وكل ما فعله هو أنه قام بتوصيل الأسلاك."

"الاعتراض مقبول،" حكمتِ القاضي.

"لماذا،" تداركت شارب بشيءٍ من السُّخط، "يقوم أحدهم باختيار الـ C-4 من أجل نسفِ *سيارة الليموزين العائدة لرئيس الوزراء، بينما رئيس الوزراء بداخلها*؟"

"لأنكِ تحتاجين إلى شحنة ناسفة كافية لتدمير التصفيح. فمعظم المتفجرات لا يمكنها ذلك. لكن حمولة خُرْجٍ واحدٍ من الـ C-4، مربوطة *إلى* دراجة نارية، *لديها* فرصة جيدة *لإحداث ما حدث هنا: أي لتدمير* سيارة مصفحة تدميراً كاملاً. *إن المعدن المتطاير* وحده قد *يقتل الأشخاص الذين هم في الداخل*."

كلُّ ذلك لم يكن له من داعٍ، فألِيغريا لم يكن بحاجة لكي يزيد شيئاً. وبطريقة أكثر خفاءً من ليز شيلتون، استطاع ألِيغريا أن يسعف شارب في إعادة نبشِ الأشلاء. "وكيف قام حسن بإشعال الـ C-4؟" سألته شارب.

"إنه أمرٌ من السهولة بمكان،" قال ألِيغريا. "لقد كان البلاستيك موصولاً إلكترونياً إلى مفتاح ذي عتلةٍ مِفصليَّة مثبتة على مقبض كلٍّ من الدراجتين. فإذا تمَّ الضغط على المفتاح: يشتعل الـ C-4. تقنياً، *إنَّ كلَّ ما يحتاج إليه حسن: هو أن يعرف كيف يصِل سلك الـ C-4 إلى المفتاح*."

"وهل هذه التقنية مألوفة لديك؟"

"أجل. وتنظيم القاعدة كان قد استعملها. وفي الأراضي الفلسطينية يستعملها

المقاتلون الفلسطينيون. إن الشيء الجديد الوحيد، هو أن هذا الأمر قد حدث الآن في أميركا."

عند ذكر "القاعدة"، رأى دافيد بوب كلير يرفع حاجبيه. فبسؤال وحيد استطاعت شارب أن تستحضر شيئاً غريباً ومرعباً، ألا وهو شبح تفجيرات الحادي عشر من أيلول مذكِّرة إياهم بأن الحادث المرعب الثاني الشبيه بالأول، هو اغتيال عاموس بن آرون، الذي أدخل التفجيرات الانتحارية إلى قلب شوارع سان فرانسيسكو.

"شكراً لك،" قالت شارب. "هذا كلُّ ما لديَّ من أسئلة."

* * *

مقترباً من الشاهد، وقف دافيد في وسط المسافة بين ألِيغريا، وبين المحلَّفين، مجبراً إياه بذلك على التركيز عليه. "هل تمكنتَ،" ابتدأ دافيد، "من معرفة المصدر المحدَّد للمتفجرات التي استعملها حسن؟"

"لقد حاولنا ذلك بكلِّ تأكيد،" أجاب الشاهد بإخلاص. "هناك مكان نفكر به في مثل هذه الحالات دائماً، وهو المصدر العسكري. فالجنود الجشعون، أو الساخطون، وأحياناً مؤيدو القاعدة، يقومون بسرقة المتفجرات وبيعها في السوق السوداء. لكن في حالتنا الحاضرة، فإننا لا نعلم شيئاً."

"إذن، ليس لديكم أيّ فكرة من أين أتت هذه المتفجرات بالذات، أو من هو الذي قام بتدبير جلبِها. أو حتى من الذي تركها في المكان الذي لقيَها فيه حسن."

هزَّ ألِيغريا رأسه. "أخشى أننا لا ندري. كلا إننا لا نعرف."

"هل لديكم أيّ معلومة تربط هناء عارف بجلب هذه المتفجرات، أو بتدبيرها؟"

"كلا، لا شيء من هذا."

"حسناً. من خلال حكمكم على التقنية التي قمتَ بشرحها، هل يمكنك القول إن الاغتيال كان بحدِّ ذاته عملاً احترافياً؟"

فكَّر ألِيغريا في هذا السؤال، بينما عيناه العسليتان العميقتان ترقبان دافيد بنظرة فاهمة مخلصة. "ما أحب قوله،" أباح لنفسه، "هو أن حسن قد استعمل تقنية يفضِّلها أولئك الذين يمارسون الإرهاب حرفة لهم. تقنية كانت ملائمة لإزالة رجل على رأس دولة إزالة تامة من الوجود.

"وفي تفجيرات أخرى، حيث يكون الهدف تفجير سيارة ما، فإن الإرهابيين يختارون إشعال المتفجرات بواسطة جهاز للتحكُّم عن بُعد. لكن تلك التقنية هي أقلُّ موثوقية. وقد لا تنجح في التعامل مع سيارة مصفحة. وفي هذه الحالة، فإن المخطِّطين قد اختاروا التقنية

الصحيحة؛ تفجير انتحاري؛ البلاستيك المناسب من نوع C-4؛ وجهاز *التفجير الأكفأ* من سواه في *أداء المهمة*."

رفع دافيد رأسه. "لكن هذه الخيارات تحتاج أيضاً من الانتحاري أن يعرف الطريق المحدَّد الذي سوف يسلكه موكب بن آرون، أليس ذلك صحيحاً؟"

تردَّد أليغريا قليلاً. "صحيح."

"وكذلك كلّ تغيير يحدث على مسار الطريق."

"نعم، هذا التفجير لم يحدُث مصادفة."

بعد أن استعاد أفكار المحلِّفين من جديد إلى إمكانية حصول تسريب أمني. سأل دافيد، "انطلاقاً من التقنية المستعمَلة، هل يمكنك القول أن إياد حسن كان يتوقع الموت؟"

للحظة معينة، بدا الشاهد مرتبكاً، كما لاحظ دافيد أيضاً أن مارني شارب كانت مرتبكة كذلك.

"ما لم يكن موهوماً،" أجاب أليغريا. "حالما يضغط على المفتاح، يكون قد انتهى أمره."

"ولكن ليس قبل ذلك؟"

"لا. ما لم يشتعل الـ : C-4 فإنه يبقى *مادة شديدة الثبات*. حتى إنه *يمكننا أن نتقاذفه أنت وأنا بكل أمان*."

"لا شكراً لك. ولكن من خلال شهادتك، لاحظتُ أن الـ : C 4 مادة سهلة التوصيل بالأسلاك."

"نعم."

"وبالفعل، لقد قام حسن بتوصيل أسلاك دراجته بنجاح كبير."

بدا أليغريا حائراً قليلاً. "إذا كنت تعني أن حسن قد نجح، فمن الواضح أن هذا صحيح."

"إذن، لماذا لم تنفجر دراجة إبراهيم جعفر؟"

لفترة طويلة، حدَّق أليغريا في دافيد. "لست متأكداً،" أجاب أخيراً. "عندما قمت بالكشف على دراجة جعفر كان الشريط موصولاً إلى مفتاح التفجير، ولكن ليس إلى مادة الـ C-4 *أيضاً*، المحجوبة في *خُرْج الدراجة*."

"ألم يكن هذا هو السبب الذي منع انفجار دراجة جعفر؟" سأل دافيد بغلالة بسيطة من الشكِّ. "هذه غلطة شديدة السذاجة لكي يقع فيها حسن."

انحنت القاضي تايلور إلى الأمام، متفهمة لأول مرة النقطة التي يرمي دافيد إليها. وللمرة الأولى أطرق الشاهد أرضاً، مفكراً في الإجابة. "يجب أن تكون كذلك." أجاب ألبيغريا، "فإذا كان ذلك هو الذي حدث، فلربما أن الشريط كان قد أفلت بسبب الانفجار."

"ولكن إذا كان جعفر قد ضغط على المفتاح قبل حسن، كما يقول القرار الاتهامي، فإن هذا لا يمكن أن يحدث، هل يمكن ذلك؟"

"لا أعتقد."

"إذن، أليس أن التفسير الأقرب هو: إما أن يكون حسن قد أخفق في ربطِ الشريط بطريقة صحيحة، أو أن يكون جعفر قد قام بإفلاته من مكانه؟"

فتح الشاهد ذراعيه. "إن الاحتمالين ممكنين بكل تأكيد. فإذا كان السبب هو حسن، فإننا لن نستطيع أن نعرف ذلك."

"إن هذه مسألة صعبة الحل، أليس كذلك؟ لكن دعني أسألك سؤالاً: إذا افترضنا أن حسن قد أراد لجعفر أن يبقى على قيد الحياة، ألن يقوم بعمل ما أفترِضُه أنا - أي عدم إكمال توصيل الشريط؟"

"بكلٍّ تأكيد،" أجاب ألبيغريا، بينما نبرَتُه تجمع الارتباك والاحتجاج معاً. "ولكن ما الذي يدعوه بحق السماء لكي يفعل ذلك؟" وراء قوس المحكمة، حدَّقت تايلور في سقف القاعة، محاولة إخفاء ابتسامة خافتة.

"لماذا لا تترك هذا الأمر لي." اقترح دافيد في اتجاه ألبيغريا. "أجب على سؤالي من فضلك."

تراجع ألبيغريا على كرسي الشاهد. "حتى وإن كان ما تقوله صحيحاً، يا سيد وولف، فإن حسن لا يمكنه أن يكون أكيداً من أن جعفر سوف يعيش. فالانفجار كبير جداً، والقِطع المتناثرة كثيرة أيضاً."

"ومع كل ذلك، ألا تستطيع القول أن كائناً من كان قد نزع الشريط، أو قد فشل في توصيله، فإنه يكون قد عزَّز فعلياً فرص بقاء جعفر حياً؟"

طوى ألبيغريا يديه. "الكثير من هذا سيعتمد على الحظِّ، وعلى درجة اقتراب جعفر من نقطة الانفجار. ولكن إذا كانت كلمة "فعلياً" تعني الذهاب من "اللاحظَّ في الحياة" إلى "بعض الحظ في الحياة،" فإن الخلل في التسليك يكون قد عزَّز احتمالات بقاء جعفر حياً."

"وهو في الحقيقة قد بقي حياً."

"صحيح."

كاد يتوقف قلب دافيد عن النبض لحظة. "ولهذا السبب،" قفز إلى القول، "بقي جعفر حياً لكي يتمكَّن من إعادة رواية قصة إياد حسن عن هناء عارف."

"أعترِض." فرقع صوت مارني شارب في قاعة المحكمة. "إن هذا السؤال يُراكِمُ نظريةً فوق أخرى."

لم يأبه دافيد لكلامها طالما أنه كان قد أوصل فكرته، وكان ذلك واضحاً من وجه بوب كلير الذي كان ينقِّل أنظاره من شارب إلى دافيد. "سوف أسحب سؤالي." قال دافيد للقاضي بنبرة غير مكترثة. "لقد كانت الأسئلة الأخيرة القليلة كافية بحدٍّ ذاتها."

* * *

لكن لحظة اكتفاء دافيد كانت قصيرة جداً. فعند الساعة الخامسة، عندما رُفعت جلسة المحاكمة، انضمَّ إليه آنجل لابتداء فترتهما الثانية للتدريب التي استمرت ثماني ساعاتٍ، يتدربان ويعيدان فيها رسم الخطط، ويناقشان استجوابه لشاهد شارب المقبل، إبراهيم جعفر.

عند منتصف الليل، أعاد دافيد تكرار ما كان واضحاً لكليهما: "أسئلةٌ كثيرةٌ ولكن لا إجابات."

الفصل

7

حتى وعلى افتراض أن دافيد كان مجرَّد زائرٍ لقاعة المحكمة، فإنه كان لا بُدَّ له في ذلك اليوم من الإحساس الواضح أن الميزان يميل في غير صالح هناء عارف.

أمَّا في خارج المبنى الفيديرالي، فقد كان البوليس يطوِّق الشوارع؛ كما كانت عربات محطات التلفزة الفضائية تغصُّ بها الساحات. وكان ثمة جيش صغير من الصحافيين والمراسلين الذين كانوا يبثون تقاريرهم الحيَّة على الهواء مباشرة، كما يلتقطون الصور من خلال كاميراتهم الصغيرة. أمَّا المتظاهرون فقد كانوا يطلقون الصيحات عبر الحواجز التي تفصل بين فصائلهم. وفي داخل القاعة احتشد المراسلون الصحافيون أيضاً محشورين في جلوسهم على المقاعد الخشبية، بينما تسنَّد كثيرٌ منهم إلى جوانب جدران القاعة من جانبيها. وكانت جلبتهم التي لا تهدأ أعلى صخباً من ذي قبل.

وعند منضدة الادعاء كانت تجلس شارب، يحفُّ بها كبيرُ مساعديها، الرجل الذكي المنهجي الأسلوب، بُول ماكلينز، وفيكتور فاليس عميل مكتب التحقيقات الفيديرالي المسؤول في هذه القضية؛ إضافة إلى جورج جنينكس رئيس قسمِ الجنايات في وزارة العدل. أمَّا دافيد، فقد جلس بين هناء وآنجِل غاريغوس الذي، مثله مثلُ دافيد، كان قد حفِظ عن ظهرِ قلبٍ، كلَّ حقيقةٍ تتعلقُ بإبراهيم جعفر.

وفي انتظار وصول القاضي، جلست هناء بهدوءٍ تملؤها أفكارٌ لا يدري بها دافيد سوى في خياله. أمَّا مداولاتهما المختصَرة فكانت قد جالت على أنباء ذلك الصباح التي تقول، إن الجيش الإسرائيلي قد قتل عضوين من كتائب الأقصى، في قرية تقع قرب رام الله، وأن مستوطناً يهودياً يعيش فوق سوق الخليل، قد قُتل أيضاً. وبهدوءٍ، ويأسٍ همهمت هناء، "يا وطني،" قبل أن تلوذ في صمتها من جديد.

أمَّا خلفهما، فقد اتَّخذ صائب له مجلساً. ومع أنه بدا متماسكاً، فإن إبهام وسبابة يده اليسرى، ما برحتا تحفَّان معاً، كما لو أنهما تعملان على تكوير قصاصة صغيرة من الورق إلى كريَّة مستديرة. وحتى المحلفون، بدا عليهم الخفوت.

"الجميع وقوفاً،" نادى مباشِر المحكمة، فيما تبوّأت القاضي تايلور مقعدها خلف القوس.

تنزّل الهدوء على القاعة. شابكة يديها، جالت القاضي بأنظارها على المشهد المعروض أمامها. وبنغمةٍ حاولَت تايلور أن تجعلها تبدو كمحاكاة لواقع معتادٍ، دون أن تنجح تماماً، توجهت بكلامها إلى النائب العام. "بإمكانِك استدعاء شاهدِك الثاني يا سيدة شارب."

* * *

استوعب دافيد الانطباع الذي أوحت له به نظرتُه الأولى إلى إبراهيم جعفر. وبصوت يكاد لا يُسمع، تمتَمت هناءُ: "لا أعتقدُ أنني قد رأيتُ هذا الشابَّ مِن قبل."

كان متَّهمُها نحيلاً تماماً، وله وجنتان غائرتان، ولحيةٌ أنيقةٌ التشذيب، بحيث أنها لم تُهرِم وجهَه الذي لم تظهر فيه الغضون بعد، كما أنها لم تظهر أيضاً حول عينيه العسليتين الصافيتين. لقد بدا غريباً ومرتبكاً، وكأنه قد وصل لتوِّه إلى هذا المكان من كوكبٍ آخرَ بفعلِ خللٍ طارئٍ في زمان الكواكب، أو مكانِها. كما أنَّ شيئاً ما، فظيعٌ ومرعبٌ بدا وكأنه قد تسرَّب إلى عُمق نظراته: يأسٌ وقنوطٌ حتى من وجوده في الحياة بالذات، وشبحٌ السنوات والعقود التي عليه أن يصرفَها في انتظار لا شيء سوى الموت، فيما هو مبعَدٌ عن حياةٍ ستبقى منذ الآن، وحتى موته، غير موجودةٍ سوى في ذاكرته. لقد كان أرحم به، اعتقد دافيد، لو أن جعفر قد تمكن من تفجير نفسه إلى نثارٍ منثورٍ، ليس لمصلحة دافيد وهناء فحسب، بل لمصلحة جعفر بالذات.

بعد أسئلةٍ قليلةٍ استهلاليةٍ، سألت شارب جعفر أن يروي حكايةَ أخته. وما جرى لها عند حاجز التفتيش. حتى في هذه اللحظة، بدا صوتُه أجوفَ وفِصالياً. "إذن من أجل ذلك اخترتَ الانضمامَ إلى كتائب الأقصى؟" استفسرته شارب بلهجة محايدة.

"نعم." أجابها جعفر بفتورٍ. "أردت أن أنتقم لأختي."

"وكيف صرتَ متورِّطاً في عملية اغتيال عاموس بن آرون؟"

كان جعفر، كما لاحظَ دافيد، غير قادرٍ على إطالة النظر في أيٍّ كان، إذ يبدو أن مجرّد وجوده في هذا المكان، قد عمَّق شعوره بالخيبة والفشل. وبعد مدة قال، "في يوم من الأيام، جلس حسن بالقرب مني في الصف. كان يعلَمُ بالحادثة التي جرت مع أختي، وبما فعلَه اليهودُ بها. تحدثنا معاً لمدةٍ تقارب الساعة."

"تحدثتما عن ماذا؟"

"عن الصهاينة." وضعَ جعفر رِجلاً فوق أخرى. "قال إياد إننا لن نصبح أحراراً قبْلَ جلاء الجرَب الإسرائيلي عن جميع أراضينا، وقبْلَ عودتنا إلى وطننا، وطن أجدادنا وأسلافنا."

مِن قربِ دافيد، كانت هناء تتمعَّن في جعفرٍ بنظرةٍ من الارتباك. ولم يكن ليبدو عليها أن معرفتها عن جعفر تفوق معرفة دافيد به. "كيف استجبتَ إلى كلام حسن؟" وجهت شارب كلامها إلى الشاهد.

نظر جعفر صوبها نظرة خاطفة هي أقرب إلى الخجل. "من طريقة كلامه معي، عرفت أن إياد أكثر تشدُّداً في الدين مني. لكنني كنت موافقاً معه في ما قاله عن اليهود."

"هل بحثتما بشأن رئيس الوزراء بن آرون؟"

حدَّق جعفر بعيداً، كما لو أنه يستعيد الحدَّ الفاصل بين حياته الأولى وبين حياته الآن. "لقد أطلقتُ على بِن آرون صفة مجهِض مولود أختي. كما قلتُ إن الجنود الذين كانوا على حاجز التفتيش لم يكونوا سوى مساعديه في هذا العمل."

"وبعد ذلك،" سألَته شارب، "هل استمرَّت علاقتك مع إياد حسن؟"

هزَّ جعفر رأسه بالموافقة، وكان لا يزال يتكلم مخاطباً بقعةً من الأرض في وسط القاعة. "بعد انتهاء الصفوف، كنا نلتقي عادة على القهوة، ونتحدث عن الجهاد، وعن الاحتلال. لقد كنتُ حذراً معه، لأنني لم أكن أريد أن أكشف له أنني عضوٌ في كتائب الأقصى، أو أن أخون محمد ناصر، قائدي في جنين." تردَّد جعفر قليلاً، ثم قال بسرعة، "ولكن في أحد الأيام أخبرتُ إياد أنني في كلِّ مرةٍ أفكِّر فيها بما حصل لأختي، يفورُ دمي، وأتمنى الانتقام، علَّني أجعل اليهود في إسرائيل يذوقون مرارة المشاعر التي يجعلوننا نذوقها."

نظر دافيد نحو المحلَّفين. وعَبْرَ فجوة الخِبرةِ، والثقافة، بدا أنَّ بوب كلير، كان يتفحَّص الشاهد برعبٍ دفينٍ، وكأنه ينظر إلى عربيٍّ إرهابيٍّ في كابوسٍ أميركيٍّ مرعب. "وكيف استجاب حسن لكلامكَ؟" سألَته شارب.

"في البداية بقي حسن ساكتاً، لكنه قال لي بعد برهةٍ أنني سأصل إلى ما أشتهيه."

"هل شرح لك كيف يمكن أن يتحقق ذلك؟"

"ليس حتى ذلك الوقت. لكن عندما التقينا في المرة التالية، فإنه قد دعاني إلى شقته لتناول العشاء." تراجع جعفر في مقعده، متكلماً بلهجةٍ رتيبة لرجلٍ يتحدث إلى شريط تسجيل. "كنت أتوقع وجود أشخاص آخرين على العشاء. لكن إياد كان بمفرده. أطلعني على صورٍ كان قد التقطها للجدار الأمني الإسرائيلي، ولحواجز التفتيش العائدة إلى الجيش الإسرائيلي المقامة حول بيرزيت. وعندما قمت بالتعبير عن سخطي، جلس قبالتي ناظراً إليَّ عيناً لِعَينٍ سائلاً إيَّاي عمَّا إذا كنتُ جاهزاً لأن أصبح استشهادياً."

"وماذا قلتَ له؟"

عند عنق قميص جعفر، المفتوح، بدت رقبته ترتعش. "قلت له إنني جاهز."

توقفت شارب، عاكفةً على شاهدها. "هل أوضح لك حسن بعد ذلك ما هو قصده؟"

"قال إن محمد ناصر قد أوكل إليه أمر تنفيذ مهمة خاصة، وأنه يريد مني الاشتراك فيها. وأن دوري في هذه المهمة سيكون آخر عملٍ لي أقوم به في هذه الحياة."

"وكيف استجبت لذلك؟"

بدا جعفر، حسبما بدا لدافيد، قادراً على الالتفات إلى أيِّ صوبٍ كان، ما عدا صوبَ هناء. "شعرتُ بالخوف،" قال لها. "لكنني شعرت أيضاً بالفخر. لأنني كنت قد طلبتُ هكذا مهمّة من محمد ناصر، من قبل. وهكذا، فإنني قلت لإياد: "أخبرني بطلبات محمد ناصر."

وبينما هزَّت شارب برأسها مشجعة له على متابعة الحديث، رأى دافيد آدريل واشنطون تعضُّ على شفتها. "وماذا قال لكَ حسن؟" سألت شارب.

جرضَ جعفر بريقه، ثم نظر مباشرة نحو النائب العام. "قال لي، إنه قد تقرَّر أن الانتقام من الجيش الإسرائيلي لم يعد كافياً. وأن علينا أن نبدي بأسنا بقطع رأس الأفعى الصهيونية. أي بقتل الصهيوني الأوَّل."

شعر دافيد بقشعريرة في جسده. وبقربه تنهدت هناء. "وهل وافقتَه على ذلك؟" سألت شارب.

"في البداية، كان يملؤني العجب، 'كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً؟' سألتُ إياد. لكنه أجابني أن محمد قد أكّد له أن الخطة قد تمَّ وضعُها بإحكام، لكن تفاصيلها سوف تبقى مستورة، حتى عنه هو. وكل خطوة سيجري كشفها لنا في أوانها، قبل أن نقوم بتنفيذها مباشرة."

"هل قال حسن كيف سيتم الكشف عن أجزاء الخطة؟"

"سوف تكون هناك أقصى الاحتياطات العملانية السرية. كان عليَّ ألَّا أحاول الاتصال بمحمد ناصر، أو حتى أن أقوم بزيارة جنين. وأن جميع التعليمات سوف تصل إلى إياد دون سواه. وأنه سوف يقوم بتمرير التعليمات إليَّ."

"هل قال لك حسن من هو الشخص الذي سيعطيه تعليماته؟" وكما لو أنه في شبه غيبوبة، اكتفى جعفر بالإيماء بالموافقة. "نريد منك جواباً مسموعاً يا سيد جعفر."

"إننا نحتاج إلى شخص يكون قريباً من متناولنا،" قال جعفر ببطء، "ويكون باستطاعته أيضاً السفر إلى أميركا. شخص تكون علاقته بكتائب الأقصى غير معروفة."

"وهل أخبرك حسن من يكون هذا الشخص؟"

"سألتُه هذا السؤال عندما كنا في المكسيك. تردَّد إياد، ثم أقسمَ عليَّ أن أحافظ على السرِّية." نظر جعفر بين قدميه. "إنها البروفيسورة في جامعة بيرزيت، قال لي. امرأة تدعى هناء عارف."

ومع أنها يجب ألَّا تفاجأ بجوابه، فإن هناء بدت مذهولة. ورأى دافيد أن جلدَها بات باهتاً. "هل كنت تعرف البروفيسورة عارف؟" سألت شارب جعفر.

"كنت أعرفها بالشكل فقط."

"وهل أنت تستطيع أن تراها في هذا المكان الآن؟"

رمش جعفر عينيه. ثم وكما لم يجرؤ أن يفعل من قبل، نظر مباشرة نحو هناء مشيراً إليها، "تلك هي." قال بصوتٍ جافٍّ.

وإلى الجانب الآخر من دافيد، قبض آنجِل غاريغوس على قلمه الرصاص بِكلتا يديه. وكانت تايلور لا تزال ترقُبُ الشاهد. "لا يزال أمام السيد جعفر ساعات قبل أن ينتهي من أداء شهادته،" قالت موجِّهةً كلامها إلى شارب. "سوف نأخذ استراحة لمدة عشر دقائق."

حالما غادرت تايلور مقعدها، استدارت هناء نحو دافيد. "بالنسبة إلى جعفر، هذه هي الحقيقة."

هزَّ دافيد رأسه بالموافقة. ثم مستديراً، رأى صائب خالد مطرِقاً أمامه بكتفين متهدِّلتين.

* * *

ولمدة ساعة ثانية من الشهادة، قادت شارب الشاهد خلال كل خطوة قَدَرِيَّةٍ موصلةٍ إلى تنفيذ الاغتيال: مغادَرة القاتلَين لمدينة رام الله؛ رحلتهما الدائرية إلى المكسيك؛ دخولُهما غير المشروع إلى الولايات المتحدة؛ حصولُهما على هويتين مزوَّرتين؛ رحلتهما الطويلة براً إلى سان فرانسيسكو. ثم خطوة خطوة خلال الأيام التي صرفاها مستعملين الهواتف الخلوية قبل إتلافها؛ حيازتهما للشاحنة؛ المستوعبُ المليء بأدوات الاغتيال، بما في ذلك خريطةٌ تظهَرُ عليها خطة سير الموكب. قام جعفر بتسميع كلِّ هذه المعلومات بنبرةٍ كئيبةٍ؛ ما عدا اللحظة التي أتى الذكرُ فيها على قيامهما بفتح المستوعب، إذ عندها ظهرَ شيءٌ من الدَّهشة على وجه جعفرٍ، وعلى صوته. وكلُّ خطوةٍ، لاحظ دافيد، كانت تجرُّ المحلَّفين أعمق فأعمق إلى العالم الخاص بهذين القاتلين. وكانت كلُّ خطوةٍ، تسبقُها مكالمة هاتفية من هاتف خلوي، لا يشترك فيها سوى حسن وحده. ثم لا يلبث بعدها حسن أن يشير إلى الشخص المتحدث معه، بعبارة: "هي"، أو: "لها". وكلُّ إشارة من هذا النوع، كانت تتسبَّب في التفاتةٍ ما، مِن أحد المحلَّفين، نحو هناء.

وعندما قاربَت شعائر هذا القداس على الانتهاء، تقدمت شارب بالإثبات العيني العائد للادعاء، رقم 62، مناولةً إياه إلى دافيد، قبل تمريره إلى أيدي المحلَّفين. حدَّقت هناء بصمتٍ نحو قصاصة الورق التي تحمل رقم خط هاتفها الخلوي الخاص.

وعندما ناولت شارب هذه الورقة إلى جعفر، سألته، "هل تستطيع التعرُّف على الإثبات العيني رقم 62؟"

"نعم. حسن أحضر هذه الورقة معه إلى سان فرانسيسكو. ولقد رأيته يقوم برميها في سلَّة للمهملات في آخر فندق نزلنا فيه."

"هل قام بإخبارك ماذا يعني هذا الرقم؟"

"لقد كان هذا هو الرقم الدولي للهاتف الخلوي العائد للبروفيسورة عارف."

تململ آنجل غاريغوس. "عملٌ رائعٌ للوقوع تحت مراقبة وكالة الاستخبارات الوطنية،" همس في أذن دافيد. "من الذي بوسعه أن يكون بهذا الغباء؟"

استمرَّت هناء تراقب الشاهد، وتستمع إلى روايته عن الاغتيال.

لم يكن مجيء هذا، ليحتاج إلى وقت طويل. فمع أن رواية جعفر عن المؤامرة كانت موجزة. فإن الساعات الأخيرة قد كان لها وقعُها الخاص؛ فبينما كان الشاهد يروي، كان دافيد يستعيد صورة القاتلين وهما يلبسان ثياب رجال الشرطة قبل الفجر؛ ثم يقودان شاحنتهما المقفلة إلى براح فارغ جنوبي ماركت ستريت؛ ثم يُخرجان دراجتيهما من الشاحنة بعد طلوع الفجر؛ تاركين وقتاً يمتد بعد ذلك لبضع ساعاتٍ، بينما تحجب وجه كلٍّ منهما خوذةٌ ومنظارُ وقايةٍ، ثم أخذ كلٌّ منهما موقعه قرب ماركت ستريت، وتنث ستريت، منتظرين بعصبية وصول الموكب الذي سيعني وصولُه حتفهما بالذات. بدأ إياد حسن، حسب رواية جعفر، يصلي همساً باللغة العربية. أمَّا الكلام الذي همس به إلى جعفر فقد كان، "تماماً مثلما وعدَتْنَا."

"ثم رنَّ هاتف حسن، الخلوي. وبينما إياد يصغي،" قال جعفر لشارب، "صار مضطرباً. 'كانت هي على الخط'، قال لي. 'لقد غيَّروا خطة سير الصهيوني'."

رأى دافيد أن بوب كلير قد أصغى إلى هذه بنظرةٍ فضوليةٍ. "وماذا حصل بعد ذلك؟" سألت شارب.

"علينا أن ننتقل، قال إياد، وبسرعة. وهكذا، فإنني لحقتُ به إلى شارع فورث ستريت."

"هل أبقى هاتفه الخلويَّ معه؟"

"كلا. لقد ألقى به في برميلٍ للقمامة."

"وماذا فعلتما عند وصولكما إلى شارع فورث ستريت؟"

جرَّ جعفر نَفَساً عميقاً، بينما عيناه نصف مغمضتين. "ذهبنا قليلاً إلى ما بعد الحاجز الذي يسدُّ الطريق وانتظرنا. وبعد دقيقة واحدة، أو نحوها، أطلت الليموزين الأولى من وراء الزاوية."

اقتربت شارب إلى مسافة قريبة من الشاهد. وكانت لهجتها الهادئة تؤكِّد على أهميَّة اللحظة القادمة. "هل كان لديكما خطة يا سيد جعفر؟"

كان من المفترض بنا أن ننضمَّ إلى تشكيلة الدراجات إلى جانبي سيارة الليموزين العائدة إلى الصهيوني. كان على إياد أن يكون هو البادئ بالاقتراب من بابها الخلفي وتفجير شحنته. أمَّا أنا، فقد كان عليَّ أن أليه في ذلك." كان صوت جعفر أبحّ. "فحتى لو فشل إياد فإنني كنت سأقوم بتفجير الصهيوني."

"وهل تقيَّدت بهذه التعليمات؟" سألت شارب.

حملت إجابة جعفر مسحةً من الخجل. "لقد انضممت إلى الموكب، لكنني عندما لمحتُ وجه الصهيوني، لم أعد أستطيع الانتظار."

"وماذا فعلتَ؟"

"قمتُ بالضغط على مفتاح التفجير."

"وماذا حصل؟"

"لم يحصل أيُّ شيء. ثم أدار إياد دراجته نحو سيارة الليموزين."

"وماذا بعد ذلك؟"

نظر جعفر أمامه. "انفجر كل شيء،" قال بهدوء. "حتى الهواء نفسه تفجَّر."

زادت شارب منه اقتراباً. "هل كنت تتوقع أن تموت؟"

"في اللحظة التي قمت فيها بالضغط على مفتاح التفجير." توقف جعفر مستدعياً قدراً من الوقار. "لم أكن أتوقع أن أقف في هذا المكان. وأنا غير راضٍ الآن عن وجودي هنا."

عَلِم دافيد أن لا بد من وجود المزيد من الأسئلة، مثل اللحظة التي وجد جعفر نفسه فيها أنه لا يزال حياً يرزق؛ استرجاعه لعافيته؛ تعاملاته مع الحكومة.

لكن بقية الاستجواب لم تكن لتغيِّر شيئاً في الواقع؛ فإن إفادة جعفر أوقفت دعوى شارب على قدميها.

الفصل

8

كمحام سابق في النيابة العامة، كان دافيد وولف معروفاً بصلابته، وحتى بقسوته أثناء الاستجواب. ففي إحدى الدعاوى التي كان فيها المدعى عليه مروِّج أسهمٍ تجاريةٍ قام بمخادعة المتقاعدين عن تعويضات نهاية الخدمة العائدة لهم، فإن هذا المدعى عليه كان قد اضطر إلى طلب رفع الجلسة من أجل التمكن من تقيُّوء ما في معدته. لكن نصف نهارٍ من مراقبة شهادة إبراهيم جعفر، مضافاً إلى هذه الجريمة الملتهبة المنسوبة إلى هناء، قد كانا كفيلين بوضع دافيد على سكة استراتيجية مختلفة: محاولات صبورة لإحداث خروقٍ في رواية جعفر. في جوهر هذه الخطة كان يوجد إحساس مقلق بأن جعفر يقول الحقيقة، وأن الكاذب. لو كان هناك مِن كاذبٍ، هو إياد حسن.

فعلى منصة الشاهد، بدا جعفر حذراً ومتضائلاً. متوجِّهاً نحوه، توقف دافيد على مسافة مريحة منه، فيما يداه في جيبيه. فالسلوك الذي اختاره كان واقعياً وهادئاً.

"كما فهمتُ يا سيد جعفر، إنك لم تلتقِ هناء عارف أبداً."

أمالَ جعفر برأسه بسرعة. "هذا صحيح."

"كما إنك لم تتحدث معها أبداً بخصوص اغتيال عاموس بن آرون."

"صحيح."

"حتى إنك لا تعلم ما إذا كانت هي منتسبة إلى كتائب الأقصى."

نقَّل الشاهد ثِقلَ هامته مِن قدمٍ إلى أخرى. "أعرف هذا فقط، من خلال إياد حسن."

"ومن الصحيح أيضاً أن حسن هو السبب الوحيد الذي جعلك تصدِّق أن محمد ناصر، القائد السابق لكتائب الأقصى، هو مَن أرادكَ أن تقوم باغتيال عاموس بن آرون."

نظرة دفاعية زحفت إلى عيني جعفر. "وهذا أيضاً صحيح."

بهت دافيد قليلاً. "إذا قلت لك أن محمد ناصر يدَّعي أنه لا علاقة له في هذا

الاغتيال، وأنه قد أكّد أن هناء عارف لم تكن عضواً في كتائب الأقصى، فمن هو الذي تعتقد؟"

"أعترِض." غضبٌ لا يكاد يُكبح إلّا بشقِّ الأنفس جعل شارب تنتصب كالرمح من مقعدها. "ليس هنالك من أساسٍ لهذا السؤال، ولا يمكن أن يكون له أساس. فمحمد ناصر قد مات."

"لم يكن ناصر قد مات بعد، عندما التقيتُ به،" قال دافيد مخاطباً تايلور بسرعة. "وأنا أسبرُ الأسس التي يقوم عليها اتهام هذا الشاهد للسيدة عارف."

"بفرضية لا أساس لها ولا يمكن البرهان عليها ـ "

"كفى،" زجرتهما القاضي. "تقدَّما إليَّ كلاكما، لو سمحتما."

فعَلا مثلما طُلب إليهما. "حسناً،" قالت تايلور مخاطبةً شارب بصوتٍ خفيض. "أوضحي وجهة نظركِ هنا. مع أنني أعتقد أنني داريةٌ بها."

"إنني متأكدة من أنك تعرفينها يا صاحبة الاحترام. ففي استجواباته في الأيام الأخيرة، استطاع السيد وولف، بشكلٍ مؤثرٍ، أن يخبر المحلّفين أن ثلاثة شهودٍ محتمَلين في هذه القضية، قد جرى قتلُهم. وهذا السؤال الأخير مبنيٌّ على العبارة التي يشهد فيها لنفسه. فهي ليست فقط غير قابلة مطلقاً للبرهان، بل هي أيضاً مجرَّد تسامع."

"وكذلك هي أيضاً شهادة جعفر بكاملها ضد هناء عارف." قاطعها دافيد.

"يا سيد وولف،" قالت القاضي بحدَّة. "كلانا عارفٌ بما أنت هادفٌ إليه. لقد قمتَ بطرح سؤالٍ غير مناسب، سؤال كان لا بدَّ للسيدة شارب من الاعتراض عليه، ثم إنك ما لبثتَ أن أتبعت ذلك بعبارة لا مسوِّغ لها، قمتَ بالتعبير عنها وكأنها برهان. كرّر هذا الأمر مرة أخرى: وسوف تجد نفسك تواجه محاكمة مغايرة للقانون."

خفض دافيد رأسه متظاهراً بتوبةٍ وندمٍ لم يشعر بهما قطُّ. "الأمر عائدٌ لكِ،" قالت القاضي مخاطبة شارب. "سوف أكون مسرورة لإعلام المحلَّفين بوجوب تجاهُلِ عباراتِ السيد وولف عن محمد ناصر."

رشقت شارب دافيد، بنظرة حاقدة. "شكراً لك يا صاحبة الاحترام، لكنني أخشى أن تكرار العبارات لن يخدم سوى استراتيجيته."

"حسناً،" قالت تايلور لدافيد. "لا أريد المزيد من هذا."

"شكراً لكِ، يا صاحبة الاحترام." مكتفياً، عاد دافيد إلى مكانه أمام الشاهد. "لنعدْ إلى خطة الاغتيال نفسها،" قال لجعفر. "هل قمتَ ببحثِ هذا الأمر مع أيٍّ كان، عدا حسن؟"

بدا جعفر وكأنه يحدودب ويتضاءل. "لقد منعني إياد من ذلك ـ قال إن هذه هي أوامر محمد. لهذا، فإنني لم أخبر بها أحداً."

"هل تعرف ما إذا كان حسن يكذب عليك في ذلك؟"

رمشَت عينا جعفر. "لقد صدَّقتُه..."

"لماذا؟"

"لأنه أخبرني."

"لنلخِّص الموضوع إذن: كلّ ما عرفتَه عن خطة اغتيال بن آرون كان هو فقط ما أخبرك به إياد حسن."

انهمك جعفر بياقة قميصه. "هذا صحيح."

لوى دافيد رقبته. "ذكرتَ في شهادتك هذا الصباح، أنك في حديثٍ سابقٍ لكَ مع محمد ناصر، كنت قد سألتَه أنك تريد أن تصبح استشهادياً. هل قلتَ له ماذا تريد أن تفعل بالتحديد؟"

"قلت له إنني أريد أن أموت في عملية استشهادية في الدولة المزعومة التي تدعى إسرائيل."

"وكيف ردَّ عليك محمد ناصر؟"

عَبْرَ قاعة المحكمة، رأى دافيد شارب مغتاظة بالغريزة بسبب الإشارة إلى ناصر. لكن هذا السؤال ـ بخلاف السابق له، الذي اعترضت عليه ـ كان له أساسٌ في شهادة جعفر ذاتها. أمَّا تأثيره على المحلفين فكان صريحاً. وبسبب خوفه وتوجُّسه، أيقن دافيد أن ما جرى بينه وبين ناصر، من حديث عن قيامِ الأخير بتوبيخ جعفر، كان صحيحاً. هرش الشاهد صدغيه بأصابعه وكأنه يكشح صداعاً. "إن ما قاله محمد لي،" أجاب أخيراً، "كان أنه من الأفضل لنا أن نقتل جنود الجيش الإسرائيلي الذين يقومون باحتلال أرضنا، من أن نقوم بقتل اليهود المدنيين في الأراضي التي يعتقدون أنها عائدة لهم. وأنه من الأنفع لي أن أُبقي على حياتي قدر ما أستطيع."

"هل أنا مصيبٌ في اعتقادي أن محمد ناصر ـ ومعه كتائب الأقصى ـ كان راغباً في القبول بدولة فلسطينية مستقلة تعيش في سلام مع إسرائيل؟"

"مع مراعاة بعض الشروط. مثل إنهاء الاستيطان، ورسم حدود عادلة، والنظر في مسألة الظلم الفادح الذي لحق بلاجئينا."

"أليس هذا هو ما أراده بن آرون؟"

"هذا ما كان يقوله،" أجاب جعفر بحرارة.

"عدا عن حسن، هل لديك أيُّ سبب يدعوك إلى الاعتقاد أن محمد ناصر، قائدك في كتائب الأقصى، قد غيَّر رأيه بشأن فائدة التفجيرات الانتحارية؟"

"لا."

"أو عمَّا إذا كان ينبغي لك أن تصبح استشهادياً؟"

"كلا."

في دَكّة المحلَّفين، رفع بوب كلير حاجبيه، وكأنه يدوِّن ملحوظة عقلية.

منذ لحظة قسم اليمين، عرف دافيد أن كلير مفكِّرٌ اتِّساقي - أي أنه يحب أن يكون للأشياء سياق ومعنى. وهنا، يبدو أنه قد فقد هذا السياق. مستجمعاً شجاعته، سأل دافيد جعفر، "هل من الممكن أن إياد حسن، العارف بحادثة أختك، قد أقدم على استغلال حقدك على بن آرون لكي يشركك في عملية اغتيالٍ خطَّطَت لها جهة هي غير كتائب شهداء الأقصى؟"

"أعترِض،" صاحت شارب. "هذا أيضاً سؤال افتراضي، لا يستند إلى أيِّ أساس أو دليل."

رافعة يدها في طلب الهدوء، استدارت القاضي تايلور نحو دافيد، "يا سيد وولف؟"

"ليس سؤالي مشروعاً فحسب،" قال دافيد بثبات، "بل هو يذهب إلى جانب جوهري آخر من هذه القضية: وهو ما إذا كان سبب هذه المؤامرة كما وصفها إبراهيم جعفر - وكما وصفتها النيابة أيضاً - هي حقيقة أم خيال."

"أفهمُ ذلك،" أجابت القاضي. "لربما أنك تستطيع إعادة صياغة السؤال بطريقة أخرى."

"شكراً لك يا صاحبة الاحترام." مستديراً من جديد نحو جعفر، سأله دافيد، "هل تعرف شخصياً من الذي وضع مخطط الاغتيال؟"

"كلا."

"إذن، إن حسن قد يكون يعمل لمصلحة أيٍّ كان، صحيح؟"

للحظة، بدا جعفر دائخاً، وكأن عزاءه الأخير في أن يكون قانعاً خلال الأيام والليالي بأنه قد قام بتنفيذ مهمَّةٍ موافَقٍ عليها من محمد ناصر. وها هو الآن يشعر أن هذا العزاء يُسرق منه. وبهدوء قال، "لا أستطيع أن أعلم."

"في هذا الصباح، كنتَ قد تكلمتَ عن السِّرِّيَّة العملانية، وعن ضرورة الإبقاء على

جميع التفاصيل سريَّة. ومع كل ذلك، فإن حسن قد أطلعك على أن مدبِّرته هي هناء عارف. هل يدعوك هذا إلى العجب والتساؤل: لماذا حدث هذا في حالة السيدة عارف، حيث قام حسن بخرقِ السريَّة العملانية؟"

"كنت أنا من سأله،" أجاب جعفر بتأفف. "وكان إياد قد توقع أن يموت كلانا."

كان هذا هو الجواب الذي يرجوه دافيد. "وهل أعطاك حسن اسم أيٍّ شخصٍ آخر متورِّط؟"

"فقط اسم محمد ناصر." أضاف جعفر على الفور، "في ما يختصُّ بهناء عارف، فمن المؤكد أن إياد قد قال لي ما هو حقيقة. فهو كان يحمل رقم هاتفها الخلوي على رقعة من الورق."

"وكيف عرفت أن هذا الرقم يعود إلى السيدة عارف؟"

تردَّد جعفر. "لقد أخبرني إياد بذلك. لكن هذا صحيح، أليس كذلك؟ فإياد قام بالاتصال بها على ذلك الرقم."

ألقى دافيد يديه على خصره. "كيف عرفتَ ذلك يا سيد جعفر؟"

نظر جعفر نحو شارب. "عرفتُ ذلك من النائب العام. لقد كان هذا بارزاً على هاتف إياد، أليس كذلك؟"

ابتسم دافيد. "المحامون، أمثال السيدة شارب، يكونون على أحرٍّ من الجمر لإقامة الدليل، وهم لا يصلحون شهوداً. استناداً على معرفتك الشخصية، هل قام السيد حسن بالاتصال مع رقم الهاتف الخلوي المدوَّن على الورقة؟"

هزَّ جعفر كتفيه. "لا أستطيع أن أعرف."

"حتى وإن كان حسن قد اتصل بذلك الرقم، فإنك لا تستطيع أن تعرف من الذي قام بالإجابة - هذا لو أن أحداً قد أجاب فعلاً -."

"كلا لا أستطيع."

"هل تعرف من الذي أعطى حسن تلك القطعة من الورق؟"

صمت جعفر ثانية. "قال إياد إنها أعطيت إليه من البروفسورة عارف."

"لقد عدنا إلى حسن من جديد،" قال دافيد بلهجة أكثر جفافاً. "هل تعرف يا سيد جعفر من هو الذي أعطى حسن تلك القطعة من الورق المدوّن عليها رقم الهاتف الخلوي للسيدة عارف؟"

"كلا."

"أنت أيضاً شهدتَ أن حسن قد رمى قبل تنفيذ الاغتيال، هاتفه الخلوي في سلة مهملات. هل تعرف لماذا؟"

"لقد كان دائماً يتخلص من هاتفه كل يومٍ أو يومين. لم يكن يُرِيدُ أن يتم تتبع مكالماتنا الهاتفية."

"حتى قبل عشرين دقيقة من موته؟ وانطلاقاً من معرفتنا أن إياد حسن قد تناثر جسده إلى قطعٍ صغيرة، ماذا كنت تتوقع أن يحدث لهاتفه الخلوي لو بقي معه؟"

طوى جعفر ذراعيه. "لربما كان البوليس سيعترضنا. من الذي يعلم ماذا كان يمكن أن يحدث؟"

لقد كان الجواب شديد التأثير. تردَّد دافيد قليلاً قبل أن يسأل، "عندما رمى حسن الهاتف الخلوي في برميلٍ للنفايات. لقد كنتما معاً في شارع ماركت ستريت، صحيح؟"

"نعم."

"وكان ماركت ستريت محاطاً من الجانبين بالأناس الذين يمكنهم رؤيته وهو يقوم بذلك."

"أعتقد أن هذا صحيح، نعم."

توقف دافيد. "ذاك كان هو الهاتف الخلوي، الذي تلقَّى عليه حسن مكالمة تُعلمه أن طريق موكب بن آرون قد تبدَّل، أليس كذلك؟"

"صحيح."

"هل تعرف ما هو ذلك الرقم الذي استُعمِل لإجراء تلك المكالمة؟"

"كلا." تردد جعفر ثم سأل، "ولكن أليس هاتف إياد الخلوي يُظهر هذا الرقم أيضاً؟"

"ماذا سيُظهر بالضبط؟"

بدا جعفر منذهلاً، كما لو أنه لا يستطيع أن يصدِّق أن يكون دافيد إلى هذه الدرجة من برودة الدماغ. "رقم هاتفٍ خلوي،" أجاب.

"رقم دولي؟ أم رقم محلي، له خدمات تقتصر على الولايات المتحدة؟"

"محلي. لقد أخبرني حسن أن جميع الهواتف التي تم استعمالها كانت ذات أرقام محلية. بسبب الرغبة في اجتناب الرصد الدولي للمكالمات عبر الولايات المتحدة."

"ومع هذا، فإن الرقم المسجل على قطعة الورق، المفترَض أنه يعود إلى السيدة عارف، هو رقمٌ يحمل مفتاح إسرائيل، ومفتاح الضفة الغربية."

وضَعَ جعفر أصابع يديه لِصقاً لبعضٍ. "صحيح، هذا ما رأيته."

"هل تعرف لماذا يقدِم حسن على طلب رقم هاتف خلوي مسجَّل باسم السيدة عارف، وتتلقى عادة فاتورة شهرية عنه من شركة خدمات هاتفية فلسطينية."

"كلا لا أعرف السبب."

ابتسم دافيد قليلاً. "ألا يذهلك هذا الخرقُ للسريَّة العملانية؟"

ومرة جديدة تشنَّجت شارب، في ما يبدو أنها تفتش عن سببٍ للاعتراض، لكنها لم تكن لتجده متوفراً، أمَّا المحلفون، فمن الواضح أنهم كانوا مهتمين لسماع إجابة جعفر. "لست أدري،" قال بلهجة ليس لها وقعٌ.

ولجزء من الثانية، تمنى دافيد لو يستطيع أن يلمح تعبير صائب خالد. "لنرجع الآن قليلاً إلى الوراء،" قال متابعاً. "في هذا الصباح، قد شرحتَ لنا دخولكما إلى مستودَعِ حاوياتٍ أثناء الليل، وعن عثوركما على بذلات بوليس، ومتفجرات، ودراجتين، وخريطة تظهر عليها خطة سير موكب بن آرون. هل لديك أيّ فكرة عن واضع تلك الأشياء هناك؟"

"كلا."

"أو عن الذي قد يكون أمر بوضعها هناك؟"

"كلا."

"من الذي قام بتوصيل الأسلاك في الدراجتين؟"

"حسن."

"هل هناك من سببٍ منعك من توصيل أسلاك دراجتك؟"

هزَّ جعفر كتفيه بلا حيلة. "لم أكن أعرف كيف."

"هل قمتَ بفحص الأسلاك كي تتأكد أن حسن قد قام بتوصيلها بشكل جيد؟"

"كلا. لأنني ما كنت لأعرف ماذا أفحص."

"إذن أنت لم تعرف متى، ولا كيف، صار السلك مفصولاً؟"

"كلا."

صمت دافيد برهة ليكون للصمت تأثيره. "لكنك كنت قد عرفت أنه ليس موصولاً بسبب عدم حصول الانفجار. فأنت قد قمت بالضغط على مفتاح التفجير قبل أن يفعل ذلك حسن؟"

"صحيح."

"وهذا كان مخالفاً لأوامر حسن، صحيح؟"

نأى جعفر بأنظاره. "صحيح."

"كانت أوامر حسن تقضي بتركه يتقدم عليك في التفجير."

"صحيح."

"ولكن في الحقيقة، ألم يكن ذلك هو ما حصل؟ فعندما فشلَت دراجتُك في الانفجار، فإنك بقيتَ في المؤخرة. ثم اندفع حسن نحو سيارة بن آرون وأشعل شحنته من المتفجرات. تماماً مثلما كان قد وضع خطته."

"أعتقدُ أن ذلك صحيح، نعم"

"إذن أنت لا تزال على قيد الحياة بسبب بقائك في الخلف مثلما أمَرَك حسن، ولأن دراجتك - التي قام حسن بتوصيل أسلاكها بنفسه - فشلَت في أن تنفجر."

"أعترِض،" قالت شارب بسرعة. "هذا يدعو إلى التخمين. لن يستطيع الشاهد أن يعرف ماذا كان من الممكن أن يحدث."

"حقيقة؟" ردَّ عليها دافيد بسرعة. "وفقاً للخبير الذي قدَّمه الادعاء، فإن السيد أليغريا يقول: لو انفجرت دراجة السيد جعفر لما كان لا يزال باقياً بيننا. وقد بيَّن السيد أليغريا أيضاً: أن الشاهد كان لا بد من أن يموت لو كان قد اقترب من الليموزين بالقدر الذي فعله إياد حسن."

تقدَّمت شارب إلى الأمام. "لقد نال السيد وولف دوره مع العميل الخاص أليغريا يا صاحبة الاحترام. ووفقاً لتصريحه الخاص، فإن السيد جعفر ليس خبيراً في المتفجرات."

بسرعة، فكرت تايلور في هذا. "إنني سأقبل الاعتراض يا سيد وولف. هل لديك أسئلة أخرى في هذا الموضوع؟"

"نعم لديَّ." مستديراً نحو الشاهد، سأل دافيد، "لقد كنتَ قريباً من الانفجار. لماذا تعتقد أنك نجوت؟"

تردَّد جعفر. "لأنني لم أكن قريباً من السيارة عندما هاجمها إياد."

"وكان هذا متَّفِقاً مع تعليماته، صحيح؟"

مُخرِجاً منديلاً من جيبه، جفف جعفر العرق عن جبينه. "نعم."

"حسناً، منذ هنيهة كنتَ قد ذكرتَ إمكانية أن يُلقى القبض عليك وعلى حسن، لا أن تُقتلا. هل حصل أن تناقشتما في ما قد يحصل لك لو أنك بقيت حياً؟"

"في إحدى الليالي، في المكسيك، تحدث إياد عن هذا الأمر."

"ماذا قال لك؟"

"إن الأميركيين سيقومون بتسليمنا إلى اليهود لكي يقوموا بتعذيبنا."

انحنت شارب إلى الأمام؛ ومن ملامحها أحسَّ دافيد أن جعفر لم يكن قد كشف لها عن هذا الأمر. "هل قمتما بمناقشة أيِّ احتمالٍ آخر؟" سأل دافيد.

أغلق جعفر عينيه. "قال إياد إنهم قد يرسلوننا إلى سجن عائدٍ إلى السي. آي. إيه. في أوروبا. وهناك يستطيعون عمل أي شيء يريدونه بنا ـ كنزع أظافرنا، وربط أسلاك كهربائية إلى خصياتنا."

عرف دافيد أن هذه الرواية لا بد أن تكون من نسج الخيال الجامح، لأن أيَّ اشتراكٍ في هذا الاغتيال سيجعل من كل من حسن وجعفر شخصية وطنية مشهورة يصعب كتمان أمر سوء معاملتها، فلا يبقى ذلك ممكناً. لكن بالنسبة إلى شخصٍ بسيطٍ مثل جعفر، فإن هذه الرواية يسهل تصديقها لأنها قد تبدو له حقيقية تماماً. "هل أن ما أخبرك به حسن عن التعذيب قد أثَّر على قرارك بالتعاون مع الادِّعاء في توريط هناء عارف؟"

"أعترِض،" قالت شارب. "إن الحكومة لم تقم بمثل هذه التهديدات، إن كلَّ ما قلناه للشاهد هو أن شهادته ـ إذا وثقنا أنها صحيحة ـ ستخوله لقيامنا بالتفكير في أمر أن نطلب له عقوبة الإعدام أم نكتفي فقط بطلب عقوبة السجن المؤبد."

"أنا أفهم ذلك،" قال دافيد لتايلور بهدوء. "لقد كان سؤالي ما إذا كان السيد جعفر مدفوعاً إلى قبول الصفقة لأنه كان يخشى التعرض إلى التعذيب."

هازة رأسها، استدارت القاضي نحو جعفر. "عندما دخلتَ في اتفاقك مع النائب العام،" سألَته، "هل فعلتَ ذلك ـ كلياً أو جزئياً ـ لأنك كنت تخشى أن تتعرض للتعذيب، مثلما شرح لك السيد حسن؟ على يد إما الإسرائيليين أو السي. آي. إيه.؟"

طوَّح جعفر برأسه. "نعم لقد كنت خائفاً من التعذيب أكثر من خوفي من الإعدام."

هازَّة برأسها، نظرت القاضي من جديد نحو دافيد. "سيد وولف؟"

نظر دافيد نحو جعفر. وكان جعفر يجلس على كرسيِّه قلِقاً متقلقلاً ولا يكاد يرى المحلَّفون منه سوى قبة رأسه. بدا وكأنه قطعة من حطام بشريٍّ. فهو معروض أمام الدنيا كساذجٍ محتملٍ مكشوف الضعف والمخاوف، وهو لا يزالُ جاهلاً بأمر القوى التي قد تقوم بتسليمه إلى أقداره. وللحظة، شعر دافيد بالتعاطف معه. لكن هذه هي الصورة التي أراد أن يقوم المحلفون بالاحتفاظ بها عن جعفر.

"شكراً لكِ،" قال للقاضي تايلور. "لم يعد لديّ مزيد من الأسئلة."

* * *

أثناء رفعِ الجلسة للاستراحة، يبدو أن شارب استطاعت لملمة شتات شخصية جعفر بما يكفي لإعادته إلى كرسي الشهادة لأسئلة إضافية. "في ما يتعلق بالمؤامرة نفسها،" سألته، "هل قام إياد حسن مرة بإخبارك بشيء غير صحيح؟"

هزَّ جعفر رأسه. "كلا. كل ما أخبرني به قد تكشَّف عن أنه مطابق لقوله."

"هل قام أيُّ شخصٍ من العاملين مع الادِّعاء بذكرِ اسم هناء عارف على مسمعك قبل أن تقوم أنت بذكر اسمها إلينا؟"

"كلا. لم يحدث ذلك أبداً."

"هل سبق لنا مرة أن قمنا بتهديدك بالتعذيب؟"

"كلا."

"أو بأن نعاملك معاملة غير إنسانية؟"

"كلا."

"بعد أن أعطاك حسن اسم السيدة عارف، هل استمر في الإشارة إلى الشخص الذي يُصدِر إليه التعليمات بعبارة "هي"، أو بعبارة "لها"؟"

"صحيح."

"بينما أنت جالسٌ هنا الآن، ألا زلت تعتقد أن كلَّ ما أخبرك به إياد حسن لا يزال صحيحاً؟"

استجمع جعفر كل ما تبقى لديه من عزَّة نفس، كان صوته لا يزال خائراً، لكنه أثبتُ من ذي قبل. "أجل أعتقد ذلك."

وعندما ازدادت شارب اقتراباً من الشاهد، تبعتها جميع أعين المحلَّفين. متكلمة بهدوء ودقَّة، سألت جعفر، "هل لديك معرفة بأيِّ سبب يدعو حسن إلى الكذب عليك بخصوص تورُّط هناء عارف؟"

"لا أعرف سبباً واحداً لذلك. لا من أقواله، ولا من أفعاله."

إن المشكلة التي تواجهها هناء، عرف دافيد، هو السؤالين الكبيرين المعلَّقين دون جواب: لماذا؟ ومن هو؟ وبرأس خفيضٍ، فركت هناء عينيها وهي تنظر نحو جعفر.

الفصل

9

بجفنيه الثقيلين، وأنفه المعقوف، وفمه الصغير الأزمّ: بدا العميل الخاص فيكتور فاليس، شاهِدُ شارب الأخير ضد هناء عارف، منكّراً دافيد بسلحفاة عجوز تتربص بذبابة لالتهامها. وما كانت الذبابة سوى كنايةٍ عن هناء. كان دور فاليس يهدف نحو إرساء دعوى الادّعاء عن طريق التأكيد لأذهان المحلّفين أن دفاعها لا يستند إلى شيء مما يصلح تقديمه كدليلٍ أمام المحكمة. وفي بضع دقائق كان قد حدَّد خيوط رواية شارب: اتهام جعفر لهناء؛ قطعة الورق التي تحمل بصمات هناء ورقم هاتفها الخلوي؛ مكالمة حسن الهاتفية عند منتصف الليل إلى رقم هاتف هناء الخلوي. بعدها قرَنَ استقالة هناء من فريق التفاوض الفلسطيني بإداناتها الناريَّة لعاموس بن آرون. ثم خطوة إثر خطوة مرَّت شارب مع فاليس على كل قطعة من الدليل.

"في ما يتعلق بقصاصة الورق،" سألته شارب. "هل قام مكتب التحقيقات الفيديرالي بإجراء تحليلاتٍ لمعرفة مصدرها؟"

هزَّ فاليس برأسه إيجاباً. "نعم، لقد فعلنا ذلك. فالورق قد صُنع في رام الله، وهو النوع الذي يستعمله كل بروفيسور في جامعة بيرزيت، بما فيهم السيدة عارف."

"هل تحمل قصاصة الورق أيَّ بصمات أصابع عدا عن البصمات العائدة إلى السيدة عارف؟"

"بصمات إياد حسن فقط."

رأى دافيد، بوب كلير يهزُّ برأسه كأنه يخاطب نفسه. كان سلوك فاليس هادئاً، حيادياً، ومنهجياً، خططت له شارب كي يروق لمفكرٍ نيِّقٍ مثل بوب كلير. "كيف تربط بين الرقم الهاتفي وبين السيدة عارف؟" سألته شارب.

"بعد أن قمنا باعتقالها، صادرنا هاتفها الخلوي. فطابق رقمه رقم الهاتف المطبوع على الورقة."

"وعندما اعترف السيد جعفر، ما هي الخطوات التي اتخذها مكتب التحقيقات الفيديرالي من أجل التثبت من صدق أقواله؟"

"بداية، جعلنا جعفر يمرُّ على كلِّ عنصرٍ من عناصر اعترافه. لقد وجدنا الشاحنة التي استعملها القاتلان. كما وجدنا مستودع الحاويات، وقمنا برفعِ البصمات العائدة إلى كلٍّ من حسن وجعفر. ثم تتبعنا خطواتهما منذ اليوم الأول لعبورهما الحدود من جهة المكسيك - فواتير الفنادق، الوجبات، أجور السيارات المستأجرة - وكلها مدفوعة بواسطة بطاقة ائتمان "فيزا كارد" كان حسن قد حاز عليها في تاكساس. ثم قمنا بإعادة استجواب جعفر لملء الثغرات."

"وماذا استنتجتم؟"

"استنتجنا أن جعفر كان صادقاً تماماً،" أجاب فاليس بثقة،" إذ لم يحدث مرة واحدة أن وجدنا تناقضاً بين رواية جعفر وبين الأدلة الحسية."

كانت هناء تبدو ساكنة تماماً بجانب دافيد، أمَّا بداخلها، فقد كان يعتمل التوتر. "هل قمتم بالتحري عن تحركات السيدة عارف؟" سألته شارب.

"نعم، كان ذلك ضرورياً من أجل اتهامها،" أجاب فاليس. "فوفقاً لاعتراف جعفر، كان إياد حسن قد تلقى مكالمة على هاتفه الخلوي تُعلمه أن طريق الموكب قد تغير من شارع تنث ستريت إلى شارع فورث ستريت، من شخص أشار إليه حسن بقوله 'هي'، قبيل الانفجار بعشر دقائق تقريباً. وقد تطابق هذا مع بيانات مكالمة ظهرت على ذاكرة الهاتف الخلوي لحسن، تشير إلى أنها واردة من هاتف يحمل رقم مفتاح منطقة سان فرانسيسكو. لهذا، فإنه بات مهماً اكتشاف تحركات السيدة عارف في الفترة الزمنية التي حصلت فيها هذه المكالمة."

"وما الذي توصلتم إليه؟"

"وفقاً لروايتها الشخصية، فإنها قبيل ابتداء رئيس الوزراء بتقديم خطابه، كانت قد غادرت غرفتها في الفندق، مخبرة زوجها وابنتها أنها ترغب في القيام بالتسوُّق بمفردها. وقد بيَّنت صورة فيديو عائدة إلى كاميرا أمنية في بهو الفندق، مغادرتها عند الساعة الحادية عشرة والدقيقة السابعة والخمسين قبل الظهر، كما سجلت عودتها إلى الفندق عند الساعة الواحدة والدقيقة الواحدة والثلاثين بعد الظهر." توقف فاليس، مستديراً نحو المحلفين بينما هو يروي الوقائع من ذاكرته. "لقد تلقَّى حسن المكالمة المتعلقة بتغيير مسار الطريق قبل تسع دقائق من الانفجار، أي عند الساعة الواحدة والدقيقة الثانية والعشرين. ونفَّذ القاتلان هجومهما بعد ذلك بإحدى عشرة دقيقة.

"لقد فشلت السيدة عارف في إعطاء جدولٍ محدَّد بتحركاتها خلال تلك الفترة

بكاملها. كما أنها لم تقم بشراء أيِّ شيء، ولم يقم أيُّ موظف في أيِّ محلٍّ تجاري في محلة يونيون سكوير من تذكُّر رؤيتها، أو معرفة أيِّ شيء عنها."

"هل قمتم بسؤال السيدة عارف عمَّا كانت تفعل؟"

"نعم، كان ذلك في شريطٍ صوتي مسجَّل."

برشاقة، قدمت شارب الشريط المذكور كدليل. متذكراً إجابات هناء الغامضة، عكف دافيد على نفسه. ضغطت شارب على زرِّ آلة التسجيل، فانطلق صوت فاليس في أرجاء القاعة. "أين كنتِ أثناء خطاب بن آرون؟"

ورغم ما كانت قد تلقته سابقاً من تلقينٍ من دافيد، فإن هناء قد تردَّدت قبل الإجابة. وكانت نبرة جوابها باردة، وهازئة. "كنت أتجوَّل بمفردي."

"أين؟"

"حول منطقة يونيون سكوير."

"لمَ لم تقومي بمشاهدة الخطاب مع زوجك وابنتك؟"

"لم أشعر أنني راغبة في ذلك،" جاء جواب هناء بالصوت البارد نفسه. "لقد سمعتُ ما فيه الكفاية من الخطابات."

"هل أخبرتِ زوجك أنك ذاهبة للتسوُّق؟"

"نعم."

"وهل قمتِ بالتسوُّق فعلاً؟"

"كلا. لم أشعر أنني كنت راغبة في التسوُّق، أيضاً."

منذ أن حصل ذلك الاستجواب، فكَّر دافيد، أنه قد تعلَّم أن ثمة طريقة أخرى لقراءة هذه الأجوبة: طريقة تقرؤها على أساس أنها استجابات امرأة محبطة الروح، متعبة من زواجها، متشائمة حول مستقبلها وحول مستقبل منيرة. إجابات امرأة كانت تحتاج إلى استراحة من عائلتها. لكن توقيت تلك الاستراحة كان رهيباً. كما أن صوت هناء، كما التقطته آلة التسجيل، كان أقرب إلى اليأس والقنوط منه إلى اللامبالاة.

"هل دخلتِ أيَّ محلٍّ تجاري؟" سألها فاليس.

"كلا. لا أنكر أنني قد فعلت ذلك."

"وماذا فعلتِ إذن؟"

"كما قلت لك،" أجابت هناء، "لقد تجولتُ. ولست أنكر بشكلٍ محدَّدٍ إلى أين." على الشريط، كان كلام فاليس مشذَّباً. "هل تكلمت مع أحد؟"

"لا، على الأقل لستُ أتذكر."

وفي قاعة المحكمة، حدَّقت هناء في الطاولة، مصغية إلى صدى كلماتها الخاصة. لقد بدت الآن عارفة ما فهمه دافيد جيداً: أن أجوبتها هذه يمكن أن تقع على شخصٍ ما، أراد أن يرسِل، أو أن يتلقى رسائل هاتفية خلوية دون أن يكون في مجال سمعِ أحد. أوقفت شارب الشريط، لتعود إلى مواجهة فاليس.

"هل تمكن مكتب التحقيقات الفيديرالي مرَّة،" سألته شارب، "أن يوالف معاً رواية أكثر دقَّة عن تحركات السيدة عارف، من الرواية التي قدمتها لنا؟"

"كلا." نظر فاليس من جديد نحو المحلفين. "لقد بدا الأمر، وكأن هناء عارف قد اختفت من الوجود لمدة ساعةٍ وثلاثٍ وأربعين دقيقة." ومع أن صوت فاليس بقي هادئاً، إلَّا أنه حمل في طياته نبرة الإدانة. "وحتى لحظة وقوع الاغتيال، كانت السيدة عارف قد أمضت في سان فرانسيسكو أكثر بقليل من أربعٍ وتسعين ساعة، ووفقاً لروايتها المدعومة بإيصالات بطاقة الائتمان، والكاميرا الأمنية في مدخل الفندق، فإن هذه الفترة كانت هي الوحيدة التي لم تكن فيها على مقربة من زوجها أو ابنتها."

بأسلوبٍ رصينٍ، نظرت القاضي تايلور نحو هناء؛ ومن بين المحلفين، آرديل واشنطن رفعت حاجبيها. "هل حاولتَ أن تفترض،" سألته شارب، "ما إذا كان شخصٌ آخرُ قد يكون هو المدبِّر؟"

"نعم، لقد فعلنا ذلك." أجاب فاليس بحزم. "فنحن لم نستخرج السيدة عارف من قبعة ساحر. كما أننا لم نتجاهل أيَّة احتمالاتٍ أخرى. لكننا لم نعثر على أيِّ دليلٍ يناقض عبارات إياد حسن التي أدلى بها إلى إبراهيم جعفر، أو يناقض اعترافات جعفر ذاتها."

هزت شارب رأسها علامة الاكتفاء. "شكراً لك،" قالت. "ليس عندي مزيداً من الأسئلة." وعندما لمح دافيد صائب - بغريزة لم يستطع لها كبحاً - كانت عينا صائب مثبتتان عليه، وكانت نظرته باردة واتهامية. لكن أتكون تلك النظرة انعكاساً لاعتقاد صائب أن دافيد قد قصَّر في الدفاع عن زوجته، أو أن تكون ناتجة عن شكِّه في أن دافيد كان يرجو لو يستطيع تقديمه كبديلٍ عن هناء، فإن دافيد لم يكن ليستطيع الجزم في حقيقة هذا الدافع الكامن خلف هذه النظرة.

* * *

كانت مقاربة دافيد الأوَّلية مع فاليس تحليليةً ومتَّسقةً، وذلك انعكاس للسلوك الخاص لهذا الشاهد. "دعنا نعود إلى الوراء إلى الأدلة التي قدمتَها ضد السيدة عارف،" اقترحَ دافيد. "لنبدأ من المكالمة المرسَلة من الهاتف الخلوي لحسن إليها. المكالمة التي حصلت عند

الساعة الثانية عشرة والدقيقة الرابعة من صباح يوم الاغتيال. هل أظهر هاتف السيدة عارف الخلوي أيَّ مكالماتٍ أخرى من، أو إلى، حسن؟"

"كلا."

"أو أية مكالمة أخرى من، أو، إلى أيِّ رقم آخر لا تستطيع له تبريراً؟"

"كلا لم يظهر أيُّ رقم. ولكن وفقاً لرواية جعفر، فإن حسن كان يقوم بتبديل الهواتف الخلوية بشكل متكرر، تجنباً لإمكانية تتبُّع اتصالاته. لذلك فإنه من المنطقي أن يتَّبع المدبِّر الخطة ذاتها. من أجل ذلك، فإننا نعتقد أن المكالمة الواردة إلى حسن عن تغيُّر مسار الطريق قد استُعمِل من أجلها هاتف خلويٌّ آخر."

"هاتفٌ خلويٌّ آخر له رقم مفتاح منطقة سان فرانسيسكو. صحيح؟"

"صحيح."

"وهو رقمٌ لم تستطيعوا ربطه بالسيدة عارف؟"

"هذا صحيح."

اقترب دافيد إلى مسافة قريبة من الشاهد. وصارت أسئلته ترِدُ بسرعة أكبر. "هل استطعتم تحديد مكان ذلك الهاتف الخلوي؟"

"كلا لم نستطع."

"أو أن تصِلوا إلى أيِّ بياناتٍ عن الذي اشتراه؟"

"كلا. فلقد تمَّ شراء هذا الهاتف نقداً من محلات تيغ إلكترونيك، في سان فرانسيسكو. ولم يستطع البائع أن يستذكر الشاري."

"أنت خبيرٌ في مكافحة الإرهاب يا حضرة العميل فاليس. هل أن هذا الأسلوب المتمثل في استعمال الهواتف الخلوية المشتراة نقداً، والتي يتم استبدالها تكراراً، هو أسلوب مألوف يستخدمه الإرهابيون؟"

"الإرهابيون ومروِّجو المخدِّرات."

نظر دافيد إلى العميل نظرة حائرة. "هل سبق لك وأن سمعتَ عن إرهابيٍّ يُصدر أو يستقبل مكالمات على هاتفٍ خلويٍّ مسجَّلٍ تحت اسمه الحقيقي، ويتلقى عنه فاتورة شهرية على عنوان إقامته؟"

تردَّد فاليس. "كلا."

"إذن، وبحكم خبرتك المحترمة مع الإرهابيين، هل تكون هناء عارف هي الإرهابية المزعومة الوحيدة التي هي غبية بما يكفي لكي تُقدِم على فِعل هذا؟"

شبك فاليس ذراعيه. "لقد افترضنا أن هذه المكالمة تعكس حالة ضرورة."

"لقد 'افترضتم' ذلك،" كرَّر دافيد وراءه. "هل تستطيع أن تستذكر حالة واحدة قام فيها إرهابي واحد بكتابة رقمه، أو رقمها لإرهابي آخر على قطعة من الورق؟"

"إن هذا سلوك غير مألوف، إذ إنهم عادة يقومون بالاتصال، أحدهم بالآخر، جاعلين الهاتف يلتقط الرقم الجديد. لكنني قد شهدتُ حالاتٍ حيث قام أحدهم بكتابة رقمه لشخصٍ آخر."

"وهل تستطيع أن تستذكر أن إرهابياً واحداً، في أيٍّ مكان، قد قام بطباعة رقم هاتفه؟"

"لا."

"إذن فأنت قد 'افترضت' يا حضرة العميل فاليس، أن هناء عارف كانت غبية بما يكفي لاستعمال خطها الخلوي الخاص للاتصال مع قاتل بن آرون، مع أنها قد حاولت أن تكون ذكية لتطبع رقم هاتفها الخاص لكي تخفي خط يدها."

زمَّ فاليس شفتيه. "ليس كل ما يُقدِم عليه الإرهابيون يكون منطقياً."

"وبالتأكيد، ليس في هذه القضية. فوفقاً لإياد حسن إن الهواتف استعملت أرقاماً محلية طلباً لتجنُّب المراقبة. هل يبدو هذا منطقياً بالنسبة إليك؟"

"نعم. إن الإرهابيين المحترفين يعرفون أن تلقي وإرسال المكالمات بواسطة الأرقام الدولية يمكن تتبُّعها بواسطة وكالة الأمن القومي."

"هل يمكنك القول إن الإرهابيين في هذه القضية كانوا محترفين؟"

"إذا كنت تشير بذلك إلى كبار المخططين، فالجواب: نعم."

"ما عدا السيدة عارف،" قال دافيد. "أعتقد أن لا أحد قد أخبرها ألَّا تستعمل خطها الهاتفي الدولي."

لاحظ دافيد أن بوب كلير قد وزن فاليس بشبح ابتسامة بدت لتعكس قليلاً من الطرافة، وكثيراً من الفضول. هازاً كتفيه، قال فاليس، "لقد كان الأمر يقتصر على مكالمةٍ واحدةٍ. ولو حصل أن تفجَّر هاتف حسن الخلوي معه، لما استطعنا أن نتتبعها."

كان هذا جواباً مفيداً لدافيد. "ولكن حسن رمى هاتفه في علبة نفايات،" قال له، "حيث تمكن البوليس من العثور عليه."

"هذا صحيح."

"كما أنه قام برمي قطعة الورق في سلة مهملات في الفندق، حيث استطاع البوليس أيضاً التقاطها. ومع احترامنا للسيدة عارف، فإنها يبدو أنها قد أتاحت لك الفرص مرة بعد أخرى."

"بعض الفرص،" قال فاليس مصوِّباً. "لكنني أذكِّرك بأن بصمات أصابع السيدة عارف بالذات، كانت موجودة على قصاصة الورق. ولا يستطيع أحد أن يضع تلك البصمات على تلك الورقة سواها."

كان هذا جواباً بارعاً آخر، مهيئاً بصورة شديدة العناية، عرف دافيد، من أجل تذكير المحلَّفين بما لم يتمكن الدفاع من شرحه وتبريره. "لكنك هل تستطيع،" ردَّ عليه دافيد، "القول أن البروفيسورة عارف هي التي أقدمت على طباعة ذلك الرقم؟"

"كلا. فالطابعة التي تمَّ استعمالها لطباعة الرقم لا يمكن تمييزها عن سواها."

"والطراز نفسه من الطابعات، كان قد صُرِف لكل عضو كلية في جامعة بيرزيت، صحيح؟"

"صحيح."

"ومن الصحيح أيضاً أن أيّاً كان يستطيع الدخول والخروج إلى مكتب السيدة عارف."

"هذا ما فهمته، نعم."

"معنى هذا، أن أياً كان قد يكون أقدم على سرقةِ ورقة من مكتبها، أو حتى استعمل آلتها الطابعة لطباعة الرقم."

"هذا صحيح، لكننا لم نجد بصمات أي شخصٍ سواها على حاسوبها. وليس للمتسللِ من سبيل للتأكد من أن أيَّ ورقة من الأوراق بمفردها، تحمل بصمات السيدة عارف بمفردها."

كان هذا أفضل جواب ممكن؛ جواب لم يكن له عند دافيد من ردٍّ واضحٍ شافٍ. لم يكن هناك سوى شكٍّ غير مدعوم يتجه نحو صائب. لكنه لم يكن يستطيع حتى الإفصاح عنه. توقف مُسنداً يديه على وركيه. "عدا عن هذه القصاصة من الورق، وتلك المكالمة الوحيدة، هل هناك أيُّ دليلٍ آخر يشير إلى أن السيدة عارف قد عرفت مرة، أو تكلمت مع، أو قابلت إياد حسن؟"

تجهَّم وجه فاليس وازورَّت زاوية فمه. "لقد كان طالباً هناك ـ "

"هل هذا هو جوابك؟" قاطعه دافيد بمسحة خفيفة من الريب. "هل قام حسن بحضور صفٍ واحد من صفوف البروفيسورة عارف؟"

"كلا." تردَّد فاليس قبل أن يضيف، "لكنه قد تلقّى بعض الدروس على يد البروفيسور صائب خالد، زوج البروفيسورة عارف."

"هل أنت جادٌّ في اقتراحك أن الدكتور خالد قد قدَّم البروفيسورة عارف إلى إياد حسن، ومن ثم شرع الطرفان في علاقة سرية ـ لم يستطع أحد كشفها ـ مكرَّسة لقتل عاموس بن آرون؟"

"أعترِض،" قالت شارب على الفور. "لا أساس للسؤال ـ "

"الاعتراض مردود،" قالت القاضي تايلور قبل أن يبدي دافيد أي استجابة. "أرغب في سماع إجابة الشاهد."

"هذا هو واحد من الاحتمالات،" ردَّ فاليس بهدوء. "أمَّا الاحتمال الآخر فهو أنهما كانا قد ارتبطا معاً على يد أعضاء المؤامرة، ورتبا الأمر كي تكون اتصالاتهما سريَّة."

"هل لديك أي دليل على أن السيدة عارف هي عضو في كتائب الأقصى؟"

"كلا."

"أو في حماس؟"

"كلا."

"هل لديك أيُّ فكرة، من أي نوع كانت، كيف يمكن أن تكون هناء عارف قد أصبحت عضواً في المؤامرة؟"

أطرق فاليس للحظة. "لا."

ابتسم دافيد. "بالمناسبة، يا حضرة العميل فاليس، من هم الأعضاء الآخرون في المؤامرة؟"

متداركاً لسلوكه، أعاد الشاهد صبَّ أنظاره على دافيد، مستجيباً بمسحة من الصراحة البادية. "إننا لا نعرفهم حتى الآن."

"هل هم كتائب الأقصى؟"

"نحن لا ندري يا سيد وولف. كلُّ ما لدينا هو عبارات حسن التي قالها لجعفر."

"كخبير في شؤون الإرهاب، يا حضرة العميل فاليس، هل تعتقد أن هذه المؤامرة المعقدة قد جرى تنفيذها في أميركا بواسطة كتائب شهداء الأقصى؟"

تردَّد فاليس، ثم مثل جميع الخبراء المتدربين، قام بالتسليم بنقطة أخرى من أجل الحفاظ على مصداقيته. "لا أعتقد أن لديهم المقومات الكافية لذلك."

"إذن من الذي وضع الدراجتين الناريتين في وسط الحاوية؟"

"إننا لا ندري. لأنها دُمرت بفعلِ الانفجار، فنحن لم نكن قادرين بوجه خاص، على تحديد الدراجة النارية التي استعملها حسن. أما التي استعملها جعفر، فقد تمَّ شراؤها نقداً من خلال إعلان على الإنترنت، بواسطة رجل لم يستطع البائع تحديد هويته سوى بأوصافه العامة."

"وهي؟"

"إنه بدا ذا أصل شرق أوسطي. ولم نستطع أن نتأكد حتى الآن من يكون."

توقف دافيد برهة ليدع للمحلفينِ فرصة للاستيعاب. إذ لأول مرة يدخل متآمر جديد، عدا عن هناء والقاتلين، إلى وعي المحلَّفين. "هل تعرف مصدر البذلات العسكرية؟" سأله.

"كلا."

"وماذا عن الشاحنة؟"

بقي فاليس محافظاً على تماسكه. "إنه الشيء نفسه. لقد تم شراؤها من خلال الإنترنت، نقداً. والشاري رجل غير معروف، وقد يكون عربياً."

"قد يكون!! وماذا عن الخريطة؟" سأل دافيد. "هل لديك أيُّ علمٍ كيف وصلت الخريطة إلى هناك؟"

"كلا."

"وفقاً لرئيس فرقة الحماية، التابع للاستخبارات السرية، لقد قام هو بوضع خطة السير الأصلية قبل أقل من ثلاثة أيام من الاغتيال، وقد أخبر بها فقط أعضاء قلائل من الفرقة المختصة بحماية بن آرون. ومع ذلك، فإن الطريق نفسها ظهرت على خريطة وجدها حسن وجعفر. هل لديك أيّ فكرة كيف حصل ذلك؟"

"كلا."

"هل قمتم، على الأقل، بسؤال الحكومة الإسرائيلية عن ذلك؟"

للحظة، بدا فاليس منزعجاً ـ ربما من الإسرائيليين، أو من دافيد، أو بكل بساطة بسبب كونه مجبراً على الاعتراف بجهله تكراراً "إن الحكومة الإسرائيلية تُجري تحقيقاً سرياً خاصاً بها. أمَّا ما قد توصَّل إليه ذلك التحقيق، إذا كان قد توصل فعلاً إلى شيء ما، فإن نتائجه لا تزال غير مباحة."

"ولكن ألستم توَّاقون للاطِّلاع؟ أعني أنك هنا تشارك في مقاضاة السيدة عارف بجناية قتل، بينما أنت لا تعرف حتى من الذي أعطى القاتلين خطة السير الأساسية، ولا كيف استطاع ذلك الشخص الحصول عليها."

همَّت شارب بالنهوض. وقبل أن تتمكن من الاعتراض، كانت تايلور قد رفعت يدها متحولة نحو الشاهد بنظرة من التوقُّع الشديد. "إن تحقيقاتنا لا تزال مستمرة،" قال فاليس. "لكننا نعتقد أن الدليل ضد السيدة عارف يُفصح عن نفسه."

"إنها لم تقم بوضع الخريطة هناك، هل هي التي قامت بذلك؟ أنت تعرف هذا على الأقل، صحيح؟"

طوى فاليس يديه. "نحن لا نؤكد أنها هي التي وضعت الخريطة هناك. كلا."

"وانطلاقاً من المعلومات التي تملكونها عن تحركاتها في سان فرانسيسكو فإنها لا تستطيع القيام بذلك."

"كلا، بقدر ما نستطيع أن نؤكد."

"ومع كل ذلك،" قال دافيد بسخرية واضحة، "فإنك الآن تقدِّم إلى المحلفين مؤامرة من ثلاثة أشخاص: حسن، وجعفر، والسيدة عارف. وأحد أطراف هذه المؤامرة، لا يستطيع أن يشهد."

"نحن نعرف أن المؤامرة قد ضمَّت أشخاصاً آخرين ـ "

"لكنك لا تملك حتى خيطاً واحداً يشير إلى من قد يكون هؤلاء. هل أنت تريد القول إن السيدة عارف كانت هي من يدير نشاطاتهم؟"

"كلا."

"أو يخطط لعمليتهم الشديدة التعقيد؟"

"كلا."

"هل تعرف شيئاً عن ماضيها مما يشير إلى أنها حتى قادرة على الاضطلاع بمثل هذا الأمر؟

"كلا."

"وأنت لا تستطيع أن تسمي اسماً واحداً، لا في أميركا، ولا في الشرق الأوسط، لأيِّ شخص قد يكون خطط لكلِّ هذا، أو اشترى الشاحنة، أو وضع المتفجرات في الحاوية؛ أو أمَّن الألبسة العسكرية والدراجتين الناريتين."

نظر فاليس نحو شارب، لكن سلوك القاضي قد ثنى النائب العام عن الاعتراض. "ليس هنالك من أسماء." أجاب. "كلا."

"كما أنكم لا تعرفون أيضاً من هو الذي قام بتسريب الخبر عن تغيير مسار الطريق."

"كلا."

"هل لديك فكرة، أو هل تعرف شيئاً عن الذي أمر بقتل رجل الأمن المكلف بحماية بن آرون، هلال ماركيس؟"

"كلا."

"أو صديقه باراك ليف؟"

"كلا. هذا إذا كانا صديقين."

نفض دافيد ذراعيه. "أليس هذا مقداراً كبيراً من الجهل نلقيه على كتف زوجة وأم، في السادسة والثلاثين من عمرها، ولا سوابق لها، عن نشاطات إرهابية؟

من طرف عين دافيد بدت آدريل واشنطن تستدير نحو فاليس. كانت نظرتها الطويلة الصامتة، تأمره بكل قساوةٍ أن: أجبْ. ومرة جديدة قال فاليس: "قد لا نستطيع معرفة الجهة التي خططت للاغتيال. لكن الدليل المتوفر ضد السيدة عارف لا يمكن تجاهله ـ "

"ألم تقوموا باتهامها،" قال دافيد غاضباً، "على أمل أن تستطيع هي أن تعطيكم أسماء أولئك الذين قد وضعوا فعلاً ذلك المخطط وجعلوه يعمل؟"

"أعترِض،" قالت شارب. "لقد سأل السؤال وأجاب عليه. إن الشاهد قد سبق وشرح الدليل الذي يقوم عليه هذا الاتهام."

"ما دام الحال كذلك،" قال دافيد للقاضي. "إن لنا الحق في أن نعرف ما إذا كانت الحكومة تأمل في الضغط على السيدة عارف للقيام بتسمية الآخرين."

"الاعتراض مردود،" قالت القاضي. "تابع كلامك أيها العميل فاليس."

بعينين متضيقتين، قام فاليس بتأليف جواب. "إن لدينا الدليل الكافي،" قال مُصراً. "وبالطبع، فإننا نأمل على الدوام أن يقوم أطراف المؤامرة بتحديد أشخاص زملائهم من المتآمرين ـ "

"وماذا لو كانت السيدة عارف بريئة؟" قاطعه دافيد، "عند ذلك لن يكون لديها من سبيل يخرجها من هذه المحاكمة، وما من متآمرين تساوم عليهم على أمل اجتناب مواجهة حكم بالإعدام."

"أعترِض،" قالت شارب. "ليس هناك من أساس للسؤال. وإيجاد الجواب هو من اختصاص المحلفين."

"الاعتراض مقبول،" قالت القاضي على الفور.

مستديراً نحو الشاهد، وصل دافيد إلى طريقة صاعقة لينهي استجوابه. "في ما عدا كلّ ما قلته حتى الآن،" سأل دافيد، "هل أنت تدري بأيِّ دليلٍ إضافي ضد هناء عارف؟"

هزَّ فاليس رأسه. "كلا، ليس لحدِّ الآن."

"إذن ألا تعتقد أنه كان عليك الانتظار حتى يتوفر لديك المزيد من الأجوبة؟"

تردَّد فاليس. "لقد شعرنا أن ما نملكه في أيدينا يكفينا من أجل التقدم في الدعوى."

"وهل تقدمتم،" قال دافيد بلهجة استخفاف وكبرياء. "أعتقد أن الجواب هو من اختصاص المحلفين. لا أسئلة أخرى عندي، يا صاحبة الاحترام."

* * *

كان استجواب شارب التعقيبي موجزاً. "في ما يختص بالدليل المقدم ضد السيدة عارف،" قالت، "هل يملك مكتب التحقيقات الفيديرالي أيَّ سبب للاعتقاد أنه دليلٌ مفبرك؟"

"كلا ليس لدينا مثل هذه الشكوك."

تقدمت شارب أكثرَ إلى الأمام، مبطئة في كلامها من أجل التأكيد على كل كلمة. "هل تعرف أحداً أيها العميل فاليس، لديه دافع يدفعه من أجل تلفيق تهمة مدبرة للسيدة عارف؟"

"ليس لدينا علمٌ بأحد."

"من خلال خبرتك في مكافحة الإرهاب، هل تستطيع أن تجد أيَّ منطق وراء النظرية التي تقول أن أحدهم أخذ امرأة بريئة وقرَّر أن يضعها بين الخيوط المتشابكة لمؤامرة اغتيال لرئيس وزراء إسرائيل؟"

"كلا لا أستطيع." متوقفاً، هزَّ فاليس رأسه. "تلك النظرية لا منطق فيها بالنسبة لي. ليس فيها أي منطق أبداً."

وبذلك، فإن قضية ادعاء النيابة العامة على هناء عارف بلغت أوجها عند سؤالٍ لا يملك له دافيد جواباً.

الفصل 10

وقبل أن يقتاد القيِّمون على السجناء هناء، عائدين بها إلى مركز الاعتقال، كان دافيد قد رتب لقاءً له معها، في غرفة شهود خاصة. ومع أن قيِّماً مسلَّحاً كان يقوم على حراسة الباب في الخارج، إلَّا أنَّ هذه الغرفة الضيِّقة التي لا نوافذ لها، قد هيَّأت لهما دقائق قليلة من العزلة التي لم تتوفر لهما سوى في ما ندرَ منذ اعتقال هناء. فإذا بهما الآن، وحيدين، وغير مراقبَين.

متحررةً من حاجتها إلى مراعاة الوقار، وتمالُكِ النفس، ألقت هناء بنفسها على كرسيِّها. "إنني مرهقة جداً،" قالت بهدوء. "ولا بدَّ أنك كذلك، أيضاً."

وجد دافيد نفسه أيضاً يُرخي بثقله إلى الكرسي، فمستوى الأدرينالين الذي كان عالياً أثناء الاستجواب قد تلاشى الآن واضمحلَّ. "هذا شيء مرهق،" قال معترِفاً.

تطلعت هناء إليه. "لقد كنتَ رائعاً. لا أستطيع أن أتصوَّر أن يقوم أحدٌ بأفضل من ذلك."

ومع أن دافيد لم يكن ليشعر بالابتهاج للإطراء، إلَّا أنه استطاع أن يرسم ابتسامة. "ذلك لأنه لا يوجد أحدٌ يستطيع ذلك."

ودونما ابتسامة، راقبَتْ هناء عينيه. "إذن أخبرني بالحقيقة،" قالت له بهدوء. "إنَّ هذا هو ما أردتَ أن تفعله أليس كذلك؟ هنا حيث لا أحد يستطيع أن يلمح وجهي."

كانت هذه العبارة صحيحة إلى درجة دقيقة جداً، حتى إن قلب دافيد لم يكن يطاوعه على المداجاة. "غداً نبدأ بتقديم دفاعنا. والمشكلة هي أن المحلَّفين كانوا قد سمعوه مني وانقضى الأمر.

"لقد قمت باستهلاك كلِّ ما لديَّ من أسئلةٍ أثناء استجواب شهود الادِّعاء. وإن أقصى ما أستطيع فِعله الآن هو أن أكرِّر نفسي. إنَّ كلَّ ما لدينا هو جعبة مملوءة كيفما اتفق بالافتراضات والنظريات التي لا نستطيع لها إثباتاً. وكلها تدور على أنكِ ضحية لتهمةٍ

ملفقةٍ، مركَّبةٍ، ومدبَّرة. لكن السؤال هو، بواسطة مَن؟ ومن أجل ماذا؟" خفَّف دافيد من نبرة صوته. "أنتِ وأنا نعرف مَن قد يكون هذا الـ 'هو' المعقول. ولكن هل أنَّ ثمة 'لماذا' معقولة فهذا ما لستُ أدري به."

نفضت هناء رعشة عن كتفيها.

تمعَّن دافيد في وجهها. "أنا لا أستطيع أن أطلب رأسه يا هناء. ليس من دون دافع."

تراخت أجفان هناء، حتى باتت رموشها تحجب نظراتها إلى الطاولة التي تفصل بينهما. ثم همهَمت كما لو أنها تخاطب نفسها، "بعد أسبوعٍ، أو ربما أسبوعين من الآن، قد يجد المحلفون أنني مذنبة. وسيتلو رئيس هيئة المحلَّفين قرار الهيئة، وفي ثوان، سيكون زماني كوالدة لمنيرة قد ولَّى ومضى.

"لن يُسمح لي بعدُ، بالاختلاء بها. وهيهات أن تتيسَّر لي ملامستها، أو حتى ملامسة أيِّ أحد." تلالأت الدموع على رموش عينيها. "لقد منحني السجن وقتاً طويلاً للتفكير، وترك لي مجالاً ضيقاً للتخيُّل. إنَّ كلَّ ما أحتاج إليه، هو أن آخذ الأشهر التي قضيتها وحيدة ثم أضاعفها مئة مرة. وإن الموت قد يكون أكثر رحمة.

"هل وصفتُ لكَ زنزانتي؟ أستطيع أن أروي لكَ عن كل إنشٍ منها. أو هل لي أن أحكي لك عن خيالاتي الوهمية؟" اختفى صوتها فجأة مِن خجلٍ وسخرية. "لأدع ما في داخلي، في داخلي، فلعلَّ لي في ذلك بعض الارتقاء والصفاء."

ساكناً أمامها، خشي عليها دافيد من أن تفقد اتزانها مرَّة واحدة، وبالكامل. لكنها بدلاً من ذلك فقد سألته، "أعجب كيف حصل لي كلُّ هذا. وكيف أنَّ كلَّ ما قد أمِلتُ به، وكلَّ ما انتظرتُه قد انتهى إلى هذا؟ ما الذي تُراه سيحدث لها، لو أن صائب بات يتحكَّم بمصير حياة ابنتي؟

ولم يكُ ثمة جوابٍ يحضُر دافيد. وبصوتٍ متهدِّجٍ قالت هناء، "هل أحتاج إلى أن أسألك يا دافيد؟ بعد كلِّ هذا الذي حدث لنا، يبدو أنني لا أرى منك الآن سوى القليل."

استغرق الأمر منه برهة كي يفهم قصدها. ثم مستسلماً لغريزته، وقف واستدار حول الطاولة. نهضت عن كرسيِّها لملاقاته. لقد مضى على مثل ذلك ثلاث عشرة سنة منذ أيام هارفارد، منذ أن كان يحسُّ جسدها الأهيف ينضغط على جسده، إنه شعور غريب رغم ما فيه من ألفة. صارت تكاد تكون سكرى بشكل كامل، تسحب دفأه، وقُربَه، إلى كيانها. وبلطفٍ، داعبَ دافيد شعرها.

رعشة سلكت عَبْر جسدِها. ولولا سكونها المطلق، لبدا الأمر أشبه بشيءٍ آخر. ثم سحبت هناء رأسها. صفَتْ عيناها من الدمع فيما هي تنظر في عينيه، ثم التقت الشفاه.

"كنت أفهمك يا دافيد، وما مِن داعٍ لكي تقول لي."

لعلها عنَت أنه لا يزال وكيلها؛ فهو لا يعرف. لامست وجهه بأطراف أناملها الباردة، تاركةً بنانها تتلبَّث قليلاً على وجنته. "لقد صرتُ الآن على ما يرام."

وقبل أن يتمكَّن من الاستجابة لها، استدارت هناء طارقة الباب لاستدعاء حُرَّاسها.

وبلحظة، أخذوها معهم. قاد دافيد سيارته عائداً إلى بيته، محاولاً أن يفهم معنى الذي حدث بينهما. ثم أرغم نفسه على التركيز على شاهد الدفاع الأول، بروس مارتل.

* * *

تابعت المحكمة النظر في القضية عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. وعندما جلبوا هناء إلى قاعة المحكمة، منحت دافيد ابتسامة خفيفة كانت أوضح ما تكون في عينيها. ثم نظرت نحو زوجها، فطار البريق منهما.

الدقائق الافتتاحية الأولى لاستجواب دافيد لشاهد الدفاع الأول، بروس مارتل، أفسحت المجال لإلقاء الضوء، ولإنعاش باقةٍ مختصرةٍ من المعلومات عن مؤهلات هذا الشاهد كخبير في شؤون الأمن القومي، وجمع المعلومات، ومكافحة الإرهاب. لقد أعطى مجرَّدُ حضور هذا الشاهد كخبير في شؤون الأمن القومي، وجمعِ المعلومات، ومكافحة الإرهاب، ثقة جديدة لما سيبدو في ما بعدُ، دفاعاً يتيماً من دافيد عن إرهابية فلسطينية متهمة. لكن الدور الأهمَّ لهذا الشاهد، كان في تثقيف المحلفين، من أمثال بوب كلير، عن الأساليب التي يلجأ إليها الإرهابيون.

"بالنسبة إلى الإرهابيين والجواسيس،" قال مارتل مخاطباً المحلفين، "يصبح الخداع والتخفي حقيقتان يوميتان من حقائق الحياة. ولا يكون الأمر بالنسبة إليهم غير ذلك أبداً.

"فكِّروا قليلاً في جعفر وحسن. فمنذ لحظة دخولهما الأولى إلى الولايات المتحدة اتخذا لهما هويتين مستعارتين، وأسلوباً لاتصالات هاتفية يصعب تتبعها. وهذا سلوك متناغم مع المؤامرة بكاملها. فكلُّ خطوة، كانت تحاط بسرية تامة، بحيث إنَّ حسن وجعفر ذاتهما، لم يكونا ليعرفا بها قبل أن تصل إليهما المكالمة الهاتفية القادمة من مدبِّرهما. أمَّا الخطة الجامعة للجريمة، فقد كانت ملفوفة بالسِّريَّة، بحيث إن الحكومة لم تستطع حتى أن تقول لنا من هو ذا الذي أمَّن المتفجرات، والدراجات، والخريطة، والشاحنة. لقد تبخرت العملية بكل بساطة، تاركة وراءها أربعة قتلى." تجهَّم وجه مارتل. "وبطريقتها المروِّعة المقيتة، تبقى هذه الجريمة مثلاً نموذجياً في عمليات الاغتيال. لولا أنه اعتورها شذوذٌ واحد عن المألوف."

"وهو؟" استحثَّه دافيد.

"إنها القضية ضد هناء عارف. فمن وجهة النظر التخطيطية، لا يشوب هذه القضية

أيُّ صدعٍ أو شائبةٍ، عدا عن هذه النقطة الضعيفة. لأنني أرى أن كلَّ جزء من الدليل المساق ضد زبونتكم الحالية، هو أمرٌ محيِّرٌ متعذِّر التفسير." مركِّزاً نظَّارتيه فوق أنفه، خاطب مارتل المحلَّفين بالأسلوب الريِّق لمحاضرٍ موهوب. "خذوا بعض الأمور البديهية: لقد قال حسن لجعفر إن هناء عارف هي التي جنَّدته، وهي التي تقوم على إمرته. ومثل هذا التصرف لا يستقيم مع السياق، ولا يحدث عادة. فحتى إن اضطر حسن إلى ذكر اسم من الأساس، فإن هذا الاسم إنما يجب أن يكون وهمياً، بل اسمٌ منكَّرٌ وهميٌّ."

"حتى وإن كانا يتوقعان أن يموتا؟"

ابتسم مارتل بظرفٍ. "قد يأمل الإرهابي أن يموت. ولكن حتى جعفر، فإنه اعترف بأنه كان يخشى أنهما قد يتم اكتشافهما وإلقاء القبض عليهما. وبحسب تفكير جعفر، فإن هذا هو السبب الذي دعا حسن إلى التخلُّص من هاتفه الخلوي الأخير. ومع هذا، فإن حسن كان قد خالف القواعد الأساسية البديهية للسرية العملانية، التي كان شديد الحرص عليها في أشياء أخرى. وفي رأس هذه القواعد: 'لا تقمْ بكشف اسم رئيسك'." متوقفاً للحظة، عاود مارتل مخاطبة المحلَّفين. "ثم إن هناك مسألة الاختيار المفترض للسيدة عارف - وهي امرأة معروفة لحسَن منذ أيام دراسته في بيرزيت - ولا تصلح لكي تكون هي رئيسة حسن. فالمدبِّر الحقيقي ينبغي أن يكون شخصاً غريباً، لا يقوى حسن على معرفة هويته."

نظر دافيد نحو أدريل واشنطون، وقد استولى على انتباهها وضوح تفكير مارتل وخبرته. "ما هي الأمور الشاذة الأخرى عن المألوف، التي يمكنكم التقاطها؟"

نظرةٌ مِن الأَنَفَةِ والازدراء طفت على عيني مارتل. تقزُّز المفكِّرِ المثاليِّ من المطالب الإنسانية الغبيَّة. "إنني لا أستطيع أن أركن إلى الفكرة التي تقول أن السيدة عارف تستعمل هاتفها الخلوي الشخصي لتنفيذ مؤامرة اغتيال. وكلُّ ما عليَّ أن أقوله في التعليق على مثل ذلك العمل، هو أنه تصرُّف أحمق بكل معنى الكلمة. والشيء نفسه ينطبق على قيامها بإعطاء رقم هاتفها الشخصي مطبوعاً على ورقة.

"وبالطبع، قد تكون البصمات عائدة لها. وبالطبع قد يوجد شخص آخر ما، يقوم بالعثور على الورقة. وقد تكون قد قامت أيضاً بدسٍّ بطاقة زيارة باسمها في محفظة نقود حسن. ومن أجل أن يكون لمثل هذه التصرفات منطق ومعنى، فإن عليكم أن تعتقدوا شيئين اثنين: أن السيدة عارف غبية حمقاء، وأن الذي خطط لهذا الاغتيال من أساسه، أشدُّ منها غباءً لكي يقوم بالاعتماد عليها." توقف مارتل ليترك انطباع كلامه يترسَّخ. "كل شيء نعرفه عن هذه العملية يقول لنا عكس ذلك تماماً. فكائناً من يكون مَن خطَّط لاغتيال عاموس بن آرون، فإنه يستطيع أن يدَّعي أنه عبقري."

تريَّث دافيد قليلاً لكي يتشرب المحلفون فحوى هذا الكلام. "فقط من أجل ربطِ نهايةٍ سائبة يا سيد مارتل، كيف ينبغي لمدبِّرٍ محترفٍ أن يعطي رقم هاتفه؟"

"يعطيه بأسهل الطرق الممكنة ـ أقول لكَ رقمي: فتحفظه في ذاكرتك. ثم تنساه حالما يصبح في إمكانك أن تنساه."

"إذن، هل هناك طريقة أخرى لقراءة هذه الثغرات الشاذة؟"

"نعم هناك طريقة أخرى،" قال مارتل بحزم. "بدلاً من الافتراض أن هذه الشوائب لا معنى لها، تفترض العكس. وحالما تلجأ إلى هذا الافتراض، تصبح هذه الثغرات متساوقة مع الخطة العامة ـ خطة دقيقة، مصمَّمة بواسطة عقلٍ شديد الذكاء بهدف توجيه إصبع الاتهام إلى امرأة لا تعرف عن المؤامرة شيئاً." التمعت عينا مارتل بشيء يقارب الإعجاب. "فإذا كان هذا هو واقع الحال، فإن فبركة قضية ظرفية ضد هناء عارف: يعني توجيه الحقيقة بكاملها إلى نفقٍ مظلم يؤدي إلى لا مكان. وفي الحقيقة، فإنكم قد تلاحظون كيف أن الادعاء يتردَّى في طريق مسدود: فليس على الحكومة سوى أن تتراجع إلى الوراء، أو أن تدوِّم في دوائر مقفلة."

ناظراً نحو المحلَّفين، شعر دافيد باكتفاء عميق: فصديق والده قد أعطى لنظرية دافيد لوناً ومعنى. وحدها مارني شارب بدت غير مفتونة.

* * *

وكان هذا ديدنها عندما نهضَت لاستجواب الشاهد، حازمة، متشككة، وغير معجَبة. "لقد أصغيت إلى نظريتك،" قالت لمارتل. "لذا، دعنا نعود الآن إلى الحقائق.

"استناداً إلى البيانات الخاصة بهاتفها، فإن مكالمَة منتصف الليل التي جرت مع المدَّعى عليها على هاتفها الخلوي، قد استغرقت أكثر من خمس دقائق. فإذا كانت السيدة عارف ضحية تهمة مدبَّرة فمن هو ذا الذي أجاب على هاتفها؟"

ومع أن مارتل بدا أنه لا يزال ثابت الجأش، فإنه قد تردَّد قليلاً. "أنا لا أستطيع أن أخبركِ بذلك يا سيدة شارب. لقد طُلب مني أن أقدِّم رأيي كخبيرٍ في قضية محاكمة. إنني لست تحرِّياً خاصاً، كما أنني لست شاهداً على حقيقةٍ ما تزال مجهولة."

"لكنكَ، حسبما يبدو، رجلُ منطقٍ. لذلك فإنه من المنطقي أن ذلك الشخص البارع الذي أراد فبركة هذه التهمة للسيدة عارف سيحتاج حتماً إلى شخصٍ ما، لكي يتلقى هذه المكالمة. هل هذا صحيح؟"

"يبدو أن الأمر يجب أن يكون هكذا."

"إذن كيف يمكن لهذا الشخص المجيب ـ الذي لا تستطيع أن تسميه ـ أن يضع يده على الهاتف الخلوي؟"

لم يلتفت دافيد ناحية صائب. لكن استراتيجية شارب كانت واضحة: إرغام الدفاع

على اتهام صائب خالد ـ دون أسسٍ كافية، لا في الوقائع، ولا في المنطق ـ أو المغامرة بجعلِ نظرية دافيد غير قابلة للتصديق أبداً. وبهدوء يستحق الإعجاب، فإن مارتل لجأ إلى تقديم الاعتراض الذي كان قد زوَّده به دافيد لمثل هذا الموقف. "مرة ثانية أقول لكِ، إنَّ ما تطلبينه مني إنما يقع خلف نطاق مهمتي كخبير، التي تقتصر على تحليل الوقائع وتفسيرها، لا إلى التنقيب عن حقائق جديدة."

وكان من البيِّن أن هذه الإجابة لم تُشبع فضول المحلفين، إذ بدا ذلك جلياً على وجه بوب كلير. "كمحلِّلٍ للوقائع،" سألت شارب مارتل، بنبرة تخفي شيئاً من الهزء، "قل لي لماذا لا يكون من الأسهل على متآمريك المزعومين الالتزام بما تسميه الخطة الطبيعية للمتآمرين، فيقومون باستعمال اسم وهميٍّ للمدبِّر بدلاً من تجشُّم المجازفة باتهام شخص حقيقي بريء."

"ولماذا يقوم المتآمرون بتسمية السيدة عارف؟" تساءل مارتل بطريقة منمَّقة. "مثلما قلتُ مِن قبلُ قصدٌ واحد قد يوقعكِ في الوهم: فبدلاً من التفتيش عن المدبِّر، خلتِ أنكِ قد وضعتِها في الاعتقال، ولم يبق لك سوى سؤال واحد هو متى تنفكُّ عقدة لسانها." متوقفاً، ردَّ التلطُّف الصادر عن شارب، إليها، بابتسامة باردة. "ولكن، ماذا لو كانت السيدة عارف لا تعرف شيئاً؟ فإذا كان ذلك صحيحاً، فإن أقصى ما تستطيعين تحقيقه هو أن تدفني غلطتك، بكل معنى الكلمة، بينما أنت أبداً لا تحاولين أن تجدي الشخص الذي تستطيع هويته أن تساعدك على حلِّ العقدة بكاملها. المدبِّر الحقيقي لإياد حسن."

كان جواباً مثالياً، حسِب دافيد ـ وهو الجواب الوحيد الذي يستطيع مارتل أن يعطيه. "هل لديك أيُّ فكرةٍ مَن عساه أن يكون هذا؟" سألته شارب.

"لا جوابَ موثوقٌ عندي. وستكون قلَّةُ مسؤوليةٍ منِّي أن أتحزَّر."

"حقاً. إذن قل لي كيف استطاع ذاك 'المورِّط' الذي تزعم وجودَه، أن يصل إلى ورق الكومبيوتر الذي يحمل بصمات أصابع السيدة عارف؟"

هزَّ مارتل كتفيه. "مِن الواضح أن هنالك طرقٌ من أجل ذلك. فهناك أشخاص آخرون، سوى المدعى عليها، يملكون الوصول إلى مكتبها."

رمقته شارب بنظرة شكٍّ متكلِّفة. "إذن شخص ما، قد استعمل هاتفها؛ وشخصٌ ما، قد اختلسَ الورق من مكتبها؛ وشخص ما، طلب من حسن أن يكذب. أليس كذلك؟"

هزَّ مارتل رأسه. "أقول إنَّ هذا قد يحدث فعلاً."

"أمَّا تحديد هويَّة مَن قد يكون خطَّط كل هذا، فهو شيء يتعدى نطاق مهمَّتك."

"صحيح."

أرسلَت نحوه ابتسامةً فاترةً من ابتساماتها الخاصة. "هذا شيء محبِطٌ لآخرِ الحدود يا سيد مارتل. لم يعد ثمة أسئلة لديَّ."

* * *

أثناء استراحة الظهيرة، عاد دافيد إلى مكتبه ليستعدَّ مع آنجل غاريغوس لاستجواب خبيرٍ آخر، هو شاهد الدفاع الثاني. "لقد نالت شارب من هيبة مارتل قليلاً،" قال آنجِل بإذعان.

إن شاهد الخبرة قلَّما يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك،" أجاب دافيد، ثم رنَّ جرس هاتفه.

كان المتحدث آرنهيت. "لقد حصلتُ على فحوصات المختبر لتوِّي،" قال آرنهيت متعجِّلاً. "الفحوصات التي عملوها بناء لطلب صائب خالد."

هبَّ دافيد واقفاً. "وماذا وجدتَ فيها؟"

"إنه تقرير مؤلفٌ من ثلاث صفحات. لكنني لا أكاد أستقي منه شيئاً ذا معنى، فضلاً عن أن أنسبه إلى قضيتك. ولعلك الآن تتقدم بشكلٍ أفضل."

"أرسِله إليَّ بالفاكس،" قال دافيد.

"سأفعل ذلك حالما أرجع إلى مكتبي،" وعده آرنهيت. "أربعين دقيقة، أو حوالي ذلك."

وبعد خمسٍ وأربعين دقيقة، غادر دافيد إلى المحكمة، وكان الفاكس بعدُ لم يصلْ.

* * *

كان وارِن كِندت، الخبير الثاني الذي قدَّمه الدفاع، عميلاً سابقاً في مكتب التحقيقات الفيديرالي، وله خبرة في صناعة القنابل. وكلُّ ما أفلح به دافيد خلال نصف ساعة من الاستجواب المباشر، كان بلورة نقطة واحدة: إن دور جعفر كقنبلة بشرية مستعارة من هارلي - دافيدسون كان مآله إلى الفشل.

بدا كِندِت بجُمَّةِ شعره القصيرة، فجَّاً. أمَّا سلوكه فكان لا مبال، وكان صوته هادئاً. "إن السِّلك لم يكن موصولاً بالبلاستيك،" قال. "إن المسألة هي بهذه البساطة. كان بإمكان جعفر أن يمضي نهاره في الضغط على المفتاح دون أن يحدث أيُّ شيء."

"هل تدري لماذا لم يكن موصولاً؟" سأله دافيد.

"إذا كنت تعني كيف بات السلك غير موصولٍ، فالجواب، لا، أنا لا أعرف. كما أنني لستُ متأكداً من أنه قد كان موصولاً من الأساس. إن السلك قد كان ربما يحتاج إلى أن يُثبَّت بشريطٍ إلى البلاستيك. فلو كان الشريط قد انقشرَ عنه، بكلِّ بساطةٍ، فقد يأتي إلى

ذهنك أنه سيكون مازال مستقراً في الخُرجِ الذي يحتوي على المتفجرات. لكنني لم أستطع العثور لا على شريطٍ لاصقٍ، ولا حتى على آثار شريط."

"بماذا يشير إليك ذلك؟"

"إمَّا أن يكون أحدهم قد قام بإزالة الشريط، وإمَّا أن يكون حسن لم يثبِّت السلك بشريطٍ من الأساس. اختر ما بدا لك. إن الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه، هو أن جعفر لا يزال حياً يرزق بيننا لكي يقوم بأداء الشهادة ضد موكلتك."

* * *

في استجوابها للشاهد عملت شارب مستطاعها. "أليس من المحتمل،" سألت، "أن حسن كان قد ربط السلك إلى البلاستيك، لكنه ما لبث أن انفلت بينما كان جعفر يقود دراجته مثل هارلي؟"

"قد يكون الأمر حصل على هذه الصورة،" أجاب كندت. "لكن ما الذي حصل للشريط؟ إذ لا بد من أن يكون لا يزال موجوداً في خُرجِ الدرَّاجة. لكن جماعتكِ من موظفي المختبر، لم يعثروا على أيِّ شريط."

بدت شارب غير منزعجة. "يدَّعي جعفر أنه لم يرَ كيف قام حسن بوصل الأسلاك،" أوضحت. "وهكذا، فهل يحتاج حسن حقاً إلى شريط؟ ألم يكن كل ما هو مطلوب هو أن يتلامس السلك مع البلاستيك؟"

"صحيح،" قال كِندت موافقاً. كان يمكن لحسن أن يلقي البلاستيك فوق السلك، على افتراض أن يبقى السلك حيث هو، بسبب ثقل المتفجرات فوقه. لكن ثمة مشكلة مع هذا. فطول السلك لا يكاد يكون كافياً للوصول إلى خُرْج الدراجة. وبدرَّاجة نارية تترجرج على طريقة هارلي، فلا بد لسلكٍ بهذا القدرِ من القِصَرِ من أن ينفلت كليَّة إلى خارج الجراب.

"ذاك كان مكان السلك عندما نظرتُ إليه، ولكن أن يكون هذا قد حدث بفعِل الانفجار، أو قبله، أو حتى بعده: فليس لي وسيلة كي أعرف."

ألقت شارب نحوه نظرة ذاهلة، كان من الواضح أنها تتدبَّر سؤالها الجديد. "على سبيل الجدال، لنفترض ـ كما يتخيل الدفاع بشكلٍ أو بآخر ـ أن حسن أراد لجعفر أن يبقى حياً. فهل أن ترك السلك سائباً كفيل بضمان حياته؟"

"بالكاد أن يحصل هذا. فالانفجار كان يُقصد به أن يكون مركَّزاً بشدَّة على هدفه. لكن انفجاراً يستطيع أساساً إذابة سيارة مدرَّعة بما فيها من ركاب، تكون له قدرة جديَّة كافية لقتل كل من يكون قريباً منها مثل جعفر."

"كيف؟"

"لكِ أن تختاري ما شئتِ: النار، نثار المعادن، الطيران عن ظهر الدراجة في الهواء ثم

الوقوع أرضاً على الرأس. وحتى قوّة العصف نفسها قد تكون كافية لاقتلاع رأس جعفر، هذا إذا لم تفعل ذلك به شظية حادة أولاً." توقف كندت، ثم أضاف بلهجة مؤكِّدة، "إن ما أقوله لكِ ـ وكلّ ما أقوله لكِ ـ هو أن دراجة جعفر الخاصة كان من غير الممكن لها أبداً أن تقتله."

"لكن مع هذا، ليس هنالك من ضمانة،" أصرَّت شارب، "أن يؤدِّي الإغفال المقصود لتوصيل الأسلاك إلى البلاستيك إلى السماح لجعفر بأن يبقى حيّاً."

هزَّ كندِت برأسه، إشارة موافقته على كلامها، وإلى درجة فيها من الحيوية أكثر مما كان دافيد يتمنى. "وعلى أيِّ وجهٍ قمتِ بتشريح هذه المسألة، فإن إبراهيم جعفر رجل محظوظ. إذا افترضنا أن إقامةً في السجن لمدى الحياة، حيث لا خروج منه بعد ذلك سوى بالموت: هو رأي أيٍّ كان، عن الحظِّ."

لاحظ دافيد أن هناء قد أغمضت عينيها بعد نهاية إجابة كِندِت الأخيرة.

* * *

كانت إعادة استجواب دافيد لكِندِت قصيرة، وعرضية بطريقة خادعة. "*بالمناسبة،*" *سأل،* "*هل خبرتَ هذا الأسلوب من قبل؟ أعني استعمال الـ C-4 المجهزة بسلكٍ يمتد إلى جهاز تفجير.*"

"طبعاً، نصف دزينة من المرات على الأقلّ."

"هل لك أن تذكر لنا آخر حادثة منها؟"

"لقد حصلت في إسرائيل،" أجاب كِندت، "قام أحدهم بإيقاف سيارة مفخخة قرب مطعم في تل أبيب ولما اقترب الرجل المقصود من السيارة قام القاتل بتفجيرها ناسفاً الرجل معها."

"هل من فكرة لديكَ من هو القاتل؟"

بدأت شارب تهمُّ بالنهوض، رآها دافيد. ثم هزَّت كتفيها إشارة اللااكتراث. "لا أحد يدري،" قال كِندت لدافيد. "إن تقنيات التفجير لا تخضع لحقوق الاختراع. والتحقيق الإسرائيلي لم يتوصل إلى معرفة الفاعل."

"شكراً لك،" قال دافيد. "ليس لديَّ من أسئلة جديدة."

وعندما عاد دافيد إلى مقعده، نظرت القاضي نحو المدعي العام.

"ليس لديَّ أيّ أسئلة،" قالت شارب للقاضي بتفاخرٍ ضجِر، وكأنها تؤكِّد للمحلفين أنهم لم يسمعوا أيَّ كلامٍ يستحق الاهتمام.

* * *

أتت الساعة السادسة ولمّا يعد دافيد بعدُ إلى مكتبه.

كان الفاكس الذي أرسله آرنهيت ينتظر على مكتبه. ثلاث صفحات أنيقة الطباعة. تصفَّحه للمرة الأولى على عجلٍ، قبل أن يعود من جديد ليعكفَ عليه بطريقة أكثر منهجية. تباطأت قراءته بفعلِ شعوره المتنامي بأهميةٍ للموضوعِ أخطرُ بكثيرٍ مما مرَّ في خياله. ولولا المفاجأة التي احتواها، لما كان هذا التقرير ليأخذ منه ذلك الوقت الطويل حتى يستطيع أن يتبين كل ما ينطوي عليه. "فالزبون،" صائب خالد قد أودع المختبر ثلاث عيِّناتٍ من الشعر، ومن بصيلات الشعر، لكي يتم اختبارها: العيِّنة "ألف"، والعيِّنة "باء"، والعينة "جيم"، كلٌّ منها يعود إلى شخص مختلف؛ وقد أراد "الزبون" أن يعرف ما إذا كانت مصادرها مترابطة جينياً. وباختصار، فإن صائب خالد كان يريد مقارنةً للحمضِ النووي، بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة.

قرأ دافيد النتائج للمرة الثانية، ثم الثالثة. فصاحب العينة ألف لم يكن مترابطاً مع أيٍّ من صاحب العينة باء أو جيم. لكن صاحبَي العيِّنة باء وجيم: فقد كانا مترابطين جينياً بما ليس فيه أيُّ شك.

جفَّ لعاب دافيد.

طيلة وقت طويل ـ لا يدري طول مداه ـ بقي يحدِّق في الصفحة الأخيرة من التقرير. كما لو أنه لم يكن قادراً على التحرك من مكانه.

أخيراً، تحركت يده المرتجفة نحو فهرس الهاتف الدوار. استغرق الأمر برهة قبل أن تهتدي أصابعه المرتجفة إلى البطاقة الصحيحة التي يحتاج إليها. مستجمعاً نفسه، طلب رقم مختبرات ديابلو في أوكلاند، آملاً أن يكون أحدهم لا يزال موجوداً مساء ذلك اليوم الجمعة.

صوت رجلٍ ردَّ على الهاتف. "ستيف؟" سأل دافيد.

"أخشى أنك مصيب ـ متأخر في العمل مرة أخرى. من المتكلم؟"

"دافيد وولف."

"مرحباً دافيد،" ارتفعت درجة صوت ليفي. "لا بد أن هذا يتصل بقضية عارف."

استجمع دافيد قدرته على تظاهرٍ لا بأس به بالهدوء. فهو لم يظهر، في أسوأ تقدير، أكثر من محام مستعجلٍ قليلاً. "لا أستطيع القول،" قال لمحدثه. "لكنني أخشى أن الأمر بالغ الاستعجال."

"إن طلباتك هي دائماً بالغة الاستعجال،" أجابه ستيف ليفي. "قل لي ما الذي عندك؟"

"أريدك أن تنظر لي في نتائج فحصٍ للحمض النووي، كان قد أجريَ في إسرائيل."

وباختصار، وصف دافيد التقرير. "وهل لديك العيِّنات التي جرى فحصها؟" سأله ليفي

"كلا."

"إذن، لا أستطيع أن أقول لك شيئاً أكثر مما قالوا لك في التقرير ذاته. وإنني واثق من أنني لن أستطيع أن أخبرك بهوية هؤلاء الناس، ولا ماذا تعني النتيجة."

"أعتقد أنك تستطيع،" أجابه دافيد. "سوف أرسل لك التقرير مع رسول خاص."

"لماذا؟"

"لأنني سوف أرفق به عيِّنة رابعة، وأريدك أن تقارن حمضها النووي مع العينات الباقية."

"وتريد ذلك طبعاً بأسرع وقت ممكن."

"إنها تتعلق بقضية عارف." ورغم جهوده للسيطرة على صوته، إلا أنه بدا ثخيناً. "كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن هذه النتيجة قد تساعدني في إنقاذ حياة بشرية. لكن اليوم يوم جمعة، لذلك سيكون أمامك عطلة نهاية الأسبوع على الأقلّ."

عندما انتهى دافيد من مكالمته، حدَّق في شباكه المعتم دون حراك. ثم تناول مقصاً من دُرج مكتبه وقطع به خصلة من شعره الخاص.

الفصل

11

في عطلة نهاية الأسبوع، وجد دافيد نفسه رائداً من روّاد الأوتوبايلوت. كما أنه عوَّض ما فاته من متابعة لوسائل الإعلام، من صحافة، وكايبل تلفزيوني، وإنترنت، ليكتشف بشيء من الدهشة أن الشكوك التي أثارها في قاعة المحكمة قد أخذت تتسرب إلى الوعي العام للناس. وفي مأدبة عشاء ضمت بعض الأصدقاء في بيت أحدهم، استخدم دافيد كل ما فُطر عليه من استجابات اجتماعية تلقائية لمداراة سيل الأسئلة الذي انهال عليه، حول دفاعه عن هناء، وذلك طيلة اشتراكه في الهذر الاجتماعي الذي طغى على المناسبة، والذي ما لبث أن نسيه بعد ساعات. كانت الدقائق تمرُّ عليه تارة بتثاقل مؤلم، وتارة تختفي ويغيب معها إحساسه بالزمان. حتى كأنه يعيش في جوٍّ من الحيوية المعلَّقة خارج تخوم الحياة. فإذا به كيانٌ وهميٌّ حتى حِيالَ نفسه.

وفي يوم الأحد، التقى نسرين عوض ليجعلها تتدرب معه على أداء شهادتها كشاهد سلوكٍ على هناء. ومع أنها سلَّمت عليه تسليماً حارّاً، فقد آثر دافيد أن يُبقي مسافته عند حدود العلاقة المهنية التي كانت سبب اللقاء، وهكذا، فإنه نحا في الأسئلة والأجوبة، نحواً مقتصداً في المشاعر، كما في الاستطرادات. أمَّا السؤال الذي كان يبدِّده، فهو سؤالٌ لم يكن يستطيع طرْحَه.

وفي صباح الاثنين ألفيْتَه مضطرباً. ومع وصوله إلى المحكمة شق طريقه خلال حاجزٍ من الصحفيين، دون أن ينطق سوى بكلمات همهم بها في اتجاههم، "كل شيء يسير سيراً حسناً." جلس إلى طاولة الدفاع وسط شرنقة من أفكاره الخاصة، محدِّقاً إلى مقعد القاضي تايلور الذي كان لا يزال خالياً بينما جلبة المشاهدين الناشزة تزداد ارتفاعاً. تجاهل وجود شارب تجاهلاً كاملاً، وعندما دخلت هناء وجلست بجانبه، سائلة إياه عن حاله، فإنه نظر إليها في صمت، نظرة مركَّزة لم يرفَّ له خلالها جفن.

اتسعت حدقتاها قليلاً. "هل هناك من خطبٍ يا دافيد؟"

"لست أدري حتى الآن،" قال لها، قبل أن يتحوَّل عنها.

* * *

كانت نسرين عوض دقيقة في أدائها للشهادة، كما كانت ثابتة اللهجة، وأقلَّ عاطفية من المرأة التي تعشَّى معها في رام الله. لقد عرفَت هناء منذ عقدٍ من الزمان، قالت نسرين للمحلفين، عرفَتها كزميلة في المحادثات مع الإسرائيليين، وقد كانت أقربَ الأصدقاء إليها. لقد عرفتها في ساعات الشدَّة، كما عرفتها في هدوء بيتها، إلَّا أن أكثر وأهمَّ ما عرفَتها به، فهو أمومتها "وهذا هو فوق كل اعتبار آخر،" قالت للمحلفين، "لأن منيرة هي دافع هناء إلى الحياة."

"انطلاقاً من كل ما تعرفينه عن هناء عارف،" سألها دافيد "هل تعتقدين أن باستطاعة هناء أن تكون شريكة في اغتيال عاموس بن آرون؟"

وللحظة طويلة، أرسلت نسرين نظرتها في اتجاه هناء. "إن هذا الافتراض غير ممكن بصورة مطلقة." قالت بنبرة واثقة. "وهناك أسباب عديدة تجعل هذا الأمر مستحيل الحدوث."

"مثل ماذا؟"

أفردت نسرين ذراعيها. "من أين عساي أن أبدأ؟ شيء أول، كان يحدو هناء اعتقاد ـ أفضت به إليَّ غير مرة ـ أن المزيد من العنف، ليس شيئاً عبثياً فحسب، بل إنه يستدعي من الجنود الإسرائيليين إطالة احتلالهم للضفة الغربية. انظروا إلى هذا الذي حدث منذ أن قُتل هذا الرجل. لقد حصل المزيد من أعمال القتل، والمزيد من الأعمال الانتقامية، والمزيد من القمع والظلم والتدمير. إنها نتائج تتوقعها هناء بالمطلق، وهي آخر ما ترغبه وتتمنَّاه.

"إنها غاضبة بشدَّة من السياسة الإسرائيلية ـ ومن أجل هذا، فقد تقدمت باستقالتها من عضوية فريقنا المفاوض. لكن هذه الجريمة قد رجعت بنا القهقرى إلى الوراء." خفَّضت نسرين من ارتفاع صوتها. "ومرة جديدة، عدنا نسمع أصوات القنابل وهدير الطائرات القاذفة. تلك الأصوات التي سببت الكوابيس الليلية لمنيرة، وهي لا تزال تعاني منها. وإني لأتذكر قول هناء، 'لو كان بوسعي ان أمحو ذكرياتها عن الانفجارات والموت، لدفعتُ من أجل ذلك كلَّ ثمن مهما كان غالياً'. إن أكثر ما تتمناه لابنتها هو أن تكون ابنة سليمة العقل، متعافية النفس. أمَّا كل ما عدا ذلك، فإنه يأتي في الدرجة الثانية."

وللحظة، راودت دافيد فكرةٌ مُرَّةٌ تقول أن نسرين عوض قد لا تكون تدري مقدار صدق هذا الكلام. "من ملاحقتك لزواج هناء،" قال دافيد، "هل تعلمتِ أشياء من شأنها تعزيز قناعتك بأن هناء لا تملك أن تجازف بحياتها، ولا بقضاء أيام عمرها في السجن؟"

مصغية للسؤال، نظرت شارب إلى دافيد نظرة تخالطها الريبة والدهشة. ومن على منصة الشهادة، ألقت نسرين عوض بنظرة من عدم الارتياح نحو صائب. "فيما يتعلق بمنيرة،" قالت آخر الأمر، "إن ثمة خلاف كبير بين هناء وزوجها. فصائب رغب في جعلِ منيرة تشبُّ كامرأة مسلمة ملتزمة بشرائع وأخلاقيات الإسلام. فهو يريدها أن تتحجَّب، وهو قلما يسمح لها بالذهاب إلى أيِّ مكان يمكن أن تقوم فيه بمخالطة الذكور، وهو يريد أن يرتِّب أمرَ زواجها. أمَّا هناء فلها إعراضٌ عميق عن مثل هذه الأمور. إنها تريد بشراسة لابنتها منيرة أن تكون متحررة من التقاليد، وأن تشبَّ كامرأةٍ مستقلةٍ برأيها.

"وقد أدَّى هذا إلى خلافاتٍ مريرة بينهما. وقد صادف لي أن شهدتُ خاتمة واحدٍ منها، حيث كان صائب يقول لهناء أن هرة شاردة يمكن أن تكون أمّاً أفضلَ من امرأة تكون غربية في كل شيء سوى اسمها." توقفت نسرين قليلاً، وهي لا تزال منزعجة بوضوح، لما كانت قد سمعته. "وبُعيد اكتشاف هناء لكتلةٍ في نهدها خشيت أن تكون ورماً سرطانياً، إلَّا أن الكتلة تكشفت عن كونها مجرَّد ورمٍ حميدٍ، فإنني ما زلت أتذكَّر الخوف الذي رأيته في عيني هناء. 'أنا لا أريد أن أموت'، قالتْ لي. 'أنا لا يسعني أن أدعَ هذا الرجل يدمِّر كلَّ ما هي عليه منيرة'."

وفي دَكَّة المحلفين رأى دافيد آرديل واشنطن، وهي امرأة مطلَّقة وأمٌّ لثلاثة أطفال، تُجفِل بصورة لا إرادية. كما أن قاعة المحكمة قد رانَ عليها صمتٌ غير اعتياديّ. فالقاضي ذاتها بدت ساهمة، قلَّما تتحرك، وكأنها مسمَّرة في مقعدها بسبب ما تسمعه. أمَّا دافيد فوجد أن عليه اللجوء إلى إرادته حتى لا يجد نفسه يسترق نظرة إلى صائب. وبهدوء، تابعت نسرين كلامها، "لم يكن تجنُّب الموت بسبب إصابة بالسرطان أمراً يخضع لإرادة هناء واختيارها، أما المجازفة بالموت بسبب اقتراف جريمة قتلٍ ـ وهو أمرٌ مخالف في كل حال لطبيعتها ـ فهو أمر خاضع لاختيارها. وقد تعرضُ عليَّ النيابة العامة أدلَّة بحقِّ هناء تكون أفضلَ من هذه الأدلَّة المتوفرة الآن، ومع ذلك سأقول لها إنَّ هناء من المستحيل أن تكون مذنبة، يستحيل ذلك حتى آخر ذرَّة من وجودها. لأن حكماً بالإدانة سيعني انفصالها عن منيرة إلى الأبد. وفقط أسوأ أعدائها قد يفكر بإلصاق هذه التهمة القاتلة بها."

بقي دافيد ساكتاً للحظة، تاركاً عبارة نسرين الأخيرة تردِّدُ صداها في أجواء قاعة المحكمة. "شكراً لك يا سيدة عوض. لم يعد لديَّ مزيد من الأسئلة."

وعندما عاد إلى طاولة الدفاع، ناظراً نظرة مباشرة نحو زوج هناء، اشتعلت عينا صائب بالحقد والاحتقار. أمَّا هناء فحدَّقت أمامها على الطاولة.

"ربما كان عليك ألَّا تفعل ذلك،" دمدمت له باضطراب.

"ربما كان عليك عدم الزواج منه،" ردَّ عليها بحدَّة رغم صوته الخفيض. "لعلَّ هذا هو الدفاع الوحيد الممكن عنك."

وذهبت هناء خلف نظرة ساهمة.

* * *

قامت شارب باستجواب نسرين. كانت نبرتها باردة واستخفافية. نعم، قالت نسرين إنها على استعداد لعمل أيِّ شيئ في سبيل إنقاذ صديقتها، إلَّا شيئاً واحد لا يمكنها أن تفعله، وهو أن تكذب. كما أنها اعترفت أن لا شاهد عندها على الكلام الذي سمعَته بين هناء وزوجها. كما أنها أُرغمت على الاعتراف بأنها كانت قد سمعت هناء عارف وهي تدين عاموس بن آرون غاضبة أثناء محادثات السلام، ناعتة إياه بأنه منافقٌ ورِع، يتكلم عن السلام فيما هو يقوم بسرقة الأرض والمياه. وعندما غادرت نسرين المنصَّة كانت شارب قد نجحت في ضعضعة تأثيرها الذي تركته على المحلفين، وبات دافيد يقترب أكثر فأكثر من استنتاج ملؤه الخطر بأن شارب تحاول دفعَه لوضع هناء على منصة الشهادة كي تشهد لنفسها.

لم يقل دافيد هذا لهناء. وعند الظهر، أسرع إلى مكتبه، ملاحِظاً، مع مغادرته، أن هناء لم يعد بوسعها النظر في وجه زوجها.

* * *

كان ستيف ليفي قد اتصل به في غيابه. جالساً على كرسيِّه، أخذ دافيد نفساً عميقاً ثم ردَّ الاتصال إليه.

كان ليفي غائباً لتناول غداءه، ولمدة نصف ساعة، بقي دافيد يذرع أرض مكتبه، متوقفاً بين فينة وأخرى ليأخذ قضمة من ساندويتش من البسطرمة، لم يستطع إكماله. وعندما قرع آنجِل بابه، طلب إليه دافيد أن ينصرف عنه لأنه في حاجة للاختلاء بنفسه للتفكير.

وقبل دقائق من خروجه، رنَّ جرس الهاتف.

وكان ليفي هو المتحدث. "لقد انتهيت من معالجة الاختبار،" قال له.

جلس دافيد بكلِّ ثقله. "وماذا وجدتَ؟"

"لست أدري ما الذي أنت ذاهبٌ إلى إثباته. لكن النتائج تبدو واضحة جداً. فأنت تعرف من الأساس أن العيِّنة "باء" تتطابق جينياً مع العيِّنة "جيم"، بينما العيِّنة "ألِف" لا تتطابق مع أيٍّ منهما." توقف ليفي وكأنه يراجع الملاحظة المكتوبة أمامه. "أمَّا عيِّنة الشَّعر التي أرسلتها إليَّ، والتي سأسميها العيِّنة "دال" فإنها لا تطابق أيّاً من العيِّنتين "ألف"

و"باء". أمَّا المطابقة الجينية فهي بين هذا الشخص وبين صاحب العيِّنة "جيم".

مرَّت ثوانٍ قبل أن يستطيع دافيد أن يسأل، "ماذا إذاً؟"

"إن استنتاجي يا دافيد، هو أن، "باء" و"دال" ينعكسان جينياً في "جيم". هذا كلُّ ما يمكن تفسير هذه النتيجة به."

استطاع دافيد أن ينهي المكالمة بشكر ليفي، وقد بات مغموراً بمدى عمق تغيير معنى حياته بعد هذا الاكتشاف، وعن عمق التغيير الذي قد تحدثه على المحاكمة نفسها لو استطاع هو وهناء الإفصاح عنه. لقد اتضح أن دافيد وولف هو والد منيرة خالد.

* * *

بعد عشرين دقيقة، كان كل من شارب ودافيد في كنف مكتب تايلور، وكانت القاضي ترمق المحاميين بنظرة تقييم من وراء مكتبها. "إن المحلَّفين في انتظارنا،" قالت لدافيد. "وأنت هو من طلب عقد هذا الاجتماع."

شعر دافيد بوخز في أطراف أعصابه. "إنني أطلب رفعاً للجلسة،" قال بجراءة. إذ إنني خلال استراحة الظهيرة علمتُ بقطعة من دليلٍ يُحتمل أن يكون لها أثرٌ محوِّلٌ في الدفاع الذي يتعلق بموكلتي. كما أنه قد يؤثِّر على أهليتي للبقاء وكيلاً لها."

أقفلت تايلور حاجبيها. راقبها دافيد وهي تحسب ذهنياً الاحتمالات المختلفة لذلك، بما فيها احتمال أن يكون دافيد قد اكتشف لتوِّه أن هناء قد كذبت عليه بخصوص براءتها. "هلَّا تكرمتَ علينا بالمزيد من الإيضاحات؟"

"لا أستطيع يا صاحبة الاحترام. ليس قبل أن أبحث الأمر مع موكلتي."

ومع أن الأمر أقلقها، إلا أن شارب نظرت إليه بمسحة من الابتسام. لقد ظنت، كما لا بد سيظن دافيد لو كان مكانها، أنَّ أيَّ سببٍ يخصُّه بهذه الطريقة السيئة، لا بدَّ له من أن يصبَّ في صالح قضيتها. "سيدة شارب؟" سألت تايلور.

هزَّت المدعي العام كتفيها. "بوكالتي عن الولايات المتحدة، أنا لا أرغب في حصول أيِّ تأخير. لكنني أفترض أننا نستطيع أن نعلِّق الجلسات في فترة بعد الظهر هذه."

"هذا هو كلُّ ما أستطيع أن أمنحك إياه،" قالت القاضي لدافيد. "لهذا عليك أن تلتقي موكلتك دون إبطاء."

* * *

عندما دخل دافيد إلى قاعة المحكمة، كان المحلفون قد اجتمعوا، وكانت هناء تنتظر عند طاولة الدفاع. مشى من أمام صائب دون أن يلتفت إلى وجوده.

نظرت إليه هناء في قلق. "ما الذي يحدث؟"

ومع كل ما كان يعتقده دافيد من معرفة لها، فإنه شعر أنه يتكلم مع إنسانة مختلفة. جالساً بقربها ببطء، أجابها، "لقد طلبتُ من القاضي رفع الجلسة. وكاتبها الآن يفتش لنا عن غرفة شهود نستطيع أن نتكلم فيها."

تسرَّب الخوف من نظراتها. "نتكلم عمَّاذا؟"

تنفَّس دافيد عميقاً. "عن ثلاث عشرة سنة من الخداع. خداعك أنت على وجه التحديد."

الفصل 12

حشر القيمون على السجن دافيد وهناء، في الغرفة الخالية من النوافذ التي حشروهما فيها في المرة السابقة. وعبر الطاولة الخشبية الفاصلة بينهما، درسَت وجهه بنظرةٍ هادئة، لكنها لم تكن هادئة بما يكفي لإخفاء قلقها، الذي بدا كما لو أنها تستشعر خطراً دون أن تدري كيف تحدده. سألته بلهجة حذرة، "ما هو الأمر الذي يستدعي منّا القيام ببحثه؟"

"ابنتنا."

بقيت هناء ساكنةً، فيما توسعت حدقتا عينيها قليلاً. "ماذا تعني؟"

"لا تفعلي ذلك." نطق دافيد كلماته ببطء وتوكيد. "كذبةٌ واحدةٌ جديدةٌ، أو محاوَلةٌ واحدةٌ جديدةٌ للمراوَغة، وستجدينني أطلب من تايلور أن تعفيني من أمر متابعة الدفاع عنكِ. وعندما أقول لها عن السبب، فلن يكون أمامها سوى أن تجيبني إلى طلبي."

شعرت هناء بوخزةٍ في عنقها. "كيف لكَ أن تكون متأكداً أنك والدها أم لا؟"

"بالطريقة نفسِها التي لجأ إليها صائب. لقد أخضع ثلاث عيناتٍ من الشَّعر عائدة له، ولكِ، ولمنيرة إلى الاختبار. وكل ما فعلتُه أنا، هو إضافة عيِّنَتِي الخاصة إلى هذا الخليط."

"أرجوكَ إنني لا أفهمك."

"بل أعتقدُ أنك تفهمين. لقد قمتِ بخداعِ كلينا منذ أيام هارفارد. لكنَّ صائب لم يكن أبله مثلي. مع أننا إذا أردنا أن نكون عادلين معه، فعلينا أن نعترف أنه عاش ثلاث عشرة سنة معكِ، ومع ابنة صارت لغزاً نامياً متحركاً." صار صوت دافيد سوياً قاسياً لا يلين. "كنتُ دائماً أتفكَّر ما الذي تُراه يدعوكِ لكي تصبحي جزءاً من مؤامرة الاغتيال هذه؟ لكن الآن قد اتَّضح الدافعُ، وباتَ الأمرُ واضحَ التفسير.

"ففي إسرائيل، أخبرني زيف آرنهيت عن قصة امرأة متزوجة تحوَّلت إلى مفجِّرة

انتحارية. كانت حاملاً بسبب علاقةٍ مع عشيقها. فقام أخو زوجها بإعطائها الخيار قائلاً: اقتُلي معكِ بعضَ اليهود، أو واجهي العار أنت وأهلك."

"لكنني لم أعلم."

تجاهلَ دافيد كلامها. "لا بدَّ أن صائب قد وضعكِ أمام أحد مِثلِ هذين الخيارين،" تابع حديثه. "إمَّا أن تسمحي له بأن يستعملك بيدقاً يضحِّي به للتمويه في هذه الجريمة، وإمَّا أن يكشفَ عارَكِ كعاهرة حملَتْ بابنتها سِفاحاً من رجلٍ يهودي، وهكذا صرتِ غطاءَ عمليتِه، توفِّرين عليه الانكشاف، وتقومين بتوصيلِ تعليماته إلى حسن"

"إذن لماذا عليَّ أن أوكِّل والدَ ابنتي منيرة ليكون محامياً عني؟" تهدَّج صوت هناء، وغامت الدموع في عينيها. "صحيح، إنني شككتُ بالأمرِ، خاصة عندما كبرت منيرة، واستطالت قامتُها. كنتُ خائفةً من هذا.. لكن هذا هو كل ما في الأمر."

"حقاً؟" توقف دافيد، ثم أعاد على سمعِها كلماتها بعد مرور السنين "نحن مجتمعٌ محافظ، وللشرف أهمية كبرى عندنا."

حدَّقت هناء إليه. "هل أنت تجهلني حقاً إلى هذه الدرجة؟"

نظر إليها بابتسامةٍ باردةٍ. "بل أنا لا أفهمك على الإطلاق."

"إن صائب لم يفاتحني بهذه المسألة أبداً. إنني أقسم لك."

لم يشعر دافيد بأيِّ لين تجاهها. "يا له من زواجٍ،" قال لها. "آمل ألَّا تكوني مخدوعة إلى هذه الدرجة."

أجفلَت هناء. "أعرِف كم أنت مجروح - "

"مجروح؟" ردَّد دافيد بعدها. "امرأة غيرك قد تستطيع أن تجد كلمة أقلَّ تفاهة من هذه الكلمة."

"كُفَّ عن هذا." صار صوتها مشدوداً ويائساً. "لقد استحوذَت عليك فكرة مخادَعتي لكَ، حتى صرتَ تعمى عن الحقيقة الساطعة أمام عينيك."

"الحقيقة؟ أين هي الحقيقة اليوم؟ وما هي؟"

"هي أن ليس ثمة دافعٍ لديَّ لفِعل ذلك. وهي أنَّ دافِعَ صائب هو منيرة. قل لي منذ متى هو يدري بذلك."

ومهما تكن الشكوك قد بلغت بدافيد، فإنه وجد في رجفة صوتها مسحةً باطنيةً من الاكتشاف شاقَّة في تداعياتها. "منذ سنةٍ تقريباً!"

أغمضَت هناء عينيها قليلاً، وكأنها تحاول أن تستخرج منطقاً للأشياء من ركام

الذكريات. "لا بد أن صائب كان ينازعه الشك منذ سنواتٍ طويلة،" قالت بهدوء. "وكلما كان يزداد شكه، كلما ترجم شعوره بالعذاب - جرَّاء خيالاته عن علاقتي بك - إلى سعيٍ يجعل منيرة تصبح إنسانة لا تشبهني في شيء." مسَّدت هناء صدغيها. "وعندما صارَ صائب متأكداً ابنة من هي، لجأ إلى طريقة أخرى لمعاقبتي تكون أشدُّ قساوة من إطلاق رصاصة على رأسي. لقد أراد الانتقام مني بطريقة مقنَّعة خلف ستار عقوبة إعدامٍ ناتجة عن محاكمة في أميركا بسبب تهمة بجريمة قتل.

"إن عربياً متنوِّراً كان سيكتفي بالانفصال عني، وإن عربياً تقليدياً كان سيقوم بقتلي. صائب اختار لي موتة أكثر فائدة." حدَّقت هناء في دافيد بنظرة مستطلعة. "إنني بريئة يا دافيد. كم هي اختبارات كشف الكذب الأخرى التي تريدني أن أخضع لها؟"

بات دافيد مصفوعاً بمشاعرَ هي من الشدَّة بحيث لا يستطيع حلَّ تشابكاتها. "إذن حسْبَ نسختكِ عن الحقيقة، يصبح صائب هو المدبِّر."

"نعم. فقد يكون هو الذي أخذ الورقة، وأخذ الهاتف الخلوي من جزداني" صار صوت هناء مليئاً بالغصَّة. "تُرى ماذا كان يريد أن يفعل بابنتي بعد أن ينتهي كلُّ هذا؟ ماذا كان سيفعل؟"

"لا تقومي باستعمالها سلاحاً للتأثير عليَّ،" قال دافيد غاضباً. "إن كلّ ما أريده منك هو الحقيقة فقط."

"تستطيع أن تختار الحقيقة التي ترغب في تصديقها. إمَّا أن صائب قد هدَّدني، واستخدمني أداة في يده لتنفيذ جريمته، أو أنه قد لفَّق هذه التهمة لي وافترى عليَّ بتركيب هذا الفخِّ المحكم، دون أن أدري. ولكن عليك أن تعرف في الحالين أن منيرة تبقى ابنتك. وإني أرجوك أن تدرك أنها ليست ملومة على أيِّ شيء من كلِّ هذا."

هذا جعل دافيد يجلس في مقعده صامتاً. إن له الآن ابنة. فتاة عربية صغيرة قد قضت معظم سنوات عمرها تتلقى العقاب عوضاً عن أمها. والآن باتت هذه الفتاة، وهذه الحقيقة، هما المفتاح المخبوء الذي يقرر مصير محاكمة والدتها. حقيقة قادرة على تحويل ما يتعذر تفسيره، إلى نمطٍ منطقيٍّ له وقعُه الذي يبعث القشعريرة في الأبدان. "إن ما هو موجودٌ بيننا،" قال دافيد بعد طولٍ، "عليه أن ينتظر. أمَّا القرار الذي لا يقبل تأجيلاً، فهو الدور الذي سوف تلعبه منيرة في الدفاع عنك."

تلوَّى وجه هناءٍ من الألم. "أنا لا استطيع أن أفضحها يا دافيد، ليس في محكمة علنية."

"وأنا لا أريدُ أن أفضحكِ أنتِ أيضاً. وسوف أؤجل كشف الحقيقة إلى حينٍ آخر."

"وستقوم بإخبار منيرة، وإعلام الدنيا، أن صائب ليس والدها؟ ألا ترى ما يمكن أن يحدث لها بسبب ذلك؟"

"قد يكون هذا الأمر مدمِّراً لها." أجاب دافيد. "ولكن هل تريدين أن تجدك المحكمة مذنبة بدلاً عن ذلك؟ هل تعتقدين أن منيرة ستفضِّل العيش بدون أمٍّ على أن تعيش وهي تعرف أنها ابنة لرجلٍ يهودي؟"

لاحَظ دافيد كيف أن المضامين الكاملة لأسئلته تكتسح تحفظات هناء الأخيرة. قامت بتغطية وجهها، وبات كتفاها يرتجفان فوق نحيب لم يكن يستطيع أن يسمعه.

"من الذي ينبغي أن يبقى حياً يا هناء؟ أأنتِ أم صائب؟ هل ستقومين 'بحماية' منيرة عن طريق حماية زوجٍ يسعى إلى قتلِك. أم أنك ستحاولين إنقاذ نفسك وإنقاذ ابنتك بالسماح لي بتسمير زوجكِ إلى الجدار.

"لقد صرتُ أعلم أنني أبٌ منذ ساعتين فقط. لكنني الآن أستطيع أن أضع لكِ سعراً لكل ما قد عمِلتُه من أجلك: إنه حياة منيرة: فما من أبٍ يمكنه أن يترك هذه الفتاة لصائب خالد."

كان هدوء هناء هو الإشارة الوحيدة إلى أنها قد سمِعته. وبعد وقتٍ كشفت عن وجهها في ما بدا عملاً إرادياً. "قل لي ماذا تريد مني؟"

"أريدكِ أن تتقدمي إلى الشهادة في قضيتك الخاصة، ليس كمثل المرأة الفلسطينية الغاضبة التي رأيتها من قبلُ، تواجه موظفي مكتب التحقيقات الفيديرالي، بل كالمرأة التي أراها أمامي الآن. ثم أريدك بعد ذلك أن تجلسي في مقعدكِ وتشاهدينني وأنا أشتري حياتك بحياة صائب."

"حتى وإن كنت ما زلتَ على اعتقادِكَ أنني أنا المدبِّرة. حتى وإن كنتَ ما زلتَ تؤمِنُ أنَّ صائب قد قام بابتزازي لكي أساعده على قتل عاموس بن آرون."

"حتى وإن كان ذلك صحيحاً،" أجاب دافيد. "فإن بن آرون هو الآن ميت. بينما منيرة لا تزال حية."

راقبت هناء وجهه. "أنا آسفة يا دافيد. إني أعرف ما قد فعلتُه بكَ. فأن يكون المرء أباً، أو أمّاً، يغيِّرُ كلَّ شيءٍ في حياته."

ترك دافيد اعتذارها يمرُّ دون إجابة. "لا يزال لديك الآن ثماني عشرة ساعة،" قال لها. ثم عليكِ أن تختاري بين مشاعر منيرة، وبين حياتها. أمّا أنا، فسوف أقضي هذه الساعات في التفكير في الحقيقة الوحيدة التي أنا واثقٌ منها في هذه المتاهة المعقَّدة من الأكاذيب. وهذه الحقيقة: هي أن منيرة ابنتي."

* * *

وكما لو أنه في غيبوبةٍ، عاد دافيد إلى مكتبه، جاهداً للتعاطي مع التفاصيل التي لا تحتمل

انتظاراً، ومكافحاً لإيجاد فسحةٍ عقليَّةٍ رائقةٍ في ذهنه تستطيع أن تستوعب حقيقة أنَّ في مكانٍ ما، من هذه المدينة ثمة ابنة له، هي جزءٌ من كيانه، تعيش بعيدة عنه.

سمع دافيد طرْقاً خفيفاً على باب مكتبه. متوقعاً أن يكون الطارق هو آنجِل، نادى بلهجةٍ حادَّةٍ، "ما الأمر؟" لكنْ عندما انفتح الباب، تبيَّنَ له أن الزائر لم يكن سوى كارول شور.

مترددة، وقفت كارول وسط الطريق، بعينين مليئتين بالالتباس. "لقد خشيتُ أن أطلبكَ بالهاتف،" قالت له.

لمَسَ دافيد حافة أنفه، ثم رفع أنظاره إليها. "كان بإمكانكِ أن تفعلي ذلك،" قال لها بلطفٍ. "فأنا لم أرفض مرة اللقاء بكِ. لكن هذا اليوم بالذات، ليس هو اليوم المناسب لذلك."

وقفَت في مكانها لا تدري ماذا عليها أن تقول، وما إذا كان ينبغي لها أن تنصرف. "لقد كنتُ أتابع وقائع المحاكمة. كل ما أردت قوله هو أنني الآن أتفهم الأشياء بشكلٍ أفضلَ بقليلٍ. وربما بعد أن تنتهي هذه المحاكمة نستطيع أن نجلس لكي نتحدث عمَّا تعنيه بالنسبة إلينا."

إن كلمة 'إلينا' كانت قد أخبرت دافيد بأكثر من أيِّ كلام كان بوسعها أن تقوله. ولم يدرِ كيف يستجيب لها. وكل ما استطاع الإحساس به في تلك اللحظة، هو أنه كان في أمسِّ الحاجة إلى صديق.. إلى إنسان، يتشارك معه في حملِ عِبئه الثقيل. وبنعومةٍ، قالت له كارول:" لم يحدث لي مرة أن رأيتك متعَباً هكذا."

لعلها كانت مجرَّد كلمة تلطُّفٍ بسيطةٍ من ناحيتها، ولعلها كانت مجرد رجع لذكرى الأيام والليالي التي كانت فيها كارول أقرب الأصدقاء المقرَّبين إليه، أيَّام كانا يتحدثان، ويصغيان، ويخططان، ويتجادلان، وكلاهما يأمل، إن لم يكن يعتقد، أن النهاية الوحيدة لحياتهما معاً، سوف لن تأتي سوى عندَ قدوم أجلِ أحدهما بسبب العمر المديد. ومهما يكن دافعُها إلى هذا الكلام، فإن دافيد شعر باندفاعة هذه المشاعر الملعونة التي خشي ألَّا يجد في نفسه سيطرة عليها. "إنني أكثر من مُتعَبٍ يا كارول. إنني أشعر كما لو أن حياتي قد انقلبت وتغيَّرت بجميع حذافيرها، بحيث إنني قد فقدت توازني بالكامل. أنت تعرفينني، وتعرفين كيف أنني كنت دائماً مستعداً لأيِّ شيء، وأستطيع التعامل مع أيِّ طارىء تقذفه الحياة في طريقي. أمَّا الآن، فلا أشعر أنني كذلك."

حاولت كارول أن تبتسم. "إذن، لعله من الجيِّد أنني قدِمتُ إليك الآن."

سمع دافيد نغمةً أليفةً في صوتها، كارول التي كانت دائماً مصدراً للراحة والنصيحة. "إذا كان أحدٌ في الدنيا يستطيع أن يصلح هذا الأمر، فهو أنتِ،" قال لها، "لكن المشكلة هي أن لا أحد يستطيع ذلك."

"دعني أحاول."

هزَّ دافيد راسه. "إنها مسألة معقدة أكثر مما قد يخطر ببالك. وفوق ذلك، فإنني لا أستطيع أن أخبرك لماذا، لأن الأمر يتعلق بحياة أشخاص غيرك وغيري."

هزت كارول رأسها في ارتباكٍ يخالطُه الإصرار. "أرجوك يا دافيد. لقد حاولتُ أن أخرج من حياتكَ. لكنني أجدُ الآن أنني لم أستطع ذلك أبداً، ليس في قلبي على الأقل. امنحني فرصةً لكي أساعدك. أرجوك لا تنبذني عنك."

"أنا لا أريد أن أفعل بكِ ذلك،" انفجَر دافيد. "أنتِ لا تستطيعين أن تعرفي كم أنني أُحب أن أتكلم معك، وكم وكم أنني لا أريد أن أبدو لكِ كما لو أنني شخص ما، أحبك يوماً. لأن ذلك شيء غير صحيح. لكن ما حصل لي هو شيء لا أستطيع تقاسمَه مع أحدٍ. لأن شخصاً بريئاً قد يعاني، أو أكثر مِن أن يعاني. وأنا لا أستطيع أن أجعلَ أياً منَّا يتحمل هذا الوِزر."

راقبَت كارول وجهه. "هل هذا الأمرُ يتعلق بهناء عارف؟ أرجوكَ أن تقول لي."

تنهَّد دافيد. "هناء وأكثر أيضاً من هناء بكثير. إنه أيضاً يتعلق بي."

حدَّقت كارول به من جديد، فيما نضبت الدماء من وجهها. "أنتَ لا تزال على حبِّك لها، أليس كذلك؟"

هزَّ دافيد رأسه. "ليس الأمرُ مجرَّد حبٍّ، أو حتى مَن هو الذي أُحبُّه. أنا لا أستطيع الذهاب في كلامي إلى ما هو أبعد من ذلك."

نظرَت كارول بعيداً. وبَعد فترةٍ، قالت له، "لقد اعتقدتُ مرَّةً أن كِلانا هو جوهرُ حياةِ صاحِبِه. لكن يبدو أنه لم يبقَ عندك حياة كي تمنحها لي. فمهما يحدث معكَ فقد أعطيتَ حياتك لها. لم أكن لأستطيع سوى أن أكون مجرَّد تسليةٍ لك عن هناء، واقفة وأنفي محشورٌ إلى الزجاج." وفجأة، نهضت وهي تتكلم في اندفاعٍ جَزِعٍ. "إنني آسفةٌ، لكن عليَّ مغادَرَتك الآن، إن عليَّ أن أسترجع حياتي لنفسي."

أسرَعت نحو الباب، كما لو أنها تريد الخروجَ قبلَ أن يتبعثر كيانُها. ثم خرجَت والباب نصف مفتوحٍ وراءَها. وكلُّ ما بقي مِن كارول، هو وقعُ خطواتِ كعبيها السريعة على الأرض الرخامية.

الفصل

13

مع وصوله إلى شقة صائب، كان دافيد قد استعاد سيطرته على نفسه، مع أنه ما زال ينتابه شعور الإنسان الواقف على شفا جرفٍ مميت. لكن حالما قام صائب بفتح الباب شَعر دافيد بتيارٍ من البرودة يعبر كيانه.

حدَّق به زوج هناء دون أن يفسح له مجالاً للدخول. "قل لي ما الأمر؟"

"جئت لكي أرى منيرة وأراك."

شعورٌ أشبه بالانزعاج، لو لم يكن أكثر حدَّة، عبرَ على وجه صائب. "حتى دون أن تكلِّف نفسك أمرَ الاتصال مسبقاً؟"

"إن هناء تريدني أن أتحدث إلى ابنتها. وكنت في طريقي إلى البيت، وقد خطر في بالي أنَّ هذه هي فرصتي المناسبة من أجل المرور بكما."

ازدادت نظرات صائب تصلُّباً. "لا أفهم إحساسك بالتعجُّل، وكأنما منيرة على سفرٍ. فكما أنت تعلم، إننا هنا سجناء حكومتكم."

"منيرة سجينة بكلِّ تأكيد. وأنا ما زلت واقفاً عند العتبة." أبقى دافيد صوته هادئاً. "أنت وأنا لدينا أشياء يجب أن تسوَّى. أما بخصوص منيرة، فإذا كنت تتمنى أن تحصل هناء على أمرٍ يقضي بحق محاميها الاتصال بابنتها، فإنني سأرجع لكي أعود. إلَّا إذا كنت تعتقد أننا قادران على الكلام الآن."

ابتسامة ازدراءٍ استُحضِرت ثم غابت عن وجه صائب. "يا لها من حركاتٍ مسرحية. لكنني أعتقد أنك متعَب."

وبشيءٍ من المضاضة، سمح له صائب بالدخول. مجيلاً نظره في أرجاء غرفة الجلوس الخالية من الأثاث، فتَّش دافيد عن منيرة فلم يرَ أحداً. تناول كرسياً دون أن يدعوه أحدٌ للجلوس.

تردَّد صائب، ثم جلس على حافة أريكة قبالته. "إنَّ هناء ستقف على منصة الشهادة،" قال دافيد بجلافة. "وإنني أريد أن تكون منيرة حاضرة معها لكي تفصح عن أمومتها المكرَّسة لابنتها التي لم يتيسر للمحلَّفين أن ينظروا إليها مرة."

هزَّ دافيد رأسه. "إنَّ هذا إرهاق كبير للفتاة."

"هل هو مرهِقٌ أكثر من موت أمها؟ ثم إنني لا أرى منيرة هشَّة الأعصاب إلى هذه الدرجة."

نظر صائب نحو دافيد نظرة تقييم طويلة. "وماذا لو رفضتُ طلبك؟"

"عندها، قلتُ لك ما سأفعل." كان دافيد لا يزال يتكلم بروِيَّة. "أنا لستُ هنا لكي أستأذنَك. لقد جئتُ كي أصطحِبَ منيرة إلى العشاء، ولكي أخبرها ماذا عليها أن تتوقع. وبمفردنا."

تضيَّقت حدقتا صائب قليلاً، وكأنه يستشعر تبدُّلاً في الموازين بينهما. "إن هناء تواجه محاكمة. وحاجاتها مقدَّمة على سواها، وأنا أوافقك في هذا. لكن هذا لا يعطي لمحاميها الحقَّ في أن يطلِق الأوامر عليَّ بخصوص ابنتنا."

أمالَ دافيد برأسه في إتجاه غرفة النوم. "ثمة ثلاثة أبوابٍ عَبْرَ هذا الممر. هل ستدفعني إلى فتحها جميعاً، أم أنك ستقوم بإحضار منيرة بنفسك. ليس لدي مزيد من الوقت أصرفه معك."

تردَّد صائب ثم ما لبث أن ابتسم في جهدٍ متأخرٍ لإبداء سيادته على الموقف - "مثلما قلت لك، يا لها من حركاتٍ مسرحية. لكنها ستصل إلى نهايتها قريباً، وستنفرط بيني وبينك هذه الصحبة، مثلما ستنفرط أيضاً بينك وبين منيرة. لهذا، سأدعك تستمتع بلحظتك الزائلة من السلطان المؤقت."

وقف صائب وقفة المتشنِّج، ماشياً أمام دافيد عَبْرَ الممر. لم يحاول دافيد أن يلتفت إلى ما وراء كتِفيه، لكنه سمع صائب يتكلم باللغة العربية، ثم سمع الصوت الفتيَّ لابنته. وعندما انفتح الباب، فقط، استدار دافيد إلى الخلف.

وقفت منيرة قرب صائب، تنظر إلى دافيد في ارتباك، ابنةٌ لا تزال في بدايات تفتُّح أنوثتها نحو البلوغ. لكن التغيُّر الذي لاحظ دافيد ظهوره عليها كان شيئاً يفوق مجرَّد مرور أسابيع معدودةٍ فقط. وكلُّ ما كان يستطيعه، هو الامتناع عن إظهار هذا الشعور في تعابير وجهه. وبنظرة ثاقبةٍ نقَّل صائب أنظاره بين دافيد وبين منيرة. "لقد شرحتُ لمنيرة عن سبب قدومك،" قال صائب. "لهذا، فإن بإمكانك اصطحابها. وسأقوم بمناقشة هذا الأمر معك في ما بعد."

* * *

مشيا جنباً لجنب مسافة خمس عماراتٍ إلى مقهى إيليت، حيث استطاع دافيد حجزَ ركنٍ فيه بعض الخصوصية ـ محامٍ في ثياب المكتب، وفتاة عربية بغطاء فوق رأسها، وبعباءة تلتفُّ بها. متعرفة على دافيد، قادتهما المضيفة إلى طاولتهما بنظرة مستغرِبة نحو منيرة.

جلست الفتاة قبالته، معيدة ترتيب ثنيات ثوبها بأصابعها الرشيقة. "لقد جئتَ كي تحدثني عن أمي،" قالت منيرة في قلق. "هل هي بخير؟"

هزَّ دافيد رأسه متوقفاً عند دور المحامي. "إنها ستقف على منصة الشهادة قريباً. وأنا أعرف، كما أنتِ تعرفين، مبلغ محبتها لكِ. إني أريد أن يلاحظ المحلَّفون هذا الأمر بأنفسهم، أريدهم أن يلاحظوا كم أن أمك غالية عليكِ."

نظرت منيرة إليه من وراء رموشها السود. "هل ترغب إليَّ بالذهاب إلى المحكمة؟"

"صحيح."

"إذن سوف أذهب، مهما يكن قوله. فأنا لا أطيق أن أخسر أمي."

نطقت بكلماتها بحرارة وغزارة جعلتا قلب دافيد يسوحُ إليها. تخيَّل دافيد لياليها المؤرِّقة، وأيامها القلِقة، وهي معزولة عن الدنيا في هذا المكان الذي لا يمتُّ إلى عالمها بأيِّ صلة. حتى إنها مبعدة عن الإنسانة التي أيقن دافيد الآن أن منيرة تحبُّها محبَّة تفوق الجميع. "حسناً،" قال لها. "هذا سوف يساعدها حقيقة."

ندَّت منيرة برأسها في حزن. قدِمت النادل تعرض لكلٍّ منهما قائمة الطعام. "ألقي نظرة عليها،" اقترح دافيد. "ربما تختارين شيئاً تأكلينه."

وبينما كانت منيرة تفكِّر في أطباق لويزيانا المعروضة أسماؤها على الجدول، كان دافيد يملِّي أنظاره فيها دون خجل. وبعد لحظاتٍ قليلة من تأمُّله فيها تغيَّرت تقديراته الأصلية نحوها: فهي حسبما تبدو له الآن، ستصبح جميلة، هكذا قرَّر، ومن الواضح أنها ستكون جميلة بطريقة مختلفة عن هناء. فخطوط وجهها ستكون أكثر قوَّة ووضوحاً، أمَّا عيناها فستكونان أقلَّ صفاءً لكنهما ستلتمعان بذكاء أشدُّ اتقاداً. وبينما هي لا تزال تفحص لائحة الطعام وضعت منيرة أصبعها الوسطى المعقوفة على شفتيها، وأراحت سبابتها على خدِّها، وعند ذلك عرف دافيد في الحال من أين تحدَّر إليها هذا السلوك. لقد كان هذا هو سلوك والدته طيلة حياتها.

شعر دافيد كأن نبضة من نبضات قلبه تغيب. "لستِ والله سوى ابنتي،" ودَّ لو يستطيع أن يقول لها." ألا تحسين بذلك؟" رافعةً أنظارها إليه، سألته منيرة، "ماذا تعني عبارة 'سمك بربور مدخَّن'."

استطاع دافيد أن يستحضر ابتسامة. "لستُ متأكداً أنك تريدين أن تعرفي يا منيرة. ما رأيك في طبقٍ بحريٍّ حار؟"

كان لا يعرف، بالطبع، ماذا تحبُّ ابنته وما لا تحب. "في ما عدا اليهود ربما، فإننا في بلادنا،" قالت له منيرة "نأكل الكثير من الأطعمة الحارة."

"إذن، ربما عليك أن تجرِّبي طبقاً من البامية."

بعدما دوَّنَت طلباتِهما، أحضرت النادلُ قهوة لدافيد. حدَّقت منيرة في الفنجان الخزفي الموجود أمامه. "ما إن أرى فنجان قهوة،" قالت بنعومة، "حتى أتذكر أهل جدي، وهم يتركون فناجين الشاي على طاولتهم قبل أن يُهَجَّروا من منزلهم من قبل الصهاينة. لقد اعتقدوا أنهم لن يلبثوا أن يعودوا فوراً."

بلطفٍ قال لها دافيد، "لقد مضى على ذلك ستون سنة."

"هذا لا يغيِّر في الأمر شيئاً،" أصرَّت الفتاة. "أريد أن يعود جدي ليستعيد منزله، ولكي يُرجعه أجملَ ممَّا كان."

كم هو الوقت الذي سيلزم أن ينقضي قبل أن يتوقف حلم العودة عن استهلاك أعضاء عائلة هناء؟ فمنيرة هي ابنته، ومع ذلك، فإنها غريبة عنه بفعل التاريخ. "إن الشيء الأكثر أهمية،" قال لها دافيد "أن تكون لك حياتك الخاصة، وأحلامك الخاصة. فأنت لا تستطيعين أن تصلحي لجديك، ولا حتى لأبويك، كلَّ الأشياء التي حدثت لهم."

لكن هذا كان كلاماً شديد الإطلاق، عرف دافيد على الفور، قطَّبت منيرة سحنتها قائلة، "إنهم جزء مني، فصراعهم صراعنا، وصراع جميع الفلسطينيين."

هذا الترجيع لكلامِ صائب خالد، ضايق دافيد كثيراً، مذكراً إياه بهشاشة المساحة الشعورية التي بات يحتلُّها فجأة. فهو لم يكن مختلفاً عن الأب البديل، سوى في نواياه. لقد عاشت منيرة حياتها مع الآخرين، غافلة عن مدى ما لها من قوة طاغية لتغيير مجرى حياته، وبطريقة عاثرة غامر بالقول لها، "أعرف كم كانت الأمور صعبة عليكِ. وإنني أعجب ما إذا كان هناك من طريقة أستطيع أن أساعدك بواسطتها."

قطَّبت منيرة حاجبيها بينما هي تفكِّر في أمر عرضِه لها. ثم سألته في خجلٍ. "هل سيكون من الممكن لك أن تبتاع لي هاتفاً خلوياً؟"

كان طلبها غير متوقَّعٍ أبداً، بحيث إن دافيد ابتسم لها. ثم ما لبث أن أيقن أن الهاتف الخلوي بالنسبة إلى منيرة قد يكون طريقتها الوحيدة لكسرِ عزلتها. "وماذا سيقول والدك؟" سألها.

أطرقت منيرة أرضاً، طفلةٌ صغيرة واقعة بين رغباتها وبين الحقيقة الواقعية. "سيكون غاضباً منك،" اعترفت. "لكن والدتي لن تغضب. بل إنها ستكتفي بتنبيهي إلى ضرورة عدم فقدانه."

رفع دافيد رأسه. "إذن ماذا عليَّ أن أفعل؟"

نظرت منيرة إلى وجهه. "عليَّ أن أتحدث إلى أصدقائي،" قالت بشراسة مفاجئة. "لم أتكلم مع ياسمين منذ أن قُتل الصهيوني."

"ومن تكون ياسمين؟"

"إنها صديقتي المفضلة من رام الله. لكنها تعيش الآن في أميركا ـ في واشنطن دي. سي. لأن والديها موظفان عند السلطة الفلسطينية." خرجت كلماتها في رشَقٍ غاضبٍ. "عندما جئنا في هذه الرحلة. قالت لي أمي أن باستطاعتي أن أكلِّم ياسمين كل يوم. لكنني بعد ذلك فقدتُ هاتفي الخلوي. كانت أمي نائمة ولم أعثر على هاتفها الخلوي. وعندما استعرت هاتف والدي غضب عليَّ غضبة خلت أثناءها أنه سوف يقتلني."

مرتشفاً قهوته، حدَّق من فوق حافة فنجانه نحو الفتاة المغضبة التي هي ابنته. "متى كان ذلك؟"

"منذ وقت طويل." متوقفة، نظرت منيرة نحو السقف، محتسبة وقت نزول الظلامة بها. "كان ذلك في اليوم الذي سبقه حسبما أعتقد."

"اليوم الذي سبق اغتيال عاموس بن آرون؟"

"نعم."

وضع دافيد فنجانه على الطاولة بعناية. "وهل تمكنتِ من التكلم مع ياسمين؟"

هزَّت منيرة رأسها. "كان عليَّ أن أترك لها رسالة. لكن عندما ردَّت مكالمتي، فإننا تكلمنا إلى أن فرغت البطارية. لقد انتهينا لتوِّنا من الكلام عندما بدأ والدي يطرق الباب."

"ماذا حصل؟"

"كان يفتش عن هاتفه الخلوي. فتح الباب ورآه بين يديَّ. بدأ يصرخ علي قائلاً إنني سرقت هاتفه من جيب معطفه." بدت منيرة مذعورة. "أحياناً أستعير هاتف أمي. لكنه قال لي، إن الهاتف ليس لاستعمال الأطفال. وسألني عمَّا إذا كنت أتكلم مع أيِّ أحد."

حافظ دافيد على لهجة حيادية. "ماذا قلتِ؟"

أطرقت منيرة أرضاً. "كنت خائفة من الذي سيحصل لي لو أني اعترفت له بأنني قد قمت باستعمال هاتفه. لهذا قلت له إنني لم أتصل بأحد."

"وهل صدَّقك؟"

"بقي يسألني عمَّا إذا كنت قد كذبتُ عليه، وعمَّا إذا كنت متأكدة. لقد كنت شديدة الخوف لكي أقول الحقيقة. وبدلاً عن ذلك، فإنني قلت إنني وجدتُ البطارية فارغة." هزَّت

منيرة رأسها. "لكنه حتى الآن يرفض إعطائي هاتفاً خلوياً جديداً. هذه هي طريقته في معاقبتي على سرقة هاتفه."

حضرت دافيد سلسلة متلاحقة من الحقائق وهي: أن صائب أبعدَ محقِّقي مكتب التحقيقات الفيديرالي عن منيرة؛ وأنه حدَّد لقاءاتها؛ وأنه قد منعها من حضور جلسات المحاكمة التي وردت فيها إشارات متكررة إلى الهواتف الخلوية، والتي أثارت السؤال الناتىء المعلَّق حول من هو الشخص الذي يملك أيضاً وصولاً إلى هاتف والدتها. مع أنه قد لا يكون هو السؤال الصحيح.

"لمجرَّد الفضول فقط،" سألها دافيد بقلة اهتمام، "هل رأيت والدك مرة يتحدث على الهاتف الخلوي؟"

"لا أستطيع أن أتذكر." بدت منيرة مضطربة بشكل غامض، كما لو أنها منزعجة لحلمٍ مزعج لم تعد تتذكره. "إن لديه هاتفاً آخر الآن.

"وأعتقد أنني لم أعد أرَ الهاتف الذي استردَّه مني."

بقي دافيد ساكناً للحظة. "سأتحدث مع والدتك عن الهاتف الخلوي،" وعدَها. "ثم قد أتحدث في ذلك أيضاً مع والدك."

* * *

وفي صباح اليوم التالي، بعد السادسة بقليل، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً في واشنطن، خابر دافيد مكتب بعثة السلطة الفلسطينية. وعندما قامت موظفة الاستقبال بالرد، قام بالتعريف عن نفسه كمحامي للسيدة هناء عارف. أمَّا سبب اتصاله، قال لها، فإنه يصعب شرحه. لكنه يحتاج إلى التحدث مع صديق لعائلة خالد يعمل في السلطة الفلسطينية، وهو رجلٌ أو امرأة يستطيع أن يميِّزهما فقط، كوالدين لطفلة اسمها ياسمين.

وبعد مدة جاءت امرأة إلى الهاتف. كانت إنكليزيتها صافرة لكنها واضحة. "إنني أدعى فرح الشنطي والدة ياسمين، صديقة منيرة. وهل أنتَ دافيد وولف؟"

"نعم."

"حسناً يا سيد وولف، أنت تبدو محامياً قديراً. ما هو سبب اتصالك؟"

"إنها مسألة معقدة وشديدة السرية. لكن قد يكون في حوزتك قطعة من الورق بالغة الحساسية في الدفاع عن هناء."

"ما هي، لا فكرة عندي عن ذلك. لكن تستطيع أن تتابع كلامك."

"إن ابنتك ياسمين لديها هاتفها الخلوي الخاص. وأعتقد أنكم تحتفظون بنسخ عن فواتير هواتفكم؟"

"بالنسبة لهواتفنا، إننا نحفظ الفواتير بكل تأكيد، لأسباب تتعلق بالعمل، أما عن هاتف ياسمين فعليَّ أن أبحث وأتأكد."

واقفاً في مطبخه، بدأ دافيد بذرع الأرض. هل تستطيعين أن تبحثي لي بشكل مخصوص عن فاتورة تغطي المدة قبلَ وبعد عملية الاغتيال. أريد أن أعرف ما إذا كانت ياسمين قد تلقت مكالمة، او أنها أرسلت مكالمة من أو إلى رقم هاتف خلوي محدَّد."

" "حسناً إذن، لن يمكنني أن أبحث لك قبل مساء الليلة. فإذا وجدتُ لك شيئاً، ماذا تريدني أن أفعل؟"

"أرسلي الورقة بالفاكس إلى مكتبي. وإذا لم أكن موجوداً في المكتب، اطلبي من سكرتيرتي أن تأتي إليَّ وتستدعيني، حتى ولو كنت في المحكمة."

وعند انتهاء المكالمة، جلس دافيد مسنداً ظهره. ثم أغلق جفنيه، وصار في حالِ اقترابٍ من صلاةٍ خاشعةٍ لم يشهد مثلها إلا عندما جئنا مرة قرب الحائط الغربي.

الفصل

14

عندما اتخذت هناء مكانها على منصة الشهود، كانت قد تدرَّبت تماماً على يدِ دافيد إلى الدرجة التي تستطيع أن توحي بها إلى المحلَّفين ـ دون تعيين الدافع ـ أن زوجها بالذات يمكن أن يكون قد كاد لها هذه التهمة الملفقة. ومع أن محادثته مع منيرة هي التي قادت أفكاره، إلَّا أن دافيد لم يدع هناء تعرف شيئاً عن ذلك. فأداؤها لشهادتها سيحتاج منها إلى كل ما تمتلكه من طاقة على التوازن. فالتفكير في أن ابنتها ستقف كشاهدة محتملة ضدَّ زوجها كان كفيلاً بزيادة شعور هناء بالعذاب، وهذا ما سيجعل حضور منيرة في قاعة المحكمة أمراً يقترب من اللامحتمَل. وهي لديها الآن ما يكفيها لكي تستوعبه: فإذا كانت هناء قد أخبرته بالحقيقة، فإنها تكون قد علمت فقط أن هذه الابنة التي قدَّمت نفسها بشراسة على أنها فلسطينية، لم تكن في حقيقة أمرها سوى نصف عربية ونصف يهودية.

في اللحظة التي دخلت فيها منيرة بصحبة صائب إلى قاعة المحكمة بدت هناء متقلِّقة: إذ إنها لم تكن بعد قد وقع نظرها على الفتاة بعد أن أخبرها دافيد أن منيرة لم تكن سوى ابنته، وأن زوجها يعرف هذه الحقيقة أيضاً. لكن صائب لم يكن يدري أن دافيد وهناء قد اكتشفا ذلك، أمَّا منيرة فلم تكن تدري بشيء عن كلِّ هذا. وفي اللحظة الأخيرة، عندما دعا مساعد القاضي كلَّ الحاضرين في القاعة إلى الهدوء، لم تنظر هناء إلى زوجها صائب، لكنها ابتسمت لابنتها، ولم تكن لتزيح أنظارها عنها، وكأنما هي تراها للمرة الأولى.

أمَّا بالنسبة إلى دافيد، فإن هذه اللحظة كان لها وقعٌ مثيرٌ مزدوج. فتألُّم هناء الواضح بسبب عدم مقدرتها على ملامسة ابنتها كان ألماً أصيلاً في الدرجة الأولى. وها هو يأمل أن يؤدِّي ذلك إلى التأثير على المحلَّفين. لاحظ دافيد أن آدريل واشنطن كانت تلاحظ ذلك بتركيز شديد. كان يبدو أن نظرتها تجمع بين الحنان والشفقة من جهة، وبين الفضولية لمرأى أم تبدو نموذجاً للحداثة، ولها طفلة يلفها جلباب أسودُ لا يكاد يبرز منها سوى وجهها ويديها. وبجانبهم، حدَّق صائب نحو دافيد بشدَّة وإمعانٍ. شدة وإمعان جعلا دافيد يعجبُ ما إذا كان صائب بات يستشعر المخاطر التي بدأت تجتمع له تحت سطح مجريات

المحاكمة. ثم نادى المباشر: "الجميع نهوض،" فانصرف دافيد بتركيزه من جديدٍ على مهمته التي ستقرر ما إذا كان لموكلته أن تعيش أو أن تموت.

***

بعد الأيام العديدة التي انقضت في هذه المحكمة، أحسَّ دافيد، أنَّ هناء قد وجدت راحة في الوقوف على منصة الشهادة. اتخذ له مكاناً يسمح بأن تكون هناء مواجهةً صوب المحلفين بينما هي تستجيب لأسئلته. سألها دافيد ببساطة، "هل أنتِ متورِّطة بأيِّ شكلٍ من الأشكال، في مؤامرة اغتيال عاموس بن آرون؟"

وللمرة الأولى، سمع المحلفون صوت هناء، ناعماً وثابتاً. "كلا، ليس بأيِّ طريقة. فأنا لا أعرف عن هذه الجريمة أكثر مما يعرفه أيُّ شخصٍ يقرأ الجرائد. وعندما سمعتُ أن رئيس وزراء إسرائيل قد قتل في حادث تفجير انتحاري، أصابني الذهول والرعب."

"هل خطرَ في بالك مرة أن تشاركي في خطةٍ لقتله؟"

"كلا." هزت هناء برأسها بكل حماس. "هذا شيء لا يمكنني أبداً أن أشارك فيه."

"لماذا؟"

"مِن أين تريدني أن أبدأ؟" سكتت هناء برهة وهي تحدِّق نحو المحلفين، كما لو أنها تحارُ كيف يمكنها الإجابة على سؤالٍ بهذه الضخامة. "إن هذا الاغتيال لا يحقق شيئاً سوى استدعاء المزيد من الشر. فلقد تسبَّب في المزيد من أعمال العنف، كما أنه قد زاد من معاناة الكثير من الناس، حتى الآن. ففي أعين العالم بأسره يَسِمُنا هذا الاغتيال بميسم الإرهابيين. كما أنه يؤجِّل موعد اليوم الذي ستكون لنا فيه دولتنا الخاصة. كما أنه قد يحكم على أطفالنا، وعلى الأطفال اليهود، بلعنة الكراهية والقتل. تماماً كما فعل أبناء جيلنا، وكما فعل جيل آبائنا من قبلِنا."

وللحظةٍ، أمسكَت هناء عن الكلام: ولقد استطاع دافيد أن يقرأ في وجهها الحقيقة التي لا بد من أنها قد صعقتها - وهي أن الأطفال في الجهتين كانوا جميعاً ممثَّلين في صورة واحدة تختصرها ابنتها. "أنا لم أكن أحبُّ بن آرون،" اعترفَت هناء. "كما أنني لم أثق به يوماً. لكن الرجال الذين حبكوا هذه المؤامرة، لا يملكون أية رؤيا سوى رؤيا إهراق المزيد من الدماء. وقد كان من الأفضل لليهود والفلسطينيين معاً، لو أن هؤلاء المتآمرين قد ماتوا بدلاً عن بن آرون."

قشعريرة سرت في جسد دافيد لدى سماع عبارتها الأخيرة: إذ لعلها كانت تتكلم عن زوجها بالذات. "ومع هذا، فإن ذلك كله،" أنهت هناء عبارتها بهدوء، "لا يُعدُّ شيئاً بالمقارنة مع كوني أماً لمنيرة. ولا يسعني أبداً المجازفة بإمكانية افتراق إحدانا عن الأخرى، ولا المجازفة بتركها لكي يقوم أيُّ شخص غيري بتربيتها."

وبجانب طاولة الادِّعاء، راقبت شارب هناء بتعبيرٍ حازمٍ وحياديّ. "هل هناك شيء ما، في حياة منيرة،" سألها دافيد، "من شأنه أن يعزز مخاوفك بشأنها؟"

أطرقت هناء كما لو أنها تفكر في وضع إطارٍ لجوابها بعناية كبيرة. "إن منيرة،" قالت بعد طول، "هي فتاة تقف على عتبة البلوغ، ومع ذلك فهي طفلة قد روّعها العنف حتى إنه ما زال يتسبب لها بكوابيس ليلية رهيبة. أريد لها أن تحسَّ بفرح الحياة وليس بالذعر. أريد لها أن تكتشف في نفسها كم هي ذكية وقوية، وكم هي قادرة على اتخاذ قراراتها بنفسها. أريدها أن تكون سليمة متكاملة متعافية."

كان صوتها مشحوناً بحزمةٍ من المشاعر ـ حتى إن القاضي تايلور نفسها، التي كانت قد شهدت المعتلِّين اجتماعياً يذرفون من على منصة الشهود، دموعاً ساخنة على ضحاياهم الذين كانوا قد أزهقوا أرواحهم دون أيِّ شعور بالندم، بدأت ترمق هناء بنظراتٍ أرفق من ذي قبل. "منيرة،" تابعت هناء، "هي المسألة التي تُسبِّب أصعب الخلافات بيني وبين زوجي. إنه ليصعب عليَّ البوحُ بمثل تلك الخصوصيات في العلن، كما في حضورها. لكن هذه الأشياء هي السبب الأعمق الذي يمنعني من القيام بالمشاركة في عملية قتل عاموس بن آرون.

"فصائب يريد من منيرة أن تغطي نفسها؛ وأن تكون تابعة لسواها؛ وعندما تكبر قليلاً أن تتزوج من رجل يختاره هو لها. بينما أنا أريد لمنيرة أن تصير إلى أيِّ شيء تختاره هي لنفسها. وأن تجد لنفسها زوجاً يحترمها ويتعامل معها ككفءٍ لها." وبصوتٍ مليءٍ بتصميمٍ هادىء، أضافت: "أنا لا أريد لابنتي أن تكون مدفونة ـ ليس تحت الأنقاض فحسب، بل ولا تحت الغطاء والحجاب أيضاً، هذا الغطاء الذي يغطي جسدها. إنها هي قضيتي التي أحارب من أجلها الآن. وإنني لا أستطيع أن أترك مصيرها في يد صائب."

لقد وصلوا إلى لبِّ القضية، أيقن دافيد. فهذه المحاكمة تعكس حياة هناء. صراع شديد العمق بين زوج وزوجة. وقد دارت رحاه الآن بقسوة جعلت دافيد يصرُّ على حضور منيرة التي جلس صائب بقربها متشنجاً وجهه، فوَّهة من الغضب والاحتقار؛ أما عينا منيرة فقد كانتا منكّستين؛ وجذعها مقوَّس، كما لو أنها كانت تتمنى لنفسها لو تستطيع أن تضمحلَّ. "وبدوني،" قالت هناء بهدوء، "لن يكون هناك من أحدٍ يستطيع أن يتكلم دفاعاً عن منيرة حتى تستطيع منيرة التكلُّم عن نفسها." ناظرة إلى ابنتها، كانت عينا هناء مليئتان بالألم. وعندما استدارت نحو دافيد ونحو المحلفين مكملة إجابتها، فإن كلماتها كانت مرتجلة بالكامل. "إنني أنظر إلى منيرة فأرى حياتي تنعكس في صورتها. فعندما كنت صغيرة حاولتُ أن أكون حرة، لكنني كنت شديدة الارتباط بعائلتي، وبالصراع الذي يخوضه شعبي، بحيث إن هذه الأشياء حددَت شكل حياتي، وقرَّرت عني من هو الإنسان الذي عليَّ أن أتزوجه. وإنني آسفة لتلك الغلطة، آسفة بالنسبة إلى صائب، آسفة بالنسبة إلى منيرة، كما أنني آسفة بالنسبة إلى أي شخص سواهما كان قد تأثرت حياته بهذا الاختيار.

"إنني أريد لمنيرة أن تشعر بأنها مرتبطة بشعبها وبعائلتها على الدوام. لكنني أريد

لها أيضاً أن تختار، بنفسها، الطريقة التي ترى أن تشرفهم بواسطتها." مُنصتةً، أنهت هناء كلامها بهدوء. "لم تكمل منيرة بعدُ الثالثة عشرة من عمرها. وأنا وإياها كامرأتين، لا يزال أمامنا أشياء كثيرة نقوم بها معاً. وهذه المهامُّ لا تتضمَّن القيام بقتلِ اليهود."

ومن زاوية عينه، لمح دافيد بوب كلير، وهو ذاته رجل يهودي، يدرس هناء بتعبير بدا وكأنه يحتوي على مقدارٍ من التعاطف. وبعد وقفةٍ قصيرةٍ، سألها دافيد، "لماذا جئتم أنتم الثلاثة إلى سان فرانسيسكو؟"

"كان صائب مسافراً إلى أميركا ليلاحق بن آرون وينتقد مبادرته للسلام. لكن هذا كان هو شأن صائب فقط. أما أنا فقد أردت لمنيرة أن ترى بلداً مختلفاً جداً عن بلادها، في حال أنها أرادت في يوم من الأيام أن تأتي للدراسة هنا."

"من الذي اقترح فكرة قدومك؟"

"صائب هو الذي اقترح ذلك." تردَّدت هناء. "لقد أدهشني ذلك. إذ في السنة الأخيرة كان هناك الكثير من التوتر بيننا. ومعظمه كان بسبب خلافاتنا على منيرة."

خفَّت وتيرة الشغف في صوتها. فالحاجة المؤلمة لإقحام ابنتها في مسألة دفاعها يبدو أنها قد استنزفتها. وبلهجة هادئة سألها دافيد: "كيف استجبتِ إلى دعوة صائب لك؟"

"استجبت بالقول إنني أوافق على المجيء معه في حالة واحدة: هي أن يوافق على قدوم منيرة معنا. لكنه أجاب إنه لا يتمنَّى لمنيرة أن تخبُرَ هذه 'الثقافة المهينة.'"

"وكيف قمتما بحلٍّ هذا الخلاف؟" سألها دافيد.

"قلت له إذا بقيت منيرة في البيت، فإنني سوف أبقى معها. وفي النهاية أذعن صائب لطلبي."

فكرة مفاجئة صدمت دافيد بقوة: لو أن هناء لم تصرَّ على قدوم منيرة، فإنها لم تكن لتكون الآن في قاعة المحكمة، ولم تكن ابنتها لتستعير هاتف صائب. وفجأة سألها دافيد، "هل سبق لك مرة أن قابلتِ إياد حسن؟"

هزت هناء رأسها. "لا،" أجابته بثبات. "حتى إنني لا أستطيع تمييز صورته."

"هل قمتِ بطباعة رقم هاتفك الخلوي وسلمتهِ إلى حسن؟"

"كلا لم أفعل ذلك."

"من الذي يعرف أيضاً رقم هاتفك الخلوي هذا؟"

نظرت هناء نحو زوجها وابنتها. "لحدِّ معرفتي، يعرفه فقط صائب ومنيرة. فالحياة حيث نعيش مليئة بالعنف - ولا يمكن للمرء أن يتوقع متى تنشب أعمال إطلاق النار،

والتفجيرات، والإعاقات عند حواجز التفتيش. لم أكن أرغب في أن أكون بعيدة عن الاتصال بمنيرة، أو أن تكون هي غير قادرة على الاتصال بي."

"هل تستطيعين أن تفسري كيف وصلت بصماتك إلى الورقة؟"

"لا أستطيع ذلك. لكن هناك محلّين فقط، يمكن أن تكون هذه الورقة قد وردت من أحدهما، هما: مكتبي، وبيتنا."

"من الذي،" سألها دافيد، "يستطيع الوصول إلى بيتكم؟"

"عدا عن الضيوف؟ ليس هنالك سوى صائب، ومنيرة، والسيدة التي تقوم بتنظيف بيتنا."

"وماذا عن إمكانية الدخول إلى مكتبك؟"

"إنني الوحيدة التي تملك مفتاحاً للمكتب. لكنني أقوم بإقفاله فقط عند مغادرتي إلى المنزل في الليل."

كانا الآن، قد سلكا نسقاً في الأسئلة والأجوبة لبناء تمرينٍ منطقي يقوم بحلّه المحلفون. "وهكذا، خلال النهار،" تابع دافيد، "من هو الذي يستطيع الدخول إلى مكتبك؟"

"الزملاء، والطلبة، بل أيُّ شخص يستطيع الدخول في واقع الأمر."

"إذن، يستطيع أيٌّ كان أن يدخُل، من الناحية النظرية، إلى مكتبك، وأن يأخذ قطعة من الورق كنتِ قد لامستِها."

"صحيح."

توقف دافيد لحظة. "لكن عليهم أيضاً معرفة رقم هاتفك الخلوي، أليس كذلك؟"

"صحيح."

"خلا عن صائب ومنيرة، هل تعرفين أيَّ شخص آخر قد يكون توصل إلى معرفة رقم هاتفك؟"

"أنا آسفة،" قالت هناء بهدوء. "لا أعرف أحداً."

كان الجواب مثلما اتفقا عليه، أقلُّ اعتذاراً منه تعبيراً عن حقيقة مؤلمة. "أخبريني،" سألها، "هل صائب ومنيرة يعرفان أنك قد خصصت هذا الهاتف لهما وحدهما؟"

تردَّدت هناء. "لا أعتقد أنني قد أخبرتهما مرة بذلك."

بين المحلَّفين، رأى دافيد روزيللا سواريز تلقي نظرة نحو صائب مقترنة بتحريك رأسها يمنة ويسرة. "وأين تحفظين هاتفك الخلوي؟" سألها دافيد.

"أضعه دائماً في جزداني."

"ومن الذي يستطيع الوصول إلى جزدانك؟"

ابتسمت هناء ابتسامة خافتة. "لا أحد، مع أن منيرة تفتش فيه أحياناً عن شيء ما، تحتاج إليه."

توقف دافيد ثانية. "أثناء وجودكم في سان فرانسيسكو، هل قمتِ بإعارة هاتفك لصائب أو لمنيرة؟"

"كلا، لم يطلبه أيٌّ منهما مني."

"عند الساعة الثانية عشرة والدقيقة الرابعة من صباح الخامس عشر من حزيران، يوم اغتيال عاموس بن آرون، ماذا كنت تفعلين؟"

طيفٌ عَبَرَ فوق وجه هناء. "في ذلك الوقت، كنت مستغرقة في النوم منذ ساعات."

"وفي ذلك الوقت، هل تسلمتِ مكالمة من أحد؟"

"ليس لحدٍّ علمي،" أجابت هناء. "لم يترك أحد رسالة، فضلاً عن أن هذا المفجِّر الانتحاري، هو رجلٌ لم يسبق لي أن التقيت به."

"هل تعلمين كيف حدث أن هاتف إياد حسن الخلوي قد سجَّل إرسال رسالة منه إلى رقم هاتفك الخلوي؟"

أقفلت هناء عينيها لحظة. "لو كنت أعلم على من يجب عليَّ إلقاء اللوم، لما كنت موجودة هنا ومتهمة بالقتل. شخصٌ آخرُ يجب أن يكون قد فعل ذلك."

"خلال خطاب بن آرون،" قال دافيد، "لقد أفدتِ مكتب التحقيقات الفيديرالي، أنك كنت تتجولين في ساحة يونيون سكوير. لمَ لمْ تكوني تشاهدين الخطاب مع زوجك وابنتك؟"

"لأنني لم أكن راغبة في الاستماع إلى خطابٍ آخر من خطابات بن آرون، أو أن أرى ابنتي وهي تصغي إلى إدانات والدها. فجأة شعرتُ أن غرفة الفندق تضيق بي، وانتابتني رغبة في الاختلاء بنفسي."

"ولمَ أخبرت زوجك أنك ذاهبة للتسوُّق؟"

"لأن هذا كان أسهل من قول الحقيقة. فلم أكن راغبة في الشجار بحضور منيرة."

"خلال الوقت الذي غادرتِ فيه، هل تكلمتِ مع أحدٍ عبرَ الهاتف الخلوي، أو مباشرة؟"

"كلا." اختنق صوتها بالمشاعر. "كنت أتجول هائمة على وجهي، أفكر في شؤون حياتي. كنت أشبه بمن يمشي نائماً."

تعمَّد دافيد السكوت قليلاً. "هل تستنتجين أن أحدهم قد رتَّب هذا الدليل من أجل توريطك في قضية مقتل عاموس بن آرون؟"

بدت هناء وكأنها قد استعادت استجماع نفسها. "نعم."

"هل تعرفين من هو؟"

كان يمكن لهناء أن تجيب إجابات كثيرة. لكنها أعطت الإجابة الصحيحة بالكامل، وهي الإجابة التي كان قد اختارها لها دافيد لترك خياراتها مفتوحة وللحفاظ على عنصر المفاجأة. "كلا." قالت بهدوء. "كل ما أنا متأكدة منه هو أن كلَّ من فعل بي ذلك، لا بد من أنه يكرهني كرهاً عظيماً."

"شكراً لكِ،" قال دافيد. "لا مزيد من الأسئلة عندي."

* * *

خلال استراحة الدقائق العشر، التي سبقت قيام شارب باستجواب هناء. فتش دافيد عن سكرتيرته دون طائل آملاً أن تكون قد قدِمت ببيانات الهاتف المسترجَعة بواسطة والدة ياسمين. وعند طاولة الادعاء، كانت شارب قد دوَّنت بطريقة منهجية بعض الملاحظات غافلة عن أعضاء العائلة الثلاثة الذين كانوا ينسلخون بعضهم عن البعض الآخر ببطء. حدَّق دافيد نحو كلٍّ منهم؛ هناء كانت تجلس وحدها غارقة في أفكارها الخاصة؛ صائب كان يحدِّق على نحو ثابت في الأرض؛ فيما منيرة التي بدت قلقة وتعيسة، قد جلست ربما على مسافة أبعد من الرجل الذي ما زالت تعتقد أنه والدها.

وعند نهاية الاستراحة، كانت شارب تقف بهدوء على قدميها. "هل تؤمنين يا سيدة عارف أن للفلسطينيين حق في قتلِ الإسرائيليين؟"

كان دافيد وهناء قد تحضَّرا سلفاً لمثل هذا السؤال. "في الماضي،" أجابت هناء، "كنت قد قلت إن لنا الحق في قتل أولئك الذين يحتلون أرضنا ـ الجنود، وليس المدنيين ـ لكنني لم أعد أقول مثل هذا القول، أو أعتقده. لقد رأت ابنتي الكثير من مشاهد الموت."

"ومع ذلك، فإنك قد توقفتِ عن متابعة مباحثات السلام التي تحاول تذليل الخلافات مع الإسرائيليين."

"نعم."

"وفي وقت من الأوقات، كنتِ قد قمتِ بنعتِ الإسرائيليين على وجه العموم، وبن آرون على وجه الخصوص، بأنهم لصوص وكذبة."

وزنَت هناء، شارب بهدوء. "كنت قد قلت ما هو أكثر من ذلك، في الحقيقة. لقد قلت أيضاً إن الجدار الأمني لم يكن سوى غطاء لسرقة الأرض والمياه، وأنِ عاموس بن آرون ليس سوى منافقٍ ورِع، وليس حمامة سلام ملائكية. وكنت أعني كلَّ كلمة قلتها. لكن الكلمات ليست هي القنابل." اكتسب صوتها مسحة من السخرية. "إذا شئتِ أن تسجني

الفلسطينيين بسبب الكلمات الغاضبة، كما يفعل الإسرائيليون أحياناً، فإنه لن يبقى عند الجيش الإسرائيلي أيُّ شخصٍ لكي يؤذيه ويضايقه عند نقاط التفتيش. لأن الجميع سوف يكونون في السجن."

"رويدكِ"، أشار عليها دافيد عقلياً. خصَّت شارب هناء بابتسامة شك. "إذن قولي لي، يا سيدة عارف، من هو ذا الذي أنزل بكِ كل هذه الظلامة الفظيعة بالقيام بتلفيق هذا الدليل ضدك؟"

"كما قلت من قبل،" أجابت هناء، "لست أدري. فأن يكون الإنسان بريئاً يعني أنه لا يدري من هو المذنب الحقيقي."

"هكذا إذن؟ لا فكرة لديكِ من أيِّ نوع كان، حول كيف قد تكوني استثرتِ كلَّ هذا المقت، ولا عندَ مَن؟"

لم ينظر دافيد في اتجاه صائب أو منيرة. وعلى منصة الشهود تململَت هناء، كالمضطربة. "أفترض أنه لا بدَّ من وجود من يكرهني. أمَّا الذي فعلَ بي ذلك، فليس لدي من استطاعة لكي أقول لك من قد يكون."

"بين هؤلاء المجهولين الذين يكرهونك، كم هو عدد الأشخاص الذين لديهم وصول إلى مكتبك وإلى هاتفك الخلوي؟"

هزت هناء كتفيها هزَّة يائس. "كما قلت لك، لا معلومات لديَّ عن ذلك."

"هل قامت ابنتك بتلفيق هذه المكيدة لك؟"

"بالطبع لا."

"ألا تعتقدين أن لديها دافعاً لذلك؟"

استجمعت هناء نفسها. "هذا ليس سؤالاً جدياً. فمنيرة طفلة في الثانية عشرة من عمرها. إن مشاحناتنا تدور حول فروضها المدرسية وحول قلة احترازها وفقدانها الأشياء أحياناً."

بهدوءٍ، قالت شارب: "أظن أنه لا يبقى لنا سوى زوجك."

همَّت هناء بالكلام، ثم توقفت. "ماذا تقصدين؟" سألتها في النهاية.

ابتسمت شارب قليلاً وكأنها تعلِّق على ضعف هذه الإجابة. "دعيني أهجِّيءُ الأمر لكِ. إن تفسيركِ الوحيد لمسألة الدليل المادي ضدك، هو أنك ضحية مكيدة مدبَّرة. ومع كل ذلك فإنك تعترفين أن لا أحد يملك وصولاً إلى رقم هاتفكِ الخلوي سوى زوجك وابنتك ـ"

"هذا لحدٍّ علمي،" قالت هناء محتجَّة.

"لحدٍّ علمِك،" ردّت شارب بازدراء. "ألا يعني ذلك أنك تقولين أنك ضحية مكيدة مدبَّرة من زوجك؟"

حدَّقت هناء نحو صائب ومنيرة، وكان شعورها بالتوتر واضحاً. لقد أوصلها دافيد إلى حافة القيام بالاتهام، وها هي شارب الآن تحاصرها بهذا السؤال. "أودُّ أن أعتقد،" قالت هناء مماطلة، "أن مناكداتِنا الزوجية لم تذهب بعيداً إلى هذه الدرجة."

"لست مهتمة حول ما تودين أن تعتقدي،" ردَّت عليها شارب بحدَّة. "إن ما يهمني هو الدليل الماديُّ: رقم هاتف خلوي، مجموعة من بصمات الأصابع، ومكالمة هاتفية. أنتِ تدَّعين أن هذه الأدلة مدسوسة عليك. وعليكِ أن تقولي بواسطة مَن، إن لم يكن ذلك بواسطة زوجك؟"

أشاحت هناء بوجهها. "لست أدري كيف حصل كلُّ هذا. ولا أستطيع أن أقول من فعلَ ذلك بي."

"مِن الواضح أنه زوجك." توقفت شارب كأنها صُعقت بفكرة جديدة. "لعله إياد حسن. هل إياد حسن يكرهك أيضاً؟"

"لست أدري كيف يمكنه أن يفعل ذلك. فلقد قلت سابقاً، إنني لم يسبق لي أن التقيت به مرة."

"إذن ما الذي يدعوه لكي يخبر إبراهيم جعفر أنك قد قمتِ بتجنيده لكي يقوم باغتيال عاموس بن آرون؟"

"لست أدري،" قالت هناء مُصرَّة. "حتى إنني لا أدري إذا كان حسن قد قال هذا الكلام لجعفر حقاً."

"في هذه الحالة عليك أن تقولي لي لماذا يتآمر زوجك مع رجلين تقولين إنك لم تلتقي بهما أبداً، هما حسن وجعفر، على تدبير مكيدة ملفقة ضدك؟"

للحظة، بدت هناء كأنها تحدِّق في الفراغ. وبين المحلفين، لاحظ دافيد أن التعاطف الواضح على وجه بوب كلير قد انقلب إلى نظرة حادَّة من الشك. "لست أدري كيف حصل كل هذا،" كررت هناء قولها في النهاية.

تركت شارب هناء تجلس على هذا القول برهة، درسٌ متعمَّدٌ في التعمية. "في هذه الحالة،" قالت لها بلهجة صارفة، "لا أرى أيَّ منفعة من متابعة طرح أي سؤالٍ عليك على الإطلاق."

كان التعليق الأخير الذي لا مبرِّر له خلفَ أيِّ مقدرةٍ لدافيد على الإصلاح. محتاراً في أمره كيف يمكنه أن يعيد تدعيم الثقة بمصداقية هناء دون الاضطرار إلى كشفِ نسبِ منيرة، لمح دافيد وراء كتفيه سكرتيرته وهي تحمل مظروفاً أسمر.

"يا صاحبة الاحترام،" قال دافيد للقاضي، "إنني أطلب رفع الجلسة لمدة عشر دقائق."

الفصل

15

وحيداً في غرفة الشهود، أفرد دافيد أمامه سجلات الهاتف. ولسروره، فقد وجد أنها قد أُدرِجت فيها كل المكالمات البعيدة الصادرة عن هاتف ياسمين الخلوي. ومثلما أوحت له رواية منيرة، كان هناك مثل هاتين المكالمتين في الرابع عشر من حزيران، تفصل بينهما مدة أربع عشرة دقيقة: الأولى كناية عن مكالمة مختصرة إلى هاتف ياسمين كانت متساوقة مع قيام منيرة بتركِ رسالة لها. أما الثانية، وهي مكالمة ياسمين إلى منيرة، وقد استمرت مدة اثنتين وعشرين دقيقة، فقد عكست قيام محادثة بينهما. مدققاً في رقم هاتف الشخص الذي اتصل بياسمين أولاً ـ وهو منيرة دون أي شك ـ فقد شعر دافيد بفراغٍ في فجوة معدته.

فالرقم 669-3666 (415) له رقم مفتاح سان فرانسيسكو، وقد كان هو الرقم نفسه الذي استجوب بخصوصه مكتب التحقيقات الفيديرالي كلاً من هناء وصائب. وقد عرف دافيد منذ يومها، أن هذا الرقم كان هو الرقم الذي استُعمِل من أجل تنبيه إياد حسن إلى أن طريق موكب بن آرون قد تغيَّر. ومع أنه قد استعارته منيرة، فإن الهاتف الخلوي كان هاتف صائب. وهذا يعني أن صائب خالد ـ وليس زوجته ـ قد يكون هو مدبِّر إياد حسن.

حاول دافيد أن يستوعب الأبعاد الكاملة لما تعلَّمه لتوِّه. فهلال ماركيس قد يكون قام بتسريب الخبر عن تغيير خطة الطريق، ومكالمته قد تكون ذهبت إلى صائب ـ فإذا كان ذلك صحيحاً، فإنه يعني أن صائب مرتبط بالعقول المدبرة الكبرى لهذه المؤامرة، من خلال وسيط في أقلِّ تقدير. وهذا سيجعل الافتراض بأن حسن قد كذب على جعفر حول هوية مدبِّرته، أمراً معقولاً، وقابلاً للتصديق. ومع هذه الحقيقة، فإن مصداقية ما تبقى من الأدلة المادية المساقة ضدَّ هناء، تصبح أدلَّة ملطَّخة. كما صار هناك سبب أقلُّ بقليلٍ لدافيد، لكي يبقى على شكه في ادِّعاء هناء بالبراءة. كما صار عنده حاجة أقلُّ، خلا عن حاجة المحامي إلى الموضوعية، لكي ينأى بنفسه عنها.

لكن مشكلةً صعبةً ولا محيدَ عنها بقيت قائمة: فإن هذا كله، كما أن إبراء هناء، سيتوقف بكامله على ذاكرة طفلة في الثانية عشرة من عمرها، شاهدة غريرة ضد الرجل الذي تعتقد أنه أبوها. والأسوأ من هذا كلِّه، أن هذا الرجل قد يكون، هو والمتآمرون المجهولون معه، مصدر تهديدٍ لحياة منيرة منذ لحظة معرفته بما قد أقدمَت عليه. وهكذا، بات دافيد بين واجبين حتميين، تحرير هناء، وإنقاذ حياة ابنتهما.

انتهت استراحة الدقائق العشر.

سارع دافيد إلى قاعة المحكمة مرتِّباً أفكاره بأسرع ما يستطيع.

* * *

لم يتيسر له أيُّ وقتٍ لكي يخبر هناء بأيِّ شيء. مشيراً إلى شارب، التي تبعته، اقترب دافيد من القوس.

"ما الأمر؟" سألت تايلور بمسحةٍ من الخشونة.

"أرغب في صرفِ السيدة عارف عن منصة الشهادة يا صاحبة الاحترام محتفظاً بحقي في استعادتها إلى المنصة من جديد. أكثر من ذلك، إنني أطلب تمديد فترة تعليق الجلسة. فلقد تسلَّمتُ لتوِّي قطعة من الدليل، جديدة. إنه دليلٌ أعتقِدُ أنه كفيلٌ بإعفاء موكلتي من المسؤولية بشكلٍ كامل."

"إذن دعنا نعرف عنه شيئاً يا حضرة المحامي."

"لا أستطيع مناقشته حتى الآن. ليس قبل أن أتكلم مع موكلتي أولاً." واستجابةً لنظرة تايلور غير المستحسِنة، أضاف دافيد بسرعة، "إن ما عرفتِه، يا صاحبة الاحترام، هو مسألة شديدة الخصوصية للسيدة عارف. وبعد استئذانها أستطيع أن أكشف كلَّ شيءٍ في غرفة مكتبكِ. وأستطيع أن أخبركِ الآن، أن هذا الأمر يتعلق بما هو أكثر مما ستتمخض عنه نتيجة هذه المحاكمة، لأنه يتعلق بحياة طفلة."

نظرت تايلور إلى شارب. "ألم نكن وسط هذا الشيء من قبل؟"

تساءلت النائب العام بشيء من الانزعاج. "قبلَ أقلَّ من أربعٍ وعشرين ساعة كان لدى السيد وولف معلومات جديدة مهمة ليناقشها مع السيدة عارف. وكل ما تبعَ ذلك، هو ظهورها لكي تخبرنا القصة القديمة ذاتها عن كونها ضحية تهمةٍ مدبَّرة."

هزَّت القاضي رأسها. "إذا وضعنا التوصيفات جانباً،" قالت لدافيد، "فإن ما تقوله النائب العام هو صحيح إلى درجة كبيرة."

أحسَّ دافيد أن معدته تنقبض. "بصفتي ركن من أركان هذه المحاكمة،" أجابها، "أتعهد لك بأن هذه ليست خديعة. وإذا كان ما قد علمتُه لا يجري التعامل معه بمسؤولية

منًا جميعاً ـ بما في ذلك، الدفاع، والادِّعاء، والمحكمة ـ فقد تحصل هنالك عواقب لا يريد أيٌّ منًا أن يعيش معها."

تفرّست به القاضي عن قربٍ. "حسناً،" قالت له. "سوف نرفع الجلسة حتى التاسعة من صباح غد. وفي ذلك الوقت، إما أن نلتقي في مكتبي، أو أن ننتهي من هذه المحاكمة. لهذا عليك أن تحسن استعمال الوقت، أنت والسيدة عارف."

* * *

في غرفة الشهود جلسَت هناء في مقابلة دافيد. "إنني مدينٌ لكِ باعتذارٍ." قال لها برقَّةٍ. "لقد حصلتُ لتوِّي على دليلٍ يشيرُ في الحقيقة إلى أنكِ بريئة."

بدت هناء مذهولة. "كيف؟"

"كانت منيرة هي من أعطاني إياه."

هزَّت هناء رأسها، كما لو أنها تحاول أن تصحو. "في اليوم الذي سبق اغتيال بن آرون،" قال دافيد، "استعارت منيرة هاتف صائب الخلوي. وعندما اكتشف أنها قد أخذته، اشتعل غضباً، مع أن منيرة قالت إنها لم تستعمله أبداً. أمًّا ما لا يعرفه هو حتى الآن، فهو أنها قد كذبت عليه: لقد استعملته لمكالمة ياسمين الشنطي." غطى دافيد يد هناء. "لقد كان هاتف صائب الخلوي، هو الهاتف الذي تم استعماله لمكالمة إياد حسن. إن زوجك هو المدبِّر يا هناء. لكن ابنتك فقط هي من يستطيع البرهان على ذلك."

أغلقت هناء عينيها. "إن كل ما عليَّ أن أفعله،" تابع دافيد، "هو أن أجعل منيرة تروي قصتها هذه للمحلفين، ثم أقوم بتقديم سجلات هاتف ياسمين. لكن وفقاً لمنيرة، فإن هذا سيعني لها أنها تقوم بخيانة والدها من أجل إنقاذ والدتها.

"وإنَّ هذا ليس أسوأ ما في الأمر. إن كلَّ من وجدتُ أنه يستطيع مساعدتي في حلِّ هذه العقدة، قد قُتل ـ ليف وماركيس ـ وأنا متأكد أن قتلهما قد حصل على يد الجماعة المدبِّرة للمؤامرة." أخذ دافيد نفَساً عميقاً. "لقد بدأتُ أفكر أن صائب يكره منيرة بقدر ما يكرهكِ. وقد يكون كُرهُه لها يفوق ذلك، لأنه ينظر إليها فيتخيل علاقتنا معاً. فعندما يكتشف بقية الأمر، فلست واثقاً أن أي شيء قد يردعه أو يردعهم."

حدَّقت هناء نحوه، وقد توسعت عيناها التياعاً. "علينا أن نقوم بحمايتها يا دافيد. كيف لي أن أسمح لها بالشهادة؟ فحتى لو لم تُقتل منيرة، فإننا نكون قد تسببنا لها بالأذى لمدى الحياة، جاعلين إياها تكره نفسها، وتكرهك وتكرهني بسبب قيامنا بوضعها على منصة الشهادة. إنني لا أستطيع أن أفعل بها كل ذلك."

"إننا نتحدث عن ابنتي أنا أيضاً." رقَّق دافيد لهجته. "لن أدعك تموتين، يا هناء. كما أنني لن أجازف بوضع ابنتنا بين أيدي شخصٍ قد يقوم بقتلِها. إنَّ ما أريد أن أفعله

هو أن أوقف تصفية هذا الحساب لمدة يومٍ أو يومين ثم أحاول أن أجد مخرجاً لهذا الأمر."

"كيف؟"

"عن طريق الطلب إلى القاضي أن تقوم بوضعِ منيرة تحت حماية المحكمة، ثم استدعاء صائب إلى أداء الشهادة."

كرجَت الدموع على خدَّي هناء. "سوف تقوم بسؤاله عن منيرة؟"

"فقط إذا كان ذلك ضرورياً،" قال دافيد. "لكنني سأفعل ما عليَّ أن أفعله. فثلاث عشرة سنة، وأربعة ضحايا، تكفي. فإذا كنتُ أستطيع إنهاء هذا الأمر مع صائب، فالأمر خيرٌ وأبقى."

الفصل

16

بعد مكالمة هاتفية مع القاضي تايلور، تبعتها ليلة مسهَّدة، مثُل دافيد وشارب في المكتب الخاص للقاضي تايلور. جلست القاضي وراء مكتبها ناظرة نحو دافيد نظرة توقُّع. "لقد كنت أنت من طلب انعقاد هذا الاجتماع يا سيد وولف، تفضل وقل لنا ما لديك."

أمسك دافيد حافظة أوراقه مستخرِجاً منها نسخاً عن سجلات هاتف ياسمين الشنطي، أعطاها إلى كل من تايلور وشارب. كان على البيان دائرتين بالحبر الأحمر حول قيدٍ لاتصالين حسَّاسين. "هذا هو بيان باتصالٍ أجرته منيرة خالد لصديقة لها في واشنطن، ثم لاتصال الصديقة بمنيرة. وأعتقِد أن السيدة شارب سوف تتذكر هذا الرقم الهاتفي الذي قامت منيرة باستعماله."

مستخرجة نظارتيها النصفيتين، نظرت شارب في الرقم، ثم عندما وجدته، حدَّقت بثباتٍ نحو الورقة. رافعة نظرها إلى تايلور، قالت ببطء، "إنه رقم الهاتف الخلوي الذي تم استعماله لمكالمة إياد حسن."

أطلقت تايلور نظرة تعجُّبٍ نحو دافيد. "أفترِض أنك تستطيع أن تشرح لنا ذلك."

"هذا ما تستطيعه منيرة. لقد استعارت هذا الهاتف الخلوي من صائب خالد دون علمه. وعندما وجده معها استشاط غيظاً، ثم ضايقها ليعرف ما إذا كانت قد قامت باستعماله. ولحسن الحظ فإنها قامت بالكذب عليه." نقَّل دافيد نظره بين القاضي وبين شارب. "وأعتقِد أنني لست في حاجة لكي أقول لكما الباقي."

أرادت شارب أن تُبقي ملامحها خالية من التعبير، وبنبرة فاترة سألته. "كيف عرفتَ كل هذا؟"

"منيرة هي التي أخبرتني. لكنها لا تعي ماذا يعني أيُّ شيء من هذا كله. هذا فضلاً عن أنها قد صارت الشاهد الرئيسي لأمها."

هزَّت شارب رأسها مؤكِّدة. "إن هذا لا يجعل موكلتك بريئة بسحر ساحر. وفي أقصى الحالات، إنه يشير إلى أن زوجها متآمر مثلها."

استدار دافيد نحو القاضي. "إذا كان صائب هو المدبِّر،" قال موجهاً كلامه إلى شارب أيضاً، "فهذا يعني أن حسن كان يكذب على جعفر. مما يبعث على الظن أن خالد قد قام بطباعة رقم هاتف هناء الخلوي على طبق من الورق، وهو الذي أخذ هاتف هناء الخلوي من جزدانها ممكِّناً حسن من إجراء مكالمته إلى رقمها عند منتصف الليل ـ"

"إن هذا لا يستقيم،" قاطعته شارب بإيجاز، "القضية ضد موكلتك هي قضية مستقلة عن أية قضية أخرى ضد زوجها. فكلاهما يمكن أن يكون مدبراً، وقد كانا يعملان معاً."

"لكنكِ سمعتِ شهادة هناء. فكلاهما لا يكاد يطيق وجود الآخر."

"كلاهما،" أجابت شارب، "قد يكون ممثلاً بارعاً، فيما تلعب أنت دور مدير الفرقة الغافل. فإذا كنت تداورني لكي أقوم بإسقاط الدعوى، فإن عليك أن تنسى هذا الأمر."

استدار دافيد نحو تايلور. وببطء هزت القاضي رأسها. "لن أستطيع إلغاء هذه الدعوى يا سيد وولف. ليس بدون ما هو أكثر مما أعطيتني."

"إذن، على الأقل، ضعي منيرة خالد تحت الوصاية الحمائية. فقد سبق وأن قُتِل شاهدان محتملان في إسرائيل، من قبل. وما لم تبقَ منيرة سالمة، فإنني لن أستطيع أن أضع خالد على منصة الشهود. وهذا هو ما يدفعني الادِّعاء إلى عمله. "ثم أضاف متجهاً نحو شارب بشكل محدَّد، "ما لم يكن ثمة آراء أخرى لدى حكومة إسرائيل. فإنني لا أنوي أن أضع لأسئلتي أيَّ كابح يتعلق بالأمن القومي لكلا الدولتين."

"إذن، لقد عدنا إلى الابتزاز."

"لقد صار الأمرُ متعِباً يا مارني. عضوٌ في مجموعة حماية بن آرون ـ يُحتمل أنه ماركيس ـ يبدو أنه خابَرَ خالد. وخالد قد يكون في سريرٍ واحدٍ مع المتآمرين. وكنائبٍ عام، أعتقِد أن عليكِ أن تكوني فضولية على الأقل. أما بصفتي محامي هناء، فإني أعتقد أن من حقي أن أقوم بطرح هذه الأسئلة."

"لك الحق بذلك،" قالت تايلور، مستديرة نحو شارب. "ما لم تكوني تريدينني يا سيدة شارب أن أجيز استئنافاً مباشراً إلى المحكمة الدورية. كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنني سوف لن أقوم بتكبيل السيد وولف، ولا أعتقد أن محكمة الاستئناف سوف تقوم بذلك أيضاً. لكنني أستطيع أن أعلِّق المحاكمة، إذا شئتِ، وأدعَ لك فرصة لإيجاد هذا الأمر بنفسك."

تردَّدت شارب وكان مزاجها نكِداً. "ثمة أناسٌ في واشنطن ينبغي عليَّ استشارتهم، كما أن هنالك أناس في إسرائيل قد ترغب واشنطن في استشارتهم. والسيد وولف يعرف جيداً أن هذا الأمر يثير تعقيدات جمة."

"السيد وولف،" قالت القاضي بابتسامة خفيفة، "يعرف ذلك حق المعرفة. لكن هذا لا يزال يترك سؤالاً معلَّقاً حول ما ينبغي عمله بخصوص منيرة خالد. وكما فهمتُ طلبكَ يا

سيد وولف، فإنك تريد مني أن أوفِد قيِّمِين على السجناء، فيديراليين، لتسلُّم ابنة موكلتك قبل أن يدري والدها بما قد يحصل له، وهو أمرٌ عليَّ أن أقول إنه شيء غير اعتياديٍّ بالنسبة لي لكي أفعله. فهل تريد أن تقول لي أن خالد قد يقدم على قتل ابنته؟"

توقف دافيد، متفكراً للحظة أخيرة ما إذا كان عليه أن يكشف حقيقةً ملهبةً أُخرى. لكنه وجد أن لا بدَّ له من ذلك. "ثمة سبب آخر للقلق،" قال بأهدأ نبرة يستطيعها. "إنه سببٌ يؤثِّر على سلامة منيرة، كما يبدد شكوك السيدة شارب بأن هناء شريكة لخالد بدلاً من أن تكون ضحية تهمة مدبرة حبَكها لها. وكل ما أستطيع أن أطلبه من الحكومة، ومن المحكمة، هو أن تبقى هذه المعلومة سريَّة، إلى أن تظهر من خلال شهادة علنية."

تجهمت القاضي. "ما لم يتيسر لي أن أعلمَ ما هي، فإنني لا أستطيع قطْعَ أيِّ وعدٍ، ولا أظن أن السيدة شارب تستطيع ذلك أيضاً. لهذا، عليك أن تثق بحكمنا، أو أن تحتفظ بما قد يكون لديك لنفسك."

هزَّ دافيد رأسه مذعناً على مضض. ثم سلَّم إلى كلٍّ من شارب وتايلور، نسخة من وثيقة مؤلفة من ثلاث صفحات. تصفَّحت تايلور الوثيقة بسرعة. "ما هو موضوع هذه الأوراق بالضبط؟"

"إنه اختبار حمضٍ نوويٍّ كان قد طلبه صائب خالد استناداً إلى ثلاث عيِّنات من الشَّعر جرى تقديمها إلى مختبَرٍ في تل أبيب. أمَّا نتيجته فتُظهر أن خالد ليس والد منيرة، وأنه يدري بهذه الحقيقة."

درست شارب التقرير بشفتين مزمومتين. "إن العيِّنات غير محدَّدة، فكيف عرفتَ أن العيِّنة "ألف" تعود إلى خالد؟"

"لأن هناك اختباراً آخر إضافياً،" أجاب دافيد معطياً كلاً من المرأتين نسخة عن تحليل الحمض النووي الذي قامت به مختبرات ديابلو. "هذا التقرير يُكمل الصورة."

قرأت تايلور التقرير بإمعان. منتهية من القراءة، رفعت نظرها نحو دافيد "وهكذا، من هو الأب الحقيقي الذي هو صاحب العيِّنة "دال"؟"

"أنا هو."

تراجعت القاضي في مقعدها، وتصلَّب وجهها بينما هي تحدِّق في دافيد. "أنتَ لست مازحاً، صحيح؟"

"كلا،" أجابها دافيد بهدوء. "إنني لست أمزح."

"يا إلهي،" انفجرت شارب. "لقد قبلتَ الدعوى لأن عارف وأنت، كنتما عشيقين، لقد كنتَ تتلاعب على الحكومة وعلى هذه المحكمة، متستراً على الحقيقة ـ "

"مهلاً مهلاً،" أجابها دافيد بحدَّة. "لست مديناً لك بتقديم حسابٍ عن حياتي الخاصة، أو عن أسبابي للقبول بدعوى هناء. أو عن أسباب هناء للطلب إليَّ لكي أكون وكيلها." مواجهاً القاضي، قال. "حتى لو كنتُ زوجاً لهناء، لأمكن لها رغم ذلك أن تجعلني وكيلاً لها. ليس هنالك من أسبابٍ مهنيةٍ، وأخلاقية، تمنعني من محاولة منعِ إنزال حكم الإعدام بها."

"بل قد تكون هناك أسباب،" ردَّت عليه القاضي مُفضية، "إذا كانت ابنتكَ غير الشرعية هي دافعٌ محتمَلٌ لإقدام خالد على فبركة تهمة مركَّبة لزوجته. فإن هذا يجعل منك شاهداً في الدفاع عن موكلتك، وهذا يمنعك من العمل كمحامٍ عنها." ارتفع صوت القاضي. "لا أستطيع أن أصدِّق هذا ـ لقد قمتَ بغرسِ حجةٍ لإفساد الدعوى، في قلب دفاع موكلتك، في الوقت الذي أنت تدري به أنك قادرٌ على نسفِ كلِّ هذه المحاكمة في الوقت الذي يروق لك. ولكي نسمي هذا التصرفَ بأنه غير أخلاقيٍّ فإن هذا التعبير يبقى تعبيراً مهذَّباً. إن المحامين يخسرون رُخص ممارسة مهنتهم لأسبابٍ أقلُّ من ذلك بكثير."

أرغم دافيد نفسه على المحافظة على هدوءٍ كان لا يشعر به أبداً. "مع كلِّ تقديري لك يا صاحبة الاحترام، فإن الواقع ليس كذلك. فأنا لم أدرِ أنَّ خالد لم يكن والداً لمنيرة، سوى منذ خمسة أيامٍ فقط. كما أنني لم أعرف أنني أنا هو والدها سوى منذ يومين أيضاً. وهنالك شهودٌ على هذه الحقائق في كلٍّ من إسرائيل، وسان فرانسيسكو. ولو كنتُ قد عرفتُ ذلك قبل الآن، لكنتِ قد عرفتِ أنتِ أيضاً. ولو أنني عرفتُ بها قبلَ بدءِ المحاكمة، لما كنتُ قد قبلتُ أن أكون وكيلها.

"لكنني أعرف الآن، كما أنتِ تعرفين، أنَّ هذه المحاكمة هي الانتقام الذي اختاره خالد. إنه شكلٌ مطوَّرٌ من أشكال القتل انتقاماً للشرف، إنه انتقامُه من هناء ومنّي. وهذا هو دافِعه ـ "

"إذن، فأنتَ شاهد"، تقحَّمت شارب الحديث تقحُّماً.

"لا أعتقد ذلك،" قال دافيد. "فما هو وثيق الصلة هنا هو أن خالد يعرف أنه ليس والداً لمنيرة، ولكنه لا يعرف من هو والدها."

"يا صاحبة الاحترام،" قالت شارب محتجَّة. "إن السيد وولف كان قد شهِد اغتيال بن آرون. والآن هو يعرف أن علاقةً غراميةً كانت قد ربطته بالمدعى عليها، وأنه يقدِّم ابنتهما ـ ثمرة هذه العلاقة ـ كدفاعٍ أساسيٍّ عن موكلته. إلى أيِّ درجةٍ أكثر من هذا يمكنه أن يكون متداخلاً مع الحقائق؟ إنَّ فكرة قيامِه باستجواب الرجل الذي كان قد فَجَر في عرضه، هو شيء بحدِّ ذاته بالغ الغرابة والبشاعة."

"إذا كان هذا مسلِّياً،" قالت القاضي مقطِّبةً ومستديرةً نحو دافيد، "هل لي أن أسألكَ كيف تنوي التعامل مع هذا الواقع؟"

"سوف أتعامل معه كما لو أنني، وهناءُ غرباء. إنَّ النائب العام تؤكد أنه يجب عدم تمكيني من القيام بذلك. لكن إذا كانت هناء لا تزال تريدني وكيلاً عنها ـ وهي فعلاً تريدني ـ فإن السؤال الحقيقي يبقى: ما إذا كنتُ كفوءاً لإنهاء مهمتي. هل أن قيامي بهذا يثير أية مشاكل حول ذلك؟"

اعتكر وجه تايلور شكاً. وبعد صمت طويل استدارت نحو شارب. "إنني على الأقلّ، مستاءة مثلك بسبب ما أفضى به، الآن، السيد وولف. ولكن هل أنتِ حقاً تريدين طلب إعلان فساد هذه المحاكمة، وإبطالها؟ فأنا لا أستطيع أن أجيبكِ إلى مثلِ هذا الطلب دون الإفصاح عن السبب، الأمر الذي سيدفع فقط إلى تحذير خالد ـ فالأفضل لك والحال كذلك، هو أن تتنازلي عن دعواك ضد زوجة خالد."

تجهمَت شارب. "دون تفسيرٍ وافرٍ، أو أساسٍ واضحٍ؟ لا أعتقد أن الحكومة ستكون مستعدة لتقبل بهذا."

"إذن فإن الحقيقة يمكن أن تُخدم بشكلٍ أفضل عن طريق تركِ السيد وولف ينال من غريمه خالد. إنني أعرف أيَّ بلبلة يثيرها هذا الواقع. ولكن أليست الغاية الأساسية تتعدى كون السيد عارف مذنباً، إلى معرفة من هو أيضاً ضالعٌ معه في قتلِ عاموس بن آرون؟"

بحدقتين ضيقتين، بدت شارب متأمِّلة في بقعةٍ واحدة فوق مكتب تايلور. "لا جواب؟" قالت القاضي. "إذن، هذا هو ما سوف أقوم بعمله:

"إنني سأقوم بتعليق هذه المحاكمة لمدة أربع وعشرين ساعة من أجل إعطاء الحكومة وقتاً لتقرير ما إذا كانت تريد استئناف قراري. أما القرار فهو ما يلي: أقرر السماح للسيد وولف في البقاء محامياً في هذه الدعوى، والسماح له بدعوة صائب خالد كشاهد. وحيث أن خالد قد يتذرع بالتعديل الخامس، فلو حصل ذلك: فسوف نتعاطى مع الأمر في حينه، وإذا لم يحصل نكون جميعاً قد صرنا على بيِّنة." مستديرةً نحو دافيد، تابعت القاضي، "في ما يتعلق بمنيرة خالد، سوف أُصدر تعليماتي إلى المكتب الفيديرالي للقيمين على السجون، لكي يتمَّ وضع منيرة تحت الوصاية الحمائية، على أساس أن هذه المحكمة قد تلقَّت معلوماتٍ سريَّةٍ تتعلق بسلامتها. وبالنظر إلى جنسها وعمرها وخلفيتها، فإن على الموظفين القائمين على حمايتها أن يكونوا من النساء."

تنفس دافيد الصعداء،" شكراً لك يا صاحبة الاحترام."

نظرت إليه تايلور عن قربٍ. "يخطر ببالي أن أتساءل يا سيد وولف ما إذا كانت منيرة تعرف أن خالد ليس والدها، أو أنك والدها."

أحزنه السؤال على الفور. "إنها لا تعرف شيئاً من كل ذلك يا صاحبة الاحترام."

"إذن، لا بد من أن يكون ثمة طريقة لها لكي تعرف ذلك أفضل من أن تكتشف كلَّ

هذه الأمور في وسط محاكمة والدتها. وإني أثق في أنك قد فكرت بمعالجة هذه الفكرة نفسها."

"لقد فكرتُ في هذه المسألة، لكنني لا أستطيع التنبوء إلى أيِّ مدى سأصل في استجوابي لخالد. كل ما أنا متأكد منه هو أنني ممتنٌّ إلى أن منيرة لن تكون موجودة في المحكمة لكي تشهد ذلك".

"وأنا كذلك يا سيد وولف." أضافت تايلور بعناء، "إذا قررت السيدة شارب متابعة الدعوى، فإننا سنتقدم. ابذل ما في وسعك. لأنني لن أسمح لك بالعودة إلى أيِّ إعادة محاكمة. ستكون هذه فرصتك اليتيمة للذهاب في إثر خالد."

* * *

عند الصباح التالي، كانت الحكومة قد قررت عدم استئناف قرار القاضي تايلور؛ وكان قيِّمو السجون قد عزلوا منيرة خالد في غرفة مجهولة من فندق مجهول؛ وكان صائب خالد الغاضب، الذي قد تبلَّغ مذكرة إحضارٍ إلى المحكمة، كشاهدٍ عن زوجته، يقف أمام القاضي.

كانت تايلور قد أمرت بإخلاء قاعة المحكمة، محتاطة إلى ألَّا يكون بوسع المحلَّفين، ولا الصحافة، أن يسمعوا ما قد يتسرب، وفيما عدا عن شارب ودافيد، وقد وقف كل منهما إلى أحد جانبي صائب، فإن الحضور الباقي قد اقتصر على القاضي ومساعدها وهو مقرِّر في المحكمة، وحارسان أمنيان من مكتب القيمومة على السجون. إذا كان صائب مرتعباً، فهو لم يسمح لنفسه بإظهار ذلك. كان يخاطب تايلور بدقة غاضبة صارمة. "إن ما تسمينه 'وصاية حمائية'،" قال لها، "هو ليس أكثر من خطفِ قاصرة تحت ستار القانون. قولي لي كيف لكِ أن تبرِّري انتزاع ابنتي مني."

إن عبارة "ابنتي،" لم تسبب أيَّ تغيُّرٍ في تعابير تايلور. "إن لدى المحكمة معلومات،" أجابته، "تشير إلى أن حياة منيرة قد تكون في خطر. إن هذه الحقيقة، مضافة إلى إشارة السيد وولف إلى أنه قد يقوم باستدعائها كشاهد دفاعٍ عن أمها، قد دعانا إلى اتخاذ هذا التدبير المؤقت. فإذا كنتَ ترغبُ في حمايةٍ مماثلةٍ، فإنَّكَ ستحصل عليها. وإذا شئتَ أن تعترض على قراري، فإنني على استعدادٍ لعقدِ جلسةٍ لاستماعِ شكواكَ مباشَرة بعد اختتام استجوابك، أو حالما تكون قد أوكلت عنك محامياً. ويكفيكَ أن تعرف الآن أنني لم أتخذ هذا الإجراء عن خِفَّةٍ، كما أنني لست نادمة على اتخاذه على الإطلاق."

أطلق صائب نظرةً جانبية إلى دافيد. كانت نظرة متسائلة وغاضبة في الوقت نفسه. "لست أدري كيف قام السيد وولف بتبرير ذلك،" قال للقاضي، "فهوَ لم يأتِ إليَّ للبحث معي في حماية ابنتي. كيف يسوغ لك اغتصاب حقوق أبٍ استناداً إلى كلمة محامٍ؟ ما هو نوع نظام العدالة هذا؟"

نظرة تايلور السريعة نحو دافيد أشارت إلى أنهما باتا يشتركان في الاعتقاد بفكرةٍ مشتركةٍ، وهي أنه بالغاً ما بلغت شكوكُ صائب، فإنه لم يدرِ بعد أن دافيد، أو المحكمة، باتا يعرفان شيئاً عن نسب منيرة. أما إلى صائب، فكان جوابها، "آمل أن يكون نظاماً منصفاً عادلاً."

بادياً عليه عدم التأكُّد من كيفية المتابعة، نظر صائب نحو تايلور كأنه يلتمس منها التدخل. وعندما لم تقل شارب شيئاً، انتصب بقامته من جديدٍ رغم ضعف موقفه، والتمعت عيناه في تحدٍّ لا يلجأ إليه إلّا من شعر أنه واقعٌ في فخ. "إنني أطلب أن يقوم السيد وولف بشرح الأساس الذي استندَ إليه من أجل استدعائي للشهادة، وكذلك من أجل الترتيب لاختطاف ابنتي."

'وبكلمات أخرى'، جال في ذهن دافيد، 'أنت تريدني أن أكشف لك عن حقيقة الأفخاخ التي قد يكون عليك أن تواجهها'. "إن السيد وولف،" أجابت القاضي، "كان قد شرح للمحكمة أنه يعتقد أن شهادتك قد تساعده على تبرئة السيدة عارف. لكنه ليس مطلوباً منه أن يشرح سلفاً عن خط أسئلته في الاستجواب. فإذا رغبتَ في توكيل محامٍ عنك للاعتراض على مذكرة الإحضار من أجل الشهادة، أو مِن أجل تقديم النصح القانوني لك حول حقوقك كشاهدٍ محتمَل؛ فإنني سوف أقوم بتعليق المحاكمة من أجل تمكينك من القيام بذلك."

نظر صائب نحو دافيد، ثم أعاد ترتيب ملامحه أمام القاضي تايلور، متَّخِذاً له هيئة مرتبكةً لرجلٍ اعتيادي تائهٍ في متاهة القانون. "أليس هناك امتيازات زوجية؟ ألا تكون شهادتي انتهاكاً لتلك الامتيازات؟"

رمقته القاضي بنفْسِ القَدر من الاصطبار. "إن الامتيازات الزوجية، يا دكتور خالد، قد وُجِدت لمنع زوجٍ من الشهادة ضد الزوج الآخر. لكن هذا الامتياز يمكن التنازل عنه من قِبَل الزوج طالب الشهادة. وفي هذه الحالة، فإن السيدة عارف، زوجتك، قد تنازلت عن هذا الامتياز مفسحةً أمامكَ حرية الشهادة." مرَّت على وجه تايلور أقصر ابتسامة ممكنة. "إن السيد وولف يؤكد لي أن أسئلته سوف لا تتوجه إلى الإضرار بموقف موكلته، ومع هذا، إذا كان لديك أسئلة حول الامتيازات الزوجية، فإنك حرٌّ في أن تلجأ إلى استشارة محامٍ، قبل أن يحاول السيد وولف إدراجكَ ضمن جهوده الرامية إلى تبرئة زوجتك."

العبارة الأخيرة الكاويةُ ـ تحت غطاءٍ من حياديتها الظاهرية، جعلت صائب دون أيِّ استجابة. "إن الامتياز الآخر الذي يمكنك التفكير به،" تابعت القاضي، "هو ذلك الذي يحمي الشاهد من الإدلاء بشهادته التي قد تميل إلى تجريمه. ومن الواضح، أنني لا أستطيع أن أتصور ما قد تقوم بالتصريح به تحت القسم، كما أنني لا أستطيع أن أقدم لك النصيحة القانونية حول مخاطر الإدلاء بالشهادة، في حال توفر أيٍّ منها. لكن محاميك الخاص يستطيع ذلك، وبإمكاني أن أجد لك محامياً على نفقة الحكومة. فإذا كنت في حاجة إلى نصح محامٍ قبل أن تواجه السيد وولف، فإنني أرجوك أن تصرِّح لي بذلك."

ومرة جديدة، فإنَّ ملاحظات القاضي، مع أنها بدت لا غبار عليها من ناحية قانونية، إلا أنها انطوت على سهمٍ موجَّه نحو اعتزاز صائب بنفسه. وإنَّ أيَّ شكٍّ في أن القاضي تايلور لها رغبة أصيلة في جعل صائب يتقدم للشهادة، قد تبخرت الآن. لقد أرادت من الأساس أن تصل إلى الحقيقة، وقد جاءت الآن فرصتها للحصول عليها. وبعينين لامعتين استجاب صائب قائلاً، "لست بحاجة إلى حمايةٍ من السيد وولف. وإنني أكثر من مستعدٍ لحماية زوجتي بصرف النظر عن غرابة تصرفات محاميها، وأحابيله."

لاحظ دافيد أن تعبيراً غريباً يشوب وجه شارب، فهي مغتاظة لأن المحاكمة تُفلتُ عن سيطرتها؛ وحائرة في ما عساه قد يحدث. متنبهة إلى ما ينتظره، سألت القاضي صائب، "هل أنت متأكد تماماً مما تقول؟"

طوى صائب ذراعيه. "بالطبع."

دوَّن كاتب المحكمة جواب صائب. "حسناً،" قالت له القاضي. "إذا طرأ لك في أي وقت. خلال الاستجواب، أن رغبتَ في استشارة محام، أو أن تدلي بحصانتك ضد التجريم الذاتي، لطفاً أخبر المحكمة، وسوف نقوم بتأجيل متابعة النظر في القضية على الفور.

"هل فهمتَ هذا كلَّه يا دكتور خالد؟"

ومضةٌ من اللّاهدوءِ عبرَت على وجه صائب، إذ بدلاً من أن تكون ملاحظة القاضي الأخيرة نوعاً من التأكيد له، إلّا أنها بدت وكأنها فخٌّ منصوبٌ له، يُلزِمه بمجابهةٍ مع دافيد وولف. "إنني أفهم ذلك،" أجاب صائب، ولكن بثقة أقلَّ عزماً مما سبق. أمَّا كاتبة المحكمة، فكانت تستطيع تدوينَ الكلمات فقط، وليس ما يقف وراءها من شعورٍ مزدوجٍ. وهذا كان يعتبر كافياً بالنسبة إلى القاضي تايلور.

"افتحوا الأبواب،" قالت القاضي لمساعدها في القاعة، "وأحضِروا المدعى عليها. بعدها يصبح باستطاعة السيد وولف استدعاء الدكتور خالد."

استدار صائب نحو دافيد، بينما ابتسامةٌ مريرةٌ تتلاعب على شفتيه. ومع أن لا أحد كان قد عرف ذلك، فإن دافيد اعتقدَ أن هذه اللحظة قد أتت الآن بعد ثلاث عشرة سنة. محدِّقاً نحو صائب، شعر كأنه يستطيع أن يُحسَّ بانخفاض معدَّل نبضه، وببرودةٍ متعمَّدة تتسلل إلى دماغه وجسده.

قيِّمٌ قام بإدخال هناء إلى القاعة. توقفت منقِّلةً نظرها بين زوجها وبين دافيد. ثم مشت نحو طاولة الدفاع، نظرها مستقيم أمامها. وكأنها تخشى تعميق الاضطراب السيكولوجي الذي بدا يتخلل قاعة المحكمة. ثم فُتحت الأبواب، واندفع الجمعُ المنتظِر إلى داخل القاعة. وكان من بينهم، كما توقع دافيد، وأراد آفي هيرتز راعي مصالح إسرائيل في الولايات المتحدة.

الفصل

17

ابتدأت لحظات الاستجواب الأولى بالمقدمات التمهيدية: اسم صائب، مهنته، مكان إقامته، علاقته بهناء، وظاهرياً بمنيرة. كانت نبرة دافيد لطيفة وسلسة، أشبه بلهجة مضيفٍ كيِّسٍ يقدِّم ضيفه إلى مجتمع غير مألوف لديه. لكن المحلَّفين، وكانوا قد تذكَّروا شهادة هناء بخصوص زواجها، بدوا وكأنهم يراقبون الرجلين بالدقة التي كان يراقب بها صائب عيني دافيد.

"حافِظْ على برودتك،" ذكَّر دافيد نفسه. لكنه شعر بأكثر من البرودة. لقد شعر بالصقيع، بالغضب المغلَّف بالجليد، بالحاجة الطالعة من أحشائه لحماية هناء ومنيرة من الرجل الواقف على مسافة عشرة أقدامٍ منه. كان يأمل فقط في أن يكون هذا الشعور يصلح لخدمتهما جيداً.

"أودُّ أن أبدأ،" قال دافيد، "بمناقشة الدليل الذي يقدِّمه الادِّعاء ضد زوجتك. فهو يتضمَّن قطعة من الورق قام أحدهم بطباعة رقم هاتفها الخلوي عليها، وهي تحمل بصمات أصابعها، إلى جانب بصمات أصابع إياد حسن. فهل أنت أليف مع ذلك الرقم الذي يظهر على تلك الورقة؟"

"بالطبع،" قال صائب. "إنه رقم هناء."

"منذ متى وأنت أليفٌ مع هذا الرقم؟"

"منذ أن ابتاعت هناء هذا الهاتف، كما قالت."

"وأنت أيضاً لديك وصولٌ إلى مكتبها؟"

"لديَّ وصولٌ مثل باقي الناس الآخرين،" أجاب صائب مع هزة من كتفيه.

"إذن، من ناحية نظرية، كان يمكنك أن تأخذ الورقة من مكتبها."

"صحيح،" قال صائب بهدوء. "وكذلك الورق الذي تستعمله في البيت، كي أوفِّر عليك عناء طرحِ هذا السؤال."

"شكراً لك. لهذا فإنني أفترض، أيضاً من الناحية النظرية، أنك قد كنت تستطيع طباعة رقم الهاتف على الورقة المعطاة إلى إياد حسن."

أعطاه صائب ابتسامةً متصبِّرة. "نظرياً، نعم. وهذه واحدة من المشاكل مع هذا القسم من الدليل. فكلُّ واحدٍ قد يقع في مثل هذا الفخ."

في النواحي التي كان صائب يتصرَّف أنه من الممكن أن يُسألَ عنها، خُيِّل لدافيد، فإنه سيعمد إلى الظهور بمظهر الشاهد المتعاون معه في دورٍ واحدٍ مشترك يرمي إلى التشكيك في الأدلة المقامة ضد زوجته. وبنفس اللهجة اللطيفة، سأله دافيد، "إن لك وصولاً أيضاً إلى هاتف هناء نفسه، أليس كذلك؟"

هزَّ صائب رأسه موافقاً. "بمعنى أننا نعيش معاً. فأنا أستطيع أن أتذكر أنني استعرته في مناسَبةٍ واحدةٍ أو اثنتين عندما كان هاتفي يحتاج إلى إعادة شحنٍ لبطاريته. ومنيرة كانت تفعل الشيء نفسه حسبما أعتقِد. وكما لاحظت هناء، فإن ابنتنا تفقد الأشياء أحياناً."

هذه الإجابة كانت ذكية أيضاً ـ ففي تفادٍ منه مسبقٍ لما قد يطرحه دافيد، كان يحاول خلقَ مستعمِلٍ رديفٍ له لهاتف هناء. "هل أنت تحاول أن تقول،" سأله دافيد، "أنه في الخامس عشر من شهر حزيران قامت منيرة بتلقِّي مكالمة هاتفية مبكِّرة جداً على هاتف هناء، من إياد حسن؟"

"إنني لا أحاول أن أقول شيئاً. فأنا لا أدري ماذا كان موضوع تلك المحادثة، ولا من الذي عمِلَها، ولا من الذي تلقَّاها."

"ولكن أيضاً من ناحية نظرية، لقد كان باستطاعتك أخذَ الهاتف الخلوي من جزدان هناء بينما هي نائمة، والذهاب به إلى الحمام، وتلقِّي مكالمة من حسن، وترك الهاتف مفتوحاً لمدة كافية من أجل خلقِ انطباعٍ بوجود أخذٍ وردٍّ."

نظر صائب إلى السقف، نظرة ذهول ودهشة، كما لو أنه يحاول تتبع تلافيف خيالات دافيد وولف. "أعتقد أنني أستطيع ذلك نظرياً،" وافق في نغمة رضيَّة. "أمَّا ما يدوِّخني فهو لماذا أقوم بمثلِ هذا العمل الغادر الأخرق. فضلاً عن أن أقوم به مع هناء."

خلال اللحظات الأولى للاستجواب، لم يتحرك دافيد من مكانه قرب طاولة الدفاع. "لماذا فعلاً؟ بالمناسبة، لقد اشتريت هاتفك الخلوي الخاص في سان فرانسيسكو، صحيح؟"

"صحيح."

"وذاك الهاتف الخلوي، مثل هاتف هناء، يتميز بخدمة المكالمة الدولية، وله المفتاح الدولي 972 المستعمل في إسرائيل والأراضي المحتلة."

"صحيح."

"وكنت قد سلمتَ هذا الهاتف إلى مكتب التحقيقات الفيديرالي عندما تمَّ اعتقال هناء، صحيح؟"

"صحيح." استحضر صائب ابتسامة قلِقة. "لقد كان عليَّ أن أحصل على هاتفٍ جديدٍ على نفقتي الخاصة. فمكتب التحقيقات الفيديرالي عندكم لا يصرف بدائلاً."

توقف دافيد واضعاً يديه على خصره. "قبل أن يقوم مكتب التحقيقات الفيديرالي بمصادرة هاتفك، هل كان هناك هاتفٌ خلويٌّ آخرُ في حيازتك؟"

تضيَّقت عينا صائب قليلاً. لكنه لم يبدُ عليه الارتباك؛ فلقد كان مكتب التحقيقات قد سأله هذا السؤال من قبل. "ليس لحدِّ علمي،" أجاب. "على الأقل في سان فرانسيسكو."

"ألا تتذكر حيازتك لهاتف خلوي يبدأ رقمه بمفتاح المنطقة 415 العائد إلى سان فرانسيسكو؟"

أفرد صائب ذراعيه، مبقياً تعابيره ونغمة صوته فيما يشبه المسألة الواقعية. "كلا."

وراء القوس انحنت تايلور إلى الأمام، مأخوذة بمشهد شاهدٍ يقف عند حافة حفرة. "هل تستطيع أن تفكر بأيِّ سبب،" سأله دافيد، "يجعلك تستعمل هاتفاً خلوياً في سان فرانسيسكو له خدمة لا تسمح لك بمكالمة بلادك؟"

هزَّ دافيد رأسه، وفيما هو لا يزال يبدو مرتبكاً أجاب. "كلا. ليس من سبب."

لاحظ دافيد أن أجوبة صائب باتت أقلّ إسهاباً. "إذن أنت لم تشترِ مثل هذا الهاتف بينما كنت هنا، وبثمن نقدي؟"

"كلا." أذِن صائب لمسحة من الانزعاج كي تزحف إلى صوته. "مثل كل مسافر خبير، أنا لا أحشو محفظة نقودي بالأوراق النقدية. ولهذا السبب لوحده، لن أقوم بابتياع هاتف خلوي بهذا الأسلوب."

هذه الإجابة كانت صحيحة، حسِب دافيد. فهذا الهاتف الخلوي، مثل سواه من الهواتف التي تُركت لاستعمال حسن، كان قد تم شراؤها بواسطة شخصٍ آخر ما. وللحظة، يستطيع صائب أن يشعر بالأمان؛ فهو وحده يعرف أين رمى هاتفه الخلوي. ولا أحد يستطيع أن يربط هذا الهاتف به. "إذن، وحتى ننتهي من هذه المسألة،" قال دافيد، "أنت واثق تماماً أنك طيلة مدة وجودك في سان فرانسيسكو، لم يحدث أبداً أن كان في حوزتك هاتف خلوي يحمل الرقم 3666 ـ 669 (415)؟"

استطاع صائب أن يعطي جواباً واحداً فقط. "هذا ليس رقماً أذكره،" قال بفظاظة. "ولا حتى أسئلتك السالفة من شأنها أن تثير عندي أيَّ وميضٍ لأتذكر."

وللمرة الأولى، تقدم دافيد نحو صائب. "بينما أنت موجود في سان فرانسيسكو، يا دكتور خالد، هل استعارت منيرة مرة هاتفك الخلوي؟"

للحظة عابرة، بهت صائب. لحظة مرت بسرعة كبيرة بحيث أن دافيد نفسه لم يكن ليتنبَّه لها لو لم يكن مراقِباً. "لا أستطيع أن أتذكر."

مقترباً خطوة أخرى نحو صائب، شعر دافيد أن شارب والمحلفين يراقبون - فالنائب العام عارفةٌ والمحلَّفون يستشعرون، أن الديناميات بين الشاهد والمستجوِب قد أخذت في التغيُّر. "دعني أكون أكثر دقَّة،" قال دافيد بهدوء. "في اليوم الذي سبق اغتيال عاموس بن آرون، هل صرتَ غاضباً من منيرة لأنك وجدت أنها تحمل هاتفاً خلوياً كانت قد أخذته من جيب معطفك؟"

اتَّسعت حدقتا صائب. وبنوعٍ محدَّدٍ مِن المتعةِ الوحشيةِ، راقب دافيد سلسلةً من التيقُّنات تلتمع في ذهنِ عدوِّه: أن منيرة قد وشت به إلى دافيد؛ وأن أجوبته السابقة مع أنها أبعد ما تكون عن السلامة، فإنها قد تتكشف عن كذبٍ مشهديّ؛ وأن دافيد لم يقصد سوى تعريته على منصة الشهود. ثم اتخذ لنفسه طريق الهرب الوحيد الذي استطاع أن يجده، وهو الطريق الذي تركه دافيد مفتوحاً أمامه عاقداً حاجبيه، مثَّل صائب شاهداً يجهد فكره لكي يتذكر. "يبدو أنني بدأتُ أتذكر أن شيئاً مثل ذلك قد حصل. لكن ما حصلَ لنا كثيرٌ، وقد لاقينا الكثير من الصدمات. عندما تكون زوجتك تواجه محاكمة بتهمة قتل، فإن حوادث شبيهة بتلك التي تصفها، ترسب في قعر الذاكرة."

هزَّ دافيد رأسه. "هل تتذكر أنك قمتَ باسترجاع هاتفك الخلوي من منيرة؟"

لامس صائب صدغيه. "ربما، لكن هذا غامض جداً."

"أيُّ هاتف خلوي يمكن ذلك الهاتف أن يكون يا دكتور خالد؟"

أجفل صائب. في هذه اللحظة كان بوسع شارب أن تعترض - كان يمكن لها القول أن لا أساس لهذا السؤال. لكن شارب لازمت الصمت؛ فلربما أنها كانت متأكدة، مثلما هو حال دافيد، أن تايلور قد تقصَّدت إعطاءه المرونة اللازمة التي يحتاجها. وببطء، قال صائب، "إنك تطلب مني أن أتحزَّر حول ما هو في أفضل الأحوال استعادة لذكريات مندثرة. لكنه لا يمكن أن يكون سوى الهاتف الخلوي الذي قام بمصادرته مكتب التحقيقات الفيديرالي." توقف ثم ما لبث أن اختار على ما يبدو، أن يقوم بمقارنة. "إذا كانت منيرة قد استعملته، فما من شكٍّ في أن المكالمات ستظهر على الهاتف نفسه، أو على سجلات المكالمات. لكن يبدو لي أنني أتذكر الآن أن منيرة قد قالت لي أنها لم تستعمله."

ابتسم دافيد وعيناه مثبتتان على صائب. "وهل صدَّقتها؟"

هذا السؤال أزعج صائب وأربكه أكثر من أيِّ سؤالٍ آخر. بدا وكأنه يُجفِل إلى الوراء

على منصة الشهود، ويتثنّى جذعه قليلاً. كاد دافيد أن يتخيَّل ما ينتابه الآن من أفكار: منذ سنوات عديدة كانت هناء قد خدعته، والآن ربما أن منيرة قد فعلَت الشيء ذاته. "طبعاً،" أجاب صائب، إلا أن صوته كان أجوفَ. "لقد قمنا بتربية ابنتنا على الصدق."

"الأطفال،" قال دافيد بهدوء. "لا يستطيع المرء أن يتحرَّز عنهم. افترِض أنني أخبرتك أن منيرة قد كلَّمت صديقتها ياسمين الشنطي على الهاتف الذي أخذته منك، وأن ياسمين قد ردَّت لها المكالمة. فإذا كان الهاتف الذي استعملته منيرة هو غير الهاتف الذي صادره مكتب التحقيقات الفيديرالي، كيف لك أن تقوم بتفسير ذلك؟"

حدَّق صائب به. "لا أستطيع."

"إذن دعني أعيد صياغة السؤال لك. كيف يمكنك أن تفسِّر الأمر لو كان الهاتف الخلوي المستعمل بواسطة منيرة يحمل الرقم 3666 ـ 669 (415)؟"

في قفص المحلفين، انحنى بوب كلير إلى الأمام مستنداً إلى الحاجز الخشبي كما لو أنه لم يرد أن يفوته حتى أقل تغيير في التعبير. "إنني لا أستطيع الإجابة على هذه الفرضيات،" قال صائب مدارياً. "فأسئلتك مصاغة بطريقة تقصد إلى تمويه الحقيقة تحت ستارٍ دخاني من الافتراضات."

"ليست المسألة مسألة افتراضات،" قاطعه دافيد. "إنها حقائق، فإن والدة ياسمين تستطيع أن تحدد مكالمات الهاتف الخلوي من وإلى هاتف ياسمين، بما في ذلك الرقم 3666 ـ 669 (415). وأنها أيضاً حقيقة أن الرقم 3666 ـ 669 (415) هو: رقم الهاتف الخلوي الذي تمَّ استعماله للتحدث إلى إياد حسن قبل عشر دقائق مِن اغتيال عاموس بن آرون. وسؤالي هو: لماذا كان ذلك الهاتف موجوداً في جيب معطفك في اليوم الذي سبق قيام حسن بنسف بن آرون؟"

نظر صائب حوله في قاعة المحكمة. ثم اشتعلت عيناه على هناء. "لعلَّ هذا الهاتف كان يعود إلى هناء وليس لي."

قال دافيد ببرود. "هل أنت تلمِّح الآن أن هناء قد قامت بسرقة الهاتف من جيب معطفك؟"

"لست أدري يا سيد وولف. لم أعد أعرف ماذا أفكِّر."

اعتدل دافيد في وقفته. "في صباح يوم الاغتيال، يا دكتور خالد، هل كنت قد تلقيت مكالمة تخبرك أن طريق موكب عاموس بن آرون قد تغير؟"

"كلا."

"لم قمتَ بمكالمة إياد حسن لكي تخبره أن الطريق قد تبدَّل؟"

"لم أفعل،" أجابه صائب بحدَّة. "لقد كنت مع منيرة. تلك هي هناء التي كانت منفردة بنفسها."

كان ذلك صحيحاً، وهذا ما عمَّق أزمة دافيد. فإذا كانت منيرة هي حجة غياب صائب عن مسرح الجريمة لذلك اليوم، فإن شهادة تؤديها منيرة هي وحدها التي يمكنها دحْضَ ذلك الادِّعاء. اعتدل صائب في جلسته، وكأنه يستشعر أن دافيد، على الأقلِّ في هذه الناحية، لن يجد زاوية لمهاجمته منها. محدِّقاً نحو المحلَّفين بنصف ابتسامة غير معجَبة، سأله دافيد، "إذن أنت لا تعرف شيئاً بالمرَّة عمَّن قام بالتخطيط للاغتيال، ولا عن طريقة تنفيذه، ولا عن الذي ساعد على تنفيذه."

"هذا صحيح،" أجاب صائب بثبات.

"وليس لديك سبب من أيِّ نوع لكي تحاوِل استجرار محاكمة قد ينتج عنها إعدام هناء أو إيداعها السجن."

للحظة تطلع صائب نحو هناء، ثم أجاب في خليطٍ من السخرية والظرافة. "هذه أضغاث أحلام. فالخلافات حول كيفية تنشئة طفلة لا تصحُّ أن تكون قاعدة لمحاولتك المبهرجة لكي تفتري عليَّ وتشهِّر بي تحت ستار الدفاع عن مصالح زوجتي.

"هل أنا آسفٌ لأن عاموس بن آرون قد مات؟ بكل صراحة، ليس بالضبط. هل أنا آسف لأن هناء متهمة بهذه الجريمة؟ طبعاً آسف جداً. لكنني لا أستطيع أن أفسر أكثر من أيِّ إنسانٍ آخر خفايا هذه المؤامرة الماكرة."

كان صائب يستعيد ثقته بنفسه، حسبما تراءى لدافيد. فالصدمة التي تلقاها حول سجلات هاتف ياسمين قد بدأت تتراجع إلى الخلف، ليحل محلها الأمل في أن يكون ذلك هو السلاح الوحيد الذي يخفيه دافيد في جعبته. وفجأة، سأل دافيد، "هل لديك شكوى من حالة قلبية؟"

ومضة سريعة من عدم التأكد عبرت فوق عيني صائب. "نعم،" أجاب. "إن قلبي يشكو من حالة عيب خَلقية. وحالتي تتضمن أيضاً عدم انتظام في ضربات القلب، وهي تحت ظروفٍ قاسية قد تتسبب في توقف القلب عن النبض."

"وما هو أسلوبك المتَّبع في العلاج؟"

"إنني أتناول بعض العقاقير. وبالطبع، فإن لي طبيباً معالجاً اختصاصياً بأمراض القلب."

رأى دافيد نظرة القاضي المتوقِّعة، كما لاحظ تعابير الحيرة على وجوه العديد من المحلَّفين. "هل هو في عمَّان، في الأردن؟" سأله دافيد.

أعطى صائب، دافيد نظرة مَن جُرِح في اعتباره؛ نظرة لم تقوَ على إخفاء بلبلته تماماً. "لا أستطيع أن أفهم لماذا تكون قلّة حظي بسبب حالتي القلبية موضع اهتمام أيِّ شخصٍ سواي. ومع هذا، فإني أقول لك، نعم ولقد قمتُ في السنوات الثلاث الماضية بعدة زياراتٍ إلى طبيب اختصاصي في عمَّان يدعى الدكتور عبد الله عزيز."

"كم مرة قمت بمراجعة الدكتور عزيز؟"

"لقد زرته مراتٍ عديدة، وأنا لا أحفظ سِجِلاً بهذه الزيارات."

"إذا قلت لك أنه كان ثمة زياراتٍ خمس في السنوات الأخيرة الثلاث، هل تجادلني في صحة ذلك؟"

هزَّ صائب كتفيه. "لا أستطيع أن أجادل في صحة ذلك ولا أن أؤكده أيضاً."

"هل لك أن تخبرني كم كانت تستمر فترة كل موعد؟"

"أنا لم أقم بضبط وقت كل زيارة. إنما عندما يأتي الأمر للتعامل مع الأطباء، فإن على الإنسان أن ينتظر."

"لكن إذا قلت لكَ أن السجلات الطبية لهذه الزيارات تُظهر أن كل رحلة إلى عمَّان قد تضمنت زيارة واحدة للدكتور عزيز، فلن يكون لديك سبب للمجادلة في هذه الحقيقة؟"

هنا بدا صائب حذِراً بغريزته، وكأنه كان يعيد حسابات المخاطر التي كان يواجهها. ومن طرف عينه شاهد دافيد آفي هيرتز يراقب صائب بعين الجوهري (صانع الجواهر). "إنني لم أطَّلِع قطُّ على سجلات طبيبي،" أجاب صائب في النهاية. "وبكل صراحة، كنت أعتقد أنها سجلات سريَّة."

"هل استدام أيٌّ من مواعيدكَ أكثر من يومٍ واحدٍ؟"

تردَّد صائب. "لا أعتقد ذلك."

"ومع هذا، فإن وثيقة سفرك تُظهِر أن رحلاتك قد استغرقت في كلٍّ منها مدة ثلاثة أيام على أقلِّ تقدير في الأردن، وفي إحدى المرات سبعة أيام خارج الضفة الغربية."

استحضر صائب ابتسامة متلطِّفة. "وهذا يخبرك بماذا؟ فلعله أمرٌ مؤنسٌ أن يكون المرء حراً من الاحتلال الإسرائيلي. لعلَّ هذا هو الجانب المشرق الوحيد من حالتي الصحية."

"إذن، ماذا تفعل في عمان بينما لا تكون في عيادة الدكتور عزيز؟"

"أفعلُ ما يفعله أيُّ شخص سواي. أرى المواقع، أرود المطاعم، أتجول وأراقب

الناس. أختبرُ معنى أن يكون المرء في مكانٍ، مهما بدت عيوبه، يبقى على الأقلّ تحت حكم حكومة عربية."

"هل حدث وأن التقيت بممثلين عن أي حكومة أجنبية؟"

"لقد قابلت أشخاصاً كُثراً. ولم أتذكّر دائماً أن أسألهم من هم مستخدِموهم."

"هل هذه الإجابة تعتبر نعم، أم كلا، يا دكتور خالد؟"

"ليس أحدهما،" أجاب صائب بحركة عدائية خفيفة. "إنها 'لست أدري'، و: 'لستُ أذكر'، لمَ لا تفكّ وطأتك عني وتقوم باستجواب نفسك؟"

"لا، إنني متأكدٌ أنَّ ثمة أسئلة بإمكانك الإجابة عليها. مثلاً، خلال واحدة من زياراتك إلى عمَّان، هل قمت بالسفر إلى العاصمة الإيرانية طهران؟"

رأى دافيد، مارني شارب تميل قليلاً إلى الأمام مع هذا السؤال. "نعم". قال صائب بسرعة. "لم أكن أدري أن ذلك يُعدُّ جريمة."

"ماذا فعلتَ عندما كنت في إيران؟"

"كنتُ توّاقاً لأرى الحياة في دولة إسلامية، وهي لا بدَّ أن تكون مختلفة جداً عن الحياة في مستعمرة يهودية. وإني لأذكر عشاءً مؤنساً في منزل بروفيسور إيراني."

"عندما كنت هناك، يا بروفيسور خالد، هل اجتمعت مع أحدٍ من ممثلي الحكومة الإيرانية؟"

"لم أجتمع بأحدٍ منهم بصورة مقصودة. ربما على العشاء. لكنني لا أتذكر."

"لنكن أكثر دقة إذن. هل التقيت أحداً من مستخدَمي الاستخبارات الإيرانية؟"

تململت شارب وكأنها تفكر بالاعتراض، لكنها لم تقل شيئاً. "لو حصل وأن فعلتُ،" قال صائب بنبرة من السخرية، "فإنهم ما كانوا ليقوموا بالكشف لي عن ارتباطاتهم أكثر مما يقوم عميل استخبارات أميركي من السي.آي.إيه. بارتداء إشارة تدلُّ على ذلك على جيب قميصه. وإنني لا أفهم ما هي علاقة مثلِ هذه الأسئلة بالتهم الموجهة إلى زوجتي."

"عندما كنتَ في طهران،" قاطعه دافيد، "من الذي دفع فاتورة الفندق؟"

"أنا دفعتُ طبعاً."

"وخلال رحلاتك إلى عمَّان، من الذي كان يدفع فواتير إقامتك في الإنتركونتيننتال؟"

مرة ثانية تردَّد صائب. "أنا هو أيضاً من قام بالدفع."

"وكيف سددت الفواتير؟"

استدار صائب نحو القاضي بكفين مفتوحين، وكأنه يتساءل هل عليه فعلاً الإجابة على مثلِ هذه الأسئلة الحمقاء. ولمَّا وجد أن تعبير تايلور لم يتبدَّل، استدار صائب من جديد نحو دافيد قائلاً. "إنني في الحقيقة لا أتذكر."

"إذا قلت لك بأنك قد قمت بدفع كلِّ فاتورة نقداً، فهل تنازعني في ذلك؟"

"أنا لا أنازعك في شيء،" قال صائب بلهجة مختصرة. "إنني لا أصادق على شيء من هذا. لأن لا شيء من هذا له أية قيمة."

"حقاً؟ إذن دعني أستشهد بأحد أجوبتك التي وردت على لسانك هذا الصباح: 'مثل *أي مسافرٍ مجرِّب، أنا لا أقوم بحشو حافظة نقودي بالأوراق النقدية، ومن أجل هذا السبب لوحده، فأنا لن أقوم بشراء هاتف خلوي بهذه الطريقة*'. هل تتذكر ورود هذه العبارة على لسانك؟"

"طبعاً."

"إذن، ما رأيك في فاتورة فندق بلغت قيمتها تسع مئة وثلاثين دولاراً تمَّ دفعها قبل أسبوعين من اغتيال عاموس بن آرون. هل قمت بدفعِ هذه الفاتورة نقداً؟"

"لستُ أتذكر."

"كيف كان يمكن لك أن تدفع هذه الفاتورة نقداً، إذا كنت تكره حشو جزدانك بالنقد؟"

علا صوت صائب. "أنا لا أستطيع أن استرجع كلَّ ما يصدر عني من أفكار."

"لقد كان ذلك منذ مدة تقلُّ عن نصف سنة يا دكتور خالد. هل أنك تتذكر على الأقل، ما إذا كان هذا النقد قد أعطي لك من ممثل لحكومة أجنبية؟"

"طبعاً لا." توقف صائب ثم أضاف، "على الأقلِّ حسبَ عِلمي."

"إذن، هل تتذكر أن شخصاً ما قد أعطاك نقداً لكي تدفع هذه الفاتورة؟"

في قفص المحلفين، بدت آدريل واشنطون مبلبلة الفكر. فمع أنها لم تفقه الغاية التي يرمي إليها دافيد من أسئلته، إلا أن اضطراب صائب المتعاظم كان يدل على أهميتها. قاضماً جزءاً من كل كلمةٍ، قال صائب أخيراً، "إنني لا أستطيع أن أتذكر أيَّ شيءٍ على وجه التحديد."

شعر دافيد أن ضربات قلبه تتسارع. "ألا تستطيع أن تتذكر ما إذا كنت قد أخذتَ هذا المبلغ من حسابك في البنك أو من مصدر خارجي؟"

"كلا."

"لكنك لو حصلتَ عليه من المصرف، فإن قيود المصرف كانت سوف تظهره، أليس كذلك؟"

مقدار من الرعب طفا على عيني صائب. وفي تلك اللحظة رأى دافيد للمرة الأولى أن خصمه بات يخشى - كما حصل مع باراك ليف، وهلال ماركيس - أن دافيد وولف قد يجلب أجَله. وبلهجة أقلُّ ثقة قال صائب، "لا أستطيع أن أكشف لكَ عن حالة حسابي المصرفي."

"هل ما زلتَ تنكر أن أحدهم قد أعطاك النقد لكي تدفع أجرة غرفتك في الفندق؟"

"كما قلت سابقاً، أنا لا أنفي ولا أؤكد." ارتفع صوت صائب متحدياً. "هل أنت تلمِّح إلى أن أحدهم قد قام برشوتي من أجل توريط زوجتي في جريمة قتل عاموس بن آرون مقابل إيجار غرفة في فندق بعمَّان؟"

ثم استدار نحو القاضي تايلور. وبصوت هشٍّ، قال لها، "أطلب أن أستشير محامياً من أجل سؤاله عن حقوقي."

كان تعبير تايلور غامضاً. "حسناً، يا دكتور خالد. سوف نرفع هذه الجلسة إلى صباح غدٍ. فإذا لم تستطع أن تجد أو أن تتحمل نفقات أتعاب محام، فإن المحكمة سوف تحيلك إلى مكتب دفاع عمومي فيديرالي."

الفصل

18

في غضون عشر دقائق من خروج صائب خالد، المستعجل، كان قيِّموا السجون يقتادون هناء من جديد إلى سجنها؛ كما كان دافيد قد طلب عقد جلسة استماع في مكتب القاضي. "لقد كانت جلسة محاكمة مشهودة لن أستطيع نسيانها،" قالت القاضي موجهة كلامها إلى دافيد من وراء مكتبها. "أعتقِد أن لديكَ مذكرة طلبات."

"أجل، لديَّ،" أجابها. "إننا نطلب تمديد مهلة تعليق المحاكمة، لإعطائنا وقتاً كافياً لتجديد طلبنا الحصول على معلومات من حكومة إسرائيل."

بدت شارب متململة، وهذا لم يُدهش القاضي أبداً. "ما هي المعلومات التي تريد الحصول عليها؟" سألته تايلور.

"أيُّ شيء يربط صائب بالمنظمات أو بعض المخابرات الشرق أوسطية، أو باختراق أمن بن آرون؛ أي شهادات، أو وثائق، أو سجلات هاتفية؛ أي صلة، مباشرة، أو غير مباشرة يمكن أن تربط أي من المنظمات أو المخابرات باليمين الإسرائيلي؛ أي معلومات عن مقتل هلال ماركيس وباراك ليف، أي شيء يتعلق باستجوابي القادم لصائب خالد، على افتراض أنه يوافق على أداء الشهادة." استدار دافيد نحو شارب. "ولا مزيد من الطلبات المهذَّبة من خلال القنوات الدبلوماسية من فضلك. أريد حضور السفير الإسرائيلي أو أيِّ مسؤول رفيع مناسب أمام هذه المحكمة شخصياً. فإذا استمرت إسرائيل في رفضها الكشف عمَّا لديها من معلومات، فإنه سوف لن يُسمح للولايات المتحدة أن تتابع هذه المحاكمة."

لوت القاضي رأسها نحو شارب. "قبل أن تجيبي، يا سيدة شارب، دعيني أقول لك ما الذي يقلقني. شكراً للسيد وولف على دفاعه الموسَّع الذي تناول الدكتور خالد والذي كشف عن مؤامرة متعددة المستويات، باتت الآن أقرب إلى الصلة الوثيقة بهذه الدعوى، منها إلى مجرَّد التخمينات. وفي رأيي، فإن هذه القضية ضد السيد خالد هي قضية صلبة صلابة قضيتك ضد عارف. لكن مع كل هذا، فإن حكومة إسرائيل قد تبقى متمسكة بحجب الدليل المتعلق بخالد، وكذلك المتعلق بنظرية المؤامرة التي يتكلم عنها السيد وولف، بينما

الولايات المتحدة تتابع هذه الدعوى بالاستناد إلى الدليل الوحيد المتوفِّر لأيِّ أحدٍ ضد السيدة عارف. فلو كنتِ أنتِ تترأسين المحاكمة في هذه الدعوى فلربما أنك ستكونين غير مرتاحة مثلما أنا لا أشعر بالراحة."

"هذه المحاكمة،" استجابت شارب، "تتعلق بهناء عارف. أمَّا ما نقوم به بخصوص خالد، فهو مسألة مستقلة. لكن المغالطة في الحجج التي يسوقها السيد وولف هي أنَّ ما يقدِّمه من دليلٍ على مسؤولية خالد ـ هذه المسؤولية المبنية على قيام طفلة في الثانية عشرة من عمرها باستعمال جهاز هاتف خلوي، رغم أن هذه الطفلة لم تتقدم لكي تستمع إليها المحكمة بعد ـ لا يمكن أن تعني بحالٍ من الأحوال براءة موكلته. فالدليل ضدها يبقى رغم ذلك قائماً وسليماً." نفَسٌ من الإتهام تسلل إلى نغمة شارب. "السيد وولف لا يحب كلمة 'إبتزاز.' لكن ما يحاول القيام به هو أن يضع حداً لهذه المحاكمة ـ ليس بموجب قرارٍ من المحلَّفين، ولا على أساس الدليل، ولكن عن طريق إقحام دولة إسرائيل، التي تقول أن لا دليل لديها حول عارف نفسها. فمثلُ كثيرٍ من أوجهِ هذا الدفاع، فإن هذه الآن حيلة ذكية تهدف إلى التلطي خلف ورقةِ تينٍ من القانونية.

"أمَّا في ما يتعلق بدفاعه الوقائعي، فإنه يعود إلى الخدعة المملة ذاتها: ضع كل اللوم عمَّا عمله موكلك، على شريكه في المؤامرة. إنَّ هذا لا يكاد يبرر جولة بحث في جهاز الأمن القومي لدينا، ولا النكش في ملفات التحقيق الإسرائيلي. وعلى هذه المحكمة أن تقول للسيد وولف أن يقدم نظريته المزعومة عن وقوع موكلته ضحية تهمة ملفقة، إلى المحلفين، وأن يدعهم بعد ذلك لكي ينظروا فيها بأنفسهم." رفعت شارب يديها إلى الأعلى فاتحة كفيها. "قد يكون حسن قد تعمَّد الكذب على جعفر، وقد يكون تعمَّد تجهيز قنبلة دراجة الأخير بحيث إنها لا تنفجر، وهو واثق ـ بسببٍ ما زلت لا أجده ـ أن جعفر سوف يبقى حياً بعد الانفجار. وقد يكون خالد نجح في إبعاد بصمات أصابعه عن قطعة من الورق كان هو متأكِّداً من وجود بصمات أصابع عارف عليها. وربما قد يكون تسلل إلى خزانةٍ عند منتصف الليل لإتاحة الفرصة لحسن حتى يتكلم معه عبر هاتف زوجته الخلوي. ولربما أنه قد نجح في إعلام حسن عن التغيير الطارىء في خطة سير موكب بن آرون، بينما هو يراقب محطة السي.أن.أن. مع ابنته. ولربما أن العقول المدبِّرة الغامضة وراء هذه المؤامرة قد كانت أكثر اهتماماً بمساعدة خالد لكي ينتقم من زوجته من أن يقوم جعفر بنسف بن آرون في ما لو لم يستطع ذلك حسن. ولربما أن السيدة عارف تتجول في ساحة يونيون سكوير بمحض الصدفة. ولربما ـ بعد الأخذ بعين الاعتبار مواهب السيد وولف المحترمة ـ أنه يستطيع بيع هذه التوليفة، المنافية للمنطق والطبيعة، إلى هيئة المحلفين. لكن على هذه المحكمة أن تجعله يحاول ذلك."

افتراضات شارب الساخرة خضَّت دافيد في عمق أعماقه. كان قد سمع مجادلة شارب الختامية، وقد كانت كريهة وجارحة كأكثر ما يستطيع أن يتصوَّر. ولكن إلى درجة لا تجبره على الأقل على التعرُّض إلى كشفِ نسب منيرة، واستدعائها إلى منصة الشهادة.

" هذا دفعٌ شديدُ الصَّنعة،" قال للقاضي معترِفاً. "لكنه قد ينفع الادِّعاء فقط لو أن الوقائع قد أخرجت من سياقها العام. والسياق العام هو التالي: هل قام المصدر المسرِّب الإسرائيلي ـ ولا شكَّ في انه ماركيس ـ بالاتصال بخالد؟ نحن لا جواب لدينا؛ أمَّا الإسرائيليون فربما. هل كان خالد يعمل لمصلحة أحدٍ ما؟ نحن لسنا متأكدين؛ أما الإسرائيليون فربما. هل خطَّط المتآمرون لفبركة تهمة لهناء؟ أو هل قام خالد بتحوير الخطة؟ فإذا كان الإسرائيليون قادرين على وضعنا على الطريق الصحيح للوصول إلى إجابات عن هذه الأسئلة، فإن كلَّ الخطاب الذي قدمته لنا السيدة شارب لتوِّها يتهافت دفعة واحدة. وسوف لن أكون مرغماً على عملٍ ما، قد لا أستطيع اجتناب عمله مِن نسفِ حياة طفلة في الثانية عشرة من عمرها بغية الدفاع عن حياة والدتها ـ "

"إن هذه ليست مشكلتي،" قاطعته تايلور بفظاظة. "إن مآسيك الذاتية تختصُّ بك وحدك دون سواك. لكنني أبقى مشغولة البال حول مسألة اتهام هناء عارف على أساس شهادةِ تسامعٍ يرويها جعفر عن لسان رجلٍ ميتٍ لن يتسنى للمحلفين سماع شهادته. والآن باتت تواجهنا مشكلة إضافية: إنها شهادة خالد. ما الذي عليَّ أن أفعله إذا رفض خالد الاستمرار في الإدلاء بشهادته، وإذا وجدَتِ النائب العام أنها غير قادرة على استجوابه على مسامع المحلفين؟"

" هنالك شيئان فقط تستطيع المحكمة اللجوء إليهما،" قالت شارب على الفور. "إما الطلب إلى المحلَّفين اعتبار شهادة خالد كأنها لم تكن؛ وإما، وهذا هو الأفضل، إعلان فساد هذه المحاكمة، والبدء بعد ذلك بمحاكمة جديدة، بهيئة جديدة من المحلفين. أمَّا أيُّ حلٍّ عدا عن هذين المخرَجين، فإنه سيكون حلاً غير عادلٍ لهذه المحاكمة."

"قد يكون ذلك صحيحاً،" قالت القاضي مستجيبة بابتسامة ساخرة. "لكن 'العدالة' تبقى حقاً يمتلكه الطرفان. وإننا لسوف نقلق بخصوص خالد عندما يأتي وقت ذلك. ولكن في هذه المحاكمة، وحتى في محاكمة أخرى جديدة، فسيبقى من حق السيدة عارف أن تستفيد من كل المعلومات الوثيقة الصلة التي تمتلكها إسرائيل.

"وإنني من يقرر ما هو وثيق الصلة، من عدمه. لكن فكرتي عن وجود الترابط، هي قريبة جداً من فكرة السيد وولف. لهذا فإنني سأرفع هذه المحاكمة لمدة أسبوع. وبعد أربعة أيامٍ من الآن، أي يوم الاثنين، أريد أن يقوم ممثلٌ تعيِّنه دولة إسرائيل بإعلامي عمَّا إذا كانت هذه الدولة تمتلك أية معلومات عن علاقة خالد المباشرة أو غير المباشرة بوحدة الحماية الإسرائيلية، أو ببارك ليف، أو بأي من المنظمات والمخابرات الشرق أوسطية، وعمَّا إذا كانت مستعدة للكشف عن هذه المعلومات. كما إنني أريد من حكومة الولايات المتحدة أن تضع بتصرف هذه المحكمة، تحت أقصى درجات السرية، أية معلومات قد تكون بحوزتها في هذا الشأن.

"على إسرائيل أن تقرر ماذا تريد أن تفعل. واستناداً على قرارها، فإن هذه المحكمة

إما ستفسخ هذه المحاكمة، وإمَّا ستسمح لها بالاستمرار. وعليها أن تكون على ثقة من جدِّية موقف هذه المحكمة."

وحالما تردَّدت تايلور، فإن الارتياح حلَّ محلَّ خوف دافيد، وكلال أعصابه. "وهنالك شيءٌ إضافيٌ آخر،" استدركَته بسرعة. "إن خالد، ليس وحده خطراً يطوف، بل إن جميع الشهود في القضية هم عرضة للتصفية. وإنَّ ما فعلته له اليوم لم يجعله عرضةً للاتهام فحسب، بل إنه جعل حياته معرَّضة للخطر. واستناداً إلى الاحتمالين معاً، فإن هذه المحكمة تقررُ وضعَه تحت الوصاية الحمائية." وتابعت القاضي كلامها. "إنني جازمة في قراري هذا، لأننا قد خسرنا حتى الآن مِن قِطع هذه الأحجية، ما يكفي، حتى بدون أن نخسر البروفيسور خالد أيضاً. واستناداً على ما شهدناه في هذا الصباح، فإنه سيكون حقاً من العار أن نخسره أيضاً."

* * *

بعد ساعتين، كان دافيد وحيداً في مكتبه متأملاً في الخيارات المتوفرة لديه لو أن تايلور تابعت النظر في القضية، وقام صائب بالتذرع بالتعديل الخامس. فإعلان فساد المحاكمة سيفتح المجال أمام الادعاء العام بابتداء محاكمة أخرى جديدة تكون فيها النيابة أوفر استعداداً من الآن. لكن صائب خالد كان مفتاح الدفاع عن هناء. وهيئة محلفين جديدة سوف لن تراه يمثل أمامها. أمَّا هيئة المحلفين الحالية، وبصرف النظر عن مبلغ تشدُّد تايلور معها بوجوب إغفال ما أدلى به صائب، فإنه يستحيل لأعضائها عملياً محوَ ما سمعوه منه، من أذهانهم. ثم إن هناك اعتباراً نهائياً مؤلماً: إن دفاعاً لا يكون فيه صائب شاهداً، سوف يعتمد إلى درجة كبيرة على منيرة. واستدعاؤها للشهادة سوف لن تقتصر مخاطره على دفعها إلى تجريم والدها، بل سيتعدى ذلك إلى انكشاف السرِّ حول ولادتها.

حاول دافيد أن يتخيَّل ما تُراه يكون شعور منيرة في هذه اللحظة، وهي قابعة تحت حراسة أناسٍ غرباء عنها، خائفة على مصير والدتها، وربما تتنبَّأ بأنها ستكون ملزمة باختيار إمَّا أمها، وإمَّا أبيها. لقد وجد أن التفكير في أمرِ عذابها وحيرتها، أمرٌ شديدُ الألم. كانت غريزة الوالد الحمائية لابنته، وإن تكن ليست مرتكزة سوى على علاقة بيولوجية، ليس إلَّا. فإن ذلك كله بدا شيئاً أقوى مما كان يخالُ أو يتصوَّر.

كان يمتصُّ ذلك الشعور بعجبٍ شديدٍ عندما رنَّ جرس الهاتف. "هذه القاضي تايلور،" قالت له القاضي بصوتٍ كئيبٍ هزَّ كيانه. "لقد اتصلتُ لتوِّي بالسيدة شارب. وإني أريدكما أن تعودا معاً إلى مكتبي على الفور."

لم تشرح له أكثر من ذلك. ولم يقم دافيد بسؤالها. "إنني في الطريق إليك،" قال لها.

* * *

بدت تايلور وهي تجلس في بذلة العمل الرمادية عند رأس الطاولة في غرفة المؤتمرات بمكتبها، شاحبة اللون تحت ضوء مصباح الفلوريسَّانت. ومهما يكن ذاك الذي حدث، فإنه يبدو أنه قد سرق الحيوية من وجهها، ومن صوتها.

"لن أدخل الآن في أية تفاصيل،" قالت القاضي لدافيد. "إن خالد قد مات."

موجةٌ من المشاعر ضربت دافيد بقوة. عدم تصديقٍ يخالطه إحساسٌ بما لا مردَّ له، أمَّا الحصيلة، فشعورٌ فاترٌ شبيهٌ بالغثيان. لقد مات صائب خالد؛ ولعلَّ دافيد كان دلَّالاً لموته هذا. "كيف حصل ذلك؟" تمكَّن أخيراً من أن يسألها.

"لا أحد يدري حتى الآن،" أخبرته شارب بعبوس. "لقد وجدوه على أرضية شقته، لا تبدو عليه أية علامات عنفٍ، أو اقتحامٍ لشقَّته. وقد يكون السبب مجرَّد نوبة قلبية - ومع مغادرة منيرة له، لم يبق ثمة من يساعده. ولعلَّ تشريحاً طبياً فقط يستطيع أن يزوِّدنا بالمزيد من المعلومات."

حاول دافيد أن يكتِّمه هذا الذي حدثَ. "ما هو تأثير ذلك على ادِّعائك؟" سألها.

"إنَّ هذا لا ينهي الادِّعاء. أمَّا بخصوص موقفنا الذي سنتخذه بخصوص فساد المحاكمة، فقد قمتُ بأخذِ رأي واشنطن وتعليماتها. ولا أستطيع إخبارك بما هو أكثر من ذلك."

وفي الحال، بدت نبرة شارب تنمُّ عن واقعٍ، لا عن جِدال. بدا الثلاثة مصعوقين، وكأنهم من الناجين لتوِّهم من كارثة طبيعية. "إنَ عليَّ أن أُطلِع هنَاء،" قال دافيد في النهاية. "ثم أعتقِد أن عليَّ وعلى هناء أن نرى منيرة."

هازّة رأسها قليلاً، نظرت تايلور نحو شارب. "سنقوم بالترتيبات الضرورية،" قالت النائب العام.

* * *

جلس بروس مارتل عند الغروب في غرفة دافيد يشرب كوباً من العصير. "نوبة قلبية؟" قال مارتل. "إني أعجب من ذلك. ولو كنت مكانك فإنني سأطلب جلْبَ جميع تسجيلات الكاميرات الأمنية في بناية الشقق المفروشة التي تقع فيها شقة خالد، لكي أرى أوجهَ الداخلين والخارجين في المداخل أو في المرآب.

"إن الإقدام على قتلِه ينطوي على مجازفة. لكن السماح له بالبقاء حياً قد يكون أمراً أكثر مجازفة مِن قتله. فإذا كان معكَ ذرَّةٌ من الحق في نظريتك، فإن صائب قد يكون عالِماً بتفاصيل المؤامرة حتى درجة المستوى الثاني من المتآمرين، ومن المحتمل أنه كان يمكن له أن يكشف أيّاً من المخطِّطين لهذا الاغتيال. وبهذه الطريقة فقد تقطَعت بكَ المسالك من جديد. تماماً مثلما حصل معكَ بالنسبة إلى ليف، وماركيس."

"هذا صحيح، ولكن شارب تقول أن ليس هناك من دلائل استعمال للعنف، أو الدخول عنوة."

هزَّ مارتل كتفه هزة صرفٍ لهذه الفكرة. "ربما أن خالد كان يعرفهم. وربما كان أحدهم قد سدَّد فوَّهة مسدس إلى رأسه جاعلاً إياه يتجرَّع كلوريد البوتاسيوم، الذي قد تظهر علاماته كنوبةٍ قلبية قاتلة. أو أنه قد ابتلع حبوباً منوِّمة لكي تساعده على الانتحار

قد لا نستطيع أن نعرف. وقد يكون هذا عملاً استخبارتياً. أو قد تكون 'أنتَ' الذي قمتَ بقتلِه." كانت ابتسامة مارتل مُغمَّةً وعارِضةً. "ففي هذا الصباح كنتُ قد تمكنتُ من تأمين مكانٍ لي في عُمقِ قاعة المحكمة. لقد قمتَ بحشره في الزاوية، أو بالأحرى، كنتَ على حافَّةِ أن تفعلَ ذلك. كلُّ ما في الأمر، أنك لم تكن تشاء أن تكشفه، بل أردتَ أن تدمِّره. لكن دَينك المستحق يعود على ما يبدو، إلى سنواتٍ قديمة بعيدة، حسبما أعتقد." متوقفاً استفهم مارتل بهدوء، "البُنيَّةُ منك أليس كذلك؟"

تقابلت عينا دافيد مع عيني مارتل، لكنه لم يقل شيئاً.

"هنالك دائماً تفسيرٌ للأمور،" قال مارتل بنبرةٍ واقعية. "حتى بالنسبة إلى الأشياء التي تبدو متعذرة التفسير. ومنذ البداية، كانت تراودني الفكرة." تراجع في مقعده وكفاه مطبقتان على كوبه، بينما النظرة تأمليةٌ. "قد يكون هو ذاته راغباً في الممات. تصوَّر كم يجرحُ الروحَ ذاك التعرِّي أمام الحقيقة بالنسبة إلى رجلٍ مثل صائب خالد. يَفْجُرُ بعرضِه رجلٌ يهوديٌّ أمام الدنيا بأسرها، ويكون أفضلَ ما يمكنه أن يتوقعه، إقامةٌ لمدى الحياة في سجنٍ أميركي. كلُّ يومٍ يقضيه فيه، سيكون جحيماً، وتعذيباً بالنسبة إليه."

شعر دافيد في دخيلته، أنه ظالمٌ. "لم يكن لديَّ مِن خيارٍ آخر يا بروس، لا كمحامٍ، ولا كرجل."

"أعرف،" أجابه مارتل بلطف. "أنا لا أرى مطلقاً أن خالد كان هو الضحية الوحيدة يا دافيد. فأنا لا أحسدك أيضاً، بل لا أحسد أحداً منكم، سواء أنت، أم هناء، أم منيرة. بصرف النظر عمَّا قد يحدث لاحقاً، فقد ابتدأ كلٌّ منكم عقوبةً. وإنها عقوبةٌ مؤبدةٌ خاصةٌ بكلِّ واحدٍ منكم. والسؤال الوحيد، هو كيف سيتمكن كلُّ واحدٍ منكم من التكيُّف مع هذه العقوبة."

الفصل

19

عند الساعة العاشرة مساء، وبترتيب خاص من النائب العام الفيديرالي للولايات المتحدة، التقى دافيد هناء في غرفة الشهود، التابعة للسجن الفيديرالي، حيث نقل إليها خبر وفاة صائب.

بدت ذاهلة، وشبه عاجزة عن الاستيعاب. كانت حركاتها المرئية تقتصر على اختلاجات بسيطة.

وبهدوء قال لها دافيد، "هم قتلوه ربما يا هناء."

هزَّت هناء رأسها، وكأنها تنفض عنه غشاوة. "تقول: هم؟"

"قد يكون صائب غيَّر الخطة، من أجل أن يقوم بتوريطك. لكن أشخاصاً سواه كانوا هم المهندسين."

خفضت هناء رأسها. "لست أدري بماذا أعتقد، قالت هامسة. "كما أنني لست أدري كيف أشعر. إن هذا لكثير علي."

جلسا قبالة بعضهما بعضاً في سكون، غارقين كلٌّ في أفكاره الخاصة. أخيراً رفعت أنظارها نحوه. "وأنت يا دافيد؟ بماذا تحسُّ في هذه المرحلة؟"

تردَّد دافيد، ثم قرر أن يقول لها الحقيقة كما كان يراها. "إن هذا كلّه كان ينتظرنا، ويكمن لنا، منذ الليلة التي خرجتِ فيها من شقتي. ومن بيننا جميعاً، فإن صائب هو وحده الآن، الشخص الحر. أما الشخص الذي هو أكثرنا براءة فهو أيضاً الأكثر تأثراً بما حدث."

أغلقت هناء عينيها. "وماذا عسانا نقول لها؟" قالت بإرهاق. "بعد كلٍّ هذه السنوات، كيف نستطيع أن نخبرها؟"

استجمع دافيد أفكاره. "أمامي ساعات قليلة كي أفكِّر في كل ذلك،" أجابها على كرهٍ شديدٍ منه. "ففي وقتٍ ما، أفضل، وفي مكان ما، أفضل، يمكننا أن نتلمَّس طريقنا خلال

هذا." كان يتعمَّد أن يقصرَ مقدارَ كلامِه على القدر الذي يبدو متلائماً معها. "لكنك ما زلتِ تواجهين محاكمة بتهمة قتل، والدفاع عنكِ له عنصران أساسيان. فبالنسبة للأول منهما ـ وهو الذي يقوم على أنَّ صائب، ولستِ أنتِ، هو مدبِّر حسن ـ فإن اتصال منيرة بياسمين يجعل منها الشاهد الوحيد. أمَّا بالنسبة إلى الثاني ـ وهو الذي يقوم على أن صائب قد دبَّر لك تهمة ملفقة ـ فإن منيرة تبقى هي دافعُه من أجل القيام بذلك.

"وبعد أربعة أيام، فإن القاضي ستقرر ما إذا كانت ستقوم بمتابعة محاكمتك. وما لم تشائي المجازفة بالوصول إلى ما هو في أحسن الأحوال حكمٌ بعقوبةِ السِّجن المؤبد ـ وهي هدية زوجك الأخيرة لكِ ولمنيرة ـ فإن علينا أن نخبر منيرة بكلِّ شيء."

صار وجه هناء لوحةً للتعاسة. "أن نكون ملزمين على القبول بمثل هذه الخيارات..."

"أعرف،" أجابها دافيد بلطف. "لكن ما أخشاه، هو أن هنالك طريقتان فقط للخروج من هذا كله. واحدة منهما، هو إعلان فسادِ المحاكمة، وهو مخرج مؤقت، ولا أعتقد أن علينا أن نفكر في اللجوء إليه."

"لماذا؟"

"لأنه خيارٌ يجعل الأشياء أسوأ مما هي عليه الآن بالنسبة لكِ. فإذا تحرَّكت شارب في اتجاه طلب إعلان المحاكمةِ محاكمةً فاسدةً يوم الاثنين ـ وهذا ما أعتقد أنها سوف تفعله ـ فسيكون سندها في ذلك: أنها لا تستطيع أن تستجوب شخصاً ميتاً، فانقطاع شهادة صائب قبل أن تكتمل قد يسبب إساءة إلى قضيتها ضدَّك. وسيكون الحق معها في هذا، بالطبع. ومن أجل هذا، فإننا سنقترح أن تكتفي تايلور بالطلب إلى المحلفين أن يتجاهلوا شهادة صائب، التي لم يعودوا يستطيعون تجاهلها في واقع الحال، كما أننا سنقترح السماح لنا باستدعاء منيرة من أجل تقديم شهادتها حول مكالمتها الهاتفية، ثم نتوِّج الدفاع عنك بتقديم البرهان أن صائب ليس والدها البيولوجي."

طوت هناء ذراعيها مقاوِمة ذلك بالغريزة. "أنا آسف،" قال لها دافيد. "ولكن حتى ولو حصلت شارب على إعلان المحاكمة كمحاكمةٍ فاسدةٍ، فلسوف تعاد محاكمتك بعد ستة أشهر. وهي ستة أشهرٍ أخرى ستمضينها في السجن، بعيداً عن منيرة، متسائلة في كلِّ يوم، ما إذا كان إعلان المحاكمة محاكمة فاسدة سوف يقلِّلُ من فرصة إعلان براءتك. وكلُّ ما ستربحينه لمنيرة هو الاستمرار في جهلِ الحقيقة ستة أشهرٍ أخرى."

يائسةً، حدَّقت هناء في الجدران البيضاء لغرفة الشهود. "وما هي طريقتكَ الثانية؟" سألته.

"تلك قد تعتمد على كيفية استجابة الإسرائيليين إلى الخيار السيِّء الذي قدمتُه لهم:

اكشفوا لنا عن كلٍّ ما تعرفون، أو واجهوا إمكانية قيام القاضي بإلغاء المحاكمة، وإطلاق سراح المدعى عليها. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها أن نشرح الأمر لمنيرة إذا اعتقدنا أنَّ هذا هو المسلك المناسب." انحنى دافيد إلى الأمام. "لكن ليس على تايلور أن تتَّخذ هذا القرار الآن، ولا على الإسرائيليين أن يفعلوا ذلك أيضاً. فبموته، أعطى صائب كلاهما ـ كما أعطى شارب أيضاً ـ مخرجاً. فبدلاً من وضع الإسرائيليين أمام الخيار، فإن القاضي تستطيع بكل بساطة أن تعلن أن المحاكمة محاكمة فاسدة وتشتري بذلك لنفسها، ولكلا الحكومتين، فسحة من الوقت، تمتد إلى ستة أشهر. وهذا ما أعتقد أنها ستقوم بعمله بالضبط."

ران السكوت على هناء. كان بوسع دافيد أن يشعر بها وهي تحاول أن تفهم النتائج الكاملة لقرارٍ كانت قد اتخذته منذ سنوات عديدة: أن زوجها قد مات؛ وأنها، هي ودافيد يجب أن يتعايشا مع هذا الواقع؛ وأن ابنتها قد عانت وسوف تعاني المزيد بسبب تداعيات: معرفتها بالحقيقة، أي معرفتها أنها ابنة زناً، أو الكذب على هذه الابنة، الذي سينتج عنه إمكانية تجريم والدتها. "إذن، كيف لي أن أقوم بحمايتها على خير وجه ممكن يا دافيد؟"

"عن طريق إخبارها بالحقيقة في نهاية الأمر، بقدر ما تستطيعين من الدراية." لطَّف دافيد لهجته. "هناك طريقتان يمكن لها أن تنظر بهما إلى هذا: إمَّا على أساس أنها يسَّرت وفاة والدها، وإمَّا على أساس أنها قد أنقذت حياة والدتها. ولهذا فإن معرفتها بالحقيقة، مهما كانت قاسية، قد تكون رحمة بها."

غطت هناء يده بيدها. "لكن الأمر سيكون فظيعاً لو أننا قمنا بإخبارها بهذه الطريقة ـ فجأة، وفي مثل هذا العمر ـ ثم أن نقوم بكشف حقيقتها أمام الناس، بكلٍّ ما هناك من رهان. فأنا أعرفها. وأعرف كلَّ ما قد مرَّت به. فموت صائب هو وحده أمرٌ كثير عليها."

هزَّ دافيد رأسه. "لقد مات صائب،" أجابها، "وذلك لأننا جميعاً كنا محاصرين بأكذوبة. وانظري الآن كيف خدم ذلك منيرة."

كئيبة، معتكرة، نظرت هناء إلى يدها الموضوعة فوق يد دافيد. "إذا لم تعطنا القاضي أيَّ خيار،" قالت بهدوء، "سوف نقوم بإخبارها بالحقيقة. وإلى ذلك الحين، سوف آمل أن تتوفر لنا طريقة أفضل، ووقت أفضل. ليس فقط من أجلها، بل من أجلنا أيضاً." رفعت أنظارها إليه. "كائناً من يكون المسؤول عن الخطأ، فإنني الآن، أشكِّل وحدي، ما تبقَّى لها من أبوين."

* * *

مصغية إلى كلمات أمها، التوَت منيرة على نفسها في لوعة. ثم بدأت تبكي مُصدرةً صوتاً خفيضاً شديد الحزن من أجل صائب خالد.

ملدوغةً، عانقتها هناء. أمَّا في ما يختصُّ بدافيد، فقلَّما أدرك أنه جزء من هذا، جالساً إلى جانب هناء في جناح فندق غريبٍ، يحرسه قيِّمون فيديراليون على السجون، يراقب فتاة مسلمة محجّبة، تتفجَّع على رجلٍ تعتقد أنه والدها.

وعندما صارت منيرة قادرة أخيراً على الكلام، ووجهُها لاصق بكتف هناء، سألت بهمس، "لماذا توفي؟"

كان بوسع دافيد أن يرى العذاب على وجه هناء ـ فالسؤال قد يكون له معنيان، كلاهما أشدُّ تدميراً من الآخر. وبلطفٍ أجابتها هناء، "نحن لا ندري، لكن حالة قلب والدك كانت سيئة جداً."

سحبت منيرة وجهها الملطخ بالدموع، ناظرة إلى وجه أمها. "لقد كان شديد الغضب مني. وربما أنه لم يعد يريد أن يستمر في العيش معي."

ملاطفةً وجنة ابنتها، حاولت هناء أن تبتسم. "يُخيَّل للأطفال أنهم سبب كلِّ الأشياء يا منيرة. أما النساء فهن أدرى من الأطفال. وأنتِ في الثالثة عشرة من عمرك تقريباً، فأنت قريبة من عمر الطفولة بقدر قربك من عمر البلوغ.

"لقد كنا نتخاصم عليك، وهذا صحيح. لكن الخصام كان حولنا نحن. لقد توقفنا عن محبة بعضنا لبعض، كما لم نعد نرغب في العيش معاً." التمعت الدموع قليلاً في عيني هناء. "إن الحب الذي ينقلب إلى غضب هو شيء مراقبته رهيبة. لكنك ضحية هذا الغضب يا منيرة، ولستِ سببه."

وكما لو أن روعها قد هدأ، ولو في اللحظة الحاضرة، فإن منيرة أسندت جبهتها إلى كتف أمها. ولأن يراهما معاً من جديد، فقد كان هذا منظراً شديد التأثير بالنسبة إلى دافيد. لكنه عرف أيضاً أن ما قامت هناء بقوله لابنتها لم يكن سوى كذبة أخرى: فأن تعلم منيرة الحقيقة كان سيضعها في وسط كل هذا الذي حصل، ويُطلعها على سببه بمجمله. "سيكون الأمر على ما يرام،" أكدت لها أمها بهدوء. "ومهما يأتِ لنا، فإن دافيد سوف يقوم بمساعدتنا."

الفصل

20

في الدقائق القليلة الأخيرة التي كانت فيها هناء حرة، آثر دافيد أن يتركها لشأنها مع منيرة. وهكذا، فإنه خرج من الفندق دون خطة مسبقة سوى ما خطر له من التجوال دون هدف في الطقس الدافىء غير المعتاد في أواخر كانون الأول/نوفمبر، تاركاً أفكاره تسرح على هواها. لكن سيارة سوداء ما لبثت أن توقفت بقربه. انفتل دافيد في مكانه مجفلاً ومستذكراً وفاة صائب، عندما انزلق شباك باب السيارة الخلفي إلى الأسفل.

"اصعد معنا،" قال له آفي هيرتز.

تردَّد دافيد. ثم فتح هيرتز الباب له، فانزلق دافيد إلى مقعد بجانبه.

وفي ما عدا سائق هيرتز، فقد كان الرجلان لوحدهما. "لا تقلق،" قال الإسرائيلي. "فالاغتيال قد انتهى حسبما أعتقِد. ما لم تتابِعْ تلمُّسك كالرجل الأعمى الذي يحاول التنبُّؤ عن شكل شيءٍ ما، لن يستطيع أن يراه."

زادت السيارة من سرعتها. "إلى أين نحن ذاهبون؟" سأل دافيد.

"لنتحدث بحديثٍ لم نتحدث بمثلِه مِن قبل، ولن تقوم بكشفه إلى أيِّ أحد. ما لم تكن أحمق إلى درجةٍ تتجاوز كلَّ ما اعتقدتُه عنك، أحمق لا يهتم أبداً بمصير موكلته".

أسند دافيد ظهره محدِّقاً من زجاج السيارة، مهيِّئاً نفسه لمهابط مواجَهةٍ كان يخشاها ويتوقُ إليها معاً. آثر أن يقتصد في الكلام حتى تتكشَّف وعودُ هيرتز - أو وعيده - فيتبيَّن له في ضوئها، ما ينبغي عليه أن يفعل.

* * *

تبيَّنَ أن وُجهةَ سيرهم تتجه نحو وسط خليج سان فرانسيسكو. وعندما شقَّ الزورق المزوَّد بمحركٍ، طريقَه وسط الأمواج الباردة في مناورةٍ دائريةٍ في الكاتراز، فإن الإسرائيلي رمى إلى دافيد مشمَّعاً يقيه شرَّ البرد والرذاذ. سائق سيارة هيرتز، الذي تحوَّل الآن إلى

كابتن الزورق، لم يكن ليستطيع الاستماع إلى حديثهما بسبب هدير المحرِّكِ، وشقشقةِ الأمواج التي يثيرها انثلام صفحة الماء بِفعل اندفاعة الزورق.

مشيراً برأسه إلى السجن المهجور، قال هيرتز، "أعتذرُ عن هذه الجلسة الباردة. لكن هنا نحن بمفردنا، كما أنني من محبِّي الرمزية.

"يبدو أنك تنسج رواية يا سيد وولف داخل قاعة المحكمة، وفي خارجها، محاولاً أن تنأى بموكلتك عن مصيرٍ شبيه بمصير السكان السابقين لهذا المكانِ البائسِ. ولعلك ترغب في إفساح المجال أمامي كيما أُشرِك خيالي مع خيالك. فلربما صار عندها لروايتك مزيداً من المعنى."

"إن الأمرَ يتوقف على: كيف تكون خاتمة الرواية."

وبإيماءةٍ آمرةٍ، أشار هيرتز إلى دافيد بالجلوس على مقعدٍ مريح عند مؤخرة الزورق. "لن أستطيع أن أعدَك بشيءٍ. لكننا سنرى."

هازاً بكتفيه، جلس دافيد إلى جانب الرجل. "لنبدأ من حادثة الاغتيال،" قال هيرتز. "فبين تأثيراتها الواضحة، كان نزعُ المصداقية عن فاراس، وعن كتائب الأقصى، وتدميرُ الأملِ الضعيف الأخير بالسلام، وتعزيزُ قبضةِ حماس على النفوذ والسلطة. ومِن المنطقيِّ بصورةٍ مؤكَّدةٍ، أن يفترض المرء أنَّ رجلاً مثلَ صائب خالد، وحماس نفسها، قد يتمنون نتيجةً مثل هذه."

رذاذٌ مالحٌ غطَّى وجه دافيد. "حماس،" قال مصحِّحاً. "وآخرون أيضاً."

"لنبقَ الآن مع حماس، في الوقت الحاضر على الأقل. فحماس لها وجودُها في بيرزيت. ومن المنطقي أن نفترض، كما فعلتَ أنت، أن إياد حسن لم يكن ينتمي إلى كتائبِ الأقصى، بل إلى حماس، وأنه قد خدع جعفر عن انتمائه الحقيقي. مثلما هو ممكنٌ أيضاً أن نتخيل أن خالد، وليس هناء عارف، هو الذي قارَبَ حسن. وببساطةٍ، فإني لا أدري ما الذي أنت تريد أن تعتقده. ويبدو بكل صراحة، أنك أنت أيضاً لا تدري." وضع هيرتز يده على معصم دافيد. "إن ما يعرفه كلانا، وما قد عرفه خالد، هو أن منيرة خالد هي منك. وهذا يبدو أنه قد أثَّر - إن لم يكن قد نَسَجَ الأحداث، وأعطاك مصلحةً أخرى 'ذاتية' تريد حمايتها."

"الأمر الذي قد يجعل منِّي أحمق،" أجاب دافيد، "لكن من النوع الشديد التصميم."

"إذن، من أجل مصلحتك الذاتية المكتشفة حديثاً، سوف أساعد في أمرِ جعلِك تعتدلُ في حماقتكَ." متوقفاً برهة، تكلم هيرتز بكلماتٍ قاطعة. "قد تكون راودَتكَ فكرةٌ خيالية تقول إن الموساد، أو وكالةٌ أخرى سواه، في إسرائيل، قد كان لها يدٌ في ترحيل ليف، أو ماركيس، أو لا سمح الله عاموس بن آرون. وقد تكون أنت ومارتل قد تساءلتما عمَّا إذا كان

لنا يدٌ أيضاً في تغييب صائب خالد. لكنَّ الحقيقة، هي أنك أنت، لا نحن، من كان له يدٌ في قتلِ هؤلاء جميعاً. فقد كنتَ أنتَ دائماً تكتشفَهم، ثم يلي القتلُ بعد ذلك.

"إن الشخصَ الوحيدَ، من بين معارفك هؤلاء، الذي تم ترحيله على أيدينا، هو محمد ناصر. وفي ما يتعلق به، فإن لك أن تعزِّي نفسك لأنك في الواقع قد تسببتَ في إطالة أمدِ حياته بدلاً من أن تتسبَّب في تقصيرها. فجماعتنا في جنين قد شاهدوك تندسُّ إلى الاجتماع معه. ولولا حضورُك معه، لكانوا قد نسفوا محمد ناصر آنذاك إلى قطعٍ صغيرةٍ."

ناظراً في عيني هيرتز، شَعَر دافيد بقشعريرةٍ في جلده. "أنا لم أفكر أبداً أن يكون الموساد قد قتل بن آرون،" قال دافيد مواربأ. "لكن من الواضح لي أن بعض الإسرائيليين ـ بمن فيهم ماركيس، وليف ـ قد ساعدوا في تسهيل قتلِه. وهل تريد أن تقول لي أن هذين الرجلين لم يُقتلا على أيدي يهودٍ آخرين؟"

"إذن، لقد صرنا الآن في نظرك مفجِّرين قتله؟" قال هيرتز بازدراءٍ. "هذا ليس أسلوبنا. لكن هناك من يَعتقِد أنَّ قاتل ماركيس، ربما تلقَّى أوامره من حماس، أو ربما من الجهاد الإسلامي ـ "

"دعكَ من هذا الهراء،" قال له دافيد محتّداً. "لقد كنتم تعرفون منذ البداية أن ليف وماركيس كانا على أغلب الظن شريكين في الجريمة. لكنكم اخترتم السكوت على ذلك تاركين مصير هناء كريشةٍ في مهبِّ الريح. وعندما حاولت كشفهما قتلا بشكل غامض. وهذا ما أتاح لكم تشجيع حكومة الولايات المتحدة على التقدم في المحاكمة على أمل أن تكون هناء مذنبة فتحاول النجاة من عقوبة الإعدام عن طريق إعطائكم التفاصيل عن الجانب الآخر من المؤامرة. ولكن بما أنها بريئة، فقد حصدتم النتيجة التي هي مقتلُ يهوديين، ووجودُ محامٍ يهودي تقومون بإلقاء تبعة قتلِهما عليه."

لم تتغير تعبيرات وجه هيرتز. "إذن من هو الذي قام بتجنيد ليف وماركيس؟ هل هي حماس؟"

"أو غيرها، فأنا لم أستطع حلَّ هذه المسألة بعد."

"إذن أنت وأنا أحرارٌ في الارتجال. لنفترض معك أن ليف وماركيس يحتقران الفلسطينيين، ويشمئزان من بن آرون على أساس أنه خائن عندهما، وهما يريدان إنقاذَ الحلم بإسرائيل الكبرى. وأن اليمين الإسرائيلي، مثل حماس، لديه أسباب كثيرة تجعله يتمنى الموت لرئيس وزرائنا. لكن كل فريقٍ، مع كلٍّ هذا، لا يطيق الفريق الآخر." محوِّلاً وجهه عن دافيد، تكلم هيرتز بهدوء، بدتِ الصورة الجانبية لوجههِ كالحةً. "وهكذا، كائناً مَن كان قد خطط لهذه الجريمة، لا بدَّ له من أن يستعمل أوراقاً محروقةً تشكل نهاياتٍ مُقفَلة. عليه أن يستعمل شخصاً ما، يبدو كأنه يهوديٌّ إسرائيلي، أو أنه عربي فلسطيني، وهم كثر في هذا العالم."

أذهلَت هذه النظرية دافيد. "هل يمكن أن يحصل ذلك؟"

ترنَّح الزورق فجأة، جاعلاً ثِقلَ دافيد ينزاح من جانبٍ لآخر. "أنت وأنا نقوم بكتابة روايةٍ،" أجاب هيرتز. "وكلُّ ما نحتاجه لقِصتنا هو أن تكونَ معقولةً. والشيء الذي يجعل هذا المفهومَ معقولاً هو أن بعض المخابرات الأجنبية، تعمل في داخل إسرائيل."

"كما أنها تعمل بمساعدة من الداخل،" ردَّ عليه دافيد. "فبمساعدةٍ من بعضهم، استطاعت هذه المخابرات أن تتدبَّر أمرَ قتل كلٍّ من ماركيس وصديقه ليف. وهذا يحذف عن الرقعة، الإسرائيليَّين اللَّذينِ قد يكونا الحلقة التي تربِط اغتيالَ بن آرون مع عميلك المُفْترض."

"نعم،" استجاب هيرتز ببرودٍ. "لقد كنَّا نأمَلُ تتبُّعَ هذه الحلقة، ببطءٍ ولكن بثقةٍ. وأعتقدُ أننا كنَّا سنستطيع أن نفعل ذلك. لكنك قد تسبَّبتَ في جعلِ طابخي المؤامرة قلِقين مِن ليف وماركيس. ونحن لسنا متأكدين حتى الآن مَن هو الذي وجَّهكَ نحو هذين الإسرائيليَّين. ولكن، لو كان أولئك قد اعتقدوا أنهم كانوا يساعدون غرضاً سياسياً لهم، كائناً ما يكون هذا الغرض، فإنه قد طاش سهمُهم."تسرَّبَت السخرية إلى صوت هيرتز. "وقد تكون أنتَ، وهُم، قد اعتقدتم أن ثمة تعتيماً رسمياً مفروضٌ. إذن، دعني أؤكِّد لكَ أنه هذا الأمر لم يحصل ، ومع أن ثمة قِوى ـ اليمين المتطرف، والسياسيين المتعاطفين مع حركة الاستيطان ـ قد تتمنى إخفاء بعض الأمور. وكما صار وحصلَ، فإنك قد طوَّحتَ بغطائهم الوحيد عن طريق المساعدة على جعلِ شخصين يُقتلان."

عازفاً عن أية محاوَلةٍ لإزالة رشاشِ البحر عن وجهه، حدَّق دافيد، بكلِّ بساطةٍ، في وجه هيرتز. "إنني كنت راغباً في إشراكِكَ في فضل مساعدة هناء، إذا أخذْنا في الاعتبار أنك كنتَ قادراً على مساعَدتي، لكنك اخترت ألّا تفعل ذلك."

"لقد كنت موضعَ اهتمامِنا،" أجاب هيرتز ببرودة. "ولكن عندما صار جدول عملك هو جدول عمل هذه الفلسطينية، فإننا لم نعد نثق بك." وبعد توقُّفٍ قصيرٍ، تكلم هيرتز بصوتٍ أكثر انخفاضاً. "هذا هو كلُّ ما أستطيع إخبارُك به. لقد كان تسريب الخبر عن تغيُّر طريق بن آرون آتياً من الجانب الإسرائيلي، لا من الجانب الأميركي. فقد قام شخص ما، من جانبنا نحن، بإعلام مدبِّر حسن عن التغيير الذي تقرَّر في خطة الطريق."

اختار دافيد أن يبقى صامتاً. "لكن لنتابع كلامنا،" قال هيرتز بسلاسةٍ، "حول أحد أسئلتك المشروعة: مَن الذي لديه الطاقة والإمكانية لكي يخطِّطَ، وينفِّذَ، هذا الاغتيال في الولايات المتحدة؟ ليست كتائب الأقصى بذاتها؛ وحتى حماس التي لها موالون بين جمهور الطلبة الفلسطينيين في الولايات المتحدة، لا تستطيع أن تضع كلَّ ذلك بعضاً لبعض. أمَّا الموساد فلم يكن ليفعل ذلك، رغم أنه يستطيع فِعلَه.

تمعَّن دافيد في الأثرِ الذي يتركُه زورقُهم خلفَه في المياه، خطَّان أبيضان يرتسمان على صفحة الماء. "وما هو دور صائب خالد؟"

مُسنِداً ظهره، شَبَكَ هيرتز ذراعيه. "إنك استطعتَ أن تضع خالد في شبكة العنكبوت، مثلما استطعت ذلك من قبل مع ليف وماركيس. وهكذا، فإنه الآن ميت. وهنالك الكثير مما قد لا نستطيع كشْفَه أو الوصولَ إليه."

غلَّف الغموض في هذا الكلام كيان دافيد. وللحظة راقبَ النوارسَ تنزلق في أثرِ زورقهم. وأخيراً، قال، "إذن، أنت تعتقد أن خالد قد مات قتلاً؟"

وضع هيرتز على عينيه زوجاً من النظارات الشمسية. "ممكن جداً،" قال بأسلوب ليس فيه أثرٌ للشعور. "لا أستطيع إخبارك مَن، إذا كان هناك مِن أحدٍ، كان مع خالد عندما فارق الحياة. لكن هناك فرصة كبيرة أن مكتب التحريات الفيديرالي عندما سيقوم في التدقيق في أشرطة المراقَبة الأمنية في شقته، فإنهم سوف يرون رجلين في مصعدٍ حول الوقت الذي مات فيه خالد. ليس أيٌّ منهما من سكان المبنى. ولكن حتى عندما يجري العثور على هذين الرجلين، فإنهما لن يكونا يعرفان شيئاً ذا قيمةٍ، لن يعرفا سوى أنهما كانا قد أُرسلا لقتلِ خالد."

ومرة جديدة، وجد دافيد نفسه يتعجب أيُّ العناصر من روايات هيرتز كانت مجرد افتراضات، وأيها كان حتى أبعدَ من ذلك بكثير. "ومع ذلك، فإنه قد حصلَ،" ختمَ هيرتز كلامه، "أن كان موت خالد هو الخطوة النهائية في طمس جريمةٍ، طمساً كاملاً. إنها عمليةٌ لم تَترِكْ، بعدَ هذه المرحلة، أيَّة بصماتٍ. فلو كانت عملية قتلٍ، فإنها بكلِّ وضوحٍ، عملية تصحيحٍ بسيطة في مخطَّطٍ لم تُترك فيه أيُّ ثغرةٍ سواها. خصوصاً إذا كانت عارفُ بريئة، كما هيَ تدَّعي."

"ومع هذا،" قال دافيد بغضبٍ حقيقيٍّ. "فإنك تبقى راغباً تماماً بمراقبة حكومتنا وهي تودِعُ هناء السجن لمدى الحياة، أو حتى تقوم بإعدامها."

هزَّ هيرتز كتفيه. "نحن لم نصدِّق أنها بريئة. ونحن لا نعلم أنها بريئةٌ في الوقت الحاضر."

جاء الآن دورُه، عرف دافيد، للقيام بحركةٍ على رُقعةِ الشطرنج التي وضعَها هيرتز بينهما. طوى ذراعيه متَّقياً البرد. "إذن، دعنا نتكلم الآن عمَّا يهمُّكَ أنتَ. إن مسألةَ اختراق أمن إسرائيل، سوف يوضع على الطاولة بطريقةٍ واسعةِ الانتشار. وربما أنك لا تكترث للجيَشان السياسيِّ الذي يمكن أن يثيره هذا، أو للانشقاق الذي سيحدث في داخل إسرائيل عندما أقوم أنا بربطِ مقتلِ بن آرون باليمين الإسرائيلي. ولكن هل أن حكومتك تبقى رغم ذلك راغبة في جعلِ قابليةِ العطب المتسللة إلى أكثر مجموعات الحماية نخبويةً عندكم مكشوفة لكي يتفرج عليها الجميع؟"

بقي هيرتز متماسكاً. "هذه هي اللعبة التي لعبتَها معنا منذ البداية. العواقب في إسرائيل قد لا تكون سارَّة، وأنا أعترف لك بذلك. ولكنها لن تكون من السوء بحيث تغرينا بالسماح بإفلات متآمرة معروفة لقتل رئيس وزرائنا."

حلَّل دافيد هذه الإجابة. "لكنكم لا تدرون عمَّا إذا كانت هناء قد تآمرت حقاً مع أيٍّ شخص، كما أن لديكم مخاوفَ أخرى أبعد من الحقيقة البسيطة التي تقول إن أمن بن آرون قد جرى اختراقُه. إنَّ الأمر المؤلمَ حقاً، هو أنه - وفقاً لروايتك على الأقل - يبدو أن بعضهم قد قام باختراقه. وهذه التهمة لو صارت حديث الناس، ستستثير مسائلَ خطيرةً جداً."

صارت تعابير هيرتز قاتمة. "وبالطبع فإنك عازمٌ على وضعِنا في هذا الموقف من أجل تحسين مصالح السيدة عارف."

"شخصٌ ما، عليه أن يهتمَّ بمصالحها،" أجاب دافيد. "وحتى لو استطاعت شارب أن تمنعني من إثارة هذا الأمر أثناء المحاكمة، فلن يكون هناك ما يرغمني على البقاء صامتاً بعد انتهاء المحاكمة. إذ إنني متأكدٌ من أنَّ لاري كينج، من برنامج: توداي شو، سوف يكون مسروراً لأن يستضيفني لإجراء تشريح لاحقٍ للمحاكمة."

حدَّق هيرتز نحو دافيد دون أن يرفَّ له جفنٌ. "دعني أجعلُ الأمر واضحاً لكَ يا سيد وولف. كم هو خطرٌ عليك أن تلعب بِعيدان الثِّقابِ بهذه الطريقة."

فكَّر دافيد في موقفه. لم يكن واثقاً مِن أن رواية هيرتز لم تكن سوى شكلٍ من أشكالِ الإخفاء للحقائق أو الدوافع غير المعلَنة التي لم يكن يرغب في السماح لدافيد بمعرفتها. ولكن مهما تكن الحالة، فإن استنزاف هذه المسألة قد يفيد مصلحة هناء. "إنني أتفهم ما أنت تحاول أن تقوم بقوله لي،" قال دافيد في النهاية.

"إذن، افهم هذا أيضاً." وضَعَ هيرتز إصبعاً على صدر دافيد، نازعاً نظارتيه الشمسيتين ومحدِّقاً مباشرة إلى عينيه. "نحن لا نستطيع أن ندعكَ بوصفِك مواطناً عادياً يا دافيد وولف أن تسرح وتمرح مُطلِقاً التُّهمَ، عابثاً بتحرياتنا، وطالباً منا أن نستجيب لطلباتك في العلن. فبصفتك محامي السيدة عارف لا نستطيع أن نسمح لك أن تضع أصابعك غير البارعة على كفة ميزان التاريخ. إن اهتماماتك ضيقة محدودة، تقتصر على مصير امرأة فلسطينية."

عارفاً أنهما اقتربا من نهاية اللعبة، شعر دافيد بخدرٍ في أعصابه. وبتوبةٍ ماكرةٍ، قال، "أرجوك أن تعذر إخفاقي في رؤية الأمر من هذا المنظور."

"لا تكن مبالِغاً في شِدة الاعتداد بنفسك،" قال هيرتز ببرودة. "لقد نسيتَ أن

شارب قد تطلبُ إعلان المحاكمة فاسدةً، ثم قد نقومُ نحن بطلب تسلُّم عارف لكي نقوم بمحاكمتها في إسرائيل. فأنت لا تملك وحدك جميع الأوراق."

كان دافيد قد توقَّع هذا الأمر. "أنتم تستطيعون أن تتسلموا هناء، وهذا شيء صحيح. لكن الطريقة الوحيدة لكي تُسكتوني ستكون رصاصةً تُطلقونها على رأسي. ما لم تحاوِل أنت الآن أن تقوم بإلقائي خارج الزورق."

هزَّ هيرتز كتفيه. "إنها فكرةٌ دون شك."

"حتى وإن أصبحتُ أنا ميتاً، فإن لا شيء سوف يتغير. فالمشكلة لم تعد محصورةً بي أبداً ـ إنها محاكمة هناء عارف. واستناداً إلى سجلِّ المحاكمة، فإن ما تحتاجُه أنت الآن، هو التفتيشُ عن مخرجٍ مِن كلِّ هذا."

"نعم،" قال هيرتز. "لقد توقعتُ أنك سوف تصلُ إلى هذا."

"إنك لم تتوقع ذلك فحسب ـ بل تمنيتَه. لهذا عليك ألَّا تتفضَّلَ عليَّ. إن الاستمرار في هذه المحاكمة أمرٌ سيِّىءٌ لنا جميعاً. لقد عرفتُ أنا ذلك منذ البداية. عندما رأيتُ أن دفاعي عن هناء، تتعارضُ أهدافُه مع المصالح الكبرى لإسرائيل في العالم. ولكن عندما رفعتم الجدران أمام طلباتنا، فإنكم قد أرغمتموني على إقامة البرهان عليها. والسؤال الآن هو ما إذا كنتَ تريدُ التوقُّف عند ثلاثة شهودٍ قتلى، أو أن تثابرَ على هذا المنوال طيلة الطريق حتى النهاية."

ولدهشةِ دافيد، فإنَّ هيرتز ضحك بهدوء. "يمكنك أن تكون جاسوساً هاوياً يا سيد وولف. لكنك أيضاً محامٍ شديد الاقتدار. إذن ما هي طلباتك؟"

"أن تقوم شارب بسحب دعواها."

اكتفى هيرتز بمجرَّد هزٍّ كتفيه مرةً جديدةً. "هذا قد توقعتُه أيضاً. لكن شارب ورئيسَها النائب العام الفيديرالي للولايات المتحدة، لا يعملان عندنا."

"ولكنهما يعملان معكم، وموتُ رئيس وزرائكم هو الذي جعلَ حكومتنا تتقدم بهذه الدعوى." ترك دافيد لهجته غير عاطفية. "وحدها إسرائيل تستطيع أن تعطي غطاءً للولايات المتحدة. وعليها أن تعلِن أنها قد اكتشفَت معلوماتٍ جديدةً تشير إلى أن هناء عارف بريئةٌ، لكنها لا تستطيع الكشفَ عن هذه المعلومات لأسبابٍ تتعلق بالأمن القومي."

"هذا طلبٌ مستحيلٌ،" قال هيرتز بشكلٍ صريح. "فلسبب أوَّلٍ، إنها كذبة. إذ ليس لدينا معلوماتٌ عن عارف، لا بشكلٍ ولا بآخر."

"لم أكن أعرف أن إحساساتكم رهيفةٌ إلى هذا الحدّ،" أجابه دافيد بسخريةٍ. "سوف

أترك الأمرَ لكَ، ولشارب، كي تجترِحا شيئاً ما، يسمح للولايات المتحدة أن تُنقذَ ماءَ وجهِها، ويسمح لموكلتي بالخروج حُرَّة. ولكن في أدنى وأبسط الظروف، على إسرائيل أن تعلن أنها لا يمكنها التجاوبَ مع طلبات تايلور."

فكَّر هيرتز في هذا. "عندما تقول تخرجُ حرةً ـ "

"أعني أن تكون حرة في الذهاب إلى أيِّ مكانٍ تشاءُ. وهنا آملُ ـ بل أريدُ ـ من الولايات المتحدة أن توافق على ذلك مقدَّماً. لكن في أيِّ مكان تختار هي أن تعيش فيه، أريدكم أن تضمنوا ألَّا تلقوا يدكم عليها."

"وماذا إذا خطر لها أن تعود إلى الضفة الغربية؟"

أثار هذا السؤال في داخل دافيد شعوراً عميقاً باليأس. "إن كلانا يأمل ألَّا تفعلَ ذلك،" أجابَه. "لكن كلمة 'حرة' تعني ذلك."

ركَّز هيرتز نظرته على الـ: الكاتراز. "وما الذي يحصل إذا استطعتُ أن أحقِّق لكَ كلَّ هذه العجائب؟"

"عندها سأكون متأكداً أنكَ تريد القليل منِّي في مقابل ذلك،" قال دافيد بسخريةٍ هادئة. "أن أقطْعَ علاقتي مع أولئك الذين يريدون السلام في إسرائيل، وأن أتركَ الفلسطينيين يقدِّمون ككِباشٍ فداءٍ في لعبتكم الجيوسياسية. مهما كانت التكلفة باهضةً لكم ولهم معاً."

"مع الأسف،" صحَّح هيرتز، "إنني أريد ما هو حتى أكثر من ذلك، مهما يكن ذلك مستهجَناً لكلينا كبشرٍ. سوف لن تُخبِر هناء عارف بأيِّ شيءٍ عن هذا الحديث الذي جرى بيننا ـ فأنا لا أريد أن أستثير مشاعرها الوطنية بحيث إنها تقرِّرُ تبرئةَ مواطنيها الفلسطينيين، بإلقاء اللوم علينا. وعلى ثلاثتكم ـ عارف، وأنت، ومنيرة ـ أن تلازموا الصمت، كما لو أن حياتكم بأسرها تتوقف على هذا السكوت. وهذا قد يكون صحيحاً.

"إذن، نعم، هذا يعني أن عليك أن تخادع الناس الذين قاموا بمساعدتِكَ في إسرائيل، وكذلك الكثيرَ مِن الفلسطينيين الذين هم أكثر براءة ربما من موكلتك. وإلا فإننا سوف نقوم بمحاكمتِها في إسرائيل. وستكتشف الفتاة كلَّ الحقيقة. وهكذا، إذا أعطينا عارف حريتَّها بدون البراءة التي تطلبها باستماتة، فإنها ستعاني من الأذى في سمعتِها دون أن يكون لها أن تشتكي أو أن تعقِّب على الأمر، مهما يكن الناس ما زالوا يعتبرونها قاتلةً. لكن ذلك سيبقى أفضل مِن حكمٍ بالسجن المؤبد، أو بالإعدام."

بقي دافيد صامتاً. كان يكره أن يدير ظهره لأولئك الإسرائيليين الذين شعر بالتعاطف معهم، أمثال: موشي هاوارد، وآفي ماسور، وآنيت بن آرون ـ بينما يُترك الفلسطينيون

لدورِهم ككباشِ فداءٍ. لكنه كان في نهاية الأمر، محامي هناء. "سوف نعتبرُها صفقةً،" قالها على كُرهٍ منه عميقٍ، "منذ اللحظةِ التي تخرُج فيها هناءُ حرةً طليقةً، ولكن ليس قبلَ ذلك. وليس إذا قمتم بإلقاء أيٍّ يدٍ لكم عليها في أيٍّ وقتٍ، بعد ذلك."

لمدة طويلةٍ، اكتفى هيرتز بمراقَبةِ وجه دافيد، بينما تعبيراتُه الخاصَّةُ محايدةٌ. "أعتقِد أننا نفهمُ بعضَنا بعضاً."

منادياً على سائقه، أشار هيرتز إلى الشاطىء. مرَّت الدقائق التي استغرقَتها رحلة العودةِ، في صمتٍ تام. وعندما وصلوا إلى نادي ساينت فرانسيس لليخوت، افترق دافيد والإسرائيليُّ دون كلام.

وقف دافيد وحيداً على رصيف الميناء محدِّقاً في المنظر المعتاد لقاربَينِ شراعيَّين يُبحران مع الريح، أمام صخرةٍ عاريةٍ في الـ :الكاتراز. لم يكد يصدِّق ما قد سمعَه قبلَ قليلٍ، ولا الدور الذي يُلزمُه القدَرُ بلعبِه. كما أنه لم يكن على يقينٍ مِن أنَّ هيرتز قد يستطيعُ فِعلاً تحقيقَ كلِّ ما كان قد طلبه منه. لكن كل ما كان بوسعه أن يعمله، إنما هو مجرَّدُ الانتظار.

وللحظةٍ، وبشكلٍ غير طبيعيٍّ، ذهبت أفكارُ دافيد إلى إبراهيم جعفر المحكومُ عليه بلعنةِ الموت في سجنٍ فيديرالي. ومهما تكن حقيقةُ الأمرِ، فجعفرُ لم يكن سوى ألعوبةٍ بيدِ التاريخ. لكن كلٌ منهم ـ هناء، دافيد، منيرة، صائب، وحتى عاموس بن آرون ـ قد صاروا بدورهم أيضاً جميعاً، دمى بيد التاريخ. وكلُّ ما بقي: هو مراقَبةُ ما سيقدمُه التاريخ لأولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة.

الفصل 21

صرف دافيد أيامه الثلاثة التالية يُعدُّ نفسه للمحاكمة كما لو أنه لا أمل له في تحرير هناء. لكن الأملَ ما انفكَّ يكسرُ تركيزه أكثرَ ما يكسره عندما كان يحاول أن يصمِّم أسئلته. أمَّا المصدر الآخر لتشتيت تركيزه ـ فكرة أن تكون سلامته مهدَّدة ـ فقد كان يطفو إلى السطح في الأماكن العامة، وأثناء الليل. لم يكن قادراً على طرد هذا الخوف بالقدر الذي كان يدعوه إليه المنطق؛ فالإقدام على قتلِ شخصٍ ما، كانت فكرة غريبة عنه إلى درجة جعلته لا يستطيع أن يصدِّق أن القتلَ يمكن أن تحكمه قوانين العقل.

لكنَّ شيئاً لم يطفُ إلى السطحِ. فكان أن عاش ثلاثة أيامٍ نسكيَّةٍ، كأنه في انتظار حياةٍ أكثرَ غِنىً، وأكثرَ إنسانية، يستأنفها. لم يستطع الانقطاعَ عن التعجُّب كيف تُراها تُمضي مارني شارب عطلة نهاية هذا الأسبوع. وما هي نوع المحادثات الجارية الآن بين إسرائيل والولايات المتحدة. لم يكن دافيد يقبل أيَّ اتصالاتٍ مع الصحافة. ومع أن الصحافة كانت مليئة بالتوقُّعات، إلَّا أن أحداً لم يقترب من القصة التي نسجها دافيد مع آفي هيرتز وسطَ خليج سان فرانسيسكو. وإنها لقصة سوف تستحيل إلى حقيقة، كان دافيد يعرِفُ، فقط إذا وافقت شارب على جعلِها تصبح كذلك في صباح يوم الاثنين. وإلى أن يأتي ذلك الوقت، فإنه حاولَ ألَّا يتخيَّلَ الحياة التي يمكن أن تحياها هناء ومنيرة بعد ذلك.

وأطلَّ صباح الاثنين مشرقاً ناعشاً. فحاولَ دافيد أن يرى في ذلك بشيرَ خيرٍ.

* * *

وعند الساعة التاسعة صباحاً، وبدَل أن يُستأنف انعقاد الجلسة في قاعة المحكمة المليئة بمراسلي الصحافة الجشعين، فإن القاضي تايلور، استدعت دافيد، وشارب، إلى مكتبها. "لقد طلبتِ اجتماعاً خارج القاعة،" قالت لشارب. "ما الأمرُ إذن؟"

جالسة على كرسيٍّ إلى جانب دافيد، بدت شارب رابطةَ الجأش، لكنها تعيسةٌ، في هدوء. فكمحامٍ، إنها كانت على شفير إرواء رغبة في النصر تستحوذُ عليها. إنه أملها كمحامٍ، في ربحِ محاكمة هامة في حياتها المهنية كانت قد قتلت فيها ساعاتٍ من الجهد لا

تحصى، وبذلت فيها أقصى إمكانياتها ومهاراتها. محاكمة كان لا بد من أن يبقى ذكرها حتى بعد أن يغلِّف النسيان كلَّ محاكمةٍ سواها. ودون أن تُلقي نظرة إلى دافيد، تكلمت بوتيرةٍ روتينية هادئة كما لو أنها تعيدُ تسميعَ مقالة كتبها لها أحدٌ ما سواها.

"إن الحكومة،" قالت للقاضي تايلور، "ترغبُ في سحبِ هذه الدعوى ضد السيدة عارف دون الإخلال بحقنا في إعادة تقديم دعوى جديدة إذا برز دليلٌ جديدٌ إلى النور.

"إننا أبعد ما نكون عن الاقتناع أن عارف بريئة. لكن شهادة السيد خالد، قد أثارت أسئلة، جعل موتُه الإجابة عليها أمراً عسيراً."

نظرَت إليها تايلور بعناية. "هذا قد يصلح أن يكون سبباً للدفع بمحاكمة فاسدة،" قاطعتها القاضي. "ماذا عن الحكومة الإسرائيلية؟ فلقد كنتُ قد طلبتُ أن تقوم هذه الحكومةُ بإرسال ممثلٍ عنها."

"هذا هو العنصرُ الثاني من عناصر قرارنا،" قالت شارب بكلماتٍ ما انفكَّت تخرج على مضضٍ. "إن حكومة إسرائيل قد فوضَت إلينا أن نصرِّح بأنها على علم بمعلوماتٍ تتعلق بمؤامرة أوسعُ نطاقاً، ليس فيها بحدِّ ذاتها ما يبرِّىء السيدة عارف، لكنها متداخلة مع دفاع السيد وولف، ومع الأوامر الصادرة عن هذه المحكمة يوم الخميس الفائت. ولأسبابٍ تتعلق بالأمن القومي، ومن أجل عدم إيقاعِ الأذى بالتحقيقات الإسرائيلية الجارية حول مؤامرة اغتيال رئيس الوزراء بن آرون، فإن إسرائيل لا ترغب في تقديم هذه المعلومات إلى الدفاع."

"هل يمكن أن يكون هذا المخاض قد انتهى؟" تساءلت أفكار دافيد.

"إنني مفوضة أيضاً بالقول،" تابعت شارب، "إنه واستناداً إلى محضر، وإلى الوقائع الأخرى التي لمَّا تزلْ خارج اطِّلاع الجمهور، فإن الحكومة الإسرائيلية تعتقد أن صائب خالد كان شريكاً ضالعاً في الاغتيال. وكلُّ ما تريد حكومتنا قوله: هو أن موقف إسرائيل، وأحداث هذه المحاكمة، تخلق غموضاً كافياً يبرِّر سحبَ هذه الدعوى. وليس هناك من قانونٍ للتقادم المسقِطِ في ما يختصُّ بجناية القتل، وهذه الجريمة، كما يبدو واضحاً، هي من الخطورة الشديدة بمكانٍ لكي نوقفَ تحقيقاتنا بخصوصها. لكن هذا ما يبقى عليه موقفنا حتى إشعارٍ آخر."

"إذن، هل ستبقى هناء معلَّقة في الهواء،" قال دافيد لشارب. "ما الذي يجعلك تعتقدين أن دعواك ضدَّها ستتحسن؟"

"لا تُلحِف في استغلال حظِّك،" قاطعته القاضي بابتسامة بارعة. "ولا تعذِّب نفسَك خلفَ خيال نصرٍ كاملٍ يا سيد وولف، فإن أحسنَ ما كنت تستطيع أن تأمل أن أوفِّره لك، هو حكمٌ بفساد المحاكمة." مستديرة نحو شارب، أضافت، "لكن عليَّ أن أقول لكِ، يا سيدة شارب، إنني أشكُّ في أنِ محلَّفاً منطقياً يمكنه أن يجرِّم السيدة عارف ما لم تتمكني من أن تأتي بأكثرَ مما أعتقدُ أنك تستطيعين تقديمه. لهذا، لا تسهري الليالي متحسِّرة كيف أن السيد وولف قد استطاع المرور من شبكة النظام.

"ومجازِفةً بإمكانية الظهور بمظهرِ الساخرِ، أقول إن السيد وولف قد لا يكون هو الشخص الوحيد الذي يتمتع بإحساس، دعُونا نسميه: مطّاطاً، بالقواعد. فإنه ليبدو لي أن إسرائيل قد تكون ترغب منكِ سحبَ هذه الدعوى مِن أجل استرداد عارف لمحاكمتها في إسرائيل. إني آمل منهم أن يفهموا أنني لن أوفّر لهم مساراً متعاطفاً مع طلبٍ يتقدمون به مِن أجل الاسترداد."

"إن دولة إسرائيل،" استجابت شارب، "قد فوّضت إليَّ أن أدلي بأنها سوف لن تتقدم بطلب استرداد."

رفعت القاضي حاجبيها. "إن أحدهم،" قالت. "يبدو أنه قد فكّر في كلِّ شيء تقريباً. هل لا يزال هناك أيُّ مسائل معلّقة يا سيد وولف؟"

هزَّ دافيد رأسه إيجاباً. "يبقى هناك بعض الاعتبارات التطبيقية يا صاحبة الاحترام. فإني أعتقد أن السيدة عارف وابنتها قد تكونان في خطرٍ إذا ما هما عادتا إلى الضفة الغربية. وإنني أرغب في إبقائهما في الولايات المتحدة إلى زمنٍ غير محدَّد."

انزعاج شارب المكبوت طفا إلى عينيها. "على أملِ رعايةٍ مشتركةٍ؟" سألَته بنبراتٍ تميل إلى السخرية الكاوية. "أو لمجرَّد زيارات نهاية أسبوع فقط؟"

"الآن وما دمتِ قد جعلتِ الأمرَ شخصياً،" أجابها دافيد ببرودة، "إني آملُ بأن تبقى هناء ومنيرة سالمتات على قيد الحياة. كما آملُ أن تكون الحكومة كفوءة بما فيه الكفاية كي تحفظ سلامتهما في سان فرانسيسكو."

"كفى،" قاطعتهما القاضي بلهجة لاذعة. "هل لديكِ من استجابة أكثر نفعاً يا سيدة شارب؟"

توقفت شارب، وبتعبير كئيب قالت، "سوف تمدِّد الولايات المتحدة تأشيرة الدخول العائدة إلى السيدة عارف، وتلك العائدة إلى منيرة خالد لمدة سنة ريثما يُتَّخذ إجراء جديدٌ من دوائر الهجرة ومِن وزارة الخارجية. وخلال هذا الوقت، يمكنهما التقدم بطلب الحصول على إقامة دائمة استناداً للأساس الذي يختارونه لذلك."

شعر دافيد أن جسده يسترخي، كما لو أنه لا يكاد يصدِّق كيف تبدَّل حظُّ هناء. "هل هناك أيُّ تعديلاتٍ ترغبُ في إدخالها على هذه الصفقة التي تشبه الحلم؟" سألته القاضي بجفاف. "خلا عن العفو التنفيذي."

"نعم. إني أطلب الحماية لهناء ومنيرة، فيما لو اختارتا البقاء، على الأقل لمدة السنة التي ذكرتها السيدة شارب."

"أعتقِد أن هذا طلب منطقي،" قالت تايلور لشارب. "كان يمكن أن يحصل صائب خالد على مثل هذا الحق. وعدمُ حصوله على ذلك هو سبب وجودنا في هذا الواقع."

هزَّت شارب برأسها بالموافقة. "سوف نسوِّي التفاصيل مع السيد وولف." ومستديرة نحو دافيد، قالت له، "في ما يختصُّ بدورك، نتوقع منك ومن موكلتك الموافقة على عدم إعطاء أية تصريحاتٍ حول هذه الدعوى، بما في ذلك التصريحات عمَّن قد يكون وراء هذه المؤامرة. لا مؤتمرات صحفية، لا تسريبات مغفلة، لا شيء على الإطلاق."

هذا ما حسِب دافيد أن هيرتز قد عناه بإلزامهم بالسكوت: كِعامٌ للإمساك عن الكلام مدى الحياة في مقابل حرية هناء. "هذا الشرط مقبول،" أجابها، "شرط ألَّا تُتَّهمَ هناء من جديد. وأيضاً بشرط ألَّا يقوم أحدٌ من جانبكم بالكلام عن قضية منيرة، أو ما قد تكون علمته عن خالد. وإذا أخللتم فكلُّ التعهدات تصبح لاغية."

نقَّلت القاضي نظرتها بين شارب ودافيد. "السكوت لا يتمتع بإلزامية يفرضها القضاء." قالت، "ولكن يبدو بكل تأكيد أنه يُنصح به بالنسبة إلينا جميعاً." متوقفة، أعطت القاضي دافيد ابتسامة طفيفة. "إن أحدهم قد فكَّر حقاً بكلِّ شيء، أليس كذلك؟"

لم يعطِ دافيد جواباً؛ كما أن القاضي لم تكن تتوقع ذلك. "دعونا نذهب إلى قاعة المحكمة،" قالت بعد لحظة. "ثم بإمكاننا بعد ذلك أن نطلق سراح زبونتك ونرفع يدنا عن منيرة."

* * *

لدى مغادرتهما مكتب القاضي، توقف دافيد وشارب عَبر الممر.

استحضرت شارب ابتسامة باردة. "لقد عمِلتَها،" قالت له. "هذا هو بالضبط ما كنتَ تريد الوصولَ إليه منذ البداية. لقد جعلتَ إسرائيل تلعب ضد الولايات المتحدة، وجعلتَ فاتورة المحاكمة غالية جداً كي تتمكن إسرائيل من سدادها."

لم يبادلها دافيد الابتسام. ففي هذه اللحظة لم يكن يشعر بالسعادة الغامرة. "لقد كانت التكلفة،" أجابها، "أغلى مما كنتُ قد توقعتُ."

"تعني وقوع عدة قتلى؟"

"كثيرٌ من الموت، وكثيرٌ من المعرفة." توقف، ثم أضاف بتعب، "في بعض الأيام يا مارني أشعر أنني مثل الرجل الذي قضمَ التفاحة."

نظرت إليه شزراً. "إذن، ماذا تعرف أيضاً؟ هل كانت منيرة فعلاً مع خالد طيلة الوقت عندما كلَّم المدبِّر إياد حسن؟"

"لست أدري عن هذا،" أجابها دافيد. "ما لم أختر الضغط على منيرة فإنني لن أستطيع أن أعرف. لكن هناء قد اجتازت اختباراً لكشفِ الكذب، وليس ثمة شيء قد قالته عن هذه الدعوى ـ سواء إلى مكتب التحقيقات الفيديرالي، أو لي، أو لكِ، قد تبيَّن أنه كاذب، ما عدا ربما عندما كان يتعلق الأمر بحماية منيرة."

"هذا هو السؤال، أليس كذلك؟" ردَّت عليه شارب. "سواء أكانت عارف قد ساعدَت زوجَها من أجل حماية ابنتها، فإن ابتزاز خالد لها، يقابله ما قمتَ به من عملٍ يشبه نصف ابتزاز."

هزَّ دافيد رأسه. "عندما جرى اتهام هناء، فقد كان بإمكانها أن تقوم بتوريط صائب قبل أن تدعَ له المجال بتربية منيرة."

"هذا مجرَّد تخمين،" قالت شارب بلهجة صارفة. "وهو ما قد يكون كلّ ما تُرِكنا معه." صارت نبرة صوتها قدَريَّة أكثر مما هي غضبية. "إنني أكره الخسارة على هذه الشاكلة، وأنت تعلمُ ذلك. لكنني الآن، حيث نحن نقف هنا، فإنني لستُ متأكِّدة حول مبلغ رغبتي في الربح أيضاً. لقد شعرتُ إلى درجة كبيرة أنني كنتُ أشبه ببيدقٍ. ولم أكن متأكدة من هو الذي يحركني. وليس هناك من نهاية تبلغ غاية الاكتفاء، هل حقاً هنالك من نهاية تبلغ ذلك؟"

إذن، إن شارب قد راودها الشعور ذاته أيضاً. "كلا،" أجابها دافيد. "ولكن هذه هي النهاية الوحيدة التي قد أعيش معها."

أعطته شارب ابتسامة أخيرة مترددة. "إذن أتمنى لك أن تنال بعض الخير منها،" قالت له ثم استدارت فجأة ومشت متقدمة دافيد إلى قاعة المحكمة.

* * *

بعد ذلك بأربع ساعات انتظر دافيد هناء خارج مركز السجن الفيديرالي.

محاطة بعنصرين من قيمي السجون، خرجت مرتدية ثيابها التي كانت ترتديها ليلة اعتقالها. توقفت للحظة وهي ترمُشُ بعينيها تحت وهج الشمس. ثم تاركة حارسيها، مشت في اتجاه دافيد، وعلى مسافة قدم منه توقفت من جديد، ومتنبهة إلى حضور الصحافة على الطرف المقابل من الحاجز فإنها أمسكت يديه ورفعت أنظارها إلى وجهه.

"شكراً لكَ،" قالت له بعينين متلألئتين. "لكن الشكر لا يكاد يكفي للتعبير. فلقد أرجعتَ لي حياتي مع ابنتي."

حاول دافيد أن يبتسم. "هذا ما كنتِ قد أوكلتِني من أجله. أليس كذلك؟"

"نعم. والإنسان الوحيد الذي دفع ثمن هذا التوكيل هو أنت." أخفضت هناء نظرتها قليلاً. "ومهما حصل يا دافيد، فإن عليَّ أن أراك. ليس هكذا، ليس في قاعة المحكمة، ولا في المكاتب."

لم يكن متيقِّناً ماذا كان يعنيه هذا الكلام. مازالت متنبِّهة إلى حضور الكاميرات ابتعدت عنه واستدارت نحو حراسها. التفتت وراءها التفاتة سريعة، ثم واكبها الحراس إلى الحافلة التي ستبدأ بواسطتها رحلتها إلى المكان الذي تختار الذهاب إليه هي ومنيرة.

الفصل

22

مرَّت فترة ما بعد الظهيرة في ضباب وغموض، وكان دافيد ينحّي عنه تطفُّلَ الصحافة بترداد 'مانترا' واحدة، ذات عبارات منتقاة بعناية: هناء بريئة؛ وردُّ الدعوى كان تبرئة لها؛ وإطلاق سراحها هو بداية حياة تحب أن تتقاسمها فقط مع ابنتها المصعوقة بوفاة صائب خالد. هناء لم تَرِد مرة أن تكون شخصية مشهورة، أكَّد لهم دافيد، وإنها لا تريد اتهامات خاطئة، أو أسئلة لا جواب عليها بخصوص زوجها لكي تبقيها تحت أنظار الجمهور. وإن ما تحتاج إليه هو أن تتشافى، وهذا يتطلب منها الّا تقول أيَّ شيء، لا الآن، ولا في المستقبل ـ أكثر مما قالته في المحكمة. إن هذه الصفحة من حياتها قد انطوت.

أغلبُ الصحافة لم تكن لتصدِّق هذا، بل تناولته بانزعاج. فالمراسلون كانوا معتادين على الأداء كقاعة مرايا يندفع إليها الناس في اتجاه بؤرة الضوء. مع أنهم كانوا يمرون عرَضاً في نرجسية قد اكتسبوها فجأة. لقد كان هذا ما توقعوه من هناء ودافيد. لكنهم لم يكونوا ليعلموا أبداً الأسباب العميقة المدفونة في الماضي التي تجعل تحفُّظ المحامي، كما تحفُّظ موكلته، عن الكلام، أمراً ليس بسبب رغبتهما فقط، بل بسبب حاجتهما إلى ذلك أيضاً.

وهكذا، عندما رجع دافيد إلى شقته قرب المارينا، رجلاً ليس عنده نظرة واضحة لمستقبله، فإنه قد تجاهل تكتلاً من أهل الصحافة الذين تجمَّعوا لاحقاً، عند مدخل سكنه يقرعون جرس بابه، ويطلبون رقم هاتفه. وبعد أربع ساعات، عندما ألقى نظرة من شباك غرفة جلوسه، فإنه ألفى الصحافيين قد يئسوا ورحلوا.

وبُعيد الساعة التاسعة بقليل، من تلك الليلة، سمع دافيد نقرة ناعمة على بابه. ناهضاً عن كرسيِّه الذي كان يجلس عليه، في ما يشبه العتمة، حدَّق بأنظاره في ثقب الباب. ثم مندهشاً، عاجلَ إلى فتحِه.

كانت هناء تلبس بنطالَ جينزٍ تحت جاكيت. وقفَت عند العتبة غير واثقةٍ من نفسها، منتظرة قيامه بدعوتها إلى الدخول. "لقد حاولتُ أن أتصل،" قالت في النهاية.

استجمع دافيد ابتسامة. "لم أكن أتوقع أن أراكِ بهذه السرعة."

تراجع من أمام الباب. متلفِّتة خلفها، انزلقت هناء إلى الداخل.

وقفا عند المدخل، ينظر كلٌّ منهما في صاحبه. "هذا يبدو أمراً غريباً،" قالت في النهاية. "ففي أحيانٍ كنت قد تخيلتُ انفرادي بكَ من جديد، أحلام فتاة. لكنني لم أصدق أن ذلك قد يحدُث مرة."

لوى دافيد رقبته. "مَن الذي بقي مع منيرة؟"

"نسرين." ترددت هناء. "إن منيرة نائمة."

كان يكاد يسمعُ ضرباتِ قلبه. "وماذا لو أفاقت؟"

"هنالك أشياء لا أزال غير قادرةٍ بعدُ على قولها لها. حتى إنني لا أكاد أستطيع قولها لكَ." كان صوتها مثخَناً بالتعاسة والندم. "أنا لا أدري بمشاعركَ يا دافيد، وقد يكون ثمة كثيرٌ منها. لقد كنتُ أنانية عندما كنت صغيرة، كما كنت أنانية عندما طلبتُ منك القيام بتولّي الدفاع عني. سوف أحاول أن أكون الآن أقلّ أنانية. فإذا كنتَ ترى أنه مِن الأفضل لنا أن أنصرف، فإنني سأكون متفهِّمة للأمر."

هزَّ دافيد رأسه. ثم بغريزته قام بتطويقها بذراعيه.

كان يستطيع الإحساس بهناء وهي تغلق عينيها حالما تركت جسدها يستريح إلى جسده. وبصمت بقيا متضامَّين، ويتحركان بلطف. "وماذا تريدين مني؟" سألها مهمهماً.

انتصبت إلى الوراء، رافعة أنظارها إلى عينيه من جديد. "أن تبقيني،" أجابته ببساطة. "أن أمضي هذا الوقت معك، كيفما اخترنا أن نصرفه معاً."

نظر دافيد في وجهها. كان من الجمال حتى إن النظر إليه عن هذا القرب بدا موجعاً. ثم مرَّت أنامله على مؤخرة عنقها، ومال بوجهه صوب وجهها.

كان فمها ناعماً ودافئاً، وكان الأمر أليفاً وغريباً في وقتٍ واحد. شعر دافيد أنهما معاً قد باتا معلَّقين خلفَ الزمان، فإذا بهما ذاهلين عن كل شيء سواهما، غير عارفين أهما في وهم الماضي أم حقيقة الحاضر. ثم عاده جوعٌ إليها، وحضره إحساس بشغفٍ مؤجَّجٍ مؤجَّلٍ على مرِّ سنوات عبَرت. أمَّا ماذا يعني ذلك فلم يعد مسألة ذات بال.

وجدت شفتاه طريقهما إلى قاع عنقها. ارتعشت هناء مضاعفة التصاقها به. آخذاً بيدها، قادها إلى غرفة النوم.

* * *

جلسا على أريكة مريحة، وهما يرتشفان قهوتهما،" لكن تُرى أنَّى نحن ذاهبان انطلاقاً من هنا؟"، قالت هناء.

"كم كنتُ أتمنى أن أكون قادراً على الرؤية إلى هذه المسافة."

متوقفةً، سرحت أنظار هناء. "لقد كان الأمر غريباً اليوم بالنسبة لي ـ كنت أنظر في وجه منيرة، وفجأة رأيتني أشاهدك. ولقد شعرتُ بنوعٍ من السلام، وكأني بشظايا نفسي المتفرقة تتصالح.

"لكن منيرة قد عاشت تقريباً ثلاث عشرة سنة بدونكَ. وفي الوقت الحاضر، فهي فتاة قد خسرَت الأب الذي قد تشعر أنها قامت بالغدر به. وإني لأجاهد نفسي كي أعرِف ما هو الشيء الأفضل بالنسبة إليها."

"الأفضل لها هو أن تبقى هنا،" أجاب دافيد بلهجة جازمة. "كما أنه الأفضل لكِ ولمنيرة. لماذا يجب أن يضحَّى بها على مذبح أحقادٍ لم يكن لها يدٌ في التسبب بها؟ قد تكون أميركا هي المكان الآمِن لكما معاً. إنها وطنٌ لمن لا وطن له، كما لمن صار وطنه مكاناً شديد الخطر. ولسوف لن يكون ثمة سلام في الضفة الغربية."

"الأحلام شيء لا يمكن التخلي عنها بسهولة،" قالت هناء. "كيف لي ولمنيرة أن نتخلَّى عن شعبنا في زمنٍ يريد العالم أن يجعل منَّا منبوذين مرة جديدة؟ إن بلادنا في حاجة إلينا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى من أجل محاولة بناء دولة لنا جميعاً. ومهما يكن الأمر شاقاً فإننا سنبقى نحاول بناء وطن وليس مجرَّد مأوى للعيش."

"ولكن،" قاطعها دافيد." إن عودتكما إلى الضفة الغربية، ربما كانت غير آمنة؟"

"لماذا؟" قالت هناء بهدوء. "هل لأنني عندما أعود، سيقوم أولئك الذين قاموا بقتلِ صائب بالإقدام على قتلي بِسبب ما أعرفه؟ فعندما لا يفعلون ذلك، فلربما أنك سوف تعرف في نهاية الأمر بشكل مؤكَّدٍ، أنني إنسانة بريئة."

كان هذا الكلام شديد الصحة إلى درجة أسكتت دافيد. "وماذا عن الآن؟" سألها في نهاية الأمر.

أغلقت هناء عينيها قليلاً. "بالنسبة إلى منيرة وإليَّ،" قالت، "لقد آن الأوان لكي نتابع حياتنا من جديد. نحن مغادرتان يا دافيد يوم بعد غدٍ. هل ستأتي لوداعنا إلى المطار؟"

* * *

بحزنٍ وتشاؤمٍ انتظر دافيد، قرب البوابة الأمنية، هناء ومنيرة من أجل تقديم جوازيهما للسفر على الرِّحلة الجوية إلى تل أبيب عبر نيويورك، حيث ستقوم الحكومة الإسرائيلية بدءاً من هناك بمرافقتهما إلى رام الله. كان ذلك قبل الساعة السابعة صباحاً، وكان الميناء

الجويُّ هادئاً، لم يكن ثمة سوى الحضور المراقِب للقيمين على السجون مما يشير إلى وجود مسافرتين مغايرتين للمعتاد. ولكن بالنسبة إلى دافيد، فإن منيرة وهناء كانتا موضوعتان على شفير هاوية الخطر والغموض.

بعدما تسلَّمتا تذكرتيهما، همسَت هناء شيئاً ما في أذن منيرة. هزَّت منيرة رأسها ثم رمقت دافيد بخجلٍ بعينيها السوداوين اللامعتين الشبيهتين بعيني والدتها قبل أن تتقدم نحوه وحيدة. وبطريقة رسمية مهذبة قالت له، "أشكركَ مِن أجل مساعدتك لنا."

"لن أقول لكِ الوداع،" قال لها دافيد. "سوف أذهب لزيارتكِ، وسأعمل ما بوسعي لكي أبقى أتصل معك بالهواتف الخلوية. وربما في يومٍ مِن الأيام، ستأتين مثل والدتك، للدراسة في أميركا."

احتقن وجه منيرة فأيقن دافيد أن بالنسبة إلى منيرة، ووفقاً لمنطقها الخاص، فإن العيش في أميركا كان أشدُّ رعباً من العيش تحت الاحتلال. كما أنها الآن لا تستطيع أن تتخيَّل مستقبلها. ولكن ربما، وبدافع المجاملة، فإنها هزَّت رأسها بالإيجاب ومادَّة نحوه يدها.

تناول دافيد يدها الممدودة بكلتي يديه. "ليحفظك الله يا منيرة."

ظهرت هناء خلفها. وبهدوء قالت لابنتها. "دعيني أتكلم مع دافيد لحظة."

مشت منيرة بعيداً عنهما. واقفة بقربه، سألته هناء، "إذن، ماذا أنت فاعلٌ الآن؟"

"بحياتي؟" ابتسم دافيد قليلاً. "يبدو أنكِ جعلتِ مني شخصاً مشهوراً. قد أجد الآن لنفسي مهنة جديدة تقوم على الدفاع عن المظلومين." توقف قليلاً، ثم أعطاها أوسع جوابٍ كانت تنتظره. "قبل مجيئكِ كنت أتجه مباشرة نحو الحياة السياسية. أما الآن، فهذا أمرٌ لن يحدث أبداً. غريب، أليس كذلك، أن يكون تدمير كلِّ مخططاتي السابقة هو ما سوف يجعلني أقرب إلى إنسانيتي ونفسي. ولكن هذا ما قد يكون حدث لي فعلاً بصرف النظر عن قساوته."

نظرت إليه هناء باهتمام وإعجاب. "أنت محام موهوب، يا دافيد، ولربما أن ما كنتَ في حاجةٍ إليه هو أن تتاح لك الفرصة لكي تعطي لهذه الموهبة مزيداً من المعنى."

شعر دافيد أن الأمل يصطدم بالشعور العميق بالخسارة. "ومع ذلك، فأنتِ الآن تغادرين. لكن هذه لن تكون النهاية بالنسبة إلينا."

بصمت، لامست هناء ذراع دافيد، رافعة أنظارها إلى وجهه مثلما فعلت مرة منذ مدة طويلة، عيناها ما تزالان برَّاقتان، لكنهما عينا امرأة الآن، وقد صارت حرائقهما ملطَّفةً مع الزمن والنضج. ثم استدارت قبل أن يتمكن دافيد من الوصول إليها ومضت تمشي مع منيرة إلى البوابة الأمنية، أمٌّ هيفاء وابنتها تمشيان بخطوات واثقة وئيدةٍ واحدة.

ملاحظات المؤلف/كلمة شكر

لعلَّ المأساة الدائرة بين إسرائيل والفلسطينيين هي أكثر المسائل التي تعرَّضتُ لها تجاذباً وتعقيداً. فالتناقضات القائمة بين الإسرائيليين والفلسطينيين بالغة العمق في الوجدان، شديدة الغور فيه، بحيث إنه يصعب حتى الوقوع على قاموس مشتركٍ لمفرداتها: فعلى سبيل المثال، إن عبارة الضفة الغربية التي كثيراً ما يشير إليها الفلسطينيون تحت مسمى "الأراضي المحتلة"، نجد أنها تأخذ على لسان كثيرٍ من الإسرائيليين مسمى "يهودا والسامرة،" أي أنها جزء من أرض إسرائيل التوراتية. أمَّا عندما يأتي الأمر إلى بحثِ أسباب العنف ونتائجه، فإن الفروقات في التفكير تصبح لاهبة.

وإنني أعترف في هذا المجال بالانحياز إلى فكرة واحدة: وهي أن الحلَّ القائم على دولتين، والهادف إلى تأمين وجود دولة إسرائيل آمنة من جهة، ودولة فلسطينية قابلة للحياة من جهة أخرى، هو الأمل الوحيد لتحرير كلا الشعبين من ربقة الماضي. لكن قيامي بكتابة هذه الرواية لم يكن يهدف أبداً إلى إصدار حكم مني على الحقيقة، ولا لأرسم خريطة للحل، ولا لتمرير أفكارٍ ضمنية حول الموازنة الأخلاَّقية بين جانب وآخر. لكن هدفي كان يتَّجه نحو حَبكِ روايةٍ آسرةٍ تتشابك فيها التجارب والأماني المختلفة لكلا الشعبين، كما يتَّجه نحو بيان سبب بقاء مستقبل السلام الدائم شيئاً بعيدَ الإدراك، شديد الغموض. وإني على ثقة من تفهم القارىء إلى حقيقة أن إدراج رواية فريقٍ ما لا يعني بالضرورة المصادقة على هذه الرواية، ولا ممارسة ذاك المعتقَد.

وليس هناك من شكٍّ عندي في أنَّ قرَّاء كُثُراً سوف يجدون شيئاً ما لا يعجبهم في هذه الرواية. وبالفعلِ، فإن بعض المتعصبين من كلا الطرفين هم شديدو التمسُك بوجهات نظرهم الخاصة، بحيث إنهم يشعرون بالانزعاج الشديد لأيِّ انحرافٍ عنها، مهما يكن بسيطاً. لكنني أؤمن مع ذلك أن القبول بحق الآخر في مخالفةِ الرأي هو شرطٌ جوهري لتعايش البشر معاً. مثلٌ صغيرٌ على هذا، أنه يجب أن يكون ممكناً للفلسطينيين ومناصريهم أن يتفهموا لماذا يكون اليهود، بعد قرون من الاضطهاد، راغبين في إقامة دولة يهودية لهم. كما أنه يتوجب على مناصري إسرائيل أن يتفهموا أماني الشعب الفلسطيني، ومراراته الناتجة عن انعدام وجود دولة تجمع شمله، بما في ذلك شمل العائلات الفلسطينية

التي تسبب وجود دولة إسرائيل في شرذمتها. لكن جمعَ شملِ العائلات هو أمرٌ يبدو للبعض أصعب تحقيقاً مما يبدو في ظاهر الأمر.

وثمة ملاحظات أخرى إضافية. الأولى بينها، أنه عندما كنت أتخيَّل الشخصيات، فإن السياق العام، مثل هوية القوى المتصارعة التي جرى الحديث عنها في هذه الرواية، كان شديد الواقعية. وفي الوقت الذي كان من الواضح أن عاموس بن آرون ومروان فاراس هما قائدان وهميان، فإن سلفاءهما، من أمثال آريل شارون، وإسحاق رابين، وبنيامين ناتانياهو، وياسر عرفات، المشار إليهم في هذه الرواية، إنما هم شخصيات كبيرة في هذا التاريخ المتشابك. أما الأمكنة فهي أيضاً حقيقية؛ وهذا الأمر لا يقتصر فقط على القدس وتل أبيب ورام الله، بل يتعداها إلى جنين، وعايدة، والخليل، وقلقيلية، وحاجز قلنديا، والمقيبل، ومسعدة، وقرية عطواني، وهي مجرد أمثلة عن مواقع وأماكن أخرى كنت قد زرتها بنفسي.

أما الملاحظة الثانية فهي أن أحداث هذه الرواية هي أيضاً خيالية، مع أنها متجذِّرة في رحلاتي وأبحاثي المكثفة التي سأشير إليها في مكان آخر من هذه الملاحظات: فلم تتيسَّر لي الكتابة عن أعباء أولئك الذين يقومون بالإشراف على أمن إسرائيل دون أن أقوم بمقابلة المسؤولين في الجيش الإسرائيلي؛ كما لم تتيسر لي الكتابة عن كتائب شهداء الأقصى دون أن ألتقي أحد قيادييها؛ ولا عن ضحايا التفجيرات الانتحارية دون أن أقابل بعض الناجين منها؛ ولا عن المستوطنين اليمينيين دون أن أقوم بزيارة مستوطناتهم؛ ولا عن السياسة عموماً، والسياسات الجيوبوليتيكة خصوصاً، دون استشارة الدبلوماسيين ورجال السياسة؛ ولا لأصوِّر أولئك الموجودين بين الطرفين من دعاة السلام دون الوقوف على آرائهم. وهذه ليست سوى مجرَّد أمثلة على ما أردته من مقاصد شاملة. وإنني أتفهَّم حقيقة أن بعض الناس سينزعجون لأنني اخترتُ أن أتقابل مع شخصياتٍ مثيرة للجدل، بما في ذلك أحد قادة كتائب شهداء الأقصى، المطلوبين من قِبل الجيش الإسرائيلي. فبينما كنتُ أجمعُ تقصّياتي؛ فإن غرضي كان إخبارياً. ولم يكن وضعُ حدٍّ لاستقصاءاتي وأبحاثي ليفيد القصة أو القراء في شيء.

أما الملاحظة الثالثة، فإن اختياراتي اللغوية، كاستعمالي لمفردات مثل "الفلسطينيين" و"الأراضي المحتلة،" كانت نابعة من استخدام عبارات شائعة، ولا يغير في هذه الحقيقة شيء أن يكون بعض الإسرائيليين يجادلون أن الفلسطينيين ليسوا بشعب، وأن الضفة الغربية، بصرف النظر عن اكتظاظها بالعرب، فإنها تبقى أرض الله التوراتية التي منحها للشعب اليهودي، ولهذا، فإنها لا يمكن أن تكون أرضاً محتلة. كذلك فإنني لم أستطع تجنُّب استعمال بعض الكلمات المناهضة للسامية التي يصادفها المرء في الضفة الغربية. فأنا ربما لن أستطيع إرضاء النظريين المفرطين ولا المتعصبين، كما أنني لم أحاوِل أن أفعلَ ذلك.

أما الملاحظة الرابعة، فهي أنه في الوقت الذي أشاع فيه القليل جداً من ملاحظاتي بعض التفاؤل، فإنها كانت تجربة رائعة أن أُشرِك نفسي في هذا الشأن، وأن أتقابل مع كثير من المهتمين به، وهم في جُلِّهم أشخاصٌ مميَّزون. لقد حاولتُ أن أرقى بنفسي إلى مستوى العدالة المثلى التي ينشدونها، لكن الأخطاء في إدراج الوقائع وفي تفسيرها هي من الأمور التي لا يمكن تحاشيها بالمطلق، لذلك فإنها حيثما ورَدَت فهي من مسؤوليتي وحدي، ومن أخطائي دون سواي. كما أنني أشير إلى أنني قد عمدتُ إلى تبسيط التسلسل الزمني لعمليات التفجير الانتحارية، في ما يتعلق بالعمليات العسكرية في جنين، لأهدافٍ فرضها سياق الرواية، لكنها لم تعدِّل أبداً من تأكيدات الجيش الإسرائيلي على أن هذه العمليات إنما كانت على سبيل الاقتصاص من هذه العمليات التفجيرية.

وبعد أن قلت قولي هذا، لا بد لي من كلمة شكرٍ لأولئك الذين قاموا بمساعدتي.

* * *

ففي البدايات الأولى لهذه الرواية، كنت قد قمت بإجراء مقابلات مع عدد من الأميركيين من ذوي الخبرة الخاصة في السياسات الجيوبوليتيكية المتعلقة بإسرائيل وباقي دول الشرق الأوسط، ومنهم: وولف بليتزر من محطة السي. أن. أن. ومستشار الأمن القومي السابق ساندي بيرغر؛ وجيم بودنر من مجموعة كوهين؛ ووليم كوهين وزير الدفاع السابق؛ والسفير السابق إلى إسرائيل مارتِن إنيك؛ ودان كيرتزر سفير إسرائيل لدى أميركا في ذلك الوقت؛ والخبير بشؤون الإرهاب مات ليفيث؛ وكبير مفاوضي السلام في الشرق الأوسط، السابق دنيس روس؛ وداني سبرايت، وبوب تيرر، ودوغ ويلسون من مجموعة كوهين.

وهناك أميركيون آخرون كانوا قد ساعدوني في تدبيج النواحي القانونية والتحقيقية والأمنية من الرواية: وكيل النيابة المساعد آل جيانيني، ووكيل النيابة مارثا بوريش، ومحامو الدفاع جيم كولينز ودوغ يونغ، والنائب العام الفيديرالي المساعد السابق فيليب هاي مان، أمَّا جَفّ سميث، المحامي العام السابق لوكالة الاستخبارات المركزية، فقد قام بتنويري حول مداخل ومخارج المقاضاة التي تتضمَّن عنصراً يتعلق بالأمن القومي والمعلومات السرية. أما القاضي المنفرد سوزان إيليستون فقد ساعدتني على وجه العموم على التفكير في بعض شؤون التقاضي الشائكة. أمَّا بوب هوغلي من جهاز حماية الشخصيات البارزة في قسم بوليس سان فرانسيسكو؛ وتيري ساموايِ، وهو موظف سابق في البوليس السري؛ وجِف شلانجر من كرول وشركاه؛ وعميل مكتب التحقيقات الفيديرالي السابق ريك سميث؛ وخبير المتفجرات دينو زوغاروف من بوليس سان فرانسيسكو، جميع هؤلاء ساعدوني بتقديم آرائهم حول المسائل الأمنية والتحقيقية. ويذهب شكري الخاص إلى محامي الدفاع ديك مارتِن، وهو مساعد سابق للمحامي العام للولايات المتحدة، وذلك من أجل أفكاره القيمة حول أوجه كثيرة من المسائل القانونية التي جرى عرضها هنا.

كما كان لي حظ تلقي المساعدة من وزارة الخارجية الإسرائيلية التي رتبَت لقاءاتي وسهَّلت زيارتنا الشديدة النفع إلى إسرائيل. كما أتقدم بجزيل الشكر من هاموتال روجيل من وزارة الخارجية، وخاصة دافيد سيجال من السفارة الإسرائيلية في واشنطن، كما أشكر المسؤولين الإسرائيليين الذين تكرَّموا بإشراكي في معلوماتهم، ومن بينهم السفير آلان باكير، والجنرال عاموس جيلاد، والجنرال يوسي كوبروازر، ووزير الإسكان إسحاق هيرزوك، والسفير جدعون ميار من وزارة الخارجية الإسرائيلية، والقاضي إيلياكيم روبنشتاين من المحكمة الإسرائيلية العليا. ولقد كان من دواعي تشريفي القيام بزيارة نائب رئيس الوزراء شيمون بيريز الذي كان قد ترأس الحكومة الإسرائيلية مرتين في السابق.

كما يذهب الشكر الجزيل لعدد كبير من الإسرائيليين الآخرين الذين قاموا بتعزيز معلوماتي، أمثال: عبد علّاوي، رئيس بلدية الغجر المقسَّمة؛ والأدميرال المتقاعد والمُدافع عن السلام آمي آيالون، والمربية سندس بطّاح، والمستوطن الأصولي جيرشون فيرنسي؛ والخبير الأمني والسياسي ميشال هيرزوغ، والكاتب إتغار كاريت، والبروفيسور موشيه موعاز، وداليا رابين من مؤسسة رابين، والبروفيسور آفي رافيتسكي، والصحافي مِيار شاليف، وخبيرة الاتصالات ميرا سيجال، والكاتب المحافظ آريَل ستاف، كما أنني مشبع بالامتنان للروايات الشخصية المؤثرة التي رواها لي الناجون من ضحايا التفجير الانتحاري في حيفا، حيث إن اثنتين منهم لم تخسرا الزوج والولد، لكنهما كنَّ من الناجين من القنبلة نفسها، وهنَّ: رون كارمِت، وراشيل كورين، نوريت ودوران مينشال.

وأخيراً يطيب لي أن أشكر إسرائيليين صارا صديقين لي: رون إيدلهيت، وهو مترجمٌ ودليلٌ رائع، كما أنه خبير آثار، وهو الذي جعل بحماسه ومعارفه إسرائيل التاريخية وإسرائيل المعاصرة يعيشان معاً على سوية واحدة. أما الثاني فهو الدكتور يوسي درازنين الذي لم يكتف بتقديم خبرته فحسب، بل إنه قام أيضاً بالتعليق على مسودَّة الرواية.

وإنني على الدرجة ذاتها من الامتنان إلى الذين ساهموا إلى وضع التجربة الفلسطينية تحت الضوء، سواء في أميركا، أم خلال رحلاتنا إلى الضفة الغربية: أكرم، وهو قائد محلي في جنين؛ نسرين حاج أحمد وزينة صلاحي من وحدة دعم مفاوضات السلام التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية؛ وخضر علمور من وجهاء بلدة عطواني؛ ونضال الأزرق من وجهاء مخيم عايدة للاجئين؛ والدكتوره حنان عشراوي المتحدثة السابقة باسم منظمة التحرير الفلسطينية التي هي الآن عضو مجلس التشريع الفلسطيني؛ وخبير حل النزاعات أمجد عطالله؛ ومحمد أبو حمد قائد منطقة جنين في كتائب شهداء الأقصى؛ وداعية اللاعنف سامي عوض؛ والبروفيسورة وفاء درويش من جامعة بيرزيت؛ وياسر درويش من جامعة بيرزيت أيضاً؛ وفاتن فرحات من مؤسسة السكاكيني؛ وسعيد حمد من بعثة منظمة التحرير الفلسطينية إلى واشنطن؛ والمترجم الحاذق والمراقب والمرشد إبراهيم جابر؛

ورجل الأعمال مجدي خليل؛ والمحامي جوناثان كُتَّاب الذي شاركهم في ملاحظاتهم وخبراتهم عن الاعتقال؛ ورجل الأعمال المستثمِر زاهي خوري؛ والدليل عيسى لوسي؛ ونبيل محمد الذي شرح شرحاً حيوياً تجربته خلال مجزرة صبرا وشاتيلا؛ وعامر رحَّال الذي يقوم على خدمة الأطفال المعاقين في جنين؛ وإياد ردينة من وقفية الأراضي المقدسة؛ والمرشد والمترجم والناشط جوج رشماوي؛ وباسمة زرُّور من جنين؛ وريم الهاشمي من سفارة الإمارات العربية المتحدة التي كانت موحية بشكلٍ لافت في مساعدتي على تخيُّل الشخصيات. ويذهب الشكر أيضاً إلى كريستين أندرسون، وديان جانزِن، وكاتي أوهلر من الفِرق المسيحية الداعية إلى السلام، وقد قمن بتعريفنا إلى قرية عطواني.

وهناك أميركيون كثر ساهموا معي في تكوين شخصية كل من هارولد وكارول شور. كما كانت حاسمة تلك الملاحظات التي قام بتقديمها بنات الناجيات من محرقة الهوكولوست: نادين غرين فيلد بينستوك، وآرلين براير، وكارين شينكا، وسالي كوهين، وإيستر نيندر، وليليان فوكس، وجانيس فريبوم، وجانيت فريدمان، وسوزان جاكوبسن، وأليس مِيرَز، وميشال ريغرز، ومارشا روزنبرغ، وروث شيفلين، ودافيد كاهان، وهو من الناجين من المحرقة، وقد كان كريماً وشجاعاً في قيامه برواية تجربته الشخصية. كما أشكر مساكِنتي الدكتورة نانسي كلير التي أغنت السرد باقتراحها أن عليه أن يتجه إلى المحرقة ونتائجها؛ وقد كانت تقوم بقراءة كل فصلٍ بعد انتهائي من كتابته، كما قامت بمرافقتي إلى إسرائيل، وإلى الضفة الغربية حيث جعلت منها خبراتها كمستشارة دولية لشؤون التعليم مراقبة لا تقدر مساهمتها بثمن.

وقد أجريت الكثير من المطالعات بما فيها: "الأصوات المحتلة" لمؤلفته واندي بيرلمان، و"تاريخ إسرائيل" لمؤلفه هاوارد ساشار؛ و"السلام المفقود" لمؤلفه دنيس روس؛ و" حقل قايين" لمؤلفه مات رِيسْ؛ و"السجين رقم 83571" لمؤلفه ساموئيل دون؛ و"شاهدتُ رام الله" لمؤلفه مُريد برغوثي؛ و"الجدار الحديدي" لمؤلفه آخي شلايم؛ ومقالات وكتابات عائدة إلى هلال هالكين، ومات ليفيث، وميشال إيزنستاد، ونايري زيلبر، وباتريك كلاوسن، وأكيفا إيلدار، وجيمس بينيت، وأرسكين شيلدرز، وغيلين سيجيل، ونبيل أحمد، وجون كيفنر، وجيل دره، وجيم الزغبي، وبني موريس. كما إنني قمت بمشاهدة الأفلام الوثائقية التالية: "المتهم" الذي أنتجته هيئة الإذاعة البريطانية؛ "أطفال شاتيلا" إخراج مي مصري؛ "جنين، جنين"، وشريط بثته محطة PBS عن مستوطني الجناح اليميني الإسرائيلي.

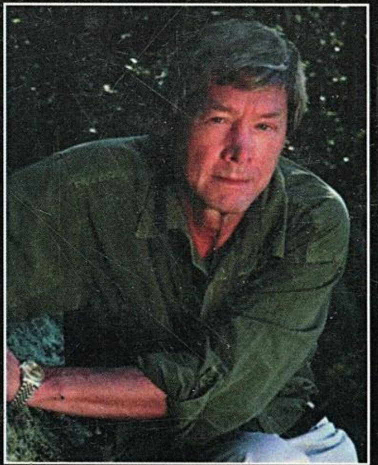
هذا وقد استفادت المسوَّدة نفسها من النصائح التي قدمها عدة قرّاء متبصِّرين أمثال: مساعدتي أليسون بورتر ثوماس التي أدت أفضل عمل ممكن لها بالتعليق على كل صفحة؛ وفْرَد هيلّ عميلي الرائع الذي قام بتشجيعي منذ البداية؛ والناشر جون ستيرلينغ رئيس "هنري هولت"، الذي آمن بالفكرة وقدم لي المساعدة في تقرير شكل الرواية، كما

أنه شاركني الاعتقاد أن الرواية الذائعة الانتشار يمكنها أن تكون ممتعة ومنوِّرة في وقتٍ واحد - حتى وهي تتصدى لأصعب المواضيع.

وأخيراً، هنالك آلين دِيرشويتز وجيم الزغبي، اللذين قد أهديتُ إليهما هذا الكتاب. فكما فعَل في العديد من رواياتي الأخرى، فإن آلين قد أعطاني نصيحة نقدية منذ البداية المبكرة للرواية، كما ساعدني في وضع إطار للبحث المستفيض الذي تبعها، كما أنه كان قد رشَّح لي خبراء آخرين لكي أجري مقابلاتٍ معهم. وإلى درجة تقع في الأهمية نفسها، كان آلين قد أفضى إليَّ بقلقه العميق على إسرائيل ومستقبلها في إطار محادثاتنا العديدة على مرِّ السنين، ثم قرأتُ وقرأتُ كتابه الصريح بعنوان: "قضية إسرائيل"، وذلك من أجل أن أضع نفسي في صُلب التناقضات المحيطة بإسرائيل والفلسطينيين. وبدون توق آلين وأريحيته فإنني أشكُّ في أنني كنت سأستطيع استيعاب المواجهة التي واجهني بها جيم الزغبي، والتي تقول: "لِمَ لا تتناول المعضلة الإسرائيلية الفلسطينية؟" - كما أنني ربما ما كنت لأتجرأ على الشروع في كتابة هذا الكتاب من الأساس.

أما الدكتور جيم الزغبي فهو بالطبع رئيس المؤسسة العربية - الأميركية، وهو مُدافعٌ موهوب عن تحسين التفهُّم للأميركيين العرب وسواهم من المتحدِّرين من أصول متفرقة من الشرق الأوسط. لقد أمضى جيم عدة ساعات وهو يشاركني أفكاري على أفضل ما أتمناه من الصبر والأريحية، كما أنه قام بتقديمي إلى أولئك الأشخاص في الولايات المتحدة والضفة الغربية من الذين باستطاعتهم القيام بمساعدتي على كتابة هذا الكتاب بالشكل الذي كُتب به؛ كما أنني قمت في نهاية الأمر بإشراكه معي عن طريق تلقي نُصحِه حول المخطوطة نفسها. وإني لأرجو أن تكون نتيجة هذا العمل جزيلة بالنسبة لكلٍّ مِن آلين، وجيم، بالطريقة الوحيدة التي أستطيعها، ألا وهي سردُ حكايات الناس على الطريقة الفضلى التي تسهِّل المشاركة الإنسانية بين اليهود والعرب العالقين في دوَّامة الصراع المأساوي، كما في وسط العوائق التاريخية، والتجارب المريرة، والخلافات الدينية، والموانع السيكولوجية التي تفرق بينهم. أمَّا ما أنا متأكِّدٌ منه، فهو أنني محظوظ لمجرَّد محاولتي القيام بذلك.

المنفى



رواية مشوّقة كتبها أحد الروائيّين الأكثر واقعيّة في أميركا تسرد قصّة محام وجد نفسه في موقف الدفاع عن امرأة يحبّها متّهمة بالتآمر لاغتيال رئيس وزراء اسرائيل.

يكاد "دافيد وولف" يبلغ قمّة السعادة: فهو محام لامع من سان فرانسيسكو، زفافه وشيك، وله الأفضلية للترشّح لعضويّة الكونغرس ... لكنّ رحلة غير متوقّعة بدأت حين رنّ جرس الهاتف وسمع صوت "هناء عارف"، المرأة الفلسطينية التي أقام معها علاقة عاطفية حين كان طالباً في معهد الحقوق. في اليوم التالي، اغتال شخص انتحاري رئيس الوزراء الإسرائيلي أثناء زيارته إلى سان فرانسيسكو، وسرعان ما وجّهت أصابع الاتّهام إلى "هناء" باعتبارها الرأس المدبّر المخطّط لهذه الجريمة. فهل سيتولّى "دافيد"، هذا المحامي اليهودي، الدفاع عن "هناء" التي قد تثبتت إدانتها، أم يرفض طلب المرأة الوحيدة التي لن ينساها أبداً؟

هذه القضية الأصعب في حياة "دافيد" المهنية وهي تتطلّب منه الغوص في حياة "هناء عارف" وزوجها الفلسطيني المناضل، اللّذين قضيا معظم حياتهما في المنفى. في نهاية المطاف، أرغمه التحقيق على السفر الى إسرائيل والضفة الغربية حيث أدرك بعد أن واجه سلسلة من الصدامات الغريبة أنّ المظاهر خادعة.

تبلغ القضية ذروتها مع إجراء محاكمة قوية ومروّعة ترافقها تشعّبات دولية.

رواية نادرة تسلي القارئ وتكشف الكثير من الخفايا. وهي في الوقت نفسه رواية معقّدة تجمع ما بين الخيانة والخداع، وقصة حبّ متنقلة ورحلة إلى عمق الحياة السياسية المميتة في الشرق الأوسط.

إنّها بالفعل أروع ما كتبه ريتشارد نورث باترسون.

9 789953 277981